هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق (الجاثية/٢٩)

وعي القرآن المبين

الفهم الحيوي للقرآن

المجلد الرابع

من الجزء (٢١ - ٢٥) من القرآن الكريم

من سورة السجدة (٣٢) إلى نهاية سورة الجاثية (٤٥)

بقلم الباحث

مكي قاسم البغدادي

مختص بالدراسات القرآنية

وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ

الأنعام/١٥٥

وعي القرآن الميسر

الفهم الحيوي للقرآن

المجلد الرابع

من الجزء (٢١-٢٥) من القرآن الكريم

بقلم الباحث

مكي قاسم البغدادي

يُعنى بالدراسات القرآنية

قال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ البقرة/٢٣٥

وَعْيُ الْقُرْآنِ الْمُيَسَّر

الفَهْمُ الحَيَوِيُّ لِلقُرْآن (ج٤)

قال تعالى : ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ فاطر/١٨

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ الإسراء/٤١

وعي القرآن الميسّر

الفَهمُ الحَيَويُّ لِلقُرآن

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ يونس/٥٧

عن الإمام الرضا (ع) : (مَنْ ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هُدي إلى صراط مستقيم) بحار الأنوار٩٢/٣٧٧.

المجلّد الرابع

من الجزء (٢١-٢٥) من القرآن الكريم

من سورة السجدة (٣٢) إلى نهاية سورة الجاثية(٤٥)

بقلم الباحث

مكي قاسم البغدادي

يُعنى بالدّرَاسَات القُرآنيَّة

السِّيْرَةُ الذَّاْتِيَةُ الْمُخْتَصَرَةُ لِلْكِتَاْب (هويةُ الكتابِ)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

–العنوان (**وَعْيُ الْقُرْآنِ الْمُيَسَّر**) **بمعنى** : كما أنّ القرآنَ مُيَسّرٌ نصّاً لكلّ النّاس بقوله ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ القمر/٣٢ ، فالمطلوب والمرغوب أن يكون تفسيراً مُيسَّراً لكلّ النّاس أيضاً ، مُيسَّراً في معناه ومبناه ، وعميقاً في مغزاه وواسعاً في دلالاته ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟! أي متذكّر ، ومعنى الميسَّر غير معنى المختصر ، أي تفهّم معنى الآية الكريمة بشكل عام والتركيز على المهم وبأسلوب حيوي سهل الفهم ، وبلا تطويل ممل ولا اختصار غير مستوفٍ، إنّه الفهم الحيويّ للقرآن يبعث الحيويّة والحياة في النّفوس والذي يشرح الصدور ويطمئن القلوب ، الذي يعتمد خير الكلام ما قلّ ودلّ ولا يمل ولا يبتعد عن القصد قال تعالى ﴿**وهَذَاكِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فاتَّبِعُوهُ**﴾ الأنعام/١٥٥.

–**المؤلف** : الباحث مكي قاسم البغدادي (يُعنى بالدراسات القرآنية) .

– المجلّد الرابع : يحتوي من الجزء ٢١ –٢٥ من أجزاء القرآن الكريم

من سورة (السجدة) إلى نهاية سورة الجاثية

–عدد الصفحات المجلّد الرابع: (٧٨٨)

–قياس الصفحة : ١٧ × ٢٤ سم

–الإخراج الفني : المهندس أحمد كاظم العامري

–سنة الطبع ٢٠٢٠ –الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة ومضاف لها مصادر البحث

الناشر :بساتين المعرفة

طباعة – نشر – توزيع / كتب : تراثية ، علمية ، دينية

العراق - بغداد – شارع المتنبي

سوق السراجين قرب مكتبة دار الكتب العلمية

mob: 07902278551

eimal: basatenmaraf@yahoo.com

الرقم الدولي: ISBN 978-9922-20-734-6

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٣١٠٩ لسنة ٢٠١٨

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

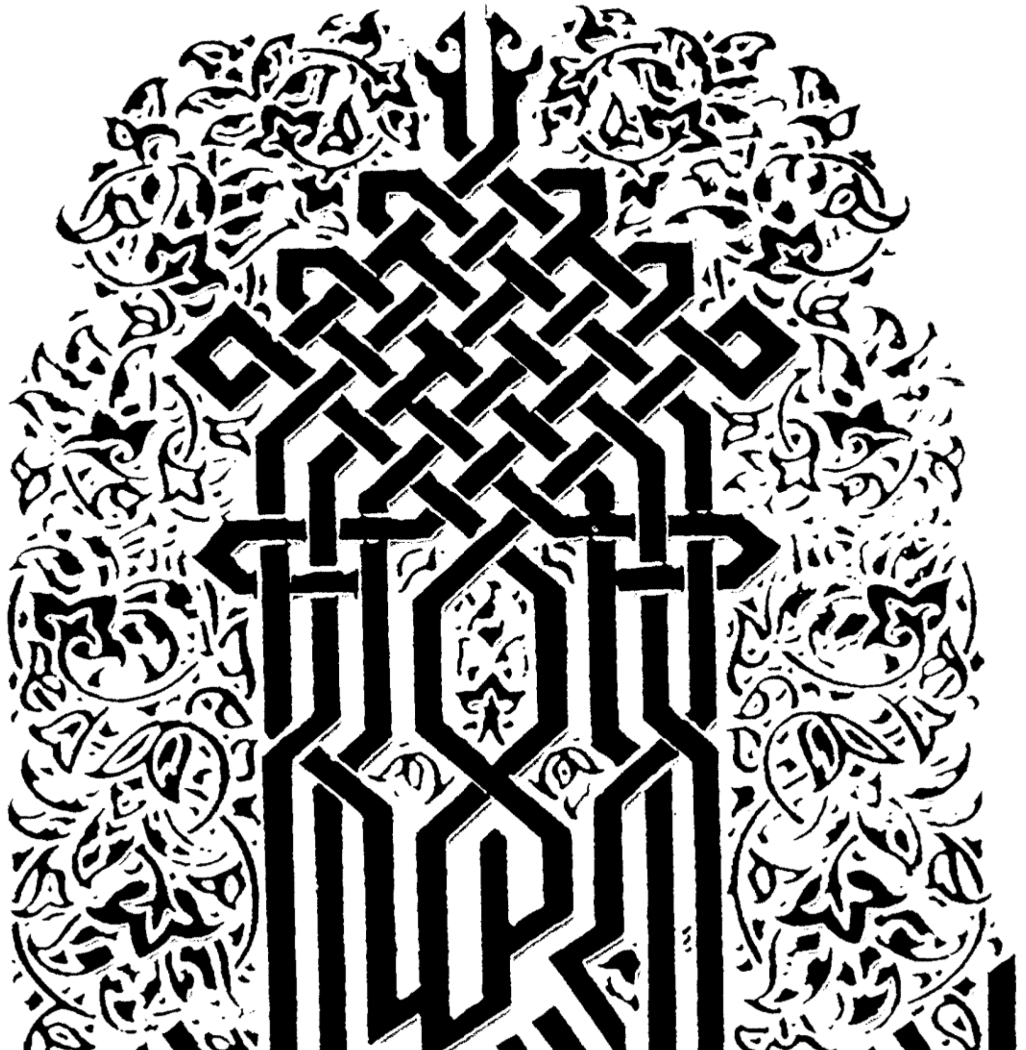

قال تعالى :

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ النساء/٨٢

مقدمة أستاذ اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين

الحمد لله وصلوات ربنا وسلامة على سيدنا مُحَمَّد وآله الطاهرين

الحمد لله الذي منّ علينا إتمام هذا المجلد من **(وَعْيُ الْقُرآنِ المُيُسَّر)** تدقيقاً لغوياً، وجدناه يستند على منهج سليم في التدبّر الجميل للنص القرآني قال تعالى (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) النساء/٨٢، فكان منهج البحث يعتمد كيف نعي النص؟ وكيف نتفاعل معه؟، ويكون الكتاب متوازناً، لا هو مختصر لا يستوفي المعنى، ولا هو مطوّل فيكون للخواص والنخب، **وأنما كان ميُسَّراً بموضوعية واعتدال، ويعتمد المنهج الحيوي المعاصر، الذي تستمتع النفس بقراءته،** ويستند الأسلوب الأدبي الجذّاب، الذي يشوّق النفس بمتابعته، والذي قاعدته الدلالة القرآنية والعقلية والنقلية والواقعية التي لا تتعارض مع نصوص القرآن، مستعيناً في شرح معنى الآية الكريمة بآيات قرآنية آخرى تفتح آفاق النص وايحاءاته، ليكون أفضل وسيلة لفهم القرآن، أن يفسر القرآن بعضه بعضاً، مستعيناً بأحاديث النبي وآله (ع) الصحيحة التي لا تتعارض مع آيات القرآن. ويعتمد **(وَعْيُ الْقُرآنِ المُيُسَّر)** على ما يلي: ١- المنهج العالمي للقرآن **(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)** التكوير/٢٧، ٢- المنهج الحيوي، والأسلوب الأدبي المشوّق، الذي يوحّد ولا يفرّق، ٣- يعتمد الأحاديث الصحيحة، ٤- يعتمد البحث على التيسير والتعميق بلا تبسيط ولا اختصار، فكان ميسّراً شفافاً سهل الفهم بعيداً عن التعقيد، وميسّراً بطريقة فنية فريدة بعيداً عن التسطيح. فيكون **(القرآن ميزان دقيق: فمن وفّى، استوفى).**

اللهم اجعلنا ممن يتذكّر فتنفعه الذكرى، وممن يستمع القول فيتبع أحسنه
وآخر دعوانا **(أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** يونس/١٠

أستاذ اللغة العربية

ضياء الجادري

ترتيبها ٣٢ سُورَةُ السَّجدَة آياتها ٣٠

من مقاصد السورة:

مكية، وهي كسائر السور المكيّة تعالج أصول العقيدة الإسلامية، الإيمان بالله واليوم الآخر والرسل والرسالات والبعث والنشور، والمحور الذي تدور عليه السورة هو البعث بعد الفناء. تبتدئ السورة الكريمة بدفع الشك عن القرآن الكريم، معجزة الرسول (ص) الكبرى بروائع الحجة، ثم تحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية في الكائنات العلوية والسفلية، وختمت السورة بالحديث عن يوم الحساب وما أعدّ الله فيه للمؤمنين من النعيم، وما أعدّه للمجرمين من العذاب الأليم، سميت (سورة السَّجدة) لما ذكر تعالى فيها من أوصاف المؤمنين الذين إذا سمعوا آيات القرآن (**خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**)١٥، **فضلها**: عن الإمام الصادق (ع) : (**إنّ العزائم أربع، العلق، والنجم، سورة السّجدة، فصّلت**) الميزان١٦ص٢٥٤، عنه (ص): (**مَنْ قَرأ سُورَة السَّجدة فِي كُل لِيْلَةِ جُمعَة أعطَاهُ الله كتَابَهُ بيمينهِ وَلم يُحاسَبْ بمَا كَانَ مِنهُ، وَكَانَ مِنْ رُفَقْاءِ مُحمَدٍ (ص) وأهلِ بِيْتِهِ (ع)**) مجمع البيان٥ص٧١-٧٢، **ملاحظة**: هذا الفضل بشرطه وشروطه، والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿الٓمٓ﴾

تقرأ (**ألف ، لام ، ميم**) الحروف المقطّعة للتنبيه على إعجاز القرآن الذي أفحم العلماء والأدباء والفصحاء والبلغاء، وهو مؤلف من هذه الحروف الهجائية وهي في متناول أيدي الناطقين بالعربية، وهم عاجزون أن يؤلّفوا منها كتاباً مثل القرآن أو بعضه في الفصاحة والبلاغة، وهذا دليل على أنه تنزيل الله الحكيم العليم، وأنه دستور للبشرية أجمعين.

٢ - ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ**) هذا الكتاب هو القرآن الكريم المنزل عن طريق الوحي إلى النبي مُحَمَّد (ص) (**لَا رَيْبَ فِيهِ**) لا شك فيه، **والريب**: أقبح الشك، في الموارد التي لا ينبغي الشك فيها، لذلك القرآن لا شك فيه عند أهل العلم، ولا شك ولا شبهة فيه إلاّ عند الجاهل والكافر المعاند (**مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) كائن من عند الله رب العالمين، رب العوالم المخلوقة كلها العاقلة وغير العاقلة، وكفى بإضافته إلى الله سبحانه شرفاً وجلالاً وتكريماً لهذا الكتاب ذي

الأهمية البالغة. **والرب من التربية:** أي رباهم بنعمته ومن أعظم ما رباهم به بإنزال لهم هذا الكتاب القيّم الهادي للتي هي أقوم، الذي فيه كل ما يصلح أحوال الناس كافة، ويتم أخلاقهم، فهو دستور حياتهم، وهذا الكتاب النموذجي المميز من صنع الله لا من صنع الإنسان، وهذه حقيقة كبرى لا شك فيها.

فائدة: ١- **سؤال:** كيف تصف الآية هذا الكتاب لا ريب فيه؟ **الجواب:** تتحدث الآية عن أن حقانية القرآن وما فيه من معارف وعلوم لا شك فيها ولا شبهة، وليس في القرآن ما يوجب الريبة، وهو مطابق للعلوم الحديثة، ومنسجم مع الفطرة السليمة، ويرسم المستقبل الزاهر، وهو منهج حياتي عملي حركي واقعي مؤثر لأنه نزل من خلال حركة الواقع، **ولا تتحدث الآية عن أن أحداً لم يشك في القرآن،** وإن كان قد ارتاب فيه عدد من الخلق لا يعتد بهم لعدم علمهم به، لأنه ليس بموضع شك، وهو يعالج الشك، لمن علم وأحاط به، ٢- **(لَا رَيْبَ فِيهِ) إنّ كل آية وكل سورة تنبض بالإعجاز في هذا القرآن،** وتؤمن بالقوة الخفية المؤثرة المودعة في سياق هذا الكلام، وكلما ينفتح القلب وينضج العقل ويقوى الإدراك، ترتقي الأحاسيس للاستجابة لمنهج القرآن، مادامت الفطرة سليمة لم تتلوث، مما يجزم بأن هذا القرآن صنعة ثمينة غير بشرية على وجه اليقين، وأيضاً محتوى هذا الكتاب شاهد بنفسه على صحّته وأحقيّته، وأيضاً بمقدار ما ينفتح المؤمن على القرآن ويتدبّر آياته، ينفتح القرآن عليه فيعلّمه ما لم يكن يعلم، ويزيل عنه كل شك.

وكأن القرآن كائن حي، وقائد نموذجي مؤثّر له القيادة المركزية على القلوب والمشاعر، ويتمكن من التمييز بين الناس فيعطي لكل ذي حق حقه، فيلعن هذا، ويهدي ذاك. كل فرد بما يستحق حقّاً وصدقاً! كقوله (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) النساء/٨٢، **وعن الإمام زين العابدين** (ع) (آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنُ الْعِلْمِ ، فَكُلَّمَا فَتَحْتَ خِزَانَةً فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ فِيهَا) البحار٩٢/٣١٦.

٣ - ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ) الكلام استنكاري، **افتراه:** اختلقه، ألّفه، الضمير في **(افْتَرَاهُ)** يعود على كفار قريش، **المعنى:** **(أَمْ يَقُولُونَ)** بل يقولون اختلق مُحَمَّد القرآن وألّفه من عند نفسه وكذّب على الناس، ويكذبونه عناداً ومكابرة وتحدّياً، وهذا من أكبر الجهل على إنكار كلام الله، ورمي مُحَمَّد (ص) بأعظم الكذب، وهو المشهور بالصادق الأمين ينفي هذه الكلمة الظالمة، وطبيعة هذا الكتاب البلاغية تنفيه، ولا تدع مجالاً للريب والتشكك، كان المفروض أن يشكروا مُحَمَّداً على هذا الفضل بدل من أن يضمروا له العداء وينسبوه إلى الكذب، وقد ردَّ الله عليهم فقال

(بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ) فما هو من عندك، إنما هو من عند ربك، بل هو الحق وكلام الصدق ذو الحجة البالغة، المنزلة من ربك ليكون مصدر هداية ورحمة للناس كافة، وهناك الكثير من أقوال الغربيين المنصفين عن عظمة القرآن، وأكتفي بقول **(هيرشفيلد)** **(ليس للقرآن مثيل في قوة إقناعه وبلاغته وتركيبه، وإليه يرجع الفضل في ازدهار العلوم بكافة أنواعها)** جريدة أخبار اليوم المصرية سنة ١٩٧٢، **(الْحَقُّ)** بما في طبيعته من صدق مؤثر لمطابقته لما في الفطرة السليمة من الحق الأزلي لسعادة الإنسان، الحق فيما يجدون أنفسهم في تفاهم مع كل ما حولهم في هذا الكون والكائنات، ليتنوَّروا بأنواره فيهتدوا بهداه، ولئلا يلتفتوا إلى غيره فيضلوا، ولا يستأنسوا بغيره فيخسروا **(لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ)** ما أرسلنا إليهم من رسول نذير قبلك في الفترة الكائنة بين عصر عيسى (ع) ومُحَمَّد خاتم الأنبياء (ص) والتي تقدر بـ (٥٠٠) سنة تقريباً كقوله **(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ)** المائدة/١٩، لم يرسل الله سبحانه رسولاً إلى العرب قبل مُحَمَّد (ص) وقد أنزل الله هذا الكتاب الحق على النبي الخاتم (ص) لينذرهم به ويلقي الحجة البالغة عليهم. **(لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)** **لَعَلَّهُمْ**: لعلّ للترجّي، وإذا كانت من الله تعالى بمعنى الثبوت، أي ليهتدوا إلى منهج الله المستقيم بتلك الأدلة الواضحة بإنذارك، فهدايتهم مرجّوة بهذا الكتاب الهادِ، لما فيه من الحق المؤثّر الذي يخاطب القلوب والفطرة، وكل فرد يهتدي بمقدار استعداده، باستثناء من لا يكون له استعداد أصلاً كالمعاندين.

فائدة: ١- **(مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ)**

كيف لم يأتهم نذير والقرآن يقول **(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)** فاطر/٢٤، كل أمة لها نذير يعمل بمقدار وظيفته، وهمّته على قدر مهمته، ومسؤوليته على قدره وتكليفه، قد يكون محدود الصلاحية في بلاغه وفي مكان محدود وزمان مؤقّت، وقد لا يلزم حضوره بنفسه في كل مكان، بل يكفي أن يبلّغ رسالة الله بوضوح كقوله **(فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)** النحل/٣٥، وقال **(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)** الرعد/٧، لكل شعب لهم من يزرع في نفوسهم بذرة الهداية وهو الهادي، وكل إنسان مؤمن مفكّر هاد بقدره وقدرته وظروفه وتكليفه، وعلى الأمة أن تستجيب لنداء هذا الهادي، والمراد بقوله **(مِنْ قَبْلِكَ)** أنه قبلك لم يأتهم نبي بدعوة عظيمة وعالمية وعلنية ومن أولي العزم، لا أنه لم يأتهم أي نذير قط، ٢- إذا تعوّد الإنسان على الكذب فتراه يتعامل حتى مع الصدق والصادقين بطريقة التكذيب، فإنه لا يرى شيئاً صادقاً لذلك لا يقدّس الحق عندما يراه (وَالْذِيْ لا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاْطِلُ) وما على الرسل هداية الناس، وإنما عليهم البلاغ المبين كقوله (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥.

٤ - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا) هذه هي آثار إلوهية الله سبحانه ودلائلها، أوجدهما وأبدعهما وأحكم صنعهما وكل ما بينهما من عوالم وكائنات متنوعة **(فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)** أي قدّره في ست مراحل زمنية من مراحل التكوين، وهو كناية تشبيهيةَ عن الأطوار أو الدفعات المختلفة، وليس المراد اليوم المعروف ٢٤ ساعة، لأنه قبل خلق السماوات لم يكن ليل ولا نهار ولا أيام، أي لم يكن زمن في ذلك الحين، ولو يشاء الله لخلقهما بلمح البصر بكلمة **(كُنْ فَيَكُونُ)** ولكنه شاء أن تكون **(فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)** تقريبية، كما يتخلق كل مخلوق في زمن محدد من النطفة إلى الوليد، ومن البذرة إلى الثمرة، فلكل مخلوق زمن يتم فيه تكوينه، وأراد الله سبحانه أن يعلّم عباده الصبر في إنجاز الأعمال في الوقت المناسب واتّخاذ الأسباب، والتأنّي في الأمور واتقان العمل وإعداد لكل شيء عدته المناسبة، وأن التفكير في تدخّل المعاجز الخارقة عن قدرة البشر حالة استثنائية وليست أصلاً في المسيرة البشرية، وأن يتقدم العمل على القول، أو يتطابق العمل مع القول، ولا يخالف العمل القول **(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)** ثم سيطر واستولى على العرش أي على الملك، بتدبير الموجودات وحاكمية المخلوقات وإعدادها لتؤدي دورها بأنظمة مقدرة ومدبرة ومتقنة **(ثُمَّ اسْتَوَى)** **(ثُمَّ)** لا يمكن قطعاً أن يكون للترتيب الزمني، وإنما هو للترتيب المرحلي التنظيمي، لأن إرادة الله **(كُنْ فَيَكُونُ)**

كقوله **(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)** يس/٨٢، استواءً يليق بجلال الله وكماله المتعال، والاستواء على العرش رمز وكناية على حكمه وسيطرته على كل العالم، ولاستعلائه على الخلق كله بالقهر **(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)** الأنعام/٦١.

وجعل كل المخلوقات على نظام دقيق الذي قدره لها، وتقدم في الأعراف/٥٤ **(مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ)** من قريب وناصر ينصركم ويتولى تدبير مصالحكم ويدفع عنكم عذاب الله **(وَلَا شَفِيعٍ)** ولا معين، أي وما لكم من دون الله حتى واسطة مؤثرة تتوسط لكم عند الله، وتشفع لكم يوم القيامة لجلب الخير لكم ودفع العذاب عنكم، إن هو عاقبكم على معصيتكم إياه، لأن الشفاعة لا تكون إلا باذن الله كقوله **(مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ)** يونس/٣، عن النبي (ص) **(الشَّفَاعَةُ لاَ تَكُونُ لِأَهْلِ الشَّكِ وَ الشِّرْكِ، وَلا لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ، تكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيد)** البحار٨ص٥٨ **(أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)** أفلا تتعظون بمواعظ الله ونصائحه؟ أفلا تتدبرون فيما قلناه فتؤمنون وتستقيمون؟ **تذكر الله**: هو الشعور بقربه والاتجاه إليه وحده دون سواه.

فائدة: ١- **الفرق بين التذكّر والتفكّر**: إنّ التفكّر عند فقدان المطلوب لاحتجاب القلب بالصفات النفسانية، ولكنه بحاجة إلى رفع الحجب عن القلب بالتفكّر والتأمّل، وهو مقدمة للتذكّر، **أما التذكّر**: فهو عند رفع الحجاب عن القلب، والرجوع إلى الفطرة الأولى، فيتذكّر ويقر ما انطبع عليه في الأزل من التوحيد والمعارف، فكلُّ تذكّرٍ تفكّر، وليسَ كلُّ تفكّرٍ تذكُّراً .

٥ - ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾

(من الآيات المتشابهة) **(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)** يدبّر فعل مضارع للدلالة على أن التدبر والتدبير الإلهي دائم ومستمر ما دامت السماوات والأرض وليس تدبيراً مرحلياً مؤقّتاً، **والتدبير**: هو التنظيم والتقدير الموزون، **وتدبير الأمر**: النظر في دبر الأمر ونهايته وأعماقه وعاقبته، ليجيء محمود الغايات، وهو ما يقضي الله من خلال أعمال الناس في الأرض، **وتدبير الأمر** قضاؤه وإمضاؤه والأمر بإنفاذه وهو من سلطان عالٍ متمكّن، والتعبير **(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ..)** يرسم مجال التدبير منظوراً واسعاً دقيقاً شاملاً **(مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ)** ليلقي على الحسّ البشري الظلال التي يطيقها ويملك تصوّرها ويخشع لها، وإلاّ فمجال تدبير الله أوسع وأشمل من السماء إلى الأرض **(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ)** يدبر كل أمر ويقدره بحسب إرادته ومشيئته فيما بين السماء والأرض كقوله **(الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)** طه/٥٠، ولا يهمل شأن أحد من المخلوقات العاقلة وغير العاقلة، **عن ابن عباس**: أي ينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض كقوله **(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)** هود/١٢٣، من وجود الأشياء إلى وقت فنائها، **والتدبير**: كناية عن الرفعة والسيطرة والقدرة والتكامل في إدارة ملكه، **بمعنى** هو وحده الخالق البارئ المصوّر والمدبّر، فيسعُد قومٌ ويشقى آخرون، ويغني قوياً ويفقر آخرين.. وهكذا تكون حركة الحياة الواقعة خافضة رافعة **(ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)**.

(ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ) يصعد ويرتفع إليه أو يرفع بإذنه حين يشاء، **عروج الأمر إلى الله**: هو الرجوع إليه على الصورة التي قضاها، ويعلمه الله على الصورة التي وقع عليها، فكل الأمور تصدر عن الله تعالى ثم تعود إليه كقوله **(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)** الشورى/٥٣ ليحكم بحسب أمره فيه بحكمة ومصلحة **(فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ)** في يوم عظيم حاسم ونهائي هو يوم القيامة، ومقداره وطوله **(أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)** من أيام الدنيا **(أَلْفَ سَنَةٍ)** كناية عن طول الأمد وشدة الأهوال، وهو أطول وأثقل يوم على العصاة والمجرمين.

بمعنى: أن العمل الذي يستغرق في الآخرة عدة ساعات، يحتاج في الدنيا إلى ألف سنة مما يعدّه البشر، خمسمائة عام نزوله وخمسمائة عام صعوده، والمراد بـ**(أَلْفَ سَنَةٍ)** هو الزمن المتطاول المديد، وليس المقصد منه حقيقة العدد وحصره به، إذ هو عند العرب للتمثيل في منتهى المراتب العددية وأقصى غاياتها، وأيضاً إنّ لليوم مراتباً وأحكاماً في الزمان له معناه بحسب مورده في السياق القرآني، وقيل المراد بـ **(أَلْفَ سَنَةٍ)** إن مسافة الصعود والنزول من وإلى السماء الدنيا في يوم واحد للملك، ومقداره مسيرة ألف سنة لغير الملك من بني آدم، وإلى السماء السابعة مقدار مسيرة **(خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)** **فائدة**: ١- سؤال كيف نفهم قوله **(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)** المعارج/٤ وقال في هذه الآية **(فِي**

يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) وقوله (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) الحج/٤٧ **الجواب:** في الحديث **(إنّ في القيامة خمسين موقفاً، كل موقف مثل ألف سنة مما تعدون، ثم تلا هذه الآية)** كنز الدقائق٨/٦٤، وتتحدّث هذه الآية عن عروج الأمر، وتلك الآية تتحدث عن عروج الملائكة والروح إليه، وكل عروج له هدفه المرسوم، وكل منهما لبيان الكثرة والزيادة، وكل موقف له مدة طويلة، وقيل: **معنى (خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)** أن يشتد على الكافرين العذاب حتى يكون مثل خمسين ألف سنة في الطول، ويسهل على المؤمنين حتى يكون كقدر صلاة مكتوبة صلّاها في الدنيا، فقيامة كل واحد على حسب ما يليق بمعاملته، ففي الحشر عدة مواقف بحسب الأشخاص وأعمالهم ومقاماتهم، ٢- **تشير الآية إلى أن الزمن في السماء يختلف عن الزمن في الأرض،** وأن في العالم الآخرة ينتهي عنصر الزمن ويتوقّف، وإذا اختلف عنصر الزمن في الآخرة اختلفت الأعمال وكيفية إنجازها فيها، فالعمل الذي يستغرق يوماً واحداً في الآخرة، يحتاج في إنجازه إلى الف سنة في مقادير الدنيا، وإذا اختلف الزمن في الآخرة فقد اختلف نظام كل شي تبعاً له، لذلك نبهنا الله في كتابه عدة مرات كقوله **(وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)** الضحى/٤، وقد تحمل الآية **معنى** حركياً فخماً عميقاً: عندما نقول رُبَّ عمل صالح عظيم مميز واحد، يعادل عند الله عمل الثقلين، كما قال رسول الله (ص) يوم الخندق (إنَّ ضَرْبَةَ عَليّ لعَمْرِ بنّ وُدِ العَامِري تُعَادل عِبَادَة الثَّقلِين) لأنه (بَرَزَ الإيمَانُ كُلّهُ إلى الِشّرْكِ كُلِّهِ).

٦ – ﴿ ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

(ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) (ذَلِكَ) اسم إشارة للتفخيم، أي ذلك الله الذي يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض سواء أكان كبيراً أو صغيراً، ظاهراً للعيان أو خفياً عنها **(عَالِمُ الْغَيْبِ)** يعلم ما غاب من الأمور عن المخلوقين، وعالم الشهادة **(وَالشَّهَادَةِ)** ما يشاهد لهم ويحضر ويظهر منها، والذي يدبّر الأمور في كل شيء، هو عالم الغيب وعالم الشهادة على السواء، المطلّع على ما يغيب عن أبصاركم، وما تكنّه الصدور وتخفيه النفوس، وعالم بما شاهدته الأبصار **(الْعَزِيزُ)** الذي لا يقهره شيء، والقوّي القادر على ما يريد كقوله **(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)** يوسف/٢١ والعزيز بقدرته وسلطانه **(الرَّحِيمُ)** بعباده وخلقه في تدبير أمورهم معاشاً ومعاداً وهداية، وسعت رحمته كلَّ شيء كقوله **(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)** الأنعام/٥٤، **وفيه إشارة:** إلى أنه تعالى يراعي مصالح الخلق تفضلاً وإحساناً لا إيجاباً، وينبغي أن تقترن هذه العزة والقوة القاهرة باللّطف والرحمة لا الخشونة والغلظة، وَقَدَّمَ عالم الغيب على عالم الشهادة، للإشارة إلى أن علم الله علم مطلق لا تحدّه حدود، فيستوي لديه الظاهر والخفي، وحقائق

الأشياء كلّها واقعة في سلطة هذا العلم الحقيقي الكلّي الشامل، كقوله (وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) طه/٩٨.

٧ - ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾

(**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**) (**الَّذِي أَحْسَنَ**) أي أتقن وأحكم وقدّر ونظّم كل شيء أوجده وخلقه ونوّعه من الذّرة الصغيرة إلى المجرّة الكبيرة، ومن العاقل وغير العاقل، أحكمه وأتقنه وأعطاه كل ما يحتاجه بحيث تتلاءم أجزاء كل شي بعضها مع البعض، وتتلاءم الأشياء مع الهدف الذي خُلِقَتْ من أجله، من الأزل إلى الأبد مع تدبير الله عز وجل، كقوله (**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**)الفرقان/٢ وقوله (**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**) المؤمنون/١٤، أي أحسن الصانعين، الأحسن على الاطلاق، الذي جعل كل شيء في خلقه حسناً، على ما يقتضيه استعداده وتوجيه الحكمة والمصلحة فيه، فهو الأحسن من جميع الجهات، لو علمت هذا علمياً لتيقنت قوله (**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**) النمل/٨٨، **وفي هذا دلالة:** على أن الكفر والقبائح لا يجوز أن يكون من خلقه ومن صنعه سبحانه، وإنما باختيار الإنسان، ودلالة أخرى: فلا يعقل أن تكون هذه العوالم المتنوعة المخلوقة حصلت صدفة كقوله (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) فصلت/٥٣.

وبهذا التدبّر العلمي يفتح الله سبحانه باب العلم على سعته عن طريق التفكّر بمخلوقاته، فلا تتدبروا في ذاته وإنما تدبّروا في كافة مخلوقاته، **ودلالة ثالثة:** يدل الخلق الأحسن لكل شيء على قدرة الصانع وعظمته في كل شيء كقوله (**مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ**) الملك/٣، حتى السُّم في الحيّة له أهمية، واللّعاب في فم الإنسان فهو نعمة وله دوره بالغ الأهمية، وكل شيء خلقه الله يتجلّى فيه وصف الحسن والأحسن والإحسان والإتقان من قريب أو من بعيد، فلا زيادة عن حدّ الإحسان ولا نقص ولا إفراط ولا تفريط، وكل شيء مقدّر لا يزيد عن حدّ التناسق الجميل الدقيق ولا ينقص، ولا يتقدم كل مخلوق عن موعده ولا يتأخر.

وكل شيء غارق بالجمال الباقي المنبثق من جمال الصنعة الإلهية الأصيلة، فهو سبحانه جميل يحب الجمال ويخلق الجمال الذي يُحرّك المشاعر ويحيي الضمائر، التي تتأثر بالمبدع وما أبدع فيزيد شعوره بجمال ما يرى ويسمع ويتأثر، لأنه يرى حينئذ من ورائه جمال الله وكماله وجلاله! وإن عنصر الجمال الذي يبرّز أحسن الخلق في كل شيء لمقصود في هذا الوجود، فإتقان الصنعة وحُسنها يجعل كمال الوظيفة في كل شيء يصل إلى حدّ الجمال المتناسب معه والمؤثر في غيره، فذلك يوقظ القلب ويحثّه لتتبع مواضع الحسن والجمال والكمال الأخّاذ في هذا الوجود الكبير المتعدد الأشكال والحال والجمال والألوان والأحجام، إذن (**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**) **المراد بالأحسن:** هو الأحسن في كل شيء خلقه بحيث يعطيه حقّه في الكمال والجمال المتناسب معه في الشكل والمضمون، والحجم والوزن واللّون والوظيفة ودقة

الصنعة واتقانها، ووحدة الغاية وسموّها كقوله (**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**)طه/٥٠، وهكذا كان دبيب النملة على مسارها، وجريان الشمس في فلكها، وتدفّق النهر في مجراه وحفيف الأوراق على أشجارها.. وغيرها كثير، وأشار إلى مواطن هذا الحسن منه وخصَّ الإنسان بالذكر لشرفه وأهميته وفضله ودوره كخليفة الله في أرضه فقال (**وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ**) وبدأ خلق الإنسان الأول أبا البشر هو آدم، وهو أكرم المخلوقات التي سجدت له الملائكة بعد أن نفخ الله فيه من روحه كقوله (**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**)ص/٧٢، وخلقه من طين يابس ميت متعدد الألوان والأشكال، فما أبعد ما بين الطين والإنسان المكرّم في عين من لا يحسن النظر ولا يمعن التفكير، وما أقرب ما بين الطين والإنسان المكرم في عين من ينظر فيحسن النظر بعقله وبقلبه جميعاً، **ومن أهم مصاديق الأحسن في كل شيء خلقه،** هو خلق الإنسان الخليفة من طين، فكان في أحسن تقويم وفي أعقد تركيب، وفي أتقن صنع، وكرّمه أحسن تكريم وجعله سيد المخلوقات أجمعين، فعليه أن يكرم نفسه ولا يُعرّضها للإهانة، **فائدة: الإنسان الأحسن يصنع الموقف الأحسن،** والله تعالى الخالق الأحسن الكامل المطلق فيخلق كل شيء متكامل، فيكون كل شيء الأحسن من جميع وجوه الابداع والجمال، في الصورة والأشكال والمعنى وفي المظهر والأداء على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، لأنه هو الخالق المدبّر والمقدّر الأحسن في كل شيء كقوله (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) التين/٤.

٨ -٩- ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾

(**ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ**) ثم جعل نسله أي ذريته يتناسلون ويتكاثرون (**مِنْ سُلَالَةٍ**) يسمى ماء الرجل سلالة، لإنسلاله وانفصاله من صلبه (**مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**) من ماء رخيص ضعيف خفيف حقير قذر نجس كريه قليل مهان في الظاهر، وهو ماء المني (**النطفة**) المستقذرة النجسة المبتذلة الرخيصة التي لا قيمة لها، كقوله (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) المرسلات/٢٠، وليس لها أهمية في شكلها الظاهري، ولكن يعتبر في الواقع العلمي والعملي من أعمق أسرار الموجودات، ومن آيات عظمة الله سبحانه وقدرته وحكمته، وفيه علم الوراثة المعقّد وعالم الانجاب الدقيق كقوله (**فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**)الطارق/٥-٧،وهو المرحلة الأولى في تطوّر الجنين، الآية ٩ (**ثُمَّ سَوَّاهُ**) أي جعله بشراً سوياً أتم خلقه وتصويره على أحسن صورة، وقوّم أعضاءه وَعَدَّل خلقته في رحم أمه، فأصبح كائناً حياً مكرماً محترماً عاقلاً، وفي أكمل صورة وأحسن هيئة، وجعله في أحسن تقويم وفي أعقد تركيب وسيد الكائنات، فهناك طين تحوّل إلى غذاء وإلى نطفة، فأين الطين من الغذاء، وأين الغذاء من النطفة، وأين النطفة من خلق هذا الإنسان المكرّم؟!،(**وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ**)

وأضاف إليه من روحه سبحانه وجعلها تتعلّق ببدنه لتعطي هذه الروح لهذا الجسد الطيني قيمته وكرامته، لذلك أمر الله تعالى بالسجود لآدم بعد نفخ الروح فيه، لبيان أنه مملوك لمالك الملك، وأن له منزلة جليلة مناسبة عند الله تعالى إن استقام على منهج الله بكامل اختياره، (**مِنْ رُوحِهِ) روح الله:** مخلوق عجيب غريب نظيف لطيف خفيف شفاف شريف سام عالي المضامين، صادر عن عالم الربوبية، **والروح** مشتقة من الريح، فتتمازج الروح مع البدن تمازج العلم في العالم، وماء الورد في الورد، والدهن في السمسم، وإضافة الروح إلى الله تعالى تشريفية للإنسان وتكريم له، كإضافة الكعبة إلى الله تعالى، وإضافة العبد إلى الله فنقول: عبد الله، وإيذاناً بأنه خلق عجيب وصنع متقن بديع، وإنسان متكامل الأوصاف، ولهو دور نموذجي مميز كما جاء الحديث القدسي (**لَا تَّسعُنِي لاَ أَرْضِيَ وَلاَ سَمَائِي وَإنما يسَعُنِي قَلبَ عَبْدي الْمُؤْمِن**) مواهب الرحمن٩/٢١٥، في غرر الحكم (**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ، وَوَصَلَ إلى أقْصَى دَرَجاتِ المعْرِفَةِ**).

(**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ**) وقدّم السمع بالذكر لأنها أهم الجوارح والمحسوسات التي يتعلّم منها وتربطه بالعالم الخارجي، لتسمعوا المسموعات وتروا المرئيات، **وقدّم السّمعَ على البصر،** لأن السّمع أسبق عمله من البصر، حيث تبدأ وظيفة السمع في الطفل قبل أن يبدأ البصر بالرؤية، وهذا من إعجاز القرآن، الذي كشف عنه قريباً العلم الحديث (**وَالْأَفْئِدَةَ**) القلوب، وجعل لكم القلوب لتعقلوا ولتعوا وتفهموا وتتحسسَّوا وتتدبّروا بها الأمور، وتدركوا بها الحق والهدى، وتميزوا بين الخير والشر، وبين الحق والباطل وبين أقل الضررين وخير الشَّرين، فيكون الفؤاد مثل الكنترول المتحكّم الرئيس عن بعد في وجود البشر، وجاء (**السَّمْعَ**) بالمفرد و(**الْأَبْصَارَ**) بالجمع، إشارة إلى أن معطيات السمع تكاد تكون واحدة عند كل الناس، على خلاف البصر الذي يختلف استخدامه من إنسان إلى إنسان، حيث يكون النظر عند بعض الناس مجرد عين ترى الأشياء على ظاهرها كرؤية الحيوان، على حين يكون النظر عند أهل العلم بصيرة نافذة تبلغ الأعماق، وترى ما وراء المرئيات وتصل إلى اللّباب بكل انسياب، وكذلك الشأن في الفؤاد (**قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ**) ولكنكم تشكرون ربكم قليلاً، شكراً لا يتناسب مع كثرة النعم التي لا تحصى، وسعة الكرم والرحمة والعطاء الإلهي و(**مَا**) لتأكيد القلة، عن النبي (ص) (لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاْسَ) روح البيان٦/١٢٩، والذي لا يشكر يكفر، فيكون أقرب إلى كفر النعم وتغطية المنعم، وليس كفر العقيدة.

فائدة: يا الله، ما أضخم الرحلة وأدق المسؤولية وما أعظم المعجزة التي يمر عليها الناس وهم غافلون، أين تلك النطفة المستقذرة والماء المهين من ذلك الإنسان المكرم البديع، إنها يد الله المبدعة التي تجعل من لا شيء أحسن شيء، إلى ذلك الخلق المركّب المتقن العجيب المعقّد التركيب، ثم هناك مميزات خاصة نموذجية لكل إنسان تميزه عن سائر الناس الآخرين، إنها يد الله البارعة المبدعة التي خلقت وسوَّتْ وكمّلت هذا الإنسان، وإنها النفخة من روح الله العجيبة

في هذا الإنسان الخليفة، ليكون الإنسان لله تعالى باختياره لا للشيطان وهوى الإنسان منه أي نصيب! كقوله (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) النحل/١٢١.

١٠ - ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾

(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) وقال كفار مكة، وإنهم يستبعدون أن يخلقهم الله خلقاً جديداً بعد موتهم، يقولون ذلك ولا يرجعون إلى النشأة الأولى، فقد بدأ الله خلق الإنسان من طين، فالنشأة الآخرى شبيهة بالنشأة الأولى، وليس فيها غريب ولا جديد، والإعادة أسهل من الابتداء، كالأرض الميتة الجافة ينزل الله عليها الماء فتحيا بعد موتها وتنبت من كل زوج بهيج كقوله **(أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)** الرعد/٥، والذي لا يعرف لماذا يحيى، لا يعرف لماذا يموت، ولماذا يبعث، **المعنى: (أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ) ضللنا:** يُقال ضلَّ الماء في اللّبن إذا غاب فيه، ضللنا أي غبنا وفنينا وخفينا وتفتتت أجسادنا وغابت عن أعين الناس، وامتزجت مع تراب الأرض وصارت تراباً ولم تتميز عنه وكأنما رجعت إلى أصلها، وكل شيء غلب عليه غيره حتى يغيب فيه فقد ضل، **أي:** أإذا متنا وتحللت أجسادنا وتفتتت أعضاؤنا، وتفرقنا في المواضع المختلفة التي يتيه فيها مصير الجسد **(أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ)** الاستفهام للتعجّب، أإنّا لمخلوقون ونبعث من جديد؟ ونعود إلى الحياة مرة ثانية للحساب والجزاء، فيستبعدون ذلك مع الاستهزاء والاستغراب والعناد والكفر بلقاء ربهم، فهم يرون هذا من أبعد الأشياء، وذلك بقياسهم قدرة الخالق المطلقة على قدرتهم المحدودة العاجزة كقوله **(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)** يس/٨٢ **(بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)** بل هم بما وعد الله به من الثواب للمطيع والعقاب للعاصي لجاحدون، إنهم يبحثون عن أي مبرر لإنكار البعث والمعاد الجسماني، فهذا الكفر بلقاء الله هو يلقي على أنفسهم ظل الشك والضلال لما يراد منهم.

فائدة:

١- **سؤال:** أعلن المشركين كفرهم بلقاء الله صراحة، فلماذا قال **(بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ)؟** **الجواب:** إنهم لم يكفروا باليوم الآخر عن علم، وإنما عن جهل وتقليد أعمى، واتباع العرف الجاهلي العام، ٢- قوله **(وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)** وقوله **(ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)** لو نظروا بتدبّر وبحث علمي بين الطين الذي جاؤوا منه، والماء المهين **(النطفة)** التي تخلّقوا منها، وبين التراب الذي صار إليه أجسادهم، لوجدوا أن لا فرق بينها، وهكذا تصنع يد القدرة الخارقة العجائب، وتريّكَ الغرائب لتنكشف لك الأسرار، وتُنسّق مع عالم الأقدار، وهكذا تتحرك المشاعر لتحيي الضمائر وتسعد الأحاسيس وتتحقق الأهداف النبيلة.

١١ - ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

ردّ اعتراضهم بتقرير وفاتهم بالموت الحق ورجعتهم إلى ربهم، فيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وبذلك يتبين صدق الله وعدله في العالم الآخر، عالم الجزاء، **المعنى: (قُلْ)**

لهم يامُحَمَّد **(يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ) التوفّي**: هو استيفاء وأخذ حق الإنسان المكتوب له كاملاً وافياً، من نعم الله التي استنفذها وخلّصها واستوفاها فلم يبق له منها شيء، **يُقال**: هل وفَّيت مال فلان؟ أي أخذه وافياً كاملاً بلا نقص، **توفّي النفس**: أخذها وقبض روحها بعد تمام رزقها، واستيفاء حقّها من الحياة، وأيضاً بالإضافة إلى استيفاء الرزق، استيفاء الروح وخروجها من قيود البدن المادي، وهذه الروح هي التي تعاد إلى البدن بعد الموت، وبها تعود إليه الحياة، وعبَّر عن الموت بالتوفّي، لأنه لا يتحقق الموت حتى يستوفي حقّه، ويأخذ الإنسان الحي ما قدره الله له من حياة ورزق ونعم وخيرات ومتع الدنيا دون زيادة أو نقصان، جعل الله ملك الموت وكيلاً وأميناً عاماً على قبض الأرواح من الأجساد، وله أعوان كثيرة من ملائكة الرحمة ومن ملائكة العذاب **(يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ)** يميتكم ملك الموت الموكّل بقبض أرواحكم ونزعها من أبدانكم المادية، وعند الموت تتكشف لكم الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان.

عن النبي (ص) **(النَّاسُ نِيَامٌ فَإِذَا مَاتُوا انْتَبَهُوا)**!روح البيان١٣٢/٢، (كفى بالموت واعظاً) إنّ الموت يقوم به مَلَكٌ متخصص، مهمته قبض الأرواح من الأجساد، بعد أن تستوفي النفس أجلها المحدد كقوله **(وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا)** المنافقون/١١، **في غرر الحكم** (الْمَوْتُ أَوَّلُ عَدْلِ الآخِرَةِ) وملك الموت يسمى **(عزرائيل)** وله أعوان، وقد جُمعت له الأرض فجعلت مثل الطست أو راحة اليد، يتناول منها حيث يشاء بسهولة من دون عناء ولا اشتباه **(ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ)** ثم إنكم محفوظون بعد الموت في عالم البرزخ، حيث تفنى ذرات جسم الإنسان المادي، حتى ترجعوا إلى ربكم يوم القيامة رجعة مؤكدة بالبعث، ورجوع الأرواح إلى أجسادها (المعاد الجسماني) للحساب والجزاء كقوله **(كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)** الأعراف/٢٩.

عن النبي (ص) **(الأمْرَاض وَالأوْجَاع كُلّهَا بَرِيدَ الْموْتِ وَرُسُلِ الْموْتِ)** تفسير نور الثقلين٤ص٢٢٥، وموت الإنسان ودفنه خطوة على طريق عودته إلى الحياة مرة أخرى، حياة بخصائص جديدة، وعالم آخر جديد، كالبذرة التي تدفن فتدخل في عالم جديد، لتصبح نباتاً.

فائدة: ١- تشير الآية إلى أن الموت الحق الذي يحلّ بهم بالحق، ليس أمراً يقع من تلقاء نفسه عشوائياً اعتباطياً كما يظن الكافرون. كلا، فإن الموت بيد الله الحكيم العليم، الذي جعل لكل نفس أجلاً محدوداً كقوله **(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)** الأعراف/٣٤، ٢- في القرآن ثلاثة تعابير عن قبض الأرواح (أ) قوله **(تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ)** النحل/٢٨، (ب) قوله **(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ)**السجدة/١١، (ج) قوله **(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ)** الزمر/٤٢، سئل الإمام الصادق (ع) قد يموت في الدنيا في ساعة واحدة في جميع الآفاق ما لا يحصيه إلاّ الله عز وجل فكيف هذا؟ فقال **(إنّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى جَعَلَ لِمَلَكِ المَوْتِ أعْواناً مِنَ المَلائكَةِ يَقْبِضُونَ الأرْواح، بِمَنْزِلَةِ صاحِبِ الشَرَطَةِ لَه أعْوانٌ مِنَ الإنْس يَبْعَثُهُمْ فِي حَوائِجِهِ، فَتَتَوفاهُمْ المَلائِكَة، وَيَتَوفاهُمْ مَلَكُ المَوْت مِنَ المَلائِكَةِ، مَعَ مَا يَقبِضُ**

هُوَ، وَيَتَوفَاهُمْ الله تَعالى مِنْ مَلَكِ المُوتِ) نور الثقلين٨ص٦٧، ٣- ولما كان الجميع يقبضون الأرواح بأمر الله سبحانه، فقد نسب الفعل إلى الله عز وجل.

١٢ - ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾

ولما ذكر الله تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة، ذكر حالهم في مقام حضرة ربهم وما يلقون من ذلة وهوان، ويقفهم وجهاً لوجه أمام مشهد مثير وخطير من مشاهد يوم القيامة، مشهد حيّ متحرّك حافل بالتأثيرات والحركات والحوارات وكأنه واقع محسوس مشهود **المعنى**: **(وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ)** ولو ترى يامُحَّد أو ياأيها الناس، إذ المجرمون المنكرون لقاء الله والمفسدون في الأرض، الذين أصّروا على ارتكاب الذنوب الكبيرة، وحذّرهم الله من عواقب كفرهم هذا، ولكن لما بعثوا ووقفوا بين يدي الله يوم القيامة للحساب، فإذا هم في مشهد الخزي والانكسار والذلة والهوان والاعتراف بالخطايا الاجرامية، والإقرار بالحق الذي طالما جحدوه، وإعلان يقينهم بما شكّوا فيه، تراهم **(نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ)** مطأطئو رؤوسهم ومطرقوها إلى الأرض **(عِنْدَ رَبِّهِمْ)** يوم يلقون ربهم الذي كانوا يكفرون بلقائه في الدنيا، عند عرض الأعمال في ساحة المحشر، وهم في خزي وذل وشدة وانكسار وحسرة وخجل وندم شديد، جزاء **(لَوْ)** الشرطية محذوف وتقديره: لرأيت أمراً عجيباً فظيعاً لا يمكن وصفه، فهو أكبر من الوصف من شدة هوله وفظاعته، يقولون **(رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا)** وعرفنا حقيقة الأمر، حيث كنا بمنزلة الأعمى فأبصرنا، وبمنزلة الصم فسمعنا، رأينا بأعيننا ما وعدتنا، وسمعنا بآذاننا ما كنا ننكره من أمر الرسل، وكنا في واقع لا نعقل ولا نتفكر قد غلب الجهل والعناد علينا فضيعنا نعمة الإيمان كقوله **(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)** الملك/١٠ **(فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ)** فأردنا إلى الدنيا نخوض تجربة جديدة **(نَعْمَلْ صَالِحًا)** نافعاً للناس غير ما كنا نعمل، إذ لم يبقَ لنا بعد هذا اليوم شك وشبهة بما شاهدناه **(إِنَّا مُوقِنُونَ)** إنا مصدقون تصديقاً جازماً لا شك فيه بوحدانيتك وأنه لا ربَّ سواك، وعلمنا أن وعدك حق ولقاءك حق وحسابك حق. فصار عندنا عين اليقين، لكنهم كاذبون كقوله **(وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)** الأنعام/٢٨، وقد فات الأوان ولا ينفع الندم كقوله **(فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)** الحجرات/٦، عن النبي (ص) **(شَرُّ النَّدَامَةِ، نَّدَامَةُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ)** البحار٧٧ص١١٥.

فائدة: ١- **(إِذِ الْمُجْرِمُونَ) معنى الإجرام**: أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة، وتوسّع معناه لكل اكتساب مكروه، ويقال اللحم المجروم أي المفصول عن العظم، وكذلك المجرم فإنه أخبث المعتدين فهو منفصل عن الصفات الإنسانية السوية، والأخلاق البشرية المألوفة، قال **(الْمُجْرِمُونَ)** ولم يقل **(الظالمون)** لأن الإجرام أقصى درجات الظلم، وأشر الظالمين والمعتدين،

فلم يبق من صفاته الإنسانية شيئاً إلاّ صورته البشرية ! في غرر الحكم (شَرّ النَّاسِ مَنْ يَتّقْيِهِ النَّاسَ مَخَافَةُ شَرّهِ).

١٣ - ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) (هُدَاهَا) الهداية : دلالة بلطف، والإرشاد على الشيء في كل شيء، ويقال لمن يتقدم القوم ويدلهم على الطريق **(هادٍ)** أي دال ومرشد وخبير، وتتنوّع الهداية مع تنوّع الحياة، وتختلف موازينها ومستوياتها ونسبها مع اختلاف موازين الناس وتنوع مستوياتهم ووعيهم، وإذا اهتدى الإنسان إلى الله عز وجل وحده هو الذي يُعبد ويطاع، فقد تَخَلَّصَ الضمير البشري من استذلال النظم المنحرفة والأوضاع الفاسدة، وتخلّص من استذلال الخرافات والانحرافات والغلو بأنواعة، واستذوق طعم الهداية واستلذ بالاستقامة وأطمأن قلبه بذكر الله، **والهداية عامة وخاصة:** هداية الله العامة لكل إنسان من العوام، من يمتلك العقل المفكّر والفطرة والفطنة والعلوم المتنوعة والمعارف المختلفة كقوله **(رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)**طه/٥٠، وهداية عامة أيضاً للناس إلى الحق كقوله **(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)** السجدة/٢٣، وقوله (هُدًى لِلنَّاسِ) البقرة/١٨٥، وهداية الله الخاصة للإنسان الخاص، وهي هداية التوفيق والنجاح كقوله **(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)** محمّد/١٧ وقوله (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) البقرة/٢ (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) العنكبوت/٦٩، وهداية إلى طاعة الله وإلى الآخرة والجنة كقوله (سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ) محمّد/٥.

المعنى : (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) المراد **(وَلَوْ شِئْنَا)** بالمشيئة الإلهية، التكوينية وليس التشريعية، أي ولو أردنا لمنحنا وألهمنا وأرشدنا كل نفس حيّة عاقلة هداها المتناسب معها، ووفقناها إلى الإيمان والعمل الصالح والعلم الّلازم، وتستقيم في كل الأحوال لفعلناه في الدنيا بالإجبار والإكراه، ولكن ذلك ينافي حكمتنا لأنا نريد منهم الإيمان مختارين وراغبين لا مكرهين ولا مجبرين، وبنينا أمر الخلق وفلسفته على حرية الاختيار، ويبقى الإنسان المكرّم هو المسؤول عن اختياره ويحاسب عليه، وأيضاً لا إيمان مع الاجبار والإكراه، ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب ولا حساب ولا جزاء مع الإكراه والاجبار، ثم نضع كل نفس في المرتبة المتناسبة معها بحسب استعدادها.

(وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي) حق: وجب وثبت القضاء السابق المحتوم مني، وتقرر وثبت وعيدي بعذاب المجرمين، والقول من الله سبحانه بمنزلة القسم للتأكيد، فلذلك أتى جواب القسم وهو قوله **(لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)** لأملأن جهنم من الجِنَّةِ وهم الجن والناس العصاة القساة الطغاة البغاة المجرمين أجمعين، بسبب سوء اختيارهم للأعمال الفاسدة الظالمة والعقائد المنحرفة، ونسيان العاقبة وترك التفكّر بالخاتمة، فظلوا وأضلوا كثيراً من الناس، وكانوا

ضرراً على هذا الوجود كله، وتمادوا في الغي والفساد بملءِ اختيارهم وإرادتهم، والقول الذي حق وثبت من الله تعالى هو قوله لإبليس عندما امتنع من السجود لآدم بقوله (**قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**) ص/٨٤-٨٥.

فائدة: (الخلاصة) ولو شاء الله لجعل لجميع الناس طريقاً واحداً هو طريق الهدى والاستقامة التي فيها الكرامة والسلامة، كما وَحّدَ طريق المخلوقات التي تهتدي بإلهام كامن في فطرتها، وتسلك طريقة واحدة في حياتها من الحشرات والطيور والدواب..، أو المخلوقات التي لا تعرف إلاّ الطاعة كالملائكة، ولكن إرادة الله تعالى اقتضت أن يكون لهذا الإنسان طبيعة خاصة يملك معها القدرة على الهدى والقدرة على الضلال، ونهاهم عن الضلال والشر وعاقبهم عليه، وأمرهم بالهدى والاستقامة وأثابهم عليها، وجعل الخيار بأيديهم، في غرر الحكم (**الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفسَهُ**) **وهو الذي يبني مستقبله الدنيوي والأخروي بنفسه** فمن أطاع واستقام فقد اختار لنفسه النجاة والفوز، ومن عصى وتمادى فقد هوى وسقط وخسر، ولو بعد حين كقوله (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) البلد/١٠ وقوله (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) الإنسان/٣ وقوله (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) الشمس/٧-٨ وقوله (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) التغابن/٢، وقوله (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) الأحزاب/٧٢.

١٤ - ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ثم حكى سبحانه ما يقال لهؤلاء الذين طلبوا الرجعة إلى الدنيا يقال لهم (﴿ **فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**) يقال للمجرمين من أهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ، فذوقوا العذاب المخزي الأليم (**بِمَا نَسِيتُمْ**) الباء للسببية، أي بسبب نسيانكم المعاد إلى يوم القيامة وغفلتكم عن هذا اليوم الحاسم، ونكرانكم للعالم الآخر، فنحن في مشهد حي مثير من مشاهد يوم القيامة، مشهد يُصوّر عدم الاستعداد إلى هذا اليوم الأساس كقوله (**الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**) الجاثية/٣٤، بسبب استغراقكم في الشهوات المؤقّتة المحرّمة، وأنتم في فسحة من الوقت لتتأمّلوا وتستقيموا (**إِنَّا نَسِينَاكُمْ**) والله تعالى لا ينسى أحداً، ولكنهم يعاملون معاملة المهمَلين المنسيّين التافهين الذين لا قيمة لهم ولا اعتبار، معاملة فيها مهانة وإهمال وفيها ازدراء واحتقار، إنها نفوس ضالة فضلة نسيت الله فأنساهم مصلحة أنفسهم كقوله (**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**) الحشر/١٩، هؤلاء استغرقت أنفسهم بحلاوة حبّ الدنيا، فذوقوا الآن مرارة الآخرة (**إِنَّا نَسِينَاكُمْ**) هذا النسيان نسيان ترك واحتقار وإهمال لهم، لا نسيان غياب وفقدان ذاكرة، نسيان على سبيل المجازاة، أنهم كما استخفّوا بهذا اليوم، فقد استخفّ الله بهم، ولم ينظر إليهم بعين الرحمة، (**إِنَّا**

نَسِينَاكُمْ) إنا جازيناكم بنسيانكم وأهمالكم من رحمتنا، ورفعنا عنكم رعايتنا، وحرمناكم من هدايتنا ووكلناكم إلى نفوسكم، ولم تعرفوا مصلحتها فبنيتم لأنفسكم بأنفسكم هذا المستقبل المأساوي، واليوم نترككم في العذاب كما تركتم الواجبات، وتجاوزتم حدود الله وتعديتم على حدود الناس (**وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ**) وذوقوا العذاب الخالد الدائم في جهنم الذي لا ينتهي ولا ينقطع، ولا يخرجون منها حتى كأنهم قد نسوا فيها.

كقوله (**كَذَلِكَ أَتَتْكَ آَيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى**) طه/١٢٦ (**بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)بأنواع السيئات وفنونها من عناد وفساد وكفر وشهوات ولذّات مبتذلات تافهات، لقد تفننتم بارتكاب المعاصي ونحن الآن نتفنن عليكم بالعذاب (**وَالْعُقُوبَةُ عَلَى قَدَرِ الْجِنَايَةِ**) ما انقاد أحد لهواه وشهواته المحرّمة إلاّ ونسي الله، ونسي الحلال والحرام والمعاد إلى يوم القيامة، وكفر بالحق والضمير الحي، في غرر الحكم (مَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِيْ مَاْ يُحِبُّ أَتْعَبَتْهُ فِيْمَاْ يَكْرَهُ) **فائدة:** ١- تكرار (**ذُوقُوا**) للدلالة أن هذا التذّوق **في حالتين: الأولى** عند نسيان يوم القيامة يذوق عذاب مُعّين مناسب، وعند ضلال الإنسان وفساده وإفساد غيره به يذوق عذاب آخر مقدّر من نوع آخر، وَعَبّر عن العذاب بـ (**ذُوقُوا**)

أي تَذوّقُوا العذاب كما يتذّوق أحدكم طعم الطعام ويتلذذ به، والتذّوق بالعذاب حتى يتضاعف عليه أنواع العذاب النفسي ودرجاته، والعذاب الجسدي ودركاته! **والحالة الثانية** ويسدل السياق القرآني الستار على هذا المشهد المؤلم الحاسم، وقد قيلت فيه الكلمة الفاصلة، وترك المجرمين لمصيرهم المهين المتناسب معهم، نتركهم كما نترك القمامة في سلة المهملات، نتركهم كما تركوا منهج الله الدين القيم في دنياهم، وهذه اللقطات إحدى خصائص التصوير القرآني الفنّي المؤثّر في القلوب، الذي يعرض هذا المشهد وكأنه واقع حَيٌّ متحرّك، يُحّرك المشاعر والضمائر والأحاسيس، ويعمل على إحيائها ويقضتها بلا استئذان!.

١٥ - ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

ولما ذكر حال المجرمين وعاقبتهم الوخيمة في الآية السابقة، أتبعه بذكر حال المؤمنين وعاقبتهم الحسنة، ليظل العبد الصالح بين الرغبة والرهبة فقال (**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا**) إنه مشهد متألق عالي المضامين، **مشهد المؤمنين الخاشعين العابدين الداعين إلى ربهم**، وقلوبهم متعلّقة بالله راجية فضل الله من غير استعلاء ولا استكبار، فهم يعرفون قدر أنفسهم، ولم يتجاوزوا حدودها، هذه الأرواح السليمة الصافية التي تتطابق دعواها مع حقيقتها، ويتطابق قولها وفعلها، التي تؤمن بمنهج الله وتلتزم به وتتعامل مع الناس على ضوئه، وتتلقاه بالحسّ الوافر والقلب المستيقظ والضمير المستنير، **المعنى:** (**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا**) إنما يصدّق بآياتنا القرآنية كلها وحججنا المتنوّعة، المؤمنون المتّقون، الذين يعرفون الحق ويعملون به ويدافعون عنه ويضحّون من أجله،

هؤلاء يؤمنون بآيات الله إيماناً حقيقياً، ويوجد منهم شواهد الإيمان ودلالاته ومنها (**الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا**) الذين إذا وعظوا بها تذكّروا واتّعظوا بمواعظها أو سمعوها فقبلوها وانقادوا لها.
(**خَرُّوا سُجَّدًا**) أي نزلوا وهبطوا إلى الأرض ساجدين لله تعالى خضوعاً وهيبة وتذللاً وخشية لله وتعظيماً له ولآياته، وعبّروا عن خضوعهم لله بالسجود له سبحانه وتعالى، **وأقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد**، وتعبيراً عن الإحساس بالعبودية الصادقة لله الذي لا يعبّر عنه إلاّ وضع الجباه على الأرض، وهم الذين يعبدون الله تعالى في ليلهم ونهارهم ويؤدّون الفرائض ويلتزمون بمنهجه ثقة به واخلاصاً لله وحده لا شريك له، وصدقاً مع الناس وخدمة لهم، في غرر الحكم (**خَيْرُ النَّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاس**) إنهم سجدوا شكراً لله على هدايته لهم لدينه ومعرفته والتوفيق لما دعا إليه من سبيله كقوله (**إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا**) مريم/٥٨.
ينبغي أن يدعو الساجد في سجدته بما يليق بوضع الساجد في دعائه ومناجاته **فيقول**: **اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك**، المسبّحين بحمدك الخاضعين لك المتواضعين إليك، وأعوذ بك والتجئ إليك من أن أكون من المستكبرين عن **أمرك**، **يجب السجود لله على الأرض عند تلاوة هذه الآية** أو الاستماع إليها، والسجود الواجب في أربع سور من القرآن الكريم، **وتسمى سور العزائم**: السجدة/١٥، فصلت/٣٧، النجم/٦٢، العلق/١٩، وبقية آيات السجود في القرآن، مستحب السجود فيها (**وَسَبَّحُوا**) وعظّموا ونزّهوا ربهم عن الصفات التي لا تليق به، إنهم سَبّحوا مع حركة الجسد الخاضع بالسجود (**بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**) حامدين وشاكرين له سبحانه كل نعمه، من علامات المؤمن السجود لله في الصلاة وغيرها، والتسبيح لله والحمد لله، وهذا من علامات التواضع أمام الحق وأمام الخلق، **عن الإمام الصادق** (ع) (السُّجُودُ مُنْتَهَى الْعِبَادَةِ مِنْ بَنِيْ آدَمَ) البحار٨٥/١٦٤، (**وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**)
لا يتعالون عن عبادة الله وطاعته، ولا يستكبرون على الناس، ولا يأنفون أن يُعفّروا وجوههم ساجدين على الأرض، صاغرين خاضعين مستسلمين متواضعين لله تعالى، فهي استجابة المؤمن الطائع الخاضع الخاشع، **ومن صفات هؤلاء الساجدين** أنهم يرحّبون بالحق ويتخلّون عن مصالحهم الشخصية من أجل الالتزام بالحق في السرّ والعلانية، وفي كل الأحوال والأشكال، وبذلك تكون مصالحهم وحسن عاقبتهم بالفوز العظيم، **والسجود**: علامة مميزة لاستجابة الطائع الخاشع المتضرّع المنيب المتأثّر بجلال الله الكبير المتعال، **والساجد**: صفته التواضع، ومن تواضع لله رفعه ومن تكبّر عليه وضعه، (**التسبيح المخادع**) أما التسبيح والركوع، والسجود رياءً للناس وليس لله تعالى، وبدافع الكسب والتجارة بالدين والتمويه والتضليل على الناس، فهو نفاق ورياء وخسارة ومرارة، ليس عبادة لله، وهو زندقة لا إيمان، في غرر الحكم (**صُنْ دِينِكَ بِدُنْيَاكَ تَربَحْهُما، وَلاَ تَصُنْ دُنْيَاكَ بِدِينِكَ فَتَخسَرهُمَا**) وأيضاً

التواضع لله تعالى مع الناس من الإيمان، فهو عبادة وسعادة وعادة وقلادة يتزيّن بها المتواضع، فهو ينشر الفضيلة ويهدي إلى صراط مستقيم ويشرح الصدر وترتاح النفس ويوصل إلى مرضاة الله، كما أن التكبّر (بالعكس) أول درجات الضلال والجحود ويوصل إلى سخط الله وأليم عقابه. **في غرر الحكم** (**وَرَحِمَ اللهُ إِمْرأ:** عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ، وَمَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ لَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ، وَمَنْ عَرَفَ حَدَّهُ فَوَقَفَ عِنْدَهُ).

فائدة: ١- تصّور الآية تصويراً عجيباً لأمر السجود (**خَرُّوا سُجَّدًا**) بدل من (**سجدوا**) وكأنه انهيار الجسد وسقوطه وهبوطه على الأرض مباشرة خشوعاً وخضوعاً من خشية الله تعالى، لكونهم ينجذبون ويتفاعلون ويتأثرون بكلام الله لدى قراءتهم أو سماعهم آيات القرآن الكريم بحيث (**خَرُّوا سُجَّدًا**) وكأنهم يهبطون وينجذبون إلى السجود بشكل غير إرادي، ويشتركون مع من يسجد لله في الكون الفسيح من العاقل وغير العاقل كقوله (**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا**) الرعد/١٥، ٢- (**خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**) هي صورة نموذجية مبشّرة وضيئة شفافة صادقة للأرواح المؤمنة اللطيفة التي تألف الناس ويألفها الناس، الأرواح المتعلّقة بالله وتتقيه وتهابه وتخشاه، والملتزمة بمنهجه بالعبادة والطاعة والعلم والعمل والوعي، بحيث لا يتغلب العلم والعمل على العبادة، ولا تطغى العبادة على العلم والعمل، فيكونون في توازن بين الإيمان والعبادة والعلم والعمل والوعي وحسن المعاملة، هذه الأرواح الصافية السليمة الخالصة هي التي تؤمن بآيات الله (**الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا**) فتليت عليهم آيات القرآن والأحاديث الشريفة الصحيحة، وأتتهم المواعظ والحكم والنصائح المهمة، وَدُعوا إلى التذكّر والتدبّر، سمعوها وتفاعلوا معها وانقادوا وخضعوا لها بإخلاص وصدق وفرحوا بهذه المعرفة، ٣- (**إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآَيَاتِنَا**) (**إنَّمَا**) تفيد معنى الحصر، بمعنى أنه ليس كل من يتحدّث عن الإيمان ويتظاهر به، ولا يمتلك الخصائص والصفات التي وردت في الآيات، فإنه لا يكون في صف المؤمنين الصادقين، وإنما هو شخص دون ذلك، إما ضعيف الإيمان أو جاهل أو منافق أو متاجر بالدِّين! **في غرر الحكم** (يُسْتَدَلُّ عَلَى دّينِ الرَّجُلِ بِحسُنِ تَقْوَاهُ وَصدق وَرَعه).

١٦ - ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

ثم ذكر بقية محاسن وفضائل هؤلاء الصالحين الساجدين، أنهم يستثمرون الوقت ويستفيدون من العمر ويصرفونه في أهم الأمور بقوله (**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ**) **تتجافى:** تتنحّى وتترفع وتتباعد، **المضاجع.** جمع مضجع وهو الفرش، وكناية عن فراش النوم، **جنوبهم:** جمع جنب، وهو جانب من جسم الإنسان، ولابد أن ينام الإنسان على جانب من جوانب جسمه، ويتقلّب بين اليمين والشمال، والنوم على الظهر بين حين وآخر، وإبعاد الجانب الملتصق عن محل النوم كناية تشبيهية عن النهوض من فراش النوم، ومخالفة هوى النفس، والتوجّه إلى لذة عبادة الله تعالى وجمال مناجاته في صلاة الليل، وهي مستحبة ولها أهمية كبيرة

في تزكية النفس، فكيف بالواجبات والفرائض والأركان ودورها الأهم؟ ولكن حذاري من آفة العادة والألفة والروتين في أدائها بسبب الجفاف الروحي وفقدان لذّة الخشوع، **المعنى**: (**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ**) يرسم القرآن الكريم بتربيته الخاصة الفنيّة، صورة قيام الليل بتعبير محّرك للمشاعر يبعث على الرغبة له في التطبيق، تتنحّى وتترفّع وتتباعد جنوبهم وأطراف عيونهم عن فراشهم ومواضع استراحتهم بالليل، تتسامى جنوبهم إلى ما هو أهم وأفضل، إنهم يقومون للتهجّد وإقامة صلاة الليل مع الشفع والوتر بروح عبادية شفافة عالية المضامين، حيث تنام العيون وتسكن النفوس كقوله (**كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**) الذاريات١٧-١٨.

لايعني أنهم يحرمون أنفسهم من النوم وهو سلطان على البدن، وهو حاجة ضرورية وصحيّة للإنسان، وإنما يعني أنهم لا ينامون أكثر من الحاجة والضرورة في الليل، وقد ينامون في النهار وقت القيلولة، ويفضلون لذّة وقت صلاة الليل ومناجاة الله تعالى على نوم الاسترخاء والبطر والكسل، فإن صلاة الليل تُنَقّي الروح وتهذّب النفس وتشرح الصدر وتطمئن القلب (**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ**) التعبير القرآني البلاغي له إيحاءاته الروحية بعيدة الدلالة، فهو يُعبّر عن قيام الليل بطريقة فنية واعية مؤثرة، فيقول:

(**تَتَجَافَى**) من الجفاء والتسامي والتعالي والابتعاد عن التعلق بجاذبية فراش النوم، وحرمان النفس منه، وتأخذهم جاذبية أخرى جاذبية القرب ولذة الحب في طاعة الله ومناجاته والتهجّد بصلاة الليل، **فيكون الإنسان المؤمن المتهجّد بين جاذبيتين، جاذبية النوم واستقطاباته وَلَذّته، مقابل جاذبية الذكر ولذّة المناجاة والتهجّد في صلاة الليل واستقطاباته**، فيتغلّب الإنسان المؤمن الأصيل بلذّة الذكر وسعادة الروح في التهجّد بصلاة الليل، على لذّة حبّ النوم وراحة الجسد وحبّ الاسترخاء على المضاجع اللّينة، وبمرور الأيام يألف لذّة القرب وجمال الطاعة مع مقام الله تعالى وحضرته، فيقوم إلى صلاة الليل من تلقاء نفسه ويترك نومه بسهولة بلا معاناة ولا صراع إرادات، فيكون التهجّد في الليل لذّة المحبين وقربان الصالحين، وهكذا يكون الإيمان الأصيل يزكّي النفوس ويُطهّرها بصالح الأعمال، في غرر الحكم (**ذِرْوَةُ الْغَايَاتِ لاَ يَنَالُهَا إلاّ ذَوُو التَهَذِيبِ وَ الْمَجَاهِدَاتِ**) ثم قال (**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ**) في كل شيء ويدعون لأمّتهم وللمؤمنين، ولاسيما في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية وقضاء حاجاتهم ودفع كرباتهم (**خَوْفًا**) يتضرّعون إلى ربهم ويدعونه خوفاً من معصيته ومن سوء العاقبة في الدنيا والآخرة، إنه خوف هيبة لا خوف رهبة! (**وَطَمَعًا**) في رحمته وتوفيقه وجنته وغفرانه (**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**) الرزق هنا بمعناه العام والواسع وكل نعمة هي رزق، أي الرزق المادي والمعنوي، والقليل والكثير، والمباشر وغير المباشر .. أي ينفقون رزقهم كل إنسان من موقعه، من مال وحسن حال وعلم

وجاه ونصيحة من موقع اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو إعلامي .. وغير ذلك، وكل إنسان بقدره ومقداره.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وهو إلى جانب روحيتهم السامية الشفافة المرهفة الناعمة، والتهّجد الخاشع في صلاة الليل والدعاء والتضرّع والمناجاة **(يُنْفِقُونَ)** في سبيل الله في طريق الخير والبر والإحسان، وفي تقدم المجتمع ونهوضه الحضاري والأخلاقي وفي خدمة الناس وفي طرق التي ترضي الله، ولم يذكر مقدار النفقة ولا شكلها ولا نوعها ولم يذكر المنفق عليه، ليدل على عموم الإنفاق فيدخل فيه النفقة الواجبة والمستحبة كالزكوات والكفارات والصدقات، ونفقة الزوجات والأقارب، والحقوق الشرعية والخمس، وتشمل النفقة المستحبة المتنوعة، ولكن الأجر والثواب يتفاوت بتفاوت النفع وشموله وبقائه كقوله **(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا)** مريم/٧٦. ولكن كيف بالذين سرقوا أموال المستضعفين والمشرّدين والمعذّبين والمحرومين... وهم متخمون حيتان لا يشبعون؟! كقوله **(فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)** البقرة/٧٩.

عن النبي (ص) (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيانِ مِنْ ذَهَبٍ لَتَمَنّى أَنْ يَكُونَ لَهُمَا ثَالِثٌ ، وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَاب) التفسير القرآني للقرآن١٥/٥٥٨.

فائدة: ١- **(خَوْفًا وَطَمَعًا)** جامعين بين الوصفين بشكل متوازن ومتعادل ومتبادل **(خَوْفًا)** أن ترد أعمالهم فينالوا عذاب الله **(وَطَمَعًا)** في قبولها. فينالون ثوابه ورضاه، لأن غلبة الخوف تجر الإنسان إلى اليأس والقنوط، وغلبة الرجاء تغري الإنسان وتجعله في غفلة ونسيان، وكلاهما خطر وضرر على الإنسان بجانبيه الجسدي والروحي، وفي مسيرته التكاملية التصاعدية إلى الله تبارك وتعالى، ٢- وإذا عطفنا هذه الآية على قوله **(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ)** النور/٣٧، وجمعنا الآيتين في كلام واحد يكون **المعنى** : إن المؤمنين لا تلهيهم تجارة ولا بيع ولا نوم غير ضروري عن عبادة الله، وهذه العبادة هي التي عناها الله بقوله **(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)** العنكبوت/٤٥، **وعن النبي (ص)** (إنّ قِيَامَ (الليل) الْعَبْدُ قُرْبَةٌ إِلَى الله مَنْهاةٌ عَن الإِثْمِ وَتَكفِيرٌ للسَّيّئَاتِ، وَمَطْرَدَةٌ لَلدَاءِ عَن الْجَسَدِ) **وعنه (ص)** (عَلَيْكُمُ بقِيَامِ اللَّيْلِ فإنَّهُ دَأبُ الصَّالحِينَ قَبْلَكُمْ)كنز العمال خبر٢١٤٢٨، **وعنه (ص)** في تفسير الآية (قِيَامُ الْعَبْدِ مِنَ اللَّيلِ، يَعْنِي إنَّهَا نَزَلَت فيَ شَأنِ المُتَهَجِّدِين فيَ اللَّيْلِ، إلى أنَّ قَالَ: وَأفضل صلاَة بَعدَ الْفَرِيضَةِ، صَّلاَةُ اللَّيْلِ) روح البيان٧ص١١٧، **من خصال المؤمن الأصيل:** التواضع **(لَا يَسْتَكْبِرُونَ)** والقيام في الليل **(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ)** والإنفاق **(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)** وجميعها وردت بالفعل المضارع للدلالة على الاستمرار، ٣- إنه لمشهد يُصوِّر صفات هؤلاء الصالحين النموذجيين لهيئتهم الجسدية ومشاعرهم القلبية في لمحة واحدة، في التعبير البلاغي العجيب

الذي يكاد **يُجسّم حركة الأجسام وحاجتها للنوم، مع حركة القلوب وحاجتها لمناجاة ربها** بخشوع، ٤- قال (**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ**) ولم يقل (**يجافون جنوبهم**) إشارة إلى أن حال أهل اليقضة والكشف، ليس كحال أهل الغفلة والحجاب، فإن لكمال حرصهم واستذواق لذة المناجاة، ترتفع جنوبهم وأجسامهم فيأخذهم استذواق لذة الذكر، وهذه الّلذة الأخاذة تقاوم وتغلب استذواق لذّة النوم وراحته في المضاجع، وأما أهل الغفلة والحجاب فيتلاصقون بجاذبية الأرض، لا يحركهم مُحرّض أهم ولا يدفعهم محفّز عن نومهم أفضل من نومهم المستغرقين فيه!

١٧ - ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

بعد ذكر حال المؤمنين المتواضعين ذكر جزاءهم فقال **المعنى:** (**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ**) تعبير قرآني بلاغي فني جذّاب جميل وجليل وعجيب ومميز ونادر لبيان الأهمية الفائقة لجزائهم، فلا تعلم أية نفس من النفوس الحيّة على إطلاقها، لا نفس مَلَكٌ مقرّب ولا نبي مرسل فضلاً عمن سواهم، أي لا أحد يعلم من الخلق ما أعدّ الله من تكريم وتقدير للذين تنزّهت نفوسهم عن الحرام وتسامت عن المنكرات، وكملت بأداء الواجبات والفرائض، جزاهم وأعدَّ الله ربهم تعالى لهؤلاء المؤمنين المذكورين في الآيتين السابقتين، حفاوة وترحيباً وتكريماً واحتراماً مما تقرّ به العيون وتنشرح له الصدور، **وهذا المذخور الغني النفسي لا يطلّع عليه أحد إلاّ الله جَلَّ في علاه،** يظل عنده مستوراً حتى يكشفه لأصحابه المعينين للمفاجآت والمخبّآت، ولأجل الانبهار والإعجاب يوم لقاء الله تعالى الأكيد المحسوم، إنها لصورة وضيئة مبهرة ومشوّقة ومبشرّة وجذّابة لهذا اللقاء الكريم في حضرة الله الحكيم، الذي يغمرهم بفضله ومنّه، ويتولى الله تعالى إعداد ما يدّخره لهم من جزاء خاص نموذجي، من تمام العناية والرعاية والحماية

(**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ**) جاءت نفس نكرة في سياق النفي ليفيد العموم، ليدخل فيه جميع نفوس الخلق، وجاء النعيم مطلق وبلا حدود ولا قيود، النعيم الكريم السخي المدهش الذي يعتمد على المفاجآت والمكافآت المذخورة النفسية لتمام التكريم وجمال التعظيم وجلال التفخيم (**مَا أُخْفِيَ لَهُمْ**) من النعم واللذّات المادية والمعنوية ولا يخطر على بالهم، ولا يمكن أن تتصوّر أو تتخيّل ما الذي أخفاه الله تعالى لهؤلاء النخبة (**مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**) إنها غاية في الحسن والجمال فتندهش به كل عين وتسكن به كل نفس وتنشرح به كل الصدور وتسّر به كل القلوب، ما أعدّ الله لهم من نعيم الجنة، كما جاء الحديث القدسي عن النبي (ص) (**أَعْدَدْتُ لَعَبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأت، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَت، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر**) البحار٨/١٩١.

عن ابن عباس (ليس في الدنيا مما في الآخرة إلاّ الأَسْمَاءُ) المراغي٣٠/١٣٥.

فهذا التكريم والتقدير لهؤلاء المتهجّدين الصالحين، فوق التصوّر وفوق الوصف بكلمات معدودة وفوق التعبير البلاغي الفني، وأكرم من أن تحصيه العبارات أو تتصوّره المشاعر لأنه مما لا شبيه له من نعيم الدنيا، وإبهامه أبلغ وأفصح من إعلانه!، وأكثر تأثيراً على تحريك المشاعر

والأحاسيس وارتفاع نسبة الأشواق والتخيّلات، التي لا عدَّ لها ولا حصر في هيئة تكون معها قرة لعيونهم، وكأنّ للعيون لغةً أبلغ من لغة الكلام!، وكأن لهذه اللّغة علماءها وأهل الاختصاص فيها، وعالم الآخرة أوسع وأهم وأرقى وأفضل من هذا العالم المادي الدنيوي المحدود، ولا وجه للمقارنة، لقد ورد مشابه هذا التعبير المميز في منزلة الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لدرجاتهم السامية ومكانتهم العالية، عن السيد المسيح عيسى (ع) (**سِرَاجُ الجَسَد هُوَ العَين، فإنْ كانَتْ عَيْنُكَ بَسيْطَةً (صالِحَةً) فَجَسَدُكَ كُلُهُ يَكُونُ نَيّراً، وَإنْ كانَتْ عِيْنُكَ شِرْيرَةً فَجَسَدُكَ كُلُهُ يَكُونُ مُظْلِماً**) التفسير القرآني للقرآن ١١ص٦٢٠ (**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) من الأعمال الصالحة في الدنيا التي ترضي الله وتنفع الناس، من صلاة ليلهم وإنفاق أموالهم أو علمهم أو جاههم في خدمة أمتهم والناس. فتكون عبادتهم المخفيّة في صلاة الليل والناس نيام، ثوابها مخفي أيضاً، ليكون الجزاء من جنس العمل.

فائدة: ١- في القرآن الكريم تعابير مختلفة عن الثواب الإلهي، ففي موضع يأتي (**ضِّعْفِ**) كقوله (**لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ**) سبأ/٣٧، وفي موضع (**أَضْعَافًا**) كقوله (**فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً**) البقرة/٢٤٥، وفي موضع (**عَشْرُ أَمْثَالِهَا**) كقوله (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) الأنعام/١٦٠، وفي موضع (سبعمائة مرة) كقوله (**سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ**) البقرة/٢٦١، أما في هذه الآية الخاصة، آية الأسرار المذخورة النفسية، آية المفاجآت والمخبّآت، جاء تعبير ما فوق العدد والرقم والأضعاف المضاعفة، جاء بلفظ (**مَا أُخْفِيَ لَهُمْ**) لا أحد يعرف ما أخفي لهؤلاء الذين يقومون لصلاة الليل، وينفقون مما رزقهم الله كل إنسان بقدره ومقداره ومن موقعه، عن الإمام الصادق (ع) (**مَا مِنْ حَسَنَة إلاّ وَلَهَا ثَوَابٌ مُبِينٌ فِي الْقُرْآنِ إلاّ صَلَاةَ اللّيْل، فَإنَّ الله عَزَ اسْمُهُ لَمْ يُبِيّنْ ثَوَابَهَا لعِظَمِ خطَرِهَا (كثرة عطائها) ثُمَّ ذُكَّرِ الآيَة**) مجمع البيان٨ص١٢٠، ٢- (**مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**) كناية تشبيهية لطيفة وشفافة ومؤثرة لمنازلهم العالية، والنعم النفسية التي تسرُّ عيونهم (**مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**) تعبير رقيق يحرّك المشاعر ويحيي الضمائر، عن منتهى الفرح والسرور والسعادة، والشيء الذي يكون (**مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**) يكون عادة نموذجياً فخماً مدهشاً مميزاً نادراً، وهذه الهدية والمكافأة، (**قُرَّةِ أَعْيُنٍ**) من الله غير (**قُرَّةِ أَعْيُنٍ**) من الناس، وإضافة قرّة على أعين لا قرة لأعينهم، تفيد العموم، أي أن في ما خفي لهم قُرّة عين وسرور لكل ذي عين!

١٨ - ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾

(**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا**) مصدقاً بالله عز وجل ملتزماً بمنهجه وبأوامره ونواهيه عن صدق وإخلاص، ومتبعاً للرسل والرسالات السماوية، والاستفهام إنكاري يراد به النفي، لهذا جاء جوابه منفيّاً لتأكيد الحكم، ففي الأسلوب الاستفهامي دعوة إلى العقل أن يرتفع إلى مستوى الوعي، ليحكم بالعدل وبدقة في هذه القضية الأساسية، **ويلاحظ أن القرآن لم يأت بالجواب**

صريحاً، ولم يقل إن المؤمن خير من الفاسق، وإنما يترتب الحكم بينهما على الآثار المترتبة عليهما، أي لا يكون من هو مصدّق بالله على الحقيقة، عارف به وبأنبيائه عن علم، وعامل بما أوجبه الله عليه وندبه إليه، ويعرف ما له وما عليه، ويعرف حدّه ويقف عنده، ويشعر بالواجب والمسؤولية عن حق الله وحقوق الآخرين ولا يتعدّاها، ويعلم علم اليقين أنه محاسب أمام الله والضمير وأمام المجتمع الذي يعيش فيه، ولو تهاون قليلاً وفرّط يسيراً (**كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا**) مثل من هو فاسق أي خارج عن طاعة الله، مرتكب لمعاصي الله الكبائر والصغائر، ولا يشعر إطلاقاً بأي واجب عليه إلاّ في حقوق نفسه وأهله! قد خرّب قلبه وضيّق أفقه المعرفي وجفّف روحه وأمرض نفسه، وعطّل أجهزة الاستقبال عنده فلم يستذوق الهدى والإيمان، ولم يكن فيه وازع ديني أي (**فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ**) الكهف/٥٠.

جاء في اللغة العربية إن أصل الفسق:

خروج الثمرة من قشرتها، ثم أطلقت على الخروج على أوامر الله وطاعته مطلقاً، والخروج أيضاً على موازين الإيمان والعلم ومقادير العقل المفكّر الواعي، فيكون مفهوم (**الفسق**) معنىً واسع الدلالة، وهو كل من يخرج عن صفات العبودية لله (**لَا يَسْتَوُونَ**) ولا ينسجمون ولا يلتقون ولا يتجاذبون، وبكل تأكيد (**لَا يَسْتَوُونَ**) في الشرف والقيمة والمنزلة في الدنيا والجزاء والحساب في الآخرة، ولا يمكن – عقلاً – أن يكونا في منزلة واحدة، فلا يستويان في حكم الله في الآخرة بالثواب والكرامة، ولا يستويان في الدنيا بالطاعة والعبادة، ولا يستويان أيضاً أبداً من دافع الإيمان والعلم والعقل المفكّر والمنطق الواعي والنظرة السليمة كقوله (**أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ**) القلم/٣٥ وكقوله (**لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ**) الحشر/٢٠، وهل يستوي القراصنة والمافيات الذين يمنعون ويصدّون عن كل خير، ويقترفون كل جريمة وإثم، مع الذين يستميتون من أجل نصرة القيم والمبادئ، ونصرة الحق وإعطاء الحقوق لأهلها، ولا تأخذهم في الله لومة لائم؟ كقوله (**يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ**) المائدة/٥٤، أفمن كان في حُلَّةِ الوصال مع الله وفي روح القربة وجمال الطاعة، كمن هو في مذّلة الفراق يعاني من الجفاف الروحي والقلق النفسي والكآبة والأرق الليلي؟ (**لَا يَسْتَوُيانَ**) أفمن حمل نور العلم والبرهان، وطلعت عليه شموس المعرفة والعرفان، كمن علّق نفسه بالخسران ووسمها بالخذلان؟ وهو يحسب أنه يُحسنُ صنعاً (**لَا يَسْتَوُيانَ**) ولا يلتقيان، كما لا يستوي الليل والنهار، ولا الخير والشر، ولا المؤمنون والفاسقون، كقوله (**وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ**) فاطر/١٩-٢١، (**لَا يَسْتَوُيانَ**) بكل المقاييس.

وهذه من البديهيّات العقلية، والاختلاف في البديهيّات من أشكل المشكلات، لذلك لم يجب الله تعالى عن هذا الاستفهام لوضوح جوابه.

سبب النزول: خاصم الوليد بن عقبة الإمام علي بن أبي طالب (ع) فقال الوليد لعلي: أسكت فإنك صبي، وأنا والله أسلط منك لساناً وأشجع منك جَناناً، وأردَّ منك للكتيبة، فقال له علي : أسكت، فإنك فاسق فنزلت الآية، تثبت الإيمان لعلي والفسق لخصمه. إشارة إلى أن الوليد اتّهم بني المصطلق بوقوفهم ضد الإسلام في قصة جمع الزكاة منهم، فكذبك الله وَعَدَّكَ فاسقاً كما في قوله **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)** الحجرات/٦، ولكن آية ١٨/السجدة مكية، بينما آية ٦/الحجرات مدنية، يمكن أن يكون هذا الموقف كمصداق للآية، فائدة: ١- **(لَا يَسْتَوُونَ)** ما يستوي المؤمنون والفاسقون في طبيعتهم ولا في عاداتهم وتقاليدهم ولا في مشاعرهم ولا في سلوكهم ولا في أقوالهم ولا في طريقة معيشتهم، ولا يستوون عند الموت وفي الحساب في الآخرة، فالفوارق بينهما كثيرة كالفرق بين الطيب والخبيث والصالح والطالح... فالمؤمنون مستقيمون على الصراط في كل أحوالهم، متّجهون إلى الله ورضاه، والفاسقون مفسدون في الأرض وفي النفوس **(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ)** البقرة/٢٠٥، **إذن:** هما طريقان مختلفان وضدّان لا يجتمعان ولا يستويان أبداً، فمنزلة المؤمن درجات في الجنان، ومنزلة الفاسق دركات في النيران، **في غرر الحكم** (الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفَسَهُ).

١٩ - ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

بعد أن نفى أنهما لا يستويان، أتبعه بذكر حال كل منهما وفصّل الله تعالى جزاء الفريقين فقال **(أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)** أما الذين صَدّقوا الإيمان وأدّوا حقوق الله وحقوق الناس، وجاهدوا لإعلاء كلمة الحق، وجمعوا بين الإيمان والعلم والعمل الصالح وكل إنسان بقدره ومقداره، ولا ينفصل الإيمان عن العمل الصالح، بل العمل الصالح على إطلاقه مصداق حقيقي للإيمان، والإيمان مصداق حقيقي للعمل الصالح، بحيث لا إيمان حقيقي بدون عمل صالح، ولا عمل صالح من دون إيمان، فهؤلاء النخبة حسنت سيرتهم في الحياة، فكان خيرهم مأمولاً وشرّهم مأموناً، وحسنت عاقبتهم في الممات وارتفعت منزلتهم في الآخرة، فعرفوا كيف ينتهون، حتى عرفوا كيف يبدأون؟ والذين لا يعرفون كيف ينتهون، فلا يعرفون كيف يبدأون؟! **(فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى)** فلهم جنات السكنى المنعّمة عالية الدرجات الخالدة، يأوون إليها ويستمتعون بها، وهي عطاء نموذجي خاص من الله للإنسان الخاص (ولاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ) وإنما الدنيا ممر ومعبر وقنطرة للآخرة دار البقاء، وسمّيت **(جَنَّاتُ الْمَأْوَى)** لأنها مأوى المفاجآت والمخبّآت المذخورة النفيسة، وفيها العديد من اللذات وينبوع الخيرات والبركات، ومحل الأفراح واطمئنان القلوب وانشراح النفوس، ومحل الخلود وجوار الملك الرحيم المعبود،

كقوله (**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**) القمر/٥٥ (**نُزُلًا**) ينزلون ويقيمون في المأوى المعدّ لهم، حيث الضيافة الكريمة المميزة مهيئة ومعّدة من الله لإكرامهم، كما تُهيّأ التُحف النادرة والهدايا الباهرة للضيف العزيز، حيث يجدون الحياة الطيبة الهنيئة عالية المضامين، **ونزلاً**: معنى عام في كل عطاء خير، جزاء (**بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) جزاءً لإيمانهم الصادق ولأعمالهم الصالحة النافعة الباقية بين الناس فوائدها هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية، العالية الدرجات في الجنة كقول (**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا**) مريم/٧٦.

فائدة :

١- قوله (**إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا**) الكهف/١٠٢ (**نُزُلًا**) أي مكانهم الذي ينزلون فيه لينالوا العقاب الأليم كقوله (**فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) آل عمران/٢١ هنا (**نُزُلًا**) للعقاب والتجريم، وهناك (**نُزُلًا**) للرعاية والتكريم، كل إنسان ينزل في المكان المتناسب معه لينال الجزاء العادل كقوله (**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا**) آل عمران/٣٠، **عن ابن عباس : جنة المأوى**: كلّها من ذهب، وهي إحدى الجنان الثمان التي هي : دار الجلال، ودار القرار، ودار السلام، وجنّة عدن، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم، كقوله (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ) الأنعام/١٢٧.

٢٠ – ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ** ﴾

(**وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا**) **فسقوا**: أي خرجوا عن طاعة الله وسبيل الرشاد، وأعرضوا عن الإيمان وتوجّهوا للكفر والشرور وارتكاب أنواع المعاصي، ونافقوا وتلوّنوا وتذبذبوا وساوموا على دينهم وأمتهم وبلادهم، وآثروا المعاصي على الاستقامة، ووقعوا في بئر البعد عن الله والإبعاد عن رحمته، فلهم عند الله شر المآب وأليم العذاب (**فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ**) فمكانهم ومنزلهم الذي يأوون إليه من عذاب الله يوم القيامة هو النار، فهي مقرّهم الخالد فلا يفتّر عنهم العقاب ولا يستحقّون الرحمة (**كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا**) إذا رفعهم لهب النار الحارقة إلى أعلاها ردّوا إلى موضعهم فيها ودفعوا إلى قعرها، بقمع ملائكة العذاب لهم، والإعادة دلالة عن خلودهم فيها، فإنه لا خروج ولا إعادة في الحقيقة كقوله (**كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**) الإسراء/٩٧، **ومعنى** (**أُعِيدُوا فِيهَا**) وإنما الإعادة من بعض طبقاتها إلى بعض (**وَقِيلَ لَهُمْ**) تقول لهم خزنة جهنم يوم القيامة تقريعاً وتوبيخاً وإهانة لهم وشماتة بهم وتشديداً عليهم، وزيادة في غيظهم وحسرتهم، وما أكثر ما شمتوا بالمؤمنين في الدنيا (وَالْعُقُوْبَةُ عَلَى قَدَرِ الْجِنَايَةِ، والْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلْ) (**ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ**) المخزي الذي كنتم به تكذبون في الدنيا وتهزؤون منه، **عن**

النبي (ص) (الذي لا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاْطِلُ، والذي لاَ يستقيم به الْهُدَىْ تَضُرُّهُ الضَّلاَلَةُ)كنز العمال خبر٤٤٢٢٥ **(الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ)** وتجحدون باستمرار ولا تفكرون ولا تصدّقون في الدنيا بل وتهزؤون منه، فإذا بلغوا أسفل جهنم زفرت بهم، وإذا بلغوا أعلاها قُمِعُوا بمقامع الحديد فأعيدوا فيها، فهذا شكل من أشكال عقوبتهم!

فائدة:

١- مشهد مثير من مشاهد يوم القيامة يوم الطامّة، مشهد حركي يُصوّر حركة عذاب نفسي وجسدي مشترك ملتهب ومؤلم، والتواء صارخ من الألم والوجع، والتفكير في محاولة الهروب من هذا العذاب والفرار من النار وآلامها، فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج والهروب من شدة العذاب **(أُعِيدُوا فِيهَا)** كقوله **(وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ)** سبأ/٥٤، وكأن هناك كامرات رصد وملائكة مراقبة تقمعهم وتعيدهم في النار مرة ثانية، فذهب عنهم أمل الفرج واشتدت عليهم الحسرة والعناء، فيترافق العذاب الجسماني مع العذاب النفسي، ٢- **(ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ)** وإن كنتم معذبين نفسياً في الدنيا فلم تستذوقوا عذابها الجسدي المباشر كقوله **(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)** الجن/١٧، أما يوم القيامة فيجعلهم الله يستذوقون عذاب النار الجسدي والنفسي، كما يستذوقون طعم الطعام والشراب، إحساساً بالألم وزيادة في الوجع! أما حال المؤمن الصالح في ساعة العسرة هناك، فيقول في حقه النبي (ص) (تَقُولُ جَهَنَّم للمؤمِنِ جُزْ يامُؤمِن فَقَدْ أطْفَأَ نَورَكَ لَهَبِي)!روح البيان١٢٣/٧.

٢١ - ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ) ذلك مصير الكافرين والمجرمين والمنافقين، يتوعَّدهم الله سبحانه بعذابين، العذاب الأدنى في الدنيا، والعذاب الأكبر في الآخرة، الذي يبدأ من أول يوم في القبر، عن النبي (ص) **(القَبْرُ أَوَلُ عَدْلِ الآخِرَة)** مستدرك الوسائل١٤٨/١، وهو عذاب عالم البرزخ، عالم بين الدنيا والآخرة، لا يحبّ الله تعالى أن يعذّب عباده إذا لم يستحقّوا العذاب **(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ)** وهذه سنة تاريخية متحركة وقانون إلهي فاعل في الماضي والحاضر والمستقبل، أي فلنذيقنّ الكفار **(مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ)** له معنى عميق ودلالة واسعة، **الأدنى:** هو الأقرب في عذاب الدنيا وأقل من عذاب الآخرة، عذاب أدنى في الدنيا بآفة من آفاتها المكروهة، ومحنة من محنها الممقوتة، ليكون جرس إنذار وتخويف وعلم وتنبيه بعدم الغفلة عن سنن الله الفاعلة فَلاَ تَغْفَلُوْا فَلَيْسَ بِمَغْفُوْلٍ عَنْكُمْ،**في غرر الحكم** (احذروا الْغَفْلَةَ فإنها مِنْ فَسَادِ الْحِسِّ) **معنى: بآفة من آفاتها المكروهة:** مثل الجفاف وقلة الماء والأمراض المتنوعة، والحروب والقتل والأسر والبلايا والشدائد والمصائب والهموم والزلازل والأوبئة أو المجاعة والقحط، عندما دعا عليهم النبي (ص) حين بالغوا في **أذيّته:** فأكلوا الجيّف والجلود والعظام

المحترقة ونوى التمور...، ونحو ذلك، فإن تابوا وأنابوا واستقاموا فهذا هو المطلوب، فيرفع الله عنهم العذاب وإلا فأمامهم **(دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ)** **(دُونَ)** أي قبل العذاب الأكبر الذي ينتظرهم وهو عذاب جهنم وبئس القرار، العذاب الانتقامي الذي يفوق كل عذاب وصفاً وحجماً ونوعاً وكيفاً وكمّاً وألماً وبقاءً، **(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون)** نأمل ونرجوا أن تستيقظ فطرتهم، وينتبهوا من نومة الغفلة والغافلين ويرجعون إلى الله ربهم بالتوبة النصوح كقوله **(لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)** الروم/٤١، قبل أن يذيقهم **(الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ)** وعبر القرآن الكريم عن العذاب الأدنى والأكبر بكلمة.

(ولنذيقنهُمْ) وأصل الذوق الإحساس بطعم الطعام والشراب بالفم وهو التأثر المباشر بالإحساس بالشيء والتفاعل الكامل معه، سواء بالعذاب كما في هذه الآية أو الإحساس بتذّوق الرحمة كقوله **(وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً)** هود/٩، **فائدة:** ١- فإن مقابل **(الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ)** **(العذاب الأبعد)** ولا يمكن وصف عذاب الله بالأبعد وإنما الأكبر لرهبته، وأن مقابل **(الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ)** **(الْعَذَابِ الأصغرِ)** ولا يمكن وصف عذاب الله بالأصغر، وإنما **(الْأَدْنَىٰ)** والأقرب، وهنا سرّ بلاغي في السياق القرآني المميز في استخدام الكلمات وتعابير الآيات، ٢- لا يتنافى العذاب الدنيوي مع العدل الإلهي، لأنه يقوم على أساس الحكمة والعدل والحق والمصالح العامة.

٣- **(الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ)** من معانية حرمان العلم والإيمان والحرص على الدنيا وانقلاب الموازين والمعايير، وحبّ المال والجاه والنساء... إلخ **(الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ)** من معانيه الاحتجاب عن مشاهدة المعروف والموصوف، والإعراض النفسي عن فهم الحقيقة وعدم معرفة فلسفة الحياة الصحيحة، ٤- يستخدم الله سبحانه عدة وسائل لتوقظ الإنسان وترفع منسوب الوعي عنده لنجاته من سوء العاقبة، فيرسل الرسل والرسالات **(لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)** النساء/١٦٥، ويبتلي بالمصائب والمكاره وأنواع البلايا والمحن (وَفِيْ الْمِحَنِ مِنَحٌ مِنَ اللهِ، وَفِيْ الْمَكَارِهِ مِكَارِمٌ، وَفِيْ الْمَشَقَّاتِ خِبْرات، وَفِيْ الْمُعَانَاةِ هِبَاةٌ، وَالْبَلايا بِدَايَاتٌ نِهَايَاتُهَا الْكَرَامَاتُ، وَفِيْ العُقُوبَاتِ يَقْضَاتُ الضَّمير) كقوله **(وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)** الأعراف/١٦٨، عن الإمام الحسن العسكري (ع) (مَا مِنْ بَلِيةٍ إلاّ وَلله فِيهَا نَعمَةٌ تُحِيطُ بِهَا) البحار٧٨ص٣٧٤، فإذا لم تنفع أيّة وسيلة لليقضة وإحياء الضمير، فعندئذ يأتي دور العذاب والانتقام مثل **(آخِرُ الدّوَاءُ الكَي)** كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) الأعراف/٩٤.

٢٢ – ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾

تعليل وبيان سبب عذابهم، بأنهم ظالمون أشد الظلم لأنفسهم فهم مجرمون بحق أنفسهم، ولا أحد يظلم نفسه إلاّ ويظلم الآخرين، أما إذا ذكّروا بآيات ربهم فأعرضوا عنها، وجاءهم **(الْعَذَابِ الْأَدْنَى)** فلم يرجعوا، فإنهم إذن ظالمون مجرمون يستحقّون الانتقام في الدنيا والآخرة **المعنى**: **(وَمَنْ أَظْلَمُ)** الاستفهام للنفي، ومن أكبر ظلماً وأكثر إجراماً من كل آثم ومجرم **(أو)** لا أحد أظلم لنفسه، فكيف ممن كان أظلم من كل ظالم؟ والظلم قمة الرذائل، وأشدّ القبائح وأضرّ الأفعال، وأشرَّ الأقوال، لذلك حَرّمه الله على نفسه كقوله **(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)** الكهف/٤٩، في غرر الحكم **(شَرُّ النَّاسِ مَنْ كَافَئَ عَلى الجَمِيلِ بالْقَبِيحِ)** **(مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ)** من ذلك الذي تُعرض عليه آيات الله ليهتدي بها، ويُوعظ بحججه سبحانه المتنوعة التي توصله إلى العلم والمعرفة والهداية والإيمان والاستقامة، سواء أكانت بالآيات القرآنية أو النعم الإلهية المتنوعة المادية والمعنوية والعلمية أو المصائب والمحن والبلايا التحذيرية **(ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا)** **(ثُمَّ)** للتراخي الزمني، إشارة أنهم يمهلون ولا يهملون، ويعطون مجالاً كافياً للتفكير ومحاسبة النفس، ويأتي الانتقام بعد إلقاء الحجة، وانتهاء مدة المهلة كقوله **(وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)** الكهف/٥٩ **(ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا)** لاهيًّاً عن جميعها مستكبراً عليها ومستخفّاً بها، ويعتبرها رجعية وهو التقدّمي! فهو لم ينظر فيها ولم يلتفت إليها ولم يتفكر فيها متعالياً عليها (وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقّ فَالْبَاْطِلُ عَلَيْهِ أَضْيَق، **وَمَنْ لا يَنْفَعُهُ الهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلالَةُ**، وَمَنْ لاَ يَتَّعِظُ بِالنّاسِ وَعَظَ اللهُ بِه النّاس)

فهو مغرور بماله وبجاهه وبعشيرته، أو تعالى على الناس باختصاصه العلمي، ثم ترك الإيمان ونسيَّ منهج ربه أو تناساه وجعله وراء ظهره، فهذا ظلم لنفسه وإجرام، بل من أكبر المجرمين الذين يستحقّون تسليط الانتقام منهم في الدنيا والآخرة! إنه تهديد ووعيد، وياهوله من تهديد ووعيد لهذه الصفة الإجرامية، إنها صفة خطيرة ومريرة معدية على نفسية الفرد، وعلى رابطة التماسك الاجتماعي، فهم أجرموا في حق أنفسهم وفي حق الله وفي حق الناس، وفي حق الدين والقيم والمبادئ والأخلاق.

(إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ) فإن الله القادر الجبار هو الذي يتوّعد هؤلاء المجرمين المستكبرين، وسينتقم منهم بطريقته الخاصة، وعبَّر القرآن عن هذا التعالي والإعراض عن آيات الله بالإجرام والانتقام، لأنه عمل يغضب الله تعالى ويهين كرامة الإنسان وعزته، في غرر الحكم **(مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، لَم يَهِنهَا بِالْمَعْصِيَّةِ)** وعن الإمام الهادي (ع) **(مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا تَأْمَنْ شَرَّه)**تحف العقول ص٣٥٨، ووضع الاسم الظاهر مكان الضمير لتسجيل الإجرام وتثبيته عليهم، وإن هانت في الظاهر جريمته، فيكون معنى **(الْمُجْرِمِينَ)** أي المصرّين على الجرائم والكفر والعناد والفساد **(مُنْتَقِمُونَ)** بخسارة الدنيا والآخرة كقوله **(وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو**

انْتِقَامٍ) آل عمران/٤، **والجرم:** أشد من الظلم، يقال اللّحم المجروم أي المفصول عن العظم، وكذلك المجرم فهو مفصول عن الحس البشري السوي، ومنفصل عن الصفات الإنسانية والأخلاق البشرية وحقوق الإنسان المعروفة، في غرر الحكم **(شَرُّ النَّاسِ مَنْ يَتَّقِيهِ النَّاس مَخَافَة شَرِّهِ)** عن النبي (ص) كمصداق (ثلاَثَ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَد أَجرَمَ: مَنْ عَقَدَ لوَاء فِي غَير حَق، أَوَ عَقَ وَالِدَيهِ، أَوَ مَشَىَ مَع ظَالم يَنْصُرَهُ) يقول تعالى (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ) الدر المنثور ٥٥٥/٦.

فائدة: ١- **من صفات المؤمنين (خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)** السجدة/١٥، مقابل هؤلاء المجرمين: إذا ذكّروا بآيات الله أعرضوا عنها، ٢- **(مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ)** فكانت رسالة الرسول مُحَمَّد الإسلامية (ص) تبليغ آيات الله، وبيان أحكام القرآن للناس كقوله **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ)** سبأ/٢٨، تذكيراً لهم بأصل فطرتهم وإيقاظاً لهم من غفلتهم عن المعاد إلى يوم القيامة، ورفع مستوى علمهم ووعيهم، ثم أعرضوا عنها، ومن أجل هذا كانوا أظلم الظالمين، **لأنهم ظلموا أنفسهم مرتين:** ظلموها **(أولاً)** بإطفاء نور الإيمان في فطرتهم، وظلموا أنفسهم **(ثانياً)** في بقائهم على العصيان وعنادهم على الجهل والطغيان، فهم رفضوا دواء الإيمان المفيد الفعّال الذي يشفيهم من داء العصيان والخسران، لذلك فهم مجرمون بحق أنفسهم وبحق الناس الذين ضلّوهم عن سبيل الله وعلّموهم الإجرام، لذلك جاء بعدها **(إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ)**!

٢٣ - ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

مرية: شك، **والمرية:** التردد في الأمر، والمرية أخص وأدق وأعمق من الشك، **إسرائيل:** هو النبي يعقوب (ع) قيل: سُمّي بذلك لأنه كان مجاهداً في سبيل الله منصوراً به، **المعنى (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ)** ولقد أعطينا موسى التوراة الصحيحة الهادية المصدّقة للقرآن والداعمة للإسلام التي تعتمد كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، والتي صدّقها القرآن، فكان بين التوراة والقرآن تعدد أدوار واختلاف أساليب، مع وحدة هدف نبيلة مشتركة وغاية شريفة سامية وهي تحقيق رضا الله تعالى، كما أعطيناك يامُحَمّد القرآن.

(الكتاب) المراد به جنس الكتاب المنزل لا التوراة بالخصوص **(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ)** قال الراغب في مفردات غريب القرآن **(مِنْ لِقَائِهِ)** يقال ذلك في الإدراك الحسّي بالبصر وبالبصيرة، فلا تكن أنت يامُحَمّد وغيرك **(فِي مِرْيَةٍ)** أي في شك **(مِنْ لِقَائِهِ)** من لقاء موسى كتابه التوراة من الله تعالى، لا من لقاء موسى، لأن الضمير في **(لِقَائِهِ)** يعود للأقرب، وهذا هو الذي يستدعيه ترتيب الفاء على ما قبلها **(فَلَا تَكُنْ)** أي أن الله سبحانه نزل الكتاب التوراة الصحيحة هدى ونور لبني إسرائيل، ونزّل عليك يامُحَمّد أيضاً كتابك وهو القرآن يهدي للتي

هي أقوم، ولا شك في ذلك ولا ريب، وقد تواردت أدلة الحق وبيناته الواضحة فلم يبق للشك والمرية محل، إنه الحق الواحد الموحّد المتّحد الثابت، مع تغيّر الزمان والمكان الذي يلتقي عليه الرسولان والكتابان كقوله **(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)** النمل/٦ **(وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ)** وجعلناه هو وكتابه التوراة مصدر هداية وحماية ورعاية لبني إسرائيل من كل ضلالة،كما جعلناك يامُحَمّد هادياً لأمتك،وجعلنا القرآن الكريم مصدر هداية للناس كقوله: **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)** سبأ/٢٨، وذلك لكماله وجلاله وجماله وعلو منزلته كقوله (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) الزخرف/٤، **فائدة:** ١- **(فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ)** لا يمكن أن يراود الشك أو التردد نبياً من أنبياء الله تعالى، الذين عصمهم الله عن الخطأ والزلل وسددهم في القول والعمل، ووصلوا إلى أعلى درجات اليقين وهي درجة **(حق اليقين)**، والشك لا يراود بعض العلماء المؤمنين والأئمة والصالحين، ويكونون في حالة **(حق اليقين)** في غرر الحكم **(لَوَ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيناً)**

وإنما هذا الخطاب وأمثاله في القرآن كقوله (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) يونس/٩٤، وراجع قوله التوبة/١١٧، والمائدة/٤٨ وغيرها، **عن الإمام الصادق** (ع) (نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي ياجارة) الكافي٢/٦٣١، والتأكيد من باب التحذير والانتباه والتوقّي، هو (ص) يرى ملكوت السماوات عياناً وهو القائل **(لَو وَضعُوَا الشّمْسَ فِي يَمِينِي وَالقَمَرَ فِي شَمَالِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذا الأَمَرُ مَا تَركْتَهُ أَوَ أَهلَكَ دُونَهُ)**، نُهيَّ النبي (ص) عن الشك والتكذيب ليقول مُحَمّد (ص) للناس، من باب فرض المحال ليس بمحال، أنا بشر مثلكم أحاسب وأعاقب كأي إنسان يشك أو يكذّب بآيات الله، وهذا الأسلوب من أبلغ الأساليب التربوية وأنجحها في الدعوة إلى الحق الذي تتساوى فيه جميع الناس كقوله **(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)** سبأ/٢٤، وقوله **(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ)**المائدة/٤٨، بديهي أن النبي (ص) لا يحكم إلاّ بالحق ولا يتساهل فيه، ومحال أن يتّبع هوى مخلوق، كيف وأقواله وأفعاله سُنة تتبع وميزان يقاس به الحق والعدل، ولو افترض أن مخادعاً حاول أن يخدع النبي (ص) فالله يسدده كقوله (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قليلاً) الإسراء/٧٤.

وقوله **(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)** هود/١١٢، **(وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)** القصص/٨٧، فإذا كان النبي (ص) المستقيم استقامة شاملة مطلقة، وَيُعَلّم الناس الاستقامة، يؤكد الله عليه بالاستقامة، فكيف بغيره من المؤمنين؟ تأكيد على الأمر المهم عليهم، كقوله **(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ)** الشورى/٥٢-٥٣، ٢- ولم يذكر عيسى (ع) لأن اليهود ينكرون نبوته، والنصارى كانوا يقرون بنبوة موسى، فذكر المُجْمَعُ عليه، ٣- جاءت الآية تسلية لرسول الله (ص) وتذكره حال موسى **(فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)** الذاريات/٥٥، فإن موسى لقي الأذى

من قومه مثل ما لقيت، فلا تك في شك بمسؤوليتك الرسالية المليئة بالمعاناة بأنها مثل مسؤوليته ومعاناته، وهنا ذكر الله بأن توراة موسى هدى لبني إسرائيل خاصة، بينما قرآن مُحَمَّد (ص) هدى للعالمين كقوله (**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**) التكوير/٢٧، ٤- أنزل الله القرآن على مُحَمَّد (ص) بوحي من السماء وهو ليس ببدع من الرسل، ولا عجيب من الكتب السماوية حتى يرتابوا فيه، ولا مَنْ جاء به بغريب من الرسل والرسالات كقوله (فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ) الأنعام/٨٩.

٢٤ - ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

إن الله جعل التوراة الصحيحة هدىً ونوراً لبني إسرائيل، فالذي يعلم منهم ويتمسك ويصدق ويثبت ويصبر، يجعله الله إماماً وقدوة يقتدى به في أقواله وأفعاله، كذلك يجعل الله القرآنَ نوراً وهدىً ورحمةً للمؤمنين خاصة وللناس عامة، وهكذا هدف الرسالات السماوية فإنها تهدي الناس إلى الحق، وتقودهم إلى سُلّم التكامل الإنساني، بشرط أن يكون هناك إقبال عليها، وصدق معها، **المعنى**: (**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً**) (**منهم**) **من بعضية**، وجعلنا نُخباً نموذجيين مميزين من بني إسرائيل (**أَئِمَّةً**) رؤساء وعلماء مهتدين، وقادة وقدوة وسيادة صالحين لحمل الرسالة والدعوة إليها كموسى ونقبائه وعيسى وحواريه، أئمة يقتدى بهم في عمل الخير (**أَئِمَّةً**) **جمع إمام بمعنى المؤتم والمقتدى به قولاً وفعلاً**، فهو إمام القلوب وقائد العقول، قبل قيادة الأجساد وتوجيه الإرادات (**أَئِمَّةً**) وهم علماء مهتدون في أنفسهم ويهدون غيرهم بهدى الله، وهم مراجع الدين المخلصين وحملة الرسالة وخزائن لعلومها والأمناء عليها والدعاة لها، (**أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**) بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم، ولهم أرفع المنازل وأسمى الدرجات بعد النبوة والرسالة وهي درجة الصدّيقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية (**لَمَّا صَبَرُوا**) على التعلّم والتعليم والصدق في الدعوة إلى الله واستقاموا على نهجه وتحملّوا الأذى في سبيله سبحانه، وهذّبوا عادات نفوسهم السيئة ومنعوها عن ارتكاب المعاصي، وعدم استرسالها في الشهوات المحرّمة.

(**يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**) يرشدون الخلق إلى الحق والإيمان وطاعة الله، ويعلّمون الناس الدّين القيّم على أنه ضرورة ملّحة في حياة الإنسان وبغيره الضلال (**بِأَمْرِنَا**) بأمر الله لا بأمر الناس، (**بِأَمْرِنَا**) أي بتوفيقنا وإرادتنا وإذننا لهم وتقويتنا لإرادتهم (الْهِمَّةُ عَلَى قَدَرِ الْمُهِمَّةِ)، في الحديث عن الآية (**وَيُقَدِّمُونَ أَمْرَ اللهِ قَبْلَ أَمْرِهِمْ، وَحُكْمُ اللهِ قَبْلَ حُكْمِهِمْ**) الكافي١ص١٦٨، (**لَمَّا صَبَرُوا**) وصمدوا وقاوموا فساد الواقع الجاهلي، والتزموا بمنهج الدين الأصيل في جميع الأشكال والأحوال، مع شدة المعاناة وكثرة التحدّيات وتحمّل الأذى والعناء من قومهم وتحمّل المشاق في سبيل الله، أي حين صبروا الصبر الجميل (هؤلاء الأئمة النخبة، والعلماء القدوة من بني إسرائيل) على المشاق، وثبتوا في طريق الحق والاستقامة (**جَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا**

صَبَرُوا) في غرر الحكم (**بِالصَّبْرِ تُدْرَكُ الرَّغَائِبُ)** وتهذّب الطبائع، كقوله (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) فصلت/٣٤، (وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية، **واليقين:** هو مرحلة الكشف للحُجب، والوصول إلى الحقيقة، فمن بحث عن الله وجده، **عن الإمام علي** (ع) (من صَبَرَ على الله وَصَلَ إليه) البحار ٧١ص٩٥.

واليقين: هو استقرار العلم وسكون الفهم وتألّق الوعي مع ثبات الحكم وهو أعلى درجات الإيمان، وهم الراسخون في العلم والإيمان كقوله (لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) النساء/١٦٢، فهم يوقنون بمنهج الله وآياته، **وهناك درجات اليقين: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين،** يوقنون بلا شك ولا ظن ولا شبهات، يوقنون هؤلاء الأئمة على الدوام وبلا انقطاع، إنهم آمنوا علمياً وتحرّكوا عملياً وتدبّروا فكرياً بآيات الله الكثيرة ورسوله ورسالته، فخشعت قلوبهم لها وصدّقوها أشدَّ التصديق بكامل الوعي والدلالة، **واليقين:** هو العلم التام الموجب للعمل الصالح، وإنما وصلوا إلى درجة (**حَقُّ الْيَقِينِ)** لأنهم تعلّموا تعلّماً صحيحاً وأخذوا الدين من منبعه، بكامل دلائله وحججه وبراهينه الصحيحة الموصولة **لليقين** كقوله (**إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ)** الواقعة/٩٥، فبالصبر الحركي والتقوى واليقين والعلم المستوفي بالكفاءة والنزاهة تنال (**الإمامة في الدين)** وهؤلاء لم يقبلوا الخرافات والانحرافات والغلو في الدين، وميّزوا الدّين الصحيح عن كل ضلال فكري وعملي يدخل فيه ويكون جزءاً منه و(**الذي لاَ يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشَّكُ)** في غرر الحكم (**على قَدَرِ الدّين تكُون قُوَةُ اليَقين)** وعلى قدر اليقين تكون العبادات وعمل الصالحات، لذلك بشر الله هؤلاء بقوله (**فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)** الزمر/١٧-١٨، عن الإمام الرضا (ع) (الإِيمَانُ فَوْقَ الاسْلامِ بَدَرَجَة، وَالتَّقْوَى فَوْقَ الإِيمَانِ بَدَرَجَة، وَالْيَقِينُ فَوْقَ التَّقْوَى بَدَرَجَة، وَلَم يَقْسِم بَيْنَ الْعِبَادَ شَيْئاً أَقَلُّ مَنَّ الْيَقِينِ) الكافي٢/٥١.

فائدة:

١- يكشف القرآن في هذه الآية عن نظام السنن التاريخية الفاعلة، وأصولها الحركية المؤثرة في المسيرة الإنسانية العامة، ودرسها المستمر لكل الأمم في كل زمان ومكان، أنها توحي للقلّة المسلمة المستقيمة يوم ذاك في مكة أن تصبر في مقاومة الفساد المنتشر، كما صبر المختارون النخبة الأئمة من بني إسرائيل، وتوقن كما أيقنوا ليكون منكم (**أَئِمَّةً)** قدوة صالحة للمسلمين، كما كان أولئك الموقنون (**أَئِمَّةً)** قدوة صالحة لبني إسرائيل، وفي تعيين الأئمة الهادية حقّ من حقوق الله على الناس يجب الوفاء به وتحقيقه كقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/١٢٤، لأن الإمامة نظام الأمة وزمام الدِّين ووحدة المسلمين، وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين كقوله (**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)** الإسراء/٧١ عن النبي (ص) (مَنْ مَاتَّ وَهو لاَ

يَعْرِف إِمَامَهُ مَاتَّ مِيتَة جَّاهِلِية) البحار٢٣ص٧٧، ٢- جاء (**يَهْدُونَ**) و(**يُوقِنُونَ**) بالفعل المضارع للدلالة على الاستمرار، والتحلّي بهاتين الصفتين في كل حياة هؤلاء، بالرغم من شدة الفساد وكثرة المعاناة حولهم له دلالات واسعة كقوله (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) مُحَمَّد/١٧، في غرر الحكم (مَنِ اهْتَدَى بِهُدى الله أرْشَدَهُ).

٢٥ - ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

اختلاف بني إسرائيل في ما بينهم بعد حكم التوراة، فأمرهم متروك إلى الله هو يحاسبهم، **المعنى** (**إِنَّ رَبَّكَ**) يامُحَمَّد (**هُوَ يَفْصِلُ**) هو يقضي ويحكم بين الناس عامة وبين المؤمنين والكافرين خاصة (**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) (**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) المطففين/٦، فيميز بين المحق والمبطل يوم القيامة، ويجازي كل إنسان بما يستحق كقوله (وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) الجاثية/٢٢ (**فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) في أمور الدين والدنيا، ويختلفون في أمر الأئمة الذين يهدون بأمر الله، وأن ذلك الفصل الحاسم يوم القيامة ليس إلاّ لله وحده، لا يقدر عليه أحد سواه، ولا يُفَوَّضُ إلى من عداه كقوله (وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) الكهف/٢٦ (أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) الأنعام/٦٢.

والسبب في أن الله تعالى يحكم بين عباده دون أن يشرك في حكمه أحداً لعشر وجوه: ١- **لعزتهم**، لأنهم عنده أعزّ من أن يجعل حكمهم إلى أحد من المخلوقين، بل هو سبحانه بفضله وكرمه يكون حاكماً عليهم، ٢- **غِيرَةً عليهم**، لئلا يطلّع على أحوالهم أحد غيره، ٣- **رحمة وكرماً**، فإنه ستّار لا يفشي عيوبهم ويستر ذنوبهم، ٤- **إنه كريم ومن سننه الإكرام** (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**) الإسراء/٧٠، ٥- **فضلاً وعدلاً**، الذي خلقهم وما يعملون على مقتضى حكمته ووفق مشيئته، ٦- **عناية بهم وَشَفَقَةً عليهم**، فإنه تعالى خلقهم ليربحوا عليه لا ليربح عليهم، فلا يجوز من كرمه أن يخسروا عليه، ٧- **رحمة ومحبة بهم**، فإنه تعالى بالمحبة خلقهم، كما في الحديث القدسي: (كُنتُ كنزاً مخفيّاً فَأَحْبَبتُ أنْ أُعْرَفَ، فَخَلَقْتُ الخَلقَ لكي أُعْرَفَ) وللمحبة خلقهم لقوله (**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**) المائدة/٥٤، فينظر في شأنهم بنظر المحبة والرضا (عَينُ الرِضاْ عَنْ كُلِ عَيْبٍ كَلِيلَة) **وفيه أيضاً** (لاَ تَسَعُنِيْ لاَ أَرْضِيَ وَلاَ سَمَاْئِيَ وَإنما يَسَعُنِيَ قَلْبُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِن) مواهب الرحمن٩/٢١٥ **وفيه أيضاً** (خَلَقْتُ الأَشْيَاْءَ لأَجْلِكَ، وَخَلَقْتُكَ لأَجْلِيَ)! ٨- **لطفاً وتكريماً** لقوله (**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**) ٩- **عفواً وجوداً**، فإنه تعالى عفوّ يُحبّ العفو، ١٠- **جعلهم الله خزائن أسراره**، فهو أعلم بحالهم وأعرف بقدرهم وقدرتهم، فلا يكبر على الله اختلافهم لعلمه بحالهم كقوله (وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) هود/١١٨-١١٩، روح البيان/ج٧ص١٢٧.

فائدة: ١- وسبب اختلاف الأمم في الدين والدنيا بعد أنبيائهم، هو البغي والاعتداء والظلم والحقد والحسد.. بين العلماء (آفة العلماء الحسد) وطلب الرئاسة وحبّ الدنيا والجاه والأموال

والجمال وحسن الحال والأشكال بين الناس، كقوله (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) الشورى/١٤، **عن الإمام زين العابدين** (ع) (إنّ فيَ النَّاسِ مَنْ خسَر الدُّنْيَا وَ الآخِرَة، بِتَرْكِ الدُّنْيَا لَلدُّنْيَا، وَيرَى أَنَّ لَذَّةَ الرِئَاسَّةَ البَاطِلَةَ أَفْضَلَ مِنَّ لَذَّة الأمْوَالِ وَالنِّعَم المُباحَةِ المَحَلَلَةِ، فَيَتْرُكَ ذَلكَ أَجَمعَ طَلباً للرِيَاسَةِ)!، ٢- وهو نوع من التهديد لمن يحمل لواء الرفض لمن عيّنه الله تعالى للناس إماماً وهادياً كقوله (**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**) الرعد/٧، ولا ينبغي لأئمة الدين أن يتماهلوا عن القيام بواجبهم في نشر رسالة الله وبيان حكم الله وهداية الناس كقوله (**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ**) البقرة/١٥٩، عن النبي (ص) (إِذَاْ ظَهَرَتِ الْبِدَعُ فِيْ أُمَّتِيْ، فَلْيُظْهِر الْعَالِمُ عِلْمَهُ، فَمَنْ لمْ يَفْعَلْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ) الكافي١/٥٤، **عن الإمام الصادق** (ع) (مَنْ طَلَبَ الرِّئَاْسَةَ بِغَيْرِ حَقٍّ، حُرِمَ الطَّاْعَةَ لَهُ بِحَقٍّ) تحف العقول ص٢٣٧.

٢٦ - ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾

ثم نبّه الله تعالى على آثار قدرته في ظاهر مخلوقاته، وأقام الحجة على الكفار بالأمم الماضية الذين كفروا فأهلكوا فقال (**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ**) الاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار، أغفل هؤلاء المشركون سنن الله الواضحة أمام عيونهم، أولم يتبيّن لأهل مكة، أولم يظهر لهم الحق أولم يتّعظوا أولم يرشدهم الهدى، مما رأوا من الآثار وسمعوا من الأخبار؟ (**كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ**) (**كَمْ**) للكثرة، كثرة من أهلكنا قبلهم (**مِنَ الْقُرُونِ**) من الأمم الماضية بسبب تكذيبهم للرسل، ونشرهم للفساد ومحاربة الحق.

(**يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ**) يشاهدون آثار هلاكهم فلم يبق منهم باقية، ويمشون اليوم ويمرون في منازل أولئك الظالمين كقوم هود وصالح ولوط (**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ**) إنّ في ذلك الانتقام والإهلاك وآثاره (**لَآيَاتٍ**) لعبر ومواعظ ودلالات واضحات تكشف عن سنننا القاهرة وقدرتنا، ويستدل بها على صدق الرسل والرسالات السماوية، لو كانوا يعقلون أنهم مأخوذون بما أخذ به أصحاب هذه الديار الظالم أهلها، ماداموا سائرين على طريقهم كقوله (**فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ**) الحج/٤٥ (**أَفَلَا يَسْمَعُونَ**) أفلا يتدبّرون المواعظ فيعتبرون، أفلا يهزّهم تذكيرنا لهم؟ يستنكر القرآن الكريم على هذه النفوس القاسية الغافلة الساهية عن ما يراد منها فيقول (**أَفَلَا يَسْمَعُونَ**) سماع تفكّر وتدبّر واتّعاظ، فينتبهون عمّا هم عليه من ضَلال وعناد وتكذيب بالإيمان، **وهذا إشارة إلى أن السمع طريق من طرق الهداية والتأثير والاستقامة**، إذا تَلَقَتها أُذُنٌ واعية واستقبلها قلب سليم، فلو كان لهم سمع صحيح واعٍ، وعقل مفكّر راجح مفرز بين الحق والباطل، لم يقيموا على حالة جاهلة ضالة يجزم بأن عاقبتها إلى الهلاك.

فائدة: ١- يتخذ القرآن الكريم من مصارع الأمم الماضية وآثارهم الباقية بعد هلاك سكانها مثل إهرامات فرعون مصر، إنها سُنّة الله ماضية فاعلة لا تتخلّف، يتّخذهم القرآن عبرة ودرساً بليغاً واضحاً لإيقاظ القلوب الغافلة، وتحريك الضمائر القاسية وإثارة المشاعر والأحاسيس الخاملة، من أجل الخوف من بطش الله الشديد كقوله (وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ) إبراهيم/٤٥ **(والّذيْنَ لاَ يَتَّعِظُوْنَ بِالْمَاضِيْنَ كَانُواَ عِبْرَةً لِلْبَاْقِيْنَ)**، في نهج البلاغة خطبة٨٦ **(السَّعِيْدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيرِهِ)**، وأَخْسَرُ النَّاْسِ مَنْ كَاْنَ عِبْرَةً لِلنَّاْسِ، والذي لا يتفكّر بسنن التاريخ فإنه يفقد المعرفة بسنن الحياة، ولا يمكن معرفة سنن الحياة حق المعرفة إلاّ من خلال الربط بين أهمية سنن الماضي، وعلاقتها بسنن الحاضر ومتطلبات المستقبل كقوله **(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)** آل عمران/١٤٠ وكل ذلك دعوة إلى **التفكّر والتدبّر والتذكّر**، والذي لا يفكّر فسوف يقوده الذين يفكرون ويقودونهم إلى ما هم عليه، عن الصادق (ع) (تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَةٍ)**(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الْأَلْبَابِ)** الرعد/١٩، البحار ٣٢٧/٧١.

٢٧ - ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾

بعد أن بيّن قدرته سبحانه على الإهلاك، أرشد إلى قدرته على الإحياء ليبيّن أن النفع والضر بيده تعالى، من أجل أن يُحرّك قلوب الناس ومشاعرهم بنسيم الحياة الإيمانية النابضة فقال **(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ)** أو لم يشاهدوا بأعينهم نعمتنا وكمال قدرتنا وحكمتنا، في أننا نسوق ونحرّك ونوجّه السحاب المحمّل ببخار الماء، بإرادة الله وحكمته وليس صدفة **(إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ)** إلى الأرض اليابسة الميتة في ظاهرها، التي جرز نباتها أي قطع وتفتت وتناثر وأصبحت أرض جرداء خالية من النبات، فيسوق الله إليها الماء فيحييها بعد موتها، فإذا هي خضراء مستبشرة بالزرع الأخضر النابض بالحياة والانشراح **(فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا)** فنخرج بذلك الماء الحي بذاته والمحيي لغيره أنواع الزرع والثمار والنبات **(تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ)** فتأكل منه دوابهم كالحشائش والأوراق والتبن كقوله **(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)** هود/٦، ويأكل منه البشر كالحبوب والبقول والثمار والفواكه.

(أَفَلَا يُبْصِرُونَ) أفلا يرون بأعينهم ويحسّون ويعتبرون في هذه الآيات؟ تلك الأمور المحسوسة الواضحة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستدلون بها على كمال قدرة الله تعالى خالقها ومبدعها، وهو سبحانه جميل يخلق الجمال ويحبّ الجمال ويدعو إليه، ويستدلون أيضاً أن الذي أحيا الأرض اليابسة بعد موتها، قادر على إعادتهم أحياء مرة ثانية بعد موتهم، **إنه الإحساس بنعمة الحياة وبواهب الحياة الجميلة الناضرة**، والشعور بحلاوة الحياة ونبضها المتحرّك الأخّاذ، وأنه تعالى المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وبدون هذا الجزاء والحساب

في يوم القيامة تصبح الحياة عبثاً، والعبث واللاهدفية لا يصدر من إنسان عاقل فكيف يصدر من الله الحق؟! **إذن**: الحياة لغزٌ مَبْهَمٌ لولا الإيمان بيوم القيامة. يَحلّ لغزه، **في غرر الحكم** (مَنْ صَدّقَ بَالمجَازاةِ، لَمْ يُؤثرْ غَيْرَ الحُسْنَى) **فائدة**: ١- الاستفهام للتقريع والتوبيخ كقوله (**أَفَلَا يَسْمَعُونَ**)؟ الآية/٢٦، وفي هذه الآية (**أَفَلَا يُبْصِرُونَ**)؟ إحياء الأرض بعد موتها وهو أمر ظاهري يدرك بالعين المجرّدة.

هذا المشهد الحي المتحرّك يفتح نوافذ القلوب المغلقة المقفلة، ٢- نوصل بركات المواعظ ومياه المعرفة وأنوار الهداية، إلى القلوب الميتة القاسية المعرضة عن الحق، فتتعظ بتلك المواعظ الحسّية، ٣- إنهم غلب عليهم العمى واستولت عليهم الغفلة لقسوة قلوبهم، فلم يبصروا آيات الله الكثيرة بتدبّر وتأمّل، وإنما نظروا نظر الغفلة والألفة والعادة فلم يوفّقوا للخير، ٤- **أنواع الهداية: هداية** الكافر إلى الإيمان، **وهداية** المؤمن الفاسق إلى الطاعات، **وهداية** المؤمن المطيع إلى الورع والتقوى والزهد، **وهداية** الزاهد المتوّرع المتقي إلى العلم والمعرفة، **وهداية** العارف إلى (**الوصول**) إلى معدن العظمة، **وهداية (الواصل)** إلى معدن العظمة الحصول على انكشاف عالم الأسرار المتناسق مع الأقدار، فيرى عجائب النِعم وبدائع الكرم، فإن الفيض الإلهي إنما يحصل عن طريق العبادات المبنية على العلم الراسخ والإيمان الخاشع. روح البيان٧ص١٢٨.

٢٨ - ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

يستعجل المجرمون بالعذاب جهلاً منهم ومعاندة لأنهم يستبعدون حصوله، وهذا هو الأمن من مكر الله كقوله (**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**) الأعراف/٩٩، فهم يلعبون بمصيرهم الأبدي الثمين كما يلعب الطفل بالجوهرة الثمينة على أنها حصى! وهكذا يعمل الكافر بنفسه كما يعمل العدو بعدوه، **عن النبي (ص)** (أَعْدَى أعدائكَ نَفْسُكَ الّتِي بَينَ جَنْبيكَ) تنبيه الخواطر ص٤٨، **المعنى**: (**وَيَقُولُونَ**) ويقول الكفار والطغاة من قومك يامُحَمّد مستهزئين ومنكرين ومستغربين ومعاندين: إنكم تعدوننا بأن الله سيحكم وسيفتح ويفصل بيننا وبينكم في الدنيا قبل الآخرة (**مَتَى هَذَا الْفَتْحُ**)؟ الاستفهام للإنكار والنفي، **الفتح**: الحكم الفاصل، والحاكم في اليوم الحاسم الذي يحكم الله فيه بالحق بين الخلق، ويكون الفتح إما في الدنيا أو في يوم القيامة أو في كليهما (**متى هذا الفتح**)؟ فمتى يكون هذا الحكم الفاصل بين الحق والباطل؟ متى يفتح ويفصل الله بيننا وبينكم وينصركم الله علينا ويكون تعذيبنا على أيديكم على زعمكم؟ إنهم غافلون عن حكمة الله في تأخير الفتح إلى أجله المحدود الذي قدّره، والذي لا يقدمه استعجالهم ولا يؤخره، وما هم بقادرين على دفعه والإفلات منه كقوله (قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ) سبأ/٣٠، وقوله (**قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ**) سبأ/٢٦ (**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**) في دعواكم إنا

معاقبون على تكذيبنا الرسول ورسالته، فحققوا هذا الوعد إن كنتم صادقين كقوله (يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) العنكبوت/٥٤.

فائدة: ١- الإنسان الملحد ذو التفكير المادي، مهما كَبُرَ علمه وتوسّع تفكيره يبق عقلّه ضمن حدود المادة، فهذا العقل المادي يربط الحقائق الكبرى على ضوء حدود المادة وقيودها التي يؤمن بها، فهو يريد أن تهبط الحقيقة إلى مستواه المادي، وليس أن يرتفع هو للوصول إليها، ويتحرر من قيود المادة ويتخلّص من حدودها، وهنا تكمن المغالطة التي ينخدع بها هؤلاء الماديون!، كقوله (يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) الروم/٧،
٢- إن المطلوب من الدعاة إلى الله والمبلّغين رسالات الله، أن يؤدّوا الدور المطلوب منهم على أساس العلم والإيمان والوعي، ولا يتعارض تبليغهم الرسالي مع القرآن الكريم، والبقية والنتائج على الله عز وجل، فالأسباب بيد الإنسان والنتائج على الله، وإن الله تعالى يرتّب الأسباب على قدر المسببات، والنتائج على قدر المقدمات.

٢٩ - ﴿ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

قد أمر الله نبيه أن يجيبهم عن استبعادهم لهذه الحقيقة الكبرى موبخاً لهم بقوله (**قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ**) قل لهم يامُحَمّد محركاً لمشاعرهم وصدمة لهم، لا تستعجلوا ولا تستهزئوا إن جاء (**يَوْمَ الْفَتْحِ**) يوم الفصل والحسم، يوم إزالة الشبهة بإقامة الحجة في يوم القيامة، سواء أكان (**يَوْمَ الْفَتْحِ**) يوم صدور هذا الحكم القاطع في الدنيا، فيأخذهم الله تعالى بنقمته ويحلّ بالكافرين بأسه الشديد كقوله (**وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ**) آل عمران/٤، أم كان (**يَوْمَ الْفَتْحِ**) في اليوم الآخر (**لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ**) فلا يمهلهم الله بعده ولا ينفعهم إيمانهم بعد فوات الأوان، ولم يستطيعوا أن يتداركوا أمرهم بالتوبة ولا تنفعهم الحسرة وشدة الندم كقوله (**أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ**) الزمر/٥٦، أو يكون (**يَوْمَ الْفَتْحِ**) يوم الوعد الصادق يوم الغلبة على أعداء الله كقوله (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) النور/٥٥ وقوله (**أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**) الأنبياء/١٠٥، أو يكون (**يَوْمَ الْفَتْحِ**) في الآخرة، إذ يطلبون المهلة فلا يمهلون، وأن الله أمهلهم في الدنيا طويلاً لعلّهم يرجعون إلى الله بالتوبة والطاعة، ولكنهم أصرّوا على الضلال والفساد كقوله (**فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) الشعراء/١٠٢، والله لَقَدْ أَمْهَلَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَهْمَلَ ، وَلقد سَتَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ غَفَرَ ، وَأَنَّهُ أَنْذَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَعْذَرَ!، ويوم القيامة يوم يتحقق فيه فلسفة الوجود، يوم نصر الإيمان على العصيان، إنه وعد الله الصادق كقوله (**هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**) يس/٥٢.

وحين يكون (**يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا**) وبغوا واعتدوا على حقوق الناس في الدنيا (**إِيمَانُهُمْ**) في حقيقة الآخرة ولا يمكن تدارك الأمر، لأنه صار إيمان في ساعة الاضطرار بعد

نهاية المهلة وفوات الفرصة، لأن هذا الإيمان فرار من حريق الجحيم وليس إيماناً عميقاً في الصميم ولا إيقاناً في القلب، وفي اليوم الآخرة يوم حساب ولا عمل، ويوم الدنيا عمل ولا حساب (**وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ**) ولا هم يمهلون للتوبة، ولا يؤخر عنهم العذاب إلى موعد آخر حتى يؤمنوا ويتداركوا مافاتهم، وهذا الرد الحاسم القاصم يزلزل إرادتهم، ويزعزع قلوبهم ويقلق نفوسهم، **في نهج البلاغة كتاب ٣١** (مِنَ الفَسَادِ إضاعَةِ الزّادِ، وَمَفْسَدَة المعادِ).

٣٠ - ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾

ثم ختم السورة الكريمة بأمر رسوله بالإعراض عنهم، وانتظار الفتح المبين بينه وبينهم، فإنه الجواب الحاسم الجازم لأنهم لا يفهمون لغة الكلام (**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**) يامُحَمَّد واتركهم ولا تبال بهم فلا وزن لهم في ما هم فيه من الغرور والجهل والعناد واستعجال العذاب، وأنت واصل رسالتك في تبليغها بوضوح (**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**) النساء/١٦٥، فإن أعرضوا عنك فأعرض عنهم، فإنك ألقيت الحجة الكافية عليهم كقوله (**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**) الفرقان/٦٣.

(**قَالُوا سَلَامًا**) **سلاماً**: يسلمون فيه من الإثم، وقولاً سلاماً خالياً عن الّلغو والإثم، فلا يقابلونهم بمثل قولهم لا عن ضعف بل عن ترفّع من الدّنايا، ولا عن عجز بل عن استعلاء من السقوط في التوافه، وصيانة للوقت وحفظ للجهد أن ينفقا في ما لا يليق بالرجل الفاضل المشغول عن المهاترة بما هو أهم وأكرم وأرفع (**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**) إشارة فيها تهديد خفي بسوء عاقبة الانتظار، بعد أن ينفض الرسول المصطفى (ص) يده من أمرهم وييأس من هدايتهم، ويدعهم لمصيرهم المحتوم والمحسوم (**وَانْتَظِرْ**) ما يحلّ بهم من الغلبة عليهم ولو كره المشركون (**فكل آت قريب**) ولابد منه في ظروفه الموضوعية، ولكن له أجل معيّن ومحدد في الوقت المناسب (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) الأعراف/٣٤ وقوله (مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ) الحجر/٥ (**إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ**) كذلك الغلبة عليك أن يحلَّ بك حوادث الزمان من موت أو قتل أو أي حادث فيستريحوا منك كقوله (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ) الطور/٣٠، إصبر قليلاً لترى حكم الله فيك وفيهم، والله معك وليس معهم وهو أحكم الحاكمين.

كقوله (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) الطور/٤٨، في غرر الحكم (بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ الرَّغَائِبُ) (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) القصص/٨٣، وبهذا الأمر القاطع ينحسم الموقف بين النبي (ص) وأهل الشرك من قومه، وبذلك تختم السورة المباركة آياتها الكريمة لا يقاظ القلوب.

وفي الختام نقول: بقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) السجدة/٢٢ تم بعون الله (وَعْيُ الْقُرْآنِ الْمُيَسَّر) لسورة السجدة، بقدري لا بقدرها، بجهد متواصل فللّه الحمد والمِنّة، وبالحمد تتم الصـالحات وتزداد الـبركات وتدفع النقمات، بتاريخ

٢/٢٧/ ٢٠١٩م الموافق ١٧/ صفر/ ١٤٤٠هـ، في العراق، الكاظمية، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقيّة السوّر القرآنية إنه سميع مجيب الدعاء.
بقلم الباحث القرآني: مكي قاسم البغدادي

سُورَةُ الأحزاب

ترتيبها ٣٣ — آياتها ٧٣

من مقاصد السورة:
مدنية، تتناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية شأن سائر السور المدنية، تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة، وبالأخص أمر الأسرة، فشرّعت الأحكام، وأبطلت بعض التقاليد والعادات الاجتماعية الموروثة، مثل التبني والظهار، وكشفت حقيقة القلب أنه لا يتحمّل حُبّين، ولا يطع إلهين كقوله **(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)** الآية/٤، وطهّرت المجتمع من عاداته الجاهلية ومن الخرافات والانحرافات، ذكرت السورة عن غزوة الأحزاب **(الخندق)** وبني قريظة ونقض اليهود عهودهم مع النبي (ص)، وحذّرت من كيد المنافقين في تثبيط المسلمين وتخذيلهم في بدء السورة وفي ختمها، وبيّنت بعض الآداب الإسلامية، كآداب الوليمة والحجاب والعفاف، والإرث وتعدد الزوجات والحكمة منه، والصلاة على مُحَمَّد وآل مُحَمَّد، وسمّيت سورة الأحزاب لأن المشركين تحزّبوا من كل مكان وتحالفوا من كل جهة ضدَّ المسلمين، ولكن الله ردّهم مدحورين كقوله (وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) الأحزاب/٢٥ بتلك المعجزة الباهرة، **فضلها**: عن النبي (ص) **(مَنْ قَرْأَ سُوْرَةُ الأحزاب وَعَلّمَهَا أَهْلَهُ .. أَعُطِيَ الأَمَانُ مِنّ عَذَابِ الْقَبرِ)** مجمع البيان٨ص٣٣٤.
ملاحظة: هذا الفضل بشرطة وشروطه والإستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾
سبب النزول (الآيات ١-٣) **روي**: أن أبا سفيان وبعض المشركين أخذوا الأمان من الرسول مُحَمَّد (ص) واقترحوا أن يُوقّع الرسول معهم معاهدة سلام وحسن جوار، يتم من خلالها الاعتراف الرسمي بديانتهم الوثنية، وندعك وربك، فشق ذلك على رسول الله (ص) ونزلت الآيات **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)** تجنّب سخط الله وعصيانه ولا تطع هؤلاء الكافرين، هذا ليس أمراً بالتقوى، وإنما أمر باستمرار التقوى والزيادة فيها والدوام عليها، لا بأصل التقوى وإيجادها، لأن النبي (ص) نشأ على التقوى، وإنها منهج الأنبياء جميعاً وتاج الصلحاء كقوله **(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)** الحجرات/١٣، في نهج البلاغة **(لاَ تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَلاَ**

تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا) خطبة/١٩١، وأمر الله نبيه (ص) بالتقوى وهو سيد المتقين، وإنما المراد أُمّتُهُ، **عن الإمام الصادق** (ع) (إنّ الله بَعَثَ نبيَّهُ بإيّاكَ أَعْنِي وَاسْمَعِي ياجَارَة) البحار٣٨١/٩٢، أي انطلق في دعوتك إلى الإسلام على قاعدة التقوى مع شدة المعاناة والأذى من قومك القساة الضالين كقوله **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)** النساء/١٣٦ أي اثبتوا على الإيمان وازدادوا إيماناً كقول المسلم **(اهدنا الصراط المستقيم)** وهو مهتد إلى الصراط أي ثبتنا على الصراط المستقيم. **(فَمَنَ اتّقَى اللهُ وَقَاهُ)** فيكون **المعنى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)** التّقي بذاته ومُعلّم الناس التقوى **(اتَّقِ اللَّهَ)** حيث لا نبوة بلا تقوى، وإنما هو إخبار بصيغة الإنشاء والأمر والتنبيه، أي نحن نريد ما أنت عليه من التقوى ونحبه منك، وأن عليك من التقوى أعظم على من سواك، وأن تبذل النصيحة للناس وتذكّرهم بمنهجه وترغّبهم فيه.

والتقوى: من فعل وقى، أي وقى نفسه عن الحرّمات وتمسك بالطاعات عن علم وإيمان، ووقى نفسه عن النقائض والنقائص وصفات الرذائل واستبدلها بصفات التكامل، **والتقوى:** الورع عن محارم الله، والتنّزه عن المنكرات، والاستقامة على منهج الله والشعور برقابته وقربه منك، **والتقوى:** من الوقاية، كما اتّقي النار خوفاً من إحراقها، كذلك اتّقي الله خوفاً من مقامه وهيبته وقربه، وخوفاً من عقوبته وحباً بجنته كقوله **(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)** النازعات/٤٠-٤١، **والتقوى:** هي الحارس اليقظ القائم في أعماق الضمير لزرع حلاوة الإيمان في النفوس واستذواق جمال القرب من الله عز وجل، ولا يصدّنك عن هذا الهدف النبيل صاد ولا يردك عنه راد **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)** النداء والخطاب على سبيل التشريف والتكريم.

لأن لفظ النبوة مشعر بالتعظيم لسمو منزلته ومكانته، وكلمة **(أَيُّهَا)** بعد حرف النداء **(يَا)** يراد منها لفت غير المخاطب أيضاً.

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ) كأنه يقال **(يا أيها الناس)** وناداه ربه بـ **(النَّبِيُّ)** لا باسمه، فلم يقل يامُحَمّد، فالنبوة من المنازل المشّرفة الدالة على أنه في حماية الله وحصنه الحصين المنيع الأمين، وأنه في علوّ درجته عند الله عز وجل، فليكن علو منزلته عند الناس، ويأتي في القرآن الأمر بالتقوى كثيراً، لتعظيم ما بعده من أمر أونهي، **(وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ)** إنهما في جبهة واحدة، كقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) الأنفال/٧٣، ولا تقبل مقترحات **(الْكَافِرِينَ)** الذين أظهروا العداوة لله ولرسوله **(وَالْمُنَافِقِينَ)** الذين أبطنوا الكفر وتظاهروا بالإيمان، وهم أخطر وأضرّ من الكفّار، لأنهم يخفون العداوة ويتظاهرون بالصداقة، وهم أعداؤك ويودون هلاكك وإطفاء نور دينك، فحذّره الله منهم ومن طاعتهم، والحذر يقيك الضرر، أي دم على ما أنت

عليه من عدم الطاعة لهم لأن طاعتهم توهن الدين، فقال (**وَلَا تُطِعِ**) ولم يقل (**لا تعبد**) فالفرق بين الطاعة والعبادة إن الطاعة فعل يعمل بالأمر بخلاف العبادة تكون طوعية اختيارية عن رغبة في العبادة، وأن رسول الله لم يكن مطيعاً لهم حتى ينهى عن إطاعتهم، ولكنه أكّد عليه ما كان عليه في التزامه بطاعة الله تعالى (**وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**) ولا تقربهم إليك ولا تساعدهم على شيء، ولا تقبل منهم رأياً ومشورة يتعارض مع التقوى، ولا تساومهم ولا تداهنهم كقوله (**وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**) القلم/٩، وفي نهج البلاغة (مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوْ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ، كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ) (**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**) لأن الله كان ويكون على الاستمرار والدوام لا في جانب الماضي فقط (**عَلِيمًا**) بمفاسد هذه المقترحات، وعليماً بما يكون قبل أن يكون، (**حَكِيمًا**) بالنهي عنها وحكيماً في تدبير شؤونهم واختيار منهجهم المستقيم وفق علمه وحكمته البالغة.

فائدة:

١- وَقَدَّمَ الأمر بتقوى الله على عدم طاعة الكافرين والمنافقين، لأن التقوى خير معين وحصن أمين في مقاومة الواقع الفاسد ومعارضة المفسدين، **فالتقوى:** ترفع الوعي وتقوّي الإرادة بعدم طاعة الكافرين والمنافقين والمفسدين في كل زمان ومكان، ٢- وسُمِّيَ نبياً لأنه منبئ أي مخبر عن الله بوحي يوحى بما تسكن إليه النفوس، وتطمئن القلوب وتتعلم منه العقول الزاكية، لرفعة منزلته عن سائر الناس كقوله (**وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا**) مريم/٥٧، ٣- **معنى التقوى:** حالة تسامي النفس ووعي العقل باتّقاء المعاصي بالتمسُّك بالطاعات، ومن خلال التمسّك بالطاعات تحصل على نعمة اتّقاء المعاصي واجتنابها وتكون مَلَكَةٌ طوعية، وكراهيّة الهبوط لارتكاب السيئات. فتكون الطاعات هي التي ترفعك إلى درجة التقوى، و(**التقوى**) هي التي تشرِّفُكَ وَتُشَجِعُكَ على عمل الطاعات، بحيث لا طاعات من دون درجة من درجات التقوى، ولا تقوى من دون طاعات، **والتقوى:** من وقى نفسه وتسامى بها عن الهبوط في المنكرات والخرافات والانحرافات والسخافات والعادات المألوفة الفاسدة ليصل بنفسه إلى أعلى الدرجات، فبدأ بتربية نفسه (**بالتَّخْلِيَةِ ثُمَّ التَّحْلِيَةِ**)، في غرر الحكم (ذِرْوَةُ الْغَايَاتُ لَا يَنَالُهَا إلاّ ذَوُو التَّهذِيبِ وَالمُجَاهَدَاتِ).

٢ - ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

أمر الله سبحانه نبيه المصطفى (ص) بعد نهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين أي (**وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**) وعمل بما يوحيه إليك ربك الله فقط من الدين الحكيم والشرع القويم، واستمسك بالقرآن العظيم المنزل عليك، واعمل به فهو يهدي للتي هي أقوم كقوله (**وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ**) الأنعام/١٥٥، في نهج البلاغة خطبة ١٧٦ (**فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ**

أَكْبَرِ الدَّاءِ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ وَالضَّلَالُ) يدل هذا الأمر بالاتّباع على أن ضغط الكافرين والمنافقين في المدينة وما حولها كان في ذلك الوقت عنيفاً ضاغطاً على المشاعر والضمائر، ما اقتضى هذا النهي عن اتّباع آرائهم وتوجيهاتهم، وكل مطيع لله في منهجه، الشاعر بلذة الطاعة هو المتتبع لأوامره سبحانه عن رغبة، والمتجنب لمعاصية عن قناعة وعلم، فيعلم أن أصح طريق للوصول إلى رضا الله تعالى، هي شريعة الاتّباع لا طريقة الابتداع، فإنه عندما تترك الاتّباع فتقع في فخّ الابتداع! وبهذا الاتّباع الخالص لمنهج الله المستقيم يبين الفارق الكبير بين النبي (ص) والمؤمنين، والكافرين والمنافقين، أنهما منهجان مختلفان متضادان لا يلتقيان أبداً، وهذا الصنف المعادي للنبي (ص) وإن كانوا كثرة في العدد ووفرة في المال، فإنهم أخف ميزاناً وأضعف شأناً مقابل من يُوَجّه وجهه إلى الله وَيُسَلّم أمره إليه كقوله **(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)** النساء/١٢٥ **(إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)** لأن الله يعلم علماً مفصّلاً دقيقاً وعميقاً بكل ما تعملون **(خَبِيرًا)** فهو الذي يوحي عن خبرة بكم ويعلم حقيقة ما تعملون، وكل شيء محفوظ وكأنه على شريط مُجسّم ذي ثلاثة أبعاد، بالصورة والصوت والنية، وجاءت **(تَعْمَلُونَ)** بصيغة الجمع وجاء **(وَاتَّبِعْ)** بصيغة المفرد، أي كان الخطاب للنبي خاصة، على قاعدة آيات القرآن الكريم: وإن نزلت بخصوص السبب، ولكن أريد لها عموم المعنى، وشمول المغزى **(خَبِيرًا)** بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء، ويحصي كل شيء من شؤونكم فيجازيكم عليها.

٣ – ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

والتوجيه الأخير في افتتاحية السورة، مع كثرة المعاناة والمؤامرات وشدة الأذى الذي يواجهك، فلا يهمّنك أكانوا معك أم كانوا عليك، فالله معك مادمت معه، وإذا كان الله معك فمن عليك؟! وإن كان الله عليك فمن معك؟! وتوجّه لله بأمرك كلّه وتوكّل عليه وحده، وليكن هذا التوكّل المنظّم الخالص قاعدة تحركك الثابتة والدائمة المطمئنة، وهي وصفة طبية دائمة تعالج النفوس وتقوّي الإرادة وتمنح الحياة والاستقامة، وإن كان الخطاب للنبي (ص) خاصة ولكن أريد به النفع العام **عن الإمام الصادق** (ع) (إنّ اللهَ بعثَ نبيّهُ بإيّاكَ أَعْني وَاسْمَعي ياجَارَة)البحار٩٢/٣٨١، **المعنى: (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) التوكل:** التوكيل :أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك، واكتف به أن يتولّى أمرك كقوله **(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)** آل عمران/١٧٣، **والتوكّل على وجهين:** يُقال توكلت لفلان بمعنى توليت له متابعة أموره، ويُقال وكّلته فتوكل لي، وتوكلت عليه بمعنى اعتمدته كقوله **(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)**الطلاق/٣ وكفيله ومعتمده، **(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)** واستعن بالله سبحانه وحده واعتمد عليه في أداء مهمّتك، وفوّض جميع أمورك إليه حتى لا تخاف غيره ولا ترجو إلاّ خيره وهداه، فلا تلتفت في شيء من أمورك إلى غيره سبحانه (فَمَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ) كقوله **(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ**

عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) آل عمران/١٥٩ فإن الله سبحانه إن أراد لك نفعاً لم يدفعه عنك أحد.

كقوله (قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا) الفتح/١١ واحذر من الابتداع في حالة الاتّباع، ومن اتّبع هواه أرداه ولم يبلغ مناه، فبالتوكّل على الله تنال الرغائب وتهذّب الطبائع في جميع المطالب والمناصب، في غرر الحكم **(حُسْنَ تَوَكُل الْعَبْدِ عَلَى اللهِ عَلَى قَدْرِ ثِقَتِهِ بِهِ)** وعن النبي (ص) (مَنْ تَوَكَّل عَلَى الله كَفَاهُ مؤنَتَهُ، وَرَزَقَهُ مِنّ حَيثُ لَا يَحْتَسِبُ) كنز العمال خبر٥٦٩٣، فالله تعالى قائم بتدبيرك حافظاً لك ومدافعاً عنك، والجأ في جميع أمورك إليه سبحانه، عن النبي (ص) **(مَنْ أَحَبَّ أَنَّ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلِيتَوَكَّلْ عَلَى الله)** البحار٧١ص١٥١ **(وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) وكيلاً:** حافظاً لك ومدافعاً عنك وناصراً لك وقائماً بتدبيرك ويكفيك أمرك والمتكفّل بمصالح عباده لمن توكّلَ عليه، وأنه سبحانه أرحم بعبده من نفسه ومن والديه ومن في الأرض، ومن عرف أنه سبحانه الوكيل اكتفى به في كل أموره ولم يعتمد إلاّ عليه، ولا يمكن للعبد تحصيل النعم والفضائل بالأصالة، فالله يحصلها له بالوكالة كقوله **(وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)** طه/١٣٢، ومن علم أن الله عليم بدقائق الأمور خبير بخفاياها، اكتفى بعلمه ووثق برحمته ولم يرجع إلى غيره. **فائدة: (وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)** توكل إليه سبحانه الأمور بعد أداء الإنسان دوره اللازم وعمله المطلوب منه، فإن قيمة كل امرئ على قدر تجربته ومقدار خبرته ونوع اختصاصه، فلا يغني توكل مطلوب ومرغوب، عن عمل مفروض وخبرة لازمة وتجربة قائمة، كقوله **(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى)** النجم/٣٩-٤١.

٤ – ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) –كائنا من كان- كما لا حياة لأي إنسان إذا كان قلبان في جوفه، كذلك لا قدرة على الجمع بين عقيدتين متناقضتين في قلب الإنسان، إنه قلب واحد، فلابد له من منهج واحد يسير عليه، وله رب واحد يطيعه ولا يعصيه، ولابد له من تصّور كلي شامل واحد للحياة وللوجود يستمدّ منه، ولابد له من ميزان واحد يزن به القيم، ويقوّم به الأحداث والأشياء، وبدون هذا القلب المتحسس المتأثر النابض الفاحص الشاخص الواحد، هو الضلال والضياع والتمزّق والتفرّق والاختلاف والتذبذب والتقلّب، ولم يستقم على اتجاه واحد كقوله **(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا)** الإسراء/٢٢، وهذا القلب الواحد المعتمد المطمئن مهما كان وضعه الاجتماعي حاكماً أو محكوماً في السّراء أو في الضرّاء .. فلا تتبدل موازينه وقيَمه وتصوّراته، فالقلب الواحد لا يعبد إلهين، ولا يخدم سيدين ولا ينهج نهجين ولا يتّجه اتّجاهين متناقضين.

والغرض من ذلك أن يبيّن سبحانه أن الإنسان لا يستطيع أن يؤمن بشيئين متناقضين في وقت واحد، أي ليس لأحد قلبان يؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر، وإنما هو قلب واحد، فإما أن يؤمن وإما أن يكفر كقوله (**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**) الكهف/٢٩، (**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**) ينسب القرآن الكريم المشاعر والأحاسيس والعواطف والميول الداخلية إلى قلب الإنسان، لأن القلب مركز الولاء والوفاء، ومحل الانتماء والاتّباع كقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) الصف/٥، **عن النبي (ص)** (إنّ الله تعالى لا ينظر إلى صوّركم ولا إلى أموالكم (وأقوالكم) ولكن ينظر (أولاً) إلى قلوبكم وأعمالكم) البحار٧٧ص٨٨، **وعنه (ص)** (القصد إلى الله تعالى بالقلوب أبلغ من القصد إليه بالأعمال) البحار٧٠ص٦٠، **المعنى: ما خلق الله أحداً من الناس وفي جوفه قلبان** أي حبّان، عقيدتان، اتّجاهان متضادان، فإما أن يتقي الله ويطيعه في قلب وينصر الحق ويبتعد عن الباطل، وإما أن يوالي الباطل فيتعامى عن الحق، ويرضي قوى الشر وأعداء الله في قلب آخر، وكل يرجع إلى قناعته وتربيته ويجذبه طبعه وميوله وأصله، **وفي هذا التشبيه البليغ طعن في المنافقين ومزدوجي الشخصية**، فهم يتلونون مع المصالح الخاصة وينعقون مع كل ناعق ويميلون مع كل قوة وسلطة، ولا يؤمنون بالقيم والمبادئ والأخلاق، ولكنهم أصحاب شعارات برّاقة مطليّة بالخير، ومظاهر تسرّ وتغرّ وتمرّ ولكن باطنهم ونواياهم تضرّ كقوله (**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ**) البقرة/٢٠٤.

ومعنى هذا: أن الذي لا ينصر الحق وأهله، ولا يجاهد في سبيل نصرة الحق وإعادة حقوق المظلومين العامة، (بالقدر الممكن) فهو مع الباطل وينصر الشّر وأعداء الله! **عن النبي (ص)** (مَنْ خَالَفَتْ سَرِيْرَتُهُ عَلانِيَتُهُ فَهُوَ مُنَافِقٌ كَائِناً مَنْ كَانَ) البحار٢٠٧/٧٢، كقوله (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) النساء/١٤٥.

عن النبي (ص) (**الْسَاكّتُ عَنِ الحَقّ شَّيطَانُ أخَرَس**) الكاشف٣٢/٥، فإن أمر الرجل (**الإنسان**) الواحد لا ينتظم ومعه قلبان، فكيف تُنَظّمُ أمور العالم والكائنات ولها إلهان معبودان؟! كقوله (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) الأنبياء/٢٢، عن الإمام الصادق (ع) في آية القلب الواحد (**يُحِبَّ بِهذَا الْقَلْبِ قَوْماً، وَ يُحِبَّ بِهذَا الْقَلْبِ الآخَرُ أَعْدَاءَهَمَّ**) فذلك من شأنه أن يفسد الأمرين معاً، لأنه جمع بين النقيضين، فإما ولاء لله وإما ولاء لأعداء الله. عن السيد عيسى المسيح (ع) (لا يقدر أحد أن يخدم سيّدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر)

المعنى: (**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ**) جعل بمعنى خلق (**مِنْ قَلْبَيْنِ**) من الاستغراقية لإفادة التعميم، القلب الواحد يؤدّي الدور المطلوب كاملاً لحياة الجسم، ولو

افترضنا فرضاً مستحيلاً، **وفرض المحال ليس بمحال:** فإذا كان قلباً ثانياً فيأتي يعارض عمل القلب الأول ويفسده، مما يؤدي إلى اضطراب عمل القلبين معاً، ومن ثم تضطرب الحياة في الجسم، **فهذه كناية تشبيهية بليغة عن امتناع الجمع بين المتضادين، عن الإمام الصادق (ع)** (القلبُ حَرَمُ الله (في الإنسان) فَلا تُسكِنُ فِي حَرَمِ اللهِ غَير اللهِ) البحار٧٠ص٢٥، كما أن الكعبة حرم الله على الأرض، والقلب جعله الله محلاًّ للعلم والتفكّر والإحساس، وسمّي القلب قلباً لسرعة تقلبه وكثرة تأثره وشدة تحسسه، فلا يستقر ويطمئن القلب إلاّ بذكر الله كقوله (**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**) الرعد/٢٨، وللقلب بصيرة وحدس وفراسة للأشياء، لذلك اتّباع الهوى يعمي القلب.

عن النبي (ص) (شرُّ العَمى عَمَى القلب) البحار٧٧/١١٤، كقوله (**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**) الحج/٤٦، **في غرر الحكم** (مَنْ اِتَّبَعَ هَوَاْهُ أَعْمَاْهُ وَأَصَمَّهُ وَأَذَلَّهُ وَأَضَلَّهُ) والقلب خُلِقَ للمحبة فقط، فهو يميز بدقة متناهية خارقة بين الذي يحبه وينجذب إليه، وبين الذي ينفر منه ويختلف معه، فالقلب واحد والمحبة واحدة، **عن النبي (ص)** (المَرءُ مَعْ مَنْ أحَبَّ) كنز العمال خبر٢٤٦٨٤ فلا يصلح القلب إلاّ إذا تعلّق بمحبوب واحد مؤهّل للحب كقوله (**وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**)البقرة/١٦٥، **في غرر الحكم** (إذا أحبّ الله عبداً رزقه قلباً سليماً وَخُلُقاً قويماً) (**وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ**) **تظاهرون منهن، الظهار**: كان الرجل في الجاهلية الأولى يُطلّق زوجته مجرد أن يقول لها (**أَنْتِ عَلَيّ كَظَهْرِ أمّي**) أي حرام عليّ كما تحرم عليّ أمي، ومن حينها يحرم عليه وطؤها مؤبداً ثم تبقى معلّقة، لا هي مطلّقة فتتزوّج غيره ولا هي زوجة فتحلّ له، وهو نوع من الطلاق التعسُّفي القاسي الفاسد الظالم العنيف في الجاهلية، وقد رفضه الإسلام كلياً، وأعلم الله تعالى أن الزوجة لا تكون أماً، وأخذ دين الله الخالص يعيد تنظيم العلاقات الاجتماعية في محيط الأسرة، وأخذ يرفع عن المرأة هذا الظلم والاعتداء والفهم الخاطئ وأوجب الكفارة على المظاهر كقوله (**الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ**)المجادلة/٢، فكانوا يسمون زيد بن حارثة مولى النبي (ص) وخادمه يسمونه زيد بن مُحَّد.

(**وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ**) **أدعياءكم**: جمع دعي وهو المولود الذي يتبناه الإنسان من غيره، فبيّن سبحانه أنه ليس ابناً على الحقيقة فهو ليس من صلبكم، والواجب أن يلحقه بنسبه لأبيه، والغرض رفع قول الناس عن النبي (ص) حين تزوّج زينب بنت جحش، بعد أن طلقها زيد بن حارثة الذي تبنّاه النبي (ص)، حين قالوا إنه (ص) تزوج امرأة ابنه (**ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ**) لأن ذلك كله مجرد قول باللسان على سطح الكلام ليس له حقيقة ولا معنى له، والأقوال لا تجعل الباطل حقاً وغير الوالد والداً (**وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ**) ولكن الله يقول

الحق أي حق اليقين ويقول الحقيقة الموافقة للصحيح والمطابقة للواقع، والحقّ أحقّ أن يُتّبع **(وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ)** وهو يرشد إلى الطريق المستقيم ويدعو إليه ويدل عليه.

٥ – ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ) انسبوهم إلى آبائهم الأُصَلَاء الذين ولدوهم إذا دعوتموهم لا للذين تبنّوهم **(هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ)** وهو أعدل عند الله وأصدق وأقوم حكماً وأهدى قولاً من نسبتهم إلى آبائهم الدخلاء غير الشرعيين **(فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ)** فإن جهلتم ولم تعرفوا أبا المتبنّى واسمه الحقيقي، فلا تنسبوهم إلى غير آبائهم **(فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ)** هو اصطلاح قرآني تربوي أخلاقي جميل شفاف ونفّاذ يدخل في القلب بلا استئذان، **فقولوا**: هذا أخي في دين الله، أخي في الإسلام كقوله **(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)** الحجرات/١٠، **عن الإمام الصادق** (ع) (مَنْ عَظَّمَ دِينِ اللهِ، عَظَّمَ حَقّ إِخْوَانَهُ، وَمَنْ اسْتَخَفَّ بَدِينِهِ اسْتَخَفَّ بَإِخْوَانِهِ) البحار٧٤ص٢٨٧، **عن النبي** (ص) (كُلُّ حَسَبٍ وَنَسَبٍ يُنَقّطِعَ إلاّ حَسَبِيَ وَنَسَبِيّ) وعنه (ص) **(كُلُّ تَقِيٍّ نَقِيٍّ آلِيْ) (أَنَا جِدُّ كُلُّ تَقِي)** روح البيان١٣٨/٧ **(وَمَوَالِيكُمْ)** ولاية الدين أي أولياؤكم في الإسلام إشارة إلى علاقة المودة، فقولوا للواحد منهم يا أخي يا مولاي، وتطلق كلمة **(المولى)** على المنعم والمنعم عليه، وعلى القريب نسباً أو مودةً، وكلمة مولى لها معنى واسع **(وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ)** وليس عليكم **(جُنَاحٌ)** أي إثم في الخطأ غير المتعمّد فيمن نسبتموهم إلى غير آبائهم، **ولكن الخطأ أنواع**: منها خطأ الغرور والجهل بالجهل، ومنها خطأ الحب أو البغض الذي يصوّر الشيء لصاحبه كما يحب هو أن يتصوّره عن ذلك الشيء المخطئ، ومنها الخطأ بعد التحفظ واستفراغ الوسع والبحث الدقيق وهو أفضلهم وهو المطلوب، وكل أنواع الخطأ تستحق المؤاخذة ما عدا الأخير. عن النبي (ص) (رُفِعَ عَنْ أُمّتي الخَطأَ والنِسْيانْ وما اسْتُكْرِهُوا عَلَيِهِ وَمَاْ لاَ يَعْلَمُونْ وَمَا لاَ يُطِيْقُوْن وَماْ اضْطُرُوا عَلَيِهِ) الكاشف١٩٢/٦، **(وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ)** لكن تأثمون إذا تعمّدتم نسبتهم لغير آبائهم، عن النبي (ص) **(إِنِّي لَسْتُ أَخَافُ عَلَيْكُمْ الخَطَأَ، وَلكِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ العَمدَ)** الدر المنثور٦ص٥٦٥ **(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا)** واسع المغفرة للمخطئين **(رَحِيمًا)** عظيم الرحمة بالمؤمنين، يعفو عن المخطئ ويرحم المؤمن التائب.

فائدة: في هذه الآية دلالة على أنه لا يجوز الانتساب إلى غير الأب، عن النبي (ص) **(مَنْ أنْتَسَبَ إلَى غَيْرِ أَبِيهِ .. فَعَلَيْهِ لَعْنَةَ الله)** مجمع البيان٨ص١٣٢.

٦ – ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

سبب النزول: لما عزم النبي (ص) على غزوة تبوك، وأمر الناس بالخروج، فقال قوم نستأذن آباءنا وأمهاتنا، فنزلت هذه الآية. روح البيان٧ص١٣٨، يخبر الله تعالى المؤمنين يُعرّفهم مرتبة الرسول (ص) العليا فيعاملونه بمقتضى تلك المنزلة القيادية العليا، فقال (**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**) يقال فلان (**أَولى**) بكذا أي أحرى وأليق وأفضل وأحقّ بهم وأولى من أنفسهم في كل شيء من أمور الدّنيا والدين والآخرة، وحكمه أنفذ، وطاعته أوجب، وأمره أحق أن يطاع كقوله (**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**) الأحزاب/٣٦، عن الإمام الصادق (ع) (**لاَ يُمَحّضُ رجُلٌ الأيْمَانُ بَاللهِ حَتَّى يَكُونَ اللهُ أَحَبّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَ أَبِيهِ وَ أُمِّهِ وَ وَلَدِهِ وَأَهْلِه وَ مَالَه وَمِنْ النَّاسِ كُلُّهُمْ**) البحار٧٠ص٢٤، لأن النبي (ص) أحرص على هذه الأمة من الأب على أسرته، وأحرص من الإنسان على نفسه، لأنه يهديه للتي هي أقوم في دنياه وآخرته، وهو أحق بتدبيرهم، وحكمه عليهم أنفذ من حكمهم على أنفسهم، لأنه أحرص عليهم من حرصهم على أنفسهم، لو دعاهم النبي (ص) إلى أمر ودعتهم أنفسهم إلى أمر آخر، كانت إجابة النبي أولى بالتقديم، لأن النبي إنسان كامل معصوم عن الخطأ، فلا يدعوهم إلاّ إلى الكمال والخير لنفوسهم. **وتشير الآية الكريمة**: إنّ اتّباع القرآن والسُنّة الصحيحة التي لا تتعارض مع القرآن أولى من متابعة الآراء والأهواء والاجتهادات والرؤى المختلفة والسبل المتنوعة.

ومعنى ولاية النبي (ص): أي له الأولوية والأفضلية على المؤمنين في أنفسهم وفي كل ما يملكونه، أي الطاعة له من غير اعتراض أو شك، لحصول الثّقة التّامة بكماله وجلاله وعلمه وجماله في قوله وفعله، إنّ رسول الله كان أَمَة، وهو أفضل لنهضة أمته الحضارية، وأجدر من خدمة أنفسهم لأنفسهم في كل أمر من أمور الدين والدنيا (**النَّبِيُّ أَوْلَى**) ولاية النبي (ص) تامة وعامة على المؤمنين خاصة، والآية مطلقة غير مخصصة في مورد معيّن، وولاية النبي (ص) على المؤمنين أهم وأهدى وأفضل من ولايتهم على أنفسهم لحرصه عليهم وشفقته بهم وشدة نصحه لهم، وتقديم ولاية النبي العامة على جميع ولايات النفس والنسب والحسب، فالنفس الإنسانية أمّارة بالسوء، وقد تجهل بعض المصالح وتخفى عليها بعض المنافع، عن النبي (ص) (**لاَ يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبعاً لَمَا جئْتُ بِهِ**) روح البيان٦/١٧١، وليست هذه كلمة تقال على اللسان ولا خفيفة في الميزان، ولكنها منزلة سامية ومرتقى عال، لا يصل إليه القلب إلاّ بلمسة لدُّنيَّة مباشرة خاصة، تفتحه على هذا الأفق الواسع السامي الوضيء، الذي يتخلّص فيه الإنسان من تجسيد الذات وحبّ الأنا، ومن جاذبية النفس المتعلّقة في حبّ الحياة إلى حبّ الله ورسوله.

(**النَّبِيُّ أَوْلَى**) قرر القرآن الكريم الولاية العامة للنبي الكريم (ص) وهي ولاية نَفّاذَةٌ تتقدم على قرابة الدم وقرابة الرَّحم وحبّ النفس والمال والولد والأهل.. **للولاية معان متعددة** تختلف تبعاً إلى من تنسب إليه، فولاية الله سبحانه معناها السلطة التي لا تُغلب، ومعنى ولاية النبي (ص) طاعته والتسليم له من غير اعتراض، وما من شك أن تصرفات النبي بكاملها في قوله وفعله وتقريره هي لخير الفرد والجماعة على إطلاقهم، كقوله (**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**) التوبة/١٢٨، فإذا توجّه شيء في المخاطر إلى نفس النبي فليقه المؤمن بنفسه وماله وأولاده، وأن يطيعوه ويعينوه ولا يعصوه ولا يجادلوه، لأنه بدّل سوء حالهم في الجاهلية الظلماء بحسن حال الإسلام السلام، ونقلهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم والوعي والإيمان، وصياغة الشخصية الإسلامية النموذجية المميزة، فهو نبيّهم وقائدهم وطبيب نفوسهم وقدوتهم وأسوتهم والناهض بهم نحو خير الدنيا والآخرة، وتحمّل (ص) المعاناة والشدائد والأذى من أجل هداية الناس.

كقوله (**طه ، مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**) طه/١-٢ وقوله (**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**) النساء/٦٥، وفي الدر المنثور للسيوطي، إنّ النبي (ص) قال **لبريده**: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت بلى يارسول الله قال: (**مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَليّ مَوْلاَه**) وكل نبي أب لأمته، لذلك صار المؤمنون أخوة، لأن النبي (ص) أبوهم في الدّين، وكل نبي أب لأمته من حيث أنه يهديهم لما فيه خير الحياة وتنمية الحياة وتوازن الحياة، ويهدي للحياة الأبدية في العالم الآخر، قال النبي (ص) لعلي (ع) (**إِنَّا وَأَنْتَ أبوَا هذِهِ الأُمَّةُ**) روح البيان٧ص١٤٠، وعنه (ص) (**كُلُّ حَسَبٍ وَنَسَبٍ يَنْقطِعَ يوم القيامة إلاّ حَسَبيَ وَنَسَبي**) (**وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ**) الأم المعنوية كالأم الحقيقية، أي وأزواج النبي بمنزلة أمهاتهم في حرمة نكاحهن بعد وفاة النبي (ص) وفي وجوب احترامهن وتعظيمهن ما دمن على التقوى وطاعة الله ورسوله كقوله (**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ**) الأحزاب/٣٢ أي حرمة العقد عليهن ونكاحهن بالذات دون الذرية (**وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ**)

وذوو **القربى والأنساب والأقربون** لهم الأولوية في حق الميراث الأقرب فالأقرب، وهذه الآية أبطلت حكماً سابقاً في بدء الإسلام هو الإرث بالتآخي في الدين، كما آخى الرسول (ص) بين المهاجرين والأنصار، فيرث المهاجرون الأنصاريين دون قرابة (**فِي كِتَابِ اللَّهِ**) في القرآن الكريم أو في اللوح المحفوظ، أي في حكم الله تعالى وشريعته، على أن مَنْ كان أقرب إلى الميت نسباً فهو أولى بميراثه من الأبعد، فبنت الميت تحجب أخاه عن الأرث لأنها أقرب منه إلى المورث، قرابة درجة أولى، وأخته تحجب عَمّه لنفس السبب (**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ**) وغير المهاجرين الذين كانوا يرثون بالمؤاخاة الدينية في أول الدعوة (**إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ**

مَعْرُوفًا) استثناء منقطع، ولكن لا بأس عليكم أن تفعلوا إلى أحبائكم وأصدقائكم وأقربائكم غير الوارثين (**مَعْرُوفًا**) والمراد بالمعروف هنا أن تبرّوا وتكرموا وتحسنوا إلى هؤلاء الأعزاء بوصية خاصة أو هبة أو صدقة في حال حياتكم، أي إلاّ أن توصوا لهؤلاء بوصية عادلة تكرمهم شيئاً من تركة أموال الميت في حدود الثلث، فهم أحق بها من القريب الوارث (**كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا**) وهذا المعروف من الإحسان في إرث أولي الأرحام (**مَسْطُورًا**) مسطّراً ثابتاً مكتوباً في حكم الله وشريعته، ألا يرث كافر مسلماً، ولا يرث القريب الأبعد، القريب الأقرب،

فائدة:

سؤال: هل الولاية العامة للنبي المصطفى (ص) على المؤمنين تمنع مبدأ حرية الإنسان في الاختيار؟ في غرر الحكم (**وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً**) **الجواب:** يمكن الجمع بين حرية الإنسان وطاعته لله ولرسوله، فيكون معنى هذه الطاعة لله وللرسول المتمثلة (بالقرآن والسنّة الصحيحة) هي حرية في النفس وفي الحياة، وسعادة في الروح، وقوة في الإرادة لبناء المستقبل الأفضل، والتحرر من طاعة الطواغيت، **في غرر الحكم** (مَنْ تَرَكَ الشَّهَوَاتِ (المحرّمة) كَانَ حُرّاً) فالحر حرٌّ في جميع أحواله، وفيه أيضاً (**وَالحرّ حُرّ وَلُو مَسَهُ الْضّرُ، وَالْعَبْدَ عَبْدَ وَإنْ سَاعَدَهُ الْقَدَرُ**) **ومعنى الإنسان الحر** هو الذي يلتزم بالطريق المستقيم في جميع أحواله، قال فيلسوف شهير (**الحرية: ليست فضيلة داخلية بلا معنى، وإنما هي القدرة على بناء مستقبل أفضل**) وفي غرر الحكم (مَنْ قَامَ بَشَرَّائِطِ الحُرِيّة أُهِّلَ لِلْعِتْقِ، مَنْ قَصّر عَنْ أَحْكَامِ الحُرِيّةِ أُعِيْدَ إلَى الرّقِّ).

٧ – ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

يُصوّر القرآن أهمية هذا الميثاق المهم على سعة حركة التاريخ، لأنبياء أولي العزم من الرسل وعهدهم المتين الوثيق مع الله، فهو ذو أهمية بالغة كقوله (**مِيثَاقًا غَلِيظًا**) وقوله (إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) الإسراء/٣٤، **في غرر الحكم** (مَا أَيْقَنَ بالله من لم يَرْعَ عُهُوَدُه وَذِمَمُهُ) وفي هذا الميثاق العام دلالة مهمة على صعوبة هذه المسؤولية الرسالية الملقاة على عاتقهم، وهي مسؤولية غير محددة بهم وإنما هي مسؤولية عامة لكل المبلغين المخلصين لرسالات الله كقوله (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) الأحزاب/٣٩، **ميثاقهم:** عهدهم، **ميثاقاً غليظاً:** عهداً شديداً موّثقاً مؤكّداً بيمين حين اختارهم للنبوة، عهداً على الوفاء بما ألزموا به أنفسهم من تبليغ رسالة الله ودينه الحق بوضوح، وتبيان الشرائع والأحكام، والصبر على ما يصيبهم في سبيل نصرتها، إنه ميثاق واحد ومنهج واحد وأمانة رسالية واحدة يتسلّمها كل واحد منهم حتى يسلّمها لله تعالى بإخلاص، وكل الأنبياء (ع) لهم وحدة هدف وتعدد أدوار، كل نبي يعمل حسب زمنه وتكليفه وظروفه المحيطة به كقوله (**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**) آل عمران/١٨٧.

المعنى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ) واذكر يامُحَّد حين أخذ الله من جميع الأنبياء والرسل (ع) على عمومهم **(مِيثَاقَهُمْ)** أي عهدهم المؤكّد باليمين أن يفوا بما التزموا في تبليغ رسالة الله للناس بوضوح، وقيادة المؤمنين وتوجيههم وهدايتهم للتي هي أقوم، والتصديق بالأنبياء السابقين، والإيمان بالأنبياء اللاحقين ونصرتهم، وأخذ العهد على ذلك من أممهم، والصبر على ما يصيبهم في سبيل نصرتها، وأن يؤمنوا بالرسالة الإسلامية الخاتمة، وبالنبي مُحَّد (ص) خاتم الأنبياء كقوله **(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ)** آل عمران/٨١ وقوله **(أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)** الشورى/١٣، وأن تحبّبوا ولا تكّرهوا، وتوحّدوا ولا تفرّقوا، ويسّروا ولا تعسّروا، وأن تحببوا الله ورسالته إلى خلقه، **هذا هو المراد بالميثاق الغليظ** كقوله (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥، وهذه من نظام حركة السنن التاريخية في القرآن، ثم سمّى أربعة منهم بأسمائهم فقال **(وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ)** **(وَمِنْكَ)** وذكر سبحانه مُحَّداً بالخطاب، وذكر بالاسم نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى، وإنما قدم نبينا مُحَّد (ص) لفضله وشرفه تكريماً لشأنه ودوره وعلو منزلته الخاصة من بين كل الأنبياء، وأولهم في الخلق وإن كان آخرهم في البعث للنبوة، وفي الحديث **(أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلاَ فَخْر)** **وعنه أيضاً** (ما أُوذي نبي بمثل ما أوذيت في الله) كنز العمال خبر٥٨١٨، ودعوة مُحَّد (ص) الإسلامية الكاملة التامة والخاتمة والعالمية لكافة الناس كقوله **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)** سبأ/٢٨، وهي رسالة جامعة لكل رسالات الأنبياء (ع) فالأنبياء (ع) وإن سبقوه زمناً ولكنهم متأخرون عنه رتبة ودرجة، فهو (ص) إمامهم وجامع رسالتهم ومحقق أحلامهم ومبلّغها بمبعثه الشريف كقوله **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** الأنبياء/١٠٧ أي إنّ الله عز وجل أخذ ميثاق النبيين كافة، ولكنه أخذ من أولي العزم **(مِيثَاقًا غَلِيظًا)**

ووصف الميثاق بأنه غليظ ومتين لتلقى الحجة القطعية عليهم، ويستقيموا على منهج الله بعلم وإيمان، ورتّب السياق القرآني مراتب الأنبياء بحسب وجودهم في حركة الزمان، وهذا العهد أُخذ خاصة منك يامُحَّد، ومن نوح شيخ الأنبياء وإبراهيم الخليل وموسى الكليم وعيسى ابن مريم روح الله، وإنما خصّوا بالذكر بعد تعميم **(النَّبِيِّينَ)** بمزيد فضلهم، لأنهم **(أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)** الأحقاف/٣٥ وهم مشاهيرهم وأصحاب رسالات وشرائع، أي لكل واحد عزيمة مناسبة ليتحمّل تبليغ شريعته خاصة، يستمر العمل بها إلى الشريعة اللاحقة، فتنسخ الّلاحقة السابقة، حتى جاء النبي الكريم مُحَّد (ص) الخاتم حيث لا نبي بعده، وهو الرحمة المهداة، فجاء بالإسلام الحنيف وبشريعة خاتمة تامّة دائمة لا انقطاع لتأثيرها ولا انفصام لعروتها إلى يوم القيامة

(**وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**) وأخذ الله من هؤلاء الأفذاذ عهداً شديداً بالغ التوكيد، بالوفاء بما التزموا من تبليغ رسالة الله بوضوح للناس، ومعالجة شبهاتهم، والإجابة على أسئلتهم، **فائدة**: ١- (**مِيثَاقَهُمْ**) وإضافة الميثاق إلى ضمير (**النَّبِيِّينَ**) دليل على أن المراد بالميثاق خاص بهم، وهذا غير الميثاق المأخوذ من عامة البشر في عالم الذر كقوله (**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**) الأعراف/١٧٢، ٢- لم يرد في القرآن الميثاق الغليظ إلاّ ثلاث مرات، في عقد الزواج كقوله (وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) النساء/٢١، الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل بقوله (وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) النساء/١٥٤، والميثاق الذي أخذه على النبيين في هذه الآية كقوله (**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**) الأعراف/٦، ٣- وقد جرت العادة أن المَلِكَ إذا أرسل رسولاً وأمره بشيء، وقبله كان رسولاً يعمل ذلك الشيء كان ميثاقاً عليه، فإذا أعلمه بأنه سيسأله عما يقول ويفعل كان ذلك تغليظاً للميثاق، حتى لا يزيد ولا ينقص في رسالته.

٨ - ﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

والسبب في أخذ ذلك الميثاق والغاية منه، ومعناه العهد الشديد والميثاق البليغ الغليظ (**لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ**) هو مطالبة النبيين والمؤمنين الصادقين أن يظهروا للناس عامة في معاملاتهم المتنوعة ما في داخلهم من الصدق في القول والفعل، والوفاء بالعهد من دون تكلّف وتصنّع، واظهار عملهم الصالح النافع للمجتمع، ومدى صدقهم في تبليغ رسالة الله وحماية دينه من كل طارئ غريب يطرأ عليه، ويحاول أن يكون (**هذا الطارئ**) جزءاً من هذا الدين العظيم ليتطفل عليه، كالغلوّ كقوله (**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**) النساء/١٧١، وفي نهج البلاغة، حكم ٤٦٩ (**هَلَكَ فِيَّ رَجُلَانِ: مُحِبٌّ غَالٍ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ**) شديد البغض (**لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ**) عن مقاصدهم بأعمالهم هل كان القصد وجه الله الكريم أو شيئاً آخر، وهنا يتبين السؤال: عن الأقوال والأفعال ومقدار الانسجام بينهما والصدق في عرضهما، وفيه تنبيه أنه لا يكفي التحدّث بالحق بلسان جميل ووعود برّاقة وشعارات رنّانة دون العمل بها والوفاء معها (**لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ**) ليسألوا هؤلاء النخبة الصادقة عن هذا الميثاق الغليظ والعهد الموثّق هل وفّوا فيه وصدقوا، لإثارة الانتباه لأهمية الدور الكبير الرسالي الملقى على عاتقهم، وأنه لقول فصل وما هو بالهزل كقوله (**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**) الأحزاب/٢٣ وقوله (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) الحجرات/١٥، عن الإمام الصادق (ع) (**إِذَا سُئِلَ عَنْ صِدْقِهِ عَلَى أَيِّ وَجْهٍ قَالَه، فِيجَازَى بَحَسْبِهِ، فَكَيفَ يَكُونَ حَالِ الْكَاذِبِ**)؟

تفسير النور٧ص٢٩٤، إنه سؤال للتكريم وللإعلان والإعلام والتفخيم والتعظيم على رؤوس الأشهاد، وبيان الاستحقاق للتكريم في يوم الحشر العظيم الحاسم.

(لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ)

الصدق: مطابقة الأقوال مع الأفعال، والادّعاء مع الحقيقة، والشكل مع المضمون، والنوايا، ومطابقة المنطق الإنساني العام مع المنهج الإلهي الخاص، **في غرر الحكم (وَلِسَانُ الحَاْل أصْدَقُ مِنْ لِسَاْن المَقْاْل)** وهم الذين أثبتوا صدقهم وإخلاصهم وهم أهل الوفاء بعهدهم في ميادين حماية دين الله وإلقاء الحجة الواضحة على الناس، والجهاد في سبيل الله ومقاومة المجتمع الفاسد، والتضحية بالأموال والأنفس من أجل إعلاء كلمة الحق ونصرة القضايا المحقّة، فيجزون جزاء المؤمنين الموفّين بعهدهم، **فكان سؤال تشريف لا سؤال تعنيف،** وسؤال إيجاب لا سؤال عتاب، **والصدق له معنى واسع:** أن لا يكون في أحوالك شوائب، ولا في أعمالك عيوب ولا في اعتقادك ريب، ويبنى هذا الصدق على قاعدة الإخلاص في السرِّ والعلانية كقوله **(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)** الزمر/٣، عن النبي (ص) **(أَخْلِصَ قَلْبَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مَنْ الْعَمَلِ)** البحار٧٣ص١٧٥ **(وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)** أما الكافرون الذين أعرضوا عن الصدق العقائدي، وتفاعلوا مع الكذب الفني المتلوّن الخدّاع الصريح، وهم أهل الغدر والخيانة على إطلاقهم، فقد أعدّ الله لهم عذاباً أليماً موجعاً، بسبب عنادهم وفسادهم وإعراضهم عن قبول الحق، فتكون عقوبتهم على قدر جنايتهم. **فائدة:** ١- **والحكمة في سؤال الرسل** مع علمه تعالى بصدقهم، فكيف حال من لم يكونوا على درجة الصدق؟! وهو سؤال لتقبيح عمل الكفار يوم القيامة كقوله **(فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ)** الأعراف/٦، ٢- جعلت الآية الصادقين في مقابل الكافرين، أي إن الصدق ملازم للإيمان لا ينفكّ عنه.

٩ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

من خلال التربية القرآنية النموذجية الخاصة ندرك كيف كان الله يربّي الأمة الإسلامية من خلال حركة الواقع ومعاناته، لأن القرآن نزل مع حركة الواقع، فهو كتاب رباني واقعي ودستور عملي فيه تبيان لكل شيء، كما يبين في هذه المواقف المتنوعة المحفوفة بالبلاء والعناء والمحن وفي الشدة والرخاء في آن واحد، وَفِيْ الْمِحَنِ مِنَحٌ مِنَ اللهِ، وَفِيْ الْمَكَاْرِهِ مَكاْرِمٌ، وَفِيْ الْمَشَقَّاْتِ خِبْرَاْتٌ وَرَاحَات، وَفِيْ الْمُعَانَاةِ هِبْاة، وَفِيْ الْبَلاَيَاْ بِدَاْيَاْتٌ نِهَاْيَاْتُهَاْ الْكَرَاْمَاْتُ، عن الإمام الحسن العسكري (ع) **(مَاْ مِنْ بَلِيَةٍ إِلاَّ وَللهِ فِيْهَاْ نِعْمَةٌ تُحِيْطُ بِهَا)** البحار٧٨ص٣٧٤، نزلت هذه الآية إلى آية ٢٧ في **(وقعة الخندق، وتسمى غزوة الأحزاب)**

وخلاصتها: كما موجود في كتب السير والتاريخ والتفاسير الكبيرة، جاء جماعة من زعماء اليهود فاستحثوا زعماء قريش المشركين وعدد كبير من قبائل العرب الكافرين على حرب رسول الله (ص) والمسلمين واستئصالهم، ورصدوا لذلك المال الكثير، وأسسوا جيشاً ضخماً وزحفوا إلى المدينة بقيادة أبي سفيان، ولما علم الرسول (ص) **بذلك استشار أصحابه فاشار إليه سلمان المحمدي بحفر الخندق،** وحفر المسلمون ومعهم رسول الله يحفر بيده، فكان المؤمنون يلهبون الناس حماساً في أجر الجهاد والمجاهدين، وبالمقابل كان المنافقون يثبّطون الناس ويتسللون للهروب بغير علم الرسول، وتم حفر الخندق وجاء جيش الأحزاب بالآلاف، فخاف المسلمون بشدة، مع أن يهود بني قريضة كانوا في عهد مؤكّد مع النبي (ص) أن لا يعينوا عليه عدواً، فلما جاء جيش الأحزاب نقضوا العهد وأعلنوا الحرب في أصعب الظروف على المسلمين، فحاصروا المسلمين من فوقهم ومن أسفل منهم، فاقتحم بعض قادة المشركين الخندق من مكان ضيّق بقيادة (**عمر بن عبد ود**) الفارس الشجاع يعادل ألف فارس، فطلب النبي (ص) من الصحابة مبارزته فلم يخرج منهم واحد لشدة خوفهم، ولكن برز إليه الإمام علي بن أبي طالب (ع) وهو شاب بعمر العشرين، فتبارزا حتى قتله علي (ع) فقال النبي (ص) (**إنَّ ضَرْبَةَ عَليّ لعُمَرِ بَنَّ وُدِ العَامَري تُعادّلَ عِبادَةِ الثقّلِين**) وخرجت خيول المشركين من الخندق منهزمة، وحاصروا المسلمين وضربوهم بالسّهام والحجارة، فدعا النبي (ص) (**اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمَنَ رَّوْعِاتِنَا وَأَنْزَلَ السَّكِينَةِ عَلَيْنَا وَأَنصُرِنَا عَلَى الْقُوْمَ الْكَافِرِينَ**) حتى جاءهم نصر الله، فهبت عليهم ريح عاتية انتقامية فاقتلعت خيامهم وقلبت موازينهم وأفسدت كل شيء لهم، فانسحبوا مخذولين، وأيدّ الله دينه ونبيه بنصره كقوله (**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ**) الأحزاب/٢٥. تُصَوّر الآيات **القرآنية التالية المعركة بطريقة فنّية مجسّمة حيّة محركة للمشاعر وكأنها حدثت الآن.** وفي زماننا الحاضر سنة ٢٠٠٦م ينشر الإعلام عن قوة إسرائيل أنها أكبر قوة في منطقة الشرق الأوسط وجيشها لا يقهر! وهكذا تفعل الحرب النفسية (**الحرب الناعمة**)

حتى يستسلم المسلمون للأمر الواقع القاهر ولكن الحقيقة تقول إنَّ الحُرَّ حُرٌ عزيز في جميع أحواله، وإنّ العبدَ عبدٌ ذليل في جميع أحواله.

المعنى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ**) **ذكر النعمة:** شكرها وتقديرها وشكر منعمها كقوله (**وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**) لقمان/٢٠، الخطاب للصحابة الكرام، إنها نعمة عظيمة دعمكم الله بها في وقت الشدة يحثكم على شكرها وتقديرها، في دفع عنكم مؤامرة الأحزاب الماكرة الخطيرة والمريرة، كانت يد الله تُدبّرُ الأمور، وقدرته هي التي تدير المعركة، كقوله (**فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**)

الأنفال/١٨ (يُدَبِّرُ الْمَدِبِّرُونَ وَالقَضَاءُ يَضْحَكُ) أي: اذكروا أيها المؤمنون عندما كنتم في غزوة الخندق محاطين محاصرين بالأعداء من كل جهة، اذكروا واشكروا نعمة الله بالخلاص والنصر بطريقة إعجازية **(إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ)** حين جاءتكم جيوش الأحزاب الكثيرة المتحالفة من جميع الأطراف، وكان عددهم عشرة آلاف مقاتل، وهم من قبائل شتى بقيادة أبي سفيان، جاؤوا إلى المدينة المنوّرة، وكان مع النبي (ص) سبعمائة مقاتل، فلما سمع رسول الله (ص) بإقبالهم اجتمع مع المسلمين يستشيرهم كقوله **(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)** الشورى/٣٨، وحفروا الخندق وأشتد الخوف بين المسلمين.

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا) دفاعاً عنكم، ريحاً شديدة عنيفة ظلماء انتقامية باردة (ريح العذاب) أفسدت معسكرهم وقلّبت قدورهم واقتلعت خيامهم، وأفسدت كل شيء لهم، فتزلزلوا من داخل نفوسهم وعلى أرض الواقع حتى غادروا المعركة **(وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا)** وأرسلنا عليهم جنوداً من الملائكة لم تروها لمساعدتكم وتلقي في نفوس الأعداء الرعب المزلزل للبدن المحطّم للإرادة، ومن صفات النبي (ص) أنّ الله ينصره بسلاح الرهبة المعنوية، بإلقاء الرعب في نفوس أعدائه كقوله **(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)** آل عمران/١٥١ **(وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)** وكان الله مطلّع على كل ما تعملون في ترتيب الأسباب على المسبّبات **(بَصِيرًا)** بكل نواياكم واستعدادكم في حفر الخندق والثبات على نصرة النبي (ص) في تلك الظروف الرهيبة.

فائدة: النص القرآني لم يذكر أبطال المعركة كموقف الإمام علي (ع) وقتله لقائد الشرك عمرو بن عبد ود، مع عزة هذا الموقف المفصلي بالغ الأهمية في حركة التاريخ، وهكذا التربية القرآنية لا تركّز على إبراز أية ذات من أجل إظهارها، بل تركّز على تهذيب الذات، من أجل تزكيتها، وكيفية حصول نقلة تربوية من تجسيد الذات والاعتزاز بالأنا، إلى تهذيب الذات وتزكية النفس، ليصوّر السّياق القرآني بدل من إظهار الذات وتركيز الأضواء على بطل الموقف! هو التركيز على إظهار القيم والمبادئ والأخلاق الثابتة المهمة مع كل موقف، وإبراز السُنن النافعة الفاعلة الباقية، والدروس المستفادة من هذا الموقف. وعادة الاعتزاز بالموقف البطولي المشرّف أهم من صانعه، وقبل تركيز الأضواء على بطله، ويحيا الإنسان بمواقفه أكثر مما يحيا بعمره والتركيز على اسمه! إنه منهج التربية القرآنية الخاصة المميزة.

١٠ - ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾

يُصوّر القرآن حجم الهول والفزع والكرب، الذي روّع الرجال والنساء وكأنه كابوس ضاغط على النفوس، فلم يختلف الشعور بالكرب في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب وظنها بالله وتصوراتها لقيم الإيمان ومبادئ وأخلاق الإسلام **المعنى: (إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ)** اذكروا عندما أحاطت بكم جيوش الأحزاب الأعداء الكثيرة،

وحاصرتكم من كل جهة ولم يدع منفذاً، حيث جاؤوكم من فوقكم شمال المدينة، ويهود بني قريضة أسفل منكم في جنوبها **(وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ)** حين مالت الأبصار وانحرفت عن مقرها رعباً، وعظم البلاء والخوف والرعب والقلق على المسلمين **(وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)** كناية تشبيهية واستعارة بلاغية عن شدة الرهبة اضطراب الأرواح وقلق النفوس بشكل عام وانهيار الإرادات، وبلغت القلوب التي في الصدور الحلقوم فزعاً ورعباً، حتى كأن أحدهم انخلع قلبه عن مكانه ووصل إلى حنجرته، ومكان الحنجرة أول المرئ مدخل الطعام والشراب! مع الإحساس بالاختناق وضيق الصدر وانحباس النفس!

(وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا) اختلفت الظنون وتنوّعت، **قال بعضكم:** إنّ الإسلام سيمحق تماماً وَيُقْتل المسلمون كافة وستعود الجاهلية كما كانت، والله لن ينصر دينه ولا رسوله كقوله **(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)** آل عمران/١٥٤ وظن الرجل ميزان عقله وعنوان أصله، في غرر الحكم **(سُوءُ الظَّنّ يُفْسِدُ الأمُور وَ يَبْعَثُ عَلَى الشّرُورِ)** أما أصحاب الإيمان القوي الصادق الداخل في حصن حصين أمين ظنوا خيراً، وكانت عقيدتهم إحدى الحسنيين إما النصر والفتح والغلبة، وإما التضحية والشهادة في سبيل الله، عن النبي (ص) **(أشرفُ الْمَوْتِ قَتْلُ الشَّهَادَةِ)** البحار١٠٠ص٨، وعنه أيضاً **(موت في طاعة خير من حياة في معصية)** كنز العمال خبر١٠٨١، وقال الله في حقهم **(أُولَئِكَ عِبَادِي حَقًّا)**، وكلها تبيّن معادن الناس وتكشف عن حقيقتهم، فبلغ الظن كثير من الناس كل مبلغ سوء، لما رأوا من الأسباب المزلزلة المستحكمة والشدائد الضاغطة على النفوس، وحاصر الأحزاب المدينة مدة طويلة **يُصَوّرُ القرآن هذا الموقف الماكر الرهيب تصويراً فنيّاً مُجسّماً حيّاً بالغ الدقة ومنتهى البلاغة** وكأنه واقع الآن منذ فترة قصيرة! كقوله **(وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)** البقرة/٢١٤، **فائدة:** حالة الخوف حالة إنسانية طبيعية، بشرط أن لا تنحدر إلى حالة جبانة ضعيفة منهارة فاقدة للتوازن والإرادة، فتكون حالة منحرفة وسيئة وضارة، منهارة كقوله (مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) البقرة/١١٢، **في غرر الحكم** (خِفْ تَأمَنْ، وَلاَ تَأمَنْ فَتَخَفْ).

١١ – ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ) عند ذلك البلاء الشديد والفتنة العظيمة امتحن المؤمنون واختبروا بالمكاره والشدائد والمحن وظهرت معادنهم على حقيقتها، والهول الذي يزلزل المؤمنين الصادقين لابد أن يكون هوْلاً مروّعاً مرعباً يهز البدن ويزلزل الروح، فالابتلاء مدرسة تربوية واقعية عالية المضامين، فكما أن الذّهب الثمين يسلّط عليه النار ليعرف مقدار نقاوته، كذلك الإنسان المكّرم عند الله تعالى يسلط عليه البلاء، كل إنسان له بلاء بقدره ومقداره، ليكشف الإنسان عن نفسه بنفسه ويعرف مواطن الضعف والقوة فيها كقوله **(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا**

لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الكهف/٧ **(وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا) زلزلوا:** اضطربوا وارتعدوا من شدة الفزع حتى كأن الأرض تتزلزل بهم وتضطرب تحت أقدامهم!! وهو كناية تشبيهية واستعارة بلاغية عن شدة اضطراب النفوس وقلق القلوب، حتى يتمّيز المؤمن الصادق من المؤمن المدّعي **(المنافق)** كقوله **(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)** آل عمران/١٧٩.

وقوله (وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ) محمد/٤.

١٢ – ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

يبث المنافقون الشائعات في الحرب الإعلامية الناعمة، لزرع التفرقة بين صفوف المسلمين وإضعاف معنوياتهم كقوله **(يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ)** التوبة/٤٧، وجد المنافقون في الخوف المزلزل والشدة الآخذة بالخناق، فرصة مناسبة للكشف عن خبث نفوسهم وما كانوا يضمرون، ووجدوا فرصة للتخذيل وبث الشكوك في وعد الله ورسوله غير خائفين ولا مجاملين، فشدة الهول كشف عنهم الستار الرقيق الذي كانوا يتستّرون به من التظاهر بالإيمان، إنهم يعتمدون على عقولهم القاصرة ويكذبون إسلامهم **(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)** الروم/٣٠، ويصدقون ظنونهم السيئة والإشاعات الكاذبة، فلا هم حصروا ظنونهم في أنفسهم، ولا أنهم تركوا الناس وما يختارون لأنفسهم في وقت الشدة بعيداً عن شرّهم الذي يبثونه بينهم، وهكذا تكشف الشدائد والمحن عن معادن الناس وتظهر حقائقهم!.

المعنى: (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) واذكروا حين بلغت القلوب الحناجر فكان **(الْمُنَافِقُونَ)** الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإيمان، وهم يعتمدون على التلوّن والتقلّب والتذبذب وينعقون مع كل ناعق **(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)** مرض معنوي عام واسع الدلالة، وهو مرض النفاق والجحود والعناد، أي في عقولهم ضعف في العلم والفهم والإيمان وفقدان الوعي، وفي نفوسهم يعشعش الشك والخلل والخرافات والانحرافات والغلو وأنواع الفساد، فهم استسلموا ولم يسلموا، وتظاهروا بالإسلام، ولم يسلم الناس من يدهم ولسانهم، لذا يتأثرون بالدّعايات الكاذبة والإشاعات المضللة السائدة، فلم يخالط الإيمان قلوبهم ولم يستذوقوا حلاوة حبّ الله وطاعته، وهذه جماعات خطيرة ومريرة من شرّ الجماعات وأضرّها على مستقبل نهضة الشعوب الإسلامية في كل زمان ومكان، وهي موجودة في كل عصر كقوله **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ)** الحج/١١ **(مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) غروراً:** خداعاً وباطلاً، أي ما وعدنا الله ورسوله من النصر وإعلاء كلمة الحق والدين **(إِلَّا غُرُورًا)** إلاّ خداعاً وكذباً ووعداً باطلاً، **روي:** إن المنافقين قالوا: يعدنا محمّد أن يفتح مدائن كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن أن نذهب إلى الخلاء!

١٣ – ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾

قال قسم من المنافقين وهم يُحرّضون أهل المدينة على ترك الصفوف والحشود والعودة إلى بيوقم، بحجة أن إقامتهم أمام الخندق بهذا الشكل لا فائدة منه، وبيوقم مُعرَّضة للخطر من ورائهم، وهي دعوة خبيثة مشوشة للنفوس، تأتيهم من الثغرة الضعيفة التي تعاني منها العامة من الناس. **المعنى**: (**وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ**) وإذ قالت جماعة من المنافقين وهي تخاطب أهل يثرب، ويثرب من أسماء المدينة المنورة (**لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا**) لا إقامة ولا مقاومة ولا طاقة لكم بجيش الأحزاب الكثير الرّهيب، ولا نجاة منه إلاّ بالفرار، فادّعوا بمدّعيات ظاهرها يغرّ ويسّر وكأنها حقّ ولكن أيريد بها باطل وفي مضموها ضرر وخطر، وهكذا عمل المنافقين الخيانة والغدر وتخذيل الناس وسوء المواقف في وقت الشدة، فهم خطر على مستقبل المجتمع، كما أن التفّاحة الفاسدة تفسد غيرها من التفّاح السليم، كذلك المنافق يفسد غيره كما أفسد نفسه (**فَارْجِعُوا**) إلى منازلكم وأهلكم فهم أحوج إليكم واتركوا مُحمّداً وأصحابه، فنهاية المعركة معروفة بالفشل وخسارة المسلمين سلفاً (**وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ**) وكان طائفة أخرى من المنافقين يطلبون الإذن من النبي (ص) بمغادرة المعركة محتجين (**يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ**) **العورة**: من العار أي المذمّة، لذلك سمّي النساء عورة، وهو كناية بأن بيوقم غير حصينة ومنكشفة للعدو والسارق، فأكذبهم سبحانه فقال (**وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ**) ليس الأمر كما تزعمون، وليست مكشوفة لأحد، وهي حصينة، وهنا يكشف القرآن حقيقتهم ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال من أجل الفرار والهزيمة! (**إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا**) ما يريدون بهذه الكذبة إلاّ الهزيمة من ساحة القتال والهروب من الجهاد وعدم نصرة الحق من شدة اضطرابهم وخوفهم. هؤلاء أهل الخيانة والغدر ولا ثبات لهم عند الشدائد والمحن ولا اعتماد عليهم في كل موقف، ولا أمانة عندهم. كقوله (**فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ**) الفتح/١٠.

١٤ – ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾

يرسم القرآن الكريم صورة نفسية حركية داخلية عميقة ودقيقة التشخيص لمشاعر وضمائر المنافقين، وتبيّن تخلخل عقيدتهم وانهيار إرادتهم وتزلزل أنفسهم واستعدادهم للانسلاخ من القيّم والمبادئ والأخلاق، وترك الإسلام بسهولة فائقة بمجرد طلب منهم الارتداد! غير مبقين لأنفسهم شيئاً من العزّة، إنها حقائق لها دلالات عميقة تكشف عنها الآيات الكريمات، وأنها حقيقة مُرّة يعلن عنها علم النفس الحديث للدور الخياني للمنافقين كقوله (**فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ**) التوبة/٧٧، عن النبي (ص) (إِنِّي لاَ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلاَ مُشْرِكاً، أَمَّا الْمُؤمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِهِ،لكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مَنَافِقِ

الْجَنَانِ (القلب)، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ،وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ) الترغيب والترهيب ج١/ص١٢٧، **في غرر الحكم** (النِّفَاقِ: توأم الكفر، وأخو الشّرك، ويفسد الإيمان)

المعنى: (**وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا**) ولو فرض أن بيوتهم (**عَوْرَةٌ**) غير حصينة كما زعموا، ودخل جنود المشركين بيوتهم (**مِنْ أَقْطَارِهَا**) من جميع نواحي المدينة وجوانبها وهم فيها (**ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا**) **الفتنة**: الانقلاب والردّة والرجعة إلى الكفر والجاهلية، أي: ثم طلبوا منهم (**الْفِتْنَةَ**) أن يرتدّوا عن الإسلام وينضمّوا مع المشركين والمنافقين ولم يقاتلوهم (**لَآتَوْهَا**) لأجابوهم بسرعة ولأعطوهم ما طلبوا فوراً (**وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا**) (**إِلَّا يَسِيرًا**) وما تردّدوا ولا تعلّلوا وما توانوا عن الردة عن الإسلام إلى الشرك، مع الخنوع والخضوع والإستسلام الذليل السريع، وهذا وصف ذليل لهم وهم في غاية الذم، فهؤلاء لا يعتمد عليهم ولا ثقة بهم.

(**إِلَّا يَسِيرًا**) إلاّ قليلاً أي إلاّ من يتردد قليلاً وبعدها يخضعون ويستسلمون، لأنهم جمعوا بين العقيدة المشبوهة الواهنة التي لا ثبات لها، وبين الجبن والبخل وسوء الخلق وقسوة القلوب وضعف الإرادة التي لا يملكون معها مقاومة وثبات! وهكذا يكشفهم القرآن على حقيقتهم عارية نفوسهم من كل ستر، وهكذا يجب كشف المنافقين في الصفوف الإيمانية في كل زمان ومكان بأساليب فنيّة وخبرة حركية، كما وصف الإمام الحسين (ع) الناس في زمانه: (النَّاسُ عَبِيدُ الدُّنْيَا، وَالدِّينُ لَعِقٌّ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَادَرَّتَ مَعَايِشَهُمْ، فَإِذَا مُحِصّوُاْ بِالْبَلاَءِ قَلَّ الدَيّاَنُونَّ) تحف العقول ص١٧٦.

١٥ – ﴿ **وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا** ﴾

(**وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ**) لقد كان هؤلاء المنافقون أعطوا ربهم الله من قبل المعركة العهود والمواثيق المؤكّدة، **والعهد**: حفظ الشيء ومراعاتة من جميع جوانبه وأحواله، والمسلمون عند شروطهم في عهدهم، وقد كانوا عندما رأوا النصر المؤزّر في بدر ونيل الكرامة وتحصيل الغنائم قالوا: لئن أشهدنا الله قتالاً لنقاتلن مع النبي (ص) (**لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ**) لا ينهزمون ولا يفرّون من القتال، ويثبتون مع رسول الله حتى الموت، وبايعوا الرسول (ص) على السمع والطاعة فهم مسؤولون أمام تعهّدهم، ولكنهم ندموا على فعلهم ونقضوا عهدهم، ومالوا مع مؤامرة الأحزاب المشركة، وتركوا النبي (ص) في ساعة العسرة! والذي لا يصدق في أقواله فلا يصدق في أفعاله، والذي يسهل عليه التخلّي عن دين الله (**ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**) الروم/٣٠، يسهل عليه نقض العهود والمواثيق المؤكّدة، والذي ينقض العهد مع الله يسهل عليه نقض العهد مع الناس، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) الفتح/١٠، **نكث**: نقض العهد، وعن النبي (ص) (**مَنْ سَلّ سِيفَهُ فِي سَبِيلَ الله فَقَدَ بْايِعَ الله**) وعنه (ص) (**وَإِذاَ نَقَضُوا الْعَهْدَ سَلَّطَ الله عَلَيْهِمْ عَدُوَهُمْ**)

البحار١٠٠ص٤٦، وكان عرب الجاهلية يحترمون العهود ويحتقرون ناكثها (**وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا**) مطلوباً، أي وكان هذا العهد منهم جديراً بالوفاء والالتزام به وسيسألون عنه كقوله (**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) الحجر/٩٢-٩٣، عن النبي (ص) (أَلاَّ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عِنْ رَعِيَّتِهِ) صحيح مسلم٣ص١٤٣٩.

فائدة: (**عَاهَدُوا اللَّهَ**) إشارة إلى أن (**عَهْدُ اللَّهِ**) أشبه بكائن حيّ وقائد نموذجي مميز له تأثيره الفعّال، يقوم العهد في الناس مقام الرسول القائد المبلغ عن ربه بصدق، فلابد له في الناس من إكبار وإجلال واحترام والتزام. في غرر الحكم (مَاْ أَيْقَنَ بَاللهِ مَنْ لَمْ يَرْعَ عُهُوْدَهُ وَذِمَمَهُ).

١٦ – ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

قل للمنافقين يامُحمّد الحريصين على الحياة، إنَّ قدر الله وقدرته هي المسيطرة على الأحداث والوقائع ومتغيرات الظروف، وينتهي بها إلى النهاية المكتوبة والمرسومة والمحتومة، وفي موعدها الثابت لا يتقدم لحظة ولا يتأخر كقوله (**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ**) القمر/٥٢-٥٣ (**إِذاْ جَاْءَ الْقَدَرُ عَمِيَ الْبَصَرُ**) واستسلم للأمر الواقع، **المعنى:** (**قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ**) لن يفيدكم الفرار من ساحة القتال (**إِنْ فَرَرْتُمْ**) طلباً للنجاة (**مِنَ الْمَوْتِ**) الطبيعي أو فررتم من (**الْقَتْلِ**) طمعاً في البقاء وحرصاً على الحياة، ولو كانت حياة ذليلة خانعة، لأن الحياة والموت بيد الله، فإذا ما كتب الله على قوم الموت فإنه ملاقيكم، والمقدّر كائن لا محالة، وكل كائن آت، وكل آت قريب، والأجل المكتوب الثابت إن حضر لم يتأخّر بالفرار ولا يتقدّم بالقتال، فإن الهروب من الواقع لا يُغيّر من قضاء الله وقدره شيئاً، كقوله (**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ**) النساء/٧٨، وقوله (قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ) آل عمران/١٥٤، وفي نهج البلاغة (فَمَا يَنْجُو مِنَ المَوْتِ مَنْ خَافَهُ، وَلا يُعْطَى الْبَقَاءَ مَنْ أَحَبَّهُ) خطبة/٣٨، وعن الإمام علي (ع) (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَلْفُ ضَرْبَةٍ بِالسَّيْفِ أَهْوَنُ مِنْ مِيتَةٍ عَلَى الْفِرَاشِ**). صحيح قد تنفع الأسباب إذا لم تتعارض مع المسببات في القضاء والقدر، فإذا جاءت المسببات تلاشى كل سبب وبطلت كل وسيلة (**وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا**)

وكل موعد في الدنيا قريب (**وكل آتٍ قريب**) وكل متاع فيها قليل مهما كثر المتاع وتنوّع فهو قليل لأنه محدود ومنقطع، وهذا المتاع القليل لا يساوي فراركم وترككم أمر الله وخسارتكم نعيم الآخرة الأبدي السرمدي النموذجي الدائم. **ولو فرضنا جدلاً** أنه ينفعكم الفرار للنجاة، فإنهم لم يتمتّعوا بالدنيا إلاّ تمتّعاً قليلاً في زمان قليل ضمن العمر المكتوب بعد هذا الفرار، ثم تموتون في أجلكم المحدد قتلاً أو موتاً طبيعياً، ولكن هنالك فارق كبير بين النتيجتين (رُبَّ حَيَاْةٌ عَزِيزَةٌ سَبَبُهَاْ طَلَبُ الْمَوْتِ، وَموْتٌ ذَلِيْلٌ سَبَبُهُ طَلَبُ الْحَيَاْةِ)! (**إِذاْ كَان الْمَوْتُ فِي إِقْبَالٍ، والْعُمْرُ فِي**

إِدْبَار، فَسْرَعَانَ الْمُلْتَقَى) **فائدة: (الفرق بين الموت والقتل) القتل:** فعل خارجي يقدر عليه غير الله بمادة قاتلة فتزهق النفس عن الجسد بقدر مكتوب،فيموت مقتولاً كقوله **(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)** الرعد/٣٨، **أما الموت:** فهو ليس ضد الحياة وأنما صديق الحياة ويتعاون معها، **والموت:** ذهاب الحياة وخروج النفس عن الجسد عند نهاية مدّتها المرسومة بحلول الأجل المكتوب الثابت. كقوله (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) المنافقون/١١.

١٧ – ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

تبين الآية الكريمة أن الأسباب المنجيّة كلها لا تغني عن الإنسان شيئاً أمام إرادة الله في الشدة والرخاء كقوله **(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)** الأنعام/١٨ **المعنى (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ)** قل لهم يامُحَّد من هذا الذي **(يَعْصِمُكُمْ)** أي يمنعكم ويدفع عنكم قضاء الله، ومن ذا الذي يحول دون نفاذ مشيئته كقوله (مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ) يونس/٢٧ **(إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا) السوء:** كل ما يسوء الإنسان وَيَغُمُّه، سواء أكان عذاباً وشرّاً وقتلاً وهزيمة **(أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً) الرحمة:** الفضل والإحسان وهو كل ما يستحسنه الإنسان ويفرحه، سواء أكان نصراً وعزاً وقدرة، فإنه سبحانه هو المعطي وهو المانع، ولا يأتي بالخير إلاّ هو ولا يدفع السوء إلاّ هو **(وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا)** ولا يجدون لهم غير الله **(وَلِيًّا)** يتولى أمورهم فيحميهم ويجلب لهم الخيرات والبركات المادية والمعنوية **(وَلَا نَصِيرًا)** ولا يجدون نصيراً ينصرهم ويساعدهم على دفع أي سوء أو ضرر عنهم، فعليهم أن يمتثلوا طاعة الله تعالى المنفرد بالأمور كلها تدبيراً وتقديراً وتنظيماً وهيمنة على كل الكون والكائنات.

١٨ – ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

توَعّد الله تعالى بعقاب شديد لهؤلاء **(الْمُعَوِّقِينَ)** المثبطين لحركة المؤمنين والصارفين لهمم الناس وإرادتهم، ولهؤلاء أشباه ونظائر في كل عصر، يَرسِمُ القرآن صورة نفسّية مخزية، في لمسات بلاغية فنيّة بديعة، تصور الهلع الشديد في الشدة، والفرعنة والكبرياء وسلاطة الّلسان عند الرخاء! **المعنى (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ)** من المؤكد إنّ الله يعلم **(الْمُعَوِّقِينَ)** المثبطين لهمم وعزائم المؤمنين المقاتلين ويصدّونهم عن الجهاد والقتال فيمنعونهم عن نصرة النبي (ص) بكافة الأساليب وهم معكم وفيكم **(وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ)** ويعلم الله القائلين **(لِإِخْوَانِهِمْ)** المنافقين والكافرين وأصحابهم وعشائرهم، **ومعنى إخوانهم:** أي أصحاب الاتجاه الواحد والهدف المشترك كقوله (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) الإسراء/٢٧، اتركوا القتال مع مُحَّد (ص) و**(هَلُمَّ إِلَيْنَا)** اقبلوا إلينا كي تنجوا من القتل المحتوم، وتكونوا معنا في النعيم والحياة، واتركوا مُحَّداً وصحبه يهلكوا قتلاً ذريعاً **(وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ)** ولا يحضرون القتال بمختلف الظروف والأعذار **(إِلَّا قَلِيلًا)** إلاّ إتياناً قليلاً في زمان قليل، ولا تراهم يقاتلون إلاّ شيئاً قليلاً يتظاهرون به لإيهام

المؤمنين أنهم معهم إذا اضطروا إليه، فكشف الله مكرهم وتثبيطهم كقوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ) التوبة/٤٧، وفي نهج البلاغة (وَإِنَّ الْمُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِمَا أَتَى عَلَى لِسَانِهِ لاَ يَدْرِي مَاذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ) وعن رسول الله (ص) **(لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْد حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ)** و(فِي الإِمْتِحَانِ يُكْرَمُ الْمَرْءُ أَوْ يُهَانُ).

١٩ - ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

يُصَوِّرُ السياق القرآني النموذجي المميز نفوس المنافقين الخبيثة، في أساليب كنائية تشبيهية واستعارة بلاغية فنية مجسمة عالية الدقّة في وصفها فيقول: **(أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ) الشُّح**: البخل المقترن بالحرص، أي هم بخلاء على المسلمين في أحرج الظروف، بخلاء عليهم في كل شيء مادي ومعنوي، فهم بخلاء بأموالهم وأنفسهم في وقت الحرب وساعة العسرة، وبخلاء عليهم أيضاً بالعواطف والنصائح وفي المودّة والشفقة، فلا ينصحون ولا يُسدِّدون فهم يعبدون ذواتهم ويحرصون على مصالحهم الشخصية، أشدّ الحرص، ولا يريدون لهم الخير فلا يساعدونهم مادياً ومعنوياً، وتراهم تختلف حالتهم في وقت الشدة عن حالتهم في وقت الرخاء، فهؤلاء لا يبحثون عن عقيدة وإيمان وعلم، وإنما يبحثون عن منافع ومواقع، ومن لا تستقيم به الشريعة فلا تستقيم به أيّة طريقة! فالشدة تكشف حقائقهم المستورة مما لا يتيسّر كشفها في الرخاء، والذي لا يعرف حدّه ينقلب إلى ضده، سُئل الإمام الحسن (ع) ما الجبان؟ قال: **(النُكُولُ (الضعف والتخاذل) مَعَ العَدُوَ، وَالجرأةُ عَلَى الْصَّدِيقِ)** تحف العقول ص١٦٢، **(فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ)** هم جبناء جداً، فإذا جاء الخوف وحلَّ بهم الفزع حين تدور الحرب **(رَأَيْتَهُمْ)** يامُحَمّد والمنافقين ينظرون إليك وإلى المعركة القتالية في شدة رعب لا مثيل له، ويفقدون توازنهم وتنهار إرادتهم فتراهم **(يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ)** تتحرك حدقاتهم يُمْنَةً وُيُسَرَةً كحال **(كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ)** في معالجة سكرات الموت أو يصاب بالغشيان والإغماء بسبب شدة جبنهم وغلبة الخوف الكابوس الشديد عليهم، الذي أذهلهم واختلّت عقولهم وانخلعت قلوبهم، وهم ينظرون إلى النبي (ص) ليحرسهم ويحميهم ويدافع عنهم، ولكن وآه بعد لكن **(فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ)** وحلّ الأمن الاجتماعي واطمأنّت القلوب وجمعت الغنائم.

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) الأحزاب/٢٥، ملأوا الدنيا بشجاعتهم بألسنتهم الفارغة الجارحة ويتظاهرون بشجاعة الشجعان **(سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ)** يطعنوكم ويضربوكم ويؤذوكم بألسنتهم السليطة الصارمة النافذة الحديدية الحادة المؤلمة، حيث تؤثّر تأثير الحديد الشديد والسيف

البتار، وبكلامهم البذيء الجارح المزعج وارتفاع أصواتهم، وبالغوا فيكم طعناً وذمّاً، وحين تسمعهم تظنهم أهل الشجاعة والإقدام وكأنهم هم الفاتحون.

(**أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ**) وهم بخلاء لا يفعلون الخير المادي والمعنوي ولا هم من أهل الخير، وهم بخلاء أيضاً عند تقسيم الغنائم، يجادلون بالباطل طلباً لمزيد حصتهم من الغنائم، **وما أشبه هؤلاء بأهل الشعارات الدينية المزيّفة** والدعايات الوطنية المزخرفة، في هذا الزمان وفي كل زمان، ولكن عند الناس الطيبين في كل أمة توجد حاسة خَفيَّة في أعماقهم تكشف نفاقهم وتذبذبهم ولا تخفى عليهم هذه الأغشية الكاذبة، والشّعارات البرّاقة الخادعة (**أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا**) ولم يخالط الإيمان قلوبهم ولم يستذوقوا حلاوته وحقيقته، وإن أسلموا ظاهراً، بل استسلموا ولم يسلموا.

عن النبي (ص) (**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المسلمون مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ**) كنز العمال ج١ص١٤٩، موقف هؤلاء الجبناء الخبثاء يثير السخرية ويبعث العجب في تقلّب مواقفهم، هم في ساعة الخوف ارتعاش وانهيار وخوار، وفي ساعة ذهاب الخوف ومجيء الأمن غرور وكبرياء وغطرسة وفرعنة! فصاروا أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله كقوله (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ) السجدة/٢٢، عن النبي (ص) (**مَنْ مَنَعَ مالَهُ مِنَ الأَخيَارِ اِخْتِيَاْراً صَرَفَ اللهُ مَاْلَهُ إِلَى الأَشْرَاْرِ اِضْطِرَاْرَاً**) البحار٩٦ص١٣١، عن الإمام الصادق (ع) (**مَنْ مَنَعَ حَقّاً لله عَزّ وَجَلّ أَنْفَقَ فِي بَاطِلٍ مَثْلِيهِ**)! وسائل الشيعة٦ص٢٥ (**فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ**) فأبطل الله أعمالهم ولم يقبل منها شيئاً لأنها لغير الله، وعدم حصول الثواب عليها بسبب نفاقهم وكفرهم وريائهم وتلونهم، لأن الإيمان الصادق شرط في قبول الأعمال، وفي الحديث (**مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُوْلِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْياً يصِيْبُهاْ أو امْرأةٌ يَتزَوَجُهاْ فَهِجْرَتَهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِليهِ**) (**وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**) وكان ذلك الإبطال والإحباط لأعمالهم على الله (**يَسِيرًا**) هيّناً سهلاً على الله لتعلّق إرادته به، ولأنه ليس هناك عسير على الله سبحانه (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) النساء/٤٧.

٢٠ — ﴿**يَحْسَبُونَ الأَحزابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا**﴾

يُصوِّرُ القرآن بأسلوبه البلاغي الفني حالتهم المزرية، وقلقهم النفسي المتغلغل في أعماقهم، يُصوّر ما يدور في أذهانهم بدقة وكأنهم منهارون أذلاّء الآن **المعنى**: (**يَحْسَبُونَ الأحزاب لَمْ يَذْهَبُوا**) بل كانوا (**يَحْسَبُونَ**) أي يظنون من شدة الخوف والرعب أن الأحزاب المجتمعين المشركين المتحزبين ضد الرسول (ص) (**لَمْ يَذْهَبُوا**) ولم ينهزموا ومازالوا حول المدينة، والواقع أنهم انصرفوا، لم يكونوا مصدقين أن المعركة العسكرية انتهت بهذه البساطة، وقد خاب ظنهم

بسبب قلقهم وغلبة الخوف والهلع عليهم، وهذه من صفات الجبناء الخبثاء، المتخاذلين في أنفسهم والمخذّلين لغيرهم **(وَإِنْ يَأْتِ الأحزاب)** ولو عاد الأحزاب الكفار إلى المدينة مرة أخرى للقتال **(يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ)** يتمنى هؤلاء المنافقون الجبناء.

(بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ) خارجون إلى البادية البعيدة بين البدو الرُحَّل يختفون هناك، لا يشاركون أهل المدينة العرب في أي شيء، ولا يعلمون ما يجري على أهلها، يتمنّون هذه الأمنيات المضحكة مع أنهم قاعدون في بيوتهم بعيدون عن المعركة، إنه الخوف الشديد الذي أخذ إرادتهم والهلع والفزع والقلق المزلزل لأبدانهم، حذراً من القتل وهروباً من القتال والجهاد! **(يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ)** وأخباركم من أي مسافر آخر الأخبار، سؤال الغريب عن القريب القادم من المدينة، فهم يرغبون أن يسمعوا الأخبار لا أن يصنعوها، ومع ذلك أنهم يمنّون عليكم بأنهم كانوا يتابعون أخباركم دائماً !

(وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ) ولو ظلوا بينكم في ساحة القتال ولن يظلوا **(مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا)** ما قاتلوا الأحزاب إلاّ مشاركة شكلية ظاهرية لإثبات وجودهم في المعركة لفترة قليلة ومشاركة ضئيلة، بدافع الرياء والسمعة والخوف من الملامة والعار بين الناس، ثم ينهزمون لحرصهم على حياتهم، فلا تحزنوا لذهابهم ولا تفرحوا بوجودهم بينكم لأن ضررهم أقرب من نفعهم! كقوله **(لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ)** التوبة/٤٧، **خبالاً**: فساداً وشراً.

٢١ – ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

الرسول المصطفى (ص) شخصية إسلامية عالمية متكاملة مؤثرة مميزة مسددة ومؤيدة، فالإنسان الذي يقتدي به يقوده إلى ما هو عليه من الكمال والجمال والجلال، فالاقتداء مسألة نسبية، فبمقدار نسبة الاقتداء به (ص) يكون التكامل، وبمقدار الإدبار عنه يكون التسافل، ومن اقتدى بالرجال المدّعين أنهم من أهل العلم والصلاح، قادوه إلى ما هم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر، والذي لا يفكّر يقوده الّذين يفكرون، لذلك لا يمكن معرفة الحق عن طريق رجاله، عن الإمام علي (ع) **(إعْرِفْ الحقّ تَعْرِفَ أهلَهُ وَاعْرِفْ البَاْطل تعرِف أهَلَهُ)** أمالي المفيد ص٣، وعن الإمام الصادق (ع) (مَنْ عَرَفَ دِينهُ مِنْ كتابِ الله عَزّ وَجَلّ زَالَتْ الجِبَال قَبَلَ أنَّ يزُوَلَ، وَمَنْ دَخلَ فيَ أمْرٍ بِجَهلٍ خَرَجَ مِنْهُ بِجَهلٍ) البحار١٠٣/٢ **المعنى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)** لقد كان لكم في وجود رسول الله (ص) نعمة كبيرة بينكم صاحب الخلق العظيم **(أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) أسوة:** قدوة وقيادة وسيادة وسنة صالحة ومسيرة فالحة وسيرة ناجحة لكم أيها المؤمنون **(حَسَنَةٌ)** صالحة نافعة في كل شيء من أمور الدنيا والآخرة، وفي جميع أحواله في الشدة والرخاء، في الغنى والفقر، في الحرب والسلم، وترك مخالفته في قول أو فعل، فهو في

نفسه (**أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) ولغيره (**أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) ويفلح من يقتدي به (**أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) سنة حميدة، نعمة النعم، وقمة القمم عالية المضامين، تقود الإنسان إلى التوازن العام فينال خير الدنيا والآخرة، فهو (**قدوة حسنة**) في قوله وفعله وتقريره وفي حركته وسكونه.

(قدوة حسنة)

في عباداته ومعاملاته مع نفسه ومع أهله ومع الناس ومع الله عز وجل (**قدوة حسنة**) في علمه ووعيه وأخلاقه وجهاده وتضحيته في سبيل الله، حقاً إنها شخصية متكاملة مؤثرة في جميع الأحوال والأشكال، وفي كل زمان ومكان ومع كل إنسان! (**أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) **حسنة**: بما يستحسنه طبع الإنسان العاقل السوي في كل جيل، فيه صفات تكاملية وجمالية وجلالية نادرة، ونعم معنوية نموذجية مميزة خاصة مرغوبة ومحبوبة، التي يطمح أن يحصل عليها الإنسان ويَسّر بها، ويفخر بها مع نفسه ومع الناس ومع الله. (**أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) المثل الأعلى كقوله (**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى**) النحل/٦٠ عن النبي (ص) (**أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي**)نور الثقلين٥/٣٩٢، **عن الإمام الصادق** (ع) (إنّ الله عزّ وجل أدّب نبيّه فأحسن أدبه، فلّما أكمل له الأدب قال (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) القلم/٤، ثم فوّض إليه أمر النّاس والأمّة ليسوس عباده) نور الثقلين٥/٣٨٩، والنبي المصطفى (ص) النموذج الأسمى في قوله وفعله كقوله (**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**)النجم/٣-٤ لذلك وجب عليكم وجوب عقلي، اتباع منهجه وسيرته وسنته وسلوك طريقته المثلى، **سؤال**: هل النبي (ص) (**أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) لجميع الناس؟ **الجواب**: لا، وهذا الاقتداء والتأسّي لا يتأتّى ولا يتيسّر ولا يوفّق له إلاّ من أراده وأحبه ووعى أهميته ودوره في حياته وسعى من أجله، وأيضاً لا يوفّق للاقتداء بالنبي (ص) إلاّ (**لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**) لمن كان (**يَرْجُو**) أي يأمل رضا الله وفضله ورحمته، ويحس بقربه وفضله وطاعته وإحسانه، فيصبر على البلاء ويصدق في دينه ويزهد في الدنيا، عن النبي (ص) (أَنْ يَعْمَلَ لِلدُّنْيَا بِقَدْرِ عُمُرِهِ فِيهَا، وَيَعْمَلَ لِلاخِرَةِ بِقَدْرِ بِقَائِهِ فِيهَا) والفوز باليوم الآخر يوم القيامة (**وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**) بلسانه وقلبه وجوارحه، وفي الشدة والرخاء وفي جميع أحواله وأشكاله، فلم ينسه سبحانه في أي حال من الأحوال، فكان ذلك موجباً لطاعة الله في تكاليفه كلها وإقامة الفرائض الخمس والمحافظة عليها، والذكر لذّة المحبين وشوق الصالحين، كقوله (**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**) الرعد/٢٨، عن النبي (ص) (**بِذِكْرِ الله تُحْيِى الْقُلُوبِ، وَبنسيانِهِ مَوتِهَا**) تنبيه الخواطر ص٣٦٠.

فائدة: ١- قال (**أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) ولم يقل (**قدوة حسنة**) لأن معنى الأسوة أشمل وأوسع وأعمق وأهم من القدوة، **الأسوة**: هي ولاء ووفاء وانتماء واتّباع واقتداء من جميع الجهات، وفي كل الأحوال وفي جميع الأشكال وفي شؤون الدنيا والآخرة، وفي كل وقت ومكان، وفي قوله وفعله وتقريره، لذلك الأسوة من اختصاص الأنبياء المعصومين (ع)، والقدوة تكون لغير المعصوم،

والقدوة أن تقتدي به بجانب معيّن، بجانب القوة المميزة المعينة فقط لأنه لا يمتلك كل مقوِّمات الشخصية القوية بكل خصائص القوة ومواردها، وليس في جميع جوانب شخصيته وليس في كل الأحوال، فالأسوة أعمّ معنى ودلالة من القدوة، ٢- **القدوة نوعان:** قدوة حسنة وقدوة سيئة، فالقدوة (أو الأسوة الحسنة) في الرسول (ص) وهي القناعة الثابتة في القلب على أنه (ص) الهادي للصراط المستقيم.

كقوله (**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**) الشورى/٥٢، وأما القدوة بغيره (ص) إذا وافقه في منهجه فهو قدوة حسنة كقوله (**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ**) الأنعام/٩٠، وإذا خالفه (ص) فهو قدوة سيئة، كقول المشركين حين دعتهم الرسل للتأسي بهم كقوله (**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ**) الزخرف/٢٣، ٣- **وردت (الأُسْوَةٌ)** في موضعين في القرآن الكريم: في إبراهيم (ع) وفي محمد (ص) وكلاهما (**أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) في قومهم (ولنا أيضاً) بوجه الضلال المنتشر وأعداء دين الله الخالص، كقوله (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) الممتحنة/٤ إنهم نالوا منزلة الأسوة الحسنة، ودرجة المثل الأعلى، لأنهم قالوا كلمة الحق الثقيل في ظروف إرهابية يصعب قولها! إنّهم مشروع جهاد نبيل وتضحية شريفة وعناصر فداء واستشهاد في سبيل الله، إنهم يدركون قيمة وأهمية هذه التجربة المميزة النموذجية ووزنها الجليل عند الله تعالى، وأثرها المفيد على النفوس في حركة الواقع، وأثرها الكبير الممتد في حركة التاريخ، إنها مواقف (**أفضل الجهاد كلمة حق في مجتمع فاسد معارض للحق**) إنهم تحدّوا قومهم الطغاة القساة البغاة، وتحمّلوا الأذى الكثير، وصبروا صبر الأحرار، وَثَبّتُوا مواقف الأبرار أباة الضيم الأبطال الكرام، فيحيوا بمواقفهم أكثر مما يَحيَوا بأعمارهم، وأفضل مما يَحيَوُا بخطاباتهم، فصاروا مثلاً يقتدى به، ومثالاً نموذجياً مميزاً يُشَارُ إليه بالبنان! فكانوا قدوة حسنة في حياتهم، وقدوة جهادية فدائية في مماتهم، ولم يمت من عاش ذكره، ولم يمت من بقيت مواقفه يُقتدى بها. **في غرر الحكم (الْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ، والْمَغْلُوبُ بِالْحَقّ غَالِبٌ)!**

كقوله (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) النساء/١٢٥ **معنى الآية** (باختصار) لا أَحُدَ أحسن ديناً وموقفاً ممن إنقاد لمنهج الله (**وَهُوَ مُحْسِنٌ**) واتّبع دين إبراهيم الخليل، المجاهد والمقاوم والمعارض بنفسه ولوحده أمة كاملة من الضلال، فأصبح أمة بذاته، وأمة بفعله، كقوله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) النحل/١٢٠، ونالَ درجة (**الحنيف**) المثلى، وهو المائل عن كل ضلال في أجواء مليئة بالضلال البعيد، فتبنّى إبراهيم (ع) مشروع المعارضة والمقاومة، واعتمد أن (الْمُسْتَمِيْتَ لَا يَمُوتُ) لأنه يحيا بمواقفه، ويحيا بموته. **عن الإمام علي** (ع) (أُطْلُبُوا المَوْتَ تُوهَبُ لَكُمْ الحَيَاةَ) موسوعة اشهادة١/٢٨٧. ٤- (**أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**)

الأسوة هنا لم يفرضها الدين فرضاً واجباً كفرض العبادات، ولكن استحسنها العقل السليم وأوجبها العرف الإجتماعي وفرضت أهميتها الحاجة الماسة لها، في كل عصر للرجال والنساء والكبار والصغار معاً، أنه **لابد للإنسان من قدوة صالحة يقتدى بها في حياته** في كل الأحوال، والمؤمن الحق هو الذي يقتدي بنبيه (ص) في كل الأحوال والأشكال ويذكر الله ويتعلّق به ولا ينساه، إذاً: لابد للإنسان من قدوة، فإن أعرض عن القدوة الحسنة فسوف تليق به القدوة السيئة.

في شرح نهج البلاغة **(وَإِنَّهُ مَنْ لاَ يَنْفَعُهُ الحقُّ يَضُرّهُ البَاطِلُ، وَمَنْ لا يستقم بِهِ الهُدَى تضرّه الضلالة، ومَنْ لاَ يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرهُ الشَّكَ)** ابن أبي الحديد٢٠ص٩١، ٥- **إثارات فكرية بحاجة إلى أجوبة من القارئ الكريم لم أجب** عليها للاختصار- لماذا القدوة؟ - أهمية القدوة – ضرورة القدوة – اختيار القدوة **(معرفة القدوة)** – اختبار القدوة – القدوة اللائقة والمتوافقة – القدوة الدائمة عالية المضامين – القدوة المؤقتة مرحلية ومحدودة في جوانب معينة – القدوة الشاملة والقدوة الجزئية، القدوة النسبية، ٦- من صفات **(القدوة الحسنة) إنها تمتلك صفات الجذب**، ولها قدرة قيادية في توجيه الجماهير وهي ذات كفاءة واختصاص ونزاهة وعفّة وسداد وأمانة ورشاد، شخصية مهيوبة وموهوبة ومرغوبة ومحبوبة ومؤثرة، خيرها مأمول وشرّها مأمون، وكلما تزداد منها قرباً تزداد حبّاً وتعلّقاً، فهي تُضحّي من أجل خدمة الناس وقضاء حاجاتهم، وتفضّل المصلحة العامة على مصلحتها الخاصة! **في غرر الحكم** (خَيْرُ النّاسِ مَنْ يَنْفَع النَّاسَ ، وشَرُّ النّاسِ مَنْ يَضُرَّ (يظلم) النَّاس).

٢٢ – ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾

ثم حكى الله تعالى موقف المؤمنين الصادقين في غزوة الأحزاب، وهي صورة واقعية حركية تنبض بالحياة من صور التأسّي برسول الله (ص)، إنهم أثناء رؤيتهم جنود جيش الأحزاب الكثيرة، فلم يهنوا ولم يضعفوا ولم ترهبهم كثرة العدو وعُدّته ولم يفزعهم الموت بل يتمنّون التضحية والشهادة في سبيل إعلاء كلمة الله، ولهذا فإنهم حين رأوا الأحزاب، رأوا فيهم تحقيق ما وعدهم الله ورسوله به من الابتلاء، أي أنهم سيلاقون ألواناً من المحن والشدائد، وأن أهل الكفر والشرك سيجتمعون على حربهم، متّخذين من هذا البلاء المزلزل الشديد، ومن قلقهم وكثرة أعدائهم مادة فعّالة للطمأنينة النفسية والثقة بالله وزيادة الارتباط والتعلّق به والاستبشار بالنصر واليقين بالظفر والغلبة، إنها مواقف نموذجية ثابتة يقينية تظهر روح الإيمان والجهاد وبذل الجهد والنفس في سبيل الله، **المعنى (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأحزاب)** لما شاهد المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب الكثيرة المسلّحة المتآمرة يوم الخندق تحاصرهم من كل جانب، لقد كانوا ناساً من البشر المؤمنين ولهم طاقة محدودة، ولكن طاقة إيمانهم القوية غلبت زلزال الموقف ورهبته وقوته،

فَحَكَمَ إيمانهم وسيطر على شخصيتهم في أشدّ المواقف وأصعبها!! **وهكذا يصوغ الإسلام الشخصية المستقيمة الثابتة في كل الأحوال في الشدة والرخاء،** وليس مطلوباً منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري ولا يتحوّلوا جنساً آخر، ولكنهم كانوا مرتبطين بالعروة الوثقى لا انفصام لها التي تشدّهم بالله سبحانه، وتمنعهم من السقوط من شدة الزلزال وقوة الأهوال، وتجدد فيهم الأمل وتحصّنهم من اليأس، وكانوا في الشدة والرخاء نموذجاً فريداً يقتدى به في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير، عن الإمام الباقر (ع) **(الْمُؤْمِنُ أَصْلَبُ مِنَ الْجَبَلِ، الْجَبَلُ يُسْتَفَلُّ مِنْهُ بَالْمَعَاوِلِ، وَالْمُؤْمِنُ لاَ يُسْتَفَلُّ مِنَ دِينِهِ شَيْء)!** الكافي٢ص٢٤١ وعن الإمام الصادق (ع) (إنّ الْمُؤْمِنَ أشدّ مِنْ زُبَرِ الحَدِيدِ، إنّ زُبَرَ الحَديدِ إذا دَخَلَ النّار تَغيَّرَ وإنَ الْمُؤْمِنَ لَوْ قُتِلَ ثُمَّ نُشِرَ ثُمَّ قُتِلَ لَمْ يَتَغَيَّرَ قَلْبُهُ) البحار٦٧ص٣٠٤، **عن النبي (ص)** (إنَّ مِنْ أُمَّتِي لَرِجَالاً الإِيْمَانُ أَثْبَتُ فِي قُلُوُبِهِمْ مِنَ الْجِبَاْلِ الرَّوَاْسِيْ) مجمع البيان٣/١٤٤ بلغوا في بشريتهم هذه أعلى قمة مميزة مهيئة لبني الإنسان، إنه التوازن الإيماني العلمي المنظّم الذي يصوغ ذلك النموذج الصالح الثابت القدوة الحسنة في صدر الإسلام، عن النبي (ص) **(الإِسْلاَمُ يَسْبِكُ الرِّجَال كَمَا تَسبكَ النَّارُ خُبْث الْحَدِيد وَالْذّهب وَ الفِضَّة)** كنز العمال ج١ص٧٨ **(قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ)** هذا ما وعدنا الله في القرآن بأننا لن ندخل الجنة حتى نزلزل ونمتحن امتحاناً شديداً كقوله (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) البقرة/٢١٤، وهذا ما وعدنا رسول الله (ص) بأن المشركين سيتظاهرون أي يتعاونون علينا بالإثم والعدوان من أعداء الله والدين، وسنلاقي منهم أنواع المحن والشدائد كقوله **(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)** العنكبوت/٢-٣، وقول رسول الله (ص) (سيْشتدُ الأمرُ باجتماع الأحزاب عَلَيْكُمْ، وَالعَاقِبَةُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ) المراغي١٤٦/٢١، كقوله **(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)** القصص/٨٣، وثبتهم على التسليم بالقضاء، **(وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ)** في كل ما يصدر عنهما **(وَمَا زَادَهُمْ)** هول الموقف الرهيب المزلزل الذي ينذر بالخطر والاستئصال **(إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا)** إلاّ إيماناً قوياً عميقاً بالله في أعماق قلوبهم أن دين الله سينتصر زيادة على إيمانهم، بما عزموا عليه من نصرة دين الله الحق **(وَتَسْلِيمًا)** واستسلاماً قلبياً وانقياداً في جوارحهم لأمر الله ورسوله بالجهاد والتضحية في سبيل الله كقوله (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) غافر/٥١ وقوله (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) الحج/٣٨، **أما المنافقون:** فقد ازدادوا نفاقاً وقلقاً وعناداً وقالوا (مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا) الأحزاب/١٢. ويقول الله لهم (وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) الأنعام/١١٠.

٢٣ – ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾

لقد كان من أولئك المزلزلين في غزوة الأحزاب (**رِجَالٌ**) أبطال صادقون، نذروا أنهم إذا أدركوا حرباً مع رسول الله (ص) ثبتوا وقاتلوا الأعداء حتى إحدى الحسنيين إما النصر المؤزَّر وإعلاء كلمة الله، وإما الشهادة في سبيل الله، فحقيقة الرجولية ليس بجنس الذكورة وظاهرها وإنما بصدقها وثباتها، ومن لم يدخل في ميادين الصدق والثبات فقد خرج من حدِّ الرجولية، وإن كان رجلاً بجنسه ومظهره! **المعنى**: (**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ**) من المؤمنين الذين اقتدوا برسول الله (**أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**) وسَلمُوا من النفاق والتقلّب والتذبذب، وامتازوا عن غيرهم بالإخلاص عن الإمام علي (ع) (**فِي الإِخْلاَصِ يَكُوْنُ الخَلاَصُ**) تنبيه الخواطر ص٣٩٠، وبصدق العهد والثبات عليه الذي أعطوه لله تعالى على أنفسهم، إذ ليس كل المؤمنين على درجة واحدة من الإيمان، بل هم درجات في الإيمان والعلم والوعي والصبر والخُلُقُ.. كما أنهم درجات متباينة ومنازل متفاوتة عند الله، أما هؤلاء (**رِجَالٌ**)

وجاءت نكرة للتفخيم والتعظيم، كملت رجولتهم وحسنت عبادتهم لله عز وجل وصدقت معاملاتهم مع الناس، فكانوا رجالاً حقاً وصدقاً في أقوالهم وأفعالهم وفي الشدّة والرّخاء كقوله (**رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ**) النور/٣٧ (**صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ**) **الصدق**: أخو العدل وهو لسان الحق، وخير القول، وجمال المعنى، والصدق مطابقة المنطق الإنساني للوضع الإلهي، كذلك صار في الصدق صلاح كل شيء، وفي الكذب فساد كل شيء، إنهم صدقوا وأثبتوا صدقهم بدلائل قاطعة تدل عليه، فصدقوا مع أنفسهم ومع الناس وفيما عاهدوا الله عليه وأوفوا به وأكملوه، من السمع والطاعة والالتزام بمنهج الله وإعلاء كلمة الله والجهاد مع رسوله (ص) والثبات معه، **وأن يقفوا كالجبل عند لقاء العدو**، وبايعوا الله ألا يفروا ولا يخونوا ولا يغدروا، ويبذلوا مهجهم في مرضاته سبحانه ويضحّوا بالنفس والنفيس في سبيل الله، رجال مميزون وَفّوا بعهدهم والوفاء به موافاته واتمامه، فلا يبالون بما يعوقهم من عوائق عن الوفاء بعهدهم، فهؤلاء يُحْيُوْن بمواقفهم الشريفة وإن ماتوا عليها، فهم شهداء كرماء أعزّاء شرفاء فضلاء لرسوخ الإيمان والصدق في قلوبهم!

(**فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ**) كلمة (**نَحْبَهُ**) **لها معان منها**: النذر المحكوم بوجوبه وقضاؤه الفراغ منه والوفاء به، ومنها العهد الواجب الالتزام به إلى الموت والميثاق المؤكد (**فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ**) على ما عاهد الله عليه، وحقق إرادته ومطلوبه، وما يقصده من الثبات على الحق ونصرته حتى قُتِلَ واستشهد في سبيل الله فأدرك ما تمنى كحمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله، فذلك قضاء النحب أي العهد أو النذر والقصد، أو مات مؤدّياً حقه لم ينقصه شيئاً من إرادته. (**وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ**) وبعضهم من ينتظر، فهو مصمم في قضاء ما عليه ووفاء نحبه

وعهده ونذره وقصده وهو ساع في ذلك الهدف النبيل ليكمله وهو (**إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ**) التوبة/٥٢، (**النصر**) الرسالي وهو الهدف الأول المطلوب والأكبر المرغوب أم (**الشهادة**) والقتل في سبيل الله وهي وسيلة شريفة، وعارض نظيف في طريق النصر، وكانت الشهادة ينتظرها بشوق ولهفة كعلي بن ابي طالب (ع)

(**وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا**) وما غيّروا عهدهم مع الله أدنى تغيير، ولا انحرفوا عن طاعة الله ورسوله أي انحراف، وبقوا ثابتين صادقين مع شدة موجة التشكيك العاتية المزلزلة التي أخذت الكثيرين، وما بدلوا نواياهم ومواقفهم ولو قليلاً، كما بدل غيرهم من ضعفاء الإيمان، فهؤلاء هم رجال الله الصادقين حقّاً وعلى الحقيقة، وفي واقع الحال العملي، وهم أهل الثقة والنخبة ولهم الصدارة والاحترام أحياءً وأمواتاً، وَيُعتَمَدُ عليهم في الشدّة والرّخاء وفي المواقف الصعبة، ومن عداهم ومن دونهم وأقل منزلة منهم، فصوّرهم صور الرّجال ولكنهم كانوا أشباه الرجال، رجالٌ في الشكل دون المضمون! كقوله (**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ**) آل عمران/١٦٩، عن النبي (ص) (**أَشْرَفُ الْمَوْتِ قَتْلُ الشَّهَادَةِ**) البحار ١٠٠ص٨، وهكذا تلا الإمام الحسين (ع) هذه الآية وقاتل القوم الظالمين وذهب إلى مقام الشهادة في سبيل الله ودرجة السعادة ومنزلة الكرامة الدائمة.

فائدة: ١- (**وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ**) لا يجوز أن تطلب الشهادة لذاتها، لأنها وسيلة شريفة في طريق هدف نبيل، وهو تحقيق النصر على الأعداء، وإنما يطلب المجاهد النصر والظفر والغلبة على أعدائه، وإذا اعترضته الشهادة وهو في طريق النصر والتحرير فهو شرف عظيم كقوله (**وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ**) آل عمران/١٩٥، أي جاهدوا الظالمين وقاتلوهم ثم قتلوا في طريق جهادهم في سبيل الله، هذه هي مرتبة الشهادة ومنزلة السعادة التي تستحق كفران وغفران عنهم سيئاتهم، ٢- (**صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ**) **الإيمان في المنظور القرآني**: عهد مؤكّد، وميثاق غليظ، ورابطة معنوية متينة بين الله وعبده، على الالتزام بطاعة الله واجتناب معاصيه كقوله (**وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ**) الأنعام/١٢٠، ولا يَصُدُّه أي حاجز يمنعه من مرضاة الله، وهذا إيمان حركي صادق ذو الدرجات الرفيعة يشمل القول والعمل والظاهر والباطن والمدّعى والحقيقة، وله مصاديق عملية تدل عليه، تتبيّن في الشدة والرخاء وفي الفقر والغنى، والإيمان بلا مصداق يدل عليه في الواقع العملي يبقى الإيمان ناقصاً لا دلالة قطعية عليه ولو كان مدعوماً بالأُبَّهة والجاه والموقع القيادي السيادي كقوله (**فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ**) النحل/٣٦، ٣- **سبب النزول**: كان لرسول (ص) نخبة من الرجال الثابتين على الإيمان بصدق، يفدونه بالمهج والأرواح الغالية، وكان الآباءُ المؤمنونَ يبارزون الأبناء الكافرين، وكانت المرأة المسلمة تفتدي زوجها المجاهد وولدها وأباها وأخاها، وهي تحمد الله على نجاة رسول الله (ص) نزلت الآية في هؤلاء الصفوة الصادقة المختارة، المستميتة،

(وَالمسْتَميْتُ لا يَمُوْتُ)! وبيان حكمة الابتلاء كقوله (**وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ**) آل عمران/١٥٤، ٤- (**فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ**) النذر الشرعي واجب الوفاء به، وإن كان لا يُغَيّر من القضاء والقدر شيئاً، عن النبي (ص) (لاَ تَنْذُرُوا فإنّ النذرَ لاَ يُغْني مِنَ القَدَرِ شَيْئاً) روح البيان٧ص١٥٨.

٢٤ - ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

شاء الله أن يمر المجتمع المسلم بامتحان شديد كمعركة الخندق بكل ما فيها من أهوال وزلزال شديد، ليتبين الصادق من الكاذب، ويتميز الخبيث من الطيب، فيجزي الله الصادقين بصدقهم ويجازيهم على ثباتهم وصبرهم كقوله (**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ**) محمد/٣١ **المعنى: (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ)** الجزاء على الأعمال مسألة أساسية في ميزان الله ليأخذ كل ذي حق حقّه، ويكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب، وقد أطلق الله الجزاء للصادقين ولم يحدده بحدود لأنه قد يجازيهم بغير حساب كقوله (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**) الزمر/١٠، والصادقون هم الصابرون المضحّون الذين أعطوا لله كل ما يملكون، فجازاهم الله فوق ما يريدون كقوله (**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) السجدة/١٧، (**لِيَجْزِيَ**) ليثيب المؤمنين الصادقين على صدقهم ووفائهم في الدين ومع الله ومع الناس ومع أنفسهم، وصدقهم في كل شيء، ومع كل شيء، في أقوالهم وأحوالهم وأفعالهم ومواقفهم ومعاملاتهم، وتساوي ظاهرهم مع باطنهم وتطابق قولهم مع فعلهم، فكانوا أصحاب القلب السليم كقوله:

(**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**) الشعراء/٨٨-٨٩، فكانوا صادقين حقاً كقوله (قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ) المائدة/١١٩، في نهج البلاغة (قَدْرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مُرُوءَتِهِ) حكم/٤٧ (**وَالنجَاةُ فِي الصِّدْقِ**) (**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ**) تعذيبهم لنقضهم العهد والميثاق وتقلّبت قلوبهم وتغيّرت أعمالهم عند المحن ونزول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه، فيستحقون أن يميتهم على النفاق فيعذبهم، إذا لم يتوبوا (**إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**) التوبة إذا تعدّت بـ (إلى) معناها توبة العباد إلى الله عز وجل، وإذا تعدّت بـ (على) (**أو يتوب عليهم**) معناها توبة الله على عباده، وَقيَّدَ العذاب بالمشيئة الإلهية أي إن الله سبحانه (**إِنْ شَاءَ**) قبل توبتهم وتخلّصوا من النفاق وأسقط عقابهم (**وَإِنْ شَاءَ**) لم يقبل توبتهم عندما مضوا على نفاقهم واستحّقوا العقاب، فإسقاط العقاب تفضّل من الله وليس وجوباً (**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**) فيرحمهم إن تابوا وأنابوا وندموا على ما كان منهم، وهذا هو الغالب على رحمة الله الرحيم الكريم الذي غلبت رحمته غضبه، ولهذا ختم الله الآية الكريمة باسمين دالين على المغفرة والرحمة (**إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا**) (**غَفُورًا**) إن الله واسع المغفرة لمن

تاب بصدق (**رَحِيمًا**) أرحم الراحمين بالعباد، حيث وَفَّقهم للتوبة الصادقة وقبلها منهم وستر عليهم ما اجترحوه، ورحمهم وَتفضّل عليهم بالرحمة كقوله (**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**) الأنعام/٥٤، عن النبي (ص) (مَا خَلَقَ الله مِنَ شَيْءِ إلاّ وَقَدْ خَلَقَ لَهُ مَا يَغْلِبَهُ، وَخَلَقَ رَحْمَتُهُ تَغْلِبَ غَضَبُهُ) كنز العمال خبر١٠٣٩٠.

٢٥ – ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** ﴾

دعا رسول الله (ص) (اللَّهُمَّ مُنَزِلَ الْكُتَّابِ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَهْزِمِ الأحزاب وَزَلْزِلْهُمْ) (**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ**) وأرجع الله جيش الأحزاب الكثير المدجج بالسلاح، عن محاصرة المدينة وانصرفوا (**بِغَيْظِهِمْ**) بغمّهم وحقدهم مِلْؤُهُمْ الغضب والغم والفشل والحسرة والخيبة والخذلان والخسران، فلم يشفِ صدورهم وغليل نفوسهم بنيل ما أرادوا، **الغيظ**: أشدَّ الغضب الممزوج بالغموم والهموم والحسرات، فبدلاً من رجوعهم منتصرين محمّلين بالغنائم، عادوا يحمّلون الغيظ والخزي والذِلَة والعار، وقد غَرَّتهم جموعهم وأُعجبوا بتحزبهم ومؤامراتهم وفرحوا بعددهم الكبير وَعُدَّتهم الكثيرة (**لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا**) في أي وجه من وجوه النفع الذي أمّلوه، لأنهم لم يحققوا أدنى انتصار على رسول الله (ص) والمؤمنين، وخابت آمالهم الطويلة وأحلامهم الكثيرة، بل اكتسبوا الآثام في همّهم بقتل الرسول (ص) واستئصال المسلمين ولكنهم (**لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا**) وهذا من علامات نصر الله لعباده المؤمنين كقوله (**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا**) النساء/٤٧ (يُدَبِّرُ الْمُدَبِّرُوْنَ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ!) (**وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ**) كفاهم الله تعالى مباشرة القتال دون الحاجة إلى التحام بين الجيشين ومن دون خسائر تذكر، وكان سبب هزيمة القوم المجرمين **بعدة وسائل**:

١- بالريح العاتية الباردة المدمّرة (ريح العذاب)

٢- والملائكة المسَوَّمين المدرَّبين التي ألقت في قلوبهم الرعب وسلبت إرادتهم عن أي فعل وولّوا الأدبار منهزمين مخذولين، ٣- وبسيف الإمام علي بن أبي طالب (ع) (ذو الفقار) سيف رسول الله البتّار الذي قتل به قائد المشركين عمر بن ود، كل ذلك كان برعاية الله وقدرته، عن النبي (ص) (**لَمُبَارزة عَليّ لعمْرِ أَفْضَلُ مِنْ عَمَلِ أُمَّتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**) الحاكم في المستدرك٣ص٣٢، وعنه (ص) (**بَرزَ الإِيمَانُ كُلهُ إِلَى الشِّرْكِ كُلِهِ**) شرح النهج٤ص٣٤٤ (**وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**) لأن الله كان ويكون (**قَوِيًّا**) قادراً على ما يشاء ومهيمناً على ملكه وسلطانه (**عَزِيزًا**) يحقق ما يريد (**فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**) هود/١٠٧، لا يقهره شيء ولا يعجزه أمر أراده، عزيزاً في قهره وانتقامه، فدعا رسول الله (ص) (لاَ إِلهِ إِلاَّ اللهُ وَحدَهُ وَحدَهُ وَحدَهُ، نَصر عَبْدَهُ وَأَعَزَّ جُنْدَهُ وَهَزَمَ الأَحزابَ وَحدَهُ، فَلاَ شَيْءِ قَبْلَهُ وَلاَ شَيْءَ بَعْدَهُ، فَلَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ).

فائدة:

١- **(وَرَدَّ اللَّهُ)** كانت قيادة المعركة بيد الله، فهو الذي كان يدبّرها ويديرها بقوله **(وَرَدَّ اللَّهُ)** فأسند إلى الله تعالى إسناداً مباشراً كل ما حصل من أحداث حتى تحقيق حسن العاقبة كقوله **(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)** الأنفال/١٧، ليحصل النصر الإسلامي الصحيح والواضح **(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كله)** هود/١٢٣، إنه تصَوّر دقيق عميق رقيق مُتَحرّك لا يقتصر على ذلك الزمان، بل هو قانون متحرّك فعّال في كل زمان ومكان إذا تحققت شروطه، ٢- ركّزَ القرآن على نتيجة المعركة **(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)** ولم يحدد بطل الموقف، هذا درس قرآني مهم وبالغ الأهمية: إنَّ صناعة الموقف الصحيح النموذجي أهم من صانعه **لأن العبرة القرآنية وكأنها تريد أن تقول:** أن يقتدي الناس بالسيرة الصحيحة والسَنة الحسنة أهم وأفضل من الاقتداء بالأشخاص القدوة والقيادة **(الأُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)** فتكون أعمالهم المميزة أهم من شخصياتهم الفَذّةِ المميّزة، فتزكية النفس وتهذيب الذات أهم وأفضل من تجسيد الذات وإظهار البطل! كقوله (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) التوبة/١٠٥، وهذا في حالة عدم وجود **(الأُسْوَةُ الحَسَنَةُ)** بين الناس، **في غرر الحكم** (انْظُر إلى ما قاْل، ولا تَنْظُر إلى مَنْ قاْل).

٢٦ – ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾

(وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ) وأنزل الله الذين **(ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)** أي عاونوهم ودعموهم بالقوة والأموال ورفع الهِمَم أي عاونوا الأحزاب الكثيرة المتآمرة، وقد نقض يهود المدينة من بني قريضة وبني النضير عهدهم مع الرسول (ص) لينصروا جيوش الأحزاب المتآمرة وكانوا ظهراً لهم ودعماً وسنداً وقوة وتوقّعوا هلاك المسلمين جميعاً، وهذا شأن اليهود في نقض العهود في كل زمان ومكان، **(مِنْ صَيَاصِيهِمْ)** من حصونهم أي أخرجهم الله من حصونهم الضّخمة، وأنزلوهم من قلاعهم المنيعة التي كانوا يتحصّنون فيها **(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ)** وألقى الله سبحانه في قلوبهم خاصة **(الرُّعْبَ)**، وهو أشد الخوف المزلزل للبدن والتي تنهار معه الإرادة والقوة، وَمَلَأَهاْ فزعاً وَهَمّاً وقلقاً، وهو نوع من المدد الغيبي الذي خصَّ الله به نبيّنا مُحَمّد (ص) في حروبه مع أعدائه، وهو عامل مهم في النصر من عوامل الأسلحة النفسية المزلزلة للإرادة الذاتية لمعنويات المقاتلين الأعداء، وحاصر النبي (ص) اليهود في حصونهم خمساً وعشرين ليلة حتى اشتدَّ عليهم الحصار، ونزلوا على حكم النبي (ص) فلم يقووا على القتال بل استسلموا وخضعوا وذلّوا، وانهزم المشركون وانصرفت قريش عن المدينة، **وبعث رسول الله (ص) إلى سعد بن معاذ سيد الأوس فجيء به،** فحكم فيهم بأن يقتل مقاتلهم ويسبي نساءهم وذريتهم، وَتُغْنَم أموالهم وأن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، فذلك

قوله (**فَرِيقًا تَقْتُلُونَ**) رجالهم بعددهم الكبير حتى أسلموا أنفسهم للقتل، وأهليهم للأسر كقوله (**إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ**) المؤمنون/١١٧.

(**وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا**) وتأسرون من أسر من عداهم من النساء والصبيان، أنظر كيف يمكر الله لصالح المؤمنين، وكيف يدافع عنهم كقوله (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ) الحج/٣٨، في غرر الحكم (**مَنْ سَلَّ سِيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ**)، وهكذا تخلص النبي (ص) من هذه الغدة اليهودية السرطانية الخبيثة من جسم المدينة المنورة، وسمّيت اسماً جديداً هو (**طيبة**) طابت حياة المسلمين فيها بعد ذهاب هذا الخبث الماكر اللعين عنها. داعين الله تعالى أن يُعجّل على زوال هذه الغدة السّرطانية الخبيثة، التي تسمى دويلة (إسرائيل) من بلادنا الإسلامية إنه سميع الدعاء.

٢٧ – ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾

وهكذا ينصر الله من نصره، ويفتح عليهم ما لم يحتسبوا (**مَنْ كَانَ مَعَ اللهِ كَانَ الله مَعَهُ**) ومن كان الله معه فمن عليه؟ ومن كان الله عليه فمن معه؟ وهكذا من يقدّم لله كل ما يملك، يعطيه الله كل ما يريد وفوق ما يتمنى! والصابر ظافر وإن طال به الزمان، **المعنى**: (**وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ**) بعد هزيمتهم، **أورثكم**: أعطاكم وملّككم، بعد قتل يهود بني قريضة الخونة وأسرهم والانتصار عليهم، أورثكم أرضهم ومزارعهم وبيوتهم وقلاعهم وحصونهم وخيولهم وأموالهم التي ادّخروها وأثاثهم ومواشيهم وذهبهم، وهذا فضل من الله على المؤمنين يستحق الشكر، وشبهت الغنائم في بقائها للمسلمين بالميراث الطبيعي الشرعي الباقي على الوارثين (**وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا**) وأورثكم أرضاً أخرى لم يطأها ولم تتمكّنوا من وطئها وتمشوا عليها بعد بأقدامكم، وهي أرض خيبر المحصَّنة أو هي فدك: أو ينبع وغيرها مما استسلم أهلها دون قتال، فمكنكم الله منها ومن أهلها وخذلهم (**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا**) لأن الله كان ويكون على كل شيء قديراً، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فائدة: ١– وختم الله تعالى الآية ببيان قدرته بفتحه على المسلمين أرضاً جديدة لتفتحوها لم تكن تطؤوها من قبل، فكما ملككم (**وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا**) بدون تحديد، أرضاً على اطلاقها، فكذلك هو قادر على أن يملككم غيرها من البلاد كقوله (إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) الأعراف/١٢٨، وهذا افتتاح وتطمين لقلوب المؤمنين والتمكين لهم في الأرض كقوله (**أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**) الأنبياء/١٠٥، الله سبحانه الذي يجعل بقوته من هؤلاء القلّة المستضعفة من المسلمين كَثْرَةً، ومن ضعفهم قُوَةً، ومن ذلّتهم عِزَّةً تُحسب لها حسابها، ٢– كما كان الكفار والظالمون بعضهم أولياء بعض كقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) الأنفال/٧٣ وقوله (**وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**) الجاثية/١٩ وقوله

(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) التوبة/٦٧ لا ولاية بين المنافقين، فإذا كانت ولاية بين الكفار والظالمين فيجب أن تكون ولاية فاعلة بين المؤمنين كقوله (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) التوبة/٧١.

٢٨ – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

سبب النزول ٢٨-٢٩: **روي**: لما نصر الله نبيه (ص) وَفَرَّقَ الله عنه الأحزاب المتآمرة، وفتح على يديه كنوز يهود قريضة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله وطلبن منه زيادة في النفقة ورفاهية في العيش ولنا حصة في الغنائم، وهن متّفقات وَمُتَعنّتات في طلبهن، وقلن يارسول الله: بنات كسرى وقيصر ملوك الروم والفرس في الحلي والحلل والقصور، ونحن زوجات النبي (ص) حبيب الله على ما تراه من الفاقة والضيق!، وتألّم قلب النبي (ص) الكريم بمطالبتهن له بتوسعة الحال، مما أفاء الله عليه من الغنائم والأنفال الكثيرة، وأن يعاملهن بما يعامل به زوجات الملوك والحكام! فقال النبي (ص) لهن: الغنائم قسَّمْتُها بين المسلمين على ما أمر الله عز وجل، **فغضبن من ذلك وقلن**: لعلك ترى إن طلقتنا أن لا نجد الأكفاء من قومنا يتزوجوننا، فلابد لهذه المسألة الهجومية المتعنتة من حزم وجزم، فأمر الله تعالى رسوله أن يعتزلهن حتى حضن وتطهرن، فخير النبي نساءه واحداً من اثنين: بين الطلاق الجميل (**التسريح الجليل**) مع متعة الطلاق وهديّته، أو (**الصبر الجميل**) على ضيق الحال ومساواة الناس وبقائهن أمهات المؤمنين، ولهن جزاء ذلك الثواب الجزيل، فأنزل الله تعالى هذه الآية التي تسمى (**آية التخيير**) فخيرهن النبي (ص) بين متعة الطلاق أو المقام الجليل معه في بيت الزوجية.

المعنى: **(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ)** وهو أمر له من ربه أن قل لزوجاتك التسع اللاتي تأذّيت منهن بسبب إلحاحهن عليك الزيادة في النفقة والعيش برفاهية وترف قل لهن **(إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا)** إن كنتن تردن حياة الرفاهية والترف مع الغنى والثروة وزخارف الدنيا ومتاعها المؤقّتة، فليس لكن مقام عندي، فليس عندي شيء منها بمعنى إنكن تقدرن على الانفصال عني **فاخترن أحد الأمرين بأمر ربه**: **الأول** **(فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ)** وأنا أعطيكن أموالاً تتمتعن بها زيادة على مهركن تسمى **(متعة الطلاق)** وهي عبارة عن منحة وهدية غير معينة يقدمها المطلّق لمطلّقته، يضاف إلى مهرها، ويرى فيها حال الزوج يسراً أو عسراً كقوله **(وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ)** البقرة/٢٣٦ **(وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا)** **وأسرحكن**: أفارقكن بالعدل والإحسان، وأطلقكن بمنتهى اللطف والهدوء والشفافية والاحترام والإكرام والإحسان، طلاقاً نموذجياً ومفارقة مميزة تكون سُنّة حسنة لما بعدها، ولا ضرر فيها ولا إشكال معها **(سَرَاحًا جَمِيلًا)** دون خصومة

ومشاجرة وغضب، بل سراح جميل وفراق جليل مبني على سعة الصدر وانشراح البال واطمئنان القلب مع كامل الهدود وإحقاق الحقوق وتبادل المصالح ورضا الأطراف!

فائدة: ١- كون المرأة زوجة للنبي ليس كمالاً لها، وإنما كمالها وجمالها وجلالها بإيمانها وتقواها وحُسن سيرتها وعملها الصالح، واكتساب منه صفات الكمال، وهذه القرينة مع بيت النبوة قرينة كمالية وجلالية وجمالية فينبغي أن تكتسب الزوجة من كمال زوجها النبي الشيء الكثير إن كانت مؤهّلة لذلك كقوله (**اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**) التحريم/١٠، فلا تنفع النفوس الخسيسة في علاقتها الزوجية الطويلة مع النفوس الطاهرة النفيسة، فيبقى الخسيس خسيساً وإن جاور وعاشر النفوس النفيسة، إلاّ إذا بادرت بنفسها واكتسبت منها صفات الكمال والجمال والجلال! **في غرر الحكم** (رَحِمَ الله أمَرأً عَرَفَ قَدرهُ ولَمْ يتَعَدَّ طوْرَه)

٢- تشير الآية أنه لا يجوز للزوج أن يحمل زوجته بالإكراه على الحياة معه، مهما كانت مستوى الحياة الزوجية كقوله (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) البقرة/٢٥٦ وقوله (**أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**) يونس/٩٩ وقوله (**لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**) الغاشية/٢٢، من حق الزوجة الاعتراض، وإن المرأة كالرجل في حمل التكاليف، وفي الثواب والعقاب، وإن إمساكها في بيت الزوجية على غير ما تريد اعتداء على إنسانيتها، والأرواح المتنافرة لا تتجاذب ولا تتآلف ولا تتكافأ ولا تتحابب كقوله (**وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ**) النساء/١٣٠، إذا كان التفرق برغبة الزوجة ولم ترد الحياة مع زوجها، أعطى النبي الكريم (ص) المرأة حقّها في الطلاق الجميل من زوجها المتنافرة معه، ٣- طبيعة المرأة وميولها النفسية إلى الزينة والتمتّع بطيبات الحياة.

حتى قيل (**عَقْلُ المرأة في جَمَالِهاْ، وَجَمالُ الرَّجُل في عَقْلِهِ**) كقوله (أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) الزخرف/١٨ **في غرر الحكم** (الجمالُ الظاهر حُسنُ الصّورة، الجمالُ الباطنُ حُسنُ السّريرة) وحسن السّيرة، هذه صفة عامة بين النساء لها استثناءات، وهذه إحدى الأسباب التي جعلت الولاية والقوّامة للرجل على المرأة في الأسرة الإسلامية، ٤- إنّ الاعتناء بالدنيا وزينتها أكثر من الحاجة إليها منقصة في الإيمان، وجهل في فهم معنى الحياة، عن النبي (ص) (**حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَة**) البحار٧٣ص٧، والرسول (ص) قدوة للمسلمين فيريد أن يجعل نساءه قدوة للمسلمات أيضاً، فأي ميول إلى حبَّ الدنيا وزينتها أكثر من الحاجة إليها، هو بداية الخلل في العلاقة مع الله والرسول (ص) المؤدي إلى ضعف الاقتداء بالرسول والرسالة، وهذا الضعف في الارتباط مع الله ورسوله يؤدّي إلى تصاعد التعلّق بحب الدنيا وزينتها، في نهج البلاغة (**وَلاَ تَضَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ التَّقْوَى، وَلاَ تَرْفَعُوا مَنْ رَفَعَتْهُ الدُّنْيَا**) خطبة١٩١، ومن أراد

الله ورسوله واليوم الآخر فإن الله عنده حسن الثواب كقوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ) النساء/١٣٤، في غرر الحكم (مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ لَمْ يُهِنْهَا بِالْمَعْصِيَةِ).

٢٩ – ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآَخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

تبيّن الآية الكريمة أنه لا يجتمع طلب الدنيا مع طلب الآخرة، كقوله (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) الأعلى/١٦-١٧، عن النبي (ص) **(مَنْ أحَبَ دَنِياهُ أضَرَّ بَآخِرَتِهِ)** البحار٧٣ص٨١، **المعنى: (وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) وخيرهن بالأمر الثاني**: وإن كنتن تردن وترغبن في رضوان الله ورسوله والبقاء على زوجية النبي (ص) وصحبته ورضاه، بالصبر على بساطة العيش والزهد والتقوى في الدنيا ومواساة فقراء الناس، وتكنّ أمهات المؤمنين **(وَالدَّارَ الْآَخِرَةَ)** وتردن الفوز بنعم الجنة في العالم الآخر والاستعداد ليوم الحساب **(فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ)** جواب الشرط، وفيه دلالة أن زوجات النبي (ص) لسن على درجة واحدة، كقوله (إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا) التحريم/٤، **صغت**: مالت وانحرفت عن الطريق المستقيم، **(فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ)** فإن الله هَيَّأَ للمحسنات المطيعات الصالحات في أعمالهن القولية والفعلية والعارفات المريدات كقوله **(فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)** النساء/٣٤ **(أَجْرًا عَظِيمًا)** ثواباً كبيراً لا يمكن وصفه كقوله **(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** السجدة/١٧، فمن الأفضل لهن أن يكنَّ المثل الأعلى، ويكنَّ القدوة الصالحة لنساء المؤمنين جميعاً، ويا لها منقبة كريمة غير مترقبة أوتيت لهن دون سعي، وقد رتب الأجر.

(أَجْرًا عَظِيمًا) على وصفهن بالإحسان لأنه السبب الموجب لذلك لا لكونهن زوجات الرسول، فإن مجرد زوجات الرسول (ص) لا يكفي ولا يفيد شيئاً مع عدم الإحسان والالتزام والاقتداء به، أي لأنه فضلن نعيم الآخرة وقبولهن قوّامة الرسول (ص) عليهن، فأمر الله نبيه الكريم، **(الرحمة المهداة)** بالرجوع إليهن وترك اعتراضهن كقوله **(مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)** النساء/٨٠، (الدُّنياْ سَاعَةٌ، فاجْعلْهاْ طَاعَةٌ، وَالنَفْسُ طَمَّاعَةٌ، فَعَوّدهاْ القَناْعَةُ).

٣٠ – ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ) يخاطب الله نساء النبي (ص) من خلال مقام النبوة ليبلغهن الرسول (ص) وليس وحياً مباشراً **(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ)** وهن أمهات المؤمنين، ويترتب على هذه الزوجية النموذجية تبعات ثقيلة تقتضي العصمة من الكبائر، وذكر منها **(بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ)** فإذا فرض واقترفت إحداهن الفاحشة الواضحة في قبحها، استحقّت ضعفين من العذاب، ذلك الفرض يبيّن تبعة المكان الكريم الجليل الذي هن فيه، **المعنى: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ)**

من تفعل منكن بمعصية كبيرة من الكبائر البيّنة الواضحة العلنية من دون لبس وإكراه واشتباه، أو ارتكبت منكن ذنباً كبيراً قبيحاً تجاوز الحد في القبح، أو بمعصية منكرة ينكرها الطبع البشري السليم ما يخل بالشرف والعفّة والأمانة قولاً وفعلاً: مثل: النشوز وسوء الخلق والعصيان والطغيان والتمرد على طاعة زوجها، واختيار حبّ الدنيا على الآخرة، وتطلب وتلح وتتعنّت ما يشق على الرسول (ص) ويغتم لأجله، **عن ابن عباس: إنّ الزلّة منهن كسوء الخلق مما يُعدّ فاحشة بالنسبة إليهن!** لشرفهن وعلو مقامهن خصوصاً إذا حصل بها أذية النبي (ص)، وقد خاطرن بمكانتهن الرفيعة النموذجية كقوله (**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ**) النساء/٣١، والذنب الصغير من أفراد بمرتبة أسوة وقدوة وقيادة للناس كنساء النبي، فهو بمنزلة ذنب كبير وخطير ويضاعف عقابها ضعفين، كما أن حسنتها أيضاً تضاعف ثوابها ضعفين كقوله (**نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ**) الأحزاب/٣١، عن النبي (ص) (**يُغْفَرُ لِلْجَاهِلِ سَبْعُونَ ذَنباً قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لِلْعَالِمِ ذَنْبٌ وَاحِد**) الكافي١ص٤٧، والإصرار على الصغائر تكون كبائر كقوله (**وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا**) آل عمران/١٣٥ ثم قال (**يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ**) يكون جزاؤها وعقابها ضعف جزاء وعقاب غيرها من النساء، لأن ضعف الواحد مثله، وهذا ليس ظلماً بل هو جزاء مناسب للذنب، وَمُقَدّر بقدره ولا عذر لهن في ارتكابه، لعلو مكانتهن وزيادة فضلهن وعلمهن وخُلُقُهن، ونزل الوحي في بيوتهن، فيكون الذنب منهن أقبح وأشنع، والعقوبة أكثر وأعظم، وكان ذم العقلاء للعالم العاصي أشدّ منه للجاهل العاصي، لأنه في موقع القدوة الحسنة.

(**وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**) وكان ذلك العذاب المضاعف الأليم (**عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**) سهلاً هيّناً، لا يمنعه مكانتهن وكونهن أزواج ونساء النبي (ص) فبعد ان كانت المخاطبة لهن على لسان رسول الله (ص)، وجّه الخطاب إليهن هنا مباشرة، لإظهار الاعتناء بأمرهن ونصحهن، فبقدر قربهن من رسول الله (ص) يكون قربهن من الله تعالى.

روي: إنّ رجلاً قال للإمام علي بن الحسين السجاد (ع): إنكم أهل بيت مغفور لكم، فاستنكر ذلك عليه وقال (**نحن أحرى أن يجري فينا ما أجرى الله في أزواج النبي (ص) من أن نكون كما تقول، إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر، ولمسيئنا ضعفين من العذاب، وقرأ هذه الآية والتي بعدها**) تفسير المراغي٢١ص١٥٤، المجمع٥/١٣٣، **فائدة:** (**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ**) يشتركن نساء النبي مع عموم النساء بالطبائع النسوية، ولكن الاختلاف يحصل بالمنازل والعقول والعلوم والتقوى ونوع التربية، لذلك فإن ذنوبهن تكون كبيرة وإن كانت صغيرة عند الناس، فإن نساء النبي (ص) عاشرن أكمل إنسان فعليهن أن يكنَّ أكمل النساء، فإن معصيتهن مهما صغرت فهي كبيرة عند الله وعند الناس!

الجزء الثاني والعشرون من القرآن الكريم

٣١ – ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾

(وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) القنوت: الطاعة والالتزام بمنهج الله في الظاهر والباطن، والدوام على الطاعة والعبادة والمواظبة على الدعاء والخضوع لله والخشوع له مع كامل الأدب والوفاء والانتماء والاتباع، من عبد ضعيف محدود لرب رحيم كريم قوي لا تحدّه حدود، **والقنوت:** مفهوم قرآني جليل شفاف نفّاذ، من عمل القلوب وتفاعل الأرواح الذي مصداقه الخُلُق الجميل والأعمال الصالحة كقوله **(عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ)** التحريم/٥، **المعنى: (وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ)** ومن يطع منكن لله ورسوله وتخضع لهما بالسمع والطاعة والقناعة وتستمر على صراط الله المستقيم **(وَتَعْمَلْ صَالِحًا)** وتعمل عملاً صالحاً نافعاً خالصاً لله، عملاً على إطلاق معناه بأية نسبة من نسبه، وبأي شكل من الأشكال قليلاً أو كثيراً، وهو كل فعل خير يفيد الناس وينفعهم على عمومهم ويُحسّن أحوالهم ويرضي الله، والعمل الصالح هو الترجمة العملية الواضحة للطاعة والخضوع الصادق والقنوت، لا يكفي أن تكون المرأة زوجة للنبي فهو شرف مضمون لها، ولابد من عمل صالح مفروض فيكون سلوكها خير.

(نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ) مثل ما نعطي غيرها مرتين، كما أن عذابها يضاعف ضعفين لأي ذنب، كذلك يضاعف ثوابها وفضلها ضعفين لأية عبادة وعمل صالح تعمله كقوله **(وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ)** البقرة/٢٦١، فمن حَقَّ عليه الغرم فله الغنم أيضاً **(وَأَعْتَدْنَا لَهَا)** وهيأنا لها **(رِزْقًا كَرِيمًا)** له معنى واسع الدلالة يتضمن كل المواهب المادية والمعنوية، أي وهيأنا لها زيادة على مالها من أجر، رزقاً كريماً حسناً مرضيّاً مليئاً بالبركة التي لا تنقطع، بعيداً من كل آفة ونقص وسالماً من كل عيب وخلل، ومصداق الرزق الكريم نعيم الجنة الذي هو فوق الوصف **(ولاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ) فائدة:** وردت كلمة **(صَالِحًا)** نكرة للدلالة على عموم معناها، إنّ مجرد ادّعاء الإيمان والطاعة لا يكفي لوحده، بل يجب أن يكون لها مصاديق عملية تظهر آثاره على أرض الواقع، وينكشف عما في القلوب من مشاعر ومعتقدات، ومن طبيعة التربية القرآنية إنها تربط دائماً بين العبادات والمعاملات، وبين النظرية والتطبيق، وبين العلم والقول والعمل كقوله **(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)** فاطر/١٠، في غرر الحكم (زِيَادَةُ الْفِعْلِ عَلَى الْقَوْلِ أَحْسَنُ فَضِيلَة، وَنقصُ الْفِعْلِ عِنْ الْقَوْلِ أَقْبَحُ رَذِيّلَةٍ).

٣٢ – ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾

يبدأ السياق القرآني بإشعار نفوسهن بعظيم مكانهن ورفيع مقامهن، وفضلهن على النساء كافة، على أن يوفينَ هذا المكان الجليل حقّه، فقال (**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ**) أنتنَّ فوق النساء كرامة ومنزلة وحظوة عفّة وعلماً وشرفاً بمعاشرة رسول الله (ص)، أنتن في مكان جليل لا يشارككن فيه أحد، ولا تشاركن فيه أحداً (**إِنِ اتَّقَيْتُنَّ**) إنما ذلك الفضل يُتَوَّجُ بالتقوى كقوله (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات/١٣ (مَنْ اِتَّقَى اللهَ وَقَاْهُ)، وفي هذا إشارة مهمة إلى قادة الدين وأسرهم وعوائلهم، يجب أن تظهر عليهم علامات التقوى، ويكون سلوكهم يعتمد خلق الإسلام لأنهم قدوة حسنة للمسلمين، **عن النبي (ص)** (إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مَنِّي يَوْمَ الْقِيَّامَةِ مَجْلِساً أَحَاسِنُكُمْ خُلُقاً وأَشَدَكُمْ تَوَاضُعاً) البحار٣٨٥/٧١ (**إِنِ اتَّقَيْتُنَّ**) إن اجتنبتنّ وتورعتن عن معاصي الله وتمسكتن بطاعته في كل الأحوال في القول والعمل، وبدون (**التَّقْوَى**) تنقطع كل الصلة الجليلة بينكن وبين رسول الله (ص) **المعنى:** (**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ**) الخطاب القرآني لهن كلهن بتلك الصفة الرفيعة بإضافتهن إلى النبي المصطفى (ص) فهن في مقام أمهات المؤمنين وتقديرهن وتوقيرهن (**يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ**) ليس قدركن كقدر غيركن من النساء الصالحات، ومنزلتكن أشرف وأرفع من غيركن، أنتن أكرم على النبي (ص) وثوابكن أعظم لمكانكن الجليل من رسول الله (ص) ولا يلحق أحد من النساء بكن في الفضيلة والمنزلة بشرط (**التَّقْوَى**) لا باتصالكن بالنبي (ص) فلا تغترن بذلك، فليست المسألة مجرد قرابة من النبي (ص) بل لابد من القيام بحق هذه القرابة في ذات أنفسهن، فإنّ النبي (ص) لا يملك لهن من الله شيئاً.

في غرر الحكم: (**التَّقْوَى:** مُنْتَهَى رضَا الله مِنْ عِبَادِهِ وَ حَاجَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ) ليبين أن فضلهن ومراتبهن العليا (**بالتَّقْوَى**) كقوله (**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**) البقرة/١٩٧، فلهذا أرشدهن إلى قطع كل الوسائل والأسباب والدوافع للوصول إلى أي مُحرّم صغيره وكبيره أكثر من سائر المؤمنات والذي منه (**فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ**) فلا ترققن القول، ولا يكنْ كُلٌ منكن ليّناً مرناً ناعماً جذّاباً مع الرجال الأجانب الذي يثير الشك والشبهة والشهوة ويؤدي إلى الطمع فيهن، وهذا الخضوع في القول يؤدي إلى الميوعة في التصرّف، **فهو بمنزلة كشف العورة، وأشبه بإبداء الزينة واظهار التبرّج،** لأن الصوت الليّن الرقيق أحد مفاتن المرأة ومصدر إثارة، ولهن من العفّة والصون والشرف فوق كل ريبة وشبهة، ولو كن زوجات النبي (ص) وأمّهات المؤمنين، وأنه لا طهارة لهن (**من الرجس**) حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس، لا ينبغي لأيّة امرأة مسلمة في أي زمان ومكان أن تخاطب الرجال الأجانب بالأسلوب المنفتح المنكشف المرح المؤثر وكأنما تخاطب به زوجها، أو تنظر إليه نظرة مثيرة وتتحرك حركات توحي بالريبة والرغبة في الرجال، وإلاّ طمع فيهن الشباب الفاسد المستعد للفاحشة، **فكيف بعصرنا الحاضر عصر التكنولوجيا الحديثة والأجهزة الالكترونية،** العصر الذي تشارك المرأة الرجل في كثير من مواقع العمل في الدولة، وقفزت فيه

الأنثى من البيت والأسرة إلى المسابح والمسارح، وكشفت عن أنوثتها بأسلوب جنسي مبتذل مشبوه؟! فالمرأة عنصر أساس في المجتمع، فإن صلحت صلح المجتمع وإن فسدت فسد المجتمع، ينبغي العناية بها كثيراً كالعناية بالرجال، (**فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**) تعبير قرآني بليغ وعميق وواسع الدلالة، فيطمع الذي ليس في قلبه إيمان يردعه عن الحرام.

معنى (فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ) كناية بلاغية تشبيهية عن مرض الريبة والشك والفجور وَحُبّ المحادثة مع النساء، التي كثرتها تُقَسّي القلوب وتجفف الروح وتدفع إلى إثارة شهوة الحرام، فإنه مستعد ينتظر أدنى محرّك يحركه ويزلّه، لأن قلبه لا يستذوق حلاوة الإيمان، وقلبه متقلّب وغير مطمئن بذكر الله، فهو قلب متذبذب غير مستقر، فأدنى سبب يدعوه إلى الحرام يجيب دعوته، فإن الخضوع بالقول واللّين في الكلام هو في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم مُنِعَ منه، ولهذا مدح الله رسوله بأسلوبه الأخلاقي الرفيع المنفتح المرن اللّين لأنه وسيلة اقتداء فقال (**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**) آل عمران/١٥٩.

(**وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا**) **معروفاً**: من المعروف وله معنى واسع، **منه**: ما تعارف على سلامته الطبع البشري سليم القلب والفطرة، **والمعروف**: اسم جامع لكل ما حَسُنَ عقلاً وشرعاً وعرفاً، إنه كلام مستقيم متعارف عليه في الصّحة، لا يوجد فيه تهمة ولا خلل ولا ريبة، فهو كلام متوسّط غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بليّن ولا ناعم ولا يطمع فيه أحد، ويكون موافق لقواعد الدين الإسلامي وأخلاقه (**وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا**) يليق بهن وبموقعهن الشريف النظيف، قولاً مُهّذّباً عَفيفاً نظيفاً جاداً نزيهاً يقبله الناس العقلاء في التعامل، ويقبله العرف العام الإسلامي، **فائدة**: ١- (**لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ**) ولم يقل (كواحدة من النساء) لأن أحداً يفيد الانفراد والاستقلال في هذا المقام، أي النفي العام لكل واحدة من نساء النبي. ٢- **معنى التقوى**: من وقى، كما أتّقي النار خوفاً من إحراقها، كذلك أتّقي الله خوفاً من مقامه الجليل وقربه مني، فأتمسّك بطاعة الله وأكون في وقاية من الذنوب، والترفّع عن المعاصي والعيوب، في غرر الحكم (التَّقْوَى: حِصْنٌ حَصِيْنٌ لِمَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ).

٣٣ - ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

الخطاب القرآني في الآية وإن كان لنساء النبي ولكن أريد منه عموم المعنى وشمول المغزى وسعة الدلالة، لذا دخل فيه غيرهن، **المعنى (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)** إلْزَمْنَ بيوتكن ولا تكثرن الخروج لغير حاجة وضرورة، فإنه أسلم لقلوبكن وأفضل لسعادتكن، وفي هذه إشارة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل وهو المقر والمستقر في حياتهن، وما عداه استثناء يقدّر بقدره حسب ظروفه الموضوعية (**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**) لا يعني تَخلّف المرأة، ولا يعني عدم خروجها من بيتها لطلب العلم

والطب والتعليم وغيره، في الحديث (**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ**) تنبيه الخواطر ص٤٠٩، وخرجت المرأة لصلاة الجمعة والجماعة في المسجد في عهد رسول الله (ص) وهي محجبة، وخرجت للشهادة العادلة أمام القاضي، وتداوي الجرحى وترفع معنويات المقاتلين .. إلخ، وفي كل الأحوال خروج المرأة للعمل لتنافس الرجال في مواقع عملهم، لهي أول انتكاسة لنفس الرجل والمرأة معاً، ثم انتكاسة عامة في المجتمع، حيث يعاني الكثير من أمراض الكآبة والقلق النفسي والأرق الليلي، ومعاناة من جفاف الروح وانتشار الفساد وانهيار منظومة القيم والمبادئ والشرف والعفة والأخلاق (**وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ**) ولا تظهرن زينتكن ومحاسنكن ولا تباهوا بها الرجال الأجانب، كما كانت النساء يفعلن في (**الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى**) قبل الإسلام، **التبرج ليس علامة على التحضّر بل علامة على الجاهلية المتأخرة**، والجاهلية ليست فترة زمنية معينة، وإنما هي ظاهرة اجتماعية متخلّفة، تدل على مسيرة جاهلية حيث كانت، وفي عصرنا الحاضر نعيش فنون الجاهلية المتلّونة المتنوعة في التخلّف، كما في جاهلية القرن الحادي والعشرين.

(**وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ**) وأدّين الصلاة بخشوع لله وحده، ولا يخالطه شيء لغير الله، وحافظن على إقامتها في أوقات فضيلتها، في أول وقتها، وأدّين الصّلاة أداءً كاملاً بشروطها تتحقق حكمتها وأثرها التربوي الكبير، في تهذيب المشاعر والطبائع والضمائر والعادات والتقاليد، وتزكية الأموال والأقوال والأفعال.

كقوله (**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**) العنكبوت/٤٥ (**وَآتِينَ الزَّكَاةَ**) وادفعن الزكاة المفروضة لمستحقيها، وهو إحسان إلى المخلوقين وقضاء حاجة المحتاجين، ومعنى الزكاة عام وشامل بحيث يكون لكل شيء زكاة، في غرر الحكم (**زَكَاةُ النِّعَم اصْطِنَاعُ الْمَعْرُوُف، زَكَاةُ العِلْم نَشْرُهُ، وَزَكَاةُ الجَمال العَفَاف**) وزكاة الجاه خدمة الناس، ثم إنّ الصلاة والزكاة عنصران يتلازمان ولا ينفكّان، كعلاقة العبادات بالمعاملات، والأقوال بالأفعال، وخصَّهما بالذكر لما لهما من آثار حضارية كبيرة في طهارة النفس والمال والمجتمع (**وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) في جميع الأوامر والنواهي والمستحب، لتنلن مرتبة المتقيات، عن الإمام علي (ع) في قوله (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) البلد/١٠ (إِنَّ اللهَ أَمَرَ بِطَاْعَتِهِ وَأَعَاْنَ عَلَيْهَاْ وَلَمْ يَجْعَلْ فِيْ تَرْكِهَاْ عُذْرَاً، وَنَهَى عَنْ الْمَعْصِيَةِ وَأَغْنَى عَنْهَاْ وَلَمْ يَجْعَلْ فِيْ رُكُوُبِهَاْ عُذْرَاً)! ثم قال: (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ**) في هذا التعبير القرآني البليغ إيحاءات كثيرة لها دلالات مهمة، نلاحظ (**أَهْلَ الْبَيْتِ**) بدون وصف للبيت ولا إضافة، وكأنما هذا البيت هو (**الْبَيْتِ**) النموذجي المعروف المميز الذي لا شك فيه،! البيت الواحد الموحّد المتَّحد في هذا العالم المستحق لهذه الصفة، كما قيل عن الكعبة بيت الله، أما (**أَهْلَ الْبَيْتِ الخاص بالنبي (ص)**) فهو للتكريم والتشريف والتفخيم، وأن هذا التطهير لا يشمل نساء النبي سوف نبيّنه في الفوائد، **المعنى**: (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ**)

أن يزيل عنكم يا أهل بيت النبي من بني هاشم، أصحاب الكساء (**الرِّجْسَ**) هو كل أثر للإثم وسبب لقذارة المعصية، القذارة المعنوية، قذارة الروح والعقيدة الفاسدة (**الرِّجْسَ**) له معنى عام وشامل، يشمل ظاهر الأشياء وباطنها الماديّة والمعنوّية، الأقوال والأفعال، ويراد منه هنا الذنوب والعيوب والمعاصي والخطايا والنواقص.. وقد تطهّر أهل البيت وتخلّصوا من كل الخطايا، فعصمهم الله من الزلل وسددهم في القول والعمل.

فيكون المعنى: (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ**) الخطأ في جميع الأقوال والأفعال، بحكم الألف واللام الجنس، وكل المعاصي رجس، وكل مؤمن من الرجال والنساء مأمور بالتقوى بأن يُطهّر نفسه ويزكيها من الرجس وكل العيوب والذنوب كقوله (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**) الشمس/٩، (**أَهْلَ الْبَيْتِ، في حديث الكساء**) والذي يحدد من هم أهل البيت؟ الأحاديث الصحيحة المتواترة، في الدر المنثور للسيوطي٦ص٦٠٣ عن أم سَلَمَةُ: إنّ رسول الله (ص) قال لفاطمة: إدعي زوجك وابنيك حسناً وحسيناً فدعتهم، فألقى رسول الله (ص) عليهم كساءً فدكّياً وقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وعترتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) فنزلت الآية (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ**...) قالت أم سَلَمَة أأدخل معكم تحت الكساء فقال (ص) لا، وإنك على خير، وروته كثير من مصادر المسلمين المتداولة ومنهم ابن كثير٥/٤٥٣ والطبري في تفسيره ج٢٢ص٧-٨، (**وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**) كاملاً نقياً خالصاً بإرادته سبحانه (**وَيُطَهِّرَكُمْ**) من جميع المآثم والعيوب والمعاصي والمساوئ والنقائض والنقائص والأخطاء، (**تَطْهِيرًا**) شاملاً بليغاً من جميع الجوانب، فيكون أحدهم طاهراً بذاته ومطهراً لغيره، وهذا هو إشارة تلميحية بليغة لمعنى (**العصمة**) عن الخطأ لهم (رُبَّ تلميح أبلغ من تصريح)

فائدة: ١- (**إِنَّمَا**) محققة لما أثبت بعدها، ونافية لما لم يثبت، فثبت أن آية التطهير مختصة بهؤلاء الذين تحت الكساء لبطلان تعلّقها بغيرهم، الآية لا تشمل نساء النبي، ولو شملتهم لوقعنا في إشكال آخر لقوله تعالى (**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**) غافر/٤٦ معنى ذلك شمل العذاب آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون، من النساء المؤمنات الصالحات الكاملات النموذجيات القدوة الحسنة! وقوله (إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ) العنكبوت/٣٣، وهنا اعتبر أهله هم المؤمنين به، وامرأته الناشز اعتبرها ليست من أهله! (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ**) **إنما**: أداة حصر الإرادة وتخصيصها وتشخيصها وتأكيدها للتشريف والتفخيم لهؤلاء، هم الصدّيقون المطهَّرون لأنفسهم من العيوب والذنوب والنواقص والأخطاء ومطهّرون لغيرهم، في غرر الحكم (**ذَرْوَةُ الْغَايَاتِ لاَ يَنَالُهَا إِلاَّ ذَوُو التَّهْذِيبِ وَالْمُجَاهَدَاتِ**) وهم أشرف الخلق بعد النبي (ص) ليكونوا خلفاء الرسل وورثة الأنبياء، وليس لأحد أن يزاحمهم في مناصبهم ويشاركهم في مناقبهم وفضائلهم التي اختصَّهم الله بها، وأوصى النبي (ص) المسلمين خيراً بهم من بعده، في أحاديث متواترة عن النبي (ص) (إِنِّيْ

تَاْرِكٌ فِيْكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَاْبُ اللهِ وَعِتْرَتِيْ أَهْلَ بَيْتِيْ مَاْ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَاْ لَنْ تَضِلُّوْاْ بَعْدِيَ أَبَدَاً، أَلاَ وإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَاْ حَتَّى يَرِدَاْ عَلَيَّ الْحَوْضَ) تفسير الرازي٨/١٦٣، قال الشيخ محي الدين العربي حول آية التطهير في الفتوحات المكية ج٤ص١٣٩ **(إن النبي (ص) وأهل بيته على السواء في مودتنا فيهم، فمن كره أهل بيته فقد كره النبي (ص) فإنه واحد من أهل بيته، فمن خانهم فقد خان رسول الله (ص))** الكاشف٦/٢١٧.

٢- **(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ)** لهم العصمة لا بإرادته التكوينية، أي أذهب الله عنهم الرجس فهم معصومون منذ الخلق الأول والتكوين، عصمة تكوينية إجبارية، عندئذ لا فضل مع الجبر وإكراه، **والعصمة بالجبر كالملائكة** لا تصلح للاقتداء لأنهم غير صفات البشر، وفوق قدرات البشر المألوفة والمعروفة، ويكون فارقاً كبيراً بينهم وبين عامة الناس ولا يكون التآلف والتعارف بينهما، عندئذ يسقط الجزاء والحساب والثواب والعقاب والجنة والنار، عن النبي (ص) **(خَيْرُ الْمُؤمِنينَ مَنْ كَانَ مَأْلَفُهُ للمُؤمِنِين، وُلا خَيْرَ فِيْمَنْ لاَ يُؤلَفُ وَلاَ يَأْلَفُ)** البحار٧٥ص٢٦٥ **(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ)** ولا عصمة بإرادته التشريعية، أي عصمة عند تشريع أحكام الدين وحلاله وحرامه، وهم غير مشرّعين، وإنما ناقلين التشريع عن النبي (ص) أمناء وأوفياء أكفّاء عليه **(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ)** وإنما عصمهم بإرادته الحتمية النافذة، وهذه الإرادة الهادية المؤيّدة المسدّدة المطلوبة لذاتها ولغيرها، لا توجب الجبر ولا تسلب الاختيار ولا تلغي إرادة الإنسان فإن **(الْهِمَّةُ عَلَى قَدَرِ الْمُهِمَّة)**، لأن العصمة عن الخطأ حالة مكتسبة تسمى:

(العصمة المكتسبة) وهي موهبة واختصاص وعناية وتكريم وحماية وكفاءة ونزاهة ذاتية، وفيها تسديد وتأييد ورعاية إلهية.

والعصمة كالعدالة والصدق والذكاء ونحوها، وليست حكماً فرضاً واجباً من الفروض العبادية الخمسة كقوله **(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** آل عمران/١٠١، وفي غرر الحكم (مَنْ أُلْهِمَ الْعِصْمَةَ أَمِنَ مِنَ الزَّلَلِ، الاعتبأر يُفيدُ الحكْمَة، بالتّقوى قُرِنَتْ العِصّمَة، قُرِنَتْ الحكْمَة بَالعِصّمَةِ، وَمِنَ اعتصم بمنهج الله نجا، وعزّ مطلبَه، وَلم يضرّه الشّيْطاْن) ٣- قال **(لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ)** بدأ أولاً بالتخلية من **(الرِّجْسَ)** ومن كل السلبيّات والعيوب والنواقص والسيئات والآثام، عن الإمام الرضا (ع) (الإمامُ: مَطَّهَرٌ مِنَ الذُّنُوب، والمبَرَّأ مِنَ العُيُوب) وقال **(فهو مَعْصُوم مَؤيّد مُوَفّق مُسَدَّد قَد أَمِنَ مِنَ الخَطَاْيَاْ وَالزَّلَل وَالعِثاْر، يَخُصُّهُ الله بِذَلِكَ أي يُعينَهُ، لِيكُونَ حُجَّتَهُ عَلى عِباْدِهِ وَشَاهِدُهُ عَلى خَلْقِهِ)** الكافي١ص٢٠٣، ثم قال **(وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)** لتحصل التحلية بالتطهير واكتساب جميع أنواع الكمال والجمال والجلال، فانطبقت عليهم القاعدة القرآنية التربوية نحو الكمال (التَّخْليّة ثم التَّحْليّة) بمعنى (التّخْليّة) أولاً من الرجس والسلبيات والعيوب والنواقص، ثم (التَّحْليّة) بالتطهير باكتساب أنواع الايجابيّات وعناصر

القوة والجمال والجلال والكمال، وحمل جميع العلوم القرآنية والروائية والإسلامية والأخلاقية العامة، فهم حَمَلَةُ الإسلام وأمناء عاميّن كفوؤين عليه كقوله (**إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**) الرعد/٧ وقوله (**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**) الإسراء/٧١، وفي نهج البلاغة خطبة/٢ (لا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّد(عليهم السلام) مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ أَحَدٌ، هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ اليَقِينِ) وعن النبي (ص) (**إِنَّ عِدَّةَ الخُلَفَاءِ بَعْدِيَ عِدَّةَ نُقَبَاءِ مُوسَى (ع)**) كنز العمال خبر ١٤٩٧١.

لقوله (**وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا**) المائدة/١٢ وعنه (ص) (**إِنَّمْا مَثَلُ أَهْلُ بَيْتِي فِيْكُمْ كَمَثَلِ سَفِيْنَةِ نُوْحٍ مَنْ رَكِبَهَاْ نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَاْ غرِقَ**) كنز العمال خبر٣٤١٥١، ٤- وجاءت (**آية التطهير**) في سياق ذكر نساء النبي، ولكن حدد الله تطهير أهل البيت بأداة الحصر (**إنَّما**) بمعنى هناك جماعة معينين مخصصين، ولم تأت الآية مع نون النسوة للدلالة على أن خطاب السياق القرآني للرجال ومن ضمنهم النساء، أي هناك تخصيص وتشخيص لجماعة مصطفين مختارين معينين لهؤلاء الأطهار بمنزلة وعناية ورعاية خاصة نموذجية مميزة، ليكون دورهم قيادي نموذجي مميز أيضاً، وامتداد لدور الرسول (ص) بعد وفاته، باعتبارهم خزائن علم الرسالة، وَحَمَلَةُ القرآن والإسلام، وَحَفَظَةُ سُنّة النبي والأمناء الأوفياء عليها من كل الشبهات والغُلو والانحرافات والخرافات والسخافات المريبة كقوله (**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآَمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ**) الأحقاف/٣١.

٥- (**أَهْلَ الْبَيْتِ**) وفي هذه العبارة القرآنية تَلَطّف وتَفَضّل واختيار واصطفاء، وتحتوي على شفافية ورعاية خاصة تشعر بأن الله تعالى هو الذي يتولّى إذهاب الرجس عنهم ويُطهّرهم تطهيراً، وهي رعاية نموذجية مميزة مباشرة خاصة بأهل هذا البيت النموذجي القيادي المميز، وبهذه العناية الخاصة ندرك مدى أهمية التفخيم والتعظيم لشخصهم الكريم ودورهم العزيز، فهم في ذواتهم طاهرين ولغيرهم مطهّرين، والله يحب المتطهّرين لأنفسهم ولغيرهم.

إذاً: لهم دور رئيس مؤثر في حياتهم يرضاه الله ورسوله، ويكونون امتداداً صالحاً مناسباً لمهمة الرسول مُحَمَّد (ص) بعد وفاته، وهم اثنا عشر إماماً، وأميناً على العقيدة وقائداً للقلوب، وسلوة للنفوس، كما كان لموسى اثنا عشر نقيباً، ولعيسى اثنا عشر حوراياً، **عن ابن عباس** (شهدنا رسول الله (ص) تسعة أشهر يأتي كل يوم باب بيت علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة فيقول (**السلام عليكم ورحمة الله** (**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**) الأحزاب/٣٣ **الصلاة يرحمكم الله، كل يوم خمس مرات**) المراغي٢٢ص٧، وفي ذلك دلالة على أن بيت علي وأهله وأولاده هم أهل بيت النبي (ع)، ٦- **قلنا أن هذا التطهير لا يشمل نساء النبي**، كما قال النبي (ص) لأم سلمة لا تدخلي تحت الكساء ولكن أنتِ على خير، والسيدة عائشة زوجة النبي(ص) حاربت الإمام علي (ع) في الجمل ثم ندمت.

ويقول النبي (ص) (**ياعلي: سِلَمُكَ سِلْمِي وَحَرْبُكَ حَرْبِي**)!، ويكشف القرآن الكريم بعض المواقف من نساء النبي لإيذائه (ص) كقوله (**إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ**) التحريم/٤، خطاب الآية لعائشة وحفصة، تعاونا على إيذاء النبي (ص) فخاطبهما الله (**إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا**) **صغت:** أي مالت وانحرفت وتوجّهت إلى الإثم!

٧- **سؤال:** أهل البيت هم خمسة أهل الكساء، فلماذا جعلت هذه الآية في سياق الحديث عن نساء النبي (ص) **الجواب:** نزلت آية التطهير بشكل مستقل ومنفصل، ولكنها عند جمع القرآن جُعلت هنا. جاء الضمير (**لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ**) ويطهركم بصيغة الجمع المذكر بدون نون النسوة، وهذا دليل على غلبة الرجال، ولم يقل (**عنكن، ويطهركن**) بضمير المؤنث، عن الإمام الصادق (ع) (**إن الآية من القرآن يكون أولها في شيء، وآخرها في شيء آخر**) الكاشف٦/٢١٧ وعلى هذا فلا يصح هنا الاعتماد على دلالة السياق كقاعد كلية، واعْتَمَدَ أهلُ التفسير على إخراج الآية من سياقها (بنون النسوة)، على الحديث الصحيح المتواتر، وقد اتّفقت كلمة المسلمين على أن السُّنَةَ النبوية تفسير وبيان لكتاب الله.

٨- فيكون (**أَهْلَ الْبَيْتِ**) **له معنيان:** ١- المعنى الخاص للإنسان الخاص النخبة المختارة وهم الخمسة المختارون المطهرون من الرجس، الذين هم تحت الكساء والتي تعنيهم آية التطهير، وآية القربى كقوله (**قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**) الشورى/٢٣، لما نزلت هذه الآية قيل يارسول الله من هم قرابتك الذين أوجبت علينا مودَّتهم؟ قال: (**أنا وعلي وفاطمة وابناهما**) في بحر المحيط للأندلسي في الآية ، وروح البيان للبروسوي وغيرهما، ٢- **المعنى العام لأهل البيت،** للإنسان العام الفاضل كقوله (رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ) هود/٧٣، أهل بيت إبراهيم الخليل الذين خصهم الله بمواهب خاصة مميزة يتفرَّدون بها من بين الناس، عن النبي (ص) (**آل مُحَمّد كُلُّ تَقِي نَقِيٌّ**) روح البيان٧/١٧٣ وعنه (ص) (**أَنا جَدّ كُلُّ تَقِي**) وعنه (ص)(سلمان منّا أهل البيت) روح البيان٧/١٧٠ وأزواج النبي (ص)من أهل بيته. (**الأهل في القرآن**) يعتبر أهل نوح (ع) المؤمنين به رجالاً ونساء الذين ركبوا سفينة النجاة معه، وإن ابتعدوا نسباً، ولكن الآية لم تعتبر زوجة نوح الناشر العاصية المتمرّدة عليه من أهله، كقوله (وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) الصافات/٧٦، وكان أهله وولده من الهالكين.

٣٤ - ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾

لما أمرهن الله بالتعفف والتقوى والاستقامة، أمرهن العناية بالقرآن، فإنه أحسن هداية وأفضل رعاية وأشرف الأحساب والأنساب (**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ**) واذكرن يانساء النبي نعمة الله عليكن حيث جعلكن في بيوت تسمعن فيها تلاوة القرآن الكريم فقال (**وَاذْكُرْنَ**) واقرأن واحفظن واشكرن (**مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ**) لتعلَمنَّ علوم القرآن وتعملنّ بها

وتعلمونها، ولتكنّ القدوة الحسنة لغيركن، وأمرهن ألا ينسين ما يُتلى في بيوتكن من أنواع العلوم النافعة، والحكم البليغة والشرائع المفيدة، فيكون معنى (**وَاذْكُرْنَ**) قراءة لفظ الآيات، وحسن تلاوتها والتعلّم معناها بحسن تدبّرها ودقة التفكّر فيها وحسن تأويلها والعمل بها كقوله (**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى**) فصلت/٤٤.
عن النبي (ص) (إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيْثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيَرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ (ص)، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا) البحار٧٧ص١٢٢، وكأنما جاءت (**وَاذْكُرْنَ**) وصية الله لنساء النبي خاصة ولعموم الناس عامة، رجالاً ونساءً بتلاوة القرآن باستمرار أناء الليل وأطراف النهار، كقوله (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ) البقرة/١٢١ (**وَالْحِكْمَةِ**) وهي السّنة الشّريفة الصَحيحة المتوافقة مع القرآن، من أقوال النبي (ص) وشرحه لآيات الله وأفعاله وسيرته وتقريره لاقترانها بكتاب الله وآياته، فإن فيهما طبّ القلوب ودواءها، ونور العقول وشفاءها، لأن بناء الإسلام على الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، أمان من الفرقة ونظام للملة وصلاح الدنيا وقوة المؤمنين، **والعترة هم حفظة السُنّة الصحيحة التي لا تتعارض مع القرآن** (**إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيرًا**) **لطيفاً**: دقيقاً في تدبير خلقه، مُطّلِعاً على أدق أعمالهم وأحوالهم، ومن معاني (**لَطِيفاً**) **اللّطيف**: الذي يوجّه عبده المؤمن إلى الخير بتيسير أسباب النجاح إليه، ويعصمه من كل عثرة وخطأ وزلل، ويسدده في القول والعمل بطرق فنيّة خفيّة لا يشعر بها، ويسوق إليه الكرامة وعزة النفس ويرزقه رزقاً يكفيه ولا يلهيه ولا ينسيه ولا يطغيه، ليقوده إلى سلّم التكامل الإنساني (**خَبِيرًا**) عالماً بمصالحهم وخفايا صدورهم، لذلك شَرّعَ للناس ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم.

فائدة:

من علامات توفيق الإنسان أن يسكن في بيئة محافظة متديّنة واعية، فإن البيئة تساهم في صياغة الإنسان وتربيته بنسبة كبيرة، والذي يرضى أن تستذله عوامل البيئية (والظروف العامة) بكثرة ظلمها وفسادها وطغاتها فهو إنسان عاقبته سيئة، والإنسان الذي يأبى أن تستذلّه عوامل البيئة فعليه أن يهاجر منها إلى بلاد أحسن منها، وخير البلاد ما حملك كقوله (**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**) العنكبوت/٥٦، والذي يعيش في بيئة محافظة فعليه أن يحمد الله ويشكره، والشكر زينة النعمة وأمان من حلول النقمة، كقوله (وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) البقرة/١٥٢، **عن النبي** (ص) (لا خير في ... الوطن إلاّ مع الأمن والسّرور) البحار٧٧ص٥٨.

٣٥ - ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

تبين الآية الكريمة الخصائص العشرة المهمة لتكامل الإنسان المسلم، وأن حكم الرجل والمرأة مشترك في التكاليف، وفي الجزاء والثواب والعقاب، والدالة على مساواة الرجل والمرأة عند الله، والفرق بين الرجل والمرأة في الشكل والجسم والتركيب وليس في الروح والمضمون والقيمة والكرامة كقوله (**وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى**) آل عمران/٣٦، **فإذا اختلف التركيب بينهما، اختلفت الوظائف** والحقوق والواجبات والمسؤوليات والمواقع، وتعددت الأدوار والوسائل وتوحَّدت الأهداف الشريفة. وأن هذه الخصائص المميزة النموذجية الكثيرة عالية المضامين، التي جمعت في هذه الآية لهي من أهم صفات تكامل النفس الإنسانية، ولها قيمة عليا في بناء الشخصية الإسلامية القدوة.

المعنى: ١- (**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ**) من التسليم والخضوع لله، أي المستسلمين لمنهج الله والملتزمين بأخلاقه والدائمين على طاعته في الظاهر، ومقرّين بوحدانية الله وبمحمد بالنبوة والرسالة، والغرض من هذا (**التسليم**) هو الوصول إلى درجة اليقين الذي فيه قوة العقيدة وجمالية الشخصية الإسلامية، ونفي كل الشبهات والشكوك عنها، فإنها عقبات تعيق السير في سلّم التكامل الإنساني **في غرر الحكم** (عَلَى قَدْرِ الْدّينِ، تَكْوُنَ قُوَةُ اليّقِينِ) عن النبي (ص) (**الْمُسْلِمُونَ إِخِوَةٌ لاَ فَضلَ لأحَد عَلى أحَدٍ إلاّ بالتّقْوى**) كنز العمال خبر٧٤٣ (**وَالْمُسْلِمَاتِ**)، ٢- (**وَالْمُؤْمِنِينَ**) المصدّقين بالله ورسله ورسالاته في الباطن، بنيّات صادقة في القلب والقول والعمل، فيكون حسن الخلق مع الناس.

والإسلام: إقرار باللسان في الظاهر، **والإيمان**: التصديق بالقلب والمشاعر، وهو عمل بالأركان الأساسية ويؤدي الفرائض والواجبات، والإيمان عمل كله والقول بعضه، كقوله (**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**) الحجرات/١٤، والمقابلة بين الإسلام والإيمان تفيد مغايرتهما، فالإيمان أرقى وأنقى وأفضل درجة من الإسلام (**وَالْمُؤْمِنَاتِ**) **عن النبي** (ص) (أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ)كنز العمال خبر٦٦ كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، ٣- (**وَالْقَانِتِينَ**) **القنوت**: طاعة الله الناشئة من الإسلام والإيمان، **والقنوت**: استغراق روح المؤمن في الدعاء الخاشع واستذواق طعم طاعة الله واطمئنان القلب بها. كقوله (وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) البقرة/٢٣٨.

(**وَالْقَانِتِينَ**) العابدين الطائعين الداعين المداومين على طاعة الله بأداء الفرائض والخضوع له سبحانه، والورع عن محارمه (**وَالْقَانِتَاتِ**) كقوله (فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ) النساء/٣٤، ٤- (**وَالصَّادِقِينَ**) **الصدق**: مطابقة القول والفعل والنية لما ينفع الناس ويرضى الله وما يظهره للواقع، **والصادقين** في إيمانهم ونياتهم وفي أقوالهم وأفعالهم وكافة تعاملاتهم، بحيث لا يختلف قولهم عن فعلهم عما موجود في داخل نفوسهم، ويكون فعلهم ترجمان لقولهم عما في نياتهم، ولا يعملون خلاف ما يقولون، كقوله (وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ) الشعراء/٨٤،

في الحديث (**لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْد حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ**) الأمثل١٣ص٢٣١ (**وَالصَّادِقَاتِ**) ٥- (**وَالصَّابِرِينَ**) الحابسين أنفسهم ومهذّبيها عن الشهوات المحرّمة والعيوب والنقائص والسلبيات، **والصابرين** على أذى الناس وعدم رد الخطأ بالخطأ.

والصابرين على طاعة الله وعن معصيته، وعند المصائب والبلايا والمحن وفي جميع أحوالهم، من أجل الثبات على الحق ونصرة الحقوق والدفاع عن المظلومين كقوله (**وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**) آل عمران/١٤٦ في غرر الحكم (**بِالصَّبْرِ تُدْرَكُ الرَّغائِبُ**) (**وَالصَّابِرَاتِ**) ٦- (**وَالْخَاشِعِينَ**) **الخشوع**: صفة التفاعل الروحي للقلب والعقل والمشاعر والضمائر الدالة على تأثر القلب وتفاعله في عبادة الله، واستشعار هيبة الله وتقواه، بحيث يتساوى خشوع الظاهر مع خشوع الباطن ولا يختلف عنه، بل ينعكس عليه بصورة من الصوّر، **والخاشعين**: والخاضعين لله بقلوبهم وجوارحهم، والمتواضعين لله ومع الناس، وهم البعيدون عن النفاق (**وَالْخَاشِعَاتِ**) ٧- (**وَالْمُتَصَدِّقِينَ**) بأموالهم وجوباً واستحباباً ومساعدين لإخوانهم بالإحسان إليهم، وكفالة الأيتام، وأداء الزكاة كل إنسان من موقعه وبقدره، **في غرر الحكم** (لِكُلِ شَيءٍ زَكَاةٌ) وإعطاء الحقوق الشرعية والنذور وغيرها، والتصدّق دلالة التطهّر من شُح النفس وبخلها وحبّ ذاتها والشّعور بمرحمة الناس وتكافلهم، كقوله (وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) الحديد/٧، في الحديث (الصَّدَقَةُ تُطْفِئ الخَطَيئة كَما يُطْفِئ الماءِ النَّار)(**وَالْمُتَصَدِّقَاتِ**)

٨- (**وَالصَّائِمِينَ**) **الصوم**: تربية النفس واستعلاؤها على المحرّمات وتهذيب العادات والطبائع السيئة والصبر على الحاجات الكمالية الأولية للحياة، **والصوم**: لوجه الله في شهر رمضان المبارك وغيره من الأيام، **صوم**: امتناع النفس عن رغبتها في الطعام والشراب، **وصوم** عن كل محرم في القول والفعل، **والصوم** زكاة البدن ويطهره ويداويه ويشافيه، عن النبي (ص) (**صُومُوا تصَحُوا**) وعنه (ص) (**لِكُلِّ شَيْء زَكَاةٌ، وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الصِّيَامُ**) البحار٩٦ص٢٤٦ (**وَالصَّائِمَاتِ**) ٩- (**وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ**) المتعففين عن الحرام، وما فيه من تطهّر لنفوسهم وضبط لشهواتهم واستعلاء عن رغباتهم ولذّاتهم الهابطة وإشباعها في اللذّات الطاهرة، ولا يقربون المعاصي يحذرون من مقدماتها، فلا يكشفون عوراتهم ولا يقربون الزنى كقوله (**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**) النور/٣٣، في غرر الحكم (العَفَافُ: يَصُوْن النَّفْس وُيُنَزِّهها عَنْ الدَّنايْا) (**وَالْحَافِظَاتِ**).

١٠- (**وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا**) المداومين ذكر الله في كل الأحوال بألسنتهم وقلوبهم وجوارحهم وعلى جنوبهم، **وذكر الله كثيراً**: هو حلقة الاتصال الفاعلة بين نشاط الإنسان وعقيدته في الله، واستشعار القلب أنه متصل مع الله عز وجل في كل لحظة وفي كل حال، واستذواق القلب لذّة

ذكر الله يسكب فيه نور الاطمئنان وباقات الحياة، ومن مصاديقها إقامة الصلوات الخمس كقوله (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد/٢٨ وقوله (**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**) العنكبوت/٤٥.

ومن فوائد ذكر الله كثيراً: أنه يبعد عن الغفلة وعن الشيطان وعن الهوى والأنا وحبَّ الذات وحبّ الدنيا، ويساعد على تزكية النفس وتهذيب طبائعها، لذلك أصبح ذكر الله كثيراً من أحبّ الأعمال إلى الله لأنه غنيمة الصالحين ولذّة الذاكرين.

في غرر الحكم (**الذِكْرُ: لَذَّةُ المُحبّين وَمُجَالَسَةُ المحبُوب**) (**وَالذَّاكِرَاتِ**) (**أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً**) أعدَّ لهؤلاء المتّقين الأبرار المتّصفين بهذه الصفات النموذجية والفضائل المميزة الجليلة، أعدَّ لهم مؤهّلات القدوة الحسنة الذين أقاموا الدين مَوَحَّداً ولم يجزّؤه ولم يتفرّقوا فيه كقوله (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) الشورى/١٣ أعدَّ الله لهم تكفيراً لذنوبهم بسبب ما فعلوه من الأعمال الصالحة والنافعة والباقية لأن (**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**) هود/١١٤، عن الإمام الباقر (ع) (**مَا أحسن الحسنات بعد السيئات، وَما أقبح السيئات بعد الحسنات**) البحار٧١ص٢٤٢ (**وَأَجْرًا عَظِيمًا**) ومقاماً كريماً وهو نعيم الجنة ذكراً كان أم أنثى كقوله (**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) السجدة/١٧

سبب النزول: قالت بعض النساء إنّ الله سبحانه ذكر في كتابه الكريم الرجال بخير ولم يذكرنا بشيء، فأنزل الله هذه الآية لتقرر أن الناس كلهم سواء في الحقوق والواجبات وفي الحساب والجزاء، وأنه لن يفوز بالخير إلاّ عامله ولا يجزى جزاء الشر إلاّ فاعله، سواء أكان ذكراً أم أنثى، أسوداً أم أبيضاً، غنيّاً أم فقيراً.. إلخ. كقوله (أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) آل عمران/١٩٥.

٣٦ – ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾

هذه الآية تعقيب على تلك الصفات المميزة العشرة في الآية السابقة، إنها لا تحصل على ثمرتها الجليلة إلاّ إذا قامت في ظل التسليم لأمر الله ورسوله على الحقيقة، إنه التسليم الكامل بكل ما فيها وأغلى ما فيها فلم يعد لهم منها شيء، عندئذ استقامت نفوسهم مع سنن الكون كله! وعندئذ رضيت نفوسهم بكل ما يأتي به قدر الله، فاستقبلوه بالمعرفة المدركة الواثقة المطمئنة أنها لا تأمر إلاّ بخير كقوله (**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**) آل عمران/١٢٢، ومن وثق بالله توكل عليه، في غرر الحكم (**حُسْنُ تَوَكُّلِ الْعَبْدِ عَلَى اللهِ عَلَى قَدرِ ثِقَتِهِ بِهِ**)، هذا التوازن الدقيق بين التسليم المطلق المطمئن لقدر الله، والعمل المثابر المفروض بكل ما في الطاقة من جهد، هذا التوازن المستقيم الدقيق هو الصفة المثلى التي ميّزت حياة تلك المجموعة الأولى النخبة، وهي التي أهّلتها لحمل أمانة الرسالة السماوية القيّمة وَوَفّت معها التي أشفقت منها الجبال! إنما تتم هذه الصياغة

الخاصة النموذجية برعاية الله لهم وتسديده إياهم كقوله (**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**) العنكبوت/ ٦٩ وقوله (**وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) غافر/٦٦، عن النبي (ص) (ياعباد الله أنتم كالمرضى وَرَبُّ العْاَلَمِيْن كالطَّبِيْبِ، ألا فسَلّموا للهِ أمره تَكُوْنوا مِنَ الفَاْئِزِيْن) تنبيه الخواطرص٣٥٧.

المعنى: (**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ**) لا ينبغي ولا يصح ولا يليق بأي واحد من المؤمنين والمؤمنات، من كانت صفته الإيمان والإيقان إلاّ أن يُسرع في طلب مرضاة الله ورسوله (**إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا**) إذا أمر الله ورسوله بشيء من الأشياء أو بأمر من الأمور، وحكما به وألزماه فإن ذلك لمصلحتهم ومنفعتهم، وتقديم ذكر الله وقضاؤه للتعظيم، والإشارة إلى أن قضاء رسول الله هو قضاء الله لكونه (**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**) النجم/٣-٤، **وهذه الآية قاعدة عامة في جميع الأمور**، فهي أعم من أي حادث خاص في ظروف خاصة، وذلك أنه إذا حكم الله بشيء ورسوله بشيء (**أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**) فلا يكون لهم (**الْخِيَرَةُ**) أي رأي أو اختيار في قبوله أو ردّه أو الاعتراض عليه أو مخالفته أو الشك فيه، وليس لهم قول ولا رأي ولا اقتراح آخر، لأن أمر الله ورسوله أهم وأفضل من أمرهم واختيارهم، بل يجب عليهم الخضوع والانقياد والتسليم لإرادة الله ورسوله عن رضا وقناعة وعلم وإيمان، لأن الله ورسوله أحرص على أنفسهم من أنفسهم كقوله (**إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**) آل عمران/٣١، وقوله (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) الأحزاب/٦، وقوله (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) البقرة/٢١٦، فأنتم تحكمون على ظواهر الأمور دون علم بمواطن الخير المخبوء، من يدري فَلَعلّ وراء المكروه الظاهري خيراً، ووراء المحبوب المحجوب شراً!.

عن الإمام الصادق (ع) (لاَ يُمَحَّضُ رَجُلٌ الإيْمَاْنَ بِاللهِ حَتّى يَكُوْنَ اللهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنْ نَفْسِهِ وَأَبِيْهِ وَأُمِّهِ وَوُلْدِهِ وَأَهْلِهِ وَمَاْلِهِ وَمِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ) البحار٧٠ص٢٤، إن هذه الحالة تشبه حالة طبيب اختصاص ماهر معروف يقول لمريضه إذا قضيت بتشخيص مرضك فما يكون لك معارضته ولا اختيار غيره، لأن الطبيب أعرف بعلاجك وأحرص على سلامتك من نفسك، والله تعالى أسمى وأجلّ من حرص الطبيب على المريض، ولهذا شدد النكير فقال (**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) ومن يتمرَّد ويتعالى وَيُعرض ويخالف أوامر الله ورسوله ويعمل برأيه وهواه (**فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا**) فقد انحرف انحرافاً واضحاً يضرّه، وذهب ذهاباً بعيداً عن الحق، وأخطأ طريق الصواب كقوله (**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) النور/٦٣.

سبب النزول: خطب رسول الله (ص) بنت عمته أميمة، وهي زينب بنت جحش لزيد بن حارثه الذي كان من سبي الجاهلية، واشتراه النبي (ص) قبل البعثة واعتقه وتبنّاه، فاستنكفت وقالت أنا خير منه حسباً، وكانت امرأة فيها حِدّةٌ، فنزلت الآية، وعرفت معناها فقالت زينب: طوعاً لأمر

الله ورسوله، وتم الزواج برضا الطرفين المؤمنين (**وَالْمُؤمِنُ كُفْؤُ الْمُؤْمِنَةُ**) ولكن نص الآية وإن نزلت في خصوص سبب معيّن، ولكن أريد لها عموم المعنى وسعة المغزى.

٣٧ – ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

(**وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ**) واذكر يامُحَمَّد عندما كنت تقول لزيد بن حارثة الذي أنعم الله عليه بالإسلام والهداية إلى الإيمان، وصحبة رسول الله وخدمته قبل البعثة وبعدها، وجاءت (**تَقُولُ**) بالفعل المضارع للدلالة على الاستمرار، أي كان النبي (ص) ينصحه دائماً بعدم طلاق زوجته (**وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ**) بالحبّ والتكريم والتربية والهداية والتبنّي، حينما جاءك مرات عديدة يشكو زوجته زينب التي كانت تفخر على زيد بأنها أكرم منه نسباً، ولما تكرر الخلاف فترت العلاقة بين الزوجين لعدم الانسجام بينهما، وعزم زيد على الفراق والطلاق، فأمره النبي بالصبر وقال (**أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ**) لا تطلق زينب وأبقها في عصمتك (**وَاتَّقِ اللَّهَ**) في أمورك العامة، وفي أمر زوجتك الخاصة، فإن التقوى تدعو إلى الاستقامة والصبر (**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ**) وأنت تخفي سراً في نفسك ما أعلمك الله إياه وما سيظهره. **روي**: إنّ الله سبحانه عَرّفَ نبيه أن زيداً سيطلقها ويزوجها الله إياها! وذلك لإبطال قانون جاهلي متعارف عليه بين الناس وهو حرمة الزواج من مطلقة الابن المتبنى، لأنهم يعدونه ابناً حقيقاً وهو ليس كذلك، فأخفى (ص) إرادة تزوجها في نفسه لو طلّقها زيد ولم يظهره حشمةً وحياءً، **عن النبي (ص) (إنّ الحَيَاءَ مِنْ شرائع الإسلام)** كنز العمال خبر٥٧٧٢، وحلاله هذا، إلى أن زواجك من زينب سيظهره الله ويعلن بين الناس لا محالة.

ولكنه (ص) خاف أن يقول الناس تزوج امرأة ابنه الذي تبنّاه، وكان هذا عرفاً اجتماعياً معتاداً ومنتشراً لا يكاد يزول إلاّ بحادث كبير ومن قائد عظيم، ومن أعظم من **قيادة رسول الله (ص) الذي غيَّرَ المجتمع الجاهلي إلى الإسلام**، والذي اعتمد تغيير هذا العرف الخاطئ ليحطّم بهذا الزواج الشرعي فوارق الطبقات المورثة، ويحقق معنى قوله (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) الحجرات/١٣ (**وَتَخْشَى النَّاسَ**) وتحذر لسانهم وتهابهم أن يُعيّروكَ به فيؤثر ذلك أثراً سيئاً في الإسلام، وفي إيمان عوام الناس (**وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ**) والله أولى بأن تخشاه وحده، بأن تترك الأمور تسير بشكل طبيعي ولا تمانع طلاق زيد من زوجته (**فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا**) **الوَطَرْ**: الحّاجَةُ المهمة، والجملة كناية تشبيهية عن التمتع والزواج والدخول، أي فلما قضى زيد حاجته من زوجته من نكاحها وطلاقها وفراقها، وابتعد عنها وانقضت عُدَّتها ولم يكن في قلبه ميل إليها ولا وحشة من فراقها، عندئذ أذن الله لنبيه (ص) في الزواج منها (**زَوَّجْنَاكَهَا**) أي أذنّا لك في

تزويجها، فيتزوّج (ص) مطلّقة متبناه زيد، والمرأة المطلّقة محترمة، والزواج منها ليس معيباً، **وقال المنافقون:** تزوج حليلة إبنه.

(**زَوَّجْنَاكَهَا**) أسند الله سبحانه تزويجها إليه لا إلى مُحَمَّد (ص) كيلا يتشدّق ويتحذلق الذين في قلوبهم مرض، أنه تزوجها (ص) لحبه لها، ثم ذكر الله تعالى الحكمة والسبب في هذا الزواج فقال (**لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ**) أن لا يكون على المؤمنين أدنى (**حَرَجٌ**) أي إثم وضيق ومشقّة (**فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ**) من مطلقات أبنائهم بالتبنّي، **أدعيائهم**: الأدعياء جمع دعي وهو الابن المتبنى (**إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا**) إذا قضوا منهن حاجتهم الزوجية، وانقضت عدّتهن وطابت أنفسهم منهن وفارقوهن، والهدف إنساني واجتماعي محض (**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا**) قضاؤه سبحانه مقدّراً حكيماً لا مردّ له ولا مفرّ منه، وهكذا كان كل زواج النبي (ص) من النساء الثيّبات المطلقات الكبار متواضعات الجمال، ولم يتزوج بكر إلاّ السيدة عائشة، وكان (ص) زواجه كله بأمر الله، لأغراض سياسية لصالح نشر الإسلام، الآية ٣٨ تفصّل ذلك.

٣٨ - ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾

(**مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ**) ليس على النبي (**مِنْ حَرَجٍ**) من مانع ولا ضيق ولا عتاب، ونفي الحرج عن النبي (ص) على سبيل التكريم والتشريف، وهذا دفاع لمن طعن رسول الله (ص) في كثرة أزواجه، وأنه طعن بما لا طعن فيه، ولو كان (ص) هدفه زواج النساء لتزوج الأبكار، وإنما كان زواجه في كل زوجاته لمصلحة عامة، ولحلّ مشكلة، وقضاء حاجة الناس، كقوله (**وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**) الأحزاب/٥٠، لغرض تأليف القلوب، ووحدة الصفوف، وتقوية الأواصر الاجتماعية (**فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ**) فيما أباح الله له وَقَسَمَ وَعَيَّن وَقَدّر له من الزوجات الثيّبات، **فإن هذا التعدد للزوجات ما أريد لذاته ولا للذّاته، أنما أريد لغيره لشيء أهم منه هو المصلحة العامة**، وقد أباح الله له ذلك الزواج لحلِّ مشكلة اجتماعية كانت منتشرة بين الناس، وهي بحاجة لحلّها إلى شخصية عظيمة وليس هناك كالنبي (ص) العظيم أن يتولى حَلّ هذه المشكلة بتطبيقها على نفسه أن يتزوج مطلقة زيد العبد الذي تبناه (ص) وحرره، كان ذلك يُعَدُّ عيباً وعاراً فيجعل النبي والعبد في مرتبة واحدة!! ولكن النبي (ص) لا يخاف من ملامة اللائمين عليه عند تغيير أعراف خاطئة في المجتمع، وأعدّ النبي مائدة طعام كبيرة ودعا إليها عامة الناس، من أجل إلغاء سنُة جاهلية، لم يكن النبي (ص) لديه رغبة خاصة في الزواج من زينب مطلقة زيد لولا (**فَرَضَ اللَّهُ لَهُ**) وأمره إيّاه، وهذا ليس أمراً جديداً غير مألوف ولا معروف ولكنه (**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ**) بل هو أمر يمضي بسنة الله وحكمته وطريقته الثابتة التي لا تتبدل في جميع الأنبياء والمرسلين السابقين الذين مضوا من قبل، في ظروف موضوعية وعند الحاجة والمصلحة والضرورة، والله يأمر وهم بأمره

يعملون، كداود وسليمان (ع) فعلام الإنكار حول هذه القصة الواضحة؟ **(وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)** وكان أمر الله حتماً مقضيّاً، ومقدّراً تقديراً دقيقاً غاية في الحكمة والمصلحة، وقد أمر رسوله الكريم أن يبطل تلك العادة الجاهلية، ومن الضروري نفاذ أمر الله.

٣٩ - ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾

ثم أثنى الله تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين السابقين الذين مضوا من قبل، كما ويشمل الثناء لكل المبلّغين المخلِصين الواعين **(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)** أحسن تبليغ وإلقاء الحجة الإلهية الواضحة على الناس كقوله **(رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)** النساء/١٦٥، وَيُقدِّمون أمر الله وخشيته على أمر الناس وخشيتهم، ولا يحسبون للمحذورات حساباً تعيقهم فيما يكلّفهم الله به من تبليغ وتوضيح رسالات الله للناس **(يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)** إلى عباده بأقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم، ويؤدونها بأمانة وإخلاص واقتدار ويعلمونها بوعي للأمم التي بعثوا إليها، ولا يكتمون منها شيئاً، ويتحمَّلون في سبيلها ألواناً من الأذى، ومع ذلك يمضون ويواصلون التبليغ بخطط جديدة ولا يتردّدون ولا يمتنعون، ويوضّحون حجج الله وبراهينه، ويبيّنون دور الدين السماوي الضروري في حياة الإنسان، عن الإمام علي (ع) **(لا حَيْاةَ إلاّ بَالْدّين، وَلاَ مُوتَ إلاّ بِجُحُودِ اليقينِ)** البحار٧٧ص٤١٨، والإنسان بلا دين الله هو سبيل الضياع والضلال، لذلك فالأنبياء (ع) قدوة صالحة وأسوة حسنة لك يامُحَّد وللمؤمنين كقوله **(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)** الأحقاف/٣٥، وفي هذا التبليغ دلالة على أن الأنبياء (ع) لا يجوز عليهم (التقيّة) في خصوص ضرورة تبليغ الرسالة، وإلقاء الحجة الرسالية على الناس، **إذاً** كيف قول نبينا (ص) **(وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)** الأحزاب/٣٧، هذا لم يكن يتعلّق بتبليغ الرسالة، وإنما خشي المقالة القبيحة فيه، والعاقل يتحرز من كل سوء.

(وَيَخْشَوْنَهُ) ويخافونه وحده سبحانه، وهذه صفة الثقة بالنفس وقوة الإرادة والشجاعة والشهامة لصفات المبلّغين لدين الله ورسالاته، المخلِصين الواعين الذين يوحّدون ولا ينفّرون، ويحبّبون ولا يكرّهون، ولا يكتمون بعض آيات الله على الناس كقوله **(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)** البقرة/١٥٩ كتمان الحق في علوم الدين وغيره مع الضرورة في إظهارها، من أعظم الكبائر والجرائم التي تستحق الّلعن. والطرد من رحمة الله! راجع التفصيل في كتاب (وُعيُ القُرآنِ الُميُسَّر) في الآية، **بقلم الباحث**: مكي قاسم البغدادي، عن النبي (ص) **(إذَا ظَهَرَتِ الْبِدَعُ فِي أُمَّتِي وَلَم يُظْهِرَ العَالِمُ عِلْمُهُ فَعَلَيهِ لَعَنَةُ اللهِ)** الكافي١ص٥٤، **خشية الله غير الخوف: خشية الله**: تأثّر قلبي ناشئ من عظمة أمر ما، وتفاعل معنوي في عظمة ربهم، في غرر الحكم **(أَعْلَمُ النَّاْسِ بِالله سُبْحَاْنَهُ أَخْوَفَهُمْ مِنْهُ)** **وخشية الله**: عدم الامتناع من أداء التبليغ ولو كان في ظروف صعبة، فهو يقتضي فعل كل

مأمور وترك كل محظور ضمن خطة مدروسة، فلا يحسبون للعوائق كأنها موانع تمنعهم بما يكلّفهم الله به من التبليغ. **عن النبي (ص)** (رَأسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الله)البحار١٣٣/٧٧.

بينما (**الخوف**) هو الحذر الشديد من أمر مخيف فتضعف الإرادة أمامه، والخوف هو القلق النفسي والأرق الليلي والاضطراب من سوء العاقبة، **والخشية:** خوف يقترب بتعظيم واحترام وخضوع، فهو خوف هيبة من مقام الله ورغبة لا خوف رعبة ورهبة! (**وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ**) فيما يتعلّق بتبليغ الرسالة وإلقاء الحجة البالغة على الناس، فلا يخشون غير الله كقوله (**إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ**) المؤمنون/٥٧، في غرر الحكم (**الخَوْفُ: جِلبابُ العارفين**) وزينة المؤمنين وعنوان الصالحين (**وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا**) ناصراً ومعيناً وحافظاً وكافياً ومحاسباً، فهو سبحانه يحاسب جميع الخلق على ما يصدر منهم، ويراقبهم بجميع أعمالهم صغيرها وكبيرها ويجازي عليها كقوله (**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**) ق/١٦، فلا تخشَ إلاّ ربك ولا تخف إلاّ ذنبك.

فائدة: ١- الآية الكريمة ذات دلالة واسعة، وليست محدودة في خصوص سبب النزول، وإنما تشمل عموم المعنى ودقة المبنى، ٢- (**يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ**) وقوله (**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**) التغابن/١١، وكلما ازداد الإنسان إيماناً وعلماً بالله قوي على التمسّك بتعاليم الله ورسالاته، وقوي أيضاً على تبليغها للناس، والعلم يزكو بانفاقه، فالهدى الرئيس للمبلغين رسالات الله أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى، فيبذلون في نصرتها كل شيء، (وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ) المائدة/٥٤، ويتحمّلون من أجلها العناء والبلاء، **وخشية الله والخوف منه حالة نسبية: فخشية الأنبياء** من تركهم للأولى، **وخشّية المبلّغين** في التقصير في الواجب، **وخشية عوام الناس** من العذاب، والذي لا يخشى الله هو من القوم الضالين، وكلما ازداد الإنسان إيماناً وعلماً ازداد خشيته لله وحده كقوله (**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**) فاطر/٢٨، وخشية الله ليست الرهبة منه، وإنما هيبته والرغبة إليه والحب له والتعلّق به، كقوله (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) البينة/٨ في غرر الحكم (**إذَا خِفْتَ الْخَالِقَ فَرَرْتَ إلَيْهِ ، إذَا خِفْتَ الْمَخْلُوقَ فَرَرْتَ مِنْهُ**) ٣- الخوف من الله حالة إيجابية متسامية، والخوف من الناس حالة سلبية، والخوف المعتدل حالة إنسانية، وزيادة الخوف يؤدّي إلى الجُبن المفضي إلى الذل.

في غرر الحكم (شِدّةُ الجُبْن: مِنْ عَجْزِ النفْس، وَضُعْفُ اليّقينِ).

٤٠ - ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

ثم أبطل الله تعالى حكم التبني الذي كان شائعاً في الجاهلية فقال (**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ**) ليس مُحَمَّد أبا أحد من رجالكم على الحقيقة أيها المسلمون أبوّة نسب وولادة حتى يثبت بينه وبينهم ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح، وليس أباً لزيد بن حارثة حتى يحرم عليه نكاح مطلقته بعد تمام عدتها، والنبي (ص) أب للمؤمنين كلهم، أبوّة معنوية روحية

تربوية توجيهية، وهذا أعظم وأشمل مما تعطيه أبوة النسب، وأزواجه أمّهاتهم **(وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ)** الأسوة الحسنة المطاعة التي تهدي إلى صراط الله المستقيم، وكأنه للمؤمنين في نصحه وإرشاده أب معنوي ومرشد لهم **(وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)** وختمت النبوّة به ولا يأتي رسول بعده، وختمت الرسالة به أيضاً فلا رسالة سماوية بعده، فرسالة الإسلام القيّمة الشاملة رسالة عالمية هادية منقذة لكل البشر في العالم، رسالة عالية المضامين لا تتبدّل ولا تتحوّل ولا تتغيّر، فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامه كذلك، وشرعه منسجم مع فطرة الإنسان، وناسخ الشرائع السماوية السابقة كقوله **(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** الشورى/٥٢، فشريعته الإسلامية باقية إلى يوم القيامة، وبذلك ألقى الله حجته على الناس كقوله **(لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)** النساء/١٦٥ **(وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)** وذلك لأن الله كان بكل شيء عليماً لا تخفى عليه خافية من أحوالكم، فهو الذي يعلم ما يصلح لهذه البشرية كقوله **(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)** الأنعام/١٢٤.

فائدة: ١- **(وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) الخاتم:** الشيء الذي تنتهي به الأمور، وأن مُحَمَّداً خاتم سلسلة الأنبياء فلا رسول بعده (ص) وهو زينة الأنبياء ومحقق أحلامهم وناصر رسالاتهم فهو رحمة مهداة للناس كافة، عن النبي (ص) **(لاَ نَبِي بَعْدِي، وَلاَ أُمَة بَعْدَكُم)** البحار٢١ص٣٨١ ومن تشريفه له (ص) ختم الأنبياء والمرسلين به، وبواسطته أكمل الله دينه الحنيف هادي البشرية، قال النبي (ص) لعلي (ع) (أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، إِلاَّ أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي)

٢- سؤال: كيف يمكن الجمع بين الحاجات المتغيرة للإنسان والنبي الخاتم والدين الخاتم؟

الجواب: لقد كمل الدين، وتمّت النعمة وعرف الناس الحلال والحرام، وَفَهِموا ضَرورة دين الله في حياة الإنسان كقوله **(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)** المائدة/٣ وقوله (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) آل عمران/٨٥ وفي نهج البلاغة خطبة ١٩٨.

(إِنَّ هذَا الإِسْلاَمَ دِينُ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسهِ، وَاصْطَنَعَهُ عَلى عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وَهَدَمَ أَركانَ الضّلالة بِرُكنِهِ) فمتى ما تحققت وسيلة الارتباط بالله عز وجل، نتيجة تهذيب النفس واستقامتها وسموّها وتزكيتها عن النقائص والمحرّمات، بأداء الواجبات وكثرة الذكر والطاعات وتحصيل العلوم وعمل الصالحات فقد تحقق الهدف من إرسال الرسل والرسالات، وأيضاً جعل الله العلماء الصالحين والفقهاء المجتهدين خلفاء الرسل وورثة الأنبياء، جعل لهم مؤهّلات كافية لاستخراج الحاجات المختلفة والأحكام الخاصة المتنوعة والمتغيّرة مع تغيّر الزمان والمكان والإنسان، من قواعد الدين الإسلامي العامة التي تعتمد على القرآن والسُنة الصحيحة، وعترة النبي الحافظين للسُنة والأمناء عليها.

٤١ - ٤٢ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ، وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

لما كانت عوامل الغفلة والسّهو والّلهو والّلغو في الحياة المادية كثيرة التي تُضِل الناس عن سبيل الله، وسِهام وسوسة الشياطين المؤثرة ترمى من كل جانب، فمن أهم الطرق لمعالجتها (ذكر الله كثيراً) فهو مفهوم دقيق المبنى عميق المعنى واسع الدلالة، وهو التوجّه لله تعالى وعدم نسيانه بكل وجوده الداخلي، ليرتبط بالوجود الخارجي المنظّم كله، وكل إنسان ذاكر من موقعه وبقدره ومن خلال عمله وبحسب مقدار إيمانه وعلمه وتفاعله ووعيه كقوله **(وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)** النساء/١٢٥ (فَمنْ تَوَجّهَ إلى وَجْهٍ واحِدٍ يَكْفِيهِ الوُجُوه كُلّها، وَمَنْ تَحمّلَ هَمّاً واحِداً يَكْفِيهِ الهُمُومُ كُلّها) **المعنى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ)** يا أيها الذين صَدّقوا الله ورسوله **(اذْكُرُوا اللَّهَ)** وليس لذكر الله حدود، ولا لتركه عذر إلاّ إذا نسي. **(اذْكُرُوا اللَّهَ)**بألسنتكم وقلوبكم وجوارحكم بفنون الذكر، **والذكر**: إحضار الشيء في القلب أو في اللسان، **وذكر العوام**: يأتي عن نسيان، **وذكر الخواص**: ديمومة الذكر وتنوّعه وحفظه والتفنن فيه، وليس لهم نسيان لذكر الله أصلاً، أذكر الله عند غضبك، يذكرك الله عند غضبه، فلا يمحقك فيمن يمحق **(ذِكْرًا كَثِيرًا)**

على كل حال وبما هو أهله، وفي جميع الأوقات والظروف ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً وفي كل زمان ومكان براً وبحراً وجواً وسهلاً وجبلاً، وفي جميع الأحوال حضراً وسفراً صحة وسقماً سِرّاً وعلانية قياماً وقعوداً وعلى الجنوب (أي مستلقي على جنب من جسدك) ذكراً في طاعة الله بالإخلاص له، وذكراً في المعصية أي ذكر الاستعانة بالله بالامتناع عنها، وذكر النعمة شكرها في الرخاء وفي الشدة بالصبر، **وذكر الله يشتمل على:**

إقامة الصلاة وتلاوة القرآن وطلب العلم وإقامة العدل ومعرفة الحق وترك الجهل، هو الله المنعم المتفضّل عليكم بأنواع النعم المادية والمعنوية، في غرر الحكم **(الذكر: لَذَةُ الُمحبْين، وَمُجَالَسَةِ المَحبُوب وُشَرَفٌ للذاكرين)**، **وذكر الله**: إشارة إلى محبة الله، يعني أحبوا الله من كل قلوبكم وتقربوا إليه، لأن النبي (ص) قال **(مَنْ أحَبّ شَيْئاً أكْثر مِنْ ذِكْرِهِ)** كقوله **(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)** البقرة/١٥٢، أي أحبّوني أحببكم، وأبدؤوا بحبّي فأنا أحبّكم وأقرّبكم، **ومن أهم مصاديق الذكر:** المواضبة على إقامة الصلوات الخمس، وأداء كافة الواجبات، لأن الذكر أمان من النفاق والتذبذب والتقلّب، وهو حصن حصين لمن دخل به، ٤٢- **(وَسَبِّحُوهُ) التسبيح**: للتنزيه والتعظيم، أي قَدّسِوه ونزّهوه وانفوا عنه كل ما لا يليق به سبحانه، وكل صفة تخالف الربوبية والإلوهية كصفة الشرك والظلم، ونزهوه باللسان والجنان **(الْقُلُوبُ)** فحركة كل شيء تسبيح لله تعالى.

ومن فوائد الذكر: مرضاة الرحمن ودعامة الإيمان وإيقاظ من الغفلة ومطردة للشيطان، وفي الذكر انشراح النفوس واطمئنان القلوب **(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)** الرعد/٢٨ وتهذيب لطبائع وعادات الإنسان **(بُكْرَةً وَأَصِيلًا) بكرة**: من الصبح الباكر في أول النهار بعد القيام من النوم

وهو كأنه حياة جديدة بعد النوم، **والأصيل**: آخر النهار وقت انتهاء العمل اليومي، أي اذكروا الله في الصباح والمساء وعلى كل حال فيكون معنى (**وَسَبِّحُوهُ**) في جميع الأوقات ولاسيما (**بُكْرَةً وَأَصِيلًا**) المفضلين لكونهما مشهودين لتعاقب ملائكة الليل وملائكة النهار فيهما وهم يستغفرون للناس ليرحمهم الله، **والذكر** أحبُّ الأعمال إلى الله كقوله (**وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ**) العنكبوت/٤٥ أي ذكر الله لعبده أكبر وأرحم من ذكر العبد لله تعالى، **الذكر ذكران**: ذكر القلب وذكر اللسان، **في غرر الحكم** (في الذكرِ حَياةُ القُلُوب) **وذكر الله**: استحضار مقام الله في قلب الذاكر والاستئناس بذكره، صَحَبَهُ ذكر اللسان أم لم يصحبه، عن الإمام الصادق (ع) (**مَا مِنْ شِيَء إلاّ وَلَهُ حَدٌّ يْنتَهِي إليهِ، إلاّ الَذِكْرُ فَلِيسَ لَهُ حَدٌّ يْنَتهِي إلِيهِ**) الكافي٢ص٤٩٩، والذي (لاَ يَذْكُرُ النّاس لاَ يَذْكُرُ الله) ومعنى ذكر الناس هدايتهم وخدمتهم وقضاء حوائجهم ونهضتهم الحضارية وَكَفُّ الأذى عنهم.

فائدة: ١- (**وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**) يلفت القرآن النظر إلى بقاء التسبيح وأصالته وثباته مع تغيّر الأحوال والأشكال، ومبدّل الأوضاع والظروف، وكل شيء دون التسبيح يَتَغيّر ويتبدل، وتسبيح الله باق ثابت في كل شيء مع ثبات نظام الكون والكائنات كقوله (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**)الإسراء/٤٤، لكون التسبيح أساس كلّ ذكر وعمدته ٢- (**وَذِكْرُ اللَّهِ**) غذاء الروح وانشراح الصدر باتّصال القلب بالله تعالى وتعلق الروح به وانشغال النفس بمراقبته والإحساس بلذة حُبّه وقربه وجذبه والاستيناس **بمعيّتِهِ!**، **وليس معنى الذكر**: هو مجرد تحريك اللسان ولفظ الألفاظ بأي نوع من الذكر، وربّ ذاكر لله بلسانه وقلبه ساهٍ ولاهٍ، **وأفضل الذكر**: أن تجمع بين تفاعل القلب وتأثر النفس مع حركة الذكر بألفاظ اللسان. **والذكر**: كل قول فيه قربة إلى الله، وتلاوة القرآن أحسن ذكر كقوله (**قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا**) الطلاق/١٠.

سُمّي القرآن ذكراً لأنه يذكّرك بالله واليوم الآخر، ويُعّرفِكَ قَدْرَكَ فلا تتعدى طَوْرَكَ ويعرفك فلسفة الحياة، وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، ومداومة الذكر عون على أفعال الخير، عن النبي (ص) (**مَنْ أُعْطِيَ لِسَانَاً ذاكِراً فَقَدْ أُعْطِيّ خيراً كثيراً**)

والقلب يضل فارغاً أو لاهياً أو حائراً حتى يتصل بالله ويذكره ويأنس به ويستلذ بقربه!، **عن الإمام الصادق** (ع) (القَلْبُ حَرَمُ اللهِ، فلا تسكنُ فِي حَرَمِ اللهِ غَيرُ اللهِ) البحار٧٠ص٢٥، فإذا هذا القلب منفتح على سعة الآفاق يعرف منهجه وطريقه، **عن الإمام علي** (ع) (رحم الله امرأٍ عرف من أين، وفي أين، ومع أين، وإلى أين) ينقل خطاه واتجاهه، فلا يغفل القلب **في غرر الحكم** (احذروا الّغفْلَةُ فإنها مِنْ فَسادِ الحِسّ) (لا تَغْفَلُوا فَلَيْسَ بِمَغفُوُلٍ عَنْكُمْ)، ٣- **أنواع الذكر**: عن الصادقين (ع) (**ذِكْرُ اللِسأن الحَمْدُ وَالثّنْاءُ، وَذِكْرُ النّفْس الجُهْد والعَنَاء، وَذِكْرُ الرُوح الخَوُفُ**

وَالرّجَاء، وَذِكْرُ القلّب الصّدْقُ وَالصفَاء، وَذِكْرُ العَقْل التّعْظِيْم وَالحَيْاء، وَذِكْرُ المَعْرِفَة التّسْلِيمُ والرّضاْء، وَذِكْرُ السِرّ الرؤْيَةُ وَاللِقاء) مستدرك الوسائل١ص٤٠١، ٤- **الإعراض عن ذكر الله:** هو الاقتراب من الشيطان وهوى الإنسان، وهذا يؤدّي إلى الضنك النفسي ومرض الكآبة والقلق والأرق قوله (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) طه/١٢٤ وقوله (وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧.

٤٣ - ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾

(**هُوَ**) يعود إلى الله، أي إنّ الله يصلي، وملائكته تصلي، والمخلوقات كلها تصلي، ولكن لكل صلاة معناها ومبناها ومغزاها وكيفيتها ودلالاتها (**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ**) صلاة الله الخالق جلّ جلاله على العباد المخلوقين، حالة عظيمة كريمة لا يكاد الإدراك العقلي يتصوّرها، إنها صلاة خاصة بمعنى خاص لإلفات نظرهم وإشعار قلوبهم أن الله تعالى معهم وإليهم ورحيم بهم ويصلي عليهم وملائكته باستمرار لأن (**يُصَلِّي**) جاء بالفعل المضارع المستمر، إنها صلاة رحمة ومغفرة وصلاة تسديد وتأييد وصلاة تعليم وتفهيم كقوله (**وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**) البقرة/١٥١، وصلاة رعاية وعناية بأمر الخلق لجميع الخلق بلا استثناء، صلاة لإرادة الخير لهم، وهو الغني عنهم وهم الضعفاء الفقراء لرعايته وفضله، وهو سبحانه وتعالى في الملأ الأعلى يتجاوب الوجود كله بذكركم، عن النبي (ص) **يقول الله تعالى: في حديث قدسي (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)**

المعنى: (**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ**) هو الله سبحانه بعليائه هو الذي (**يُصَلِّي عَلَيْكُمْ**) أي يرحمكم ويوفّقكم ويعطف عليكم على الدوام ويعتني بأمركم بكل ما فيه صلاحكم وفلاحكم، **روي:** قال بنو إسرائيل يا موسى: سل لنا ربك هل يصلي؟ فتعاظم عليه ذلك، فأوحى الله إليه: (إني أصلي، وأن صلاتي رحمتي سبقت غضبي ولولا ذلك لهلكوا) الدر المنثور٦ص٦٢٣، مع الاختصار (**وَمَلَائِكَتُهُ**) يصلون عليكم أيضاً بأمر الله سبحانه وتعالى، وملائكته تدعوا لكم بزيادة الرحمة والمغفرة والتوبة كقوله (فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) غافر/٧ (لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (لِيُخْرِجَكُمْ) وينقذكم من ظلمات الغفلة والجهل والتخلّف والعصيان والضلال والضياع المؤدّي إلى عذاب جهنم (**إِلَى النُّورِ**) إلى نور العلم والتعليم والهداية والرعاية والطاعة والاستقامة المؤدية إلى نعيم الجنة، وهذا الإخراج الكريم علّة وسبب لصلاته سبحانه، وصلوات ملائكته على المؤمنين الذين يرحمهم ويرأف بهم، وهذه الصلوات الإلهية الخاصة المميزة تستدعي منهم شكرها وتقديرها، فشبّه الجهل بالظلمات، وشبّه المعرفة بالنور، (**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**) واسع الرحمة بالمؤمنين، يعتني بصلاحهم وصفاء نفوسهم وسلامة قلوبهم وتهذيب عيوبهم، فيقبل القليل من أعمالهم الصالحة ويعفو عن الكثير من ذنوبهم لإخلاصهم في إيمانهم كقوله (**أَلَا**

لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣، عن النبي (ص) **(أَخْلِص قَلْبَكَ يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ)** البحار٧٣ص١٧٥، **في الحديث القدسي** (خَلَقْتُ الأشيَّاءَ لأَجْلِكَ، وَخَلْقتُكَ لأَجْلِي) **وفيه أيضاً** (لاَ تَسعُنِيْ لاَ أَرْضِيَ وَلاَ سَمَائِيَ، وَإنما يَسَعُنِيَ قَلْبُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِن) مواهب الرحمن٩/٢١٥ **(وَكَانَ)** فعل ماضٍ يدل على أن الله كان رحيماً بالمؤمنين، وما يزال يرحمهم ويرعاهم رعاية خاصة على الدوام في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإنه يهديهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، ويعصمهم من الزلل ويسددهم في القول والعمل، أما في الآخرة فإنه أمّنهم من الفزع الأكبر وحَصَّنهم من أهوال يوم القيامة، والملائكة يتلقونهم بالبشارة وفوزهم بالجنة.

فائدة: ١- **(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ)** الصلاة من الله تعالى على الناس معناها المغفرة والرحمة والإحسان إليهم، والصلاة من الملائكة على الناس معناها الدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، والصلاة من العبد إلى الله معناها الدعاء لطلب الرحمة والمغفرة من الله وطاعته والخضوع له، ٢- **(مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)** نور الله واحد متكامل متّصل واسع شامل، وما عداه ظلمات تتعدد وتختلف، وما يخرج الناس من نور الله ومنهج الله إلاّ ليعيشوا في ظلمة من الظلمات، ويعانوا مِنْ هَمْ من الهموم، كقوله **(لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا)** الإسراء/٢٢، وجاءت **(الظُّلُمَاتِ)** بالجمع وجاء **(النُّورِ)** بالمفرد، بمعنى مجرد أن تخرج الناس بإرادتها من (نور) الله الواحد الموحّد المتّحد فسوف تأخذه **(الظُّلُمَاتِ)** المتعددة والسبل الضالة المتنوّعة، التي يرعاها ويقودها شياطين الإنس والجن التي تزيده ظلمات فوق ظلمات، ومعاناة بعد معاناة، فلم يعد يعرف طريق النور، ولا يستذوق حلاوة الهداية ويصعب عليه طريق الاستقامة كقوله **(فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)** النحل/٣٦، ٣- قال **(لِيُخْرِجَكُمْ)** الله تعالى وحده بتلك الصلاة المستمرة والعناية الدائمة، يخرجكم من الظلمات إلى النور ولم يقل (لِيُخْرِجَاكُمْ) لئلا يكون للملائكة مِنَّةٌ عليكم بذلك الإخراج المبارك.

٤٤ - ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾

كان أمر هؤلاء الذاكرين أن الله تعالى يصلي عليهم ويرحمهم وملائكة في الدنيا، وأما أمرهم في الآخرة فإن فضل الله ورحمته ونعمته الكثيرة تشملهم.

وهذا ما أشار إليه بقوله **(تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ)** تحية الله للمؤمنين يوم يلقون الله عند الموت وعند البعث للحساب وفي الجنة، كلمة (تحية) من الحياة بمعنى الدعاء لهم بالسلامة لهم وللآخرين، فيحيون حياة سالمة متكاملة دائمة، **كما يقال (حَيّاكَ اللهُ) أي جعل لك حياة نامية طيبة حلوة**، حياة زاكية تتنامى فيها الحياة **(سَلَامٌ)** وإكرام وسلامة وأمان وأمن واطمئنان من كل أذى مادي أو معنوي، وسلام من كل المخاوف والأهوال **(سَلَامٌ)** يأتيهم من الله تعالى تعظيماً لهم، وسلام من ملائكته ومن بعضهم لبعض كقوله **(سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)** يس/٥٨، سلام

بعيد عن كل السلبيات ومملوء بالايجابيّات، **سلام** من كل مكروه ومرض وضعف وخصام وحزن ولؤم وتعب وعتب.

سلام يتلقونه بعطر الورد ورياحين المودّة من الله تعالى تحمله الملائكة، ويبلغونهم التحيّة العلوية السامية الشفافة النفّاذة التي تُحيي المشاعر والضمائر وتشرح الصدور والقلوب، ومن ثم أنه (**سَلَامٌ**) تحية أهل الجنة وتحية الإسلام السلام، وتحية ملك الموت للمؤمن عند القبر السلام عليك، (**وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا**) هيأ لهم ثواباً حسناً ومنزلة عظيمة مع النعيم المقيم الخالد في الجنة فوق وصف الكلمات ودقّة العبارات، نعيم (مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)البحار٨/١٩١، كقوله (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام/١٢٧، هذا هو ربهم الرحيم الكريم الذي يرزقهم السّلام، ويختار لهم الأمان والاطمئنان، فمن ذا الذي يكره هذا الاختيار؟!

٤٥ – ٤٦ –﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾

لما بيّن الله تعالى أنه أخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور، عقّبه بذكر أوصاف النبي ووظيفته الرسالية (ص) في كافة الناس، فإنه كالسراج المنير الذي أضاء الله به الكائنات فقال: (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا**) نداء (**يَا أَيُّهَا**) تشريف للنبي (ص) وبيان وظيفة النبي (ص) فيهم ببلاغة عالية، أن يكون (**شَاهِدًا**) وهي صفة جامعة لكل صفاته الأخرى الكثيرة المتكاملة (**شَاهِداً**) على أعمال أمتك بطاعتهم ومعصيتهم من إيمان أو كفر، وعمل صالح أو طالح و(**شَاهِداً**) على أمتك بأن أنبياءهم قد بلّغوهم رسالة ربهم، فعليهم أن يعملوا بما يحسن أداء هذه الشهادة الصادقة، **الشاهد والشهيد والشهادة:** قول الشاهد صادر عن علم بحضور حدث معيّن، وحصل بمشاهدة بصر، **بمعنى**: إنا نقدّر شهادتك على أمتك وصدقك معها وحرصك عليها، شهادة تؤدّيها يوم القيامة أداءً مقبولاً قبول الشاهد الكفوء الصادق العادل المنصف، باعتباره (ص) أفضل شاهد عدل على أعمال أمته ويطّلع عليها ويؤدّيها يوم القيامة، فهو (ص) شهيد الشهداء كقوله (**وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**) الحج/٧٨، (**وَمُبَشِّراً**) للمطيعين المتّقين بجنات النعيم والتكريم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي كقوله (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ) يونس/٦٤.

وهي مرحلة الترغيب، (**وَنَذِيرًا**) للعاصين من عذاب الجحيم، وللغافلين المسيئين الذين آذوا الناس وأساؤوا إلى أنفسهم ونسوا الله فأنساهم مصلحة أنفسهم كقوله (**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**) الحشر/١٩، وهذه مرحلة الترهيب، ومن يحق له التبشير والإنذار فهو المؤهّل أن يكون شاهداً على أقوال الناس وأفعالهم الذين يعرفهم، ٤٦– (**وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ**) وداعياً الخلق إلى حق الله ومنهجه وتوحيده وطاعته وعبادته التي خلقهم الله من أجلها وإلقاء الحجة الواضحة على الناس (**وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ**) لا داعياً إلى نفسه ولا داعياً إلى أحد ولا إلى دنيا

يصيبها ولا إلى جاه يرغب إليه ولا إلى زوجات يتزوجها ولا إلى مجد ولا مال ولا عزة وقومية وعصبية جاهلية..، ولكن (**وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ**) إلى منهج الله إلى صراط الله وإلى الطريق الذي يصل به إلى الله تعالى، (**بِإِذْنِهِ**) بأمره تعالى لا يتعدّاه، لا دعوة من تلقاء نفسه ولا برأيه الخاص، ولا هو يأتي بشيء من عنده، إنما هو مبلّغ الناس عن الله ما يريده الله من الناس كقوله (**رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**) النساء/١٦٥، وفي نهج البلاغة (أَرْسَلَهُ دَاعِياً إِلَى الْحَقِّ، وَشَاهِداً عَلَى الْخَلْقِ، فَبَلَّغَ رِسَالاَتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَانٍ وَلاَ مُقَصِّرٍ) (**بِإِذْنِهِ**) بتيسيره للدعوة وتسهيل نجاحها وتسديد مرسلها وتأييد داعيها وناصره كقوله (**إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**) محمّد/٧، فأطلق الإذن وأريد به تيسيره ودعمه وتذليل الصعاب أمامه مجازاً، لأن الدعوة إلى الله الخالصة والواعية ليست سهلة، فلا تنجح ولا تنتصر إلاّ بمعونة الله سبحانه ونصره وإمداده.

(**وَسِرَاجًا مُنِيرًا**) استعارة بلاغية جميلة وكناية تشبيهية جليلة، أي وأنت يامُحمّد (الرحمة المهداة) كالسراج الوهّاج والمصباح المضيء للناس كافة كقوله (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**) سبأ/٢٨، ولا يجحد دعوته إلاّ جاهل معاند، وهو (ص) بدعوته المباركة تنجلي به ظلمات الجهالة وَيُخَلِّصُ الناس من حيرة الضلالة، ويكشف الظلمات ويزيل الشبهات ويرفع المعاناة وينير الطريق للناس بالهداية للتي هي أقوم، كالسراج المنير المضيء في الظلمات الدامسة حيث الكآبة والضياع والأزمات النفسية والقلق اليومي والأرق الليلي، وشبّه الله تعالى نبيه المصطفى (ص) بالسراج المضيء المنير، لأن الله جلى به ظلمات الشرك والأوثان والأصنام المختلفة واهتدى به الضالون، كما يجلي ظلمات الليل بضياء النهار، ويهتدي الناس بضيائه إلى سعادتهم والوصول إلى شاطئ السلام والأمان.

٤٧ – ٤٨ –﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ، وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

(**وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ**) وبشر يامُحمّد المؤمنين خاصة بأن لهم من الله بشارة خاصة (**فَضْلًا كَبِيرًا**) عطاءً وثواباً ومنناً متعددة في جنات النعيم زيادة على الأجر والاستحقاق أو (**فَضْلًا**) على سائر الأمم الذي شَرَّعَ الله لهم على يدي رسوله ما يؤدي بهم إلى البشرى والفضل الكبير والخير الكثير ٤٨– (**وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ**) ولا تقبل اقتراحات الكافرين والمنافقين التي ظاهرها يغر ويسر وباطنها يضر مهما ضغطوا عليك، كن ثابتاً ولا تصغ لأحد منهم وعدم الاعتناء بشأنهم ولاتساومهم في الدين كقوله (**وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ**) القلم/٩، وهذا قبل تشريع الجهاد في سبيل الله (**وَدَعْ أَذَاهُمْ**) واصفح عن أذاهم لك بأقوالهم وأفعالهم كقوله (**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**) الحجر/٨٥، واصبر على ما ينالك منهم وصدّهم الناس عنك، وأعرض عنهم ولا

تُضَيّع وقتك وجهدك معهم، ولا تنزل إلى مستواهم وتتأثر بأذاهم فيأتي النصر من قلب المعاناة، فإن الله يكفيك ويحميك ويدخلك في حصنه الحصين الأمين الذي لا يضّره أي شرّ، كان النبي (ص) يعتمد على قاعدة حركية فاعلة في دعوته الرسالية (**الصَّلابَةُ في المَبادِئ، والمُرُونَةُ في التَّعامُلِ**)، (**وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**) واعتمد وفوّض كل أمورك وأحوالك إلى الله تعالى ولا تستقل بنفسك، وهو سبحانه بنصره لك كفيل، والله وحده هو الوكيل وهو الأصيل وهو النصير (**وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا**) تكل إليه أمورك وفوّضه في جميع أحوالك، فيسددك ويؤيدك ويهديك للتي هي أقوم كقوله (**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**) آل عمران/١٢٢ في غرر الحكم (**فِي التَّوَكُلِ حَقِيْقَة الإِيْقَان**) ولكن لا يُغني توكّلٌ مطلوب عن عمل مفروض وسعي مدروس، **في نهج البلاغة حكم٨١** (قِيمَةُ كُلِّ امْرِىء مَا يُحْسِنُهُ)

فائدة: ١- (**وَدَعْ أَذَاهُمْ**) تجاهل أذى الأعداء لا يعني الضعف، بل يعني الحكمة في التصرّف في عدم الاصطدام بهم والتصدّي لهم، وعدم إتاحة الفرصة المناسبة، حتى لا يؤدي إلى إرباك الظروف العامة التي لا تتحمل الإرباك، وهذه الحكمة في التصرف بحاجة إلى التوكل على الله، **في غرر الحكم** (الاحتمال زين السياسة) ٢- **سبب النزول: روي:** لما نزل قوله (**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**) الفتح/٢، قالوا يارسول الله قد علمنا ما يفعل الله بك، فماذا يفعل بنا؟ فانزل الله (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ...).

٤٩ - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

تتحدث الآية عن كيفية طلاق نساء المؤمنين غير المدخول بهن، بطريقة كريمة رحيمة وهي (**السَرَاح الجَمِيل**) وبالأسلوب المهذّب الجليل **المعنى:** (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**) الخطاب للمؤمنين، يا أيها الذين آمنوا (**إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**) أي أجريتم عليهن عقد النكاح (عقد الزواج الشرعي أو القانوني) (**ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ**) من قبل أن تدخلوا بهن وتجامعوهن، والتعبير عن جماع المرأة بكناية تشبيهية عنه بالملامسة والمماسة هو من أدب القرآن الكريم التربوي النموذجي المميز، **أصل معنى الطلاق**: التخلية من وثاق عهد وعقد الزواج (**فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا**) أي لا عدة شرعية للمطلقة غير المدخول بها، لأنه ليس هناك احتمال للحمل، ولها أن تتزوج إن شاءت من فورها، وإنما خَصّ (**الْمُؤْمِنَاتِ**) بالذكر، مع أن الكتابيات المؤمنات يدخلن في الحكم، للتنبيه على أن الأليق بالمؤمن أن يَتَخَيّر لنطفته أين يضعها لتكون أمّاً شريفة لأولاده، وألاّ يتزوج المؤمن إلاّ مؤمنة عفيفة شريفة (**فَمَتِّعُوهُنَّ**) المراد بالمتعة الشرعية هنا عبارة عن منحة وهدية مالية، يقدّمها المطلّق لمطلقته تسمى (مُتْعَةُ الطَّلاق) تخفيفاً لشدة وقع الطلاق عليهن وجبر لخواطرهن، كقوله (**فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا**

جَمِيلًا) الأحزاب/٢٨، يتحدد ثمن متعة الطلاق تبعاً ليسره وعسره بما يتناسب مع حاله وحالها، تتمتع المطلقة بهذه المنحة، وتجب على المطلِّق منحة الطلاق **بشرطين، أولاً**: إذا لم يفرض لها مهراً، وإذا فرض لها مهراً استحّقت نصف المهر ولا تستحق المتعة، **ثانياً**: ويقع الطلاق قبل الدخول بها كقوله (**لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ)** البقرة/٢٣٦، عن الإمام الباقر (ع) في الآية (**فَمَتِّعُوهُنَّ**) أي جمّلوهن بما قدرتم عليه من معروف، فإنهن يرجعن بكآبة ووحشة وَهَمّ عظيم وشماتة من أعدائهن، فإن الله عز وجل كريم يستحي ويحب أهل الحياء، (إنّ أكرَمَكُمْ أشدّكُمْ إكْراماً لِحَلائِلِهِمِ) **أي مطلقاتهم**، من لا يحضره الفقيه٣ص٥٠٦ (**وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا**) تعبير بلاغي تربوي شفاف نَفّاذ عالي الدقّة، أي خَلّوا سبيلهن بأساليب أخلاقية حسنة شفافة يستحسنها الطبع البشري، وفارقوهن فراقاً جميلاً لا ضرر فيه ولا إيذاء ولا اعتداء ولا منع لحقوقهن ولا انتقاص من كرامتهن (**سَرَاحًا جَمِيلًا**) من غير مخاصمة ولا مشاتمة ولا مطالبة ولا معاتبة ولا خشونة.

فائدة:

١- (**إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ**) قال الراغب في مفردات القرآن: أصل النكاح لعقد الزواج ثم استعير للجماع، ومحال أن يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد، لأن أسماء الجماع كلها كنايات تشبيهية لاستقباحهم ذكره كاستقباح تعاطيه، ٢- (**الْمُؤْمِنَاتِ**) وعقدتم عليهن، وخص المؤمنات تنبيهاً على أن من شأن المؤمن أن يكون عفيفاً شريفاً نظيفاً لا ينكح إلاّ مؤمنة عفيفة شريفة نظيفة مثله، تخيراً لنطفته وحفاظاً لشرفه وإيمانه كقوله (**وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**) النور/٢٦، في الحديث (الْمؤمِنُ كُفْؤُ الْمؤمِنَة) وليس كفؤاً لغير المؤمنة، لأن المؤمن طيّب يميل إلى جنسه ومثله (والطيور على أشكالها تقع) وهذا ما يستوجب الإعراض عن نكاح الفاسقة والزانية والمشركة ولو أعجبتكم كقوله (**الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً**) النور/٣ راجع تفسيرها في (وَعيُ القُرآنِ المَيَسَّر).

٥٠ - ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

ذكر الله سبحانه في هذه الآية وما بعدها زوجات النبي (ص) على التفصيل اللاتي (**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ**) قد أبحنا لك يامُحَمّد أنواعاً من النساء، تيسيراً لك في تبليغ الدعوة وهي الهدف الأساس لوظيفتك الرسالية، فمن أجل ذلك أبحنا لك زوجاتك اللاتي تزوجتهن

و(**آَتَيْتَ أُجُورَهُنَّ**) أعطيتهن أجورهن المتّفق عليه، والأفضل تعجيل إعطاء المهر لهن حصراً كما توحي كلمة (**آَتَيْتَ**) والإيتاء: قد يكون بالأداء السريع الواجب وقد يكون بالالتزام بوفائه بأقرب فرصة، وكان مهر نساء النبي (ص) خمسمئة درهم، **وَقُدّرَ بـ (٢٥) ليرة ذهبية**، وأحللنا لك الزواج (**وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**) ما ملكت يدك، وهذا سهمك من غنائم الحرب مع المشركين من الإماء الجواري المسبيّات، وإنما قَيَّدهن بطريق الغنائم لأنهن أفضل من اللاتي يملكن بالشراء، ولا موضع لملك اليمين في عصرنا الحاضر، لعدم وجود غنائم الحروب والإماء ولله الحمد (**مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ**) أي أرجعه الله إليك من الأنفال أي الغنائم دون قتال من الكفار، كصفية بنت يحيى من غنائم خيبر، وجويرية بنت الحارث من غنائم بني المصطلق، وريحانة القرظية من غنائم بني قريظة، أعتقهن وتزوجهن، وأيضاً أحللنا لك قريباتك (**وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ**) كزينب بنت جحش بنت عمة النبي (**وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ**) إلى المدينة، وهذا قيد للأفضلية في حق النبي (ص) الخاص لا للحليّة، فإنهن حلائل ومباحات مطلقاً، (**وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ**) وأحللنا لك النساء المؤمنات الصالحات اللواتي وهبن أنفسهن لك حُبّاً برسول الله وشرف التقرّب منه، بدون مهر مع عقد الزواج، أما غير المؤمنة إن وهبت نفسها لا تحلُّ لك لأنها لا تناسبك ولا تليق بك.

وهكذا (**المؤْمِنُ كُفْؤُ الْمؤمِنَة**)

وغير المؤمنة غير كفؤو له ولا تتآلف معه (**إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا**) إن ترغب يامُحَمَّد أن تعقد عقد الزواج من شئت منهن بدون مهر، كزينب بنت خزيمة وميمونة بنت الحارث (**خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**) وهذا الحكم خالص لك، وخاص بك، ولا يحلّ لغيرك، ولا يشمل المؤمنين، أي لا يجوز لمؤمن أن يتزّوج مؤمنة بدون مهر إطلاقاً، إلاّ إذا وهبت الزوجة مهرها لزوجها بعد ثبوته في ذمته (**قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ**) لأننا قد علمنا وبيّنا ما أوجبنا على المؤمنين في زوجاتهم من الأحكام الشرعية، في عقد الزواج الدائم أو المنقطع من وجوب تعيين المهر، وتثبيت الحقوق وشروط الاتّفاق وكيفية الانفاق، **وبالاتّفاق يكون الوفاق** (**وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**) وكذلك بيّنا في إمائهم الجواري المسبيّات من أحكام ملك اليمين، الذي وضعناه عنك تخفيفاً عنك وتشريفاً لك ومكافأة لجهادك وجهودك وإخلاصك، ولما قاسيت وعانيت في سبيل نصرة دين الله وإعلاء كلمته(**لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ**) **حرج:** أي ضيق وإثم من أية ناحية في باب الزواج، لأن مصلحة الإسلام تقتضي وجود أحكام خاصة استثنائية بالرسول (ص) مثل وجوب قيام الليل (**وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا**) عظيم المغفرة ويستر الزّلة لمن يشاء ويستحق (**رَحِيمًا**) واسع الرحمة بالتوسعة على عباده.

فائدة: ١- **سبب النزول: (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ)** في الكافي عن الإمام الباقر (ع): جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله (ص) فقالت يارسول الله إنَّ المرأة لا تخطب الزوج، وأنا امرأة لا زوج لي ولا ولد منذ دهر فهل لك من حاجة؟ فقد وهبت نفسي لك إن قبلتني. فقال لها رسول الله خيراً ودعا لها بالخير، ثم قال (ص) يا أخت الأنصار جزاكم الله عن رسول الله خيراً، فقد نصرني رجالكم ورغَبت فيَّ نساؤكم فقالت لها حفصة: ما أقلَّ حياءَكِ وأجرأكِ وأنهَمَكِ للرجال، **فقال رسول الله (ص): كُفّي عنها ياحفصة فإنها خيرٌ منك،** رغبت في رسول الله ولمتِها وعبتها!، ثم قال للمرأة: انصرفي رحمك الله فقد أوجب الله لك الجنة لرغبتك فيّ وتعرضك لمحبتي وسروري، وسيأتيك أمري إن شاء الله، فأنزل الله الآية، ٢- **مبررات تعدد زوجات النبي (ص):** لم تكن لِذَاتها ولا للذّاتها وإنما لمصلحة عامة، والتمهيد لنشر الإسلام. في الحديث (مختصر) **(مَا تَزَوَّجْتُ شَيئاً مِنْ نِسائي.. إلاّ بوَحَي مِنْ رَبي عَزَ وَجَلّ)** كقوله **(إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ)** روح البيان٧ص٢٠٧.

١- **لم تكن بدوافع الشهوة،** لأن النبي الكريم (ص) عاش من سن ٢٥ إلى سن ٥٣ مع خديجة فقط، ٢- أفضل الطرق في تغيير الواقع الاجتماعي، تغييره من الداخل والتقرّب إلى القبائل بمصاهرتهم، وكانت من أعراف الناس حماية الصهر والدفاع عنه، ٣- زواج بتغيير عادات خاطئة كزواجه من زوجة زيد بعد طلاقها ونهاية عدّتها كما في الأحزاب/٣٧، ٤- أغلب زوجاته ثيّبات أي مطلقات، ولو كان هدفه جنسياً لخطب الجميلات الباكرات، ٥- من زواجه لحلّ مشكلة كما في زينب بنت خزيمة (أم سلمة) بعد هجرتها إلى المدينة مع زوجها، فارتد زوجها عن الإسلام وبقيت بلا زوج ولا أهل ولا قريب، ولا يجوز بقاء زوجة مؤمنة مع زوجها الكافر كقوله **(وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ)** الممتحنة/١٠، فأراد النبي (ص) أن يكرمها ويجبر خاطرها، وهي لم تكن ذات جمال ولا شباب، ٦- كان النبي (ص) يتعرض لضغوط بعض القبائل ليتّخذ النبي زوجات له منهم ليفتخروا بمصاهرته وحمايته، في الحديث (مَنْ نَكَحَ امرَأة لِمَالْهَا وَجَمَالْهَا حُرِمَ مَالهَا وَجَمالهَا، وَمَنْ نَكَحَهَا لِدِينهَا رَزَقَهُ اللهُ مَالهَا وَجَمالهَا) روح البيان٧/٢١٠.

٥١ - ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾

في الآية السابقة أطلق الله سبحانه لنبيه المصطفى الحرية في عدد الزوجات، وفي هذه الآية جعل له الخيار من أن **(تُرْجِي)** تؤجّل من تشاء من زوجاتك **(وَتُؤْوِي)** وتعاشر وتسكن مع من تريد منهن، وتقلل زيارة من شئت وتكثر لمن شئت ولا حرج عليك، فهي مراعاة للظروف الخاصة المحيطة بالنبي وكان (ص) يجتهد في القسمة والعدالة بينهن في كل شيء ويقول **(اللهم قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك) المعنى: (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ)** ولك يا مُحَّد أن **(تُرْجِي)**

تؤخِّر، وهو كناية بلاغية عن ردّها أو عدم الدخول بها (**مَنْ تَشَاءُ**) من المؤمنات اللاتي وهبن أنفسهن لك (**وَتُؤْوِي**) من المأوى والسكن، وهو كناية تشبيهية عن قبولها ومعاشرتها والدخول بها (**إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ**) فلك الخيار في ذلك (**وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ**) ومن طلبت معاشرتها والدخول بها (**مِمَّنْ عَزَلْتَ**) هجرت من عاشرت من النساء (أو) (**مِمَّنْ عَزَلْتَ**) من النساء اللاتي فضتهن فلم تقبلهن عند هبتهن أنفسهن لك.

بمعنى:

لا يجب عليك أن توزّع لياليك يامُحَمَّد بين أزواجك بالسويّة، بل الخيار لك، والذي تختاره هو الأوفق (**فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ**) فلا حَرَجَ ولا إثم عليك ولا لوم في ذلك كله، ثم بَيّن الحكمة في ذلك فقال (**ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ**) ذلك التفويض والاختيار الذي خيّرناك في أمرهن (**أَدْنَىٰ**) أقرب أن (**تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ**) ترتاح قلوبهن وتنشرح نفوسهن لرؤية ماكُنَّ متشوّقات إليه، وذلك لسرور المتقدمة بما قَسَمْتَ لها، ورجاء وأمل المتأخرة أن تتقدم بعد، ولا يحق لواحدة منهن أن تعترض، رضيت منك بما ترضاه أنت، وتراه تفضلاً وليس حَقّاً لازماً، ومع هذا فقد كان النبي يساوي بين أزواجه بالعدل (**وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ**) وكان أطيب لأنفسهن بما أعطيتهن كلهن، لعلمهن أنكَ لم تترك واجباً ولم تُفرّط في حق لازم فيشعرن جميعهن بالراحة النفسيّة (**وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ**) الضمير راجع إلى النبي وأزواجه، والله يعلم ما في قلوبكم جميعاً (**وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا**) بما في الصدور وعليماً بمصالح عباده (**حَلِيمًا**) لا يعاجل بالعقوبة، ويضع الأمور في مواضعها. **فائدة: سبب النزول:** إنّ بعض أزواج النبي كُنَّ يؤذين النبي (ص) ويشككن بعدله في تقسيم أوقاته بينهن، فأنزل الله هذه الآية، وأسقط عنه حَقَّ القسمة وجعله حُراً في تقسيم أوقاته بين أزواجه.

٥٢ – ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾

بعد أن أباح الله سبحانه لنبيه أنواعاً من النساء، أوجب وحدد عليه في هذه الآية الاكتفاء بالتسعة من زوجاته في عصمته فعلاً، وَحَرَّم عليه أن يطلّق واحدة منهن ويتزوج مكانها أخرى، حتى ولو أعجبه حسنها وجمالها، وذلك مجازاة لأزواج النبي على اختيارهن رضا الله ورسوله والدار الآخرة، حين خَيَّرهن بين الطلاق أو الصبر على قناعة المعيشة مع رسول الله (ص) ومواساة الناس **فنزلت آية التخيير** قوله (**قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ... ، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ...**) الأحزاب/٢٨-٢٩، **المعنى:** (**لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ**) لا يَحِلُّ لك يامُحَمَّد بعد الأن النساء اللواتي أحللناهن لك بعد التسع اللاتي معك (**وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ**) ولا يحلّ لك أن تطلّق واحدة منهن وتتزوّج أخرى مكانها (**وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ**) أي ولو أَعجبك حسن وجمال غيرهن من النساء المحرّمات عليك (**إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**) باستثناء ما ملكت يدك من الإماء والجواري والكتابيّات المسبيّات سهمك من الغنائم في الحروب، فلا

يشملهن هذا التحريم، لأن المملوكات لسن بمنزلة الزوجات **الحرائر كقيمة وعرف اجتماعي في ذلك الزمان**، ولا وجود للإماء وملك اليمين في هذا العصر لعدم وجود جواري مسبيّات في الحروب، ولله الحمد (**وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا**) **رقيباً**: مُطّلعاً ومراقباً للأمور وحفيظاً وعالماً بما إليه تؤول، وقائماً بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام، ومراقباً للأمور على كل شيء وعلى كل حال وشاهداً عليه حتى على السرائر والضمائر، وفيه إشارة إلى تحذير من المخالفة، **فائدة: سبب النزول**: ١- بعد غزوة الأحزاب وانتصار المسلمين كان النبي (ص) تحت ضغط شديد من مختلف القبائل كي يتزوج من بناتهم، الأمر الذي كان يُحرج النبي (ص) كثيراً، فأنزل الله هذه الآية وأنهت المشكلة. **في الآية دلالة**: على جواز النظر إلى من يريد زواجها، قال النبي (ص) (إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمْ الْمَرْأَةَ فإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا (يعقد عليها) فليفعل) المراغي٢٢ص٢٦.

٥٣ - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾

الآية الكريمة من النظام التربوي، والتوجيه القرآني للصحابة بشكل خاص وللمؤمنين بشكل عام في كل زمان ومكان، بهذا الأدب الأخلاقي الاجتماعي في أصول الضيافة، ودخول بيوت المؤمنين بعضهم بعضاً، **المعنى**: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ**) وإن كان الخطاب خاصاً في بيوت النبي ولكن أريد به عموم المعنى وسعة الدلالة، أي كل بيت يجوز دخوله إلاّ بإذن من أهله أو بدعوة رسمية خاصة، سواء أكان البيت للنبي أو لشقي كقوله (**لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا**) النور/٢٧ (**إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ**) كدعوتكم إلى وليمة طعام فلا تدخلوا قبل الموعد قبل أن ينضج الطعام، ولا تدخلوا بلا دعوة، وأن تدخلوا في وقته المحدد، ولا تهملوا إجابة الدعوة، ولا تتأخروا بعد الطعام من دون رخصة من صاحب الدار، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة وقوله (**وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا**) النور/٢٨ (**غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ**) في حال كونكم غير منتظرين (**إِنَاهُ**) نضجه وبلوغه أي غير مراعين وقت نضوج الطعام فيطول لبثكم وانتظاركم (**وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا**) فإذا حان وقت الدخول وأذن لكم فادخلوا، أما من غير دعوة ولا إذن فلا تدخلوا (**فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا**) فإذا أكلتم وانتهيتم من الطعام فانصرفوا إلى شأنكم.

(**وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ**) ولا تمكثوا بعد الأكل وتطيلوا الجلوس فتكونوا ثقالاً ومصدر إزعاج لأهل البيت، وأنتم بتداول الأحاديث بعضكم بعضاً من أجل اللهو وقضاء الوقت من دون

ملاحظة رضا صاحب الدعوة، وهذا تجاوز لحدود الضيافة وسوء أدب يؤذي كل إنسان كريم **(إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ)** إنّ ذلك البقاء بعد الطعام طويلاً فوق الحاجة، كان يؤذي النبي (ص) فتضيّقون عليه وعلى أهله، فتقيّدون حريته وتمنعون قضاء حوائجه **(فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ)** فيخجل من أن ينهاكم عنه ولا يصارحكم حياءً منكم لخُلُقِهِ العظيم وقلبه الرحيم، فلا يمنعكم حسن خُلُقه على التجاوز على حريته وراحته، ولكن أنتم لا تستحون ولا تشعرون بمشاعر غيركم، **عن عائشة** (حسبك في الثقلاء أن الله عز وجل لم يحتملهم) مجمع البيان٨/١٩٤، وفي الحديث **(الحَياْءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمْانِ، مَنْ لا حَياءَ لَهُ لا إِيمْانَ لَهُ)**تفسير المبين ص٥٥٨ **(وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ)** والله تعالى لا يترك بيان الحق، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق، فيأمركم بعدم المكوث طويلاً فوق القدر المعقول والعرف المقبول، يريد الله أن يحقَّ الحق بكلماته، ويُعلّم الناس مكارم الأخلاق، وينهى عن التجاوزات والتفاهات والتطفل على الآخرين **(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا)** وإذا طلبتم من نساء النبي **(مَتَاعًا)**

حاجة تنتفعون بها وتحتاجون إليها، ولم يوجد أحد من الرجال المقيمين في البيت عندئذ اسألوا النساء من وراء ستر بينكم وبينهن، وذكر **(المتاع)** وهو معنى عام يشمل كل ما ينتفع به الإنسان، وهو من باب المثال لا من باب التخصيص به ونفي الحكم عن غيره.

(فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ) فاطلبوه من وراء **(حِجَابٍ)** حاجز وساتر، ولا تواجهوهن وجهاً لوجه، أي إن اضطررتم أن تتحدّثوا مع نساء النبي بحاجة مهمة وضرورية فلا تتحدثوا معهن مباشرة، بل اجعلوا بينكم حاجباً ساتراً أو هُنَّ محجّبات حجاباً شرعياً كاملاً، **(وهذا دليل على وجوب الحجاب)** فهو قبل أن يكون ضرورة دينية، فهو ضرورة إنسانية، وحصانة اجتماعية، أما من غير حاجة ضرورية فلا يجوز التحدّث معهن، وهذا لا يختص ببيت النبي وحده، بل هو قانون عام وحكم شرعي يشمل كل البيوت، وإنما ذكر بيت النبي لأنه السبب الموجب لنزول الآية **(ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ) هذه هي الحكمة من وجوب الحجاب لطهارة القلوب وتزكية النفوس،** وكلما بَعُدَ الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم لنفسه وأطهر لقلبه، لأن القلب سريع التأثر وكثير التحسس بالكلمة والنظرة والاختلاط، معنى **(حِجَابٍ)** في اللغة: هو الشيء الذي بفصل ويستر بين شيئين كقوله **(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)** الشورى/٥١، **وحجاب المرأة:** هو مقدمة للعفّة ووسيله مهمة لحفظ الشرف والحشمة، ولا يمثل العصمة عن الانحراف بشكل مطلق، وإنما هو وقاية أولية، وحماية أساسية للنفس والمجتمع كقوله **(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)** الشمس/٩، حيث يشعر الإنسان بأن الاختلاط هو مقدمة للتحلل الاجتماعي كقوله **(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)** النور/٣٠، في الحديث **(النَّظَرُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهْامِ إِبْلِيس)** لذلك صار الحجاب أدعى لتهذيب نفوسكم وطهارة قلوبكم

وقلوبهن، من خواطر الشهوات ومداخل الشيطان ودوافع الهوى والسيئات، وأبعد عن الفساد والفتنة عند الرجال والنساء، وأنفى للريبة وسوء الظن.

لأن (**النظرة الأولى لك والثانية عليك**) **وفي ذلك دلالة واقعية** على أن الاختلاط بين الرجال والنساء شيء مضر يؤدي إلى الفساد وينهى الله عنه كقوله (**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ**) البقرة/٢٠٥، **عن النبي (ص)** (لا يخلو رجل بامرأة لا تحل له إلاّ كان الشيطان ثالثهما) البحار١٠٤ص٤٨ كما لا يمكن أن يختلط السلك الكهربائي السالب مع الموجب ويجتمعا معاً بلا ضوابط، لأن التقاءهما يؤدّي إلى أضرار وأخطار وانقطاع التيار الكهربائي. (**وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ**) ولا يحق لكم أن تؤذوا رسول الله في بيته بلا استئذان منه (ص) وهو الذي هداكم الله به إلى صراطه المستقيم، لذلك أذى النبي (ص) من كبائر الذنوب وقبائح العيوب (**وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ**) ولا أن تتزوجوا نساءه بعد وفاته أبداً، لأنهن بمنزلة أمهات المؤمنين، والمرء لا يتزوج أمه، والنبي كالوالد الرؤوف والأب المربّي لكم فلا يليق بكم أن تؤذوه في نفسه وأهله فله مقام التعظيم والتكريم، وهن اخترن الدار الآخرة والالتزام بما يرضي الرسول (ص) (**إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا**) لأن ذلكم الإيذاء والزواج عند الله ذنباً عظيماً وخطيئة كبيرة لا يغفره الله لكم، وفيه من تعظيم الله تعالى لشأن رسوله (ص) وإيجاب حرمته حياً وميتاً، وامتثلت الأمة لهذا الأمر. **فائدة:**

١- **سبب النزول:** عندما تزوّج النبي مطلّقة زيد وهي زينب بنت جحش، أولم وليمة طعام ودعا الناس إليها فأكلوا وانصرفوا، إلاّ ثلاثة نفر أطالوا الجلوس في البيت فوق العادة، وهم يتحدّثون مستئنسين بالكلام من دون رخصة من الرسول (ص)، فتأذى (ص) لأنهم ضَيّقوا عليه وعلى زوجه، واستحى أن يصارحهم ويخرجهم من البيت، فأنزل الله الآية.

٥٤ - ﴿ إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

تكشف الآية دقة علم الله بأسرار الإنسان ومكنوناته، وكأنّ التعبير القرآني يغوص في أعماق النفوس ويُبيّن أن الإنسان مكشوف للخالق بصورة كاملة كقوله (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد) ق/١٦ **المعنى:** (**إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا**) إن تظهروا شيئاً بالسنتكم في الزواج بهن أو بأي شيء (**أَوْ تُخْفُوهُ**) أو تَسّروه في قلوبكم وتضمروه في صدوركم فإن الله سبحانه يعلمه ويعلم ظاهركم وباطنكم، لأنه أقرب إليكم من حبل الوريد ولأنه محيط بكل شيء علماً كقوله (**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**) غافر/١٩ (**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**) فإن الله مطلّع على كل تفكير وتدبير، وعلى الظواهر والسرائر وسيجازيكم عليه، وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد، **وفي الآية إشعار:** بأن بعضهم ذكر ما يشير إلى نكاحهم أزواجه (ص) من بعده. **سبب النزول:** في الدر المنثور، أن طلحة بن عبيد الله قال: أيحجبنا مُحَمَّد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به

حدث لنتزوّجَن نساءه من بعده، فنزلت الآية، **ملاحظة:** وإن نزلت الآية في خصوص السبب، ولكن أريد لها عموم المعنى وسعة المغزى والدلالة.

٥٥ – ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

لما أوجب الله سبحانه الحجاب على النساء، أباح لهن الظهور بلا حجاب، ورخصة السفور لذوي المحارم (أي يحرم الزواج بهم) المذكورين في الآية، وفي سورة النور/٣١ بتفصيل أشمل كقوله (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...) **المعنى:** (**لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ**) لا إثم ولا حرج ولا بأس على نساء النبي في أن لا يحتجبن كقوله (**فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ**) (**وَلَا نِسَائِهِنَّ**) فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة على العموم (**وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ**) من العبيد والإماء ولا يوجد في زماننا الحاضر ولله الحمد، أي وإمائهن غير المسلمات وهن الجواري الكتابيّات المسبيّات في الحروب، وقيل: لم يذكر العم والخال لأنهما كالوالدين (**وَاتَّقِينَ اللَّهَ**) اتركن معاصيه يانساء النبي في كل شيء، وخاصة أوصيكم التقوى في تكليف الحجاب (**وَاتَّقِينَ اللَّهَ**) يا معشر نساء المؤمنين أي أخشين الله في السرّ والعلانية وفي كل زمان ومكان، وخاصة التقوى في تكليف الاحتجاب عن الرجال، ونلاحظ أن التقوى ومراقبة الله يكثر التذكير بها والتأكيد عليها في مثل هذه المواضيع المهمة، لأن (**التقوى**) هي الضمان وهي الحصن الحصين الأمين المنيع لمن لجأ إليه، وهي الرقيب المجيب السّاهر الماهر على سلامة النفوس واطمئنان القلوب وانشراح الصدور كقوله (**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**) البقرة/١٩٧، في غرر الحكم (**عَلَيْكَ بالتّقى فإنه خُلق الأنبيّاء**) (**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا**) **شهيداً:** حاضراً وناظراً إليه ورقيباً عليه، ولا يغيب عنه شيء من أموركن، يعلم خطرات، كل القلوب كما يعلم حركات الجوارح ويجازيكن عليها.

سبب النزول: روي: لما نزلت آية الحِجاب قوله (**وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**) قال الآباء والأبناء والأقارب، يا رسول الله أنحن نكلمهن أيضاً من وراء حجاب؟ فنزلت الآية بأنها لا تشملهم.

٥٦ – ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

بَيّن الله تعالى كمال الرسول المصطفى (ص) وجلاله ورفعته وعلوّ منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره وبالصلاة عليه لدلالة على تكريمه واحترامه وتقدير جهاده وتضحيته وطاعته فقال (**إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ**) (**إِنَّ**) للتوكيد عناية بهذه الحقيقة، وجاءت الجملة اسمية في صدرها (**إِنَّ اللَّهَ**) لإفادة الدوام، وفعليّة في سياقها (**يُصَلُّونَ**) الإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى على رسوله يتجدد على الدوام، فَتَدَبّر هذه الحقيقة الدقيقة وأبعادها البلاغية، **يُصَلُّونَ:** يتشّرفون ويعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره، ويحرصون على إظهار عظمته كقوله (**أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ**

صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) البقرة/١٥٧، وأيضاً يتشرفون بكرامته التي كرمه الله بها كقوله **(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)** النساء/١١٣، وأظهار لفضله وطلب الشفاعة منه لأنه جامع لصفات الكمال والجمال والجلال، فإن الصلوات ثمن الشفاعة، فإذا أدّوا الثمن في هذا اليوم، يرجى أن يحرزوا المثمّن أي الشفاعة يوم القيامة.

كقوله **(لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا)** مريم/٨٧، عن النبي (ص) **(شَفَاعَتِي لِأُمّتِيَ مَنْ أُحَبَّ أَهْلَ بَيْتِي)** كنز العمال خبر٣٩٠٥٧، **المعنى:** إن الله يصلي على النبي صلاة بالرحمة والإحسان والرضوان، ويرفع مقامه ويعظّم مسؤوليته، وذكره بالثناء عليه في الملأ الأعلى بكل خير، ومعنى **(اللهم صل على مُحَّد ول مُحَّد)** اللهم عظّمهم في الدنيا بإعلاء دينهم، وإعظام ذكرهم، وإظهار دعوتهم وإبقاء شريعتهم، ووحدة المسلمين في نظامهم، **عن النبي (ص)** (أساس الإسلام حبّي، وحبّ أهل بيتي) كنز العمال خبر ٣٧٦٣١ **وفي نهج البلاغة خطبة ٨٧** (كيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم، وهم أزمّة الحق، وأعلام الدّين، وألسنة الصّدق) يستحب القول بعد سماع الأذان.

(اللهُمَ رَبَّ هَذهِ الدَّعْوُةُ التّامَةُ والصَّلاةُ القائِمَةُ، آتِ مُحَمْداً الوَسيْلَةَ وَالفَضِيْلَةَ وَالدَّرَجَة الرَّفيعَةَ، وابْعَثْهُ مَقَامَاً مَحْمُوُداً الّذي وَعَدتَهُ، يَغْبِطهُ بِهِ الأَوَلوُنَ والآخِروُنَ)روح البيان٧/٢٢٩، وتصلي ملائكته عليه بالثناء والتزكية والتعظيم والاستغفار له عند الله سبحانه لينال أعلى المراتب، وجاءت **(يُصَلُّونَ)** بالفعل المضارع للدلالة على أنها صلاة باقية شافية زاكية ودائمة ومستمرة، وصلاة المؤمنين لله تعالى بمعنى الدعاء والعبادة والخضوع والتعظيم لأمره، **والصلاة المفروضة** تؤدي إلى تزكية النفس وتهذيب الطبائع وإصلاح العادات وتصحيح الأخطاء كقوله **(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)** العنكبوت/٤٥، إنها صلاة نامية باقية مؤثرة تطهّر بها النفوس لتستقيم ويشرق بها أرجاء الكون لينير **(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ)** فيشاء الله تشريف المؤمنين بأن يقرن صلاتهم إلى صلاته وتسليمهم إلى تسليمه، وأن تصلهم عن هذا الطريق العبادي بالآفاق العلوية الكريمة الخاصة، **فإذا كان الله وملائكته يصلون على النبي (ص) فعلينا أن نَضُمَّ أصواتنا إلى أصواتهم**، وندمج صلاتنا مع صلواتهم ونشاركهم في الصلاة على النبي الكريم، ونكون جميعاً في صلاة موحّدة واحدة متّحدة مع صلوات وتسبيحات وتمجيدات عالم هذا الوجود الكبير بكل كائناته.

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ) فيا أيها الذين آمنوا صلوا عليه أنتم أيضاً، واشتركوا معهم بالدعاء والتضرع والعبادة والاستغفار وطلب الرحمة فقولوا **(اللّهُمَ صَلّ عَلى مُحَمَدٍ وَآلِ مُحَمَدٍ)** وهي من أفضل العبادات، وأحسن الذكر، والنجاة من النفاق، لأن الله تعالى تولاها هو ملائكته ثم أمر بها المؤمنين، وسائر العبادات ليست كذلك كقوله (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) الأحزاب/٤٣، وفي الحديث (**لاَ صَلاَةَ لمن لَمْ يُصَلِ عَليّ فِي صَلاَتِهِ**) وعنه (ص) (**مَنْ صلّى عَليّ فِي كِتَاب لَمْ تَزل صَلاَتهُ جَارِيَةً لَهُ مَادَامَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ**) وفي الحديث (مَا مِنْ دُعَاءٍ إلاّ بِينَهُ وَبينَ اللهِ حِجَابٌ حَتّى يُصَلِّي عَلَى مُحَمَد وَآلِ مُحُمَد، فَإذَا فَعَلَ ذلِكَ انْخَرَقَ الْحِجَاب وَدَخَلَ الدُّعَاءُ ، وَإذَا لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ رَجَعَ الدُّعَاءُ) روح البيان٧ص٢٣٠ (**وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**) وسلّموا له الأمور تسليماً مطلقاً كقوله (**ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**) النساء/٦٥.

بمعنى: التسليم القولي والفعلي والعملي بالطاعة له ولرسالته، طاعة بالولاء والوفاء والانتماء وحسن الاتّباع كقوله (**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**) الأحزاب/٦، وأيضاً **بمعنى**: ادعوا له (ص) بالسّلامة والنصرة لرسالته الإسلامية فهي نصرة له كقوله (**قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى**) النمل/٩٥، فحق النبي (ص) عليكم عظيم، فقد كان المنقذ لكم من حيرة الضلالة، والُمخَلِّص لكم من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والهدى والاستقامة، اللهم جازه عنا أفضل الجزاء، وانصر دينه على الدين كله ولو كره المشركون فهو نصرة له، كقوله (**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**) التوبة/٣٣، لأن من يُسَلِّمُ عليه فإنه يرجو له من الله حفظه وسلامته (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) وهذه الصلاة وهذا التسليم من المؤمنين له هو بعض ما يجزي به المؤمنون النبي من إحسان في مقابل الإحسان العظيم الذي أحسن به إليهم، **ومعنى: صلاة المؤمنين**: هو دعاؤهم الله تعالى أن يصلي ويرحم وينصر ويرفع مُحَمّداً وآله، وأن يظهر دورهم في الحياة، ولا تنحصر الصلاة على النبي بالله والملائكة والمؤمنين، وإنما كل إنسان يعمل بشيء من سنته (ص) الصحيحة أو يدرسها أو يستدّل بها أو يدوّنها بصدق ويذكر فضيلة من فضائله فقد صلى على النبي، روي عنه (ص) (**الْبَخِيلُ حَقّاً مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِ عَلَيَّ**) البحار٧٣/٣٠٦.

فائدة: ١- سُئل رسول الله (ص) علمتنا السلام عليك والتسليم لك في الأمور، أما كيف نصلي عليك؟ فقال (ص) قولوا: (**اللَّهُمَّ صَلِ عَلَى مُحَمَّد وَآلِ مُحُمَّد كَمَا صَلّيتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ إنّكَ حَمِيدٌ مجِيدٌ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**) الدر المنثور٦ص٦٤٧، ولم يذكر الصلاة على الصحابة الكرام، الصلوات اللفظية لا تكفي، بل لابد من التسليم العملي والارتباط القلبي (**صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا**).

في الحديث (**لاَ تَصِلُوا عَليّ الصَّلاَةُ الْبَتْرَاء، أنَّ تَقُولُوا اللَّهُمَّ صَلِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَتمْسِكُوا، بَل قُولُوا (اللَّهُمَّ صَلّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّد)**) الصواعق المحرقة ص١٤٤، وإن إضافة (آل مُحَمّد) إلى الصلاة على مُحَمّد في تشهّد الصلاة إضافة واجبة وبدونها تبطل الصلاة، **قال الشافعي**: يا أَهلَ بيتِ رَسُولِ اللهِ حُبّكُم، فَرْضٌ مِنَ اللهِ فِي القُرآنِ أَنزَلهُ، كُفاكُمْ مِنْ عَظِيْمِ القَدْرِ أَنّكم، مَنْ لَمْ يُصَلِّ

عَلَيْكُمْ لاَ صَلاَةَ لَهُ، ٢- عن الإمام الصادق (ع) **(صلوات الله عليه) تزكية له وثناء عليه (وصلاة الملائكة) مدحهم له (وصلاة الناس (المؤمنين) دعاؤهم له والتصديق والإقرار بفضله)** تفسير علي بن إبراهيم٢/١٩٦ الصلاة على مُحَّد وآل مُحَّد لإظهار المحبة للصلاة عليهم، وَمَنْ أحبَّ شيئاً أكثر ذكره، كقوله (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ) التوبة/١٠٣، كما قل **(الحمد لله)** إظهار لمحبة الحمد، ٣- **سؤال:** السلام مخصوص بالحي والنبي ميت؟ **الجواب:**

إن المؤمن لا يموت حقيقة وإنما ينتقل حياً من دار الدنيا إلى نعيم الدار الآخرة **(ولاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ)** فكيف وقبر النبي روضة من رياض الجنة؟ فهو يسمع الكلام وَيَردَّ السَّلام، وصلاة الله على عباده مراتب بحسب مراتب العباد، ولها معان كالرحمة والمغفرة والقربى، كقوله (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) الأحزاب/٤٣ والمراد (بآلِهِ) الأقرباء النقباء الفضلاء الأتقياء الأمناء الأوفياء على حمل الإسلام ومخازن علوم القرآن كقوله **(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)** الشورى/٢٣.

والقربى من بني هاشم الذين هم تحت الكساء في الحديث المشهور، للتوسعة راجع آية التطهير لأهل البيت في الأحزاب/٣٣، في (وَعيُ القُرآنِ الُميَسَّر)، ٤- **(الصّلاَةُ عَلَى مُحَمَدٍ وَآلِ مُحَمَدٍ)** صلاة تنجينا بها من الأهوال والآفات، وتقضي لنا بها الحاجات وتطهّرنا بها من السيئات والنقائص، وترفعنا بها عندك أعلى الدرجات، وتبلغنا بها أقصى الغايات من جميع الخيرات والبركات والاتجاهات في الحياة وبعد الممات، وبتكرار الصلاة على مُحَّد وآله تشفي الروح وترقي النفس، وتذهب الهموم والأحزان، ويكون الإنسان صادقاً مع نفسه ومع ربه ومع الناس وبذلك يذهب النفاق وازدواج الشخصية، **عن النبي** (ص) (الصّلاَةُ عَليّ نُور عَلَى الصِّرَاطِ)كنز العمال خبر٢١٤٩، ٥- **سؤال:** إذا كانت درجة أهل بيت النبي (ع) بهذه المنزلة الرفيعة عند المسلمين إذن فلماذا كان الموقف السلبي من الحكام الأمويين والعباسيين وغيرهم المعادي لأهل البيت فكانوا مَضَيَّقينَ عليهم وانتقموا منهم، فهم ما بين مقتول ومسجون ومسموم؟!! وإذا كانت الصلاة على النبي (ص) الرحمة والتسليم له والسلام عليه وتكريمه هو بعض المطلوب من المؤمنين جزاء إحسان النبي إليهم كقوله **(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)** الرحمن/٦٠، ولكن بعض الناس الحاقدين (كالنواصب الذين ينصبون العداء لهم) يجزون هذا الإحسان الجليل بالانتقام المريع، وبالعداء الأسود لأهل بيت النبي (ع) وبالحسد والحقد والإساءات والمضايقات والمؤامرات (والذي لا ينفعهم الأبرار يَضرّهم الأشرار) حتى مَسَّهُمْ الضُرُّ كما قال القرآن في الآية التي بعدها **(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)** وبقتلهم تُقْتَلُ الفضيلة وتحيا الرذيلة، **في غرر الحكم** (إذا استولى اللِئام اضْطُهِدَ الكِرام) **وفيه أيضاً** (إِذَاْ مَلَكَ الأَرَاْذِلُ هَلَكَ

الأَفَاْضِلُ)كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) الرعد/١١، عن النبي (ص) (**كَماْ تَكُوْنُوا يُوَلَّى عَلَيْكُمْ**)كنز العمال خبر١٤٩٧٩، في غرر الحكم (مِنْ أَفْحَشِ الظُّلْمِ ظُلْمُ الْكِرَاْمِ).

٥٧ – ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) بألسنتهم أو بأيديهم وكراهيّتهم، وطعن في شخص الرسول أو في أهله في حياته وبعد مماته، ويؤذون أهل بيته الكرام (ع)، والذين يؤذون الأفاضل هم الأسافل وهم شرار الناس، ومصداقهم (النواصب) الذين ينصبون العداء لأهل بيت النبي الأطهار (ع) ويؤذون الناس بلا ذنب ويعتدون على حقوقهم ويسلبون كرامتهم، ويؤذون المؤمنين والمؤمنات الصالحات بالكيد والضرر بهم ويُحيك المؤامرات ضِدّهم. **معنى: (يُؤْذُونَ اللَّهَ)** كناية تشبيهية واستعارة بلاغية، عن مخالفة أوامر الله بالكفر والعصيان والخذلان والعناد والفساد وأذيّة عباده، فإن الله تعالى لا يلحقه أذى.

(**يُؤْذُونَ الرسول**) بالتكذيب برسالته والطعن في شريعته والاستهزاء بدعوته ويؤذونه بألسنتهم كقوله (**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ**) التوبة/٦١، وعن النبي (ص) (إِنَّ فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مَنِيّ يُؤْذِيِنِيَ مَاَ آذَاهَا) صحيح مسلم٤ص١٩٠٣، (**لَعَنَهُمُ اللَّهُ**) طردهم وأبعدهم الله من رحمته، وأَحَلَّ عليهم سخطه وغضبه ونقمته (**فِي الدُّنْيَا**) بالهوان والكآبة والضنك النفسي والأرق الليلي، وطبع على قلوبهم فهم لا يهتدون، وطردهم من رحمته كقوله (**وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**) الجن/١٧، (**وَالْآخِرَةِ**) بالعذاب الشديد والخلود في نار جهنم، فلا ينظر الله إليهم ولا يغفر لهم أبداً (**وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا**) مما يضيف إلى الطرد المعنوي من رحمة الله، العقوبة المادية المؤلمة التي تمثل الاستهانة بهم وإهانتهم المؤذية لهم عندما يساقون بذلة إلى العذاب المهين، **فائدة: (يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)** فذكر الله مع الرسول في إيذاء مشترك تشريف للرسول، وهذا يعني أن من قصد رسوله بسوء فقد قصد الله بالسوء أيضاً، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، والمراد بإيذاء الله سبحانه أي عصيانه وتجاوز حدوده والصد عن سبيله، أما أذى رسوله (ص) فقد أوذي في الله أَشَدَّ الإيذاء فقال (مَاْ أُوْذِيَ نَبِيٌّ بمثلِ ما أُوْذِيْتُ فِي اللهِ)كنز العمال خبر٥٨١٨، ومع هذا الإيذاء صبر وضاعف جهوده وجهاده حتى نصره الله نصراً عزيزاً، وظهر الإسلام ظافراً مظفراً كقوله (**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**) التوبة/٣٣.

٥٨ – ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾

(**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**) بألسنتهم أو بأيديهم او بجهالتهم، وجاءت (**يُؤْذُونَ**) بالفعل المضارع للدلالة على استمرار الأذى، والإصرار على الذنب مما يزيد في قبحه ولؤمه،

وجاءت كرامة المؤمنين والمؤمنات متساوية، وانتهاك كرامتهما ذنب عظيم، في الحديث (عِزُّ الْمُؤْمِنِ بِكَفِّ الأَذَى عَنْ النَّاسِ.. وَأَذَل النَّاس مِنْ أَهَانَ النَّاس) في غرر الحكم (**أَسْوَأ النَّاس حَالاً مَنْ لَمْ يَثِقْ بأَحَدٍ لِسوُءِ ظَنِه، وَلَمْ يَثِقَ بِهِ أَحَدٌ لِسُوُءِ فِعْلِهِ**) (**بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا**) بلا ذنب يوجب إيذاءهم، فهو إنذاء بالظلم والعدوان وسلب حقوق الإنسان وكرامته، وأما إيذاؤهم بما اكتسبوا كما في القصاص والحد والتعزير فهو قصاص بالحق، وتكون (**العقوبة على قدر الجناية**)، والأذى والظلم محرّم سواء أَوَقَعَ على مؤمن أم كافر، فإن الله سبحانه لا يدع ظلامة المظلومين وإن كانوا كفّاراً، والأذى المادي الجسمي يقابله قصاص مادي وجسمي مثله كقوله (**وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ**) المائدة/٤٥، والله سبحانه قد تولى الرد على ذلك ووصم أعداءهم بالإثم والبهتان فقال (**فَقَدِ احْتَمَلُوا**) فقد حَمَّلوُا أنفسهم أثقالاً على ظهورهم، وفعلوا ما هو أعظم، أي تحمّلوا الإثم الكبير مع البهتان (**بُهْتَانًا**) افتراءً وكذباً فظيعاً وقذفاً بالباطل وأذى بغير سبب.

وأصل البهتان: الكذب الشنيع الذي يبهت الشخص ويفاجئه ويهزّه ويزلزله لفظاعته، فجعل إيذاء المؤمنين والمؤمنات بأية وسيلة بالقول أو بالفعل يكون مثل البهتان، وهو من الذنوب الكبيرة (**وَإِثْمًا مُبِينًا**) وذنباً واضحاً ومعصية ظاهرة يُقِرّها العقل.

فائدة: ١- **سبب النزول:** كان بعض المنافقين والفُسّاق ينشرون إشاعات تمس شرف ونزاهة بعض المؤمنين والمؤمنات، وتدبير المؤامرات لهم وإشاعة التُّهم ضدّهم **فنزلت الآية**، لتبيّن أن مثل هؤلاء موجودين في كل زمان ومكان، ٢- قال (**إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) الأحزاب/٥٧، وقال هنا (**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا**) لقد أطلق إيذاء الله ورسوله، وَقَيَّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات بقوله (**غَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا**) لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلاّ بغير حق أبداً، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات إذا كان بما كسبت أيديهم، فيكون الإيذاء على قدر الذنب، وأما إذا كان الإيذاء بدون ذنب فهو اعتداء صارخ على حقوق الإنسان وإهانة لكرامته، فهو اعتداء مكشوف وصريح، **في الحديث القدسي** (من آذى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة) روح البيان٧/٢٣٩، لذلك قال (**فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**) وأذى المؤمنين يقترن بأذى الرسول (ص) وأذى الرسول (ص) يقترن بأذى الله، لأن المؤمنين يسيرون في طريق الرسول في (**وحدة هدف، مع تعدد أدوار، واختلاف أساليب**) فمن آذى مؤمناً كمن آذى الرسول، ومن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن آذى الله ورسوله (**فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا**)، كقوله (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ) النساء/١٤٨.

٥٩ — ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

(آيةُ وُجُوب الحِجَاْب)

وأحكامه وآدابه والحكمة منه ولزوم الدوام عليه، **والحجاب**: يُطَهّرُ النفوس ويزكّي القلوب ويصون المجتمع، **والحجاب**: زيٌّ نموذجي عفيف عالي المضامين يُميّز المؤمنات المحجبات عن غيرهن بالشكل والمضمون، وبالقول والفعل وفي السرّ والعلانية، وفي الدنيا وفي الآخرة، وزيّ للوقاية والحماية والرعاية والهداية، **والحجاب**: **وقاعدة (سَدّ الذَّرْائِعُ)** أي لا تدع المحجبة سبيلاً وسبباً لأي قول سوء فيها، ولا تُعَرِّض نفسها للشبهة والتهمة، هذه الآية أوضح دليل قرآني على وجوب الحجاب على النساء، مع قوله **(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ)** النور/٣١، وقوله **(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)** الأحزاب/٥٣، ويؤيد دلالة الحجاب قوله تعالى في علة الحكم **(ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ)** فإن الحجاب حاجز نفسي وَزيٌّ واق وعنوان شريف ونظيف وعفيف مميّز بين المحجبة العفيفة وطمع المعاندين والمفسدين، **المعنى**: **(أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ)** أمر الله سبحانه نبيه الكريم (ص) **(قُلْ لِأَزْوَاجِكَ)**، أن يأمر نساءه المقربين له أولاً **(وَبَنَاتِكَ)**، وبناته ثانياً لأن الآمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم كقوله **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)** التحريم/٦ **(وَبَنَاتِكَ)** وكانت ثماني، أربعاً من صلب النبي (ص) ولدتهم خديجة وهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء، وَمِتْنَ في حياة النبي (ص) إلاّ فاطمة فإنها عاشت بعد أبيها ستة أشهر، وأربع بنات ربائب أي بناته من غير صلبه **(وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ)** بشكل عام حين يخرجن من بيوتهن لقضاء حاجتهن المناسبة واللازمة **(يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ)** أن يقربن الجلباب الساتر على أبدانهن ورؤسهن ليكون ستراً لهن لحفظ عفافهن وحيائهن وشرفهن وأنوثتهن.

ومعنى (جَلَابِيبِهِنَّ) جمع جلباب: وهو مصطلح قرآني بليغ، دقيق المبنى، عميق المعنى، واسع الدلالة، يشمل كل أنواع الستر والحجاب بواسع معناه الذي لا يشف ولا يصف أجزاء البدن، ويشمل أنواع الحجاب بكل ألوانه وأشكاله (وموديلاته) المتناسبة مع كل زمان ومكان، **والجلباب**: ثوب يُغطّي رأس المرأة وصدرها ويستر جميع بدنها إلى قدمها باستثناء الوجه والكفين كقوله **(وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)** النور/٣١، **والجلباب**: لباس المحتشمات وعنوان الصالحات وصفة العفيفات وجمال الشريفات النظيفات النموذجيّات المميزات عن غيرهن من النساء، **ثم ذكر الحكمة من الحجاب فقال (ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ)** لأن ستر جميع البدن إلا ما ظهر منه **(أَدْنَى)** أي أقرب أن يعرفن بأنهن أهل الستر وعنوان الصلاح والاستقامة وأصالة العفاف **(فَلَا يُؤْذَيْنَ)** فلا يتعرّض لهن أحد الفسّاق من الشباب بالنظرات المريبة والكلمات البذيئة، لأن الفاسق إذا عرف امرأة بالستر والحشمة والصلاح والشرف والفضيلة والعفاف، لم يتعرّض لها ويخجل منها ويهابها، وفي هذا دليل

واقعي على وجود أذية قولية أو جسدية إن لم يحتجبن، وذلك لأنهن إذا لم يحتجبن ربّما ظن أنهن خفيفات غير عفيفات فيتعرض لهن توافه الناس فيؤذين. **(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)** وكان الله **(غَفُورًا)** ستّاراً لما كان منهن قبل ذلك **(رَحِيمًا)** بهن وبالعباد حيث راعى مصالحم العامة.

فائدة: ١- سبب النزول: روي: أن النساء كن يخرجن إلى المسجد ويصلين خلف رسول الله (ص) وكان بعضهن لا يتقنّ ارتداء الحجاب، ويتساهلن فيه جهلاً بحكمته، فتظهر أجزاء من أبدانهن للأجانب، فإذا كان وقت الغروب خرجن إلى صلاة المغرب والعشاء، فكان الشباب الفسّاق يقعد لهن في طريقهن فيؤذونهن، ويتعرّضون لهن باعتبارهن – حسب تصوّرهم – خفيفات فاسقات، فنزلت الآية، وأمرتهن أن يلتزمن بالحجاب الكامل حتى لا يجد من يريد الأذى أي عذر، ٢- لما حَرّمَ الله تعالى الإيذاء والاعتداء، أمر الله سبحانه نبيه الكريم (ص) أن يوجّه النداء إلى الأمة جمعاء، للتمسك بالمنهج الإسلامي وتعاليمه الرشيدة، وبالأخص في أمر اجتماعي مهم وهو **(الحجاب) الذي يصون نفس المرأة ويحمي كرامتها وأنوثتها وأمومتها، ويحفظ عليها عفافها وشرفها وحياءها** وفطرتها، ويحميها من النظرات الجارحة والكلمات اللاذعة والنوايا الخبيثة، لئلا تتعرض لأذى الفسّاق.

٣- **الحجاب في الحقيقة حجابان: الحجاب الأول** الظاهري المادي، وهو حجاب الشكل والظاهر وتستر به الرأس والبدن، وقد يكون الحجاب في الشكل دون المضمون، حجاباً صُورياً ظاهرياً بلا وعي، حجاباً بلا علم ولا فهم ولا قناعة ولا معرفة، فيكون حجاباً ناقصاً ضعيفاً بلا أساس يستند عليه، ولا يؤدي دوره الرسالي الكامل في بناء نفس المرأة وبناء المجتمع كقوله **(وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ)** النور/٦٠، **والحجاب الثاني: حجاب باطني معنوي وعلمي وفكري** وهو أن تتسلّح المرأة المحجبة بسلاح العلم والفهم في القول والعمل، سلاح تعرف فيه المرأة **(فلسفة الحجاب)** والغاية منه والحكمة فيه، وأنه حاجة إنسانية وسنة طبيعية وقيمة أخلاقية اجتماعية عامة، قبل أن يكون سنة دينية ووجوباً ربانيّاً.

وهكذا يكون **قانون الزوجية العام** في الكون والكائنات كقوله **(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)** الذاريات/٤٩، ومن كل شيء خلقنا زوجين متقابلين كفؤين يكمل أحدهما نقص الآخر، أحدهما فاعل كالذكر والآخر منفعل كالأنثى أو أحدهما موجب والآخر سالب.. وهكذا، فكما يوجد عازل بين السلك الموجب مع السلك السالب في عالم الكهرباء، **كذلك ينبغي أن يوجد حجاب شرعي عازل للمرأة لتحفظ نفسها من مكر الرجال**، ومن دون هذا العازل بين السالب والموجب تحصل تماسات وشرارات كهربائية تضر ولا تنفع، وكذلك من دون عازل بين الذكر والانثى والذي يسمى (حجاب المرأة) يحصل فساد وزنى وتحلل وقتل لمشروع الأبوة والأمومة، وتذويب بناء الأسرة الشريفة والذرية الصالحة، ٤- **الحكمة من الحجاب**: إن كل جسم

المرأة عورة، فهو يثير شهوة الرجال، وكفى بالشهوة فتنة (**وَكُلَّمَا كَبُرَتْ الشَّهْوَةُ صَغُرَ الْعَقْلُ، وَكُلَّمَا كَبُرَ الْعَقْلُ صَغُرَتْ الشَّهْوَةُ**)

في غرر الحكم (إِذَا كَمَلَ الْعَقْلُ نَقَصَتْ الشَّهْوَةُ) حَقّاً المرأة عورة، ولا سيّما مواطن الإثارة من جسمها، فتأتي حكمة الحجاب لستر جسم المرأة وحماية مفاتنها، حجاب لا يشف ولا يصف مفاتنها، فالمرأة التي تحفظ عفّتها وحياءها وأنوثتها وأمومتها، ولا تظهر مفاتنها بالمجّان وتصون نفسها وعرضها وتحمي شرفها، وبذلك يصون الرجل نفسه ويحمي ذاته، ويصان المجتمع أيضاً، فالمرأة عنصر حضاري في المجتمع كالرجل، فإذا فسدت وتعرّت فسد المجتمع وعاش أزماته النفسية ومعاناته الروحية، وتساوت عنده الفضيلة والرذيلة وانهارت القيم والمبادئ والأخلاق، فلا تنفع التطورات العلمية والتكنولوجية والألكترونية مقابل الكآبة النفسية التي تنخر المجتمع كقوله (**لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا**) الإسراء/٢٢ وقوله (**وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**) الجن/١٧.

أمّا إذا تعففت المرأة المؤمنة نفسياً وتحصنت علمياً ودينياً وتحجبت في مظهرها وجوهرها، فسوف يصلح الرجل أيضاً ويصلح المجتمع ويتطوّر، **والمرأة المتبرجة السافرة الخليعة تكون سلعة تجارية رخيصة**، تَقْتُل حياءها وتلوّث فطرتها وتكون امرأة مسترجلة، ويكون عقلها في جمالها ومظهرها، وليس جمالها في عقلها وعلمها وحسن سيرتها! فتهبط إلى مستوى شهوتها ويصغر عقلها، والمرأة المسترجلة ملعونة ومفتونة وغير مألوفة عند الرجال، وكم هناك فرق كبير بين جمال الشكل وقبح المضمون، وتكون كما وصفها النبي (ص) (**إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءُ الدِّمَن، وَمَا خَضْرَاءُ الدِّمَن؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الحَسْنَاءَ فِي مَنْبَتِ السُّوءِ**) كالوردة الجميلة في مستنقع عفن، لذلك المرأة المؤمنة الصالحة الفاهمة العفيفة، جميلة المظهر والجوهر فهي درع من نار جهنم، وحصانة لنفسها ونعمة لزوجها ووقاية لأسرتها وحماية لمجتمعها، **في المعجم، عن النبي (ص)** (لَعَنَ رَسُوُلُ اللهِ الرَّجِلَةَ مِنَ النِّسَاْءِ) أي المرأة المسترجلة، راجع للتوسعة كتاب (**السكن الزوجي المتكافئ**، في المنظور القرآني الفريد **تأليف الباحث:** مكي قاسم البغدادي.

٦٠ – ٦١ –﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ، مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴾

حَذَّرَ الله تعالى وأنذر كل المؤذين والمعتدين على عمومهم وهددهم بأنواع العقاب، وندرك من خلال هذا العقاب المزلزل مدى قوة المسلمين وهيبتهم في البلاد والعباد فقال (**لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ**) **لئن:** الأم موطئة للقسم، أي أقسم إن لم يكف ويترك المنافقون عن نفاقهم واعتدائهم، وهم أشد الناس كفراً في دواخلهم، وفي الظاهر مع المؤمنين، وهم خطر على الإسلام والمسلمين، وينعقون مع كل ناعق، ويميلون مع كل قوة، ويبحثون عن كل منصب وغنيمة

(وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) مرض القلوب: معنى معنوي عام واسع الدلالة، يشمل كثيراً من المعاني السلبية السيئة، وهم الأراذل بانتهاكهم حرمات الدين، **ومن هذه المعاني السيئة**: الفسوق والفجور والشكوك واتّباع الشهوات الفاسدة من الزنا والسرقة والاعتداء على حقوق الناس من المتزعمين والوجهاء المتطفّلين، والذين ليس في قلوبهم إيمان يردعهم ولا ضمير ينهاهم عن الحرام، من ضعاف النفوس ومتّبعي الأهواء والشهوات والمصالح الخاصة، الذين يتعرّضون للنساء المؤمنات العفيفات ويؤذونهن.

(وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ) وهم المنافقون أيضاً الذين ينشرون الأراجيف والدعايات المزلزلة غير الثابتة، والمروّجون الشائعات المرعبة في نفوس الناس، والأكاذيب المتقلّبة المتلوّنة الأشكال، وينشرون الإعلام المضاد ويثيرون **(الحرب الباردة الناعمة)** النفسية بكل وسيلة خسيسة، لتشويش الأفكار وخلخلة الصفوف وتوهين القوى بين الناس، وإضعاف إرادتهم وخلق الاضطرابات النفسية والقلق والأرق بينهم، هؤلاء جميعاً يشكّلون جبهة متعاونة تضم تيارات عديدة تعمل على نشر الفساد الأخلاقي والثقافي والسياسي والأمني.. وغيرها بشتى الطرق، إن لم يكف هؤلاء جميعاً عن التخريب والإفساد **(لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ)** جواب القسم المضمر، لنحرّضنَّك عليهم ولنحرّشنَّك بهم ونمكننك منهم ونسلطنك عليهم يامُحمّد لقتالهم وعقوبتهم وتأديبهم، ونخرجهم من المدينة على أسوأ حال كقوله **(وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ)** الحشر/٦، وهذا إظهار لقدراته وقوته وشوكته (ص)، كانت هذه الحثالة تعبث في البلاد والعباد الفساد، فهددها الله سبحانه بأقسى العقوبات.

(لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ) إلاّ أن تحجم وتكفّ، ولا علاج لهذا الداء العياء المضر إلاّ الاستئصال من الجذور، وتشمل العقوبة أيضاً للذين يستمعون إليهم ويتعاونون معهم بالخفاء، ثم إذا عاقبناهم وفرضنا هيبتنا وقوتنا عليهم عندئذ لا طاقة لهم بك، وهذا يستدعي أن تكون للحق دولة مستقلة وسلطة قوية، وإن كانت للباطل جولة ومهلة كقوله **(أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)** الأنبياء/١٠٥ **(لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ)** من الإغراء وهو كناية عن القوة والهيبة والقدرة والسيطرة على الأعداء وبث الخوف في قلوبهم من كافة الجوانب (فإِنَّ اللهَ أَمْهَلَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَهْمَلَ، وَأَنَهُ سَتَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ غَفَرَ، وَأَنَّهُ أَنْذَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَعْذَرَ) وإعادة الأمن الاجتماعي والأمان في الأمة من واجبات القائد العام **(ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا)** ثم لا يكونون قريبين منك ومن المدينة، بسبب قتلهم ونفيهم عنها **(إِلَّا قَلِيلًا)** إلاّ زماناً قليلاً وهو ما بين صدور الأمر بالقتل والنفي وتنفيذه، ولهذا قال ٦١- **(مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا)** وسيكونون ملعونين أي مطرودين منفيين عن المدينة ومكروهين بين الناس ومبعدين عن رحمة الله وعنايته، وهم مهدورو الدم، لأن دينهم الدينار وعملهم الغش والكذب والخداع، وهم كالعضو الفاسد يفسد الجسم كله إذا لم يقطع منه **(أَيْنَمَا ثُقِفُوا)** أينما وجدوا وظفر

بهم في كل زمان ومكان، فلا يحصل لهم أمن وأمان، ولا يقر لهم قرار ولا راحة بال ويخشون أن يُقَتَّلوا أو يحبسوا أو يعاقبوا (**أُخِذُوا**) على وجه الغلبة والقهر وأصبحوا في عداد الأسرى وتحت قبضة العدالة (**وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا**) شديداً شنيعاً لأنهم لا يستحقّون الرحمة، فقضي عليهم لكفرهم بالله وعنادهم ونشر فسادهم واعتدائهم على الناس، لأنه (وَماْ حِيْلَةُ الْمضْطَرّ إلاّ رَكُوُبُها) كما هو الشأن في واقع المسلمين في قرننا الحادي والعشرين، كقوله (**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**) البقرة/١٧٩.

٦٢ – ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

وهذا الجهاد ضد أهل الفتنة والفساد والمخلّين بالأمن الاجتماعي، هذا ليس حكماً خاصاً في منافقي أمتك ومفسديهم يامُحَمّد، بل هذه (**سُنَّةَ اللَّهِ**) طريقة الله الجارية المؤثّرة في الأديان كافة وفي تدبير الأمور، وأيضاً هي قانون الله الثابت الفاعل القديم الحديث الذي لا يتبدل ولا يتحول (**فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ**) في الذين مضوا من قبل من الأمم الماضية في منافقيهم، أن يتم مراقبتهم وتثبيت الحجة القاطعة عليهم في إجرامهم، ثم تأديبهم ووضع خطّة مدروسة ضدهم في عزلهم عن المجتمع أو قتلهم أينما وجدوا! (**وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**) ولن تتغير أو تتبدل أو تتحول سنة الله لكونها ثابتة على أساس متين، وجارية مع الأسباب المقتضية لمسبباتها الثابتة ودوام تأثيرها، وأيضاً لا يقدر أحد على تغييرها وتبديلها، لتجري فيكم كما جرت في الأمم قبلكم، والآية تسلية للنبي (ص) أي فلا تحزن على وجود المنافقين بينكم يامُحَمّد، فلم يخل منهم زمان ولا مكان، وسنة الله تتحرّك ضدّهم وتكشف خبثهم وفسادهم في كل زمان ومكان ولو بعد حين. **فائدة:** ١– بما أن سنة الله ثابتة وعادلة وتعمل بالحق ومبنية على الحكمة والمصلحة كقوله (**فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا**) فاطر/٤٣، فعلينا أن نتعرّف على قوانينها وخطة عملها ونسير بشكل متوازٍ معها حتى نكسب قوّتها وقدرتها وعدالتها، ولا نعمل على معارضتها ومخالفتها فتقهرنا وتقمعنا كقوله (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**) الأنعام/٦١ **والعلم بنظام هذه السنن فرع من فروع التوحيد** العملي الخالص لله تعالى.

٢– (**وسنة رسول الله (ص)**) طريقته التي أجراها بأمر الله وتسديده وعنايته فأضيفت إليه، ولا يقال سنّته إذا فعلها مرة أو مرتين، وإنما هي السنة الجارية الدائمة والطريقة المتبّعة، إنها سنة مستقيمة هادية منظّمة تمنحهم السّلامة النفسية والطمأنينة القلبية، وتكشف وحدة دعوة الأنبياء وانسجامها على نظام مشترك، مع العلم أن هناك تناسقاً مرتباً بين السنن والقوانين الكونية

العامة، مع السنن والقوانين الإنسانية واتّحادها وترابطها بتعدد أدوار ووحدة هدف واختلاف أساليب.

٦٣ – ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾

كان الناس يكثرون من الأسئلة للنبي عن الساعة وأهوالها التي حدثهم عنها طويلاً، ووصف القرآن مشاهدها المثيرة في سور متعددة، فقال (**يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ**) يسألك الناس يامُحَمّد عن يوم القيامة باستمرار متى يقع؟ وبدافع الإنكار والاستهزاء أو الاستعجال لها (**قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ) قل لهم**: لست أعرف وقتها، وإنما يعلم ذلك عَلّاُم الغُيُوب وحده وقد استأثر به لنفسه، ولم يطلع عليها ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً. وأن الله أخفاها لحكمة بالغة كقوله (**إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ**) لقمان/٣٤، فإن الموت الساعة الصغرى، عن النبي (ص) (**مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ**) روح البيان٣/٢٢، **وعنه (ص) (يُبْعَثُ الْمَرء عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ)** كنز العمال خبر٤٢٧٢٢ كقوله (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) الأنبياء/١ (**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا**) وما يعلمك يامُحَمّد لعلّ القيامة تكون في وقت قريب، ويوم القيامة كائن ومقدّر ولابد منه، وكل مقدّر كائن، وكل كائن آتٍ، وكل آتٍ قريب، وكل قريب كاد أن يكون، كقوله (**كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا**) النازعات/٤٦ وليعلموا أن النبي كغيره في عدم العلم بها، وليست الساعة من السرّ الذي أسرّه الله إليه وستره عن الناس، وعليه وجب أن يكون الناس مستعدين دائماً لقيام الساعة ويعدّوا لها عُدَّتها المناسبة، ويعملوا من أجلها كقوله (**مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ**) الروم/٤٤، فإنها تأتي بغتة وبلحظة من لحظات الليل أو النهار، وتلك هي فلسفة كونها خافية مجهولة، لئلا يتوهّم متوهّم أنه في مأمن منها.

كقوله (**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً**) الأعراف/١٨٧ **فائدة**: ١- **يوم القيامة**: من أصدق الحقائق، ومن أقوى البديهيّات، ويقرّه العقل المفكّر السليم، ويثبته الدليل، وينطق به الواقع، ويصدّقه العلم الحديث، وتؤيده النصوص الكثيرة من الأديان السماوية المختلفة من التوراة والإنجيل والقرآن والسنة الشريفة، ولا تنكره الحجج والبراهين حتى قيل (يَوْمُ القِيّامَة مِيزَانٌ دَقِيْقٌ: فَمَنْ وَفّى ، اسْتَوْفَى)، ٢–الساعة جزء من أجزاء الزمن، ويعبر بها عن يوم القيامة كقوله (**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) المطففين/٦، تشبيهاً بذلك لسرعة حسابها لقوله (**وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**)

الأنعام/٦٢، القيامة هي الخاتمة وفيها الجزاء والحساب، وإنما أُخفي وقت الساعة ليكون العبد مستعداً لها في كل وقت.

٣- **الدنيا لا تناقض الآخرة ولا تعارضها**، بل الدنيا مكمِّلة للآخرة وَحَلَقَةٌ أساسية من حلقاتها ولا انفصال بينهما، والدنيا ممر لمقر، وهي مزرعة الآخرة، والدنيا والآخرة حياتانناميتان متلاحمتان متلازمتان، فالخير في الدنيا خير في الآخرة، والشر في الدنيا شر في الآخرة على فاعله، والفرق بين الحياتين هو بنوعية الحياة وقيمتها وتركيزها وعمرها وكيفيتها، فالحياة في الدنيا دنيا الحياة، والحياة في الآخرة عليا الحياة كقوله (**وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى**) الضحى/٤ (ولاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ) لأن حياة الآخرة أرقى بالفعل والقوة من الحياة الدنيا، أرقى في كل شيء، أرقى في العمر والمدّة والامتداد، وأرقى في الوسائل والغايات، وفي الحاجات والمسؤوليات كقوله (**وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**) العنكبوت/٦٤، **والحيوان**: مبالغة حياة ومضاعفتها، الحياة الحيوية الحقيقية الإيجابية الدائمية المنعّمة والمرفّهة والسَّعيدة، حياة بلا سلبيّات ولا منغّصات ولا صعوبات، حياة خاصة للذين آمنوا وعملوا الصالحات، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البينة/٧.

٦٤ – ٦٥- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ، خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

(**إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ**) الّلعن من الله هو المقت والكراهية والإبعاد عن رحمة الله وترك رعايته للكافرين، نتيجة إصرارهم وعنادهم على كفرهم بربهم ورسله ورسالاته، وكفى بذلك عقاباً بطيئاً واستدراجاً إلى غضبه وأليم سخطه كقوله (**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ**) الحشر/١٩ (**فَأَنْسَاهُمْ**) مصلحة أنفسهم، وتركهم وشأنهم في ضلالهم يتحيّرون كقوله (**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) الأنعام/٤٣ (**وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا**) وهيأ لهم في الآخرة ناراً مستعرة ملتهبة شديدة فائرة وهي حاضرة وجاهزة لاستقبالهم، ٦٥- (**خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**) باقين في السَّعير إلى أبد الآبدين لا يعرف مداه إلاّ الله، ولا يخفف عنهم العذاب (**لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا**) وكيلاً يحميهم منها وينقذهم ويُخَلِّصَهُم (**وَلَا نَصِيرًا**) ولا شفيعاً يعينهم على الخلاص من عذابها، فهم مجردون من كل عون ومحرومون من كل نصير. **فائدة: الفرق بين الولي والنصير هنا،** هو أن (**وَلِيًّا**) الولّي يتولّى ويتكفّل القيام بكل الأعمال وتنفيذها، وأما (**نَصِيرًا**) فهو الذي يعين على الوصول إلى الهدف المطلوب.

٦٦ – ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾

التعبير القرآني البليغ يراد به تصوير التقليب وتجسيمه ليكون أكثر تأثيراً في النفوس، وتشخيص حركة العذاب وكيفيته ليصل إلى صفحات وجوه الكافرين يوم القيامة زيادة في نكالهم! نعوذ بالله من ذلك، **المعنى**: (**يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ**) يوم تتقلب وجوههم بسبب حرارة النار وهم أحياء كقوله (**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**) النساء/٥٦، تتقلّب من جهة إلى أخرى، ومن حال إلى حال، والنار تغطّيهم من كل جهة وتلفح وجوههم من كل صفحة، فتارة تَصْفَرّ وجوههم وتارة تسودُّ فتكون كالحة كئيبة مكسورة، للدلالة على الحسرة والندم والخيبة والخذلان، ثم ترجع كما كانت.. وهكذا، كما يفعل باللحم المشوي، أو كما تدور الحبة في الماء حين غليانه من جهة إلى أخرى، أو يطرحون في النار مهانين مقلوبين منكوسين على وجوههم، وهذا يدل على (**المعاد الجسماني**) وتخصيص تقليب الوجوه للتعبير عن كل الجسم، وَقَدَّمَ ذكر الوجه لأنه أشرف وأهم أجزاء البدن وأكرمها، وهكذا تكون (**العقوبة على قدر الجناية، والعذاب من جنس العمل، والنتائج على قدر المقدّمات**) وفي تلك الحال يتمنّون أن تعود بهم الأيام إلى الدنيا ليؤمنوا ويعملوا بالحق، حيث لا تجدي التمنيات ولا تنفع الندامة ومعاناة الحسرة، وأنّى لهم أن يصلحوا ما أفسدوا؟ لقد فات الأوان! وهكذا (الْذِيْ لاَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِيْ لاَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ) (**يَقُولُونَ**) متمنين ومتحسّرين ونادمين على ما فاتهم! وهي أمنية ضائعة لا موضع لها ولا استجابة بعد فوات الأوان (**يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا**) وهو طريق النجاة والأمان حتى لا نبتلى بهذا العذاب الأليم كقوله (رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ) الحجر/٢.

٦٧ – ٦٨ –﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾

في ذلك الوقت الحاسم والجزاء الجازم يُحسّون بالندم كقوله (**وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ**) يونس/٥٤، **عن النبي (ص)** (شرَّ الندامة، ندامة يوم القيامة) البحار٧٧/١١٥، ويجهرون بالنقمة ويلقون باللائمة على قادتهم الذين أضلّوهم وأفسدوا عليهم دينهم فأوردوهم موارد التهلكة، كما هي عادة المذنب يختلق المعاذير وهو يعلم أنه لا تجديه نفعاً، **المعنى**: (**وَقَالُوا**) معتذرين، وهو حكاية ناطقة بلسان حالهم لما سيقولونه يوم القيامة، وعبّر عنه بالفعل الماضي، لأن هذا القول واقع في علم الله القديم (**رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا**) قادتنا ورؤساءنا وأئمة الكفر والفساد، أصحاب الجاه والثراء والمواقع الاجتماعية السيادية الذين يملكون توجيه الإرادة الجماهيرية العامة (**وَكُبَرَاءَنَا**) وكبراء قومنا ووجهاءهم وأغنياءهم وأصحاب التأثير والسيطرة عليهم، والكبراء من الناحية المعنوية والمكانة الاجتماعية المؤثرة، وليس كبراء السن، وهم المنحرفون من رجال الدين والدنيا والسياسة،

فهم استغلوا جهلنا وضعفنا وكانوا يسيطرون على مقدراتنا ويمتلكون الضغط علينا فنخضع لضغوطهم، فاتبعناهم على ضلالهم وفسادهم بلا تفكير بالعواقب، وتلك حجة مردودة وغير معقولة، وعذر غير مقبول، وهكذا عاقبة الاتّباع الأعمى، لقد باعوا أنفسهم الغالية لساداتهم الظالمين بثمن بخس، وعطّلوا عقولهم وسلّموا زمام أمورهم لغيرهم، ولم يصغوا إلى القرآن الكريم وإلى السنة الشريفة، فجعلوا طاعة سادتهم محل طاعة الله، وطاعة كبرائهم مكان طاعة أنبيائهم.

ونلاحظ **أن الأمة الجاهلة يقودها الطغاة والعتاة في الغالب، أما أهل الوعي والعلم والإيمان فلا يقودهم إلاّ الصالحون (لن تكن أمة فاسدة وقائدها صالح، كما لا تكون أمة صالحة وقائدها فاسد)** فيكون الحاكم من جنس المحكوم، كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) الرعد/١١، **عن النبي (ص)** (كَيْفَمَا تَكُونُوا يُولَّ عَلَيْكُمْ) كنز العمال خبر١٤٩٧٩

(فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا)

فأضلونا بضلالهم عن سبيل الله فلم نرغب في طريق الهداية والرشاد، حيث سيطروا علينا بالكذب والخداع وبالأموال وَحُسن الحال والشهوات والمناصب، وبالقهر والغلبة، وشمخوا واستكبروا ونهبوا وسلبوا حقوق الناس باسم الدين والحقوق الشرعية، واتّبعناهم طمعاً بدنياهم بلا تفكير، ٦٨- **(رَبَّنَا آَتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ)** بعد اليأس من الاستجابة لهم وشدة الحسرة، أرادوا أن يشتفوا ممن أضلوهم، **وقالوا**: ربنا أنزل عذابهم ضعفي عذابنا، فالعذاب الأول لضلالهم لأنفسهم والثاني لضلالهم لنا ولغيرنا **(وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا)** والعنهم بأشد أنواع اللّعن والمقت والكره وأعظمه، فلا تشملهم رحمتك وأبعدهم عن رعايتك، إنهم لا يملكون أن ينتقموا لأنفسهم منهم بغير هذا الدعاء عليهم إلى الله أن يضاعف عليهم العذاب، فيأتي الجواب (قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ) الأعراف/٣٨ وقوله **(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ)** الفرقان/٢٧-٢٩، (اللَهُمْ أيقظْناْ مِنْ نَوْمَة الغَافِلينَ، فإنُهُ لَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنَّا) **في غرر الحكم** (احذروا الْغَفْلَةَ فإنها مِنْ فَسَادِ الْحِسِّ).

٦٩ – ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾

يُحذِّر الله تعالى الذين آمنوا من كل شيء يؤذي الرسول الكريم الهادي (ص) وأن لا يتشّبهوا بحال اليهود الذين آذوا موسى كليم الله، المنقذ لهم من ظلم فرعون فيملكوا حريتهم، فصاروا يثيرون المشاكل في طريقه فقال **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا)** يأيها الذين آمنوا والذين تظاهروا بالإيمان ولم يستذوقوا حلاوته لا تؤذوا مُحمّداً (ص) بقول يكرهه وبفعل لا يحبه، كما آذى بنو إسرائيل موسى، فإن حق النبي (ص) أن يُعظّم ويكّرم ويُطاع ويُحترم لا أن يؤذى، وطاعة النبي

(ص) غير مقرونة بالقناعة وإنما مقرونة بالتسليم، فإن سوء الظن بالنبي يفسد العلاقة معه، وهكذا يتعمم الأمر بعد النبي (ص) مع المؤمنين الذين ينبغي أن يكونوا (**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**) الفتح /٢٩، وليس العكس، في الحديث (**الْمُؤْمِنُ مَنْ آمَنَهُ النَّاس**) روح البيان٧ص٢٤٧ (**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاس مِنْ يَدِهِ وَلِسَانِهِ**) وقال النبي (ص) لأصحابه بعد فتح مكة (لا يبلغني أحَدٌ عَنْ أحَدٍ مِنْ أصْحَابِي شَيْئاً، فإنّي أحبُّ أن أخْرُجَ إليكُمْ وَأنا سَلِيمُ الصَدْرِ) المراغي٢٢ص٤٣.

(**كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى**) لم يحدد القرآن نوع الإيذاء لموسى، والذين آذوا موسى اليهود من بني إسرائيل، الذين قذفوا نبيهم المشفق عليهم موسى بالتُّهَمِ الكاذبة، وأشاعوا عليه الشائعات وخلقوا أمامه جَوّاً خبيثاً مشحوناً بالمؤامرات اللئيمة والدّس والنفاق، وإذاعة المنكرات عليه ليفتنوا الناس عن دينهم ويتفرّقوا عن نبيّهم! **وهكذا اللّئيم والأحمق إذا أخذ فوق مقداره، تَنَكّرَتْ أحْوالُهُ**، إنهم كالداء الخبيث إن لم يقتل صاحبه، يفسد عليه حياته وَيُنغّص معيشته، فاحذروا أيها المؤمنون أن يكون بينكم منافقون خطرون، إحذروا أن تتشبهوا بهم في تلك الصفات الممقوتة والمكروهة والسيئة، فالذي لا يُقَدِّرُ قائده الهادي فهو لا يُقَدِّرُ نفسه، في غرر الحكم (**رحِمَ اللهُ امرأً عَرَفَ قَدْرَهُ وَلَمْ يَتعَدَّ طَورَهُ**)، تشير الآية إلى أن بعض الصحابة كان يثير الأقاويل الباطلة والكاذبة على رسول الله مُحَّد (ص) وهو بَريء منها، ومُحَّد (ص) أفضل الرسل وأولاهم بتبرئة الله له والدفاع عنه.

روي: إنّ الرسول (ص) قَسَّمَ ذات يوم قسماً فقال له رجل: إنّ هذه القسمة ما أُريد بها وجه الله، فاحمّر وجهه وقال: (**رَّحْمَةُ اللهِ عَلَى مُوسَى فَقَدَ أُوذَيْ بِأَكْثَرِ مِنْ هذَا فَصبَرَ**) الكاشف٦ص٢٤٣، (**فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا**) فأظهر الله براءة موسى (ع) منها جميعاً وكانوا كاذبين فيما اتّهموه به (**وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا**) وكان موسى وجيهاً عند الله أي مقرباً ذا وجاهة ومكانة ومنزلة رفيعة عنده سبحانه كقوله (**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**) القمر/٥٥، لا يسأل شيئاً إلاّ أعطاه إياه كقوله (**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**) طه/٤١، لثباته في دعوته إلى الله مع شدة معاناته، وإخلاصه في الجهاد في سبيل الله، فهو من المخلصين ومن خواص المرسلين ومن أولي العزم كقوله (**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**) الأحقاف/٣٥، وكان نبينا مُحَّد وجيهاً عند الله في مقام محمود في الملأ الأعلى رفيع المنزلة بقوله (**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**) الطور/٤٨، **فائدة**: من كان عند الله وجيهاً ذا منزلة رفيعة، فيكون الله تعالى في نفسه أيضاً ذي منزلة جليلة يملأ كيانه، وَمَنْ كَانَ مَع اللهِ كَانَ اللهُ معه، ومن كان الله معه فمن عليه؟ ومن كان الله عليه فمن معه؟ ومن كان عند الله وجيهاً فيدافع الله عنه أمام من يؤذيه ويتّهمه بالأباطيل كقوله (**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**) الحج/٣٨ وقوله (**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**) الروم/٤٧، كما برأ الله تعالى

يوسف الصديق من تهمة امرأة العزيز الخطيرة عليه، وكذلك براءة الله سبحانه للسيدة العذراء مريم، حيث تكلّم وليدها عيسى (ع) في المهد ليثبت عِفَّتها (**كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ**) النحل/٣١، فمن كان شريفاً وعفيفاً ونظيفاً في نفسه، فإن الله تعالى يظهر وجاهته عنده وبين الناس ولو بعد حين، وإن سعى الواشون إلى اتّهامه وتشويه منزلته الشريفة بين الناس.

٧٠ – ٧١- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

أرشَدَ القرآن الكريم المؤمنين إلى صفات نموذجية لائقة بهم حَقّاً، إنها صفة التقوى والقول السديد المسَدّد المصيب للهدف المطلوب، وإحكام التعبير ودقة الكلام ولينه وفصاحته ولطفه، وجمال الحديث وبلاغته المملوء بالحكمة والموعظة والنصيحة، ويكون **القول السديد** في الزمان المناسب، وفي المكان المناسب، والإنسان المناسب أو المجتمع المناسب في ظروفه المناسبة، **والقول السديد** يتبعه العمل الرشيد، ويرعى الله تعالى المسدَّدين والمؤيَّدين ويصلح بالهم وأعمالهم وعاقبتهم، لأنهم عرفوا كيف ينتهون بسلامة، فعلموا كيف يبدؤون قولهم وفعلهم وتحرّكهم السديد منذ البداية، وهذه الصفات النموذجية المميزة هي سبيل المؤمنين حَقّاً وصدقاً وعدلاً كقوله (**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**) فاطر/١٠.

المعنى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ**) **التقوى:** من الاتّقاء والوقاية والحماية، فكلما أتّقي النار خوفاً من إحراقها، كذلك أتّقي الله وأخشاه وأطيعه ولا أعصيه لأنه أهل للطاعة وللعبادة، **والتقوى:** مَلَكَةٌ وقُدرة ناشئة من قوة الإيمان بمنهج الله، فيتسامى المؤمن بالتّمسك بطاعة الله فيكره الهبوط إلى مستوى أدنى في ارتكاب المعاصي وهذا هو الورع عن محارم الله **في غرر الحكم** (الوَرَعُ يُصْلِحُ الدّين، وَيَصُونُ النفس، ويزيّنُ المروّة) **والمروّة:** أقل منزلة من العدالة **وبالتقوى** إصلاح كل خطأ وكل عيب ونقص كقوله (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) الحجرات/١٣ وفي غرر الحكم (**بالتّقوى قُرِنَت العِصْمَةُ**) **والتقوى:** حسن عبادة وحسن معاملة، فهي تزكية باطنية للنفس من عيوبها ونواقصها، ورعاية حقوق الله بالالتزام بمنهجه، وحقوق الناس في العمل بخدمتهم وقضاء حوائجهم وعدم أذاهم واستثمار مواهبهم في نهضة حضارية مهمة، **والتقوى:** صيانة النفس وتزكيتها عن كل عيب، وصار (**القول السديد**) جاء القول السديد بعد التقوى لأنه أحد نتاجات التقوى، وخصصه بالذكر لكونه أعظم أركان التقوى كقوله (**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**) البقرة/٢٨٢ (**وَاتَّقُوا اللَّهَ**) في كل شيء وفي جميع أحوالكم ومعاملاتكم وأقوالكم

وأفعالكم، وفي سرّكم وعلانيتكم وفي الشدّة والرّخاء، **واتقوا الله** إلى الارتفاع إلى مرتبة (**القول السديد**) ولاسيّما باتّقاء الشبهات في الأقوال والأفعال، فإنها تقلق النفس وتنغّص العيش.

(**وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا**) **القول السديد**: من السداد والرشاد المفيد، هو القول المستقيم المحكم الفصيح البليغ الصادق الدقيق الموافق للصواب، والمصيب للحق والمطابق للواقع، والمؤثّر في النفوس والنافع للناس، وهو القول المرضي الواضح الصالح في ذاته والمصلح لغيره، والموافق الظاهر للباطن، قول نافع للفرد والمجتمع، ويعالج الشبهات والشكوك، ولا يكتم منافعه أو أي شيء منه ولو كان على نفسك!، **والقول السديد**: البعيد عن كل السلبيات والمملوء بالإيجابيات، والبعيد عن اللبس والملابسات والاشتباهات والغموض والغيبة والنميمة، ولا يوجد فيه خطأ وخلل وباطل وأذى، ولا يتخلله ضعف وضرر ولا يوجد فيه بساطة وسذاجة وإبهام، ولا لغو ولا لهو في مبناه ومعناه ومغزاه وفي ظاهره وباطنه، **وفي اللغة العربية القول السديد من قولهم**: سَدَّدَ سهمه إذا وَجَهَهُ للهدف المطلوب ولم يعدل عن غيره، **والقول السديد**: عنوان الشخصية الإيمانية الواعية الفاضلة، ومثال الشخص المتوازن الرشيد في كلامه وتصرفاته وفي نظراته، وبالنجاح في حياته، ويقوم إصلاح بين الناس، وإصلاح الخطأ في الرأي والموقف، وفي الدعوة إلى محاربة الفساد والظلم، وإقامة العدل من خلال وعيه لحركة الواقع.

٧١- (**يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ**)

جعل الله سبحانه القول السديد سبباً للأعمال الصالحة أو إصلاح الأعمال وترشيدها وتصويبها وتحسينها، حتى تستقيموا على الطريقة الصالحة الخالية من الخطأ والفساد. والله يرعى المسدّدين ويقود خطاهم ويصلح فكرهم ونفوسهم وأعمالهم كما أصلح أقوالهم ويقبلها منهم كقوله (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) المائدة/ ٢٧ (فَمَنْ اتَّقَىْ الله وَقَاهُ، وَمَنْ شَكَرَ الله جزاه ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ كَفَّاهُ، وَمَنْ نَسِيَّ اللهُ نَسّاهُ) من رحمته، (**وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**) وهذه نتيجة إصلاحه لنفوس وأخلاق وأعمال عباده، فإن **القول السديد** والكلمة الطيبة والأعمال الصالحة تعمل الندم على ما سبق من الذنوب، والندم والاستغفار توبة تُكَفّر الذنوب وتزيل الكروب وتشرح الصدور وترفع الحجب الظلمائية عن النفس بنور المغفرة الربانية كقوله (**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**) هود/١١٤، عن النبي (ص) (لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْد حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ) الأمثل١٣ص٣٧٦ (**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) فيما أمرا به ونهيا عنه (**فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا**) فقد أفلح فلاحاً كبيراً ونال غاية مطلوبة في الدنيا بالنجاح وحسن السيرة وحسن السمعة، وفي الآخرة بالنعيم المقيم ورضوان الله أكبر، فترتب الفلاح الكبير على مقدار

طاعة الله ورسوله، والطاعة الصادقة الواعية الخالصة هي بذاتها فوز عظيم، لأنها تحمل جزاءها في ذاتها، فهي استقامة على نهج الله الذي يبعث الاطمئنان.

٧٢ – ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾

(الآية من المتشابهات)

شرح المفردات: عرضنا: أظهرنا وكشفنا، **الأمانة**: هي (الأمانة الإلهية) الاختيار لدين الله **(الإسلام)** دون إجبار، والالتزام بمنهجه وتحمّل مسؤوليات الإعراض عنه، **وعرضُ الأمانة**: ظهورها ومعرفة حقيقتها ومقصدها ومسؤولياتها وما يترتب عليها، وإضافتها إلى نفسه سبحانه **(إِنَّا عَرَضْنَا)** لبيان فخامتها!! **(عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ)** وهي عوالم غير عاقلة وغير مميزة وغير حُرّة وغير مختارة، وإنما حَدَدَ لها الله سبحانه نظاماً محكماً دقيقاً وَقَيَّدَها به **(فَأَبَيْنَ)** فامتنعن **(أَنْ يَحْمِلْنَهَا)** عن قبولها والامتناع من حملها **(وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)** خُفْنَ من عواقبها! **المعنى العام**: **(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ...)** تصوير قرآني مُجسّم بعيد المدى جميل وبديع، وكناية بلاغية مجازية حسنة عن عظمة الأمانة، واستعارة تمثيلية تقريبية تشبيهية واسعة لتهويل مسؤولية **(الأمانة الإلهية)** ورعاية عهدها ووعدها، **إنه تعبير دقيق المبنى عميق المعنى واسع الدلالة**، إنه تشخيص عالي المضامين لمفهوم **(الدين الإسلامي الحنيف)** على أنه أمانة إلهية وقيمة كبرى في أعناق الناس، وأنه قيمة القيم ونعمة النعم وقمّة القمم، وهو الضرورة المنقذة لحياة الإنسان، من حيرة الضلالة ومن ظلمات الجهالة، بحيث لا حياة حقيقية إلاّ بالدّين، ولا خسارة كبرى إلاّ بتركه! **(والأمانة الإلهية)**

هي قابلية الالتزام بصدق بمنهج الله الخالص **(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)** الروم/٣٠، ليسير بالإنسان المكّرم نحو سُلّمْ التوازن والاعتدال والاستقامة والتكامل الإنساني بإرادته واختياره بالرغم من شدة الابتلاءات والصعوبات وكثرة المعاناة، وفي الاستقامة السّلامة والكرامة بلا أيّةِ ندامة ولا ملامة كقوله **(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)** النساء/١٢٥، فإنه يصل إلى مقام كريم ونموذجي وفريد، ويكون أفضل مخلوقات الله، لأنه أدّى الأمانة الإلهية باختياره واجتنب الخيانة بإرادته ونصح الأمة، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وهذه ميزة الإنسان المؤمن المتّقي الواعي المكّرم المحترم **(وَمَنْ اتّقى اللهُ وَقَاهُ)**، باعتبار دين الله (الإسلام) أمانة إلهية ثمينة، وعهد ثقيل في عنق الإنسان، ومن الإيمان حفظ الأمانة ورعايتها، ومن الوفاء حفظ العهد وحمايته كقوله **(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)** المؤمنون/٨، عن

النبي (ص) **(لاَ إيمَان لَمَنْ لاَ امَانَةَ لَهُ)** البحار١٩٨/٧٢، فالمؤمن يحرص على تزكية نفسه باختياره ليصدق مع نفسه ومع ربه ومع الناس في حمل الأمانة كقوله **(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)** الشمس/٩-١٠ في غرر الحكم (ذَرْوَةُ الْغَاْيَاْتِ لاَ يَنَاْلُهَاْ إِلاَّ ذَوُوُ التَّهْذِيْبِ وَالْمُجَاْهَدَاْتِ)، ومن أهمل تزكية نفسه ولم يحمل الأمانة الإلهية فقد خانها وأهان نفسه وأضلها ولم ينتفع بعقله كقوله **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ)** ق/٣٧. **وفي غرر الحكم** (مَنْ أَصْلَحَ نَفْسَهُ مَلَكَهَاْ وَمَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ أَهْلَكَهَاْ). **وبذلك تكون للأمانة الإلهية مراتب متعددة:**

١- معرفة الأمانة والوفاء بها للعوام، ٢- معرفة الأمانة والوفاء بها للخواص، ٣- معرفة الأمانة والوفاء بها لأخص الخواص. حتى يُقَيّم الإنسان نفسه بنفسه، وتكون سعادته بمقدار طاعته لربه ونفعه للناس، **في غرر الحكم** (خَيْرُ النّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ ، شَرُّ النّاسِ مَنْ أَضَرَّ بِالنَّاس). كقوله **(يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ)** النبأ/٤٠ وقوله **(وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)** الأعراف/١٢٩، **والأمانة:** كل ما يؤتمن عليه المرء من مال وأمر أو نهي أو سرّ في شؤون الدين والدنيا، والمراد بها هنا (التكاليف الدينية) وسمّيت أمانة لأن كل ما لدينا هو أمانة الله عندنا كقوله **(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ)** النحل/٥٣، **والأمانة الإلهية:** حقوق أوجبها الله على الإنسان المكلّف، وائتمنهم عليها وأمرهم بالالتزام بها وكأنها عهد يجب رعايته دون الإخلال بشيء منه، وهي كمال العبودية والإخلاص لله تعالى، بحيث يتولّى الله تعالى تدبير جميع أمور عبده بمقدار توكلِهِ عليه كقوله **(وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)** آل عمران/١٢٢، في غرر الحكم (حُسْنُ تَوَكُّلِ الْعَبْدِ عَلَى اللهِ عَلَى قَدَرِ ثِقَتِهِ بِهِ) فيعرض الله **(الأمانة)** على السماوات على سعتها، والأرض على صلابتها، والجبال الشاهقة على قُوَّتها **(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا)** فامتنعن منذ التكوين والنشأة الأولى عن حملها لثقلها وشدة مسؤوليتها **(وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)** وخِفْنَ من تبعاتها لعدم امتلاكهن الاستعداد الكافي الذي يُؤهِّلهن للقيام بها، ولا يحفظن حقّها وعهدها.

والأمانة الإلهية: هي تحمُّل تلك المسؤولية الكبيرة مع كامل الاختيار، وحرية الإرادة بالاستقامة عليها أو الإعراض عنها مع القدرة على المعصية!

كقوله (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) الإنسان/٣. **ومن أهم مصاديق معنى (الأمانة الإلهية)** هم حَمَلَتَها والأمناء الأوفياء الأكفّاء عليها بعد النبي (ص). عن الإمام الصادق (ع) في قوله **(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ...)** قال **(وُلَاَيَةُ عَلّي أميرُ الْمُؤْمنين)** بمعنى الإمامة ودورها المؤثّر في قيادة الأمة بعد النبي (ص) كقوله (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) الإسراء/٧١، **وعن النبي (ص)** (مَنْ مَاْتَ وَهْوَ لاَ يَعْرِفُ إِمَامُهُ، مَاْتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً) البحار٢٣ص٧٧، **والإمامة:** نظام الأمة، وحماية

الدين، وَوَحَدَةُ المسلمين، وعزُّ المؤمنين وقوتهم، عن النبي (ص) **(حُبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ نِظَامُ الدِّينِ)** البحار ١٨٣/٧٨.

وَعَرْضُ الأمانة مثل عَرْضُ الأسماء على الملائكة امتحاناً لهم أمام آدم، فلما ظهر عجزهم اعترفوا لأدم بما له من فضل استوجب سجودهم له، سجود طاعة لله لا سجود عبادة لآدم كقوله (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) البقرة/٣١ ثم قال **(عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ)** والمراد بعرض الأمانة الإلهية على الكون والكائنات الضَخْمَةُ عَرضَاً تقريبياً لفهم فخامة الأمانة في حركة الواقع، عَرْضَاً تصويرياً تجسيميّاً شفافاً نفاذاً وكأنها كائنات حَيَّة عاقلة مميزة حُرّة مدركة، مع حرية الاختيار وبدون إجبار وإكراه، عرضاً لمعرفة استعدادها لحمل ثقل هذه الأمانة الكبرى، كقوله **(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)** الحشر/٢١ **(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)** فامتنعن عن عجز وقصور لا عن عصيان، وكان إبائهن الإباء الطبيعي من دون تكلّف، وكان الإباء والامتناع من حمل الأمانة ناتجاً من عدم اللّياقة والاستعداد لحمل هذه الأمانة الإلهية الشريفة الثقيلة، وخفن من تَحَمُّل مسؤولياتها والنتائج الخطيرة المترتبة عليها، والعقوبة الملازمة لها عند الإعراض عن الأمانة.

ولسان حالها يقول: يارب خلقتنا ونحن مسخّرات بأمرك طائعات لنظامك، ونحبّ أن نبقى كما خلقتنا مسَخّرات لا مختارات!! لأنها تعرف قدرها ولا تتعدّى طورها، في غرر الحكم **(رَحِمَ اللهُ اِمْرأً عَرَفَ قَدْرَهُ وَلَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ)** فاختارت أن تكون مُسَيَّرة لا مخيّرة، ومقيّدة بنظام مقدّر لا أن تكون حُرّة مختارة، مطيعة لله ومسبحة له بطريقتها الخاصة المرسومة لها، كقوله (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) الإسراء/٤٤، وقوله **(فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)** فصلت/١١ وقوله **(كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)** النور/٤١، وكأن الله رَكَّبَ العقل والإحساس والحياة الواعية المميزة في الجمادات المذكورة عند عرض الأمانة عليها، كما رَكَّبَ العقل والإحساس في خطاب النملة والهدهد مع سليمان! تفسير روح البيان٧ص٢٥١، واختارت أن تكون مسيّرة بنظام الله المقدّر بها، وتطيع مباشرة وتلتزم مأمورة ولا تخرج عن هذا النظام، ورفضت أن تكون مخيرة ومختارة وتعمل بإرادتها ما تشاء، كما اختار الإنسان العاقل المكّرم لنفسه.

(وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ) إنما يكون الحمل بالهمة المعنوية لا بالقوة المادية **(والهِمَةُ عَلى قَدَرِ المُهِمَّة)** حَمَلَ الإنسان **(جنس الإنسان)** وأوله آدم، الأمانة الثقيلة، ومال إليها وَقَبِلَها وتحمّل مسؤولياتها وتبعاتها لشدة طموحه كخليفة الله على أرضه، وسعة آفاق تفكيره، مع ضعف جسمه وصغر حجمه ودقة مشاعره، تحمّل الإنسان الأمانة وهو الذي تؤلمهُ البقّة وتُخْنِقُه الشَّهْقَة وَتُنْتِنهُ العَرْقَة،

حمل الأمانة تكوينياً بما منحه الله من استعداد وصلاحية وحرية وعقل وإرادة وطموح للوفاء بها أو الإعراض عنها، وهذه حرية الاختيار ما تفقده كل الكائنات، في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْحُرِّيَّةِ أُهِّلَ لِلْعِتْقِ، وَمَنْ قَصَّرَ عَنْ أَحْكَامِ الْحُرِّيَّةِ أُعِيْدَ إِلَى الرِّقِ)!، قال **(وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)** باختياره، ولم يقل (وحملناها الإنسان) بالإكراه، للتنبيه إلى استعداده واقتداره على حملها إن أراد واستقام وصدق، فكان قليل من البشر المؤمن ممن وَفّى حَمل الأمانة وتحمّل مسؤولياتها وتبعاتها وكان نعم الخليفة على الأرض.

كقوله **(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)**آل عمران/١٠١، وكان الكثير من الناس ممن غفل وتغافل عن حمل الأمانة وأعرض عنها، وخان خلافة الله على أرضه وأهان كرامته التي كَرّمَهُ الله بها كقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) الانفطار/٦-٨، عن الإمام الهادي (ع) **(مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلاَ تَأْمَنُ شَرَّهَ)** تحف العقول ص٣٥٨، فلم يعرف قَدْرَهُ وَتعدّى طوره كقوله **(وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)** الأنعام/١١٠ حتى صار الإنسان **(ظَلُومًا جَهُولًا)** هذا الوصف المذموم السلبي ليس واقعاً على كل إنسان حَمَلَ الأمانة، وإنما هو واقع على من لم يراع العهد والخلافة، ومن خان الأمانة الإلهية وأعرض عنها كقوله (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) النحل/٣٦، كما خان الفاسق خلافته لله على أرضه كقوله **(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)** البقرة/٣٠ ومن جَهَلَ نفسه كان لغيره أجهل، في غرر الحكم **(كَفى بِالمَرءِ جَهْلاً أَنْ لا يَعْرِف قَدْرَهُ)** مع قصور علم الإنسان وقصور عمله، وقلة عمره وضخامة التبعة التي يحملها على عاتقه، ومع هذا الصراع المرير الذي يعاني منه دائماً كقوله **(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)** البلد/٤.

إذن: هي مخاطرة ومجازفة مريرة أن يَتَحَمَّل الإنسان هذه الأمانة الثقيلة وهو حُرّ مختار، بينما هذا الكون الكبير فَضَّلَ أن يطيع الله مباشرة بنظام مرسوم له مجبول عليه مُقّيد به، وأبى أن يكون حُرّاً مختاراً ومحاسباً على اختياره.

(إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا) الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، **ظلوماً**: مبالغة الظلم، أي كثير الظلم لنفسه ولغيره، بانحرافه عن خط الاستقامة وإعراضه عن الأمانة وعصيانه لربه، وغفل عن موقعه القيادي ودوره الفَعّال وتفضيله على كثير ممن خَلَقَ الله تفضيلاً **(ظَلُومًا)** معجباً بنفسه، وفخوراً بحاله، ومتجاوزاً لحدود الله، وغفلته عن عواقب الأمور كقوله **(وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)** الطلاق/١، فاستهان بالأمانة وعاش اللامبالاة بها ولم يراع حَقَّها، فصار **(ظَلُومًا جَهُولًا)** لطاقته بتحمل تبعات الأمانة الإلهية ونتائجها، واستحقاق العقاب على أية خيانة فيها **(جَهُولًا)** مبالغة الجهل ، أي كثير الجهل، خالياً من العلم والنباهة والمعرفة الدينية ومجازفاً بعاقبة أمره ولا يبالي بخاتمته **(والأمور بخواتمها)** وخير الحياة خيرها عاقبة، وَشَرّ الحياة شَرّها خاتمة، وفي غرر الحكم

(**مَكْرُوهٌ تُحْمَدُ عَاقِبَتُهُ خَيْرٌ مِنْ مَحْبُوبٍ تُذَمُ مَغَبَتَهُ (خاتمته)**) لأنه لم يفِ بحقوق الأمانة ولم يعرف قدرها، وغفل عن خطورة التهاون واللامبالاة بها والإعراض عنها. كقوله (**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**) طه/١١٥.

فائدة: ١- علاقة آية (**الْأَمَانَةَ**) بما قبلها وما بعدها، فكان قبلها يدعو إلى أنه لا يتمكن من حمل الأمانة الإلهية الثقيلة إلاّ اصحاب التقوى، والقول السديد والعمل الرشيد الصالح النافع للناس كقوله (**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**) المزمل/٥ وكان ما بعدها يدعو إلى التهديد والوعيد لمن أعرض وخان الأمانة وأهمل مسؤولياتها كقوله (**لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ..**)، ٢- عندما عاش الإنسان على الأرض كان بحاجة إلى قانون يتَّبِعَهُ وهو (**الإسلام**) بمعنى التسليم لمنهج الله، وهو أمانة الله في عنقه وحجة الله عليه كقوله (**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**) النساء/١٦٥، وليست (**السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ**) بحاجة إلى تلك الأمانة، لأنهم مقيّدون بنظام كوني دقيق يسيرون عليه، عندما عرض الله تعالى الإسلام عليهم وهو الأمانة الإلهية، ثم عرضه على الإنسان، **وكأنه قال له:** هل أنت آخذ بهذا المنهج المستقيم بما فيه، قال يا رب وما فيه؟ قال: إن أحسنت للناس فإنه لنفسك تحسن ثم تجزى الجزاء الأوفى، وإن أسأت وضللت فسوف تضل نفسك وتسيء لها وتعاقب على السيئات ثم تضل غيرك أيضاً. كقوله (**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**) الإسراء/٧ .

(**وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ**) فقبل الإنسان هذا المنهج بشرطه وشروطه، وأي تقصير عمدي وإعراض عن الوفاء بهذا المنهج يكون الإنسان (**ظَلُومًا جَهُولًا**) في طبعه وطبيعته ما لم يعصمه وازع وعاصم هو هذا المنهج الأمين الرباني القيّم. وهو (الإسلام) كقوله (**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**) آل عمران/١٩ وقوله (**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) آل عمران/٨٥، وفي نهج البلاغة خطبة١٩٨ (إِنَّ هذَا الأسْلاَمَ دِينُ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسهِ، وَاصْطَنَعَهُ عَلى عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ خِيْرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِه، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ وَهَدَمَ أَركانَ الضّلالة بِرُكنِهِ).

٧٣ – ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

هذا تعقيب وعلة ونتيجة نهائية لعرض هذه (**الأمانة**) وحمل الإنسان لها وعاقبة تلك الأمانة ورعاية عهدها والتي هي دين الله القيّم (الإسلام) ومقدار تفاعل الناس معه أو إعراضهم عنه، فيعذب من خانه ويثبت من صانه وحفظه واستقام عليه، إنما حَمَلَ الإنسان الأمانة الدينية الثقيلة وتحمّل وتبعات المسؤولية الخطيرة وهي حرية الاختيار، حتى يتحمّل مسؤولية اختياره وتبعاتها، وليكون جزاؤه من نفس عمله. هدف عرض الأمانة، كان الهدف النبيل الأساس من عرض الأمانة على الإنسان، أن يوضع كل البشر في بوتقة الاختبار، ليظهر كل إنسان باطنه ومعدنه

الأصيل، فينال من الثواب والعقاب جزاء ما يستحقه كقوله (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) آل عمران/١٧٩.

المعنى: (لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ) اللام هنا للعاقبة، أي كانت عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة الكبرى، حيث **انقسموا إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول (الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ)** سلك جماعة طريق النفاق، فقاموا بحمل أمانة الدين ظاهراً للناس ولم يحملوه باطناً ولم يعملوا لله تعالى، فظلموا أنفسهم عندما يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، **القسم الثاني (وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ)** سلك جماعة طريق الشرك وهو ترك أمانة الدين بالكامل فكان ظاهرهم وباطنهم على الكفر الصريح فظلموا أنفسهم أيضاً، وهم الخائنون للأمانة والمضيّعون لها، ليعذبهم الله بما يستحقونه، لأن جريمة الشرك لا يكفّرها شيء كقوله **(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)** الزمر/٦٥، **والقسم الثالث:** سلك جماعة الالتزام بمنهج أمانة دين الله والقيم والثبات عليه وهم أهل الإيمان والعمل الصالح **(وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)** أي يغفر لهم ويرحمهم ويحسن إليهم ويكون في عونهم، ويعود إليهم بالتوبة.

كقوله **(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى)** طه/٨٢، لأنهم حفظوا أمانة الله (الإسلام) كقوله **(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)** آل عمران/١٩، وقدّروها وتمسّكوا بها وقاموا بواجباتها وأخلصوا لله دينهم الحق كقوله **(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)** الزمر/٣ في غرر الحكم **(مَنْ رَغِبَ فِيْمَا عِنْدَ اللهِ أَخْلَصَ عَمَلَهُ)** وآمنوا بأن (الأمانة) حَقٌّ يجب أن تؤدّى وتحفظ وتصان في أنفسهم وفيمن حولهم وفي واقعهم العملي مع الناس، وتخلّصوا ما حصل منهم من تقصير، **ويقول أهل اللغة العربية:** إذا تعدّت التوبة بـ **(عَلَى) (وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)** بمعنى إرادة التوبة والمغفرة والرحمة لهم، ونلاحظ أن المؤمنين والمؤمنات في مرتبة التكريم سواء **(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا)** واسع المغفرة للمؤمنين الصالحين **(رَحِيمًا)** بهم حيث يدعمهم بالعلم النافع ويحلّيهم بالعمل الصالح ويكرمهم بأنواع الكفاءات والاختصاصات والكرامات النموذجية.

فائدة:

١- نلاحظ ابتدأت السورة بذم المنافقين والعلاقة معهم وعدم طاعتهم، وختمت ببيان سوء عاقبة المنافقين، **فَحَسُنَ سياقها البلاغي المتناسق في بدء السورة وختامها**، والتناسق الفني مع موضوعها واتّجاهها، ذلك التناسق المعجز الدال بذاته وبمحتواه على مصدر هذا الكتاب الحق المبين، وبهذا الإيقاع البليغ المؤثر الذي يصوّر جسامة التبعة وضخامة الأمانة، ويحددها بالإسلام **(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)** الروم/٣٠، ويحصرها بالاستقامة الدائمة على نهج الله كقوله **(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا**

رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) الأحقاف/١٣، ٢- **(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ)** على الإنسان ليظهر نفاق المنافقين وشرك المشركين والكافرين فيستحقون العذاب. ويظهر إيمان المؤمن فيستحق أن يرحمه الله ويكرمه ويرعاه، ويتوب عليه إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات.

وفي الختام نقول : قوله (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) الأنعام/١١٥.

تم بعون الله (وَعْيُ الْقُرْآنِ الْمُيَسَّر) لسورة الأحزاب، بقدري لا بقدرها، بجهد متواصل فلله المنّة، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات، بتاريخ ١٦/ ٣/ ٢٠١٩م الموافق ١٥/ ربيع الأول/ ١٤٤٠هـ، في العراق، الكاظمية، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السّور القرآنية إنه سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث القرآني: مكي قاسم البغدادي

ترتيبها ٣٤ — سُورَةُ سَبَإٍ — آياتها ٥٤

من مقاصد السورة

إنها مكية، تعنى بالعقيدة الإسلامية وتتناول أصول الدين، وإثبات وحدانية الله والنبوة والبعث والنشور، وأن الله خلق الخلق ودبر نظام الكون والكائنات بحكمته فهو الخالق المبدع العظيم الذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة، **وعالجت السورة إنكار المشركين للآخرة**، وتناولت قصص بعض الرسل كداود وسليمان وما سخر الله لهما من أنواع النعم والكرامات، وطرحت بعض شبهات المشركين حول الإسلام وفندتها، وأقامت الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته، وتشكل السورة برنامجاً تربوياً لمن يبحث عن الحق وحقيقة عالم الغيب، **سمّيت سورة (سبأ)** لأن الله تعالى ذكر فيها قصة سبأ، وهم ملوك اليمن، **فضلها**: عن الإمام الصادق (ع): **(من قرأ الحمدين جميعاً (سبأ وفاطر المتجاورتين) في ليلة لم يزل ليلته في حفظ الله وكلاءته، فإن قرأهما في نهاره لم يصبه في نهاره مكروه، وأعطي من خير الدنيا وخير الآخرة ما لم يخطر على قلبه)** مجمع البيان٨ص٣٧٥.

ملاحظة: هذا الفضل بشرطه وشروطه، والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ – ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾

افتتحت السورة (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) وهو ثمرة الإيمان والعلم بجلاله والإحساس بنعمته والاستغراق في رحمته وكرمه (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) من الله من ذاته لذاته، فهو سبحانه المستحق للحمد، وإن كان حمداً لذاته بذاته لكنه تعليم العباد كيف يحمدونه (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) على كل ما أعطى وقضى وأبلى وأحكم ونظّم وأنعم وانتقم (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) ليس من جهة التعبّد والخضوع والطاعة لله فحسب وإنما أيضاً من جهة السرور تقدير النعمة والتلذذ بالحمد، ولأنه سبحانه أهل للحمد، ولا يكون الحمد عليهم فيه تعب ولا مشقة، فأهل الجنة يلهمون الحمد كما يلهمون النَفَس الذي يتنفّسونه كل لحظة! كقوله (**وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) يونس/١٠ (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) الحمد الكامل والثناء الخالص لله المالك تعالى على كل صفاته وأعماله وأقواله، وعلى كل ما أنعم وخلق ووهب وأكرم وعلّم وأدّب.. (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) على أنظمته ومقاديره وتدابيره وهدايته ورعايته، (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) على كل نعمة، والحمد لله على كل حال و(**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) الذي لا يُحْمَدُ على مكروه سواه، وهناك خمس سور في القرآن تستفتح بـ (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) الذي له ما في الكون خلقاً وملكاً وتدبيراً وتصرفاً، والجميع تحت قهره وتصرفه كقوله (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**) الأعراف/٤٣، فله الحمد (في الدنيا) لكمال قدرته (وفي الآخرة) لواسع رحمته، وفي نهج البلاغة (**نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ، جَزِيلَ عَطَائِهِ وَتَظَاهَرَ نَعْمَائِهِ وَحُسْنِ بَلائِهِ**) وحمد نفسه سبحانه هنا على أن (**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**) مع الحمد صفة الملك، يملك وحده التصرف بما فيهما وما بينهما من مخلوقات وكائنات ونعم، ولا أحد يملك معه شيئاً إلاّ وهو مملوك خاضع له سبحانه. (**وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ**) وله الحمد الكامل وبالأخص في الآخرة، حيث يتجلّى عدله وإحسانه ورحمته بكل وضوح، مما لا يكون في الدنيا، حتى للذين كانوا يجحدونه في الدنيا، **لماذا الحمد في الآخرة؟** لأن النعم كلها في الدنيا والآخرة مختصة به عز وجل كقوله (**الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**) الحج/٥٦، ولكن خصّت الآخرة بالحمد تفضيلاً لها على الدنيا وما فيها، وحتى يخلص له الحمد والثناء في الآخرة، وإنما له الحمد في الدنيا والآخرة كقوله (**لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ**) القصص/٧٠، (**وَهُوَ الْحَكِيمُ**) الذي أحكم أمور الدين والدنيا والآخرة، ودبّرها حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة، (**الْخَبِيرُ**) بليغ الخبرة بخلقه، الذي يعلم بكل شيء علماً شاملاً يحيط بالأمور جميعاً بكافة جزئياتها وأسرارها وخفاياها فيسمى الخبير.

فائدة: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) تعريف بوجوب الشكر اللفظي على نعم الله الظاهرة والباطنة، والله محمود بذاته وبفعله ومشكور على نعمه، والله محمود بكل لسان لأنه أهل الحمد، المحمود ولو لم يقم بحمده أحد من البشر، وهو سبحانه محمود في كل هذا الوجود الذي يسبح بحمده، والمحمود من جميع الخلائق ولو شذ البشر المختار عن سائر خلائق الله.

درجات الحمد: (**الحمد القولي**) هو الثناء على الله الحق بوجوب الشكر له بما أثنى به على نفسه على لسان أنبيائه (**الحمد العملي**) هو الأعمال الصالحة النافعة للناس لوجه الله وطلب رضاه (**الحمد الحالي**) واقعه يكشف عنه قبل قوله، هو مجموعة العلوم والمعارف والإلهامات والتطوّرات المختلفة والأخلاق العالية (**الحمد عند المحنة**) الرضى عن الله فيما حكم به وقسم (**والحمد عند النعم**) شكرها وتقدير المنعم (**والحمد لله على كل حال**) خوفاً من زيادة المحنة (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) الذي جعل الحمد زينة لكل خطبة، وابتداء لكل مدحة، وفاتحة لكل ثناء (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره.

٢ – ﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** ﴾

تفصيل لبعض معلوماته وقدراته عز وجل، إنها صورة رائعة مُجسّمة متحركة واسعة المدى، تُحرّك المشاعر وتُحيي الضمائر، دالة على سعة خبرته وحكمته وعلمه بكل حركة من كل متحرك، إنها كلمات قصيرة المبنى عميقة المعنى واسعة الدلالة، لا يصمد أمامها التصوّر والخيال، ولو أن أهل الأرض جميعاً وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة مما تشير إليه الآية الكريمة، لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن علم ويقين! **المعنى**: (**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ**) يعلم الله سبحانه (**مَا يَلِجُ**) ما يدخل في جوف الأرض من أسرار كامنة من قطرات ماء واختباء حَيّات وحيوانات ودود وحشرات، وجذور وبذور نباتات وأجسام ميتة، ويعلم أنواع الكنوز والذهب ومخازن النفط والغاز، ويعلم ما يدخل في الحواس الخمس والأغذية الصالحة والفاسدة ومن حلال وحرام، وعلم الله في كل شيء محيط، وعين الله عليه ساهرة لا تنام (**وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا**) من أرزاق وخيرات وعيون مياه وآبار ونباتات وأنواع المعادن، وما يفور من بركان من غاز وحمم تتصاعد، وما يخرج من صفات بشرية متولدة منها أعمال صالحة وقبيحة (**وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ**) من مقدرات من رحمة أو عذاب ومن حَبّات الماء وأشعة شمس ومن شعاع منير من رحمة ومن شهاب ثاقب وملائكة ووحي وغيرها مما لا يحصيه إلاّ الله، وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور، وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر، وما ينزل من سماء قلب المؤمن من الفيوض الروحانية والإلهامات الربانية (**وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا**) وما يصعد فيها من أرواح الخلائق التي نعلمها ونجهلها وأنواع الدعوات والاستغاثات وأعمال العباد.. وغيرها، وما يصعد فيها من بخار ماء وطيور وملائكة، وما يصعد ويرتقي من أقمار اصطناعية فضائية ومكوكات اكتشاف لغزو الفضاء الخارجي، ومن أنواع المركبات والطائرات المتنوعة والصواريخ المختلفة .. وغيرها كقوله (**وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا**) الأنعام/٥٩ لا تخفى على الله خافية صغيرة ولا كبيرة مما يحصل في ملكه (**وَهُوَ الرَّحِيمُ**) الشفيق

بالمؤمنين برعاية خاصة، وبالعباد جميعاً رعاية عامة (**الْغَفُورُ**) عن ذنوب التائبين والعاصين فلا يعاجلهم بالعقوبة.

فائدة: ١- إنها آية واحدة قصيرة من القرآن الكريم توحي بأن هذا القرآن ليس من قول البشر، فمثل هذا الخاطر الكوني الدقيق العميق الرقيق الشامل لا يخطر على قلب البشر، ٢- قال (**وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا**) ولم يقل (إليها) يشير إلى أن الله تعالى إليه المنتهى وليس إلى السماء، ففي ذكر (**فِيهَا**) إعلام بنفوذ الأعمال فيها وصعودها منها، وأيضاً وما يعرج في سماء القلب من آثار الفجور والتقوى، وظلمة الضلالة ونور الهدى كقوله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) فاطر/١٠.

٣ - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

إنكار الآخرة ناشئ من عدم إدراك الكافرين لحكمة الله وتقديره، فحكمة الله لا تترك الناس سدى وعبثاً، يحسن منهم من يحسن، ويسيء منهم من يسيء، ثم لا يلقي المحسن جزاء إحسانه، ولا يلقي المسيء جزاء إساءته، وأن الله يستبقي الجزاء كلّه في الآخرة كقوله (**لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى**) طه/١٥، فكل من يدرك حكمة الله في خلقه، يدرك أن الآخرة حقيقة علمية ضرورية لتحقيق وعد الله (**إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**) الروم/٦٠، وتكون الحياة لغزاً مبهماً لولا أن تفتحها وتحلَّ رمزها (فلسفة المعاد الحتمية) إلى العالم الآخر الأبدي، ولكن الذين كفروا حجبوا أنفسهم عن تلك الحكمة فتاهوا في الحياة، **المعنى:** (**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ**) (**لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ**) أي لا تأتينا القيامة أبداً، ولن نبعث للحساب وليس هناك معاد ونشور للجزاء، لأننا سنتحوّل كلنا إلى تراب في الأرض ونرجع إلى أصلنا من تراب، ولا أحد يعلم أين ستتفرق ذرات أجسادنا، ثم لا أحد يستطيع أن يحصي كل أعمالنا الظاهرة والباطنة، ولذا فلن تأتي القيامة، ويجزمون على إنكارها وهم لا علم لهم بها، وإنكارهم لها لا ينفي حقيقتها، والله تعالى يؤكد مجيء الساعة، ويريد الكافرون أن يضيّقوا الحقيقة الكبرى المطلقة، حسب عقولهم الضيّقة المحدودة المادية، وكان فهمهم للحياة بصورة مادية قاصرة ومحدودة وجاهلة ومعاندة كقوله (**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**) الجاثية/٢٤، وقالوا: الحياة أرحام تدفع وقبور تبلع، وهذه الحالة الواقعية ليس بعدها حقيقة!

(**لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ**) وَعَبَّر القرآن عن القيامة بالساعة، تشبيهاً لها بالساعة، التي هي جزء من أجزاء الزمان لسرعة حسابها لقوله (**إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**) آل عمران/١٩٩، فيه دلالة أن الله يحاسب كل عمل بمجرد وقوعه في اللحظة بلا مهلة، إلاّ أن ظرف ظهوره هو ذلك اليوم الآخر

الحاسم، قل لهم يامُحَمَّد: برد مؤكد حاسم وجازم ويقسم (**قُلْ بَلَى وَرَبِّي**) نعم، وأقسم بالله العظيم ربي وخالقي (**لَتَأْتِيَنَّكُمْ**) لتجيئنكم القيامة، ونحن نؤمن بها وهي حقيقة لابد منها، وتفرض نفسها وإن أنكرها الجاهلون، وبها تظهر فلسفة الخلق (**لَتَأْتِيَنَّكُمْ**) اللام للعلة عقلاً، وللمصلحة والحكمة شرعاً وعلماً، مثلها (**قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ**) يونس/٥٣ وقوله (**قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ**) التغابن/٧، واستدل على ذلك بدليل وجداني، من أقرَّ به لزمه أن يصدق بالبعث على أنه ضرورة علمية عقائدية، وهو علمه تعالى الواسع الشامل فهو (**عَالِمِ الْغَيْبِ**) وهو كل ما غاب علمه عن المخلوقين وعن أبصارهم

(**وعالم الشهادة**) عالم الحضور والمشاهدة المادية.

(**لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ) لا يعزب:** لا يغيب عن علمه زنة ذرة أو جزء منها من هباء متناثر خفيف وصغير وطائر ولا يرى بالعين المجردة، **ومثقال الذرة:** أصغر ما يكون من الأجزاء (**فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ**) ولا وزن الذرة (**فِي السَّمَاوَاتِ**) في العالم العلوي (**وَلَا فِي الْأَرْضِ**) في العالم السفلي، وفي كل زمان ومكان (**وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ**) أي لا أصغر من الذرة ولا أكبر منها (**وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**) إلاّ ويعلمه الله تعالى ويحصيه، ولا يغيب عن علمه شيء إلاّ وهو مكتوب ومثبّت ومحفوظ عنده في كتاب مفصّل مبين أمين واضح وهو (**اللوح المحفوظ**)، الذي فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وكأنه فيلم مجسَّم واقعي ذو ثلاثة أبعاد بالصورة والصوت والنيّة، **والغرض من هذا البيان:** أن الله تعالى لا تخفى عليه ذرة في الكون، فكيف يخفى عليه أحوال البشر؟! والله يعلم الأموات وما يبقى من أجسادهم وهو القادر على أن يعيدهم يوم القيامة للحساب من باب أولى، وليس بعثهم أحياء من جديد بأعجب من هذا العلم الواسع المحيط الكامل كقوله (**ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**) البقرة/٢٨١.

فائدة: ١- عقيدة المعاد إلى يوم القيامة، مشكلة فلسفية كبيرة قديمة حديثة، كل من أنكر المعاد فقد أنكر وجود الله تعالى، والذي ينكر وجود الله يعني يؤمن بالصدفة، والذي يؤمن بالصدفة التي خلقت نظام الكون والكائنات البشرية العاقلة فلا عقل له، لأنه من يؤمن بالصدفة التي خلقت العقل وهي غير عاقلة، وفاقد الشيء لا يعطيه فقد آمن بالخرافة والعبث والفوضى وترك الناس سدى كقوله (**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**) المؤمنون/١١٥، قال لقمان لابنه (يابُنَي: إنْ تَكُ فِي شَكٍّ مِنَ المؤتِ فارْفَعَ عَنْ نَفْسِكَ النّوم وَلَنْ تسَتطيعَ ذلكَ، وَإن كَنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ البَعْثِ فَاْرفَعَ عَنْ نَفْسِكَ الانْتِباه وَلَنْ تَستطيع) البحار٧ص٤٢.

٢- **(تكذيب بيوم القيامة)** ليس ينقصه الدليل العلمي والبرهان الفكري والحجة القطعيّة، ولكن ينقصه الإنسان المتفّهم، والنفس المنفتحة والصدر الرَّحب والعقل الواعي المفكّر والقلب الذي يصغي وينتبه للقضايا المصيرية الكبرى! **حقاً**، إنه ينقصه الانتباه والاصغاء والانفتاح مع أهل العلم كقوله **(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)** النحل/٤٣، وبحاجة إلى المشاورة والنقاش العلمي والنقد البنّاء مع أصحاب العقول والاختصاص (وَمَنْ شَاْوَرَ أَصْحَاب العُقُول شَاْرَكَهَمْ عُقُولهمْ) لأن النفس المنغلقة على حبِّ الذات لا ترى الحقيقة، بل ترى ذاتها وحبها لنفسها، وترى الحقيقة من خلال حدود ذاتها، فتكون الحقيقة المطلقة في خدمة ذاتها المحدودة. بينما يريد الله تعالى تهذيب الإنسان لذاته كقوله **(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)** الشمس/٩-١٠، فتكون الذّات في خدمة الحقيقة الكبيرة فيؤمن بها كقوله **(لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فيه)** الأنعام/١٢ حيث لا يستقيم في عدله سبحانه أن يفلت المسيء المعتدي من العقاب، ويُحرم المحسن النافع للناس من الثواب.

٤ -٥- ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ، وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴾

وسيأتي الله بحقيقة القيامة لسببين: السبب الأول (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا) بصدق ووعي **(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)** بقولهم وفعلهم وقلوبهم ونفعوا الناس كلٌ بقدره ومقداره، إنما أثبت ذلك في اللوح المحفوظ ليكافئهم بما يستحقونه من الثواب على صالح أعمالهم بأحسن الجزاء **(لِيَجْزِيَ)** اللام لام العاقبة، أي أن عاقبة الإنسان في الدنيا هو المعاد إلى الآخرة للجزاء الأوفى كقوله **(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)** النجم/٣١، ولولا هذا الجزاء العادل في يوم القيامة لتحقق العبث والضلال والباطل في هذا الخلق العظيم، والله تعالى مُنَزّه عن العبث **(أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ)** لذنوبهم **(وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)** له معنى واسع الدلالة، أي نعم كثيرة حسنة في الجنة، تأتي من غير طلب، ورزق الله الكريم الهني المادي والمعنوي الذي لا حدود له، ولا تنغيص فيه ولا سلبيات ولا معاناة، ويحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية كقوله (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا) الفرقان/١٦، في غرر الحكم **(مَنْ بَاعَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ الجَنَّةِ فَقَدْ عَظُمْتَ عَلَيهِ المِحْنَةَ)** عن ابن عباس **(لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الآخِرَةِ إلاَّ الأَسْمَاْءُ)** المراغي٣٠ص١٣٥، **والسبب الثاني**: للقيامة ٥- **(وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ)**

(سَعَوْا) من السعي، وهو المشي السريع دون الركض، وهو كل عمل فيه بذل طاقة كثيرة وجهد وجد وقصد وهدف خيراً كان أو شراً، **معاجزين**: مسابقين، يقال: عاجزه أي سابقه ليظهر عجزه، أي ظانين أنهم يعجزوننا عن إحصاء أعمالهم، ويفوتونا فلا نقدر عليهم في محاسبتهم

ويغلبون إرادتنا ويخرجون عن سيطرتنا (**مُعَاجِزِينَ**) مصطلح قرآني يستخدمه في المجرمين الذين يتصوّرون أنهم يستطيعوا الفرار من علم الله وقدرته وقبضته، أنهم عملوا بكل وسيلة وبذلوا جهدهم للصدّ عن آيات الله، وأن يظهروا أنبياء الله بمظهر العاجزين عن إثبات الحق، وأنهم جَدّوا وصمموا لإبطال (**آيَاتِنَا**) في القرآن من أجل أن يغلبوا رسولنا ويظنون أنهم يعجزونه بما يثيرونه من شبهات حول نبوته (ص) ورسالته كقوله (**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**) العنكبوت/٤ (**أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ**) فهؤلاء المجرمون لهم عذاب خاص من أسوأ العذاب (**مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ**) **الرجز**: أسوأ العذاب وأشنعه، العذاب المؤلم المادي والمعنوي، وأكثرها إيلاماً للجسد والروح، ويكون موقفهم ذليل ومخز ومهين، وهكذا تكون (**العقوبة على قدر الجناية، والجزاء من جنس العمل، والنتائج على قدر المقدمات**) كقوله (**وَالرُّجْزَ فَاهْجُر**) المدثر/٥، وسمى هذا العذاب (**رجزاً**) لأنه تؤدي إلى العذاب الأليم، وكذا سمى كيد الشيطان رجزاً كقوله (وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ) الأنفال/١١، لأنه سبب للعذاب.

٦ –٧– ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾

يقول الكافرون بالآخرة (**لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ**) ٣، وينكرونها جهلاً، فهم يُضيّقون حقيقة المعاد وفلسفته الكبرى وينكرونها حسب فكرهم المحدود وتَصوّرهم الضيّق، **بينما أهل العلم** الذين يرتفعون إلى مستوى معرفة الحقيقة ويؤمنون بالمعاد بصدق، حسب فكرهم الواسع وعقلهم الكبير والحجج القطعية، **ومن علامات العلماء**: أنهم ورثة الأنبياء، وخلفاء الرسل، وأمناء على الرسالة، والمجاهدين في سبيل نصرتها كقوله (**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**) فاطر/٢٨، وهم يعلمون أن هذا القرآن هو المنهج المستقيم وهو سبيل النجاة، الذي اختاره الله دستور لينسّق خطاهم مع نظام هذا الكون وما فيه ومن فيه!، **ومن علامات العلم الصحيح**: إنه يفتح آفاق العقل ويوسّع مدارك الفهم والفكر ويثبّت الوعي ويزيد من القناعة.

المعنى: (**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**) ويرى العلماء بدين الله والأمناء على الإسلام، من المسلمين المنصفين ومن أهل الكتاب الصادقين، ومن جاء بعدهم من العلماء والمجتهدين والباحثين عن الحقيقة في كل زمان ومكان، هم الذين يعلمون حق اليقين ويشهدون أن هذا القرآن (**الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ**) المخبر عن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور وإليه النشور كقوله (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) الجاثية/٢١ (**هُوَ الْحَقَّ**) وصادر بالحق ومن الحق وإلى الحق ويعمل بالحق ويهدي للحق، لذلك (**الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**) يتدبرون القرآن ويتفكّرون فيه

ويستدلون فيه أنه حق وصدق، وكتاب الله العزيز الذي يهدي للتي هي أقوم في جميع تعاليمه كقوله (**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**) النساء/٨٢، وأيضاً يرون القرآن (**وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ**) ويرشد من تمسّك به إلى طريق الله الحق (**الْعَزِيزِ**) المستقيم الغالب الذي لا يُقْهَرُ ولا يُغْلَبُ كقوله (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**) الأنعام/١٨.

(**الْحَمِيدِ**) المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله ومخلوقاته وفي جميع شؤونه، **المحمود** على جميل أفعاله لأنه عز وجل لا يفعل مع عزّته ورحمته إلاّ الجميل الجليل، ثم ذكر الله تعالى أساليب الكافرين في الصد عن دين الله ومقاومته، والسخرية برسول الله فقال ٧- (**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا**) بعضهم لبعض وهم يستهزئون بالمعاد ويشهّرون بالنبي، قالوا: أيها الناس (**هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ**) هل نرشدكم إلى رجل عجيب غريب وهو محمّد (ص)، ونكّروا اسمه مع أن اسمه مشهور عندهم بالصادق الأمين، ولكن بطريق الاستهزاء، ونلاحظ إلى هذا الحد من الاستغراب والدهشة كانوا يقابلون قضية البعث والنشور، وفي أسلوب تهجمي حاد من التشهير والإنكار (**يُنَبِّئُكُمْ**) بخبر وينطق بقول مستنكر بعيد عن الفهم يقول (**إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ**) إنكم إذا مزّقتم أي تمزّقت أجسادكم وتفرّقت أعضاؤهم في الأرض، وتصبحون تراباً وتختلطون مع ذرات التراب (**إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**)؟ إنكم ستخلقون خلقاً من جديد بعد الموت، وبعد ذلك التمزيق والتفريق؟ وستعودون وتبعثون بشراً سوّياً بالمعاد الجسماني والروحاني للجزاء والحساب؟! وهو كمثل إحياء الأرض بعد موتها كقوله (**وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ**) الروم/١٩، وهم يستبعدون المعاد لا لشيء إلاّ لجهلهم وشعورهم المحدود والمقيّد بحدود المادة، ومن أكبر الخطأ أن أتعامل مع الحقائق الكبرى المصيرية بسذاجة!.

فائدة: ١-(**وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**) إنهم يرون أنه متى صحَّ علمهم وصدقوا مع أنفسهم ونفعوا الناس واستقاموا على منهج الله، يستحقوا أن يوصفوا بأنهم (**أُوتُوا الْعِلْمَ**) والعلم أفضل هداية وأنفع دراية وأشرف فضيلة.

كقوله (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) المجادلة/١١ وقدم الله التقوى على العلم بقوله (**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**) البقرة/٢٨٢، لأن التقوى ضابطة العلم وتعطيه توازنه وجماله، **يقول العلماء**: من العجب أن تستنكر النشأة الأخرى وأنت ترى النشأة الأولى، وأن أحد النشأتين تصب في النشأة الأخرى، ومن يستغرب النشأة الأخرى فإنه يجهل النشأة الأولى، والذي يجهل قدرة الله في إعادة أجزاء الإنسان المتفرقة، كيف لا يجهل تكوينه الأول أنه من ماء مهين؟ وأصله من التراب، وبالتالي فإنه يجهل نفسه، ومن جهل نفسه فقد جهل ربه، وكان لغيره أجهل، في غرر الحكم (**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**) (**معرفة الله أعلى**

المعارف) ولكنهم صاروا بجهلهم في ضلال بعيد وفي ضياع مستمر كقوله **(إِنِّيَ أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)** هود/٤٦، ٢- ما من عالم منصف مسلماً كان أم غير مسلم، يدرس القرآن دراسة علمية واقعية كفوءة ونزيهة، إلاّ وينتهي إلى أنه حق وصدق ويهدي للتي هي أقوم، ويدفع إلى حياة أفضل.

كقوله **(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ)** فصلت/٤٤ وما عثر العلماء على شيء في القرآن يصطدم ويتعارض مع العلم الحديث، قال لوازون العالم الفرنسي: **(خَلَّفَ مُحَمَّدٌ كتاباً آيةً في البَلاغَةِ وَسِجِّلاً في الأخْلاقِ، وَلَيسَ بينه وَبيْنَ المَسائِلِ العِلْميّة المُكْتَشَفَةُ حَدِيْثاً أيّ تَعْارُض)** جريدة أخبار اليوم المصرية سنة١٩٧٢، ٣- **(وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)** ويهدي القرآن إلى تصحيح منهج التفكير، وإقامته على أسس علمية إيمانية سليمة، مُتّفِقَة مع الإيقاعات والقوانين التنظيمية في الكون، والمتناسقة مع الفطرة البشرية ويتجاوب مع خدمة الناس، فيكون القرآن الكريم هو الفرقان الذي يفرق ويميز بين الحق والباطل، والصح والخطأ كقوله **(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)** الفرقان/١ وهو الدليل إلى هذا الصراط الحق، الدليل العليم الذي وضعه خالق الإنسان وخالق الصراط بالحق. كقوله (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ) الأنعام/١٥٥.

٨ -٩- ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ، أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾

ويمضون في العجب من الحق، والتعجّب من حقيقة المعاد مع الاستنكار والتشهير **(والإنسانُ صَدِيْقُهُ عَقْلُه وَعَدُوُهُ جَهْلُهُ)** هؤلاء المكذبون بالآخرة فهم يكذبون على أنفسهم أولاً قبل أن يكذبون بهذه الحقيقة الكبرى كقوله **(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)** النجم/٢٣ والظن أكذب الحديث، أنه سبحانه يوقظهم بعنف، ويزلزل مشاعرهم بعرض مشهد كوني انتقامي فيه تحذير من خسف وكسف ونكس واضطراب عنيف، يُصوّره لهم كأنه حقيقة حَيَّة واقعة بهم، في هذه الصورة المتحرّكة آية مؤثرة في القلب الذي يريد أن يرجع إلى الله وينيب إليه، **المعنى (أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) الافتراء:** اختلاق الكذب متعمداً بطرق فنية متعددة، حيث يزعم مُحَمَّد ويؤكد ويكّذب على الله بقوله: إنا سنبعث بعد الموت، عن النبي (ص) **(مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ)** روح البيان٣/٢٢، **وعنه (ص) (يُبْعَثُ المَرْء عَلَى مَا مَاتَ عَلَيِهِ)**كنز العمال خبر٤٢٧٢٢ **(أَمْ بِهِ جِنَّةٌ)** أم به نوع من الجنون، فإن الجنون فنون، كل هذا منهم على وجه العناد، ولقد علموا أنه (ص) أصدق الناس وأعقلهم، ولولا عنادكم وظلمكم لقبلتم دعوته

ولكن قوله (وَمَا تُغْنِي الْآَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) يونس/١٠١، كلا ليس قوله بالمعاد افتراء على الله ولابه جنون!

(بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ) **(بَلِ)** للإضراب، أي ليس الأمر كما يقولون، بل هؤلاء المنكرون للمعاد لا يصدّقون بالآخرة **(فِي الْعَذَابِ)** مستقرون، في عذاب نفسي متصاعد في الدنيا، كما يعيشون في ضلال بعيد، عذاب الضياع والتيه والكآبة النفسية، إنها حقيقة عميقة يكشف عنها القرآن الكريم في عدة آيات، فالذي يعيش بلا عقيدة في الآخرة فإنه يعيش في عذاب نفسي متنام متصاعد، كقوله **(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)** الجن/١٧، وقوله **(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)** طه/١٢٤، إنّ الاعتقاد اليقيني بالآخرة رحمة ونعمة واطمئنان يهبها الله لمن يستحقّها من عباده، عند إخلاص القلب وتحرّي الحق وحبّ الاستقامة والرغبة في الهداية. **(وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)** فهم واقعون في ضلال بعيد عن الحق في الدنيا، وهم لا يشعرون ضلالهم في الأهداف السامية والوسائل الشريفة، **في نهج البلاغة خطبة١٥٤** (العامل بَغَيْرِ علم كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الصَّحيْح لاَ تَزِيْدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إِلاَّ بُعْدَاً عَنْ الصَّوَاْبِ) (وَالْذِيْ لاَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِيْ لاَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ)!.

وذلك غاية الجنون والحماقة، وليس لهم استعداد أن يفهموا الحق ويؤمنوا به، ويعرفوا الحقيقة ويصغوا لها، وأي عناء وضَلال أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على المعاد، وتكذيبهم لرسوله واستهزائهم برسالته القيّمة. طبيعة الكافر يُضَيِّق حقيقة المعاد الكبرى ويكفر بها، فيحجمّها ضمن حدود فكره، ويحصرها على مستوى عقله المحدود الضيّق، وتبقى الحقيقة هي الحقيقة المؤثّرة المتألّقة الدامغة التي تفرض نفسها بقوة حجيّتها على العقول، وإن جهلها الجاهلون وكفر بها الملحدون فهم **(فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ)**وقدم العذاب على الضلال، مع أن العذاب الذي سينالهم هو من ثمرة ضلالهم وضياعهم، وقدم العذاب استعجالاً لما يسوؤهم، واستحضاراً للبلاء الذي ظنّوا أنهم في مأمن منه، وعقّب الله سبحانه على أقوالهم تلك ونكرانهم البعث بالتهديد المخيف والوعيد الرهيب فقال ٩- ويلهم **(أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)** **اَفَلَمْ يَرَوْا:** أفلم ينظروا نظرة علمية ويتفكّروا ويتدبّروا **(إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ)** ما هو محيط بهم من جميع جوانبهم من السماء العليا في ارتفاعها واتّساعها، والأرض السفلى في انخفاضها وطولها وعرضها، وهما طائعتان لله ؟ فإن الإنسان أينما توجّه وحيثما نظر رأى السماء والأرض أمامه وخلفه وعن يمينه وشماله وهما يدلاّن على وحدة الصانع وقدرته كقوله **(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)** النمل/٨٨، فهو أيضاً القادر على إعادة الأجسام الفانية من أصلها أينما كانت.

(فإنَ الطَّاقَةَ لا تَفْنَى وَلا تُسْتَحْدَثُ) فإذا تفكّروا بعلم لروأوا عظمة الله ناطقة فيهما ما يبهر العقول، وأن خلقهما وعظمتهما أعظم من إعادة الناس بعد موتهم من قبورهم، فما الحاصل لهم من فائدة على ذلك التكذيب مع التصديق بما هو أكبر منه؟ أفلم ينظروا نظرة علمية أن الله قادر على المعاد كقدرته على إيجاد الكون والكائنات؟ فاحذروا إصراركم على تكذيبكم للحق، وفسادكم في البلاد والعباد، فنعاقبكم أشدّ العقوبة، والعقوبة على قدر الذنب، يقول الإمام الحسين (ع) في دعاء عرفة:

(إلهَيْ: مَاذَا وُجِدَ مَنْ فَقَدَكَ، وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وُجِدَكَ، لَقَدَ خَابَ مَنْ رَضِيّ دُونَكَ بَدَلاً وَلقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مُتَحَوَّلاً) (إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ) إن نشأ نزلزل الأرض ونخسفها بهم فتبلعهم ونهلكهم، كما خسفنا بقارون الطاغية وأمواله في الأرض، إنّ الله سبحانه يمهل الكافر ولا يهمله، فتارة يبتليه، وتارة يحذّره، وتارة يهدده ويعاقبه ويمرضه لعله ينيب ويرجع إلى ربه ويهتدي بهداه كقوله (اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) الشورى/١٣ **(أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ)** أو تسقط عليهم **(كِسَفًا)** قطعاً من الحجارة الْمعَلَّمة المنتقمة من سجيل فتهلكهم، كما أسقطنا على قوم لوط، وكل عاقل يدرك إمكان حصول مثل هذه الأمور أو ما يشابهها في أي وقت وفي أي مكان، فإنا إن نشأ نفعل أي عذاب بهم لفعلنا، ولكنا نؤخره لحلمنا وعفونا كقوله **(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)** النحل/٦١، وقوله (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) الأعراف/٩٩، فمن أين لهم المهرب؟ **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً)** إن فيما يشاهدونه من آيات القدرة الإلهية المنتشرة في الآفاق وفي أنفسهم الدالة على وحدانية الله لعبرة وافية وحجة كافية **(لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)** عبد تائب راجع إلى ربه بعقله، متأمّل فيما يرى ويتدبّر في مخلوقاته لبيان قدرة الله، فيجزم بأن الله قادر على البعث، **فكلما كان العبد أعظم إنابة ورجوعاً إلى الله، كان انتفاعه بالآيات أعظم،** لأن العبد المنيب مقبل على ربه قد توجّهت إرادته لربه ورجع إليه بقلبه، في كل أمر فصار قريباً من ربه يسعى لمرضاته، فيكون نظره للكون والكائنات نظرةً علميةً متدبرة ومعتبرة، لا نظرة غفلة وجهل وسهو ولهو. **والعبد المنيب:** هو كل ذي لب وعقل وبصيرة وقلب سليم، إذا فكر وأمعن التدبّر في قدرة الله في كل شيء، ينتهي حتماً إلى الإيمان بالله وبالمعاد وإمكان البعث والنشور، وبالمعاد تتحقق فلسفة الحياة وقيمة الوجود، وبالمعاد تظهر حقيقة الجزاء والحساب والعقاب، وتبقى الحياة والكون والكائنات لغزٌ مُبْهَمٌ لا يحلّه إلاّ الإيمان بالله واليوم الآخر.

١٠ – ١١ – ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ، أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ثم ذكر الله تعالى قصة عبدنا ورسولنا داود (ع) وهو عبد صالح منيب راجع لله، وما خَصّه الله به من الفضل العظيم، **والفضل**: عطاء بكرم فوق الاستحقاق، ويعرض القرآن صوراً نموذجية مميزة من هذا الفضل من تسخير الله لمن يشاء من عباده، إنها أنظمة جديدة وسنن ومقادير مفيدة لا تسخّر عادة للبشر، ولكن قدرة الله لا يُقيّدها مألوف البشر فهو سبحانه **(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)** البروج/١٦، **المعنى**: **(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا) فضلاً**: له معنى واسع من العطاء الكريم يشمل كل المواهب والامتيازات والخبرات والكفاءات، **والفضل** عطيّة عظيمة واسعة، وكرامة عجيبة غريبة ماديّة ومعنوية لا تقدّر بثمن، وهذا الفضل هو إحسان الله إليه كقوله **(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)** القصص/٧٧ وكلمة **(فَضْلًا)** جاءت نكرة لسعة مبناها وعمق معناها، ودلَّ على عظمة ذلك الفضل وتلك المواهب النادرة كقوله **(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ)** النمل/١٥، إضافة إلى النبوة وإعطائه كتاب الزبور، والملك وفصل الخطاب، والصوت الخاشع الجميل الشفاف النفّاذ في المشاعر بلا استئذان، وهو صوت حسن مميز خارق في الجاذبية والتأثير والجمال والجلال والكمال، وتسخير الجبال معه والطير، وإلانة الحديد وتعليمه صناعة الدروع الفنيّة عالية الدقة والحداثة.. وغيرها، إنّ هذا الفضل لم يكنْ لأحد قبله ولا بعده إلّا ابنه سليمان (ع) وإن هذا الفضل يكون منهضاً ومشجعاً له ولغيره على التسبيح والذكر، إذ أخبرنا الله أن هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب وتنسّق معه بتسبيح ربها، كان ذلك مما يشجّع على ذكر الله تعالى كقوله **(إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ)** ص/١٨، ومن هذا الفضل إننا قلنا **(يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ)** ياجبال وياطيور **(أَوِّبِي)** سبّحي وردّدي معه التسبيح والذكر إذا سبّح ودعا الدعاء الخاشع المؤثّر الجميل، ويحصل في مناجاته لربه فَتُحلّق روحه الشفافة إلى الملأ الأعلى، كأنما الكون والكائنات تتفاعل معه وتتأثر به، وكان يرتّل (**بهذا الصوت الجميل الرقيق الحنون الجذّاب الأخّاذ النفّاذ المحّرك للمشاعر، والمحيي للضمائر**) مقاطع من كتابه الذي يُسمّى زبور داود (ع) كقوله **(وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا)** الإسراء/٥٥، وقوله **(وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ)** النمل/١٦، وهي تسابيح صادقة مغذّية للروح، ودعوات دينية مربيّة خاشعة مزكيّة للنفس، ومؤدبة لعاداتها وسائرة بها نحو الكمال الإنساني.

تصور الآية من فضل الله على داود بصورة عميقة الدلالة، وكأنها تغوص في أعماق النفوس وتحّرك المشاعر وتكشف عن أسرار المخلوقات، وأنه قد بلغ حنان صوته وَحُسْنَهُ وجماله وشدة نقاوته وخشوعه وخضوعه لربه، ومن الشفّافية والنفوذ في النفوس والإخلاص والانقطاع لله في تسبيحه والمعاني الجليلة التي يتلوها، أن انزاحت الحجب بينه وبين الكائنات،

فاتصلت السنن الكونية مع السنن البشرية بعلاقة معنوية مشتركة مباشرة واحدة موحّدة متّحدة في تسبيح جماعي خاشع متناسق مشترك مباشر لله تعالى، **تسبيحاً نموذجياً مميزاً ما يفوق به كل شيء،** فتمتزج رقّة صوته بحلاوة كلماته وجمال معانيه وأصداء نغماته ولحنه وشفافية نفسه وطهارة روحه، ليمتزجا معاً بالحبّ الإلهي الجليل مع قلبه السليم المطمئن من دون تكلّف ولا تعقيد، وَرَدَّدَتْ معه الجبال والطيور تسبيحه وتمجيده ومناجاته لخالقه، فأتصل تسبيحه مع تسبيحها، وحركة كل شيء تسبيح لله عز وجل، ولكن كل واحد يُسبحه بطريقته الخاصة لا نفهمها كقوله (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**) الإسراء/٤٤.

فلم يعد بين وجود داود (ع) ووجودها أي فاصل ولا حاجز، حتى اتّصلت كلها بالله عز وجل بتنسيق عبادي جماعي معنوي خاشع متألق مباشر مشترك، تنزاح معها الفوارق بين نوع من خلق الله ونوع، فإذا هي كُلُها تتجاوب في تسبيحها للخالق، وتتلاقى في نعمة واحدة ونغمة مشتركة ناعمة رقيقة محّركة لكل ساكن!

حقاً إنها صورة عجيبة فنيّة متحرّكة مع المشاعر والضمائر، صورة عالية المضامين من ثلاثة أبعاد (صورة وصوت ونية) فتصبح لوحة نموذجية مميّزة نَفّاذة تفوق الوصف، وأسمى من الكلمات، وأرقى من أبلغ العبارات وتبقى الصورة حيّة مُحرّكة للضمائر وهي أصدق أن تتحدث عن نفسها بنفسها كقوله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) فاطر/١٠ وهي درجة من الإشراق الروحي والصفاء النفسي وسلامة القلب، وتمام الانقطاع والتجرّد الكامل والانقطاع من كل ما يشدّه إلى جاذبية الأرض، ونزل تسبيح الجبال والطير بمنزلة العقلاء الأحياء المدركين للمعاني! لأن الجميع صار يسبّح تسبيحة مشتركة واحدة موحّدة متّحدة لله تعالى، ولو كان تعدد أشكال التسبيح ولكن مضمونه واحد! **إنها حالة نموذجية مميزة متألقة لا يبلغها أحد إلاّ بفضل من الله،** إنها لقطات تربوية فريدة ومناجاة عبادية عالية المضامين، في تهذيب حركات النفس وتزكيتها، وإنها لحظات عجيبة لا يمكن وصف لذّتها وحلاوتها، وتمرّ مع لحظات حركة الزمان، ولا يتحسسها ولا يتذوّقها إلاّ من عنده رغبة إليها وشوق وحب وجذب لها، ومن جَرّبَ لذّتها واستذوق حلاوتها ولو مرة أو لحظة اشتاق أن يعيدها ثانية وثالثة.. وهكذا.

روي: (إنّ اللّهَ تَعالىَ مَا بَعث نَبيّاً إلاّ حَسَنَ الوَجْه، وَحَسَنَ الصَّوْت) وكان لداود (ع) صوت حسن جميل شفاف جذاب أخاذ مميز عن غيره، كما كان جمال يوسف (ع) مميزاً عن غيره، وكما كانت أدعية الإمام زين العابدين علي بن الحسين السجاد (ع) في صحيفته السجادية مميزة عن غيرها، والتي تسمى (**زبور آل مُحَّد**) وفيها من الأدعية المتنوعة المربّية عالية المضامين، التي تهذّب النفوس وتحيي القلوب، نذكر في دعاء الإمام السجاد في مناجاة

الذاكرين (**إلهي فَلا تَطمَئِنُ القُلُوبُ إلاّ بذكْراكَ، وَلا تَسكُنُ النفوُسُ إلاّ عِندَ رُؤياْكَ**، أنتَ الُمسَبَّحُ فِي كُلِ مَكانٍ، وَالَمعْبُودُ فِي كُلِّ زَمانٍ، وَالمُوجُودُ فِي كُلِّ أوانٍ، وَالمدْعُوُ بِكُلِ لِسانٍ، وَالُمعَظّمُ في كُلِّ جَنانٍ (قلب)) إلّا أن تزيين الصوت ورقّته ونغماته في حدود تحريك المشاعر وخشوع الروح، ما لم يكن لحناً خليعاً مفسداً للنفس مغيّراً للمبنى ومخرجاً للنظم ومثيراً للشهوة.

(**وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**) فصار في يده كالشمع يطاوعه والطين يعجنه! ويعمل به ما يشاء متى يشاء كيف يشاء وعلى أي شكل أراد، من دون أن يدخله النار ولا أن يضربه بالمطرقة! وهو طرف من فضل الله عليه، وكان هذا الأمر معجزة خارقة عجيبة غريبة، وكرامة خاصة لداود (ع) ليست من مألوف البشر.

إنها معجزة خارقة نموذجية مميزة نادرة، مَنْ يلنْ قلبه لله ويخشع له، يلن الله له الحديد، وكأن الله سبحانه ألهمه الأسباب والوسائل المهمة، واخترع المواد المناسبة التي تجعل الحديد ليناً في نفسه، وهذا يدل أن داود أوتي قوة في الجسد وإن لم يكن جسيماً، فاستخدم الأسباب المناسبة لتوصله إلى النتائج المطلوبة بعون الله تعالى، كقوله (**وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا**) الكهف/٨٤، عن الإمام الصادق (ع) (**أَبَى اللهُ أنَّ يَجْرِي الأَشْيَاءَ إلاّ بِأَسْبَابٍ، فَجَعَلَ لِكُلِّ شِيَء سَبَباً**) الكافي١ص١٨٣، ١١- (**أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ**) وقلنا له (**اعْمَلْ سَابِغَاتٍ**) دروعاً حديدية فنية مريحة، كاسية واقية تامة الصنعة ، التي تقي الإنسان شَرَّ الحرب، تشير الآية إلى أهمية الصناعة المتنوّعة النافعة للبلاد والعباد ولابد من تطوّرها باستمرار وتحديثها وتنوّعها واتقانها، وتكون بيد الصالحين، وقدّم بالذكر الصناعات العسكرية قبل غيرها لأن لها الأولوية، كقوله (**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ**) الأنبياء/٨٠.

لبوس: الدروع التي تلبس في الحرب. ولابد من إعداد القوة الّلازمة والمتناسبة مع كل عصر كقوله (**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**) الأنفال/٦٠، فالحياة لا يظهر معناها إلاّ إذا كان الإنسان مؤمناً قوياً في الحق في كل حالاته المادية والمعنوية، قوياً في إرادته وعقله وفهمه ووعيّه وجسمه وعلمه وعمله، وقوياً في بيته ودولته، قوياً في الشدة والرخاء، فإن القوة هيبة وعزة ورفعة ولاسيما إذا استخدمها بالخير (**وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ**) **قَدّرْ**: عَدّلْ، **سرد الحديد:** نظمه بطريقة فنية متطورة عالية الدقة، أي أحكم صنعة الدروع بطريقة فنية علمية دقيقة وجديدة ومريحة ومرغوبة، فلا هي صغيرة وغليظة فتصبح ثقيلة متعبة غير مناسبة، ولا هي كبيرة وخفيفة وغير مستوفية فلا تقي الإنسان من ضرب السيوف والرماح، وكان داود (ع) أول من صنع الدروع الفنّية المناسبة والمتطوّرة والمعدَّلة، والتي كانت سابقاً ثقيلة ومتعبة ومملة، فكانت في يومه دروع محكمة يسهل تحريكها وقوية ولا تنفذ فيها ضرب السيوف والرماح، وهذا هو معنى

(السَّرْدِ) وكان الأمر كله تعليماً وإلهاماً من الله كقوله **(وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)** البقرة/١٥١.

(وَاعْمَلُوا صَالِحًا) واعملوا أعمالاً نافعة صالحة لكل الناس ناهضة للمجتمع، تزرع الخير في النفوس أعمالاً صالحة على إطلاق معناها نحو حضارة عمرانية متطورة فخمة، وترسيخ قيم ومبادئ علمية وهندسية ودينية وأخلاقية سامية، أعمالاً صالحة خالصة وخالية من الأغراض الذاتية والمصالح الفردية على حساب المصلحة العامة، كقوله **(اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْرًا)** سبأ/١٣، وخاطبت الآية داود وأهله، **ومعنى آله وأهله** دائرة المقربين إليه والخاصّين به من قومه وأقربائه.

ومعنى الأهل أخص من الآل، ومما يلفت النظر: اختار الله تعالى لداود (ع) العمل المعجز الخارق المناسب المطلوب، في الوقت المناسب في المكان المناسب في الكيفية المناسبة وتسد حاجته المناسبة، ولم يختر الله له تفسير الأحلام كما اختارها ليوسف الصديق (ع)، ولم يختر له عصى موسى (ع) وإحياء الموتى لعيسى (ع) **(إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)** أي راقبوا الله فإنه مراقبكم، وهو مطّلع وعالم بكل ما تفعلونه ومحصي لها وسأجازيكم بها. **فائدة:** ١- عن الإمام الصادق (ع): **(إن الله أوحى إلى داود (ع) نِعْمَ العبدُ أنت، إلاّ أنك تأكل من بيت المال، فبكى داود أربعين صباحاً، فألانَ الله له الحديد، وكان يعمل كل يوم درعاً فيبيعها بألف درهم، فاستغنى عن بيت المال)** العام، نور الثقلين٣ص٤٤٦، ٢- **(سَابِغَاتٍ) أسبغ**: أتم وأكمل وأتقن وأوسع أي أتقنْ عَمَلَكَ تَنَلْ أَمَلَكَ، **ويقال:** سبغ الوضوء أي أتمّه وأكمله وأتقَنَه، كقوله (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) لقمان/٢٠، أي أتمَّ عليكم نعمه الكثيرة المتنوعة المادية والمعنوية والظاهرة والباطنة التي تُغني صاحبها وَتَسُدَّ حاجته كقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) الزمر/٣٦.

١٢ - ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

ولما ذكر القرآن فضل الله على داوُد (ع) ذكر أيضاً فضله على ابنه سليمان (ع) بفضائل أخرى، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتحمله ومن معه وجميع ما معه، وتقطع المسافة البعيدة جداً بسرعة فائقة وأمينة وفي مدة يسيرة، وكأنما الأرض تطوى تحته! **المعنى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ)** كانت لسليمان دولة تحكم بالعدل، كقوله **(كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ)** النساء/١٣٥، في غرر الحكم (العَدْلُ قِوامُ الرَّعيّة وَجمالُ الولاة) دولة واسعة مقتدرة، سخر الله لنجاحها عوامل عديدة منها: سخر الله له الريح تسير بأمره، تحمله بأمان، وتنقله كوسيلة نقل سريعة جداً، وسيلة مميزة نموذجية ومعجزة خارقة غريبة وعجيبة وغير مألوفة، وكانت سرعتها

خارقة (**غُدُوُّهَا شَهْرٌ**) **الغدو**: أول النهار وفيه تغدو الكائنات أي تروح وتذهب لتطلب رزقها وغذاءها، **الرواح**: آخر النهار، حيث ترجع الكائنات الغادية الراجعة من بحثها عن رزقها وعمل يومها (**غُدُوُّهَا شَهْرٌ**) في الذهاب في سفرهم تسير الريح من الصباح إلى الظهر (نصف النهار) إلى الغداة، ما يعادل مسيرة شهر للسائر المجد بأية وسيلة ممكنة في ذلك الوقت، على الأقدام أو على الإبل أو الخيل.

(**وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ**) وترجع بهم، وتسير الريح من الظهر إلى الغروب (إلى آخر النهار) ما يعادل مسيرة شهر بالوسائل المتعارفة آنذاك، أي تقطع بهم في الذهاب والإيّاب مسيرة شهرين في نهار واحد، وذلك وفق مصلحة وحكمة من الغدو والرواح، يدركها سليمان العادل ويحققها بأمر الله تعالى، لبيان سرعة الريح الخارقة النفّاذَة وحملها له ولخاصته وهم في أمن وأمان، وتنقلهم إلى حيث يشاؤون، فتقطع بهم المسافات الشاسعة من بلد إلى بلد في ساعات معدودات! وفي طبيعة الإنسان أنه يحب السرعة المعقولة كقوله (**خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ**) الأنبياء/٣٧ (**وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ**) **وأسلنا**: وأذبنا له (**عَيْنَ الْقِطْرِ**) معدن النحاس أو الحديد أو الرصاص بأن فَجَّر الله له عيناً بركانية من هذه المعادن المذابة فسالت كالعين الجارية (أو) ألهمه الله تعالى الوسائل العلمية لأذابة النحاس لاستخدامه لأي عمل صناعي جديد، وهو فضل من الله كبير يحققه.

(**بِإِذْنِ رَبِّهِ**) وقد أذاب الله تعالى لسليمان هذه المعادن، كما ألان الله الحديد لأبيه داود لحاجته إليه، بأن ألهمه الله تهيئة الأسباب اللازمة لهما، **في غرر الحكم** (لكل شيء سبب) كقوله (**وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، فَأَتْبَعَ سَبَبًا**) الكهف/٨٤-٨٥.

وفي غرر الحكم (**الطَّاعَةَ للهِ أَقْوَى سَبَب**) (**وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ**) وكذلك سخر الله لسليمان طائفة من الجن يعملون بين يديه ويقومون بخدمته، وبأمره كل ما يشاء، ولا يستطيعون مخالفة أوامره، ويعملون مما يعجز عنه البشر ولكن (**بِإِذْنِ رَبِّهِ**) كل هذه الخوارق كانت بأمر الله وبحكمه وقضائه وتسخيره كقوله (**وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا**) الأحزاب/٣٨.

والمقصود (**وَمِنَ الْجِنِّ**) بعض الجن مُسَخَّر له والبعض الآخر غير مُسَخَّر، وأخبر القرآن وهو أصدق الحديث، من استخدام سليمان للجن لخدمته كقوله (**وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ**) ص/٣٧، ولا نعلم كيف كان يستخدمهم في أعماله، **والجن**: كل مستور لايراه البشر، ولا يعرف البشر عن أمرهم شيئاً إلاّ ما ذكره الله عنهم في كتابه الكريم (**وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا**) **ومن يزغ**: ومن ينحرف ويعصي ويتمرّد ويعرض من هؤلاء المسخّرين (**عَنْ أَمْرِنَا**) ولا يطع أوامر سليمان (**نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ**) نذقه من عذاب الله يتحسس بألمه ويشعر بغُصَّته عقوبة عاجلة للعاصين في الدنيا أو في الآخرة.

فائدة: ١- ولا نعلم كيفية هذا التسخير للأشياء كالريح والجن وغير ذلك، وإنما الذي نعرفه أن الإنسان كلما أحسن الطاعة لله، كلما سَخَّر الله له الأشياء بما يشاء الله كيف يشاء، متى يشاء، لمن يشاء، ضمن المصلحة والحكمة كما في الحديث القدسي (**عَبْدِي أَطِعْنِي تَكُنْ مَثَلِيْ**) أي مَثَلٌ أعلى يقتدى به، وكل المعاجز الخارقة فهي جائزة الوقوع عقلاً بقدرة الله، وإن كانت غير ممكنة الوقوع عُرْفَاً وَعَادَةً لأنها فوق قدرة البشر، كما جعل الله النار على إبراهيم برداً وسلاماً، ٢- النبي مُحَمَّد (ص) لم يبعث نبيّاً مرسلاً إلى الجن، وإنما بعثه الله فقط للناس كافة كقوله (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**) سبأ/٢٨ أما قوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) الأنبياء/١٠٧ فهو (ص) **رحمة للعالمين**، أي رحمة واسعة لكل الناس في العالم البشري باعتباره النبي الخاتم، ٣- **قال مقاتل: ملك الدنيا أربعة:** اثنان من أهل الإسلام وهما ذو القرنين وسليمان، واثنان من أهل الكفر وهما نمرود وبخت نُصّر، روح البيان٧/٢٧٠.

٤- **سؤال:** هل أنّ هذه المعاجز تفضيل لله لسليمان على سائر الأنبياء (ع) كقوله (**وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي**) ص/٣٥ **الجواب:** إنّ هذه المعاجز ليست من الضروري أن تكون نوعاً من التفضيل، وإنما هي نوع من التكريم والاختبار، والابتلاء بالنعم والرخاء أشدَّ وأصعب من الابتلاء بالعسر والعناء كقوله (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) التكاثر/٨، **في نهج البلاغة خطبة١٨٨** (اسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالْمُجَانَبَةِ لِمَعْصِيَتِهِ) وأن آخر نبي يدخل الجنة هو سليمان لما آتاه الله في الدنيا، وأن كل نبي أعطاه الله نوعاً خاصاً مناسباً معه من المعاجز بما يمكّنه الله من إنجاح تبليغ رسالته في زمانه كقوله (**رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**) النساء/١٦٥، وهذه المعاجز لا تتصل بمنزلته عند الله بالقياس إلى منزلة نبي آخر، بل يتصل هذا الفضل بنجاح دوره الرسالي والحاجة إلى نوع المعجزة المتناسبة مع مسؤوليته، كقوله (**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**) النحل/١٢٨.

١٣ - ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾

ثم أخبر الله تعالى عما كلّف به الجن من الأعمال، وهذه معجزة خاصة مميزة نموذجية وحصراً بسليمان، لا تنطبق على البشر في كل زمان ومكان وفي واقعنا المعاصر كقوله (**وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي**) ص/٣٥ وقوله (**وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ**) ص/٢٥، **المعنى:** (**يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ**) **محاريب:** أبنية ضخمة وجميلة ورفيعة وقصور منيعة شامخة، لاستقبال أنواع الضيوف، وقاعة اجتماعات، ومساجد عبادة، وعملوا له بيت المقدس (**المسجد الأقصى**) بقوة وإتقان وحسن وجمال وصلى سليمان فيه مدة طويلة. **والمحاريب:**

جمع محراب وهو مكان العبادة، وسمّي مكان العبادة والصلاة بالمحراب، لأن المصلّي في موضع محاربة لوساوس الشيطان ومخالفة هوى نفسه، ويكون المحراب في صدر المسجد وفي أكرم مواضعه باتّجاه القبلة كقوله (**فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ**) آل عمران/٣٩.

(**وَتَمَاثِيلَ**) جمع تمثال وهو صورة الشيء على مثال الغير، وهي صورة مرسومة عالية الاتقان بريشة رسّام فنّان محترف، أو منحوتة على شكل حيوانات وطيور وأشجار ومناظر جميلة خَلاّبَة لتزيين المباني، وصور داعين لله المصنوعة من النحاس والحديد والرخام والزجاج ونحوها، وهي صناعة غير محبذة في الإسلام، وهي غير مُحرّمة صناعتها، وإلاّ لأعرض عنها سليمان، ولا نجد لتحريمها مستنداً في كتاب الله ولا في السنة الصحيحة، وإنما كان تحريم صناعة التماثيل الُمجَسَّمة في الإسلام بقصد مكافحة عبادة الأوثان واقتلاعها من الجذور، ولم يكن ذلك في زمن سليمان لذا لم تُحرّم التماثيل في شريعته (**وَجِفَانٍ**) وصحون طعام ضخمة تكفي لعدد من الناس (**كَالْجَوَابِ**) كأحواض الماء الصغيرة والمواعين الكبيرة.

(**وَقُدُورٍ**) ضخمة لطبخ الطعام (**رَاسِيَاتٍ**) ثابتات على المواقد والقواعد القوية ولا تتحرك عن أماكنها لكبرها وضخامتها، لتأمين حاجاته في تلبية أضيافه الكثيرة ورجال دولته وخاصته وعماله الذين يأكلون على مائدته، ولكنها كانت لا تؤثر سلباً على أمور الآخرة، ولا تعارض طاعة الله ولا تخالف الاستقامة، وأنها لا تكون على حساب حرمان الفقراء والمساكين والجائعين، فسليمان (ع) ملك الدنيا ولم تملكه، ولم يملكه إلاّ الله مالك الملك كقوله (**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**) الأعراف/٣٢، وعملت الجن له هذه الحضارة المتقدمة بسرعة وقوة واتقان، وهذا لم يكن من عمل الإنس بنص القرآن الكريم، لم يكتفِ سليمان بعمل الحاجات الضرورية فحسب وإنما صنع الحاجات الكمالية والترفيهية أيضاً.

(**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**) لما ذكر منّة الله عليهم أمرهم بتقديرها وشكر منعمها، حتى تثبت هذه النعم وتبقى ولا تزول، كقوله (**هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ**) النمل/٤٠ (وبالشكر تدوم النعم، والمعاصي تزيل النعم) **معنى الشكر**:

تَصَوّر النعمة وإظهارها وتقديرها وتقدير منعها، أي وقلنا لهم يا آل داود اعملوا بطاعة الله واشكروه الشكر العملي قبل الشكر اللفظي، الشكر بالعمل الصالح النافع للناس على سعة معنى العمل الصالح، شكر بلسانه وقلبه وسلوكه وحسن أخلاقه، شكر بتهيئة عوامل النهضة الحضارية الداعية إلى التقدّم العملي والأخلاقي، ومعالجة عوامل التأخّر والتخلّف والفقر والجهل (**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**) عملياً لا يختلط معه رياء وسمعة وفخر، شكراً خالصاً لله لا للتباهي والتعالي بما سخره الله لكم، **والشكر العملي**: يكون العمل من خلال القول، ولا

يختلف العمل عن القول، عن الإمام الصادق (ع) **(الإِيْمَانُ عَمَلٌ كُلُّهُ وَالْقَوْلُ بَعْضُهُ)** البحار٦٩ص٢٣، والذي لا يشكر الناس لا يشكر الله، والذي يشكر الله لا يبخس حق الناس، واستفيدوا من كل النعم بما يرضي الله، وخطاب الجمع **(اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ)** جاء لداود للتعظيم والمراد به خطاب الآية لسليمان، **والإنسان الشكور**: هو الذي يَقَدِّرُ النعمة حق قدرها ويشكر المنعم حق شكره، وهؤلاء بهذا المستوى بين الناس قليل.

(وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) الشكور: الباذل وسعه في الشكر ويعرف قدر المشكور سبحانه، فيشغل قلبه ولسانه وجوارحه بالشكر اعترافاً واعتقاداً وعملاً، **والشكر**: اعتراف القلب والمشاعر بكرم الله ونعمه ومننه وإحسانه إليهم، وهم مفتقرون إليها، وصرف هذه النعم في سبيل طاعة الله بعيداً عن معصيته.

الفرق بين الشكور والشاكر، الشكور أوسع معنى من الشاكر وأعمق دلالة، فلا يستحقّها إلاّ المؤهّلون لها، **الشكور**: مبالغة الشكر أي كثير الشكر ومن تكرر منه الشكر في الشدة والرخاء، وقد يكون أصل الشكر باللّسان كثير ولكن دوامه قليل لأنه سطحي ومنقطع، **والشكر العملي قليل** كقوله (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ) النمل/١٩، **مراتب الشكر**: **(شكر القلب)** بتقدير النعمة ومنعمها والسرور بها **(وشكر باللسان)** بالحمد والثناء على كل نعمة **(وشكر الجوارح)** شكر سائر الجوارح والأعضاء بالعمل الصالح. **أنواع الشكر**: ١- **(شكر البدن)** بتطبيق الإسلام، ٢- **(شكر النفس)** بالتقوى والورع،٣- **(شكر القلب)** بمحبة الله وتعلّق القلب به، ٤- **(شكر السرّ والخفاء)** مراقبة الله بشعور قرب الله منه، ٥- **(شكر الروح)** تقدير النعم والمنعم. **الشاكر**: لا يوفّي حق الشكر، لأن التوفيق للشكر نعمة تستدعي شكراً آخر على التمكّن من الشكر الأول، وآحسن وجوه الشكر لنعم الله أن لا تستعملها في معصية الله بل في طاعاته. في نهج البلاغة/حكم٣٣٠ (أَقَلُّ مَا يَلْزَمُكُمْ لله أَلاَّ تَسْتَعِينُوا بِنِعَمِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ) **فشكر العوام** بالأقوال، **وشكر الخواص** بالأعمال، **وشكر خواص الخواص** بالأحوال، وهو دوام الشكر على كل حال. عن النبي (ص) في قوله **(اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْرًا)** قال **(ثَلاَثُ مَنْ أُوتِيَهُنْ فَقَدْ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ آل دَاوُودَ: العَدَلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى ، وَخَشْيَةَ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ)** المراغي٢٢ص٦٧ **(اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ) آل داود**: هم داود وأولاده وأهله وزوجته والمقربون إليه وخاصته، لأن فضل الله كان على الجميع، وكثير من هذه المصالح والمنافع عائدة عليهم.

١٤ - ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾

وأخبر الله تعالى عن كيفية موت سليمان، وأراد من خلاله أن يعالج شبهة، فأراد الله تعالى أن يُري العباد كذب دعوة الجن أنهم يعلمون الغيب كقوله **(إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)** الشعراء/٢١٢، إنّ الجِنَّ عن سماع الغيب والعلم به **(لَمَعْزُولُونَ)** لمصروفون كقوله **(فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ)** الجن/٢٦-٢٧ ونحن نؤمن بالغيب ولا نعلمه ولا نتعلّمه، وليس هو علم كالرياضيات حتى نتعلّمه، وادّعاء التعلّم بالغيب ولا نعلمه المستور والعلم بالمستقبل، والاتّصال بالجن والتعامل معهم، كما يعمل العَرّافون والمُنجّمون والسَحَّرة والمشعوِذون وغيرهم، هي ادّعاءات كاذبة وكافرة ومن كبائر الذنوب ومن أعمال المنافقين المضرّة كقوله **(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ)** النحل/١٠٥، **في نهج البلاغة خطبة٧٩** (المُنَجِّمُ كَالْكَاهِنِ، وَالْكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ، وَالسَّاحِرُ كَالْكَافِرِ! وَالْكَافِرُ فِي النَّارِ) **المعنى: (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)** فلما حكمنا عليه، وحان أجله المحتوم وجاء قضاء موت سليمان وهو في محراب العبادة، يعتكف ببيت المقدس (المسجد الأقصى) يصلي لله، توفيناه وهو واقف مُتوكّئ على عصاه، وكأنه مشرف على أعماله وأعمال الجن، وبقي على تلك الحال وهو مفتوح العينين وكأنه يراقبهم! بقي مدة من الزمن لا يعلمها إلاّ الله، ولا يعلم بموته أحد إنس ولا جن، ولم يحدد القرآن المدة التي قضاها سليمان بعد موته وهو متوكّئ على عصاه حتى علم الجن بموته **(مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ)** وما دلَّ الجِنَّ الذين يعملون بأمره على موته **(إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ)** إلاّ الأرضة (السوسة) التي تأكل الخشب.

(تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ) تأكل عصاه، منسأته من النسيء وهو التأخير في الوقت، لأن العصا يؤخر بها الشيء ويزيحه ويطرده، فأخّرت عصاه المعرفة المبكرة بموته، وكان الإنس والجن ينظرون إليه ويحسبونه حيّاً، إلاّ أن دبَّتْ السوسة في عصاه وأكلت جوفها فانكسرت وسقط سليمان! **(فَلَمَّا خَرَّ)** أي سقط علم الناس والجن بموته، واتَّضحت حقيقة الجن أنهم لا يعلمون الغيب، كما كان يعتقد كثير من الناس، وقضي على الخرافة المشهورة على المستوى الشعبي العام، القائلة بأن الجن يعلمون الغيب كذباً، وأنهم لا يقيمون علاقات خاصة مع الإنس غير الوسوسة **(أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ) الغيب:** ما غاب عن حواسهم، أي لو كان لهم علم بالغيب ومعرفة المستقبل كما يزعمون لعلموا بموت سليمان ولما بقوا في أعمالهم الشّاقة.

(مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) ما بقوا ذلك المقدار من الزمان **(فِي الْعَذَابِ)** وهم يعملون الأعمال الثقيلة والتكاليف الشّاقة المأمورين بانجازها **(الْمُهِينِ)** المذل والمتعب لهم، وهم مكلّفون بإنجاز أعمالهم في حالة القهر والذلة والهوان، كنوع من القصاص على جناية، أو عقاب على ذنب صدر منهم يستحق العقاب كقوله (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) البقرة/١٧٩، وإلاّ لا يمكن أن يكون العذاب المهين عبثاً من دون ذنب يتناسب معهم،

فائدة: ١- (**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ**) دلت الآية على أن الجن لم يُسَخَّروا إلا لسليمان النبي حصراً (**بِإِذْنِ رَبِّهِ**) ولا توجد علاقة بين الجن والإنس إلاّ عبر الوسوسة، والنبي مُحَمَّد (ص) لم يبعثه الله للجن وإنما بعثه للإنس كقوله (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ**) سبأ/٢٨، وأنما هو رحمة للعالمين، أي مبعوث رحمة مهداة للإنسان في جميع أنحاء العالم، كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) الأنبياء/١٠٧.

١٥ - ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾

(**قصة سَبأ**) (**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ**) **سبأ:** قبيلة من العرب في مدينة مأرب باليمن، سُمّوا باسم أبيهم سَبأ بن يشجب، وتكاثروا منه، وهي بلدة الملكة بلقيس كقول الهدهد لسليمان (**وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ**) النمل/٢٢، وهم في ثراء ورخاء ونعم كثيرة وبساتين غنية بالأشجار والفواكه والثمار الطيبة المتنوعة، وكانوا بحاجة إلى تقدير النعم وشكر المنعم، **المعنى:** (**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ**) جنوب اليمن (**آيَةٌ**) حجة ودلالة على كمال قدرة الله ورحمته، وعلامة على سبوغ نعمائه الوفيرة عليهم كقوله (**وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**) العنكبوت/٤٣ أي وما يعتبر بها إلاّ العاقلون المتفكّرون، وقد ارتقوا في سُلّم الحضارة والتطوّر حتى تحكّموا في مياه الأمطار الغزيرة، فأقاموا خزّاناً كبيراً يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا في فم الوادي بينهما سَدّاً ضخماً محكماً فيه فتحات تفتح وتغلق حسب الحاجة، وخزنوا الماء بكميات كبيرة وراء السّد، وعرف بـ (**سد مأرب**) فيسقون كل بساتينهم، وهذه الجنان الخضراء عن اليمين والشمال رمز لذلك الخصب والرخاء والرفاه بالنعيم، والغبطة والسرور لأهل البلد، فأمرهم نبيهم أن يؤدّوا حق الله وشكره والثناء عليه بكثرة النعم، ثم فسّر القرآن معنى الآية بقوله (**جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ**) بستانان عظيمان ذاتا أشجار مثمرة كثيرة غنية بالفواكه، عن يمين ذلك الوادي وشماله متصلة بعضها ببعض، كناية عن الأرض الخصبة والازدهار الزراعي في كل جزء من أجزاء أرضها، التي تسرّ الناس بكثرة نعيمهما، وكل أقواتهم منهما.

وقيل: لم يرد (جنتين) بستانين اثنين فحسب، بل أراد جماعتين من البساتين، جماعة عن يمين الوادي وجماعة عن شماله، وسُمّيت كل جماعة منها جنة لكونها في تقاربها وتضامنها كأنها جنة واحدة، فقال لهم نبيّهم (**كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ**)

كلوا من هذه النعم الكثيرة الطيّبة (**وَاشْكُرُوا لَهُ**) على ما رزقكم، شكراً باللسان والجنان أي القلوب، والأركان أي الجوارح، والجوانح والأعضاء، أي (**اشكروا له**) سبحانه شكراً مادياً ومعنوياً، شكراً صادقاً بالأقوال والأفعال، وأعطوا للشكر حقّه يزيدكم من نعمه، ويغفر لكم ويرحمكم ويديم نعمه عليكم كقوله (**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**) إبراهيم/٧ ، **عن النبي (ص)** (لاَ يَشْكُرِ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرِ النَّاسَ) روح البيان١٢٩/٦، (**بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ**)

أنّ الله تعالى جعل بلدتكم التي تسكنوها (**بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ**) كريمة خصبة التربة جامعة للخيرات والبركات، بنقاوة هوائها وعذوبة مائها ونظافة أجوائها وسلامة أرضها وحصول الرزق المبارك فيها، وخروج أنواع الأزهار والثمار مختلفة الألوان والأشكال والطعوم، وكان لها نبي مبعوث لهدايتهم يدعوهم إلى منهج الله، ويحثهم على شكر النعم والاستغفار من الذنوب، وليس في هذه البلدة الطيّبة شيء من الحشرات المؤذية والبعوض والعقارب والحيّات، ولم يكن بها آفات وأمراض أيضاً، **وليس فيها حرّ يؤذي في الصيف، ولا برد قارس يؤذي في الشتاء** (**وَرَبٌّ غَفُورٌ**) مبالغة الغفران، كثير الغفران للذنوب، ربّ رحيم يستر ذنوبكم ولا يعاجلكم بالعقوبة، إنها سعة الخيرات في الأرض بالنعم والرخاء، وسعة الخيرات في السماء بالعفو والغفران، فما الذي يقعدهم بعد ذلك عن الحمد والشكر للنعم وللمنعم؟ ولكنهم لما كفروا بنعم الله وبطروا وأسرفوا وفسدوا فخّرب الله ملكهم وَشَتَتَ شملهم وجعلهم عبرة لمن يعتبر، كقوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) إبراهيم/٢٨ فقال:

١٦ - ١٧ - ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾

ولكنهم لم يشكروا النعم ولم يقدّروا المنعم، وتمرّدوا على النصيحة، وتكبّروا على الحق ولم يقبلوا من نبيّهم مواعظه، واستهانوا بنعم الله، واستعانوا بنعم الله على معاصيه، والذي تطغيه النعم تليق به النقم كقوله (**فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**) الشعراء/٢١٣ وقوله (**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ**) الإسراء/٨٣، فقال (**فَأَعْرَضُوا**) فرفضوا رسالة الله وكفروا بأنعم الله، وأعرضوا عن الإيمان والعمل الصالح والتصرّف المستقيم، وساءت أخلاقهم وتعاملاتهم، فجازيناهم (بعد الإمهال الطويل) أن سلبهم الله سبحانه سبب هذا الرخاء الجليل والنعم والخير الكثير الجميل (**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ**) فأرسل الله عليهم سيلاً شديداً شرساً وفيضاناً جارفاً كثيراً (**الْعَرِمِ**) من العرامة وهي الشدّة والشراسة، مع هبوط الحجارة الكبيرة ملأ الوادي، وكسر (**سَدّ مأرب**) الضخم وخرابه، وأهلك البساتين المثمرة والحرث والنسل، ولم يبق منهم إلاّ القليل فتفرّقوا في البلاد، **وقيل:** أنه يراد من (**العَرِمِ**) هنا الجرذ الصحراوي أو الفأرة الكبيرة التي سخرها الله لثقب السد الذي صنعوه لمنع السيول، فلما انثقب السد وتآكل بالتدريج جاءهم سيل العرم الشرس الجارف الذي لا يبقي ولا يذر، فَخَرَّبَ بيوتهم وقلع أشجارهم وَهَدَّمَ أبنيتهم ودمَّر كل ما كان أمامه، وأهلك جميع ما وقع فيه، وتبدلت تلك البساتين الغنّاء بالصحراء الجرداء البرية الخشنة! (**وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ**) المباركتين الزاهيتين المملؤتين بالخيرات.

(**جَنَّتَيْنِ**) بستانين ضعيفتين أُخرَيين (**ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ**) لهما ثمرٌ مرٌ خشن لا يؤكل وله شوك كثير، وقيل هو نبات الأراك (**وَأَثْلٍ**) وشجر يقال له الطرفاء لا ثمر له وعليه شيء كالعفص (**وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ**) وشيء قليل من شجر السدر وهو النبق، وهذا من جنس عملهم، وعبر عنه (**قَلِيلٍ**) وكان أحسن أشجارهم! **والسدر نوعان**: سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسل وله ثمر غليظ لا يؤكل، وسدر نافع وقليل ويصلح ورقه للغسل وثمرته صغيرة حلوة وتؤكل، ١٧- (**ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا**) ذلك الجزاء الفظيع الذي عاقبناهم به، وذلك التبديل للنعم بالنقم، وللرفاهية والرخاء بالحرمان والخشونة، كان بسبب كفرهم بأنعم الله وفسادهم في البلاد والعباد وبطرهم وكبريائهم، وبهذه القصة ذات العبرة يكشف القرآن عن سنة إلهية نافذة المفعول كقوله (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) فاطر/٤٣ (**وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ**) وما نعاقب بمثل هذا العقاب الشديد إلاّ الكافر للنعم المبالغ في كفره وفساده بالحرمان منها، ولا يجزى جزاء الشر إلاّ فاعله كقوله (وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ) الإسراء/١١ وقوله (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) الأنفال/٥٣ وقوله (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) الأعراف/٩٤، لأن المؤمن يذنب ويستغفر ويتوب ويكفّر الله عنه سيئاته، والكافر يجازى بكل سوء عمله، لأنه لا يتوب ولا يستغفر، عن النبي (ص) (**شَرُّ النَّاسِ مَنْ بَاْعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَاهُ، وَشَرٌّ مِنْ ذَلِكَ مَنْ بَاْعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ**) البحار٧٧ص٤٦، عن الإمام علي (ع):

(**وَإِنَّ مَنْ لاَ يَنْفَعُهُ الحَقُّ يَضُرّهُ البَاطِلُ، وَمَنْ لا يستقم بِهِ الهُدَى تَضره الضَّلاَلة، وَمَنْ لاَيَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشَّكُّ**) شرح النهج ٢ص٩١ **فائدة**: ١- (**وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ**) وسمّاها (**جَنَّتَيْنِ**) أُخرَيَين ضعيفتين، فيه ضرب من التهكّمْ والازدراء والانتقاص، لأن شجر الإثل والسدر وما كان فيه خمط، لا يسمى جنة، لأنها أشجار صحراوية لا يؤكل ثمرها، وإنما جاء تعبير (**جَنَّتَيْنِ**) على سبيل المشاكلة والمبادلة وتسوية الكلام في السياق القرآني البلاغي، ٢- (**وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ**) **والمجازاة غير الابتلاء**: **فالمجازاة**: عقاب وقصاص على قدر الذنب، (الابتلاء على قدر الطباع)! **والابتلاء**: امتحان واختبار بالشدة والرخاء فيكون إما رفع درجة وإما غفران ذنوب، وما أصاب البلاء من أهل الإحسان هو امتحان لإيمانهم، يزدادون به منزلة في مقام الإحسان، وليس من باب المجازاة لهم على ذنب اقترفوه. كقوله (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) الأعراف/١٦٨.

١٨ -﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾

وقد كان (**من قصة قوم سبأ**) قبل أن ينزل بهم العذاب وخراب (**سد مأرب**) في نِعَم وفيرة وعيش رغيد وفي خير ورفاهية وفي بلاد غنية آمنة وقرى ثرية متواصلة (**وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا**)

وجعلنا بين بلاد سبأ وقرى الشام وفلسطين وغيرهما التي باركنا فيها للعالمين، بكثرة المياه الوفيرة الحلوة وأشجار الفواكه الطيبة المتنوعة، وأصناف الزروع والثّمار (**قُرًى ظَاهِرَةً**) ومعنى ظاهرة أي قرى متقاربة متواصلة يظهر بعضها على بعض، وكان التّجار يسيرون بقوافلهم التجارية من أرض اليمن إلى الشام بأمن وراحة نفسية بعيداً عن كل المخاطر والصراع والنزاع (**وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ**) وجعلنا المسافات بين القرى متقاربة ومقدّرة ومحسوبة بمقدار مُقدّر موزون، وكأن هناك مهندسين كفئين يخططون وينفذون، بحيث يستريح المسافر في قرية ويبيت في أخرى، لا ينقطع عن الزرع والعمران حتى يرجع، وكانوا لا يحتاجون إلى زاد طول السفر، أي لا يحملون معهم طعاماً ولا شراباً، فأين ما نزلوا وجدوا الطعام والماء والفواكه، وقلنا لهم عن طريق نبيهم (**سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ**) وفوق ذلك النعيم الكريم كانوا محصنين بالأمن والأمان في كل وقت ولكل إنسان، أي سيروا في تلك القرى المتّصلة خيراتها متى شئتم من ليلٍ أو نهارٍ آمنين من الجوع والعطش والخوف من الوحوش والأعداء وَقُطّاعِ الطريق كقوله (**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**) إبراهيم/٣٤ عن النبي (ص) (نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِن النَّاسِ: الصِّحَّةِ وَالْفَرَاغِ، وقيل: الصِّحَّةِ وَالأَمَانِ) البحار٧٧ص٧٥، وفي هذا إشارة إلى شمول نعم الله عليهم في السفر والحضر.

كقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) الزمر/٣٦.

١٩ - ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

إنهم بطروا وبغوا واعتدوا وكفروا النعمة ولم يشكروا المنعم، وملّوا الخير والعافية وسئموا الراحة وطيب العيش والرفاهية، وأصبحوا كسالى خاملين بعدم بذلهم الجهد وطلبوا الكد والتعب، كقوله (**وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا**) الإسراء/١١ **المعنى:** (**فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا**) **فقالوا:** أي فقال الأغنياء المترفون البطرون، بلسان الحال أو بلسان المقال، **في غرر الحكم** (لِسانُ الحَالِ أصدقُ مِنْ لِسانِ المقالِ) ودعوا ربهم الرحيم بهم الكريم عليهم، دعوة الأحمق الجاهل الظالم اللئيم الذي لا يقدّر النعم ولا يشكر المنعم، **فقالوا:** ربنا أجعل المسافات بين القرى في سفرنا طويلة، واملأها بالصحاري الشاسعة حتى يتزوّدوا للسفر ويزدادوا متعة الجهد في السفر المتعب!، حتى يعجز الفقراء ومتوسطو الحال عن السفر مع الأغنياء بلا زاد أو ماء! ليظهروا قادرين مستكبرين مفتخرين على المستضعفين الفقراء،

وبهذا الدافع الخسيس اللّئيم القاسي، ظلوا عن منهج الله وانحرفوا عن الطبيعة البشرية المحبة لبعضها، **في غرر الحكم** (شرّ الناس من أضرّ الناس) **(وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)** وظلموا غيرهم، بعدم شكر المنعم واقتربوا من النقمة. وأيضاً دعوا الله وطلبوا **(بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا)** لأنهم ملّوا الراحة والرفاه وبطروا هذه النعم وأسرفوا فيها، كما مَلَّ بنو إسرائيل من المن والسلوى وطلبوا مكانه كقوله **(مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا)** البقرة/٦١

(رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا) أي قلل بين أسفارنا واجعل بين سفرة وسفرة أخرى وقت متباعد طويل! حقاً أنهم فشلوا في بلاء الرخاء والنعم، فليذوقوا بلاء الشدة والعناء والنقم!

هذا من جهة، ومن جهة ثانية يبدو من هذا الطلب أن للسفر متعته وفوائده على ما فيه من أتعاب ومشاق، عن النبي (ص) **(سَافِرُوا تَصِحُّوا وَتَغنَمُوا)** فأجاب الله دعاء البطرين المسرفين كقوله **(وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)** غافر/٤٣، وفي غرر الحكم (وَيْحَ الْمُسْرِفِ مَاْ أَبْعَدَهُ عَنْ صَلاَحِ نَفْسِهِ وَإِسْتِدْرَاْكُ أَمْرِهِ) فأجاب الله دعاءهم بتخريب تلك القرى الغنية، وكان هذا الطلب من لؤم الطبع وقسوة القلب وظلم النفس، **في غرر الحكم** (اللَّئِيمُ إِذَا بَلَغَ فَوْقَ مِقْدَارِهِ تَنَكَّرَتْ أَحْوَالُهُ)، **(وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)** بالطغيان والعصيان وكفران النعم وجحودها والبطر والكبر **وفي غرر الحكم** (مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ كَاْنَ لِغَيْرِهِ أَظْلَمُ، وَمَنْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ ضَيَّعَ أَمْرَهُ)كقوله **(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ)** هود/١٠١ **(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)** فجعلناهم وحضارتهم ونعمهم الزاهية لمن بعدهم مجرد **(أَحَادِيثَ)** وأخبار وأمثال وقصص يضربون بهم الأمثال، وإحدوثة للأجيال تتردد على الألسن للاعتبار كقوله **(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً)** فاطر/٤٤.

وفي غرر الحكم (مَنْ اعْتَبَرَ الأمُوْر وَقَفَ عَلى مَصَاْدِيْقِهاْ)، وَأَخْسَرُ النَّاسِ مَنْ كَاْنَ عِبْرَةً لِلنَّاْسِ، وَمَنْ لاَ يَتَّعِظُ بِالْمَاْضِيْنَ كَاْنَ عِبْرَةً لِلْبَاْقِيْنَ، **في نهج البلاغة خطبة٨٦** (السَّعِيْدُ مَنْ وَعِظَ بِغَيْرِهِ) **(وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)** وشتتناهم وفرقناهم في البلاد كل تفريق، فلم يبق من أجزاء وجودهم جزآن مجتمعان إلاّ فرقنا بينهما! فأصبحوا قبائل متناثرة في مناطق متباعدة **(إِنَّ فِي ذَلِكَ)** إن في قصة سبأ **(لَآيَاتٍ)** لحجج قاطعة وبراهين ساطعة وعلامات كاشفة وسنن فاعلة متحرّكة مؤثرة في حركة الزمان فيها عِبرٌ بالغة **(لِكُلِّ صَبَّارٍ)** وهو مبالغة الصبر، أي لآيات لكل من يعتمد الصبر في حياته على الشدائد والمكاره والمعاناة كقوله **(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا)** الأعراف/١٣٧ في غرر الحكم **(بِالصَّبْرِ تُدْرِكُ مَعَالِيّ الأُمُورُ) والصبر:** ترويض النفس وتهذيب عاداتها وتزكية طبائعها وتعويدها العادات الحسنة وتدريبها على الصبر طلباً للأحسن ولحياة أفضل، **والصبر:** حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع والحكمة والمصلحة، **(شَكُورٍ)** يشكر الله كثيراً على كل نعمة، وتعويد النفس على شكر المنعم وتقدير

النعم كقوله (**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**) إبراهيم/٧ (**وبالشكر تدوم النعم**) نِعمَ العبد الصَّبَّار الشّكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر. ويذكر القرآن الصبر إلى جوار الشكر، الصبر في البأساء والمكاره، والشكر في الرخاء والنعماء.

وفي (**قصة سبأ**) آيات بيّنات وكشف عن سنة متحركة لهؤلاء وهؤلاء، وهو تحذير الناس من الترف والبطر وكفران النعم وعدم تقديرها وعدم شكر المنعم، والتحذير من الانخداع بحبّ الدنيا فإنها رأس كل خطيئة، وليعرف المؤمن كيف ينقذ الصبر والشكر صاحبه من الشدائد.

٢٠ –٢١- ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾

يكشف القرآن الكريم عن الحكمة المستخلصة (**من قصة سبأ**)، لبيان السُنة الإلهية الفاعلة المحركة لكل واقع في كل زمان ومكان، وما يمكن في هذه السُنة ومعها وفيها وخلفها من نظام وتقدير وتدبير، لقد انتهى أهل سبأ إلى تلك النهاية المأساوية لأنه **المعنى**: (**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ**) في قدرته على غوايتهم بسهولة، لأنهم كانوا مولعين في حبّ الدنيا والشهوات والملذّات المحرّمة، ظن إبليس وتوقّع واحتمل واعتمد أنهم في قبضته وتحت وسوسته ويسهل خداعهم وإغراؤهم، وتحقق صدق ظنه فيهم، **إذن**: نحن الذين نجيز للشيطان الدخول إلى نفوسنا، ونعطيه تأشيرة العبور إلى قلوبنا كقوله (**وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي**) إبراهيم/٢٢، وقوله (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام/٤٣، ويتسع الهدف من قصة سبأ ولا يبقى في حدود سبب النزول، وإنما يشمل عموم المعنى وسعة الدلالة، حتى يصلح تقريراً مؤثراً مهّماً لحال البشر أجمعين، في جميع الأجيال المتعاقبة ممن كان على شاكلتهم، وإبليس يحاول وبطرق مختلفة التي تسمى خطوات الشيطان إضلال الناس كقوله (**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**) البقرة/١٦٨، وكلمة (**إِبْلِيسُ**) مشتقة من الإبلاس وهو اليأس من رحمة الله.

(**ظَنَّهُ**) أي طموحه وظنونه فأصاب ظنه، لا على سبيل اليقين والقطع، لأنه لا يعلم الغيب ولا يعرف أسرار النفوس، إذ قال لربه (**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**) ص/٨٢-٨٣ (**فَاتَّبَعُوهُ**) أي تابع وسوسته وإغراءاته فاستجاب لها أهل الشرك والفساد والبطر والكبر والترف، أنهم بمجرد تحريضه لهم بوسوسته حصلت منهم استجابة كاملة له كقوله (**وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**) الزخرف/٣٦ (**يَعْشُ**): يتعامى ويعرض، **نُقيّضُ**: نهيئ، **قَرِينٌ**: مصاحب لا يفارقه (**إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) (**مِنَ**) تبعيضية، أي استثنى البعض من المؤمنين الصادقين فإنهم لم يتبعوه، وليس كل المؤمنين صادقين، أي إلاّ جماعة مؤمنة صادقة، وإن كانت قليلة فقد ثبتوا على الحق وطاعة الله ومعصية إبليس،

واستعصوا على الانحراف والغواية، في نهج البلاغة الحكم القصار **(أُولئِكَ الأَقَلُّونَ عَدَداً، وَالأعْظَمُونَ قَدْراً)** وهؤلاء الثابتون على منهج الله لتعطي دليلاً للناس، أن هناك حقّاً ثابتاً منجياً يعرفه من يطلبه ويريده، وهؤلاء الصالحون المتوازنون العالمون الذين يفهمون الدّين بوعي ويناقشون الأوضاع العامة بحكمة، هم مصاديق لهذا الحق في كل زمان ومكان، فعلى الإنسان تشخيصهم بدقة، وعدم الانخداع بالمدّعين! ٢١- **(وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ)** وما كان للشيطان اللّعين على الناس.

(مِنْ سُلْطَانٍ) من هيمنة وتسلّط وقوة وسلطة وقهر وسيطرة واستيلاء عليهم ولا على قلوبهم، تجبرهم وتضطرهم بالإكراه والإجبار على متابعته حتى يكونوا معذورين! بل اتّبعوه بإرادتهم ورغبتهم وحسب اختيارهم، فتسلّط على من حقق ظنه في حقّهم، وليس لإبليس سلاح إلاّ سلاحه المعروف من التزيين والوسوسة والتحريض والإغراء بالباطل، بزينة الحق، ولا يستجيب له إلاّ من كان على شاكلته كقوله **(وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ)** الأعراف/٢٠٢ (والطيور على أشكالها تقع، وشبيه الشيء منجذب إليه) أما من رسخ دينه بصدق ووعي في قلبه وعقله فيعجز عنه الشيطان وهم المتقون كقوله **(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)** الأعراف/٢٠١ وقوله (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) النحل/٩٩-١٠٠ وكان تسليط الشيطان على الإنسان ابتلاءً وامتحاناً ليكشف معادن الناس وتظهر حقائقهم لأنفسهم كقوله (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ) آل عمران/١٧٩ وقوله (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) آل عمران/١٥٤.

(فلسفة الابتلاء) هذه سُنة الله في بيان فلسفة الابتلاء للناس في الشدة والرخاء، فالذي يصبر ويستقيم هم المؤمنون الصادقون، ويتساقط من يتساقط وينحرف عن منهج الله من هو دون ذلك، وإنما سلّط الله إبليس بوسوسته على بني آدم المكرمين لاستخراج جواهرهم الثمينة، وهم أولياء الله الأبرار من بين معادن البشر المتنوعة، كما تسلّط النار على الذهب الغالي لبيان مقدار نقاوته، **فلا تقدر النار أن تخرج من النحاس الذهب، كذلك لا يقدر إبليس بوسوسته الخادعة أن يخرج المؤمن الصادق عن إيمانه القوي.** وما أذنّا لإبليس بالوسوسة والتسلّط على الناس بهذا المقدار لحكمة جليلة **(إِلَّا لِنَعْلَمَ) العلم**: إدراك الشيء على حقيقته، أي إلاّ لنميّز على أرض الواقع ويظهر علمنا للناس، من يقبل وساوس الشيطان بالقوة والواقع وهو الشاك، ومن يمتنع ويأبى متابعته بالفعل والحقيقة وهو المؤمن الصادق، يستحق من تابعه العذاب، ويستحق الثواب من خالفه، فعبّر عن التمييز بين الفريقين على أرض الواقع

(**بالعلم**)، وليس المعنى (**إِلَّا لِنَعْلَمَ**) يعني لم نكن نعلم فعلمنا، وأن الله عز وجل يعلم بما كان وما يكون قبل أن يكون وقبل ظهوره للناس، ولكن الله تعالى يرتّب الجزاء على ظهوره ووقوعه فعلاً في دنيا الناس (**مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآَخِرَةِ**) الصادق في إيمانه وعلمه، فيعصمه إيمانه وعلمه من الانحراف ويمنع من نفوذ الشيطان بكافة وسائله في نفس الإنسان المؤمن كقوله (**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**) الأعراف/٢٠٠ أي اعتصم بالله واحذر مخاطر وساوس الشيطان كقوله (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) آل عمران/١٠١، وفي غرر الحكم (مَنْ حَرِصَ عَلى الآخِرَةِ مَلَك، وَمَنْ حَرِصَ على الدُّنيا هَلَك) (**ولاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ**) وفي نهج البلاغة خطبة ١١٣ (**مَا بَالُكُمْ تَفْرَحُونَ بِالْيَسِيرِ مِنَ الدُّنْيَا تُدْرِكُونَهُ، وَلاَ يَحْزُنُكُمُ الْكَثِيرُ مِنَ الآخِرَةِ تُحْرَمُونَهُ!**)؟!

(**مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ**) ممن هو المرتاب والمتردد والمتذبذب اللامبالي والمضطرب، ممن تَغَلّبَ شَكّهُ على إيمانه، وَتَغَلّبَ كُفْرُه على فكره، فهو يستجيب لوساوس الشيطان في الشك في حقيقة الآخرة، والشك ثمرة من الجهل، ومن يترددْ يزددْ شَكّاً وقلقاً، ومن كثر شَكّه فسد دينه، ومن قوي إيمانه وعلمه انشرح صدره واطمأن قلبه ولم يتمكن الشيطان منه، وبتكرير التفكّر والتدبّر والتحقّق ينكشف الشك، وبكثرة التَدَبّر في القرآن والأكوان يستذوق حلاوة اليقين، ومن قوي يقينه لم يراوده الشَّك أبداً.

في غرر الحكم (لَو كُشِفَ الغِطاءُ ما ازددتُ يَقيناً)

وفي غررالحكم (شَرُّ الْقُلُوْبِ الشَّاْكُ فِيْ إِيْمَاْنِهِ) وعن الإمام علي (ع) (**لاَ تَرتَابُوا فَتَشُكّوا، وَلاَ تَشُكّوا فَتَكْفُرُوا، وَلاَ تَرخِصُوا لأَنفُسِكُمْ فَتَدْهَنُوا**) البحار٢ص٥٤ (**وَرَبُّكَ**) يامُحَّد (**عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ**) **الحفيظ**: الوكيل القائم على شؤون خلقه، أي وكل شيء عنده محفوظ ومحافظ عليه بالصورة والصوت والنية، وكأنه فيلم حيّ متحرّك مجسّم ذو ثلاثة أبعاد، على كاميرة إلهية خفيّة دقيقة، لا يغيب منه شيء صغير ولا كبير، وهو (**حَفِيظٌ**) أي رقيب على كل شيء، يعلم نيّاتهم ويُحصي أعمالهم ويعرف جميع أحوالهم، فلا تغفلوا عن ذلك فليس بمغفول عنكم، **في غرر الحكم** (احذروا الْغَفْلَةَ فإنها مِنْ فَسَاْدِ الْحِسِّ)

فائدة: ١- (**وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ**) من هيمنة وسلطة يجبرهم على متابعته، وأن الشيطان لم يرفع على الناس عصى ولا يجبرهم على شيء، **ويكون دور إبليس كدور الذباب على أطعمة الناس**، وكدور الأوبئة والأمراض على العباد والبلاد التي لم يراع أهلها شروط النظافة، فإذا حَلَّ الوباء بأرض، فيموت مَنْ البشر الضعيف من لا قدرة له على مقاومة الأمراض، ويبقى من هو قوي المناعة ضد الأمراض، وهكذا وسوسة الشيطان يفرق الله بها بين المؤمن الثابت على عقيدته الصحيحة والمتزلزل معها كقوله (**مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا**

فِي شَكٍّ) وهكذا جميع حوادث الدنيا يثبت أمامها ويستقيم ذوو الفكر الصادق والإيمان الواعي والعزيمة المقاومة للباطل، وينهار أمامها الجهلاء والضعفاء كقوله **(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)** الشورى/٣٠، ٢- **الجن لا يصادق الإنس، هناك شبهة تقول:** إنّ الجِنَّ تتعامل مع الإنس وتصادقهم وتتزوج منهم وتعمل معهم، ولهم القدرة على النفع والضر بهم وتعرف مستقبلهم!، والنبي مُحَمَّد (ص) مبعوث للجن أيضاً، وهذا كذب وافتراء ومن الذنوب الكبيرة، فإن الله ينهى عن التعامل مع الجن بأية صورة من الصور، وقد يكون المراد من الجن، المشعوذين وأصحاب السحر والمنجّمون من الإنس، فإن هؤلاء المشعوذين يموّهُون ويخدعون البسطاء من الناس، بأن لهم صلات خاصة مع الجن يستحضرونهم متى شاؤوا ويسخّرونهم فيما أرادوا، ويقول القرآن **(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)** الجن/٦، **رهقاً:** تعباً شديداً جسدياً ونفسيّاً، أي كَلّفَ نفسه فوق طاقتها فانهارت!

٢٢ – ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾

(قُلِ) يامُحَمَّد للمشركين إن عبادتهم **(مِنْ دُونِ اللَّهِ)** باطلة، وهذا نوع من التوبيخ والشعور بالعجز وإقامة الحجة عليهم، كقوله **(قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)** المائدة/٧٦، لابد للإنسان من معتقد مُعَيّن، وعبادة وطاعة لشيء، فإنه إن لم يعبد الله فسوف يعبد غيره، من عبادة الطاغوت والفاسدين وحب الدنيا وطاعة الهوى وتجسيد الأنا والجاه والمال.. إلخ كقوله (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) يونس/٣٢، في غرر الحكم (لاَ يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ دِينِهِمْ لِإِصْلاحِ دُنْيَاهُمْ إِلاّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ) وعن الإمام علي (ع) **(وَإِنَّ مَنْ لاَيَنْفَعُهُ الحَقُّ يَضرّهُ البَاطِلُ، وَمَنْ لا يَسْتَقِيمُ بِهِ الهُدَى يَضرّه الضَّلاَلُ، وَمَنْ لاَيَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشَّكُّ)** شرح النهج٢/٩١، وكل عبادة **(مِنْ دُونِ اللَّهِ)** تكون عبادة عقيمة باطلة خادعة لا تملك مصادر العلم والنفع والنجاة والسعادة كقوله **(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)** الشعراء/٢١٣، **وفي غرر الحكم** (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أُهِّلَ لِلْعِتْقِ) وَمَنْ قَصَّرَ عَنْ أُصُوْلِ الْعُبُوْدِيَّةِ أُعِيْدَ إِلَى الرِّقِ!

المعنى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ) قل لهم ادعوا واستغيثوا واطلبوا منهم ما يهمكم من جلب المنافع ودفع الأضرار، وهم معزولون عن كل شيء في هذا الوجود، **(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ)** أنهم آلهة تُعَبدُ من دون الله، وأنهم شركاء لله تعالى، وتعتقدون أنهم شفعاؤكم، هل يستجيبون لكم إلى ما تسألونهم!؟ لا يستجيبون لكم أبداً، ولا يدفعوا الضرَّ عنكم ولا يجلبوا النفع لكم **(لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)** فهم لا يملكون أتفه الأشياء، وهو كناية مجازية تشبيهية عن أحقر الأشياء وأتفهها ولا قيمة لها ولا ثمن **(لَا يَمْلِكُونَ)** ملكية خاصة

شيء صغيرة تافه يعادل (**مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**) زنة ذرة من الهباء المنثور الخفيف المتطاير الذي لا يرى ولا قيمة له لا (**فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ**) وليسوا بقادرين على أمر من الأمور في الكون بأجمعه، لأن الكون هو ملك لله وحده (**وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ**) **مِنْ شِرْكٍ**: شركة لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً، وأيضاً ليس لتلك الآلهة (**مِنْ شِرْكٍ**) أي من نصيب فيقاسمونه (**مِنْ شِرْكٍ**) من مشاركة مع الله فيشاركونه في إدارة الكون (**وَمَا لَهُمْ**) وليس لله تعالى من آلهة المشركين (**مِنْ ظَهِيرٍ**) معين يعينه في تدبير الكون أو يستشيره في أمر من الأمور، فإن الله غني عن الناس، وكل الناس بحاجة إليه، فمن استغنى به سبحانه نجا وسعد، ومن استغنى عنه خاب وخسر كقوله (**فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**) آل عمران/٩٧، وهو تعالى الذي يستحق العبادة طوعاً لا كرهاً، وفي هذا إبطال لقولهم (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) الزمر/٣.

٢٣ – ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾

لما نفى عن الشركاء الخلق والملك، نفى عنها أيضاً الشَّفاعة فقال (**وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ**) ولا تكون (**الشَّفَاعَةُ**) وهي الوساطة، ولا تكون مقبولة في الآخرة لأحد عند الله من مَلَكٍ مقرّب أو نبي أو ولي أو شهيد .. إلخ (**إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**) لا تقبل الشفاعة عند الله للشافع والمشفوع له ، ولا تقبل في أي حال من الأحوال، ولا تقبل في كل أمر ولا تُقْبَلُ لكل الناس، بل تُقْبَلُ في أمر أذن الله فيه (**إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ**) إلاّ لمن رضي الله قوله وارتضى فعله، فيأذن الله له بالشفاعة، **ومعنى الشفاعة**: طلب الوساطة والعفو أو الفضل والرحمة لإنسان معيّن من أصحاب الإحسان يوم القيامة، وهي مرهونة ومقيدة (**بإذن الله**) **والشفاعة**: منزلة يستحقّها ناس معيّنون مؤهلون لا يعرفهم إلاّ الله، والشفّاع لهم أناس معينون لا يأذن لهم إلاّ الله، كقوله (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) الزخرف/٨٦، والآية ردّ لقولهم في آلهتهم كقوله (**هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**) يونس/١٨ (**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**) ثم يُصَوِّرُ القرآن المشهد في يوم القيامة العصيب الحاسم الذي تقع فيه الشفاعة، وهو مشهد مذهل يُجسّم الموقف بصورة مؤثرة في النفوس، وينتظر الشفعاء والمشفوع فيهم أن يتأذّن ذو الجلال في عليائه بالشفاعة لمن ينالون مقام الشفاعة والمؤهّلون لها، وطول الانتظار في انتظار الإذن بالشفاعة، لأن الشفاعة كلها لله كقوله (**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**) الزمر/٤٤، ولا يزالون في خوف وفزع وقلق من ردّ الشفاعة.

(**حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ**) فزّع: أُزيل، أي إلى أن يكشف الخوف والفزع الأكبر عن قلوب أهل المحشر يوم القيامة بالإذن لهم بالشفاعة فيفرحون لهذا الكشف، حقاً أنه يوم عظيم رهيب يستحق الاستعداد له! كقوله (**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا**) الحج/٢ عن النبي (ص) (الشَّفَاعَةُ لاَ تَكُونُ لأَهْلِ الشَّكِّ وَالشِّرْكِ وَلاَ لأَهْلِ الْكُفْرِ

وَالْجُحُودِ بَلْ تَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ مَنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ) البحار٨ص٥٨، وهم لا يملكون في أجواء الفزع والخوف القدرة على التفكير بهدوء، ولا أن يجيبوا عن أي سؤال، لأن الفزع يشلّ إرادتهم ويُعطِّل تفكيرهم وحركاتهم، فإذا ذهب الفزع ملكوا فكرهم، وأمكنهم أن يواجهوا السؤال بهدوء **(قَالُوا)** لمن أعلى منهم أو قال بعضهم لبعض **(مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ)** ماذا أمر ربكم في الشفاعة؟ وما هو مصيرنا النهائي؟ فأجابوهم **(قَالُوا الْحَقَّ)** إنها كلمة بليغة مجملة واسعة المعاني، سواء قالوها بلسان الحال أو بلسان المقال **(قَالُوا)** قال الله القول الحق العدل الثابت وكل قوله سبحانه حق، الحق الثابت الذي لا سبيل لبطلانه وتبديله، وهو الإذن بالشفاعة للمؤمنين المؤهّلين للشفاعة **(وَهُوَ الْعَلِيُّ)** الرفيع بذاته والذي يرفع غيره، والذي دونه كل شيء **(وَهُوَ الْعَلِيُّ)** في ذاته وصفاته، والعلي فوق جميع المخلوقات وقهره لهم في سعة قدرته، وله صفات التكامل الجليلة والجميلة، ومن علّوه أن حكمه تعالى يعلو وتذعن له النفوس **(الْكَبِيرُ)** الذي يصغر عنده كل شيء، لأنه الكبير في ذاته وصفاته وقدرته، **وقيل** معنى **(اللهُ اكْبَر)** فهو سبحانه أكبر من أن يُقاس، وأكبر أن تدركه العقول والحواس، وفي الحديث **(إنّ الله يُحِبُّ مَعَالِي الأمُور وأشرافها، وَيَبْغَضُ سَفْسَافَها)**كنز العمال خبر٤٣٠٢١، وعن الإمام علي (ع) **(عُلُوُّ الْهِمَّةِ مِنْ الإيمَانِ)**، **فائدة: فُزِّعَ:** بمعنى كشف عنها الفزع والخوف، **وَفَزِعَ:** من معاني الأضداد، يُقال (فَزِعَ إليه) إذا استغاث به عند الفزع وهو الخوف، ويقال (فَزِعَ له) أي أغاثه وكشف عنه الفزع (فُزّع) متى تعدت بـ **(عَنْ)** فالمراد زوال الفزع والجزع عنه، ومتى كانت بدون **(عَنْ)** كان المراد منها إصابة الخوف والجزع.

٢٤ – ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

ثم وَبَّخَ الله تعالى المشركين في عبادتهم المشبوهة لغير الخالق، ويسألهم عن صحة اعتقادهم فقال **(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ)** بإنزال الغيث والضياء والأقدار والأرزاق...؟ **(وَالْأَرْضِ)** بإخراج النباتات والثمرات والعيون والحيوانات والمعادن ..؟ فإن تلعثموا وتوقفوا عن الجواب **(قُلِ اللَّهُ)** الله الرازق لا آلهتكم وهو المستحق للعبادة والطاعة، إذ لا جواب غيره ولا يسعهم إنكاره في قرارة أنفسهم.

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

لأهمية الآية بحاجة إلى مقدمة: الآية تطرح النموذج المهذّب المميز في قواعد الحوار العلمي الرائع، وتعرض الآية الأسلوب الفني الناضج والمؤثر في أصول الجدال الرّصين والنقاش الموضوعي المؤدّب المتين، والحوار الإيجابي الناجح الذي يعتمد الحجة القطعية والحاجة الفعلية إلى الوفاق، والأسلوب الفني المرن النموذجي المنفتح على الآخر، إنه الاتّفاق على أن نتّفق، ولابد أن نتفق، إنه اتّفاق يعتمد الوفاق والموقف المشترك بين الطرفين، يريد أن يصل إلى الحقيقة المرضيَّة من خلال الحوار الإيجابي المرن الذي يستوعب الآخر، إنه الحوار القائم على

الوعي والشعور العميق بالحاجة إلى الوفاق والوقوف العادل مع الخط الصحيح وتقويمه وتقويته، أينما كانت النتائج من أجل المصلحة العامة كقوله **(أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)** الشورى/١٣-١٤ عن الإمام علي (ع) (مَا اخْتَلَفَت أُمَّةٌ بَعْدَ نَبِيِّهَا إلاّ ظَهَرَ أَهْلُ بَاطِلِها عَلَى أَهْلِ حَقِّها إلاّ ما شاء الله) أمالي المفيد ص١٣٨، هذا الأسلوب المرن الشفاف المؤثّر هو ما تجسده هذه الآية الكريمة، خلافاً للطريقة المعروفة القديمة المتّبعة في الأسلوب المطروح علمياً للحوار مع الآخر الذي يقول: **(رَأيِيْ صَوَابٌ يُحْتَمَلُ الخَطأ، وَرَأيُ غَيْرِي خَطأٌ يَحْتَملُ الصَّوَاب)** فهو خطأ لأنه أولاً ثَبَّتَ الصواب لنفسه، وثبت الخطأ على غيره، ويبدأ بالحوار مع هذه الثوابت الخاطئة! بينما الطرح القرآني المتألّق البديل الناجح الفالح الذي يبلغ القمة في إنسانيته ونضوجه وحياديّته، ثم يعتمد شعار الحياد المنصف من أول الحوار من دون انحياز إلى طرف، وأن نبدأ معاً في الحوار العلمي الموضوعي المرن الهادئ من نقطة الصفر، من أجل الوصول إلى الحقيقة المطلوبة والمرغوبة لنا جميعاً، **وهذا الشعار يقول: (رأيي ورأي غيري يحتمل الخطأ والصّواب في درجة واحدة، فعلينا أن نعلم بالحوار العلمي أين الصّواب)؟!** كقوله **(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)** النساء/٥٨، هذا الأسلوب الحضاري المتألّق الناضج الناجح المطلوب في الحوار العلمي الحيادي الإيجابي الممدوح، الذي لا يفكّر المحاور الانتصار على الآخر، وإنما الانتصار على الخطأ والشبهة والتفرّق، من خصائص العالِمُ الواثِقُ من نفسه كل الثقة، المتيقّن من دليله وبرهانه الذي يقطع النزاع وينهي الخلاف والذي له القدرة على استيعاب الآخر، والذي لا يشك في قناعاته وحججه، والذي يعرف فنون الحوار المرن الهادئ وأساليب النقاش المنصف العادل، ويعرف فن الدخول في تحريك مشاعر الآخر، ويثير أحاسيسه وفكره لما هو جديد ومفيد، وهو أبلغ من الرد العنيف والأسلوب الغليظ الجاف المنفّر الجارح، وربَّ تلميح أبلغ من تصريح، كقوله **(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)** الأنفال/٤٦.

عن الإمام علي (ع) (الأُمُوْرُ ثَلاَثَةٌ : أَمْرٌ بَانَ لَكَ رُشْدُهُ فَاتَّبِعْهُ ، وَأَمْرٌ بَانَ لَكَ غَيُّهُ فَاجْتَنِبْهُ ، وَأَمْرٌ أُشْكِلَ عَلَيْكَ فَرُدَّهُ إِلَى عَالِمِهِ) تحف العقول ص١٥٣.

كما تقول العرب: أخزى الله الكاذب مني ومنك، مع تيقن أن صاحبه هو الكاذب، وهذه من الأساليب الفنية المرنة في الحوار الهادئ المنصف الناضج والناجح والذي يحقق أهدافه، والحوار الناجح يعتمد على الحرص المتبادل والمتعادل بين الطرفين للوصول إلى **(وَحْدَةُ الكَلِمَة، وَكَلِمَةُ التَّوحِيْد)** والحرص الشديد على رصّ الصفوف وجمع الشتات، لأن القرآن يذم التفرقة والاختلاف كقوله **(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)** الأنعام/١٥٩ وقوله (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) المؤمنون/٥٣، وقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) آل عمران/١٠٥،

وكأنه يقول أحد المتحاورين لصديقه: إبحث ودقق وحقق بعلم وهدوء، واترك قناعاتك الماضية وابدأ من الآن بوضع أسس صحيحة لقناعات علمية جديدة نافعة، يطمئن لها القلب وترضي الله تعالى، وأن تبدأ من نقطة الصفر مع صديقك في انطلاقة علمية متساوية، بقناعات متوازية متقاربة غير متعارضة، مع حبّ متبادل ومتعادل، لنعلم أي الفريقين أهدى سبيلاً كقوله **(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا)** الإسراء/٨٤، وقوله (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ) آل عمران/٦٤، **من قواعد الحوار العلمي**: وأيضاً من قواعد الحوار العلمي المرن الناجح، أن يبدأ بكسر الحاجز النفسي السَّميك والقديم بين الطرفين، وذلك أن تبدأ الحوار الاستدلالي بقواعد أخلاقية من حيث يحب هو، حتى تنتهي من حيث تحب أنت!، ولا يمكن أن تتبنّى هذه القاعدة المرنة، إلا من تبين له الحق واتّضح له الصواب بدرجة قطعية لا شك فيها ولا ريب، في غرر الحكم **(عَلى قَدَرِ الدّين تكُون قَوَةُ اليَقِيْن)** وجزم يقيناً من هو المحق المهتدي منا، ومن هو المبطل الضال والملتبس عليه الأمر، من دون التصريح بقناعته، وتستطيع بذلك أن تكسر أولاً الحاجز النفسي بينكما، وبذلك تنشرح الصدور للنقاش، وتطمئن القلوب للدليل، وترغب في الأسلوب الفني الجليل والجميل والحريص على الوصول إلى الهدف المشترك الذي يعتمد على:

القاعدة: (الّتِي تَرى الشَّك طَرِيقَاً إلى اليَقِيْن)! كما قيل (ما انتشر الهدى إلاّ من حيث انتشر الضلال)! وبهذا الأسلوب الأخلاقي المؤثّر الفنّي المنفتح المدعوم بالمحبة، يكسب أحدهما ثقة الآخر ويركن إليه كقوله (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) النحل/١٢٥، **معنى الآية (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)** قل يامُحّمد للمشركين بهذا الأسلوب الفني الصادق الحكيم المنصف: إنّ أحد الفريقين منا أو منكم لابد أن يكون على حق وهدى، والآخر على ضَلال واضح، والهدى والضلال من المتناقضات والأضداد في الدّين ولا يجتمعان، ثم يدع ويترك تحديد المهتدي منهما والضال، وعليه لا يمكن أن نكون نحن وأنتم على حق، والحق واحد لا يَتَجزأ ولا يتعدّد ولا اختلاف فيه، والضلال متلوّن ومتعدد ومتجددة، كقوله **(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)** يونس/٣٢.

ويترك مسألة الفرز بينهما للُتفكير السليم والضمير القويم، وحسن التدبير والتقدير مع حركة الزمن ونضج العقل، مع كامل هدوء النفس وقوة الحجة والبرهان، وعندئذ يتبين الرشد من الغي، والضلال من الهدى! عن الإمام علي (ع) **(وَإنَّ مَنْ لاَ يَنْفَعُهُ الحقُّ يَضُرُّهُ البَاطِلُ، وَمَنْ لاَ يستَقِمْ بِهِ الهُدَى يَضرّه الضَّلاَلُ، وَمَنْ لاَ يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشَّكُّ)** كنز العمل خبر٤٤٢٢٥، وهذا حديث فيه إنصاف، وأسلوب فيه عدل وتلطّف وتوازن واعتدال، وفيه أيضاً أدب وحبّ في الجدال الممدوح النافع مع الخصم في دعواهم، فجعلهم النبي (ص) بهذا الأسلوب الحكيم المرن أن يعيشوا مع ضمائرهم وعقولهم بخلوة تأمل مع أنفسهم، في جوّ هادئ

لعلهم يستشعرون الحقيقة المتألقة بأنفسهم، وهذه قاعدة حركية مهمة مرنة من قواعد الحوار القرآني العلمي الاجتماعي المؤثّر المعاصر كقوله **(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)** آل عمران/١٠٣ وعن النبي (ص) (لاَ تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبَكُمْ) كنز العمال خبر٨٩٥، **فائدة:** هذا هو الإسلام نصاً وروحاً في دعوته إلى منهج الله، ليكون الناس أمة مؤمنة مستقيمة واحدة كقوله **(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)** المائدة/٤٨، وكل إنسان مسؤول عن عمله ومحاسب عليه، فمن أحسَنَ فلنفسه ومن أساء فعليها، فاختاروا لأنفسكم ما يصلحها، كقوله (فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) يونس/١٠٨.

٢٥ - ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(قُلْ) لهم يامُحَّد **(لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا)** أنتم غير مسؤولين عما ارتكبناه من آثام وكبائر وجرائم بل نحن المسؤولون كقوله **(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)** الحجر/٩٢ وقوله **(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)** المدثر/٣٨ عن النبي (ص) (إِنَّ اللهِ تَعَالَى سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَا اَستَرعَاهُ، حَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَهُ، حَتَّى يُسَأَلُ الرَّجُلُ عِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ) كنز العمال خبر١٤٦٣٦، كل إنسان مسؤول عن عمله، ولا يجوز أن يؤآخذ أحدٌ بذنب غيره، كقوله **(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)** فاطر/١٨ **(وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ)** بل أنتم المسؤولون، ولكل منا ومنكم له جزاؤه المتناسب مع عمله كقوله **(لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ)** إبراهيم/٥١، فليكن المقصود منّا ومنكم طلب الحق والإنصاف وترك الباطل، وأن لا يساير ويتّبع الوضع الاجتماعي الفاسد العام، وعلى الجميع أن يتدبّر موقفه ويرى ويحكم أين سيقوده رايه وقناعاته إلى الفلاح أم إلى الخسران، وفي هذا الأسلوب المرن كامل الإنصاف مع الأدب والحبّ والاحترام كقوله **(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)** الكهف/١٠٣-١٠٤، **فائدة: (أَجْرَمْنَا)** أصل الجرم هو القطع، كقطع الثمرة عن الشجرة، وتوسّع معناه لكل اكتساب مكروه قبيح، يقال: الّلحم المجروم أي المفصول عن العظم، كذلك المجرم انقطع عن إنسانيته وتجاوز الحدود البشرية المعقوله فصار أخبث المعتدين وشر الأشرار، ويعمل شرَّ الأعمال، فينفصل عن الصفات الإنسانية والأخلاق البشرية المعروفة، في غرر الحكم **(شَرُّ النَّاسِ مَنْ يَتقّيهِ النَّاسُ مَخافَةُ شَرّهِ)**.

٢٦ - ٢٧ - ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ، قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

وإذا عجز المشركون أن يميزوا بين المحق والمبطل، وبين أهل الهدى وأهل الضلال في الدار الدنيا، كما في الآية السابقة، فإن القضية ستحال إلى الآخرة، يوم الفصل الحاسم الرهيب **(قُلْ يَجْمَعُ**

بَيْنَنَا رَبُّنَا) قل لهم يحشرنا ربنا وإياكم يوم القيامة وجهاً لوجه **(لِيَوْمِ الْجَمْعِ)** من أسماء يوم القيامة كقوله **(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)** التغابن/٩، وكلمة الفصل عند الله الحاكم العادل وله وحده، وبذلك ينقلهم من محاسبة أنفسهم بأنفسهم بهدوء، إلى محاسبة الله لهم يوم الجمع الأكبر للحساب والجزاء، ليكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب، وهناك تنكشف الحقيقة بوضوح **(ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا) ثم يفتح**: أي ثم يحكم ويفصل بيننا وبينكم ربنا **(بِالْحَقِّ)** بالعدل والإنصاف، وبالحجة والبرهان فيما اختلفنا فيه، وهناك يتبين الصادق المستقيم الذي يثاب على عمله، من الكاذب الضال الذي يعاقب على سوء فعله، **(وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ)** وهو الفتّاح أي الحاكم العادل الحكيم الرحيم، الذي يفتح حكمه بالحق، والذي لا يظلم أحداً كقوله **(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)** الحج/١٠ **(الْعَلِيمُ)** يعلم دقائق الأمور وبواطنها وأسرارها، ويعلم بالنوايا والدوافع والأعمال، وهو المدبّر والمقدّر للأمور

٢٧- **(قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ)**

الآية على صيغة استنكارية وأمر تعجيزي فيه التّحَدّي، يستبطن الاستخفاف والتوبيخ على إشراكهم وإظهار لخطئهم الكبير وضلالهم البعيد، وإلزام الحجة عليهم مستفسراً منهم **(قُلْ أَرُونِيَ) قلْ**: علموني بالدليل وجه الشركة أي عرفوني إياهم من الآلهة **(الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ)** الذين ألحقتموهم بالله **(شُرَكَاءَ)** لله في استحقاق العبادة، من هم هؤلاء الأنداد والأشباه والأضداد لله الذين تعبدونهم من دون الله؟ وما هم؟ وأين هم؟ وما هي قيمتهم وقوتهم وصفتهم؟ وبأي شيء استحقوا منكم هذه الدعوى؟ ثم يتّجه الإنكار إلى الردع والزجر والتأنيب إلى شدة خطئهم بقوله **(كَلَّا)** للزجر، أي ليس الأمر كما وصفتم، فما هم بشركاء وما له سبحانه من شركاء **(بَلْ هُوَ اللَّهُ)** بل هو الله الإله الحق الواحد الأحد الخالق المصور المدبر لا يشاركه أحد في ملكه لأنه **(الْعَزِيزُ)** الغالب على أمره بقدرته غير المغلوب في ما يريد من خلق وتدبير، الذي قهر كل شيء بعزته فيكون الإنسان مقهوراً لله وَمُسَخَّراً له ولا يكون له شريك، **في غرر الحكم (مَنِ اعْتَزَّ بِغَيْرِ اللهِ أَهْلَكَهُ العِزُّ)** وهو **(الْحَكِيمُ)** الذي جعل كل أفعاله وأقواله وخلقه ونظامه ودينه على أساس الحكمة والمصلحة والاتقان، فصار دينه الإسلامي أكمل دين، وأتمّ منهج وأحسن أطروحة كقوله **(ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)** الروم/٣٠، وبحكمته لا يشرك أحداً في تدبيره، لأن له كمال الذات والصفات، وجمال الإلوهية وجلال الربوبية، ومن كانت له صفات الكمال والجمال والجلال على الدوام، لا يكون له شركاء على الاطلاق.

٢٨ –﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) وما بعثك الله تعالى يامُحَمّد للعرب خاصة، وإن كنت عربياً وتتكلّم العربية، والقرآن نزل بالعربية، ومكان نزوله في الجزيرة العربية، ولكن خصوص السبب لا يحدد عموم المعنى وسعة المغزى، وإنما بعثناك برسالة قيّمة عامة شاملة كاملة...

(كَافَّةً لِلنَّاسِ) لعموم الخلق، ولجميع الناس في العالم، مبعوث للأبيض والأسود والعربي والأعجمي والغني والفقير والصغير والكبير والعالم والجاهل .. (ولكنه لم يبعثه الله رسول للجن) مبشراً لهم بالجنة لمن استقام، ومخوفاً لهم بالنار لمن انحرف كقوله **(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)** الأعراف/١٥٨ وقوله **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** الأنبياء/١٠٧ وقوله (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) الفرقان/١، وإنما أرسلناك لكافة الناس، لكفّهم عن المعاصي، لأن النبي (ص) خاتم الأنبياء (ع) ورسالته الإسلامية القيّمة خاتمة الرسالات وأكملها وأتمها، لتكون حجة على الناس جميعاً في كل زمان ومكان ولكل إنسان ولكل جيل كقوله **(رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)** النساء/١٦٥ وبعد تبليغ النبي (ص) الرسالة بوضوح يكون قوله تعالى **(لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)** آل عمران/١٢٨، وإذا لم تكن الرسالة الإسلامية المحمدية الواحدة الموحّدة المتّحدة رسالة الإنسانية كلها في العالم، عندئذ لم تكن خاتمة الرسالات وأكملها وأتّمها، ولم يكن رسولها الكريم خاتم الرسل (ص) وهو مجمع كمالاتها في أرفع درجاتها، لأعلى منازلها. **(كَانَ خُلُقُه القُرآنِ)**

عن النبي (ص) **(أُرسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَةَ)** وفي ذلك دلالة على أنه خير النبيين وأفضل الخلق أجمعين، ورحمة مهداة للعالمين، ورسول كريم إلى كافة الناس أجمعين في كل زمان ومكان، وهو خاتم النبيين ولا نبي بعده. **الرسالة الإسلامية عالمية**: هذه هي آفاق رسالة الإسلام، إنها رسالة هادية عالمية للناس أجمعين، كقوله **(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)** آل عمران/١٩ وقوله **(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ)** آل عمران/٨٥ وقوله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) التوبة/٣٣.

وفي نهج البلاغة (إِنَّ هذَا الإِسْلاَمَ دِينُ اللهِ الَّذِي اصْطَفَاهُ لِنَفْسهِ، وَاصْطَنَعَهُ عَلى عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ خِيْرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّته، وَوَضَعَ الْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وَهَدَمَ أركانَ الضّلالةِ بركنِهِ) خطبة/١٩٨، ومن الجدير ذكره: فربنا **(رَبِّ الْعَالَمِينَ)** الفاتحة/٢، ونبيّنا المصطفى (ص) كقوله **(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)** الأنبياء/١٠٧ وقرآننا ودستور حياتنا كقوله **(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ)** التكوير/٢٧، فصار المرسل والرسول والرسالة كلّها عالمية تشمل الإنسان في العالم، فلماذا نحن نعيش حدود المذهبية؟! وصراعات الطائفية؟! كقوله (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) الفتح/٢٦، **عن النبي (ص)** (ليس منّا من دعا إلى عصبيّة)

سنن أبي داوود خبر٥١٢١، **وعنه (ص)** (من كان في قلبه حبّة من خردل من عصبيّة بعثه الله يوم القيامة من أعراب الجاهلية) الكافي٣٠٨/٢، **ومعنى العصبية**: أن يعين قومه على الظلم ولم يراع الحق.

إذن: علينا أن يكون فَهْمَنا للقرآنِ عالميّاً، ووعينا له عالميّاً، وتعاملنا معه عالميّاً، وتوصيل بلاغة إلى كافة الناس بصورة عالمية واعية مدروسة مُشَوّقَة، يقبله الإنسان الُمفِكّر في جميع أنحاء العالم بقدر المستطاع، فعلينا أن نَرتَقي بإرادتنا من الحدود المذهبية الضَيّقة إلى الآفاق العالمية الواسعة. فهناك علاقة موضوعية بين العالمية وآفاقها، والخاتمية وأهدافها، وأحدهما يَصُبّ في منظومة الآخر ومنافعه، وبما أن الرسول خاتم الرسل، والرسالة خاتمة الرسالات، فلابد أن تكون الرسالة الإسلامية الخاتمة هي الرسالة المطلوبة المنقذة للبشرية من كثرة معاناتها، فعلينا فهمها وتوصيلها إلى الناس في العالم، بأساليب عصرية حديثة وإلقاء الحجة عليها كقوله (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥ وكلمة (**كَافَّةً لِلنَّاسِ**) تبين منزلة الرسول الخاتم (ص) وشمولية رسالته ونبوته ومسؤوليته، وها نحن في زماننا المعاصر نعيش عالم القرية الواحدة، وما يحدث في أقصى بلاد الدنيا نسمعه ونراه في وقته، وكل البشر في العالم يعاني من عِدّةِ معاناة مختلفة الألوان والأشكال كقوله، (**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**) البلد/٤، **فتأتي رسالة الرسول الكريم (ص) تعالج معاناتهم ومكابداتهم.**

والنبي (ص) طبيب دوّارٌ بطبه، ورسالته تَكُفُ الناس عن المعاصي وتمنعهم من الفساد والشر في البلاد والعباد، وهذه هي مهمة الرسول (ص) ورسالته المنقذة من حيرة الضلالة والُمخَلّصَةِ من ظلمات الجهالة (**الْهِمَّةُ عَلَى قَدَرِ الْمُهِمَّةِ) والإسلام**: بعقيدته وشريعته السهلة السمحة، وعلومه القيّمة الواسعة التي يدعمها العقل السليم والعلم الحديث، فإنه يسع الإنسانية جمعاء في كل أجيالها، لأنه يكرم الإنسان ويرفع شأنه ويجعله حُرّاً مختاراً ومُحاسَباً على اختياره، ويعتمد الإسلام في أصوله ومبادئه وأحكامه على العقل والعدل والحجة والبرهان (**بَشِيرًا**) من **البشارة**: وهي أن تخبر بخير لم يأت أوانه بعد، لتأخذ بأسبابه وتقبل عليه وأنت مشتاق إليه، فهو (ص) بشيراً للمؤمنين بجنات النعيم، ويقابلها (**وَنَذِيرًا**) من الإنذار أي البلاغ في التخويف، وهي أن يخبر بشرّ لم يأت أوانه بعد، لتتخذ الوقاية منه، وتنصرف عن خطورته وتدفعه عنك، فهو (ص) نذير للكافرين من عذاب الجحيم، **ومثال ذلك**: المعلم الذي (يبشّر) التلميذ المجتهد بالنجاح والتفوّق (وينذر) المهمل الكسلان بالفشل والرسوب (**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**) رسالتك الإسلامية القيّمة السهّلة السمحة، ولم يدركوا الجانب المشرق الهادي المنجي لوظيفة الرسول (ص) والرسالة المنقذة كقوله (**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**) يوسف/١٠٣، لأنهم يُعرضون عن الحجج والأدلة العلمية التي تؤدّي بهم إلى العلم الهادي والتصديق بها،

ويحملهم جهلهم وضلالهم على مخالفتك فكأنهم لا علم لهم، وما دام (**أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**) **فمعنى** ذلك أن القِلَةَ هي التي تعلم وتهتدي وتستقيم، وهي ثمرة الخير الهادي في الناس، في جميع الأجيال مهما فسد الناس، وهذه سنة إلهية متحركة يكشف عنها القرآن الكريم بقوله (**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**) الرعد/٧ وقوله (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) فاطر/٢٤ وقوله (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الأعراف/١٨١

٢٩ – ٣٠ –﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ، قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾

(**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**) الخطاب من المشركين إلى النبي والمؤمنين **ويقولون**: أين هو هذا الوعد بيوم القيامة؟ ومتى يحصل جمعنا وبعثنا ونشرنا والحكم علينا؟ وهو سؤال استنكاري على سبيل السخرية والاستهزاء والاستغراب! (**إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**) في دعواكم يامعشر المؤمنين بالمعاد كقوله (**يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ**) الشورى/١٨ ليس من عمل الرسول (ص) أن يعلم بوقت المعاد الأكبر، وأن ذلك موكول إلى الذي أرسله، وأيضاً لا علاقة بين صدق الرسول (ص) وعدم معرفته بوقت المعاد، وقد حدد النبي (ص) قيام يوم (**القيامة الصغرى الخاصة**) في عالم البرزخ، لكل فرد مات فقال (**مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ**) روح البيان٣/٢٢، وعنه (ص) (**يُبْعَثُ الْمَرءِ عَلَى مَا مَاتَ عَلِيهِ**) كنز العمال خبر ٤٢٧٢٢ أما (**القيامة الكبرى**) العامة لكل الناس فلا يعلم بموعدها إلاّ الله، كقوله (**إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ**) الشورى/١٨.

٣٠– (**قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ**) قل لكم موعد محدد، بيوم مقضي محتوم ومحسوم وثابت لا يتقدم ولا يتأخر، لأن الله جعل لكم أجلاً ثابتاً لا تتجاوزونه، يجيء في وقته المحدّد الذي قَدّره الله له في ساعة معينة، وهذا الأجل المحدد حقّ لا يختلف عليه اثنان مؤمن أو كافر (**قُلْ**) إن المسألة لا تتعلق بمعرفة التوقيت، لأن ذلك ليس مهماً في الموضوع، بل الأهم هو الإيمان بالمعاد نفسه كحقيقة لازمة لابد من وقوعها والاستعداد لها، وجاء سياق الآية القرآنية بأسلوب التّحدّي الحاسم (**لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً**) وهو وعد ثابت محسوم لا يتخلّف ولا يتأخّر وقت وقوعه أبداً (**سَاعَةً**) بأن يزاد في آجالكم لرغبة أحد (**وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ**) ولا تتقدمون على هذا الموعد بأن ينقص منه شيء لخاطر ورجاء أحد، فلا تستعجلوا عذاب الله فهو آت لا محالة، وكل آت قريب، كقوله (**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**) الرعد/٣٨ وقوله (**لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ**) الأنعام/٦٧، كما أن الثمرة في الشجرة تحتاج إلى وقت معلوم لبلوغها ونضوجها، كذلك الإنسان له وقت معلوم لأجله ووفاته ونهاية عمره ومهلته المحدودة، فإذا لم يعرف كيف ينتهي، فلم يعرف كيف يبدأ، فهو يعرف أيضاً كيف خُلِقَ فعليه أن يعرف كيف يُحْشَر؟! **فائدة**: عندما يبتعد الإنسان عن الله

فيكون فريسة للشيطان والهوى وحبَّ الأنا، **وتأخذه شهوتان:** البطن والفرج، فيصغر عقله ويزداد جهله مهما بلغ من العلم والاختصاص، لأنه يربط الحقائق الكبرى في الحياة بحسب مستوى عقله المادي المحدود، **فهو يسحب الحقيقة الكبرى إلى مستواه الصغير**، وليس يرتفع هو إلى مستوى الحقيقة الكبرى، فيكون طاغيةً مستكبراً في تفكيره ومستنكراً في سلوكه، وهذا هو الخسران المبين والضلال البعيد. كقوله: والضمير يعود إلى الشيطان (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) الكهف/٥٠.

٣١ - ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾

بعد أن أثبت الله المعاد وجعله حقيقة كبرى، فَصَوَّر هذه الحقيقة على أرض الواقع بشكل حوار مصيري فَنّي مؤثر يَهزُّ المشاعر، فكم لتصوير هذا المشهد الحقيقي المثير من مشاهد يوم القيامة من فوائد، فكأنه يرى الحق حقاً فيتبعه والباطل باطلاً فيجتنبه، ولكنه العناد بالباطل على رفض الحق، عندئذ يعرف كيف تحصل حالة الحسرة والندامة القاتلة، عندما يصطدم بمشاهدة مصيره الحقيقي الأبدي المخزي المهين.

المعنى: **(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا)** من اليهود والمشركين، ولما شَهِدَ مؤمنوا أهل الكتاب أن صفة النبي مُحَمَّد (ص) مذكورة في كتبهم وهو نبي مبعوث من السماء، قالوا: **(لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ)** أي لا نصدق بهذا القرآن بأنه من الله تعالى، لأنه جعل الآلهة إلهاً واحداً ويوعد بالحشر ويهدد بالنشر والحساب، وليست مسألة الإيمان عندهم تخضع للتحقيق والتدقيق والبحث العلمي، وإنما هو العناد والاتّباع الأعمى وسبق الإصرار! **(وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ)** ولا نصدق أيضاً بالكتب السماوية التي سبقته الدالة على البعث والنشور كالتوراة والانجيل، وهنا يُصَوِّر القرآن المشهد المثير في حالة متحركة مجسّمة حيّة وكأنها واقعة الآن، إنها تصوير لحالة التعب ووقفة الذل والعار في جو من الضوضاء والتلاوم ورمي المسؤولية على الآخر، ويترك الأسلوب القرآني الحديث عن رد فعل النبي ولم يتكلم معهم بكلمة، لأنهم كانوا غير مستعدين لقبول الدليل، ولاهم يبحثون عن الحقيقة، وإنما هم في جو مستغرق باللامبالاة والتسلية وقضاء الوقت **(وَلَوْ تَرَى)** ولو شاهدت يامُحَمَّد حال هؤلاء الظالمين اللامبالين المنكرين للبعث في موقف الحساب يوم القيامة **(إِذِ الظَّالِمُونَ)** وهم الكافرون.

كقوله **(وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)** البقرة/٢٥٤ **(مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ)** محبوسون عند حضرة ربهم للحساب والجزاء يوم القيامة على غير إرادة منهم ولا اختيار، وهم في موقف الخزي والهوان وفي حالة الذلة والخذلان، ليواجهوا مصيرهم الأبدي المحتوم في الآخرة، وفي هذا المشهد المثير يكون الحديث متبادلاً مملوءً بالملامة والمرارة والحسرة.

(يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ) وهم يتخاصمون ويتجادلون جدالاً عقيماً لا نفع فيه ويتطاير منه الحقد واللؤم، ويرد **(بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ)** ويؤنّب بعضهم بعضاً، وجواب **(وَلَوْ)** محذوف للتهويل، وتقديره لرأيت أمراً فظيعاً شنيعاً تقصر العبارة عن تصويره! **(يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا)** يقول المتنفعون المستضعفون أصحاب العقل الصغير والاتّباع الأعمى **(لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا)** للقادة والرؤساء الطغاة المستكبرين أصحاب التأثير عليهم، الذين استضعفوهم وأضلوهم عن سبيل الله **(لَوْلَا أَنْتُمْ)** لولا أنكم أغريتمونا بحبّ الدنيا والفساد والأموال والجمال وحسن الحال والمناصب والجاه، ومنعتمونا من الإيمان والهداية والاستقامة **(لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ)** صالحين مهتدين، وكأنما ليس لهم عقل ولا تفكير ولا إرادة ولا رأي ولا قناعة، عندما اتّبعوا الطغاة اتباعاً أعمى، إشارة إلى أنّ الإيمان فطرة إنسانية متغلغلة في الأعماق كقوله **(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)** الروم/٣٠، وأنه لو ترك الإنسان وشأنه دون مؤثرات من الخارج عليه، لآمن بالله واستقام عن طريق التفكّر والنظر العقلي، ولاستجاب لدعوة الهدى من غير تردّد.

فائدة: مَنْ هو الْمُستَضْعَفُ؟ المستضعف ضد المستكبر، من الضعف ضد القوّة، والضعف قد يكون مادياً ومعنوياً، في النفس وفي البدن، وفي الحال والأشكال، وقد يكون ضعف العقل والرأي والقرار والموقف، **والمستضعف**: الذي يتضعّفه الناس ويستذلون رأيه ويتجبرون عليه لفقره وضعفه، **والمستضعف**: معنوياً ونفسياً غير الضعيف جسدياً ومادياً، وهو من أصابه الضعف وانهيار الإرادة بسبب ظلم الظالمين وطغيانهم سواء أكان الاستضعاف ثقافياً أو نفسياً أو اقتصادياً أو سياسياً أو بدنياً.. وغير ذلك، **وليس المستضعف** بمعنى الفقير والمسكين، وإنما هو العاجز عن تحسين أوضاعه للظروف السيئة العامة القاهرة المحيطة به والمسلّطة عليه.

أحوال المستضعف: هناك مستضعف بالفعل والقوة، وهناك مستضعف بالقوة ولكنه مستكبر بالفعل والحقيقة، مستضعف في الظاهر مسلوبة قوته وإرادته، ولكنه إذا استلم سلطة أو منصب بالفعل فيتحول إلى دكتاتور ظالم فاسد، فيرجع إلى أصله وما تهواه نفسه! وسُنَّة الاستضعاف مرحلة مهمة لتزكية النفس وتهذيب طبائعها لإعدادها إلى مرحلة الاستخلاف كقوله (وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ) القصص/٥، والذي لا تنفعه مرحلة الاستضعاف فلا تنفعه مرحلة الاستخلاف، وَتَسَلّمُ المنصب والجاه، كقوله **(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا)** الأعراف/١٣٧.

عن النبي (ص) (أبغوني في الضُّعفاء، فإنّما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم) كنز العمال خبر٦٠١٩ ولم يقل (وأورثنا بني إسرائيل) لأن نصرة الله تعالى للمستضعفين المجاهدين لا تخص قوم بني إسرائيل وحدهم في زمانهم، وإنما يكشف القرآن الكريم عن سنّة إلهية فَعّالة عامة مستمرة مقدّرة ومدبّرة في كل زمان ومكان، ولكن ضمن ظروفها الموضوعية المناسبة.

٣٢ – ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾

ويستمر تصوير المشهد الحقيقي في الحوار المتبادل الساخن في يوم القيامة، ولكن كل هذا الحوار وهذه الملامة لا تنفع بعد فوات الأوان (**قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا**) وقال الذين طغوا وبغوا واعتدوا وقادوا الذين استضعفوا وهم أصحاب الاتّباع الأعمى، منكرين عليهم هذه التهمة (**أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى**) الاستفهام استنكاري، أنحن منعناكم عن سبيل الهداية وصرفناكم عن الاستقامة؟ (**بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ**) وكنتم مختارين غير مجبرين في اختيار هذا السبيل، ولم تقيموا وزناً لمن جاءكم بالحق (**بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ**) فطبيعتكم تحب الجريمة، ونفوسكم تميل إلى الإثم والفساد، فأنتم باختياركم كفرتم حيث أعرضتم عن الهدى والخير والاستقامة برغبتكم، **وأخذتم الكفر والفسوق والعصيان عنا لأنكم من أهله ومن معدنه،** طمعاً في المال والجمال وحسن الحال والجاه والمنصب وحبّ الفساد، أي أن الجميع مشتركون في الجرم، فإذا كانت ضغوطاً على أجسادكم ولكن ليس لنا ضغوطُ على عقولكم وقناعاتكم، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤوساء دونهم ولكن الحقيقة.

كقوله (**لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ**) الأعراف/٣٨، وأيضاً لا حجة مقنعة كونهم مستضعفين، والذي لا تليق به الفضيلة تليق به الرذيلة، **فائدة:** وفي هذا الحوار تنبيه للكفّار على أن طاعة بعضهم لبعض في الدنيا تصير سبب عداوة في الآخرة، وتبري بعضهم من بعض.

كقوله (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) الزخرف/٦٧.

٣٣ – ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

لا يزال الجدال البائس العقيم بين المستضعفين والمستكبرين، فلكل واحد منهم ظُلْمَه وجريمته وإثمه، هذا ظالم بتجبره وطغيانه وتضليله، وهذا ظالم بتنازله عن كرامته وحريته ويخضع لأوامر الطغاة والمستكبرين، لا يعفيهم أنهم كانوا مستضعفين، لقد أكرمهم الله بالإدراك والعقل والحرية فلم يكرموا أنفسهم، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا ذيولاً أذلّاء يساقون كما يُساق القطيع! **في نهج البلاغة خطبة٨٦** (لاَ تُرَخِّصُواْ لأَنْفُسِكُمْ فتذهب بكم الرُّخَصُ مذاهب الظَّلَمة، وَلاَ تُدْهِنُواْ فيهجم بكم الإدهان على المعصية) **المعنى:** (**وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا**) فرد عليهم المستضعفون بحسرة ولوعة وألم قائلين: لم يكن إجرامنا هو الذي صدّنا كما تزعمون (**بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**) **المكر:** صرف الغير عما يقصده بحيلة ودهاء، بل تصدّيكم لنا بالمكر والدهاء والاحتيال علينا ليلاً ونهاراً مستخدمين كل أساليبكم الشيطانية الخادعة، التي ظاهرها يغرّ ويسرّ ولكن باطنها يضر وعواقبها وخيمة، من ترغيب بالأموال والجمال وحسن

الحال، وترهيب بالعقوبات الشديدة، من أجل أن تستضعفونا وتتآمروا علينا فتحملونا على طاعتكم فيما تريدون من فساد ومنكر، وصَدّنا عن الهداية والإيمان، فلم نشعر إلاّ ونحن مضطرون إلى الانقياد لأمركم ونحن بين الترغيب والترهيب، **وهكذا يُصَوِّر القرآن مشهد يوم القيامة المثير ويجسّمه أمام أعيننا وكأنه حقيقة متحركة واقعة مؤثرة، ونلاحظ كيف يتعاون الفاسدون ويتعاضد الكافرون**

في الدار الدنيا بحكم المصالح المشتركة، كقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) الأنفال/٧٣ وقوله (**وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**) الجاثية/١٩ (**إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا**) **أنداداً**: أمثالاً ونظراء وشركاء من الآلهة الأخرى المادية أو المعنوية، ولولا تزيينكم لنا الأنداد لله ما كفرنا، وكنتم قادتنا وكنا من رعاياكم مأمورين بأوامركم ومنتهين عن نواهيكم، **وكلمة الفصل عند الله**: هي أن لكل طرف جريمته وإثمه وعقابه (**فالمستضعفون**) مسؤولون عن اتباعهم لأوامر الطغاة اتباعاً أعمى، وأن الله أكرمهم بالعقل والإدراك والحرية، فعطّلوا الإدراك وباعوا الحرية وأهانوا النفس الكريمة فاستحقوا العذاب (**والمستكبرون**) هم بذواتهم مستكبرون ومع غيرهم مستكبرون وفاسدون وهم مسؤولون عن إضلال الآخرين وإغوائهم، **إذا**: الجميع مسؤول عن موقفه ومحاسب عليه.

(وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ)

وأَسَرُّوا: وأخفوا، **النَّدامَةَ**: التَّحسُّر في أمر فائت، إنّهم عندما واجهوا وشاهدوا العقاب الشديد، ارتفع عندهم منسوب الشعور بالندم العميق الخانق والحسرة الضاغطة المؤلمة، وأخفى الفريقان لوعة الندامة، وشدة الملامة العميقة الحارقة الخانقة لنفوسهم من شدة الحسرة على ما فعلوا من الضلال والإضلال، **وأخفى الندامة كل منهما على الآخر**، وهي كالسّهام في نفوسهم، مخافة التعيير والفضيحة، وقبل أن تحترق أجسادهم في عذاب جهنم، فأخذهم العذاب النفسي قبل العذاب الجسدي، ويُصَوِّر القرآن النَّدامة وكأنها شيء مادي فأسّروه وأخفوه! وصبروا وتحسّروا وضاقت نفوسهم (**وَفِي العَيْنِ قَذَى وَفِي الحَلْقِ شَجَى**) فتكون حالة النادمين يوم القيامة حرجة مضطربة قلقة من شدة المأساة (**لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ**) ومن هول المطّلع، وصعقة صدمة العذاب الماحقة التي تسحق كيانهم بموت بطيء، فهم يدفنون الكلمات في صدورهم فلا يستطيعون أن يتكلّموا بلسانهم ولا تتحرك شفاههم.

كقوله (**فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ**) المائدة/٥٢، عن النبي (ص) (**شَرُّ النَّدَامَةَ، نَّدَامَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) البحار٧٧ص١١٥، هذا الصنف من الناس لا تليق بهم الهداية فتليق بهم الغواية فيستحقون العذاب، إنك لا تجني من الشوك العنب، وكما تزرع تحصد،(الدنيا مزرعة الآخرة) كقوله (**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**) فصلت/٤٦، فينبغي أن لا يسير الإنسان على ضوء عقل غيره ويلغي عقله، فيقوده الآخرون إلى ما هم عليه، **عن الإمام الصادق** (ع) (مَنْ

دَخَلَ فِي هَذَا الدِّينِ بِالرِّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجَالُ كَمَا أَدْخَلُوهُ فِيهِ، وَمَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ زَالَتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ) البحار٢/١٠٥ **(وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا)** ثم يُصّور السيّاق القرآني الفني حالتهم عند التهيّؤ للعذاب المهين **فيقول**: وجعلنا سلاسل الحديد التي تربط العنق باليدين لإذلالهم وتمنع تحركهم، وهو عذاب مادّي جسدي أليم وسبقه عذاب نفسي مهين، زيادةً على تعذيبهم بالنار، فتراكم عليهم العذاب المتنوّع الأليم المادي والمعنوي (النفسي) في الآخرة، كما تراكم عليهم الضلال البعيد والضياع الشديد المديد في الدنيا كقوله (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) الفرقان/٢٧-٢٨ **(هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**؟ الاستفهام للإنكار، أي لا تجزون ولا تعاقبون إلاّ بقدر أعمالكم التي عملتموها باختياركم وعلى قدر استحقاقكم، **فتكون العقوبة على قدر الجناية، والعقاب من جنس العمل، والنتائج كالمقدمات**، أو تكون الأغلال بمعناها المعنوي: حيث تتجسّم أعمالهم على شكل أغلال ثقيلة وضعت في رقابهم وعليهم أن تتحملها أعناقهم، فحبستم في العذاب المهين، فتكون أعمالهم الإجرامية هي أغلالهم في أعناقهم، وجاء سياق الآية بلفظ الماضي ويراد منه المستقبل لتحقق وقوع الفعل، وهكذا يعرض القرآن صوّراً مجسّمة حيّة مؤثّرة، في مشهد حيّ من مشاهد يوم القيامة، لبيان مصير المجرمين ومن يثق بهم ويسير معهم من الانتهازيين الذين ينعقون مع كل ناعق، عسى أن تتعظ الناس وتعتبر، (والَّذِيْ لاَ يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ)، في نهج البلاغة خطبة٨٦ (السَّعِيْدُ مَنْ وَعِظَ بِغَيْرِهِ).

٣٤ - ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾

يكشف القرآن الكريم عن سنة تاريخية قديمة فاعلة في حالة الأمم الماضية المكذّبة للرسل، وكحال الأمم الحاضرة المكذّبة للرسالات السماوية، إنّ الذي يتزعّم التكذيب ويقاوم الرسل والرسالات السماوية، ويعمل مواجهة عنيفة ضد أي تغيير إصلاحي في المجتمع هم **(مُتْرَفُوهَا)** الذين عَطَّلو عقولهم وتحكّم بهم غرورهم ومناصبهم وطغيانهم وأبطرتهم نعمتهم، **المعنى**: **(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ)** رسولاً منذراً بالعذاب **(إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا) مُتْرَفُوهَا**: أغنياؤها وأثرياؤها وأصحاب النِعم الواسعة، ورؤساؤها وقادتها وجبابرتها الظالمون المتنعّمون بأنواع الخيرات، المنغمسون في أنواع المنكرات، الذين لا يهمهم أحد إلاّ مصالحهم الشخصية، وهم المحتكرون للسلع والمتحكمون بالإعلام والأسواق والبضائع التجارية والأسعار والقيمة النقدية كقوله (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) الأعراف/١٨٢.

وتخصيص المترفين بالتكذيب له دلالاته البعيدة، لأنهم الأصل في الفساد والعناد والتكذيب للرسل والرسالات السماوية الهادية، وكأن الترف يعمي ويطغي ويصم ويذل الرقاب، في نهج البلاغة (فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ، وَاحْذَرُوا بِوَائِقَ النِّقْمَة) خطبة/١٥١ كقوله **(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)** إبراهيم/٢٨، ودوافع التكذيب هو التكبّر

والتفاخر بالأموال والأولاد والشهوات واللّذات، ولهذا أخذوا الترف علة للتمييز، وأخذ المترفون وضعاً طبقيّاً معقّداً مؤثّراً ليواجهوا الرساليين بكل الوسائل الممكنة للحفاظ على امتيازاتهم! لأنهم يعرفون أن وظيفة الرسالات السماوية هي تحرير الإنسان من الخضوع لإنسان مثله تحت ضغط حاجاته، وفي غرر الحكم **(وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً)** **والمترفون:** هُمْ آفة المجتمعات، وآفة في كل جيل كقوله (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) الإسراء/١٦، وليس الغنى في ذاته هو الذي يفسد الأخلاق والطبائع، وأنما الترف والثروة وكثرة النعم تستهوي النفوس الضعيفة، فتفضل الطغيان وتحبّ الاستكبار كقوله **(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)** العلق/٦-٧، **والترف:** يُغْلِظُ القلوب ويُقْسِّيها ويفقدها الحسّاسية الإنسانية والشُّعور بالآخر، ويمنعها من الانفتاح على نور الهداية والدراية، ويتعالى المترف على الناس ويتعدّى على حقوقهم كقوله **(وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)** هود/١١٦ كقوله (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) آل عمران/١٧٨، واللهُ لقد سَتَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ غَفَرَ، أنَّهُ أَمْهَلَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَهْمَلَ، وَأَنَّهُ أَنْذَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَعْذَرَ، **المترف:** الذي تملكه النعمة أكثر مما يملكها، فهي تتحكّم فيه وتسيطر على مشاعره، فيكون عبداً لها، فيستكبر ويطغى بسببها كقوله (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) الشورى/٢٧.

والذي تطغيه النعمة فإنه يندفع نحو الشهوات واللّذّات المحرّمة ويكفر بالصالحات وعمل الخيرات كقوله **(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** المطففين/١٤ **(إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)** إنا لا نؤمن برسالتكم السماوية أيها الرسل، ولا نصدقكم بما جئتم به، وهذا إشارة إلى أن اتباع الأنبياء (ع) أغلبهم من الفقراء وأواسط الناس وقليل من الأغنياء، لأن دعوة الأنبياء والرساليين والمصلحين تتعارض مع مصالح المترفين وأهوائهم الأنانية. **عن الإمام الصادق** (ع) (عَليكُمْ بِالأشكَاْلِ مِنَ النّاسِ، والأوساط مِنَ النّاسِ، فعِندهم تجدوُن مَعَادِنَ الجَوْهَر) مستدرك الوسائل٢/٦٤.

٣٥ – ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾

هذا التباهي والغرور بكثرة الأموال والأولاد، هو منطق المترفين أصحاب الجهل والغرور والجهل المركّب، وأصحاب الضلال البعيد، ومصادر التضليل للناس المقيت، فهم يضيّقون الحقائق الكبرى ويبرمجونها بحسب عقولهم الضيّقة، ويقنعون أنفسهم أنهم أصابوا الحق، فيتصوّرون جهلاً وغباءً ويخدعون أنفسهم أنهم بكثرة أموالهم وأولادهم سينجون من العذاب الأخروي إن وجد ! كقوله **(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ، نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ)** المؤمنون/٥٥-٥٦، **المعنى:** **(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا)** من هؤلاء الأنبياء والمؤمنين المستضعفين، هم تَصوّروا واهمين أن هذا الامتياز

والتكريم دليل على أن الله يحبهم ويغنيهم ويرزقهم ويجعل لهم منزلة وكرامة عنده، فإن أكرمنا في الدنيا فلابد أن يكرمنا في الآخرة كقوله (**وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**) التوبة/٨٥، وتصوّروُا أنهم بهذه الامتيازات يكونون أولى من الأنبياء في قيادة الجماهير، فهم قاسوا أمر الدنيا على أمر الآخرة، وقاسوا موازين العرف والعادات والتقاليد وكأنها هي نفسها موازين الله تعالى، وتعاملوا مع القضايا الكبرى المصيرية باللّامبالاة كما يتعامل الطفل الصَغير مع الجوهرة الثمينة على أنها حصى! كقوله (**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى**) فصلت/٥٠ (**وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**) وعلى هذا التصوّر الخاطئ يخدعون أنفسهم بأنهم حتى لو بعثنا كما تزعمون فما نحن في الآخرة بمعذبين لأن الله راضٍ عنا، ولأننا أكرم عند الله منكم في الدنيا فلا يهيننا بالعذاب يوم القيامة، ولو لم يكن الله راضياً عنّا لما بسط لنا في الرزق، فهم لا يعلمون سُنة الابتلاء وفلسفة الامتحان، أنها في الفقر والغنى وفي السرّاء والضرّاء كقوله (**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**) الأنبياء/٣٥ وقوله (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**) الكهف/٧، أنهم فهموا الحياة على أنها كثرةُ نِعَم وأموال وأولاد، ولم يعلموا أن الفهم الصحيح للحياة أهم من كثرة النعم والأموال والأولاد، لأن الفهم الصحيح يترتّب عليه السلوك الصحيح.

في نهج البلاغة حكم٨١ (قِيمَةُ كُلِّ امْرِىءِ مَا يُحْسِنُهُ) وليس قيمته كل امرئ ما يملكه، وأن هذه النعم المتنوعة ليس للإكرام والتفضيل وإنما للاختبار والامتحان، ثم تحاسبون عليها من أين أتى بها، وكيف جمعها وكيف أنفقها، ولو كانت مثقال الذرة، وأن البلاء بالغنى والرخاء والثروة أكثر وأصعب وأشد من البلاء بالفقر كقوله (**وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) الأعراف/١٦٨.

وقوله (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ، كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) الفجر/١٥-١٧، وعن الإمام الصادق (ع) (**مَا مِنْ قَبْضٍ وَلاَ بَسْطٍ إلاّ وَللهِ فِيهِ مَشِيّة وَقَضَاء وَابْتِلاَء**) التوحيد ص٣٥٤، وهكذا اتّبعوا أهواءهم بغير علم فخدعهم الشيطان وخدعوا أنفسهم كقوله (**الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ**) مُحَمَّد/٢٥ وقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) الحشر/١٩، **وفي غرر الحكم** (أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ إصْلاَحِ نَفْسِهِ).

٣٦ – ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

عندما قال المشركون إنّ الذي رزقنا كثرة الأموال والأولاد في الدنيا في الآية/٣٥، سيرزقنا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا، وكأنه كل شيء بأيديهم وتحت سلطتهم! كقوله (**قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ**) الأعراف/١٨٨.

فجاءهم الجواب: بأن بسط الرزق وسعته ليس دليلاً على الكرامة والقربى، وليس التقدير والتضييق في الرزق دليلاً على احتقار الفقير وكراهيته، وأنما علاقة الرزق بالأسباب المرتبطة به كقوله (**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**) الشورى/٢٧، ومسألة بسط الرزق وقبضه مسألة منفصلة عن الإيمان والكفر، ولا علاقة لها برضا الله وغضبه على الإنسان، فقد يغدق الرزق على من هو عليه غاضب، كما يغدقه على من هو عليه راض، وقد يُضيّق الله على أهل الشرّ كما يَضيّق على أهل الخير، **وقد يغدق الله على أهل الشرّ استدراجاً لهم** ليزدادوا إثماً وسوءاً، وقد يحرمهم فيزدادوا شرّاً وفسوقاً، وقد يغدق الله على أهل الخير ليشكروا نعمة الله عليهم وليكون لهم رصيداً من الحسنات، وقد يحرم أهل الخير من سعة الرزق فيبلو صبرهم على الحرمان ويكشف ثقتهم بربهم، ودولاب الحياة لا يسير إلاّ بهذا التفاوت في الرزق المبنى على الحكمة والمصلحة العامة، وإنما منازل الناس عند الله بإيمانهم وأعمالهم الصالحة وتزكية أنفسهم كقوله (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) الحجرات/١٣ وبسط الرزق وقبضه فهو في النتيجة ابتلاء من الله كقوله (لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) المائدة/٤٨، **وعن الإمام الصادق** (ع) (مَا مِنْ قَبَضٍ وَلاَ بَسْطٍ إلاّ وَللهِ فِيهِ مَشِيّة وَقَضَاء وَابْتِلاَء) التوحيد ص٣٥٤.

المعنى: (**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**) (**قُلْ إِنَّ رَبِّي**) قل يامُحّد لهؤلاء المشركين المترفين الجهلاء، إنّ الله (**يَبْسُطُ**) أي يُوَسِّع الرزق على من يشاء، فقد يُوسّع على الكافر والعاصي لا لمحبة فيهما (**وَيَقْدِرُ**) ويضيّق على من يشاء من عباده المؤمنين المطيعين لا لبغض منه لهم، وإنما وفق الحكمة والمصلحة العامة، ومشيئة الله مرتبطة بامتحان الخلق، والمتصلة بنظام الأسباب والمسببات، فلا تظنوا أنّ كثرة الأموال والأولاد دليل محبة وسعادة، وليس السعة والتقدير له علاقة بمقام الإنسان عند الله كقوله (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا) الطلاق/٧، (**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**) لا يدركون دقة هذا النظام ولا يفهمون حقيقته التي تعتمد على قاعدة الأسباب والمسببات في سننه الإنسانية العامة، كقوله (**وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، فَأَتْبَعَ سَبَبًا**) الكهف/٨٤-٨٥ **وعن الإمام الصادق** (ع) (أَبَى اللهُ أنَّ يَجْرِيَ الأَشَيْاءَ إلاّ بأَسَبَابٍ، فَجَعَلَ لكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) الكافي١/١٨٣، والسبب بيد الإنسان تكريماً له والمسبّب هو

الله تعالى، ولا يعمل المسبّب إلاّ بوجود السبب، كقوله (**اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ**) الشعراء/٦٣.

لو لم يضرب بعصاه ما انفلق البحر، فليست عصاه التي فلقت البحر، وإنما بسبب عصاه تحرّك المسبّب ففلق الله البحر، فاعمل بعلم وخبرة وتجربة وجد وبكامل الاستطاعة والبقيّة على الله. واعلموا أنّ كثرة الأموال والأولاد والرفعة والكرامة، وكثيراً ما يكون للاستدراج كقوله (**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**) الأعراف/١٨٢.

فائدة: ظاهر الآية أن الرزق بيد الله سبحانه وأنه هو الذي يُوَسِّع على من يشاء وَيُضيّق على من يشاء، وأن الله أمر بطلب الرزق والسعي له وبذل الجهد الّلازم مع الخبرة والاختصاص والكفاءة والتجربة (قِيمَةُ كُلِّ امْرِىءِ عَلَى قَدَرِ خِبْرَتِهِ وَمُقْدَارِ تَجْرُبَتِهِ) كقوله (**فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ**) الملك/١٥، وقوله (**وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**) النجم/٣٩ وقوله (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) الجاثية/١٥ **وفي غرر الحكم** (الْمَرْءُ يُوْزَنُ بِقَوْلِهِ وَيقَوَّمُ بِفِعْلِهِ) **عن الإمام علي** (ع) (مَنْ قَصَّرَ فيَ العَمَلِ اُبْتُلِيَّ بالهَمِّ) شرح النهج١٨/٣١٧، فإذا اختلف السعي واختلفت الكفاءات اختلفت موارد الرزق، وصار الفقر والغنى من صنع الإنسان والسلطان لا من صنع الله، **عن الإمام علي** (ع) (إِنَّ الأَشْيَاءَ لَمَّاْ ازْدَوجَتْ، ازْدوَجَ الْكَسَلُ وَالْعَجْزُ فَنَتَجَ مِنْهُمَاْ الْفَقْرُ) البحار٧٨ص٥٩ لأن الله تعالى يتعامل مع الأشياء بأسبابها التي يصنعها الإنسان لنفسه كقوله (**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**) الرعد/١١، عن الإمام الحسن العسكري (ع) (**لاَ يَشْغِلُكَ رِزْقٌ مَضْمُونٌ عَنْ عَمَلٍ مَفْرُوضٍ**) البحار٧٨/٣٨٤، أي إعمل بمقوّمات النجاح بالقدر الممكن، واطمح دائماً نحو الأحسن، وفكّر لتطور الحال نحو الأفضل وحياة أجمل، وهذا ليس له علاقة بالإيمان والكفر، فمن سلك سنن النجاح وصل إلى مطلوبه، ومن أخطأها فلا ييأس فليُصَحّحِ المسار، ولو كان بسط الرزق دليل الإكرام والرضا من الله تعالى لا ختصّ به المطيع، ولو كان التضييق دليل الإهانة لا ختص به العاصي، عن النبي (ص) (**لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تزِنَ عِنْدَ اللهِ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ مَا أَعْطَى الْكَافِرُ مِنْهَا شَيْئاً**) البحار٧٧ص٧٩، في الحديث القدسي عن الله، عن النبي (ص) (إنّ عبادي من لا يصلحه إلاّ الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلاّ الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وأني أدبّر لعبادي بعلمي بقلوبهم)

٣٧ ــ ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾

وأحسن شيء يقربكم إلى الله هو الإيمان الصادق والعمل الصالح النافع وقضاء حاجة الفرد، ونهضة المجتمع كقوله (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ

الْجَنَّةَ) النساء/١٢٤، وليست أموالكم ولا أولادكم التي تفتخرون بها هي التي تقربكم من الله **(زُلْفَى)** قربى كقوله (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ) التغابن/ ١٥ وقوله (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا) التوبة/٥٥، **المعنى: (وَمَا أَمْوَالُكُمْ)** التي خوّلتموها **(وَلَا أَوْلَادُكُمْ)** التي رزقتموها والتي تعتمدون عليها في النجاة من العذاب **(بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا)** ليست بالأمور التي تقربكم إلى الله **(زُلْفَى)** قربى، أو وسيلة تَقَرّبُ لدينا أو منزلة قريبة **(إِلَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) (إِلَّا)** أي باستثناء منفصل عما تقولون، وإنما الذي يُقرّب إلى الله **(زُلْفَى)** قربى هو الإيمان الصحيح والعمل الصالح الذي هو ترجمان الإيمان، وحسن تصرفكم في الأموال والأولاد والنعم المتنوعة، وشكركم لله لهذه النعم واستقامتكم الدينية والأخلاقية والعلمية في السرّ والعلانية، مع ربكم ومع أنفسكم ومن الناس **(فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ)**

الضعف: اسم جنس يدلّ على الكثير والقليل، أي فأولئك المؤمنون الصالحون لهم الجزاء المضاعف الكثير، لأنهم اهتدوا بأنفسهم وهدوا غيرهم كقوله **(الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآَبٍ)** الرعد/٢٩، ولأن الله يضاعف الحسنات إلى أضعاف لا يعلمها إلاّ هو كقوله (وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) النساء/٤٠ وعن النبي (ص) (مَنْ سَاءَتَهُ سِيِّئَةٌ وَسَرّتَهُ حَسَنَةٌ فَهُوَ مُؤْمِنٌ) البحار ٢٥٩/٧١ **(وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آَمِنُونَ)** وهم في **(الْغُرُفَاتِ)** وهي كناية تشبيهية، واستعارة بلاغية عن علو الدرجة وكمال المنزلة، أي في غرف الجنة في منازلها العالية والقصور السامية والمساكن الجميلة في الجنة **(آَمِنُونَ)** ومأمونون ومطمئنون، أنهم بنعم دائمة وخيرات باقية وكثرة المشتهيات واللّذات، ولا يخافون شيئاً مما يخاف مثله في دار الدنيا **(وآمنين)** من الخروج منها أو الحزن فيها **(وآمنين)** من الموت والهرم والمرض ومن السيئات والآفات والمكروهات والمنغّصات كقوله **(أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا)** الفرقان/٧٥، ولأن الجنة دار السلام كقوله (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام/١٢٧.

٣٨ – ﴿ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

(وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ) جاء بالفعل المضارع، أي يسعون على الدوام ويجدّون ويتفننون في إبطال **(آيَاتِنَا)** ودلائلنا القرآنية وتكذيب رسالة رسلنا والصدّ عنها والطعن فيها والتشويش عليها وإطفاء نورها وعرقلة تأثيرها! فهم لا يؤمنون ولا يتركون غيرهم يسير في طريق الإيمان **(مُعَاجِزِينَ)** معاندين، يتوهّمون أنهم يعجزون الله ويغلبون إرادته ولا نقدر على عقوبتهم و**(مُعَاجِزِينَ)** مسابقين، أي يعملون متسابقين على تعجيز الدعاة إلى الله وتثبيطهم عن فعل الخير، ويعملون على بث الشبهات في القرآن، وإثارة الخوف في نفوس الناس بما يخططونه من خطر الشر والفساد، وما يثيرونه من أجواء الكفر وما يقومون به من مشاريع الضلال المتنوعة،

ظانين أنهم يعجزوننا أي يفوتوننا فلا نحصي أعمالهم ولا نقدر عليهم، **(أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ)** تحضرهم الزبانية حيث كانوا مأسورين متّهمين، فيردون عذاب جهنم ولا يجدون عنها مهرباً، وأي عذاب أشدّ من هذا السجن الأليم الدائم الجحيم، الذي صنعوه لأنفسهم من أموالهم وأولادهم وعنادهم وسوء تصرفاتهم.

كقوله (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) الكهف/٤٩.

٣٩ – ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

فكما أن أجل الإنسان محدد كذلك رزقه محدد من قبل الله، فهو سبحانه يوّسعه على أناس ويُضيّقه على آخرين ضمن الحكمة والمصلحة العامة أو الخاصة، فمن الناس من يناسبه الغنى ولو أفقره لأصابه الضرر، ومن الناس من يناسبه الفقر ولو أغناه لافسده الغنى، وأيضاً يعتمد الرزق على قاعدة الأسباب والمسببات.

المعنى: (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ) أي يُوَسِّعه **(لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)** على من يشاء من عباده في ظروف معينة **(وَيَقْدِرُ لَهُ)** ويضيّق عليه في ظروف أخرى ليمتحنه، فهذا اختبار في شخص واحد باختلاف الظروف والأزمات، والآية السابقة/٣٦ كانت في اختبار شخصين مع اختلاف الظروف والأزمان، فلا تَغترّوا بالأموال التي رزقكم الله إيّاها، فإنها امتحان وتحاسبون عليها وعلى كل نعيم كقوله **(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)** التكاثر/٨ **(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ)** **(مِنْ شَيْءٍ)** على الإطلاق في سبيل الله، قَلَّ أو كَثُرَ، إنفاق في الطرق التي تخدم الناس وترفع مستواهم وتقضي حوائجهم وتنهض بهم وترضي الله ربهم فخيره يعود لأنفسهم كقوله (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ) البقرة/٢٧٢، **والإنفاق مفهوم واسع الدلالة،** يشمل القول والعمل، والإنفاق المادي والمعنوي، والعملي والمهني.. وكل عمل صالح فهو إنفاق صالح، وكل معروف ونصيحة صدقة فهو إنفاق، وكل ينفق من موقعه وعلى قدره، وكل ينفق مما عنده كقوله **(عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ)** البقرة/٢٣٦، وهو ترغيبهم بالإنفاق في سبيل الله فهو الذخر الباقي والعمل الشافي الذي يفيد الفرد والمجتمع، لتقرَّ هذه الحقيقة واضحة في القلوب.

كقوله (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا) مريم/٧٦، **في غرر الحكم** (جُودُوا بِمَا يَفْنَى تَعَتاضُوا عَنْهُ بِمَا يَبْقَى) (فَهُوَ يُخْلِفُهُ) يُعَوّضُه، فهو سبحانه يعوضكم عنه برزق آخر في الدنيا إما عاجلاً أو آجلاً، بزيادة النعمة ومضاعفة الخير والبركة فيه أو دفع الشر، أو يعوضكم بشكل من أشكال التعويض المناسب، بتهيئة الأسباب اللازمة لذلك كقوله **(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ)** البقرة/٢٦١، ويعوضكم في الآخرة الثواب العظيم ويدَّخر لكم المفاجآت والمخبآت المدهشة في الجنة **(فَهُوَ يُخْلِفُهُ)** تعبير جميل وجليل وشفاف ونفّاذ ويغري النفوس

ويشجّعها على الإنفاق، فهو ذخيرة باقية طيّبة في ميزان حسناتكم، فلا تتوهموا أن الإنفاق النافع للناس مما ينقص الرزق، بل هو وعد الله وعهده بالتعويض والخلف من حيث لا يحتسبون كقوله (وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) الحديد/٧، وقوله (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً) البقرة/٢٤٥، **يقرض الله**: ينفق ماله في سبيل الله ويعتبره قرضاً لله وديناً عليه سبحانه! **(وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)** ذات معنى واسع الدلالة، وهو خير المعطين لعباده، لأنه الله سبحانه هو الرزاق والنافع حقيقة، وهو الغنّي بذاته والمغنى لغيره، وهو على كل شيء قدير، وهو سبحانه يُسخّر أسباب الرزق والمنافع للمرزوق، فاسعوا لاتّباع الأسباب الممكنة والّلازمة، في غرر الحكم:

(لِيْسَ لأَحَدٍ مِنْ دُنْيَاهُ إلاّ مَاْ أَنْفَقَهُ عَلَى أُخراه) وعن النبي (ص) (يُنَادِي مُنَاد كُلَّ لَّيْلَةٍ: اللَّهُمَّ هَب لْمُنْفِقٍ خَلَفاً، وَيُنَادِي مُنَادٍ آخَرُ: عَجِّلَ لْمُمْسِكٍ تَلَفاً) الترغيب والترهيب٤/١١٨، والله سبحانه يرزق جوداً وكرماً وبغير حساب ودونما مقابل، وغيره يرزق لقاء منفعة. **فائدة**: إنما كرر آية الرزق كما في الآية٣٦، لاختلاف القصد والفائدة، حيث إنّ القَصْدَ في الآية ٣٦ توبيخ للكافرين وكانوا المخاطبين به، والقصد هنا وعظ للمؤمنين لاحتواء الآية على كلمة **(مِنْ عِبَادِهِ)** الصالحين وترغيبهم بالانفاق المادي والمعنوي في سبيل الله، كل إنسان بقدره ومقداره ومن موقعه.

٤٠ – ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾

القصد من هذا السؤال

(والاستفهام الإنكاري) هو تقريع المشركين وتوبيخهم بشدة ليكون خجلهم أشد، تدل الآية أن بعض العرب الجهلاء كانوا يعبدون الملائكة عبادة جوفاء عمياء صمّاء لأنهم يجهلون الملائكة ولا يعرفون التعامل معها، وفي الحقيقة أنهم كانوا يعبدون الشيطان وأعوانه ووساوسه، وهذا هو البديل عن عبادة الله كقوله **(بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)** الكهف/٥٠ وقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣ ، **في نهج البلاغة خطبة١٥٤** (والعامل بِغَيْرِ علم كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الصَّحيح لاَ تَزِيْدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إِلاّ بُعْدَاً عَنْ الصَّوَاْبِ) **المعنى: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا)** يبعث الله يوم القيامة المشركين العابدين لغير الله والمعبودين من دونه سبحانه، ومن جملتهم يحشر الملائكة **(جَمِيعًا)** مجتمعين لا يشذ أحدٌ منهم، من تقدم ومن تأخر للحساب والجزاء **(ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ)** هذا سؤال استفهامي استنكاري وجّه إلى الملائكة ظاهراً والمراد منه توبيخ المشركين وتقريعهم وتيئيسهم من شفاعة الملائكة لهم، ثم يسأل الله الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، **سؤال تقرير**: هل هؤلاء الكفّار كانوا يتوجّهون إليكم بالعبادة؟ هل كنتم راضين بهذه العبادة؟ فتبرّؤوا من عبادتهم

والملائكة مطيعون لله عز وجل كقوله (**لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**) الأنبياء/٢٧، وهذا وارد على الحديث المشهور، **عن الإمام الصادق** (ع) (إنّ اللهَ بَعَثَ نَبيهِ بَإيّاكَ أَعْنِي واسْمَعِيْ يَاجَاْرَة) البحار٩٢/٣٨١، كقوله (أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) المائدة/١١٦، وقد علم الله سبحانه أن الملائكة وعيسى مُنَزَّهونَ عمّا نسب إليهم.

٤١ – ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾

(**قَالُوا سُبْحَانَكَ**) أي قالت الملائكة (**سُبْحَانَكَ**) تعاليت وتقدّستَ ياربنا من هذا الادّعاء الكاذب السابق، سبحانك أن يكون معك إله، وأنت مُنزّه عن الشريك أو الند، ونحن عبادك مطيعون أمرك ولن نعبد غيرك كقوله (**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**) التحريم/٦ (**أَنْتَ وَلِيُّنَا**) أنت ناصرنا وربنا الذي نواليه ونخلص لك العبادة (**مِنْ دُونِهِمْ**) من دون هؤلاء الكفار، وما كنا نرضى بعبادتهم إيانا إن كانت هناك عبادة (**بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ**) بل كانوا في الحقيقة يعبدون الشياطين (إبليس وأعوانه وذريته) إذ يطيعونهم في إغوائهم ويلبوّن وساوسهم في عبادة غير الله وزينوا لهم كل منكر فأطاعوهم، وطاعتهم هي عبادتهم، لأن العبادة هي الطاعة مع الخضوع كقوله (**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**) الجن/٦، وهكذا البديل عن عبادة الله الضياع والتيه كقوله (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا) الإسراء/٢٢ (**أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ**) مصدّقون بالشياطين مطيعون لوساوسهم منقادون لمغرياتهم كقوله (وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا) النساء/٣٨، **وفي نهج البلاغة**: (وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْهَوَى مَنْسَاةٌ لِلإِيمَانِ، وَمَحْضَرَةٌ لِلشَّيْطَانِ) خطبة/٨٦.

فائدة:

عندما يألف الإنسان شيئاً ومعتقداً، ويعتاد عليه ولم يتحقق منه على أنه حق أو باطل، فسوف ينقاد إلى ما يألفه ويقنع به ويعتاد عليه ويكون بمستواه! فينبغي على الإنسان قبل أن يعتمد معتقداً ويألفه أو يعتنق مذهباً فكرياً معيناً، فعليه أن يبحث عن صحّته بلا تأثيرات عليه، ويطمئن قلبه هل هذا بمستوى الاطمئنان به، **فيبرئ ذمّته مع نفسه ومع ربه ومع الناس؟** فالاتّباع الأعمى حالة إلغاء العقل وإهانة كرامة الإنسان، وهي حالة خطيرة ومريرة لأنها تؤدي إلى الضياع والابتداع، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وشر الأمور محدثاتها، **في نهج البلاغة حكم١٠٧** (رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ، وَعِلْمُهُ مَعَهُ لاَ يَنْفَعَهُ)!

٤٢ – ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

في هذا اليوم الحاسم تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض، لذلك يتغيّر السّياق القرآني من الحكاية والوصف إلى الخطاب والمواجهة المباشرة، يوجّه القول إليهم بالتأنيب والتبكيت، **المعنى**: (**فَالْيَوْمَ**) يوم القيامة، بعد أن تبرّأت الملائكة منكم ومن عبادتكم (**لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا**) فلا الملائكة ولا غيرهم يملكون للناس شيئاً من دون الله، ولا

الذين كفروا يملك بعضهم لبعض شيئاً، لا ولياً ولا شفيعاً ولا ناصراً من دون الله فأين تذهبون؟ وكيف تفكرون؟ وقد تقطعت بينهم الأسباب، وتبرأ بعضهم من بعض، ولا يملك أحد فيه منفعة لأحد ولا مضرة له، ويخاطبون بذلك على رؤوس الأشهاد يوم الحشر والحساب (**وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا**) ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي وظلموا غيرهم بإضلالهم عن سبيل الله كقوله (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة/٢٥٤ (**ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ**) النار التي كذب بها الظالمون وكانوا (**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**)؟ يس/٤٨ والآن يرون النار حقيقة وواقعاً، ويرونها رأي العين لا شك فيها ولا ريب، فذوقوا الآن طعم هذه الحقيقة التي كنتم بها تكذبون! واستذوقوا عذاب جهنم الأليم كما كنتم تستذوقون الطعام والشراب في الدنيا. فأنتم الآن قد وردتم جهنم وهي غاية المفرّطين، وليس الخبر كالحقيقة، ولا السماع كالمعاينة، عندئذ لا ينفع الندم والأسى والحسرة كقوله (**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ، لِلطَّاغِينَ مَآبًا**) النبأ/٢١-٢٢.

وعن الإمام علي (ع) (فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ، دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلاَ تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ، وَلاَ تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ) شرح نهج البلاغة١٥/١٦٥، ثم بيّن لوناً آخر من كفرهم وضلالهم فقال.

٤٣ — ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾

لقد أحسَّ المشركون بخطورة ما يواجههم به القرآن الكريم على عقائدهم وعاداتهم الجاهلية المُتَخَلِّفة، التي وجدوا آباءهم عليها فاتّبعوها اتّباعاً أعمى، فقابلوا الحق الواضح والآيات البينات المنجيات التي يتلوها عليهم الرسول بتقاليد الآباء البلهاء وعاداتهم الجوفاء، وشككوا في قيمة الرسول (ص) والرسالة والقرآن الكريم وأنها من عند غير الله وكذب على الله، عندئذ لا قيمة لما يقوله الرجل الصادق الأمين، وهذا ذنب العالم المخلص عند الجاهل السافل، والطبيب الناصح عند المريض الذي يرى نفسه سليماً معافى، وهكذا الجاهل يعمل بنفسه كما يعمل العدو بعدوه! كقوله (**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**) الكهف/١٠٣-١٠٤ وما يدرينا أن محمّداً (ص) لو بعث في عصرنا الراهن لما نرى فيه جاهلية جهلاء، لقالوا عنه بعض الناس مثل هذا القول وزيادة، لأنه (ص) يرى قيّماً ومبادئ السماء ما لا يراها أهلُ الأرض، ويشعر بحقيقة الآخرة بغير ما يشعر بها أهل الدنيا، وتلك هي حالة كل الذين يريدون أن يصادروا الفكر النهضوي الأخلاقي الحيّ التغييري الواعي، في الأمم التي يعشعشُ فيها التَخَلّف والجهل!

المعنى: (**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا**) القرآنية (**بَيِّنَاتٍ**) واضحة المباني عميقة المعاني واسعة الدلالة تهز المشاعر وتحرك الضمائر، ولا ريب في أنها منزلة من الله تعالى، لسياقها البلاغي المميز، ولإعجازها العلمي النادر، بدلاً من أن يدعو عامتهم إلى اتّباعها، فهم حَثّوهم على الإصرار على مقاطعتها والبقاء على عاداتهم وتقليد آبائهم، لما أعوزتهم الحجة (**قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ**) وقالوا: ما هذا الإنسان أي مُحَمّد إلاّ رجل مثلكم مبتدع يريد أن (**يَصُدَّكُمْ**) أي يمنعكم من تقليد آبائكم واتّباع عاداتكم في عبادة الأوثان الحجرية، فحافظوا على تراث آبائكم وأجدادكم وأنها في خطر، وأن عليكم النهوض بوجه هذا الرجل (**إِلَّا رَجُلٌ**) وتنكير رجل للتّهكُم والتّلهي واللّامبالاة، وإلاّ فرسول الله كان عَلَماً مشهوراً بينهم، كقوله (**إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا**) الفرقان/٤٢، فما دامت الرسالة القرآنية تخالف المألوف والمعروف لذلك نكفر بها بإصرار، ولم يوردوا برهاناً علمياً على كفرهم ولا حجة قطعية على قرارهم، فانغلقوا على ذواتهم فمنعهم من الانفتاح على الرأي الآخر، فلم يتطوّروا ولم يتقدّموا فغرقوا في معاناة الجاهلية الجهلاء الظلماء كقوله (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) المائدة/٥٠.

(**وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى**) وقالوا: ما هذا القرآن أو النبي بما فيه من تحذير من عذاب الدنيا والآخرة (**إِلَّا إِفْكٌ**) إلاّ كذب (**مُفْتَرًى**) مختلق من عنده ومفتعل على الله فلا تخافوا منه! فهم يحاربون الحقيقة والعقيدة المنجيّة بجهل وغباء وكبرياء، والإناء ينضح بما فيه (**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ**) وقال أولئك الكفرة المتمرّدون بجرأتهم على الله، وتجاوزهم لمنطق العقل (**لِلْحَقِّ**) أي القرآن أو النبي (**لَمَّا جَاءَهُمْ**) وَبَلَغهم وأحسَّوا بتأثيره العجيب على مشاعرهم، فلم يكفهم قولهم إن القرآن مفترى وليس من عند الله، بل حاولوا أن يعرقلوا وقعه المؤثر في القلوب والمحرّك للمشاعر والضمائر ويقولوا (**إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ**) فلا يمثل شيئاً في ميزان الحقيقة، فحكموا على القرآن أنه (**سِحْرٌ مُبِينٌ**) بجهل وتسرّع وعناد وإصرار، بل حكموا عليه بالتكذيب والظن والتَّخمين للتمويه على الجهلاء من الناس، أنهم لم يقولوا ذلك عن بيّنة علمية كقوله (**إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ**) النجم/٢٣، في غرر الحكم (**ظَنُّ الإنْسَانُ مِيْزَان عَقْلِهِ**) وكم هو ظلم واعتداء عندما عَبَّروا عن هذا القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم، عَبَّروا عنه بالسحر المبين!، وقالوا: لكننا لم نستطع أن ندفعه بكل وسيلة، ولا يزال يتغلغل في القلوب وَيُحرِّك النفوس ويحيي المشاعر ويكسب العقول والقناعات والإرادات، ونحن في حيرة من أمره لا نجد طريقاً للتغلّب عليه، كقوله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) التوبة/٣٣.

٤٤ — ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴾

فإنهم لا دليل لهم ولا حجة ولا علم ولا وعي، ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلاً فقال (**وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا**) وما أعطينا مشركي قريش (وهم أمة أميّة غليظة) قبل القرآن الكريم كتباً سماوية يدرسونها ويتعلّمون منها لتكون لهم ضمانة فكرية واعية، حتى يميّزوا بها الحق من الباطل ويقيسوا بها الكتب، فيقولوا: بأن ما جاءهم اليوم ليس كتاباً سماوياً ولا وحياً من عند الله، والسبب في ذلك: إنهم لا يحبون العلم وليسوا رجال بحث عن الحقيقة، وغير مؤهّلين للدراسة العلمية ومعرفة الحجة القطعية، ولكنهم كقوله (**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا**) الفرقان/٤٣ (**وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ**) وما بعثنا إليهم قبلك يامُحَمّد رسولاً ينذرهم عذاب الله في يوم القيامة، وقد بعث الله عيسى قبل مُحَمّد (ص) بأكثر من ٥٠٠ سنة، فهم يتخبّطون، ولا يعرفون كيف يكذبوك؟ أي إنهم لا يرجعون في تكذيبك إلاّ إلى الجهل والعناد الأعمى، واتّباع الهوى وتقليد عادات آبائهم الجاهلية ولا يتطلّعون نحو الأحسن، ولا يتفكرون، **فائدة**: (**كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا**) إشارة إلى أن الكتب السماوية الهادية المنزلة يجب دراستها والبحث العلمي فيها والتعلّم منها وفي مقدمتها القرآن الكريم.

كقوله (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) المائدة/١٥-١٦، **وعن النبي (ص)** (مَنْ أَرَادَ عِلَمَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ) كنز العمال خبر٢٤٥٤، **فَلْيُثَوِّر**: فليتعمّق وَيَتَدَبَّر.

٤٥ — ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

يذكّرهم سبحانه ويحرّك مشاعرهم بمصارع المكذبين من قبل، وسُنّة الله جارية ولم تتوقف، وهم لم يؤتوا (**مِعْشَارَ**) للدلالة على القلة القليلة عما أوتي أولئك الماضون **المعنى**: (**وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**) وكذب بالحق وبقي على الشرك من كان قبلهم من الأمم الماضية، كما يكذّبك هؤلاء من أمتك (**وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ**) ولم يبلغ كفار قريش (**مِعْشَارَ**) أي عشر ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من قوة الأجسام وطول الأعمار وكثرة الأموال والأولاد والنعم مع المدنية والحضارة، ولكن ينقصهم الإيمان والعمل الصالح والتفكّر في رسالة الله والتأمل بدعوة الأنبياء (**فَكَذَّبُوا رُسُلِي**) فكذبوا الرسل والرسالات، وانتهت المهلة وانتفت الحكمة من وجودهم أحياء! (**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**) أي إنكار الله لسوء حالهم الذي تستنكره النفوس فيستتبع العقاب والعذاب، أي أخذهم (**نَكِيرِ**) الذي فيه لغة التهديد المبهم العام، وهو الهجوم المدّوي المدمّر المنكر الشديد ! وجاء على شكل سؤال استذكاري واستنكاري تهكّمي يلمس قلوب المخاطبين ويحرّك مشاعرهم، وكان التذكير كافياً لهم ومتناسباً معهم كقوله (**فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى**) الأعلى/٩، ألم أهلكهم أجمعين؟ كقوله (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) آل عمران/٢٨، فليحذر هؤلاء مخبّآت ومفاجآت الله لهم كقوله (**فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ**

يَظْلِمُونَ) التوبة/٧٠ والَّذِيْ لاَ يَتَّعِظُ بِالْمَاْضِيْنَ كَاْنَ عِبْرَةً لِلْبَاْقِيْنَ، وَالسَّعِيْدُ مَنْ اِتَّعَظَ بِتجاربِ غَيْرِهِ، وَسُنَنُ اللهِ واحِدَةٌ فِي الْمَاْضَي والحَاْضِرِ والُمسْتَقْبَل كقوله (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) الفتح/٢٣.

٤٦ – ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾

يُصَوِّرُ القرآن شخصية النبي المصطفى (ص) أنه المحاور المتألّق الناصح الحريص على هداية أمته، فيأتيهم بأساليب الحوار الفنّية الجديدة المتنوعة، التي تعتمد تلاقح العقول وتقارب الآراء، وهي من أساليب الدعوة الإسلامية، القائمة على أساس الفكر الأصيل، وطلب الدليل المقنع والبرهان الواضح، ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويطلب منهم النتيجة برجاء العدل والإنصاف، فينقلهم من حدود العقل الجمعي العام المتشنج المعاند الجاهل، إلى آفاق العقل الفردي الهادئ المفكّر مع نفسه بشكل خاص، المنفتح على الرأي الآخر، **وبهذه الطريقة يتحرر العقل الفردي الخاص من قناعاته وقراراته،** وخاصة في أمر يتصل بالضمير الفردي، يتحرر من ضغوطات الجماهير الغوغائية المشوشة للذهن، **وَكَشَفَ علم النفس الحديث أن هناك عقلين:** عقلاً فردياً مستقلاً، وعقلاً جماعياً عاماً، فالعقل الجمعي المضطرب يتشوش بالشبهات في أمر العقيدة الصحيحة الدقيقة، التي هي ضرورة حياتية للبشرية، **عن مجاهد (لكل إنسان أربع أعين:** عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته، فإنْ عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضرّه عماه شيئاً، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه، فلم ينفعه شيئاً)**!**

المعنى: (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ)

الوعظ: التذكير بالخير فيما يرق له القلب، وبأسلوب أخلاقي جميل شفاف نفّاذ ينسجم مع رغبات النفس، أي قل يامُحَمَّد لهؤلاء المشركين وأشير عليكم وأدعوكم و**(أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ)** أي بكلمة واحدة، وأنصح لكم واقترح عليكم بلا جبر ولا إلزام وأنتم أحرار، هذه الكلمة الواحدة، تحدد لكم المنهج في التفكير، وهو أسلوب حركي فني مؤثر جديد بالحق بعيد عن التقاليد الجاهلية المألوفة، فالأهواء الفوضوية المعروفة والعناد اللّئيم المقيت، يميت الحق ويحيي الباطل ويضل البشر عن فهم الحق والحقيقة، **دعونا ينفتح بعضنا على الآخر ويصدق معه،** لنتعاون على تحديد الهدف المشترك السامي المطلوب الذي ينفع الجميع، واجتهدوا في طلب الحق خالصاً وانصفوا الحقيقة، وارفعوا الحجب التي غَوَّشت عليكم الرؤية، وترسبت الآثام على قلوبكم فلم تجعل للحق منفذاً يدخل إلى عقولكم ويحرك قلوبكم؟!

ثم فَسرَّ الكلمة الواحدة:

(**أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ**) **والقيام** لله لا لغيره، **والقيام**: من قام بالأمر وتحمّل المسؤولية، هو القصد الجاد والتوجّه الصادق لله سبحانه لأجل الله الكريم وتحقيق رضاه، وتوحيد الطرق مع الله سبحانه لتطلبوا الحق الواحد ومعرفة الحقيقة بعيداً عن الأهواء والضوضاء والمصالح الخاصة، مع كامل الهدوء والانفتاح والارتياح وبلا تشنج (**أَنْ تَقُومُوا**) من القيام بالأمر والمسؤولية، لا القيام على الأرجل الذي هو ضد القعود، أي (**أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ**) بهمة عالية ودوافع سامية (والهِمَّةُ عَلَى قَدَرِ المَهمّة) لاتّباع الصّواب أينما كان لإصلاح الفكر واطمئنان القلب كقوله (**كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ**) النساء/١٣٥ (**أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ**) على مبدأ التعاون بالشورى النخبوية النموذجية الخاصة الفردية وليس الحوار العام الفوضوي من أجل حلِّ مشاكل عالقة كقوله (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) الشورى/٣٨، والمشورة النخبوية الدقيقة الخاصة: لقاح العقول ونضوج الأفكار ورائد إلى الصواب (**أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ**) إنها **دعوة قرآنية إلى القيام بجدّ لله لنصرة الحق الواحد والوصول إلى الحقيقة**، بعيداً عن الهوى والمصالح الخاصة، بعيداً عن المؤثرات الشائعة في المجتمع من العادات والتقاليد والأهواء الجاهلية، إنها دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافي بعيداً عن ضجيج الجاهلية، والشعور بقرب الله سبحانه وتقواه، إنها كلمة (**أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ**) ولكن فيها الخير كله، إن تحققت صح المنهج واستقام الفكر والسلوك، والقيام لله لا لغرض دنيوي ولا لمصلحة خاصة، إنه القيام الخاص الصادق الخالص لله من أجل الله، (**ووحدة الكلمة على أساس كلمة التوحيد**) ثم التفكّر والتدبّر بلا مؤثرات وخلفيّات جاهلية مشوشة للذهن ومقلّبة للمواقف ومغيّرة للمشاعر. (**مَثْنَى وَفُرَادَى**) (**مَثْنَى**) مجتمعين متشاورين أكفّاء متباحثين متناصفين ومتناظرين، اثنين اثنين يسأل بعضكم بعضاً ويحاوره ويبحث معه علمياً الإشكالات التي فرّقتنا ومزّقتنا وأضرّتنا! ويراجعه بعلم، ليحصل تلاقح الأفكار لأصحاب النظر الدقيق والرأي الثاقب، بدعوة مُحَمَّد ورسالته ليهتدوا إلى الرأي الصائب الذي يوحّد الصفوف، والذي تطمئن إليه القلوب، من غير التأثر بالجماهير الفوضوية والغوغائية الجاهلية المنفعلة المشوشة للفكر، **فعلينا أن نتساءل معاً بصدق إلى متى نبقى متفرّقين؟!** وديننا واحد لا يقبل التفرقة كقوله (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) الأنعام/١٥٩ والذي يضرّنا يضرّكم، والذي ينفعنا ينفعكم، ونطمح أن نفكّر بما لابدّ لنا من عمله، ولا نُعذَرُ في جهله، فإن حُسْنَ السؤال من حُسْنِ العقل.

والسؤال عنوان عقل السائل، في غرر الحكم (إذا سَألْتَ فَسلْ تَفَقُّهاً وَلاَ تَسألْ تَعَنُّتاً، فإنّ الجَّاهِلَ الُمتعَلّمُ شَبيْهٌ بَالعاْلِمِ، وَإنّ العاْلِمَ المتَعَسّفُ شَبيْهٌ بَالجّاهِلِ)!

(**وَفُرَادَى**) ومنفردين واحداً واحداً، ويخاطب كل واحد نفسه بنفسه، بحديث صادق عميق دقيق هادئ، فيتحرّك عقله وفكره وضميره في أجواء الحق والحقيقة، من أجلِ أن تنفصلوا عن تيار الجو الصاخب، والعقل الجمعي الجماهيري الجاهلي الجارف، المشوّش على رؤيتكم، والضاغط على عقولكم ومواقفكم، حتى يستقيم رأيكم ويصفو فكركم، ولا تتأثروا بالأعراف

العامة المانعة من التفكير السليم، والتخلّص من الانفعالات الفاسدة الطارئة (**ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ**)

(**ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا**) **الفكر**: طلب المعنى الصحيح بالقلب (**ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا**) في أمر مُحَمَّد بتعقّل وتأمّل من البداية حتى النهاية، مجتمعين ومنفردين ومتحاورين بعلم وصدق، وما جاءكم به من هذا القرآن الكريم المعجز والرسالة الإسلامية القيّمة السَهْلَة السَمْحَة، وخُلُقُه العظيم واستيعابه للناس، أتاكم بما أتى به النبيون من قبله، ولم يكن بدعاً من الرسل، وكلهم قالوا إن هناك عالم الآخرة، عالم الجزاء والحساب سوف تنتقلون إليه بعد الموت مباشرة، وفي التعبير (**بِصَاحِبِكُمْ**) أي إنه قريب منكم ومعروف عندكم أنه الصادق الأمين إلى حين بعثني للنبوة، فلم تعهدوا مني كذباً ولا اختلالاً في الفكر أو خفَّة رأي، وما رأيتم عليّ (**جِنَّةٍ**) حالة جنون، فانصفوا في التقييم، هذا هو الحوار العادل والجدال المُنصف الذي يعتمد منطق العقل والتفكّر، وأفضل العبادة التفكّر في أمر الله ورسله ورسالاته، وأحسنُ العقل ما هداك نحو الصواب، واقنعت به أولوا الألباب، ومن كفر بمحمد (ص) وصدّ عنه، فهو إذن المجنون! كقوله (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**) الأنبياء/١٠٧ فهو رحمة مهداة، ومعصوم عن الخطأ، ومسدّد بالوحي، ومؤيّد من السماء، وآتاه الله جوامع الكلم والحكم البليغة، والمواعظ السامية التي تُهذّب الطبائع وتزكّي النفوس، وهذه الدعوة للحوار مشابهة لدعوته (ص) لأهل الكتاب كقوله (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ) آل عمران/٦٤ وقوله (**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**) سبأ/٢٤ (**إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لكم**) وما أنا إلاّ نذير لكم وحريص عليكم وناصح إليكم لأحذّركم وأخوّفكم بصدق بحقيقة العالم الآخر، عالم الجزاء والحساب في يوم القيامة. وأني أوضّح لكم النهاية الحتمية كما أنكم تعرفون البداية، (والَّذِيْ لاَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِيْ لاَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ)! **والذي لا يعرف لماذا يعيش، لا يعرف لماذا يموت،** ولماذا يحشر؟! ومعرفة النهاية أهم من معرفة البداية، لأن النهاية خلود والبداية عمر محدود، وقدم (**نَذِيرٌ**) ولم يذكر البشير، لأن القوم يعتمدون العناد، فيتناسب معهم التحذير من الضرر والنذير من الخطر وليس التبشير بالجنان.

(**بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**) أمام عذاب رهيب دائم قادم عليكم في الآخرة، فإذا كان العمر في إدبار والموت في إقبال فسرعان الملتقى! وهنا يُصوّر السياق القرآني البلاغي الفني العذاب الشديد المديد، بصورة صادقة موحية فنية محركة للمشاعر، وكأنه قريب وشيك أن يقع الآن أمام الأعين! في تصوير بارع موحٍ مثير للمشاعر وَمُحرِّك للضمائر ، والنبي (ص) يقرّب المعنى بقوله (**مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَت قِيَامَتَهُ**)روح البيان٢٢/٣، وعنه (ص) (يُبْعَثُ المرْءُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيهِ)كنز العمال خبر٤٢٧٢٢.

فائدة: سؤال: ما هي فائدة التقييد بالاثنين والفرادى؟ الجواب: إن الاثنين المنسجمين إذا التجئا إلى الله تعالى بصدق، ليعينهما في البحث لطلب الحق بالإنصاف، وعرض كل واحد منهما على صاحبه ما ظهر له من علمه وقناعاته، فلا يكاد الحق أن يبتعد عنهما، بل يهتديا إليه، وينسجما معه، وكذا الواحد جيد الفكر إذا تفكّر في أمر مهم مع نفسه بهدوء وتعقّل وتأمل، مجرداً عن الهوى لمعرفة الحق الواحد، والله يهدي للحق وإلى صراط مستقيم كقوله **(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)** التغابن/١١ بخلاف الكثرة والجماعات المتنافرة المتناحرة، فإنه يقلّ فيها العلم والإنصاف، ويكثر الجهل والخلاف ويثور الغضب والتنافر، **في غرر الحكم** (**الجاهل**: من اختدعته المطالب) وتقديم **(مَثْنَى)** المتكافئين لأنه أوفق وأسهل وأقرب للاتّفاق والانسجام، لأنه لقاء تلاقح عقول وإنضاج أفكار، وتعديل قناعات، وتصحيح أخطاء، وتهذيب عادات.
في غرر الحكم (حَقّ عَلى العاقِلِ أن يُضيفَ إلى رأيهِ رأيُ العقلاء، وَيَضمّ إلى عِلْمِهِ عُلوم الحُكَماء)

٤٧ – ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

يبّين الله تعالى نزاهة رسوله (وهكذا نزاهة جميع الأنبياء (ع)) فلا يأخذ أموال من يستجيب له على دعوته، **ويقول لهم**: خذوا أنتم الأجر، فما مصلحتي من إنذاركم؟ وماذا يعود عليّ؟ وأقصد تحريك فكركم ووجدانكم إلى حقيقة الآخرة الباهرة، في صورة ذاتية موحية مؤثّرة، وهو أسلوب فني دقيق من أساليب إنجاح الدعوة الإسلامية، في تحريك المشاعر وتوجيه الضمائر وتنبيه العقول، مع التأنيب على الإصرار بأسلوب ناعم شفاف غير مباشر، **المعنى**: **(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ)** كل ما تحمّلت في تبليغ الرسالة الإسلامية القيّمة من جهاد وصبر على المشاق وتحمل المعاناة لأجل إصلاحكم وهدايتكم واستقامتكم **(فَهُوَ لَكُمْ)** فأجره لكم ونفعه إليكم، فلا تظنوا أني دعوتكم إلى مسألة خاصة بي، واتباعي من أجل مال آخذه منكم، وإنما من أجل حقيقة مهمة أوصلها لكم كقوله **(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)** النحل/٤٤، فإن من علامات القائد المبلّغ المؤثّر كما يصفه قوله (اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ) يس/٢١.
أما قوله (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) الشورى/٢٣، أي إني لا أسألكم أجراً مادياً، أما أجر المودّة في القربى فهو أجر معنوي رسالي يعود نفعه عليكم **(فَهُوَ لَكُمْ)** لأن مَوّدة ذي القربى ترتبط بمفهوم الإمامة **(والولاية)** التي هي امتداد طبيعي لخط النبوة لاستمرار رعايتكم وهدايتكم **(إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ)** وليس ثواب عملي إلاّ على الله عز وجل الذي كلّفني بهذه المسؤولية، وهو مطّلع على إخلاص نيّتي وصدق دعوتي، وهو الذي يأجرني ويكافئني، وأجره الكريم هو الذي أتطلّع إليه كقوله (فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ

إِلَّا عَلَى اللَّهِ) يونس/ ٧٢ (**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) شهيد**: حاضر ورقيب ويعلم ويرى ويحصي كل أعمالي وأعمالكم ويحفظها بالصورة والصوت والنيّة، وكأنها كاميرة خفيّة دقيقة فيها فيلم مُسَجّل مُجَسّم حيّ واقعي يصوّر كل شيء ولا يخفى عليه شيء، وسيجازي الجميع يوم الحساب الأكيد.

فائدة: مهمة الرسول (ص) والدعاة إلى الله مهمة صعبة، فإن تحمّل تلك الصعاب لا يدل على أي طموح دنيوي محدود، وإنما هناك أمر رباني أخروي عالي المضامين يطمح إليه (ص) كقوله (**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)** الحجر/٩٤، **وفي ذلك إشارة**: إلى أن شرط الدعوة إلى الله أن تعتمد على اخلاص النية لله تعالى كقوله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) الزمر/٣، وعن النبي (ص) (**بَالإِخْلاصِ تَتفاضّلَ مَرَاتِبَ الْمُؤْمِنِينَ)** تنبيه الخواطر ص٣٦٠.

٤٨ - ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

(**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ) يَقْذِفُ بِالْحَقِّ**: القذف الرمي البعيد، وهناك قذف مادي وقذف معنوي (**يَقْذِفُ بِالْحَقِّ**) يبيّن الحق ويظهر الحجة ويكلّف الوحي الذي يوحي به إلى رسله وأنبيائه، هذا الذي جئتكم به هو الحق الأصيل، الحق القويّ بذاته المقوّي لغيره، كقوله (الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ) يونس/٣٥، الذي يقذف به الله عز وجل ليحلّ محلّه في القلوب، ويحرّك العقول والمشاعر وينهض بالإرادات لإعمار الحضارات (**يَقْذِفُ**) إن ربي يرمي بالحق في وجه الباطل في ساحة الصراع بينهما، بما يملكه الحق من القوة الذاتية التي تستطيع أن تبطل حجج الباطل، فيزهق ويزول بالتدريج كقوله (**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ)** الأنبياء/١٨، وفيه إشارة إلى أن هذا الوحي السماوي الذي يقذفه الله سيصل إلى جميع الناس في كل أنحاء العالم في ظروفه المناسبة، وكيفية ملائمة، ويضيء بنوره جميع الناس في نهاية الأمر كقوله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) التوبة/٣٣، **إنه تصوير للمشهد في إحقاق الحق وإبطال الباطل بصورة بلاغية فنية مُجسَّمة مُحرّكة للمشاعر**، وكأنما الحق قذيفة قوية خارقة ومؤثرة تنفذ في النفوس وتحرّك القلوب وتكسب القناعات، ولا يقدر أحد أن يقف أمامها في طريقها، إن الله سبحانه لا يقذف بالحق خبط عشواء، إنه يقذف به عن علم وقدرة ويوجهه عن تخصيص وتشخيص دقيقين، في الوقت المناسب في المكان المناسب، في الكيفية المناسبة، بالظروف المناسبة للإنسان المناسب أو الأمة المناسبة، فيقع الحق حيث يشاء الله تعالى، كقوله (قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) يونس/١٠٨.

عن الإمام الباقر (ع):

(**أَصْبِرْ نَفْسكَ عَلَى الْحَق فإنهُ مِنْ مَنعَ شَيْئاً فِي حَقٍّ أُعْطِيَ فِي الْبَاطِلِ مَثْلِيهِ)** تحف العقول ص٢١٦، في غرر الحكم (الْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ، الْمغْلُوبُ بِالْحَقِّ غَالِبٌ، المحَارِبُ للحّقِ

مَحْزُوب) ثم قال (**عَلَّامُ الْغُيُوبِ**) إنّ ربي يقذف بالحق الثابت بذاته والمثبّت لغيره وهو (**عَلَّامُ الْغُيُوبِ**) لا يغيب عنه هدف ولا غاية، ولا يغيب عنه شيء. (**عَلَّامُ**) صيغة مبالغة بالعلم، أي يعلم كل شيء (**الْغُيُوبِ**) صيغة مبالغة بعلمه بالغيب، بكل ما غاب عنه خلقه في كل الأحوال والأزمان والأماكن، وإنما ذكر (**الْغُيُوبِ**) بلفظ الجمع لأنه عالم بغيب كل أحد عاقل وغير عاقل، ويعلم ما في ضمير كل أحد كقوله (**وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ**) ق/١٦، بحيث لا يشغله سمع عن سمع، ولاشأن عن شأن، ولا تختلط عليه حاجات خلقه، هو سبحانه الذي يَطّلِع على حقائق الأشياء كلها الكامنة في خفاياها فلا يحجبه عنها شيء، لأنه موجود في كل مكان، كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤،وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠.

٤٩ – ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾

الحق والباطل على سعة معناهما في صراع أزلي مستمر، كما يتصارع الخير والشر، والعسر واليسر والنور والظلام، فإذا تغلّب الحق يعني بنصرة أهله له، ومن نصر الحق وأهله خذل الباطل وأهله، ولابد أن ينتشر وينتصر (دين الحق) في جميع الآفاق في نهاية جولة الصراع، لأن للباطل جولة ومهلة مهما طالت، وللحق دولة مستقلة، فإذا جاء الحق قوياً زهق الباطل ذليلاً وزال أو ضعُفَ، لأن للحق قدرة ذاتية مؤهّلة على إزهاق الباطل وإضعاف دوره. بعكس الباطل، **المعنى**: (**قُلْ جَاءَ الْحَقُّ**) قل يا مُحَمَّد للمشركين (**جَاءَ الْحَقُّ**) في صورة من الصور المشرقة الملفتة للنظر، وهو القرآن الكريم بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة ليتحدى الآخرين كقوله (**سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**) فصلت/٥٣ (**جَاءَ الْحَقُّ**) جاء دين الحق وهو الإسلام الأصيل ورفعت رايته برسالته القيّمة الهادية التي تدعو الناس إلى التكامل الإنساني، وقد ألقى الله الحجة على الناس بتبليغهم الرسالة كقوله (**لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**) النساء/١٦٥ (**قُلْ جَاءَ الْحَقُّ**) ظهر الحق بقوته وهيبته وبان أمره بالتدريج السريع، وقويت حجته وظهر سلطانه وتأثيره على العقول وسيطرته على المشاعر، وكان وقعه في النفوس بمنزلة وقع نور الشمس (نور الحياة) في الأحياء، ولابد لدين الحق أن ينتصر على الباطل في نهاية الصراع بينهما كقوله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) الفتح/٢٨.

(وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)

يُبْدِئُ: بدأ الشيء فعله ابتداءً، أي ذهب دين الباطل وهو الشرك والوثنية واضمحل وبطل أمره وانتهى أثره وتأثيره وما عادت له الحياة في الجزيرة العربية وغيرها، فليس له القدرة على أن يبدأ نشاطه ويعود تأثيره من جديد لأن أمامه هيبة الحق المفيد، وقدراته في تنمية الحياة، وقد تقرر مصير الباطل وعرف الناس أنه إلى زوال لأنه فَقَدَ مُقوّمات البقاء، في فتح مكة كان حول بيت الله الحرام ثلاثمائة وستون صنماً حجرياً، فجعل النبي (ص) يطعنها بعود في يده ويقول

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا) الإسراء/٨١ ثم ذكر هذه الآية، **في غرر الحكم** (الحَقُّ أَقْوَى ظَهِيْرٌ، البَاْطِلُ أَضْعَفُ نَصِيْر، ظَلَمَ الحَقَّ مَنْ نَصَرَ البَاْطِل) عن الإمام الصادق (ع) **(لاَ يَستَيْقِنَ القَلْبُ أنَّ الحقّ بَاطِلُ أَبداً، وَلاَ يَستَيْقِينَ أنَّ البَاطِلَ حقٌّ أَبَداً)** البحار٧٠ص٥٨، ومهما يقع للباطل من غلبة مادية في بعض الأحوال والأشكال والظروف، إلاّ أنها ليست غلبة على الحق، وإنما هي غلبة على المنتسبين إلى الحق، إنها غلبة على الناس لا غلبة على القيم والمبادئ والأخلاق، وإنما يعيش الباطل وينتصر بسبب خذلان أهل الحق للحق، فقد جَزّأوا دين الحق إلى أقسام، ودين الحق لا يُجزّأ ولا يتعدد، فهو دين الله الواحد الموحّد المتّحد على (**كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة**)، واختلفوا في دين الحق وتنازعوا بينهم وصاروا فرقاً وجماعات وطوائف متناحرة متباغضة.

كقوله **(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)** الشورى/١٤، إنهم أضعفوا الحق وخذلوا دين الحق على أساس أنهم رموز الحق! بسبب سوء نياتهم وتصرفاتهم، فعظّموا ذواتهم وصَغّروا دين الله، فصاروا أذلّاء ضعفاء، وفي هامش الحياة كقوله (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) الأنعام/١٥٩ وقوله (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) يونس/٣٢، في غرر الحكم **(لاَ يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِن دِينِهِمْ لإِصْلاحِ دُنْيَاهُمْ إلاّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ)**! وفيه أيضاً (مَنْ جَعَلَ مُلْكَهُ خَادِمَاً لِدِيْنِهِ انْقَاْدَ لَهُ كُلُّ سُلْطَاْنٍ، وَمَنْ جَعَلَ دِيْنَهُ خَاْدِماً لِمُلْكِهِ طَمَعَ فِيْهِ كُلُّ إِنْسَاْنٍ)!

٥٠ — ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾

(قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي) قل يامُحَمّد لهؤلاء المشركين: إن حصل لي ضلال — كما زعمتم — وانحرفت عن الحق وطريق الهداية وأخطأت فهم الحقيقة، فسببه منّي ومن الشيطان، ويكون نتائج ضلالي على نفسي خاصة ولا يضر غيري، وحاش رسول الإنسانية أن يضلَّ وهو يعالج الضلال، ولكن هذا الكلام على سبيل المسايرة في فنّية المجادلة الناجحة، والمرونة في المحاورة والانفتاح على الآخر كقوله **(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** النحل/١٢٥، سُئِلَ الإمام علي (ع) عن الحوار الناجح فقال **(إِبَدأ مَعَهُ فِي حَيْثُ يُحِبُّ، وَانْتَهِيْ مِنْ حَيْثُ تُحِبُّ)**! أن تبدأ لتكسر الحاجز النفسي السَّميك بينكما، لتنشرح الصدور وتطمئن القلوب، فصار أسلوب الحوار الفنّي الناجح، أهم ومقدّم على طرح حجج وبراهين الحوار نفسه ! **(وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي)** وإن اهتديت إلى دين الحق وأصبت الحقيقة، فليس ذلك من نفسي وحولي وقوّتي وإنما هدايتي بما يتفضّل به عليّ ربي سبحانه **(فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي)** من البيان والحكمة وعلوم الوحي من السماء والهداية والإرشاد، لأن الوحي أو الإلهام أو العلم أو الوعي، يفتح العقل ويوسّع آفاق التفكير، حتى تستذوق حلاوة الإيمان وتطلب مزيد من العلم والعمل الصالح، ولذلك كان الهدى هبة ونعمة فضيلة من الله تعالى، وبالهدى يكثر الوعي،

وتقوى الفراسة، ويتحسّن الاستبصار كقوله (**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**) محمّد/١٧.

وفي هذا إشارة إلى أن مصدر الهداية من الله وهي تأتي بقدر رغبة الإنسان واستعداده لها كقوله (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) الأعلى/٣ وقوله (وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ) الحج/١٦، وأنا لا أملك لنفسي شيئاً وليس لي من الأمر شيء إلاّ بإذن الله كقوله (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) الأعراف/١٨٨ (**إِنَّهُ سَمِيعٌ**) لأقوال خلقه ويعلم جميع أفعالهم وإن بالغوا في إخفائها (**قَرِيبٌ**) من جميع خلقه كقوله (**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**) الحديد/٤ (**قَرِيبٌ**) الإجابة لمن رجاه، وهو أقرب منا من حبل الوريد، ولقربه منا كُلّ القرب يعلم عنا كل شيء، ما أعلناه وما أخفيناه، وهكذا المؤمن يعلم أن الله يطلّع على خفايا نفسه لقربه منه، وهو سبحانه مَعْنيٌّ بأمره عناية مباشرة كقوله (**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**) الحجرات/٧ عن النبي (ص) (الْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنَ الْكَعْبَةِ، لأنَّ اللهِ حَرّمَ مِنْكِ وَاحِدَةٌ، وَمَنْ الْمُؤْمِنِ ثَلاَثَةٌ: مَالَهِ وَدمِهِ وَأنْ يُظَنَّ بِهِ ظنَّ السّوْءِ) البحار٦٧ص٧١ **فائدة: وفي ذلك دلالة:** إذا وكّلت النفس إلى هواها وعاداتها وطبائعها ونزقها وشياطينها فتقوده إلى الضلال البعيد، بينما الهداية نعمة النعم، وحصن حصين أمين لمن لجأ إليها، وهبة من الله لأصحاب القلوب السليمة كقوله (**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**) التغابن/١١، في غرر الحكم (أَعْجَزُ النَّاْسِ مَنْ عَجَزَ عَنْ إِصْلاَحِ نَفْسِهِ).

٥١ – ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

إنه مشهد مثير من مشاهد يوم القيامة مكشوفٌ للأنظار بشكل عام، يُصوّر فزعَ وهَلعَ المشركين عند موتهم وقد أحاط بهم الفزع من كل مكان وسيطر عليهم الخوف، فلا مجال للهروب، **المعنى**: (**وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا**) ولو تنظر يامُحَمَّد بعينيك كيف تأخذ قادة البغي والعدوان الذهول (**إِذْ فَزِعُوا**) حين فزعوا أي خافوا خوفاً شديداً، عندما حان وقت الموت وحلّ الأجل، وانتقلوا إلى العالم الآخر، وحصل البعث والنشور والحساب، عن النبي (ص) (**مَنْ مَاْتَ فَقَدْ قَاْمَتْ قِيَاْمَتُهُ**) روح البيان٣/٢٢، وعنه (ص) (يُبْعَثُ المرءُ عَلَى مَا مَاْتَ عَلَيهِ)كنز العمال خبر٤٢٧٢٢، أي تقوم **قيامته الصغرى** الخاصة به، **وأما القيامة الكبرى** العامة فهذه علمها عند الله تعالى، أخذهم الفزع والخوف المزلزل للبدن عندما رأوا العذاب رأيَ العين، وجواب (**وَلَوْ**) محذوف وقديره: لرأيت أمراً فظيعاً ترتعد له الفرائص، وهو موج كثيف فظيع من الذعر والرعب والخوف ما يعجز القول عن وصفه! (**فَلَا فَوْتَ**) فلا مهرب ولا إفلات ولا مفرّ لهم من نكاله وضراوته، والله لا يفوته منهم أحد بهرب أو بتحصّن بمكان، فلا ينجو منهم ظالم من الهول الكاسح الذي فوجئوا به، وكأنما أرادوا الإفلات وحاولوا الهرب في محاولة يائسة، ولكن إلى أين يهربون؟! وأين يذهبون؟! وهم في حالة ذهول مزلزل للأبدان (**وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ**) وهم حيث كانوا فهم من الله قريبين وهو محيط بهم ولا يفوتونه، أي وأخذهم عذابي

فجأة من مكان قريب منهم، وهم حيث كانوا فهو قريب منهم (**مَكَانٍ قَرِيبٍ**) كناية مجازية تشبيهية تُصوّر أنهم في يد الله وقبضته وتحت حكمه وإرادته، وأن الله أقرب للإنسان من نفسه كقوله (**وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**) ق/١٦. وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، **في الحديث** (كُلَّ ما شَغَلَكَ عَنْ اللهِ فَهُوَ صَنَمُكْ)!

٥٢ – ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾

يعلنون الإيمان، حين يرون الطآمة الكبرى في يوم القيامة! (**وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ**) قالوا آمنا بالقرآن وبمحمد ورسالته عندما واجهوا المصير النهائي الذي يكشف لهم حقيقة الآخرة، وهم في حال الفزع والهلع وشدة الخوف، فقد آمنوا الآن بعد فوات الأوان، وهذا الإيمان الاضطراري غير مطلوب ولا مرغوب ولا ينفع (**وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**) **وأنَّى**: بمعنى كيف وأين، وهو استفهام إنكاري يراد به الاستبعاد، **التناوش**: التناول، وهو من المفردات الفذّة النادرة في القرآن، وهو تعبير عن الأمل بالإيمان الذي يراودهم في هذا الموقف الرهيب الحاسم كقوله (**لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ**) الأنعام/١٥٨، **المعنى**: كيف يتناولون الإيمان (**مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**) وهم في الآخرة؟ وحين الحساب وبعد فوات الأوان؟ وانتهت الفرصة والمهلة (مهلة العمر) وانتهى وقت الاختبار؟ ولم يكونوا تناولوه من مكان قريب حين الاختبار ولا حساب وهم في الدنيا، وهي الفرصة الوحيدة للحصول عليه، وكان الإيمان معروضاً في الدنيا فضيّعوه، ولم يبالوا به ولم يعرفوا أهميته أنه سفينة النجاة في يوم الحساب! والدنيا دار تكليف وعمل ولا حساب، والآخرة دار حساب ولا عمل ولا تكليف، وإنما دار تشريف كقوله (**وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ**) السجدة/١٢ عن النبي (ص) (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا وَتَجَهَّزُوا لَلْعَرضِ الأَكْبَرِ) البحار٧/٧٣.

٥٣ – ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾

إنهم رفضوا الإيمان الاختياري في وقت التكليف وهم في الدنيا، فكيف يتحقق عندهم الإيمان الاضطراري في وقت الحساب والجزاء الحاسم في الآخرة، وفاقد الشيء لا يعطيه؟ إنهم رموا الإيمان وضّيعوه كما يرمى الرامي رميته الثمينة ويضيّعها، وكما يلعب الطفل بالجوهرة الثمينة على أنها حصى! (**فَمَا الْفَائِدَةُ أَنْ أَرْبَحَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَخْسَرَ أَهَمَّ شَيْءٍ، وَهِيَ نَفْسِيْ؟!**) **المعنى**: (**وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ**) والحال أنهم قد كفروا بالحق والقرآن وبمحمد (ص) ورسالته من قبل ذلك في الدنيا، رفضوها من دون حجة ولا برهان، وهم في زمن التكليف والابتلاء حيث يجب الإيمان بالحق، وهم الآن يؤمنون ساعة الحساب حيث لا ينفع إيمانهم هذا في الآخرة (**وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**) الآية كناية مجازية لطيفة تشبيهية لمن يطلق أحكامه بلا علم رجماً بالغيب، أي إنهم كانوا يطلقون أحكامهم عن عالم الغيب (عالم ما وراء

الطبيعة) بلا علم ولا معرفة، وبالظن والشك والإنكار، وينفون البعث والنشور بجهل وإصرار، **ويقولون**: لا جنة ولا نار رجماً بالغيب، ولم يكن لهم دليل على إنكاره، و**كل من يتكلّم بلا علم ولا يقين فهو يقذف ويرجم بالغيب**، من جهة المجاز والتمثيل لمن يرمي ولا يصيب الهدف (**مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**) من جهة بعيدة عن الواقع، فيرمون كلامهم في الخيال والآمال فلا يصل إلى هدفه ومرماه، في هذا اليوم الآخر الحاسم يوم الحساب الرهيب، يحاولون يائسين تناول الإيمان من مكان بعيد عنه وبمحاولة فاشلة وهازلة!

٥٤ – ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾

إنه مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة، يُصوّر القرآن هذه اللّحظة الحاسمة من واقع مؤلم مأساوي، واقع فصل بينهم وبين أمانيهم ورغباتهم، وهم يسيرون نحو نهاية مأساوية مظلمة أعدّوها لأنفسهم بأنفسهم وهم لا يعلمون إلى أين سينتهون، **المعنى**: (**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**) حين جاءهم الهلاك، وَحَالَ الله تعالى وَفَصَلَ وَفَرّقَ (**بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**) من الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا ويعملوا صالحاً كقوله (فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ) غافر/٨٥، وأيضاً فَصَلَ بينهم وبين مشتهياتهم وما يتمنونه من قبول الإيمان ودخول الجنان، وبين شهوات الدنيا وملذاتها بالموت الحق الذي لابد منه، وفصل بينهم وبين النجاة من الخطر الذي يواجهونه، والعذاب الذي يشهدونه.

كقوله (**يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) الأنعام/٢٧، وقد انفردوا بأعمالهم، يَصَوِّر القرآن هذا المشهد المثير الحاسم بسياقه البلاغي الجميل الأخّاذ النفاذ المؤثر فيقول (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) الأنعام/٩٤ (**كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ**) بأمثالهم وأشباههم من الكفار من الأمم الماضية من قبلهم ممن أخذهم الله بانتقامه، فطلبوا النجاة بعد فوات الأمر، وبعد أن لم يعد منه مفر وازدادوا حسرة وألماً كقوله (**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ، قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**) المؤمنون/١٠٧-١٠٨، وعلل عدم قبول إيمانهم ووصولهم إلى ما يشتهون بسبب (**إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ**) في شك عميق من الآخرة، والشك لا يرتكز على الفكر العلمي العميق، **في غرر الحكم** (الشَّكُّ ثَمَرَةُ الجَهْلِ والحَيْرَة، سَبَبُ الحَيْرَةُ الشَّك، مَنْ كَثُرَ شَكُّهُ فَسَدَ دِيْنُهُ) (**مُرِيبٍ**) وهو توكيد الشّك ومبالغته ليصل إلى حالة الريبة القريبة من الإنكار والجحود التام، إنهم كانوا شاكّين فيما أخبرت به الرسل من البعث والجزاء في الآخرة، وقد ازداد الشّك في قلوبهم وتغلغل الريب في نفوسهم حتى صاروا لا يطمئنون إلى شيء ولو كان يقيناً! وهذه الحالة تقلق النفس وتعذّب الروح وتنغّص العيش وتكرّه الأيام كقوله (**وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ**

رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧ وقوله **(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)** طه/١٢٤.

فائدة: ١- يجب التعرّف على الحقائق الكبرى المصيرية الحاسمة بحرص وبحث علمي ودراسة مستفيضة عن طريق عين البصيرة، التي هي أقوى من عين البصر كقوله **(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)** الحج/٤٦، ٢- بدأت السورة المباركة بالقيامة وختمت بمشهد مثير من مشاهدها بهذا الختام العنيف، وركّزت السورة على الآخرة بشكل عام.

وفي الختام نقول : **(هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ)** آل عمران/١٣٨.

تم بعون الله (وَعْيُ الْقُرْآنِ الْمُيَسَّر) لسورة سبأ، بقدري لا بقدرها، بجهد متواصل فلله الحمد والمنّة، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات، بتاريخ ٢٥/٤/ ٢٠١٩م الموافق ١٥/ ربيع الثاني/ ١٤٤٠هـ، في العراق، الكاظمية، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السّور القرآنية الكريمة إنه سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث القرآني: مكي قاسم البغدادي

سورة فاطر، الملائكة
ترتيبها ٣٥ — آياتها ٤٥

من مقاصد السورة:

إنها مكّية، تعنى بقضايا العقيدة وتسير في الغرض العام للآيات المكية، وهي توحيد الله ووجوده سبحانه وهدم قواعد الشرك، والحث على تطهير القلوب من العادات السيئة والتحلّي بمكارم الأخلاق، وتقيم الأدلّة والبراهين على البعث والنشور، بالأرض تحيا بعد موتها وبنزول الغيث وبخروج الزروع وأنواع الفواكه والثمار النافعة، وبتعاقب الليل والنهار، وفي أطوار خلق الإنسان، **وتحدّثت السورة عن الفارق الكبير بين المؤمن والكافر** وضربت لهما الأمثال بالأعمى والبصير والظلمات والنور، وتحدثت السورة عن دلائل قدرة الله تعالى في سائر المخلوقات من البشر والدّواب والأنعام ومن اختلاف أشكال الجبال والأحجار، وتحدّثت السورة عن ميراث هذه الأمة للإسلام الحنيف وللكتاب المجيد، وانقسام الأمة إلى ظالم مُقصّر، ومُقتصد مُحسن، وسابِقٌ بالخيرات بإذن الله، وسميت (سورة فاطر) وتسمى (سورة الملائكة) لأنها تستفتح بقوله **(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ...)**

فضلها: عن الإمام الصادق (ع) **(إنّ الْحَمْدَين: حَمْدُ سَبَأ، وَحَمْدُ فاطِر مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَة لَمْ يَزَلْ فِي لَيْلَتِهِ فِي حِفْظِ اللهِ وَكَلاءَتِهِ (رعايته وحراسته) فَمَنْ قَرَأَهُمَا فِي نَهَارِهِ لَمْ يُصِبهُ فِي**

نَهَارِهِ مَكْرُوه، وَأُعْطِيَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَخَيْرِ الآخِرَةِ، مَا لَمْ يَخْطُر عَلَى قَلْبِهِ وَلَمْ يَبْلُغْ مُنَاهُ) نور الثقلين٤/٣٥٤، **ملاحظة:** هذا الفضل بشرطه وشروطه والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ – ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

يشير القرآن الكريم بإشاراته الموحية الُمعبِّرة، ويكررها ويركز عليها لنتدبر هذه الخلائق المتنوعة في السماوات العلى وفي الأرضين السفلى، ونتدبّر في أشكالها وأحجامها وألوانها ووظائفها ليدرك العقل البشري عظمة فاطرها وخالقها والتوجه إليه وحده بالحمد والطاعة والعبادة (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) **الحمد:** هو الثناء الطيّب الجامع لكل أنواع الذكر الحسن، مع التعظيم والتكريم لجلال الله وجماله وكماله (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) هو المدح والشكر والرضا على عمل طيّب أو صفة طيّبة كالخلق والإيجاد و(**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) على كل حال، و(**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) الذي لا يُحمد على مكروه سواه و(**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) يتعلق بالنعمة والمحنة، ففي كل مِحْنَة مِنْحَة مِنَ اللهِ، وَفِيْ الْمَكَارِهِ مَكَارِمٌ، وَفِيْ الْمَشَقَّاْتِ خِبْرَاْتٌ، وَفِيْ الُمعَانَاةِ هِبْات، وَفِيْ العُقُوباتِ يَقْظاتِ الضَّمِيْر، وَفِيْ الْبَلاَيَاْ بِدَاْيَاْتٌ نِهَاْيَاْتُهَاْ الْكَرَاْمَاْتُ، عن الإمام الحسن العسكري (ع) (**مَا مِنْ بَلِيّةٍ إلاّ وَللهِ فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا**) البحار٧٨/٣٧٤ (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) على ما أمدَّ به المخلوقات كافة من أسباب الحياة والبقاء، وقد حمد الله سبحانه نفسه المقدسة الكريمة ليعلمنا كيف نحمده ونشكره، وليبيّن أن الحمد كله لله وهو الذي يستحقه سبحانه (**فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) خالق وموجد من العدم كل شيء على غير مثال سابق، ولا شبيه ولا مثيل من قبل.

ويراد من كلمة (**فَاطِرِ**) القادر الكامل المبدع المخترع لهذه الخلائق الكثيرة التي لا يتصوّرها خيالنا المحدود، وكل خلق له مقدار معيّن ومدبَّر بإتقان كقوله (**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**) الفرقان/٢، وأتقن صنع كل شيء على أتم نظام وأكمله، وليس بالإمكان أبدع مما كان، كقوله (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) النمل/٨٨ (**جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا**) أي وسائط بين الله وأنبيائه بواسطة الوحي لتبليغهم رسالات ربهم كقوله (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥، ولم يستثن من الملائكة أحداً دليل على طاعتهم كلهم لربهم في أداء واجباتهم.

كقوله (**لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**) التحريم/٦، عن الإمام الصادق (ع) (الْمَلاَئِكَةُ لاَ يَأْكُلُون وَلاَ يَشْرَبُونَ وَلاَ يَنْكَحُونَ، وَإنَّمَا يَعِيشُونَ بنَسِيمِ الْعَرْشِ) نور الثقلين٤/٣٤٩

(أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ) ثم ذكر من صفات الملائكة أنهم ثلاثة أصناف تتفاوت أقدارهم وقواهم ومسؤولياتهم عند الله بحسب استعدادهم الروحي، ولأول مرة في القرآن يصف الله سبحانه الملائكة بتكوينهم الخلقي لبيان سرعة سيرهم وقوّتهم وإتقان عملهم فيما يأمرهم الله به، **واختلاف عدد الأجنحة لاختلاف مسؤولياتهم وتفاوت منازلهم**، وإعطاؤهم هذه الأجنحة لتسهيل النزول من السماء والعروج فيها، لتسريع إنجاز ما يؤمرون به، وليس ذكر هذه الأجنحة وأعدادها للحصر بل لبيان المثل، والدليل على ذلك قوله **(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)** والملائكة أصحاب أجنحة ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون بها إلى السماء، فبعضهم ذو جناحين والثاني ذو ثلاثة أجنحة، والثالث ذو أربعة أجنحة بحسب ما اقتضته حكمة الله، وهذا يعني أن للملائكة أجساماً مادية ولم يُعيّن شكلاً خاصاً من الأشكال، والملائكة من عالم الغيب الذي احتفظ الله بسرّه كقوله **(بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)** الأنبياء/٢٦-٢٧ **(يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ)** على سعة معناها ولا يقتصر على الملائكة، يزيد بعض مخلوقاته على بعض في صفة خلقها وفي شكلها وصورتها، وفي القوة والحجم واللّون وفي الحسن، وفي زيادة الأعضاء وفي حسن الأصوات ولذة النغمات وهكذا كقوله **(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)** النحل/٨ بما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وليس لخلق الله سبحانه حَدّ محدود أنه يخلق ما يشاء متى يشاء كيف يشاء لمن يشاء لأن **(اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)** وهو قادر على ما يريد ولا حَدّ لقدرته، ولا يمتنع عليه فعل شيء أراده كقوله (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ) يوسف/٢١.

٢ - ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يَصَوِّر القرآن هنا انفراد الله تعالى بتدبير الأمور وتقديرها على أساس الرحمة التي لا يحصيها أحد كقوله **(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)** الأنعام/٥٤ وكانت رحمته تسبق غضبه، لذا جاء **(يَفْتَحِ)** قبل **(يُمْسِكْ)** ومفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده سبحانه كقوله **(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)** البقرة/٢١٠ فهذا يوجب التعلّق بالله تعالى والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن تكون العبادة والدعاء لله تعالى وحده وهذا هو توحيد العبادة، وما بين الناس ورحمة الله إلاّ أن يطلبوها مباشرة من الله تعالى، بلا وساطة وبلا وسيلة، وإنما بالتوجّه المباشر الخالص لله تعالى، **المعنى: (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ)** إنها استعارة تمثيلية بلاغية فنّية وكناية تشبيهية بديعية، شبه الله تعالى إرسال النعم بفتح الخزائن للإعطاء، وشَبّه حبس النعم بالإمساك والمنع **وما يفتح الله**: ما يهب الله ويعطي للناس **(مِنْ رَحْمَةٍ)** على إطلاقها، رحمة ظاهرة وباطنة، حسيّة (مادية) أو معنوية، وما يفتح الله للناس من نعمة عامة كرزق أو صحة أو علم اختصاص أو حكمة أو موهبة أو ذكاء أو مهارة أو نبوغ.. وغيرها من النعم الكثيرة كقوله (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) لقمان/٢٠، **(فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)** فلا مانع لها، ولا يقدر أحد أن يمنع خيره ونعمته ورحمته

النازلة إليهم **(وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)** وما يمنع من نعمة ورحمة فلا يتمكن أحد أن يرجعها ويجيء بها من تلقاء نفسه بعد إمساك الله سبحانه ومنعه لها، فهو سبحانه المسيطر على كل شيء، وهو وحده المعطي والمانع على ضوء الحكمة والمصلحة، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع كقوله **(وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)** التكوير/٢٩.

(مَاْ شَاْءَ اللهُ كَاْنَ، وَماْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)

ومعنى هذا أن على المؤمن الصالح الواعي أن لا ييأس من روح الله، مهما ضاقت به السبل في ظروف الشدة والبلاء، وعليه أن لا يأمن المخبّآت والمفاجآت غير المتوقعة حتى ولو أقبلت الدنيا عليه بزينتها في ظروف الرخاء والسرّاء كقوله **(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ)** يونس/١٠٧ **(وَهُوَ الْعَزِيزُ)** في عطائه والغالب على أمره الذي يقهر الأشياء كلّها كقوله **(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)** الأنعام/١٨ **(الْحَكِيمُ)** في أفعاله وأقواله وصنعه، الذي يضع الأشياء في مواضعها المناسبة و**(الْحَكِيمُ)** الذي يعطي عن حكمة ويمنع عن حكمة، **(لَوْ إِطَّلَعْتُمْ عَلَى الْغَيْبِ لَرَضِيْتُمْ بِالْوَاْقِعِ)** **في غرر الحكم** (تَكَادُ ضَمائِرُ القُلُوب تَطّلِعُ عَلى سَرائِرِ الغُيوُبِ) **فائدة:** رحمة الله واسعة تشمل كل شؤون الحياة وتسع البر والفاجر، ومفاتيح هذه الرحمة ومغاليقها بيد الله عز وجل، فإن الخيرات إذا أمسك الله رحمته عنها ولا يرعاها برعايته تعود نقمة، والمحن والبلايا إذا أفاض الله رحمته عليها تعود نعمة! كقوله **(وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)** الأعراف/١٦٨، عن الإمام الصادق (ع) (مَا مِنْ قَبَضٍ وَلاَ بَسْطٍ إلاّ وَللهِ فِيهِ مَشِيّة وَقَضَاء وَابْتِلاَء) التوحيد ص٣٥٤، أما إذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السعادة والراحة والاطمئنان، فصار (الفتح) .. (والإمساك) يخضعان لنظام الأسباب والمسببات، وللحكمة والمصلحة، وللابتلاء والامتحان، **(البلاء على قدر الطباع)** وهذا يتطلّب التوكل على الله كقوله **(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)** آل عمران/١٢٢، عن النبي (ص) (مَنْ سَرَّهُ أنَّ يَكُونَ أَقْوَى النَّاسِ فَليتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ) كنز العمال خبر٥٦٨٦، عن معاذ (لاَ تَزَالُ يَدُّ الله مَبْسُوطَة عَلَى هَذهِ الأُمّة ماْ لَمْ يَرْفِق خِياْرَهُمْ بِشرَارَهُمْ، وَيُعَظِّمُ بَرّهُمْ فَاجِرَهُمْ، ويُعِنْ قُرّاؤهُمْ أمَراءِهُمْ على مَعْصِيةِ اللهِ، فإذاْ فَعَلُوُا نَزَعَ اللهُ يَدَهُ عَنْهُمْ) روح البيان٣١٦/٧.

٣ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾

والله سبحانه وحده الخالق الرازق، وَيَعْجَبُ الله تعالى كيف **(تُؤْفَكُونَ)** وتصرفون وتنحرفون عن هذا الحق الواضح؟ وحولهم السماء والأرض تفيضان عليهم بالنعم والرزق منه سبحانه، فما لهم يغفلون ولا يتذكرون ولا يشكرون؟ وذلك بسبب قسوة قلوبهم وكثرة ذنوبهم كقوله **(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** المطففين/١٤، **المعنى: (أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ) يا أيّها النَّاسُ:** الخطاب عام لكل البشر، تذكّروا نعمة الله عليكم الواسعة الظاهرة والباطنة،

المادية (الحسيّة) والمعنوية كقوله (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) لقمان/٢٠ وقوله (**وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**) إبراهيم/٣٤، اذكروها معنوياً بالقلب والمشاعر اعترافاً برحمة الله، واذكروها بالتصريح باللّسان الصادق بتقديرها وشكر خالقها، واذكروها ذِكراً عملياً بالجوارح والأعضاء بالعمل الصالح النافع للناس انقياداً لله، واستثمروا نعمه وكاثروها واحفظوها وادّوا حقّها واعترفوا برازقها، فإن أية نعمة تدلك على منعمها، و**كل شيء له آية، تدل على أنه واحد**، وبالشكر تدوم النعم، وكل نعم الله على الناس لا تتطلب إلاّ مجرد الذكر والتفكّر والتذكّر والتدبّر! وليس ذكر النعمة باللّسان واللفظ فقط، وإنما بالاستقامة العملية على منهج الله، وتحسن التعامل مع الناس في حفظ حقوقهم، ولا تبخسوا أشياءهم وتسعى لقضاء حوائجهم، وتكفّ الأذى عنهم وتجعلهم مع الدول المتقدمة كقوله (**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**) الرعد/١١.

قال (**نِعْمَةَ اللَّهِ**) بصيغة المفرد ولم يقل (نعم الله) بصيغة الجمع، والمقصود ذكر جميع النعم وشكر منعمها، وإنما جاءت (**نِعْمَةَ اللَّهِ**) بالمفرد، لأن النعمة المفردة الواحدة تستبطن في داخلها أنواع النعم الكثيرة التي لا تحصى، **مثال:** نعمة البحر نعمة واحدة ولكن في داخله عجائب النعم.. وهكذا (**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ**) إشارة إلى نعمة الإيجاد في أول الخلق، وهو استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا خالق غير الله يدبر أموركم (**يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**) والذي يخلق هو الذي يرزق ضمن قانون السببية العام، والعلّة الغائية الشاملة بالحق، وبقاء الأرزاق والنعم تنوّعها إلى نهاية الحياة وحفظها واستثمارها والحذر من كفرانها، فلا تشركوا في عبادتكم لله معه غيره (**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**) لا ربَّ ولا معبود ولا مدبّر بالحق إلاّ الله تعالى، وهو الخالق الذي ينعم عليكم ويرزقكم وليس غيره، وهذا هو الهدف الأساس السامي الذي ينبغي التوجّه إليه في كل الأحوال، **إذن:** فلا تبع دينك بدنياك أو بدنيا غيرك طمعاً بالمتاع المؤقّت من حال ومالٍ حرام وموقع مهم، في غرر الحكم (**مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الحُرِيَّةِ أهِّلَ لِلْعِتْقِ، مَنْ قَصَّرَ عَنْ أحْكَامِ الحُرِيَّةِ أُعِيْدَ إلَى الرِّقِّ**) وفيه أيضاً (ولا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ خَلَقَكَ اللهُ حُرّاً) (**فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**) فكيف تصرفون وتنحرفون وتتوجهون بعد هذا البيان عن الحق إلى الباطل، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن عبادة الخالق الرازق المطلق إلى عبادة المخلوق المرزوق المحدود، فتشرك مع الله غيره؟! وهو استفهام إنكاري، يستنكر الله على الذين يوجّهون وجوههم إلى غير الله كقوله (**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا**) الكهف/٥٧، والغرض منه تذكير الناس بنعم الله وشكرها، فيجب أن ينفرد الله سبحانه بالعبادة ولا يشرك معه غيره. سُئل الإمام الصادق (ع) عن أدنى الشرك فقال (مَنِ ابْتَدَعَ رَأْياً فَأَحَبَّ عَلَيْهِ أَوْ أَبْغَضَ عَلَيْهِ) الكافي٢/٣٩٧.

٤ – ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

يتعامل المؤمن مع الله ويطيعه على أنه كل شيء في الحياة وهو الحقيقة الكبرى، كقوله (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) النور/٣٥، والمؤمن لا يرى شيئاً في الحياة إلاّ ويرى الله معه وقبله وبعده وفيه، **في غرر الحكم** (لَوْ كُشِفَ الْغِطَاْءُ مَاْ ازْدَدْتُ يَقِيْنَاً) **عن الإمام علي** (ع) (مَاْ رَأَيْتُ شَيْئَاً إِلّا وَرَأَيْتُ اللهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ وَفِيهِ) مواهب الرحمن٧/٣٠٠ بينما المكذبون البعيدون عن الله يكذّبون هذه الحقيقة الكبرى البديهية عند المؤمن، وتبقى الحقيقة الكبرى هي الحقيقة وإن كذّب بها الجاهلون، والذي يكذّب بالبديهيّات يقع في أشكل المشكلات، **المعنى (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ)** يا مُحَمّد بعد استماع القرآن وبراهينه الساطعة، فلا تحزن فليس ذلك بجديد، فوظيفة النبي (ص) تبليغ الرسالة بوضوح وإلقاء الحجة على الناس، وهو غير مسؤول عن النتائج، والعواقب متروكة لله وحده **(فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ)** كما مَرَّ في الأمم الماضية، فاصبر فلك أسوة حسنة بمن قبلك من المرسلين الذين تكذبهم أممهم جهلاً وعناداً، فلا تتراجع ولا تملّ بل إصبر واصمد وتابع تبليغ الرسالة الهادية وإلقاء الحجة الواضحة على الناس، حتى يأتي الله بأمره، وهو تسلية للنبي (ص) وهذه سُنة الله في الأنبياء قبلك كقوله **(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)** الأحقاف/٣٥ **(وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)** إلى الله وحده ترجع جميع الأمور وعنده تحسم الخلافات، فيجازيك على الصبر ويجازيهم على التكذيب، وشتان بين الجزاءين، وفيه تهديد ووعيد لهم.

٥ – ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾

يتّجه السياق القرآني إلى عامة الناس ليعرفهم أن للحياة بداية ونهاية، فالدنيا البداية والآخرة النهاية، والذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ؟ فلا يلهكم التمتع بالدنيا وزينتها عن طلب الآخرة ونعيمها (والغرور بالدنيا) هو الانخداع بشهواتها يؤدي إلى الغرور بالله والاستغناء عنه ونسيانه، والذي ينسى الله ينسيه الله مصلحة نفسه ويكله إلى نفسه **(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)** الحشر/١٩، وعندما يغتر بالله يتلقفه الشيطان ويكون من حزبه كقوله (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) الفرقان/٢٩ فلا تغفلوا عن محاربة الشيطان وخالفوا وساوسه (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) الأعراف/٢٧.

المعنى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) الخطاب عام لكل الناس أن اعملوا فإن وعد الله بالحشر والجزاء، وكل ما جاء في رسالة النبي (ص) الإسلامية المبعوث بها **(حَقٌّ)** لا شك فيه ولا ريب ولا خلف فيه ولا بد منه كقوله **(إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)** الرعد/٣١ **(حَقٌّ)** ثابت بذاته ومثبّت لغيره **(حَقٌّ)** لا يضيع ولا يبطل ويبقى ينفع ويؤثر ويهدي، ولكن الحياة الدنيا تغرّ

وتسرّ وتضرّ وتمرّ وتخدع (**فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**) **الغرور**: الخداع والضلال البعيد، **والغرور**: كل ما يغر ويخدع ويوهم الإنسان مثل الشيطان فهو أخبث الغاوين، فلا تمكنوه من أنفسكم (**فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ**) فلا تخدعنّكم الحياة الدنيا الدانية الهابطة العاجلة الملهية، بزينتها ونعيمها وشهواتها ولذّاتها فتنشغلوا بها فتلهيكم وتغرّكم بالتمتع المؤقّت بها فتغفلوا عما خلقكم الله من أجله كقوله (**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**) الذاريات/٥٦، الْغَفْلَةُ ضَلاَلَةٌ، **في غرر الحكم** (احذروا الْغَفْلَةَ فإنها مِنْ فَسَادِ الْحِسِّ) (فَلاَ تَغْفُلْ فَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْكَ) كقوله (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآَخِرَةَ) الأنفال/٦٧.

(ولاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ) (**وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**) ولا يخدعنكم عن طاعة الله ومغفرته وكرمه أي خادع، وأخطره خداع (الشَّيْطَانُ) الذي يخدع بوساوسه الفنيّة الخبيثة المتنوعة التي ظاهرها يغرّ ويسرّ وباطنها يضر، الذي يعدكم الشيطان بشهوات الدنيا ولذّاتها ويطمعكم في عفو الله ورحمته وغفرانه، ويشجعكم بالبقاء على المعاصي فيهون عليكم الفساد وارتكاب الذنوب، ويطوّل عليكم الأمل الخادع ويجعلكم في غفلة دائمة كقوله (**لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**) ق/٢٢، وأيضاً احذروا من غرور هوى أنفسكم، فإن الهوى إله معبود من دون الله، وهو مدخل الشيطان إلى نفوسكم كقوله (**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا**) الفرقان/٤٣، عن النبي (ص) (**مَا عُبِدَ إِلهٌ أَبْغَضَ عَلَى اللهِ مِنْ الْهَوَى**) روح البيان٢/١٩٧، وسُمِيَّ (غروراً) لأنه يغرّ الناس ويخدعهم ويضرّهم، فيزيّن لهم الضلال والفساد على أنه تقدم وحضاره، وكل ما يشغل الإنسان عن الله وعن العمل الصالح وعن بناء مستقبله الأخروي فهو (غرور) لأنه يغرّر بالإنسان ويوهمه ويخدعه، **في غرر الحكم** (التَّبَجُّحُ (التفاخر) بِالْمَعَاصِيْ أَقْبَحُ مِنْ رُكُوبِهَا) (أَعْظَمُ الذُّنُوْبِ عِنْدَ اللهِ ذَنْبٌ أَصَرَّ عَلَيْهِ عَامِلُهُ) **فائدة**: (**وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ**) المراد (بالغرور بالله) الذي يصيب الشيطان الإنسان بوساوسه الخادعة، فيسير الإنسان على رغبات هواه ومناه، ومن اتّبع الهوى فقد هوى وسقط ولو بعد حين، وأيضاً اغترار الإنسان بإمهال الله الذي يعامل الإنسان به على غفلته ومعصيته وظلمه، وأيضاً يغتر الإنسان بحلم الله وعفوه فيرى الاستغراق في الفساد مع نسيان الله واليوم الآخر لا يؤاخذه الله بذلك كقوله (**وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ**) آل عمران/١٧٨، **وفي نهج البلاغة حكم١١٦** (كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فِيهِ! وَمَا ابْتَلَى اللهُ أَحَداً بِمِثْلِ الإِمْلاَءِ (الإمهال) لَهُ) أي الاستدراج.

٦ – ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

يكرر القرآن دائماً ويذكّر الإنسان من مخاطر وساوس الشيطان الخبيث، الذي أعلن عداوته لكم فهو عدوٌ لئيم خبيث مكشوف، سلاحه الوحيد الوسوسة الفنيّة التي تخدع كثير من الناس كقوله (**وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**) يس/٦٢، وكلما قويت علاقة المؤمنين بالله ضَعُفَ الشيطان عنهم كقوله (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) النساء/٧٦، وكلما ضعفت علاقة المؤمنين بالله قوي الشيطان عليهم كقوله (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) النحل/٩٩-١٠٠، وهو وصف كاشف لهذا (**الْغَرُورُ**) المحرّض له الشيطان الذي يضع العراقيل والمعاناة في طريق الآخرة، وهو عدو خفي علني صريح قديم ولئيم لابن آدم، فكونوا على حذر شديد، وانتباه دائم من وساوسه الفنيّة، ولا تغفلوا عن مخاطرها فإن ظاهرها يغرّ ويسرّ وباطنها يضرّ.

المعنى: (**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ**) لأن الشيطان لكم (أيها الناس) عدو لدود حاقد حاسد لئيم، وعدواته قديمة وعلنية من أول يوم عرفكم، لا تزول عداوته، فعادوه دائماً كما عاداكم، ولا تطيعوا وساوسه المغرية، وكونوا على حذر من تسويلاته وإغراءاته، فإنه لا يدعوكم إلى خير ولا ينتهي بكم إلى نجاة كقوله (**أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا**) الكهف/٥٠.

(**فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**) فعادوه واحذروه في جميع أحوالكم، وخالفوا وساوسه وعارضوها في كل أعمالكم، واجتنبوا اتّباعه ولا تنخدعوا لانقياده وإغراءاته، ولا تطيعوه ولا تركنوا إليه ولا تتخذوه ناصحاً لكم بوساوسه الفنية الموهمة الخادعة المتنوّعة، فالعدو الّلدود لا تثق به ولا تركن إليه (**إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ**) أنصاره وأتباعه وأصحابه المنقادين له، إنما غرضه أن يدعوهم ويسوقهم إلى سوء العاقبة فيحقق ظنه فيهم، فصار للشيطان حزب يقوده وجماهير تتبعه، ويتألف هذا الحزب من جماعات تطيعه وتنصره وتخضع لوساوسه وتنفذها، في كل زمان ومكان، **الحزب**: جماعة لهم غرض واحد، وتتبع برنامجاً معيّناً متّفق عليه يعملوا جاهدين على إنجازه كقوله (**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ**) النحل/١٠٠ (**لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**) ليكونوا من أصحاب نار جهنم المستعرة الملتهبة التي تشوي الوجوه والجلود، فهل من عاقل بين الناس يجيب دعوة هذا الداعي العدو الّلئيم إلى عذاب السعير الأبدي الدائم؟! هذه هي غايته الخبيثة، فمن تبعه منكم فإنه من حزبه ويعمل له ويناصره ويصادقه، فهو يخطط لكم وأنتم تنفذون! **فائدة**: **لماذا وصف إبليس بالشيطان؟** من شطن وشيطنة، وهم مردة الجن والإنس، وكل خلق ذميم ودهاء لئيم لعداوة الإنسان، وعليه **فمعنى الشيطان واسع الدلالة**: فكل من أضمر الأذى واعتدى وأساء لأي فرد من أفراد الإنسان أو لأي مجتمع من المجتمعات، إساءة مادية مباشرة بالقول الجارح أو بالفعل المؤذي، أو معنوية غير مباشرة بالمؤامرات والخيانات والارتباطات المشبوهة، فهو

(شيطان رجيم) ومارد خبيث لعين، حتى ولو صلى وصام وحج بيت الله الحرام! كقوله (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام/٤٣.

٧ – ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

تُصوِّر الآية الكريمة ببلاغة عالية نتائج الأعمال على المكشوف، فتقسّم الناس إلى قسمين كافرين ومؤمنين، وتوضّح عاقبة الكافرين الذين لبوّا دعوة الشيطان، وتوضّح عاقبة المؤمنين الذين رفضوا وساوس الشيطان وإغراءاته، وركنوا واطمأنوا إلى منهج الله وطاعته **المعنى**: (**الَّذِينَ كَفَرُوا**) الذين جحدوا بالله ورسله ورسالاته بالقول أو جحدوا بالفعل قبل القول وهم حزب الشيطان (**لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**) لا يوصف هوله جزاء كفرهم وفسادهم، وهذا عاقبة الفئة الأولى التابعة للشيطان ومن حزبه (**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) بقلوبهم وهم حزب الله الذين جمعوا بين الإيمان الصادق والعمل الصالح على إطلاقه لأنهما لا يفترقان، عن الإمام الصادق (ع) (**الإيمان عمل كله والقول بعضه**) البحار٦٩ص٢٣، بحيث لا يعمل خلاف ما يقول، ولا يقول خلاف ما يعمل، ويكون قوله مطابقاً لعمله دائماً، وعمله ترجماناً لقوله لا يختلفان، هؤلاء الذين خرجوا سالمين من مخاطر هذا (**الْغَرُورُ**) غرور الهوى وغرور الدنيا وغرور الشيطان والغرور بالنفس وبرحمة الله، فاستجابوا لله وللرسول واستقاموا في جميع الأحوال في الشدة والرخاء (**لَهُمْ مَغْفِرَةٌ**) عند ربهم لذنوبهم (**وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**) ثواب عظيم وهو الجنة، وهذا وعد صادق للفئة الثانية، الفئة المخالفة لدعوة الشيطان كقوله (**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**) الأعراف/٢٠١ **فائدة**: العذاب الشديد جاء نتيجة الكفر بالله والفساد في الأرض، والكفر بالله جاء نتيجة اتباع الشيطان الذي يدعوهم إلى اتّباع الهوى، والهوى إله معبود من دون الله يبغضه الله تعالى، وفي المقابل لهؤلاء جاءت المغفرة للذنوب والأجر الكبير نتيجة الإيمان الصادق والعمل الصالح كقوله (الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) الرعد/٢٩، وأصل الإيمان ما وقر في القلب وصدّقته الأعمال ولا يمكن أن يستمر الإيمان الصادق والعمل الصالح ثابتاً إلاّ بمخالفة وساوس الشيطان وهوى النفس (**وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**) ص/٢٦. في نهج البلاغة (كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوًى أَمِيرٍ) حكم/٢١١. **في غرر الحكم** (كَيْفَ يَسْتَطِيْعُ الْهُدَىْ مَنْ يَغْلِبُهُ الْهَوَىْ)؟!

٨ – ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

تُصوّر الآية الكريمة التي ظاهرها أنيق رقيق جذّاب، وباطنها عميق دقيق منساب، بتعابير قرآنية نموذجية فنية بلاغية ومؤثّرة، حقيقة نفسية دقيقة وكأن عدسة التصوير تغوص في أعماق

النفس، وتتغلغل في مشاعرها وتصل إلى ضمائرها، وتتعرّف على أسرار أحاسيسها الخفيّة، إنها تُصوّر صورة مجسّمة واسعة الدلالة، لطبيعة غواية الشيطان ووساوسه الفنية الخادعة اللئيمة في أعماق النفس الإنسانية، فيأتيه الشيطان من حيث يحبّ الإنسان، وينتهي معه من حيث يحبّ الشيطان!! أن يزيّن الشيطان للإنسان سوء عمله القبيح فيراه حسناً، كقوله (**الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ**) محمد/٢٥ وقوله (**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) الأنعام/٤٣، **إذن:** وظيفة الشيطان قذرة خبيثة، فهو يزيّن ويجمّل للإنسان الضال عمله السيّء القبيح باستمرار وبطرق متنوعة خادعة، فيريه الخير شرّاً، والشر خيراً، ويجعله معجباً بنفسه مغروراً بحاله وبكل ما يصدر منه كقوله (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى) العلق/٦-٧، **في غرر الحكم** (مَنْ لَمْ يُهَذِّبْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِالْعَقْلِ)

المعنى: (**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآَهُ حَسَنًا**) سؤال الاستفهام إنكاري بلا جواب صريح ليشمل كل جواب، يُصوّر القرآن صورة مجسَّمة عالية الإتقان لتصل إلى أعماق الإنسان الضال وتُشَخِّصُ حالته الذميمة بدقة، وبصورة بلاغية محرّكة للمشاعر ومثيرة للانتباه، فهذا الإنسان المسكين زَيّنَ له الشيطان (العدو اللّدود) عمله القبيح الفاسد الضار وزوّقه وحسّنه في عينه وجملّه في نفسه (**فَرَآَهُ حَسَنًا**) عملاً جيداً مناسباً تقدميّاً، فيبرقعه بالجمال حتى تأخذه العزة بالإثم، بسبب جهله وكبريائه وضيق أفقه، فلم يقبل النقد والحوار والنصيحة، بل يعتبر الذي ينصحه فهو عدوّه وينفر منه! كقوله (**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ**) البقرة/٢٠٦.

وقوله (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) الزخرف/٣٦-٣٧ **حقاً:** إنه إنسان منكوس الفهم وعنده قناعات منحرفة بعيدة عن الحقيقة، ويفهم الحياة بشكل مقلوب، وعنده خلل في الموازين والمعايير الصحيحة للحياة، قد زيّن له الشيطان وأغراه هواه وقناعاته وهو (سَوءُ عَمَلِهِ) السيء القبيح المضر المفسد (**فَرَآَهُ حَسَنًا**) فتخيّله عملاً حسناً وجميلاً وتقدميّاً، لأنه واثق من نفسه أنه لا يخطئ! معجب بكل ما يصدر منه! متأكّد أنه دائماً على صواب! لا يخطر على باله أن يراجع نفسه ويحاسبها في موقف أو في كلام، فهذا هو المغرور بحاله المخدوع بنفسه، **والغرور:** كل ما يغرّ الإنسان ويخدعه من مال وحال وجاه ومنصب وقوة وشهوة وشيطان، ولو قال الناس جميعاً للمغرور قولاً حكيماً لكذّبهم وصدّق غرور نفسه كقوله (**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ**) الانفطار/٦ .

في غرر الحكم (الحذر، الحذر أيها المغرور، فَاللهِ لَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ غَفَرَ) وقَدْ أَمْهَلَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَهْمَلَ، وَقَدْ أَنْذَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَعْذَرَ! سُئل أبو الحسن (ع) عن العُجُب الذي يفسد العمل فقال: (**الْعُجُبُ دَرَجَاتٌ مِنْهَا: أَنَّ يُزَيِّنُ لِلْعَبْدِ سُوءُ عَمَلِهِ فيَراهُ حَسَناً فَيَعْجُبُهُ، وَيَحْسَبُ أَنّه يُحسِنُ**

صُنْعَاً) الكافي٢/٣١٣ فإن الله يرتّب الأسباب على المسببات في سننه الإنسانية، **في غرر الحكم** (لِكُلِ شَيءٍ سَبَبٌ) كقوله (وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، فَأَتْبَعَ سَبَبًا) الكهف/٨٤-٨٥، والسبب بيد الإنسان تكريماً له، والمسبب هو الله تعالى ولا يعمل المسبب إلاّ بوجود السبب كقوله (**اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ**) الشعراء/٦٣.

ولو لم يضرب بعصاه ما انفلق البحر، فليست عصاه التي فلقت البحر، وإنما بسبب عصاه تحرّك المسبب ففلق الله البحر، فاعمل بالاستطاعة الّلازمة والسعي المطلوب والمرغوب والمدروس والبقية على الله، فيكون الإنسان بين الجبر والاختيار، عن الإمام الصادق (ع) (**لاَ جَبَرٌ وَلاَ تَفُوِيضٌ** (**ولا اختيار**) **وَلْكَنُ أَمَرٌ بِينَ أَمَرِينَ**) البحار٥ص١٧، الخبر في الآية محذوف دَلَّ عليه السيّاق وتقديره: كمن لم يزين له الشيطان سوء عمله، بل بقيت عنده الموازين صحيحة ثابتة لم تتغيّر، ووفقه الله فميّز بين الحسن ففعله والقبيح فانتهى عنه؟ هل يستويان عند الله؟ كلا لا يستويان، هؤلاء العاصون المعاندون قد زين لهم الشيطان ضلالهم الفكري ومعاصيهم الفاسدة، فرأوها حسنة وجميلة ومتناسبة مع رغباتهم ولم يستسيغوا غيرها كقوله (**فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ**) النحل/٣٦ وقوله (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) فصلت/١٧. **عن الإمام الكاظم** (ع) (إنّ السّيئآت لا تخلو من إحدى ثلاث: إما أن تكون من الله – وليست منه – فلا ينبغي للرب أن يعذّب العبد على ما لا يرتكب، وإما أن تكون منه ومن العبد – وليست كذلك – فلا ينبغي للشريك القويّ أن يظلم الشريك الضعيف، وإما أن تكون من العبد – وهي منه – فإن عفا فبكرمه وجوده، وإن عاقب فبذنب العبد وجريرته) البحار٧٨/٢٢٤.

ثم ذكر السبب فقال (**فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ**) هذا تعليل لقوله (**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**) فإن الله يضل من يشاء الضلال ويريد الفساد، فيمنع لطفه ورحمته ورعايته سبحانه عمن يشاء الضلال، ويطلبه ويختاره لنفسه ويعتمده ويرغب فيه ويسعى من أجله ويسلك طريقه، كما أن من يشرب السُمّ فإنه يموت، ومن تناول المسكر فإنه يسكر، ومن رمى بنفسه في البحر يغرق، وهو لا يعرف فن السباحة كقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) الصف/٥ (**وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**) ممن يستحق ويريد الهداية ويسلك طريقها ويرغب فيها ويتحمّل مسؤوليتها، باختياره دون إجبار ولا إكراه، وبلسان حاله قبل لسان مقاله كقوله (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ) الشورى/١٣ وقوله (**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**) التغابن/١١ (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) **الحسرة:** شدّة الحزن على ما فات، فلا تهلك نفسك الكريمة يا مُحَّد من الغم والهم والتحسّر، على كفر المشركين وتركهم للإيمان واستحقاقهم للعذاب كقوله (**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**) النحل/٣٥ وقوله (**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**) آل عمران/١٢٨، عن النبي (ص) (بُعِثْتُ دَاعِيّاً وَمُبَلِغاً وَلَيْسَ إِلَيّ مِنْ الْهُدَى شَيْءٌ ، وَخَلَقَ إِبْلِيسَ مُزَيّناً وَلَيْسَ إِلَيْهِ مِنَ الضَّلَالَةِ شَيْءٌ) كنز العمال خبر٥٤٦

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) إن الله مطّلع عليهم بكل أعمالهم بالتفصيل ويجازيهم عليها، وهذا وعيد وتهديد لهم بالعقاب. **فائدة:**

١- **(فَرَآهُ حَسَنًا)** يؤكد الإسلام ويشجع على النقد الذاتي البنّاء، ويسمّى **(محاسبة النفس)** اليوميّة ومراقبة سلوكها مع نفسها ومع ربها ومع الناس، من أجل أن يعرف الإنسان مقدار استقامته، فيحدد نقاط قوته ونقاط ضعفه، فيعالج نقاط ضعفه ويقوّي نقاط قوته ويزيدها كقوله **(وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)** الحشر/١٨، عن النبي (ص) (حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوهَا قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا وَتَجَهَّزُوا لَلْعَرضِ الأَكْبَرِ) البحار٧٠ص٧٣، **في غرر الحكم** (ثَمَرَةُ الْمحَاسَبَةِ صَلَاحُ النّفْس)

٩ - ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾

إنها صورة علمية طبيعية فنية، يعرضها القرآن وتراها العيون ويفسّرها العقل، والقائمة على نظام معروف دقيق مدبّر ومقدّر، الدال على كمال قدرة الله وحكمته، من خلال رؤية الأرض اليابسة وكأنها ميّته، وبعد حين تراها نفسها خضراء حيّة مبهجة من آثار الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، وأن الله بقدرته الذي أحيا الأرض بعد موتها، هو نفسه الذي يحي الإنسان بعد موته ولو كان تراباً، فَشَبَّه الله إحياء الموتى بعد موتهم للحساب، بإحياء الأرض اليابسة بعد موتها كقوله **(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)** القيامة/٣-٤، **عن النبي (ص)** (الْخَاْسِرُ مَنْ غَفَلَ عَنْ إِصْلَاحِ الْمَعَاْدِ) تنبيه الخواطر ص٣٥٩، **المعنى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا)** والله هو الذي يدبّر نزول الغيث، بتوفير مقدماته بإرسال الرياح فتهيج سحاباً كان ساكناً فتحركه وتنشره في السماء، ضمن القانون الطبيعي لتكوّن السحاب، **(فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ)** فيسوق الله السحاب الذي يحمل الغيث ويوجهه إلى أرض معينة ميّتة قاحلة يابسة.

(فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) بنزول الغيث من السحاب فأنبتت الأرض أنواع الزروع بعد يبسها، وكانت كأنها ميّتة، وفي ذلك بعث جديد للحياة في الأرض الميّتة، كما يبعث الله الحياة في الإنسان بعد موته! فهذه صورة حيّة لمن يملك الحياة المفكّرة، وكيف تتحرك الحياة وتزدهر فيمن يريد الله له الحياة كقوله **(وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)** الحج/٥ **(كَذَلِكَ النُّشُورُ)** وعلى هذه الكيفية من إحياء الأرض يحيي الله الأموات بعد فنائهم ويبعثهم من قبورهم، وأينما كانوا يبعثهم للحشر والنشر والحساب، ولقد آتينا بهذا المثال لتعتبروا ولنريكم إنموذجاً من المعاد تشاهدونه في هذه الدنيا والذي يتكرر، لتدركوا أن من يقدر على هذا يقدر على ذلك، إنه دليل حسّي طبيعي مشهود للدلالة على إمكانية البعث بعد الموت والنشور للحساب، كقوله **(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً**

وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) يس/٥٣ وقوله (أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقرة/١٤٨، عن النبي (ص) (كَمَا تنامُون تَمُوتُون، وَكَمَا تَستيقِظُون تَبعَثُون) القرطبي١٥/٢٦٠ ، **عن الإمام علي** (ع) (عَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الأُخْرَى وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الأُوْلَى) البحار٧/٤٢.

فائدة: يوم القيامة من أصدق الحقائق ومن أقوى البديهيات ومن أهم الفلسفات، إنه يوم يجعلك تؤمن بعالم الغيب (عالم ما وراء المرئيات) كإيمانك بعالم المرئيات، عالم يُقام بالحق وتقام به الحقوق، ويجازى كل إنسان بحسب عمله، فلا يتساوى الظالم والمظلوم، فلا يمكن في عدل الله أن يموت المظلوم على ظلامته، ويموت الظالم على ظلمه واعتدائه ولا يقام عليه القصاص العادل كقوله (**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)** النحل/٩٠، **في غرر الحكم** (لَا عَدْلَ أَفضَلُ مِنْ رَدِّ المَظَالِمِ) إنه يوم أكيد حاسم يقره العقل ويثبته الدليل وينطق به الواقع ويدعمه العلم الحديث، وتؤيده النصوص الكثيرة من الأديان السماوية المتنوعة، ويؤيده القرآن والسُنة ولا تنكره الحجج والبراهين، فيكون (يَوْمُ القِيّامَة مِيزَانٌ (دَقِيْقٌ) فَمَنْ وَفّى، اسْتَوْفَى)! عن النبي (ص) (**مَنْ مَاْتَ فَقَدْ قَاْمَتْ قِيَامَتُهُ)** روح البيان٣/٢٢، **في غرر الحكم** (خَيرُ العِلْمِ ما أصلحتَ بِهِ رَشَادَكَ، وَشَرّهُ ما أفسَدتَ بِهِ مَعَادَكَ) **وفي غرر الحكم** (المَوْتُ أَوَّلُ عَدْلِ الآخِرَةِ).

١٠ – ﴿ **مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ** ﴾

(**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ) (الْعِزَّةَ)** أي الكرامة والشرف والمنزلة والرفعة والقوة والقدرة والسعادة وخير الدنيا والآخرة، فليطلبها من أصلها وليس من فروعها، فإن الله أصل العزة جميعاً ومصدر ينبوعها، ودينه القيّم أيضاً، فعلينا طاعة العزيز، فهو الذي يهبها، وهو سبحانه الحق العزيز بذاته ويعزُّ غيره، لأن عزّة الحق بذاته وامتداده فتشمل عزّته في الدارين، وعزّة غيره بممتلكاته ومكتسباته ودرجاته، وهي محدودة ومؤقتة في زمن من الدنيا دون الآخرة، وبعزة الله سبحانه تستغنى به عن كل عز، فلْتِطعْ العزيز لأنه يهبك عزاً حقيقياً متكاملاً فيه الجمال والجلال والكمال وهي (عِزَّةُ النَّفْس) (وَغنى النَّفْس) **في غرر الحكم** (خَيْرُ الغِنَى غِنَى النّفس) عن النبي (ص) (**إِنَّ رَبَّكُمْ يَقُولُ كُلَ يَوْم: أَنَا الْعَزِيزُ، فَمَنْ أَرَادَ عِزَّ الْدّارَيْن فِلْيُطِع الْعَزِيز)** مجمع البيان٥/٢٣٠، وهذه الحقيقة الكبيرة كفيلة حين تستقر في القلوب أن تبّدل المعايير والموازين العامة كلها، وتعدّل الفكر والسلوك والقناعات وتبدأ تنظر للحياة من منظور قرآني فريد ومن جديد كقوله (**الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا)** النساء/١٣٩.

عن النبي (ص):

(مَنْ أَذَلَّ نَفْسُه فِي طَّاعَةِ اللهِ فَهُو أعَزُّ ممنْ تَعزَزَ بِمَعْصِيَةِ اللهِ) كنز العمال خبر٤٣٠٨٤، **وفي نهج البلاغة خطبة ١٩٣** (عَظُمَ الخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ) وفي غرر الحكم **(مَنْ أرَادَ عِزَّاً بَلاَ عَشِيرَة، وَغِنَى بَلاَ مَال، وَهَيْبَة بلاَ سُلْطَان، فلينتقِل عِنْ ذُلِ مَعْصِيَةِ اللهِ إلَى عِزِ طَاعَتِهِ)** البحار١٣٩/٤٤، وفي الدعاء **(وَفِي نَفْسِي فَذَلِّلني، وَفِي أَعْيُنِ النَّاس فَعَظِّمْني)** البحار٩٨ص٤٧، **المعنى الصحيح للعزة:** ليست العزة طغياناً يستكبر على الحق ويتشامخ بالباطل، إنما (**الْعِزَّةَ**) استعلاء الروح على شهوة النفس، واستعلاء على الجمود والتحجرّ والجهل والذل، واستعلاء على الخضوع والخنوع لغير الله، **وحقيقة العز**: خضوع لمنهج الله، وخشوع في طاعة الله، وخشية من الله وتقواه، **والعِزَّة:** حالة ماديّة (حسّية) وحالة معنوية (نفسيّة)، (ومن العزّة أن تعرف قدرك ولا تتعدّى طورك) **والعِزَّة:** للمدح والذم، فتارة يمدح القرآن بها كقوله **(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)** المنافقون/٨ وهي العزة الحقيقية الجامعة المانعة الدائمة، لأنها تمتلك مقوّمات البقاء، وجه الجمع بينهما، إنّ العزّة الكلية لله لأنه أصل العزّة ونبعها ومعدنها وواهبها، وعزّ الرسول (ص) وعز المؤمنين من عزة الله فعلاً ومنّة وفضلاً فتكون **(فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)** وأيضاً يذم القرآن بالعزة آخرين كعزة الكافرين كقوله **(بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ)** ص/٢، وعزة الكافرين غير حقيقية، لأنها عِزَّة تَكَبُّر وتفاخر وانتفاخ واستعلاء، وعزة ظاهرية وليست جوهرية ذاتية، عزة وهميّة مؤقتة خادعة، وكأنها حالة انتفاخ وورم وكبرياء، وليست عزة وانشراح وانتعاش، وإنما تعزز بالمتاع والمال والأشكال وحسن الحال المؤقّت الممتحن فيه، والعزة بهذه الصورة الشكلية الوهمية تكون ذلاً!

عن الإمام علي (ع):

(كُلَّ عَزِيَز دَاخِل تَحْتَ الْقُدْرَةِ فَذَلِيلٌ) البحار٧٨ص٥٤ **(فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا)** لأن الله هو الحق، والحق هو العزة، وأن العزة من عند الله سبحانه جميعاً وهو معدنها وواجدها وينبوعها وهي بيده وهو معطيها، إنها عزة دنيوية وأخروية عزة بشكلها ومضمونها، فهو سبحانه الغني بذاته عن كل شيء، ومغني غيره بكل شيء، وإليه يفتقر كل شيء، في كل شيء مهما علا وطغى واستغنى واقتدر وتعزّز، كقوله **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)** فاطر/١٥، في الدعاء (اللهُمَّ إِنِّي أعُوذُ بِكَ مِنَ الفقرِ إلاّ إلَيكَ، وَمِنَ الخَوفِ إلاّ مِنْكَ، وَمِنَ الذُّلِّ إلاّ لَكَ) **المؤمن عزيز كريم:** ومن العزة أن لا تُعرّض نفسك الكريمة لمواقف ذليلة تهين كرامتها وتذل عزتها، كقوله (وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) الإسراء/٨٠، **عن الإمام علي (ع) (وَلاَ تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً)** البحار٢١٤/٧٧، ومن العزة أن لا تنحني لغير الله، ولا تحني رأسك بذل لمخلوق متسلّط متجبّر، ولا لحاكم طاغية جبّار متكبّر، ولا لدولة فاسدة ولا لقوة طاغية، من العزة أن

لا تنحني لغير الله تعالى، وعلى قدر الإيمان بالله والثقة به يكون مقدار العز كقوله (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) مريم/٨١-٨٢.
عن النبي (ص) (**كُلِّ عِزّ لِيْس بَاللهِ فَهُو ذُلٌ**)
في غرر الحكم (**مَنِ اِعْتَزَّ بِغَيْرِ اللهِ أَهْلَكَهُ العِزُّ**) ثم قال تعالى (**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**) إنه تعبير دقيق المبنى عميق المعنى واسع الدلالة، أي إلى الله تعالى يصعد (**الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**) الكلم جمع الكلمة، وهو كل كلام طيب نافع بليغ مستحسن حكيم و(**الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**) هو طيّب الكلام وجماله وكماله وجلاله وحسن تأثيره في نفوس الناس، والكلام الطيب شامل المعنى من ذكر ودعاء وتلاوة قرآن، وكل موعظة حسنة وكل نصيحة نافعة وكل إرشاد مؤثر وتبليغ مفيد، وتوجيه وتعليم حضاري متنوّع الاختصاصات ينهض بالشعوب والنفوس..يصعد إلى الله ويعرض عليه سبحانه ويثني على صاحبه بين الملأ الأعلى (**الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**) في كل الأحوال والأشكال والأجيال والظروف، فهو طيّب مؤثر نافع بذاته ونافع لغيره، فهو كالدّواء المشافي المعافي الذي يصعد لله تعالى ويكون مقبولاً ومذخوراً كقوله (**مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ**) النساء/١١٤ و(**الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**) إذ ترك أثراً نافعاً في النفوس أو عملاً صالحاً مفيداً للفرد والمجتمع كقوله (**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**) الكهف/٤٦، إن ذكر (**الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ**) بعد ذكر (**فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**) إشارة إلى أن الله طيّب لا يقبل إلاّ طيّباً، ولا يرد موارد عزّته إلاّ الطيّبون، عزّة الدنيا الحقيقية عزّة الشكل والمضمون، وعزة النفس والعقل والواقع، وعزّة الآخرة، وهو إشارة أخرى إلى أسباب العزّة ووسائلها، فطلب العزة الخالصة الحقيقية من أصلها هي التي تعطيك صفات التكامل الإنساني، والتي من أهمها (**الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ**) ثم قال:
(**وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**) والعمل الصّالح النافع الباقي نفعه على سعة معناه (**يَرْفَعُهُ**) أي يتقبله ويثيب عليه ويُكرم صاحبه، فالعقائد الصالحة والأفكار النافعة لا قيمة لها إذا لم تشفع بالأعمال الصالحة والمواقف النافعة، ويحيا الإنسان بعزّة بحسن مواقفه أكثر مما يحيا بعمره، لأن الله سبحانه يقبل القول والعمل معاً، ومن ثم يكرم صاحبها وَيَرفَعه ويمنحه العزّة الذاتية (**عزة النفس**) والاستعلاء على صغائر الأمور وتوافه الأقوال والأحداث (**وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**) يرفعه بذاته وبحاله وماله فيجعله رفيعاً ذا قدر وقدرة وأهمية عالية وقيمة سامية (**يَرْفَعُهُ**) فيجعله من أعمال القلوب الصالحة وأعمال الجوارح النافعة على الدوام، فهذه الأعمال الصالحة على سعة معناها التي ترفع إلى الله تعالى، فيرفع الله صاحبها ويكرمه ويرحمه ويُعزّه، ويكون الإنسان عزيزاً عند الله وعند الناس بمقدار ما يكون طيّباً نافعاً ناصحاً في كلامه وصالحاً في عمله كقوله (**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**) الرعد/٢٩، وأصلح الأعمال بصورة

عامة ما يرقى بحياة الإنسان الحضارية كفرد أو مجتمع إلى سدِّ حاجاته الضرورية والكمالية، وأن يتجمّل بالقيم والمبادى والأخلاق، وأن يعالج الفقر والتخلّف والجهل والمرض والجريمة والفساد .. من المجتمع، وأن ينصر الحق والعدل ويخذل الباطل والظلم، **في غرر الحكم** (وخَيْرُ النَّاْسِ مَنْ نَفَعَ النَّاْسَ)

كقوله (**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**) الجاثية/١٥.

في غرر الحكم (الْمَرْءُ يُوْزَنُ بِقَوْلِهِ، وَيقَوَّمُ بِفِعْلِهِ) ثم قال (**وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ**) هذا بيان للكلم الخبيث (**يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ**) جاء بعد بيان حال (**الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**) أي إن صاحبه يريد العزة ولكنها عزة كاذبة لأنها بعيدة عن الله، ويريد الرفعة لكنها رفعة موهومة هَشَّة مؤقّتة خاضعة للابتلاء والاهتزاز والامتحان، ونتيجتها سيئة وعاقبتها الأخيرة الهوان والحرمان والخذلان والخسران كقوله (**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**) الأعراف/١٨٢، **يمكرون**: هنا بمعنى يريدون ويحتالون في الخفاء المكر والخديعة والحيّل السيئة لإطفاء نور الله، ويخططون ويتآمرون بالسرِّ لكسب العزة والرفعة بأية صورة من الصوّر ومن هنا وهناك، ويدبّرون الكيد للإسلام والمسلمين، ويعتمدون سياسة الترغيب والترهيب في كسب الجماهير وسلب حقوق الأبرياء الطيبين، **والمكر السيء** قولاً وعملاً ليس سبيلاً إلى العزة والكرامة الدائمة المطلوبة، ولو حقق القوة والدولة والقدرة الطاغية الباغية، لكانت نتيجة هذه العزّة الهشّة الموقوتة الموهومة سيئة النتائج وعاقبتها إلى البوار والضياع! (**لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**) فوق الوصف يهانون فيه غاية الإهانة جزاء مكرهم السيئات وتحميلهم التبعات وهم لا يشعرون (**وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ**) **يبور**: يبطل ويفسد ويهلك، أي إنّ هذا المكر السيّء لا يجديهم نفعاً، وسيبطل الله مكرهم في ظرفه المناسب، ويفتضحون ولو بعد حين ولا يحققون أهدافهم كقوله (**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ**) فاطر/٤٣.

فائدة : ١- من الملفت للنظر أن (**الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**) جاء معه فعل (**يَصْعَدُ**) بالمضارع بينما (**وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ**) جاء معه فعل يرفع (**يَرْفَعُهُ**) بالمضارع أيضاً، وهو كناية عن قبولهما وتكريم صاحبهما والإثابة عليهما.

بمعنى أن الكلم الطيب (**يَصْعَدُ**) تدريجياً وتلقائياً وبسهولة إلى مقام الله عز وجل وبشكل طبيعي وبلا تَكَلُّف لأنه خفيف الوزن بذاته وبتأثيره، كما يصعد بخار الماء في جو السماء تلقائياً بلا تكلُّف! وهكذا تأثير (**الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**) في النفوس، بينما (**وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ**) جاء معه الفعل يرفع (**يَرْفَعُهُ**) أي أن العمل الصالح النافع على الدوام لا يصعد بشكل خفيف وتلقائي، **وأنما بحاجة إلى من يرفعه برافعات ترفعه بواسطة الملائكة**، لمقامه الفاضل ورفعة درجته وثقل وزنه وثقل تأثيره وامتداد نفعه بين الناس، فهو ثقيل الوزن في ميزان الله وفي ميزان

الناس و(**الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**) بلا عمل صالح يكون خفيفاً في وزنه وخفيفاً في تأثيره في ميزان الله وفي ميزان الناس. كقوله (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ...، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ) إبراهيم/٢٤-٢٦، وكل ما يتقبله الله سبحانه من الطاعات يوصف (بالرفع) لأن الملائكة يرفعونها رفع قيمة ومنزلة كقوله (**إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ**) المطففين/١٨ وقوله (**وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**) الانشراح/٤، ٢- ما تجرّع المسلمون جرعات الذل والهوان والتخلّف لأنهم (مكروا السيئات) واعتزوا بغير الله وبغير الإسلام، وقد كانوا كثيرين بالإسلام، عزيزين (بالكلم الطيب والعمل الصالح) ضد عدو الله وعدوّهم.

١١ - ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

ثم ذكّرهم الله تعالى بدلائل التوحيد وحقيقة البعث، بعد أن ذكّرهم بآيات قدرته وعزته (**فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**) وفي الحديث (خَلْقُ بَنِي آدَمَ مِنْ التُّرَابِ لِيُذِلَّهُم بِذلِكَ، فَأَبَوْا إلاّ نَخْوَةً وَاسْتِكَبَاراً، وَلَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلبِهِ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرَدَلٍ مِنْ الكِبْرِ) روح البيان٧/٣٢٦ **المعنى**: (**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ**) ميت لا روح فيه ولا حياة، أي خلقكم من آدم وأصله من تراب، وخلق ذريته من ماء مهين (**ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ**) وهو الماء القليل المهين الحقير من الرجل (والمرأة) المسمى المني، الذي يُصّبُّ في الرحم بطريقة التناسل الشرعية، والمني الذي فيه الحياة الإعجازية الوراثية، كقوله (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ)الإنسان/٢، أمشاج: الماء المختلط الممتزج، وأصل النطفة من الأغذية وهي من تراب الأرض كقوله (**أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**) المرسلات/٢٠، والمعجزة أن يخلق الله سبحانه الحياة من الممات، إنها قدرة الله وحدها القاهرة (**ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا**) وتستمر القدرة الإلهية في رعايتها لمراحل النشأة الأولى المنظّمة بدقة مدبرة، وقدرة منظمة عالية المضامين (**أَزْوَاجًا**) أي أصنافاً من ذكر وأنثى للتكاثر، وأسود وأبيض، وقوي وضعيف وفقير وغني وعزيز وذليل وعالم وجاهل.. إلخ.

وإطلاق معنى الأزواج فيه إشارة علمية إلى (قانون الزوجية العام) في الكون والكائنات العاقلة وغير العاقلة كقوله (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الذاريات/٤٩ (**أَزْوَاجًا**) هو تزاوج الحياة والموت، والأمل والعمل، والدنيا والآخرة، والروح والجسد، فالروح المعنوية العلوية الشفافة سجنت في سجن الجسد المادي السفلي الترابي من أجل أن تُطَهِّرَ الروح الجسد، وتعطيه قيمته وكرامته لذلك سجدت الملائكة لآدم عندما نفخ الله فيه من روحه كقوله (**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**) ص/٧٢، ليكون باندماج الروح والجسد مدركاً لعالم الشهادة ومؤمناً بعالم الغيب، ليتأهل لخلافة الله على الأرض كقوله (**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**) البقرة/٣٠ (**وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ**) وما تحمل من

أنثى في بطنها من جنين، من كل أنثى في كل الكائنات على إطلاقها، ولا تلد وتضع مولودها إلاّ بعلمه تعالى وتصويره وتدبيره وتقديره، ويعلم أذكر هو أم أنثى، ويعلم أطوار هذا الجنين في بطن أمه.

كقوله (**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ**) آل عمران/٦، وعلم الله بنوع الحمل من الذكورة والأنوثة، لا يعني أن علم الله يحدد ويُقيّد العلم الحديث ويمنعه من العمل والتطوّر، فلا يستطيع تحديد نوع الحمل كقوله (**يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا**) الشورى/٤٩-٥٠، وتصوير علم الله المطلق على هذا النحو العجيب حتى يصل إليه العلم الإنساني بالبحث العلمي الحديث ليتبين لهم (بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) الحج/٦٢.

(**وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ**) إنه تعبير قرآني بلاغي دقيق المبنى عميق المعنى واسع الدلالة (**وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ**) وما يمدّ في عمر أي شيء فيصبح هِرَمَاً من عاقل كالإنسان وغير العاقل من نبات وحيوان وحشرات وطفيليات ومكروبات وفايروسات.. إلخ وكل شيء معروف ومكتوب ضمن نظام الأسباب والمسببات، الأسباب المتعددة كالأسباب الصحيّة والاقتصادية والعلمية.. إلخ (**وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ**) بقبض روحه قبل أن يستوفي عمره الطبيعي، ويكون قصير العمر ويسمى (**العمر المخروم**) ضمن نظام الأسباب والمسبّبات، فمن هذه الأسباب: عقوق الوالدين وقطيعة الرحم والزنا وارتكاب كبائر الذنوب (**إِلَّا فِي كِتَابٍ**) إلاّ وهو مكتوب وحاضر في علم الله ومحفوظ ومقدّر ومكتوب في (اللّوح المحفوظ) الثابت الذي لا سبيل إلى تغييره وتبديله، فقد كتب فيه تفصيل كل شيء أن فلاناً يزاد في عمره كذا لسبب كذا، وفلاناً ينقص من عمره كذا لسبب كذا (**إِلَّا فِي كِتَابٍ**) مكتوب لحفظ الموازين والمقادير المقدرة المدبرة كقوله (**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ**) الرعد/٨، وكأنه مُسَّجل على كاميرة خفية دقيقة فيها فيلم متحرّك حسّي واقعي مُجسّم، ذي ثلاثة أبعاد بالصورة والصوت والنية، وهو يُصوّر بدقّة كل صغيرة وكبيرة ويحصيها ويسجّلها، وطول العمر وقصره بسبب وبغير سبب معلوم كله مُثبّت بعلم الله.

(**فِي كِتَابٍ**) محفوظ، وهذا يدل أن أعمار البشر بيد الله، كما أن الأرزاق بيد الله، والحياة والموت بيد الله، ومرتبطة بالأجل وبالقضاء والقدر، ومتّصلة بنظام الأسباب والمسببات، في نهج البلاغة (**لاَ تَنَالُونَ مِنْهَا (من الدنيا) نِعْمَةً إِلاَّ بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلاَ يُعَمَّر مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِه إِلاَّ بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ) عن النبي** (ص)(بِرّ الْوَالِدَيْنِ يَزِيد فِي الْعُمُرِ، وَالْكَذِبِ يَنْقُص الرِّزْقَ، وَالدُّعَاءَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ) **عن الإمام الصادق** (ع) (مَنْ حَسُنَتْ نِيَّتهُ زَادَ اللهُ فِي رِزْقِهِ، وَمَنْ حَسُنَ بِرّهُ فِي أَهْلِهِ زادَ اللهُ فِي عُمُرِهِ) نور الثقلين٨/٣٣٠-٣٣١ (**إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**) إن

ذلك التدبير الدقيق والتقدير المتين المهيمن على جميع الحوادث والمتغيّرات والمتحوّلات وجزئيات الأمور على الله تعالى سهل هيّن يسير، لاستغناء الله عن الأسباب كقوله (أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) الطلاق/١٢.

فائدة: والنص القرآني البليغ **(وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ)**، عام وشامل ويوقظ القلوب لسعة معناه، فهو يتجاوز عمر الإنسان إلى عمر جميع الأحياء والأشياء من شجر وحيوان وطير.. إلخ لا يعلم إلاّ الله عدده، إنه يُعَمَّر فيطول عمره أو ينقص من عمره فيقصر وفق قدر مقدور، **بل متعلّق هذا القانون العام بكل جزء من أجزاء الكائنات يُعَمَّر أو ينقص من عمره** (فهذه الورقة من تلك الشجرة يطول عمرها أو تذبل أو تسقط عن قريب، وهذه الريشة من ذلك الطائر يطول مكثها أو تذهب مع الريح، وهذه العين في ذلك الإنسان أو هذه الشعرة تبقى أو تسقط وفق تقدير معلوم! **(إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)** إذا مضى الخيال يتدبّر هذا ويتتبعه، ثم يتصوّر دقته وما وراءه، إنه لأمر عجيب يوقظ النفوس!

والمعنى (التعمير) يكون بطول العمر، كما يكون معناه بالبركة في العمر، والتوفيق إلى إنفاقه إنفاقاً مثمراً نافعاً تبقى آثاره وأعماله الصالحة.

وكذلك يكون نقص العمر بقصره في عدد السنين أو نزع البركة منه أو إنفاقه في الّلهو والّلغو والكسل والعبث والفراغ. وربَّ ساعة مثمرة تعدل سنة عمر بما يتم فيها من أفكار ومشاعر وآثار، وربَّ عام يمر فارغاً لا قيمة له في ميزان الحياة. وأيضاً الجماعات كالأفراد، كل منها يعمر أو ينقص من عمره، بل إنّ الأشياء كالأحياء، وإني لأتصوّر الصخرة المعمّرة ثم ينتهي أجلها أو يقصر فإذا هي فتات، والنهر المعمر الذي ينتهي أجله أو يقصر فإذا هو ناشف يابس، ومن الأشياء ما يصنعه الإنسان، البناء المعمّر أو القصير العمر، والجهاز المعمّر أو قصير العمر والثوب المعمر أو قصير العمر.. **كلها ذات آجال وأعمار محدودة في كتاب الله العزيز** كآجال الإنسان. وكلها على الله يسير، وتَصوّر الأمر على هذا النحو الدقيق ليوقظ القلب إلى تدبّر هذا الكون بحسٍّ مرهف جديد، **(وإن القلب الذي يستشعر يد الله وقدرته في كل شيء ليصعب أن ينسى أو يغفل أو يضل، وهكذا يصوغ القرآن قلوب محبيه)** في ظلال القرآن٦/٦٨٤ مع التصرّف.

١٢ – ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ) في الآية كناية تشبيهية واستعارة بلاغية تمثيلية تقريبية للمعنى والمغزى، أي وما يستوي ولا يتساوى ماء البحر الملح وماء النهر الحلو وقلّما تقول العرب ماء مالح، فهما مختلفان في خصائصهما وإن اشتركا على كونهما ماءاً ينتفع به، وسمي النهر بحراً لأن

البحر الماء الكثير عذباً أو ملحاً، وأصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير، **ويقال للمتوسّع في العلم: يمتلك بحراً من المعلومات، وهو مثل تشبيهي ضُرِبَ للمؤمن والكافر، بمعنى:** فكما لا يستوي البحران في الطعم والمنافع كذلك لا يستوي المؤمن والكافر والبر والفاجر.. إلخ بكثير من الأشياء في الكمال الفطري والتربوي، وإن تشاركا في الخواص الإنسانية، فالمؤمن ينبغي أن يكون عبداً لله، صالحاً نافعاً محافظاً على فطرته السليمة، ويقابل الله للحساب بقلب سليم، فينال بها سعادة الدنيا والآخرة، والكافر منحرف عنها لذلك يختلفان في المضمون أكثر من الأشكال، فيختلفان في الأفكار والنظرات والقناعات والعادات والتقاليد والأعراف..، فالكافر منحرف عن منهج الله ومتّبع هواه وصديق الشيطان، ويحب الفساد ولا يميز بين الحلال والحرام كقوله **(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)** الفرقان/٤٣، بينما المؤمن يهديه الله إلى مرضاته.

كقوله **(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ)** الشورى/٥٢-٥٣ والقول بالصدفة باطل بذاته بحكم العقل، والنظام المتوازن الشامل المتقن الصنع في الكون. أي فكما لا يستوي البحران في منافعها وفي الشكل والمضمون، كذلك لا يتساوى المؤمن والكافر ولا يتساوى الضدّان، ولا يتساوى النفع والضر والخير والشر، والقبيح والحسن والفضيلة والرذيلة والصالح والطالح... إلخ، ولا يجوز الجمع بين الأضداد **(هَذَا عَذْبٌ)** ماء طيّب لذيذ حلو يكسر العطش ويطفئ الضمأ ويسد الحاجة **(فُرَاتٌ)** ماء بارد لطيف منعش هنيء ويستفيد منه الإنسان والحيوان والنبات في الزراعة والسقي **(سَائِغٌ شَرَابُهُ)** مرغوب فيه لعذوبته وسهل المرور في البلع **(وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ)** وهذا ماء بحر ملح لا يروي الإنسان ولا يسدّ العطش لملوحته، والماء الملح هو الكثرة الغالبة على الأرض، وكذلك الكفر والفسوق والعصيان هو الأكثر بين الناس.

كقوله **(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)** يوسف/١٠٣، وصار ماء البحر ملحاً لئلا يفسد ويتعفّن لأنه غير جارٍ، ويكون ضرراً على حياة المخلوقات ويهلك الناس، فملوحته تمنعه من التغيير والفساد، وتحفظ الأسماك والحيوانات الأخرى فيه **(وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا)** ومن كل منهما تأكلون لحماً غضاً طرياً هو السمك بأنواعه الجديد الطري المختلف الأشكال والألوان والأحجام والطعوم والمنافع والطيور البحرية، ووصف السمك بالطراوة **(لَحْمًا طَرِيًّا)** لتسارع الفساد إليه، فينبغي التسارع إلى أكله طرياً **(وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً)** زينة كاللؤلؤ والمرجان والدر والياقوت والأصداف **(تَلْبَسُونَهَا)** للزينة والتحلّي **(وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ)** وترى **(الْفُلْكَ)** السفن العملاقة للنقل والحمل **(فِيهِ مَوَاخِرَ)** جارية تشق أمواج البحر شقّاً، وتحمل على ظهرها آلاف الأطنان من الأثقال والبضائع والصناعات والزراعات والناس.. وغيرها،

وهي لا تغرق لأنها جارية بتسخير الله عز وجل وفضله، الذي وضع قانون الطفو (**لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ**) للسفر والنقل عن طريق البحر ولتطلبوا من رزقه وفضله بأنواع التجارات، باعتبار النقل البحري أهم وسيلة للنقل الكثير والثقيل والرخيص في الماضي والحاضر، والسفر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة، عن النبي (ص) (**تِسْعَةُ أَعْشار رِّزْقَ أُمَّتي فِي الْبَيْعِ والْشِرَاءِ**) في التجارة، في الحديث (عَلَيْكُمْ بِالْتِجَارْةِ وَالْمَهَارْةِ وَالجَسَارْةِ فَإِنَّ فِيْهَا تِسْعَةَ أَعْشَارْ الرِّزْقِ) ولتكونوا مواكبين للتطوّر العلمي والحضاري، وتكونوا على حال حسنة يرجى منكم الخير والصلاح (**وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**) وتحمدون الله على إنعامه وإفضاله، وقد يسَّر الله لكم أسباب الشكر وجعلها حاضرة بين أيديكم كقوله (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) النمل/٤٠.

١٣ - ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾

(**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ**) **يولج**: يدخل ظلام الليل في ضوء النهار بالتدريج المنظّم والمقدّر والمدبّر، إذا حان وقت الّليل عند المغيب، ويبدأ يتراجع ضوء النهار وكأنما بينهما تعاون وتنسيق، وتعدد أدوار ووحدة هدف مشترك عالي المضامين! (**وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**) **ويولج**: ويدخل ضياء النهار في ظلمات الليل بالتدريج المنظّم والمقدّر والمدبّر إذا حان وقت النهار عند الشروق، ويبدأ يتراجع ظلام الليل فتعتدل بسببه حرارة الأرض، وينشأ من ذلك التداخل الدقيق المنظّم فيقصر النهار في مدخل الشتاء، ويقصر الليل عند مطلع الصيف، وكلما يزيد أحدهما ينقص الآخر، حتى يمرا في فترة زمانية يتساوى فيهما الليل والنهار، وينشأ أيضاً من ذلك التداخل المنظّم المقدّر المستمر الشيء العجيب هو الفصول الأربعة للسنة، بخصائص كل فصل ومميزاته ومنافعه وآثاره المباركة كقوله (**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**) النمل/٨٨ في غرر الحكم (**اللَّيْلُ والنَّهارُ يَعْمَلانِ فَيْكَ فاعْمَل فيهما، ويأخُذانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُما**) فبادر باستثمار (شبابك قبل هرمك، وصحتّك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وقوتك قبل ضعفك، وحياتك قبل موتك) والاستغراق في الماضي يضيّع الوقت! (**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**) سخرهما أي جعلهما نافعين للناس، وكل منهما يسير ويدور بمداره الذي قدّره الله له لا يتعداه.

كقوله (**لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ**) يونس/٥ (**كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى**) كل منهما يسيران في فلكهما إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم القيامة (**ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ**) ذلكم الفاعل لكل هذا التدبير الدقيق والتقدير الحكيم هو الله ربكم العظيم (**لَهُ الْمُلْكُ**) له السلطان الحق في الدنيا والآخرة، كلها تحتاج إلى من يتدبّر القدرة القاهرة ويتأمل الصنع المتقن الدقيق، الذي

يدل دلالة قاطعة على وجود الله تعالى المدبر الحكيم لهذا الكون، فاعرفوه ووحدوه وأطيعوا أمره إنها يد الله المبدعة التي تحيي القلوب بالإيمان، وقيمة الحياة بـ (**حياة القلوب**)، كما تدل صنع الآية على صانعها، والصدفة باطلة بذاتها بحكم العقل والعلم والنظام، فمن ابتغى رباً غير الله فقد ضَلّ وانحرف، ومن عبد معبوداً آخر سوى الله فقد عرّض نفسه للحرمان والخسران كقوله (**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**) الكهف/١٠٣-١٠٤(**وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ**) من المعبودات التي أطعتموهم وأشركتموهم مع الله سبحانه جهلاً وتخلّفاً، وكل ما تدعون من دون الله من الأولياء والأئمة من البشر ليجلبوا لكم النفع ويدفعوا عنكم الضر ويقضوا لكم الحاجات (**من دون الله**) فهو شرك خطير وظلم عظيم.

كقوله (**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) الزمر/٦٥، فهو داخل في معنى هذه الآية، باستثناء إذا كانت روضات الجنات في الدنيا المتعيّنة بمراقد الأنبياء والأولياء والأئمة من أهل بيت النبي (ع) وسائل قربى وشفاعة عند الله كقوله (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) المائدة/٣٥، باعتبارهم شهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وعند الناس مكرّمون معزّزون، فجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، ويمكن أن نخاطب أحدهم لزيارتهم وطلب أية حاجة من الله بواسطتهم فندعوا الله (ياوَجِيهاً عِنْدَ اللهِ اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ اللهِ) (**مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ**) لا يملكون شيئاً زهيداً (**مِنْ قِطْمِيرٍ**) وهو غشاء أبيض رقيق شفاف يغلّف نواة التمر بكاملها! وهو كناية بلاغية عن أحقر الأشياء وأتفهها والمعبّرة عن فقرهم المطلق، كقوله (**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ**) غافر/٢٠.

فائدة: (**فلسفة التدخل**) ولوج الليل في النهار (وبالعكس) يبيّن القرآن سنّة التداخل الشاملة الفاعلة بين الأشياء في الدنيا **المعنى**: هذا التداخل المنظّم بين ظلام الليل وضياء النهار (وبالعكس) ليدل أن لهذا النظام الدقيق له منظّماً حكيماً قديراً يستحق العبادة الخالصة، ويكشف فلسفة هذا التداخل الدقيق بين الظلمات والنور عن ترابط السنن الكونية بالسنن الإنسانية لوجود علاقة منظّمة ومنسّقة بينهما، فكما يتداخل ظلام الليل مع ضياء النهار إذا حان وقت الليل (وبالعكس) كذلك تتداخل كل الأشياء كسنة إلهية وقانون رباني من سنن الحياة، **فكما يتداخل الليل والنهار كذلك يتداخل الأمل والعمل**، وتتداخل الروح مع الجسد، والحياة مع الموت، والدنيا مع الآخرة، والعزة مع الذلة، والقوة مع الضعف، والشدة مع الرخاء، والصحة مع المرض، والذكر مع الأنثى، كما يتداخل العسر مع اليسر كقوله (**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**) الانشراح/٥-٦، فلا ييأس الإنسان إذا مرَّ بالشدة فلينتظر الرخاء مع الشدة في وقته المحدد .. وهكذا، تسير الحياة على المتضادات وتداولها وتداخلها بين

الناس عبر تداول الأيام وتعاقب الأجيال، حتى يعرف الإنسان قيمة الأشياء بضدها، **في غرر الحكم** (إِنَّمَا يُعْرَفُ قَدْرَ النِّعَمِ بِمُقَاسَاةِ ضِدِّهَا).

١٤ - ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾

والدليل على أن (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ) فاطر/١٣ (**إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ**) لأن الأصنام الحجرية جمادات لا روح فيها ولا شعور لها ولا حس، وكذلك كل الأولياء والأنبياء والأئمة (ع) لا يملكون شيئاً مع الله كقوله (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) الأعراف/١٨٨ (**وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**) ولو فرضنا جدلاً أنهم سمعوا (**وَلَوْ سَمِعُوا**) إن كانوا من الإنس أو الملائكة (**مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ**) أبداً لأنهم لا يملكون أية قدرة على الاستجابة قولاً أو فعلاً كقوله (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) المائدة/٧٦ (**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**) وفي يوم القيامة حين ينطقهم الله يتبرأون منكم ويسخرون من ضلالكم ومن عبادتكم إياهم، وانسياقكم معهم، كقوله (**قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ**) سبأ/٤١ (**وَلَا يُنَبِّئُكَ**) ولا يخبرك يا مُحَمَّد عن حقيقة الأمر وواقع الحال على وجه اليقين والصدق وكأنه رأي العين (**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**) النساء/٨٧ (**مِثْلُ خَبِيرٍ**) مثل الخبير به والعليم المحيط به وهو الله تعالى. **وفي ذلك دلالة:** أن تأخذ الأخبار والعلوم المهمة من أهل الخبرة، ولا تسأل ولا تستشير إلاّ أهل الخبرة والتجربة والشهرة والاختصاص الكفوء كقوله (**الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**) الفرقان/٥٩، عن الإمام الصادق(ع) (**لاَ يَكُونَ العَبْدُ مُشْرِكاً حَتَّى يصلّي لِغَيْرِ اللهِ أو يذْبَح لِغَيْرِ اللهِ أوَ يَدْعُو لِغَيْرِ اللهِ عزّوجلّ**). **في غرر الحكم** (شَاوِرْ ذوي العُقُولِ، تأمن من الزلّل والندّمِ)

١٥ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**) يخاطب الله تعالى جميع الناس بمختلف مستوياتهم وطبقاتهم، ويخبرهم بحالهم ويذكرهم بقدرهم، في معرض دعوتهم إلى الهداية إلى منهج الله، ووصفهم (**أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ**) على إطلاقها، فقراء في كل شيء، وفي كل الأحوال، وفي كل العصور، فقراء من جميع الوجوه المادية والمعنوية، المباشرة وغير المباشرة، من أول نشأتهم وفي مراحل نشأتهم إلى أرزاقهم، وفي دفع البلاء والنقم والمكاره عنهم، لذلك المؤمن يتضرّع إلى الله ويدعوه ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه في جميع أموره فهو أرحم به من الوالدة بولدها (**أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ**) فقراء على كل صعيد، فقراء على سعة معنى الفقر، بكل مفرداته ومعانيه وتطبيقاته وتأثيراته ومواقعه المادية والمعنوية، فقراء في الروح والجسد، وفي الحياة والموت، وفي الأمل والعمل، إن افتقار المخلوق إلى خالقه وحاجته إليه لا تنقطع أبداً، وبما أنكم مخلوقون خاضعون

لأمر الله مدبّرون ومقدّرون كقوله (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**) الأنعام/٦١ وقوله (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) الأنفال/٢٤.

وقوله (**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ**) المرسلات/٢٩، **إذاً**، فإنكم فقراء محتاجون إلى رحمة الله وإنعامه وإحسانه، وفيكم الفقر والحاجة في بقائكم وفي كل حركاتكم وسكناتكم وكل أحوالكم، فالتوهّم بالاستغناء عن الله سبحانه بنكرانه وكفرانه ونسيانه وعصيانه خطأ فادح، وقرار سيّئ على كل صعيد كقوله (**وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**) الجن/١٧، **للإنسان وجهان**: وجه مفتقر إلى الله، ووجه غني النفس عن غيره، **في نهج البلاغة** (الغِنَى والْفَقْرُ بَعْدَ الْعَرْضِ عَلَى اللهِ سبحانه) حكم٤٥٢ فهو فقير ذليل ضعيف محتاج إلى الله تعالى كقوله (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) النساء/٢٨،وغني النفس وعزيز القدر ورفيع الكرامة بالنسبة إلى من استغنى عنه! **المعنى**: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ**) خطاب الآية عام للناس جميعاً، وهي موعظة أخلاقية حسنة وتربية سامية للمؤمن والكافر والمطيع والعاصي، والذين تمرّدوا على منهج الله، وكأن الله تعالى يقول لهم: ما دمتم قد ألفتم التمرد فتمردوا أيضاً على (الفقر) في حال المرض إن نزل بكم وحال الخوف إذا سلّط عليكم، وتمردوا على الموت إن حان أجلكم (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ**) إنتم المحتاجون المكسورون، **والفقير**: صيغة مبالغة من الحاجة حتى لو كان غنياً أو قوياً أو عزيزاً.. إلخ، لأن الإنسان ناقص بحاجة إلى سعي لسد نقوصاته، فهو محتاج إلى الهواء والماء والطعام والعيش والأمان والزواج .. وغيرها، فهو ناقص بذاته يكمل بسد حاجاته، العبد هو المفتقر والمحتاج إلى سيده.

(**وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ**) والسيد غني عن عبده رحيم به فيوجهه ويرعاه ويهديه ويحميه، إيّاه فاعبدوا وإلى رضوانه فسارعوا، **فالفقر إلى الله عزة الدنيا والآخرة، والفقر إلى الناس ذلة الدنيا والآخرة،** ومن عزة النفس الاستغناء عن حاجة الناس (**وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ**) المستغني على الإطلاق، فكل أحد يحتاج إليه، والله الخالق المدبر الغني بذاته عن كل شيء، لاستغنائه عن كل شيء، ومغني غيره بكل شيء كقوله (**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**) الزمر/٣٦، لأنه خالق كل شيء، والغني بغنى تام في كل شيء وعن كل شيء، وغني من جميع الوجوه، غني عن عبادتكم فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه لكمال صفاته وجلال ذاته وجمال مخلوقاته، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، ومن غناه تعالى قد أغنى الخلق جميعاً في الدنيا والآخرة، قال (**وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ**) ولم يقل (والله الغني) وهذا الضمير أفاد التوكيد وحصر الغنى بالله سبحانه (**الْحَمِيدُ**) المحمود بذاته في كل شيء على الإطلاق، المستحق للحمد والثناء على رحمته وفضله وجميع أفعاله وأقواله وصفاته، إذ يرجع إليه كل حمد وثناء ومدح في هذا الكون، سواء أكان الحمد لله مباشرة أو قصد به غيره، فلا تتوهموا أن إصرار الله على عبادته وحده ودعائه وحده لحاجة

إليكم، فهو (**الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**) بذاته وهو الحميد في غناه والمحمود في أسمائه الحسنى وفي أوصافه العليا وفي أفعاله المثلى وهو الغني في حمده، بل أنتم تستغنون به ولا تستغنون عنه ومحتاجون إليه في كل الأحوال.

كقوله (**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ**) الأنعام/١٣٣، **فائدة:** ١- الغرض من الآية أن يتوكل الإنسان في جميع أموره على الله خالقه، **عن الإمام علي** (ع) (وَمَنْ وَثِقَ بِاللهِ أراه السّرور، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ كَفَاْهُ الأمُوْر) البحار٧١/١٥١، ويتضاءل أمام عظمته وكبح جماح غروره وحبّه لذاته، بل يسعى بجد لتهذيب عادات نفسه، وليتحسس بحاجاته إلى الله ربه في كل حال كقوله (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**) الشمس/٩-١٠ في غرر الحكم (سِيَاْسَةُ النَّفْسِ أَفْضَلُ سِيَاْسَةْ، خَيْرُ النّفوُس أزكَاْهاْ) وتدعو الآية أن يتجرّد الإنسان عن كل كبر وعجب وغطرسة وحبَّ الذات، حتى ولو كان أقوى الأقوياء سلطاناً وجاهاً ومالاً وقدرة.. وهذا النوع من الفقر إلى الله مطلوب لتهذيب النفس، ومحبوب عند الله وعند العقلاء، لأن الشعور به والتربية عليه يزكّي النفس ويهذّب طبائعها السيئة، ويدفع إلى كل خير وإلى التواضع وكل الصفات الايجابية، ويمنع عن الشر والضر والحرص والحسد والحقد والظلم وكل الصفات السلبية، ٢- الله تعالى هو الكامل، والإنسان هو الناقص المحتاج، والناقص بحاجة إلى الكامل باستمرار حتى يسد نقصه كقوله (**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى**) النحل/٦٠.

وفي الحديث (**تَشَبَّهُوا بِأَخْلاَقِ اللهِ**) وفي غرر الحكم (**رَحِمَ الله امَرءاً عَرَفَ قَدرهُ ولَمْ يتعَدَّ طَوْرَه**) والإنسان إذا افتقر إلى الله أغناه في نفسه عن الناس كقوله (**وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ**) النساء/٣٢، وإذا افتقر إلى أخيه الإنسان أذله وآذاه، فمن العزة أن يشعر الإنسان بفقره إلى الله تعالى حتى لو كان غنياً في ماله وسلطانه وجاهه ومنصبه، فمن تواضع لله رفعه ومن تكبر عليه وضعه، عن النبي (ص) (**اللَّهُمَّ أَغْنَنِيَ بالافتقار إلَيْكَ، وَلاَ تفقرني بالاستغناء عَنْكَ**)! **عن الإمام الجواد** (ع) (الثِقَةُ بِاللهِ ثَمَنٌ لِكلِّ غالٍ، وَسُلّم إلى كلِّ عالٍ) البحار٧٨ص٣٦٤.

١٦ - ١٧-﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

(**سنةُ الاسْتبْدال**) وهذا تصريح لاستغناء الله عن الخلق وعدم الحاجة إليهم وإظهار لكمال قدرته، ووعيد للطاغين والمعاندين بالإهلاك والاستدراج، إذا لم يرجعوا عن الكفر والطغيان والعصيان، فإن الله لا تضرّه معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه، والناس بحاجة إلى أن يذكّروا بهذه الحقيقة لئلا يركبهم الغرور فيظنوا أنهم شيء عظيم، وليعلموا أن الله خلقهم ليربحوا عليه الجنة ورضاه لا ليربح منهم شيئاً، **المعنى:** (**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ**) إنْ يشأ يفنكم أيها الناس الجاحدون المعاندون لأنه غني عنكم، ولا يتضرر بفنائكم بالهلاك والإبادة وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك، ولو شاء الله لخلق قوماً لا يعصون، ولكن الله أراد أن يبيّن للناس من

أرض الواقع كقوله (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**) الكهف/٧ وقوله (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) آل عمران/١٥٤ (**وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**) وأن يأتي بقوم آخرين غيركم من جنسكم أو من جنس آخر أحسن منكم، ليكونوا خلفاء لله بالحق في الأرض، ويكونوا أخضع وأطوع لله منكم، يعبدونه ويحمدونه ويثنون عليه طوعاً لا كرهاً، ويستقيمون على منهجه من دون أن يكلّف الله ذلك جهداً، ١٧- (**وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ**) وما ذلك التهديد بإهلاككم والإتيان بغيرهم كقوله (**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**) محمّد/٣٨ (**بِعَزِيزٍ**) بعسير بل هو سهل يسير على الله، أي ليس ممتنعاً عليه ولا صعباً لديه كقوله (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) يس/٨٢، وفي هذا تهديد ووعيد كقوله (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ) الفرقان/٧٧، **ما يعبأ:** لا يبالي بكم ولا قيمة لكم عنده سبحانه.

١٨ - ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾

وحتى لا يتوهم أحد أن هذا التهديد بالاستبدال يشمل الصالحين مع الطالحين، فاعلموا أيها الناس الحقيقة في يوم القيامة، كل أحد يجازى بعمله ولا يحمل أحد ذنب أحد، **يُصوّر التعبير القرآني البليغ** هذه الحقيقة المربيّة الضخمة فيحرّك بها مشاعر الإنسان ويوقض ضميره فيحاسب نفسه قبل أن يحاسبه أحد كقوله (**وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ**) الحشر/١٨، **يُصوّر القرآن بأسلوبه البلاغي الفني الجميل** أن كل نفس حاملة حملها بنفسها فيقول (**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**) **الوزر**: الذنب والإثم، أي لا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، لكل امرئ يصحبه عمله ويحاسب عليه ولا يعاقب بذنب غيره، ولا يحاسب البريء بذنب المجرم كقوله (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) المدثر/٣٨ وقوله (**وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا**) الأنعام/١٦٤ (**وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ**) **مثقلة:** نفس مثقلة بالذنوب والهموم، أي وإن تطلب نفس مثقلة بالآثام وتحمل حملاً ثقيلاً من الذنوب والهموم.

وتُشبّه الآية الذنوب المعنوية بالحمل الثقيل المادي المحمول على العاتق، ليتصوّره الحسّ البشري بشكل صحيح فيتأثر به ويرتدع عن الذنوب (**إِلَى حِمْلِهَا**) تستغيث بمن يحمل عنها ذنوبها أو يرفع عنها بعض ما تحمله من الآثام (**لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ**)

ولا يرفع عنها شيئاً مما يثقلها، ولا أحد يستجيب لطلبها، ولا يحمل من إثمها وهمّها شيء، لأن كل إنسان في شغل شاغل بهموم نفسه عن غيره (**وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى**) ولو كان المدعو ذا قربى للداعي كالأب والأم، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا يساعد الصديق صديقه كقوله (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) عبس/٣٧ (**إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ**) **إنما**

تنذر، الإنذار: الإبلاغ مع التخويف، أي إنما ينفع إنذارك (**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**) أي يخافون ربهم ويعظّمونه ويصدّقون به ويسعون إلى مرضاته ولم يشاهدوه بأبصار عيونهم وأنما يشاهدونه ببصيرة قلوبهم.

ودليل البصيرة أقوى وأهم وأصدق وأعمق وأشمل من دليل البصر! والبصيرة تعتمد على العقل والعلم والدليل والبرهان فتكون نافذة فترى ما وراء المرئيات، بينما حاسة البصر تعمل في حدود المرئيات المادية الحسيّة. وإنما اقتصر الإنذار على (**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ**) مع أن الرسول (ص) نذير وبشير للناس جميعاً، لأن الذين ينتفعون ويتفاعلون مع هذا النذير هم الذين يؤمنون به ويتأثرون بمنهجه ويعملون به بصدق، أما غيرهم فلا حسابَ لهم ولا وزن في هذا الانذار لأنهم لا يخشون الله، إن الذين يخافون الله يظهر على أقوالهم وأفعالهم وجميع تعاملاتهم مع الناس، فيستقيمون في السرِّ والعلانية لأنهم يخافون الله في السرِّ والعلانية كقوله (**إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**) يس/١١، إنه خوف هيبة ورغبة وحب وليس خوف رهبة ورعب كقوله (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) المؤمنون/٥٧، عن النبي (ص) (**رأْسُ الحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ**) وعنه (ص) (اعبد اللهُ كأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإنْ لَم تره فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَإنْ قلْتَ إنهُ لاَ يرانِي فَقْد كَفَرْتَ، وَإنْ قلْتَ إنهُ يرانِي وَعَمِلْتَ الْمَعْصِيَةَ فَقْدَ جَعَلْتَهُ مَنْ أَهْوَنِ النّاظِرِينَ إِلَيْكَ) وتكون خشية الإنسان من الله والخوف منه بقدر علمه بالله، وثقته به وكلما زاد علمه زادت هيبته وخشيته من مقام ربه كقوله (**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**) فاطر/٢٨، **الغيب**: ما غاب عن الإنسان ولم تدركه حواسه، **والغيب**: من يعرف مقام الله وجلاله من غير أن يراه، وإنما يرى صنعه وخلقه وآثاره وحكمته في تنظيم هذا الوجود الهائل البديع، تعرّفوا على مخلوقات الله ولا تتعرّفوا على ذات الله فتهلكوا.

عن النبي (ص) (تفكّروا في الخلق ولا تفكّروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره) كنز العمال ج٣ص١٠٨ عن الإمام الصادق (ع) في قوله (**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**) الرحمن/٤٦ قال (**مَنْ عَلِمَ أنْ اللهَ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ مَا يَقُولُ وَيَعْلَمَ مَا يَعْملهُ مِنْ خيرٍ أَوَ شرٍ فَيَحْجِزهُ ذلِكَ عِنْ قَبِيحِ الأَعْمَالِ**) (**وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ**) أداموها وأدّوها على الوجه الأكمل بكل واجباتها وأركانها، مع حضور القلب في أوقات فضيلتها وراعوا أحكامها وشروطها ومقدماتها واعتنوا بها، وهي أفضل العبادات وأهمّها، وهي صلة مباشرة بين العبد وربه ليعبدوه وليوحدوه ولا يشركوا في عبادته أحداً، **وخشية الله**: هي التي تعطي أثرها في سلوك الإنسان فتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وصغائر الذنوب وكبائرها وتزكي نفسه، كقوله (**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**) العنكبوت/٤٥، **والصلاة من غير خشية لله**:، صلاة مجرد حركات بلا روح ولا ثمر،

صلاة ظاهرية مجرد إسقاط واجب، فالخشية المطلوبة من المؤمن خشية صادقة ودائمة وعاملة وخاشعة ومتجددة.

لذلك جاء (**يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**) بالمضارع الذي يفيد الاستمرار والتجدد. وخص بالذكر (**الخشية، والصلاة**) لأنهما أصلا الأعمال الحسنة الظاهرية والباطنية، فضموا إلى طهارة نفوسهم طهارة أبدانهم، بالصلاة المفروضة ليتصلوا بربهم ويقوّوا العلاقة معه سبحانه (**وَمَنْ تَزَكَّى) التزكّي**: التطهّر من الذنوب والعيوب والآثام، **والتطهّر** من عادات النفس السيئة وتهذيب سلوكها والتخلّص من سلبياتها، **والتزكّي**: معنى تربوي مؤثر ولطيف وشفاف واسع الدلالة، يسهل تغلغله في المشاعر وتتأثر به النفس والقلب والعقل والفكر، فيحسن الكلام ويتقن العمل، **في غرر الحكم** (ذَرْوَةُ الْغَاْيَاْتِ لاَ يَنَاْلُهَاْ إِلاَّ ذَوُوْ التَّهْذِيْبِ وَالْمُجَاْهَدَاْتِ) (**وَمَنْ تَزَكَّى**) فقد عرف قدره ولم يتعدَّ طوره.

(**وَمَنْ تَزَكَّى**) فقد عرف نفسه، في غرر الحكم (**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**) ووصل إلى أفضل درجات المعرفة، (**فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ**) ويتحلّى بالعادات الفضيلة والعلوم النبيلة والأخلاق الحميدة، فإن تزكيته وتطهير نفسه يعود نفعها إليه في الدنيا والآخرة، ولا يضيع من عمله شيء كقوله (**إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**) الإسراء/٧، يوم يعرض على ربه نقياً سليم القلب ويدخله الله برحمته في منظومة عباده الصالحين كقوله (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) النمل/١٩، وقوله (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) الشعراء/٨٨-٨٩ (**وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**) المرجع والعاقبة للخلائق أجمعين فيحاسبهم ويجازيهم، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، ولا يوكل الحساب والجزاء إلى غيره كقوله (**مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا**) الكهف/٢٦.

١٩ – ٢٠-٢١-٢٢- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾

(**مُقَدِّمَةٌ**) يُصوّر القرآن الكريم الحقيقة في هذه الآية عن طريق ضرب المثل، ويضرب المثل لتقريب الواقع إلى الذهن والاعتبار به، كقوله (**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**) العنكبوت/٤٣، يخبر الله تعالى أنه لا يتساوى ولن يتساوى الأضداد المادية من هذه المذكورات في الآية وغيرها، فإن بينها فوارق كبيرة وهي مختلفة الطبائع والخصائص من الأساس، فوارق في حكم الله وفي حكم العقل وفي الواقع في ما أودعه الله في فطرة عباده، أي لا يتساوى مما لا يقبل الشك، من انحرف عن الإيمان إلى الكفر والعصيان، وانحرف من الحق إلى الباطل ومن الخير إلى الشر ومن الهدى إلى الضلال ومن الصلاح إلى الفساد ومن العلم إلى الجهل، ومن مرضاة الله إلى سخطه، فتعلّموا أيضاً إن عدم تساوي المتضادات المادية كذلك لا

تتساوى المتضادات المعنوية، فلا يتساوى المؤمن والكافر ولا المهتدي والضال ولا العالم والجاهل والصلاح والفساد، فإن بينهما فوارق كبيرة وكثيرة في خواصّها وصفاتها ومراتبها، **أن هناك صلة وتشابهاً بين طبيعة الكفر وطبيعة كل من العمى والظلمة والحرور والموت، كما أن هناك صلة وتشابهاً بين طبيعة الإيمان وطبيعة كل من النّور والبصر والظل والحياة.**

(الاختلاف الكبير بين الإيمان والكفر):

إن **(الإيمان)** نور.

نور في قلب، ونور في الجوارح، ونور في الحواس، نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والمواقف والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد، فالمؤمن مع الله وينظر بنور الله، فيرى تلك الحقائق ويتعامل معها بعلم وإيمان، ولا يتخبط في طريقه ولا يتيه ولا يحير ولا يضيع **(والإيمان) حياة، ولا حياة حقيقية نامية إلاّ بالإيمان، حياة في القلوب والمشاعر**، حياة في القصد وفي الاتجاه، حياة في العمر وفي الامتداد، حياة مستمرة منتجة مستقيمة على أساس منهج الله، حياة خيرها مأمول وشرّها مأمون، حياة هادفة سامية متوازنة لا عبث فيها ولا ضياع ولا فساد، أما **(الكفر) عمى، عمى في طبيعة القلب، عمى عن رؤية دلائل الحق**، وعمى عن رؤية حقيقة الوجود، وحقيقة القيم والمبادئ والأخلاق والأشخاص والأحداث والأشياء **(الكفر)** ظلمة بل ظلمات، **عندما يبتعد الناس عن نور الإيمان يقعون في ظلمات من شتى الأنواع والأشكال**، ظلمات تُنغّص العيش وتُكَرّه الأيام، لذلك جاءت **(الظُّلُمَاتُ)** بصيغة الجمع، لأن طرق الكفر متعددة ومتجددة ولا حصر لها من شبهات وأضاليل متنوّعة، وجاء **(النُّورُ)** بصيغة المفرد، لأن **(النُّورُ)** وحدة واحدة موحّدة متّحدة لا يتعدد ولا يتجزأ، لأن الحق والتوحيد والعدل والخير والإسلام، وحدة واحدة موحّدة متّحدة لا يتجزأ ولا يتعدد **(والكفر)** موت، موت في الضمير وموت في المشاعر والضمائر عن معرفة دلائل الإيمان، وانقطاع عن مصدر الحياة المطمئنة وانفصال عن طريق الله، ولن يتساوى المؤمن والكافر ولكل طبيعته وطريقته في المعيشة، ولكل جزاؤه، فإن تبيّن الفرق وتوضّح عند الإنسان، فينبغي أن يتنافس المتنافسون في تحصيل السبيل الصالح، سبيل الله، سبيل عباد الله الصالحين، ولهذا فليتسابق المتسابقون كقوله **(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)** الصافات/٦١ وقوله **(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)** المطففين/٢٦، **المعنى:** ١٩- **(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى) الأعمى:** كناية عمن انحرف عن طريق الحق والإيمان والهداية وضده **(وَالْبَصِيرُ)** كناية عن المؤمن الذي يرى طريق الله الحق ويستذوق حلاوة الإيمان ويعرف حقيقته وقدره وقيمته فيسير على الطريق المستقيم كقوله **(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ)** الشورى/٥٢-٥٣.

٢٠- (وَلَا الظُّلُمَاتُ)

وهي كناية عن الشرك والكفر والمعاصي والجهل والضلال والفساد والشبهات .. **(وَلَا النُّورُ)** هو كناية عن الإسلام والإيمان والعلم والهدى والاستقامة **(الظُّلُمَاتُ)** التي تمنع من الرؤية الصحيحة للأشياء **(وَلَا النُّورُ)** النور الذي ينير بإشراقه كل المواقع، ويمنح الرؤية بوضوح لكل الأشياء، ويعلمك فلسفة الحياة، ٢١- **(وَلَا الظِّلُّ)** ولا يستوي الظل البارد الواقي المنعش من الخير والنعيم، والجو الروحي الشفاف الذي تسكن له النفوس وتنشرح له الصدور وتطمئن القلوب **(وَلَا الْحَرُورُ)** ولا حرارة الشمس الشديدة ولا الريح الحارة الّلاذعة، **والحرور**: كناية عن الشهوات المحرّمة والّلذات الفاسدة الحارة الملتهبة، التي تحرق مشاعر النفس وترفع عنها الاطمئنان ويصاحبها القلق والأرق، التي لّذاتها قصيرة وتبعاتها طويلة (وَكَمْ مِنْ لَذَّةٍ مَنَعَتْ لَذّات، وَكَمْ مِنْ أَكْلَةٍ مَنَعَتْ أَكَلات)، **وكأن الآية تقول**: لا يستوي أصحاب الحق وأصحاب الباطل كقوله (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ) الحشر/٢٠ وقوله **(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)** الزمر/٩، ولا يستوي من يسير في طريق مرضاة الله ومن يسير في طريق غضبه، فإن الفرق بينهما كبير لأنهما ضدّان.

٢٢- **(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ)**

وهو تصوير كنائي، وتشبيه الأحياء بالمؤمنين الصالحين النافعين والفاهمين المصلحين اليقظين، وهم أيضاً أصحاب القلوب الحيّة المنفتحة على الآخر لتبادل الرأي والرأي الآخر لتصل إلى الحقيقة كقوله **(فَبَشِّرْ عِبَادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)** الزمر/١٧-١٨ وضدَّهم الأموات، **(وَلَا الْأَمْوَاتُ)** تشبيه الأموات بالكفار الفاسدين الضارين المشاغبين الجهلاء وهم أيضاً الذين قست قلوبهم وتجمّدت عقولهم وهمدت مشاعرهم فلا يقبلون الإيمان، عن النبي (ص) **(لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيّتٍ، إِنَّمَا الْمَيّتُ مَيّتُ الأَحْيَاءِ)** البحار٨٢/١٧٥، لأن الحياة المعتبرة التي تستذوق حلاوتها هي حياة الأرواح والعقول والقلوب، حياة بالعلوم والخبرات والتجارب والاختصاصات والمعارف والاكتشافات، ولا عبرة بحياة الأجساد بدونها، لاشتراك البهائم فيها كقوله **(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)** الأنعام/١٢٢، وحياة الأجساد مع الجهل بلا علم ولا إيمان ولا وعي، هو موت معنوي تدريجي بطيء بالاختيار قبل أن يموتوا بالاضطرار كقوله (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) الأنفال/٢٣، وقوله **(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)** فصلت/١٧، **في غرر الحكم** (الجاهِلُ مَيّتٌ بَيْنَ الأَحْياءِ) كقوله **(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)** الجاثية/٢١ **(إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ)** إن الله ينفع بالأسماع سماع فهم وإدراك وإصغاء وانفتاح وتفاعل وقبول للحقيقة بإحياء القلب

وتحريك المشاعر (**مَنْ يَشَاءُ**) من يريد أن يسمع وينتفع، وهم الطيبون الصالحون الذين يبحثون عن السبل الصحيحة التي ترضي الله وتهتدي بهداه.

كقوله (**فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ**) النحل/٣٦.

(**وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**) **كناية بلاغية تشبيهية** للمصرّين على الكفر والذين لا يفهمون لغة الكلام والحوار العلمي الأصيل، جعلهم كالأموات لا يسمعون ولا يتأثرون، فكما لا تقدر أن تسمع القرآن من في القبور، كذلك لا تقدر أن تنفع بمواعظ الله وحججه من كان ميت القلب مغلق النفس، بليد المشاعر جامد الضمير مستغرقاً في الضلال البعيد مصرّاً على الفساد فيكون هو وأهل القبور سواء! هؤلاء لا يحركهم شيء إلاّ المصالح الخاصة، كقوله (**إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**) القصص/٥٦، **فائدة**: ١- **سؤال**: (**وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**)؟ إذا كان حديثنا غير بالغ لأسماع الموتى، فما معنى زيارة الرسول (ص) وسلامنا عليه وهو ميّت؟ وكذلك زيارة الأئمة الطاهرين؟

الجواب: النبي وآله والأئمة الطاهرين هم شهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وعند الناس مكرّمون محترمون أحياءً وأمواتاً، فجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، فهم يسمعون الكلام ويردون السّلام كقوله (**وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**) الحديد/١٩، **في نهج البلاغة حكم ١٣٠** (مرَّ الإمام علي (ع) على القبور فقال: يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمُوحِشَةِ.. إلى أنَّ قال: أَمَا لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ لأَخْبَرُوكُمْ) (**فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**) البقرة/١٩٧، وفي يوم بدر نادى النبي (ص) أجساد الكفار بأسمائهم وقال (**هَلْ وَجَدتُّمْ مَا وَعَدَ اللهُ وَرَسُوْلهُ حَقّاً فَإِنِّي وَجَدتُّ مَا وَعَدَنِيَ اللهُ حَقّاً**؟) فقيل كيف تكلّم أجساد لا روح فيها فقال (ص) (**مَا أَنْتمُ بأَسْمَعَ لِمَاَ أقُوَلَ مِنْهُمَ غِيْرَ أنْهُمَ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أنَّ يَردّوَا شَيْئاً**) وهم موتى، وكذلك تلقين الميت بعد الدفن لتثبيت الأسماع، وتذكير الإيمان وإطلاق اللسان في بيان الحجة عند الحساب والسؤال.

٢٣ – ٢٤ – ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾

(**إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ**) وما وظيفتك ومسؤوليتك (**إِلَّا نَذِيرٌ**) إلاّ محذّر ومخوّف لهم من سوء العاقبة، شأنك شأن إخوانك من الرسل والأنبياء (ع) كقوله (**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**) النحل/٣٥، وتقف مهمة الرسول (ص) ومسؤوليته عند حدود الإنذار للأحياء السامعين المتفهّمين، وبعدها (**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**) آل عمران/١٢٨، وأما من اهتدى من الناس أو من ضل منهم، فإنما حسابه على الله سبحانه كقوله (**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**) الرعد/٤٠، **واكتفت الآية بذكر النذير**، لأن الرسول إذا وضّح الإنذار توضحت البشارة، ولأن قومه أغلبهم منحرفون معاندون فاستحقّوا الإنذار دون التبشير، ٢٤- (**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ**) إنا بعثناك بالهدى ودين الحق بالحجج الكافية والرسالة الوافية، وداعياً إلى

الحق وشاهداً على الخلق (**بَشِيرًا**) لمن أطاعك بالجنة (**وَنَذِيرًا**) لمن عصاك بسوء العاقبة، وهذا الإرسال للرسل سُنة إنسانية فاعلة متحركة من سُنن الله في المسيرة البشرية التي تعتمد الترغيب والترهيب، والخوف والرجاء ولست ببدع من الرسل (**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**) يُصوّر القرآن الكريم حركة (المنذرين) المبلغين للناس والهادين لهم والملقين الحجة الواضحة عليهم بأساليب فنية متنوعة، مباشرة وغير مباشرة، وبالتلميح والتصريح، ومع كل زمان ومكان وإنسان.

كقوله:

(**رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**) النساء/١٦٥، ويكشف القرآن عن حركة المنذرين على أنها سُنة تأريخية عميقة الدلالة واسعة المغزى عالية المضامين كقوله (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا) الإسراء/٧٧ (**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ**) إن: هنا بمعنى ما النافية، إنه ما من أمة من الأمم في العصور الماضية والأزمنة الخالية (**إِلَّا خَلَا**) إلاّ جاءها رسول على إطلاق معناه نبي يوحى إليه أو غير نبي لا يوحى إليه، معصوم أو غير معصوم، مبلّغ هادٍ صادق، أو عالم فاضل مسدد ومؤيد كقوله (**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**) النحل/٤٣، **في غرر الحكم** (أَهْلُ الذِّكْرِ أَهْلُ اللهِ وَخَاصَتُهُ)، يلقي حجة الله على الناس بأية صورة من الصور، بأي شكل من الأشكال ضمن المنهج الحركي في القرآن كقوله (**إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ**) يس/١٤ وقوله (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) الأحزاب/٣٩، وهذا ما يقتضيه العدل ويحكم به العقل ويثبته الدليل وينطق به الواقع وتؤيده النصوص الكثيرة، حيث لا عقاب بلا تكليف وبيان (**إِلَّا خَلَا**) إلاّ مضى، أي إلاّ جاءها نذير وأدّى دوره بأساليب فنية متعددة دقيقة ممكنة ويلقي الحجة على الناس، ثم يمضي ويذهب وتنتهي مهمته، وقد تمّت عليهم الحجة الواضحة بأي أسلوب من الأساليب الممكنة المؤثرة، من نبي مرسل أو كتاب منزل أو مرشد مصلح، وحجة من عقل واع وعلم قاطع ونقل صحيح أو سُنة فاضلة عادلة، ولا نعرف أمة من الأمم عاشت فوضى بلا هادٍ ولا علم ولا نظام كقوله (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) النحل/٣٦ وقوله (**وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**) الإسراء/١٥ وقوله (**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ**) النساء/٤١، ثم يحاسب الله الخلق على ضوء حجته عليهم كقوله (لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ) الأنفال/٤٢، سُئل الإمام الصادق (ع) عن قوله (**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ**) التوبة/١١٥ قال (**حَتَّى يُعرِّفَهُمْ مَا يُرضِيَّهُ وَمَا يَسْخَطهُ**) التوحيد ص٤١١ وقوله (**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**) الأنعام/١٤٩.

وعن الإمام الصادق (ع) (الْحُجَّةُ قَبْلَ الْخَلْقِ وَمَعَ الْخَلْقِ وَبَعْدَ الْخَلْقِ) والاكتفاء بالإنذار دون التبشير، لأن القوم المعاندين يتناسب معهم الإنذار أكثر من التبشير، **فائدة:** ١- قال (**إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**) ولم يقل (إلاّ خلا منها نذير) فليس معنى الآية أن يبعث الله (في) كل أمة وقوم ومحلة ومدينة وقرية ومنطقة ومجتمع.. يبعث لهم رسول، بل يكفِ أن تبلّغ دعوة الرسل ويفهم الناس كلامهم ورسالتهم وحوارهم بأية صورة من صور التبليغ المناسب، ٢- **سؤال:** قوله (**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**) وقوله (**وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ**) سبأ/٤٤، حيث أثبت في الآية الآولى النذير لكل أمة، ونفاه في الآية الثانية.

الجواب:

النذير في الآية الأولى يشمل كل نذير على عموم معناه، كما قلنا نبياً كان أو غير نبي، أما النذير في الآية الثانية فالمراد به النبي محمّد(ص) بالخصوص، وأن قومه لم يأتهم نبي مرسل مخصوص ومعصوم ومعلوم قبل بعثته (ص)، ولكن أتاهم نذير عام من ألقى عليهم الحجة بأية صورة من الصور، سواء أكان نذيراً مكشوفاً أو مستوراً أو محدوداً، **وليس من الضروري أن يكون هذا الرسول المنذر نبياً معصوماً يوحى إليه،** وليس من الضروري أن يكون له تاريخ مذكور وأثر مشهور، فقد يكون مؤمناً صالحاً عالماً بدين الله محباً لهداية الخلق، أو يكون فاضلاً مفكراً صادقاً سليم القلب فهو جندي مجهول من جنود الله كقوله (**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ**) المدثر/٣١ وقوله (**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) الفتح/٤، **ويكشف القرآن عن هذه الحقيقة الضخمة** في قصر فرعون الذي يقول (**أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**) النازعات/ ٢٤ وإذا في قصره مؤمن آل فرعون ووزيره وابن عمه، يكتم إيمانه فينهى عن قتل موسى بقوله (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ) غافر/٢٨، وآسيا بنت مزاحم زوجة فرعون ومستشارته في شؤون النساء، التي لم تعص الله طرفة عين أبداً، وهي من النساء الكاملات التي يقتدى بهن، كقوله (وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا) القصص/٩.

٢٥ - ٢٦- ﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ، ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**﴾

تسلية للنبي (ص) ليتأسّى بالأنبياء (ع) في الصبر على تحمّل الأذى والبلاء في تبليغ الرسالة، فلست أول رسول كذبه قومه، (**وَاللهِ تَعالَى أَمْهَلَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَهْمَلَ، ولَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ غَفَرَ، وَأَنَهُ أَنْذَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَعْذَرَ!**) وكان النبي (ص) يحزن عليهم فقال الله له (وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُون) النمل/٧٠، **المعنى:** (**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ**) يامُحَمّد فلا تحزن على المعاندين، فهم يكذبون على أنفسهم ويخدعونها ويغشّونها وهم لا يشعرون! (**فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ**

قَبْلِهِمْ) فلست وحدك الذي أصبحت موضع تكذيب، فقد واجه السابقون هذه المشكلة أيضاً، فَواصِلْ تبليغ الرسالة بوضوح والبقية على الله **(جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) بالبيّنات:** بالمعجزات الواضحات والخوارق الباهرات، وبالحجج والبراهين في صوّرها المتنوعة التي تثبت صدقهم **(وَبِالزُّبُرِ)** أي بالكتب المكتوبة بإحكام التي فيها ذكر الله تعالى والنصائح والمواعظ والحكم والتكاليف والتوجيهات والأدعية، والقوانين العامة الفردية والاجتماعية كزبور داوُد (ع) **(وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ)** والمراد به جنس الكتاب على عموم دلالته، وكل كتاب سماوي صحيح هو حق منير وفيه خير كثير، أي جاءتهم رسلهم بالكتب السماوية الهادية المظهرة للحق الذي يريده الله تعالى، كصحف شيث وأدريس وإبراهيم وتوراة موسى وإنجيل عيسى (ع) وفرقان مُحَمّد (ص) التي تنير الطرق في الدنيا والآخرة، وهؤلاء المعاندون مثل أخلاق الماضين في التكذيب، فهو من سنن الأولين فعليك بالصبر.

كقوله **(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)** السجدة/٢٤.

وفي غرر الحكم (بِالصَّبْرِ تُدْرَكُ الرَّغائِبُ) ٢٦- **(ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا)** وهنا يعرض القرآن على المشركين مصائر المكذبين الماضين لعلهم يحذرون، فقد سلّط عليهم أنواع العقوبات المادية والمعنوية، ثم أهلكهم بعد إمهال طويل **(فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) نكير:** عقاب، فانظر وتأمل كيف كان إنكاري لعملهم الفاسد، وغضبي عليهم وعقابي لهم، كان أشدَّ النكير وأعظم التنكيل وكان الأخذ تدميراً، لعلهم يحذرون من سنة لا تزال فاعلة تلمس القلوب فتحركها وتتأثر بها كقوله **(سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)** غافر/٨٥، إنه سؤال إنكار وتهويل وتعجّب **في نهج البلاغة خطبة٨٦** (السَّعيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ) فلم يكن تكذيبهم ناشئاً عن اشتباه، أو قصور في الفهم بل بسبب ظلمهم وجهلهم وعنادهم وقسوة قلوبهم، أما النبي فينال أجره من الله بمقدار مهمته ومسؤوليته ومعاناته، وكل نبي غير مسؤول عن نتائج دعوته، وإنما مسؤول عن بلاغها الواضح، وإلقاء الحجة على الناس كقوله **(فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)** النحل/٣٥. عن الإمام الجواد (ع) (الْمُؤْمِنُ يَحْتاجُ إلى ثلاثِ خِصالٍ: تَوْفِيقٌ مِنَ اللهِ، وَواعِظٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَقَبُولٌ مِمَّنْ يَنصحَهُ) البحار٣٥٨/٧٨.

٢٧ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾

وهنا يأتي استفهام تقريري على وحدانية الله، بأدلة الأنظمة السماوية والأرضية لتحريك حسّ التساؤل والتفكّر لدى البشر. **المعنى: (أَلَمْ تَرَ)** الرؤية قلبية أي (ألم تعلم) يا مُحَمّد أو أيها المخاطب، إنها لفتة كونية عجيبة من اللّفتات الدقيقة التي تجمع في كلمات بلاغية قليلة، والدالة على أن مصدر القرآن من الله تعالى كقوله **(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ**

اخْتِلَافًا كَثِيرًا) النساء/٨٢ **(أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)** ماءً واحداً وأرضاً واحدة على تراب ذي لون واحد، وخلق الله تعالى الأشياء المختلفة الصور من الشيء الواحد، فهذا يلفت النظر ويحرّك الفكر والمشاعر ويحيي الضمائر **(فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ)** وفواكه **(مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا)** وأشكالها وأصنافها وأحجامها ومنافعها وطعمها ومذاقها وتركيبها وروائحتها، **اقتصر على ذكر الألوان:** لأنها أظهر وأقرب للتأثر النفسي، ودلالة الكلام على الروائح والطعوم والفوائد.. إلخ، فمن أبدع هذا الجمال الخلّاب الأخّاذ النفّاذ؟ هو جميل يحب الجمال ويخلق الجمال ويدعو إليه، إنها يد القدّرة القادرة المقدّرة المدبّرة قد أقامت الألوان بحساب دقيق وتدبير حكيم، ففي هذه الألوان الجميلة الظاهرية معطيات للتعمّق إلى ما ورائها من أنظمة خفية دقيقة التي لا يراها ولا يعرفها إلاّ أهل البحث العلمي، والتدبّر بعقولهم لا بعيونهم وحدها، إنه عرض بديع للثمرات المختلفة ألوانها، مما يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسّامين الماهرين في جميع الأجيال!

(وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا)

وخلق من الجبال **(جُدَدٌ)** جمع جادة في الجبل وهي الطرق المتنوعة الأشكال أو خطوط وطبقات صخرية لونها **(بِيضٌ)** مختلفة البياض، **(وَحُمْرٌ)** ومختلفة في حمرتها والممزوجة مع غيرها من الألوان الجميلة التي تتأثر بها النفوس، وذكر بعض الألوان لنتعرف على غيرها، ويتنوّع أنواع الحجر وجماله وزينته وشدته وضعفه وخطوطه ورسمته الجميلة وتظليله بألوان أخرى متداخلة فيه، لزيادة جماله وتحرك مشاعر النفوس اتجاهه **(وَغَرَابِيبُ سُودٌ)** أي شديدة السواد ولا خطوط فيه، وأنه يأتي – هذا الجمال المتنوّع – بتدبير معيّن وتقدير منظّم كقوله **(قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)** الطلاق/٣ وهناك شَبَهٌ عجيب وتقارب بين ألوان الحجر والثمر مع اختلاف أنواعهما وطبيعتهما وتعددهما، والغرض بيان عظمة الله تعالى وكمال قدرته وبديع حكمته، لتستدل من بدائع المخلوق على عظمة الخالق.

إنها لمسة وجدانية دقيقة توقظ حاسة الجمال والكمال والجلال المتميز في النفس يستحق النظر والتأمل والالتفات إليه والتمتع بمنظره وجوهره، وتحرّك القلب وتوقظ المشاعر بذلك المعرض الإلهي الكوني الجميل الرائع المتنوّع والكبير كقوله **(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)** التغابن/١١، ولكن العنصر المشترك بينهما هو (الجمال) الأخّاذ الذي يستحق التفكّر كقوله (وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ) الرعد/٤.

عن الإمام علي (ع) (بِصُنْعِ اللهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ، وَبِالْعُقُوْلِ تُعْتَقَدُ مَعْرِفَتُهُ، وَبِالْفِطْرَةِ تَثْبُتُ حُجَّتُهُ، وَبِآيَاتِهِ احْتَجَّ عَلَىٰ خَلْقِهِ) التوحيدص٣٥.

٢٨ – ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

(وَمِنَ النَّاسِ) وخلق الناس كذلك على أنواع الصوّر والأشكال والأحجام والسّيماء والجمال والألوان، خلقهم مختلفين في مظاهرهم وجواهرهم ، حتى في نبرات أصواتهم! كاختلاف الثمار والجبال **(وَالدَّوَابِّ وَالأنعام)** وتعدد ألوانهم وجمالهم وصورهم وأوصافهم وأصواتهم وطبائعهم وعاداتهم كقوله **(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)** التغابن/٣، بحيث يكون كل إنسان نسخة واحدة مفردة مستقلة لها خصائصها ومميزاتها الملائمة معها تختلف عن غيرها،! وليس لها مثيل ولا شبيه، والكل (من العاقل وغير العاقل) من أصل واحد هو المني كقوله **(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)** المرسلات/٢٠، حتى التوأمة في بطن واحدة وحمل واحد مع كثرة التشابه بينهما، ولكن عنصر التمييز والاختلاف الجزئي الدقيق بينهما قائماً، وهذا هو الإعجاز الخارق في الخلق كقوله **(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)** المؤمنون/١٤، وهم مختلفون في الأشكال والمضامين رغم انتسابهم لأب واحد وأم واحدة، وهذا التنوّع فيه دلالة على حكمة الله وعظمة تدبيره وتقديره المنظّم الدقيق، والذي يتم من خلاله على الحساب والجزاء كقوله **(وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)** الجاثية/٢٢ **(وَالدَّوَابِّ)** جميع التي تدب أي تمشي بأرجلها على الأرض.

(وَالأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ) والأنعام خلقها كذلك بألوان مختلفة كاختلاف الثمرات والجبال في ألوانها وأشكالها وأحجامها ، فبعضها أبيض وبعضها أسود وألوان متنوعة أخرى، وفي كل هذا التنوّع مجال للتأمل والاعتبار، والدالة على قدرة الخالق الصانع الذي خلق كل شيء بأجمل ما يكون، والذي هو سبحانه جميل ويحبّ الجمال ويدعو إليه، والذي أتقن كل شيء كقوله **(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)** النمل/٨٨.

هذا الكتاب الكوني الكبير الجميل في صفحاته وتنوعاته، العجيب في تكوينه وتلوينه، والدقيق في تقديره وتدبيره، يفتحه القرآن الكريم ويقلّب صفحاته ويلفت النظر إليه، ويقول: إنّ الغافلين لا يلتفتون، وإنما **(العلماء بالله)** هم الذين يتدبّرون في صفحاته ويتأمّلون في عجائب مخلوقاته، وهم الذين يؤمنون بالله ويعرفونه ويخشونه حق خشيته، وكلما ازدادت المعرفة بالله ازدادت الخشية والرغبة والقرب منه عز وجل، وخصص **(وَالدَّوَابِّ وَالأنعام)** بالذكر لقربها من الإنسان، والتركيز على زينة الألوان لأنه عنصر جمال جذّاب مؤثر في النفوس ومحرّك للمشاعر والضمائر، ويعمل على تنقية الأرواح وصفاء القلوب المؤدّية إلى استقامة السلوك، والعلماء كلما ازدادوا علماً ازدادوا حباً بالله وازدادوا خشية منه وجذباً إليه والتزاماً بمنهجه المستقيم حق الالتزام.

(والعلماء بالله) هم المفكّرون الذين يحسنون البحث العلمي عن الحقيقة، العلماء الصالحون العاملون المتخصصون في علوم القرآن والإسلام والكائنات **(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)**

إنما من عباده من يخافون الله حق خوفه هم (**الْعُلَمَاءُ**) الذين آمنوا بالله عن علم وفهم وإيمان وأعمال صالحة كثيرة ووعي لا عن تقليد ولا اتّباع أعمى، بل عرفوا عظمته سبحانه بالأدلة والبراهين وصدق الإيمان كقوله (**وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**) آل عمران/١٠١، **وفي دعاء ٤٦ من الصحيفة السجادية** (إِلْهِي خَابَ الوَافِدُونَ عَلَى غَيْرِكَ، وَخَسِرَ المُتَعَرِضُونَ إِلاّ لَكَ) وإنما خص سبحانه (**الْعُلَمَاءُ**) بالخشية، لأن العالم أعرف بمقام ربه، وأحبَّ إليه طاعته ويحذر من معصيته من الجاهل والغافل، فالإيمان الصادق والحجة والدلالة والعلم الواعي يؤثر أثره في العلماء والفضلاء دون الجهال، فيخشع باطنهم ويخضع ظاهرهم ويستقيم قولهم وعملهم (**الْعُلَمَاءُ**) من خشي الرحمن بالغيب، واستقاموا مع أنفسهم ومع ربهم ومع الناس، واتقنوا فن التوازن الدقيق بين مطالب الدنيا والآخرة، ومطالب الروح والجسد، والحياة والموت، والأمل والعمل كقوله (**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ**) الأحزاب/٣٩.

عن النبي (ص) (يُوَزَّنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِدَادَ الْعُلَمَاءُ وَدَّمْ الشُّهَدَاءِ، فَيُرْجَحَ عَلَيّهُم مِدَادَ الْعُلَمَاءُ عَلَى دَّمِ الشُّهَدَاءِ) كنز العمال خبر٢٨٧١٥، **وعنه (ص)** (كُونُوا للعلم وُعاة، ولا تكُونُوا لهُ رواة) كنز العمال خبر٢٩٣٣٥، **وعنه (ص)** (مَنْ اِزْدَادَ عِلْماً وَلَمْ يَزْدَدْ هُدَىً، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إِلاَ بُعْدَاً) تنبيه الخواطر ص٢٧٥ فعلى المؤمن المتعلّم على سبيل نجاة أن يجتهد بإخلاص في تحصيل العلم بالله حتى يكون أخشى الناس لله تعالى، إنها خشية هيبة ومعرفة ورغبة وقربة لله وحب له لا خشية رهبة ورعبة و(**الْعُلَمَاءُ**) الذين يعرفون الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويعرفونه بآثار صنعته ويدركونه بجلال قدرته ويحبونه بجمال هيبته، يعرفونه معرفة العالم الفاهم الفاضل الواعي، العالم المتخصّص المتفحّص الذين تطمئن قلوبهم وتنشرح صدورهم بهذا العلم، وكلما ازدادوا علماً ازدادوا رقة وتواضعاً وأخلاقاً مع الناس وخشية لله، فيعرف الإنسان قدره، ولم يتعدّ طوره، ويعرف قدر الأشياء، وهذا دليل على فضيلة العلم ودوره الكبير في توجيه حياة الإنسان كقوله (**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**) المجادلة/١١، **في غرر الحكم** (الْعِلْمُ بِغَيْرِ عَمَلٍ وَبَالٍ، العَمَلُ بِغَيْرِ عِلْمٍ ضَّلاَل) وأهل خشية الله هم أهل كرامته ورضاه كقوله (**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**) البينة/٨، عن النبي (ص) (**أَنَا أَخْشَاكُمَ للهِ وأَتَقّاكُمَ لَهُ**) روح البيان٧/٣٤٤، هؤلاء العلماء تزيل وصمة الشك والريب والخلل والقلق عن نفوسهم كقوله (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) السجدة/٢٤، وفي نهج البلاغة خطبة ١٥٧ (**وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى**) وتظهر آثار الخشية في أعمالهم الصالحة النافعة للناس، فيصدق فعلهم قولهم فيتقونه صدقاً ويخشونه حقاً ويعبدونه إخلاصاً كقوله (**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**) الزمر/٣، فيرى ببدائع الخلق يد الله المبدعة الجميلة الرحيمة في

كل ما خلق الله، عن الإمام الصادق (ع) يعني بالعلماء (مَنْ صَدَقَ قَولَهُ فِعْلُهُ، وَمَنْ لَمْ يَصْدُقْ فِعْلُهُ قَوَلَهُ فَلَيسَ بِعَالِمٍ) الكافي١/ص٣٦، في الحديث (**أعلمكم بالله أخوفكم لله**)

(**إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ**) كامل العزة (**فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**) فاطر/١٠، والله عزيز لأنه غالب على أمره وعلى كل شيء، وعزيز قادر على الإبداع وعلى الجزاء (**غَفُورٌ**) للذنب يخشون ربهم، وغفور لزّلات عباده ويتدارك من يقصّرون في خشية الله، **فائدة**: ١- **كلما ازداد الإنسان علماً بالله، عرف حدّه فوقف عنده**، وعرف قدره ولم يتعدَّ طوره، ونكر ذاته وهذّبَ طبائعه وأصلح عاداته السيئة، وألف الناس وألفوه، وخير الناس من يألف الناس والناس تألفه، ولا خير فيمن لا يألف ولايؤلف، وكفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله ويتفاخر بعلمه ولو تَزَيَّ بزي العلماء، ٢- **الخشية**: هو خوف الله مع تعظيم وتكريم وإحساس بالهيبة والحب والرغبة، وكلمة (**يَخْشَى**) توحي بمعناها العام بأن العلم النافع الخالص من كل شائبة يؤدي إلى معرفة الله وقربه وحبه وخشيته كقوله (**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**) الرحمن/٤٦، إنه خوف إيجابي تربوي نموذجي مميز مؤثر عالي المضامين فهو مهذّب للطبائع.

والمقصود الخوف من الله: الكف عن المعاصي والإلتزام بالطاعات، ولا يعد الإنسان خائفاً من الله من لم يكن للذنوب تاركاً كقوله (**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**) النازعات/٤٠-٤١، في غرر الحكم (إِذَا خِفْتَ الْخَالِقَ فَرَرْتَ إِلَيْهِ، إِذَا خِفْتَ الْمَخْلُوقَ فَرَرْتَ مِنْهُ) وإن نكران الذات وتهذيب الأنا وتزكية النفس وإصلاح العادات السيئة وتغذية العلم النافع من لوازم الخشية من الله وتظهر آثاره العملية، ومعنى هذا أن من يكفر بالله أو آمن به نظرياً وجحده عملياً في تعامله مع الناس، فما هو من العلم الخالص في شيء، من نهج البلاغة خطبة ١٩٣ (**عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ**)، ٣- **سؤال**: نلاحظ بعض العلماء من لا يخاف الله ويرتكب المعاصي؟ **الجواب**: العلماء بالله هم الذين يقوى إيمانهم ويتوازن مع قوة علمهم، ولا يكون قوة أحدهما على حساب ضعف الآخر! فإذا ضعف الإيمان وغلبت الشهوة واللّذة وآثر المعصية فصغر العقل، فلم ينفع علم من دون إيمان، ولا ينفع إيمان من دون علم، ومن دون تطبيق لما تعلّم كقوله (**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**) البقرة/٢٨٢، لذلك العلماء أمناء الله على خلقه، وهم خلفاء الرسل وورثة الأنبياء ما لم يخونوا الله ودينهم وأمتهم، عن النبي (ص) (**الْعُلَمَاءُ أُمَنَاءُ الرُّسُلِ مَا لَمْ يُخَالِطُوا السُّلْطَانَ**) (الجائر) كنز العمال خبر٢٨٩٥٢.

٢٩ — ٣٠-﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ، لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

ثم أخبر القرآن عن صفات هؤلاء العلماء الذين يخافون الله ويشعرون بقربه وحبه وجذبه ويخافون عذابه ويهابون مقامه، بقوله (**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**)٢٨، (إنهم في تجارة

مع الله لن تبور) لن تخسر، إنهم يتلون كتاب الله عن علم وتدبّر، وينتهي بهم إلى إدراك وتأثّر، وإلى تطبيق بعد ذلك وسلوك صادق وتحضُّر، إنهم مشروع قرآن ناطق حيّ متحرّك. **المعنى:** **(إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ) يتلون:** جاء بالفعل المضارع للدلالة على الاستمرار، أي لا يهجرون القرآن بل هو دستورهم ومرجعهم في حياتهم، إن الذين **(يَتْلُونَ)** القرآن حَقَّ تلاوته ويداومون عليها بالقدر الممكن آناء الليل وأطراف النهار، فيحسنون قراءته ويتدبّرون معانيه الدقيقة والعميقة ويدرسون دلالاته البعيدة بتتبعها واستخراجها من النصوص، فيفسّرون القرآن بالقرآن مدعوماً بالسنّة الصحيحة والعترة من أهل بيت النبي (ص) كقوله **(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ)** البقرة/١٢١.

تلاوة تفكّر وتعلّم وبصوت حسن، تلاوة تحرّك المشاعر وتوقض الضمائر وتحيي القلوب وتشرح الصدور وتدعو إلى تهذيب النفس وتزكيتها، وتدعو إلى الإيمان والعمل الصالح، تلاوة تدبّر لا يكون همّها آخر السورة، تلاوة بلا تحريف في اللفظ ولا تزييف بالمعنى ولا التفسير بالرأي، كقوله **(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)** الأنفال/٢٤، والنبي مُحَمَّد (ص) **(كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)** لا أن يمر القارئ بكلماته مروراً عابراً، لأن التلاوة بلا تفكّر ولا تفهّم ولا عمل، تلاوة لا نفع فيها، والذي يقرأ القرآن يقوم بزيادة ونقصان، زيادة في هدى ونقصان من عمى، وإن لم يحصل ذلك فكأنما لم يقرأ، عن النبي (ص) **(لِيْسَ الْقُرْآنُ بَالتِلاوَةِ وَلاَ العِلْمُ بَالرِوَايَةِ، وَلَكِنَ الْقُرْآنَ بَالهِدايَةِ وَالعِلْمَ بَالْدِّرَايَةِ)** كنز العمال خبر٢٤٦٢. عن الإمام علي (ع) **(أَلَّا لاَ خَيرَ فِي قِراءَة لَيْس فِيهَا تَدَبُّر، ألا لاَ خَيرَ فِي عِبَادَة لَيْسَ فِيهَا تَفَقّهُ)** البحار٩٢/٣١٦، عن النبي (ص) **(رُبّ قَارِئ لِلقُرْآنِ وَالقُرْآنُ يَلْعَنُهُ)**! البحار٩٢/١٨٤.

لماذا يلعنه؟ أي يعرفه حق معرفته حتى يلعنه، لأنه يستحق اللّعن! ولماذا من جعله خلفه وأعرض عنه قاده إلى النار، ومن جعله أمامه وتعلّم منه قاده إلى الجنة، فلماذا يلعن هذا؟ ويهدي ذاك؟ ويكافئ من يستحق المكافأة؟ أي أنه يعرف الناس بدقة أكثر من معرفة الناس إليه! وكأن القرآن الكريم كائن حَيّ مؤثر وقائد نموذجي مميز يفرز بين الناس، ويعطيهم موازينهم المتناسبة معهم! وينسجم القرآن مع فطرة الإنسان واحتياجاته، وهذا دليل على أنه نازل من عند الله تعالى **(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ)** وأدّوا الصلاة وواضبوا عليها في أوقات فضيلتها، أداءً كاملاً بشروطها وأركانها ومقدماتها وطهارتها وآدابها وخشوعها، إقامة تتحقق بها حكمتها وأثرها في الشعور والمنطق والكلام والسلوك المستقيم مع الناس، كقوله **(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)** العنكبوت/٤٥، عن الإمام علي (ع) **(الصَّلاَةُ مِيزَانٌ: فَمَنْ وَفَّى، اسْتَوْفَى)** البحار٨٤/٢٦٤، **والصلاة:** عمود الدين، ونظام المسلمين، وميزان الأعمال، وصدق الإسلام،

وقربان كل تقي، وتزكّي النفوس (**وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**) وأعطوا في سبيل الله في موارد الخير المتنوعة مما مّلكناهم ومكّناهم فيه، حال سرّهم في الخفاء وعلانيتهم أمام الناس.

والرزق هنا يأتي بمعناه العام المادي والمعنوي، الذي يشمل المال والعلم والجاه والمنصب والذكاء والخبرة والتجربة والنصيحة والاختصاص (قِيمَةُ كُلِّ امْرِئٍ عَلَى قَدَرِ خِبْرَتِهِ وَمِقْدَارِ تَجْرِبَتِهِ) كُلٌّ ينفق بقدره وقدرته ومن موقعه (**سِرًّا وَعَلَانِيَةً**) (**سِرًّا**) حذراً من الريّاء والسمعة، ودليلاً على الإخلاص وحفظ كرامة الآخذين، كما في الإنفاق المستحب، وأنفقوا (**وَعَلَانِيَةً**) لتشجيع الناس على **إحياء مبدأ التكافل الاجتماعي والتأمين الصّحي والاقتصادي**.. تعظيماً لشعائر الله، كما في الإنفاق الواجب، وفيه تشجيع على الإنفاق العام في عموم الأوقات والأحوال، ومن سعادة المرء أن يسعدَ الآخرين بعطائه وكرمه، كقوله (وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ) الحديد/٧.

وقوله (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ) البقرة/٢٧٢ **في غرر الحكم** (لَيْسَ لأَحَدٍ مِنْ دُنْيَاهُ إِلاَّ مَا أَنْفَقَهُ عَلَى أُخْرَاهُ) أولئك (**يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ**) **لَنْ تَبُورَ**: لن تكسد ولم تفسد ولم تخسر ولم تفن، تجارة رابحة في كل الأحوال والأشكال، تجارة شافية نامية عند الله بالثناء الجزيل والتكريم الجليل، لأنها تجارة لله ومع الله وخالصة لوجه الله الكريم، إنها تجارة نموذجية من أجلّ التجارات وأفضلها وأعلاها ألا وهي الوصول إلى (رضا ربهم) فهم يعرفون أن ما عند الله خير مما ينفقون ويتاجرون ويربحون، لذلك جاءت (**يَرْجُونَ**) بالمضارع المستمر فهم يعيشون دائماً بين الخوف والرّجاء كقوله (**يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ**) الزمر/٩، **في غرر الحكم** (خَيْرُ الأَعْمَالِ اعْتِدَالُ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ) جاء في الدعاء (**يَامَنْ يُعْطِي الْكَثِيرَ بِالْقَلِيلِ**) ٣٠- (**لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ**) ليوفيهم الله أجور أعمالهم الصالحة النافعة للناس بقدرها، مع خلوص نياتهم، فيعطيهم إيّاها تامة كاملة وزيادة كقوله (**فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**) هود/١١٥ (**وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**) ويزيدهم من جوده وكرمه وعطائه فوق ما يستحقّون مما لم يخطر ببالهم كقوله (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا) الفرقان/١٦، عن النبي (ص) في قوله (**وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ**) (هو الشفاعة) لمن هو مؤهل لها، وهذا كمصداق (**إِنَّهُ غَفُورٌ**) مبالغ في الغفران لأهل القرآن والإيمان، وغفور لزلّاتهم لتقصيرهم وقصورهم (**شَكُورٌ**) شاكر لطاعاتهم ويثيب أعمالهم الصالحة ويجازيهم عليها جزاءً موفوراً، ويتقبل الشكر من الشاكرين، وشكره تعالى كناية بلاغية عما يصاحب الشكر من الرضا والرحمة والإكرام والاحترام. والإحسان وحسن الجزاء، فهو يقبل اليسير ويثيب عليه الكثير، ولكن التعبير البلاغي القرآني.

(**شَكُورٌ**) يوحي للبشر بشكر المنعم ورحمته بعباده ومن عرف أن الله شكور، شكر نعمته وآثر طاعته وتجنب معصيته وطلب رحمته وشهد منّته، فإذا كان الله تعالى يشكر لعباده حسن

الأداء، أفلا يشكرون له هم حسن العطاء؟! عن الإمام علي (ع) (**بَاعُ الْمُؤْمِنُونَ قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لاَ يَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ الآخِرَةِ لاَيَفْنَى**) الكاشف٦/٢٩١.

فائدة: ١- **روي:** أن رجلاً قام إلى النبي (ص) فقال يارسول الله مالي لا أحب الموت؟ قال (ص) ألك مال، قال نعم، قال (ص) فقدّمه، فإن قلب الرجل مع ماله، إن قدّمه أحبّ أن يلحق به، وإن أخّره أحبّ أن يتأخر عنه، ٢- **قال ابن مسعود:** كيف لي يارسول الله بتجارة الآخرة؟ فقال (ص) لا تريحنّ لسانك عن ذكر الله، ومن هذا الذكر أن تقول (**سُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ وَلاْ إلَهَ إلاّ اللهُ واللهُ أكبر**) فهذا مصداق لتجارة مربحة، وفي نهج البلاغة حكم ٤٠٦ (إِنَّهُ لَيْسَ لِانْفُسِكُمْ ثَمَنٌ إِلاَّ الْجَنَّةَ، فَلاَ تَبِيعُوهَا إِلاَّ بِهَا).

٣١ -﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾

يشير القرآن هنا إلى الصفحة المقروءة في كتاب التدوين المقدّس وهو القرآن الكريم، إنه صفحة الحق المنسجم مع كتاب التكوين العام، فيكون كتاب التكوين ونظام الكون والكائنات هو الصفحة الباهرة الصامتة الناطقة معنوياً بالحق بكمالها وجمالها وجلالها، والحق واحد موحّد متّحد لا يتعدد ولا يتجزأ، والقرآن يؤثر بأهل الحق ويتناسب معهم، لأنه حجة علمية متكاملة ومنسجمة مع كل تطوّر وتقدم حضاري وفي كل زمان ومكان مهما تغيّر الزمان، لأن الحق من ربك، والحق القيمة العليا المؤثرة الثابتة التي لا تتغير ولا تتعدد ولا تتبدل ولا تتحوّل، ولكنَّ المسلمين هجروا القرآن وأعرضوا عنه ليتقدموا! فأصابهم الذل، وسلّط الله عليهم شرارهم من سوء أعمالهم، **عن النبي (ص)** (كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّى عليْكُم) كنز العمال خبر١٤٩٧٩،كقوله (**فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**) الشعراء/٢١٣، **المعنى:** (**وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ**) والذي أوحينا إليك يا محمّد (**مِنَ الْكِتَابِ**) من القرآن العظيم المنزل (**مِنَ**) للتبعيض، لم يكن كل القرآن قد نزل بل بعضه، لأن السورة مكية ولم يحن نزول القرآن في المدينة (**هُوَ الْحَقُّ**) من ربك الثابت الخالص الصادق المؤثّر الهادي للتي هي أقوم، الحق الذي لا شكَ فيه ولا ريب في صدقه، من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، **فانطلق القرآن بالحق ومن الحق ونزل بالحق** وتعامل بالحق وهدفه نصرة الحق، ويدعو إلى الحق ويحيط به الحق، فهو حق ومن الحق وإلى الحق ومع الحق، فلا يخرج منه الحق إلاّ ويعود إليه، فصار القرآن ينبوعاً يتدفّق بالحق، وَيَتَفجّر منه الحق، فهو كعين الماء الهادر الذي يأخذ بالألباب، فهو بذاته حق ولغيره حق وبتربيته حق وبأهدافه حق، كقوله تعالى (**والْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ**)يونس/٣٥، فعليكم اتّباعه دون غيره من الكتب السماوية السابقة التي أوحيت إلى غيرك، ودخل فيها ما ليس منها، فأصابها التحريف والتزييف، والقرآن محفوظ بحفظ الله كقوله (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**) الحجر/٩،

فهذا القرآن هو خلاصة رسالات الأنبياء كلها، وكنز ثمين من السماء إلى أهل الأرض لهدايتهم للتي هي أقوم. **عن النبي (ص)** (إِنَّ الْمُؤْمِنَ قَيَّدَهُ الْقُرْآنُ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ هَوَى نَفْسِهِ)
كقوله **(إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا)** الإنسان/٢٩، **عن النبي (ص)** (مَنْ أَرَادَ عَلَمَ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ) كنز العمال خبر٢٤٥٤، **فَلْيُثَوِّر**: فليبحث ويتعمّق ويتدبّر بعلم، فلا يكن في قلوبكم حرج منه، كقوله (كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) الأعراف/٢،وهذا القرآن الهادي يقوم على أساس الواقع وهو نزل تدريجياً من خلال حركة الواقع، فهو كتاب واقعي ولا يفهمه حق الفهم إلاّ من يعيش فهم الواقع، والقرآن لا يدعو إلاّ إلى الخير والاستقامة، ولا ينهى إلاّ عن الشر والفساد والباطل كقوله:
(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) فصلت/٤٢، وليس في القرآن تناقض أو كذب أو ضعف أو باطل أو خرافة أو غلو، كل ما فيه ينسجم مع العقل والعلم والفطرة الإنسانية، فصار القرآن فرقاناً يفرق بين الحلال والحرام، والحق والباطل، والصحيح والخطأ، ويكون القرآن معياراً ومقياساً ومرجعاً لمعرفة حقانية أي كلام.
فيكون **(الْقُرْآنُ مِيزَانٌ دَقِيق: فَمَنْ وَفَّى، اسْتَوْفَى)** كقوله **(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)** الفرقان/١ **(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)** وهو مصدق ومؤيد الكتب السماوية المتقدمة عليه الصحيحة قبل التحريف، لموافقته ما فيها من أصول الدين والعقيدة والتوحيد، ولانطباقه على البشارات والأخبار المذكورة في تلك الكتب، والكتب السّماوية يصدّق بعضها بعضاً، وإن اختلفت أدوارها وأزمانها ولكنها تتوحد أهدافها وغايتها، وأيضاً القرآن **(مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)** من كل كتاب حديث ينطق بالصدق والعلم والعدل والخير والتقدم النافع كقوله **(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عليه)** المائدة/٤٨، وأن النبي لم يكن قارئاً ولا كاتباً وأتى بالقرآن المعجز الذي فيه **(تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ)** النحل/٨٩ **(وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ)** يوسف/١١١ **(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)** الأنعام/٣٨ ولا يكون ذلك إلاّ إذا ارتبط (ص) بوحي من الله تعالى، ولا يمكن لأحد أن يؤمن بالكتب السماوية السابقة الصحيحة وهو يكفر بالقرآن، لأن كفره بالقرآن ينقص من إيمانه كقوله **(وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ)** آل عمران/١٩٩ **(إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ)** عالم بأحوالهم وبواطن أعمالهم وأسرارهم **(بَصِيرٌ)** بما يصلح أمورهم ولا يخفى عليه خافية من شؤونهم، فيعطي كل أمة وكل شخص ما هو لائق بحاله وبكفاءته وبإنجازاته لعلمه به وقربه منه، كقوله **(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)** الحديد/٤. وقوله

(**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**)ق/١٦. **عن الإمام علي** (ع) (**إلهي**: كفاني فخراً أنْ تكونَ لي رَبّاً، وكفاني عِزاً أنْ أكونَ لَكَ عَبْداً، أنت كما أُريدُ، فاجعلني كما تُريدُ) البحار٧٧/٤٠٠

٣٢ – ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ** ﴾

(**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**) ثم أورثنا (**الْكِتَابَ**) أي القرآن (الوراثة العلمية النموذجية المميّزة) وراثة علوم القرآن المتنوعة، ودراسة مصطلحاته ومعانيه وأحكامه وحملها وحفظها واستنطاقها والعمل بها، فالذي يتأهّل بكفاءة لوراثة الكتاب، هو الذي يتفاعل معه ويتأثّر به، ويتشرّف في حمله وحفظه واستنطاقه، ومعرفة كنوزه وعجائبة المتنوعة، عن الإمام زين العابدين (ع) (**آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنُ الْعِلْمِ، فَكُلَّمَا فَتَحْتَ خِزَانَةً، فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ فِيهَا**) البحار٩٢/٣١٦ وانتهاء الحكم إليهم والزعامة لهم، وهم المنتفعون بالكتاب انتفاع الوارث بما يرث، وراثة معنوية ووجاهة علمية بلا جهد ولا مشقّة، وهذا الاصطفاء رفع لقدرهم وتكريم لهم، كقوله (وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا) الكهف/٦٥، **عن الإمام الباقر** (ع) (مَنْ عَمِلَ بِمَا يَعَلِمُ، عَلَّمَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) البحار٧٨/١٨٩، وتشير (**أَوْرَثْنَا**) إلى أن هذا الكتاب الثمين هو ميراث المؤمنين المصطفين المختارين.

(**مِنْ عِبَادِنَا**) على مرّ الأزمان، وليس فقط في ذلك الزمان، وأنه لهم خالصة وخاصة من دون الناس، لأنهم المصدّقون والمستنطقون والمتأثرون به، والمنتفعون منه وهم حملته الأمناء عليه، وسمي القرآن (ميراثاً) لأنه كنز من كنوز السماء عند علماء أهل الأرض، فهو خلاصة رسالات كل الأنبياء (ع) وهو حجة الله على خلقه، وفضل من الله لعباده، لم يحصل عليه المسلمون بكدّهم وسعيهم، وإنما بفضل الله لهم، (**ثُمَّ**) للترتيب والتأخير وتفيد التراخي من الزمن، بين نزول هذه الآية وبعض الآيات المكية، وبين تمام نزول القرآن (**الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**) الذين اخترنا وانتقينا لهذه الوراثة (**مِنْ عِبَادِنَا**) المؤمنين العلماء المفكرين على عمومهم من كل أمة، فكلّهم اصطفاهم الله تعالى لوراثة الكتاب (الوراثة العامة) وإن تفاوتت مراتبهم وتميّزت أحوالهم وكفاءاتهم وأعمالهم في كل زمان ومكان، ليكونوا حملة الرسالة الإسلامية والأمناء عليها والمبلّغين لها والعاملين بها ولا يكتمون منها شيئاً (**مِنْ عِبَادِنَا**) من للتبعيض، وإنما علّق وراثة الكتاب ببعض العباد دون بعض لأن (**فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ**)

والذي أورث الكتاب هو الله تعالى، وأعطاه وألهمه وعلمه لأمة المسلمين وغير المسلمين، لأنه تعالى اصطفاهم واختارهم على سائر الأمم كما اصطفى رسولهم مُحَّد (ص) على جميع الرسل، واصطفى كتابهم (**الْقُرْآنَ**) على جميع الكتب السماوية، وأورثهم وراثة معنوية علمية إيمانية أخلاقية دينية شرعية عالية المضامين، وراثة لأهل العلم والفهم والوجاهة والنزاهة والفضيلة،

وكلما ازداد المؤمنون إيماناً وعلماً وعملاً صالحاً وورعاً، ازدادوا ميراثاً وشرفاً وحملاً وصدقاً وفهماً لهذا الكتاب القيّم، في الحديث (**الْعُلَمَاءُ وَرَثَةِ الأنْبيَاءُ**) مجمع البيان٨/٢٦٩،وهذه المواصفات النموذجية المميزة تنطبق على أهل بيت النبوة (الأئمة الأطهار (ع)) الحاملون لكتاب الله والعارفون به والأمناء عليه، وهم الراسخون في العلم كقوله (**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**) آل عمران/٧، باعتبارهم صفوة الخلق، فكانوا هم السبيل إلى الله والمسلك إلى رضوانه كقوله (**يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ**) الأحقاف/٣١، والمصداق الأبرز لميراث الكتاب هم آل مُحَمَّد وعترته (ص) كما في حديث الثقلين المتواتر.

عن النبي (ص) (إِنِّي تَارِكٌ فِيكُم الثَقَلين: كِتَابَ اللهِ وَعَتَرتِّي أَهْل بَيْتِي، مَا إِنْ تمسَكْتُم بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفترَقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيّ الحَوْض) صحيح الترمذي٢/٣٠٨، وعنه (ص) (**حُبنَا أَهْلَ الْبَيْتِ نِّظَامِ الدِّينِ**) البحار٧٨/١٨٣، كان ردُّ فعل الناس ومقدار استجابتهم لهذا الإرث القرآني العظيم، وهذا الاصطفاء الكريم متفاوتاً، فلم يكونوا على درجة واحدة في إيمانهم وفي علمهم وكفاءتهم وفي منزلتهم عند الله.

(**فَمِنْهُمْ**) أي (**مِنْ عِبَادِنَا**) **الذين اصطفينا واخترنا حيث انقسموا إلى ثلاثة أصناف** كقوله (**وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً**) الواقعة/٧ بتعدد مقامات المؤمنين وتفاوت درجاتهم وإيمانهم وعلمهم عملهم ووعيهم، **الصنف الأول** (**ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ**) وقدّمه لأنه الأكثر عدداً! إنه ورث القرآن أباً عن جد ولكن لم يحمله بصدق وحرص ووعي، ولم يكن من الصفوة المختارة، لأن الشيء الواحد المختار لا ينقسم على نفسه وغيره، ومصداقه المنافق الذي ظلم نفسه وحرمها من الهداية واعتدى على حقوقها بالتقصير في حفظ القرآن، وعدم التأثر به وعدم تبليغ الرسالة وعدم العمل بها دون الكفر، بتحمله الإثم وأنواع الذنوب، والتهاون في فعل بعض الواجبات وترك بعض المحرّمات.

كقوله (**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**) الطلاق/١ فتزيد سيئاته على حسناته، **والظلم ثلاثة أنواع: ظلم بين العبد وربه** وهو ظلم الشرك والكفر والفسوق والنفاق والعصيان، **وظلم فيما بين الناس، وظلم الإنسان لنفسه** وهذا الظلم كان بدافع الجهل الغفلة واتباع الهوى وحبَّ الأنا وحبّ الدنيا، وليس بدافع الكفر، ومن ظلم نفسه فقد ظلم غيره، والظلم ينغّص العيش ويكّره الأيام ويقلق النفس ويقسّي القلب، وينفّر من الناس ويبعّد عن الجنة ويقرّب من النار كقوله (**وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ**) مُحَمَّد/٣٨.

الصنف الثاني:

(**وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ**) أي متوسط، تتعادل سيئاته وحسناته، فتعثّرت مسيرته نحو التكامل الإنساني، وهم الأقل عدداً من القسم الأول من الظالمين لأنفسهم، ويعمل بالكتاب على قدر محدود، ويعمل الطاعات ويرتكب السيئات كقوله (**خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا**)

التوبة/١٠٢، **الصنف الثالث:** (**وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ باذن الله**) وهم المتّقون الصالحون الفضلاء الذين يجمعون بين الإيمان والعلم والوعي والعمل الصالح النافع للناس، والاستقامة في أقوالهم وأفعالهم، ولهم فضيلة السبق، أي سارعوا وتقدّموا في عمل الخيرات على عموم معناها المادية والمعنوية، فسبقوا غيرهم في عمل الباقيات الصالحات النافعات للناس، دائمة الخيرات وباقية البركات كقوله (**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ**) الواقعة/١٠-١١ وقوله (**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**) الكهف/٤٦، ويقدّمون للناس ما ينفعهم ولا يضرهم، بل يهدونهم بالقرآن للتي هي أقوم، **في نهج البلاغة حكم٨١** (قِيْمَةُ كُلِّ امْرِىءِ مَا يُحْسِنُهُ) وهؤلاء الأبرار تزيد حسناتهم على سيئاتهم، ويكونون سبّاقين لغيرهم في خدمة الناس وقضاء حوائجهم، وعملوا للمجتمع نهضة حضارية تنهض بالبلاد والعباد إلى سلّم التقدّم والتطوّر العلمي والأخلاقي، مع المحافظة على القيم والمبادئ والاستقامة على منهج الله! وكلما كانت الصالحات أكثر نقاءً ونفعاً وأوسع خدمة وأكثر بقاءً، كانت أكثر قبولاً وأرفع درجة عند الله كقوله (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا) مريم/٧٦ **من دروس التسابق بالخيرات:** إنّ هؤلاء السبّاقين بالخيرات يعلّمون الناس درساً تربوياً بليغاً، على أن رسالة الله متى عاشت في حياة الإنسان المؤمن وتفاعلت معه حقاً وصدقاً، وإيماناً وعلماً، وفكراً وروحاً وحركةً، تحوّلت إلى قوة وقدرة هائلة في جميع ميادين الحياة، و(الْهِمَّةُ عَلَى قَدَرِ الْمُهِمَّةِ) **في غرر الحكم** (أصل قوة القلب التوكّل على الله)

كقوله (**لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ**) الصافات/٦١.

وقوله (**وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**) المطففين/٢٦ (**بِإِذْنِ اللَّهِ**) بتيسير الله تعالى ورحمته وتدبيره لهم صفة السبق (**سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ**) وهم الصادقون مع القرآن والصادقون مع ربهم ومع الناس ومع أنفسهم، والوارثون الحقيقيون للقرآن والإسلام، ولئلا يغترَّ (السابقون بالخيرات) بأعمالهم، فعليهم أن يعلموا أن سباقهم بالخيرات كان (**بِإِذْنِ اللَّهِ**) بتوفيق الله ومعونته ورعايته وتسديده ولطفه سبحانه، وأنهم يتوكلون على الله ولا يستقلّون عنه كقوله (**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**) الطلاق/٣ وكانوا يشكرون الله على ما أنعم به عليهم ليكونوا سَبّاقين أيضاً إلى رضوانه عز وجل (**ذَلِكَ**) الميراث للكتاب والاصطفاء العام.

(**مِنْ عِبَادِنَا**) من المختارين منهم، والتسابق بالخيرات (**بِإِذْنِ اللَّهِ**) فيكون هو الصالح للاصطفاء والانتقاء والاختيار (**هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**) من الله عليهم لا يدانيه فضل ولا شرف ولا كرامة على مدى تداول الأيام والأعوام، وهو وراثة الكتاب القرآني الجليل وحمله واستنطاقه وتعليمه والأمناء عليه، والمخلصين له، إنه فضل كبير وجليل يغطّي على جميع الفضائل والعلوم والاختصاصات مهما تنوّعت وتعددت فهو يفوقها ويعلو عليها، كقوله (**وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ**) الأنعام/١٥٥، وفي الحديث (إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهذَا الكِتاْبِ (القُرآن) أَقْوَاْماً وَيَضَعُ بِهِ آخَرِيْن). عن الإمام علي (ع) (**ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، فَإِنهُ حَامِلٌ لِمَنْ حَمَلَهُ، وَنَاطِقٌ لِمَنْ**

اسْتَنْطَقَهُ). **فائدة:** ١- **(اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا)** **الاصطفاء:** الاختيار، وهناك فرق بينهما، **الاصطفاء:** أخذ صفوة الشيء وأفضله من بين الأشياء المختارة على أنه صفوتها وخاصتها وأفضل ما فيها، فهو صفوة الصفوة، **والاختيار:** أخذه من بين الأشياء العامة على أنه خيرها، **وهذا الاصطفاء الخاص لهؤلاء من بين عبادنا يوحي بالتكريم والاحترام**، كما ويوحي بضخامة التبعة الناشئة عن هذا الاصطفاء وعن تلك الوراثة، إنها تبعة ضخمة ذات تكاليف، فهل تسمع الأمة الإسلامية المصطفاة لهذه المهمة، وتستجيب بكل هِمة؟ **ومن الجدير ذكره:** إنّ هذا الإيراث والاصطفاء من المجموع العام.

(مِنْ عِبَادِنَا) لا يقتضي الاختصاص بمن يحفظ جميع القرآن ولا أن يحفظ جزءاً منه، وإنما ذكر **(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ)** بلفظ الميراث، لأن الميراث يقتضي صحة النسب أو صحة السبب والمؤهلات على وجه الخصوص، فمن لا سبب له (لا كفاءة له) ولا نسب له فلا ميراث له، **فالسبب** ههنا هو الوعي في علمه وطاعة العبد لله تعالى، **والنسب:** فضل الرب وتكريمه أن يكون من شجرة طيبة، وهم أهل الله وفضله عليهم كقوله **(فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)** المائدة/٥٤. **(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)** هو الذي لم يتحمّل الأمانة الرسالية، ولم يصدق مع الاصطفاء ولم يحترم الاختيار ولم يعرف قدر نفسه، ولم يعرف حدّه فيقف عنده، وهو المرجأ لأمر الله أي الموقوف والمؤجّل أمره لأمر الله كقوله **(وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ)** التوبة/١٠٦، وليس من ضرورة **(وراثة الكتاب)** مراعاته حقَّ رعايته، كقوله **(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا)** الأعراف/١٦٩، ولا من ضرورة الاصطفاء المنع عن الوصف بالظلم، هذا آدم (ع) اصطفاه الله كقوله **(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ)** آل عمران/٣٣، وهو القائل **(قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا)** الأعراف/٢٣، ٢- **سؤال:** هل يمكن أن يعصي العارف بالله وهو من أهل الله، وهو من أهل الكشف؟

والجواب: نعم يعصي الله قليلاً عن غفلة وسهو، عندما يضعف فيتغلّب هواه على هداه، وشهوته على عقله، ودنياه على آخرته كقوله **(الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ)** محمد/٢٥.

في غرر الحكم **(مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، لَمْ يُهِنْهَا بِالْمَعْصِيَةِ)**، فلا يعصي العارف وهو مؤمن، ولكنه سرعان ما يندم ويستغفر ويتوب، **عن النبي (ص)** (إنّ كُل بنَي آدَم خَطّاء، وَخَيْرُ الخَطّائِيْنَ التَوّابُونَ)الدر المنثور١/٢٦١، ٣- عن النبي (ص) (أما الذين **(سبقوا)** فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب، وأما **(المقتصد)** يحاسبون حساباً يسيراً، وأما الذين **(ظلموا أنفسهم)** فأولئك يُحبَسُوْنَ في طول المحشر ثم يتلّقاهم الله برحمته)روح البيان٧/٣٤٩، **وهؤلاء المراتب الثلاثة: (الظالم)** من يعبد الله على العادة والغفلة فهو من رَكَنَ إلى الدنيا **(والمقتصد)** من يعبد الله على الرغبة والرهبة فهو من رَكَنَ إلى العقبى **(والسابق)** من يعبد الله على الهيبة

والخشية من مقام ربه فهو من رَكَنَ إلى المولى كقوله (وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) آل عمران/١٤،
٤- لماذا يوجد (**ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ**) وهو من بين (**الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**) لحمل القرآن الكريم؟
والجواب: فهو ظلم نَفْسَه لأنه لم يتحمّل مسؤولية الاصطفاء، وتسامح في الوراثة العامة، فهو لم يعرف قدره فتعدّى طوره، كقوله (**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ**) المؤمن/غافر/٥٣ مع العلم أن بني إسرائيل لم يؤدّوا (جميعهم) وظيفتهم إزاء هذا الميراث العظيم كقوله (**وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا**) الأعراف/١٥٥، ونظير قوله (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) آل عمران/١١٠.

وقوله (**لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**) البقرة/١٢٤، هذا العهد الخاص لا ينال الظالمين، وقد أكدّ الله تعالى مهمة حفظ القرآن الكريم إلى نفسه بقوله (**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**) الحجر/٩، ثم اختبر الله الأمة الإسلامية التي أورثها الكتاب واصطفاها واختارها، لقد ابتلاها وامتحنها على عمومها في وراثة القرآن الكريم، كما امتحن أمة بني إسرائيل على عمومهم كقوله (**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**) المائدة/٤٨، (وفي الامتحان يكرم المرء أو يهان) فِيْ الْمِحَنِ مِنَحٌ مِنَ اللهِ، وَفِيْ الْمَكَاْرِهِ مِكَاْرِمٌ، وَفِيْ الْمَشَقَّاْتِ رَاْحَاْت وخِبْرَاْتٌ، وَفِيْ الْمُعَاْنَاْةِ هِبَاْت، وَفِيْ العُقُوبَاْتِ يَقَظَاْتِ الضَّمير، وَفِيْ الْبَلاَيَاْ بِدَاْيَاْتٌ نِهَاْيَاْتُهَاْ الْكَرَاْمَاْتُ. عن الإمام الحسن العسكري (ع) (**مَا مَنَّ بَلِيةٍ إلاّ وَللهِ فِيهَا نَعمةٌ تَحِيطُ بَهَا**)! البحار٧٨/٣٧٤. **عن النبي (ص)** (إنّ الإِسْلاَمُ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ قَالُوا وَمَا الْغُرَبَاء؟ قال: الذين يُصلحون عند فساد النّاس) كنز العمال خبر١١٩٨، سئل الإمام الصادق (ع) عن أَدْنَى مَاْ يَخْرُجُ بِهِ الرَّجُلُ عَنِ الإِسْلاَمِ فقال (**أَنْ يَرَى الرَّأْيَ بِخِلاَفِ الْحَقِّ فَيُقِيْمُ عَلَيْهِ**) ثم تلا قوله (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) المائدة/٥ (والذي يكفر بالإيمان الذي لا يعمل بما أمر الله به ولا يرضى به) وسائل الشيعة٢٧ص٦٠.

٣٣ – ٣٥-﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ، وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾

ثم ينكشف المشهد الجمالي عن تصوير جزاء من آمن وصدّق بالقرآن الكريم وتسابق في عمل الخيرات، وتشرّف في حمل القرآن وحفظه واستنطاقه وتبليغه، هؤلاء الذين لم يصرّوا على فعل السيئات، وحرصوا على تجنّب كبائر الذنوب بقدر المستطاع، وكانت حسناتهم أرجح وأكثر بكثير من سيئاتهم، وهذا تفسير للفضل الكبير مَنَّ الله به عليهم، بقوله (ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) فاطر/٣٢ **كأنه قيل:** ما ذلك الفضل الكبير الذي يُرغّب الله به عباده؟ فقال: إنه نعيم مادي ملموس، ونعيم معنوي محسوس متنوّع غير محدود الذي يلبي رغائب النفوس، **ومن الملفت للنظر:** لما ذكرهم في الاصطفاء (**اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا**) ذكرهم أصنافاً ثلاثة متفاوتة بحسب الترتيب والصفات والدرجات، ولما ذكر حديث الجنة والتنعّم والتزيّن فيها، ذكّرهم على

صيغة الجمع من دون فرز! جزاؤهم (**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا**) بساتين استقرار وإقامة دائمة ونعيم متنوّع وخلود أبدي كقوله (**لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا**) الفرقان/١٦، وإنما جمع (**جَنَّاتُ**) وأطلقها لأنها جنات درجات متفاضلات، ومنازل متفاوتات بعضها فوق بعض، مملوءة بالعجائب والبشارات والمفاجآت والمخبّآت، وليست جنة واحدة كقوله (**انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا**) الإسراء/٢١.

عن الإمام زين العابدين (ع) (وَجَعَلَ دَرَجَاتُهْا عَلَى قَدْرِ آياتِ الْقُرْآنِ، فَمَنْ قَرأَ الْقُرْآنَ قال لهُ: إقرأ وَارْقَ) البحار٨/١٣٣.

أنواع الجنات: جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، وجنة المأوى، ودار المقامة، وجنة الخلد، وجنة السّلام، وجنة عليين، وفي كل جنة مراتب ودرجات بحسب مراتب العاملين (**يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا**) **يُحَلَّوْنَ:** يزيّنون فيها بأساور من ذهب خالص مرصّعة باللّؤلؤ، فيكون الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء، لتجتمع عليهم اللّذة الجسدية المادية إلى جانب اللّذة المعنوية الروحية (**وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**) وهو من أحسن الألبسة وأفضلها في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وتكون فرشهم وأغطيتهم من حرير أيضاً كقوله (**يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ**) الدخان/٥٣، فهو حرير لا كحرير الدنيا وإنما يشترك معه بالإسم، عن ابن عباس (لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمّا فِي الآخِرَةِ إلاّ الأَسْمَاءُ) المراغي١٣٥/٣٠، ٣٤-

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)

بعد أن استقروا في جنات عدن وكملت نعمتهم واطمأنوا من عذاب جهنم، حمدوا الله وأثنوا وشكروا على تخلّصهم من (**الْحَزَنَ**) بكافة معانيه الواسعة وبكل مواقعه وأسبابه، **الحَزَنَ:** هو الخوف من محذور يقع في المستقبل، وبهذا الحمد الخالص يستفتحون دخول الجنة، فهم يحمدون الله على كل نعمة، ولا سيّما صرف عنا الغم (**الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**) الحَزَنَ الذي يقابله السرور والاستقرار، أي (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) الذي أذهب عنا هَمَّ الدنيا الذي كنا نعاني منه، وَهَمَّ البرزخ، وَهَمَّ الفزع الأكبر في يوم المحشر (**الْحَزَنَ**) يعم في معناه ومبناه ودلالته كل ما يُكَدِّر صفو الإنسان من خوف ومرض وَهَم وفقر وشدائد... فلا يعرض حزن لهم لأي سبب وطارئ يطرأ عليهم، بل يعيشون دائماً حياة اطمئنان القلب وانشراح الصدر وراحة النفس، **وذهاب الحَزَنَ** من أكبر النعم التي تحتاج إلى حمد وشكر حتى تستمر (وبالشكر تدوم النعم) وفي الحديث (**لَيْسَ عَلَى أَهْلِ لا إِلَه إِلاَّ الله** (أهل التوحيد الخالص) **وَحْشَةٌ عِنْدَ الْمَوْتِ وَلاَ فِي الْقَبْرِ وَلاَ فِي الحَشْرِ وَكَأَنِّي بِأَهْلِ لا إِلَه إِلاَّ الله قَدْ خَرَجُوُا مِنْ قُبُورهِمْ يَنْفُضُونَ رُؤُوسهم مِنْ**

التُّراب وَيَقُولُونَ (الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنِ) المراغي٢٢/١٣١(**إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ**)) إن ربنا واسع المغفرة لزلاتنا وتقصيرنا.

(شَكُورٌ)

لطاعاتنا ويحسن لنا ويقبل الحسنات منّا ويضاعفها ويعطينا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا، وبشكره وفضله سبحانه حصل لهم كل مرغوب ومحبوب، وبمغفرته خلّصهم من كل مكروه ومرهوب ومذموم. وبشكر الله لنا وهبنا المواهب المتنوعة وأعطانا الخيرات والاختصاصات المتعددة، وعلمنا العلوم المختلفة كقوله (**وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**) البقرة/١٥١، ٣٥- (**الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ**) من فضلِ الله سبحانه هو (**الَّذِي أَحَلَّنَا**) أي أنزلنا (**دَارَ الْمُقَامَةِ**) دار الإقامة الدائمة والآمنة المستقرة (**مِنْ فَضْلِهِ**) من إنعامه وتفضله ورحمته وإحسانه وكرمه لا نتحوّل عنها أبداً، من غير استحقاق منا على الله تعالى، يعطيه من هو مؤهّل له، وإنما سميت الجنة (**دَارَ الْمُقَامَةِ**) لأنها دار المكافأة والتكريم والجزاء والإقامة، يمكثون فيها ويخلدون ويستقرون ولا يخرجون منها، ويرغبون العيش فيها (ولاَ عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ) لتكاملها مادياً ومعنوياً وفي شكلها ومضمونها (**لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ**) لا يصيبنا في هذه الدار النعيم (**نَصَبٌ**) عناء وَمَشَقّةٌ ووجع ومرض وتعب جسماني (**وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ**) لا يمسّنا مجرد مساس ناعم، أي ولا يصيبنا فيها أي شيء من (**لُغُوبٌ**) المعاناة النفسية، أي التعب النفسي الناشئ من تعب الجسم، **لغوب:** كَلَلٌ وَمَلَلٌ وضجر وضعف وعجز وقلق وفتور نفسي وتعب روحي، ولا يمسّنا فيها ألم ولا أذى ولا هم ولا غم، بل يجمع الله لنا في الجنة، النعيم بأنواعه المادي والمعنوي، لأنهم في كل آن في نعمة جديدة وجمال خَلّاب متجدد أخاذ مملوء بالمفاجآت والمخبّآت، كقوله (**لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ**) ق/٣٥، وتكرار (**وَلَا يَمَسُّنَا**) للدلالة أن السرور والسعادة النفسية في الجنة أمر حتمي ودائم. **فائدة:** ١- **سؤال:** الذهب والحرير محرّمان على الرجال في الدنيا لسبب معين، فعوّضهم الله عن التنعّم به في الجنة، وهذا يدل أن المعاد إلى يوم القيامة جسماني (روح وجسد)، ٢- **الفرق بين النصب واللغوب:** إن الـ(**نَصَبٌ**) نفس التعب والمشقّة والكلفة الجسدية والإرهاق الـ (**لُغُوبٌ**) ما يحدث من خلال النصب والتعب النفسي من فتور للجوارح. ٣- أن نشكر الله هذه من صفات الصالحين كقوله (وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ) آل عمران/١٤٥، ولكن كيف يشكرنا الله؟ (**شَكُورٌ**) مبالغة الشكر لعباده المؤمنين لثباتهم على طاعة الله في جميع الأحوال، وقبول أعمالهم، ويعني (**شَكُورٌ**) إنعامه على عباده فتحيط بهم رحمته، فينعم عليهم بالهداية والتسديد ويحسن عاقبتهم، **عن النبي (ص)** (خير الأمور خيرها عاقبةً) البحار٧١/٣٦٣، **من دعاء الإمام**

الحسين (ع) في يوم عرفة (إلهي: أُطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتّى أَصِلَ إِلَيْكَ، وَاجْذِبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أُقْبِلَ عَلَيْكَ)

٣٦ -﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾

لما ذكر الله تعالى حال الأبرار السعداء ونعيمهم، ذكر الفجار الأشقياء وعذابهم، الكفّار الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله وستروا الحقائق وأنكروا لقاء ربهم، وأفسدوا في البلاد والعباد وهي أكبر الكبائر وأقبح القبائح، **المعنى**: (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ**) فهي معدّة لهم في الآخرة يعذّبون فيها أليم العذاب وشدته وطول البقاء ومدته، فكلما بقوا وأصرّوا على الكفر، كذلك بقوا في العذاب بين الموت والحياة، ليكون الجزاء من جنس العمل (**لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا**) لا يحكم عليهم بالموت فيموتوا ويستريحوا من شدائد العذاب كقوله (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ) النساء/٥٦ (**وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا**) من شيء لا فترة استراحة ولا سبب يوجب التخفيف، بل هم في عذاب دائم مستمر لا ينقطع، لأن كفرهم دائم مستمر، فتكون العقوبة من جنس العمل، والنتائج كالمقدمات كقوله (**كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا**) الإسراء/٩٧ (**كَذَلِكَ**) أي مثل ذلك العذاب الشديد الفظيع (**نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ**) كذلك نجزي ونعاقب (**كُلَّ كَفُورٍ**) كل جاحد شديد الكفران والنكران لله وكثير العصيان ومصر عليه ويدعو إليه وال(**كَفُورٍ**) الذي يغطّي على كل حسنة، فهو يُسيء إلى نفسه وإلى الناس وإلى ربه وإلى الحياة كلها، جزاء وفاقاً لجرمه وجريرته كقوله (**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ**) الزخرف/٧٧. **إذن**: هناك درجة الكفر، ودرجة مبالغة الكفر وهي (**كَفُورٍ**) الذي يتفجّر كفراً وظلماً وإلحاداً كقوله (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ) النحل/١٠٦، إنهم أغلقوا على أنفسهم أبواب رحمة الله في الدنيا، فإن الله يغلق عليهم أبواب النجاة في الآخرة.

٣٧ -﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾

إنه مشهد مثير من مشاهد يوم القيامة، مشهد يُصوّر غرقهم في ندم شديد فيصرخون بصوت غليظ موحش عالٍ، إنه صوت المنبوذين الذين لا وزن لهم ولا قيمة عند الله كقوله (**فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**) الكهف/١٠٥، يستغيثون فلا يغاثون، ولسان حالهم يقول: إنا كنا غافلين عن هذا المصير الأسود كقوله (**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**) التكاثر/١-٢ (**وَالّذِيْ لاَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِيْ، لاَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ**) لذلك أعلم الناس بالزمان الذي لا يتعجّب من أحداثه، وأعلم الناس بالدنيا الذي يأخذ منها بقدر الحاجة

إليها، وأعلم الناس بالآخرة الذي يؤمن بها فيعد لها عدتها المناسبة، وأخسر الناس الذين لا يفكرون بالخاتمة وهم الذين تعنيهم الآية، عن النبي (ص) (**الْخَاسِرُ مَنْ غَفَلَ عِنْ إِصْلاَحِ الْمَعَادِ**) تنبيه الخواطر ص٣٥٩، **المعنى:** (**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا**) وهم يصرخون ويصيحون ويستغيثون في جهنم بأعلى أصواتهم ولا مغيث ولا معين قائلين (**رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا**) ربنا أخرجنا وخلّصنا من عذاب جهنم وردّنا إلى الدنيا نؤمن ونعمل صالحاً ترضاه، وقبول الأعمال الصالحة مبني على الإيمان، إنه اعتراف بالذنب وندم عليه ولكن بعد فوات الأوان (**غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**) فيقال لهم: كلا، ونسمع الرد الحاسم عليهم يحمل التأنيب القاسي مع التوبيخ لهم كقوله (**اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**) المؤمنون/١٠٨، وقوله (**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**) الأنعام/٢٨.

(**أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ**) الاستفهام للإنكار والنفي والتوبيخ والتقريع، أي أو لم نمهلكم في الدنيا عمراً مديداً وهو رأس مالكم، يكفي لأن يتذكر فيه من يريد أن يتذكّر ويتفكّر وينظر في أمر دينه وعواقب حاله، **في غرر الحكم** (**لِسانُ الحَاْلِ أَصْدَقُ مِنْ لِسانِ المَقَاْل**) وأدْرَرْناْ عليكم الأرزاق والنعم أمداً طويلاً وتابعنا عليكم الآيات، فماذا صنعتم في هذه المدة التي عشتموها؟ وما لكم تطالبون عمراً آخر؟ فلم ينجع فيكم إنذار ولم تنفعكم موعظة، وأخّرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت أعماركم ورحلتم عن دار الدنيا، ورأيتم الحساب والعقاب عندئذ سألتم الرجعة، هيهات هيهات لما تريدون.

(**وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ**) زيادة في التنبيه والتحذير، وهو الرسول محمّد (ص) بسنته وسيرته وبالقرآن أو (**النَّذِيرُ**) العقل لأنه رسول باطني، والشيب أو موت الأهل والأقارب، فأنذركم هذا العذاب ومع ذلك لم تتعضوا ولم تتذكّروا ولم تحذروا ولم تؤمنوا، فأمهلكم الله وسوفتم كقوله (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ**) الأنعام/٤٢ فلا عذر لكم (**فَذُوقُوا**) العذاب وحسرة الندم وما كنتم تكسبون وبه تكفرون ومنه تضحكون (**فَذُوقُوا**) طعم العذاب الدائم كما كنتم تستذوقون طعم الكفر الراسخ في نفوسكم (**فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ**) من ناصر ولا معين ولا شفيع يدفع عنكم عذاب الله الشديد، هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بسوء اختيارهم، **فَمَاْ الْفَاْئِدَةُ أَنْ أَرْبَحَ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَخْسَرَ أَهَمَّ شَيْءٍ، وَهيَ نَفْسِيْ ؟!** وفيه إشارة على أنهم كانوا في الدنيا نائمين عن مصيرهم في الآخرة، فإذا ماتوا انتبهوا! في نهج البلاغة (**الْعُمْرُ الَّذِي أَعْذَرَ اللهُ فِيهِ إِلَى ابْنِ آدَمَ سِتُّونَ سَنَة**) وهذا العمر يعتبر إنذاراً وتذكيراً وترشيداً للإنسان (الأمثل ١٤ص٩٣) فإذا لم يغلب خيره شرّه في كبر سنّه فلا أمل في إيمانه. قال (**فَمَا لِلظَّالِمِينَ**) ولم يقل (فما لكم) لتسجيل الظلم عليهم بقوله (**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) البقرة/٢٥٤، وأنهم بكفرهم وظلمهم لأنفسهم ولغيرهم ليس لهم (**مِنْ نَصِيرٍ**) أصلاً لا من الله ولا

من العباد، والسياق القرآني (**وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ .... مِنْ نَصِيرٍ**) وهو من المحسنات البديعية البليغة الجميلة ذات النغم المؤثّر في المشاعر.

٣٨ –﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

إن الله عالم بالسرائر والضمائر، وما يغيب في الأرض والسماء عن الأبصار والبصائر، ويعلم بكل شيء، وكيف يخفى عليه شيء هو خلقه؟ كقوله (**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**) غافر/١٩، ويجازي كل إنسان بما عمل، إنه العلم الإحصائي الشامل الدقيق العميق، أنسب تعقيب في إلقاء الحجة على الذين كفروا، مما يوحي بالرقابة الدقيقة على كل شؤون الحياة والأحياء كقوله (**وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ**) البقرة/٢٨٤، **المعنى** (**إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) علم شامل يختص بالله ولكنه غاب عن العباد وخفي عليهم، فاتّقوه حقّ تقاته أن يطّلع عليكم وأنتم تعصونه وتتجاوزون حدوده وتضمرون الكيد للإسلام والمسلمين، والله لكم بالمرصاد (**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**) وأيضاً إنه عليم بما يخفى من سرائر وما يدور في الصدور أي القلوب والضمائر كافة من مضمرات، وهو يعاملكم بما في باطنكم من اعتقادات وآثار الأعمال ودوافعها، فكيف لا يعلم أعمالكم الظاهرة المكشوفة؟ ويعلم من الكافر المعاند أنه تمكّن الكفر من قلبه كقوله (**مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ**) النحل/١٠٦، ويحاسبه عليه في مقتضى علمه وحجته يقضي، وبحكمته يدبّر ويقدّر ويمضي.

كقوله (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) الرعد/٣٣.

٣٩ –﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾

(**هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ**) هو الله سبحانه الذي جعلكم – أيها الناس كافة – لتكريمه لكم وإحسانه إليكم (**خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ**) خلفاء لله وممثلين عنه في أرضه كقوله (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**) البقرة/٣٠، والخليفة والخلافة بمعنى النيابة عن الله لتشريف المستخلف، وأنه بهذه الخلافة المشرفة يخلف بعضكم بعضاً، وتتابع الأجيال في الأرض، وذهاب جيل ومجيء جيل جديد ووراثة هذا لذاك، وانتهاء دولة وحكم وقيام أخرى وحكم آخر في التصرف في الأرض والتسلّط عليها، وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا لتشكروه وتطيعوه وتلتزموا بمنهجه، فعليكم أن تتفكروا ماذا تعملون؟ كقوله (**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**) الجاثية/١٥، **وفي ذلك إشارة:** إلى أن كل إنسان خليفة الله في أرضه من الأفاضل والأراذل، فالأفاضل أكرموا أنفسهم وقدّروا الخلافة والكرامة واستقاموا على منهج الله فكانوا قدوة وقيادة ومثلاً نحو الخير، في غرر الحكم (**مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ ، لَمْ**

يُهِنّهَا بِالْمَعْصِيَةِ) أما الأراذل لم يقدّروا كرامة أنفسهم وتجاوزوا حدود الله وأخلّو بالخلافة وارتكبوا أنواع الرذائل وأفسدوا في البلاد والعباد، فمن لا تنفعه الفضائل فتحيط به الرذائل، ويعود وبالها عليه دون غيره، عن الإمام علي الهادي (ع) **(مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فَلاَ تَأْمَنُ شَرَّه)** تحف العقول ص٣٥٨، إن التفكير بسنة الاستخلاف في الأرض المنظّمة والمستمرة جديرة أن تكون عبرة ودرساً بليغاً للناس **وهذه العبرة تقول:** أن كل شيء يمضي وينتهي ويزول، والله وحده هو الباقي الدائم الذي لا يزول كقوله **(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)** آل عمران/١٤٠ (وَدَوامُ الْحَالِ مِنْ الُمحَال) وآية الاستخلاف بيان على توحيد الله في خلقه وحكمه وتدبيره، وبيان على توحيد الربوبية وتوحيد العبادة لله عز وجل **(فَمَنْ كَفَرَ)** منكم بنعمة الخلافة وستر وأهمل هذه الحقيقة المهمة، وخرج عن نظام استخلاف الله إياه وكفر به واتّبع هواه ونسب الربوبية لغير الله تعالى.

(فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) فعليه جزاء ووبال وعقاب كفره ولا يضر بذلك الكفر إلاّ نفسه، وسيلقي الجزاء الذي يستحقّه ولا يحمل عنه أحد **(وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا) مقتاً:** بغضاً شديداً، وطرداً من رعاية الله وبعداً عن هدايته ورحمته كقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) الحشر/١٩، **ومقت الله لعبده خسارة كبرى،** خسارة معنوية في ذاته وفي نفسه وفي عاقبته، خسارة أكبر من كل خسارة، وأية عقوبة معنوية أعظم من مقت الرب الكريم على العبد الجاهل الكافر الّلئيم؟! وكيف لا يمقت الله عز وجل عباده الذين أنعم عليهم فتمّردوا عليه، ورزقهم فكفروا به، وهداهم فجحدوا وأشركوا به، واستخلفهم في أرضه فخلعوا هذه الخلافة، فأي نكران للجميل هو هذا النكران **(وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا)** إلاّ خسارة في ضياع العمر الذي هو رأس المال، فإذا انقضى العمر في غير طاعة الله فقد خسره أشد الخسران وأصابه أكبر الحرمان كقوله:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) الزمر/١٥ عن السيد المسيح (ع) **(مَاذَا يَنْفَعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبَحَ الْعَالَمَ كُلَهَ وَخَسَرَ نَفْسَهُ؟!)** عن النبي (ص) **(الْخَاسِرُ مَنْ غَفَلَ عِنْ إِصْلاَحِ الْمَعَادِ)** تنبيه الخواطر ص٣٥٩، **في نهج البلاغة كتاب٣١** (مِنْ الفَسَادِ إضاعةِ الزّادِ، وَمَفْسَدَةُ المَعَادِ) وتكرير **(وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ)** للتنبيه أن الكافرين بكل من الأمرين القبيحين عند الله وعند أنفسهم لهم البغض الشديد والخسران الأكيد في عاقبة أمرهم، لأنهم يحملون في أنفسهم داء الكفر المنغّص للعيش والمُكَرّه للأيام، الداء الخبيث الذي يمتص منهم ماء الحياة الصافية المطمئنة، ويعوضهم عنها داء الكآبة والعذاب النفسي المستمر كقوله **(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)** الجن/١٧ وقوله **(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)** الشعراء/٢١٣، وجاء تكرير **(يَزِيدُ)** بالمضارع المستمر لبيان حقيقة مهمة تبيّن خطورة سوء العاقبة، والأمور بالخواتيم، وأخسر الناس الذي لا ينظر للعواقب، والتكرار يُعلّم الشطّار، إن الإنسان مَيّال بطبعه إلى الزيادة في كل شيء، فإن سار في طريق الإيمان فسيزداد

إيماناً كقوله (**وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى**) مريم/٧٦، وإن سار في طريق الكفر فسوف يزداد كفراً وخسارةً كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ) النساء/١٣٧، **فائدة**: (**فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ**) أن كل أمر تعتمده وتتبعه لابد أن يكون لك دليل علمي وعقلي ونقلي رشيد وواضح، وإلاّ تبقى تبحث عن الحقيقة وتحقق وتدرس حتى تصل إلى درجة القطع والاطمئنان، **عن الإمام علي** (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللهِ وَصَلَ إليهِ) البحار ٧١ص٩٥.

ومن بحث عن الله وجده، ومن أراد الله قربه الله إليه.

٤٠ – ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾

وَبَّخ الله تعالى المشركين في عبادتهم الأوثان التي لا تسمع ولا تنفع، والذي لا ينفعه الرحمن فسوف يضرّه الشيطان، وتتلقفه السبل الضالة المتعددة، فكيف تعبدون من دون الله من الآلهة المتنوعة والمتجدّدة، وأنتم تعلمون أنها عاجزة عن خلق ذبابة أو دونها؟! **المعنى**: احتج سبحانه في هذه الآية على المشركين بأمور ثلاثة (**قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**) قل يا مُحَّد لهؤلاء المشركين (**أَرَأَيْتُمْ**) أي أخبروني (**شُرَكَاءَكُمُ**) الأوثان أو غيرهم (**الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ**) (**مِنْ دُونِ اللَّهِ**) على إطلاق معناه، وهو كل ما يُعبد ويطاع ويدعى من دون الله كالأوثان الحجرية أو الأصنام البشرية أو العقائد الفاسدة المتحجرة، والفكر التسطيحي المغالي والخرافي (**مِنْ دُونِ اللَّهِ**) من حبّ المال والعقار والنساء والتولّع فيها، ١- (**أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ**) الاستفهام إنكاري للتوبيخ والنفي (**أَرُونِي**) أي أخبروني أي جزء خلقوا من الأرض، هل خلقوا بحراً أو حيواناً أو إنساناً، حتى لو صنعوا أية صناعة حديثة متطوّرة، فإن علمها وموادها الأولية من الله تعالى كقوله (وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) البقرة/١٥١ وقوله (**أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ**) الرعد/١٦.

٢- (**أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ**) أم لهم شراكة أو مشاركة أو نصيب مع الله تعالى في خلق السماوات وتدبيرها فاستحقّوا بذلك مشاركة في الإلوهية؟! فإذا لم يخلقوا شيئاً ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلِمَ عبدتموهم أي أطعتموهم مع إقراركم بعجزهم؟!، ٣- (**أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا**) منزلاً ظاهراً من السماء، ورسالة من عند الله تنطق بأن الأصنام شركاء لله في الإلوهية، فهم يستحقّون العبادة، والسؤال إنكاري للتوبيخ (**فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ**) فهم حينئذ على دليل وبرهان وحجة وبيان من كتابنا إليهم على صحة الشرك؟! كلا، ما يملكون من دليل على شركهم يعتمدون عليه، **إذن**: بأي شيء استحقّوا هذه العبادة؟! وإن كنتم توهّمتم فيها القدرة الغيبية فأروني أثرها؟ فما الذي حمل المشركين على الشرك وفيهم ذوو العقول والدهاء والفطنة؟! أجاب الله تعالى.

بقوله (**بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا**) بيان السبب إنما اتخذوهم آلهة بتضليل الرؤساء لأتباعهم المستضعفين بقولهم: أن الأصنام هي التي تقربكم إلى الله زلفى، وتشفع لكم غداً عند الله كقوله (**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**) الأنفال/٤٨، فعشعش الشرك في نفوسهم ورسخ في قلوبهم فتعسّر زواله وانفصاله، وهذه ما جنوه على أنفسهم، **في غرر الحكم** (والْمَرْءِ حَيْثُ يَضَعُ نَفْسَه) كقوله (**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) الزمر/٦٥ (**إِلَّا غُرُورًا**) إلاّ وهماً خادعاً لا حقيقة له، أنهم مخدوعون ومغرورون بأماني ظاهرها يسرّ ويغرّ ويمرّ وباطنها يضرّ، ويخدع بعضهم بعضاً، ويعيشون جيلاً بعد جيل في هذا الغرور والوهم والخيال الخادع والآمال الكاذبة، إنهم أخذوا هذه الخرافات والانحرافات وتداولوها بعضهم من بعض، وتلاقفوها على شكل عادات وتقاليد اجتماعية مألوفة بلا تدبّر ولا تفكّر!، كقوله (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ) النجم/٢٣، ظن الإنسان ميزان عقله، وعنوان أصله كقوله (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) يونس/٣٦.

٤١ –﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وجمال رحمته وجلال تدبيره وتقديره، بأن السماوات رفعت بنظام دقيق موزون كقوله (**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**) الرعد/٢، وتدور أفلاكها الكثيرة الضخمة وهي غير مقيدة بشيء، وليس لها محوّر تدور عليه، فلا يختل نظامها، وكذلك الأرض لها أنظمة الموازين المدبرة والمقادير المقدّرة، وليعلم الناس من عظيم ملك الله وقوة قدرته وإتقان صنعه ما به تمتلئ قلوبهم له عظمة وإعجاباً، إنها نظرة متفكرة عميقة إلى تلك الخلائق المنظّمة، جديرة بأن تفتح بصيرة القلب ومشاعر النفس أن تتأثر باليد المنظمة القادرة التي تمسك بهذه الخلائق الضخمة وتحفظ نظامها، من أن تزول أو تختل أو تخرج عن برنامجها الدقيق المنظّم، وليعلم الناس أيضاً كمال حلم الله ومغفرته بإمهال المذنبين.

المعنى: (**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**) إن الله (**يُمْسِكُ**) أي يحفظ ويحمي ويمنع بقدرته نظامي السماوات والأرض أن يخرجا عن مسارهما الدقيق الموزون الحكيم، وهكذا جميع المجرّات المختلفة تدور في مداراتها الخاصة بها ليس بأمكانها الخروج عنها (**أَنْ تَزُولَا**) لئلا تزولا وتضمحّلا وتخرجا عن موقعهما ونظامهما، والله تعالى بقوته الجبارة يمنعها من الزوال والاختلال ويمسكها من السقوط والاضطراب، ويديم بقاءهما بلا شريك معه ولا معين وبلا تعب ولا جهد! فهو سبحانه يمسك السماوات، من غير علاقة فوقها ولا أعمدة تحتها ترونها، وكذلك يحفظ نظام الأرض ومن عليها كقوله (**وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ**) الحج/٦٥ (**وَلَئِنْ زَالَتَا**) وأقسم، ولئن قدّر زوالهما عن مراكزهما أو أشرفتا على السقوط والزوال، من باب الافتراض (**إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ**) فما أحد بقادر أن يمسكهما ويحفظ

نظامهما من بعد حفظ الله سبحانه لهما، أو من بعد زوالهما وخرابهما، إنما هما قائمتان بقدرة الله الواحد القهار، فلا مفيض للوجود غيره، أما موعد نهاية هذا النظام فيكون في نهاية هذا العالم كقوله (**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**) إبراهيم/٤٨ (**إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا**) لا يعاجل بالعقوبة لمن تعدّ طوره ولم يعرف قدره، ويبقى طريق التوبة مفتوحاً (**غَفُورًا**) للذنوب، بل هو واسع المغفرة والرحمة لمن تاب منهم وأناب، إنّ الله سبحانه يمهل الناس حتى كأنه أهملهم، ويستر عليهم حتى كأنه غفر لهم، وينذرهم حتى كأنه أعذرهم!! ويدع لهم الفرصة للتوبة والاستعداد لمحاسبة نفوسهم، وهو تعقيب موحٍ ينبه الغافلين لاقتناص الفرصة قبل أن تذهب فلا تعود وتكون غصّة.

فائدة: يقول العلم الحديث إن إمساك الكواكب والسماوات والأرض بقانون الجاذبية، كما أمسك الطائر في جو السماء بجناحيه، وأسند الله تعالى الإمساك إليه لأنه خالق الكون ومنظمه ومسبب الأسباب. **روي:** (سُئل موسى (ع) أينامُ رَبُكَ؟ فأوحى الله إليه أنْ خُذْ قارورتين من زجاج فاملأهما ماءً وأمسكهما ففعل إلى أن نعس، فتغلّب عليه سلطان النعاس فنام، فسقطتا من يده فانكسرتا، فأوحى الله إلى موسى إني أمسك السماوات والأرض أن تزولا، لو نمت لزالتا) **كقوله (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)** البقرة/٢٥٥، الدر المنثور٧/٣٤.

٤٢ ـ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

سبب النزول: روي: أن زعماء قريش بلغهم قبل مبعث النبي (ص) أن أهل الكتاب وغيرهم كذبوا رسلهم، **فقالوا:** لعن الله اليهود والنصارى أتتهم رسُلُهم فكذّبوهم (**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**) حلفوا وبالغوا في الحلف، لئن أتانا رسول لنكونن (**أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ**) لنكونن أفضل من كل الأمم، وأكثر منها انقياداً لأنبيائها، فلما جاءهم النبي النذير (ص) بالقرآن الكريم، رفضوا وكذبوا وقاوموا ومكروا وتآمروا وازدادوا سوءاً بعد البشير النذير، فنزلت الآية تلومهم وَتُوَبِّخُهُمْ كقوله (**لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**) الصف/٢-٣.

المعنى (**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ**) جمع يمين أي حلفوا بأغلظ أيمانهم وأوكدها وبالغوا في الحلف (**لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ**) إنه لو جاءهم نذير أي رسول من الله مخوّف لهم من أهوال يوم القيامة (**لَيَكُونُنَّ أَهْدَى**) وأفضل وأسمع وأطوع له وأكثر انقياداً لأنبيائهم (**مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ**) من كل الأمم وخاصة من الأمم الماضية كاليهود والنصارى الذين أرسل الله إليهم الرسل، وكانوا ممن كذبوا رسلهم (**فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ**) وهو النبي مُحَمَّد (ص) الرحمة المهداة من ربهم يتلو عليهم آياته وهو أشرف المرسلين (**مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا**) ما زادهم مجيؤه إلاّ تباعداً عن الهدى، وإعراضاً عن الحق وبالغوا في حربه ومعارضته وإيذائه، فلم يفوا بتلك الأقسام المغلّظة والعهود المؤكدة،

ولكن في النهاية نصره الله عليهم واستسلموا لأمره أذلّاء صاغرين، وهنا يتبين الفرق الكبير بين الإدّعاء والحقيقة، وبين القول والعمل، والشكل والمضمون، والنظرية والتطبيق، وبين الإيمان والعمل الصالح، فصار الإيمان عمل كلّه والقول بعضه كقوله **(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)** الحجرات/١٤، عن النبي (ص) (لَيْسَ الإِيْمَانُ بَالْتّحَلّي وَلاَ بَالْتّمَني، وَلكِنْ الإِيمَانَ مَا خَلَصَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَتهُ الأَعْمَال) كنز العمال خبر١١، **فائدة:** في زمننا الحاضر من يقول: اللهم عَجّلْ على ظهور الإمام المهدي المنتظر (ع) ونخشى أن يكونوا من مصاديق هذه الآية، من الذين يقولون له (إذهَبْ يابنَ فَاطِمَة فَقَاتِل إنّا هَاْهُناْ قِاعِدُوْن)!.

٤٣ –﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

وليس قسمهم الغليظ المذكور في الآية السابقة لقصد حسن والطلب من أجل الحق وإلاّ لهداهم الله إليه، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الله الحق، من أجل المحافظة على امتيازاتهم الطبقية ومواقعهم الاجتماعية، وبهرجة في كلامهم فيغتر بهم المغترون، ويمشي خلفهم الجاهلون، وكشفهم القرآن وسَجّل عليهم هذا التقلّب والتذبذب هو الدافع الاستكباري، وإنه تهديد عام وسُنة فاعلة مؤثرة لكل من يسلك هذا المسلك المتلّون المنافق المتقلّب المزري.

المعنى: **(اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ)** قاوموا نبيّهم مُحَّد (ص) وتآمروا عليه بسبب استكبارهم عن اتّباع الحق، وعتوّهم وطغيانهم في الأرض، ومن أجل المكر السيء بالرسول (ص) وبالمؤمنين والكيد لهم، ليفتنوا ضعفاء الإيمان عن دين الله **(وَمَكْرَ السَّيِّئِ) بكافة أشكاله وألوانه وأوضاعه**، وهو الخديعة والكذب والتآمر والتخطيط بحيلة والتدبير بلؤم وخفاء، وهو أن تضمر الشرَّ لأخيك وأمّتك من حيث لا يشعرون **(وَمَكْرَ السَّيِّئِ)** أي المكر المذموم الذي يكون أمامه كل الخيارات القبيحة مفتوحة، ثم بَيّن أن عاقبة مكرهم السيّء عادت عليهم بالوبال بقوله **(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) (وَلَا يَحِيقُ)**:

ولا يحيط ويصيب وينزل **(وَمَكْرَ السَّيِّئِ)** الاحتيال والمكائد والتخطيط والمؤامرات الخَفّية السيَّئة **(إِلَّا بِأَهْلِهِ)** إلاّ بفاعله، وهو الماكر والمدبّر له، فعاد مكرهم في نحورهم، وردّ الله كيدهم في صدورهم **(يُدَبِّرُ الْمُدَبِّرُوْنَ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ)! في غرر الحكم** (مَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ، وَمَنْ حَفَرَ حُفْرَةً لأَخِيهِ وَقَعَ فِيْهاْ) والحقيقة الصحيحة النافعة النابعة من الحق والعقل والواقع لا تموت، وأنما تموت الخرافات والانحرافات والأكاذيب والغلو، ولذا نصر الله سبحانه عبده مُحَّداً

وأظهر دينه الحق على الشرك كلّه ولو كره المشركون. فلا يصيب الشر إلاّ أهله، كقوله (**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**) الشعراء/٢٢٧.

وقوله (**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ**) الأنفال/٣٦، عن النبي (ص) (**ثَلاثُ خِصَالٍ مَرْجِعُها عَلَى النَّاس في كتاب اللهِ عَزَّ وَجلَّ: المكْرُ، والبَغْيُ، والنَكْثُ**)، وقال (ص) (لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً فإن الله يقول (لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) ولا تبغوا ولا تعينوا باغياً فإن الله يقول (إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ) يونس/٢٣ بغيكم: ظلمكم واعتداؤكم، ولا تنكثوا ولا تعينوا ناكثاً فإن الله يقول (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) الفتح/١٠، نكث: نقض العهد والميثاق) كنز الدقائق٨/٣٦٩.

(**فَهَلْ يَنْظُرُونَ**) هذا الاستفهام بمعنى النفي، يعني لا ينتظرون إلاّ ما جرت به سنّة الله القاهرة وقانونه الفاعل في الأمم الماضية المكذّبة، فلم يبق لهم إلاّ الانتظار لقانون الله الفاعل الحاسم القاهر، إنه قضاء الله وقدره بهم، وفيه تهديد ووعيد لهم، بعبارة دقيقة المبنى عميقة المعنى واسعة الدلالة، إنه قانون الله المؤثّر الذي يدل على ثبات السنن التي غير قابلة للتغير أبداً (**إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ**) إلاّ سُنة الله وطريقته وقانونه في الأمم الماضية، القانون المرتبط بنظام السببية العام، **في غرر الحكم** (لِكُلِ شَيءٍ سَبَبٌ) والأسباب مرتبطة بمسبباتها، والمسببات مرتبطة بأسبابها كقوله (**وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، فَأَتْبَعَ سَبَبًا**) الكهف/٨٤، عن الإمام علي (ع) (**رَأْسُ العِلْمِ التَّوَاضُعَ .. وَعَقْلُهُ مَعْرِفَةِ أَسْبَابُ الأُمُورِ**) البحار٧٨ص٦، إنّ كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، أن تحلَّ به نقمة الله وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء فعل الله وقانونه وسننه الثابتة في المفسدين، ولو بعد حين (**فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**) ويقرر القرآن حقيقة ثبات السنن التي لن تتغيّر ولن تتبدّل ولن تتحوّل، إنها سنّة الله في خلقه، حتى لا يعيش الناس غافلين عن سننها الأصيلة المؤثرة، ويتجاوزوا في تصوراتهم الزمان والمكان المحصورين بهما (**تَبْدِيلًا**) **التبديل:** وضع شيء مكان آخر، كالتيمم مكان الغسل، بأن توضع العافية موضع العذاب، وهذا خلاف ماجرت به سُنة الله في الماضين (**لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا**) ولا يستطيع أحد أن يحوّل العذاب عنهم إلى غيرهم (**تَحْوِيلًا**) **التحويل:** تصيير الشيء في غير المكان الذي كان فيه (**والتغيير**) تصيير الشيء على خلاف ما كان، فهو تغيير شامل في الشكل والمضمون، والمكان والزمان اللذين كانا فيه.

فائدة: (**اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ**) ١- **من هو المستكبر؟** هو المتكبّر المغرور المتعالي المعجب بنفسه وفي قوله وفعله وفي شكله وماله وحاله وعلمه كقوله (**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا**) الأعراف/١٤٦، **وفي** نهج البلاغة **حكم ١٢٦** (وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالامْسِ نُطْفَةً، وَيَكُونُ غَداً جِيفَةً) وهو يحمل العذرة،

فلم يعرف قدره ويَتَعدَّ طوره. ٢- ثبات سُنن الله التي لا تتبدّل ولا تتحوّل، التي تدل أن دين الله واحد عند كل الأنبياء، وأن الشرائع العبادية السماوية وإن اختلفت صورها وأزمانها وكيفيتها وظروفها، فالغرض منها ثابت لا يختلف ولا يتبدّل ولا يتحوّل ولا يتغيّر، وهو تطهير النفس من عاداتها وتقاليدها السيئة.

كقوله (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**) الشمس/٩-١٠، ٣- لابد للباطل من مهلة وجولة حتى يزول ويظهر بطلانه، وأن الحقّ حيٌّ لا يموت وإن تعكّرت مسيرته مدة من الزمن، فلا بد للحق دولة مستقلة، ولابد أن ينتصر الحق على الباطل في نهاية الأمر كقوله (**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**) التوبة/٣٣ وهكذا يكشف الله عن حركة سُننه التأريخية الثابتة التي لا تتبدّل ولا تتحوّل، وهذا يدل أن الأمور تجري بتدبير الله وتقديره ونظامه ولا تجري جزافاً، وكل شيء يخضع لتخطيط، وللقضاء والقدر كقوله (**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ**) القمر/٥٢-٥٣، وهذه هي سُنة الله وطريقته في خلقه، فيحقّ الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين في نهاية التجربة ،كقوله (وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) غافر/٨٥ وقوله (أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) الأنبياء/١٠٥.

٤٤ - ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾

هذه الآية ترتبط بالتي قبلها، فسُنن الله ثابتة لا تتبدّل ولا تتحوّل، فسافروا في أرض الله الواسعة وشاهدوا آثار الماضين لعلكم تتذكّرون سيرتهم الظالمة، ممن دمّرهم الله بسُننه القاهرة الثابتة فلم تنفعهم قوتهم، والله فعّال لما يريد كقوله (**فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) الروم/٩، **المعنى** (**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**) الاستفهام للإنكار والنفي، أي أولم يسافروا هؤلاء الكافرون في الأرض، سفراً هادفاً ذا عبرة واتّعاظ، سفراً بالعقول والأفكار والقلوب والأبدان، سفراً بعين مفتوحة وقلب يقظ واعٍ، سفراً لاكتساب التجارب ومعرفة سُنن الحياة في آثار الأمم الماضية العاتية، لا لمجرد النظر والرفاهية والتجارة وترويح النفس التي تعتمد الغفلة والمشاهدة الجرداء الخالية من المواعظ والعبر (**فَيَنْظُرُوا**) وَيَطّلِعُوا بأعينهم (**كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**) كيف كانت نهاية الذين كفروا وكذبوا رسل الله من قبلهم؟ كيف أهلكناهم ودمّرنا مساكنهم وجعلناهم أحاديث فليعتبروا بهم؟!

(**وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً**) كان الماضون أشد من الباقين قوة وقدرة وسلطاناً، وعمروا أرضهم وديارهم أكثر مما عمّرها هؤلاء كقوله (**وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا**) الروم/٩، ومع ذلك لم تنفعهم قوتهم وحضارتهم من عذاب الله من شيء! (وَمَنْ لاَ يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ)، **في نهج البلاغة خطبة٨٦** (السَّعِيْدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ) (**وما كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ**

شَيْءٍ) **ليعجزه**: لا يعجز الله أي شيء أراده، ولا يفوته من شيء، لا يفوته المقيم ولا يعجزه الهارب، وكل شيء خاضع لقدرته سبحانه ومرتبط بسُنته **(فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)** والقوة القادرة القاهرة التي لا يغلبها شيء، ولا يفر منها شيء، ولا يعجزها شيء، وهي فعّالة في الماضي والحاضر كقوله **(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)** يس/٨٢ **(إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا)** لأنه سبحانه بالغ العلم والقدرة، عالم بشؤون الخلق على الإطلاق، فهو سبحانه لا يغفر ولا يجهل حتى ينخدع بمكر أو حيلة **(قَدِيرًا)** لأنه بالغ القدرة على كل شيء ولا يفوته شيء، وقادر على الانتقام من المجرمين في الماضي والحاضر كقوله **(وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ)** آل عمران/٤.

٤٥ -﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾

الآية الكريمة تُصوّر رعاية الله لعباده عامة، وتبين رحمته ولطفه وتربيته للبشر كافة، وأن رحمته سبقت غضبه، بأسلوب قرآني نموذجي فريد، وبصياغة بليغة ناعمة شفافة مؤثرة دقيقة ورقيقة، تدخل إلى المشاعر بلا استئذان، وكأنما هم تحت حماية الله وفي حصنه الحصين المنيع الأمين، ومن دخله كان آمناً كقوله **(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)** الأنعام/٥٤، وتُصوّر الآية حلم الله تعالى بعباده، وإرشادهم إلى الحلم، فإن الحلم من أخلاق الله، والحلم نظام النفس، وزينة السلوك واستقامة العمل كقوله **(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)** هود/٧٥، **عن النبي (ص)** (إنّ كل بَني آدَمَ خَطّاءٌ، وَخَيرُ **الخَطّائينَ التّوابُونَ)** الدر المنثور١/٢٦١، فإذا قابل الله كل ذنب بعقوبة مناسبة، فلم يبق حي أبداً يدب ويمشي على الأرض، ولكن الله يعامل عباده بفضله ورحمته وإمهاله ولا يعاملهم بعدله وما يستحقّونه، فلا يعاجل عباده العصاة بالعقاب، **(وإنّما يَعْجَلُ مَنْ يَخَافُ الفَوْت، وَيَحْتاجُ إلى الظُلْمِ الضَّعيْف)** وقد تعالى الله سبحانه عن الظلم عُلّواً كبيراً، ويفسح لهم فرصة كافية لعلّهم يحسنون صنعاً، **المعنى**: **(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ)** في الدنيا **(بِمَا كَسَبُوا)** من أنواع الذنوب، ومن كفر بنعمة الله ومن فساد وظلم واعتداء في البلاد والعباد.. إلخ لو يؤاخذ الله الناس به مؤاخذة سريعة، ماذا يمنعه أن يؤاخذهم بما كسبوا؟ **فأجاب**: إنه لو يؤاخذهم بسرعة بجميع ذنوبهم صغيرها وكبيرها **(مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ)** والتعبير القرآني على هذا النحو الشامل يبرزُ شناعة ما يفسده بعض الناس وبشاعته وأثره المفسد للحياة والأحياء، ما ترك على ظهر الأرض.

(مِنْ دَابَّةٍ) تدب أي تمشي على الأرض وتتحرك من إنسان أو حيوان وغير ذلك، يعني تدمر الحياة والأحياء والكائنات، فإن مصير الدّواب متّصل بمصير الإنسان لأنها خُلقت من أجله، فإذا ذهب الإنسان انتفى مبرر وجودها كقوله **(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)** النحل/٦١ ولكن هذا الحلم الإلهي والإمهال لعباده ليس ممدوداً ولكن له حدوداً، وله حسابات خاصة مقدّرة ومدبّرة كقوله (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

يَسْتَقْدِمُونَ) النحل/٦١ (**وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**) ولكن الله تعالى من رحمته بعباده وحلمه بهم وتربيته لهم يمهلهم ويؤخّر عقابهم إلى أجل معلوم معيّن عند الله تعالى لا يتجاوزونه، يؤخّرهم أفراداً إلى الموت المقسوم والأجل المحتوم وهو يوم القيامة، فهو يمهلهم ولا يهملهم فلا يعجّل لهم العذاب، والعقوبة عند الله ليست للتشفّي والانتقام الذاتي كما هو الحال لدى البشر المتشفّي؛ لأن الله رحيم بعباده، غني في ذاته، وغني عن غيره، ولكن عندما ينتقم ويؤاخذ الناس بجرائمهم، إنّ أخذه أليم شديد.

كقوله (**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**) هود/١٠٢ (**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ**) فإذا جاء موعد عقوبتهم المحتوم، هذا جواب (**إِذَا**) محذوف وتقديره: يجازى كل واحد بما عمل إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر (**فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا**) لأنه بصير بهم عليم بأحوالهم وبأعمالهم، فيجازيهم على كل ما عملوه، لا تفلت من حسابه ذرة من خير أو شر كقوله (**وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**) الكهف/٤٩ وفي الآية وعيد لعذاب المجرمين، ووعد لثواب الصالحين.

فائدة: ١- الآية دليل على عقوق الإنسان لخالقه وتجاوز حدوده، إنه يأكل من رزق الله ويعبد غيره، ويحارب منهجه ويكفر بوجوده، وهذا وحده كافٍ للعقاب والمؤاخذة، ولكن كل (لكل) شيء عند الله مدة وأجل مسمى كقوله (**وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا**) الكهف/٥٩، ٢- **روي:** قوله (**وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ**) التكوير/٥، تحشر الوحوش يوم القيامة للحساب، فيقتص بعضها من بعض، حتى أنه يقتص للشاة الجمّاء من الشاة القرناء! **وروي:** تحشر جميع المخلوقات للحساب، فيكونون خصماء للمعتدين عليهم، حتى الدواب والوحوش والطيور كقوله (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً) الأنفال/٢٥، وفي نهج البلاغة (**الْحَذَرَ الْحَذَرَ! فَوَاللهِ لَقَدْ سَتَرَ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ**) وأنه قد أمهل حتى كأنه أهمل، وأنه أنذر حتى كأنه أعذر، كقوله (**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**) آل عمران/٢٨.

وقبل الختام نقول: بدأت السورة المباركة بالحمد (**الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) وانتهت بحلم الله الواسع على عباده وإمهاله لهم فلا يعاجلهم بالعقوبة على تجاوزاتهم، فللّه الحمد والمنّة على حسن صنيعه بعباده.

وفي الختام نقول: قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ) السجدة/٢٢

تمَّ بعون الله (وَعْيُ الْقُرْآنِ الْمُيَسَّر) لسورة فاطر/ الملائكة، بقدري لا بقدرها، بجهد متواصل فلله الحمد والمنّة، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات، بتاريخ ١٦/٥/ ٢٠١٩م الموافق ١٦/ جمادي الاولى/ ١٤٤٠هـ، في العراق، الكاظمية، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السّور القرآنية الكريمة إنه سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث القرآني: مكي قاسم البغدادي

ترتيبها ٣٦ — سُورَةُ يسٓ — آياتها ٨٣

من مقاصد السورة:

مكية، تناولت مواضيع أساسية ثلاثة وهي: الإيمان بالبعث والنشور، وقصة أهل القرية، والأدلة على وحدانية رب العالمين، ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي وصدق رسالة مُحَمَّد (ص) ثم تَحَدّثت عن كفار قريش ثم ذكرت قصة أهل القرية **(انطاكيا)** بالشام الذين كذبوا الرسل، وتُحذّر من عاقبة التكذيب بالرسالة والرسول. وذكرت موقف الداعية المؤمن **(حبيب النّجار)** الذي نصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة، ولم يمهل المجرمين. وتحدثت السورة عن دلائل قدرة الله في هذا الكون العجيب، بدءاً من مشهد الأرض كيف تدب فيها الحياة، ومشهد اللّيل ينسلخ منه النهار، **ومشهد الشمس التي تدور في فلكها والقمر يتدرج في منازله**، ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين، الدالة على قدرة الله تعالى. وتحدّثت عن القيامة وأهوالها، وعن أهل الجنة وأهل النار، والتفريق بين المؤمنين السعداء والمجرمين التعساء، وختمت السورة عن البعث والجزاء والبراهين على حدوثه. **وسُميت بسورة يس**، لأن الله تعالى افتتح السورة بها، وهي موقظة من الغفلة، وأيضاً تسمّى **(قَلْبُ القُرآنِ)**، وسورة الرافعة، القاضية، حبيب النجار، **فضلها:** عن النبي (ص) **(إنّ لِكُلِّ شَيْء قَلْباً وَقَلْبُ القُرْآنِ يس)** مجمع البيان٤/٤١٣ **(قَلْبُ القُرْآنِ)** أي أصلُهُ وَلُبّهُ وخلاصته، وسورة ياسين خلاصة مقاصد القرآن، لأنها تقرير لأصول الدين في (التوحيد والنبوة والمعاد) ثم قال (ص) **(وددّت أنها في قلب كل إنسان من أمّتي)** وعنه (ص) **(اقرأوا سورة يس على موتاكم)** روح البيان٧/٤٤٢، سورة يس عظيمة المحتوى، تضخ في النفس الإيمان وتولّد روح المسؤولية وتحث على ذكر الله والعمل الصالح، وتدعو إلى التقوى وتحذّر من عبادة الشيطان. **ملاحظة:** هذا الفضل بشرطه وشروطه، والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

١ – ﴿ يس﴾

تقرأ (يا ، سين) مثل (حم)، وهي من الآيات المتشابهة، عن الإمام علي (ع) **(إنّ كَلِمَة يس اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيّ مُحَمَّد (ص))** نور الثقلين٤/٣٧٥، **ومعنى يس:** يا أيها السامع للوحي، أو **(يس)** من الأحرف المقطعة التي قيل إنها إشارة إلى إعجاز القرآن، حيث إنه مؤلف من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها الناس، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه أو بسورة قصيرة في الفصاحة والبلاغة والعلوم الدقيقة والنظم والبديع المعجز، آية على كونه من

عند الله كقوله (**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**) النساء/٨٢، **فائدة:** ١- **سبب النزول:** عن ابن عباس: إنّ قريشاً اجتمعت فقالت: لئن دخل مُحّمد الكعبة لَنقومَنّ إليه قيام رجل واحد فنقتله، فجعل الله (**مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**) فلم يروه، فصلى النبي (ص) ثم أتاهم فجعل ينثر التراب على رؤوسهم وهم لا يرونه، وهو (ص) محفوظ بحفظ الله كقوله (فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) يوسف/٦٤، فلما فارقهم رأوا التراب، قالوا هذا ما سحركم به **مُحّمد!**، ٢- أما قوله (**سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ**) الصافات/١٣٠، إلياسين وإلياس، لغتان في اسم واحد، أو هما اسمان مثل طور سينين وطور سيناء، أو جمع له يراد هو ومن تبعه، وقُرئ (**آلِ يَاسِينَ**) أي آل مُحَّمد، كما جاء في عدة مصادر منها الدر المنثور للسيوطي، عن ابن عباس.

٢ – ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾

الواو للقسم، أقسم الله تعالى **بـ** (**الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ**) بالقرآن المحكم بكل ما فيه لبيان أهمية القسم وتكريم وتشريف له وللمقسم به، القرآن مملوء بالحكمة والعصمة عن الخطأ، والعلوم العالية والمعارف السّامية، في غرر الحكم (**لا حِكْمَة إلاّ بِعصْمّة**) ووصف القرآن بـ(**الْحَكِيمِ**) للدلالة على شرف القرآن وعظمته، ومن أقوى الأدلة على صدق مُحّمد (ص) الرسول الأمي في دعوته (**وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ**) يصف القرآن نفسه بالحكيم في ذاته ويربّي غيره بالحكمة كقوله (**أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ**) هود/١، **أحكمت:** أتقنت آياته ونظّمت بإحكام بليغ بديع لا خلل فيه ولا اختلاف ولا تعارض ولا تناقض كقوله (**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ**) فصلت/٤٢ (**وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ**) القرآن دستور حياة الإنسان على الكرة الأرضية، الدستور المتكامل الحق الثابت المتقن في تشريعه وأحكامه، الذي بلغ أعلى درجات البلاغة، **والحكمة:** وضع كل شيء موضعه، **والحكيم** الذي ينفع في كل زمان ومكان ولكل إنسان، الذي لا يلحقه تغيير ولا تبديل ولا تحويل، القرآن المتضمّن للحكمة والناطق بالحكمة وسياقه البلاغي بالحكمة، والمتضمن بدائع الحكم الكاملة في ذاتها والمكملة لغيرها في أمور الدنيا والآخرة، للإيحاء بأنه يمثل الحقيقة السماوية الكبرى الثابتة، التي تفرّق بين الحق والباطل، والصحيح والخطأ، والتي تستمد الحقائق الأخرى دلائلها وُقُوّتها منه، فهو المرجع (**والفرقان**) والدستور الرئيس لكل إنسان.

كقوله (**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**) التكوير/٢٧، ويضرب على الوتر الحساس في قلب الإنسان ومشاعره ليحرّكها وتتأثر به ويوجهها إلى صراط مستقيم صراط الله. **القرآن كأنه كائن حي حكيم: والحكمة صفة العاقل العالم الزعيم والقائد والحكيم،** وهذه صفة الحياة والأحياء الحكماء أصحاب القيادة الهادية للتي هي أقوم، وإن كان هذا الوصف على سبيل الكناية

والتشبيه والمجاز والبديع إلاّ أنه في تعبيره البلاغي يُصوّر حقيقة مهمة مؤثرة ويقرّبها إلى الأذهان، ليبيّن أن لهذا القرآن روحاً حية مؤثرة فاعلة، شفافة نفّاذة في المشاعر والضمائر، وتتغلغل في النفوس وتُحرّك القلوب، وكلّما فتحت قلبك بصدق للقرآن فتح لك عن أسراره وإيحاءاته وكشف لك عن علومه وأهدافه فمن حَمَلَ القرآن استطاع أن يستنطقه، وليس كل من قرأ القرآن استطاع استنطاقه، وأنما يستطيع استنطاق القرآن من يتشرّف بحمله ويحرص على فهمه ويسمو بعلمه ويحيا مع أهدافه، ويعيش مع إيحاءاته، ثم ينكشف له عن علومه، فيستطيع استنطاقه، **عن الإمام علي** (ع) (ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ فَإِنَّهُ حَامِلٌ لِمَنْ حَمَلَهُ وَنَاطِقٌ لِمَنْ اَسْتَنْطَقَهُ)

كقوله (**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**) الإسراء/٩ عن النبي (ص) (**مَنْ أرَادَ عَلَمِ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ**) **يُثوّر**: يَتَعَمّق به، كنز العمال خبر٢٤٥٤، لذلك القرآن الكريم يهدي هذا، ويلعن ذاك، عن النبي (ص) (**رُبَّ قَارِئٍ للقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ يلعَنهُ**)! البحار٩٢/١٨٤، لماذا يهدي هذا ويلعن ذاك؟ يهدي من يستحق الهداية، ويلعن من يستحق الّلعن!! **معنى ذلك** أنه يعرف الناس حَقّ معرفتهم، ويميّز بينهم حقّ التمييز، وهذا الفرز والتمييز النموذجي الدقيق والمصيب من صفات الكائن الحي النموذجي العالم الفاعل المؤثر الذي له صفات متكاملة بارزة، وله صفة القيادة المؤثّرة العالمة الفاهمة الداعية، القيادة التي تعيش الواقع وتعرف أهله حقّ المعرفة، **عن النبي** (ص) (القُرآنُ شافِعٌ مُشَفَّعٌ) ومقبولة شفاعته، كنز العمال خبر٤٠٢٧.

٣ – ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

جواب القسم، وفي القسم والمقسم عليه من التعظيم والتفخيم والمكانة العالية لرسول الله (ص) الرحمة المهداة، وللرسالة الإسلامية القيّمة التي دعا إليها مُحَمَّد (ص) وكل الأنبياء (ع) أي إنك يا مُحَمَّد (**لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**) من جملة المرسلين بالحق من رب العالمين لهداية الخلق، فلست ببدع من الرسل كقوله (**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**) الأنعام/١٢٤، فهناك اتّصال ما بين القسم والمقسم عليه فأحدهما يَصُبُّ في خدمة الآخر، لأنهما وحدة واحدة موّحدة متّحدة، ويخاطب القرآن النبي (ص) بهذا القسم مباشرة، ولا يوجهه إلى المكذبين ترفّعاً بالقسم وبالرسول وبالرسالة عن أن تكون موضع جدل عقيم. وإنك يا مُحَمَّد (**لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**) المؤيدين المسدَّدين المعصومين بعصمتين: **عصمة ذاتية** بَمَلَكَةٍ شخصية كقوله (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) النساء/١٠٥، **بما أراك الله**: بما علمك الله وأيّدك وسدّدك وعصمك عن الخطأ، **وعصمة خارجية** عن طريق الوحي كقوله (**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**) النجم/٣-٤ بل إنك يا مُحَمَّد (ص) من أفضل المرسلين وخاتم النبيين

وحبيب رب العالمين لقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) الأنبياء/١٠٧. **عن الإمام الصادق** (ع) (إِنَّ اللهَ إِحْتَجَّ عَلَى النَّاسِ بِمَا آتَاهُمْ وَعَرَّفَهُمْ) التوحيد ص٤١٠.

٤ - ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

ثم أخبر القرآن بأعظم أوصاف الرسول (ص) الدّالة على عظمة رسالته أنه **(عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** طريق حق وعدل وتقدّم واعتدال، طريق لا اعوجاج فيه ولا تقلّب ولا تذبذب ولا تلّون، ولا تطرّف فيه ولا باطل، طريق سليم مبارك مستقيم موصل إلى رضا الله وخدمة الناس وإلى دار كرامته، بأقصر الطرق وأفضل الأساليب وبأيسر التكاليف، لأنه يعتمد الإيمان والأعمال الصالحة النافعة والأخلاق الفاضلة، التي تشرح الصدور وتطمئن القلوب وتنفع الناس وتصلح الدنيا والآخرة، صراط يواكب كل زمان، ويتناسب مع كل مكان، ويتلاءم مع كل إنسان، من اتّبعه فقد اهتدى بهدى الله ونجا، ومن اتّخذ من دونه سبيلاً فقد ضَلَّ وهلك كقوله **(فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ)** يونس/١٠٨، **والصراط المستقيم**: وصف جميل للرسول (ص) كقوله (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ) الشورى/٥٢-٥٣، ووصف عزيز لدينه الإسلامي الذي جاء به كقوله **(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ)** الأنعام/١٥٣، ووصف جليل لربه كقوله **(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** هود/٥٦ وجاءت الآية على التنكير للتفخيم لعموم الصراط المستقيم وتعظيمة، وهذه الاستقامة في القول والفعل فيها الكرامة والسلامة بلا أية ندامة ولا ملامة، وهذه الاستقامة طبيعة الرسول (ص) القدوة المسدّدة، والقيادة المؤيّدة، والرسالة الإسلامية الهادية للتي هي أقوم **(عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** أي على طريق صحيح واضح مُيَسَّر، مبني على الحق الخالص الذي لا تعقيد فيه ولا غموض ويقود إلى الجنة، **والصراط المستقيم**: دين قويم وفكر أصيل ونهج منير، وإسلام متين وهدى مكين كقوله:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) آل عمران/١٩ **صراط مستقيم**: يتفاعل مع فطرة الإنسان وينسجم معها، والمرتبط مع نظام الكون المستقيم، على قوانين الله المستقيمة، فترتبط استقامة كتاب الدوين **(الْقُرْآنِ)** مع استقامة كتاب التكوين (الكون المنظّم) بوحدة واحدة موّحدة متّحدة! وبذلك يتم الترابط بين السنن الإنسانية المستقيمة مع السنن الكونية القويمة بنظام مشترك واحد! في نهج البلاغة خطبة ٨٧ **(مَنْ نَظَرَ بِعَقْلِهِ، أَسْتَبْصَرَ بِقَلْبِهِ رُشِدَ وَهُدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** وفي نهج البلاغة أيضاً خطبة١٦ **(الْيَمِينُ وَالشِّمالُ مَضَلَّةٌ، وَالطَّرِيقُ الوُسْطَى هِيَ الجَادَّةُ، عَلَيْهَا بَاقِي الكِتَابِ وَآثَارُ النُّبُوَّةِ)** وعن **الإمام الحسن العسكري** (ع) (الصراط المستقيم هو صراطان: صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فأما صراط المستقيم في الدنيا فهو ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير، واستقام فلم يعدل (يمل) إلى شيء من الباطل (وهو

الإمام العادل المفترض الطاعة) وأما طريق الآخر فهو طريق المؤمنين إلى الجنة الذي هو مستقيم) البحار٢٤ص٩، وصراط الآخرة هو جسر جهنم يجتازه المؤمنون بسلام، **عن النبي (ص)** (أثبتكم قَدَماً عَلَى الْصِرَاطِ أَشَدُّكُم حُبْاً لأهْلِ بِيتِيّ) بحار الأنور٨ص٦٩.

٥ – ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾

يُعرّف الله سبحانه عباده بنفسه المقدسة في مثل هذه المواضع ليدركوا حقيقة ما نزل إليهم (**تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ**) ذلك القرآن الحكيم المنزل من الله على نبينا مُحَمَّد المصطفى (ص) كقوله (**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ**) المائدة/١٦ لم تنزله من عندك أو من عند قوم آخرين كقوله (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ) العنكبوت/٤٨ (**الْعَزِيزِ**) الغالب في ملكه، القوي الذي لا يقهر ولا يعجزه إعراض المعرضين عن طاعته، فحمى دينه القيّم بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم عباده من طرق الضلال (**الرَّحِيمِ**) بخلقه وبالمؤمنين، يهدي الناس إلى السعادة والكمال كقوله (**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**) الأنعام/٥٤، في نهج البلاغة خطبة ١٨٦ (**يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّة**) وفي وصف الله (**رَحِيمٌ لاَ يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ**) خطبة/١٧٩.

٦ – ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾

فلما أقسم الله تعالى بالغرض من بعثة النبي (ص) وتبليغ رسالته، وأقام الأدلة عليها وذكر أهميتها وضرورتها في حياة الإنسان فقال (**لِتُنْذِرَ قَوْمًا**) **لتنذر**: لتخوّف لتحذّر، وإنما أرسلك الله تعالى وأنزل عليك القرآن لحكمة بليغة مؤثرة وهي الإنذار والتبليغ (**لِتُنْذِرَ قَوْمًا**) لتخوف العرب الأميين ومن لحق بهم من كل أمي، لتنذرهم وتلقي الحجة عليهم عن عذاب الله في يوم القيامة، وتنذر الناس كافة من معاصي الله كقوله (**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**) المطففين/١٤ (**مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ**) الذين لم يُنذَر آباؤهم الأقربون قبلهم، لأن آباءهم الأبعدين كان فيهم أنبياء كإسماعيل وعيسى (ع) إنهم كانوا في زمان الجاهلية الجهلاء، زمان مهلة طويلة وفترة بينك وبين عيسى (ع) عاشوا دون أن ينذرهم منذر ولا أن يهديهم هادٍ، وليس لهم كتاب جديد يرشدهم، وبقوا على سُنة الأنبياء السابقين، وقد عمّتهم الجاهلية وغمرتهم الضلالة، **إذن**: هذه هي مهمتك الرسالية يا مُحَمَّد: الإنذار والتبليغ، تأمر بالفضائل وتنهى عن الرذائل كقوله (**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**) النحل/٣٥.

فائدة:

أما قوله (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) فاطر/٢٤ وقوله (**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**) الرعد/٧، وجاء (نذير، هاد) بصيغة النكرة لدلالتهما العامة ومعناهما الكبير الواسع، أي في كل ما تقوم به الحجة على الناس كقوله (**قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ**) الأنعام/١٤٩، من حجة العقل والنقل والمبلّغ

والمذكّر والناصح كقوله (**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ**) الأحزاب/٣٩ (**فَهُمْ غَافِلُونَ**) لذلك فهم غافلون عن الله ومنهجه وعن الإيمان والعلم وعن العالم الآخر، و(**غَافِلُونَ**) عن القرآن وعلومه وأهدافه وعما أنذر الله به من نزول العذاب كقوله (**وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) السجدة/١٣، والقلب الغافل عن الحقائق الكبرى، قلب محجوب عن الحقيقة الواضحة، قلب مريض غليظ قاسٍ قلب مُعطّل عن وظيفته، عليه رين الذّنوب وحجُب الآثام وتعدِ الحدود (**وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**) الطلاق/١، قلب جامد بليد تمرُّ به دلائل الهداية أو يمر هو بها دون أن يحسّها أو يدركها، ومن هنا كان الإنذار أليق شيء بالغفلة العميقة التي كان عليها القوم، **في غرر الحكم** (إحذروا الغَفْلَة فإنها مِنْ فَسادِ الحسِ) لَا تَغْفَلُوا فَلَيْسَ بِمَغْفُوْلٍ عَنْكَمْ، والغفلة أشدّ ما يفسد القلوب، فإنها تجمّد المشاعر وتميت الضمائر.

٧ – ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

لقد كفروا برسالة النذير الهادية، وقضى في أمرهم (**لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ**) أقسم والله لقد وجب عذاب الدنيا والآخرة واستحقّوا العقاب (**عَلَى أَكْثَرِهِمْ**) وليس جميعهم، بما علمه الله من حقيقتهم النفسية المعقدة ومشاعرهم الغليظة القاسية (**فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**) فطبع الله بذلك على قلوبهم المعاندة فهم لذلك (**لَا يُؤْمِنُونَ**) أبداً بما جئت به يا مُحَّد، ويموتوا على الكفر والشرك والفساد وهذا هو المصير الأخير للأكثرية منهم، لما علم الله خبث نفوسهم وسوء استعدادهم وهم في عناد مستمر، فتكون نفوسهم محجوبة عن الهدى، معزولة عن رؤية دلائل الحق، إنهم رفضوا الرسالة الحق وقبلوا بالباطل عن الإمام علي (ع) (**وَمَنْ لا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاْطِلُ**) البحار٢٩٣/٧٧، ويرسم القرآن هنا مشهداً حسيّاً دقيقاً، وكأنما تغوص كاميرة التصوير وبلاغة التعبير إلى أعماق نفوسهم لتشخّص حالتهم النفسية، فتكون عقوبتهم من خلال حالتهم النفسية الغليظة المعقدة، فتكون العقوبة من جنس العمل.

٨ – ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴾

الأذقان: جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين وتحت الفم من جهة الرقبة، **مقمحون**: رافعون رؤوسهم قسراً، ويغضّون أبصارهم لأنها مقيّدة بأغلال الحديد، التي تمنع تحرّك الرأس فلا يميزون أين الطريق؟! **سبب النزول**: إنها نزلت في أبي جهل وقد حلف لو رأى مُحَّداً يصلي ليضربنه بحجر، فلما رفع الحجر ليرميه انثنت يده إلى عنقه، ولزق الحجر بيده، وسلبه الله القدرة على التحرّك بطريقة إعجازية خارقة، فلما عاد إلى أصحابه سقط الحجر من يده! **المعنى**: (**إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا**) تصوير لمشهد مثير من مشاهد يوم القيامة، وتمثيل لضلال المشركين وضياعهم بحالتهم المأساوية، إننا جعلنا في أعناقهم (**أَغْلَالًا**) قيوداً ثقيلة للتعذيب والتشديد، تشد أيديهم

إلى أعناقهم (**فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ**) فهي موضوعة تحت أذقانهم بقيود مربوطة بأعناقهم (**فَهُمْ مُقْمَحُونَ**) غاضون أبصارهم، رافعون رؤوسهم على تلك الحالة المقيّدة به فهم لا يستطيعون تنكيسها وخفضها، كل ذلك كان بسبب تمرّدهم على الحق وتكبّرهم على الخلق وإعراضهم عن منهج الله وفسادهم في البلاد والعباد! فهم في هذا المشهد العنيف الغليظ متناسب مع نفوسهم الغليظة وطبائعهم العنيفة، وهذا تشبيه مثير لإصرارهم على الكفر فلا يذعنون للإيمان وحكم العقل، فحكموا على أنفسهم بالشّقاء، **في غرر الحكم** (**الْمَرْءُ حَيْثُ يَضَعُ نَفسَهُ**) فيكون العقاب من جنس العمل، ويكون (**البلاءُ عَلى قَدَرِ الطِّباعِ**) واكتفى بذكر الغلّ في العنق عن ذكر اليدين، لأن الغلّ إنما يُعرف استعماله في ما جمع قيود اليدين مع العنق منتهية إلى أذقانهم، فلا تدعهم يلتفتون إلى أمامهم لأنهم كانوا في الدنيا لا يلتفتون إلى الحق والحقوق!.

٩ – ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

مع عنف هذا المشهد الحي المؤثّر وشدته على النفوس، فهو تتمّة التصوير لتمثيل حالهم السيّء، وتشبيه مآلهم وخاتمتهم المأساوية، وهكذا حال (**الذي لا يعرف كيف ينتهي، فلا يعرف كيف يبدأ**) **المعنى**: (**وَجَعَلْنَا**) بسوء أعمالهم زيادة على عقوبتهم في نار جهنم (**مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا**) وجعلنا من أمامهم (**سَدًّا**) أي مانعاً عظيماً مادياً ومعنوياً، ومن ورائهم (**سَدًّا**) عظيماً، وكأنما من جميع جهاتهم سدوداً وموانع تمنعهم من دخول نور الإيمان في قلوبهم! ولم يذكر السدود عن اليمين والشمال، لأن السدين المذكورين شاملان واسعان ممتدان نحو اليمين والشمال فصاروا محاطين من جميع جهاتهم بسلسلة من السدود والموانع والقيود، فهم محجوبون بسجن الجهالة وقيود الضلالة اللّذين أغرقا أنفسهم الظالمة بهما.

قال المتنبي: قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم.

وهي صورة بلاغية قرآنية حيّة في تجسيد المعاني الفعّالة في النفوس المتلقّية، صورة مؤثّرة تبعث الحياة والحركة والشعور بالمصير والعاقبة والخاتمة، فنرى الكافر هنا قد أدخل نفسه في سجن محكم مطبق عليه لا يرى منه نور الهداية أبداً. وقد تكون اليدان معنوتيين في قوله (**بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا**) حرمناهم من سلوك سبيل الهداية لكبريائهم عليها وعدائهم لها (**وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا**) ومنعهم من العودة إلى الهداية الفطرية، لأنها تلوثت فطرتهم وانحرفت أفكارهم وتحجّرت عاداتهم وقست قلوبهم، تفسير الرازي٢٦ص٤٥ (مختصر) (**فَأَغْشَيْنَاهُمْ**) فغطيناهم بضلالهم وأعميناهم من كل جهة، بسبب ذلك (**فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**) شيئاً أصلاً من الحق ولا يهتدون إليه نتيجة طغيانهم وعصيانهم، ولا يختص هذا العذاب بالكافر والمشرك، بل يعم كل **مؤذٍ ومعتدٍ** على كرامة الإنسان وحريته أو سلب حق من حقوقه في كل زمان ومكان.

١٠ – ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

فلقد قضى الله فيهم أمره، بما علمه من موقفهم الحاسم ضد الرسالة الإسلامية، لقد خَيَّمَ على عقولهم ظلمات الجهل والضلال وعشعش في قلوبهم حبّ الدنيا وشهوات الطغيان والعصيان، فانقلبت عندهم المقاييس، ورأوا الحق باطلاً والباطل حقاً، فلا ينفذ في قلوبهم القاسية نور الإيمان، لوجود الحواجز والسدود والموانع والحجب الكثيفة، ولا تنفعهم الزواجر والإنذارات، ولا يسمحون لأحد أن يناقشهم في هذا الموضوع، فهم معاندون متكبرون لا تفيد معهم الذكرى ولا ينفعهم الإنذار، ولذلك **المعنى** (**وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**) فلن ينتفعوا من إنذارك ولن ينفتحوا على الإيمان لمبالغة كفرهم وعنادهم، فإنهم لا يفهمون إلاّ لغة الشهوات واللّذات والمنافع الفردية كقوله (**وَمَا تُغْنِي الْآَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ**) يونس/١٠١، فالإنذار الرسالي لا يحرّك مشاعرهم الغليظة، ولا يخلق الحياة في القلوب الميتة القاسية، إنما الإنذار يوقظ القلوب الحيّة والمشاعر السليمة والضمائر الشفافة المرهفة المفتوحة المستعدّة لتلقّي الإيمان كقوله (**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ**) ق/٤٥، وهذا تسلية للنبي (ص) وتخفيف لمعاناته.

١١ – ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾

إنما ينفع إنذارك يا محمّد ويتّعظ بنصحك وتذكيرك من اتّصف بأمرين أساسيين، (**مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**) موجودين وفاعلين في داخل أنفسهم وأعماق مشاعرهم، وفي كل وقت وفي كل مكان وفي السرّ والعلانية وفي كل حال، ومؤثّرين على قناعاته وإرادته بالقوة وبالفعل وبالشكل والمضمون، والقول والعمل بالادّعاء والحقيقة وفي الشدّة والرخاء **المعنى**: (**إِنَّمَا تُنْذِرُ**) لأنه لا ينتفع من إنذارك وتخويفك إلاّ (**مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ**) وهو القرآن الكريم إذا تلاه حق تلاوته، وتدبّر معانيه واستنطق إيحاءاته واتّعظ بمواعظه وعمل بمنهجه، وطلب الهدى والتقى ودين الحق بإيمان وعلم وصدق من ينبوعه، وَقَصْد حَسَنٍ في طلب الحق لوجه الحق، فأصغوا للقرآن بمسامع قلوبهم وصفاء مشاعرهم، وتعلّقوا في رحاب منهج الله بقلب سليم وفطرة صالحة، وكأنهم مع الله في موعد وانتظار وشوق ورغبة وتطلّع إليه! (**وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**) **ومعنى** (**بِالْغَيْبِ**) أي بالخلوة عند مغيب الإنسان عن عيون البشر وحواسّه، وخشية (**الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ**) خشية في الخلوات التي لا يراه أحد غير الله سبحانه، وخاف الله وأطاعه بحسن التعامل الصادق مع الناس – كل الناس – وصدّق بما غاب عن حواسه من الأمور الغيبية المعنوية في العالم الآخر، إنها خشية إجلال وتعظيم وتوقير وتقدير، لا خشية خوف ورعب وقهر وجهل، إنه خشية إيمان وشعور بقرب الرحمن منه وارتفاع إلى درجة العرفان السّامية!

روي:

(غُضُّوْا أبْصاْرَكُمْ عَمَّاْ حَرَّمَ الله عَلَيْكُمْ، تَرَوْا الْعَجاْئِبَ، وتَعرِفُوا الحَقائِقَ وَتُنَسِّقُوْا مَعَ الأَقْدَاْرِ، وَتَنْكَشِف لَكُمْ الأَسْرَاْرُ)! كقوله (**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**) الأنعام/٧٥، **في غرر الحكم** (ذِرْوَةُ الْغَايَاتِ لَا يَنَاْلُهَا إلاّ ذَوُو التَّهذِيبِ وَالمُجْاَهُدَاتِ) **عن الإمام علي** (ع) (مَاْ رَأَيْتُ شَيْئَاً إِلّا وَرَأَيْتُ اللهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ وَفِيهِ) مواهب الرحمن٧/٣٠٠ **وعنه** (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلْى اللهِ وَصَلَ إليهِ) البحار ٧١ص٩٥، **في نهج البلاغة خطبة١٩٣** (عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ) ثم إنه بعد منهجان تربويان متّصلان متلازمان في القلب والمشاعر، فكلما يحصل (**اتّباع الذكر**) بعد علمه وفهمه، يحصل (**خشية الرحمن بالغيب**) وكلما تحصل (خشية الله) بالغيب في القلب والمشاعر، إلاّ ويتبعها (**العمل بالذكر**) بما أنزل الله من القرآن الكريم، والاستقامة على المنهج الذي أراد، إنها خشية هيبة ورغبة وحب وقرب وإحساس بمقام الله وقربه وعظمته، وليس خشية رهبة ورعبة وخوف وقلق كقوله (**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**) الرحمن/٤٦، فعلينا الاعتدال والتوازن بين الخوف والرجاء، وبهما يتكامل إيمان المؤمن وتزكو نفسه. كقوله (**يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ**) الزمر/٩، **إنها خشية من مقام الله وقربه منّا ومعرفته بنا حق المعرفة**، فيحصي علينا أعمالنا بتفاصيلها، فعلينا أن نخشى الله كأننا نراه، فإن لم نكن نراه فهو يرانا، وإذا قلنا أنه لا يرانا فقد كفرنا، وإذا قلنا أنه يرانا وعملنا المعاصي فقد جعلناه من أهون الناظرين إلينا! كقوله (**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**) الأنبياء/٤٩.

سؤال: كيف نرى الله؟ الجواب:

رؤيتنا لله تعالى رؤية معنوية عميقة وليست رؤية مادية سطحية، إنها رؤية بصيرة قلب وليست رؤية بصر عين، ورؤية البصيرة رؤية علمية دقيقة وعميقة ونافذة وممدودة ما بين المرئيات، وترى ما وراء الحجب! بينما رؤية البصر رؤية مادية محدودة للأشكال والمظاهر الخارجية من دون أن تنفذ إلى الداخل، **فتكون رؤية البصيرة العلمية النافذة، أقوى وأوسع وأدق وأعمق من الرؤية البصرية** المادية السطحية المحسوسة والمحدودة، والرؤية البصرية تعاني من انخداع العين في رؤية انكسار الأشياء في الماء!! وتنخدع العين في رؤية القرص الملّون عدة ألوان ويدور بسرعة فتراه العين بلون واحد! وتنخدع العين أيضاً في رؤية أذرع المروحة الدوارة فتراها وكأنها ذراع واحد! وغيرها، وهكذا ترى العين المادية ما أمامها من مادّيات وأشكال ظاهرة، ولا ترى ما وراء المرئيات، **ولكن تراها القلوب بحقائق الإيمان، وتتحسس بها العقول بقدحات الفكر**، وتتحرك بها المشاعر بعجائب المخلوقات، وهكذا دين الله القيّم يصوغ إيمان المؤمن صياغة رائعة، فيرى الله في كل شيء، فلا يرى شيئاً إلاّ ويرى الله معه وفيه وقبله وبعده! فهو سبحانه الخالق لكل شيء، ويملئ مكان كل شيء، وهو محيط بكل شيء ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء كقوله (**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**) الحديد/٤ وقوله (**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ**

حَبْلِ الْوَرِيدِ) ق/١٦ وقوله **(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** النور/٣٥، في غرر الحكم (إِذَا خِفْتَ الْخَالِقَ فَرَرْتَ إِلَيْهِ، إِذَا خِفْتَ الْمَخْلُوقَ فَرَرْتَ مِنْهُ)!

ومن دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة **(إِلَهِيّ:كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيسَ لَكَ حَتَّى يَكُوْنَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ ؟ مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إِلى دَلِيْلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ وَمَتَى بَعُدْتَ حَتَّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتِي تُوْصِلُ إِلَيْكَ ؟ عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَرَاكَ عَلَيْها رَقِيباً وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيْباً!، إِلَهِيّ: مَاذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟ وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟! لَقَدْ خَابَ مَنْ رَضِيَ دُونَكَ بَدَلاً، وَلَقَدْ خَسِرَ مَنْ بَغَى عَنْكَ مُتَحَوَّلاً، كَيْفَ يُرْجى سِوَاكَ وَأَنْتَ مَا قَطَعْتَ الإِحْسَانَ؟ وَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ مَا بَدَّلْتَ عَادَةَ الامْتِنَانِ ، إِلهي : كَيْفَ تَخْفى وَأَنْتَ الظَّاهِرُ، أَمْ كَيْفَ تَغِيبُ وَأَنْتَ الرَّقِيْبُ الْحَاضِرُ؟)**

وفي قوله **(إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)**

وفي هذه التربية القرآنية النموذجية المميزة دلالة على معرفة الله عز وجل، معرفة علمية رصينة تعتمد الدلائل والبراهين، في غرر الحكم **(مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ)** وليس إيماناً بالله إيماناً شكلياً هشاً، ولا معرفة كلامية صورية فارغة، وإنما معرفة علمية نفّاذة يقينية لا شك فيها ولا ظن ولا ريب، وعلى قدر الإيمان والوعي والعلم تكون قوة اليقين، كما يصفها الإمام علي (ع) **في غرر الحكم (لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ مَا أزدَدْتُ يَقِيناً)**! يناجي الإمام علي (ع) ربه فيقول (**إلهي**: كفاني فخراً أنْ تكونَ لي رَبّاً، وكفاني عِزاً أنْ أكونَ لَكَ عَبْداً، أنت كما أُرِيدُ، فاجعلني كما تُرِيدُ) وفي دعاء الصباح له (ع) **(يَا مَنْ دَلَّ عَلى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجَانَسَةِ مَخْلُوقَاتِهِ وَجَلَّ عَنْ مُلاءَمَةِ كَيْفِيّاتِهِ، يَا مَنْ قَرُبَ مِنْ خَطَرَاتِ الظُّنُونِ وَبَعُدَ عَنْ لَحَظاتِ الْعُيُونِ وَعَلِمَ بِمَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ)** وهذا المستوى من اليقين هو الذي يستحق التبشير بعد انتفاعه بالإنذار، وهو الذي عرف الله وبحث عنه فوصل إليه، وهو الذي يخشى الرحمن بالغيب **(فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ)** عما يقع من الخطايا فلا يصرّ على الخطأ فيستغفر ويتوب **(وَأَجْرٍ كَرِيمٍ)** وهو الخير الكثير الواسع، الحسن الجميل إنما يكون في جنات الخلد، لإيمانه الصادق مع الله ومع الناس ومع نفسه، وأعماله الصالحة المتنوعة ونيته الحسنة، والاستقامة على منهجه القيّم في السرّ والعلانية، واتّباع أحكامه في الشدّة والرّخاء. كقوله (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) السجدة/٢٤، **في نهج البلاغة خطبة١٥٧** (وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى)

١٢ – ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى) يوم القيامة الصغرى عند أول يوم في القبر للحساب، وفي يوم القيامة الكبرى الموعودة حين يقوم الناس لرب العالمين، **عن النبي** (ص) (مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ)

روح البيان٣/٢٢، نبعثهم من قبورهم بعد موتهم وفنائهم للحساب والجزاء، يُصوّر القرآن الكريم حقيقة إحياء الموتى بعبارة مؤكدة لا شك فيها **(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى)** **(إِنَّا نَحْنُ)** صيغة تأكيد على الخلق والإبداع فيه، وبيان القدرة العظيمة لإعادة العظام الرميم وإعادة الحياة من جديد إلى الأبدان الميتة المتفسخة، وليس إعادة إحياء الموتى فقط بل **(وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ)** وهي محفوظة بحفظ الله ليوم الحساب كقوله (يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) القيامة/١٣، **والمعاد إلى يوم القيامة حقيقة فلسفية تؤكدّ عليها جميع الأديان السماوية**، وبها تعرف معنى الحياة الدنيا وتعرف فلسفة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، فتكون الحياة لغزاً مبهماً لولا الإيمان بالعالم الآخر الذي يعطيك معنى الحياة، وبيان ضرورة الدين السماوي في حياة الإنسان **(وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا)** ونكتب ونحصي جميع أعمالهم من الطاعات والمعاصي في حياتهم الدنيا، فعبرّ عن إحاطة علمه سبحانه بأعمالهم كلها التي لها أثر والتي ليس لها أثر **(بالكتابة)** التي تضبط بها الأشياء للدلالة على الدقة كقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠.

(وَآَثَارَهُمْ) أي ما يكون لها أثر فاعل في الواقع المادي أو المعنوي، في الكلام والأعمال، نافعة أو ضارة، وصارت سُنّة بعدهم يقتدى فيها بهم، حسنة كانت أم قبيحة كعلوم ينتفع بها أو مسجد بنوه، أو دعم لأعمال الخير ومساندة لطلاب العلم أو تشجيع على زواج الشباب الأعزب وغيرها، أو شرّ يعمل به أو سُنة منحرفة مبتدعة يعمل بها الناس أو بناء مكان دعارة أو غرس بذور الضلالات بين الناس، وزرع أحقاد وأضغان في المجتمع لتفكيكه، أو إصدار صحف ومجلات وكتب ضالة وقنواة فضائية مشبوهة، تضل الناس عن سبيل الله كقوله **(وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)** الجاثية/٢٢، ولا ينجو من عذاب الله وغضبه إلاّ من تجنّب أسبابهما، وآمن بالحق وكفَّ أذاه عن الخلق، في الحديث **(إِذَا مَاتَ الْمَرْءَ انْقَطَعَ عَمَلَهُ إلاّ مِنْ ثَلاَث: وَلَدٌ صَّالِحٌ يَدعُو لَهُ، وَعِلْمٌ يُنتَفَعُ بِهِ، وَصَدَقَةٌ جَارِيَةٌ)** كنز العمال خبر٤٣٦٥٥، **عن النبي (ص)** (مَنْ سَنّ سُنَّة حَسَنْة فَلَهُ أَجْرهَا وَأَجْرُ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْر أَنْ يَنْقُص مِنْ أُجُورهِمْ شَيئاً، وَمَنْ سَنّ سُنَّة سَيِّئَة فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ لاَ يَنْقُصْ مِنْ أَوزَارِهِمْ شَيئاً ثُم تَلا (وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ)) المراغي٢٢/١٤٨ **(وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ)**

وفوق ذلك أحصينا عليهم كل شيء وعددناه من أقوالهم وأعمالهم ونيّاتهم **(وَكُلَّ شَيْءٍ)** من الأشياء على إطلاقها **(أَحْصَيْنَاهُ)** ضبطناه وحفظناه وبيناه كقوله **(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)** الإسراء/١٤ وقوله **(كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا)** الجاثية/٢٨ **(فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)** **معنى** الإمام **(إِمَامٍ)** كناية بلاغية واستعارة تشبيهية بديعة عن علم الله الواسع الأزلي القديم، المتقدم على كل حدث، الذي لا يغيب عنه شيء، وسُميَّ (إماماً) لأنه يُؤتّم ويقتدى به ويُتّبع

ويُعتمد عليه كقوله (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ) القمر/٥٢-٥٣، **(إِمَامٍ مُبِينٍ)** أي كتاب جامع مانع واضح هو (أم الكتب) وإليه مرجع الكتب وتحفظه الملائكة وهو **(اللوح المحفوظ)** الذي فيه ما كان وما يكون، وهو سبحانة بكل شيء محيط إلى يوم القيامة كقوله **(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)**الإسراء/٧١، أي بكتاب أعمالهم والشاهد عليهم بما عملوه من خير أو شر، وكأنما هناك كاميرا خفية تُصَوِّرُ بدقة عالية كل شيء، ذي ثلاثة أبعاد، مع الصورة المجّسمة المتُحرّكة والصوت والنية كقوله **(هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)** الجاثية/٢٩. **(إِمَامٍ مُبِينٍ)** مصداقه العملي هو الإمام علي بن أبي طالب (ع) الذي أحصى الله تعالى فيه علم كل شيء، وهو المقياس الذي يفرّق بين الحق من الباطل (مختصر) تفسير الأمثل١٤/١٣٤.

١٣ – ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾

واضرب لهؤلاء المستكبرين المكذّبين برسالتك من أهل مكة وغيرهم مثلاً قريباً يعتبرون به (والأمثال تضرب للاعتبار) وهي **(قصة أهل القرية)** المعاندين على الكفر والمصرّين على تكذيب الرسل والرسالة، أي طَبِّق حال أولئك الماضين بحال هؤلاء الحاضرين **(وَمَنْ لاَ يَتَّعِظْ بِالْمَاضِيْنَ كَانَ عِبْرَةً لِلْبَاقِيْنَ) في نهج البلاغة خطبة٨٦** (السَّعِيْدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ) **المعنى: (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا)** وَقَدِّمْ لهم يا مُحَّد مثالاً إتماماً للحجة قصة **(أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ)** أهل القرية، **والقرية:** المكان الذي يسكن ويتجمّع فيه الناس، لم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية، ولا ما هي القرية وأين مكانها، للدلالة أن ذكرهما لا يزيد من أهداف القصة وإيحاءاتها والعبرة منها شيئاً، لنتعلّم أن **(نَنظُر إلى ماْ قَال ولا نَنظر إلى مَنْ قَال) كما في غرر الحكم**، ولننظر إلى الحدث أو الموقف وليس إلى صانعه، فلا ننظر إلى تجسيد الذات قبل تهذيب الذات، حتى لا ننشغل بالمهم عن الأهم، في غرر الحكم **(مَنْ اشْتَغَلَ بغير المُهِمِ ضَيَّعَ الأَهَم) (إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ)** يأمرونهم بعبادة الله تعالى وحده، وإخلاص الدين له سبحانه، وينهونهم عن الشرك والمعاصي، ونلاحظ صلابة موقفهم في المبادئ والقيّم، ومرونتهم الأخلاقية في التعامل العام مع الناس كقوله **(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)** القلم/٤، عن النبي (ص) **(إنّ أحَبَكُمْ إليّ وَأقَربكُمْ مِنّيْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَجْلِساً، أحَسَنُكُمْ خُلُقاً وَأشَدّكُمْ تَوَاضُعاً)** البحار٧١ص٣٨٥، وكان المرسلون من الحواريين الذين أرسلهم عيسى (ع) لهدايتهم، وهم رسل عيسى وتلاميذه وثقاته وأمناؤه وخلفاؤه من بعده، وهم يعتبرون (رسل الله) حيث أسند الإرسال إليه سبحانه كما في الآية١٤.

١٤ – ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴾

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) إذ أرسلنا إلى أصحاب القرية في أول الأمر **(اثْنَيْنِ)** من رسلنا كقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/١٢٤ كما أرسل الله تعالى موسى وأخاه هارون (ع) إلى فرعون وملئه ليتعاونا على إنجاح البلاغ، إنهما نهيا عن المنكر والشرك وأمرا بالمعروف والإيمان والعلم، فقامت قيامة قوى الشر والطغيان ولم تقعد عليهما، **(فَكَذَّبُوهُمَا)** كذبوا هذين الرسولين وضربوهما وسجنوهما **(فَعَزَّزْنَا)**:

فقوينا ودعمنا، **فَعَزَّزْنَا**: من العزة وهي القوة والقدرة والمنعة والغلبة **(فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ)** فقويناهما ودعمناهما وشددنا أزرهما وإرادتهما، برسول ثالث وكلهم من الحواريين، وإنما أضافهم الله لنفسه **(أَرْسَلْنَا)** وهم رسل عيسى (ع) لأن عيسى أرسلهم بأمره، وأمره مسدد ومؤيد من الله، ودعمهم الله بإمكانية إعجازية خارقة كشفاء الأمراض المستعصية وإحياء الموتى (بإذن الله) كما كان لعيسى (ع) ولكن عمي البصائر وقساة القلوب وُغلّاظ الطبائع، مع هذه المعاجز والخوارق غير المألوفة، كذبوا الرسل **(فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ)** وتقدّم الرسول الثالث بدعوته الرسالية من جديد، بأسلوب جديد، وبخطة جديدة، فنجحت الخطة وأنقذ الاثنين **(فَقَالُوا)** الرسل الثلاثة بعد نجاح الخطة، وتفاعل الناس معهم، بإرادة واحدة وكأنما لهم صوت واحد مؤثّر متّفق عليه **(إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ)** فقالوا يا أهل القرية، إن الله أرسلنا إليكم لنحاوركم ولنعرف معكم فلسفة الحياة ونبحث عن الحقيقة، ونتعلّم دين الله القيّم، لنوحّد الله في عبادته وطاعته ولنهتدي إلى الحق، والحقّ أحقّ أن يُتّبع كقوله **(أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى)** يونس/٣٥، **وجاء الرسول الثالث** بأسلوب جديد غير مباشر هادئ مرن، فكسر الحاجز النفسي بين الرسولين وأهل القرية، ودخل محبوباً إلى قومهم فانفسح المجال أمامه وانشرحت الصدور لخطابه الجذّاب المنساب المناسب، بعد أن تغيّر أسلوب الخطاب لأهل القرية أثّر فيهم التبليغ، فجاؤوا معهم بأسلوب يحبونه وانتهوا معهم بنتيجة يحبها المرسلون! وهذا أفضل حوار عندما تطبق القاعدة العلمية الهادئة مع الذي تحاوره أن **(تبدأ معه من حيث يحبُّ، وتنتهي معه من حيث تحبّ)** فيكون أسلوب الطرح يتقدّم على حجية الطرح، لأن الأسلوب الفني السليم المؤثر يشرح الصدور ويفتح النفوس ويحيي المشاعر، كقوله (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) النحل/١٢٥.

فائدة:

الآية تبحث عن المنهج الحركي في القرآن الكريم: (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ) كان الاثنان لهما أسلوب واحد صريح، وطريقة واحدة ومباشرة ومعاتبة ومواجهة وصريحة وفيها إثارة وردود أفعال، وعادة ردود الأفعال تأتي بانفعال! وتسرّع وبلا مقدمات، ولا تمهيد ولا تهيئة أرضية نفسية مناسبة للجماهير لقبول الكلام والحوار، بمعنى تعطيل العقل عندهم والمنطق وتحكيم الهوى والأنا والكراهية والعادات والتقاليد، في نهج البلاغة كتاب ٣١ **(الْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى)**

وكان أحد الدعاة المرسلين يقف بجانب الآخر ويدعمه ويؤيده في دعوته، لأنهما يعملان ضمن هدف واحد مشترك ومقدّس، وبأسلوب واحد محدد، وهو أسلوب (الصَّدْمَةُ) أمام العقلية الإلحادية المعاندة والمتكلّسة والمتحجرة والرافضة لسبيل التوحيد! **(فَكَذَّبُوهُمَا)** فلم يتحملوا الصَّدمة ولم يتفهّموا الخطاب وكأنما دقّ ناقوس الخطر عليهم، ومع هذا الوضع المتوتّر، قال الرسولان عند مرور الملك المغرور المتكبّر الجبار **(لا إله إلاّ الله، والله وأكبر) عن النبي** (ص) (أفضلُ الجهاد **كَلِمَةُ حَقّ عِنْدَ سُلْطانٍ جائِرٍ)** الكاشف٢/١٢٤، وعادة الذي يواجه المجتمع الجاهلي بهذه الصدمة القوية المباشرة هو الرجل المقاوم المضحّي المستميت ويحمل مشروع إحدى الحسنيين.

(إما النصر وإما الشهادة) (والمستميت لا يموت!) اعتقلهما الملك وجلدهما وحبسهما للحساب والعقاب، ولم يسمع الناس جميعهم كلامهما الرسالي وفشلا في البلاغ، فكان مبرراً لدعمهم برسول ثالث له خطاب بلاغي آخر، ليّن فني جديد ولطيف ومؤثر، وأسلوب آخر لنجاح الدعوة **(فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ)** وكان الرسول الثالث عليم وحليم ومنظّم ومن قيادات الدعوة الرسالية، ومن عناصر التأثير وله القدرة والكفاءة على التحريك، وهو رجل الحوار ويمتلك الأسلوب الفني المنفتح في الخطاب، وكلما تتقرب منه أكثر تزداد حباً له أكثر! وعنده خبرة وتجربة في ذلك.

(وَرَأيُ الرَّجُل عَلَى قَدَرِ تَجْرُبَتِهِ ومُقْدارِ خِبْرَتِهِ) ومستوى كفاءته واختصاصه وكمال نزاهته وجلال محبته وجمال خطابه وفنّية أسلوبه، فجاءهم بأسلوب حركّي حيوي جديد ومفيد ورقيق ودقيق ومؤثّر على المشاعر والضمائر وتركن له النفوس وتصغي له العقول، ويختلف عن أسلوب الذين سبقوه، فجاءهم الرسول الثالث بأسلوب أخلاقي لطيف مناسب غير مباشر، في مكانه المناسب، في وقته المناسب، مع الموضوع المناسب والحجة العقلية المناسبة وظروفه المناسبة، فَتَغيَّرت النتيجة وانكسرت الحواجز النفسية وزالت الكراهية، فانشرحت الصدور وصغت العقول، فسمعوه وأصغوا له وتفاعلوا معه وحاوروه بأريحيّة وانفتاح، فاستطاع أن يلقي الحجة الربانية عليهم جميعاً، وتحققت الأهداف وقضيت الحاجة ونجح البلاغ المبين، واستخرج أصدقاءه الاثنين من السجن كقوله **(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)** العنكبوت/٤٦ وقوله (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥، راجع للتوسعة (مجلة المصباح) تعنى بالدراسات القرآنية/ العدد (١) سنة ٢٠١٠/ المفهوم الحركي للقرآن الكريم/ للباحث مكي قاسم البغدادي.

١٥ — ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾

(قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا) لا ميزة لكم علينا، وليس لكم فضل علينا، فلو أوحي إليكم لأوحي إلينا، فكيف أوحى الله إليكم دوننا؟! وهو جواب كما قال الأولون المعاندون، ولو

جعل الله الرسول ملكاً من الملائكة فلن يتغير من الأمر شيء، لأن الملك ليس من جنس البشر فلا يألفوه ولا يألفهم، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف كقوله (**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ**) الأنعام/٩ (**وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ**) لم ينزل الله شيئاً من الوحي والرسالة بل يتركهم وشأنهم (**إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ**) ما أنتم إلاّ قوم تدّعون أنكم مرسلون من عند الله كقوله (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) إبراهيم/١١ وهذا الإنكار في قولهم فيه سذاجة التصوّر، وسطحية في التفكير وجهل في الإدراك لوظيفة الرسول أن يكون قرآن حيّ متحرّك ناطق واقعي يمشي على الأرض، ويكون رسالة إسلامية وقدرة وقدوة وقيادة نموذجية مميزة عالية المضامين، تتحرك بين الناس تصلح للاقتداء والتأثير في الناس كقوله (**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ**) الكهف/١١٠.

١٦ –١٧– ﴿ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ، وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

قالوا ذلك في ثقة المطمئن إلى صدقه، العارف بحدود وظيفته، المستوعب لرسالته، فقال هؤلاء الرسل الثلاثة (**قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ**) وهذا يكفي، وهو سبحانه يشهد والله خير الشاهدين كقوله (**قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ**) الإسراء/٩٦، فهو سبحانه الذي أرسلنا لنلقي حجته الرسالية عليكم، وأكّدوا رسالتهم هنا بلام التوكيد (**لَمُرْسَلُونَ**) لأنه جواب المنكرين، وقال الرسل ذلك بعدما قامت الحجة بظهور المعجزات الخارقة للعادة الدالة على قطعية صدق الرسل، كإبراء الأكمه والأبرص وشفاء الأعمى والأمراض المستعصية وإحياء الموتى، وكلها تحصل (**بإذن الله**) إنها بيّنات واضحات الدلالة على أنها إعجازية خارقة للعادة ولكنهم لم يقبلوها، إن الرسل ألزموهم بذلك النظر في معجزاتهم ليعلموا أنهم صادقون مع الله، ١٧– (**وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**) إن وظيفة الرسل (**البلاغ المبين**) الذي يحصل به توضيح الأمور الرسالية المطلوبة بيانها بوضوح وصراحة، والناس بعد ذلك أحرار فيما يختارون لأنفسهم من طريق كقوله (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥، وبعد ذلك ليس لهم من الأمر شيء كقوله (**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**) آل عمران/١٢٨ فإن آمنتم فلكم سعادة الدنيا والآخرة، وإن كذبتم فلكم الشقاء والخسران، ووصف البلاغ بـ (**الْمُبِينُ**) الواضح بالآيات والدلالات، الشاهدة بصحة الإرسال من قبل الله تعالى.

١٨ – ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ولما ضاقت بهؤلاء المكذبين الحيل وأعيتهم الحجج، لجؤوا إلى منطق القوة وإظهار الكراهية والتشاؤم والتهديد والوعيد (**قَالُوا**) قال الكافرون من أهل القرية (**إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ**) **تَطَيَّرْنَا:** تشاءمنا، أي إنا تشاءمنا بكم ومنكم وبدعوتكم لنا إلى الإيمان برسالة الله! ونتوقّع الشر في

دعوتكم، لأن المصائب والمحن إنهالت علينا منذ وصولكم لمدينتنا، ولأن دعوتكم تُفَرّق مجتمعنا إلى فئتين: معكم وعليكم، فسكوتكم خير لنا ولكم، فإن لم تنتهوا عنا فإنا لن نسكت عنكم ولن ندعكم تواصلون دعوتكم (**لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا**) ونقسم بالله لئن لم تمتنعوا عن الدعوة إلى التوحيد الله ورفض ديننا (**لَنَرْجُمَنَّكُمْ**) لنشتمنكم ولنقتلنكم رجماً بالحجارة حتى تموتوا شَرَّ قتلة! **والرجم**: الموت صبراً بالحجارة، وهي طريقة إعدام بتعذيب مؤلم مذل بطيء مهين، تجمع بين الألم الجسدي والعذاب النفسي كقوله (**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**) البروج/٨ (**وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا**) وليصيبكم مِنّا (**عَذَابٌ أَلِيمٌ**) عذاب موجع لا تتصوّرونه! وهكذا أسفر وصرّح الباطل عن قباحته وشراسته ضد أهل الحق والصلاح، فيعمدون إلى المواجهة العنيفة والأسلوب الغليظ بالتهديد والوعيد في مقاومة الحجة العلمية، ومن ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق!

فائدة:

ووجّهوا تشاؤمهم برسل الله، وهذا التشاؤم وَهْمٌ وخرافة من خرافات الجاهلية.

كقوله (**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) الأنعام/٤٣، إنهم دعوهم إلى دين الله الحق غير ما يدينون به عبادة مادون الله، فاستغربوه واستقبحوه ونفرت عنه طبيعتهم المعوّجة الغليظة، فتشاءموا من الرسالة السماوية الجديدة الهادية، كالذي يعيش في الظلام فعندما يأتيه النور ينكمش عنه ويتضايق منه كقوله (**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**) يونس/٣٢، **عن الإمام علي** (ع) (إِنَّهُ مَنْ لاَيَنْفَعُهُ الحقُّ يَضُرُّهُ البَاطِلُ، وَمَنْ لا يستقم بِهِ الهُدَى يَضرُهُ الضَّلاَلُ، وَمَنْ لاَيَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشَّكُّ) كنز العمال خبر٤٤٢٢٥ ، ومن العجيب أن يجعل من قدم لهم بأجل النعم هي نعمة الهداية والاستقامة، التي فيها الكرامة والسلامة بلا أية ندامة ولا ملامة، فيتشاءمون منها وتأخذهم العزة بالإثم، كقوله (**ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا**) غافر/١٢، وقوله (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) الزمر/٤٥.

١٩ – ﴿ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾

(**قَالُوا**) قال لهم المرسلون بملاطفة ووداعة وَخُلُقٌ جليل وصبر جميل (**طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ**) شؤمكم ملازم لكم، وأنتم تحملون سبب شؤمكم وتعاسة نفوسكم وضيق تفكيركم، إنما هو (**مَعَكُمْ**) ومنكم ولكم ويعود ضرره عليكم ومرتبط بأعمالكم، وأنتم كتبتم على أنفسكم الشؤم كله، بسبب جهلكم وإقامتكم على الكفر وعنادكم على الفساد وسوء عقيدتكم، وأعمالكم الفاسدة الضارة لكم ولغيركم كقوله (**فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ**) الأعراف/١٣١، وقوله (**وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ**

ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧ وقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣ وقوله **(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)** طه/١٢٤، **عن بعض الصادقين (ع): إِنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةٌ:** (رَجُلٌ يَعْلَمُ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْلَمُ فَذَاْكَ مُرْشِدٌ عَالِمٌ فَاتَّبِعُوُهُ، وَرَجُلٌ يَعْلَمُ وَلاَ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْلَمُ فَذَاْكَ غَاْفِلٌ فَأَيْقِظُوُهُ، وَرَجُلٌ لاَ يَعْلَمُ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ يَعْلَمُ فَذَاْكَ جَاْهِلٌ فَعَلِّمُوُهُ، وَرَجُلٌ لاَ يَعْلَمُ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْلَمُ فَذَاْكَ ضَاْلٌّ فَأَرْشِدُوُهُ) ميزان الحكمة١٠/٢٤٦ إن إرادة الله تعالى بالعبد تنفذ من خلال نفسه وأعماله وقناعاته ونواياه وهو يحمل طائره وتشاؤمه معه، من خلال فكره الضيّق وخياله المحدود وقناعاته الساذجة وأوهامه المنحرفة، والإنسان هو الذي يبني مستقبله الدنيوي والأخروي بنفسه، **في غرر الحكم (الإنسانُ حَيثُ يَضَعَ نَفْسَهُ)** لذلك يحمل طائره معه وشؤمه ملتصق به، وهو الذي صنعه بسوء تصرفه، وإن تشاؤمكم هذا نزق نفسي وعنجهيّة في التفكير وخرافة من خرافات الجاهلية الجهلاء!!

أما رسالة الإيمان والعلم والتوحيد فهي رسالة خير وبركة وأمن وأمان وصلاح وفلاح وأمل ونجاح واطمئنان قلوب، والواجب الملقى على الرسل أن تمضي في تبليغ الرسالة بالأساليب اللّيّنة المرنة إلى نهاية الطريق، فيكون شؤمكم منكم وهو تحريض شيطاني وليس بسببنا، وليس فينا ما يوجب التشاؤم، **(أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ)** أئن ذكرناكم بالحق كقوله **(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى)** الأعلى/٩، جواب الجملة محذوف لدلالة السياق عليه، وتقديره: قابلتموه بمثل هذا الجحود والتشاؤم والتهديد **(أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ)** أئن وُعظتم فهل جزاء الواعظ الناصح المحبّ لكم هو تهديده ووعيده؟! أترجمونه وتعذبونه لأنه ذكّركم ما فيه مصلحتكم؟ أفهذا جزاء التذكير بالخير؟! إن تدبرتم حجتنا لكم لعرفتم صحة ما قلناه لكم، فليس نقص الأدلة سبباً لكفركم.

(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ) مُسْرِفُونَ: متجاوزون الحد، أي بل أنتم قوم عادتكم الإسراف والتجاوز للحدود والأصول، وخرجتم عن قواعد العقل والتفكير السليم في العصيان والطغيان والإجرام والتمرد على الله، حقاً إنه أسلوب الطغاة العتاة البغاة الذين لا يفقهون لغة الكلام! وهو إنكار وتوبيخ لهم مع الزجر والتقريع، وينتهي موقف الرسل الكرام مع أصحاب القرية الغلاظ الشداد القساة إلى هذا الطريق المسدود! **فائدة:** عن النبي (ص) **(لاَ عَدْوَى وَلاَ طَيَرَةٌ وَلاَ شُؤُمٌ)** نور الثقلين٤/٣٨٢، والطيرة من أعراف الجاهلية السائدة ومن الخرافات والانحرافات والأوهام الشيطانية المشبوهة والمكروهة، فهي على ما أنت عليه! عن الإمام الصادق (ع) **(الطيرة على ما تجعلها، إنْ هَوَّنتها تَهوّنَتْ، وإنْ شدّدتَها تشدّدت، وإنَ لَمْ تَجْعَلهاْ شَيئاً لَمْ تَكُنْ شَيْئاً) والقاعدة:** بَشّروا ولا تنفِّروا، تفاءَلوا ولا تتشاءموا، حَبّبوا ولا تكرِّهُوا، تَوحَّدوا ولا تتفرَّقوا، **وكفارة الطيرة:** التوكل على الله تعالى، **في غرر الحكم** (حُسْنُ تَوَكُّلِ الْعَبْدِ عَلَى اللهِ عَلَى قَدَرِ ثِقَتِهِ بِهِ).

٢٠ – ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾

مقدمة: وفي هذه الأثناء برز نموذج المؤمن الصالح القوي في إرادته، الرقيق في معارضته، إنه النموذج الأمثل المعارض لأهل القرية، الكافرة المعاندة العنيفة الغليظة، إنه النموذج الصادق المميّز الذي استجاب لفطرته السليمة، وانشرح صدره لدعوة الحق المستقيمة، هذا الرجل الصالح النّبه سمع دعوة الرسل ورأى دلائل الحق وحجة العلم ودليل العقل والفطرة، فاستشعر قلبه حقيقة الإيمان واستذوق حلاوته، **(الإِيْمَاْنَ: مَاْ وَقَرَ فِيْ الْقَلْبِ وَصَدَّقَتْهُ الأَعْمَاْلُ)** فلم يطق عليها سكوتاً ولم يقبع في داره محتفظاً بعقيدته، وهو يرى الشرك منتشراً من حوله، فلا بد أن يجاهد في سبيل الله ويقول كلمة الحق في ظروف صعبة كقوله (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ) الحج/٧٨، عن النبي (ص) (أَفْضَلُ الجِهَاد كَلِمَةُ حَقٍّ عَنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ) كنز العمال خبر٤٣٥٨٨، وفي مجتمع معاند، فسعى بالحق إلى قومه المكذّبين ليقوم بواجبه في تبليغ قومه دعوة الحق وتأييدها، ومنعهم من الاعتداء على المرسلين المبلغين الصالحين، ليبين أن الحق لابد له من نصير، وأن الله يُهيّء الأسباب له من يدافع عنه من أهله، ليثبت سُنة الله الجارية في كل زمان ومكان وفي جميع الأحوال كقوله **(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)** فاطر/٢٤ وقوله (وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) الرعد/٧.

وقوله **(وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)** الأعراف/١٨١ وجاء **(رَجُلٌ)** بصيغة النكرة للإشارة إلى أنه كان فرداً عادياً، ليس له قدرة ومكانة اجتماعية وإمكانية مالية متميزة في المجتمع، ولم يكن هذا الرجل الصالح ذا جاه ولا سلطان، ولم يكن في منعة وحماية ونصرة من عشيرته، ولكنها العقيدة الحقّة المؤثّرة الحية في ضميره ترفع إرادته، وتدفعه من أقصى المدينة ليبلّغ رسالته الحقّة ويقاوم الفساد والمفسدين، بقدره وقدرته، في أجواء مشحونة بالبغضاء للحق والمملوءة بالشرك والمشركين.

المعنى: **(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى)** وجاء من أبعد موضع في المدينة **(رَجُلٌ)** صالح مؤمن مستضعف من أُباة الضيم ومن المقاومين للباطل، لم يشر القرآن إلى اسمه، لأنه يريد أن ينقلنا من (تجسيد الذات) والاعتزاز بالأنا إلى (تهذيب الذات، وتزكية النفس)، وصناعة الموقف البطولي الصحيح، ومن أجل أن يعلّمنا القرآن أن **(لا ننظُر إلى مَنْ قَال، وَلَكن انْظُر إلى مَاْ قَال)** كما في غرر الحكم، وهذا يدل أن صنع الموقف الجليل الكبير أهم من صاحبه العزيز، والإنسان يحيى بمواقفه المميزة أكثر مما يحيى بعمره المحدود، واتفق المفسّرون أن اسمه **(حبيب النجار)** المعروف بمؤمن آل ياسين وقد آمن بالرسل عند ورودهم القرية، وكان منزله في أقصى وآخر منازل المدينة، ولكنه يعلم ما يدور فيها، وربّ قريب من قومه ولكنه غائب عنهم بفعله (وبالعكس)، فلما بلغه أن قومه قد كذبوا الرسل وهموا بقتلهم، قام بعمل جهادي استشهادي بطولي شريف وبادر مسرعاً للدفاع عنهم، والتخطيط والمبادرة أهم أسس النجاح في جميع الأعمال، خرج من بيته وجاء يسعى بجد وجهد وقصد، يريد أن يوصل رسالته قبل فوات

الأوان، وكانت مهمته عالية المضامين (**والهِمَةُ عَلى قَدَرِ المُهِمَّة**) للدفاع بلسانه عن المرسلين (**قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**)

حرصاً على نصح قومه لوجه الله، ومحذراً لهم من تكذيب رسل الله الصالحين، قال: يا قومي وأهل بلدي اتّبعوا هؤلاء المرسلين وصدّقوهم تنالوا خير الدنيا والآخرة كقوله (**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**) الأنفال/٢٤، وكانت منه معارضة ومبادرة نموذجية مناسبة سَبّاقَةٌ بالخير وفي محلها اللائق، واستعمل الحوار العقلاني الأخلاقي الهادئ اللّين مع بعض القيادات المتنفذة والقريبة من الملك المستكبر كقوله (**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**) آل عمران/١٥٩، **إذن**: فلا أسلوب واحد، ولا توقف في الابداع، ولا جمود في الأداء، وهناك مرونة في التعامل، والانفتاح على الآخر، وصلابة في القيم والمبادئ، وأن يكون أسلوب الحوار الفنّي المؤثر أهم من حجة الحوار ويتقدم عليها. راجع للتوسعة/ الفكر الحركي في القرآن/ مجلة المصباح التي تعنى بالدراسات القرآنية/ العدد (١) سنة ٢٠١٠. بقلم الباحث مكي قاسم البغدادي.

٢١ – ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾

ثم أخذ الرجل (**مؤمن آل ياسين**) وهو يجاهد ويضحّي ويقاوم الباطل ويقول لقومه المكذبين: إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة الصالحة وهو لا يطلب أجراً ولا يبتغي مغنماً إنه لصادق، وإلّا فما الذي يحمله على هذا التكليف الصعب في طريق ذات الشوكة إن لم يكن يلبّي تكليفاً من الله، وهو لا يجني من وراء ذلك كسباً مادياً ولا يطلب أجراً ولا جاهاً ولا منصباً (**وَهُمْ مُهْتَدُونَ**) إلى نهج سليم وإلى طريق مستقيم، بالإضافة إلى النزاهة المالية العقائدية، فهداهم واضح، فهم يدعون إلى الله الواحد، ومنهج واحد، وعقيدة حقة مستقيمة واحدة، عقيدة لا خرافة فيها ولا غموض ولا غلو ولا تطرّف، **المعنى**: (**اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا**) اتبعوا من يعلّمكم وينصحكم ويعظكم بمواعظ بالغة الأهمية، ولا يطلب منكم ولا يشترط عليكم أي أجر مادي أو معنوي، ولا يطلب شكراً ولا علواً وليس عنده أي غرض فاسد يخفيه، ولا مرتبط بجهات مشبوهة، فهو متوجّه إلى وجه واحد يكفيه الوجوه كلها، ويحمل همّاً واحداً يكفيه الهموم كلها على دعوته وتبليغ رسالته، فلعلّ من يدعو ويبلّغ ولا يأخذ أجرة مادية ولكنه مشبوه وعميل وليس على الحق! ثم قال (**وَهُمْ مُهْتَدُونَ**) ملتزمون بهدى الله بقوله (**إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى**) البقرة/١٢٠، مستقيمون على منهج الله، يجتنبون ما يسخط الله، ويعملون ما ينفع الناس –كل الناس– ويرضى الله وإن خالف هواهم كقوله (**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**) يوسف/١٠٨، **في غرر الحكم** (خَيْرُ النّاسِ مَنْ نَفَعَ النَّاسَ)

فائدة:

في الآية إشارة ذم صريحة للمتاجرين بالدين، الذين يمرّرون خططهم ومصالحهم الشخصية ومشاريعهم الدنيوية باسم الدين، **عن النبي** (ص) **(ويلٌ لمن طَلَبَ الدّنيا بالدّين)** كنز العمال خبر٢٩٠٩١، والذين يسرقون أموال كثيرة من عامة الناس بأساليب متنوعة باسم الدين، أو بشعارات المؤمنين أو بمواقع العلماء الصالحين البارزة في المجتمع، في غرر الحكم (الْمُصِيْبَةُ بِالدِّيْنِ أَعْظَمُ الْمَصَاْئِبِ) **ونحن نقول: اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا**، كقوله (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) البقرة/٤٢. في غرر الحكم (لاَ يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ دِيِنِهِمْ لإِصْلاحِ دُنْيَاهُمْ إِلاّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ) وفيه أيضاً (مَنْ جَعَلَ مُلْكَهُ خَاْدِمَاً لِدِيْنِهِ إِنْقَاْدَ لَهُ كُلُّ سُلْطَاْنٍ، وَمَنْ جَعَلَ دِيْنَهُ خَاْدِماً لِمُلْكِهِ طَمَعَ فِيْهِ كُلُّ إِنْسَاْنٍ)! **وفيه أيضاً** (كَمْ مِنْ ضَلاَلَةٍ زُخْرِفَتْ بِآيَةٍ مِنْ كِتَاْبِ اللهِ، كَمَاْ يُزَخْرَفُ الدِّرْهَمُ النُّحَاْسُ بِالْفِضَّةِ الْمُمَوَّهَةِ)

٢٢ – ﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

ثم التفت الرجل الصالح الناصح (مؤمن آل ياسين) إلى قومه المكذبين وخاطبهم بتلطّف في الإرشاد وشفافية في التعبير، وهو ينصحهم في أسئلة إنكارية ينكر بها الرجل على نفسه، لماذا لا يكون من العابدين لله تعالى كقوله **(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا)** السجدة/٢٢، فإنه يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه، فتحدث عن أسباب إيمانية وناشد قومه بفطرته السليمة الشاعرة بالخالق المؤمنة بالفاطر، التي استيقظت فيه وتحرّكت معه، فاقتنع علمياً بالبرهان مع الحجة والبيان **المعنى**: **(وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي)** وما الذي يمنعني أن أعبد الله الذي **(فَطَرَنِي)** أي خلقني من العدم إلى الوجود، فصوّرني فأحسن صورتي، وأكرمني فأحسن تكريمي، ورحمني فأحسن تربيتي، ووضع فيَّ فطرة التوحيد وحبَّ الإيمان كقوله **(فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ)** الروم/٣٠ هو سبحانه الذي يستحق أن يُعبد ويُطاع ولا يُعصى، وهذه دعوة رسالية غير مباشرة للدعوة على التفكّر والتأمّل. **(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)** وعَلِمَ أن المخلوق لابد أن يرجع إلى خالقه بعد الموت وعند البعث والنشور للحساب والجزاء في النهاية، والأمور بالخواتيم، كما يرجع كل شيء إلى مصدره الأصيل كقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) الانشقاق/٦، فمن الله البداية وإليه تكون النهاية (وَالْذِيْ لاَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَنْتَهِيْ، لاَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ)

٢٣ – ﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾

إنه تساؤل الفطرة السليمة الشاعرة بالخالق الواحد، ثم يستعرض المنهج الآخر المخالف للفطرة السليمة فيراه ضلالاً بيّناً، وهل أحد أضلّ ممن ينحرف عن منهج الخالق المستقيم، إلى آلهة مزعومة ضعاف لا يحمون أنفسهم ولا يحمونه، ولا يدفعون عنه الضرر حين يريد به خالقه الضرّ بسبب ضلاله وانحرافه؟! وهم لا يَخْلُقُونَ شيئاً وهم يُخْلَقُونَ، **المعنى**: **(أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً)**

استفهام إنكاري للنفي، أيعقل أن اتّخذ (من دون الله) آلهة نعبدها وهي لا تملك من الأمر شيئاً، والله خالقي ومصوّري ومدبّر أمري ورازقي؟! **(إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ)** لو أرادني الرحمن أن ينزل بي السوء والبلاء والعناء، بأن يبتليني ببعض الضرّ والأذى والآلام النفسية أو الجسدية، أو يذيقني بعض المصاعب والمصائب والمحن والأمراض المستعصية غير العادية، ويكون **(الْبَلاَءُ عَلَى قَدَرِ الطِّبَاْعِ)** **(لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا)** لا تدفع عني وساطتهم، ولا تنفع شفاعتهم التي زعموها شيئاً من الضرر كقوله (لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ) النجم/٥٨ وقوله (وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ) الأنعام/١٧ **(وَلَا يُنْقِذُونِ)** ولا هم يستطيعون انقاذي وخلاصي من عذاب الله من ذلك الضرر والعناء.

٢٤ –٢٥- ﴿ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾

(إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) إني إن عبدت (من دون الله) أي إله مادي أو معنوي، واتّخذت بديلاً عن الله كعبادتي لهواي، (والهَوَى إِلَهٌ مَعْبُودٌ) كقوله **(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)** الفرقان/٤٣، لكنت في عبادة باطلة وطاعة ضارة وفي بُعْدٍ واضح عن الحق والعقل وأكون **(لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)** وعمى وهوى وخسران ظاهر وواضح كقوله (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) يونس/٣٢، ٢٥- **(إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ)** ويقرر الرجل المؤمن الصالح المقاوم للواقع الفاسد والمجاهد في سبيل الله، والمضحّي بنفسه من أجل إعلاء كلمة الله وبيان كلمة الحق **(والجود بالنفس أقصى غاية الجود)** يقرر قراره الآخير، ويُعلن في وجه قومه المكذّبين المهدِّدين له، يُعلن إيمانه الصريح في أجواء كافرة رهيبة منحرفة وشرسة! إنها كلمة الواثق من نفسه ومن قراره القطعي ومن قلبه المطمئن، وأشهد قومه الغلاظ الشداد على إيمانه، وهو يشجّعهم أن يقولوها كما قالها، **وأنه لا يبالي أن يقول كلمة الحق في مجتمع جائر! ولا يلتفت إلى ماذا يقولون، وماذا يفعلون**، ولا يعتني بهم وبردود أفعالهم التي عادة تأتي بانفعال وتوتّر غير متوازن! إنه صوت الفطرة السليمة في قلبه النقي أقوى من كل تهديد وأشدَّ من كل وعيد ومن كل تكذيب، ولا يعتمد هذا الإعلان الصريح لإيمانه بالله في هذه الأجواء الملتهبة إلاّ من هو مشروع فدائي بطولي، وله استعداد للشهادة والتضحية والفداء بكل وفاء، ولا يبالي بالموت في سبيل نصرة الحق والاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة التوحيد، فإنه مقاوم مستميت، (والمستميت لا يموت)! (رُبَّ حياة سببها طلب الموت، وموت سببه طلب الحياة)كقوله **(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ)** البقرة/٢٠٧، **البقاء**

الصحيح: إنّ بقاءك إلى فناء، وفناءك إلى بقاء، فخذ من فنائك الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى!

(**إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ**) الذي خلقكم، فاشهدوا لي واعملوا بنصيحتي (**فَاسْمَعُونِ**) واسمعوا قولي ووعظي ونصحي الثمين، وتفكّروا فيه واقبلوه، فهو بهذا الموقف المبدئي المقاوم يظهر صلابة إرادته وقوة يقينه بالله وبرسالته وبرسوله الحق وعدم المبالاة بالقتل في سبيل الله، فهو شهادة وسعادة، (وكرامته من الله الشهادة)

والشهادة: تعديل كامل لمفهوم الموت، متى كان في سبيل الله، ولئن كان الناس يعبرون إلى الموت عن طريق الحياة، إنَ الشهيد يعبر إلى الحياة السامية عن طريق الموت المقدّس! **إن الشهادة**: انتصار الإيمان على الألم، وانتصار القيم والمبادئ على إرادة الطغاة، وانتصار دماء الشهيد على تكنولوجيا الحرب الحديثة! **والشهيد**: أتقن فن الموت المبدئي واختار موتاً حركياً حضارياً واعياً مليئاً بالحياة المؤثرة، وبدافع الإيمان وبروعة الثبات، وبزينة الرضا، وبجمال الخلود! كقوله (**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**) آل عمران/١٦٩ عن الإمام علي (ع) (اطْلُبُوا الْمَوْتَ، تُوَهَبُ لَكُمْ الْحَيَاةُ)!موسوعة الشهادة١/٢٨٧، فإن من توجّه إلى وجه واحد يكفه الوجوه كلّها، ومن تحمّل همّاً واحداً يكفه الهموم كلها، فكانت خطبته المميزة هذه نصحاً وعظة لقومه وهو يقول (اللّهُمَّ أهَدِ قُوَمِي فَإنْهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ، وَاجْعَلْنِي خَيْراً مِمَا يَظُنُّونَ) **فلم تنفع خطبته الصريحة بلسانه ووعظه، ولكن نفعت خطبته بدمه، فكانت خطبة شهادته وتضحيته مشرّفة أبلغ تأثيراً من خطبة كلامه!** وهكذا إن لم تكن الحياة كما تريد فليكن الموت كما تريد، **عن النبي** (ص) (أشرَفُ المؤت قَتْلُ الشَهادة) البحار١٠٠ص٨، وأفضل حياة، حياة الشهداء في سبيل الله! وهكذا يُقدِّر المصلحون في مواجهة المجتمع الضال المضل، وهكذا يتحدّون بأنفسهم الخالية وبروحهم الغالية، مجتمع شرس ولا يبالون بنتائج هذا التحدّي، ولكنهم هجموا عليه ورموه بالحجارة وانتقموا منه (**فقتلوه**) ظلماً وعدواناً، إنها وحشية الحمقى، واعتداء الهمج الرعاع، ولم يكن أحد يمنع عنه أذاهم ويدافع عنه! **في غرر الحكم** (إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل) كقوله (**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**) البروج/٨، كقوله (وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) الحج/٢٥ وفي هذه الآية قرنت الإلحاد بالظلم، لأن كل ظلم إلحاد، وكل إلحاد إنكار وظلم وكفر وفساد واعتداء! عن النبي (ص) (كمصداق) (**سُبَّاقُ الأمم ثلاثة، لم يكفروا بالله طرفة عين: علي بن أبي طالب (ع)، وصاحب ياسين، ومؤمن آل فرعون، فهم الصدّيقون وعَليٌّ أفضلهم**) مجمع البيان٨/٢٩٦، ذكره كثير من المصادر الكبيرة منها الكشاف للزمخشري. في غرر الحكم (الْمَغْلُوبُ بِالْحَقِّ غَالِبٌ، الْغَالِبُ بِالشرِّ مَغْلُوبٌ). **وفيه أيضاً** (مِنْ أَفْحَشِ الظُّلْمِ، ظُلْمُ الْكِرَامِ)

والذي يَقْتُلُ الفضلاء فإنه يقتل الفضيلة ويُحيي الرذيلة! ويكون من الأشرار **في غرر الحكم** (شرّ النّاس مَنْ كافأ عَلى الجميل بالقبيح)

٢٦ – ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾

يوحي السياق القرآني البليغ للقصة بعد ذلك، أنهم لم يمهلوه أن قتلوه صبراً (**فمات شهيداً سعيداً عزيزاً مكرّماً**) عن النبي (ص) (**أَشرفُ الْمَوْتِ قَتْلُ الشَّهَادَةِ**) البحار١٠٠ص٨، لأنه **تبنّى أفضل الجهاد**: كلمة حقّ أمام مجتمع جائر! وإن كان القرآن الكريم لا يذكر شيئاً من شهادته صراحة، وإنما يجعل منزلة الشهداء كرامة خاصة له، كرامة مليئة بالمفاجآت والمخبّآت! إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها، وعلى القوم المجرمين وما هم فيه كقوله (**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا**) غافر/٤٥، **ولكن السياق القرآني الدقيق يرفعه على عجالة لنراه في العالم الآخر**، وهو يستذوق نعيم الله وكرامته ونعمته ومن المغفرة والرحمة، بما تليق بمقام المؤمن الشجاع المضحّي الشهيد المقاوم للشرك والفساد، ويذكر قومه ويتمنى لو يراه قومه الذين آذوه وقتلوه، ويرون ما آتاه ربه من فضله من الرضا والكرامة والعزّة، ليعرفوا الحق معرفة اليقين، لا ليتهوَّروا مع هذه الحقيقة الكبرى، ولا ليدعو عليهم تشفّياً من قومه، **المعنى**: (**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ**) عندما قتلوه فمات شهيداً سعيداً، فانتصر بالشهادة، فقالت له الملائكة عندها بوحي من الله، قولاً مباشراً وفي الحال وبلا فاصل وبسرعة وبدون تأخير، **يُصَوِّر** السّياق البليغ مشهد دخوله جنة النعيم وكأنه يستذوق نعيمها مباشرة الآن، **وكأنما تتصل الحياة الدنيا بالحياة الآخرة** لأن (الدُّنْيَاْ مَزْرَعَةُ الآخِرَةِ) ونرى الموت مجرد نقلة من عالم الفناء المؤقّت إلى عالم الخلود، ونرى الموت خطوة عادلة، ترفع الحاجز السَّميك بين ضيق الأرض وجاذبيتها المحدودة المادية إلى سعة العالم الآخر ذي الآفاق اللامحدودة المعنوية، عالم الجزاء والحساب حيث الجنة الواسعة، ونرى الموت نعمة هو مجرد نقلة من تطاول الباطل إلى طمأنينة الحق، ومن تهديد البغي إلى سلام النعيم، ومن ظلمات الجاهلية الجهلاء إلى نور الهدى والتقى والرحمة واليقين، **عن النبي (ص)** (مَنْ مَاْتَ فَقَدْ قَاْمَتْ قِيَامَتُهُ) روح البيان٣/٢٢ (**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ**) جنة البرزخ قبل الجنة الكبرى الموعودة في يوم القيامة، عن النبي (ص) (**الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوَ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ**)البحار٦/٢٦٧، **وعنه (ص)** (أَوَّلُ عَدْلِ الآخِرَةِ القُبوُر، لا يُعرف فيها غنيّ من فقير) مستدرك الوسائل١/١٤٨، فيكون في روضة من رياض الجنة، جزاء على صدق إيمانه ومقاومته لواقعه الفاسد وفوزه بالشهادة ومنازل الشهداء السعداء، فدخل الجنة فائزاً مُكرّماً ويرزق من نعيمها الخلّاب والجذّاب ما يشاء، وقد أذهب الله عنه شَرَّ الأشرار وشَرَّ الفجار وشَرَّ طوارق اللّيل والنهار كقوله (**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ**) فاطر/٣٤، ولما دخل الجنة مع الشهداء السعداء (**قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ**) **عن الإمام الصادق** (ع) (يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب) الكافي٢/٢٠٨، فلما دخل الجنة وشاهد نعيمها

وتكريمها، وأنه في رحاب الله وتكريمه كقوله (**وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**) الحديد/١٩، بسبب مقاومته للباطل وإيمانه الصادق وصبره الجميل قال ابن عباس (**نصح قومه في حياته، ونصحهم بعد مماته**) وإنما تمنّى علم قومه بحاله ومعرفتهم بمنزلته، ليحملهم ذلك على اكتساب الثواب والأجر والدخول في رحاب الإيمان وترك الكفر، فإنه يحبُّ الخير لنفسه كما يحبه لغيره حيّاً وميّتاً! وكان يتمنّى من قومه أن يؤمنوا فينالوا ما ناله هو وليعلموا حسن مآله وجلال عاقبته وجمال خاتمته (والأمور بالخواتيم) كقوله (**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**) القمر/٥٥، (ولاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ). **في غرر الحكم** (مكروه تُحمد عاقبته خيرٌ من محبوب تذمُّ مغبّته (خاتمته))

٢٧ – ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾

وفي اللحظة التي مات فيها شهيداً سعيداً، فتح الله عليه نعيم الجنة، فعاين ما عاين من كرامة الله للشهداء في سبيله وثوابه لهم، ففرح واستبشر بأنعم الله، وأيضاً تألم وتَحَسَّر على قومه الأجلاف الشداد الغلاظ، وتمنّى لو أن مخبراً يُحدّث قومه عما هو فيه من بحبوحة نعم الله، وألحقه الله في عباده الصالحين، كي يتوبوا ويستغفروا فيشاركوه هذه السعادة الكبرى! **ونحن نتساءل**: فهل هذا مؤمن، ونحن مؤمنون؟ بل ندّعي إنّا حماة الدين؟! فهل نحبّ لغيرنا ما نحبه لأنفسنا؟! فهل نقدّم مصلحة ديننا وأمّتنا على مصلحتنا الشخصية؟! **المعنى**: (**بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي**) بأن الله غفر لي ذنبي، لأن الشهادة تكفّر الذنوب إلاّ الديّون والحقوق العالقة مع الخلق، عن النبي (ص) (**يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلّ ذَنْبٍ إلاّ الدَّيْن**) صحيح مسلم لشرح النووي١٣ص٣٠ (**وَجَعَلَنِي**) عنده سبحانه (**مِنَ الْمُكْرَمِينَ**) وهو في غاية الإكرام والاحترام والتعظيم كقوله (**وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**) آل عمران/١٥٧، عن النبي (ص): **يعطى للشهيد ست خصال** (عند أول قطرة من دمه يُكَفّر عنه كل خطيئة، ويرى مقعده من الجنة، ويزوّج من الحور العين، ويؤمّن من الفزع الأكبر، ومن عذاب القبر، ويحلّى حلّة الإيمان) مجمع الزوائد٥ص٢٩٣، (**مِنَ الْمُكْرَمِينَ**) **والإكرام**: إعطاء المنزلة الرفيعة على وجه التقدير والإعظام، **وفي هذا دلالة**: على نعيم القبر، لأنه إنما قال ذلك وهو في عالم البرزخ وقومه أحياء، إذا جاز نعيم القبر جاز عذاب القبر. وجاز المعاد إلى يوم القيامة، **في غرر الحكم** (بئس الزاد إلى المعاد، العدوان على العباد)

الجزء الثالث والعشرون من القرآن الكريم

٢٨ – ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾

ماذا حصل من جزاء الإيمان من بعد قتل الشهيد السعيد (**مؤمن آل ياسين**) الذين اعتدوا عليه ظلماً وجوراً، فأما جزاء طغيانهم المهين فكان أهون على الله من أن يرسل عليهم ملائكة تدمرهم، ولا يطيل هنا السيّاق القرآني في وصف مصرع القوم تهويناً لشأنهم وتصغيراً لقدرهم،

المعنى: (**وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ**) وضمير (**قَوْمِهِ**) يعود إلى مؤمن آل ياسين الذي قال لقومه (**اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**) أي وما أنزلنا على قومه المعتدين عليه بعد استشهاده، أن نتكلّف بعقوبتهم فننزل جنداً من السماء لهلاكهم انتقاماً له، وهذا تحقير لهم وتصغير لشأنهم عند الله، فلا يحتاجون إلى عُدّةٍ وَعَدَدٍ من الملائكة المقاتلين لتدميرهم (**وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ**) وما فعلنا ذلك في إهلاكهم لعدم الحاجة إليه، لأن الله سبحانه يهلكهم بأيسر الطرق وأسهلها من نزول ملائكة العذاب كجند السماء! لتكون العقوبة من جنس العمل.

٢٩ – ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾

(**إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً**) ما كانت عقوبتنا لهم (**إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً**) رهيبة قاصمة حاسمة لا ثاني لها، وفي لحظة خاطفة تقلب حياتهم جحيماً، وتأتي بغتة وفجأة بلا مقدمات، صاح بهم جبرائيل صيحة العذاب المرعبة المزلزلة، صيحة الموت الواحدة الموحدة التي لا تتكرر، قد تقطّعت قلوبهم وسكنت عروقهم في أجوافهم، فلم تَبق روح في جسد، وتصبح قصورهم قبورهم، كقوله (وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) الحج/٤٥ (**فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**) فإذا هم فجأة مهلكون ميّتون أذّلاء محتقرون قد أخمدت أنفاسهم، فلا صوت ولا حركة ولا حياة، ذهبت منهم حرارة الحياة، كما تذهب حرارة النار حين الخمود، وفي الآية استحقار لإهلاكهم فإنهم أذل وأهون على الله من أن يرسل عليهم ملائكة العذاب لإهلاكهم! **وفي هذا إشارة إلى أنّ الحيَّ كشعلة نار موقدة، والميّت كالرماد**، ويسدل السيّاق القرآني الستار على مشهدهم البائس الذليل المهين للاعتبار! **في غرر الحكم** (الإِعْتِبَارُ يُفِيْدُ الْعِصْمَةَ)

٣٠ – ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

يستعرض الله سبحانه مشهداً مؤلماً من مشاهد يوم القيامة، يرون فيه مصيرهم الذي إليه يستعجلون، وكأنه حاضر تراه عيونهم، إنه نداء الرب الرحيم الذي يشفق على عبيده ليرحمهم، الله سبحانه لا يتحسّر على العباد (**الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ**) إبراهيم/٢٨، ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء المكذبين المعاندين المستهزئين مما يستحق معه حسرة المتحسّرين، **والحسرة**: حالة بائسة مؤسفة تنتهي بأصحابها إلى شرّ وخيم وبلاء عظيم، تتاح لهم فرصة النجاة فيعرضون عنها، ويفتح الله لهم أبواب رحمته فلا يتدبّرونها ولا ينتفعون بها، وهم فوق ذلك يسيئون الأدب مع الله ورسوله ورسالته، وكأنهم من دون وعي ولا عقل، كقوله (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) فصلت/١٧.

المعنى: (**حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ**) **الحسرة**: انفعال نفسي عميق على حال مؤسفة مضت ومرّت لا يملك الإنسان شيئاً حيالها، سوى أن يتحسّر ويغتم ويتألم ويندم بشدة كقوله (**لِيَجْعَلَ اللَّهُ**

ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ) آل عمران/١٥٦، في غرر الحكم **(عِنْدَ مُعَايَنَة أهوُال القِيّامة تُكْثَرُ مِنَ المُفَرّطِينَ النَّدامَة)**

ياحسرة: أي يا أسفا **(عَلَى الْعِبَادِ)** وهم عامة الناس المكذّبين الّلامبالين المعاندين في كل زمان ومكان، ويا ندامة الناس المترفين وخيبتهم وحرماهم وخسراهم حيث بدلوا الإيمان بالكفر، والسعادة بالشقاوة والخسران، فظلموا أنفسهم بتكذيبهم كل رسول جاءهم من عند الله، ليهديهم إلى صراطه المستقيم ويلقي الحجة عليهم، ولكنهم كانوا يسخرون من الرسل، وهكذا عادة المجرمين في كل زمان ومكان، إنه من الحق أن يُتحَسّر عليهم لفخامة الأمر وشدّته وعاقبته الخطيرة والمريرة، ثم بيّن السبب الموجب للحسرة والندامة لأنه **(مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)** فيستحقّون بذلك الهلاك في الدنيا والآخرة، وهذه الحسرة تعبير عن سوء العاقبة والمصير الوخيم، وهذا تشبيه بطبائع كفّار مكة بحال أصحاب القرية المكذّبين، وبّخ المشركين على عدم اعتبارهم والاتعاظ بمن سبقهم **(وَمَنْ لاَ يَتَّعِظُ بِالْمَاضِيْنَ كَاْنَ عِبْرَةً لِلْبَاْقِيْنَ)** **في نهج البلاغة خطبة٨٦** **(السَّعِيْدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ)** كقوله (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) فاطر/٨.

فائدة: سؤال: فما الفائدة من الحسرة بعد فوات أواها؟ **الجواب**: النداء بالحسرة باب تنبيه واستدراك الأمر للباقين، كقوله (ياويلتا، وياحسرتا) **عن الإمام الصادق** (ع) (إِنَّ الْحَسْرَةَ وَالنَّدَاْمَةَ وَالوَيْلَ كُلُّهُ لِمَنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَاْ أَبْصَرَ ، وَمَنْ لَمْ يَدْرِ الأَمْرُ الَّذِيْ هُوَ عَلَيْهِ مُقِيْمٌ، أَنَفْعٌ هُوَ لَهُ أَمْ ضَرَرٌ) البحار٦٩/٢١٨

٣١ – ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

(أَلَمْ يَرَوْا) ألم يعلم هؤلاء الكفار، ألم يعتبروا **(كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ)** **(كَمْ)** هنا تفيد الكثرة، أي الكثير من الأمم المكذّبة المعاندة السابقة عليهم، أهلكناهم كعاد وثمود وغيرهم، وهذه آثارهم تدل عليهم، ولكن المكذّبين كأنهم عمي لا يبصرون، **(مِنَ الْقُرُونِ)** من الأمم الذين يعيشون في عصر واحد لاقترانهم في الوجود **(أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ)** كيف أنهم لا يتمكنون من الرجوع إلى حياتهم المترفة لأنهم لا يرجعون إلى الدنيا حتى يعرفوا أنهم على خطأ في عقائدهم وعباداتهم، فكما أنهم انقرضوا إلى حيث لم يعودوا إلى ما كانوا، فكذلك هؤلاء سيهلكون وينقرضون مع آثارهم ثم لا يعودون، ولكن لهم عودة بعد ذلك للحساب والجزاء، فعليهم أن يؤمنوا الآن الآن وليس غداً، عليهم أن يؤمنوا قبل فوات الأوان كقوله **(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى)** الدخان/٥٦، لقد كان في هذه الحقيقة الكبرى عظة لمن يتدبّر ويتفكّر، ولكن العباد البائسين الغافلين لا يتدبّرون ولا يعقلون، فأية حالة مأساوية تدعو إلى الحسرة والندامة كهذه الحالة المؤلمة؟! **في نهج البلاغة كتاب٣١** (مِنْ الفَسادِ إِضاعَة الزّادِ، وَمَفْسَدَة المعاَدِ) **فائدة**: هذه الآية ترد قول **(أهل الرجعة)** أي من يزعم أن من الخلق من يرجع

قبل القيامة بعد الموت إلى الدنيا. أما أحاديث الرجعة بحاجة إلى رعاية وتحقيق وتدقيق قبل روايتها واعتمادها **عن النبي (ص)** (هِمّةُ العُلماءُ الوعاية (الدراية) وهِمّةُ السّفهاء (الجهلاء) الرواية) كنز العمال خبر٢٩٣٣٧.

٣٢ – ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

وما كل هؤلاء الأمم الماضين والباقين والآتين إلّا ويبعثهم الله بعد موتهم، وإنهم ليسوا بمتروكين ولا مفلتين من حساب الله، فهم مجموعون (**جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ**) في محكمة الله الكبرى يوم القيامة للمحاكمة والحساب والجزاء العادل الذي لا ظلم فيه ولا مثقال ذرة كقوله (**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ**) التين/٨ وفي هذه الحقيقة دلالة إلى أن هناك قدرة هائلة وقوة قاهرة تستدعي للحضور والمثول للمحاكمة، ويحصل ذلك من دون اختيارهم، كقوله (**إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**) العلق/٨، **عن النبي** (ص) (إنّ عملَ الإنسان يُدفن معه في قبره، فإن كان العمل كريماً أكرم صاحبه، وإن كان لئيماً آلمه) روح البيان٧/٤٤٤، وقوله (**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**) الجاثية/٢١، والجزاء الأخروي حقيقة كبرى تقرّها جميع الأديان السماوية، وهي التي تعطي للحياة معناها، وتحلّ لغزها، وتشرق فلسفتها، وهي من أصدق الحقائق ومن أقوى البديهيات، ويقرّها العقل السليم، ويثبتها الدليل وينطق بها الواقع ويصدّقها العلم الحديث، وتؤيّدها النصوص الكثيرة من القرآن والسُنة، وهي إيمان بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان (**يَوْمُ الْقِيّامَةِ** مِيزَانٌ دَقِيْقٌ: فَمَنْ وَفّى، اسْتَوْفَى)! **فائدة:** جاء (**مُحْضَرُونَ**) بعد ذكر (**أَهْلَكْنَاهُمْ**) لبيان أن الله تعالى لا يترك المهلكين سدى بعد هلاكهم، ولكن بعد هلاكهم يحصل الحساب والثواب والعقاب في يوم القيامة الكبرى، وهذه حقيقة مهمة من الضروري الانتباه إليها والعناية بها. كقوله (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ) إبراهيم/٥١، **في غرر الحكم** (مَنْ أَيْقَنَ بِالْمجازاة، لَمْ يؤثر غير الحسنى)

٣٣ – ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾

ومن آيات الله الكونية الباهرة، والعلامات الظاهرة الدالة على كمال قدرة الله وإتقان صنعه وجمال وحدانيته هذه الآية العظيمة، التي تفتح العين ويتطلّع القلب فيرى يد الله المبدعة وهي التي تشق التربة عن النبتة والبرعمة المتطلّعة إلى حياة الحرية والنور كقوله (**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ، أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**) الواقعة/٦٣-٦٤، وكل ما في الوجود حولهم يحدثهم عن الله وكماله وجماله وجلاله، ويشهد بوجوده الذي يكون في كل شيء، ومع كل شيء، ومع كل جيل، وفي كل مكان وزمان كقوله (**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا**) المجادلة/٧، **عن الإمام علي** (ع) (مَا رَأَيْتُ شَيْئَاً إِلّا وَرَأَيْتُ اللهَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ وَمَعَهُ وَفِيهِ) مواهب الرحمن٧/٣٠٠ **المعنى:**

(وَآيَةٌ لَهُمُ) وعلامة لهم على ربوبية الله وتربيته للمخلوقات وتقديره للأمور، وتدبيره أرزاق خلقه، وقدرته على بعثهم ونشورهم إلى يوم القيامة الكبرى، والقيام بين يدي الله للجزاء على الأعمال هي **(الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ)** اليابسة الهامدة التي لا نبات فيها ولا زرع **(أَحْيَيْنَاهَا)** أحياها الله بماء السماء، **والحياة:** معجزة خارقة لا تملك يد البشر أن تجريها، في خلية حية واحدة لا ترى بالعين! إنما هي يد الله التي تجري المعجزات، وتثبت روح الحياة في الأموات، كقوله (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) الحج/٥ **(وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا)** وأخرج الله منها جميع أصناف الزروع والثمار والحبوب كالقمح والشعير والأرز.. إلخ **(فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)** فبعض منه يأكلونه وتعتمد عليه معيشتهم، والباقي تأكله أنعامهم، والفائض يكون للتصدير والتجارة إلى البلاد الأخرى كقوله **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى)** طه/٥٤.

فائدة: في الآية دلالة علمية على إمكانية إعادة الحياة والبعث والنشور بعد الموت، كما نرى الحياة تنبثق في الأرض بعد موتها! **قال إفلاطون:** لو لم يكن لنا معاد نرجو فيه الخيرات، لكانت الدنيا فرصة الأشرار، وكان القرد أفضل من الإنسان! **وقال دارون:** صاحب نظرية النشوء والارتقاء: **(يستحيل على العقل الرشيد أن تمر به ذرة من شك، في أن العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغة، والأنفس الناطقة المفكرة قد صدر عن مصادفة عمياء، لأن المصادفة لا تخلق نظاماً ولا تبتدع حكماً، وذلك عندي أكبر دليل على وجود الله).**

٣٤ – ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴾

(وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ) وجعلنا فيها بساتين ناضرة جميلة كثيفة الأشجار والأنواع والثمار وبالخصوص **(مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ)** وخُصّا بالذكر، وجاءا بصيغة الجمع لأن فيهما أنواعاً كثيرة ومنافع كبيرة وشهرة معروفة بين الناس **(وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ)** وفجّرنا في تلك البساتين بعض العيون والينابيع، ومن المياه الجوفية في أعماق الأرض، الماء العذب للشرب والري، ويعطي الأرض حياة خضراء جميلة ومفيدة.

٣٥ – ﴿ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

(لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ) بيّن سبحانه أنه إنما فعل ذلك ليأكل الناس من ثمار الأشجار المتنوعة وخاصة النخيل والأعناب، فهي قوت وفاكهة وأدام وغذاء لذيذ وفائدة، والتي لا تحتاج إلى تصنيع وإعداد، ونعم الله لا تعد ولا تحصى كقوله **(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)** إبراهيم/٣٤ **(وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ)** من الذي زرعوه بأيديهم، ومنه ما صنعوه كالدبس والعصير والخل ونحوها، ويد الله هي التي أقدرتهم على العلم والعمل وعلى كسب المال الحلال، كما أقدرت الزرع على الحياة والنماء، وأيضاً **(وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ)** ولم تعمل أيديهم هذه الأشجار

والثمار حتى يشاركونا في تدبير الأرزاق، بل هو مما اختص الله بخلقه رحمة بالعباد، لا بسعيهم وكدّهم ولا بحولهم وقوتهم ولهذا قال (**أَفَلَا يَشْكُرُونَ**)؟ الاستفهام للإنكار والنفي لترك الشكر، أي فليشكروا نعم الله المنعم شكراً قولياً باللسان، وشكراً عملياً مبدعاً صالحاً نافعاً على أرض الواقع كقوله (**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**) سبأ/١٣، وهو حث لهم على الشكر، أفلا يشعرون فضل الله ورحمته ويخضعون لأمره والاستقامة على منهجه من أجل الحصول على رضاه. **فشكره:** هو الاعتراف بربوبيته واتّخاذه إلهاً يعبد ويطاع، والذي يشكر النعمة يشكر المنعم، والذي يشكر الناس يشكر الله، والذي لا يشكر الناس لا يشكر الله، **عن النبي (ص)** (لاَ يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لاَ يَشْكُرُ النَّاسَ) روح البيان٦/١٢٩، **فائدة:** تشير الآية إلى الكسب الحلال والعمل الحلال، والمال الحلال، والشكر على كل حال، عن النبي (ص) (**إنّ مِنْ الذُّنُوبِ ذُنُوباً لا يُكَفِّرَهَا صُوْمٌ وَلاَ صَّلاَةٌ وَلاَ حَجّ، وَإنَّمَا يُكَفِّرَهَا سَعْيُ الرَّجُلِ عَلَى عِيَالِهِ**)تفسير المبين ص٥٨٢.

٣٦ – ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(**سُبْحَانَ**) للتنزيه والتعظيم، ثم نزّه الله سبحانه نفسه وعظّمها فهو العلي الكبير عن الشرك والشريك، والجليل المتسامي عن كل سوء وعن كل صفات النقص كالضعف والجهل، دالاً بذلك على أنه هو الذي يستحق منتهى الحمد وكمال الشكر، وهذا التسبيح بلسان الحال ولسان المقال، وهذا الحمد بلسان الوجود كله، وأنه إذا خرست ألسنة الضالين والمكذّبين عن التسبيح، فإن الوجود كلّه لسانه التسبيح والتنزيه والتعظيم وتمجيد الله والثناء عليه كقوله (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**) الإسراء/٤٤، وقوله (كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) النور/٤١، **المعنى:** (**سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا**) **الأزواج:** كلمة واسعة الدلالة تشمل الذكر والأنثى من كل الكائنات، والسالب والموجب، **والأزواج:** الأنواع والأصناف والأشكال، أي سبحان الله الذي خلق أصناف المخلوقات المتنوعة كلها العاقلة وغير العاقلة من (**الْأَزْوَاجَ**) من إنسان وحيوان ونبات، المختلفة الصور والأشكال والأحجام والألوان من جميع الكائنات والأصناف والأنواع والأشكال، إلى غير ذلك مما نجهل في السماء والفضاء وفي الأرض وتحت الثرى كلها (**مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ**) من أزواج النبات والحيوان وأصناف الأشجار والثمار ذات الأشكال المتنوعة وللمخلوقات كافة، فنوّع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده (**وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ**) أي خلق الأزواج المتنوعة (**وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ**) أي من الذكور والأناث، وفاوت بين صوّرهم وأشكالهم وخَلقهم وخُلُقهم وسيماهم وأصنافهم وأوصافهم وخصائصهم الظاهرية والباطنية (**وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ**) من أنواع المخلوقات العجيبة التي لم يروها ولم يسمعوا بها،

والأشياء الغريبة التي خُلقت وغابت عن علمنا والتي انقرضت والتي لم تُخلق بعد، والتي في بطون الأرض وفي أعماق البحار وغير ذلك، وكله مخلوق من أزواج.
كقوله (**وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**) الذاريات/٤٩، والآية تؤكّد على (**قانون الزوجية العام**) في كل شيء معروف وغير معروف في الكون والكائنات، إنه قانون الزوجية أثبته العلم الحديث في كل شيء، وبهذا القانون الزوجي العام تستدل على توحيد الله عز وجل لأنه لا يجري عليه قانون الزوجية العام، فهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**) الشورى/١١، وتوضّح هذه الآية أن الإنسان مهما بلغ من العلم، وهو في عصر يتفجّر منه العلم، ولكنه لا يزال يعرف القليل ويجهل الكثير كقوله (**وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**) النحل/٨، فقد خلق الله جميع الكائنات أزواجاً وأصنافاً، والنبات فيها كالإنسان! فترتبط الأشياء ببعضها البعض من خلال حاجة كل زوج إلى ما يتّحد معه من جنسه في حركة هذا الوجود العام، إنّ هذه الوحدة الواحدة الموحّدة المتّحدة في الخلق والتكوين، توحي بوحدة اليد المبدعة التي توجد قاعدة التكوين والتنظيم الجميل، والخلق والتنوع المذهل الجليل، فسبحان الله أن يكون له شريك في مُلكه، أو مثيل في تدبيره وتقديره وكماله، **يقول أهل الاختصاص**: إنّ المادة الجامدة مؤلفة من شيئين: سالب وموجب، ولولا هما لما وجد كائن، ولا مصدر لذلك النظام إلاّ المنظّم العليم، أما الصدفة فلا يلجأ إليها إلاّ قاصر أو مكابر.

٣٧ – ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴾

(**وَآيَةٌ لَهُمُ**) ودلالة وعلامة أخرى لهم من الآيات الكونية الظاهرة، التي تدل على كمال قدرة الله ودقة تدبيره وإحيائه الموتى وبعثهم ونشورهم بعد موتهم للحساب والجزاء (**اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ**) **نسلخ**: ننزع نفصل ونخرج، **أصل السلخ**: كشط الجلد عن الشاة وعن الحية، واستعمل هنا كناية تشبيهية عن وجود تعاقب الليل والنهار، نتيجة لكروية الأرض ودورانها حول نفسها، فيكون جانب الأرض الذي يقابل الشمس حين الدوران يصير نهاراً، وغير المقابل يصير ليلاً (وبالعكس) وهكذا تستمر الدورة، وقد عبر الله سبحانه عن هذه العملية (بالانسلاخ) وأسنده إليه، لأنه خالق الكون ومنظّمه ومسبب الأسباب كقوله (**وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً**) الإسراء/١٢ وهو مع تكراره اليومي وأُلفة الناس إليه، حالة عجيبة لها دلالات واسعة تدعو إلى التأمّل، **والتعبير القرآني البليغ عن هذه الظاهرة الكونية تعبيراً فريداً ودقيقاً**، فكأن نور النهار لباس أبيض مضيء ألبسه جسد الليل المظلم بالتدريج المقدّر والمنظّم فيكون وقت النهار، وننزع عنه ونخلع (ينسلخ) هذا الضياء بالتدريج المقدّر المنظّم إذا حلّ الغروب (**فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ**) **فائدة**: يكرر القرآن الكريم هذه الظاهرة الكونية بعبارات متعددة لها دلالات بعيدة تلفت النظر كقوله

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) فاطر/١٣، وقوله (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) الزمر/٥.

وقوله (**وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ**) التكوير/١٧-١٨، وغيرها من الآيات القرآنية التي تكشف سُنّة التداخل بين الأشياء، وأن هناك علاقة بين السنن الكونية والسنن الإنسانية، أي عندما يحين وقت النهار، يتزايد ضياء النهار ويتداخل مع ظلام الليل بالتدريج المقدّر والمنظّم، فيندفع الظلام وينسحب ويتناقص تدريجياً ويحلّ محلّه ضياء النهار، وعندما يحين وقت الليل (يحصل العكس) بحيث **لا يكون الليل ضد النهار، وإنما يعمل بالتنسيق معه وكأنما هو صديق له منسجمان متعاونان ولا يختلفان، ويعملان في تعدد أدوار ووحدة هدف**، فكما يتداخل ضياء النهار مع ظلام الليل بالتدريج المقدّر والمنظّم بالسنن الكونية، كذلك تتداخل السنن الإنسانية، فيتداخل الروح والجسد، والحياة والموت، والأمل والعمل، والدنيا والآخرة، كذلك تتداخل القوة والضعف، والصحّة والمرض، والذكر والأنثى، والعزة والذلة، والخير والشر، والشدة والرخاء، والعسر واليسر، كقوله (**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**) الانشراح/٥-٦، فكما أنه لا ليل مستمر ولا نهار مستمر، كذلك لا عسر دائم ولا يسر دائم، ولا صحة دائمة ولا مرض دائم، ولا قوة مستمرة ولا ضعف مستمر.. وهكذا طبيعة الحياة في تغيّر مستمر، وتقلّب دائم للأوضاع، كقوله (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى) النجم/٤٣، و(دَوَامُ الحَالْ مِنَ المحالْ) كقوله (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) الرحمن/٢٩.

٣٨ – ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

وآية ودلالة ثالثة لهم وهي (**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا**) والشمس تجري أي تتحرك بقدرة الله بدون محور تدور عليه لا تراه العيون، تدور بنظام محكم دقيق ودورانها حول نفسها في فلكها لا تتجاوزه ولا تتعدّاه، وليس لها تصرف في نفسها على عصيان الله تعالى (**لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا**) تتحرّك لحدّ لها موقّت بقدر تنتهي إليه في فلكها آخر السنة، ولها نهاية من المشارق والمغارب، وهذا المستقر الذي تنتهي إليه هو سكونها وانقضاء أجلها، لا يعلمه إلاّ الله عز وجل وهو يوم القيامة، يوم نهاية التجربة البشرية، فيتوقف نظامها وحركتها عند قيام الساعة وخراب نظام الكون كله، وهذا مقرر وثابت من عند الله كقوله (**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**) التكوير/١ **كوّرت**: خمد نورها فأظلمت، وقال علماء الفلك **المعاصرين**: (**إن الشمس تجري بسرعة (١٢) ميلاً في الثانية غير دورانها حول نفسها! وأنها تختلف عن حال دوران الأرض**) الكاشف٦ص٣١٥، وكان الاعتقاد قديماً أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها، ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة في مكانها وإنما هي (**تَجْرِي**) أي تسير بسرعة، وحين نتصوّر أن حجم الشمس الحارقة (**اللّهبَةُ النّاريّة**) يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه، وهي تتحرّك في فلكها الخاص بسرعة، وتجري في الفضاء وكأنها معلّقة لا يسندها شيء!

ندرك طرفاً من صفة القدرة المقدّرة التي تصرّف هذا الوجود عن قوة وقدرة وعلم وحكمة ورحمة (**ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**) ذلك الجري والدوران مع حجمها الكبير وسرعتها الهائلة، ووزنها الثقيل وحرارتها الشديدة، تجري بنظام عميق وحساب دقيق هو تقدير الله (**الْعَزِيزِ**) في ملكه الذي لا يعجزه شيء (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**) الأنعام/٦١ (**الْعَلِيمِ**) المحيط بعلمه بكل شيء لتستمر الحياة لصالح العباد في العالم الأرضي.

٣٩ – ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾

وآية ودلالة رابعة لهم (**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ**) والقمر قدّرنا حركته ومسيره في منازل يسير فيها لمعرفة الشهور، وهي ثمانية وعشرون منزلاً، في ثمانٍ وعشرين ليلة ينزل كل ليلة في واحد منها لا يتعدّاها، ويستتر في ليلتين إذا كان الشهر (٣٠) يوماً، ويستتر ليلة واحدة إذا كان الشهر (٢٩) يوماً، ومعنى (**قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ**) أي يولد في أول ليلة من الشهر هلالاً مقوّساً ضئيلاً قليل النور، ثم يزداد حجمه ونوره بالتدريج المقدّر في الليلة الثانية ويرتفع منزله، ثم كلما ارتفع ازداد ضياؤه وحجمه حتى يكون بدراً، ويتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة والخامسة عشرة، ثم يشرع في التناقص التدريجي المقدّر والمنظّم إلى آخر الشهر، حتى يعود هلالاً مقوّساً صغيراً كما ولد، فيشبهه القرآن لتقريب الصورة (**حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**) وهو عنقود التمر حين يجف يعوّج ويتقوّس ويصفّر للدلالة على قِدَمِهِ، فجعل الله تعالى القمر لمعرفة الشهور، كما وجعل الشمس لمعرفة الأيام والليل والنهار، وفاوت بين سير الشمس وسير القمر كقوله (**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**) الفرقان/٢، وكل هذا النظام الدقيق يدل على عظمة المنظّم، وكل هذه المقادير تدل على حكمة المقدّر المدبّر، ومن بحث عن الله وَصَلَ إليه.

٤٠ – ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(**لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ**) كل ذلك يتم بنظام مقدّر ومدبّر بمنتهى الدقة بحيث لا يمكن ولا يصح ولا تستطيع الشمس (**أَنْ تُدْرِكَ**) أن تجتمع وتلحق بالقمر في حركة سيره بالليل فتمحو نوره، فتكون الأوقات كلها نهاراً لا ليل فيها لإخلال ذلك النظام، فإن القمر أسرع سيراً من الشمس، إضافة إلى أن لكل واحد منهما فلكاً ومحوراً ونظاماً يختلف عن الآخر، كما أن الليل لا يتقدم على النهار ولا يتجاوز عليه، بحيث يدخل جزء من الليل في وقت النهار، كذلك حركة القمر لا تتقدم ولا تتجاوز على نظام حركة الشمس فيختل النظام الموجود العام، فإن القمر ينهي دورته في شهر واحد، بينما حركة الشمس تنتهي دورتها في عام واحد (**وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ**) ولا الليل يسبق النهار في حركته حتى يدركه فيذهب بضيائه، فتكون الأوقات كلها ليلاً لا نهار فيها (وبالعكس) وإنما يتحرك الليل والنهار بطريقة منظّمة بالغة الدقة والإتقان، بتعدد أدوار ووحدة هدف، بنظام مستمر لا يتغيّر ولا يتبدّل ولا يتحوّل،

ولا يصيبه الخلل والعطل كقوله (**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**) القصص/٧١-٧٢.

(**وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**) **السباحة**: أصل الكلمة جري السمك في الماء، ثم استعمل كناية تشبيهية عن سير الكواكب في أفلاكها الطبيعية الخاصة المعدّة لها في ذلك الفضاء السماوي العميق، وتجري بسهولة مقدّرة ومدبّرة لا يعيقها شيء، وإن الإنسان ليتضاءل وهو ينظر إلى هذه الملايين من النجوم الدوارة متناثرة في ذلك الفضاء الواسع، بلا محوّر مركزي تتحرّك حوله، والفضاء من حولها فسيح وأحجامها الضخمة المتنوّعة، تتحرك بلا أعمدة تستند عليها مع شدة أثقالها وكثرة ارتفاعها، **إنها يد الله تعالى وقدرته المبدعة، التي تستدل عليها من عظمة الخلائق على عظمة الخالق، أما التعبير القرآني عنهما (بأسلوب العاقل)** بسبب انقيادها لنظامها وسيرها عليه بدقة وطاعتها وتسبيحها لربّها كسير المؤمنين الصالحين العقلاء المستقيمين الواعين. كقوله (**وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**) النحل/١٢، والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات بعيدة هائلة في البعد، وقد وضع خالق هذا الكون.

(**الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**) الفرقان/٥٩، تصميم بالغ الدقة والاتقان ليحفظه من التصادم، فكل نجم يجري بحسب الخطة المرسومة له، ولا يزاحم واحد منها الآخر، والدورة تجري بالليل والنهار لا تختل أبداً. **وهذه الآية الكريمة من الإعجاز العلمي في القرآن. فائدة: الغرض من الآية:** بيان قدرة الله وعظمته من عظمة خلقه، في تسيير وترتيب هذا الكون الكبير بنظام متقن دقيق، وكل كوكب صغير أو كبير له مدار لا يتجاوزه في دورانه، ولا يطغى أحدهم على الآخر، حتى يأتي الأجل المعلوم بخراب العالم، وتقوم القيامة وتنتهي حياة البشرية على هذا الكوكب كقوله (وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ، يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ) القيامة/٩-١٠.

٤١-٤٢ – ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾

(**وَآيَةٌ لَهُمْ**) وحجة واضحة وعلامة أخرى لهم على ربوبية الله وكمال قدرته ورحمته (**أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ**) أنا حملنا ذرية بني آدم الصغار والكبار جيلاً بعد جيل، وحملنا تجارتهم وأمتعتهم وأحمالهم (**فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**) **الْفُلْكِ**: السفن، على البحر في المركب (**الْمَشْحُونِ**) الثقيل والكبير المملوء بالناس والأحمال والأمتعة وما يبتغون للتنقل وأنواع التجارة والسياحة (**أَنَّا حَمَلْنَا**) آباءهم وأجدادهم وأبناءهم وصبيانهم الأقدمين في سفينة نوح (ع) – سفينة النجاة – (مصداق عليه) التي أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين للنجاة من الغرق الماحق، وإنما

خَصَّ (**ذُرِّيَّتَهُمْ**) بالذكر لأنه أبلغ في الامتنان عليهم، ولأن فيه إشارة إلى حمل أعقابهم عبر تداول الأجيال إلى يوم القيامة، ٤٢- (**وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ**) (**مِنْ مِثْلِهِ**) ضمير (**مِثْلِهِ**) يعود إلى الفلك (**وَخَلَقْنَا لَهُمْ**) سابقاً (**مَا يَرْكَبُونَ**) من وسائل النقل الحيوانية كالإبل وهي سفن الصحراء والخيل والدواب (**وَخَلَقْنَا لَهُمْ**)، ووهبنا لهم وسائل النقل الحديثة من السيارات والقطارات والطائرات والسفن البحرية الضخمة، وحاملة الطائرات العملاقة والمدرّعات البرمائية والغوّاصات التي تركبونها، والجميع حملتهم قدرة الله وقوانينه وسُننه المنظّمة التي تحكم الكون (**وَخَلَقْنَا لَهُمْ**) وإنما نسب الخلق إليه سبحانه، لأنها صناعات تتم بتعليم الله تعالى للإنسان وبسببه وتيسيره كقوله (**وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**) البقرة/١٥١ وقوله (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) فصلت/٥٣.

فائدة:

١- (**حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ**) ويسمى الآباء ذرية لأنهم خلقوا من الأجداد، ويسمى الأولاد ذرية لأنهم خلقوا من الآباء، وخَصَّ الذرية بالحمل في الفلك لأنهم جيل المستقبل، وتقام حضارة البلاد بهم كقوله (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) الفرقان/٧٤ (**مَا يَرْكَبُونَ**) لم يُعيّن القرآن ما يركبون، وقد ترك أمرها لعصور التقدم الحضاري لما سيظهر فيها من عجائب المركوبات، وهذا من الإعجاز البلاغي في التعبير الفني في القرآن.

٤٣-٤٤ – ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ(٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾

وإن أردنا (**نُغْرِقْهُمْ**) فنحن نستطيع سلب خاصية الطفو على الماء فنغرقهم، أو نأمر الريح العاصفة فيهيج البحر وتتلاطم الأمواج وتضطرب حركة السفن العملاقة، فتكون كالريشة في مهب الريح فيغرقهم، **وفي الآية إشارة** إلى التذكير بنعمة النجاة والسلامة، وإذا غرقوا (**فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ**) فلا مغيث لهم يحرسهم ويستجيب لصراخهم حين الإشراف على الغرق، أو يدفع الغرق عنهم قبل وقوعه (**وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ**) بأية وسيلة من الوسائل، **يقال أنقذه** واستنقذه إذ خلصه من ورطة ومكروه، ولا ينجون من الموت لو أردنا أن نهلكهم بالغرق، ولا أحد يقف أمام إرادة الله تعالى (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**) الأنعام/٦١، ٤٤ – (**إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا**) إلاّ أن يتداركهم الله برحمته وخفايا لطفه فتنقذهم من أهوال البحر المرعبة، والذين ركبوا البحر وشاهدوا الأخطار المذهلة يدركون **معنى** (رحمة الله) وأنها وحدها المنجية لهم، ويعرفون معنى قوله (**إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا**) فسبحان الله الرحمن الرحيم الذي (**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**) الأنعام/٥٤، حتى المشي على الأرض اليابسة يفتقر إلى رحمة الله وعنايته، عن النبي (ص) (**تَعَرَّضُوْا لَرَّحْمَةَ اللهِ بِمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ**) تنبيه الخواطر ص٣٦٠ (**وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ**) وليتمتّعوا بعمرهم المرسوم إلى الأجل المحتوم المقدّر لهم عند الله، **عن الإمام علي** (ع) (كَفَى بِالْأَجَلِ حَارِسَاً) البحار٥/١٤٢،

لعلّهم يرجعون إلى الله بالتوبة والندم والاستغفار قبل فوات الأوان، وهكذا تقضي حكمة الله تعالى، كقوله (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) لقمان/٣٢.

٤٥- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

وأخبر الله هنا عن تعاميهم عن الحق، وإعراضهم عن الهدى والإيمان مع كثرة الآيات الواضحات والشواهد الباهرات.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ) للجاحدين والمعاندين إنّ هذه الآيات الواضحات تدل على أن ربكم الله هو الذي خلقها ودبّرها **(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ)** **(اتَّقُوا)** احذروا وتجنبوا سخط الله وغضبه وانتقامه بترك الشرك والمعاصي والذنوب و**(اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ)** من عذاب الدنيا ووقائع انتقام الله للأمم الماضية قبلكم، بسبب عنادهم وتكذيبهم الرسل وفسادهم في البلاد والعباد، ومن لا يتّعظ بالناس وعظ الله به الناس، **في نهج البلاغة خطبة٨٦** (السَّعيدُ مَنْ وُعِظ بغيره) واتقوا **(وَمَا خَلْفَكُمْ)** واحذروا ما وراءكم من عذاب الآخرة على ارتكاب المعاصي الذي هو أمرٌ وأدهى، والحذر يقيك الضرر، **في نهج البلاغة خطبة١٥٤ (والعامل بغَيْرِ علم كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الصّحِيْح، لاَ يَزِيْدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إلاّ بُعْداً عَنْ الصَّوَابِ)** أو **المعنى**: إذا دعوا إلى أن يتّقوا الله **(مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ)** من نعم وخيرات وخبرات واختصاصات يستقبلونها من الله **(وَمَا خَلْفَكُمْ)** من نعم جديدة أفاضها الله عليكم **(لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)** فتشملكم رحمة الله، وجواب الجملة محذوف وتقديره: أعرضوا باستهزاء وسخرية ودلّ عليه قوله **(إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)** يس/٤٦. **فائدة**: إن تلك الآيات الباهرات كافية أن تثير في القلب السليم المتلقّي المفتوح هَزّة الخشوع وإرادة الخضوع، لعظمة الخالق المقدّر المنظّم لكل شيء، ولكن إذا قست القلوب من كثرة الذنوب لا يرونها ولا يتدبّرونها، **عن النبي (ص)** (شرّ العَمى عَمَى القَلْب) البحار٧٧/١١٤ كقوله(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) الحج/٤٦.

٤٦- ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

تلك الآيات الساطعة بذاتها لا تثير في قلوبهم التطلّع والتفكّر والتدبّر، وهي بذاتها كافية أن تثير في قلوبهم الحساسية نحو حركة الاستقامة والتقوى والشعور بعظمة الخالق، ولكن هؤلاء لا يريدون الحق ولا يتّبعون الحقائق، وطبيعة الإنكار متجذرة في هوى نفوسهم كقوله **(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)** النجم/٢٣، ومن يتّبع الهوى فإنه يُعرض عن الهدى **(وَالْذّي لاَ يَنْفَعُهُ الْهُدَىْ تَضُرُّهُ الضَّلاَلَةُ)** **عن النبي (ص)** (مَا عُبِدَ إِلهُ أَبْغَضُ عَلَى اللهِ مِنْ الهَوَى)روح البيان٢/١٩٧، فتقسوا قلوبهم من كثرة ذنوبهم، وتُعطّل أفئدتهم عن التدبّر في عاقبة أمرهم، والتفكّر في فلسفة الحياة ومعرفة حقيقتها الأصيلة. **المعنى: (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ)** وما تأتيهم **(مِنْ آيَةٍ)** من دليل وحجة وبرهان تفتح عقولهم وقلوبهم على معرفة الله وإتقان

صنعه، سواء أكانت الآية حسيّة أو علمية، آفاقية أو أنفسية، مادية أو معنوية، بالمشاهدة بالبصر أو بالبصيرة، فكل ما في الكون هو صورة مجسّمة فنية عن صفة من صفات الله تعالى، وسرّ من أسرار ذاته! **وهذه الآية دالة** على صدق الرسول ورسالته،وإضافة الآيات إلى اسم الرب (**مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ**) من بعض آيات ربهم، دليل على كمالها وجلالها ووضوحها وتفخيم شأنها وأنها تنفعهم في دينهم ودنياهم (**إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ**) إلاّ بادروا بتكذيبها والإعراض عنها والاستهزاء بها، بطريقة اللامبالاة والتكبّر على تلك الحجج عتوّاً وعناداً وتكذيباً واستهزاءً، وأغلقوا باب التفكّر والتدبّر والتأمّل المؤدي إلى الإيمان. وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ العِلْم والتّفكّر، فَالْجهل والهوى والْغَفْلَةُ عَلَيْهِ أَضْيَقْ.

٤٧ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

(**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**) الخطاب للكافرين المترفين المحتكرين، إذا وعظهم واعظ بطريق النصيحة والتذكير والشفقة على الضعفاء (**أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ**) أنفقوا بعض ما أعطاكم الله من فضله ووسّع عليكم، أنفقوا على الفقراء والمساكين والمحتاجين وتحسّسوا بمعاناتهم، ليكفل بعضكم بعضاً، ويرحم بعضكم بعضاً، وبالإنفاق في سبيل الله تتهذّب النفوس وتتطهّر الطبائع من البخل، وتقلل الفواصل الطبقية في المجتمع، **والإنفاق بعنوانه العام**: الإنفاق المادي والمعنوي، بالقول والعمل، الانفاق بالمال والجاه والمنصب والموقع المناسب والتوجيه والتعليم والنصيحة والإرشاد (وَكُلٌ يَنْفِقُ مِماْ عِنْدَهُ) ومن موقعه كقوله (**عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ**) البقرة/٢٣٦ وقوله (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ) البقرة/٢٧٢، في غرر الحكم (**لَيْسَ لأَحَدٍ مِنْ دُنْيَاهُ إِلاَّ مَاْ أَنْفَقَهُ عَلَى أُخْرَاهُ**) (**قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا**) استهزاءً بهم (**أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ**) أنطعم أناساً شاء الله حرمانهم من الطعام؟! وقضى الله عليهم بالفقر والعوز، وهو قَدّرَ لنا العزّ والغنى! ونحن لا نخالف ما قضى الله وقدّر، قالوا هذا استكباراً، وتجاهلوا أن الفقر من صنع الإنسان وسوء عمله لا من صنع الله، ومن فساد الأثرياء والحكام والأنظمة والطغيان لا من شريعة الرحمن كقوله (**وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**) الحديد/٧ وقوله (**وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**) سبأ/٣٩، في غرر الحكم (إِنَّكُمْ إِلَى إِنْفَاْقِ مَاْ اِكْتَسَبْتُمْ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى اِكْتِسَاْبِ مَاْ تَجْمَعُوْنَ).

في نهج البلاغة (**وَمَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ**) حكم١٣٨، **عن الإمام الصادق** (ع) (مَنْ مَنَعَ حَقّاً للهِ أَنْفَقَ فِي الْبَاطِلِ مِثْلَيْهِ) الوسائل ٦ص٢٥ وعنه (ع) (**إِنَّ اللهَ جَعَلَ لِلْفُقَرَاءِ مِنْ أَمْوَالِ الأَغْنِيَاءِ مَا يَكْفِيهُمْ، وَلُولاَ ذلِكَ لَزَادَهُمْ، إِنّ النَّاسَ مَا أَفْتَقَرُوا وَلاَ احْتَاجُوا وَلاَ جَاعُوا وَلاَ عْرُوَا إلاّ بِذُنُوبِ الأغْنِيَاءِ**) التفسير المبين ص٥٨٣، **في غرر الحكم** (لا وزر أعظمُ من وزرِ غنيّ مَنَعَ

المحتاج) **التفاوت في الكفاءات، سُنة الله في الخلق:** إنّ الله تعالى أغنى بعض الخلق وأفقر البعض الآخر ابتلاءً، لينظر كيف يعطف الغني وكيف يصبر الفقير، فقد منع السعة عن الفقير لا بخلاً، ووسّع على الأغنياء لا كرامةً عندهم عند الله، وأنما يأمر الغني بالإنفاق على الفقراء لا حاجة إلى ماله، ولكن لتفعيل سُنة الابتلاء والاختبار لعباده ليكشف لهم حقيقة أنفسهم بأنفسهم و(البلاء على قدر الطبّاع)

كقوله (**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**) الشورى/٢٧، **وفي الحديث** (لَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أَغْنِيَاءَ لاَ فَقِيرَ فِيْكُمْ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَكُمْ فُقَرَاء لاَ غَنِيّ فِيْكُمْ، وَلَكِنهُ ابْتَلَى بَعْضُكُمْ بِبعْض لِيَنْظُر كَيْفَ عَطَفَ الْغَنِيُّ، وَكَيْفَ صَبْرَ الْفَقِير) روح البيان٧ص٤٠٨، والإسلام سعى للقضاء على الفقر والفساد والحرمان، بالترغيب على الإنفاق في سبيل الله بكافة أنواعه، والتهديد والوعيد لمن منعه، في غرر الحكم **(لاَ يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئاً مِنْ دِينِهِمْ لإِصْلاحِ دُنْيَاهُمْ إلاّ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ)!**

كان لقمان يقول: (إذا مرّ بالأغنياء: يا أهل النعيم لا تنسوا النعيم الأكبر، وإذا مرّ بالفقراء يقول: إياكم أن تُغْبَنُوا مرتين) **في نهج البلاغة خطبة٩١** (وَقَدَّرَ الأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا،وَقَسَّمَهَا عَلَى الضِّيقِ والسَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بَمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيّها وفقيرها) **وعنه** (ع) (مَا رَأَيْتُ نِعْمَة مُوفُورَة إلاّ بَجَانِبِهَا حَقٌّ مُضَيَّعٌ)

فائدة: (**أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ**) **هذا القول فيه شبهة خطيرة**

وجواب خبيث ماكر يكشف عن كفر شديد وطبع لئيم، ويرمي باللائمة على الله وإساءة الأدب معه سبحانه كقوله (**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ**) الأنعام/١٤٨، وتارة يتّهمون المجتمع بالتقصير، فلولا هؤلاء الكبراء ما أشركنا كقوله (**لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ**) سبأ/٣١، وتارة يتهمون الآباء بالتقصير كقوله (**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**) الزخرف/٢٢، وهؤلاء يلقون جهلهم وكفرهم وسوء أعمالهم على غيرهم وهم مسؤولون عن أنفسهم كقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف/١٠٣-١٠٤.

فكما أنه من الخطأ قولهم: (**أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ**)، كذلك من الخطأ أن نقول لماذا ندرس ونعطي دروساً، فلو شاء الله لأعطى العلم للجميع من دون تعلّم! **ومن الخطأ أيضاً أن نقول:** لماذا نعمل بطموح ونُطوّر صناعتنا ويتقدم مجتمعنا حضارياً وأخلاقياً، فلو شاء الله لحسّن حالنا وطَوّر صناعتنا من دون عمل! وهكذا، وهذا القول الخاطئ يخالف سُنة الله في خلقه كقوله (**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**) الجاثية/١٥، **في غرر الحكم** (العلم

بغير العمل وبال، العمل بغير علم ضلال)فكما اقتضت الحكمة والمصلحة أن تتفاوت الناس في الجمال والكمال والأشكال والمال وحسن الحال، وتتفاوت أيضاً في المواهب والملكات والاستعدادات والكفاءات والاختصاصات وفي القوة والضعف.. كذلك تتفاوت في الأرزاق والقدرات والامكانات والمنافع..، وإذا تساءوا هلكوا (**إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**) ما أنتم (أيها المؤمنون الجاهلون) إلاّ في انحراف واضح وتناقض ظاهر، في نظر الذين كفروا.

٤٨ - ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

(**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**)؟ الاستفهام مبنى على وجه الاستغراب والشك والاستهزاء والإنكار لوعيده، **ويقولون**: متى تقوم القيامة ويحصل الحساب الذي تتوعدوننا به؟! ووعد الله لا يتقدّم بحسب ما يرتضيه الناس، وإنما يتحدد بحسب ما تقتضيه حكمة الله في المصلحة العامة، فكل أمر مرهون عند الله بمقدار معين وبوقت مخصص كقوله (**قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ**) سبأ/ ٣٠ (**إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**)متى هذا العذاب الذي تخوفوننا به، وأن هناك حياة بعد الموت وبعثاً ونشوراً وحساباً وجزاءً؟ فإذا لم تستطيعوا تحديد زمان دقيق لقيام الساعة، فمعنى هذا أنكم غير صادقين في حديثكم، إنهم يتعاملون مع مصيرهم الأبدي الأخير بأسلوب الّلامبالاة، كما يتعامل الطفل مع لعبته، إنهم لا يفكّرون في تدبّر، ولا ينظرون إلى الحقائق الكبرى كما ينبغي الاعتناء بها، فهؤلاء الّلامبالون يسهل عليهم نفي الحقيقة الكبرى إذا لم تنسجم مع أمزجتهم، وأقصى طموح عندهم خدمة ذواتهم، وذواتهم فوق كل الذّوات، وفوق كل القيم والمبادئ والأخلاق! **فائدة: يقول الراغب الأصفهاني** (فلو لم يكن للإنسان غاية ينتهي إليها، غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصباً وهمّاً وحزناً، ولا يكون بعدها حال مغبوطة، وحياة أخرى للجزاء، لكان أخسّ البهائم أحسن حالاً من الإنسان) التفسير القرآن للقرآن١١/٩٤٩

٤٩ - ٥٠ -﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾

لا تستبعدوا حقيقة الصيحة فإنها لابد من وقوعها، وأنها قريبة، وكل كائن آت، وكل آت قريب، وكل قريب توقّع حدوثه في كل لحظة، لذلك القيامة تقع فجأة بعد الموت مباشرة، فلا يمكن الغفلة عنها ونسيانها، هذه الآية رَدَّ الله سبحانه على من قال هذا السؤال المنكر (**أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ**) في مشهد مثير من مشاهد يوم القيامة، يرون فيه كيف يتحقق وعد الله، فقد سألوا (**مَتَى هَذَا الْوَعْدُ**)؟! فيكون الجواب خاطفاً وسريعاً، إنها صيحة واحدة مرعبة تصعق كل حي، وتنتهي حياة المكذّبين ومهلتهم على الأرض.

المعنى: (**مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً**) ما ينتظر هؤلاء المستهزئون وما يمهلون من قولهم الإنكاري هذا إلاّ أن يأتيهم يوم القيامة بغتة بلا مقدمات لهوانهم على الله، وما يحتاجون (**إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً**) بالحق، صيحة لا ثاني لها، **والصيحة**: رفع الصوت بقوة مذهلة، **والصيحة الواحدة هي نفخة الصور الأولى**: وهي صيحة الموت العام لكل الناس (أوَ) صيحة الموت الخاص للفرد عند أجله وهي صيحة يسيرة سهلة علينا، **والقرآن الكريم تعَرّضَ لوجود نفختين**: إحدهما صيحة الموت والفناء وقيام القيامة الخاصة الصغرى لكل شخص قد مات، **عن النبي** (ص) (**مَنْ مَاتَ فَقَدْ قَامَتْ قِيامَتهُ**) روح البيان٣/٢٢، **وعنه** (ص) (**يُبْعَثُ الْمَرء عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ**)كنز العمال خبر٤٢٧٢٢، والنفخة الأخرى صيحة البعث والنشور والقيامة، في الآية ٤٩ صيحة الموت، وفي الآية ٥٣ صيحة البعث والنشور والحضور للحساب في يوم القيامة، وهي القيامة الكبرى العامة الموعودة التي بها يُخَرّبُ النظام العالمي العام ونهاية الحياة الدنيا.

(**تَأْخُذُهُمْ**) هذه الصيحة الواحدة تصيبهم فجأة أثناء انشغالهم، صيحة بلا مقدمات، وتصل إلى جميع أهل الأرض وتذهلهم كقوله (**فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**) الأعراف/٩٥ فلا تغترّوا لعدم ظهور علامتها، ولا تزعموا أنها لا تأتيهم (**وَهُمْ يَخِصِّمُونَ**) وهم يتخاصمون مع بعضهم، ويتجادلون في تجاراتهم ويتنازعون في معاملاتهم الدنيوية وهم في غفلة عما يراد بهم، والقيامة لم تخطر على بالهم، فيموتون في أماكن أعمالهم وأسواقهم! (يُدَبِّرُ الْمُدَبِّرُوْنَ وَالْقَضَاءُ يَضْحَكُ) ٥٠- (**فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً**) ثم بيّن سرعة حدوث هذه الصحية الواحدة المذهلة، فتقلّب الموازين كلها، فلا تسمح لهم صيحة العذاب (**تَوْصِيَةً**) بأن يوصي من بعدهم بوصية صغيرة موجزة، ولا أن يرجعوا إلى أهلهم وأسرتهم ليقولوا ولو كلمة واحدة، لأن أهلهم كذلك منتهون (**وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ**) لأن الجميع قد ماتوا في أماكنهم، لأنها كانت صيحة استئصال ووعيد وذلة وهوان، لكل من كفر وعاند وكذّب وأفسد، وهي أسرع من أن يستطيعوا أن يتداركوا أمرهم. **عن النبي** (ص) (تَهِيجُ السَّاعَة بِالنَّاسِ، وَالرَّجُلُ يَسْقِي مَاشِيّتَهُ، وَالرَّجُلُ يُصْلِحُ حَوْضَهُ، وَالرَّجُلُ يُقَيّمُ سِلعَتَهُ فِي سُوقِهِ، وَالرَّجُلُ يَخفِضُ مِيزَانهُ وَيَرْفَعهُ، فَتَهيجُ بِهِمْ وَهُمْ كَذلِكَ (فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً...)) الدر المنثور٧ص٦١.

٥١- ﴿ **وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ** ﴾

كما أنهم ماتوا جميعاً بصيحة واحدة بالحق، كذلك يبعثون بعد الموت بنفخة واحدة بالحق، فيعودون من جديد أحياء (بالمعاد الجسماني) كما كانوا بجسد وروح إلى العالم الآخر، إشارة إلى كمال قدرة الله تعالى وجلال فلسفته للخلق وللبعث والجزاء كقوله (**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**) المؤمنون/١١٥، **المعنى**: (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ**) مجرد حصول النفخ

في الصور للبعث والنشور والانتقال إلى العالم الآخر، فتطير كل روح وترجع إلى جسدها بإذن ربها (**فَإِذَا هُمْ**) ينتفضون (**مِنَ الْأَجْدَاثِ**) من القبور، فإذا هؤلاء الأموات يخرجون من قبورهم وهم في دهشة وذعر وقلق (**إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ**) يمضون إلى دعوة ربهم (**يَنْسِلُونَ**) يسرعون في الخروج من قبورهم إلى لقائه وحسابه وجزائه كقوله (**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ**) المعارج/٤٣، **كأنهم إلى نصب يوفضون:** مثل من يُسرعون إلى عَلَمٍ نُصِبَ لهم يريدون أن يبلّغوه بسرعة. أي يمضون إلى ربهم الذي أنكروه (**يَنْسِلُونَ**) يسرعون في المشي بالإجبار دون الاختيار، ولا يتمكّنون من التأنّي والتهاون والتأخّر كقوله (**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**) الزمر/٦٨ وقوله (**وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ**) الأنبياء/٩٦ يسرعون إلى ساحة المحشر، الموضع الذي يحكم الله فيه بحكمه، فيكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب، وهناك لا حكم لغيره سبحانه كقوله (وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) الكهف/٢٦، وقوله (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ) الرعد/٤١.

٥٢ - ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾

تُصوّر الآية القبور بالمراقد الخاصة للدلالة على عالم البرزخ، عالم الحياة بعد الموت، **يقول الراغب في مفرداته:** الرقاد المستطاب من النوم، وتُصوّر الآية النهوض من القبور للبعث والنشور للدلالة على يوم القيامة الكبرى كقوله (**وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ**) الأنبياء/٩٧ ولما أحسّوا بأنهم أحياء بعد موتهم، وأنهم يبعثون من مراقدهم أي من مكان قبرهم، تعجّبوا وصاحوا في ذعر وذهول بالويل والثبور وبدافع الندم والحسرة الشديدة، لذ سُمي يوم القيامة يوم الحسرة كقوله (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) مريم/٣٩، وكانوا من قبل يسخرون ممن يأمرهم بالاستعداد للمعاد إلى يوم القيامة، وبعد أن شاهدوه بأم أعينهم، **عن النبي (ص)** (الْخَاسِرُ: مَنْ غَفَلَ عَنْ إِصْلَاحِ الْمَعَادِ) تنبيه الخواطر ص٣٥٩، قالوا (**هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**) وهذه هي الحقيقة الكبرى الأهم التي كنتم تنكرونها، لأنها تختلف عن طبائعكم وتخالف أهواءكم كقوله (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) الروم/٢٩، وكلّما كبر العقل صغر الهوى وضعفت الشهوة وزادت العفّة والاستقامة (والعكس صحيح) **المعنى: (قَالُوا)** الكفرة منهم (**يَا وَيْلَنَا**) يا هلاكنا (**مَنْ بَعَثَنَا**) من أيقضنا (**مِنْ مَرْقَدِنَا**) من رقدتنا في قبرنا ومكان مضجعنا ومنامنا.

إنه سؤال استفهام وتعجب من الأموات، فيه استعارة بلاغية لطيفة، فشبّهوا حال موتهم بحال نومهم لأن الموت أشبه الأشياء بالنوم، كقوله (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) النبأ/٩، **النوم:** الموت الخفيف الجزئي المؤقّت، **عن النبي (ص)** (النَّوْم أخو الموت، ولا يموت أهل الجنّة) كنز العمال

خبر٣٩٣٢١، قوله **(مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا)** أبلغ من القول (من بعثنا من مماتنا) وكأنهم كانوا نياماً فستيقظوا للجزاء، وتعجّبوا من أيقظهم! عن النبي (ص) **(فَكَمَا تَنَامُوْنَ تَمُوْتُوْنَ، وَكَمَا تَسْتَيْقِظُوْنَ تُبْعَثُوْنَ)** تفسير القرطبي١٥/٢٦٠، وإنما وصفوا القبر بالمرقد، لأنهم لما أحيوا بعد موتهم وبعثوا للحساب وعاينوا أهوال القيامة، عَدّوا أحوالهم في قبورهم رقاداً، كالمنتبهين من الرقدة، والمستيقظين من النوم، أما حساب القبر فيبدأ بعد الدفن مباشرة بلا فاصل، **عن النبي (ص)** (أَوَّلُ عَدْلِ الآخِرَةِ القَبوُر، لا يعرف فيها غنّي من فقير) مستدرك الوسائل١/١٤٨، **عن الإمام الصادق** (ع) (القبرُ إمّا رَوضَةٌ مِنْ رِياضِ الجنّة، أو حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النار) البحار٦/٢٦٧، **وسؤال القبر** في عالم البرزخ سؤال للروح والجسد معاً، ولكل من مات فتقوم قيامته الصغرى بقدره، وتقوم القيامة الكبرى للجميع في يوم البعث الأكبر، والحشر الأعظم العام، فإذا قالوا **(مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا)** أجابتهم الملائكة أو المؤمنون.

(هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ) هذا الذي وعدكم الله به وأكّده عليكم من البعث بعد الموت والنشور للحساب والجزاء، فها نحن نواجه هذه الحقيقة على أرض الواقع ونراها رأي العين كقوله **(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا)** الفرقان/٢٦، وهنا يبدأ شريط الذكريات بحقيقة المعاد يتحرّك، الذي يعطي للحياة معناها وفلسفتها، وَيَحلّ لغزها وهذا ما كانوا يسمعونه من الرسل **(وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ)** ونعترف بأن جميع المرسلين الكرام صدقوا فيما أخبرونا عن هذا البعث والنشور للجزاء، ولكن هذا الاعتراف لا ينفع لأنه بعد فوات الأوان! **في غرر الحكم** (خَيرُ العِلم مَا أصْلَحْتَ بهِ رَشَادَكَ، وَشَرّهُ مَا أفسَدْتَ بهِ مَعَادكَ)

٥٣- ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

إن مسألة البعث والنشور سهلة على الله، ولا يوجد عند الله سهل وصعب، وكل صعب على الخلق يسير على الله لعدم احتياجه إلى قاعدة الأخذ بالأسباب، كقاعدة عامة في الحياة البشرية، كقوله **(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)** يس/٨٢، لأن الله سبحانه خلق كل شيء، فهو معه في كل شيء، ولا يخفى عليه شيء كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠ **وعن الإمام علي** (ع) (مَا رَأَيْتُ شَيْئَاً إِلّا وَرَأَيْتُ اللهَ بَعْدَهُ وَقَبْلَهُ وَمَعَهُ وَفِيهِ) مواهب الرحمن٧/٣٠٠ مسألة البعث والنشور بحاجة إلى **(صَيْحَةً وَاحِدَةً)** يتيسر بها كل شيء، فيجتمع الناس كلهم أحياء بعد موتهم للعرض الأكبر من دون أن يستثنى منهم أحد كقوله **(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ)** النحل/٧٧، **عن الإمام الصادق** (ع) (كان أبو ذر يقول ما بين الموت والبعث إلاّ كنومة نمتها ثم استيقظت منها) الصافي٤/٢٥٦.

المعنى: **(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)** ما كان بعثهم من قبورهم فتحيا الأجساد الفانية بعد موتها كقوله (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) الأعراف/٢٩ **(بالمعاد الجسماني)** لقيام القيامة الكبرى إلاّ

بصيحة واحدة بالحق لا ثاني لها، صيحة خارقة مفجعة مزلزلة نافذة تفاجئهم، يصيح بهم إسرافيل فيحصل إحياء الناس بعد موتهم بسرعة فائقة ويسيرة وسهلة (**فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ**) فإذا الكل من الأولين والآخرين مجموعون عندنا دون اختيارهم، حاضرون لدينا منتظمة صفوفهم، بحسب أجيالهم وأزمانهم وأماكنهم، في موقف الحساب والجزاء يوم القيامة، بلا فاصل بين النفخ في الصوّر والحضور، ويتهيّأ الاستعراض المنظّم الحاسم للجزاء بسرعة كقوله (**وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ**) النمل/٨٧، **داخرين**: صاغرين أذلاّء، وهذه اللّهجة الحازمة بسياق الآيات القرآنية تترك الأثر العميق في النفوس، وتحرّك المشاعر والضمائر للاستعداد لهذه الحقيقة! **في غرر الحكم** (مَنْ أَيْقَنَ بِالمجَازَاةِ، لَمْ يُؤْثِرْ غَيْرَ الْحُسْنَى)

٥٤ - ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يتنّزه الله سبحانه ويترفّع عن الظلم ويُحذّر منه، بل يأمر بالعدل كقوله (**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**) النحل/٩٠ في الدار الدنيا، وهو سبحانه يعمل فيهما يوم القيامة، ولماذا الظلم وهو ينهى عنه وغني عنه ومترفّع عليه؟ (**إنما يحتاج إلى الظلم الضعيف**) ولماذا الظلم والأمر كله لله وحده، والناس جميعهم خاضعون له مستسلمون إليه كقوله (**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) يونس/٤٤، فيكون الجزاء من جنس العمل، والنتائج كالمقدمات، والإنسان هو المسؤول أن يبني مستقبله بنفسه، فيكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب، **المعنى**: (**فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا**) ففي هذا اليوم الحاسم بالحق، يوم تجسّم الأعمال، يوم العدالة الكبرى، والله هو الحاكم وحده (**وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا**) الكهف/٢٦ (**لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا**) لا ينقص من حسناتها ولا يزاد في سيئاتها، ولا يفعل بها ما لا تستحقه من العقاب، بل يكون القضاء بالحق والعدل والإحسان، سواء أكانت النفس برّة أو فاجرة، ولا يحمل الإنسان وزر غيره، وإنما يجازى كل بعمله (**وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) جزاؤكم على طبق أعمالكم، مرحلة تجسيد الأعمال جميعها على صورتها الحقيقية الواقعية أمامكم، وكأنها كاميرة خفيّة على شريط (فيلم) مُجسّم مسجّل مُفصّل، ذو ثلاثة أبعاد بالصورة والصوت والنيّة، فلا ينقص من ثواب الصالحين أي شيء، ولا يزاد على عقاب العاصين أي شيء، لأن العمل الصالح هو قمة القمم وقيمة القيم ونعمة النعم وذمة الذمم، وهو الأساس الذي يتم عليه الحساب كقوله (**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**) الجاثية/١٥، **في غرر الحكم** (الْمَرْءُ يُوْزَنُ بِقَوْلِهِ، وَيُقَوَّمُ بِفِعْلِه) **فائدة**: في الآية ٤٩ قوله (**صَيْحَةً وَاحِدَةً ... وَهُمْ يَخِصِّمُونَ**) وهي صيحة واحدة لا ثانية لها وهي صيحة الموت بالحق صيحة الفزع والخمود، فجاء معها (**وَهُمْ يَخِصِّمُونَ**) كقوله (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً

وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ) يس/٢٩، وفي هذه الآية (**صَيْحَةً وَاحِدَةً ... مُحْضَرُونَ**) وهي صيحة واحدة لا ثانية لها وهي صيحة الصعق للبعث والنشور والحضور للحساب والمحاكمة بين يدي الله، فجاء معها (**مُحْضَرُونَ**) للجزاء كقوله (**وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**) الجاثية/٢٢، فيكون الخلق والموت والبعث عند الله سواء (**صَيْحَةً وَاحِدَةً**) بكلمة واحدة كقوله (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) لقمان/٢٨.

٥٥- ٥٦-﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ، هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴾

(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)

في هذا اليوم الحاسم، يوم الجزاء والمكافآة للمؤمنين الصالحين وهم فرحون، متمتّعون، حيث لا خوف ولا مشكلات ولا معاناة من شيء ولا مشاحنات دنيوية ولا خلافات عائلية ولا حسد على المناصب والرغائب (**فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ**) فهم مشغولون بما هم فيه من فنون اللذّات والنعيم والتكريم التي تلهيهم عما عداها وما دونها وعن كل ما يخطر ببالهم، وجاءت (**فِي شُغُلٍ**) بالتنوين ونكرة، لدقة مبناها وعمق معناها وسعة دلالاتها فلا يمكن وصفها (**فَاكِهُونَ**) من الفكاهة لا من الفاكهة، من فكاهة النفس وضحكها ومرحها كقوله (**انْقَلَبُوا فَكِهِينَ**) المطففين/٣١، فهم في تلذذ من كل ما تهواه نفوسهم وتقرّ أعينهم وتنشرح صدورهم وتطمئن قلوبهم كقوله (**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) السجدة/١٧، مع ما يُقدم إليهم من أنواع (**الفاكهة**) المتنوعة التي لا حصر لها، **والفاكهة** ما يتفكّه به من الثمرات، ونعيم الجنة يشارك بعضه نعيم الدنيا في الاسم دون الصفة والتركيب، قد يشترك في الشكل دون المضمون، **وفيه إشارة** إلى أن لا جوع في الجنة، لأن التفكّه لا يكون لدفع حاجة الجوع. وهذا التفكّه كناية عن الأجواء الطيبة والفكاهة والعيش الكريم (**وَلاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ**) فإنه لا يدخل عليهم ما ينغّص نعيمهم، ٥٦- ثم ذكر ما يكمل به تفكههم ويزيد في سعادتهم مما يقترنون به ومنسجمون معه ويسكنون إليه فقال (**هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ**) من الحور العين اللاتي رزقهم الله في الآخرة، أو زوجاتهم المؤمنات الصالحات القانتات الكفؤ لهم من الحور الطين في الدنيا، اللاتي جمعهن حسن الوجوه وتجانس الأعمار وجاذبية الأبدان وحسن الخلق وانسجام الطبائع، الّلاتي كن معهم في الدنيا ودخلن الجنة فيجتمع بعضهم إلى بعض، لأنه يألف بعضهم بعضاً، ويحبّ بعضهم بعضاً.

كقوله (وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) الأنعام/٨٧ وقوله (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ) الرعد/٢٣ وقوله (**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**) الطور/٢١ (**فِي ظِلَالٍ**) معنوية في رحاب الرحمة والتكريم والنعمة، تسترهم من نظر عيون الآخرين والاطّلاع عليهم (**عَلَى**

الْأَرَائِكِ) على الأسرّة المزينة، والوسائد المزخرفة الجميلة (**مُتَّكِئُونَ)** اتّكاء الأعزّة المرتاحون المستأنسون المطمئنون لذلك سُميَّ أهل الجنة أصحابها (**إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ)** تمكيناً لهم منها وإطلاقاً لأيديهم ورغباتهم بالتصرّف فيها بكل شيء، شأنهم شأن المالك الموقّر فيما يملك، فضلاً من الله وإحساناً. في نهج البلاغة حكم ٣٨٧ (**وَكُلُّ نَعِيم دوُنَ الْجَنَّةِ مَحْقُورٌ، كُلُّ بَلاَء دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ)**

فائدة: (**هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ)** لذّة الجنس مع النساء في الجنة تفوق لذتها في الدنيا، فلا يوجد عند الرجال مني يقذف في رحم زوجته عند الجماع، ولا يوجد ذرية وأولاد، وإنما يمر على كلا الزوجين ريح طيبة يحصل فيها الأنس والمتعة المعنوية واللّذة الجنسية، **وأيضاً:** ليس لأهل الجنة أدبار، لأن الدبر مخرج للغائط، ولا غائط لأهل الجنة، ولولا جهاز التناسل عند الرجل وجهاز التناسل عن المرأة يحتاج إليه في جماعهن، لما وجد في الجنة فرج لعدم وجود البول والغائط والمني فيها، **وأنما تتم العملية الجنسية بطريقة نموذجية متألقة متسامية جداً تتناسب مع قيمة أهل الجنة، وترفّعاً عن حالتهم المادية في الدنيا،** وترفّعاً عن التشابه مع نكاح الحيونات، ولا يوجد في الجنة حيض للنساء ولا ولادات ولا نفاس ولا تربية أطفال، لأن هذه من خصوصيات الدنيا. **إذن:** طعام أهل الجنة يختلف عن طعام أهل الدنيا في التركيب والمضمون، وأجسامهم تختلف عن أجسامنا المادية من حيث البنية الداخلية، ومتشابهون في المظهر والشكل، فإذا رأيت أحداً تعرفه لقلت هذا فلان.

٥٧ – ٥٨ – ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ، سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾

الجنة: مكان متكامل متسامٍ عالي المضامين، مكان المكافأة والتكريم، مكان المفاجآت والمخبّآت، مكان لا يدخله إلاّ من تتناسب معه صفة الكمال الإنساني والتسامي الروحي والخُلُقي، ولهم فيها ما لذَّ وطاب وكل ما يتمنّونه ويشتهونه وفوق ما يتمنونه من لذّات جسمانية ومتع روحية فقال (**لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ)**

ولهم في الجنة كقوله (وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ، لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ)الواقعة/٣٢-٣٣، وهي لذيذة الطعم جميلة اللّون عجيبة المنظر غريبة الشكل متنوعة الأصناف وهي فوق الوصف كقوله (**وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ، وَحُورٌ عِينٌ)** الواقعة/٢٠-٢٢ (**وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ)** ولهم ما يتمنونه ويشتهونه من غير طلب، وكل ما يطلبونه يدركونه كقوله (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) الزخرف/٧١، ٥٨– ولهم فوق اللّذائذ والنعيم والتكريم (**سَلَامٌ)** وترحيب يتلقونه هدية من ربهم الكريم بوساطة الملائكة، سلام يؤنس نفوسهم ويلقي فيها الرضا والطمأنينة والسعادة و(**سَلَامٌ)** من الله هو الأمان والرحمة والنعمة والسعادة، والسلام تحية أهل الجنة كقوله (**وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ)** يونس/١٠ ليكون السلام شعار المؤمنين المميز في

الدنيا، وليكون تمهيداً لهم يذكّرهم بعمل الجنة، **(قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)** يسمعون كلامه ويردون سلامه، فيبشرهم بالأمن والأمان والسلامة والاطمئنان.

فائدة: ١- **السلام:** هو التحية والترحيب والبشارة بالأمان من كل مكروه ونيل كل محبوب، والتخلّي عن كل السلبيات والتحلّي بالايجابيات.

حين تدخل عليهم الملائكة التي تستفتح بالسلام كقوله **(وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ)** الرعد/٢٣-٢٤، والسلام من رب رحيم مقدمة الرضوان الإلهي كقوله **(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)** التوبة/٧٢، ورضا الله غاية منى المؤمنين كقوله (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) البينة/٨.

٢- لا يوجد في الجنة أشياء عديدة منها:

ليس فيها زمن ولا شمس ولا قمر، ولا ليل ولا نهار ولا ظلام، ولا حرّ ولا برد ولا هرم ولا نوم ولا موت، ولا خوف ولا غضب ولا ذلة، ولا فقر ولا جوع ولا عطش، ولا بول ولا غائط ولا إنجاب، ولا تكليف ولا حساب ولا عمل، ولا لغو ولا كذب ولا وحشة ولا كراهية، ولا حسد ولا حقد ولا جهل، ولا ضعف ولا كسل ولا ملل، ولا فشل ولا خيبة أمل، ولا خطأ ولا اشتباه ولا غل ولا لؤم ولا خبث ولا شرّ، كقوله **(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ)** الأعراف/٤٣، إنّ الجنة غاية الصالحين، والنار غاية المفرّطين. **الغل:** صفة جامعة لكل السلبيات.

٥٩- ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾

في مشهد منظّم من مشاهد يوم القيامة، إنه مشهد مثير في مقام رهيب، يكون فيه الفرز العادل بين الصالحين والطالحين كقوله **(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ)** الروم/١٤، لما ذكر الله تعالى حال السعداء الأبرار، أعقبه بذكر حال الأشقياء الفجّار، على الطريقة التربوية القرآنية في الترغيب والترهيب **(يوم القيامة)** يوم الفصل، يوم التمييز والفرز بين الإنسان الجيّد من الرديء، وبين الخبيث والطيّب، فيكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب كقوله **(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)** السجدة/١٨، **المعنى:** **(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)** **والتمييز:** التفريق بين أمرين مختلفين أي وتميّزوا وانفصلوا وانعزلوا اليوم يا معشر الكفرة المجرمين بعيداً عن عبادي المؤمنين الصالحين، بسبب اختلاف المنازل والأعمال بينهما، ولا تختلطوا بهم كما في الدنيا، وذلك عند اختلاطهم بهم في ساحة المحشر، ويقال لهم هذا عند الوقوف للسؤال والحساب، ليوبّخهم ويقرّعهم على رؤوس الأشهاد، قبل أن يحاسبهم ويدخلهم النار مع الداخلين كقوله **(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)**

الرحمن/٤١. **فائدة:** ١- **أهل النار الذين لا يخرجون منها أربع طوائف**: المتكبّرون (المعاندون) والمنافقون، والمشركون (الكافرون) والمعطلّين لحدود الله، ويجمعها كلمة (**الْمُجْرِمُونَ**)

٢- فمعنى الإجرام:

أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة، وتوسّع معناه لكل اكتساب مكروه، ويقال الّلحم المجروم أي المفصول عن العظم، وكذلك (المجرم) فإنه أخبث المعتدين ومنفصل عن صفات الإنسانية والأخلاق البشرية المعروفة، في غرر الحكم (**شَرّ النّاس (المجرم) مَنْ يَتّقِيهِ النّاس مَخافَةَ شَرِّهِ**)،

٣- (**وَامْتَازُوا**) امتياز المؤمن وتفريقه عن الكافر في ساحة المحشر في عدة صفات منها: بياض وجه المؤمن بالنور، وإيتاء كتابه بيمينه، وثقل ميزانه بالحسنات، وثبات قدمه على الصراط، وأمانه من الفزع الأكبر كقوله (**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا**) الانشقاق/٧-٩ ويكون الكافر بعكسه.

٦٠-٦١- ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

الاستفهام للتوبيخ والتقريع، في الآية دلالة على رأفة الله سبحانه في حقّ بني آدم، إذ يعاتبهم معاتبة الحبيب للحبيب، وينصحهم نصيحة الأخ الصالح لأخيه، وقد حذرهم عدة مرات من مخاطر وساوس الشيطان كقوله (**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**) البقرة/١٦٨

المعنى: (**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ**) **ألم أعهَد**: ألم أوصِكم وأحذركم وآمركم (**يَا بَنِي آدَمَ**) لقد أعذرت إليكم بما أنذرت وحذّرت، وأقمت الحجج والبراهين بالبصيرة تارة وبالبصر تارة أخرى، وبالوحي على لسان الأنبياء والرسل، فأعرضتم عن هداية الرحمن واتبعتم غواية الشيطان، فقست قلوبكم من كثرة ذنوبكم، **عن الإمام علي** (ع) (**من لا يستقيم بِهِ الْهُدَىٰ تَضُرُّهُ الضَّلَالَةُ، وَمَنْ لاَ يَنْفَعُهُ الحقُّ يَضُرُهُ البَاطِلُ، وَمَنْ لاَ يَنْفَعُهُ الْيَقِيْنُ يَضُرُّهُ الشَّكُ**)شرح النهج٢/٩١ (**أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**)

أن لا تطيعوا الشيطان ولا تخضعوا لوساوسه الخادعة الّلعينة، التي تدعوا إلى معصية الله وتجاوز حدوده، وتشجع على طاعة غير الله، من اتّباع الهوى ومخالفة الهدى، ولا تطيعوه في كل قضاياكم العامة والخاصة، لأن طاعته نوع من الانقياد الأعمى لوساوسه كقوله (**وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا**) الفرقان/٢٩، فسمى طاعة الشيطان والانقياد لوساوسه عبادة له، ومن أطاع شيئاً فقد عبده، تشبيهاً لها بالعبادة لزيادة التحذير والتنفير عنها لوقوعها في مقابلة عبادة الله تعالى كقوله (**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**) الفرقان/٤٣ (**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**) تعليل النهي عن عبادته، لأنه عدو خبيث لئيم ظاهر (**مُبِينٌ**) واضح عداوته لكم، فكيف يطيع

الإنسان العاقل عدّوه؟ والذي يغفل عن عدّوه الّلدود فلا يلومَنّ إلاّ نفسَهَ. **في غرر الحكم** (من كان نفعه في مضرتك، لم يخل في كل حال من عداوتك)

كقوله (وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ) الأعراف/٢٠٥ **(لاَ تَغْفَلْ فَلَيْسَ بِمَغْفُوُلٍ عَنْكَ) والْغَفْلَةُ مِنْ قِلَّةِ النّباهَةِ وَمِنْ فَسَادِ الْحِسّ، العبادة**: مفهوم عام واسع الدلالة، فتشمل العبادة كل شيء، فمن أطاع هواه فقد أعطى عدّوه الشيطان مناه، ومن أطاع الشيطان باتباع وساوسه فقد عبده. في الحديث (مَا أطَاعَ رَجُلاً فِي مَعْصِيَةٍ فَقَدْ عَبَدَه) الوسائل١٨ص٧٩.

وعنه (ص) **(مَنْ أصغَى إلَى نَاطقٍ فَقَد عَبَدَهُ، فَإنَّ كَانَ النَاطِقُ عِنْ اللهِ فَقَدْ عَبَدَ الله، وَإنْ كَانَ النَاطِقُ عَنْ إبْلِيس فَقَدْ عَبَدَ إبْلِيسَ)** البحار٧٢/٢٦٤، وأنكم أعزُّ من أن تعبدوا شيطاناً ملعوناً مهيناً لئيماً عدّواً، ٦- **(وَأَنِ اعْبُدُونِي)** لما حَذّرَ الله تعالى من عبادة الشيطان، أمر بعبادته وطاعته سبحانه طوعاً لا كرهاً، فإن العبودية لله عزة للنفس واطمئنان للقلب وانشراح للصدر وحرية في الأرض، وأن العبودية للشيطان ضلال وضياع في الأرض، وأزمات في النفس، فأولها يغرّ ويسرّ ويمرّ وآخرها يضرّ، كقوله **(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)** الجن/١٧.

فحذركم الله من وساوس الشيطان أشد التحذير كقوله (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) الكهف/٥٠ **(وَأَنِ اعْبُدُونِي)** وأطيعوني طاعة خالصة صادقة لا شرك فيها ولا شك ولا نفاق ولا جهل، لأن **(العِبْادَةُ عَلَى قَدَرِ العِلْم)** وطاعة الله هي الطريق المستقيم الذي فيه العزة والكرامة والسلامة بلا أية ندامة ولا ملامة، فوصف عبادته سبحانه **(هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)** والذي يصل العبد برحمة ربه ورضاه، لأنه يبنى على العلم والإيمان والصدق والعدل والإخلاص كقوله **(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)** الزمر/٣، **عن الإمام علي** (ع) (وبالإِخْلَاصِ يَكُوْنُ الخَلَاصُ)تنبيه الخواطر ص٣٩٠ وأن التوحيد في العبادة هي العبادة الخالصة، وهي الدّين القيّم الصحيح، وهي الطريق المستقيم الحق، المؤدّي إلى سعادة الدنيا والآخرة،**عن الإمام علي (ع) في قوله**: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) البلد/١٠ **(إنّ اللهَ تعالى أَمَرَ بِطاعَتِهِ وَأَعَانَ عَلَيْهاَ وَلَمْ يَجْعَلْ فِي تَركِهاَ عُذْراً، وَنَهى عَنْ المَعْصِيَّةِ وأَغْنَى عَنْها وَلَمْ يَجْعَلْ فِي رُكُوبُها عُذْراً)**!

فائدة: (لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ) المراد بعبادة الشيطان:

عبادة وطاعة غير الله في معصية الله كقوله **(يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)** الفرقان/١٧، لأن الشيطان لم يكن جسماً مادياً مرئياً حتى تتحقق عبادته حسيّاً وعياناً، وعبّر الله سبحانه عن عبادة غير الله بعبادة الشيطان، لأنها تصبّ أخيراً في طاعة الشيطان واتّباع وساوسه، **والعلة من وجود الشيطان**: لتحريك سنة الصراع القائم بين الخير والشر كقوله (وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ) سبأ/٢١، **معنى: العبادة**: طاعة وانقياد

بتذلّل وخشوع وخضوع لا يستحقّها إلاّ من له الفضل عليك وهو الله عز وجل كقوله (**أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ**) يوسف/٤٠، **والعبودية لله** هي الصراط المستقيم، **والصراط المستقيم** هو أقصر الطرق وأيسرها وأضمنها للوصول إلى خير الدنيا والآخرة، وأن الله خلق المخلوقات من أجل الإنسان، وخلق الإنسان في أحسن تقويم وفي أعقد تركيب وأتقن صنع وكرّمه أفضل تكريم من أجل أن يعبد الله وحده، فمن عبد غير الله فقد ضيّع نفسه وأهلكها، في غرر الحكم (مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ الْعُبُودِيَّةِ أُهِّلَ لِلْعِتْقِ) **وَمَنْ قَصَّرَ عَنْ أُصُولِ الْعُبُودِيَّةِ أُعِيْدَ إِلَى الرِّقِ!**

ومما يلفت النظر: قَدّمَ الله سبحانه النهي عن عبادة الشيطان (**لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**) ثم اتبعه بالأمر بطاعته (**وَأَنِ اعْبُدُونِي**)

والعلّة في ذلك: لأنَ حَقَّ التخليّة من كل السلبيات أهم وأفضل من حَقّ التحليّة بالإيجابيات، مع وجود السلبيّات المثبطات، فإن درء المفسدة مقدّم على جلب المصلحة كقوله (**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**) هود/١١٤، عن الإمام الباقر (ع) (مَا أَحَسَنَ الحَسَنَاْت بَعْدَ السَيّئاْت، وَمَا أَقْبَحَ السَيّئاْت بَعْدَ الحَسَنَاْت) البحار٧١/٢٤٢ فإن عبادة الله الخالصة هي قمة تكاملية لا يصل إليها إلاّ السائرون في سُلّم التكامل البشري، الذين يحققون التوازن العام في حياتهم بين مطالب الدنيا والآخرة، والروح والجسد، والحياة والموت، والأمل والعمل.

٦٢- ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾

ثم تصوّر الآية الكريمة عداوة الشيطان لبني الإنسان، عداوة مجسّمة متأصّلة نافذة متكررة، عداوة ذات اتجاهات عديدة وعميقة وبعيدة، وكأن التعبير القرآني في دقة معناه يغوص في أعماق النفس والواقع ليكشف خطورة عداوة الشيطان الرجيم الّلئيم الحقود الحسود، فقد ترك الشيطان آثاراً سيئة مريرة فيمن عصوا الله واتّبعوا خطوات الشيطان المضلة، فَأَعْرَضَ عن دين الله القيّم خلق كثير وأفسد اعتقادهم وخدعهم أنهم تقدّميّون وأنهم يحسنون صنعاً، والمؤمنون هم الرجعيّون كقوله (**وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا**) النساء/٣٨ **وفي هذا دلالة** أن الإنسان مُخيَّر بإرادته وليس مجبراً، لذلك يحق محاسبته كقوله (**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**) الإنسان/٣، وقوله (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ) البقرة/٢٨٤، **المعنى**: (**وَلَقَدْ أَضَلَّ**) الشيطان الرجيم اللعين بوساوسه الفنية المتعددة الخادعة (**مِنْكُمْ**) من الناس العقلاء، أضلّهم وأبعدهم عن دين الله القيّم وصراطه المستقيم السليم فجعل عندهم المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، وقلب عندهم المقاييس الصحيحة والمعايير الموزونة.

(جِبِلًّا كَثِيرًا)

خلقاً كثيراً وأمماً كبيرة وعلى مدى حركة التأريخ وتعاقب الأجيال، دعاهم بوساوسه إلى المعاصي وأغراهم بالفساد فاستجابوا له وانحرفوا عن صراط الله المستقيم (**والذي لا يكون من**

نفسه واعظاً، لا تنفعه المواعظ ولا يكون له من الله حافظ)، في نهج البلاغة خطبة٨٦ (السَّعيد من وُعِظَ بغيره)

كقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣، بأن زيّنَ لهم الشيطان بوساوسه فسادهم وظلمهم وضلالهم وصدّهم عن الحق والعدل والخير كقوله (**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) الأنعام/٤٣، ثم زاد في توبيخهم والإنكار عليهم فقال (**أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**) الاستفهام هو توبيخ آخر وتقريع للمجرمين وكل من عصى الله، لماذا جمّدتم عقولكم ونشطتّم غرائزكم وشهواتكم المحرّمة، والذي يعرض عن الرحمن صار فريسة للشيطان! كقوله (**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا**) النساء/١٢٠ وقوله (إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) الأعراف/٣٠، في نهج البلاغة خطبة٦٤ (والشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا، وَيُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا) أفما كان لكم عقل يردعكم عن طاعة الشيطان وعبادته ومخالفة أمر ربكم، أفلا تنتبهون إلى خطورة هذه الوسوسة المحرّضة نحو الفساد، والغواية الخادعة التي تسهّل عليكم المنكر المؤدي بكم إلى سوء المصير (والعقل) السليم نور يُستضاء به، في غرر الحكم (**مَنْ لَمْ يُهَذِّبْ نَفْسَهُ فَلَمْ يَنْتَفِعْ بِالْعَقْلِ**) وأعدى أعدائك نفسُك الأمّارة بالسوء التي بين جنبيك.

في غرر الحكم (**مَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِيمَا يُحِبُّ أَتْعَبَتْهُ فِيمَا يَكْرَهُ**)! وقد كرر القرآن الكريم عدة مرات كلمة (تعقلون ويعقلون) ليؤكد أن العقل السليم الواعي هو الأصل في دين الإسلام، وهو قمة القمم، وقيمة القيّم ونعمة النعم، وذمة الذمم في حياة الإنسان، عن الإمام علي (ع) (**لَيْسَ الْعَاقِلُ مَنْ يَعْرِفُ الخَيْرَ مِنْ الشَّرِّ، وَلَكِنَ الْعَاقِلَ مَنْ يَعْرِفُ خَيْرِ الشَّرّينِ**) البحار٧٨ص٦، ويعرف أهون الضررين، ولا تشتبه عليه المتلابسات، لتعلموا أن الرجوع إلى الحق أولى وأهم من التمادي في الباطل، فلا تظلموا أنفسكم بالمعاصي وارحموها بطاعة ربكم عن طريق بصيرة عقولكم، عن الإمام الصادق (ع) (**تَفَكُّرُ سَّاعَة خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَنَّة**) (إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الْأَلْبَابِ) الرعد/١٩، البحار٣٢٧/٧١، فكيف تنقادون يابني آدم لوساوس الشيطان وهو لكم عدو؟ ألم يكن لكم عقل يأمركم بطاعة ربكم، وينهاكم عن اتّخاذ أعدى أعدائكم ولياً مرشداً، فلو كان لكم عقل سليم لما فعلتم ذلك بأنفسكم، فإذا أطعتم وساوس الشيطان الّلعين عصيتم الرحمن الرحيم.

عن النبي (ص) (**بَعَثْتُ دَاعِياً وَمُبَلغاً ولَيْسَ إلَيّ مِنْ الْهُدَى شَّيْءَ، وَخُلِقَ إِبْلِيسَ مَزِيناً وَلَيْسَ إليّه مِنْ الضَّلاَلَةِ شيء**) كنز العمال خبر٥٤٦.

فائدة: ١- (**جِبِلًّا**) **الجِبِلّ**: الخلق والجماعة الذين جبلوا على خليقة وطبائع معيّنة، وأصل الجِبِلّ الطبع، ومنه الجَبَلَ لأنه مطبوع على الثبات، الذين جُبِلُوا أي طُبعوا على طبائع فاسدة

وعادات ضالة عنيدة، كما طُبِعَ الجَبَلُ على الثبات والشدة، فَشَبَّه العدد الكبير والكثير من الناس الضالين بالجبل لضخامته كقوله (**وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ**) الشعراء/١٨٤ **وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ**: والأمم الكثيرة السابقة لكم التي خلق الله في جِبِلَّتِهِم وطبيعتهم وفطرتهم تقبيح الظلم والفساد، ٢- **سؤال**: قوله (**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**) النساء/٧٦، فكيف يستطيع الشيطان أن يضلّ هذا العدد الكبير من الناس وهو من موقع الضعف؟! **الجواب**: الإنسان الذي يستجيب لوساوس الشيطان وإغراءاته يقع فريسة لإغوائه كقوله (**وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا**) الفرقان/٢٩، ويبعده عن الله الرحيم، ويكون هو أضعف من مكر الشيطان، ولولا اتّباعه الأعمى ما تمكّن الشيطان من إضلاله كقوله (**كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ**) الحج/٤، بينما الإنسان المؤمن المخلص لله لا يتمكن الشيطان من إغوائه كقوله (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) ص/٨٢-٨٣ وقوله (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) الأعراف/٢٠١.

٦٣- ٦٤-﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

يُصوّر السياق القرآني جهنم بمشهد حي محرّك للمشاعر، مؤثّر بالنفوس وكأنه حقيقة واقعة حاضرة الآن! أعلن سبحانه جزاء هؤلاء المعاندين الأليم في تأنيب وتهكّم، فهم خرجوا عن منهج الله وصدّوا عن سبيله، فهم لا يعرفون كيف ينتهون، فلا يعرفون كيف يبدؤون حياتهم كقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) الانفطار/٦، وهنا يتبيّن ضرورة دين الله القيم في حياة الإنسان كقوله (**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ**) النساء/١٢٥، **عن الإمام علي** (ع) (لاَ حَيَاةَ إلاّ بَالدِّينِ ، وَلاَ مُوتَ إلاّ بِجُحُودِ الْيَقِينِ) الإرشاد/ المفيد ص١٥٧، **المعنى**: (**هَٰذِهِ جَهَنَّمُ**) هذه جهنم العذاب حاضرة أمامكم تشاهدونها (**الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**) التي كان رسل الله يحذّرونكم منها ويعدونكم بها في دار التكليف، ولكنكم كذبتم بها، واتّبعتم الهوى والأنا ووساوس الشيطان وعصيتم الرحمن، **في غرر الحكم** (كَيْفَ يَسْتَطِيْعُ الْهُدَىٰ مَنْ يَغْلِبُهُ الْهَوَىٰ)! وهنا تزوغ الأبصار وتتزلزل النفوس ويذوقون الفزعَ الأكبر، ٦٤- (**اصْلَوْهَا الْيَوْمَ**) الزموا عذابها وذوقوا حريقها وابقوا فيها وعانوا حرّها الشديد وقعرها البعيد وشرابها الصديد وعذابها الجديد المتجدد، كما كنتم تجدّدون فنون الفساد، واحترقوا بها اليوم مع الإهانة والإذلال (**بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**) بسبب كفركم بآيات الله وتكذيب رسله ورسالاته ولا تبالون بالقيم والمبادئ والأخلاق، وتفسدون في البلاد والعباد، (وَمَنْ لاَ يَتَّعِظُ بِالْنَّاسِ وَعَظَ اللهُ بِهِ النّاس)! **في نهج البلاغة حكم٢١١** (كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيْرٍ تَحْتَ هَوَىً أَمِيْرٍ)!.

٦٥- ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

إنهم من هذا اليوم الحاسم لا يستطيعون دفاعاً عن أنفسهم، وكل شيء مكشوف ومعروف كقوله (**يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**) النبأ/٤٠ ولكنهم يكذّبون مع هذا الوضوح كقوله (**وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**) الأنعام/٢٣، وأفضل حجة يدين الله بها هؤلاء أن تصدر الإدانة من أنفسهم على أنفسهم، وكان كل شيء محفوظاً على شكل شريط (فيلم مُتحرّك) مُجسَّم مُفَصّل واقعي ذي ثلاثة أبعاد بالصورة والصوت والنية، وكأن هناك كاميرة خفيّة (دقيقة) تصوّر كل شيء ونحن لا نشعر بها! ثم يُعرض هذا (الفيلم) على كافة الناس في ساحة المحشر العام، وهنا تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم، وجميع الجوارح معرّضة للاستجواب! **المعنى**: (**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ**) **الختم**: في الأصل الطبع على القلوب القاسية، ثم استعير لمنع الأفواه من الكلام (**الْيَوْمَ نَخْتِمُ**) اليوم نغلق أفواههم عن النطق ونمنعها من الكلام، في حالة إقامة الحجج الواضحة عليهم فلا يقدرون على ردّها ويعجزون عن الجواب، **والبرهان يقطع الجدال**، فيختم الله على أفواههم ويغلقها بالعجز عن الكلام! (**وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ**) بما ضربت وسرقت واعتدت وكتبت وأشارت، ويكلمنا كل عضو من أعضاء جسمهم ويشهد عليهم بما صدر منهم (**وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ**) بما مشت وسعت وتحرّكت واعتدت، **وفي ذلك دلالة على المعاد الجسماني**، وتتفكك شخصيتهم مزقاً وآحاداً، وتعود كل جارحة إلى ربها منفردة، ويرجع كل عضو إلى بارئه مستسلماً له سبحانه.

حقاً: **إنه مشهد واقعي عجيب رهيب يذهل النفوس ويرعب القلوب، ويوقظ الضمائر ويُحرّك المشاعر**، وذكر شهادة الأيدي والأرجل من باب ذكر النموذج، وأنما يشهد كل عضو من أعضاء الجسم كقوله (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) فصلت/٢٠-٢١ (**بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**) بما كانوا يعملون، وتشهد عند الله معترفة في ارتكاب الظلم والاعتداء والمعاصي والفساد..

فائدة: ١- **سؤال**: كيف تجمع بين قوله (**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ**) وقوله (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ) النور/٢٤، فقد أثبت لهم النطق في الأولى ونفاه في الأخرى؟ **الجواب**: إنّ العباد في يوم القيامة عدة مواقف، يؤذن لهم بالكلام في بعضها دون بعض كقوله (**يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ**) هود/١٠٥ وأن الله سبحانه يختم على أفواه المجرمين حين شهادة الأيدي والأرجل، فإذا انتهت الأعضاء من شهادتها أطلق سبحانه الأفواه، وسأل أربابها: ماذا تقولون في هذه الشهادة؟ تأكيداً للحجة وإلزامهم بها، ٢- **الختم لازم للكفار**، أما في الدنيا فعلى قلوبهم كقوله (**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ**) البقرة/٧، وأما في الآخرة فعلى أفواههم، ففي الوقت الذي كان الختم على قلوبهم كان قولهم بأفواههم كقوله (**ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ**) التوبة/٣٠، فلما ختم على أفواههم لزم أيضاً أن يكون قولهم بأعضائهم تشهد عليهم، والسر في نطق الأعضاء بما صدر عنها، ليعلم أن ما كان عوناً على المعاصي صار اليوم شاهداً، فعلى

الإنسان المؤمن أنّ (**يَتَوَجّه إلى وَجْهٍ وَاحِدٍ يَكْفِيهِ الوُجُوْهُ كُلَّهَا، وَيَحْمِلُ هَمّاً وَاحِداً يَكْفِيهِ الهُمُوْمُ كُلَّهاْ**)! روح البيان ٤٢٥/٧، ٣- في الحديث (يقول العبد يارب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول بلى، فيقول العبد فإني لا أجيز على نفسي إلاّ شاهداً مني، فيقول (**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**) الإسراء/١٤، وبالكرام الكاتبين شهوداً، ثم يختم على فيه ويقال لجوارحه انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يُخلّى بينه وبين الكلام فيقول: بُعداً لَكُنَّ وسحقاً فَعَنْكُنَّ كنت أناضل).

٦٦- ٦٧-﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ، وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾

(**وَلَوْ نَشَاءُ**) ولو نريد – على سبيل الفرض – أن نعذب هؤلاء المكذّبين المعاندين المفسدين في الدنيا قبل الآخرة، بمجرد المشيئة فهو كناية عن سهولته على الله (**لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ**) لمحونا بصر أعينهم أي لأعميناهم وأذهبنا أبصارهم كما أعمينا بصائرهم القلبية، فلم يروا شيئاً من الهدى، ولم يهتدوا إلى طريق الحق، فهو طمس وعمه لقلوبهم وعمى لعيونهم وضلال وانحراف عن الهدى، عمى معنوي وطمس لأعينهم التي لا يرون فيها الحق الواضح (**فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ**) فتسابقوا بتخبّط وضياع إلى الطريق المعتادين عليه فلا يصلون إليها أبداً (**فَأَنَّى يُبْصِرُونَ**) فكيف يبصرون طريق الهدى وقد طمست ومحيت أعينهم وعميت بصائرهم؟! وهو تهديد واستخفاف بهم ووعيد لهم، **ولكن الله سبحانه لم يشأ الطمس على عيونهم، ولم يلجئهم إلى الإيمان اضطراراً**، وإذا صار الإيمان بالإجبار والاضطرار سقط الحساب والثواب والعقاب، ولكن الله برحمته يبقي لهم أبصارهم لتكون حجة عليهم لعلهم يهتدون ويتوبون إلى الله تعالى، وأيضاً لو أراد الله سبحانه أن يعاقب المجرمين المعاندين في الدنيا، على سبيل التخويف والتهديد والوعيد، يعاقبهم بنوع آخر من العذاب أشدَّ وأقبح وأعنف من الأول، حرف (لَوْ) يدل على أن سنة الله تعالى ليست مسخ الناس وإجبارهم على الإيمان!

٦٧- (**وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ**) ولو نريد (**لَمَسَخْنَاهُمْ**) لغيّرنا صُوَرهم وشوّهنا خَلقهم في الدنيا (**عَلَى مَكَانَتِهِمْ**) في مكانهم الذي هم فيه وهم قعود مقيّدون مهانون بلا حركة ولا قابلية (**فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا**) فلا يقدرون على ذهاب ولا يستطيعون إكمال حياتهم بشكل طبيعي بعد المسخ (**وَلَا يَرْجِعُونَ**) إلى حالتهم الأصلية، ولا يستطيعون المجيء ولا الحركة، والممسوخ لا يبقى بعد المسخ طويلاً، ولكن الله لم يشأ برحمته مسخهم على مكانتهم، وترك لهم حرية الاختيار والإمهال وجعل أمامهم فرصة متاحة لأنه (**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**) الأنعام/٥٤، وبهذا الإمهال والاختيار تتحقق فلسفة المعاد إلى يوم القيامة (**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**) المطففين/٦ **فائدة**: ١- **المسخ**: تحويل الصورة الجميلة في حالة الخلق القويم والتكريم إلى صورة رديئة قبيحة مبتذلة مقززة مهانة في حالة العصيان والطغيان. **والمسخ نوعان**: **مسخ خاص**

مادي: وهو تشويه (الخَلْق) بالفتح، **ومسخ عام معنوي**: ويحصل في كل زمان ومكان، وللفرد والمجتمع، وهو تبدّل (الخُلْق) بالضم إلى خُلق الأشرار والفجّار (روح البيان٧/٤٢٧) في غرر الحكم (شرّ النّاس مَنْ يُعِيْنُ عَلَى المِظْلومِ)

٢- **هذان تهديدان محتملان في مشهدين عنيفين مخيفين**، فيهما من البلاء والاستهزاء بالمكذبين والمعاندين، فيكون عقابهم من جنس عملهم. **فهم في المشهد الأول**: **(لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ)** فهم مع معاناة العمى وطموس العينين وفقدان البصر والبصيرة، يستبقون الصراط، صراط النجاة إلى مكان الأمان ولكنهم يتساقطون تساقط العميان حين يسارعون متنافسين **(فَأَنَّى يُبْصِرُونَ)**؟

وهم في المشهد الثاني: **(لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ)** لمحونا عوامل القوة والإرادة فيهم فجمدوا عاجزين فجأة في مكانهم بلا حركة، واستحالوا تماثيل جامدة لا تمضي ولا ترجع، وأنهم في المشهدين المحتملين استصغاراً لشأنهم، وقد كانوا من قبل يستخفّون بالوعيد ويستهزئون بالمعاد، فيكون جزاؤهم من جنس عملهم كقوله (فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) الكهف/١٠٥ (وَلكنَّ اللهَ أَمْهَلَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَهْمَلَ، وَقَدْ سَتَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ غَفَرَ، وَأنه أَنْذَرَ حَتَّى كَأَنَّهُ أَعْذَرَ)! كقوله (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) الأعراف/٩٩ ٣- **(فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ)** فتسابقوا لعبور الصراط المستقيم (في الآخرة) الذي يوصلهم إلى الجنة، ولكنهم لا يستطيعون العبور على الصراط **(فَأَنَّى يُبْصِرُونَ)** ولا يعبره إلاّ المؤمنون كقوله **(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** آل عمران/١٠١، **عن النبي (ص)** (إِنَّ عَلَى جَهَنَّمَ جِسَرَاً (صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) أَدَقَ مِنْ الشَّعْرِ وَأَحَدَّ مِنْ السَّيْفِ) كنز العمال خبر٣٩٠٣٦، **وعنه (ص)** (أَثْبَتكُمْ قَدَماً عَلَى الْصِرَاطِ أَشَدَّكُم حُبّاً (واتّباعاً) لأَهْلِ بَيْتِي) البحار٨/٦٩.

٦٨- ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

دعوة أخرى لاستيقاظ القلوب الغافلة، إلى المبادرة إلى التمسّك بمنهج الله واستباق الزمن وحسن استثمار العمر، فكلما طال عمرهم نكست قوّتهم وضعف بدنهم وكثر نسيانهم وضاقت صدورهم وتضاعفت ذنوبهم، وصاروا تقدّميّين إلى الوراء كقوله **(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)**؟! فاطر/٣٧، في غرر الحكم **(لَوْ اعْتَبَرْتَ بِمَا أَضَعْتَ مِنْ مَاضِيْ عُمُرِكَ لَحَفِظْتَ مَاْ بَقِيَ)** فاغتنموا فرصة العمر وهي أنفاس معدودة قبل أن تكون غُصّة، يكون عمر الإنسان بين العمل والفراغ (مَاْ نَفْعَلُهُ خِلاَلَ سَاْعَاْتِ عَمَلِنَاْ يُحَدِّدُ مَاْ لَدَيْنَاْ، وَمَاْ نَقُوْمُ بِهِ فِيْ أَوْقَاْتِ فَرَاْغِنَاْ يُحَدِّدُ مَاْ نَكُوْنْ) ١- **استثمار العمر، والاستفادة من وقت الفراغ**: قوله تعالى (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ، وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) الإنشراح/٧-٨، **النصب**: التعب، الفراغ راحة واسترخاء، ولكن الآية تربط علاقة النصب بالفراغ في مشاغل الدنيا وفي ذلك دلالات، ولكن تدفعك

الآية إلى الله بدرجة الرغبة دون غيرها، **إذن:** أين وقت الفراغ؟ هو الفترة المحصورة من انتقالك من عمل قد انتهيت منه إلى عمل جديد آخر تنجزه!!

معنى الآية الكريمة: (**فَإِذَا فَرَغْتَ**) من شغلك المهم أيها النبي مع الناس في تبليغ الرسالة، ومع شواغل الحياة (**فَانْصَبْ**) فتوجّه بقلبك كله إلى ما يستحق أن تنصب وتتعب من أجله، أي فأتعب نفسك في سبيل الله بأداء مهمة أخرى، وكن دائماً في عمل صالح مستمر، ومجاهدة نفسك وتزكيتها بصورة دائمة، حتى لا يبقى عندك وقت فراغ. **عن الإمام علي** (ع) (إن يكن الشّغل مجهدة، فاتّصال الفراغ مفسدة) تنبيه الخواطر ص٤٩ (**وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ**) إلى ربك وحده خالياً من كل شيء، حتى من أمر الناس الذين تشتغل بدعوتهم (**فَارْغَبْ**) فتوجّه إلى الله بدرجة الرغبة والمحبة والاندفاع، وضاعف جهدك في طاعته، وارغب في منهجه (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**) مريم/٩٦، فمن تَوَجَّه إلى الله وَصَلَ إليه، وهنا ستجد يسراً مع كل عسر، وفرجاً مع كل ضيق، حتّى يتبيّن لكَ أنه هذا هو الطريق الذي يستقرئُ الواقع.

عن النبي (ص) (إِنَّ اللهَ يَبْغَض الصَّحِيْحُ الْفَاْرِغُ، لا في شغل الدنيا، ولا في شغل الآخرة)شرح النهج١٤٦/١٧، **في نهج البلاغة كتاب٥٩** (إعلم أنّ الدّنيا دار بليّة، لم يفرغ صاحبها فيها قط ساعةً، إلاّ كانت فَرْغَتُهُ عَليه حَسَّرةً يومِ القيامةِ) وتُصوّر الآية الشيخوخة آفة الأعمار، وتحول الإنسان الهرم من الإدراك إلى الخرف، ومن القوة إلى الضعف الظاهري والباطني، وقد يصبح كالطفل يعجز عن قضاء أهم حاجاته، والموت أيسر من هذه الحياة العكرة، التي يكون فيها العجوز ثقلاً على غيره، كقوله (**وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا**) الحج/٥، والغرض من الآية أن يُفَكِّر الإنسان بحسن عاقبته، أن يبادر الإنسان إلى التوبة قبل الموت، وإلى الصلاة قبل الفوت، وإلى عمل الصالحات قبل أن تكون حسرات.

المعنى: (**وَمَنْ نُعَمِّرْهُ**) **التعمير**: من العمر، مدة عمارة البدن بالروح والقوة في الدنيا كقوله (وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ) فاطر/١١ **في غرر الحكم** (مَاْ نَقَصَتْ ساعة مِنْ دَهْرِكَ إلاّ بِقَطْعِهاْ مِنْ عُمُرِكَ) وإطالة عمره حتى يبلغ سن الشيخوخة والهرم والعجز والخرف، (**نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ**) والشيخوخة مرحلة نكسة من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة الطفولة المتأخرة عند الكبر! ولكنها بغير جاذبية الطفولة والنعومة، يرجع الشيخ الهرم العجوز طفلاً في ضعفه، ولكن الطفل تبتسم له القلوب والوجوه والحياة، ويحرّك المشاعر بلا استئذان، عند كل حركة، بينما الشيخ الهرم الذي يرجع طفلاً منكوساً ويكون ثقلاً على أهله وعلى غيره وعلى أرضه، عن النبي (ص) (**إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِي تُوَقِيرَ الشَّيْخِ (الكبير) مِنْ أُمَّتِي**) كنز العمال

خبر٦١٠٣، (**نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ**) ولم يقل (ننكسه في الخُلُقِ) والتنكيس أبلغ من النكس، **التنكيس**: انقلاب المقاييس وَنَكْسَةٌ في المشاعر والتفكير والذكاء، **أما النكس**: قلب الشيء على رأسه بالتدريج المنظّم، مثل الرد إلى أرذل العمر فيعود يستذوق مرارات العجز فيكره نفسه ويتمنّى الموت (**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**) أفلا يتدبّرون بهذه السنة في الخَلْقِ، العامة والواضحة؟ وفيه توبيخ لهم على عدم التفكّر والتعقّل، أفلا يعودون إلى منهج الله والالتزام بطاعته؟ (**أَفَلَا يَعْقِلُونَ**) أن الله قادر على أن يُحوّل الإنسان من حال إلى حال (**وَدَوَامُ الحَاْلِ مِنَ الُمحاْلِ**) لأنه سبحانه المالك وحده لكل الحالات والتغيّرات والتقلّبات.

في غرر الحكم (إنّ اللَّيْلَ وَالنَّهاْرُ يَعْمَلاَنِ فِيْكَ فَاعْمَلْ فِيْهِمَاْ، وَيَأْخُذَاْنِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَاْ) **عن النبي (ص)** (اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك) **عن الإمام علي** (ع) (يَا أَيُّهَا النَّاسُ: الآنَ الآنَ مِن قَبْلِ الْنَدَمِ) كقوله (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ، تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) الزمر/٥٦-٥٨، تنبيه الخواطر ص٣٣٣.

فائدة: ١- **يقول علماء الطب الحديث**: معدل عمر الإنسان بشكل عام إذا كان بين ٧٠ -٨٠ سنة، معنى ذلك أن الإنسان إلى متوسط عمره، يكون إلى عمر الأربعينات في نمو وتزايد قوى بنيته الجسدية والعقلية والروحية، وبعد مرحلة (متوسط العمر) تبدأ مرحلة التنكيس في الخَلْقِ التدريجي الُمنَظّم، فأوله غير محسوس وآخره ظاهر ملموس ومعروف، ويكون في تراجع وضعف وشيب مُقَدّر وَمُدَبّر، **في دعاء سيدتنا فاطمة الزهراء** (ع) (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي) البحار٩٤/٢٢٥.

٦٩- ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾

(**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ**) وما علّمنا مُحَمَّداً الشعر ونظمه (**وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**) وما يليق به صناعة الشعر ولا يصلح له الشعر، ولا أن يكون شاعراً، لأنه رسول الله يوحى إليه وهو أعلى منزلة من الشعر وأرفع من الشعراء، بل هو (ص) أسوة حسنة تأخذ بالألباب، وقيادة صالحة نموذجية مميزة في قوله وفعله وتقريره وسيرته (**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ**) ما علمناه إلاّ موعِظَةً بالغةً تذكّر بالله وتُعرّف صراطه المستقيم الذي يرضاه لعباده، ومبيّن الأدلة على وجود الصانع وتوحيده، من أسماء القرآن (الذكر) كقوله (**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**) التكوير/٢٧ فهو يذكّرك بالله ورسله ورسالاته وسُننه وبرحمته وباليوم الآخر. كقوله (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ) الزخرف/٤٤ (**وَقُرْآنٌ مُبِينٌ**) لفظ القرآن من قرأ أي جمع، وسُميَّ قرآناً لأنه يجمع السوّر فيضمّها

بعضها إلى بعض، ويجمع سائر كتب الله المنزلة من السماء، ويجمع ثمرة جميع العلوم كقوله (**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ**) النحل/٨٩، أي (**وَقُرْآنٌ مُبِينٌ**) يُوضّح منهج الله وما يريده الله، من عباده، فهو وحي يوحى لا يلتبس به الشعر بحال من الأحوال. **والقرآن ذكر الله** يشتغل به القلب والمشاعر.

وهو قرآن يتلى ويشتغل به اللّسان والبيان، وتبحث فيه العقول والأفكار، لذلك يصوغ القرآن الشخصية المتكاملة المتوازنة المستقيمة، في سرّها وعلنها في عُسْرِها ويسرها في مظهرها وجوهرها في قولها وفعلها، (كَانَ النَبْيّ (ص) خُلُقُهُ القُرآن). **قال المشركون**: جاء مُحَمَّد بالقرآن وما هو إلاّ شعر ليعبّر عن تفكيره وخياله، وليس بوحي من الله؟! كما جعل الله تعالى رسوله أُمّياً لا يقرأ ولا يكتب لتكون الحجة عليهم أتمّاً، كذلك منعه من قول الشعر (**وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**) حتى لا يقولوا إنه شاعر، وإن القرآن من مفترياته.

أين الشعر من القرآن الكريم؟ والقرآن ليس بشعر، **فالشعر**: شعور يختلف ويتنوّع تبعاً لذات الشاعر وميوله وتربيته، **والشعر**: كلام متكلّف موضوع، ومقال مزخرف مصنوع، منسوج بوزن وقافية، مبنى منه على خيالات، فأين ذلك من (**القرآن**) (الحقيقة الكبرى، والدستور الأعظم للبشرية) فهو كلام الخالق وفوق كلام المخلوق، كلام بديع عميق رقيق بليغ مشحون بفنون الحكم الباهرة والمواعظ البالغة والقصص الكاشفة لسنن الله، والأحكام الناظرة الميسَّرة لتربية الناس.

والقرآن: منهج إلهي في الإرشاد والهداية والإيمان، يرغّب بالعلم والبحث والدراسة المستندة على منطق العقل السليم، وهو مصدر أمين لشريعة الله الخالدة، ودستور حياة للإنسانية جمعاء ومقياس للأخلاق الفاضلة، ومعجزة خالدة من السماء، لعمل حضارة عالمية تدمج الدين بالدنيا والآخرة، فتكون سياسة الدّين عبادة، وعبادته سياسة، **وللشعر منهج غير منهج الأنبياء** (ع) للشعر منهج انفعال، والانفعال يتقلّب من حال إلى حال، ويأتي من ردود أفعال، وهو أشواق تصعد من حِكم وتصوّرات أهل الأرض.

أما منهج الأنبياء (ع) **يعتمد على عصمتين**: عصمة ذاتية، وَمَلَكَة داخلية تعصمهم عن الخطأ، **في غرر الحكم** (قُرِنَتْ الحِكْمَةُ بِالْعِصْمَةِ، وبِالتَّقْوَى قُرِنَتِ الْعِصْمَة) وعصمة خارجية، وتسديد وتأييد بوحي رسالي سماوي ثابت، يهديهم للتي هي أقوم، في كل حركة وقول وفعل، **فائدة**: (**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ**) (**ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ**) وهما صفتان لشيء واحد، فجمع بينهما لاختلاف فائدتهما (**ذِكْرٌ**) بحسب وظيفته وتذكيره وهدايته (**وَقُرْآنٌ**) يتلى بحسب تلاوته وحسن تأثيره. ومن الشعراء تعلّموا بغير علم صحيح، وتفقّهوا لغير الدين، فضلوا وأضلوا كثيراً كقوله (**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ**) الشعراء/٢٢٤، ومن الشعراء الصالحين المؤمنين ومنهم دون ذلك، يقولون شعراً أنفذ من السهام! **عن النبي** (ص) (إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لَحِكَماً، وَإِنَّ فِي البَيَانِ لَسِحْرَاً) سنن أبي داود خبر٥٠١١.

٧٠- ﴿ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

في الآية الكريمة تعبير موجز ذو دلالة واسعة، وببلاغة عالية وكناية مؤثرة، تحدد مهمة الرسول (ص) **(والهِمَّةُ عَلَى قَدَرِ المُهِمَةِ)**، التعبير القرآني يضع الكفر في مقابل الحياة، فيجعل الكفر موتاً، ويجعل استعداد القلب لتلقّي الإيمان حياةً ونماءً، حياة تتفجّر منها الحياة، حياة لحماية الحياة! ويُبيّن التعبير وظيفة هذا القرآن بأنه نزل على الرسول مُحَمَّد (ص) لينذر من به حياة **(مَنْ كَانَ حَيًّا)** حياةً زاكية وشفافة نامية مفكرة، فيؤمن ويستقيم فينفع فيه الإنذار والاستبشار، فأما الكافرون الذين يفقدون التفاعل مع عوامل التأثير بالقرآن وبالإيمان، فهذه علامات الممات، الموت المعنوي البليد البطيء حتى ولو كانوا على قيد الحياة! ولكنها مجرد حياة، حياة وكفى، فهي أتفه حياة، وَهَدْرٌ للحياة، فهم لا يستذوقون طعم الحياة المطلوبة والمرغوبة، لأنه لا حياة إلاّ بدين الله القيّم، ولا موت (معنوي) وكآبة نفسية إلاّ بالكفر والإعراض عن منهج الله، كقوله **(وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)** الجن/١٧، **في نهج البلاغة خطبة١٥٤**(العاملُ بغَيْرِ علم كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ الطَّرِيقِ الصّحِيْح، لاَ يَزِيْدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إلاّ بُعْدَاً عَنْ الصَّوَابِ) وهنا تأتي وظيفة القرآن لتسجيل الاستحقاق للعذاب كقوله **(لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ)** الأنفال/٤٢.

المعنى: (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا) لينذر النبي (ص) بهذا القرآن الحي المؤثر **(مَنْ كَانَ حَيًّا)** من كان يعيش الحياة المشرقة بمعناها الحيّ النابض بالحياة، المتدفّق بالحيوية المنفتح على الآخر والمتطلّع إلى الآفاق غير المرئية والعوالم العلمية، وهو الإنسان حَيُّ القلب منشرح الصدر منفتح الآفاق، واعي العقل دقيق الفكر يقظ المشاعر متحرّك الضَّمير، يستجيب للموعظة، لأن ضالته ورغبته الحكمة، مستنير البصيرة، يتدبّر بالآيات ويتفكّر بالبيّات، وينفتح قلبه للحق والدليل، ويستخدم وجهته فيما خلقه الله له، ولا يُضَيَّع عمره في ما لا يعنيه، وهم المؤمنون القرآنيون الصالحون المتفاعلون مع القرآن، ويكون **(القُرآنُ)** لهؤلاء بمنزلة الغيث للأرض الخصبة الزكية، الذي يثلج صدورهم ويليّن قلوبهم ويرقّق مشاعرهم وتشفَّ نفوسهم ويركنون إليه ويعيشون معه ويكونون دعاة إليه كقوله **(تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ)** الزمر/٢٣، أما الغافل عما هو مخلوق من أجله بمنزلة الميت، وكالأرض الصبخة التي لا ينفعها ماء الحياة.

والتعبير القرآني البليغ جعل العقل والفهم والنباهة للقلب بمنزلة الحياة للبدن، وكل قلب حي سليم هو الذي يتقبّل الإيمان ومنهج الرحمن وتكون حياته بنور الله وروح منه، فهذا يفيده الإنذار. فنسأل الله أن يذوّقنا العيش مع الحياة الواعية اليقظة التي تطمح دائماً نحو الأحسن، فإنها توصلك للحياة السامية وآفاقها الباقية **(وَيَحِقَّ الْقَوْلُ)** يوجب العذاب **(عَلَى الْكَافِرِينَ)** المصرّين على الكفر، وقامت الحجة عليهم وانقطع احتجاجهم ويئسوا من النجاة كقوله **(وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)** الزمر/٧١، وجعلهم السياق القرآني في مقابلة

(**مَنْ كَانَ حَيًّا**) إشعاراً بأنهم لكفرهم وسقوط حجتهم وعدم تأملهم، أموات في الحقيقة، فمن طبيعة الحي التأثر والتأثير والانفتاح على الدليل والبحث عن الحقيقة، وهؤلاء أغلقوا أنفسهم عن خصائص الأحياء بالتأثر والتأثير وعدم التفاعل مع الدليل، ولا يراعون الحق ولا يبحثون عن الحقيقة، ولا يتطلّعون إلى حُسن العاقبة، فهم أموات كقوله (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) الأنفال/٢٢. وقوله (**أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ**) النحل/٢١.

٧١- ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾

(**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ**) الاستفهام للإنكار والتعجّب، أي أولم يعلموا ويتفكّروا ويتدبّروا أنا أنشأنا (**لَهُمْ**) لأجل منافعهم وتدبير أمر حياتهم الدنيا (**مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا**) مما عملت قدرتنا دونما مشاركة من غيرنا ولا معين من أحد وبلا شريك، وذكر (**أَيْدِينَا**) وأسند العمل إليها، إنها استعارة تمثيلية وكناية تشبيهية تقريبية عن القدرة القاهرة، فهو تعالى منزّه عن الجوارح وليس بجسم ولا صورة ولا يشبه الخلق حتى يكون له أيدٍ حقيقية كقوله (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**) الشورى/١١ (**أَنْعَامًا**) وتشمل البقر والإبل والغنم، فيستدلون بذلك على وحدانيتنا في الخلق، وهم يستدلّون بالخلق على الخالق (**فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ**) يتصرّفون فيها ومسيطرون عليها دون غيرهم، تصرّف المالك الاعتباري، لأن المالك الحقيقي هو الله، وهذا احترام وحفظ للملكية الفردية للرجال والنساء، ولولا خلقنا لها بهذا التدبير والتقدير لما حصلوا عليها ولا على شيء من منافعها، وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئاً، ولا يملكون أن يخلقوا ذبابة ولو اجتمعوا لها، ولا أن يذلّلوا ذبابة لم يركّب الله في خصائصها أن تكون ذلولاً لهم! كقوله (وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ) الحج/٧٣.

٧٢- ٧٣-﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ، وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

(**وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ**) إنها كلمة قصيرة ولكنها تكشف عن قانون فعّال عام مؤثّر، وإنه غير محدد بالأنعام وإنما ذكرها كنموذج مألوف، وإنما هناك عالم من الكائنات الكثيرة (المذلّلة) للإنسان، والأليفة معه، والموجودة في البر والبحر والجو، وهناك عالم آخر يقابله، عالم الكائنات غير المذللة، الوحشية المفترسة، في البر والبحر والجو.

المعنى: (**وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ**) وسخرناها لهم وأخضعناها لإرادتهم حتى صارت مذللة منقادة ملبية لشتى حاجات الإنسان، وغير عاصية ولا متمردة حتى مع الطفل الصغير، مع ضعف الإنسان وشدَّة قوّتها كقوله (**سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**) الزخرف/١٣ وما يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كله شيئاً، ولو كانت حيوانات وحشية مفترسة لما تمكّن الإنسان من استخدامها. ولو جعل البعير الكبير الحجم لو كان كبير العقل كثير الفطنة والنباهة والتحسس، لما استطاع الإنسان تذليلة وإخضاعه واستخدامه، ولو جعل (العكس) العصفور الصغير الحجم ولكنه صغير العقل قليل الفطنة والنباهة والتحسس، لما ترى عصفوراً يطير في الجو ولتمكّن الصيّادون منها جميعاً، فجعل الله سبحانه لكل جسم من كل حيوان مقداراً من

العقل والغريزة والفطنة والنباهة والتحسس يتناسب معه ليكون ذلولاً ومسخّراً للإنسان، كقوله (**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**) الفرقان/٢، فتكون (**وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ**) كلمة شفافة نَفّاذَة في المشاعر وتتغلغل في الضمائر وتحرّك الأحاسيس بسرعة بلا استئذان، وهي عميقة المعنى دقيقة المبنى، واسعة الدلالة (**فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ**) فمنها وسائل لحمل الحاجات ومنها وسائل للنقل كالجمال التي هي سفن البر (**وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ**) ومنها ما يذبح ويذكر اسم الله عليها ويؤكل لحمها، ومنها ما يستخرج منها الحليب ومشتقّاته..

٧٣- (**وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ**) عديدة غير الركوب والأكل كقوله (وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) النحل/٨٠ (**وَمَشَارِبُ**) ولهم فيها مشارب يشربونه من حليب وفوائده ومشتقاته كقوله (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ) النحل/٦٦ (**أَفَلَا يَشْكُرُونَ**) الله ربهم المنعم عليهم هذه النعم الجليلة؟ أفلا يحمدون الله على هذا التدبير الجميل والفضل الجليل، الذي يكشف عن ربوبية الله لهم، وإقامة الحجة عليهم؟ أفلا يعبدونه ويوحّدونه ولا يشركون به أحداً شكراً لأنعمه؟ والشكر العملي، هو الشكر الواقعي وأفضل من الشكر القولي والنظري كقوله (**اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْرًا**) سبأ/١٣، **في نهج البلاغة** (لَوْ لَمْ يَتَوَعَّدِ اللهُ عَلَى مَعْصِيَتِه لَكَانَ يَجِبُ أَنْ لاَ يُعْصَى شُكْراً لِنِعَمِهِ).

٧٤- ٧٥-﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آَلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ۞ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴾

كلا، لم يشكروا الله، ثم وبّخهم وعنّفهم من عبادة (**مِنْ دُونِ اللَّهِ آَلِهَةً**) وإنهم قد رأوا هذه المخلوقات ذات آيات واضحة وهي من قدرة الله، وكل إله من دون الله لا قدرة له على خلق شيء أصلاً، بل وضعوا الشرك والعصيان والكفران مكان الشكر، كقوله (**وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**) النمل/٤٠، مجرد أن يبتعد الإنسان عن الله سبحانه تتلقفه الآلهة المتعددة من الهوى والأنا والشيطان والطمع والطغيان.. إلخ، كقوله (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) الأنعام/١٥٣، **المعنى**: (**وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آَلِهَةً**)يعبدونها من الجن أو الإنس أو الأصنام الحجرية أو الأصنام البشرية أو الفكرية وحبّ المناصب والجاه والأموال وجبابرة البشر.

(**لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ**) بجلب الخير ودفع الشرّ بزعمهم، أما اليوم في جاهلية القرن الحادي والعشرين لا يقلّون ضلالاً عن أولئك في الجاهلية الأولى، فإنهم يؤلّهون الطغاة ويعشقون الأموال والمناصب ويعبدون الجبارين، وهم الذين يدفعونهم نحو الطغيان، ثم هم في الوقت ذاته يخرون للطغيان راكعين.

كقوله (**هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآَبٍ**) ص/٥٥، ٧٥- (**لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ**) ولا أنفسهم ينصرون، فإذا كانوا لا يستطيعون نصر أنفسهم فكيف ينصرونهم؟! فليس عندهم استطاعة على النصر ولا قدرة عليه، لأنهم تحت قدرة الله كقوله (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**) الأنعام/٦١، وكل كائن تحت القدرة فهو ذليل كقوله (الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) النساء/١٣٩ **(وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ)** وهؤلاء المشركون صاروا كالجند والخدم لحماية ورعاية أصنامهم التي يعبدونها، ويعدّون أنفسهم لحفظ الآلهة والدفاع عنهم وخدمتهم والنذور لهم، وكأنهم (جُندُ) خدّام لهم في كل حين، وهنا مكان الغرابة والخساسة والجهالة! أين عقولهم؟ كقوله **(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)** يونس/٣٢، **عن الإمام علي** (ع) (إنَّ مَنْ لاَ يَنْفَعُهُ الحقُّ يَضُرُّهُ البَاطِلُ، وَمَنْ لا يستقم بِهِ الهُدَى تَضُرُّهُ الضَّلَالَة، ومَنْ لاَ يَنْفَعُهُ الْيَقِينُ يَضُرُّهُ الشَّكَ) شرح نهج البلاغة٩١/٢.

٧٦-﴿ فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

فإذا كان هذا واقع المشركين المعاندين مع آلهتهم بصورتها المخزية **(فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ)** فلا تحزن يا مُحَمَّد على تكذيبهم لك، واتّهامهم بأنك شاعر أو مجنون، فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم فسيلاقون جزاءهم العادل في وقته المناسب، كقوله (وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) الكهف/٥٩، وهذه تسلية للنبي (ص) فهم مكشوفون لنا وتحت قبضتنا وكل ما يدبّرونه تحت عيننا وهم لا يشعرون، وهنا تم الكلام، ثم قال **(إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ)** إنا نعلم ما يخفونه من أقوال وأسرار، وإن علمنا محيط بما في صدورهم وضمائرهم من خفايا فنحاسبهم عليها كقوله **(أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)** فصلت/٥٣ **(وَمَا يُعْلِنُونَ)** وما يظهرون بألسنتهم وتعاملاتهم فيجازيهم على كل شيء ونعاملهم بما يستحقّون. وتقديم **(مَا يُسِرُّونَ)** على **(وَمَا يُعْلِنُونَ)** للمبالغة في الإحاطة وشمول علم الله بما يخفون أقدم وأشمل وأتم منه بما يعلنون مع استوائهما في الحقيقة. كقوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) ق/١٦.

٧٧-﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾

يواجه الله الإنسان بواقعه في ذاته، في أصل نشأته كقوله **(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)** الطارق/٥، فيما يراه ويعرفه في حياته ويشهده بعينه وحسّه مكرراً معاداً، **في غرر الحكم** (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) ثم لا ينتبه الإنسان إلى دلالة نشأته وما فيها من عبر، ولا يتّخذ من هذه النشأة الأولى مصداقاً واقعياً لنشأته الأخرى، وقد وعدَ الله لمعاده وبعثه ونشوره وحسابه بعد موته. **يروى**: إنّ قبرَ الإنسان الذي يدفن فيه يكون من أصل النطفة التي خُلِقَ منها!! ونحن البشر نعرف شيئاً وتغيب عنّا أشياء كثيرة، **المعنى**: **(أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ)** الاستفهام إنكاري للتوبيخ والتعجّب والتقريع، أي أولم يرَ ويعلم الإنسان علماً قاطعاً يقينياً لا شك فيه، وينظر نظر اعتبار؟ **(أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ)** كانت نشأته من نطفة وهي ماء الرجل (المني) أصلها من التراب، نطفة حقيرة مستقذرة كريهة مهينة خارجة من مخرج النجاسة! كقوله **(أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)** المرسلات/٢٠، ليكون متواضعاً مرناً محباً لأخيه الإنسان، **عن النبي** (ص) **(مَنْ تَوَاْضَعَ للهِ رَفَعَهُ ، فهو في نفسه ضعيف، وفي أعين الناس عظيم، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَيْهِ وَضَعَهُ، فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير)** كنز العمال خبر٥٧٣٧، **(فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)** **خصيم مبين**: صيغة مبالغة من كونه شديد الخصومة، عنيف النزاع، كثير الجدال

بالباطل، يخاصم ربه وينسى قدره وينكر قدرته، ويطلب منه البراهين والأدلة المقنعة الواضحة على البعث والنشور الذي ينكره ويكذبه، وهو ينسى ماضيه ونشأته الأولى، فإن أوله نطفه قذرة، وآخره جيفة نتنة وهو ما بينهما يحمل العذرة!

في غرر الحكم:

(رَحِمَ الله امرءاً عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ، ورَحِمَ الله امرءاً عَرَفَ قَدرهُ ولَمْ يتَعَدَّ طَوْرَه، ورَحِمَ الله امرءاً عَرَفَ حَدَّهُ فَوَقَفَ عِنْدَهُ) لماذا لا يفهم الإنسان ويعقل بأن الذي فعل هذا الخلق في النشأة الأولى، قادر وبسهولة أن يفعله ويعيده بعد موته حياً مرة أخرى في النشأة الثانية عند البعث والجزاء؟ **فائدة: الآية الكريمة تحرّك في الإنسان المشاعر والفكر**، لينظر في هذا التفاوت الكبير بين هاتين الحالتين في النشأتين، وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصير، فكما خلق الله تعالى الإنسان من نطفة حتى أصبح إنساناً مخلوقاً في أحسن تقويم، وفي أعقد تركيب، ومكّرم أفضل تكريم، وكما خلق الطير من البيضة، والشجرة من النواة، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، مع هذه القدرة القاهرة يستعظم الإنسان على الله أن يعيده حياً بعد موته ويبعثه للحساب والجزاء؟! **والآية الكريمة تعلّمنا** من علامات الكريم أن يكافئ الإحسان بالإحسان كقوله **(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ)** القصص/٧٧، ومن علامات اللّئيم أن يكافئ الإحسان بالنكران والإساءة، في غرر الحكم **(شَرّ النّاس مَنْ يُكافِئ عَلَى الجَمِيْلِ بالقَبِيحِ)**.

٧٨- ٧٩- ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

ونحن نسأل: هل تزيد النطفة حيوية أو قدرة على العظم الرميم المفتوت؟! أو ليس الذي حوّل النطفة المهينة إنساناً مكرّماً بقادر على أن يحوّل العظم الرميم الفاني مخلوقاً حياً من جديد بعد موته؟! إنها قدرة من **(يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)** فاطر/٤١، **سبب النزول**: جاء رجل بعظم بال إلى رسول الله (ص) فضغط عليه حتى تفتت وصار تراباً، **وسأله**: أيحي الله هذا؟ فقال له (ص) نعم، ويبعثك ويحاسبك **فنزلت الآية**. وكان إنكار الكافر باستغراب الجاهل وليس له دليل ولا برهان على إنكاره؟! **المعنى**: **(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا)** وضرب لنا هذا الكافر مثلاً بالعظم الرميم البالي، مستبعداً ومستغرباً على الله إعادة خلق الإنسان بعد موته وفنائه **(وَنَسِيَ خَلْقَهُ)** العجيب، وبدايته الغريبة، ونسي أنا أنشأناه من نطفة مهينة أصلها من التراب، ووهبنا له الحياة، وجعله الله خليفته على أرضه، ولو كان يذكر أصله لأجاب عن نفسه لنفسه، فكان أصلك من تراب وكذلك يعيدك من تراب بعد أن تصبح عظامك رميماً تراباً، فأنشأك الله بإعجاز، ويعيدك بإعجاز، فكيف تؤمن بالابتداء وتنكر الإعادة، وقدرة الله تعالى واحدة؟! كقوله **(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)** الروم/٢٧.

عن الإمام علي (ع) (عَجِبْتُ لِمَن أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الأُخْرَى، وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الأُولَى) وقال هذا الكافر مستغرباً (**مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ**) الاستفهام إنكاري، من يحيي العظام وهي بالية فانية متلاشية مفتتة مختلطة بالتراب؟ ورجعت إلى أصلها من التراب كقوله (**أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا**) مريم/٦٧، قالها وهو مستغرق في غفلته، مسيطر عليه جهله، مشدود إلى القدرات المحدودة المحيطة به، فهو وقع في اشتباه الجاهل، فقاسَ قدرة الإنسان المحدود بقدرة الله المطلقة، وهي لا وجه لها للقياس (فَمَاْ شَاْءَ اللهُ كَاْنَ، وَمَاْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)،
٧٩- (**قُلْ**) يا مُحَمَّد لهذا المتعجّب من الإعادة وأمثاله بجواب شاف كاف (**يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ**) بأن الذي أنشأها وأوجدها وأبدع خلقها أول مرة من غير مثال سابق، أنشأها من العدم إلى عالم الوجود هو الذي يحييها ويعيدها، فالذي قدر على بدء الخلق من لا شيء، قادر على إعادته حياً مرة ثانية بعد موته، فإن قدرة الله القاهرة باقية على إعادتها بعد تفرّق أجزائها، وهذا إيمان بالمعاد الجسماني.

(**وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**) وهو العالم بتفاصيل هذا الوجود الضخم، والقادر على إدارته، فيسهل عليه بعث الأجساد بعد فنائها لإحاطته بكل عناصر المخلوقات.

كقوله (أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) ق/١٥ **وإذا فرضنا أنه لا يوجد بعث ونشور، إذن:** هناك عبث في الخلق، والله منّزه عنه، لأنه هناك ظالم، ويموت ظالماً، وهناك مظلوم ويموت مظلوماً، ففي يوم القيامة يأخذ حق المظلوم من الظالم، فلا يتساوى الظالم والمظلوم، فلا يمكن في عدل الله أن يموت المظلوم على ظلامته، ويموت الظالم على ظلمه واعتدائه ولا يقام عليه القصاص العادل، ويقول الله (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) النحل/٩٠، **في غرر الحكم** (لاَ عَدْلَ أفضل مِنْ ردِّ المظالم) **وفيه أيضاً** (خَيرُ العِلْم ما أصلحتَ بِهِ رَشَادَكَ، وَشَرّهُ ما أفْسَدتَ بِهِ مَعَادَكَ) كقوله (**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**) ص/٢٧.

فائدة: ١- نكران يوم القيامة: نكران الضروريات من أشكل المشكلات، والتعامي عن الحقيقة الكبرى لا يلغي وجودها، وعدم الشعور بها دليل القصور في إدراكها، والعناد في تكذيبها قبل التأكد منها دليل على ضحالة منكرها، لذلك أصبح التكذيب جريمة بل هو الذي يدفع لسائر الجرائم، لأن من علامات الجاهل (**الأَحْمَق:** إِذَا أَمِنَ الْعِقَاْبَ أَسَاْءَ الأَدَبَ)،
٢- الإيمان بالمعاد إلى يوم القيامة أمر فطري مثل: جوع وعطش الإنسان دليل على وجود الماء والطعام في الحياة، وجود الغريزة الجنسية عند الرجل دليل على وجود الحاجة إلى زواج المرأة، لتسدَّ الحاجة عند الطرفين، وحبّ الإنسان في البقاء حياً دليل على وجود العالم الآخر للبقاء الدائم كقوله (**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**) المؤمنون/١١٥، وقوله (أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقرة/١٤٨،عن الإمام علي (ع) (**اطْلُبُوا الْمَوْت، تُوهَبُ لَكُمْ الْحَيَاةُ**)! موسوعة الشهادة١/٢٨٧، الدنيا مزرعة الآخرة،

وهي ممر لمقر، سُئل الإمام الصادق (ع): أنّى للروح بالبعث، والبدن قد بلى والأعضاء قد تفرّقت، فعضو في بلدة يأكلها سباعها، وعضو بأخرى تمزقه هوامها، وعضو قد صار تراباً بنى به مع الطين حائط؟! قال (ع): (إنّ الذيْ أنْشَأهُ مِنْ غيرِ شَيءٍ، وَصَوّرَهُ مِنْ غَيْرِ مِثاْلٍ كَانَ سَبَقَ إليهِ، قَادرٌ أنْ يُعِيدَهُ كَماَ بَدَأهُ). البحار٧ص٣٨. **عن النبي (ص) (الْخَاْسِرُ**: مَنْ غَفَلَ عَنْ إصْلاَحِ الْمَعَاْدِ) تنبيه الخواطر ص٣٥٩.

٨٠- ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾

استبعد المشركون فكرة وحقيقة البعث والنشور والجزاء، فهم يعتقدون أن الشيء لا يتولد منه ما هو ضدٌّ له، وقالوا كذلك لا تخرج الحياة من الأموات، ولا يحيي الله الناس بعد موتهم وفنائهم؟ **نجيب هؤلاء**: إنّ الله تعالى هو الذي يقدر على إعادة الأجسام الميتة بعد تمزيقها، يعيدها حيّة من جديد على صورتها المعروفة، كقوله (بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) القيامة/٤، والله تعالى هو الذي يخلق الإنسان من نطفة مهينة مستقذرة فيجعله في أحسن تقويم وسيد المخلوقات، وهو الذي يحيي الأرض بعد موتها إذا نزل عليها الماء، وهو القادر على أمر عجيب آخر قوله **(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)** فيخرج من الشجر الأخضر الريّان ناراً محرقة مع مضادة النار للرطوبة، يحتك بعض الشجر الأخضر ببعض فيولّد ناراً محرقة، ثم يصير هو وقود النار بعد الاخضرار، فحصول الحي من الميت ليس بأعجب من انقداح النار من الشجر الأخضر وهما متضادان! وهو انقلاب الشيء من حقيقة إلى ضدّها، وهذه أخبار احتراق الغابات الخضراء الكثيرة والكبيرة والكثيفة، المليئة بالشجر الأخضر التي يذاع عنها بين غابات دولة وأخرى وبين حين وحين آخر من دول العالم.

كقوله **(الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)** طه/٥٠، فكيف ينكرون المعاد وإحياء العظام البالية للجزاء؟!

ولكنهم يعترفون بخلق الإنسان من نطفة وأصلها من التراب! ويعترفون بإحياء الأرض بعد موتها! ويعترفون بتحوّل الأشجار الخضراء إلى نار بعد احتكاكها! ويعترفون بإنزال الماء من السماء نتيجة اصطدام السحب المولدة لشرارات البرق الكهربائية! ويعترفون كيف يحيي الله النفوس المنفتحة بالإيمان والعرفان بعد موتها بالكفر والهوى والطغيان كقوله **(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ)** الأنعام/١٢٢، وهذا كله انقلاب الشيء من حقيقة إلى ضدّها، **إذن**: فهم يعيشون التناقض! **البرهان الحسّي للمعاد**: وبعد بيان حقيقة إعادة الحياة بعد الموت، وتوليد الضد منه الضد، وتحقيق البعث والنشور والجزاء، نقول: **الحياة والموت في الظاهر متضادان ومختلفان**، وفي الحقيقة إن الحياة والموت صديقان منسجمان متعاونان، مثل الليل والنهار ليسا ضدّين وإنما صديقان متعاونان منسجمان بينهما **(تعدد أدوار ووحدة هدف سامية)** فإذا كان الله قادراً أن يشعل النار من الشجر الأخضر، فهو قادر أيضاً أن يحوّل الليل إلى نهار، والنهار إلى ليل، وهو قادر أيضاً على إعادة الحياة للميت بعد

فنائه، كما كان يفعل روح الله عيسى (ع) يحيي الموتى بإذن الله كقوله (**وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي**) المائدة/١١٠.

قال الشاعر: جمع النقيضين من أسرار قدرته – هذا السحاب به ماء به نار (**فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ**) فإذا أنتم من الشجر الأخضر الريّان تشعلون، فمن قدر على توليد أحد الضدّين من الآخر، قادر على إعادة الأجسام الميتة إلى الحياة من جديد للجزاء والحساب. **فائدة:** قال (**مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا**) ولم يقل (من الشجر اليابس ناراً) لأن بالشجر الأخضر الدال على الحياة تحصل عملية التركيب الضوئي المعروفة، وادّخار الأوكسجين والطاقة من الشمس وتخزينها وتحتفظ بها بساق الشجرة بين الخشب، وتكون مادة قابلة للاشتعال عندما تكون الشجرة خضراء والجو مملوء بالاوكسجين، وعندما تكون الأشجار يابسة، فتتوقف عملية التركيب الضوئي عند موت الشجرة وجفافها، ولكنها تحتفظ بالطاقة والمادة القابلة للاشتعال عند الاحتكاك أو وجود شرارة كهربائية.

٨١- ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾

(**أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**) الاستفهام للتقرير، هذه الآية بيان آخر في الآية السابقة (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ) ٧٩، وكأنما تريد الآية أن تقول: أين عقول الناس من ذلك الخلق المنظّم العجيب المتقن؟ أين من يتأمل ويتدبّر ويعي ويهتدي؟! أي من قدر على إيجاد عوالم السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأبدعهما مع كبر حجمهما وعجائب أنظمتهما العامة المتضمنة لعددها الهائل من الأنظمة الجزئية المدهشة للعقول والمفتحة للآفاق الذهنية والروحية، ونظام عالم الإنسان جزء من هذا النظام العام كقوله (**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**) الذاريات/٢٠-٢١ (**بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**) فالذي يقدر على هذا الإيجاد يقدر أيضاً وبسهولة على إعادة خلق البشر بعد موته وفنائه للجزاء والحساب كقوله (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) الأحقاف/٣٣، ويهون عليه أن (**يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ**) ويوجد غيرهم.

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) النحل/٨، ساعة يشاء أين يشاء كيف يشاء متى يشاء كقوله(**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**) ٨٢ (**بَلَى**) حرف تأكيد، ويأتي جواباً لاستفهام مقترن بنفي، أي بلى قادر وبسهولة على خلق الموجودات الضخمة، قادر على خلق الموجودات الصغيرة مثلكم، وإعادتها بعد موتها فتعود لها الروح المحفوظة، وترجع الأجساد المتلاشية حية من جديد، كما كانت بصورتها المعينة، كقوله (**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**) غافر/٥٧، وإذا لم يتعذّر عليه خلق ما هو أعظم منكم، فلا يتعذّر عليه إحياء العظام الرميم ويبعث الإنسان للجزاء، فعليكم الاستعداد لهذا الموقف الأكيد، وَتَعُدّوا له عُدّته المناسبة، كقوله (**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**) الروم/٢٧ (**وَهُوَ الْخَلَّاقُ**)

صيغة مبالغة من كثرة وعظمة وإبداع الخلق بلا كلفة ولا جهد، ولا يختلف بالقياس إليه خلق الكبير والصغير، وكلها في غاية الإبداع وجمال الوجود مع الحكمة والمصلحة كقوله (**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ**) السجدة/٧ (**الْعَلِيمُ**) كثير العلم بكل شيء، وجامع للعلوم ومُعلّم الخلق. كقوله (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) البقرة/٢٥٥.

٨٢- ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

تصوّر الآية الكريمة بصورة بليغة وعالية الدقة قدرة الله الخارقة، التي لا تحدّها حدود ولا تقيّدها قيود، بإرادته القاهرة للاشياء كقوله (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**) الأنعام/٦١، وكل الأشياء خاضعة له غير منفصلة عنه، ليدركه العقل البشري المحدود، فلا يصعب على الله تعالى شيء، لأنه محيط بكل شيء كقوله (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) النور/٣٥، وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، وقوله (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) الرعد/٣٣ لأن أمره بين الكاف والنون (**كُنْ فَيَكُونُ**) فمتى أراد سبحانه شيئاً وجد بدون تعب ولا جهد ولا كلفة ولا عناء، كقوله (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) البروج/١٦، ولا يختلف عنده سبحانه الكبير والصغير والعسير واليسير، وليس هناك صعب ولا سهل ولا قريب ولا بعيد، فتوجّه الإرادة لخلق الشيء كاف وحده لوجوده كائناً ما يكون، إنها قدرة فريدة فوق التصوّر كقوله (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**) الشورى/١١، إنما يقرّب الله للبشر الأمور ليدركوها بقياسهم البشري المحدود كقوله (كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) آل عمران/٥٩ وقوله (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) القمر/٥٠، **المعنى**: (**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا**) إنما شأنه حينما يقصد إحداث شيء وإبداعه.

(**أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**)! إنها استعارة تمثيلية وكناية بلاغية تقريبية بديعة، للتفخيم والتعظيم وتصوير القدرة الإلهية الخارقة عن المألوف والمعروف (**كُنْ فَيَكُونُ**) في الحال من غير تمانع، بمجرد الإرادة، فإذا هذا الشيء متكوّن وموجود بدرجة الكمال والجمال والجلال! بلا حاجة إلى قول (**كُنْ**) أي هناك ملازمة بين إرادته تعالى ووجود المراد وحدوثه دون حاجة إلى أي شيء، فالإعادة والبداية لديه تعالى بمنزلة سواء كقوله (**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**) النحل/٤٠، بلا زمان ولا كلام بدون قاعدة الأخذ بالأسباب (مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ).

٨٣- ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(**فَسُبْحَانَ**) فتسبيحاً وتعظيماً لله وتنزيهاً له سبحانه من أن يوصف بما لا يليق به، وتمجد وتعالى الله عن صفات النقص وعما يقوله المشركون، فلا تعجز قدرته على إعادة المخلوقات حية بعد موتها، وإحياء العظام الرميم للبعث والنشور والجزاء، كقوله (أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) البقرة/١٤٨ فهو الإله العظيم الجليل الجميل (**الَّذِي**

بِيَدِهِ) أي بقدرته بيان حقيقة كل شيء، وبقدرته مَلَكَ كل شيء، ويقدر على كل شيء، وإليه ينتهي كل شيء فهو سبحانه يملك الأشياء وحده، وله القدرة الكاملة على التصرّف فيها كما يريد، ومن يقدر على كل شيء، يقدر على إحياء العظام وهي رميم **(مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)** صيغة مبالغة من المالكية المطلقة الواسعة لله تعالى لكل شيء في الوجود، والقدرة التامة والسيطرة الكاملة على كل الكائنات المملوكة، وعلى كل ذرة في هذا الكون الضخم! كقوله **(أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)** الأعراف/١٨٥ **(وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)** فيرجع أهل القبول بالاختيار والتكريم، ويرجع أهل الرد والاعتراض بالإجبار والاضطرار، وإليه وحده سترجعون جميعاً في يوم القيامة للحساب والجزاء، من غير شك ولا ريب لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على ذلك، فيجازي كل إنسان بما عمل، فهو يستحق العبادة والطاعة تحقيقاً لمصلحتهم وضمان لحسن عاقبتهم كقوله **(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)** هود/ ١٢٣، إنهم إذا لم يرجعوا إلى الله فأين يرجعون؟ وإذا لم يرجعوا إلى الله : فهم مخلوقون للعبث.

كقوله **(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)** المؤمنون/١١٥؟ وإذا لم يرجعوا إلى الله فليسوا إذن في ملكه، ولا يأكلوا من رزقه، وليس هناك شيء غير مملوك لله عز وجل، كقوله (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الشورى/٤٩، **فائدة: (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)** حقيقة الرجوع إلى الله لا ينقصه الدليل العلمي والبرهان العقلي والحجة القطعية كقوله (كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) الأعراف/٢٩، وقوله **(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا)** الأنعام/١١٤، ولكن ينقصه الإنسان المتفهّم، والنفس المنفتحة، والصدر الرحّب الباحث عن الحق والحقيقة، والطبع المرح والخُلُق المرن الذي يقبل الدليل، والعقل الواعي المفكّر، والقلب الذي يصغي وينتبه للقضايا الكبرى المصيرية المهمة، والانفتاح مع أهل العلم والاختصاص والبصيرة والإيمان كقوله **(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)** النحل/٤٣، وبحاجة إلى المشاورة والمحاورة، وتبادل الآراء والنقاش العلمي والنقد البنّاء مع أصحاب الفكر والاطّلاع كقوله **(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)** الشورى/٣٨ (وَمَنْ شَاوَرَ أَصْحَابَ العُقُوْلِ شَارَكَهُمْ عُقُولَهُمْ وَتَجَارُبَهُمْ).

وفي الختام نقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) الأنفال/٢٩.

تمّ بعون الله (وَعْيُ الْقُرْآنِ الْمُيَسَّر) لسورة يس، وتسمى أيضاً قلب القرآن، الرافعة، القاضية، حبيب النجار، وكانت كتابتها بقدري لا بقدرها، بجهد متواصل فلله الحمد والمنّة، وبالحمد تتم

الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات، بتاريخ ٦/١٧/ ٢٠١٩م الموافق ١٧/ جمادي الثانية/ ١٤٤٠هـ، في العراق، الكاظمية، داعين الله سبحانه تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السّور القرآنية الكريمة إنه سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث القرآني: مكي قاسم البغدادي

ترتيبها ٣٧ — سُورَةُ الصَّافَّات — آياتها ١٨٢

من مقاصد السورة:

مكية تعنى بأصول العقيدة الإسلامية، التوحيد والنبوة والمعاد، شأنها شَأن السور المكية التي تهدف إلى تثبيت دعائم الإيمان، ابتدأت السورة بالحديث عن الملائكة الصافات أجنحتها لتنفيذ أمر الله، ثم تحدّثت عن الجن وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة، وتحدثت عن البعث والنشور والجزاء، وذكرت قصة المؤمن والكافر والحوار الذي دار بينهما وعاقبة كل منهما، واستعرضت السورة قصة نوح وإبراهيم وإسماعيل وموسى وهارون والياس ولوط، وفصّلت في قصة الإيمان والابتلاء، وحادثة الذبيح إسماعيل وفدائه بذبح عظيم، وتعليماً للمؤمنين كيف نُسلّم لأمر الله، وختمت السورة بنصرة الله لأنبيائه وأوليائه وأن العاقبة للمتقين، وسمّيت بسورة الصافات تذكيراً للعباد بالملائكة الصافات الذين (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) الأنبياء/٢٠، وبيان وظائفهم التي كلّفوا بها، وتؤكد أن النصر في نهاية الجولة للحق على الكفر، **فضلها: عن النبي** (ص) (من قرأ سورة الصافات أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل جن وشيطان، وتباعدَت عنه مَردةُ الشياطين وبرئ من الشرك، وشهد له حافظاه يوم القيامة، أنه كان مؤمناً بالمرسلين) مجمع البيان٨ص٣٢٣، **ملاحظة:** هذا الفضل بشرطه وشروطه، والاستقامة على منهج الله من شروطه. **عن الإمام علي** (ع) (من أحبّ أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه من مجلسه قوله (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) الصافات/١٨٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ – ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا، إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾

افتتح الله تعالى السورة بالقسم بطائفة من الملائكة الكرام، صافّات، زاجرات، تاليات، إظهاراً لعظم شأنها وكمال دورها وجمال عبادتها وجلالة قدرها، وأنها مطيعة لله تعالى، وقد يكون القسم في نظرك تافهاً لكنه عند خالقه عظيم، لأن له مهمة غفلت أنت عنها، ويريد الله أن يبرز مهمته وأهميته عن طريق القسم، **المعنى:** ١- **(وَالصَّافَّاتِ صَفًّا)** الجماعة التي يصطف

أفرادها وينتظم أمرها وتستقيم في مقام العبودية لله، ومصداقها الملائكة الكرام الذين يصطفّون صفّاً منظّماً للعبادة والصلاة والذكر وهم في السماوات، كما يصطف المؤمنون مستوين في صلاة الجماعة مع الخشوع للعزيز الجبّار وهم في الأرض، كقوله تعالى عن قول الملائكة (**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ**)الصافات/١٦٥-١٦٦ أو الصافون في الدعاء إلى الله (الدعاء الجماعي) أو في الجهاد في سبيل الله أو استعداداً لتنفيذ أمر الله، **في الحديث** (أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِم؟ قُلْنَا وكيف يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ المتقدمة (في صلاة الجماعة) وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ) ويكون ترتيب الصفوف بطريقة منظّمة بحسب مراتبهم في العلم والتقوى والأعمال الصالحة، فإن تسوية صفوف صلاة الجماعة من إقامة الصلاة، والصفوف العوجاء غير مرغوب فيها عند الله.

٢- (**فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا**) الجماعة الرادعة للمنكر ومصداقها الملائكة الصافّون هم الذين يزجرون مردة الشياطين الذين يسترقون السمع من الملأ الأعلى، **والزجر**: دفع الأذى عن العباد، **والزاجرات** لمن يستحق الزجر وهو الدفع بقوة وتخويف، من العصاة في أثناء قبض أرواحهم أو عند الحشر والسوق إلى جهنم زمراً، وهو ما زجر الله عنه في القرآن الكريم، وحين نقف لنقيم الصلاة نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فبذلك نزجر الشيطان، وبعد ذلك نتلوا القرآن ٣-(**فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا**)وصف ثالث لهذه الجماعة الذاكرة لله تعالى، ومصداقها الملائكة الأبرار، إشادة بذكر مناقبهم العلوية الذين يذكرون ويحمدون ويعبدون كقوله (**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**) الأنبياء/٢٠، وقوله (**الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**) الأحزاب/٣٥، والذين يتلون الوحي على الرسل، ويلهمون الناس على فعل الخير وزجرهم عن الشر كقوله (**لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**)التحريم/٦، **فقد أقسم الله بكل هذه الطوائف المقربين الكرام** ٤- (**إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ**) وهو جواب القسم، والخطاب لعامة الناس لتعلم (التوحيد) هذه هي الحقيقة المهمة التي لا بد من الإيمان بها والعمل على ضوئها، **في غرر الحكم** (**التّوحيد**: حَياةُ النَّفْسِ)

والتأكيد على صفة (**الواحد**) للإنسان الذي يُحسن التفكير في حقيقة الحياة ونظام الوجود، فإنه يعتقد بأن له إلهاً واحداً لا شريك له في الملك، وتفرّد في صفات الكمال والجمال والجلال، تفرداً لا يشاركه فيه غيره، فأخلصوا له وأفردوه بالطاعة ووحدوه في الإلوهية كقوله (**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**)النور/٣٥ وقوله (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠ وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)الحديد/٤، وإذا أساء التفكير فيأخذه الشيطان فيجعل له (الإله الواحد) إلى (عدة آلهة) كقوله (**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**)الأنعام/١٥٣، فيعبد هواه والشيطان والمال والعقار والمناصب والنساء والطغاة..

إلخ فيضل عن سبيل الله كقوله **(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)** ص/٢٦، إنه الله عز وجل إله واحد أحد فرد صمد أي لا مادة له ولا جزء له ولا ينقسم على ذاته، **في كل شيء له آية تدل على أنه واحد**، إنه إله واحد مهيمن على الوجود كله. **عن النبي (ص)** (إنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحبّ الوِتْرَ) يعني القلب المنفرد المنقطع له، الموحّد توحيداً كاملاً شاملاً عارفاً في كل الأحوال. دعاء في وصف الله تعالى (مختصر) (يا باطِناً في ظُهُورِهِ، وَيا ظاهِراً في بُطُونِهِ وَيا باطِناً لَيْسَ يَخْفى، وَيا ظاهِراً لَيْسَ يُرى، يا مَوْصُوفاً لا يَبْلُغُ بِكَيْنُونَتِهِ مَوْصُوفٌ وَلا حَدٌّ مَحْدُودٌ، وَيا غائِباً غَيْرَ مَفْقُود، وَيا شاهِداً غَيْرَ مَشْهُود، لا يُدْرَكُ بِكَيْف وَلا يُؤَيَّنُ بِأَيْن وَلا بِحَيْث، سُبْحانَ مَنْ (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١، سُبْحانَ مَنْ هُوَ هكَذا وَلا هكَذا غَيْرُهُ).

٥-٧- ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ، إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ، وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾

ثم يُعرّفُ الله الواحد عباده بنفسه في صفته المناسبة للوحدانية، ليدل بالمخلوق على عظمة الخالق فقال ٥- **(رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)** خالقهما ومدبرهما والمتصرّف فيهما وانتظامهما بإتقان، من أوضح الدلائل على وجود الله الواحد ووحدانيته، لا شريك له في ربوبيته ولا في إلوهيته **(وَمَا بَيْنَهُمَا)** من هواء وسحاب وأضواء وأنواع المخلوقات، وأنواع السنن والأنظمة **(وَرَبُّ الْمَشَارِقِ)** ورب مشارق الشمس ومغاربها، ولكل نجم مشرق ولكل كوكب مشرق، فإن لها في كل يوم مشرق جديد وتغيب في مغرب جديد، **فهي في مشارق كثيرة باختلاف الفصول**، نتيجة لدوران الأرض حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة، وتدل هذه الحركة المنتظمة على وجود منظّم لها يستحق العبادة والطاعة، وهي حقيقة ما كان يعرفها الناس في زمان نزول القرآن، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب، لدلالة المشارق على المغارب للتلازم بينهما، ٦- **(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا)** إنا زيّنا وجمّلنا وحسّنا السماء السفلى التي هي أقرب السماوات للإنسان للاهتداء بعلاماتها في ظلمات البر والبحر، ونستوحي من كلمة **(السَّمَاءَ الدُّنْيَا)** وجود السماوات السبع العليا كقوله **(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ)** الإسراء/٤٤.

(بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ) الزينة الناشئة من الكواكب بحسن ضيائها، والتي تبدو وكأنها جواهر جميلة تتلألأ في أجمل مشهد مؤثر في المشاعر تقع عليه العيون، وتندهش له النفوس، والجمال عنصر مهم هادف له أهميته، ويؤدي وظيفته وتأثيره في نفوس الناس، والله جميل يحب الجمال ويخلق الجمال ويدعو إليه، **عن الإمام علي**(ع) (هذه النُّجُومَ الَّتِي فِي السَّمَاءِ مَدَائِنُ مِثْلُ الْمَدَائِنِ الَّتِي فِي الْأَرْضِ)! البحار ٥٥ص٢٨٠ **في غرر الحكم** (ما تَزَيَّنَ مُتزيِّنٌ بِمِثْل طاعة الله) وللإنسان ميول فطرية للزينة وحبّ الجمال والابداع، فكان ذلك أصل من أصول الخلق والتكوين العام، فكما زيّن الله السماء الدنيا بزينة الكواكب، كذلك زيّن قلوب أوليائه الصالحين بنجوم المعارف

وأنواع المكارم، وبأنوار التوحيد وحبّ الاستقامة، ويمكن أن تكون (**وَرَبُّ الْمَشَارِقِ**) مشارق الأرض واتّساع آفاقها، وأصبح الشرق اليوم في التقسيم السياسي والجغرافي للعالم، شرقاً أدنى، وشرقاً أوسط، وشرقاً أقصى كقوله (**وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا**) الأعراف/١٣٧، ٧- (**وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ**) تقرر هذه الآيه أن لهذه الكواكب وظيفة غير الزينة والضياء، فمن هذه الكواكب رجوم تحفظ السماء وتحركات كل شيطان (**مَّارِدٍ**) متمرّد شرّير خبيث عاتٍ عارٍ من الخير، وارث لإبليس لأنه من ذريته، خارج عن طاعة الله من الجن والإنس، لاستراق السمع وأخذ بعض المعلومات، فهذه الكواكب الراجمة تحفظنا منهم.

٨-١٠-﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ، دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾

(هذه الآيات من المتشابهات) ٨- (**لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ**) أي لا يتسمّعون ولا يصغون فلا يستطيع الشيطان الاقتراب والاستماع والإصغاء واستراق السمع من الملائكة في (**الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ**) والسماء العُلى للاطّلاع على ما يُلقي بعضهم إلى بعض من أخبار الغيب المستورة عن العالم الأرضي، كالحوادث المستقبلية والأسرار المكنونة (**وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ**) تتلقفهم الرجوم ويُرمونَ بالشهب المحرقة الثاقبة النافذة في الأشياء، متى أرادوا استراق السمع (**مِن كُلِّ جَانِبٍ**) من كل جهة يقصدون السماء منها، فتلاحقهم الشهب المشعّة الثاقبة في أثناء هبوط الشياطين ليطردوهم سواء حرقتهم أو لم تحرقهم كقوله (**إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ**) الشعراء/٢١٢ وقوله (**إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ**)الحجر/١٨ وعصم الله غيبه ووحيه وكتابه، ٩- (**دُحُورًا**)من **الدحر**: وهو الطرد بعنف وإهانة والدفع والإبعاد بقوة، أي يطرد الشياطين الأشرار طرداً شديداً (**وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ**)ولهم فوق ذلك الدحر عذاب معدّ لهم (**وَاصِبٌ**)دائم موصول لازم لا ينقطع ولا يفارقهم يوم القيامة لتمردهم الدائم عن طاعة ربهم، ١٠- (**إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ**) إلاّ من خطف وتلقّف من الشياطين المردة العتاة كلمة صادقة على وجه الخفية والسرقة أو اختلاس بسرعة من كلام الملائكة الكرام في الملأ الأعلى، وخطف خطفة سريعة مما يدور بين الملائكة قبل أن يدركه (**شِهَابٌ ثَاقِبٌ**) فيخلطون مع الكلمة الصادقة بدلالاتها الواسعة، الكذب الكثير ويروجونها بين الناس بوساوسهم الخبيثة ويخدعون بها الكثير كقوله (**الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ**)محمّد/٢٥.

فائدة: ١- نحن لا نعرف كيف يتسمّع الشيطان المارد، ولا كيف يخطف الخطفة، ولا كيف يرجم بالشهاب الثاقب، لأن هذه كلها من الغيبيّات لا نعرف كيفيتها، ولكن نصدّق ما جاء به القرآن الحق الصادق، وبعض الناس يعبدون الشياطين ويطيعون الجن ويتّبعون وساوسهم

الخبيثة، والذين يتّبعون الخبثاء هم خبثاء مثلهم، وشبيه الشيء منجذب إليه، والطيور على أشكالها تقع، على أساس أن شياطين الجن يعرفون الغيب لاتصالهم بالملأ الأعلى!! والآية ترد على معتقد هؤلاء المشركين الفاسد كقوله (**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**)الجن/٦، ٢-وبما أن الآيات من المتشابهات، فيمكن تأويلها على ضوء حركة الواقع، قوله (**لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ**) إنّ الجهّال تقيدّهم حدود المادة في هذه الأرض، ولا ترقى نفوسهم إلى التطلّع إلى آفاق العالم الآخر، عالم الغيب المعنوي العلوي، عالم العرفانيات السامية والتأمل في حقيقته (**وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ**)

تقذفهم شهواتهم المحرّمة، وتطردهم من كل جانب عن الرحمة الإلهية، فصاروا تائهين في حياتهم تتخطفهم الأهواء والمطامع وحبّ الثروة، فلا يبصرون ذلك الجمال الخلّاب الذي يشرق في نفوس الأتقياء الحكماء ويُبهر أنظار العلماء، ويتجلّى في النفوس الصافية والقلوب السليمة المستقيمة، **في غرر الحكم** (ذِرْوَةُ الْغَايَاتِ لَا يَنَالُهَا إِلَّا ذَوُو التَّهْذِيبِ وَالْمُجَاهَدَاتِ) (**دُحُورًا**) يطردون من عالم العرفان ويعيشون أنواع المعاناة (**وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ**) عذاب موصول كقوله (**وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**) الجن/١٧ وقوله (لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا)الإسراء/٢٢ وقوله (**فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**) الشعراء/٢١٣ وقوله (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ) طه/١٢٤ (**إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ** ..) يستثنى من هذا من لاحت له بارقة من نور الهداية، وخطفت بصيرته نِعَمَ الدراية، وهم من آتاهم الله الحكمة من لدنه، وأيّديهم بروح من عنده كقوله (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) النحل/٩٧.

١١-١٢-﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ، بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾

فإذا كان الله هو رب السماوات والأرض وما بينهما (**فَاسْتَفْتِهِمْ**) فاسألهم أي فاسأل يا محمّد الذين ينكرون البعث، سؤال استفهام ومحاجة ودعوة الى التفكّر، واعرف رأيهم **والفتيا**: الجواب عما يشكل من الأحكام.

(**أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا**) هل البشر أقوى خلقاً وأصعب إيجاداً وأكبر حجماً (**أَم مَّنْ خَلَقْنَا**) أم غيرهم ممن خلقنا من السماوات والأرض والكون والكائنات على كثرتها وتنوّعها ودقائق أنظمتها، فيكون الجواب أن هذه المخلوقات أشدّ خلقاً منهم كقوله (**لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**)غافر/٥٧ والغرض من الآية إقامة البرهان على المعاد إلى يوم القيامة، فإن من قدر على خلق هذه الأشياء العظيمة الشديدة، قادر على خلق الإنسان وإعادته حياً بعد موته، ولاسيما (**إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ**) **لازب**: طين ليّن متماسك لزج ملتصق بعضه ببعض لا قوة فيه أي لا رمل فيه، وهو من هذه الأرض كقوله (**وَخُلِقَ الْإِنسَانُ**

ضَعِيفًا)النساء/٢٨، طبعاً لا ينتظر منهم جواب، فالأمر ظاهر، والسؤال استنكار وتعجّب! من حالهم الغريب العجيب وغفلتهم عما يدور حولهم، وبإثبات حقيقة المعاد تتبيّن فلسفة الحياة.
فائدة: (إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ)الطينة الإنسانية لها قابلية أن تلصق بالأشياء التي تنسجم وتتفاعل معها، فمن الناس من تفاعلوا مع الدنيا فهم دنيا البشر، فلصقوا بمتاعها المتنوّع ونسوا الآخرة كقوله **(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)**لقمان/٣٣ ومن الناس من تفاعلوا مع الآخرة ولصقوا بالقيم والمبادئ والأخلاق، وهم نخب البشر وصلحاؤهم كقوله **(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)**القصص/٧٧ (والإنسان هو المسؤول عن بناء مستقبله الدنيوي والأخروي، وهو حيث يضع نفسه) ١٢- **(بَلْ عَجِبْتَ)** بل تتعجب يا مُحَمَّد من تكذيبهم إياك، وأشدّ من ذلك أنهم **(وَيَسْخَرُونَ)** ويهزأون من تعجبك منهم وإيمانك بالمعاد، أنظر إلى حجم التفاوت الكبير بين حالك المتيقن بالله واليوم الآخر، وحالهم الشك والجدال في البديهيات، وهي من أشكل المشكلات.

١٣-١٥-﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ، وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ، وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

(وَإِذَا ذُكِّرُوا) وإذا وُعِظوا بشيء من القرآن وخوّفوا بالله **(لَا يَذْكُرُونَ)**لا يتّعظون ولا يتدبرّون، لأن قلوبهم قاسية وما قست القلوب إلاّ لكثرة الذنوب كقوله**(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)**المطففين/١٤، تدل الآية أنهم نسوا الله، ومن نسي الله نساه من رحمته، وأنساه مصلحة نفسه كقوله **(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)** الحشر/١٩، ١٤- **(وَإِذَا رَأَوْا آيَةً)** باهرة ومعجزة قاهرة، كالقرآن العظيم وشق القمر، التي تدل على صدق الرسول القائل بالبعث والحشر **(يَسْتَسْخِرُونَ)** يبالغون في السخرية والاستهزاء، ويدعون غيرهم للسخرية، وعادة البرهان يقطع الجدال ويُتم الحجة، ولكنهم لا يتأثرون بها بل يسخرون منها لتفادي الإحراج أمام تحديات الفكر ودلائل العلم، فهم سفهاء بلهاء يواجهون القضايا الجدّية المصيرية بالهزل والضحك! وهكذا الجاهل يفعل بنفسه كما يفعل العدوّ بعدوّه! ١٥- **(وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)**وصفوا تلك الآية الواضحة ذات التأثير الكبير في النفوس، من القرآن وبقية المعجزات وخُلُق النبي العظيم(ص) **(إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)** واضح، كلمات جوفاء رعناء يكررونها كلما ضاقت بهم الحيلة، وعجزوا عن الدليل وبذلك يخدعوا أنفسهم وغيرهم، فجعلوا أعلى الأشياء وأجلّها وهو الحق في منزلة أتفه الأشياء وأحقرها وهو السحر، **والسحر**: تخييل شيء غير واقع فيخيّل إليك أنه واقع، فهو يسحر ويخدع نظر الناظر إلى شيء معيّن، ويوهمه على أنه حقيقة، فهم قلّصوا أمّهات المفاهيم إلى مستوى عقولهم الصغيرة، ولم يرفعوا عقولهم إلى إدراك أمّهات المفاهيم فتتوسّع مداركهم و(الناس أعداء ما جهلوا) كقوله **(قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ)**يونس/٧٧، وهكذا

الجاهل يتعامل مع القضايا الكبرى المهمة باللامبالاة، كالطفل الذي يلعب بالجوهرة الثمينة على أنها كرة للتسلية!

١٦-١٨ - ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ، أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ، قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾

الذي لا يعرف لماذا يعيش لا يعرف لماذا يموت؟ ولماذا يُحشر وينشر؟ والذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ؟ ومن لا يعرف لماذا خلقه الله يضل عن تفسير الحياة، ومن يعجب من المعاد بعد الموت، ولا يعجب كيف خُلِقَ! فهو متّبع لهواه، ومن كان متبعاً لهواه أضله وأعماه كقوله (**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا**)الفرقان/٤٢، **المعنى**: (**أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا**)الاستفهام للإنكار والاستهزاء، أإذا متنا وصرنا عظاماً بالية وتراباً مختلطاً مع تراب الأرض (**أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**)أإنا لمعادون بعد الموت إلى الحياة من جديد للجزاء والحساب، ليكون الانسان المناسب في مكانه المناسب كقوله(**وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**)البقرة/٢٨١، ١٧-(**أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ**)هل إنّ آباءنا الماضين وأجدادنا الأقدمين كذلك سيبعثون بعد طول مدة موتهم وفنائهم؟! يعنون أنهم أقدم، فبعثهم أبعد وأبطل، وهو زيادة في استبعاد البعث!، ١٨-(**قُلْ**) لهم يا مُحَمّد (**نَعَمْ**)ستبعثون جميعاً(**وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ**) صاغرون ذليلون مستسلمون أمام قدرة الله البالغة، كقوله (وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) إبراهيم/٤٨، إنه تحدٍّ لهذا الإنكار! لأن الله جعل الحشر والنشر إلى العالم الآخر للجزاء، من المسلّمات القطعية الأكيدة غير قابلة للشك ولا للظن التي لولاها لكان الخلق كله باطلاً كقوله (**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**) المؤمنون/١١٥، ومن العجب أنهم قاسوا قدرة الله القاهرة المطلقة بقدرة الإنسان المحدودة!

١٩-٢١ - ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ، وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ، هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾

(**فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ**)يتحقق البعث والنشور بزجرة واحدة أي صيحة مفزعة خاطفة يسيرة سهلة واحدة لا أكثر، وهي النفخة الثانية ينفخ فيها إسرافيل في الصور في موعدها المقرر للقيام من القبور للجزاء. (**زَجْرَةٌ**) نلاحظ من جرس معناها وقوة مبناها دالة على شدّتها وقوة تأثيرها والعنف في توجيهها والعجائب من نتاجاتها والاستعلاء في مصدرها (**فَإِذَا هُمْ**) إذا للمفاجأة، فإذا هم فجأة وبسرعة (**يَنظُرُونَ**)ينهضون من قبورهم أحياء فجأة وبلا تمهيد أو تحضير، وهم بكامل هيأتهم حفاة عراة غير مختونين، ينظرون بدهشة عجيبة إلى ساحة المحشر، ينظرون بعضهم إلى بعض وهم في منتهى الخوف، لا يعرفون ماذا سَيَفعل الله بهم جزاء اعتداءاتهم وسوء أعمالهم، ثم أخبر تعالى عن حسرتهم وخسارتهم الكبرى، وندامتهم عند معاينتهم أهوال يوم القيامة، وإذا هم يصيحون مبهوتين ٢٠-(**وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا**)كلمة تقال عند

الهلكة ونزول العذاب، أي يا هلاكنا وخسارتنا فقد حلَّ ميعاد الجزاء(**هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ**)هذا يوم الحساب والقضاء بين الخلائق والحكم في أمرهم، كما قيل (كما تدين تُدان)كقوله (**وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ**) الانفطار/١٧، **معنى الدِّين**: الجزاء، ثم استعير معنى الدين للشريعة والإسلام كقوله (**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**)آل عمران/١٩، وجاء التعبير بالماضي لتحقيق الوقوع، **ويوم الدين**: يوم ينفع فيه الدين من تمسك به كقوله (**وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**) الشعراء/٨٢ فقيل لهم: نعم على سبيل التوبيخ والتقريع (**هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ**) هذا يوم التفريق والقضاء، والفصل في أمرهم، وسّمي (**يوم الفصل**) لأنه يوم التمييز بين المحسن والمسيء، والمحق من المبطل، ليكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب (**الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ**) الذي كنتم تسمعونه وتنكرونه عناداً دون تفكّر! كقوله(**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**)يس/٥٩، والذي لا يفكر يقوده الذين يفكرون!

٢٢-٢٤-﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ، وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾

(**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا**)إنه أمر الله إلى الملائكة فيه لهجة جازمة وحاسمة، ليتم الفرز الدقيق بين الناس في ساحة المحشر، **أحشروا**: اجمعوا الذين ظلموا من كل مكان على عموم معناهم، وأحشروهم على ما ماتوا عليه، الذين صدّوا عن سبيل الله، اجمعوا الذين ظلموا أنفسهم بالمعاصي وظلموا غيرهم بالإضلال، (أو) رضوا بالظلم(أو) سكتوا عنه (أو) دافعوا عنه فصاروا مثلهم ضالين مضلين (**وَأَزْوَاجَهُمْ**) المراد (**بالأزواج**)هنا الأشباه من الناس والنظائر والأعوان والأتباع والمقتدين بهم ومن على شاكلتهم، فيجمع العصاة ذوو الذنوب المتشابهة بعضهم مع بعض، فيُجمع كل صنف من الظالمين العصاة مع مثله: القتلة في مجموعة، والخمّارون في مجموعة، والسّراق في مجموعة، والزناة في مجموعة، ومانعي الزكاة في مجموعة، وآكلي الربا في مجموعة، واليهود مع اليهود في مجموعة، والنصارى مع النصارى في مجموعة، والمجوس مع المجوس في مجموعة.. وغيرهم من الملل والنحل المختلفة..وهكذا، والغرض من حشدهم أزواجاً وأصنافاً لزيادة حسرتهم وشدة ندامتهم. (أو) اجمعوا الظالمين (**وَأَزْوَاجَهُمْ**) أي نسائهم وزوجاتهم اللاتي على شاكلتهم ودينهم. كل شكل مع شكله يألف، والطيور على أشكالها تقع، وشبيه الشيء منجذب إليه كقوله (**وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً**) الواقعة/٧ أي أشباهاً وأشكالاً ثلاثة (**وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ**) وأيضاً احشروا معهم العابد والمعبود.

٢٣ -(**مِن دُونِ اللَّهِ**)من الآلهة المتنوعة كالأصنام الحجرية أو الأصنام البشرية أو الفكرية أو المالية..ونحوها (**فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ**) فدلُّوهم وتوجهوا بهم إلى طريق جهنم فإنها تليق بهم، إذ لم يهتدوا في دنياهم إلى الصراط المستقيم، فليهتدوا في هذا اليوم الحاسم إلى صراط

الجحيم، وإنها لهي الرد المكافئ لهم، **في الحديث** (امرؤ القيس قائد لواء الشعراء إلى النار) روح البيان٧/٤٥٣، ٢٤-(**وَقِفُوهُمْ**) احبسوهم في موقف مناسب قبل دخول الجحيم (**إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ**)فإنهم لابد وان يسألوا عن عقائدهم وقناعتهم وجميع أقوالهم وأعمالهم، وعن كل شيء صغيره وكبيره، فأعدُّوا لكل سؤال جواباً مقنعاً! كقوله (**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**)الحجر/٩٢عن النبي (ص) (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا)صحيح مسلم٣/١٤٥٩، وكّلنا مسؤولون حتى عن النظرة والكلمة وسماعها والقصد منها كقوله (**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**)الإسراء/٣٦، سُئل النبي (ص) عن الآية فقال: (لا يجاوز يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ أَخَذَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ وعن حبنا أهل البيت (ع))الصافي٤/٢٦٦

٢٥-٢٧-﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ، بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ، وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾

ويُقال لهم (**مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ**)

ما لكم اليوم لا ينصر بعضكم بعضاً في دفع العذاب وأنتم هنا جميعاً، كما كنتم في الدنيا تتناصرون وتتعاونون على الإثم والعدوان أيها الكافرون، والغرض منه التقريع والتوبيخ لهم كقولهم (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**)الأنفال/٧٣ ولا جواب بطبيعة الحال ولا كلام! إنما يرد التعليق والتعقيب ٢٦-(**بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ**)فكل مستسلم عاجز غير منتصر، أي بل هم اليوم لا يستكبرون كما كانوا في الدنيا، وهم اليوم عاجزون ذليلون منقادون بلا مقاومة، خاضعون بالاضطرار لظهور عجزهم، وانسداد باب الحيل عليهم، وانتهى وقت الدفاع والجدال لحماية أنفسهم، سواء منهم العابدون والمعبودون! كقوله (**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**) المدثر/٤٨، ٢٧-(**وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ**) في مشهد مثير يسأل أهل الضلال بعضهم بعضاً، سؤال تقريع وتعنيف عن طريق الجدال والخصومة والحرب الكلامية، عندما أيقنوا أنهم هالكون، يسأل الأتباع والمتبوعين، والرؤساء مع المرؤوسين وهم يتخاصمون ويتلاومون ويتنازعون ويتبادلون التُهم حين يرون العذاب، في وقت لا ينفعهم التّخاصم.

٢٨-٣٠-﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ، قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾

٢٨- (**قَالُوا**) قال الأتباع المستضعفون لرؤسائهم (**إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ**) إنكم كنتم تخدعوننا (**عَنِ الْيَمِينِ**)وهو عنوان اليُمن والبركة والخير والصلاح والنصيحة، ولكنه نُصح إلى ضلال وإرشاد إلى هلاك ولو بعد حين، وكانت العرب تعتبر ما جاء(**عَنِ الْيَمِينِ**)بمعنى اليُمن

والقدرة والقوة والتوجيه فتتفاءل به، على ضوء القاعدة الحركية المؤثرة في الحوار الناجح مع المخالف التي تقول (إبدأ معه حيث يحب، وتنتهي معه من حيث تحب) كقوله (**وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ**)الواقعة/٢٧، **المعنى**: إنكم كنتم تضلوننا بادّعائكم أنكم تريدون الخير واليُمن والسعادة لنا، باعتمادكم على القوة العسكرية والاقتصادية والإعلامية، ونحن اتّبعناكم بحسن نية اتباعاً أعمى، ولم يخطر ببالنا أنكم مخادعون ماكرون كقوله(**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ**)البقرة/٢٠٤، وأنهم أتخذوا هذا الأسلوب في الترغيب والإغراء (**عَنِ الْيَمِينِ**) لأنه أوقع في النفس وأكثر تأثيراً في المشاعر من أسلوب الترهيب، وإن كثيراً من الناس ينخدعون أمام أساليب الإغراء في المناصب والأموال والشهوات المحرّمة التي ظاهرها يسرّ ويغرّ ويمرّ وباطنها يضرّ، كقوله (**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**)آل عمران/١٥٩ **عن النبي(ص)** (إِنَّ الرِّفق لا يوضع على شيءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إِلَّا شَانَهُ)البحار٧٥ص٦٠، ٢٩- (**قَالُوا**)فأجاب الرؤساء للذين اتّبعوهم: كلا، لم نكن السبب في ضلالكم (**بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**)بل أنتم من أول الأمر لم تكونوا باختياركم مؤمنين وتنفر أنفسكم من الإيمان، بل كانت صدوركم قابلة للعصيان منشرحة للكفر والطغيان كقوله (**وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ**) النحل/١٠٦.

٣٠- والدليل على ذلك (**وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ**) (**مِّن سُلْطَانٍ**) من تسلّط ومن قدرة وقوة ترهبكم وتقهركم بها على متابعتنا فتجبركم على الكفر والفساد، إننا ليس لنا هيمنة على القلوب والأرواح، كما كان لنا هيمنة على الأجساد، فما كان منّا إلاّ الدعوة وكانت منكم الإجابة بسرعة باختياركم راغبين محبين، فكانت طبيعتكم عدوانية وتحب الطغيان والعصيان والفساد كقوله(**إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ**) الأعراف/٣٠ (**بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ**) **والطغيان**: تجاوز الحدود، أي كنتم قوماً متجاوزي الحدود المعقولة والمنقولة، وكان الاستكبار في ذواتكم، وكنتم مجرمين فاسدين ظالمين لا تقفون عند حد، لذا تركتم منهج الرحمن واعتمدتم منهج الشيطان برغبتكم كقوله (**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) الأنعام/٤٣، فلا لوم ولا عتاب علينا فقط، بل تقع المسؤولية علينا جميعاً كقوله، إبراهيم/٢٢، وهكذا (الذي لا ينفعه الحق يضره الباطل)

٣١-٣٤-﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ، فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ، فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾

(**فَحَقَّ عَلَيْنَا**) فوجب علينا جميعاً نحن وأنتم (**قَوْلُ رَبِّنَا**)كلمة العذاب التي قضى الله بها كقوله (**فَأَمَّا مَن طَغَىٰ، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**)النازعات/٣٩ (**إِنَّا لَذَائِقُونَ**)وإننا

لنستذوق العذاب باستمرار ونتحسس بآلامه بكل مشاعرنا كما نستذوق الطعام! بسبب كنا أذلّاء للمستكبرين نطلب رضاهم، والله يبغض العبد الذي يرضى بإذلال نفسه، وقد ثبت علمياً أن الإحساس يوجد في الشعيرات الحسّيّة المنتشرة على ظهر الجلد كقوله (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ) النساء/٥٦ ٣٢-وكل ما فعلناه بكم **(فَأَغْوَيْنَاكُمْ)** أضللناكم وزيّنا لكم الفساد والحرام، ودعوناكم لتكونوا مثلنا فاستجبتم بسرعة وبدون تردد، والطيور على أشكالها تقع، والناس إلى أمثالهم أميل **(إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ)** ولما كنتم بطبعكم قوماً طاغين مثلنا فاكتسبتم الفساد والضلال منّا، فأضللناكم لأننا كنا ضالين ومضلين، فنحن وأنتم في الجريمة سواء كقوله**(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)**الحجر/٤٢، ٣٣-**(فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ)** كما كانوا مشتركين في الغواية والجريمة والفساد، سيشتركون في العذاب الذي سيحلّ بهم جميعاً، فلا يلومن كل منا إلاّ نفسه ولا يلم بعضنا بعضاً، ويكون جزاؤهم على قدر جرمهم، وعقابهم من جنس عملهم كقوله **(ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)**الحج/١٠، ٣٤-**(إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ)** مثل هذا الفعل بهؤلاء نفعل بالأشقياء المجرمين من غير فرق بين التابع والمتبوع، فمن العدل أن يعاقب كل منحرف كما يجازى كل محسن، كقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ)السجدة/٢٢.

٣٥-٣٧-﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ، وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ، بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾

إنّ السبب الرئيسي لعذابهم المهين **(إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ)**أنهم كانوا إذا دُعُوا إلى توحيد الله **(يَسْتَكْبِرُونَ)**يستعلون عليه وينفرون من الدِّين تكبراً وعناداً وغروراً ويرونه سفهاً وجهلاً، على أساس العقد النفسية لا القناعة العقلية (ومن لا ينفعه الرحمن يضرّه الشيطان، والذي لا ينفعه الهدى تضرّه الضلالة) كقوله**(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)**الزمر/٤٥، ٣٦-وكانوا يبررون استكبارهم بتبريرات أقبح من الاستكبار ذاته **(وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ)** الاستفهام للإنكار، كيف نترك آلهتنا رمز عزتنا وفخرنا من أجل **(شَاعِرٍ مَّجْنُونٍ)**؟ يعنون به النبي الكريم (ص) ليست المسألة التفكّر برسالة النبي الإسلامية، وإنما المسألة التقليد الاجتماعي الأعمى، واتّباع ما هو مألوف ومعروف ولو كان هو الضلال المبين! ٣٧-كلا إنه ليس بشاعر ولا مجنون **(بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ)** بل هو رسول الله بحق، جاء بالحق وأُرسل بالحق، والحق أحقّ أن يتّبع، كقوله **(أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)**يونس/٣٥ جاء برسالة إسلامية منقذة من حيرة الضلالة ومخلّصة

من ظلمات الجهالة، وتنسجم مع الفطرة الإنسانية، وتقبلها العقول العارفة على مدى الأجيال والأزمان. (**وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ**) وصدّق ما جاء به وأجمع عليه كافة الرسل الكرام وهو توحيد الله وطاعته، وبث روح الأخوة والفضيلة بين أفراده، فلم يكن بدعاً من الرسل أو مخالفاً لمنهجهم بل سار على طريقهم، فكيف يكون شاعراً مجنوناً كقوله (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)فصلت/٣٣.

٣٨-٤٠-﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

(**إِنَّكُمْ**) أنتم أيها المستكبرون قساة القلوب، وما قست القلوب إلاّ لكثرة الذنوب، تكذبون الرسول الصادق الأمين وتنسبونه بالجنون والسحر فغضب الله عليكم (**لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ**) فإنكم ستذوقون أشد العذاب بما يتناسب مع استكباركم اللئيم، ٣٩-(**وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**) لتكون العقوبة على قدر المعصية كماً وكيفاً، ويكون العذاب على قدر الجناية، ويكون الجزاء على ضوء العمل، وتكون النتائج على قدر المقدمات، والإنسان هو المسؤول عن بناء مستقبله الدنيوي والأخروي، (**والمرء حيث يضع نفسه**) لأن أعمالكم سوف تتجسّد أمامكم لتبقى معكم وحجة عليكم ورأس مالكم تؤذيكم وتعذبكم، ٤٠-(**إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**)(**إِلَّا**)استثناء منقطع، استثناهم من تذوّق العذاب الأليم، والنص يُعرض صفحة عباد الله المخلَصين في يوم الدين، في مقابل العذاب الأليم للمكذبين، وكلما صدق الإنسان العبودية مع ربه، كلما أخلَص دينه لله تعالى، وأخلص توجّهه لله فيخلص مواقفه مع الناس (**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**)الزمر/٣، وهكذا التربية القرآنية التي تعتمد الموازنة في سياسة الترغيب والترهيب لتحريك المشاعر، وذكر مصير المستكبرين والمخلصين، ليكون الإنسان بين الخوف والرجاء (**إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**) لكن عباد الله الذين صدقوا عبادتهم وعبوديتهم لله تعالى كقوله (**وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ**)النساء/١٤٦.

ولا يريدون إلاّ ما أراده الله، ولا يعملون إلا لطلب رضاه وقدّموا رضى ربهم على رضا أنفسهم، ولم يجعلوا ولاءهم لغير الله بالرغم من شدة المعاناة التي يعيشونها في محيطهم الجاهلي الحديث. فإن هؤلاء النخبة النموذجية المستقيمة المخلَصة عباد الله المختارين، لا يذوقون العذاب ويتجاوز الله عن سيئاتهم، فكانت صحيفة أعمالهم بيضاء مشرقة **ومشرّفة**، وكان حسابهم يسيراً وجزاؤهم كريماً وهو من أعلى مراتب التكريم والتعظيم وقوله (**وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ**)النمل/٥٩.

فائدة:١-هناك (**الْمُخْلَصِينَ**) بفتح اللام وهم المصطفون المختارون الذين أخلَصوا دينهم لله فأخلصهم الله لنفسه وقربهم إليه سبحانه وأكرمهم كقوله(**رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**)البيّنة/٨، ولا يتعلّقون بشيء غير الله تعالى من زينة الحياة الدنيا، فلم يعبدوا الله

خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته ولكن وجدوه أهلاً للعبادة والطاعة كقوله (**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**) الشعراء/٨٨-٨٩ **عن النبي(ص)** (أَخْلِصْ قَلبَكَ (لله) يَكْفِكَ القَليلُ مِن العَمَلِ) البحار٧٣/١٧٥، وهناك (**مخلِصين**) بكسر اللام وهم الصادقون كقوله (**فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**) غافر/١٤، **عن الإمام علي(ع)** (في الإخلاص يكون الخَلاص) **والإخلاص**: غاية الدين، وعبادة المقربين وعنوان الصالحين، **في غرر الحكم** (في إِخْلَاصِ الْأَعْمَالِ تَنَافُسُ أُولِي النُّهَى وَالْأَلْبَابِ) **والإنسان المُخلَص**: هو الصافي النقي الثقة الذي لا شوائب فيه حسّية أو معنوية أو خُلُقية، إنه هذّب نفسه وتخلّص من طبائعها وعاداتها وتقاليدها السيئة، واستعصى الشيطان عليه، وتشبّه بخلق القرآن كقوله(**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**)الشمس/٩-٨، **في غرر الحكم** (ذِرْوَةُ الْغاياتِ لا يَنالُها إِلّا ذَوُوا التَّهْذيبِ وَالْمُجاهَداتِ) **والمخلَص**: هو خلاصة البشرية ونخبة العبودية وقدوة الإنسانية، **والإخلاص**: أشرف ثمرة وأحلى صفة، وعلى قدر الدين يكون الإخلاص، **عن النبي(ص)** (تمام الإخلاص اجتناب المحارم)

٢- **سؤال**: قوله (**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**)الأنعام/٥٤، فكيف يعذب الله عباده وهو أرحم الراحمين كقوله (**إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ**) **الجواب**: إنّ الله سبحانه أعطى عباده حرية الاختيار تكريماً لهم، وجعلهم مسؤولون عن اختيارهم، وبيّن لهم الخير والشر، وينهاهم عن الشر ويعاقبهم عليه، ويأمرهم بالخير ويثيبهم عليه، ويجعل الخيار بأيديهم (**والمرء حيث يضع نفسه**) فمن أطاع واستقام فقد اختار لنفسه النجاة والفوز، ومن عصى فقد بغى واعتدى ثم يهوى ويسقط ولو بعد حين، واختار لنفسه الهلاك في عاقبة أمره كقوله (**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**)الإنسان/٣، وقوله (فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ) الأنعام/١٠٤، **عن الإمام الصادق(ع)** (إنّ الله احتجَّ على الناس بما آتاهم وعَرَّفَهُم) الكافي١/١٦٣.

٤١-٤٤-﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ، فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾

٤١-(**أُولَٰئِكَ لَهُمْ**)أي عباد الله المخلَصين لهم غير جزاء عملهم في الجنة (**رِزْقٌ مَّعْلُومٌ**)لا يمكن وصفه وعدّه، وذلك ما يفيده تنكير الرزق، ومن خصائصه أنه (**مَّعْلُومٌ**)بجمال المنظر ولذة الطعم وطيب الرائحة، فهو رزق خاص للإنسان الخاص في أعماله الصالحة النافعة، رزق لا يشبه رزق غيرهم من أهل الجنة التي عدد درجاتها بقدر عدد آيات القرآن الكريم، ثم فسّر الرزق بقوله ٤٢- (**فَوَاكِهُ**) مما يشتهون، لا كفواكه غيرهم من أهل الجنة، فواكه بأنواعها وأقسامها يتنعّمون بالتصرّف فيها كيف يشاؤون (**وَهُم مُّكْرَمُونَ**) في الملأ الأعلى، ويالَه من تكريم، بكرم خاص بمكان خاص برعاية خاصة، وعناية بهم دون غيرهم، فأكل الفواكه إذا قُرن

بالتكريم فإنه يصبح كامل النعمة، **وخصَّ الفواكه بالذكر دون ذكر الطعام**: لأن ما يُؤكل في الجنة ليس قوتاً للجسم، وإنما على سبيل التفكّه والتلذذ والاستيناس، وطعامهم محفوظ من التحلل والتبدّل والتغيّر، طعام مخلوق بتركيبة نموذجية مميزة خاصة تتناسب مع الخلود لأهل الجنة، وتخالف تركيب فواكه الدنيا، وأن طعام أهل الدنيا يستبقي فضلات بعد أكله مما يستوجب طرحها، بينما طعام وفواكه أهل الجنة ليس فيها فضلات!، ٤٣- (**فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ**)وتكون منازلهم في رياض وبساتين فيها أنواع النعيم يتنعّمون بها كقوله (**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**)القمر/٥٥، وهو نعيم مضاعف، نعيم يتفجر منه النعيم، نعيم يجمع مظاهر النعيم، نعيم تستمتع به النفس ويستمتع به الحس، وتجد فيه كل نفس ما تشتهيه وفوق ما تشتهيه من ألوان النعيم المقيم! ومن يقدّر النعيم يقدّر المنعم ويشكره، ثم يصف حالهم في نعيم الجنة بلقطة من لقطاتها السريعة فقال ٤٤- (**عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**) على أسّرة جميلة مريحة مكّللة بالجواهر، جالسين (**مُّتَقَابِلِينَ**) متواجهين متواصلين يستمتع بعضهم بالنظر إلى الآخر لكون أحدهم مرآة للآخر، ويتلاطفون ويتآنسون ويتكافؤون ولا كراهية بينهم، ويتحدّثون في كل شيء يرضي ربهم، فمرة يتحدّثون عن ماضيهم في الدنيا، وأخرى عن نعيم الله والتكريم الخاص في الآخرة، ويتحدثون عن قضايا أخرى قد لا ندركها نحن المسجونون في قيود المادة في الحياة الدنيا، والله يتجلّى للمقربين المخلصين فيدوم عليهم أُنْسَهُم الباطن.

٤٥-٤٧ - ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ، بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ، لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾

٤٥ -(يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ)

يحمل الولدان المخلّدون إليهم(**بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ**) كؤوساً متنوعة كثيرة لا تنقطع ولا تفرغ، ومسموحة وغير ممنوعة من ألوان الشراب الّلذيذ والعصائر المتنوعة ومنها خمر الجنة(**مِّن مَّعِينٍ**) خالص وخارج من العيون في أنهار جارية ظاهرة طاهرة صافية نافعة لا سوء فيها وغير متغيرة طعمها ولا ريحها ولا لونها، كقوله (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ)الواقعة/١٦-١٧، وقوله (**وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ**)محمد/١٥ هو خمر بالاسم فقط، ليس في الجنة مما في الدنيا إلاّ تشابه الأسماء، **الخمر في اللغة**: كل شراب مسكر، **عن النبي**(ص) (كُلَّ خَمْرٍ حَرَامٌ، وَكُلَّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ) وكل مسكر حرام،ومعنى هذا غير المسكر ليس بخمر، **وصفان للكأس** ٤٦- (**بَيْضَاءَ**) مبالغة الوصف، ناصعة البياض في نهاية الصفاء والرقة واللطافة والشفافية مع جلال لونها وجمال رائحتها وطيب طعمها (**لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ**) وتسرُّ الناظرين وتملأ عيونهم بهجة وسروراً، قال (**لَذَّةٍ**)كأنه بلغ من الّلذة حقيقتها فيكون هو الّلذة، ولم يقل (لذيذة) فهو ليس وصفاً وإنما ذاتاً، ٤٧- (**لَا فِيهَا غَوْلٌ**) **غول**: يطلق على كل شيء مضر فيه إدمان، أي ليس فيها (**غَوْلٌ**)يغتال عقولهم فيفسدها ويضرها ويذهب بصوابها، ولا هم يسكرون بشرابها **ولا** تُقسيّ قلوبهم، ولا تجفف ينابيع الروح عندهم، كما تفعل خمر الدنيا

المحّرم المضر من صداع الرأس ووجع البطن وذهاب العقل، ووقوع العداوة والبغضاء والخسارة في الدين، وكآبة النفس وكراهة العيش، لذلك سّماها القرآن (**رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)المائدة/٩٠ لذلك نهى الله عن الخمر بثلاث نواهي متّصلة (**رِجْسٌ**) و(**مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**) (**فَاجْتَنِبُوهُ**) (**وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ**) **ينزفون**: يسكرون فتذهب عقولهم ويستنزف وعيهم، وليس فيها مضار كما هو في خمر الدنيا، **يُقال**: نزف الماء أي نفد أي لا شراب الجنة يفنى، ولا بصيرتهم تعمى ولا لّذتهم تنقطع كقوله(**لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ**) الواقعة/١٩ لا يصيبهم السوء منها كخمر الدنيا ولا تذهب عقولهم بالسكر بسببها.

٤٨-٥٠-﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾

٤٨- (**وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ**) وعند أصحاب الجنة زوجات صالحات عفيفات نظيفات جميلات نموذجيّات مميزات (**قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ**) قاصرات عيونهن، كناية عن حيائهن وشرفهن ووفائهن فلا ينظرن إلى غير أزواجهن، وأنهن لم يلقين الرجال إخلاصاً وحباً لأزواجهن، ولا مكشوفات للرجال وبعيدة نظرات الرجال عنهن، كقوله(**لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ**) الرحمن/٥٦ (**عِينٌ**) واسعة العينين، جميلات الصورة لحسنهن، جذّابات المنظر يتخلخل حبهن في مشاعر أزواجهن، لأن بينهما وحدة نفس فتحصل وحدة السكن الزوجي والمودة والرحمة، لهن جاذبية مميزة خاصة، فتسّره إذا نظر إليها زوجها فتجذب قلبه وتكسب حبه، فهن في قمة الخَلْق والخُلُق، **روي**: أن الحوراء تقول لزوجها: (وعزة ربي ما أرى في الجنة شيئاً أحسن مِنْكَ. فالحمد لله الذي جعلني زوجتك وجعلك زوجي)، ٤٩-(**كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ**)كناية تشبيهية، تُشبّه زوجات الجنة بالبيض، ومن اللّون الأبيض المصون الرقيق الدقيق الشفّاف الصافي النقي الناعم في ملامسته، وصفاء لونه وشدة جاذبيته، والأبيض الناصع أحسن الألوان لصحة البدن ولصفاء النفس ورقة القلب (**مَّكْنُونٌ**) محفوظ مستور مصون ومحمي عن كل آفة وخلل وخطأ وتغيّر وتبدّل، لأنه لا تبتذله الأيدي، ولا تخترقه نظرات العيون الخارجية، كقوله (**وَحُورٌ عِينٌ، كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ**)الواقعة/٢٢-٢٣.

والغرض أنهن مع هذا الجمال الباهر، مصونات كالدر في أصدافه والمحافظة على جاذبيته الفائقة، **وهكذا في الجنة**: ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد، ثم يمضي السياق القرآني في حكاية مصورة هادفة تستثمر وقت اللقاء وتسدّ حالة الفراغ بحديث مهم، فإذا عباد الله المخلصون هؤلاء ينعمون براحة البال وانشراح النفس، ويتذاكرون في الماضي والحاضر، وإذا بأحدهم يستعيد ذاكرته ويقصّ على إخوانه في الجنة طرفاً مما وقع معه، في حديث الأصفياء المختارين، ٥٠- (**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ**) يتحدثون عما كانوا يعانون في حياتهم الدنيا، ويتذاكرون في ما بينهم مروراً بعالم البرزخ وصولاً إلى القيامة

ودخول الجنة، ويبيّنوا فضل الله عليهم، ولولا رحمته سبحانه بهم لما وصلوا إلى هذا الفوز العظيم. **فائدة: سؤال:** لماذا ذكر القرآن الحور العين لمتع الرجال ولم يذكر متع النساء؟ **الجواب:** إنّ الله ساوى في الجزاء بين الذكر والأنثى كمبدأ عام كقوله (**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا**)النساء/١٢٤ وقوله (**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ**)الزمر/٣٤ وقوله (أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ)آل عمران/١٩٥

٥١-٥٣-﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ، يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ، أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾

٥١- (**قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي**) في الحياة الدنيا (**قَرِينٌ**) صاحب من الذين كنت أعاشرهم، لكنه للأسف انحرف وصار كافراً منكراً ليوم البعث والنشور، ٥٢-كان (**يَقُولُ**)لي متعجباً وساخراً ومستنكراً ويسأله في دهشة واستغراب (**أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ**) أحقاً إنك من المصدقين بالبعث بعد الموت، وتؤمن بالحشر والحساب؟ وهو ضلالة وخرافة؟!، ٥٣-(**أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا**) أإذا متنا وتحللت أجسادنا ثم نرجع أحياء للجزاء؟ (**أَإِنَّا لَمَدِينُونَ**) أإنا لمجزيون ومحاسبون، ونجازى على أعمالنا؟ يقولها بدافع التعّجب والتكذيب والاستبعاد. **فائدة: سؤال:** كيف يصاحب الإنسان المؤمن الكافر؟ **الجواب:** إنه كان مؤمناً وارتد وتشوش ذهنه، ثم إنها مجرد صحبة ومعرفة لإصلاحه ورفع الشبهات عن ذهنه.

٥٤-٥٦-﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ، فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ، قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾

٥٤-(**قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ**)قال ذلك المؤمن لإخوانه في الجنة: انظروا معي إلى أهل النار في موضع من الجنة لأريكم مصير ذلك القرين الصاحب الكافر الساخر، فقال جلساؤه المؤمنين أنت أعرف به منّا فاطّلع أنت أولاً، ٥٥-(**فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ**)فنظره فرآه (**فِي سَوَاءِ**) في وسط الجحيم يتلظى سعيرها، وتثير رؤيته لقرينه شعوره بعظمة النعمة التي نالها بالهداية والاستقامة، هو وإخوانه فيجب أن يستعرضها في الوصف والتقييم ٥٦- (**قَالَ**) المؤمن لقرينه الكافر الساخر في جهنم مخاطباً وموبخاً (**تَاللَّهِ إِن كِدتَّ**) أقسم بالله إنك أوشكت وقاربت أن تضلّني وتؤثّر في نفسي، وتهلكني بالإغواء والإغراء في إنكار القيامة، لو أطعتك (**لَتُرْدِينِ**)من التردي والهبوط والسقوط في الغواية، أي قاربت أن تسقطني وتهلكني فيما سقطت فيه أنت من الجحيم.

٥٧-٥٩-﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ، أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ، إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾

٥٧- (**وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي**) ولولا منهج ربي الرشيد (**ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**)الروم/٣٠، الذي آمنني من الزلل وسددني في القول والعمل، وخلّصني من ظلمات الضلالة ومن حيرة الجهالة فلم استمع إليك كقوله (**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ**

إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا)النساء/١٧٥، شملني لطف الله ورحمته بتثبيتي على الإيمان، لسلامة نفسي وصفاء نيتي كقوله(**اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ)**الشورى/١٣، **في غرر الحكم** (قَدْرُ الرَّجُلِ عَلى قَدْرِ هِمَّتِهِ ، وَعَمَلُهُ عَلى قَدْرِ نِيَّتِهِ) ومن كلامه (**إن كدتّ لتردين**) يدل على أنه كان شخصية مؤمنة بسيطة ضعيفة غير عالمة وغير باحثة، شخصية تهزّها الشبهات! والمؤمن القوي أقرب وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، **عن النبي(ص)** (الْأُمُورُ ثَلَاثَةٌ : أَمْرٌ تَبَيَّنَ لَكَ رُشْدُهُ فَاتَّبِعْهُ ، وَ أَمْرٌ تَبَيَّنَ لَكَ غَيُّهُ فَاجْتَنِبْهُ ، وَ أَمْرٌ اخْتُلِفَ فِيهِ فَرُدَّهُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) البحار٢/٢٥٨ (**لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**) لكنت اليوم معك من المحضرين في العذاب الأليم،٥٨-(**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ**) لا يزال المتحدث لأصحابه وجلسائه هو المؤمن في الجنة، بعد أن تحدّث مع قرينه الكافر ونجاته من العذاب وهو مسرور وفرح كقوله (**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**)آل عمران/١٨٥ (**أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ)**أحقاً إننا هنا لن نموت، ونبقى منعّمون في الجنة خالدين فيها أبداً بلا موت؟ إنه تجاهل العارف لما يعرف ليزداد يقيناً بما عرف، ولهذا فهو يسأل وهو يجيب (**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)**٦٠، ٥٩-(**إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ)**ولم نذق الموت مرة ثانية في الدنيا (**وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)**لقد انتهينا من الموت وسكراته، والحساب ورهباته وتجاوزنا ابتلاءات الدنيا ومعاناتها واختباراتها بنجاح، وصبرنا على أحزانها وتحملنا همومها كقوله(**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)**آل عمران/١٨٦، فكافأنا الله بدار لا بلاء فيها ولا عناء ولا هموم (والجنة غاية المؤمنين)كقوله(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)النازعات/٤٠-٤١.

فائدة، سؤال: لماذا لم تشمل رحمة الله الواسعة هذا الكافر؟ **الجواب:** إنّ الكافر ينكر وجود الله تعالى ويترتب عليه إنكار الأساسيات كالمعاد والرحمة الإلهية، فلا يستحق رحمة الله كقوله (**إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)**المائدة/٦٧ لأن من لا يرحم نفسه، لا يرحم الناس، ومن لا يرحم الناس منعه الله رحمته، لأن قداسة رحمة الله تتناسب مع طهارة النفس وصفاء النية وسلامة القلب كقولة (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ)النحل/١٢٨.

٦٠-٦٢-﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ، أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴾

٦٠- (**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**) إن هذا النعيم المقيم الخالد الذي ناله أهل الجنة(**لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**) فأي فوز أعظم من الظفر برضا الله وتكريمه والخلود في جنانه، والأمن من كل سوء؟ ٦١- (**لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ**) لمثل هذا النعيم الجليل والفوز العظيم في الجنة الذي لا ينقطع، ينبغي أن يعمل العاملون في الدار الدنيا، وفي الإيمان والعلم والعمل الصالح فليتسابق المتسابقون، ويجتهد المجتهدون ويسعى الساعون كقوله (**وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**) المطففين/٢٦، **في نهج البلاغة حكم٤٥٦** (ليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنة فلا تبيعوها

إلاّ بها) فلا تضحّوا في الجنة ولا تخسروها من أجل متاع قليل زائل مؤقّت في الدنيا، وهذا المتاع القليل مهما كثر وتعدد فهو زهيد حين يقاس بهذا النعيم الدائم، وأيضاً حين يقاس بعمر الإنسان المحدود كقوله (**فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**)فاطر/٥، **في غرر الحكم** (مَنْ بَاعَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَعِيمِ الْجَنَّةِ فَقَدْ ظَلَمَهَا)٦٢-(**أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا**)خطاب لأهل الكفر والعصيان، **النُزل:** ما يقدّم للضيف المحترم النازل في ضيافة طعام وفواكه إكراماً له، ولكي يتّضح الفارق الكبير بين النعيم المقيم في الجنة، والمتاع القليل في الدنيا، **بمعنى:** هل ما ذكر من الرزق الكريم في الجنة التي أعدت لنزلائها تكريماً لهم (**خَيْرٌ نُّزُلًا**) وأفضل اختياراً (**أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ**)أم نزل أهل النار، واختيار شجرة الزّقوم، طعام الأثيم، وهي شجرة العذاب الأليم والانتقام الشديد ذات الثمر المر الكريه كقوله (**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الْأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ**)الدخان/٤٣-٤٦، إنها واردة على سبيل التهكمّ والاستهزاء بهم، بالاختيار سيء لأنفسهم.

فائدة: شتّان بين عملين: عمل تذهب لذّته وتبقى تبعته، وعمل تذهب معانته ويبقى أجره وخيره، وهناك عمل تكون نتائجه في حدود الدنيا وينتهي أثره فهو من الدنيا إلى الدنيا!، وهناك عمل صالح يمتد أثره ونفعه بعد الدنيا، فتنال به خير الدنيا والآخرة كقوله(**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا**)الكهف/٤٦، وكلما كان العمل صالحاً أكبر نفعاً وأوسع فائدة، ازداد أجره وارتفعت منزلته، وكلما كان العمل يعتمد الإيمان ويرجو رضا الرحمن، كلما تنال منازل العرفان، كقوله (**وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ**) التوبة/٧٢، ورضا الله أكبر من كل شيء، أكبر من زخارف الدنيا وأكبر من نعيم الجنة، فعلى قدر رضا الله تعالى تنال منازل الجنة، اللهم نسألك رضاك والجنة كقوله (لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)الصافات/٦١

٦٣-٦٥-﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ، إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾

٦٣-(**إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ**)

إنا جعلنا شجرة الزقوم الجهنمية (**فِتْنَةً**) محنة وعذاباً في الآخرة، وابتلاءً وامتحاناً في الدنيا (**لِّلظَّالِمِينَ**)المذنبين المعاندين المتجرئين على الله كقوله(**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الْأَثِيمِ**) الدخان/٤٤ وقوله (**وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**)الإسراء/٦٠، **سبب نزولها: روي:** أن قريشاً لما سمعت بـ (**شجرة الزقوم**) قالت: ما نعرف هذه الشجرة، قال ابن الزبعرى: الزقوم بكلام البربر التمر والزبد، فقال أبو جهل لجاريته: يا جارية زقّمينا، فأتته الجارية بتمر وزبد فقال لأصحابه: تزقّموا بهذا الذي يخوفكم به محمّد، فيزعم أن النار تنبت الشجرة، والنار تحرق الشجرة، فأنزل الله سبحانه الآية،٦٤-(**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ**)إنها شجرة (**تَخْرُجُ**)تنبت (**فِي أَصْلِ**) في قعر الجحيم، لا عجب في نبات شجرة في النار من جنس النار وبقائها حية فيها لا تموت،

فحياة الإنسان معذباً فيها أعجب! كقوله (**ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ**)الأعلى/١٣، ولما سمع الكفّار ذكر شجرة الزقوم قالوا: كيف يكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجرة، إنهم لا يعلمون أنها شجرة تختلف عن أشجار الدنيا، إنها شجرة العذاب والانتقام، ٦٥-(**طَلْعُهَا**)ثمرها قبيح ومقزز(**كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ**)مبالغة في القبح والشناعة والبشاعة في الصورة، والشياطين يمثلون رمز كل سوء وخبث في أذهان المسلمين مما تنفر منها الطبائع، فيكون ثمرها موصوفاً مجازياً، فشبّه ثمرها المحسوس بالمتخيّل غير المرئي وغير المحسوس من رؤوس الشياطين! للدلالة على أن ثمرها في غاية القبح، إنهم زرعوا في الدنيا الخبائث والجرائم، فحصدوا في الآخرة خبث ما زرعوا، والعقوبة على قدر الجناية، والجزاء من جنس العمل، والنتائج على قدر المقدمات كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)يونس/٤٤

٦٦-٦٨-﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾

٦٦-(**فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا**) من طعام أهل النار بكمّيات كبيرة من ثمرة تلك الشجرة الملعونة القبيحة (**فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ**) لشدة جوعهم ومضطرون إلى الأكل منها حتى تمتلىء منها بطونهم فتغلي كغلي الحميم،! إمعاناً في عذابهم والتنكيل بهم، فما حصدوا إلا ما زرعوا، ٦٧-(**ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ**) **لشوباً**: **الشوب**: الخلط والمزج مع شيء آخر، أي إنّ لهم بعدما شبعوا من الأكل المر الكريه وغلبهم العطش (**لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ**) لمزاجاً من ماء حار من صديد وغسّاق أو غيرهما، يشاب أي يخلط به طعامهم المر الكريه! ليجمع لهم بين مرارة الزقّوم وحرارة الحميم أي يأكلون جحيماً ويشربون سُموماً، سوائل تغلي وتفور كقوله (**وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**) الكهف/٢٩ تغليظاً لعذابهم وعقوبة لهم من جنس عملهم، وهكذا الإنسان يبني مستقبله بنفسه، **في غرر الحكم** (المرء حيث يضع نفسه)٦٨-(**ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ**)وبعد هذه الوجبة التعيسة الكريهة الجهنمية يغادرون تلك المائدة الكريهة عائدين إلى دركات النار الموقدة في الجحيم، فيستقرون فيها أبداً ويعذبون، وهكذا يأكلون ويشربون ويذهبون ويرجعون وهم في أودية جهنم، **سؤال: لماذا لا يحرقون ويموتون؟ الجواب**: لأن عذابهم المقسوم لهم أن يكونوا بين الموت والحياة، فلا يموتون فيستريحون، ولا يحيون فينعّمون، تلوّح الآية إلى أن الحميم خارج الجحيم في مكان آخر منه فينقلون من مكان إلى مكان! كقوله (**يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ**)الرحمن/٤٤، **في الحديث** (يا أيها الناس أتقوا الله ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت لأمرّت على أهل الدنيا معيشتها، فكيف بمن هو طعامه وشرابه، وليس له طعام غيره)!؟ روح البيان٧/٤٦٦.

٦٩-٧١-﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ، فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ، وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾

٦٩-(**إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ**)

السبب الرئيسي الذي أدخل أولئك إلى جهنم (**إِنَّهُمْ أَلْفَوْا**)وجدوا آباءهم ضالين كافرين فألفوا ضلالهم وأصبحوا عريقون في الضلالة، ويقدّسون عقيدة آباءهم ويرغبون في عاداتهم وتقاليدهم الفاسدة، فهم يقلدون العُرف العام ولا يفكرون بمساوئه ولا يتدبرون، فاتّبعوا التيّار الجماهيري العام اتّباعاً أعمى على الجهالة والسفالة، كقوله(**إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ**)الزخرف/٢٢، ٧٠-(**فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ**) فهم لقسوة قلوبهم وضيق تفكيرهم يتعصّبون للفساد ويقلّدون العرف العام بلا تفكّر، ويتّبعونهم اتباعاً أعمى (**يُهْرَعُونَ**)يسرعون وينساقون معجّلين للبقاء على هذا المألوف، مع أنه لا يجوز التقليد في العقائد! محافظين على ما هو مألوف ومعروف بلا تأمل ولا تفكّر ولا تدبّر، إنه مرض الاتّباع الأعمى، مرضاً خطيراً ومريراً وفتّاكاً ومعديّاً وسريع الانتشار والعدوى، حتى يتوارثه الأبناء من الآباء بسرعة، وفي الآية دلالة على أن أهل الباطل (والانسيابية) في كل زمان أكثر من أهل الحق والتعقل، لذلك خاطب القرآن الكريم النار ولم يخاطب الجنة بقوله (**يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ**)ق/٣٠، من اقتدى بالرجال قادوهم إلى ما هم عليه، **روي** (من زانوا الحق بالرجال ظلموه، ومن زانوا الرجال بالحق أنصفوه)! **عن الإمام الصادق**(ع) (مَنْ دَخَلَ في هذا الدِّينِ بالرِّجال أَخْرَجَهُ مِنْهُ الرِّجالُ كما أدخلوه فيهِ ، ومَنْ دَخَلَ فيهِ بالكتابِ والسُنَّةِ زالت الجبال قبل أن يَزول) وما زالت الإنسانية تعاني من وباء الاتبّاع الأعمى، والتقليد الجاهل للعرف العام بشتّى أنواعه، وعدم التفكّر والتدبّر، والعاقل الواعي يشك في كل شيء قابل للشك، حتى يثبت بالعلم القاطع والدليل الساطع أنه حق فيتّبعه، فلا سعادة للإنسان إلاّ بالنظر والتحقق والبحث العلمي والتعلّم المستمر، ولو لم يكن في القرآن آية غير هذه في ذم الاتّباع الأعمى لكفى!

٧١- (**وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ**)وأقسم مؤكداً أن الاتباع الأعمى يضل الكثيرين في الماضي والحاضر، ولقد ضلَّ وانحرف قبل موتك يا مُحَّد من المشركين الذين كذبوك أكثر الأمم الماضية كقوله (**وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**)يوسف/١٠٣، لقد أضلهم إبليس وزيّن لهم أعمالهم كقوله(**وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**)الأنعام/٤٣، والآية مواساة للنبي(ص) في معاناته مع قومه الأجلاف.

٧٢-٧٤-﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

إنه مقطع قرآني قصير المبنى عميق المعنى واسع الدلالة، ٧٢-(**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ**) من أنبياء ورسل كثيرين يوضّحون لهم معنى الحياة ويبيّنون علة الوجود، ويخوفونهم من عصيان الله وتجاوز حدوده كقوله(**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**)الطلاق/١ فما خافوا وما اتّعظوا!

قال (**مُّنذِرِينَ**) ولم يقل (أنبياء أو مرسلين) **منذِرين**: جاءت نكرة، للدلالة على العموم، من دون أن يوحى إليهم، ولا يكونوا أصحاب رسالات سماوية، وإنما أرسل عن طريق الإلهام والتأهيل والإعداد المسبق، لتحقيق سنة الله في إلقاء الحجة الرسالية في حركة المجتمعات كقوله (**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**) الرعد/٧، وقوله (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الأعراف/١٨١ وقوله (**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**)فاطر/٢٤، وقال أيضاً (**مُّنذِرِينَ**) ولم يقل (**مبشّرين**) وقدّم الإنذار على البشارة، لأنهم غارقون في ظلمات الضلال، فالمطلوب إنذارهم وتخويفهم من مخاطر الضلال وتخليصهم من مستنقع الفساد أولاً، ثم تبشيرهم بالغفران والجنان إن استقاموا، ٧٣- (**فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**)فانظر وتأمّل يا مُحَمّد كيف أهلكناهم، وماذا حلّ بهم من العذاب الماحق والتمزيق والتفريق، فكانوا عِبرة لمن يعتبر (والذي لا يتعظ بالماضين كان عِبرة للباقين) **في نهج البلاغة خطبة٨٦** (السّعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيره) والعِبرة بالنتائج وليس بالمقدمات، والأمور بخواتيمها وليس بالادّعاءات، ٧٤- (**إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**) هو استثناء من (**الْمُنذَرِينَ**) وهم المؤمنون الصالحون الذين اتبعوا رسل الله وتنبّهوا بإنذارهم واتّعظوا بمواعظهم، فلا تؤثر فيهم دوافع الهوى والأنا ووساوس شياطين الإنس والجن، فأخلصوا دينهم لله بصدق في السر والعلانية (**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**)الزمر/٣، **عن الإمام علي** (ع) (في الإخلاص يكون الخلاص) تنبيه الخواطر ص٣٩٠، فشملهم الله برحمته وخلّصهم من العذاب بلطفه كقوله (**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**) الأعراف/٢٠١.

فائدة: هناك (المخلِصين) بكسر اللام و (**الْمُخْلَصِينَ**) بفتحها، **المخلِصين**: بكسر اللام هم الصادقون.

ومخلَصين: بفتحها هم المختارون المصطفون صفوة الخلق ونخبتهم، الذين تسلّحوا بالعلم والإيمان، وهذّبوا عاداتهم وطبائعهم وتقاليدهم من كل المساوئ والنقائص والعيوب، وتخلّصوا من كل الشوائب فكانوا خالصين مخلَصين، ويمتلكون حصانة كاملة من كل أنواع الزلل والخطايا والشبهات، فأخلصوا عبادتهم لله وأحسنوا التعامل مع الناس، فأخلصهم الله لنفسه وجعلهم تحت رعايته وحمايته كقوله (**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**)القمر/٥٥، فتكون هذه الآية دعوة إلى المؤمنين في عصرنا الحاضر، ليكونوا حنفاء معارضين مقاومين للفساد والمفسدين، ويدخلوا في حصن المخلَصين الحصين الأمين المنيع.

٧٥-٧٧- ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾

قصة نوح (ع) ٧٥- (**وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ**) اللام موطئة للقسم أي وبالله لقد دعانا واستغاث بنا نوح، لما كذبه قومه ويئس من إيمانهم بعدما دعاهم إلى الله دهوراً طويلة، واستعمل معهم فنون أساليب التبليغ المفتوحة المرنة الواعية، فلم يزدهم دعاؤه إلّا فرارا، فلما وصل إلى الباب المسدود فقال (**فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ**)القمر/١٠ (**فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ**)فأجبناه أحسن الإجابة،

إجابة كاملة وافية من خير مجيب، وذكر الإجابة بصيغة الجمع (**الْمُجِيبُونَ**)دليل العظمة والكبرياء والقرب من العباد كقوله (**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**)غافر/٦٠، **والدعاء**:عبادة وتربية وتزكية للنفس وصلة بين العبد وربه، وهو سلاح المؤمن، ومفتاح الرحمة، ومخ العبادة، والآية وإن نزلت بخصوص السبب ولكن أُريد لها عموم المعنى وسعة المغزى، ٧٦-(**وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ**)وخلّصناه (**وَأَهْلَهُ**) هم أهل الإسلام وهم الذين يجمعهم دين واحد أو نسب واحد أو مسكن واحد، وأهل الرجل امرأته (**وَأَهْلَهُ**)في الآية من آمن معه فركب في سفينة النجاة، وكانوا ثمانين ما بين رجل وامرأة (**مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**) من الغم الشديد والهم والحزن المديد الذي يضيق به الصدر، ويتحيّر، معه العقل، الغم الذي كان يسببه له قومه القساة الغلاظ الشداد الذين كذبوه وآذوه الذي يصل ألمه إلى النفس، وحرّه الى الصدر فيضيق ويحتبس، وأصل(**الْكَرْبِ**)من كرب الأرض وهو قلبها بالحفر للزراعة، فالغم يثير في النفس الحزن الشديد على الواقع المتخلّف، ولكن بعد الضيق الفرج، والأمور بالخواتيم كقوله (**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**) القصص/٨٣، ٧٧-(**وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ**)وبعد الطوفان من ذرية ونسل نوح (ع)فهو الأب الثاني للبشرية بعد آدم، وقد تمركزت البشرية هناك، ولم تخرج عن حدودها الجغرافية آنذاك، وذرية نوح هم أبناؤه الثلاثة وجعلهم عمّاراً لهذه الأرض، وخلفاء الله في أرضه وهم: سام وحام ويافث، فصار من نسل سام العرب والفرس والروم واليهود والنصارى (وحام) ومن نسله السود والسند والهند والزنج والقبط والحبشة والبربر..إلخ (ويافث) أبو الترك والخزر ويأجوج ومأجوج، ومن ذريته الذين سكنوا الجبال الغربية من جنوبي بحر قزوين، والبحر الأسود والجزائر حتى شواطئ البحر المتوسط..كما في تفسير الطبري، وقاموس الكتاب المقّدس، وروح البيان٧/٤٦٧، عن الإمام الباقر (ليس كل من في الأرض من بني آدم من ولد نوح(ع))كنز الدقائق٨/٤٦٩.

٧٨-٨٠-﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

٧٨-(**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ**،)

أي أبقينا له الذكر الجميل والثناء الجليل يجري على لسان أمة مُحَمَّد(ص) والأمم الأخرى مدى الحياة، ٧٩- (**سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ**) وتعالى في الخافقين، سلام الله على نوح شيخ الأنبياء جزاء إحسانه وتحمّله معاناة قومه، وسلام من الملأ الأعلى على نوح، سلام سلامة وتسليم وتكريم، سلام حي نابض وسيبقى مع تداول الحياة، سلام تقدير كبير ومكافأة لجهاده الطويل، سلام باللسان وبالقلوب، سلام من كل صاحب سلام وطالب آمان ويعرف منازل العباد، (**فِي الْعَالَمِينَ**)من قبل الإمم الإنسانية اللاحقة، الباحثة عن الحقيقة في جميع الأجيال وفي كل زمان ومكان، ولحين قيام الساعة. والذكر الحسن النابض بالحياة عمر ثانٍ، وهو فضيلة

يتمناها كل الناس لأنفسهم. **فهل هناك فخر أكبر من هذا؟** هو أن الله يبعث بالسلام والأمان والتحيّات الطيّبات المباركات لنبيه نوح الداعية الصبور كقوله (**تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**) النور/٦١، ولا يوجد في القرآن الكريم سلام عالمي واسع المغزى وبهذه السعة إلاّ لنوح خاصة، فكما أن رسالته عالمية فتكون همّته الرسالية عالمية، ويكون السلام عليه عالمياً أيضاً! لشمول موقع نوح الفاضل لدى البشر في العالم الأرضي الواسع،٨٠-(**إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**)وقد كافأنا نوحاً بكل ذلك وما خفي أعظم، وإننا كذلك نكافئ كل من أحسن عملاً بقوله وفعله، الذين لا يصدر منهم إلاّ الحسن الجميل، فخيرهم مأمول وشرّهم مأمون كقوله(**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**)النحل/١٢٨، وهنا يكشف القرآن عن سنّة فعّالة مؤثرة تمتد إلى عامة المحسنين، أنه من أحسن فلنفسه يكرم وإليها يُحسن كقوله(**إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**)الإسراء/٧.

٨١-٨٢-﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾

٨١-(**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**)وقد كان نوح من المحسنين، إنه من عبادنا المقربين الصالحين المؤمنين، الذين أخلصوا في طاعتهم لله فأخلصه الله لنفسه وجعله عنده كقوله (**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**)القمر/٥٥، وتتضمن الآية مدح المؤمنين حيث خرج من بينهم نبيّاً معصوماً من أولي العزم مثل نوح(ع). **عن النبي(ص)** (إِذاَ أَرَدَت عّزاً بلاِ عَشيرة، وَ هيْبَة بِلَا سُلْطَانٍ فَاخْرُجْ مِنْ ذُلِّ مَعْصية اللهِ إلَى عِزِّ طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ)البحار١٣٩/٤٤، ٢٨-(**ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ**) بخير الكلام ما قلّ ودلّ، ثم أغرقنا كفّار قومه اللّؤماء الآخرين، وهنا تم الفرز بين الخبيث والطيب كقوله(**مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**)آل عمران/١٧٩.

٨٣-٨٦-﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ، إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ، أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾

قصة إبراهيم (ع) ٨٣-(**وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ**)وإن(**مِن شِيعَتِهِ**)أي ممن شايع نوحاً وتابعه. في منهاجه الرسالي وكان من أنصاره وأعوانه هو إبراهيم الخليل (ع)، وسار على سنة نوح الفاضلة في اتّباع الحق ومقاومة الباطل والفساد في قوله وعمله، على تباعد الزمان بين الرسولين، وبينهما نبيّان هود وصالح عليهما السلام، وكان إبراهيم(ع) المؤسس للدين الحنيف كقوله(**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**)الروم/ ٣٠ **حنيفاً**: مائلاً عن الواقع الباطل إلى الحق الثابت والصراط المستقيم بشكل دائم، ويعيش الاعتدال والتوازن والخالي من التطرّف في الفكر والسلوك، وهو يعيش في مجتمع جاهلي متخلّف، ويحافظ على دينه الخالص ويترك ما وراءه من ضلال وانحراف ويصبر ويقاوم معاناة الجاهلية الجهلاء الرعناء كقوله(**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ**

أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)النساء/١٢٥، معنى **(شيعة)** القوم الذين يجتمعون على أمر معيّن، ويتابع ويشايع بعضهم بعضاً، ويدعون الناس إلى منهجهم ويتحمّلوا الأذى في ذلك لاعتقادهم بأحقية ما يعتقدون.

وشيعة الرجل: أولياؤه وأتباعه وأنصاره، ثم صارت كلمة شيعة بمفردها اسماً مميزاً لشيعة الإمام علي(ع) واتّباع نهجه ومسيرته، ٨٤- **(إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)** **(جَاءَ رَبَّهُ)** كناية تشبيهية لطيفة عن إقباله عليه سبحانه، بطريق الاستعارة والتمثيل فائزاً بدرجة خليل الله، وإلاّ فليس القلب مما ينقل من مكان إلى مكان حتى يجاء به إلى ربه! **وأيضاً معنى مجيئه لربه بقلبه السليم** الصافي وكأنه جاء إلى ربه محصناً بقلبه السليم كما أخذه من ربه صافياً، وكأنَّ قلبه السليم حصن حصين للنجاة من فتن الدنيا، وخير رأس مال للأمان يوم الفزع الأكبر، **والقلب السليم**: مصطلح قرآني نموذجي تتفجّر منه المعاني، فهو رقيق ودقيق وشفاف ونفّاذ، وتعبير في البلاغة القرآنية التربوية الفريدة والمؤثرة، وكأن تصوير المعنى القرآني البديع يغوص في أعماق النفس البشرية، ويصل إلى أسرار القلب، ويكشف بدقة عن سلامته واستقامته، إنه **(قَلْبٍ سَلِيمٍ)** نقيّ تقيّ طاهر ماهر خالص ومتخلّص من دوافع الهوى والأنا والشك والشرك بأنواعه الجلي والخفي، **(قَلْبٍ سَلِيمٍ)** من الصفات السلبية والعيوب والذنوب والنقائص المادية والمعنوية والأخطاء.

(قَلْبٍ سَلِيمٍ) لا يوجد فيه حبّ الدنيا وحبّ الأنا، وخالص من آفات القلوب وكل التعلقات بغير الله عز وجل، فلم يتعلّق بشيء لا يوجد فيه رضا الله، وفيه دلالة على صحة عقيدته وخلوص نيته وصفاء مشاعره، مع عيشه في أجواء جاهلية مفعمة بالصنمية وعلى ذلك عاش ومات! **في الحديث** (لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ) الترغيب والترهيب٣/٥٢٧، **وفي الحديث** (إنّ لله في عباده آنية وهو **(القلب)** فأحبها إليه أصفاها وأصلبها وأرقّها: أصلبها في دين الله، وأصفاها من الذنوب، وأرّقها على الإخوان)البحار٧٠ص٥٦، **عن الإمام الصادق(ع)** (القَلبُ السَّليمُ الذي يَلقَى رَبَّهُ، وليسَ فيهِ أحَدٌ سِواهُ)الأمثل١٤/٣١٤، **معنى القلب**: سميّ القلب قلباً لسرعة تقلّبه وشدّة تحسسه وكثرة تأثره، وقلب المرء حرم الله، فلا تجعل في حرم الله غير الله، **والقلب السليم**: الخالي من تقلبات القلوب وآفاتها، والمطمئن بذكر الله، والثابت على منهج الله، والمستقيم الصادق في التعامل مع الناس، إنها صورة حية واقعية في التسليم الخالص لله، والانقطاع التام في مجيئه لربه.

(بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)والتعبير البديع بسلامة القلب له دلالات واسعة المغزى عميقة المعنى رقيقة المبنى، تعبير موح بمدلوله، ومظهره يدل على جوهره، وقوله يدل على فعله، وفعله يدل على وعيه، ووعيه يدل على استقامته، ومعناه يدل على مغزاه، فإذا (سَلُمَ القلب) سَلُمَ اللسان والفكر

والعقل، وسلمت النفس والمشاعر والضمائر، وفي الاستقامة السّلامة والكرامة بلا أية ندامة ولا ملامة، كقوله(**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**)الشعراء٨٨-٨٩، **في غرر الحكم** (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَبْداً رَزَقَهُ قَلْباً سَلِيماً وَ خُلُقاً قَوِيماً) إبراهيم صاحب القلب السليم استنكره قومه أصحاب القلوب السقيمة، والفطرة الملوثة والنفوس القلقة، ٨٥-(**إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ**)؟! متعجباً مستغرباً موبخاً لهم، حين رآهم يعبدون الأصنام قال لهم(**مَاذَا تَعْبُدُونَ**)؟ بطريقة الاستفام والاستنكار والتقريع، على طريقة نوح في التبليغ، أي شي توالون وتطيعون فإنه ليس من شأنه أن يُعبد، **يجب على المؤمن أن يطمئن إلى سلامة عقيدته، من يوالي؟ ومن يتّبع؟ وإلى من يقتدي ويركن؟** ومن يحب ومن يبغض؟ ومن يطيع ومن يعصي؟ ومن دون معرفة الولاء الصحيح، فسوف يعيش الإنسان الضياع ويعاني من التيه، كقوله (**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**)الاسراء/٧١، **عن النبي(ص)** (مَن ماتَ ولَم يعرف، إمام زمانه ماتَ ميتةً جاهليّة)البحار٢٣ص٧٧ **في الحديث** (طوبى لقلب سليم أطاع من يهديه، وتجنب من يرديه)الكاشف٦/٣٤٦، ينطق إبراهيم القدوة الحسنة بقلبه السليم وحبّه للخير وبإرادته الصلبة وعزمه القوي ورؤيته الواضحة، بالجهاد ضد عبادة الأصنام الحجرية والعقائد الصنمية، وبدأ بأبيه وعشيرته كقوله(**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**)الشعراء/٢١٤، لاحظ تصرفات صاحب (**القلب السليم**) كيف يتحدّث؟ كيف يتعامل؟ كيف يقاوم الفساد؟ ولا يقلّد تقليداً أعمى، ولا يتّبع اتّباع الجاهل، ولا يكون (إمّعة) ولا يقول: (حشرٌ مع الناس عيد) كيفما كان حال الناس أكون!

٨٦-(**أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ**)؟ الاستفهام إنكاري أقوى من الخبر، لأنه يأخذ الإجابة منهم ويسجّلها عليهم، **والإفك**: أشنع الكذب وأفظعه وهو الكذب على الله عزّوجل بأن تجعل له شريكاً في ملكة، **إذن: الإفك هو قلب الحقيقة وإيهام الناس**، أي أتريدون آلهة مكذوبة من دون الله؟! أي تتقنون الكذب وتتفننون في عبادة (**آلهة دون الله**) حتى خدعتم أنفسكم وغيركم، فصار الكذب في طبعكم وعاداتكم تتفننون في عرضه (**تُرِيدُونَ**) هل تريدون عبادة آلهة غير الله؟ وكل ما دون الله مبني على الكذب والجهل والبهتان، والكذب يضطرب وينكشف ولا يثبت لكون حبل الكذب قصير، **وأصل الإفك**: قلب الشيء عن حقيقته بطريقة فنية خادعة وموهمة على أنها هي الحقيقة الصحيحة، فيألفها الناس ويعبدونها على كذبها وهم لا يعلمون، إنكم تريدون آلهة(**دُونَ اللَّهِ**) تطيعونها تتناسب مع شهواتكم ورغباتكم وجهلكم، إنكم تخدعون أنفسكم بافتعال الكذب الذي يغشّكم ويضلكم، إنكم لا تبحثون عن الحق في حجة ودليل علمي، بل ترغبون التقاليد والعادات الجاهلية الفاسدة المألوفة، ومن ضاق عليه الرحمن رَحَّبَ به الشيطان، **عن الإمام علي** (ع) (ومن لا ينفعه الحق يضرّه الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى تضرّه الضّلالة) شرح نهج البلاغة٢ص٩١.

٨٧- ٩٠-﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ، فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾

٨٧-(**فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**)استفهام توبيخ وتحذير، إنه أسلوب مرن من أساليب البلاغ والحوار الرسالي إلى عامة الناس، أي شيء تظنون برب العالمين، أن يصنع بكم وأنتم تأكلون رزقه وتعبدون غيره، والله يمهل ولا يهمل، ما هو تصوّركم لله تعالى؟ ماذا تفكرون بخالق الخلق؟ ماذا وصل علمكم نحوه؟ كقوله (**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ**)الانفطار/٦-٧، هل تتوقعون أنه سيرحمكم ولا يعذبكم؟ والقرآن هنا لم يذكر الحوار معهم ولا الرد عليهم، ويمضي السياق القرآني مباشرة ليوصل عرض قصة إبراهيم بمشاهدها التربوية المقاومة.

٨٨-(**فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ**) نظرة تأمّل وتفكّر، ٨٩-(**فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ**)كان لأهل بابل في العراق عيد يحتفلون به سنوياً، يضعون الطعام أمام آلهتهم لتباركه ثم يخرجون جميعاً إلى خارج المدينة يحتفلون بعيدهم، وفي آخر اليوم يعودون إلى معابدهم لتناول طعامهم الذي باركته أصنامهم! فحين دعاه قومه ليلاً للمشاركة في مراسيمهم (**فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ**) **سقيم**: مريض، السقم المعنوي والمرض النفسي وليس مرضاً جسدياً، أي في حالة نفسية قلقة وذهنية مضطربة، وكان مقصده ألا يخرج معهم في يوم عيدهم لإعلان الحرب على معتقداتهم الصنمية وتكسير أصنامهم الحجرية، فمن يعزم على تنفيذ أمر خطير، يحذر من المخاطر المترتبة عليه، فيكون مهموماً مغموماً قلقاً من عاقبة الأمور (**فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ**) إني في حيرة من أمري، وعدم معرفة الطريقة المناسبة لهداية قومي، وتخليصهم من حيرة الضلالة وإنقاذهم من ظلمات الجهالة، كقوله تعالى لنبيّنا مُحمَّد(ص) قبل البعثة (**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ**)الضحى/٧.

معنى سقيم:من قبيل التورية، وهي أن تريد شيئاً ويفهم الآخرون منه شيئاً آخر لمصلحة يقتضيها الحال، لانتهاز الفرصة المناسبة لتكسير أصنامهم، والتورية ليست كذباً، ٩٠- (**فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ**)فانصرفوا عنه معرضين، وتركوه وحده وخرجوا إلى عيدهم.

٩١- ٩٤-﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾

٩١-(**فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ**) **فراغ**: فتحرك بخفّة، وبسرعة مع خفاء، من روغة الثعلب، فمال بحيلة خفيّة سّرية إلى آلهتهم، وذهب بسرعة ذكية إلى أصنامهم المصنوعة من الأحجار (**فَقَالَ**)لهم إبراهيم مستهزئاً (**أَلَا تَأْكُلُونَ**) من هذا الطعام الّلذيذ، ٩٢- (**مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ**)؟ لِمَ لا تجيبوني على سؤالي؟ قال هذا احتقار للأصنام واحتجاج على من يعبدها، ٩٣- (**فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ**) **فراغ**: فذهب متوجهاً بسرعة وفي حذر وخفاء إلى أصنامهم يضربهم ضرباً بفأس كان بيده اليمنى، بكل ما لديه من قوة وتصميم وإرادة تدميراً وتحطيماً، وخصَّ الضرب باليمين لأنها الأقوى والضرب بها أشد، ٩٤-(**فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ**)فلما رجع قومه إلى

أصنامهم، شاهدوا مشهداً فضيعاً غامضاً فتحيّروا، ثم تذكّروا إبراهيم الذي كان يستهزئ بأصنامهم بقوله(**وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ**)الأنبياء/٥٧-٥٨ (**فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ**)أي يسرعون في المشي، وهم في حالة ثورة واضطراب، قالوا له: ويحك نحن نعبدها وأنت تكسرها! وهم جمع كثير غليظ وغاضب، وهو فرد واحد أعزل وشفاف، ولكنه مؤمن واعٍ يحمل همّ التغيير للواقع الجاهلي المتخلّف الوثني، ويحمل إرادة أمة كقوله(**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا**)النحل/١٢٠ **ويزفّون**: كناية بلاغية تشبيهية من زفيف النعام، الذي يسرع فيخلط بين الطيران والمشي، ومنه استعير زف العروس إلى عريسها.

٩٥-٩٨-﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ، قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ، فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾

٩٥- (**قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ**)الاستفهام للإنكار، فقبضوا عليه وأثناء التحقيق: أجابهم إبراهيم موبّخاً، أتعبدون أصناماً نحتّموها بأيديكم وأدواتكم، وتحرسونها من الأعداء لعجزها أن تدافع عن نفسها، وتتمكّن الكلاب أن تبول عليها، أفلا عقل فيكم يفكّر وينهاكم عن هذه الضّلالة والسّخافة؟! وهو يحرّك فطرتهم، ٩٦- (**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**)والله خلقكم وأوجدكم من العدم (**وَمَا تَعْمَلُونَ**) **ما**: موصولة بمعنى التي، وخلق الحجارة التي تعملون منها اصنامكم، وكل الأشياء مخلوقة لله كقوله(**قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**)الرعد/١٦، فكيف تعبدون المخلوق المصنوع وتتركون الخالق الصانع؟! كقوله(**أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ**)هود/٧٨، وفيه توبيخ للكفّار على قبيح فعلهم وسوء تفكيرهم، ٩٧- (**قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ**)فثاروا عليه وقالوا: (**ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا**)مكاناً عالياً واشعلوا في وسطه النيران المستعرة الشديدة ثم ارموه فيه ليكون عِبرة للآخرين، لما غلبهم إبراهيم في الحجة والبرهان، واجهوه بمنطق القوة والبطش والطغيان! والجاهلية الحديثة أشدّ ظلماً وبطشاً من الجاهلية الأولى! فلا مانع لديهم من إبادة الشعوب بكاملها، ويجعلوا أرضهم وديارهم مهدّمة محروقة! **الاستعداد لردود الأفعال**: عندما كسر إبراهيم أصنامهم، كان مستعدّاً لكل طارئ انتقامي، وكل ردّة أفعال عنيفة ضدّه، فكان على استعداد أن يضحّي بكل شيء، وأغلى شيء حتى نفسه الزكية يسترخصها في سبيل الله، فيأتي ربه شهيداً سعيداً.

(وأفضل الموت قتل الشهادة) من أجل تحقيق صدمة مزلزلة في مشاعر الناس، وخلق هزة انقلابية عنيفة لهذه الأمة المنغمسة في الجهل، والجهل المركّب، فهم في ظلمات الضلال بعضها فوق بعض، حتى يتمكّن أن يفتح لها آفاق من التفكير الجديد والقناعة الجديدة ذات القيم والمبادئ والأخلاق، ٩٨- (**فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا**)مخططوا تخطيطاً إجرامياً لإهلاكه وإذلاله، بأن

رموه في النار بواسطة المنجنيق، قال الله تعالى أدرك عبدي يا جبرائيل، فأدركته وقلت له: هل لك حاجة؟ فقال (أما إليك فلا، علمه بحالي يكفيه عن سؤالي) وهو يتولّى الصالحين. روح البيان٧/٤٧٥ مع الاختصار (**فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ**)فأبطلنا تدبيرهم وجعلناهم المغلوبين المقهورين، بجعل النار–بمعجزة خارقة– برداً وسلاماً عليه كقوله(**قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**)الأنبياء/٦٩–، **فائدة:** ومن الغريب العجيب، مع هذه المعجزة الخارقة الكبرى لم يهتدِ قومه، ولم يدخل نور الإيمان في قلوبهم لكثرة ذنوبهم وقسوة قلوبهم، ولم تحركهم هذه الهزّة الخارقة المزلزلة للمشاعر التي أهانت معتقداتهم فبقوا عليها كقوله (**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ**)فصلت/١٧، فأيقن إبراهيم أنهم ميّتو الأحياء فقرر هجرهم ومفارقتهم فقال:

٩٩–١٠١ –﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ، رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾

ولما نجّاه الله من النار، وخلصه من كيد الفجّار بهذه المعجزة الخارقة للمألوف والمعروف، ومع هذه المعجزة الظاهرة القاهرة ولم يتدبروها ويدركوها فيؤمنوا، فمرّوا عليها كالعميّان كقوله(**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ**)الأنفال/٢٢، ٩٩–(**وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ**) بعدما نصره الله على قومه الغلاظ، فارقهم وسأل الله أن يشمله بتوفيقه وعنايته كقوله (**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**)العنكبوت/٥٦، **وفي الآية إشارة:** إلى أن الإنسان إذا لم يتمكن من حفظ دينه وكرامته في وطنه، وجب عليه الهجرة منها إلى أرض أخرى يتيسّر له فيها عبادته عز وجل كقوله(**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**) الذاريات/٥٦، فهي إذن هجرة إلى الله وفي سبيل الله وفي نصرة دين الله، **في نهج البلاغة حكم٤٤٢** (ليس بلد بأحقّ بك من بلد، خير البلاد ما حملك) وأخسر الناس من استعبدته الأوطان، ويُهان بها الإنسان ويفقد فيها الأمان، **في نهج البلاغة حكم٥٦** (الْغِنَى فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ)(**سَيَهْدِينِ**) فهاجر من أرض بابل في العراق إلى الأرض المقدسة، وسمّيت مقدسة لأنها خالية من الأصنام، هاجر مع زوجته سارة، فهناك نبي الله لوط(ع) وهو أول من هاجر من الخلق، فمن توجّه إلى وجه واحد يكفيه الوجوه كلها، ومن حمل همّاً واحداً يكفيه الهموم كلها، ليبدأ تجربة جديدة في واقع جديد وموقع مفيد، ١٠٠– (**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**) سأل ربه حينما بلغ الكبر ولم يرزق ولداً، فقال: رب هب لي هبة خاصة، ولداً مؤمناً وخَلَفاً صالحاً، يؤنسني في غربتي ويعوّضني عن قومي وعشيرتي الذين فارقتهم، ويكون امتداداً طبيعياً مباركاً من بعدي كقوله(**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا**)الفرقان/٧٤، ١٠١–(**فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**) فاستجبنا دعاءه وبشّرناه.

(**بِغُلَامٍ حَلِيمٍ**)مصوغ على صيغة أبيه إبراهيم في كمال عقله وسلامة فهمه واستقامة سلوكه وجمال صبره وحلمه، وسيكون ولداً عزيزاً وحيداً وقوراً حكيماً مسيطراً على أحاسيسه، حليماً غير مستعجل في الأمور قبل أوانها، ولا يغضب بسهولة ولا يضطرب عند إصابة المكروه، ولا يجزع ولا يتهوّر ولا ينفعل بسرعة ويتحمّل المشاق، ووصفه ربه بالحليم وهو غلام وسنرى آثار حلمه، ونتصوّر فرحة إبراهيم بابنه الوحيد الفريد، لم يصف القرآن من الأنبياء بالحليم إلاّ إسماعيل وأبوه بقوله (**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ**)هود/٧٥ **أوّاه**: كثير التضرّع في الدعاء، **والحليم**: كبير العقل وكثير الفهم وعالي الهمة وقدوة حسنة يملك نفسه، وهو غلام الذي كبر عقله وإيمانه على عمره! وقلّما يوجد في الغلمان سعة الصدر، كانت سارة زوجة إبراهيم عقيماً فوهبت له قريبتها هاجر وأنجب منها إسماعيل. قال بعض أهل اللغة (الغلام) من جاوز العشر (والصبي) مادونها.

١٠٢ – ﴿**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**﴾

قصة إسماعيل الذبيح: (**فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ**)فلما كبر إسماعيل وبلغ من العمر مبلغاً يسعى فيه لحوائج الحياة مع أبيه وهو في سن الشباب (المراهقة) (**قَالَ**) إبراهيم لابنه الوحيد إسماعيل (**يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ**) **يا بُني**: تدل على العطف والرقّة والشفقة بصورة متكررة (**أَنِّي أَذْبَحُكَ**) قرباناً لله!! يصوّر القرآن بعد البشارة له بغلام حليم، ذكر مباشر قصة الذبح لهذا الغلام! كما ذكر ردَّ فعل ملكة سبأ مباشرة بعد أن أرسل الهدهد بالرسالة (النمل/٤٤) كان إبراهيم(ع) عازماً من غير تردد أن يحقق رؤياه بالفعل، ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية بالعزيز، لأن النبي تكون رؤياه في المنام وحياً يوحى، وهي جزء من النبوة، وابنه العزيز وديعة الله عنده، وأراد الله أن ترد الوديعة إلى صاحبها كقوله (**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ**)التوبة/١١١، ولكنه لا يلبّي في انزعاج ولا يستسلم في جزع، إنما هو القبول والرضى وحُسن الاستجابة. وكان يقصّ إبراهيم رؤياه في منامه على ابنه ليكاشفه بالأمر ولا يخفيه عليه، وهكذا ينبغي أن تكون العلاقة بين الأب وابنه، علاقة الصداقة والصراحة والثقة والاحترام المتبادل، ما هذه الرزانة والشخصية القوية بين الأب وابنه؟ فالأب لا يملك إلاّ هذا الولد الوحيد الذي رزقه الله إيّاه على كبر سنه، **ومع ذلك جاء الأمر الإلهي بأن يذبح ابنه بيديه!!** وليس أن يرسله إلى ساحة المعركة ليقتل الأعداء ثم يُقتل شهيداً في سبيل الله، فهذه حالة أسهل بكثير من الحالة الأولى، أن يذبح ولده الوحيد ويقتل أمله ويقطع وشائج الحب والقرب بينهما، ويُنهي امتداده في الحياة! إنها حالة نموذجية مميزة نادرة عالية المستوى قوية الإيمان، لا يمكن أن تتكرر ولا يمكن يُقتدى بها، لأنه لا يوجد فيها أمر إلهي، إنها حالة شديدة الصلة وكبيرة الثقة وجامعة للمواصفات بين أبناء الأسرة الواحدة في ما بينهم ومع ربهم (**فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ**)شاوره ليختبره ويُهيّئ نفسه، وقال: فكّر في الأمر، ما هو رأيك فيه وهو

يربيه ويعدّه بماذا يجيبه؟! هذا مبدأ الشورى في الإسلام بداخل الأسرة ضمن نظامهم الداخلي المعتمد، كقوله (**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**)آل عمران/١٥٩.

(**قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ**)نفّذ ما يأمرك الله به بصبر وشجاعة، هذا هو سبيل المؤمنين المخلصين حقاً وصدقاً(**أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**)الزمر/٣، فهي كلمات المؤمن العالم بما يقول والمالك لأعصابه ، المطمئن للأمر الذي يواجهه، لا أمر له مقابل أمر الله، المتيقن أنه أمر الله، فهو الواثق بأنه يؤدي واجبه، ولا يهوله الأمر الغريب! (**يَا أَبَتِ**) في مودة وقربى وشفافية، فشبح الأمر بالذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده وأدبه! وهكذا أدّبه ربه فأحسن تأديبه. (**سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**)إنها إجابة بالقبول الخالص بدون تردد أو خوف أو شك أو اضطراب، إنها إجابة الصبور الراضي بقضاء الله المستسلم لأمره، المسلّم وجهه لله، يالروعة هذا الإيمان كقوله (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) النساء/١٢٥، **عن الإمام الباقر**(ع) (المؤمن أصلب من الجبل، الجبل يستفلّ منه بالمعاول والمؤمن لا يستفل من دينه شيء) البحار٣٦٢/٦٧، وهكذا الأنبياء(ع) أسوة حسنة للاقتداء، وقمة إنسانية تكاملية، فيكون سلوكهم أيضاً قمة القمم تتناسب معهم، جاء الأنبياء (ع) وهم لا يتعلّقوا بالدنيا أكثر من الحاجة إليها فإنها مزرعة الآخرة (**سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ**)لم يأخذ هذه الإجابة بطولة ولا شجاعة ولا سمعة، ولم يأخذها اندفاعاً إلى الخطر ونكران الذات دون مبالاة، إنما أرجع الفضل كله إلى مشيئة الله (**إِن شَاءَ اللَّهُ**) إن هو أعانة على ما يطلب إليه، فهو مستعد لتلبية هذا الأمر برحمة الله، يا للأدب النموذجي المتبادل مع الرّب ومع الأب، ويا لعظمة التسليم لأمر الله، قال إبراهيم لابنه إسماعيل: نعم العون أنت يا بني على أمر الله.

حلقة وصل بين الأنبياء والأولياء: أرسل الله أحد الأنبياء إلى قومه عبدة الأصنام، فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، فأخذوه ليقتلوه شرّ قتلة، فأرسل الله إليه مَلَكُ فقال له: جئت ملبياً لما تريد، فقال النبي له (لي أسوة بما يصنع بالأنبياء)! كقوله (**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ**)الأنعام/١١٢، وهكذا يشير القرآن إلى قصة أصحاب الأخدود كقوله(**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ**) البروج/٤ كان في ما مضى قوم طغاة كفرة حفروا خندقاً وأضرموا فيه ناراً وجاؤوا بالمؤمنين، فمن ارتد عن دينه إلى الشرك تركوه، ومن أصرَّ على إيمانه أحرقوه، وهم قاعدون حول الخندق يتلذذون بمشاهدة الأجسام الحيّة تحترق، ولا ذنب لهم إلا الإيمان بالله، وهذا ما فعله الطغاة بالمؤمنين المستضعفين في كل زمان ومكان! وهكذا قال سيد الشهداء والمقاومين الحسين بن علي(ع) وهو يرفض بيعة يزيد المتهتك (**إني لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ برما**) برماً: شقاءً، وقال الشهيد علي الأكبر لأبيه الحسين في وقعة الطف: لا نبالي بالموت ما دمنا على الحق، سواء وقع الموت علينا أم وقعنا على الموت!

وهكذا كان أئمة أهل بيت النبي(ع) استهانوا بالحياة الدنيا طاعة لأمر الله تعالى، فلم يكن منهم إلاّ مقتول أو مسموم ورحلوا شهداء.

والشهداء: أتقنوا فنّ الموت، واختاروا موتاً حركياً حضارياً واعياً مليئاً بالحياة المؤثرة المفعمة بجمال الخلود، وبروعة الإباء والمقاومة للطغاة، وفَضّلوا الموت العزيز على الحياة الذليلة، واختاروا الشهادة في سبيل الله لجعل كلمة الله هي العليا، ونحن ندين لهم بالولاء والوفاء والاتّباع، راجع التفاصيل في موسوعتنا (**الشهادة تأصيل لا استئصال**) أربعة مجلدات فنية، وهي دراسة علمية معاصرة للنظرية الاستشهادية في المنظور الإسلامي، **فائدة**: **قيل:** إنه رأى ليلة التروية في الحج كأن قائلاً يقول له: إنّ الله يأمرك بذبح ابنك الوحيد هذا، فلما أصبح قال: هذا الحلم من الله تعالى أم من الشيطان؟ فمن ثمة سُمّيَ(**يوم التروية**) فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله تعالى، فمن ثمة سُمّيَ (**يوم عرفة**) ثم رأى في الليلة الثالثة، فهمّ بنحره فسُمّيَ (**يوم النحر**). وإنما جاء الأمر في المنام دون اليقظة، مع أن غالب وحي الأنبياء أن يكون في اليقظة، وذلك لتكون مبادرتها إلى الامتثال أدل على كمال الانقياد، وجلال الإخلاص، وجمال الصدق.

١٠٣-١٠٦- ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾

١٠٣-(**فَلَمَّا أَسْلَمَا**) من التسليم، أي فلما أسلما وسلّما واستسلما بمعنى واحد (الأب والابن) تنفيذاً لأمر الله ورضيا بقضائه طوعاً لا كراهاً، وبتلك الطاعة للرحمن يخيب الشيطان ويخنس الهوى، وتتهذّب الطبائع وتزكوا النفس، وتتألق الروح، ولقد أسلما بدرجة اليقين (**وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ**)الحاقة/٥١، **في نهج البلاغة خطبة ١٥٧**(**باليقين** تدرك الغاية القصوى) **ومعنى الإسلام:** هو التسليم لأمر الله والاستقامة على منهجه، هذا هو الإسلام بمعناه العام الذي يشمل كل الرسالات السماوية، **والإسلام بمعناه الخاص** الشامل الكامل الذي جاء به نبي الرحمة مُحَمَّد(ص) كونه خاتم الأنبياء ورسالته خاتمة الرسالات كقوله (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)المائدة/٣ (**وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ**) أضجعه على جبينه حسب طلبه كي لا يراه فيرقَّ له فلا يقدر على ذبحه! جواب (**لما**) محذوف، إشارة الى شدة البلاء ومرارة الامتحان وصعوبة الموقف، **وتقديره:** حدثت أمور لا توصف من شكرهما لله على ما أنعم به عليهما من دفع البلاء ونهاية الامتحان قبل تنفيذه، ١٠٤-(**وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ**) ولما عزم إبراهيم وهمَّ بنحره وصمم على تنفيذه جاءه النداء (**أَن يَا إِبْرَاهِيمُ**،١٠٥- **قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا**) قد حققت صدق الرؤيا، أي إنّ الأمر فيها كان امتحاناً، يكفي في امتثاله تهيئو المأمور للفعل وإشرافه على تنفيذه (**إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**) تعني الآية عموم معناها ولا تقتصر على خصوص السبب في نزولها، إنا كذلك نكافئ الصالحين على منافعهم للناس

وطاعتهم لله تعالى، فنمتحنهم امتحانات شاقة كقوله(**وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ**)آل عمران/١٥٤، فإذا نجحوا في الامتحان، كافأناهم أحسن المكافأة في الدنيا والآخرة. فِيْ الْمِحَنِ مِنَحٌ مِنَ اللهِ تعالى، وَفِيْ الْمَكَاْرِهِ مِكَاْرِمٌ، وَفِيْ الْمَشَقَّاْتِ خِبْرات، وَفِيْ الْمُعَاْنَاْةِ هِبَاْت، وَفِي الْبَلايا بِدَاْيَاْتٌ نِهَاْيَاْتُها الْكَرَاْمَاْتُ، كقوله (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**) الكهف/٧.

عن الإمام الحسن العسكري(ع) (ما مِن بَلِيّةٍ إلّا ولله فيها نِعمَةٌ تُحيطُ بِها) البحار٧٨/٣٧٤، **عن الإمام الصادق**(ع) (ما من قبض ولا بسط إلاّ ولله فيه مشيّة وقضاء وابتلاء)التوحيد ص٣٥٤،

١٠٦-(**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ**)إنّ الذي اختبرنا به إبراهيم لهي محنة كبيرة واختبار شديد ظاهر البيان وواضح البرهان، والكاشف عن حقائق النفوس والمظهر لمعادن الناس كقوله (**مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**)آل عمران/١٧٩، إنها سنة الابتلاء مدرسة تربوية مؤثرة شاملة لكل الناس، والله تعالى يبتلي من يشاء من عباده بما يشاء متى يشاء كيف يشاء (**والبلاء على قدر الطباع**) فهو بلاء لرفع الدرجات وليس لمحو السيئات، بلاء تنقية وتزكية واصطفاء، بلاء لتزول عنه الحجب، وتنكشف أمامه الأسرار ويعرف الحقائق، ويرى العجائب وينسّق مع الأقدار!! صحيح أنه بلاء يصوّر صعوبة الموقف، ومرارة الامتحان والبلاء المبين وهذا في ميزان الإنسان، أما البلاء في ميزان الله فهو معيار الهداية والرعاية والحماية وتزكية النفس وتهذيب الطبائع، ومخالفة الشيطان ومتابعة منهج الرحمن، لرجحان حبّ الله على حبّ الذات كقوله(**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**)البقرة/١٦٥، وقوله(**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**) الأحزاب/٣٦، **عن الإمام الصادق**(ع) (لا يُمْحَّضُ رجل الإيمان بالله حتى يكونَ الله أحبَّ إليه من نفسه وأبيه وأُمّه ووَلده وأهله وماله ومن الناس كلّهم) البحار٧٠/ص٢٤، إنّ الله تعالى لا يريد أن يعذّب عباده بالابتلاء، ولا يريد ذبح أبنائهم متى أخلصوا لله، فاعتبرهما الله قد أدّيا وصدقا وقد جاوزا الامتحان بنجاح بدرجة امتياز.

فائدة:

١- والحكمة من وراء هذه القصة: تبيان مقدار الطاعة والانقياد لله! وأن يسترخص الإنسان المؤمن كل شيء نفيس في سبيل الله، حتى نفسه الزكية (**والجود بالنفس أقصى غاية الجود**) والذي يميز المؤمن الحقيقي عن المدّعي للإيمان هو حبه لقاء الله وطلبه للموت المقاوم للظلم واستعداده للشهادة في سبيل الله كقوله (**قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**)الجمعة/٦، **٢-روي:** إنّ إبليس عرض لإبراهيم عند جمرة العقبة، ينهاه عن ذبح ابنه! فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى والكبرى، فرماه بسبع حصيات لكل واحدة منهما حتى ذهب! ثم مضى

إبراهيم لأمر الله تعالى وعزم على الذبح، ومنه شرع رمي الجمرات في الحج، **بمعنى**: رمي الشياطين ومعارضتهم، فهي حصيات ولكنها تفعل فعل الجمرات الرادعة ضد الشياطين والمقاومة لهم، لذلك فهي من واجبات الحج. روح البيان٧/٤٧٤ مع الاختصار

١٠٧-١١٠-﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ، كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

١٠٧-(**وَفَدَيْنَاهُ**)ودفعنا عن ابنه إسماعيل (**بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**) كبش سمين الجسم، وجده إبراهيم مهيّأ بفعل ربه ليذبحه بدلاً من إسماعيل فداءً له، ومن هنا جاءت سنّة الضحيّة ومفهوم الفدية عن الإنسان، في عيد الأضحى وفي غيره، لدفع البلاء عن الإنسان، لينتفع منه الفقراء في العالم الإسلامي. **فائدة: الفداء في اللغة**: جعل الشيء مكان الشيء الآخر لدفع الضرر عنه، كالأسير يفدى بشيء لإطلاق سراحه، ١٠٨-(**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ**)وأبقينا له ذكراً حسناً وثناءً جميلاً ويكون قدوة حسنة بين الأمم والأجيال المتلاحقة، وأصبحت أعماله سنّة متّبعة في مراسيم الحج، أي أبقينا اسمه وسنته خالدين على مدى التاريخ، في كل الملل والنحل والمذاهب كقوله(**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**)النحل/١٢٠، فيكون بذاته أمة، وبفعله أمة، وبطموحه أمة، وهو أبو الأنبياء، وأبو هذه الأمة المسلمة كقوله (**فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**)آل عمران/٩٥، ١٠٩-(**سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**)وخصّه بالسلام الكريم والتحية الطيبة والأمان الخالص من ربه الله، وسلام من الملأ الأعلى ومن كافة الناس، باستمرار كقوله(**سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**) يس/٥٨، سلام معطّر بالرياحين، يُسجّل في كتابه المحفوظ الخالد، و(**سَلَامٌ**)اسم جليل ونبيل من أسماء الله الحسنى، فأفشوه بينكم، والسلام تحية أهل الجنة، ١١٠-(**كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**) نجزيهم باختيارهم بنوع من البلاء المتناسب مع الطباع، لأن (**البلاء على قدر الطباع**) ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء، ونجزيهم بأقدارهم ومقدار صبرهم على الأداء، ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء على إحسانه، لنرفع مقامه ونجعل منه قدوة حسنة للناس، ونقربه عندنا ونريه أفاق وملكوت السماوات والأرض كقوله (**وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**) الأنعام/٧٥، **فائدة**: فيكون الكبش في الآخرة على صورة الموت يذبح على الصراط، فيلقى به في النار بشارة لأهل الجنة بالخلود، وتأنيباً لأهل النار بالعقوبة الدائمة، فكيف يُضحّي الإنسان بعمره المحدود في الدنيا، ويخسر عمره الممدود اللا محدود في الآخرة؟!

١١١-١١٣-﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ، وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾

١١١-(**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**)هو تعليل لهذا الإحسان العظيم في الآية السابقة، وأن الإيمان الصادق بالله هو الذي ربّاه هذه التربية، ورفعه إلى هذا المقام المحمود، فمن أراد الإحسان فعليه بالإيمان، ومن أراد المحسنين فليكن من عباد الله المؤمنين الصالحين، تلك هي حقيقة إبراهيم الصافية كقوله(**وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**)الأنعام/٧٥، ١١٢-(**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ**)ثم يتجلّى عليه ربه بفضله مرة أخرى ويمنُّ عليه بنعمته، وهي بشارة ثانية فيهب له إسحاق في شيخوخته ومن ورائه حفيده يعقوب، جزاء على نجاحه في الامتحان الشديد، وإقدامه على تنفيذ أمر الله على ذبح ولده الوحيد إسماعيل آنذاك (**نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**) من جملة الأنبياء المرسلين الصالحين المستعدّين لقبول الفيض الإلهي الخاص، والمؤهّلين إلى كشف الأسرار، والتنسيق مع الأقدار، فيرى العجائب التي هي فوق المرئيات والمحسوسات! (**نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**) ذكر الصلاح بعد النبوة تعظيم لشأنه، وإشارة إلى أن الشخصية الصالحة (النافعة) هي الغاية التي تريد أن تحققها جميع الأنبياء، لأنها تحمل صفة الكمال والجمال! فهي درجة سامية تمنّاها حتى الأنبياء المعصومون كقوله(**وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**) النمل/١٩.

١١٣- (**وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ**) وأفضنا على إبراهيم وإسحاق فيوضات البركة، بركات الدين والدنيا والآخرة، **والبركة**: هي النمو والزيادة والامتداد والعطاء، في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله في ذريتهما ثلاث أمم كبيرة، أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل وأمة الروم من ذرية إسحاق، وجعل النبوة والكتاب في بعض ذريتهما (**وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ**) ومن أولادهما من هو محسن في عمله، وصادق في إيمانه، وصالح في أقواله وعادل في معاملاته (**وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ**)منحرف عن منهج الله، ومُسيء لنفسه بالكفر والظلم والعصيان (**مُبِينٌ**) واضح الظلم والإساءة لنفسه ولغيره، وأن وراثة هذه الذرية لهما ليست وراثة الدم والنسب فحسب، إنما هي وراثة الملة والدين القيم والخُلق والمنهج الصالح، فمن اتّبع وصدق فهو محسن، ومن انحرف فهو ظالم لنفسه، لا ينفعه نسب ولا حسب قريب أو بعيد. **فائدة: (محسن وظالم لنفسه) في الآية دلالة** على أن البِّر قد يلد مولود فاجر، ولا يلحقه من ذلك عيب ولا منقصة، والمرء يجازى عن عمله وغير مسؤول عن عمل غيره كقوله (**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**)فاطر/١٨، والنسب لا تأثير له في الصلاح والفساد والطاعة والعصيان، **في نهج البلاغة حكم٢٣** (وَمَن أبْطَأَ به عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ به نَسَبُهُ) وحَسَبُهُ.

١١٤-١١٦-﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ، وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ، وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾

لمحة هادفة من قصتهما المعبّرة ١١٤-(**وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ**)وأقسم وعزتنا وجلالنا لقد فضلنا وأنعمنا وأكرمنا على موسى وهارون بأنواع النعم العظيمة، والمنافع الدينية والدنيوية، وأهمّها نعمة النبوة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى المؤيد بالمعاجز والخوارق، ١١٥-(**وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**)من الغم الشديد، وهو استضعاف فرعون لهم واستخفافه بهم ١١٦-(**وَنَصَرْنَاهُمْ**)على فرعون الطاغية وقومه (**فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ**) القاهرين لفرعون وقومه بعد أن كانوا مقهورين لهم. **فائدة: (فلسفة التكرار لقصة موسى)**: قام القرآن على فلسفة التكرار لما هو أهم، ليلفت أنظارنا إلى الاتّعاظ بسيرة الماضين، ومن لم يتعظ بالماضيين صار عبرة للباقين، **في نهج البلاغة خطبة٨٦** (السّعيدُ مَنْ وعظ بغيره، والشّقي من انخدع لهواه وغروره) وتكرير قصة موسى (ع) لتشابه السنن التي تمر علينا مع السنن التي مرت عليهم، والتكرار يعلّم الشطّار، ويثير الانتباه ويحرّك المشاعر ويلفت الأنظار، لأن التكرار يأتي بأساليب متنوعة، ويركّز على بعض المواقف واللقطات المهمة التي لم تذكر في ما مضى كقوله(**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ**) النازعات/٢٤ كقوله (**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا**) الإسراء/٤١، **عن النبي(ص)** (كل ما كان في الأمم السالفة فإنه يكون في هذه الأمة مثله، حذو النّعل بالنّعل، والقذّة بالقذّة..) **وفي نهج البلاغة خطبة٣٢** (واتّعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتّعظ بكم مَن بعدكم) **والغرض من التكرار**: إقامة الحجة على الناس، وأن الله يرصد عباده كقوله (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)الإسراء/٦٠، وترقيق قلوب الناس وتخويفهم وحثهم على الالتزام بمنهج الله عزوجل.

١١٧-١١٩-﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ، وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾

١١٧-(**وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ**) **المستبين**: في غاية الظهور وتمام الوضوح، أي وأعطيناهما الكتاب البليغ في بيانه، الكامل في حدوده وأحكامه، الجليل في مواعظه ومنافعه، الجميل في خطابه وأسلوبه وتوجيهه، فهو يميّز الحلال عن الحرام، والمبيّن لكل ما يحتاجه الناس في دنياهم وآخرتهم وهو (التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ)المائدة/٤٤، وفي التوراة إظهار للأمور الخفّية، وتعالج أحوال الناس المتنوعة، لتفتح لهم آفاق المعرفة المتوازنة بين مطالب الروح والجسد، والحياة والموت، والدنيا والآخرة، والأمل والعمل، ١١٨-(**وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**) وهديناهما الآفاق المتحركة في خط الاستقامة الواسع، من دون هفوات الخلل ومزالق الانحراف، والصراط هو الطريق المستقيم الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وهو أقصر الطرق الموصلة إلى الحق ومعرفة الحقيقة، والموصلة إلى رضوان الله، الطريق الذي لا يضل سالكه، وهو (**الإسلام**) دين الله القيم الذي فيه السّلامة والاستقامة والكرامة بلا أية ملامة ولا ندامة، والإسلام دعا إليه جميع الأنبياء وهو (الإسلام العام) بمعنى التسليم لمنهج الله (**والإسلام الخاص**) الدين الخاتم الكامل

في ذاته والمكمل لغيره، الذي جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين، وفيه تبيان لكل شيء، وتفصيل لكل شيء كقوله(**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**)آل عمران/١٩، **في نهج البلاغة خطبة ١٩٨** (إِنَّ هَذَا اَلْإِسْلاَمَ دِينُ اَللَّهِ اَلَّذِي اِصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ وَ اِصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ). ١١٩-(**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ**) وأبقينا لهما ذكراً جليلاً وثناءً جميلاً يجري على لسان الأمم المتعاقبة، نتيجة ما تحركا به من خط الدعوة إلى الله وتحّمل المعاناة في سبيله، ليبقى للبشرية منهما ما تنتفع به عندما تذكرهما بالسلام والإكرام والاحترام والاقتداء.

١٢٠-١٢٢-﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

١٢٠-(**سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ**)

سلام جليل مملوء بالوقار، وتحية طيبة تفوح بالاحترام من الله العزيز، ومن عباده المؤمنين، على موسى وهارون، ١٢١-(**إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**) وقد كافأناهما بكل ذلك، وأننا كذلك نكافئ المحسنين الذين يصدر منهم الحسن الجميل بأقوالهم وأفعالهم، وتكشف الآية عن سنة جارية فاعلة، إنه من يريد أن تشمله العناية الإلهية، عليه أن يكون من المحسنين النافعين للناس ويدخل في حصنهم الحصين، لكي يتأهّل لإغداق البركات الإلهية عليه.

الإحسان: له معنى حركي واسع الدلالة، هو حبّ العمل النافع بأنواع الصالحات التي تنهض بالشعوب إلى المستوى الحضاري اللّائق المتألّق، ثم الجهاد ومقاومة كافة أشكال الفساد وأنواع الضلال بالقدر الممكن، وقاعدة الإحسان الإيمان الخالص والعبودية الصادقة التي تؤهلهم للإخلاص، فيشملهم الله بالسلام والإكرام والاحترام كقوله(**وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**..)القصص/٧٧، **في غرر الحكم** (أحَقُّ النّاسِ بالإحْسانِ مَن أحْسَنَ اللّهُ إلَيهِ، و بَسَطَ بالقُدْرَةِ يَدَيهِ) ١٢٢- (**إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**) وكانا من المحسنين لأنهما من عبادنا المؤمنين، الّلذين التزما بمنهج الله بصدق في جميع الأحوال كقوله(**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ**) النساء/١٢٥ والذين يحملون الإيمان كمصاديق عملية في تعاملاتهم كعنوان لعبوديتهم لله سبحانه، وعلى قدر العبودية تكون الرحمة ويكون رضا الله، **في غرر الحكم** (مَن قامَ بِشَرائطِ العُبودِيَّةِ اُهِّلَ لِلعِتقِ)ومن قصّر عن أصول العبودية أعيد إلى الرق!

١٢٣-١٢٥-﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾

١٢٣-(**وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**)

لمحة قصيرة هادفة معبّرة ذات دلالات، وبسياق بلاغي قرآني فني فريد مع الآية (**سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ**)١٣٠، فقد روعيت الفاصلة وإيقاعها الموسيقي المؤثر في تحريك مشاعر النفس وإحياء الضمائر، وإرجاع اسم (**إلياس**) بصيغة (**إل ياسين**) إنه إلفات نظر نموذجي، على طريقة القرآن الكريم في ملاحظة حركة تناسق الإيقاع في سياق التعبير القرآني الفني المميز المؤثر (**إِنَّ**

إِلْيَاسَ) أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو إلياس بن ياسين، ويرجع نسبه إلى هارون أخي موسى، **(لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ)** هو من الرسل الكرام الذين أرسلهم الله لهداية الناس، وقد أدّى أمانة التبليغ بكل كفاءة وإن لم يصل إلى أهدافه المرسومة، لأن النتائج ليست بيده، لكنه نجح في رسالته لأنه أدّى بلاغه المبين كقوله**(فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)**النحل/٣٥، وقد أثنى الله عليه بقوله**(وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ)**الأنعام/٨٥، ١٢٤-**(إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ)** **والتقوى**: من وقى، جعل النفس في وقاية وحذر مما يخاف أن يرتكب الإثم كقوله **(وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ)**البقرة/٢٨١، **في غرر الحكم (التَّقْوَى**: مُنْتَهَى رِضَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ وَحَاجَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ)وقد اشترك جميع الأنبياء والمرسلين في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته والالتزام بمنهجه، وقد استنكر كل الرسل الكرام عبادة أقوامهم للأصنام، سواء أكانت أصناماً حجرية أم أصناماً فكرية أم بشرية أم مالية.

١٢٥-(**أَتَدْعُونَ بَعْلًا)** أتعبدون **(بَعْلًا)**وهو صنم من ذهب مصنوع لا حياة فيه ولا يتكلم ولا يضر ولا ينفع ولا يخلق.. وهذا من أعظم الضلال والسفه والحمق! إنه كان في مدينة بعلبك في لبنان، التي اشتق اسمها من وجود **(بَعْل)** اسم ذلك الصنم في معبد البلد، (بك) تعني مدينة، فتكون بعلبك**(وَتَذَرُونَ)** وتتركون الله ربكم **(أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)** أحسن خلق المخلوقات وأحسنَ تقديرها وتدبيرها، وأتقن صنعها وجمالها وكمالها فهو أحسن الصانعين والموجدين كقوله **(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)**السجدة/٧.

فائدة: (أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) ليس هناك من يخلق سوى الله تعالى، والإنسان عاجز أن يخلق ذبابة أو شعرة في جسم الإنسان أو خلية مجهرية حية، فهو عاجز أن يحمي حياته من آفة الموت، والخلق هنا بمعنى الصنع والاختراع، فيكون هو سبحانه أحسن المبدعين واتقن الصانعين كقوله**(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)** النمل/٨٨ **(أَحْسَنَ)**هنا ليست للتفضيل كقوله**(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)** المؤمنون/١٤، وإنما هي للحسن المطلق في خلق الله، الحسن في حياته وفي تصويره وفي جماله وكماله ودوره في الحياة كقوله**(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)**التين/٤ وفي أعقد تركيب، وفضّله أحسن تفضيل، وكرّمه أحسن تكريم كقوله**(هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ)** لقمان/١١ وقوله(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) الرعد/١٦، **عن النبي(ص)** (إن الله خلق آدم فتجلّى فيه)روح البيان٥/٣٦٧، ليتعرّف الإنسان على عظمة المخلوقات ليستدل بها على عظمة خالقها، **عن الإمام علي**(ع) (بِصُنعِ الله يُستَدَلّ عليه، وبالعقول يُعتَقَد معرفتُه، وبالفطرة تَثْبُت حُجّتُه) التوحيدص٣٥

١٢٦-١٢٨-﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

١٢٦-(**اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**)
الله خالقكم ومربيكم وخالق من مضى من آبائكم وأجدادكم، ورازقكم ورازقهم، ومالككم والمستجيب دعواتكم كقوله(**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**) النحل/٥٣، منه البداية وإليه النهاية، فهو أولى بالعبادة وأحقّ بالطاعة، ١٢٧- (**فَكَذَّبُوهُ**) فكذّبوا نبيّهم إلياس، قال الله متوعداً لهم (**فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ**) مكرهين للحساب ومرغمين على العذاب الذي لا خلاص منه، ولنذيقنّهم جزاء المكذبين، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية عاجلة أو آجلة، ١٢٨-(**إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**) استثناء متصل، أي لكن عباد الله المؤمنين الصالحين الذين صدّقوا دعوة إلياس نبيّهم إلى قومه، (والنجاة في الصدق) والخلاص بالإخلاص، عن النبي (ص) (طوبى للمخلصين، أُولئك مصابيح الهدى، تنجلي عنهم كلَّ فتنة ظلماء) الدر المنثور٢/٢٣٧ فإنهم نجوا من العذاب، ولهم من الله جزيل الثواب **فائدة:** (**الْمُخْلَصِينَ**) الذين أخلصوا لله الإيمان والعبادة، وصدقوا العبودية لله، وجاهدوا في سبيل الله والتعريف بدينه (كل إنسان بقدره ومقداره) وعملوا أنواع الصالحات، التي تعمل نهضة حضارية للمجتمع لينالوا رضا الله، وليهتدوا عباده، فجعلهم يستحقّون الذكر الحسن، والسّلام والإكرام والاحترام، مع حركة تداول الأيام.

١٢٩-١٣٢-﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ، سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ، إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾

١٢٩- (**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ**) وتركنا على إلياس ذكراً جميلاً وثناءً طيباً يجري (**فِي الْآخِرِينَ**)على لسان الأمم المتأخرة وإلى يوم الدين، من أجل تقدير جهاده ومعاناته، وحفظ دعوة التوحيد الخالص ونور الإيمان الصادق، ١٣٠- (**سَلَامٌ**) جليل من الله ومن عباده الصالحين (**عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ**) سلام على إلياس، **وفي اللغة العربية:** إل ياسين، وإلياس، لغتان في اسم واحد، مثل طور سينين وطور سيناء، وقيل أن له اسمين (إلياس) و (إل ياسين) لهما معنى واحد و(**إل ياسين**) بصيغة الجمع، يراد هو ومن تبعه من المؤمنين، وجمعوا معه تغليباً. وجاء في الدرر المنثور للسيوطي عن ابن عباس في (سلام على إل ياسين) نحن آل مُحمَّد(ص)، أي تقرأ آل ياسين وإنها تعني عائلة نبينا الكريم مُحمَّد(ص)، وأحد أسماء نبيّنا مُحمَّد(ص) هو ياسين.١٣١-(**إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**) وتقدم ذكراه ١٢١، ١٣٢- (**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ**)وتقدم ذكره١٢٢، **ونقول:** إنما ختم الآيات بعد ذكر كل رسول بالسلام عليه، وبهاتين الآيتين الكريمتين لبيان فضل الإحسان وقيمة إيمان المؤمنين، وأن هؤلاء الرسل الكرام(ع) كانوا جميعاً من المتّصفين بهذه الصفات النموذجية المميزة، مع كونهم يعيشون في مجتمعات جاهلية وثنية فاسدة ! فلذلك استحقّوا التحية الطيّبة والسلام والإكرام والاحترام، والذكر الحسن بين الأنام.

١٣٣-١٣٦-﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾

لمحة هادفة عن قصة لوط (ع)

١٣٣- (**وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ**) لوط بن هارون ابن أخي إبراهيم(ع) وقد أرسله الله رسولاً مسدداً ومؤيداً داعياً إلى طاعة الله وتوحيده، ونهيهم عن فعل الفاحشة القذرة الشاذة، فهم قوم خبثاء

فاسدون ساقطون، أما نبي الله لوط(ع)يملك الموقف الرسالي الثابت على المبادئ والمرن في التعامل، ويتميّز بالقلب الكبير والصبر القوي، فصمَد رغم ما كان يعانيه من انحراف قومه ورفضهم لدعوته الطاهرة العفيفة، وتهديدهم له فكان في موقف خطر! ١٣٤-(**إِذْ نَجَّيْنَاهُ**) إذ خلّصناه (**وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ**) وهم من آمن وتضامن معه من قومه، من عذاب الاستئصال، وتطهير الأرض من شرّهم!

فائدة: مما يلفت النظر: أن القرآن خَصّ (**أَهْلَهُ**) من الناجين من العذاب، وهم الذين آمنوا به وأيّدوه ونصروه في رسالته، وإن كانوا الأبعد نسباً، والأقلّ عدداً، ولكنهم الأكثر وفاءً، أما زوجته العجوز الخائنة الناشزة، لم تكن من (**أَهْلِهِ**) وشملها العذاب بقوله (**إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ**) فما ينفع النسب الطاهر مع الخيانة! وما يستفيد الخسيس في معاشرته مع النفيس! كقوله(**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ**)هود/٨٢، ١٣٥-(**إِلَّا عَجُوزًا**)أي استثنى امرأته الكافرة اللئيمة الخائنة المتعاونة مع الفجّار **العجوز**! أي العاجزة عن فعل الكثير من الأمور لكبر سنها وشيخوختها، ومع ذلك كانت تتعاون مع فجّار قومها ضد دعوة زوجها الطاهرة العفيفة الشريفة!

فإنها (**فِي الْغَابِرِينَ**) في الباقين مع العذاب مع المعذّبين، لرضاها بفعلهم وإعانتها للمفسدين على زوجها ودعوته وإصلاحه، فالراضي بالفساد والعامل به والساكت عنه والمساعد عليه والحاضن له شركاء في الفساد، فخانت زوجها في رسالته، (خيانة عقيدة) وليست خيانة زوجية كقوله(**فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ**)الفتح/١٠، **نكث**: نقض عهد الوفاء في حماية السكن الزوجي المتبادل والمتعادل، فلم يغن عنها موقعها الزوجي من الرسول المعصوم شيئاً. فلم ينتفع الخسيس من النفيس، ولم يؤثر النفيس بإصلاح الخسيس، فكيف بقيا زوجين يعيشان معاً وهما متنافران متضادان، ولم يفترقا؟! حقاً إنه درس تربوي عالي المضامين جدير بالبحث والتأمل كقوله (**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**)التحريم/١٠، ١٣٦- (**ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ**) ثم أهلكنا المكذّبين من قومه أشدَّ الإهلاك، وذلك بقلب قراهم فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم مطر السوء، حجارة كالرصاصة من سجيل منضود.

١٣٧-١٤٠-﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾

١٣٧-(**وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ**)وإنكم يا أهل مكة لتمرون في الصباح في أسفاركم على آثار التدمير في بيوتهم وقراهم، وفي ذهابكم وإيابكم، ولا تستيقظ قلوبكم ولا تتحرك مشاعركم لكثرة ذنوبكم كقوله (**بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**)المطففين/١٤، قرى قوم لوط تقع على أطراف البحر الميت، ١٣٨-(**وَبِاللَّيْلِ**)وتمرون بالليل أيضاً، أي تمرون عليهم ليلاً ونهاراً وفي كل الأوقات، فلم تقبل الشك والشبهة (**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**) أفلا تتفكرون في سوء عاقبتهم فتعتبروا بهم إذا بقيتم معاندين على الكفر؟ كقوله (**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**)الأعراف/٩٩ (والذي لا

يتعظ بالماضين، كان عِبرة للباقين) **في نهج البلاغة خطبة٨٦** (السّعيدَ مَنْ وَعُظَ بَغيرِهِ، والشقي من انخدع لهواه وغروره)

لمحة هادفة عن قصة يونس.

١٣٩-(**وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**) وهذا ثناء من الله تعالى على عبده ورسوله يونس بن متّى في دعوته إلى الله. بعثه الله إلى أهل نينوى في بلاد الموصل في العراق وبقي معهم مدة طويلة، وقام بدوره الرسالي كما يجب، وكانت نينوى عاصمة الآشوريين وإن أهلها كانوا يعبدون (الإله عشتار) ولكن القرآن لا يذكر أين كان قوم يونس، ليس المهم معرفة زمان ومكان القصة، بقدر معرفة ما هو أهم، **في غرر الحكم** (من اشتغل بغير المهم ضيّع الأهم) والأهم أن نعلم أهداف القصة، ونحلّ التلابس الذي يطرأ عليها، وكيف نحفظ عصمة يونس النبي(ع) عن الخطأ، مع فراره مغاضباً من قومه المكذبين لدعوته، ولماذا ابتلعه الحوت؟ وفي مجمل القصة أن كل ما حدث منه لا ينافي عصمته ولا يطعن في منزلته كرسول الله كقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/١٢٤ ١٤٠-(**إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ**) (**إِذْ أَبَقَ**) إذ هرب وفرَّ من قومه مغاضباً، وضاق صدره بتكذيب قومه ومعارضتهم له، فأنذرهم بعذاب قريب، ولكن كلمة (**أَبَقَ**) **جاءت صفة ليونس**(ع) حقاً إنها كلمة عجيبة غريبة! إذ تبيّن أن أقل خطأ في العمل الرسالي هو ترك العمل بالأولى والأهم، وتصرّف من دون إذن من ربه الذي أرسله، وعدم التزود من إرشاداته وتوجيهاته، يؤدي إلى الندامة والملامة والعتب والخطأ الكبير، لأنه خروج عن حدود الاستقامة ومنزلة الكرامة ومنطلقات العبودية، ونبي الله يونس(ع) معصوم بذاته عن الخطأ ومعصوم بالوحي، فهو أدّى واجبه الرسالي، وقد أثنى الله عليه في أول القصة، ولم يشر الله أنه قصّر في مسؤوليته، ولكن هروبه من تكليفه من دون إذن من ربه الرحيم به ومسدده ومؤيّده، هو نوع من هروب غير مدروس، فهو تعدّ الحدود مع ربه كقوله (**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**)الطلاق/١.

وهذا معنى كلمة (**أبق**) أي عصى العبد مولاه، فتليق به هذه الكلمة الغليظة العنيفة المثيرة للانتباه، بحيث شبّه خروجه بغير إذن ربه بـ (**الآبق**) أي العبد الذي هرب من سيده وتمرّد على مولاه وهو الله عز وجل المنعم عليه، وقصّر في واجبه تجاه ربه الذي رباه وأكرمه وأيدّه، فيمكن أن يطلق عليه (**أبق**) مجازاً، وتصويراً لحاله المضطرب، وتشبيهاً لغضبه وفراره من قومه، **ولكن**: كيف يفرّ من قومه بغير إرشادات ربه؟ كيف يفرّ وهو القدوة الحسنة؟ وكيف يهرب من قومه وهو معصوم عن الخطأ؟ كيف يفر، ولماذا يفر؟ وإلى أين يفر؟ وأين يذهب والله محيط به وبكل شيء؟! كقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الاسراء/٦٠ إنه (ع) قدّر واقتنع أنه أدّى دوره وأنجز مهمته(والهِمّة على قدر المهمّة) فأخطأ في التقدير، وتسّرع في التدبير، بسبب غلبة غضبه عليه، **والغضب**: هو انفعال، والانفعال يأتي بردود أفعال، وعادة ردود الأفعال تأتي غير متوازنة وغير معقولة وغير مقبولة، وأيضاً تأتي بلا وعي ولا تفكّر، **في غرر الحكم** (**الغضب**: يردي صاحبه، ويبدي معايبه) ثم اعتقد أن مهمّته الرسالية قد انتهت، وبقاؤه مع قومه الكافرين لا مبرر له، ويئس من هدايتهم ووصل إلى الباب المسدود! كقوله

(وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ)الأنبياء/٨٧، راجع في معناها تفسير (وَعيُ القُرآنِ الْمُيَسَّر) قرر يونس(ع) مع اقتراح شخصين مؤمنين صالحين من قومه، الدعاء منهم، وجاءهم العذاب واقترب منهم، ورحل يونس عندئذ عن قومه، وكان عليه أن يصبر أكثر، **في غرر الحكم** (وبالصّبر تدرك الرّغائب) ويصل إلى معالي المنازل كقوله **(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ)**الأحقاف/٣٥، وكان عليه أن يتحّمل غصص قومه الكافرين قبل مغادرتهم، حتى يأخذ الإذن من ربه كقوله**(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)**آل عمران/١٣٤، **عن النبي(ص)** (مَا تَجَرَّعَ عَبْدٌ جَرْعَةً أَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ، يَكْظِمُهَا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ)كنز العمال خبر ٥٨١٩، ومثله في القرآن الكريم، حيث يخاطب الله نبيه المصطفى(ص) خاتم الرسل والأنبياء والأسوة الحسنة وصاحب الخلق العظيم والرحمة للعالمين يخاطبه بقوله**(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ، وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ)**الحاقة/٤٤-٤٨، **كأن هذه الآيات تقول:**

لو افترضنا فرضاً مُحالاً، وفرض المحال ليس بمحال:

لو افترى علينا هذا الرسول الكريم(ص) بعض الأقوال الكاذبة التي لم نأمره بقولها، لأخذناه من يده اليمنى إذلالاً، وقبضنا عليه كما يقبض على المجرم المتلبس بالجريمة! ثم لقتلناه أبشع قتلةٍ بقطع شريان الوتين منه، شريان الحياة، فما منكم من أحد يحجزنا أو يمنعنا من عقابه وقتله!! **وفي قصة يونس(ع) لدرس تربوي نموذجي مميز**، بالغ الأهمية للدعاة إلى الله والمبلّغين رسالته، ينبغي أن يتأمّلوه ويتدبّروه ويدرسوه ويأخذوه بجد ولا ينسوه كقوله **(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ)** القلم(ن)٤٨، وقوله (فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ) الأنبياء/٨٧، فظن وقدّر يونس(ع) أن لن نضّيق عليه ولم نعاقبه كقوله **(وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ)** الطلاق/٧، **قدر**:ضيّق، **يروى**: سأل معاوية ابن عباس، قال: أيظن نبي الله يونس أن لن يقدر الله عليه؟! فقال ابن عباس**(نقدر عليه)** هذا من القدر والمقدار والتقدير لا من القدرة والقوة، يعني قدّر يونس في نفسه أنه أتم مسؤوليته تجاه قومه الذين كذّبوه وقاوموه، وقد انتهى دوره الرسالي وألقى الحجة الكافية الوافية على قومه الذي كلفه الله بها، لكنه لم يرجع إلى إرشادات ربه ليستأذنه في تركه لقومه، فأساء التقدير وأخطأ التدبير وتسّرع في الفرار والتبس عليه القرار الصحيح، بسبب انفعاله وغضبه **(وآلة القيادة سعة الصدر)** فقاده الغضب إلى شاطئ البحر **(إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ)**إلى السفينة الثقيلة المشحونة بالمسافرين والأمتعة، فصعد في السفينة مع الناس، من دون أي تمييز في منزلة شخصيته بينهم.

١٤١-١٤٤ ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

١٤١-**(فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ) فساهم:** فاقترع أو اشترك في القرعة، **المدحضين**: المغلوبين.

المعنى: وفجأة عرض لسفينتهم حوت كبيرة مخيفة جائعة، عرقلت سير السفينة! فكان المطلوب أن يقدّم شخصاً من الركّاب نفسه فداءً من في السفينة، ليبتلعه، فيذهب الحوت بعيداً عن السفينة فلا

يهاجمها فيغرقها (**فَسَاهَمَ**) فاقترعوا وشارك يونس في الاقتراع، حيث كتبوا اسم كل راكب على سهم ثم خلطوا الأسهم وسحبوا بعضها (**فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ**) فكان يونس من المغلوبين، وخرج اسمه في القرعة، وكان معروفاً عندهم بالصلاح، فأعادوا الاقتراع وعادت النتيجة نفسها، فقال: أنا الآبق، أنا التارك لقومي، ورمى بنفسه في البحر! وإذا أراد الله شيئاً هيّأ أسبابه، ١٤٢- (**فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ**) فابتلعه الحوت ابتلاع اللّقمة، وهو حوت خاص من جنود الله مرصود لهذه الغاية، هو ابتلاع يونس! كقوله (**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**)الفتح/٧ (**وَهُوَ مُلِيمٌ**)وهو مستحق الملامة والندامة والعتب من نفسه على نفسه، وعلى الذي فعله ما يلام عليه من **هجره** قومه بغير إذن من ربه، إنه لوم عتاب شديد اللهجة، لا لوم عقاب مديد ولا عذاب أليم، مما يجعل القضية في حجم المعجزة وكرامة الله له ولطفه به كقوله (**فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**)الأنبياء/٨٧.

١٤٣- (**فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ**)من الذاكرين لله تعالى كثيراً، حتى صار التسبيح وصفاً لحاله قبل التقام الحوت، وفي بطنه، وكان (ع) كثير الصلاة والذكر والدعاء في الرخاء والشدة، **عن النبي**(ص) (تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) بما يمثله هذا التسبيح من عمق العبودية في نفسه لله ربه والطاعة والانقياد له طوعاً لا كرهاً، كقوله(**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**)النحل/١٢٨، مما يجعله الله تعالى في موضع أن يفتح عليه أبواب رحمته ومنافذ إحسانه، ١٤٤-(**لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**) ولو لم يكن من المسبّحين لأبقيناه في بطن الحوت، فتكون سجنه ومقبرته حيّاً أو ميّتاً! (**إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**)إلى يوم حشره ونشره وهذا وارد على سبيل الكناية والمجاز والتشبيه، **عن النبي** (ص) (من مات فقد قامت قيامته) روح البيان٣/٢٢، وعنه (ص) (يُبْعَثُ المرء عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ) كنز العمال خبر٤٢٧٢٢، اعترف يونس(ع)أنه كان من الظالمين لنفسه كقوله(**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) البقرة/٢٢٩، بتسرعه الخاطئ وقراره السريع غير المدروس في مغادرة قومه قبل الإذن من ربه! **فائدة:** في هذه الآية الكريمة دلالة على أن الدعاء سلاح المؤمن، ويرد البلاء، ويخفف العناء ويغير القضاء ولو أُبْرِمَ إبراماً، ولا سيما إذا كان الدعاء بانقطاع وتلّهف واضطرار واستغاثة كقوله(**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**)النمل/٦٢، المضطر في لحظات الضيق لا يجد له ملجأ إلاّ الله، حين تضيق أسباب الأرض به، في وقت لا منجى ولا مأوى ولا خلاص إلاّ بالإخلاص والانقطاع الكامل لله، بحيث تنتفض كل أعضائه ومشاعره متضرعة لله تعالى، الذي يملك النجدة والقوة والقدرة كقوله (**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**)الفرقان/٧٧

١٤٥-١٤٨ -﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ، وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ، وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

١٤٥-(**فَنَبَذْنَاهُ**) استجاب الله سبحانه دعاء يونس، فأمرنا الحوت أن يلقيه (**بِالْعَرَاءِ**) في الأرض العراء الخالية من النباتات والأشجار على ساحل البحر، حيث لا ظل فيها يستظل به، **النبذ:** إلقاء

الشيء وطرحه لقلة الاعتناء به! كقوله(**فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ**)آل عمران/١٨٧، فرموا عهدهم خلفهم ولم يبالوا به (**وَهُوَ سَقِيمٌ**)وهو ضعيف عليل كالفرخ بلا ريش الخارج من البيضة، من شدة ما لقي في بطن الحوت، وكأن الله أوحى إلى الحوت أن إجعل بطنه وعاءً حافظاً وتأديباً له! ولم يجعله طعاماً للحوت، فلذلك بقي سالماً طيلة بقائه في بطنه ولم يتغير منه شيء كقوله(**لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ**)القلم(ن)٤٩-٥٠، ١٤٦-(**وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ**)ثم بيّن لطف الله بنبيه يونس ورعايته له، وأنبتنا عليه شجرة (**مِّن يَقْطِينٍ**)وهو كل نبات لا ساق له، وله أوراق كبيرة، وهي شجرة القرع، وقيل شجرة الطلع وهو الموز الذي يأكل من ثمره المفيد، ويستظل بأوراقها العريضة والرطبة، فلا يتأذّى من حرارة الشمس، والذباب لا يقربه، والحشرات لا تأتيه، وكان جسمه الضعيف لا يتحمل الذباب والحشرات.

١٤٧- (**وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ**) وأمر الله تعالى يونس(ع) بالرجوع إلى قومه المستغفرين التائبين، وهم يومئذ مئة وعشرين ألفاً، فدعاهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن (**أَوْ يَزِيدُونَ**) إنهم في زيادة ولادات وقلة وفيّات، ١٤٨- (**فَآمَنُوا**) بدعوته وقبلوا رسالته وأجابوه، وفرحوا بقدومه وهو فرح بإيمانهم واستقامتهم! (**فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**) فمتّعناهم بالحياة وباللذات والمنافع الدنيوية الكثيرة، إلى أن جاء أجلهم الطبيعي المحتوم كقوله (**فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**)يونس/٩٨، **فائدة:** ١-لم يبيّن القرآن مم أبق ولماذا، ولم يذكر مدة لبثه في بطن الحوت، فبقاؤه حياً في بطن الحوت ولو مدة قصيرة من الزمن يعتبر معجزة خارقة، ٢-بعدما ترك يونس قومه، وظهرت لهم علامات نزول العذاب، فلجؤوا للإنسان العالم الذي آمن بيونس(ع) وصاحبه وكان لا يزال موجوداً في المدينة، فأمرهم بالدعاء والتضرّع والاستغفار والتوبة النصوح، وفرّقوا بين المرأة وطفلها، وبين الحيوانات وأطفالها، وندموا على ما صدر منهم ولاموا أنفسهم، واستغفروا الله، فكشف الله عنهم العذاب، العذاب ليس مطلوباً لذاته وإنما مطلوباً لغيره، مطلوباً للتأديب وبالحق وليس للانتقام والتشفّي.

١٤٩-١٥٢-﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ، أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ، أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ، وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾

١٤٩- (**فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ**) أمر الله سبحانه أن يحاجج المشركين ويرد عليهم (ومن فمك أُدينك) ولكن يجادلهم بمنطقهم وعلى تقاليد بيئتهم الجاهلية، ليروا مدى تهافت الأسطورة حتى بمقاييسهم الساذجة الشائعة المألوفة (**فَاسْتَفْتِهِمْ**) أي فاسأل يا مُحَّد كفّار مكة على سبيل التوبيخ والتقريع (**أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ**) ما الوجه في إضافتكم البنات إلى الله، واختياركم البنين لأنفسكم؟! كان مشركو العرب يحبون البنين ويكرهون البنات! وفي نفس الوقت كانوا يعبدون الملائكة باعتبارهم بنات الله! ١٥٠- (**أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ**) الاستفهام للتوبيخ مرة أخرى للاستهزاء بهم، من أين جاءهم العلم بأن الملائكة إناث؟! وهل شهدوا خلقهم فعرفوا

جنسهم؟!(**وَهُمْ شَاهِدُونَ**)وهل هم حاضرون أثناء خلقهم؟! إنها تصّورات ظنية جاهلية، وتخيلات متخلّفة وساذجة بلا دليل عن الملائكة والجن وانتسابهم إلى الله، ١٥١-(**أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ) إفكهم:** كذبهم، أي ألا إنهم من كذبهم وافترائهم بلا علم ولا دليل ولا برهان (**لَيَقُولُونَ**، ١٢٥-**وَلَدَ اللَّهُ**) ينسبون إلى الله الذرية والولد ليعطوه صفة البشر له جسم وحدود ومادة! (**إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**) قطعاً في ما ينسبونه إلى الله، وقد تعالى الله وتسامى عما يقوله الجاهلون.

١٥٣-١٥٥-﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

١٥٣- (**أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ**) ليس الأمر كما يدّعون، فكيف اصطفى أي اختار الله تعالى لنفسه البنات من هو أدنى، كما يزعمون، على البنين من هو أعلى مع كونه خالقاً ومالكاً للجميع، حكيماً في تقديره وتدبيره؟! وفيه توبيخ وتقريع، ١٥٤- (**مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**) ماذا أصابكم، وبأي برهان تقضون هذا القضاء الجائر بما لا يقبله عقل، وفيه تسفيه لهم وتجهيل وسذاجة؟ ١٥٥- (**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**) أفلا تتذكرون وتتنبهون ببديهة العقل، فتتعظوا بأنه سبحانه منزّه عن مثل هذا القول؟ أفلا تميزون هذا القول الباطل الجائر؟

١٥٦-١٥٨-﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ، فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾

١٥٦-(**أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ**) توبيخ آخر، وهو إنكار في صورة استفهام، أي هل عندكم (**سُلْطَانٌ**) دليل وبرهان وحجة وبيان قاطع يُنهي الجدال (**مُّبِينٌ**) واضح، من كتاب سماوي صحيح أُنزل عليكم يؤيّد ما تدّعون أن الملائكة بنات الله؟! ١٥٧-(**فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ**)الذي أُنزل إليكم(**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**)الذي يشهد بصحة دعواكم في ما تزعمون، والغرض تعجيزهم وبيان أنهم لا يستندون على دليل شرعي ولا منطق عقلي، والدليل الذي طلبه الله منهم هو الدليل العقلي وليس دليل السمع والعرف، فإن من يقول قولاً لا يقيم عليه حجته العقلية وبرهانه العلمي فإنه متعمّد الكذب، والكذب شرّ الأقوال وأكبر خيانة لأنه طعن للصدق، وتشويش للحقيقة، وبذلك يؤكد القرآن على تثبيت العقيدة على البرهان العقلي والدليل العلمي كقوله (**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**)البقرة/١١١، فلا مجال لعقيدة مبنية على الظن والوهم، وحجتها العرف الاجتماعي المألوف! ١٥٨-(**وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا**) **نسباً:** قرابة، وهذه اسطورة أخرى، اسطورة الصلة والنسب والقرابة بين الله سبحانه وبين الجن، على أنهم أولاده والملائكة بناته، ولا يمكن لله أن يعذب أولاده؟ تعالى الله وتسامى عما يقول الظالمون علواً كبيراً (**وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ**)فإن الجن يعلمون أنهم محضرون في يوم القيامة بإذن الله ليحاسبهم ويجازيهم بما عملوا، وهذا زيادة في تكذيبهم وتقريعهم، وما هكذا تكون معاملة النسب والقرابة!

١٥٩-١٦٣-﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ، إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ، فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ، مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ، إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾

١٥٩-(**سُبْحَانَ اللَّهِ**)نزّه الله تعالى نفسه المقدسة عما لا يليق بجنابه (**عَمَّا يَصِفُونَ**)مما وصفه به الكافرون، وينسبون إليه ما يجهلون، من الولد والنسب والشركة، فيصفون الخالق بصفة المخلوقين، ١٦٠-(**إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**)استثناء منقطع، من بين القائلين من الجن بما لا يليق بالله سبحانه، وقد كان في الجن مؤمنون صالحون كقوله(**وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ**)الجن/١١، **والمعنى**: لكن عباد الله المخلَصين من الإنس والجن يصفونه تعالى بما يليق بجلاله وكماله وجماله من أوصاف و(**الْمُخْلَصِينَ**) كقوله(**وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ**) النساء/١٤٦ وغاية الدين الإخلاص، **عن الإمام علي** (ع) (فِي الإِخَلاصِ يَكُونُ الخَلاَصُ) تنبيه الخواطر ص٣٩٠، الذين أخلصوا لله في أقوالهم وأفعالهم وكافة معاملاتهم، فأخلصهم الله لنفسه، وجعلهم عنده من المقربين، فلا يشاركه أحداً في منزلتهم إلا من هو مثلهم كقوله (**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ**) القمر/٥٥، فحببهم الله قربه وأنساهم غيره كقوله(**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**) الرحمن/٤٦، **كما يقول الإمام علي**(ع) (عَظُمَ الخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ) فإذا وصفوه في نفوسهم وصفوه بما يليق بساحة كبريائه،**كما في دعاء الصباح عن الإمام علي**(ع) (يا مَنْ دَلَّ عَلى ذاتِهِ بِذاتِهِ وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجانَسَةِ مَخْلُوقاتِهِ وَجَلَّ عَنْ مُلاءَمَةِ كَيْفِيّاتِهِ، يا مَنْ قَرُبَ مِنْ خَطَراتِ الظُّنُونِ وَبَعُدَ عَنْ لَحَظاتِ الْعُيُونِ وَعَلِمَ بِما كانَ قَبْلَ اَنْ يَكُونَ)، وإذا وصفوه بألسنتهم اعترفوا بقصور البيان **عن النبي(ص)** (لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك) ١٦١-(**فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ**) فإنكم أيها الكافرون وآلهة الضلال (**وَمَا تَعْبُدُونَ**)التي تعبدونها من الأصنام الحجرية أو الفكرية أو البشرية أو شياطين الجن أو كل الذين تدعوهم من دون الله، ١٦٢-(**مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ**) بمضلين ومفسدين، أي لا يستطيعون أبداً أن تضلّوا أحداً من عباد الله، وعن دين الله الأصيل، ولستم بقادرين على فتنة قلوب مؤمنين صالحين مطيعين لله، الذين حصّنهم إيمانهم وعلمهم المسدد ووعيهم المؤيد، فأدخلهم الله بحصنه الحصين الأمين المنيع، كقوله (**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**)محمد/١٧ ولا يستجيب لتضليلكم وفسادكم وعبادة ما تعبدونه من دون الله، إلاّ من هو مثلكم، وشبيه الشيء منجذب إليه، والطيور على أشكالها تقع كقوله (**وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ**)الأعراف/٢٠٢، وقوله(**وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**)فصلت/٢٥، ١٦٣-(**إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ**) إلاّ من خدعته الدنيا بغرورها ونفسه بخيانتها، وتعمّد عصيان الله وتجاوز حدوده، وانقاد مع هواه ومناه ووساوس الشيطان، وسلك طريق الضلال بعيداً عن منهج الرحمن كقوله(**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**)المجادلة/١٩، فللجحيم وقود من نوع معروف، طبيعته تؤهّلة أن يستجيب للفتنة المضلة، ويتفاعل مع الشبهة، ويستمع للفاتنين وينساق مع أصحاب الشبهات، كقوله(**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**) البقرة/٢٤

١٦٤-١٦٦ -﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾

١٦٤-(**وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ**)

هذا بيان لبراءة الملائكة (ع) عما قاله فيهم المشركون، ويصف الله الملائكة بقوله(**بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**) الأنبياء/٢٦-٢٧، أي (**وَمَا مِنَّا**)وليس لأحد منّا معشر الملائكة (**إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ**)إلاّ وله مرتبة ومنزلة في المعرفة والعلم وفي القدرة والقوة، وفي الوظيفة والمسؤولية لا يتعدّاها ولا يتجاوزها، ولكل واحد منا يعرف حدوده فيقف عندها، ويعرف عمله لا يتجاوزه ولا يُقصّر فيه، وله مسؤوليته لا يتعدّاها، فمنّا موكّل بالأرزاق، ومنّا موكّل بالآجال، ومنّا من ينزل الوحي، ومنّا من بيده الهواء والآخر الماء... إلخ، ولكل واحد منزلته في العبادة والتقريب والتشريف. لأن إظهارهم للعبودية تدل على تقديرهم للعبودية، وعلى قدر العبودية يكون القرب من رضا الله، **وفي غرر الحكم** (مَن قامَ بِشَرائِطِ العُبودِيَّةِ أُهِّلَ لِلعِتقِ) ومن قصّر عن أصول العبودية أعيد إلى الرق! للملائكة القدرة على الترقّي في العلم لا في العمل، فلا يترقّون بمراتب الأعمال والدرجات، أما الإنسان فله الترقّي في العلم والعمل والمنزلة كقوله(**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**)الجاثية/١٥، ١٦٥-(**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ**)المصطفّون صفوفاً منظّمة دائمة في حضرة مقام الله عز وجل، للعبودية والطاعة ومواطن الخدمة، منتظرين أوامره سبحانه في تدبير العالم والكون والكائنات لنجريها على ما يريد، وأيضاً مصطفّون للصلاة وهي أعظم مصاديق الطاعة والخضوع لمنهج الله ومنازل خدمته، **قيل**: إنّ المسلمين إنما اصطفّوا في صلاة الجماعة والجمعة على ضوء هذه الآية، وأن النبي الكريم(ص) أول من صلّى جماعة فاصطفّ المؤمنون صفوفاً منتظمة وصلى بهم، وليس يصطف أحد من أهل الملل في صلاتهم غير المسلمين، ١٦٦-(**وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ**) المسبحون بحمد الله، والمقدسون لجلاله وعظمته، المنزّهون الحقيقيون لله تعالى دائماً، عن كل ما لا يليق بمقام عظمته كقوله(**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**)الأنبياء/٢٠، فيشترك تسبيحهم مع يسبيح الكون والكائنات، فيكونوا في وحدة واحدة موحّدة متّحدة.

١٦٧ – ١٧٠ –﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ، لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ، لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ، فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

١٦٧-(**وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ**) عاد الكلام عن المشركين الذين يطلقون الأساطير والأكاذيب، فيعرض عهودهم ووعودهم يوم كانوا يحسدون أهل الكتاب، أي إن كفّار مكة(**كَانُوا لَيَقُولُونَ**) قبل بعثتك المباركة يا مُحَمَّد(ص) من باب التبرير لواقعهم، والمدح لأنفسهم، ١٦٨- (**لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ**)لو كنا نملك (**ذِكْرًا**)كتاباً سماوياً أصيلاً من كتب الأولين، التي أنزلها الله على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزبور، لكنا أعظم إيماناً منهم، وأكثر عبادة وإخلاصاً لله منهم، وبذلك يستخلصنا الله من أجلها ويصطفينا، ١٦٩-(**لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ**) لاهتدينا والتزمنا بمنهج الله ولم نشرك به شيئاً وكنا عباد الله المخلَصين، ولما جاءهم الرسول مُحَمَّد(ص) بالقرآن الكريم أشرف الكتب السماوية، ومهيمن على سائر الكتب السابقة واللاحقة ١٧٠-(**فَكَفَرُوا بِهِ**)ولم يفوا بما قالوا، وأصرّوا على عنادهم وجحودهم، بل أعلنوا عليه العداء، وتآمروا عليه من كل مكان، وشنّوا الحروب عليه(**فَسَوْفَ**

يَعْلَمُونَ)عاقبة كفرهم بآيات الله، وسوف يذوقون العذاب الأليم عندما يحين وقته، إنه تهديد خفي مخيف، وهو اللائق بالكفّار، بعد التمنّي الكاذب، والوعد الخادع.

١٧١-١٧٣-﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾

١٧١-(**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)**

مقدمة:يصّور القرآن الكريم النتيجة النهائية لحركة الرسل والرسالات في بُعدهما الأزلي، ويكشف الله تعالى عن سننه الثابتة في حركة التاريخ بين الرسل المبلغين عن الله وأقوامهم الضالين، ويكشف القرآن الكريم عن حقيقة حضارية قطعية بين صراع الحق والباطل، والخير والشر، وأن للباطل جولة ومهلة وإن طالت، ولكن للحق دولة مستقلة، وبهذا الوعد الصادق الفاعل يبعث الأمل في نفوس المؤمنين، وبهذا الصراع يكشف عن سنة الابتلاء، ويكشف عن معادن الناس وحقيقة مدّعياتهم كقوله (**مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)**آل عمران/١٧٩، ونلاحظ من هذا النص القرآني أنه وعد صادق واقع على كل حال يبعث على الأمل كقوله (**وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا)**النساء/١٢٢، وننظر في النتيجة أنه انتصر الإيمان وبقيت العقائد الرسالية الجليلة هي الفاعلة التي جاء بها رسل الله الكرام(ع) وما تزال معروفة على الرغم من كل العوائق، وهي أظهر وأبقى ما يسيطر على عقول البشر في أنحاء الأرض، ويقيم الله الحجة على الناس بمقدار ماعرفهم وآتاهم كقوله(**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا)**الطلاق/٧.

المعنى العام: (**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)**وأقسم بالله لقد سبقت وتقدمت ونفذت وغلبت (كلمة الله) حكمه المحتوم وقضاؤه المجزوم وكتبت في اللوح المحفوظ، أن عباده المرسلين وجنده الصالحين وحزبه المفلحين (**إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ)**إنهم لهم الغالبون على أعدائهم المدججين بالسلاح، المنصورون من ربهم في عاقبة أمرهم، فمن نصرناه فلا يُغلب، كما أن من خذلناه لا يَغلب كقوله(**إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)**آل عمران/١٦٠، وقوله(**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)**محمد/٧، وقد أطلق النصر ولم يقيده، نصراً عزيزاً خارقاً يُظهر الله قدرته فيه(**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)**الأنعام/٦١، ويتمكنون فيه من إقامة دينهم الحق الذي ارتضاه الله لهم في عاقبة أمرهم كقوله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)التوبة/٣٣ **في غرر الحكم** (المغلوب بالحق غالب، وَالْغَالِبُ بِالشَّرِّ مَغْلُوبٌ)

١٧٢-(**إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ)** اللام للتأكيد، بالحجة الكافية والبيّنات الوافية الدالة على نبوّتهم ورسالتهم، وتحملّوا مسؤولية التبليغ الواعي وذاقوا معاناته، وتحملّوا أنواع الاعتداءات والأذى والمؤامرات، كقوله(**رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)**النساء/١٦٥، والانتصار الحقيقي هو تحقيق غاية الله تعالى في خلقه وتثبيت حجته الرسالية على الناس، لأن الحق إنما يتبين من الباطل بالحجة العلمية لا بالقوة العسكرية، وقد ثبّت القرآن الكريم هذه الحقيقة بقوله (**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)**المجادلة/٢١ وقوله(**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)**غافر/٥١ (**إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ)** في جميع الأحوال والأشكال، ومهما قامت في

طريقهم العراقيل، ومهما رصد لهم الباطل من قوى الحرب العسكرية، والحرب الناعمة والجيوش الالكترونية والإعلام المشوش للحقيقة، كقوله (**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**)الأنفال/٣٠، ثم تصطدم كل هذه المؤامرات المتعددة بالوعد الإلهي غير المكذوب (**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**)النساء/٧٨ كقوله(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ**) الأنفال/٣٦ وهو وعد ظافر يُظهر الله به قدرته القاهرة في تحقيق وعده الصادق، وعد مؤكّد لابد أن يتحقق ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه كقوله(**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**) الحج/٤٠، إنه وعد صادق يثبّت سنة من سنن الله الكونية، التي لا تتبدل ولا تتحول ولا تتغيّر، وهي سنة ثابتة تمضي كما تمضي حركة الكواكب والنجوم، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة اليابسة بنزول الماء عليها، ولكنها سنّة تتحقق حين يشاء الله، وعندما تحين ظروفها كقوله(**لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ**)الأنعام/٦٧، ولقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة، ولكنها سنة متحركة فوق مقياس أعمار الناس، وإذا أراد الله شيئاً هيّأ أسبابه، وهيّأ ظروفه لتحقيق النصر كقوله(**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**)الروم/٤٧ (**إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ**) **سؤال:** كيف نفهم النصر على إطلاقه وهناك استشهاد بعض الأنبياء وانهزم بعض المؤمنين؟! **الجواب:** إذا حقق الأنبياء(ع) دورهم الرسالي تجاه قومهم وهو البلاغ المبين الواضح، فقد نجحوا في رسالتهم، وإن لم يصلوا إلى نتائج مرغوبة، لأن النتائج الناجحة يشترك بها الناس أنفسهم مع رسلهم كقوله (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)النحل/٣٥.

الانتصار على منازل ودرجات، وعلى مراحل ومستويات: فهناك انتصار مباشر سريع وغير مباشر مرحلي بطيء، وانتصار مادي عسكري ملحوظ وانتصار معنوي علمي، وانتصار كلي كامل ودائم وهو نصر مع الفتح كقوله(**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**) النصر/١، وانتصار جزئي مرحلي مؤقّت ومشروط.

مثال: ثورة الإمام الحسين(ع) الذي قاوم الحكم الأموي بقيادة يزيد بن معاوية الفاسد المتهتك وقال (**مثلي لا يبايع مثله**) وقال (ع)(من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يبلغ الفتح)! خطب الحسين(ع) بالناس خطباً بليغة فلم تحرّك مشاعرهم، ولم ينفعهم الخطاب البليغ بالكلمات، فلا بد هناك خطاب آخر معنوي فاعل ومؤثر أقوى وأبلغ من تأثير الكلمات، فإذا لم تكن الحياة كما تريد، فليكن الموت كما تريد! **عن الإمام علي** (ع) (اطلبوا الموت توهب لكم الحياة)!موسوعة الشهادة١/٢٨٧، **وفي نهج البلاغة خطبة٥١** (فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين)! كقوله(**وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ، وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ**)محمد/٤-٦.

عن النبي(ص) (أَشْرَفُ المَوْتِ قَتْلُ الشَّهادة)البحار١٠٠ص٨، فقاوم الحسين أهل الباطل بدمه وعارضهم بإرادته وقارعهم بجهاده وتصدّى لهم باستشهاده، وخاطبهم خطاباً بليغاً بدمه الزكي، **فكانت بلاغة خطاب وتأثير دم الشهادة الزكي، أبلغ وأهم وأنفع من كلامه البليغ، بلسانه الصريح المؤثّر!**

فانتصر الدم على السيف، وانتصر الإيمان على الألم، وانتصار القيم والمبادئ والأخلاق على إرادة الطاغوت، وانتصار دماء الشهداء الزكية على تكنولوجيا الحرب الحديثة! إنهم الشهداء الفضلاء عرفاء أهل الجنة، الذين أتقنوا فن الموت الشريف، واختاروا موتاً حركياً مؤثراً نابضاً بالحياة، التي تتفجرّ منه الحياة، لئن كان الناس يعبرون إلى الموت عن طريق الحياة، إن الشهيد المبدئي يعبر إلى الحياة عن طريق أرقى أنواع الموت المقدّس، إنه موت الشهادة الشريف، الموت النبيل، موت على الإباء، موت مملوء بالحياة الدائمة المؤثرة! ١٧٣-(**وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**) وإن (**جُندَنَا**) أضافهم إلى نفسه الزكية سبحانه، تطرح تأكيدات بـ(**إِنَّ**) ولام التوكيد لكل من الآيتين كقوله(**أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) المجادلة/٢٢، لتحقيق المعنى وتقريره بأن الله لن يتخلّى عن جنده المؤمنين، الأمناء على دينه القيمّ المدافعون عنه المبلّغون رسالته بالحق كقوله (**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**)الحج/٣٨ (**وَإِنَّ جُندَنَا**) على الإطلاق في كل زمان ومكان، بشرط تحقيق الولاء والوفاء والانتماء والاتباع لمنهج الله، ووصفهم بأنهم (جُنده)وعناصر قدرته، وأداة فاعلة لتحقيق إرادته، تشريفاً لهم حيث قاموا بنصرة دينه وجعلوا كلمة الله هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى كقوله(**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ**)المدثر/٣١ (**لَهُمُ الْغَالِبُونَ**)يقهرون الكفّار والأعداء بالحجة العلمية تارة، وبالغلبة العسكرية أخرى كقوله (**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**) الأنبياء/١٠٥، وإن كانوا في بعض المعارك مهزومين، وفي بعض المواقف مخذولين مغلوبين بسبب هفوات أنفسهم، وخلل في إيمانهم وتقصير في عملهم وعددهم وعدتهم، وخيانة جيوشهم، وطمعهم بحب الدنيا والمناصب والأموال والعجب والغرور وبالنفس وكبريائها.. وغيرها، ولكن النتيجة الأخيرة هم الغالبون، والأمور بالخواتيم كقوله(**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**)القصص/٨٣ والنصر منصب شريف لا يليق إلا بالمؤمن كقوله (**وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا**) النساء/١٤١، أما الكافرون شأنهم الاستدراج كقوله(**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**)الأعراف/١٨٢، ومن مصاديق هذه الآيات الإمام المهدي المنتظر (ع) المؤيّد بالحجة والمسدَد بالقوة من السماء، الذي يحقق وعد الله في الأرض كقوله(**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**)التوبة/٣٣

١٧٤-١٧٧- ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ، وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ، أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ، فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾

١٧٤- (**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ**) بعد إعلان هذا الوعد الصادق، يأمر الله رسوله المصطفى (ص) أن يُعرض عن المعاندين (**فَتَوَلَّ عَنْهُمْ**)ويصبر على أذاهم إلى أمد معلوم عندنا (**حَتَّىٰ حِينٍ**) ويدعهم لوعد الله الصادق وكلمته القاطعة،١٧٥-(**وَأَبْصِرْهُمْ**)وأصبر وحدّق في أوضاعهم السيئة فهم يتحمّلون نتائجها السلبية، وانتظر قليلاً ما سوف تراه من النصر المبين (**فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ**) وسترى

أنهم يستسلمون أذلّاء صاغرين أمام الفتح المبين، وسترى أيضاً سوء عاقبة كفرهم وعنادهم، ووبال جحودهم واستكبارهم، ويرون الخزي وسوء العذاب في الدنيا قبل الآخرة كقوله(**إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ**)البروج/١٢ وقوله(**وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ**)آل عمران/٢٨ **مثل قول النبي(ص)** (النّاسُ نيامٌ فإذا مَاتوا انتبهوا)روح البيان٢/١٣٢، (يدبر المدبرون والقَضاءُ يَضْحَكُ)، ولكن التعبير القرآني يدع خطابه مجملاً يوحي بالهول والترقّب الرهيب، ١٧٦- (**أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ**)؟! استفهام إنكاري لتوبيخهم وتهديدهم، أي كيف تستعجلون بعذاب الله، فإنه إذا نزل بكم لا تستطيعون له صرفاً ولا منه مفراً، ١٧٧-(**فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ**)فويل لهم يوم الانتقام من الكافرين كقوله (**إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ**)السجدة/٢٢، وحين يصل إلى ساحتهم أي إلى فناء دارهم، وهو كناية عن شمول العذاب وشدته (**فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ**) فساء وقبح، فهو شرّ يوم، وشرّ صباح، وأسوأ عذاب وعقوبة لهم، الذين أنذروا ولم ينفعهم الإنذار، شبه العذاب النازل بجيش كاسح هجم عليهم وقت الصباح، فهزمهم شرّ هزيمة وقطع دابرهم كقوله (**فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ، عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ**)المدثر/٩-١٠

١٧٨-١٨٢-﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

١٧٨-(**وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ**) ١٧٩- (**وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ**)وكرر الآيتين لتأكيد التهديد والوعيد بوقوع العذاب، وأنه حقيقة تقع في وقتها المناسب كقوله(**لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**)الرعد/٣٨، وفيها تسلية للنبي(ص)، وأن الآية الأولى لعذاب الدنيا، والآية الثانية لعذاب الآخرة، ختم الله سبحانه هذه السورة بتنزيهه عن كل ما لا يليق به، من كل تشبيه وتجسيم وتحديد ١٨٠- (**سُبْحَانَ رَبِّكَ**) تنزيهاً وتقديساً لربك الله الذي تعبده وتدعو إليه(**رَبِّ الْعِزَّةِ**) كلمة(**رَبِّ**) تفيد التربية، **معنى التربية:** تأهيل المربّى إلى أن ينجح في الغاية المطلوبة منه، **والخالق:** هو الذي يحدد الغاية من صنعته، وهو الذي يربّي عباده الصالحين على العزة حتى لا يغلبه أحد، والذي يكون في معيّة، ربه لا يقدر عليه ولا يقهره أحد، وعزة المؤمن من عزة ربه فهو سبحانه رب العزة، **والعزة:** هي القوة المادية والمعنوية، وهي الغلبة التي لا تُقهر، (**رَبِّ الْعِزَّةِ**) ذو العزة والجبروت، وذو القوة والقدرة والغلبة والملكوت، فهو العزيز بذاته والمعز لغيره، ومالك العزة والمربي عليها والداعي لها ولا يمكن التخلّي عنها كقوله (**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**)فاطر/١٠، **عن الإمام علي(ع)** (كلُ عزيز دَاخل تحَتَ القُدرَةِ فَذَليل)تحف العقول ص١٥٣، **عن النبي (ص)** (من أراد عزّاً بلا عشيرة ، وهيبةً من غير سلطان ، وغنىً من غير مال، وطاعةً من غير بذل ، فليتحوّل من ذلّ معصية الله إلى عزِّ طاعته)البحار٤٤ص١٣٩، لله العزة المطلقة الحقيقية، والقدرة القاهرة، الذي عزّ فقهر كل شيء، واعتزّ وتسامى عن كل نقص يصفونه به الجاهلون، وأضاف الرب إلى العزة لاختصاصه بها.

والعزة: وإن كانت صفة قائمة بغيره تعالى، إلا أنها هو الذي يهبها إلى عبده، ويختبره بها ويحاسبه عليها، فالعزة مملوكة لله يضعها حيث يشاء كقوله (**وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ**)آل عمران/٢٦، وإضافة الرب ثانياً إلى العزة هو تعظيم للعزة ومالكها، فهو سبحانه الغالب المقتدر لا يفوته هارب، وهو محيط بكل شيء، وبالتسبيح والذكر والعزة والسلام والأمان تعمر القلوب، وتلهج الألسن وتنشرح الصدور بذكر الله (**عَمَّا يَصِفُونَ**) تنزيهاً لله سبحانه بما لا يليق بعزته وجلاله عما يقوله الجاهلون، ١٨١- (**وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ**) (**سلام**) السلامة والكرامة والاستقامة والأمان والعافية، (**سلام**) من كل أنواع العذاب في يوم القيامة، و(**سلام**) من الفزع الأكبر، **والسلام:** هو صمام الأمان أمام الهزائم ودليل الانتصار على الأعداء، و(**سلام**) جليل، وتحية طيبة من الله العزيز، ونجاة لهم فلا يصيبهم ما يسوؤهم (**سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ**) (**سلام**) على الرسل الكرام، والمبلّغين عن الله دينه الحق إلى الخلق، وسيدهم نبيّنا مُحَمَّد وآله الطاهرين، لسلامتهم من العيوب وعدم ارتكاب الذنوب، (**سلام**) ليس له آفات ونقائص، بل هم يعالجون الآفات والنقائص.

(**سَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ**)(**سلام**) مبارك لا حدود له ولا قيود لهؤلاء الأفذاذ، القيادة الصالحة والأسوة الحسنة النافعة، الذين ذابوا من أجل أن يحيا الناس في (**سلام**) مع أنفسهم ومع ربهم ومع الناس كلهم، ومع الحياة كلها ومع الأحياء كلهم، (**سلام**) في خط الله، فينتظرهم (**سلام**) من الله في الدنيا وفي الآخرة، ليتأهّلوا للتحليق الروحاني في طاعة الله، ويترعرعوا في نعيم رضوانه، من سعى إلى الله قرّبه إليه، ومن بحث عن الله وجده، واستذوق حبه وقربه، **عن الإمام علي** (ع) (مَنْ صَبَرَ عَلَى اللهِ وَصَلَ إليهِ) البحار٧١ص٩٥، ١٨٢- (**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ**) والحمد المطلق الكامل الشامل، والثناء الجميل الدائم، فكل حمد وشكر يرجع إليه، **الحمد لله:** الذي هدانا لاتباع منهجه بواسطة رسله، **والحمد لله:** على الجزاء الذي أعطاه لنا في الآخرة، **والحمد لله:** على كل نعمة مادية ومعنوية، وكل نعمة ظاهرة وباطنة (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**)الأعراف/٤٣ (**لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) رب الخلائق أجمعين على ما أفاض عليهم من النعم التي لا تحصى، (**والحمد لله**) الذي كرّم بني آدم أحسن تكريم، وخلقهم في أحسن تقويم، وفي أعقد تركيب، وفي أتقن صنع، فعليهم أن يكرموا أنفسهم ويعرفوا قدرها. **والحمد لله:** في البدء بكل قول وعمل، **والحمد لله** بالختام، (**والحمد لله**) مدرسة تربوية فاعلة عالية المضامين في تعليم العباد أصول الحمد والشكر، وتقدير النِعم وشكر المنعم، ثم إن الألف واللام في (**الْحَمْدُ**) للاستغراق، فجميع درجات الحمد من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال الجليلة التي ربّى الله بها جميع الخلق في العالمين، وأغدقهم بالنعم وصرف عنهم النقم كقوله(**رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**)طه/٥٠.

في مناجاة الذاكرين في الصحيفة السجادية: (**إلهي:** أَنْتَ الْمُسَبَّحُ فِي كُلِّ مَكان، وَالْمَعْبُودُ فِي كُلِّ زَمان، وَالْمَوْجُودُ فِي كُلِّ أَوان، وَالْمَدْعُوُّ بِكُلِّ لِسان، وَالْمُعَظَّمُ فِي كُلِّ جَنان (قلب)، وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّة بِغَيْرِ ذِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ راحة بِغَيْرِ أُنْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ سُرُور بِغَيْرِ قُرْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ شُغْل بِغَيْرِ

طاعَتِكَ) والمراد بـ(**الْحَمْدُ لِلَّهِ**) تربية المؤمنين على كيفية تسبيح الله وتحميده (**رَبِّ الْعَالَمِينَ**) إشارة إلى تربية الله لكل الكائنات. **فائدة**:١-ويختم القرآن الكريم السورة المباركة بتنزيه الله وتوحيده سبحانه، حتى يتعمّق التوحيد الخالص والشامل في استقرار قلوبهم وانشراح صدورهم، وبالسلام والتحية والإكرام من الله، على جميع رسله والمبلغين رسالته بكفاءة ونزاهة، وهو الختام المناسب الذي يلّخص الموضوعات التي عالجتها السورة، ٢-**عن الإمام علي**(ع) (من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى (من الأجر يوم القيامة) فليقل آخر كلامه في مجلسه حين يريد أن يقوم هذه الآيات الثلاث ١٨٠-١٨٢)مجمع البيان٨ ص٣٧٤.

في الختام نقول:

قوله تعالى(**لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**)الحاقة/١٢ تمَ بعون الله تعالى (**وَعْيُ القُرآنِ الْمُيسَّر**) لسورة الصافات، وكانت كتابتها بقدري لا بقدرها، بجهد متواصل فللّه الحمد والمنّة، وبالحمد تتم الصالحات وتزداد البركات وتدفع النقمات بتاريخ ٢٠١٩/٧/١٨م الموافق ٢٠/رجب/١٤٤٠هـ، في العراق، الكاظمية، داعين الله سبحانه أن يعيننا على تكملة بقية السّور القرآنية، إنه سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث:مكي قاسم البغدادي

ترتيبها ٣٨ — سورة ص — آياتها ٨٨

من مقاصد السورة:

مكية، وهدفها توضيح أصول العقيدة الإسلامية الرئيسة، وركّزت على التّوحيد والنبوة والمعاد، ابتدأت السورة بالقسم بالقرآن المعجز الحق، وإن مُحَمَّداً عبده ورسوله، وتحدثت عن إنكار المشركين للتوحيد كقوله (**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**)(٥) وضربت السورة الأمثال للكّفار المعاندين، وكشفت لهم سنة هلاكهم بسبب إجرامهم، وتناولت قصص بعض الرسل الكرام تسلية للنبي(ص) ليتّعرف سنن من كان قبله، **فذكرت قصة داود وسليمان** الذي جمع الله لهما النبوة والملك، وعرّضهما للابتلاء، ثم ذكر فتنة أيّوب وإسحاق ويعقوب وإسماعيل وذي الكفل لبيان سنة الله في اختبار أنبيائه وأصفيائه، لبيان منازلهم وقربهم منه سبحانه، وأشارت السورة إلى دلائل القدرة وإتقان الصناعة ودقة المقادير، لبيان أن هذا الكون لم يُخلق عبثاً بل خُلق بالحق، لبيان كل إنسان ومعدنه ونوع أعماله ويحاسب عليها كقوله (**لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ**) طه/١٥، **والحياة لغز مبهم يحلّه الإيمان بالآخرة**، وختمت السورة في بيان وظيفة الرسول هو البلاغ المبين، وهي وظيفة جميع الرسل الكرام، **وتسمى**

(سورة ص) وهو حرف من حروف اللغة العربية، للتنبيه على **(إعجاز القرآن)** أنه مصوغ من هذه الحروف الهجائية، ولكن نظمه بديع ومعجز في كل شيء، في بلاغته وعلومه وأخباره وقصصه وأحكامه ومواعظه.. إلخ للدلالة أنه من عند الله تعالى كقوله**(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)** النساء/٨٢، **فضلها: عن النبي(ص)** (من قرأ سورة (ص) أُعطي من الأجر بوزن كلّ جبل سخّره الله لداوُد حسنات، وعصمه الله أن يصرَّ على ذنب صغيراً أو كبيراً) مجمع البيان٨/٣٧٥، **ملاحظة**: هذا الفضل بشرطه وشروطه، والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾

(ص) من الحروف المقطّعة وهي من المتشابهات، (ص) اسم السورة ومن حروف الهجاء، وهو دعوة للاصغاء للقرآن، مثل قوله**(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)**ق/١، وهو إشارة إلى إعجاز القرآن، حيث يتألف التعبير القرآني البليغ من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها البشر، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه في البلاغة والفصاحة والعلوم والمواعظ وحركة السنن والأحكام.. وغيرها، لأنه من عند الله كقوله (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ **اخْتِلَافًا كَثِيرًا)** النساء/٨٢.

المعنى: يقسم الله بحرف (ص) كما يقسم بالقرآن ذي الذكر، الذي يذكّرك بالله ويقوّي صلتك به، فتستقيم على منهجه كقوله **(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)** العنكبوت/٤٥ (يا مَنْ ذِكْرُهُ شَرَفٌ للذّاكَرِينَ) **والذكر**: حياة القلوب، وغذاء النفوس وانشراح الصدور، فهو لذّة المحبيّن، ومجالسة المحبوب، فدلّ على أنه أمر عظيم، لذلك يستحق أن يقسم به الله سبحانه ليلفت النظر والفكر إليه، والذي يعرف الأمر العظيم هو المؤمن المستقيم **(ذِي الذِّكْرِ)** أقسم الله بالقرآن ذي القدر العظيم، والشرف الرفيع والمكانة العالية إنه كتاب هداية إلى الطريق المستقيم، وحب التطلّع نحو حياة أفضل وأفق أوسع فيه حياة حضارية علمية بعيدة عن التطّرف والخرافات والانحرافات **(ذِي الذِّكْرِ) المذكّر** للعباد باليوم الآخر، وبكل ما يحتاجون إليه في دنياهم وآخرتهم، **والمذكّر**: بالمواعظ والعلوم وبفضل الله عليك، **والمذكّر**: ليعرّفك فلسفة الحياة وقيمة الوجود، على أنه أكبر من ظاهره المشهود، كقوله **(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ)** التكوير/٢٧، **والمذكّر**: لتعرف قدر نفسك حتى تعرف قدر غيرك، وتعرف قدر كل شيء **في غرر الحكم** (رحم الله امرأً عرف قدره لم يتعدَّ طوره) جواب القسم محذوف وتقديره: إنّ هذا القرآن لمعجز، وإن مُحَّمداً عبده ورسوله، فيكون القرآن دستور حياة ضرورياً للبشرية، كضرورة الطعام والشراب، فالقرآن أحسن دواء

لمعالجة القلوب التي تنسى الله كقوله(**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ**) التوبة/٦٧ وعلاجه قوله (**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**) البقرة/١٥٢، وبغيره الضلال البعيد، لذلك يجب تلقّي القرآن بالإيمان به والإقبال عليه والتعلّم منه والعمل به، فهو خلاصة رسالات الأنبياء(ع) ومعجزة دائمة للنبي مُحَمَّد(ص) كقوله(**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ**) الأنعام/٣٨

٢-﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾

يحرّك القرآن الكريم النفوس المنفتحة التي تتأثر بالحق، وتتأثّر به حتى الجبال والطيور وكأنها كائنات حية عاقلة ذات إحساس وشعور! ولكن الكّفار لا يتأثرون به لقسوة قلوبهم، من كثرة ذنوبهم، ولأن أجهزة الاستقبال والتلقّي عندهم عاطلة عن استقبال أنوار الهداية، ومحجوبة بالشقاق والنفاق والاستعلاء كقوله(**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ**)ق/٤٥، **المعنى**: إنّ الكافرين لم يعرضوا عن هذا القرآن الحكيم لنقص فيه(**بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ**) أي في حال تكبّر واستعلاء وتّمرد وأنفة عن قبول الحق، إن الذين كفروا يعيشون في (**عِزَّةٍ**) كاذبة زائفة خادعة مؤقتة، **عزة**: موهومة متضخمة مغرورة هشّة فارغة، **عزة**: تكبّر وتعالي وتّمرد وعناد عن قبول الحق، **عزة**: ظاهرها يغرّ ويسرّ ويمرّ وباطنها يضرّ، كقوله(**وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ**) البقرة/٢٠٦، إنها عزة وحمية الجاهلية الأولى، والتعالي عن الإيمان، والتعصب الأعمى لعادات وتقاليد الآباء والأجداد، وتأتي عزّتهم من قدرتهم وتمكينهم ليقفوا في شقاق مخالفين للرسول، ومعارضين للرسالة **في غرر الحكم** (مَنِ اعْتَزَّ بِغَيْرِ اللهِ أَهْلَكَهُ العِزُّ)! لأن العزة الحقيقية الباقية والدائمة، المطلوبة والمرغوبة هي لله عز وجل كقوله (**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**)فاطر/١٠ وقوله (**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا**)مريم/٨١-٨٢، **عن الإمام علي(ع)** (كلُّ عزيزٍ داخلٌ تحت القدرةِ فذليل)تحف العقول ص١٥٣ (**وَشِقَاقٍ**) معاندة ومكابرة ومعارضة شديدة وتفرّق كبير، لسيطرة الكفر على قلوبهم ولتعصبهم للجاهلية الجهلاء، فهم في مشاقّة ومخاصمة لله في عزّته، فهم ندٌّ لله ونازعوا رسوله وأنكروا رسالته بلا تدبّر ولا علم ولا حوار، وهكذا يفعل الخسيس مع الدّين القيم النفيس! كما يلعب الطفل الجاهل بالجوهرة الثمينة الغالية وكأنها كرة قدم! كقوله (**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**)المائدة/٥٠

٣-﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾

عقّب القرآن على استكبارهم وشقاقهم، يكشف لهم سنة متحركة قاصمة من سنن الأولين الذين كذّبوا رسلهم وأهلكهم الله (والذين لا تنفعهم مواعظ الماضيين، صاروا عِبرة للباقين، وأخسر الناس من كان عبرة للناس) أي (**كَمْ أَهْلَكْنَا**) هذا إخبار يتضمن التهديد لمن كفر وكذّب بنبوة ورسالة مُحَمَّد(ص) أفلا تخشون أن ينتقم الله منكم كما أنتقم (**مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ**)

من الأمم الاستكبارية المعاندة الماضية التي كذّبت الرسل وأفسدت في البلاد والعباد (**مِّن قَرْنٍ**) من الأمم الذين يعيشون في مجتمع واحد، في زمان ومكان وظروف واحدة، يقترن بعضهم مع بعض، فلما رأوا مقدمات العذاب خضعوا، يصوّر القرآن حالهم حين يرون العذاب فإنهم يخضعون بسرعة (**فَنَادَوا**)ربهم ليغيثهم حين نزول العذاب عليهم طلباً للنجاة، ولكن فات وقت المهلة (**وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ**) أي ليس الحين حين فرار ولا (**مَنَاصٍ**) ولا خلاص ولا نجاة ولا هرب حين نزول العذاب كقوله(**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**)غافر/٨٤، ولا ينفع إيمانهم بعد فوات الأوان.

٤-﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾

(**وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ**) عجب المشركون من بعثة النبي مُحَمَّد(ص)، وليس الموضوع محل عجب، والأحمق هو الذي يعجب من الأمر الصحيح النافع، وهذا الاستغراب قديم وتكراره غير مستغرب، ما دام الجهل هو القائد، ومتابعة المألوف الجاهلي هو السائد، والانغلاق على الذات هو الذي يعشعش في نفوس قادة القوم وأتباعهم إذن هناك عجب!، والعجب في غير موضعه، وأقرب شيء إلى العقل الحكيم أن يكون المنذر رسولاً منهم، من جنسهم البشري ويعيش معهم وبينهم، ولسانه عربي مثلهم وهو من جيلهم، ويشعر مشاعرهم وهو الصادق الأمين، ويعرفونه حق المعرفة كقوله (**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**)التوبة/١٢٨ فلا تأخذهم النخوة القومية العربية والعصبية العشائرية عن اتباعه، فهم مطالبون باتّباعه ونصرته، وقادرون على الأخذ بهذا المنهج القّيم عالي المضامين، الذي يرفعهم إلى خير الدنيا والآخرة، وجاءهم محذّر من مخالفة منهج الله وينذرهم بنار جهنم يوم القيامة، وهذا الهدف النبيل مما يوجب الشكر لله ولرسوله، فعليهم الانقياد له، **ولكن كان وضعهم النفسي يقول:** كيف يكون له الفضل عليهم وهم يعيشون في مكان وزمان وظروف واحدة؟ **مثل:** لو قال المريض للطبيب المختص، كيف أقبل منك النصح وأنا وأنت من ولد آدم؟! ولم يفكر المريض الجاهل بعلم الطبيب وكفاءته العلمية في العلاج! ولكن المشركين حاروا بماذا يقابلون مُحَّد، وعجزوا أن يردّوا عليه؟! ولم يقرعوا الحجة بالحجة عندئذ (**قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**) **الساحر:** يخيّل لنا الأشياء، ولا يغيّر حقيقة الشيء كقوله (**سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ**)الأعراف/١١٦ إنه سلاح التشويش والتضليل الإعلامي لحماية الرؤساء الطغاة ومراكزهم القيادية من خطر العقيدة الجديدة المفيدة المؤثرة في النفوس، قالوا هذا ساحر كذّاب، وذنبه عندهم أنه يأتي بالمعجزات والخوارق (**كَذَّابٌ**) مبالغ في الكذب، لأنه ينسب القرآن إلى الله، وأنه رسول من الله تعالى، وهذا الإنكار لا يقوله إلاّ المتوغلون في الكفر والفسوق والعصيان.

أسباب نزول (من آية ٤-٧)

روي: بعد أن أظهر النبي (ص) الدعوة الإسلامية، اجتمعت قريش عند أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب أنت شيخنا وكبيرنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك مُحَمَّد، قد سفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا وأفسد شبابنا وفرّق جماعتنا، فإن كان الذي يحمله على ذلك الحاجة، جمعنا له حتى يكون أغنى رجل في قريش، فبعث أبو طالب إلى رسول الله فدعاه فخيّره أبو طالب بما جاؤوا به (**فقال يا عم: والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه**)! ولكن يعطونني كلمة يملكون بها العرب ويدين لهم العجم ويكونون ملوكاً في الجنة، فقالوا نعم وعشر كلمات، فقال لهم (ص) تشهدون أن (**لا إله إلاّ الله**) فقالوا: ندع ثلاث مائة وستين إلهاً ونعبد إلهاً واحداً لا يمكن مشاهدته؟! كقوله(**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**)ص/٥، فوضعوا أصابعهم في آذانهم وخرجوا وهم يقولون (**مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ**)ص/٧ فقال له أبو طالب: إمض لأمرك، والله لا أخذلك أبداً، فنزلت الآيات، نور الثقلين٤/٤٤٠

٥-﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾

يصوّر التعبير القرآني البلاغي الفني مدى دهشتهم من حقيقة التوحيد الفطرية الناصعة، كأنه أمر (**عُجَابٌ**) يوحي بشدة العجب! وأكّد القرآن على عقيدة التوحيد، كما أكدت كل الرسل والرسالات السماوية عليها، لدورها الكبير في الوجود، فلا تصلح حياة البشرية إلاّ على أساسها، وفي التوحيد تحيا النفوس وترقى العقول ويستقيم السلوك، **في غرر الحكم (التّوحيدُ:** حياة النّفس) فيعتمد التوحيد على قاعدة العلم وليس على المعرفة فقال(**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ**)مُحَمَّد/١٩ ولم يقل(فاعرف أن لا إله إلاّ الله) على قاعدة المعرفة العامة، ودرجة العلم أدق وأعمق وأشمل من درجة المعرفة العامة، وأيضاً العلم يصبّ في المعرفة، والمعرفة تصبّ في العلم، وبينهما نسب وتناسب ودرجات، وكل الذي يعلم يعرف، ولكن ليس كل من يعرف يعلم، ومعنى الإنسان المثقف هو الذي يعرف من كل شيء شيئاً **يقول الراغب في المفردات: العلم**: إدراك الشيء بحقيقته أو بدلائل تدل عليه، **والمعرفة**: إدراك الشيء بتفكّر وتدبّر لأثره، وهي أخصّ من العلم، يقال: فلان يعرف الله ولا يقال يعلم الله، معرفة البشر لله بتدبّر آثاره دون إدراك ذاته، وتستعمل المعرفة في العلم المحدود القاصر كقوله (**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا**) النحل/٨٣.

وبالتّوحيد: المطلق الخالص حقيقة الإيمان وقاعدة التقوى ومفتاح الهداية وسبيل الصلاح، فيجعل المؤمن بالله الواحد الأحد علاقته مع نفسه ومع ربه ومع الناس على هذا الأساس المتين، فتوجّه إلى وجه واحد يكفيه الوجوه كلها، وتحمّل همّاً واحداً يكفيه الهموم كلها! فإن إدراك حقيقة التوحيد الكبرى، ضروري لإصلاح الضمير البشري واستقامته، **المعنى**: (**أَجَعَلَ**

الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا) الهمزة الاستفهامية للإنكار والاستبعاد، أجعل الآلهة الكثيرة المتعددة **(إِلَهًا وَاحِدًا)**؟! حين دعا إلى رب واحد أحد **(لا إله إلاّ هو)** الموجود في كل مكان وزمان كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)الحديد/٤، الله الذي لم تره العيون بحقائق الأبصار، ولكن تراه بصائر القلوب بحقائق الإيمان! وبصائر القلوب أقوى وأهم وأنفذ وأعمق من عيون الأبصار، العيون لا ترى كل شيء، بل ترى ما هو أمامها مادي وحسّي ومنظور، بينما بصائر القلوب تنفذ وترى وتدرك دقائق الأسرار بحقائق الإيمان، وبالحجة العلمية والبرهان والبيان ما وراء الحواس والمرئيات، كقوله **(مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ)** ق/٣٣ **أمثله:**

لا يرى الإنسان الروح ويؤمن بها، ولا يرى العقل ويؤمن به، ولا يرى الفكر ويؤمن به، ولا يرى الحب ويؤمن به..وهكذا، لا يرى عالم الموجات والذبذبات والترددات والإشعاعات.. ويؤمن بها ببصيرة عقله وفكره ولا يراها، وهكذا عالم الميكروبات والفايروسات والطفيليات والتلوثات لم يرها ببصره ولكن يراها ببصيرته..وهكذا يتنفّس الإنسان الهواء، غاز الأوكسجينO_2 ويطرح غاز ثاني أوكسيد الكاربونCO_2، ثبّت العلم والعلماء حقيقة قطعية نؤمن بها ولم نرها، ولماذا لم ينفذ الأوكسجين ومليارات البشر يتنفّسونه؟ فيجيب العلماء أن النباتات في عملية التركيب الضوئي وصنع الغذاء (يحصل العكس) تأخذ ثاني أوكسيد الكاربون وتطرح الأوكسجين، لتتوازن نسب الغازات في الهواء، هذا وغيره لا نراه بعين البصر الحّسية المحدودة ولكن نراه بعين البصيرة المعنوية النافذة، بتحريك العقل وتعميق الفكر ندرك الأشياء على أسس علمية.

في غرر الحكم (العِلمُ بِلا عَمَلٍ وَبالٌ ، العَمَلُ بِلا عِلمٍ ضَلالٌ) فصارت قوة البصيرة المعنوية العلمية أقوى وأهم من قوة البصر كقوله **(لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ)**الأنعام/١٠٣ وقوله**(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)** الشورى/١١، **عن الإمام الصادق**(ع) (إن الله تعالى لا يوصف بزمان ولا مكان ولا حركة ولا انتقال ولا سكون، بل هو خالق الزمان والمكان والحركة والسكون والانتقال)التوحيدص١٨٤، لاحظ قرب الله من الإنسان بقوله**(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)**ق/١٦، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠ **عن الإمام الكاظم**(ع) (إنّ الله أعلى وأجلّ وأعظم من أنّ يبلغ كنه صفته، فصفوه بما وصف به نفسه، وكفّوا عما سوى ذلك) الكافي١٠٢/١، **عن الإمام علي**(ع) (كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ) البحار٤٣١/٧٧**(إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)** إنّ أمر هذه الدعوة إلى التوحيد، عجيب حقاً بل متناه في العجب، صعب تحمله غير مألوف وغير معروف، ومخالف للأعراف والتقاليد الإجتماعية الجاهلية السائدة، إنهم تلّقوا الشرك أباً عن جد وألفوه وأُشربوه في قلوبهم الأصنام، وجرى منهم مجرى الروح والدم، وهذه هي الألفة

المذمومة المسمومة المخدّرة التي تدعو إلى الاتّباع الأعمى، والتعصّب للحميّة الجاهلية العمياء، هو سبب التعجّب المحّرض للكفر بنبوة مُحَّد (ص) ورسالته الإنسانية السامية.

٦ –﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾

يصوّر القرآن كيف قاوموا حقيقة التوحيد في نفوس الجماهير، وتثبيتهم على العادات الجاهلية الموروثة، وعدم البحث عن الحق والحقيقة كقوله (**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**)المائدة/٥٠، **المعنى**: (**وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ**) وانطلق زعماء وكبراء قريش الذين يملؤون العيون مهابة، بثورة شعبية لحماية أصنامهم قائلين لأتباعهم المستضعفين (**أَنِ امْشُوا**) وسيروا على طريقتكم فلا فائدة في الكلام مع هذا الرجل، ولا تصغوا لقوله ولا تطيعوه في ما يدعوكم إليه من عبادة الله الواحد الأحد، ويبثّون أساليب التضليل والتجهيل(**وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ**) واثبتوا على عبادة أصنامكم محتملين الاستهزاء بها وتحمّلوا المشاق لأجلها، ويحاولون جعل معارضة كبيرة ضد خط الإصلاح والهداية، وإقناعهم بأنهم يستهدفون مصالحهم ومقدساتهم (**إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ**) جملة واسعة الدلالة، إنَّ هذا الاصرار من مُحَّد على دين التوحيد (**لَشَيْءٌ يُرَادُ**) هذا أمر مدبّر يريد من ورائه مُحَّد نية غير صالحة، يصرفكم عن دين آباكم لتكون له العزة والقيادة والرئاسة عليكم، فهو يدبّر مؤامرة ويتستّر بالدين ليتّخذه سُلّماً للدنيا، ووصولاً إلى السلطة مع زيادة أنصاره كقوله(**إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا**)الفرقان/٤٢، إنهم لم يجلسوا ليتحاوروا بالدليل والبرهان عن عقيدة التوحيد، وبالحوار تنضج الأفكار، ويتوسّع الإدراك، ولكنهم استبّدوا برأيهم، ومن استبّد برأيه هلك نفسه وغيره!

٧ –﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾

ويستمرون في توهيم وتوهين الناس والتشويش عليهم، بالرجوع إلى ما هو مألوف ومعروف، وأن لا يتطلّعوا إلى أفق أوسع، وعلم أحسن، وحياة أفضل، **المعنى**: (**مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا**) القول في التوحيد المطلق (**فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ**) في الأديان الحالية التي يتداولها الناس وألفوها من آبائهم وأجدادهم، ولم نسمع من النصارى عقيدة التوحيد، وهم آخر الملل ويقولون بالتثليث، وهكذا الجاهلون منغلقون على الذات وما هو مألوف، ويركنون إلى الاتّباع الأعمى، والتقاليد المعروفة، (**إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ**) **اختلاق**: افتعال وكذب بلا واقع يسانده، ما هذا إلا كذب افتراه، وافتعال اختلقه واخترعه مُحَّد من نفسه ولا برهان له على دعواه، إنهم لم يبحثوا عن دليل عن عالم الآخرة، وإنما زرعوا شبهة وخدعوا أنفسهم الضالة بها وخدعوا غيرهم، وهذا يعكس حجم عقولهم الصغيرة ونفوسهم اللئيمة وقسوة قلوبهم الغليظة، بعد أن رفضوا هذه الرحمة المهداة لهم (**قيل**: من زانوا الحق بالرجال ظلموه، ومن زانوا الرجال بالحق أنصفوه)!

٨ –﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾

يرد على تساؤلهم رداً فيه استخفاف وانذار وتهديد، ما الذي فضّل مُحَمَّداً علينا حتى يّنزل الله الذكر عليه من دوننا؟ ما هو الذي يميزه عنّا؟ وغفلوا وتغافلوا عن قرآنه الكريم وخُلُقه العظيم وعلمه الغزير، وهو الصادق الأمين والأسوة الحسنة والنموذج الأعلى، والله سبحانه أعدّه إعداداً منذ نشأته وأهّله لهذه المسؤولية الضخمة كقوله(**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**) الطور/٤٨ وقوله (**وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**)النساء/١١٣ **المعنى**: (**أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا**)الاستفهام إنكاري، هل يُعقل أن ينزّل (**عَلَيْهِ الذِّكْرُ**)وهو القرآن (**مِن بَيْنِنَا**) وفينا–في المجتمع الطبقي– من هو أعظم وأفضل منه في القيادة والسيادة والرئاسة وكثرة الأموال كقوله(**لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**)الزخرف/٣١، إنّ قول الكفّار هذا ليس هو السبب بعدم إيمانهم (**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي**) بل السبب أنهم يعيشون الأوهام المعقدة من شكوك وشبهات حول القرآن (**مِّن ذِكْرِي**) فلا يناقشونها في حوار هادئ مفتوح مع النبي(ص) بل يرفضونها! والذي يرفض الدين النفيس هو الرديء الخسيس، لتعلقه بالمألوف الفاسد، وهم يعيشون في ترف الحياة وأمنها، فلا حاجة لهم بالدين الجديد، المنقذ لهم من حيرة الضلالة ويخلّصهم من ظلمات الجهالة، فهم لم يفقهوا قوله (**وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**) الجن/١٧، لذلك جاءت العبارة عنيفة (**بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ**)بل السبب الحقيقي لعدم إيمانهم أنهم لم يذوقوا عذابي بعد، فإذا ذاقوه زال شكّهم وآمنوا بالقرآن وتبيّن لهم الحقيقة في الحال! ولكن بعد فوات الأوان كقوله(**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**)الأعراف/٩٩ **عن النبي(ص)** (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)! روح البيان١٣٢/٢، والذي أمِنَ العقاب أساء الأدب، وتجاوز الحدود (والذي لا يعرف قدره يتعدَّ طوره)

٩ –﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾

(**أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ**) الاستفهام إنكاري، فأجابهم الله سبحانه: هل مفاتيح خزائن الخيرات أو الهبات المادية والمعنوية (**رَحْمَةِ رَبِّكَ**) الرحمة الواسعة، ومنها النبوة والرسالة بيدكم أم بيد الله سبحانه، فيعطي منها ما يريد لمن يريد كيف يريد، متى يريد، كقوله(**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**)الأنعام/١٢٤، لأنه (**الْعَزِيزِ**)الغالب في ملكه غير مغلوب (**الْوَهَّابِ**) صيغة مبالغة أي كثير العطايا والهبات كقوله(**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**)الزمر/٣٦

١٠ –﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾

إنهم لا يجرؤون على ادّعاء ذلك، والله عز وجل هو المالك المطلق وهو الذي يمنح ويمنع ويصطفي من يشاء من عباده ويختار ما كان لهم الخيرة، **المعنى**: (**أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**) فإن كانوا كذلك (**فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ**) فليصعدوا في الطرق اللازمة، وليصنعوا الوسائل المناسبة، ويتّخذوا الأسباب الموصلة إلى العرش، حتى يدبّروا أمر العالم، وينزلوا

الوحي على من شاؤوا، ويتحكّموا في خزائن الله كما يريدون، وهو وارد على سبيل التعجيز لإظهار هوان موقعهم وتفاهة إمكانياتهم والتهكّم بهم كقوله(**قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً**)الإسراء/٤٢

١١-﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾

ثم قرر حقيقتهم، لا عندهم خزائن رحمة الله، ولا لهم شيء في ملك السماوات والأرض **المعنى**: (**جُندٌ مَّا هُنَالِكَ**) ما هم إلاّ قليل من جند مجهولون من الكفرة ملقون(**هُنَالِكَ**) بعيداً، ضعفاء عاجزون أذّلاء! مهما تبلغ قوّتهم وعددهم ويتطاول بطشهم، ويتجبّروا في البلاد والعباد فترة من الزمان، ولكن الله يمهل ولا يهمل(**جُندٌ**)جاءت نكرة للتقليل والتحقير و(**مَّا**)لتأكيد القلة، أي كيف يرتقون إلى السماء وهم فرق شتّى مهزومون؟ (**مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ**)هم عما قليل مغلوبون، ويولون الأدبار مهما تكتلت وتآمرت أحزابهم على تكذيب رسول الله(ص) وهم فرق من قبائل شتّى منخورون من داخلهم، مهزومون نفسياً وإرادياً قبل انهزامهم عسكرياً. **يصوّر القرآن الموقف بأنهم من الآن (مَهْزُومٌ) كأن الهزيمة صفة لازمة للأحزاب، لاصقة بهم** (**الْأَحْزَابِ**) ذات اتجاهات مختلفة وأهواء متنوعة، ستدور دائرة السوء عليهم لا محالة، وهكذا مصير كل الأحزاب الوضعية الكافرة الفاجرة هو الهزيمة والانقراض. وفي هذا الكلام إعجاز، لأنه إخبار عن الغيب والمستقبل، وحصل ما هو مطابق للواقع.

١٢-١٤-﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ، وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ، إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾

يضرب الله الأمثال لأولئك الأحزاب المتجبرين المكذبين للرسل والرسالات، على مدار القرون ممن سبقوا قريشاً في حركة التاريخ، يحذّرهم الله تعالى بسننه أن يفعل بهم كما فعل بالأمم المكذبة من قبلهم، الذين كانوا أشدّ قوة وأعظم آثاراً منهم كقوله(**سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**)غافر/٨٥ إنّ تكذيبك من قومك ليس بأمر جديد، وذكر تسعة من الأنبياء(ع) بل كذب قبلك قوم كل نبي نبيّهم (**وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ**) إنه وارد على سبيل الاستعارة البلاغية التي تعني ثبات الملك بالأوتاد والجيوش وبالحديد والنار، ودوام العز وكثرة الأموال وتحسين الأحوال، ورسوخ السلطة من غير منازع، وصاحب المباني العالية الثابتة كالإهرامات التي تقوم في الأرض كالأوتاد، مما جعله طاغيةً جباراً مغروراً ظالماً. سئل الإمام الصادق(ع) لأي شيء سُميَّ (**فرعونُ ذُو الأوتَادِ**)؟ فقال(لأنّه كان إذا عذّب رجلاً بسطَه على الأرض على وجهِه، ومدّ يدَيه ورجلَيه فأوتدَها بأربعة أوتادٍ (بسامير) في الأرض، ثمّ تركَه على حاله حتّى يموت)! في علل الشرائع/إرشاد الأذهان في تفسير القرآن/محمّد السبزواري النجفي ص١٠٤٩، وهكذا فعل فرعون بزوجته آسيا بنت مزاحم لّما آمنت بموسى كقوله (**قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ**)التحريم/١١ ١٣- (**وَثَمُودُ**) وكذبت ثمود

قوم صالح (ع) (**وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ**) **الأيكة**: غابة الأشجار الكثيرة والكثيفة والملتفّة على بعضها، للدلالة على كثرة النعم والثمار والمياه، وهم قوم شعيب (**أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ**) الكّفار الذين تحزّبوا على رسل الله فلم تغن عنهم شيئاً. ١٤- (**إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ**)كل حزب من هؤلاء الأحزاب والأمم إلاّ كذّب رسل الله الأبرار، كأنهم لا عمل لهم إلاّ التكذيب الساذج والعناد المقيت! فما الذي يناسبهم؟ هو العقاب الرادع (**فَحَقَّ عِقَابِ**)على شدة ضلالهم وكثرة فسادهم وقسوة قلوبهم، تلك هي سنة الله في المكذبين (فمن ضاق عليه الحق، فالباطل عليه أضيّق)

١٥ -﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾

(**وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ**) وما ينتظر هؤلاء المكذبون من أمتك (**إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً**)تأتيهم بغتة بلا مهلة ولا مقدمات، صيحة يسيرة سهلة علينا تقضي عليهم وتستأصلهم من الوجود بسرعة، لأن صيحة واحدة لا ثاني لها تكفي أمرهم، وهي النفخة الأولى ينفخ فيها إسرافيل في الصور فيصعقون ويهلكون، فتكون هذه الصيحة كالصاعقة الرهيبة والزلزال العنيف المخيف المدمّر (**مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ**) **فواق**: استعارة بلاغية، وكناية تشبيهية مشتقة من الرجوع أي يعود الّلبن إلى الضرع، **فواق**:ليس لها من توقّف ولا تكرار ولا رجوع إلى الحياة الدنيا، ولا مهلة يسيرة مقدار فواق ناقة، وهو الزمن بين الحلبتين، ومقدار رجوع اللبن إلى الضرع وهو (**الفَوَاقِ**) لأنها صيحة واحدة تجيء في موعدها المحدد، فإذا جاءت لا تؤخّر كقوله(**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**)الأعراف/٣٤، وإن الله تعالى أكرم نبيه(ص) ولم يستأصل أمتّه بالهلاك والدمار كما فعل بالأمم السابقة، فأخّر عذاب العاصين لليوم الآخر، وفسح لهم مجال للتوبة ولكنهم لم يعرفوا قدر هذه الرحمة والمهلة، **في غرر الحكم** (رحمَةُ مَن لا يَرحَمُ تَمنَعُ الرَّحمَةَ، واستِبقاءُ مَن لا يُبقي يُهلِكُ الأُمَّةَ)

١٦ -﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾

تصوّر الآية قباحتهم وتحديهم للعذاب والاستهزاء به! ويترك السياق القرآني إجابة الكافرين، ولكنه يوجههم إلى دراسة سنن التاريخ الثابتة كقوله(**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**)الفتح/٢٣، لكنهم لا يعرفون قدر أنفسهم حتى يعرفوا قدر ربهم (ومن لم يعرف قدره يتعدّى طوره) **المعنى**: (**وَقَالُوا**)كفّار مكة على سبيل الاستهزاء والسخرية من عذاب الله (**رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا**) ربنا قدّم لنا (**قِطَّنَا**) قسطنا ونصيبنا من العذاب الموعود العاجل في الدنيا، فعلامة صدقك أن تأتيهم به كقوله(**فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ**)الأنفال/٣٢ (**قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ**) إذا صحّ ما قاله مُحَمَّد، فلماذا يكون العذاب في يوم الحساب يوم القيامة،

فليعّجل به الآن قبل غد! كقوله(**أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ**)؟الشعراء/٢٠٤، وهكذا المتعنّت الأحمق الجاهل يعمل بنفسه كما يعمل العدَّو بعدّوه!

١٧ -﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

يوجّه الله سبحانه نبيه المصطفى(ص) إلى الصبر وضبط النفس وتهذيب عاداتها، وأن له أسوة بإخوانه في نفس الطريق للرسل الكرام الذين سبقوه كقوله (**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**) الأحقاف/٣٥و وقد ذكر داود(ع) هنا بأنه نموذج يقتدى به، حيث جمع له خير الدنيا والآخرة، جمع له النبوة وعظيم المنزلة في الآخرة، كما وأعطاه الملك وفصل الخطاب، وبعض صفات التكامل البشري في الدنيا، فقد ميّزه الله بالقوة والقدرة (**ذَا الْأَيْدِ**) فجمع الله له بين صفات الضد، أي جمع بالإضافة إلى قوّته البدنية، قوّته الروحية المتألقة النفّاذة الأخّاذة، ونفسه الشفافة الأوّابة ذات الإنابة والتوبة (**إِنَّهُ أَوَّابٌ**) كثير التعلّق بالله، سواء بلسان حاله أم بلسان مقاله، **المعنى**: (**اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ**) وصابر، إصبر صبراً جميلاً كقوله (**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**) الحجر/٨٥، إصبر على التكذيب والاستخفاف برسالتك، وبالصبر الواعي المناسب تدرك الرغائب، فهو خير زاد للمصلحين، ومن صبر ظفر، ولو بعد حين، كقوله (**وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**)لقمان/١٧، ونرى من خلال الوعي القدير، والصبر الجميل، كيف تنتصر الروح الإنسانية على الآلام والابتلاءات، ففِي الْمِحَنِ مِنَحٌ مِنَ اللهِ، وَفِي الْمَكَارِهِ مَكَارِمٌ، وَفِي الْمَشَقَّاتِ خَبِرَاتٌ، وَفِي الْمُعَانَاةِ هِبَاةٌ، وفي العقوبات يقضات الضمير، وَفِي الْبَلَايَا بِدَايَاتٌ نِهَايَاتِهَا الْكَرَامَاتِ، **عن الإمام الحسن العسكري**(ع) (مَا مِنْ بَلِيّةٍ إِلَّا وَلِلّهِ فيها نِعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا) البحار/٧٨/٣٧٤.

(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ)

وتذكّر هنا عبدنا داود(ع) وأضافه إلى نفسه تكريماً له، ولقربه من ربه وعناية ربه به، فصار له قوة في العبودية الخالصة ظاهراً وباطناً، والعبودية لله أشرف شيء للإنسان، وعلى قدر العبودية تكون النبوة والرحمة، ويكون القرب ويكون رضا الله، فهو القدوة الحسنة، صاحب القوة العظيمة في الدّين والجسم والعبادة والتسبيح والدعاء، وأيضاً صاحب القوة العظيمة في الملك والعلم والتعليم والحكم والإدارة والقتال، وصاحب النعم الكثيرة المادية والمعنوية، فهو نبي الله العابد الشاكر الذاكر الصابر المجاهد العادل المستقيم، ذو القلب الذاكر واللسان الشاكر والصوت الحسن الخاشع الرخيم النفّاذ في المشاعر والضمائر، وهو ثاني ملوك بني إسرائيل، والملِك الأول طالوت كقوله (**إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا**)البقرة/٢٤٧، وكان داود مع جيش طالوت فاستطاع أن يقتل عدّوهم جالوت الملك الجبّار، ومنذ ذلك الحين ارتفع نجم داود وأصبح ذا ملك وسلطان، فهو مَلَكَ الدنيا ولكن لم تملكه الدنيا، وأنما كان مُلكاً لله

تعالى! (**إِنَّهُ أَوَّابٌ**)كثير الأوبة والإنابة والرجوع إلى الله تعالى في جميع الأمور، وكثير الصلة والارتباط والتعلّق بالله تعالى في كل الحالات، في الشدة والرخاء.

فائدة: (**ذَا الْأَيْدِ**) صاحب القوة الجسدية والروحية، وهي مأخوذة من اليد وقوة الجسم، ثم إنها ليست يداً واحدة قوية، بل (**ذَا الْأَيْدِ**) بصيغة الجمع! أي أيدي كثيرة قوية خارقة، مادية ومعنوية، جسدية وروحية (نفسية) قوة عسكرية وعبادية، وأدعية وتسبيحات شفافة، وترتيلات خاشعة في الزبور، وله القدرة على الصبر في المكاره واحتمال الشدائد، ترجع مناجاته الخاشعة التي يهلل بها ربه ويمجّده ويسبحّه، **وبلغ من قوة استغراقه في الذكر، وحسن حظه في الترتيل والتحميد والدعاء، أن تزول أمامه الحواجز بين كيانه الجسدي المادي وآفاقه الروحية المعنوية**، وكيان هذا الكون بطريقة إعجازية خارقة، وتتصل حقيقته بحقيقة الجبال الشامخة والطير المحلّقة في الهواء، ثم تكون صلتها كلّها بخالقها عز وجل، وعبادتها وتمجيدها وتسبيحها له، فتتصل السنن الكونية بالسنن البشرية فيكونون وحدة واحدة موحّدة متحّدة، لوجود الصلة والرابطة والعلاقة بينهما، فإذا الجبال تسبّح مع داود، وإذا الطير(محشورة)أي مجموعة عليه في أوقات التسبيح لله تعالى، بتنسيق معنوي دقيق خاشع، وبترتيب منظّم رقيق خاضع غير حسّي! كقوله (**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**)الإسراء/٤٤ ٢- (**ذَا الْأَيْدِ**) جمع الله لداود قوة البدن وشدته في الحرب.

و(**إِنَّهُ أَوَّابٌ**) وقوة الصلة بالله والانفتاح عليه والتلذذ في مناجاته، فجمع الله له خير الدنيا والآخرة، فجمع الله له بين الضدّين، فعادةً القوة في الجسم تجعل غلاظة في الطبع في جانبها العسكري، والقوة في الروحيّات والانفتاح مع الله تجعل الشفافية والخشوع والرقة في التعامل، فهو يعتمد القاعدة المتوازنة التربوية الحركية: (**الصلابة في المبادئ، والمرونة في التعامل**)! مع هذه الصفات المميزة، فقد ابتلي مثلك يا مُحَّد أيضاً وعانى من قومه.

١٨ - ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾

تصوّر الآية جانب من القوة التي بلغها داود في حكمه العادل، ونصرته للحق والحقوق فقد سخّر الله له الكائنات الجامدة والمتحركة، والمعروفة وغير المعروفة، وتنسّق معه وتشترك في تسبيحة خاشعة مرتبة لله جلّ في علاه، **المعنى:** (**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ**)إن الله تعالى صيّر الجبال الشامخة الجامدة لداود تسبّح معه بحمد ربها (**بِالْعَشِيِّ**) في المساء (**وَالْإِشْرَاقِ**) والصباح حين الشروق، فهي تنسّق معه في ترتيلة واحدة، فيشترك تسبيح الجبال مع تسبيح داود مع تسبيح الكائنات في دعاء خاشع منظّم واحد كقوله(**يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**)سبأ/١٠ وقوله(**لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ**)الحشر/٢١، وفيه إشارة إلى أن ترتيل داود (ع) كان نموذجياً مميزاً مؤثراً نفّاذاً أخّاذاً بحيث تعجب به الجبال والطير!! وهو إعجاز خارق عن العادة والمألوف والمعروف، فكيف لا

يعجب به الإنسان المؤمن؟ أفضل أوقات ذكر الله كقوله(**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ**)ق/٣٩، **فائدة:** ١-قال (**يُسَبِّحْنَ**) ولم يقل (مسبحات) أي يسبحن بصيغة المضارع المستمر للدلالة على استمرار التسبيح في كل مكان وزمان ولكن يزداد (**بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ**)وكل كائن يسبّح لله بقدره ومقداره وبطريقته الخاصة به، سواء بلسان الحال أو بلسان المقال، وكأنها كائنات حية مميزة واعية ذات شعور وإحساس! وإن لكل كائن حياة خاصة به تلائمه، فحياة الإنسان في النوم غير حياته عند اليقضة، وحياته في التعب غير حياته عند الراحة، وغير حياته عند الشدّة، وغير حياته عند الموت، وغير حياته عند البعث، فكل وقت وحالة له حياة تناسبه، كما أن كل شيء يسبّح بلغته الخاصة كقوله (**لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا**)الطلاق/٧! تسبّح الكائنات كما يسبّح الأحياء العقلاء المؤمنون! فتكون منظومة النسيج التسبيحي الواسع الخالص الكامل للكون والكائنات، المتعاضد والمتلاحم بعضه مع بعض، فيصعد بعضه لله تعالى بسهولة كصعود بخار الماء في الهواء، ويُرفع بعضه الآخر برافعات خاصة لوزنه الثقيل في ميزان الله تعالى كقوله(**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**) فاطر/١٠.

فائدة: تسبيح داود وتسبيح الإمام السجاد (ع):

وهكذا كان الإمام زين العابدين وسيد الساجدين المعروف بالسجّاد(ع) كثير الذكر والشكر والدعاء والإنابة والتضّرع لله تعالى، وأدعيته في الصحيفة السجادية خير مثال على ذلك، وهي مجموعة تربوية شفافة من مناجاته عالية المضامين وسامية المعاني. التي ترقق القلوب وتنقّي الأرواح وتصّفي النفوس وتهذّب الطبائع والعادات وترتقي بالأخلاق إلى مكارم الأخلاق، فإذا كان كل شيء يسبّح لله وبحمده، فمن باب أولى تسبّح الجبال والطير والكائنات معه أيضاً، فيشتركون معه (ع) في مناجاته وتسبيحاته وأدعيته في الصحيفة السجادية التي سمّاها الإمام الصادق(ع) (**زبور آل مُحَمَّد**)!

١٩ -﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾

(**وَالطَّيْرَ**) وسخّرنا الطير (**مَحْشُورَةً**) مجموعة له تسبّح لله تعالى وتحمده وتشكره، فيشترك تسبيح الجبال الشامخة بالتنسيق مع تسبيح الطير حال كونها (**مَحْشُورَةً**)مجموعة من كل جانب وناحية، فيشتركون مع تسبيح داود وتقديسه لله تعالى، ثم يلتحمون بتسبيحةٍ وتحميدةٍ جماعية منظّمة، مع تسبيح الكون والكائنات، فتشترك السنن الكونية مع السنن الإنسانية، لوجود الترابط والعلاقة بينهما، فيكونون في وحدة واحدة موحّدة متّحدة!! إذا مرّ به الطير وهو سابح في الهواء، فسمع دعاءه وتسبيحه فيقف في الهواء ويُخفّق بجناحيه ويسبّح معه، وهي تقيم صلاتها بطريقتها الخاصة كقوله(**كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ**)النور/٤١، وتجتمع على ترتيلاته وتضرعاته

وتشترك معه في تحلّقات روحية خاشعة منظّمة، حتى يخترق قلب داود الشريف حجب النور فيصل إلى معدن العظمة، وتصير روحه الشفافة معلّقة بعزّ قدس الله تعالى! وهكذا يفعل الدعاء مع أصحابه، فإنه سلاح المؤمن ومربّي لروحه ومهذّب لطبائعه، ولا عجب من ذلك ما دامت القدرة الإلهية وراء ذلك وتدعمه!، وكل كائن يسبّح بطريقته ولغته الخاصة وبقدره ومقداره ومنزلته، وكذلك الجبال الشامخات كانت تنسّق تسبيحها معه! **عن الإمام الصاق(ع)** (كان داود (ع) إذا قرأ الزبور لا يبقى جبلٌ ولا حَجَرٌ ولا طائرٌ إلاّ جاوَبَه)نور الثقلين٣/٤٤٤، ولكنه لا يسمع ذلك منها، وإذا سمعه لا يفقه ما تقول، وإنما ذلك إخبار بالحدث، لكن تسبيحها وافق تسبيح داود فسبّحوا معاً تسبيحة مشتركة بصورة لا يمكن وصفها! كم كان الحصى يُسبّح في يد رسول الله مُحَمّد(ص) ويسمع تسبيحه في يده! كقوله(**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**)الإسراء/٤٤.

فائدة: يقف الناس مدهوشين أمام هذا النبأ الغريب العجيب المؤثر غير المألوف، حقّاً أن لهذه الخلائق كلها حقيقة واحدة، هي العلاقة القوية والصلة الدائمة بخالق الوجود كله، **وحين تصل علاقة الإنسان بربه إلى درجة الصفاء والنقاء والإخلاص، والإشراف الروحي المتحلّق فوق عالم الماديّات فقد تنزاح الحواجز وتنكشف الحجب فترون العجائب وتعرفون الحقائق،** وتنسّقون مع الأقدار وتنكشف لكم الأسرار!! وقد وهب الله عبده داود(ع) هذه الخاصية المميزة صاحب الروح النفّاذة الأخّاذة، فجمع له(في الدنيا)النبوة والقوة في الدين والجسم والأخلاق والحكم والسلطان (وفي الآخرة) فهو داخل في حصن الله الحصين، ومع عباد الله الصالحين.

كقوله (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) القمر/٥٥

٢٠ -﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾

ثم ذكر منّة الله عليه وتسديده له وتأييده وهدايته فقال (**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ**)استعارة بلاغية، أي وقوّينا ملكه وأحكمنا سلطانه، وثبتناه بالهيبة والقوة والقدرة والنصرة والعزة، وكثرة الجنود والأموال وحسن الحال وحسن السياسة والإدارة، بحيث كان الطغاة من أعدائه يحسبون له ألف حساب! فهو لا يقدم على عمل إلاّ إذا عرف مورده ومصدره وسببه وغايته ومدخله ومخرجه كقوله (**رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا**) الإسراء/٨٠، وكان يسوس ملكه بالعدل والانصاف وسعة الصدر ومحاولة استيعاب الآخر، ورفع الظلامات بين الناس (العدل أساس الملك) **عن الإمام علي** (ع) (آلة الرّياسة سِعَة الصّدر)البحار٧٥/٣٥٧، وكان يعتمد الحكمة في القول والعمل والحزم والعزم معاً، وكان يقطع ويجزم برأي حكيم لا تردد فيه، وهو غاية الكمال في الحكم والجمال في السلطة. **في غرر الحكم** (مَنْ سَاسَ نَفْسَهُ أَدْرَكَ السِّيَاسَةَ، وَمَنْ حَسُنَتْ سِيَاسَتُهُ دَامَتْ رِيَاسَتُهُ)(**وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ**) من

إحكام الأمور في القول والعمل، ومصداقها النبوة، والارتباط بوحي السماء، مع مؤهلات الفهم والذكاء في الأمور، والعلم بالأشياء ووعيها والعمل على تنظيم أمور البلاد والعباد، فتكون الحكمة أهم صفات قيادة الأمة وقدوتها، وظهور الكفاءة العلمية والقيادية والنزاهة العملية، كقوله (**وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**) البقرة/٢٦٩، **في غرر الحكم** (لا حِكمَة إلّا بِعِصمَةٍ) **الحكمة نوعان:** بالقول والعمل، حكمة بالمواعظ الكلامية الدقيقة البليغة، والحكمة العملية (الحركية) الواعية، بمعرفة أسرار الحقيقة الدقيقة المطلوب عملها لكل موقف! (**وَفَصْلَ الْخِطَابِ**) وألهمناه حسن الفصل في الخصومات، بلا هوى ولا جهل ولا تسّرع ولا انحياز، والقول الحاسم والتشخيص الدقيق الذي يفصل بين الحق والباطل، وبين القضايا المتشاكلة والمتداخلة، وآتيناه علم القضاء بالبيّنات ومعرفة الدلائل، والحكم العادل المصيب الواضح، والتشخيص الدقيق للأحداث والمواقف بآراء لا تردد فيها، وهذا يحتاج إلى مزيد من العلم والحلم والتشخيص والخبرة والتجربة، وتفهّم أحوال الخصوم **عن الإمام علي**(ع) (**وَفَصْلَ الْخِطَابِ**) (**أن يطلب البيّنة من المدّعي، ويكلّف اليمين من أنكر**) روح البيان٨/١٥، فهو يجمع بين الضدّين، وهي من نوادر الصفات التكاملية، يجمع بين الحكمة المعنوية المتعالية، مع القوة الروحية والبدنية المتسامية، وهذا قمة الكمال والجمال والجلال في الحكم والقدرة والسلطان في علم الإنسان، وبذلك يجمع الله له خير الدنيا والآخرة كقوله (**إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**) المرسلات/٤٤.

وفي هذا دلالة: إنّ هناك علاقة وصلة بين الدين والسياسة، ولا يمكن الفصل بينهما **والإسلام:** عبادته سياسة، وسياسته عباده، **في غرر الحكم** (من قام بشرائط العبودية أُهِّلَ للعُتقِ) ومن قصّر عن أصول العبودية أُعيدَ إلى الرّق! **فائدة:** ١- نلاحظ اختيار الله لداود نعمة (الحكمة وفصل الخطاب) لحاجته لها، واختار ليوسف(ع) تعليمه تأويل الرؤيا في النوم واليقظة لحاجته لها كقوله (**وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ**)يوسف/٦، واختار لنوح سفينة النجاة، ولإبراهيم أن جعل النار برداً وسلاماً عليه، واختار لموسى (ع) انفلاق البحر، واختار لعيسى إحياء الموتى بإذن الله، واختار لخاتم الأنبياء مُحَمَّد (ص) القرآن المعجز، الرسالة الخاتمة الكاملة كقوله (**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**) التكوير/٢٧، فكان كل اختيار دقيقاً في محلّه المناسب، في زمانه المناسب، وللرسول المناسب، والأمة المناسبة، والظروف المناسبة معه ولو حصل العكس لحصل الخطأ، فلو وضعنا اختيار معجزة أحدهم للآخر لما استفاد منها!، ٢- أما التوراة (المحرّفة) فقد وضعت داود بأقبح صورة، وهي من الموضوعات الإسرائيليات، نذكر منها في قاموس الكتاب المقدس ص٣٦٥ طبعة١٥/سنة١٩٦٧ قوله (ارتكب داود في بعض الأحيان خطايا يندى لها الجبين خجلًا)! وهكذا يطعن اليهود بأنبيائهم (ع) فكيف بغيرهم؟!

٢١ -﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾

(**وَهَلْ أَتَاكَ**) الخطاب للرسول(ص) وجاء بصيغة الاستفهام، للتعّجب وتشويق السامع إلى ما يلقى إليه، وكان داود(ع) يخصص بعض أوقاته للحكم والقضاء بين الناس (**وَفَصْلَ الْخِطَابِ**) ويخصص البعض الآخر للعبادة لله وترتيل زبوره وتسبيحاته في محراب العبادة، لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس. **وفي يوم فيه المفاجآت المخبآت لامتحانه**، وكانت عين الله ترعاه وتقود خطاه، وتكشف له ضعفه في خطاه، وتوقّيه خطر الطريق، وتعلّمه كيف يتوقّاه، **المعنى**: (**وَهَلْ أَتَاكَ**) وهل بلغك يا مُحَّد (**نَبأُ الْخَصْمِ**) **الخصم**: تستعمل للمفرد والجمع، وأحياناً تجمع (خصوم) أي خبر المتخاصمين (**إِذْ تَسَوَّرُوا**) إذ تسلّقوا سور القصر والحائط العالي، في خفّة وخُفية (**الْمِحْرَابَ**) هو أفضل غرفة ومكان في البيت، يجعله الإنسان لراحته ومناجاته لربه، وتسمى (**القبلة**) بالمحراب لأنه أشرف مكان في المسجد، ولكون المحراب مكاناً للصلاة، فيكون المؤمن المصلي في حرب ضد وساوس الشيطان وهوى النفس، فسميّ (**المحراب**) من حرب الشيطان والهوى!

٢٢ – ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾

(**إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ**) في وقت كان داود في محرابه منقطعاً لله قد خصصه للعبادة، وإذا فجأة باثنين يدخلون عليه بطريقة مشبوهة شاذة تبعث على الريبة، كدخول السارق أو القاتل! (**فَفَزِعَ مِنْهُمْ**) فخاف منهم وظن السوء بهم لدخولهم عليه بلا إذن، ومن غير الباب الرسمية، وبطريقة استفزازية من سطح الغرفة! وهو غير مستعد للقضاء، وفي غير الوقت الذي يحضر فيه الخصوم، وهما اثنان بقوله (**لَا تَخَفْ خَصْمَانِ**) وإنما جمعهم (إذ تسوّروا) لأنه أراد الفريقين المدّعي والمدعى عليه ومن معهما، فظن أنهم أرادوا قتله، وما منعهما من تنفيذه إلاّ يقظة الحرّاس لحمايته، عندئذ اخترعا سبباً لمجيئهما إليه للاستفتاء! ثم هي ليست من معضلات المشاكل التي تحتاج إلى تسوّر المحراب، وإلى حكم داود بهذه السرعة والطريقة الإرهابية، **والفزع قسمان**: قسم خوف قليل يحّرك قلبك بالجزع، ولكن لم يصل إلى قالبك، وفزع هو خوف كثير يملأ القلب ويظهر على القالب وينعكس على الوجه، وقولهم (**لَا تَخَفْ**) دليل على أن الفزع تجاوز قلبه إلى قالبه، وظهر على وجهه، فانفعل انفعالاً كثيراً يأخذ بجميع مشاعره، وهذا الخوف الشديد يعني الانفعال النفسي، وكل انفعال يأتي بردود أفعال، وكل ردود الأفعال تأتي بلا توازن ولا صواب، بسبب حصول الاضطراب، وإذا اضطرب العقل فقد التشخيص الدقيق، والتوازن الصحيح وحصل الخطأ. وفيه إشارة إلى حالة ضعف البشر أمام المفاجات والمخبّات، وداود أحد البشر مع أنه كان من الأقوياء في الدين والدنيا، **وفيه دلالة على أن الأنبياء** (ع) يبعثون لاقوام منحطّة، فصبروا عليهم وأصلحوا شأنهم وقضوا بينهم بالعدل (**قَالُوا**

لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ) قالوا لا تخف ولا بأس عليك منّا، نحن فريقان متخاصمان (**بَغَىٰ**) تعدّى وظلم بعضنا البعض الآخر، وجئنا لتقضي بيننا (**فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ**)بحكم الله العادل المنصف، وخطاب الخصمين فيه جرأة شديدة كأنهما يعطيانه أوامرهما، ولكن لم يستنكر داود على تصرفهما الخاطئ ولم يؤنّبهما! (**وَلَا تُشْطِطْ**) **الشطط**: الجور والظلم وتجاوز الحق في الحكم، فلا تتجاوز الحد ولا تبتعد عن طريق الحق، فتميل لأحدنا ضد الآخر.(**وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ**) ودلّنا إلى أفضل الطرق والإنصاف للطرفين.

٢٣ –﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾

المعنى: (**إِنَّ هَٰذَا أَخِي**) بدأ المدّعي صاحب النعجة(**الشاة**) الواحدة على خصمه لفظ (**أَخِي**) بلحاظ الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، فيها حنين وشفافية لقلب الخصم (**لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً**) وذلك خير كثير يوجب عليه القناعة (**وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ**)لا أملك إلاّ هذه النعجة المفردة فطمع فيها، **النعجة**: انثى الغنم (الشاة) (**فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا**) أعطنيها واجعلها في كفالتي وتحت تصرفي حتى يتم لي العدد (١٠٠) (**وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ**) وغلبني في الكلام، وأعجزني في المحاجة، فجاء بحجج لم أطق ردّها، **قال له**: أنا عندي مراع كثيرة ورعاة يرعونها، فاتركها تسرح مع باقي الغنم، ولا تتعب نفسك من أجل نعجة واحدة.

٢٤ –﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾

(الآية من المتشابهات) اندفع داود يقضي على أثر سماعه لهذه الحادثة، ولم يوجّه إلى الخصم الآخر المدّعى عليه صاحب الغنم الكثير حديثاً، ولم يطلب منه بيّنة، وهو لم ينكر عليه نعجته، فسمع الدعوى من طرف واحد، وأصدر حكمه لصالح هذا المظلوم صاحب النعجة الواحدة يواسيه. **في الحديث** (إِذَا جَلَسَ إِلَيْكَ الْخَصْمَانِ فَلا تَقْضِ بَيْنَهُمَا حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الْآخَرِ)روح البيان٨/ص١٧ وكان على داود القاضي ألا يتعجّل بالحكم، بل يقوم بمحاسبتهما وعقابهما على هذا التجاوز والاعتداء على بيته وعلى حريته، والتسلّق إلى سطح القصر مع وجود غفلة الحرس، والحماية حول القصر، وكان عليه أن لا يحكم وهو قد فزع منهم أول الأمر (**وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**)

وإن الكثير (**مِّنَ الْخُلَطَاءِ**) من الأصدقاء المخالط بعضهم بعضاً بعلاقة قوية، والذين يخلطون أموالهم بشراكة الأعمال، لوجود الحب والثقة بينهم (**لَيَبْغِي**) ليعتدي بعضهم على بعض ويظلمه، فيأخذ الشريك الأقوى سهمه وزيادة كقوله(**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**)الطلاق/١، والظلم لذّاته قصيرة وتبعاته طويلة، وهو من الذنوب الكبيرة، ومن ظلم كُرِهَتْ إيّامه، وتنغّصَ عيشه، وقسى قلبه، **في الحديث القدسي** (أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا

صَاحِبَهُ) فلو كان ادّعاءات الطرف الأول (صاحب النعجة الواحدة) غير صحيحة لاعترض عليها الطرف الثاني، ولكن السكوت علامة الرضا (**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) إلاّ المؤمنين الصادقين الذين يعملون ما ينفع الناس فإنهم لا يعتدون ولا يظلمون، يمنعهم إيمانهم عن الظلم، ويكون خيرهم مأمولاً وشرّهم مأموناً، وهم القلّة من كل أمة كقوله(**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**)سبأ/١٣ (**وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**) قلة في عددهم، ولكنهم نخبة وقدوة حسنة في علومهم وصفاتهم وأخلاقهم، والعِبرة في النوعية وليس بالكميّة كقوله (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**)البيّنة/٧، وانصرفوا جميعاً دون أن يفصل بينهما! (**وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ**)فتأمل داود مليّاً (**وَظَنَّ**)وعلم واعتقد أن ما حدث كان (فتنة) واختباراً وامتحاناً، امتحناه به لرفع درجته، يريد الله بذلك أن يعلّمه القضاء العادل، وهو في أول الطريق، وبداية تحمله القضاء والحكم، فاستدرك أمره بسرعة من هفوته وتركه للعمل بالأولى، (**فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ**) مما وقع منه فندم، وطلب العفو من الله! (**وَخَرَّ رَاكِعًا**) وهوى إلى السجود لله بسرعة، ورجع إليه سبحانه بالخضوع والتذلل في أمره، وفي الصلاة، وقد يُعبّر في اللغة عن السجود بالركوع، لأن الركوع مقدمة للسجود في الصلاة (**وَأَنَابَ**)ورجع إلى الله بالإنابة والتوبة والندم والاستغفار، وعدم مؤاخذته بما صدر منه، وهنا أدركته طبيعته الإيمانية الشفافة أنه (**أوّاب**) إنها هفوة لا تكاد تعد شيئاً، وهي صغيرة ومن اللّمم المعفو عنه، ولكن كما قيل (حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين)!

فائدة: سؤال: كيف نفهم حكم داود للمدّعي من غير بيّنة وهو معصوم عن الخطأ؟!

الجواب: ليس معنى المعصوم أن طبيعته البشرية فوق الناس، وأنه لا يهفو ولا يغفل ولا يتسرّع، ولكن المعصوم بتعلقه بالله وتوكله عليه وتفويض أمره إليه يسدّده الله في القول والعمل، ويؤيده فلا يقع في الزلل، ولا يتخلى الله عنه إطلاقاً، فيعطيه عصمة ذاتية ويلهمه الصواب ويجنبه الخطأ فلا يرتكب ذنباً، ويدعمه بعصمة خارجية مدعومة بالوحي، **والذي حصل لداود**: خدعه صاحب النعجة الواحدة بأسلوبه المكسور، الذي يثير الاشفاق والرحمة فحكم له ابتداء على الظاهر ولم يخطأ، ولكن الله ألهمه الحقيقة والصّواب، فصحح الموقف ولم يحسم الحكم، وبقي معلّقاً، ولم تبيّن الآية كيف استدرك الأمر وتلافاه، وكيف صحّح الموقف؟ واستغفر الله وأناب إليه. ومثله حدث لنبينا مُحَمَّد (ص) مع سارق ادّعى براءته، وكاد الرسول أن ينخدع به لولا أن سدده الله كقوله (**وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا**)الاسراء/٧٤

٢٥ –﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾

(**فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ**) فغفرنا له تركه العمل بالأولى والأهم، وعفونا عنه لأنه غير قاصد وغير متعمّد ولم تكن معصية، لأنه لا تكليف في الظرف الاستثنائي الحرج، كما لا تكليف في عالم

الرؤيا، وكان قضاؤه (ع) تقديرياً تمهيدياً ولم يكن قطعياً نهائياً (**وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ**) **لزلفى**: لمنزلة كبيرة ومكانة قريبة جليلة وكرامة سامية بعد المغفرة (**وَحُسْنَ مَآبٍ**) وحسن مرجع، وحسن العاقبة في الجنة كقوله(**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**)القصص/٨٣. **فائدة: سؤال: كيف تفهم عصمة الأنبياء؟ الجواب**: العصمة ملازمة لداود ولكافة الأنبياء(ع): عصمة ذاتية عن طريق الإلهام، وعصمة خارجية مدعومة عن طريق الوحي، وليس معنى ذلك أنه معصوم منذ التكوين والنشأة، ولو كان معصوماً منذ التكوين لصار مجبراً كالملائكة، وكان فوق صفات الناس الذين يخطؤون، ولا يصلح للاقتداء، ويسقط عنه الحساب والثواب والعقاب، وهذا الفرض خلاف القرآن والسنّة، وإنما تكون عصمتهم عصمة تشريعية تربوية مكتسبة، بمؤهلات شخصية فريدة، ومؤيدة ومسددة وبرعاية وحراسة من الله لهم، كما رعى الله نبينا مُحَّد (ع) منذ طفولته بقوله (**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ**)الضحى/٦-٨، ومائدة العصمة السامية المكتسبة ليست حكراً على الأنبياء (ع) وإنما هي مائدة مفتوحة للناس كافة بمؤهلات خاصة نموذجية مميزة ومؤيدة أيضاً برعاية وحراسة الله لهم كقوله(**وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**)آل عمران/١٠١، **في غرر الحكم** (مَنْ أُلْهِمَ الْعِصْمَةَ أَمِنَ الزَّلَلَ، أَلْإعْتِبارُ يُفِيدُ الْعِصْمَةَ، قُرِنَتِ الحِكْمَةُ بِالعِصْمَةِ، بِالتَّقْوى قُرِنَتِ الْعِصْمَةُ)

وقاعدة العصمة المكتسبة في القول والعمل التي تقول: (لكل مقام مقال، وليس كل ما يُعلم يقال، وليس كل ما يُقال جاء أوانه، وليس كل ما جاء أوانه جاء أهله) **بمعنى أن هناك**: كلاماً مناسباً في المكان المناسب، في الزمان المناسب، للإنسان المناسب في ظروف مناسبة، على هذه القاعدة المتصلة مع بعضها غير المنفصلة، يكون العمل والقول صحيحين ومصيبين وبعيدين عن الخطأ، وهذا هو مفهوم العصمة المكتسبة، أمّا في الظروف الاستثنائية النادرة، قد يجتهد المعصوم في قضايا دنيوية غير محرّمة (غير قضايا التبليغ الرسالي) وقد يجتهد في قضايا حرجة وصعبة، تقع بين المهم والأهم، فيقدّم المهم على الأهم في بعض الأحيان، وهذا قد يعتبره البعض من الذنوب، ولكن في حقيقتها الدقيقة هو ترك العمل بالأولى، لتداخل العمل في نظام الأولويات وهذا ليس بمعصية، فإذا ظهر لهم أنهم تركوا الأولى ندموا واستغفروا ربهم، ورجعوا إليه بسرعة متضرّعين.

٢٦ -﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾

وقلنا له (**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ**) **الخلافة**: نيابة عن الغير لتشريفه وتكليفه بعمارة الأرض وتزكية النفوس، أي جعلناك خليفة وحاكماً على الناس فاجعل نفسك مؤهّلةً لذلك، لتحكم بينهم بالحق والعدل والإنصاف في الأمور الدينية والدنيوية، من أجل إقامة دين

الله الخالص، وإلقاء الحجة الإلهية على الناس، وتدبير أمرهم وتوجيه مصالحهم وقضاء حوائجهم، **وكل إنسان عاقل رشيد مستقيم هو خليفة الله على أرضه،** بمعنى أنه مسؤول أمام الله وأمام مجتمعه عن عمله، فعلى الإنسان أن يظل متذكراً أنه خليفة، وأنه يتحمّل مسؤليات الخلافة، **عن الإمام الصادق** (ع) (إنّ الله احتجَّ على الناس بما آتاهم وعَرَّفَهُم) الكافي١/١٦٣، فمنهم آمن واستقام فحقق معنى الخلافة، ومنهم من انحرف وعصى وتطفّل على خلافته واتّبع هواه وضلّ عن سبيل الله، فقد خان خلافته وأهان كرامته **(فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ)** فاحكم بين جميع الناس بالعدل والإنصاف وإعطاء الحقوق، ووضع الأقوال والأعمال في مواضعها كما أمرناك، وعلى كل عالم ومتعلّم وربّ عمل وربّ منزل..إلخ أن يقضي ويحكم بالحق والعدل والإنصاف، كل إنسان من موقعه وبقدره وبقدرته وكفاءته ومنزلته، ولا فرق بين حاكم في المحكمة أو حاكم في البيت أو حاكم في العمل أو الوظيفة، **والحق:** الحكم الثابت الصحيح الذي لا يتغيّر مع تغيّر الزمان والمكان، الحق الثابت بذاته والمثبت لغيره، وهو حكم الله ومنهج الله القيّم المنقذ من ظلمات الضلالة ومن حيرة الجهالة. **(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)**ولا تتبع هوى نفسك في قضائك وفي غيره طبقاً لمزاجك، فيضلك ويبعدك عن الحق الذي هو طريق الله، فتميل مع أحد لأجل قرابة أو صداقة أو محبة أو بغض للآخر.

والهوى: ما تهواه النفس وتشتهيه بلا ضوابط من عقل ودين، فلكل نفس هوى خاص، فلا بد من الرجوع إلى شيء لا نختلف فيه، وهو دين الله القيّم، فمن رحمة الله بالخلق أن عصم أهواءهم بالرسل والرسالات، أما العلوم المادية والتجريبية فقد ترك الله العقول تعمل فيها، لأنهم سينتهون بعد التجارب الكثيرة إلى حق واحد موحد متّحد مجمع عليه كقوله**(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)** فصلت/٥٣، وهذا يعني أن القرآن الكريم يعارض المناهج الوضيعة التي ظاهرها يسرّ ويغرّ وباطنها فاسد يضرّ، ويؤدي إلى اضطرابات المشاعر وقلق النفس للفرد والمجتمع، كقوله**(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)** الفرقان/٤٣ **عن الإمام الباقر**(ع) (ثلاثٌ موبقات(مهلكات): شُحٌّ (بخل) مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ)نور الثقلين٤/٤٥٣ ثم بيّن سوء عاقبة ذلك فقال **(إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)**لأن الذين يتّبعون هوى أنفسهم ورغبات طبائعهم وميول أمزجتهم، ينحرفون عن طريق الله المستقيم النافع، عندئذ يصعب عليهم الهداية والاعتدال لاستغراقهم في الضلال البعيد والفساد الشديد لذلك **(لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)**والعقوبة على قدر الجناية **(بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)**بسبب غفلتهم وتسامحهم ونسيانهم الله ويوم الجزاء، فأدّى بهم إلى الفساد في البلاد والعباد كقوله**(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)**الحشر/١٩، لو تذكّروا **(يَوْمَ الْحِسَابِ)**ما فعلوا السيئات، ولو تذكّروا الثواب على طاعة الله ما كسلوا عن

العبادة، ولو تذكّروا (**يَوْمَ الْحِسَابِ**)لم يميلوا مع دوافع الهوى وحبّ الأنا الخطير والمرير **في نهج البلاغة حكم ٢١١** (كَمْ مِنْ عَقْلٍ أَسِيرٍ تَحْتَ هَوَى أَمِيرٍ)!.

٢٧ -﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾

مع ذكر (**يَوْمَ الْحِسَابِ**) في الآية السابقة، هناك دليلان على ذلك اليوم الموعود المؤكّد الحاسم (يوم الجزاء) **الدليل الأول (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا) والدليل الثاني** الآية ٢٨، أننا ما خلقنا الكون بكل ما فيه من كائنات عاقلة وغير عاقلة خلقاً (**بَاطِلًا**) أي عبثاً ولعباً ولهواً بلا حكمة سامية، وبلا هدف نبيل وبدون فلسفة عقلانية دقيقة، لأن ذلك يتنافى مع كمال الخالق وجلاله، والله تعالى خلق الإنسان مخيّراً، ويحاسبه على هذا الاختيار، فيشجّعه على طاعته ويثيبه عليها، وينهاه عن معصيته ويعاقبه عليها، ليكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب في دار البقاء، (**ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا**) ذلك التفكير الباطل اعتقاد الكفّار الفجّار الفسّاق، الذين لا يؤمنون بيوم القيامة كقوله (**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**)المؤمنون/١١٥، زعم المادّيون الملحدون بأن الكون والكائنات العجيبة الكثيرة بكل أنظمتها الدقيقة وجد (**بَاطِلًا**) صدفة وبلا حكمة ولا هدف سامٍ **ونقول لهم**: لابد للخلق المنَظَّم من خالق منظِّم له حكيم، الذي يخلق بالحق وللحق ليتعلم الناس(**بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ**)الحج/٦٢، الإنسان الحكيم لا يعمل العبث، يبدأ حياته بتنظيم، ويعمل بتنظيم ويختم حياته بتنظيم أيضاً، فكيف بخالق الإنسان الذي خلق كل شيء بتنظيم، وله مقدار وميزان كقوله (**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**)الفرقان/٢، ومن تنظيم الكائنات وجود يوم المعاد، يوم الجزاء كقوله (**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**)النجم/٣١.

في غرر الحكم (مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدِ عَرَفَ رَبَّهُ، عَجِبْتُ لِمَنْ يَجْهَلُ نَفْسَهُ كَيْفَ يَعْرِفُ رَبَّهُ)؟ **في الحديث القدسي** (كنتُ كَنزاً مخفيّاً فأحْبَبتُ أنْ أُعْرَفَ، فَخَلَقْتُ الخَلْقَ لكي أُعْرَف) روح البيان٦/١١٢، (**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**) **فويل**: كلمة تهديد ووعيد بمعنى العذاب والهلاك (**فَوَيْلٌ**) لا عن قسوة وغلظة، ولكن عن شفقة ورحمة، حتى لا نرتكب الذنوب ونتعدّ الحدود التي تقودنا إلى النار.

كقوله(**إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**) العنكبوت/٥٤، **عن الإمام الباقر**(ع) (إِنَّ أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إلى الْكُفْرِ أَنْ يُوَاخِيَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ عَلَى الدِّينِ فَيُحْصِيَ عَلَيْه عَثَرَاتِه وزَلَّاتِه لِيُعَنِّفَه بِهَا يَوْماً مَا)!البحار٧٥/٢١٥، الذين كفروا يريدون أن ينكروا الحقائق الكبرى إذا لم تستوعبها عقولهم الضيّقة، ولم ترها عيونهم القاصرة، وتبقى الحقيقة هي الحقيقة المتألّقة الناصعة المؤثرة الفاعلة، وإن جهلها الظالمون كقوله(**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) البقرة/٢٥٤، فإن إنكار الله عز وجل،

والانحراف عن منهج الله، هو انحراف عن النظام الكوني الذي قامت عليه السماء والأرض بالحق، **إذن:** الانحراف عن الحق شر كبير ومن تعدّى الحق ضاق صدره، وكرهت أيامه، وتنغّص عيشه، كقوله (**وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**)الجن/١٧ وقوله(**فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**) الشعراء/٢١٣

٢٨ –﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾

(**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ**)**الدليل الثاني** على (**يَوْمَ الْحِسَابِ**) لا يعقل أن يتساوى الذين قضوا حياتهم، وسخّروا كل طاقتهم الإيمانية لله ولإصلاح البلاد والعباد، مع الذين قضوا حياتهم بالكفر والمعاصي، والاعتداء على الناس، والإفساد في البلاد والعباد (**أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**)لا نجعلهم سواء، والله سبحانه منزّه عن ذلك، وليس من العدل أن يكون مصير المتقين الذين اتقوا معاصي الله، وعملوا الصالحات ونهضوا بالفرد والمجتمع، كمصير الأشرار الفجّار، **والفجور:** هو الفسوق، وشق ستر الدين وتدنيس قداسته، **وقيل:** لأول الصبح فجرٌ، لكونه فَجَرَ الليل، أي شق خيط النور في ظلام الليل شقّاً واسعاً من مقدمات ضياء الفجر. كقوله (**وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**)الانفطار/١٤، وبهذا تستدل العقول السليمة على وجود حاكم عادل يقضي بالعدل في يوم الجزاء، فكيف يفتقد هذا العدل في الآخرة كقوله (**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**)النحل/٩٠، ونرى الفاجر المعتدي الظالم للناس يتمتّع بالحياة على حساب المظلومين، ويموت دون عقاب، ونرى المظلوم المعتدى عليه يموت وهو مهظوم مسلوب الحقوق! فلابد من وجود الدار الآخرة (**لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**)الجاثية/٢٢

٢٩ –﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

الخطاب موجّه للنبي(ص) وأريد به عموم المعنى وسعة الدلالة، بيّن الله تعالى الغاية من نزول القرآن وهي التدبّر والتفكّر والتذكّر **المعنى:** (**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ**)كتاب القرآن الكريم أنزلناه إليك يا مُحَمَّد (**مُبَارَكٌ**) من البركة على من آمن به (**مُبَارَكٌ**)كلمة دقيقة المبنى، عميقة المعنى واسعة الدلالة، أي كثير الخيرات واسع الدّلالات، دائم العطاءات متنوّع المنافع العلمية والدينية والدنيوية، ودستور حياة للبشرية أجمعين كقوله (**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**)التكوير/٢٧، فهو (**مُبَارَكٌ**) على من تدبّره وتأمّل فيه وبحث في معانيه، وحلّق مع إيحاءاته وفهم مقاصده، واعتبر به فإنه أبلغ العِبر، وظهر أثره ومصاديق حمله واستنطاقه في أخلاقه وأقواله وأعماله وإلاّ (فكم من قارئ للقرآن، والقرآن يلعنه)! كقوله (**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**)النساء/٨٢، **عن النبي (ص)** (مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيُثَوِّرِ الْقُرْآنَ)كنز العمال خبر٢٤٥٤ (**مُبَارَكٌ**) يعطي فوائده المتنوعة فوق ما تتصوّره، فهو دواء وشفاء لما في الصدور، من داء الكفر والضلال ومساوئ الأخلاق، ونجاة من سوء العاقبة، ولو اتّبعت

القرآن بصدق يعطيك الله فرقاناً خاصاً تفّرق به بين الحق والباطل، وتميّز به بين الخطأ والصواب بشكل دقيق كقوله(**إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا**)الأنفال/٢٩، **عن الإمام زين العابدين(ع)** (آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنُ، فَكُلَّمَا فُتِحَتْ خِزَانَةٌ، يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا)البحار ٣١٦/٩٢ .

(لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) معنى التدبر في جذره اللغوي:

من الدُبُر، مؤخر كل شيء، أي انظر بدقة في أدبار الآيات، وإيحاءات عمق المعاني، وبلاغة السياق القرآني الدقيق بحيث تغوص فيه بعلم، وكلّما ازداد الإنسان تدبّراً ازداد علماً وفكراً ووعياً كقوله(**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ**)المؤمنون/٦٨، **والقرآن الكريم:** مادة غنية بالهداية، بل هو مصدر الهداية وينبوعها كقوله (**قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ**)البقرة/١٢٠، فلا ينتفع بالقرآن إلاّ من كان حريصاً على الانتفاع به والتفكّر فيه، **عن النبي(ص)** (إنَّ هذا القرآنَ مَأْدُبَةُ اللهِ فتعلَّموا من مُأْدُبَتِهِ ما استطعتمْ) التدبر القرآني مائدة علمية غنية عامة مفتوحة على الجميع كقوله(**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**)محمد/٢٤، ولكن التدبّر بحاجة إلى خبرة أهل الاختصاص كقوله (**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**)النحل/٤٣، ومن أبرز مصاديق (أهل الذكر) أئمة أهل بيت النبي(ص) سفن النجاة، وخزائن علم القرآن والسنة، وأمناء على الرسالة، فطاعتهم نظام للملة وتوحيد للأمة، **عن النبي(ص)** (إنِّي تاركٌ فيكم الثقلين ما إن تمسَّكتُم بهما لن تضلُّوا بعدي، أحدهما أكبر من الآخر،كتاب الله، حبْلٌ ممدودٌ من السَّماء إلى الأرض، وعِترتي أهل بيتي، ولن يتفرَّقَا حتى يرِدَا عليَّ الحوضَ)كنز العمال خبر١٧٢/١ **وقد عمم القرآن التدبّر لعموم الفضلاء، وخصّ التذكّر بخصوص العقلاء**، وشجّع على التفكّر، فإنه حياة القلوب، فلا يكفي أن يقتصر قارئ القرآن على حفظه وحسن تلاوته، فيتعلّق بظاهره ويضيّع جواهره.

عن النبي(ص) (من جَعلَه أمامَه قادَه إلى الجنَّةِ، ومن جعلَه خَلفَ ظهرِهِ ساقَه إلى النَّارِ)كنز العمال خبر٤٠٢٧، فكيف يقود هذا إلى الجنة، ويسوق ذلك إلى النار؟ فمعناه أنه يعرف الناس حقّ معرفتهم، فهذا يستحق الهداية فيهديه ويقوده إلى الجنة، وهذا يستحق اللّعن فيلعنه ويحرمه من رحمة الله ويسوقه إلى جهنم! **وكأن القرآن كائن حي يمتلك مفاتيح القلوب، ويعرف أسرار النفوس**، ولا تشتبه عليه حقيقة الأشخاص لذلك القرآن شافعٌ مشفّع، مقبولة شفاعته، يشفع بلا إذن من الله، لأنه كتاب الله، وإذنه معه من الله، وهو ممثل عن الله سبحانه، والقرآن يفتح كنوزه على من يقبل عليه، ويعطي إيحاءاته ومنافعه بقدر ما يعطوه من أنفسهم، ليتعلّموا منه ولا يعلّموه. كقوله (أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ) البقرة/١٤٠، وقوله (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ) الحجرات/١٦، **عن النبي(ص)** (ليسَ القرآنُ بالتّلاوة ولا العلمُ بالرّواية، ولكنَّ القرآنَ بالهدايةِ والعلمَ بالدّرايةِ)

(وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) وليتعظ به ذوو العقول المفكّرة القويمة المنفتحة على آفاق العلوم، وأصحاب القلوب السليمة التي تبحث عن الحق والحقيقة، فدلّ هذا على أنه بحسب لبّ الإنسان ومستوى عقله ومقدار وعيه، يحصل مقدار التفكّر والتدبّر والتذكّر، والانتفاع بهذا الكتاب الجليل، **والله ما تدبّره من حفظ حروفه، وضيّع حدوده، وجهل علومه**، حتى أن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفاً، وهو في الحقيقة قد أسقطه كله! لأنه لا يُرى للقرآن عليه أثر في خُلُق ولا في قول ولا في عمل ولا في تعامل، كقوله **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ)** يونس/٥٧ **عن ابن عباس** (ما خالف القران فهو من خطوات الشيطان) الدر المنثور١/١٦٧، والقرآن يهديك إلى الصراط المستقيم، فيعطيك التوازن العام في الفكر والسلوك من داخل نفسك، ويجعلك متوازناً بين مطالب الروح والجسد، وبين مطالب الدنيا والآخرة، وبين مطالب الحياة والموت، والأمل والعمل، **فيربط نظام توازنك الإنساني الخاص، مع نظام التوازن الكوني العام**، فتكون معه في وحدة واحدة موحّدة متّحدة! هذه الحكمة من التدبّر في القرآن، فإنه أفضل الأعمال، ومتعة الأبحاث، وبالتدبّر تتوسّع آفاق العقل، وتحليق الفكر وانكشاف الحقائق، ومعرفة الدقائق، ليستخرجوا منه أنواع العلوم والأحكام والمواعظ والسنن، والأنظمة والآداب وسبل النجاة المتسامية..

٣٠ -﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

(لمحة عن قصة سليمان(ع)) سخّر الله له ما لم يسخره لأحد من الأنبياء، ولكن ذلك الملك لم يبعده عن الله **(نِعْمَ الْعَبْدُ)** فوازن بين مطالب الدنيا والآخرة، ومطالب الروح والجسد، والأمل والعمل، والحياة والموت، ملك كل شيء ولكن لم يملكه شيء إلاّ الله مالك الملك! **المعنى: (وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ) الهبة**: العطاء الجليل بدون مقابل، أنعمنا به عليه وأقررنا به عينه، فهو ولد صالح امتداد لأبيه، وأهّلناه للنبوة وعظيم المنزلة، فمدحه الله وأثنى عليه**(نِعْمَ الْعَبْدُ)** لصلاحيته الذاتية واستعداده للكمال النوعي الإنساني المتألق الخاص المميز، والوصول إلى مقام النبوة والخلافة والحكم، ومن أبرز صفاته **(إِنَّهُ أَوَّابٌ)**صفة مبالغة في الرجوع إلى الله، والتوكّل عليه وتفويض الأمور إليه سبحانه، في جميع الأحوال في النعم بالشكر، وفي المحنة بالصبر، أي مطيع لله مرتبط به متعلّق بطاعته والاجتهاد في مرضاته وتقديمها على كل شيء**(فتوجّه إلى وجه واحد يكفيك الوجوه كلها، وتحمّل همّاً واحداً يكفيك الهموم كلها)**! فلو أن نفسه هفت هفوة، وغفلت غفلة تجده يؤنّب نفسه ويندم ويرجع بسرعة إلى الله ليعيد قوة صلته به سبحانه، وبذلك يهذّب نفسه وييأس منه الشيطان، ويحدد نفسه الأمّارة بالسوء ويضبط دوافعها!.

٣١- ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾

في مساء يوم من الأيام أمر سليمان أن يستعرض الفرسان، باستعراض عسكري مهيب أمام عينيه، ليعرف ما أعدّه لجيشه للحرب من رباط الخيل، وكانت آنذاك هي السلاح وإعداد القوة كقوله (**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**)الأنفال/٦٠ **المعنى**: (**إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ**)عُرض عليه في آخر النهار (**الصَّافِنَاتُ**) أفضل الخيول الأصيلة التي تقف على ثلاثة قوائم وحافر القائم الرابع استعداداً للانطلاق وبهذا يكون لها منظر جميل (**الْجِيَادُ**)جمع جواد، وهي الخيل القوية السريعة واسعة الخطى، الأليفة الفاهمة الذكية المعدّة للجهاد في سبيل الله، والإنسان الجواد هو الكريم، فالسرعة المعقولة المنظّمة مطلوبة لذاتها ولغيرها، فتكون كل الاختراعات والصناعات السريعة البرية والبحرية والجويّة، مطلوبة للنهضة الحضارية للفرد وللمجتمع.

٣٢- ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾

(من الآيات المتشابهة) (**فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ**) **حبّ الخير**: حبّ الخيل التي تركها له أبوه (**عَن ذِكْرِ رَبِّي**)عن أمرِ ربي، إني ما أحببتها للدنيا ولذّاتها لهوى في نفسي وشهواتها، وليس لهواً ولا لعباً ولا للتباهي والرياء، وإنما أحببتها لأمر الله في الجهاد في سبيل الله لتقوية دينه وأمّته، يصوّر القرآن شخصية نبي الله سليمان بجانبه الإنساني على أرض الواقع بشكل متوازن، فيعطي للدنيا حقها وللآخرة حقها، عندما جرت الخيل في استعراضها العسكري (**حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**)حتى ابتعدت وغابت وحتجبت عن بصره. كقوله(**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**)الرعد/١١ (يحفظونه من أمر الله) بأمر الله وإذنه، لأنه لا قدرة للملائكة أن تحفظ أحداً من أمر الله، وبما قضاه عليه إلاّ بأمره وإذنه سبحانه.

٣٣- ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾

ولما غابت الخيل عن بصره ولم يرها فقال (**رُدُّوهَا عَلَيَّ**) أرجعوها إلى مكانها (**فَطَفِقَ**) فشرع (**مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ**) فبدأ يمسح بيده الكريمة (**بِالسُّوقِ**)جمع ساق، وهي سيقان الفرس (**وَالْأَعْنَاقِ**) جمع عنق، وهي رقبة الفرس، دلالة عن حبه لها واستحسانه لعملها، وكأنه يبارك لها ولتدريبها ولمدرّبها.

٣٤- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾

(من الآيات المتشابهة) (**وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ**) **الفتنة**: الاختبار، والفتنة غير مكروهة في ذاتها، ولكن السقوط والفشل في الاختبار هو المكروه، ومن ينجح في الاختبار خير كثير، لأن الفتنة تنقّي الإنسان من الذنوب، وتهذّب طبائعه من العيوب، وتزكّي نفسه الأمارة بالسوء، كما ينقّي الذهب بالنار من الشوائب، **المعنى**: ابتلى سليمان بمرض عضال (كما ابتلي غيره من

الأنبياء بأنواع البلايا) فضعف كثيراً حتى صار لشدة مرضه هزيلاً منهاراً كأنه جسد (**وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا**) وألقي به على سريره الخاص! ولم يبيّن القرآن تفصيل ذلك، وربّ تلميح أبلغ من تصريح! (**ثُمَّ أَنَابَ**) رجع إلى حالته الصحيّة بعد حين، ورجع إلى الله بتفويض أمره إليه بالدعاء، أن يغفر له ويشفيه مما هو فيه كقوله(**وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ**)الزمر/٨، **فائدة**: (**فلسفة البلاء**) الابتلاء والفتنة مدرسة تربوية ضرورية، وسنّة من سنن الله لكل الناس، وكلما ازداد الإنسان إيماناً وإزداد وعياً وعلماً وورعاً، ازداد مسؤولية في الدعوة إلى الله، وعلى قدر الشعور بالمسؤولية يكون مقدار البلاء ونوع الفتنة وحجم العناء (**والبلاء على قدر الطباع**) والابتلاء للأنبياء(ع) رفع درجة، ولمن دونهم غفران ذنوب، وتهذيب عيوب.
قيل: فِيْ الْمِحَنِ مِنَحٌ مِنَ اللهِ، وَفِيْ الْمَكَاْرِهِ مِكَاْرِمٌ، وَفِيْ الْمَشَقَّاْتِ خِبْرات، وَفِيْ الْمُعَاْنَاْةِ هِبَاْةٌ، وَالْبَلاءُ بِدَاْيَاْتٌ نِهَاْيَاْتُها الْكَرَاْمَاْتُ، كقوله (**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**)الكهف/٧، **عن الإمام الحسن العسكري**(ع) (مَا مِنْ بَلِيّةٍ إلاّ وَلله فِيهَا نِعْمَةٌ تُحِيْطُ بَهَا) البحار٧٨/٣٧٤.

٣٥-﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾

(**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي**) وطلبه للغفران في كل الأحوال ليكون عبداً شكوراً لله، وبالشكر تدوم النعم كقوله(**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**)إبراهيم/٧ وقوله(**لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**)النمل/٤٦ (**وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي**) وتقديم الاستغفار على الاستيهاب (**وَهَبْ لِي**) لإظهار عنايته بدين الله، وحكمه بالعدل والإنصاف، وكون ذلك من آداب الدعاء ومقدمات الإجابة، (**وَهَبْ لِي**)وأعطني ملكاً واسعاً نموذجياً مميزاً لا مثيل له، ملكاً مدعوماً بمعجزات مادية ومعنوية خارقة، خاصة بي غير معروفة وغير مألوفة عند الناس، لا يكون لأحد من بعدي، عادة تأتي المعاجز بإذن الله تعالى بحسب الظروف المناسبة لها، وكلما تعقّدت طبائع الناس وتشددت أمزجتهم، كلما كانت تناسبهم معجزة خارقة غريبة وعجيبة لإلقاء الحجة عليهم، وهي أكثر في الإقناع وأسهل في التأثير، ولتكون دلالة على نبوته ورسالته، مما يوحي بكرامة الله لنبيه وعنايته به فهو من عباده المخلَصين. **عن الإمام علي** (ع) (لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ وَلَا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ، وَلَكِنْ لِنَرُدَّ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ، فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وَتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ) شرح نهج البلاغة٨/٢٦١، وفي هذا دلالة ورخصة: على أنه إمْلُك كل شيء، على أن لا يملكك شيء إلاّ الله مالك الملك.

كقوله(**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**)الأعراف/٣٢، فقد نشأ نبي الله سليمان في بيت الملك والنبوة، وألَفَ حياة النعم والرفاهية، وعانى من قومه المعاندين الغلاظ الشداد، فأراد دليلاً على نبوته، قاهراً لقومه فلا بد من معجزة خارقة تناسبهم، ليدهشهم بقدرة الله، كما انفلق البحر لموسى،

وإحياء الموتى لعيسى، واختص صالح بناقة الله، واختص مُحَمَّد(ص) بالقرآن والمعراج **(إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ)** كثير العطاء بكرم بلا عوض، واسع الفضل كثير المواهب، وأنا عبدك ناصيتي بيدك، فحقق رجائي كقوله **(وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)** إبراهيم/٣٤ وقوله **(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)** الزمر/٣٦.

فائدة: فلسفة الاستغفار (رَبِّ اغْفِرْ لِي)

الأنبياء(ع) يسبحون لله ويستغفرونه في كل الأحوال كقوله **(وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ)** هود/٣، **عن النبي(ص)** (الاستغفارُ في الصحيفةِ يَتَلَأْلأُ نورًا) كنز العمال خبر ٢٠٦٤، يستغفرون الله من دون معصية، لإظهار الخضوع لله والارتباط به والقرب منه سبحانه، سواء أكان الاستغفار لأنفسهم أو لمن في الأرض، وكان النبي(ص) يستغفر الله كثيراً، عندما سُئل لماذا الاستغفار؟ وقد غفر الله لك كقوله **(لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)** الفتح/٢، **فقال(ص) (أفلا أكون عبداً شكوراً)** المراغي٨٣/٢٦، ولساني، ذاكراً، **والاستغفار**: مدخلاً مهماً من مداخل القرب إلى الله تعالى، بنزول الرحمة وطلب الحاجة وفتح أبواب الدعاء، لذا قدّم سليمان طلب المغفرة على طلب الحاجة، فالحاجة إذا سبقتها المغفرة والرحمة معناه أنها مقرونة بالحق والكمال، وبعيدة عن هوى أنفسهم وحبّ الدنيا، فحاجة الأنبياء ليست مطلوبة من أجل رغباتهم الخاصة وحبّ الزعامة وحبَّ الظهور، فكانت لسليمان قابلية على إدارة السلطة، وقيادة البلاد وساسة العباد بالعدل.

(العدلُ أساسُ الملك) فطلب من الله أن يعينه بتفجير مواهبه، فالله هو الكريم وسليمان يستحق الكرم والعطاء، فأكرمه الله بالملك الخاص المميز بعيداً عن حبّ الدنيا وحبّ الذات واللّذات والجاه كقوله **(وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)** العنكبوت/٢٧، **في غرر الحكم** (كُنْ في الدنيا بِبَدَنِكَ، وفي الآخرة بِقلبِكَ وعَمَلِكَ) وإنما كان سليمان يطمح الوصول إلى درجة الكمال ومنزلة الجمال ومقام الجلال ورفع الأمة إليه! فسعى لتحقيق هدفه الرسالي بأقصر الأساليب، ليجني أفضل النتائج. فانفرد سليمان بهيبة خاصة، وهبة نموذجية مميزة من الله تعالى، **عن الإمام الصادق** (ع) (أن آخر الأنبياء دخولاً في الجنة هو سليمان بن داود(ع) وذلك لما أعطي في الدنيا) البحار١٤ص٧٤.

٣٦-﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾

وقد استجاب له ربه، فأعطاه فوق الملك والسلطان المعهود ملكاً خاصاً مدهشاً غير معهود ولا يتكرر، وهكذا تعمل الطاعات المنقطعات لله بأهلها، **في غرر الحكم** (الطَّاعَةُ لِلَّهِ أَقْوَى سَبَبٍ، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ الْغَايَةُ الْقُصْوَى) فترتفع الحواجز المعنوية وتنكشف الحجب النفسية فترون العجائب، وتعرفون الحقائق، وتنكشف لكم الأسرار، وتنسّون مع الأقدار، **المعنى**: **(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ)** ذللنا له الريح مثل **(بساط الريح)** بطريقة إعجازية خارقة، تسير في طاعته إجابة لدعوته **(بإذن الله)** منقادة إليه من ناحية السرعة والقوة وبحسب الحاجة

والاتجاه، فتحمل ما يريد إلى أية جهة يطلب، ولكن ما هي هذه الواسطة الخارقة السريّة الخفية الإعجازية التي تحمل سليمان وخاصّته وحاجته، وتكون كأنها بساط أمين مفروش تحت تصرّفه! وتبقى هذه الخارقة في زمن سليمان خاصة به ولا تعمم، وهكذا كل معاجز الأنبياء لا تعمم، وهذا جزاء صبره عند بلائه وفتنته (**رُخَاءً**) ليّنة ومطيعة وهادئة وفاهمة (**حَيْثُ أَصَابَ**) حيث أراد وقصد وفي كل زمان ومكان.

فائدة:١-نلاحظ هنا الريح (**رُخَاءً**) وفي سورة الأنبياء/٨١ (**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ**) **عاصفة:** أي سريعة ضد رخاء، أي فهي معه (**رُخَاءً**) هادئة، في وقت الرخاء والنزاهة والاستطلاع وبحسب الحاجة إلى الهدوء، وهي (**عَاصِفَةً**) سريعة في الاستعمالات التي بحاجة إلى السرعة، ٢-معنى الريح في القرآن إذا أفردت كان معناها العذاب كقوله (**الرِّيحَ الْعَقِيمَ**) الذاريات/٤١، وإذا جمعت (الرياح)كان معناها الرحمة كقوله (**وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ**)الحجر/٢٢، وجاءت (**الرِّيحَ**)في هذه الآية، من المفترض أن تأتي في العذاب، ولكن الله ذللها له وسخّرها فلا تعمل معه هذه العملية، وإنما جعلها تحت تصرفه حيث أصاب، ٣-هناك إسرائيليات باطلة دسّوها المجرمون على داود وسليمان، وقد رفضها العلماء فليكن الإنسان على حذر من قبول أي شيء يخالف القرآن!

٣٧-٣٨-﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾

وذللنا له أيضاً (بحالة استثنائية لا تعمم)(**وَالشَّيَاطِينَ**)من الجن كذلك تعمل بأمره (**بإذن الله**) (**كُلَّ بَنَّاءٍ**) فيعملون له الأبنية الفنية الجديدة البديعة بأنواعها، في أقصر مدة وأقل تكلفة كقوله (**يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ**)سبأ/١٣ (**وَغَوَّاصٍ**) وإذا أراد أن يغزو البحر ليكتشف ما فيه من كنوز، لبّوا طلبه بسرعة وأعطوه تقريراً مفّصلاً دقيقاً عن جولتهم في أعماق البحار، وكان سليمان(ع) أول من استفاد من أعماق البحار، واستفاد من كل طاقة وبحث علمي، واستثمر كل موهبة، ووزّع الأعمال المتنوّعة بحسب الاختصاصات المطلوبة، فحصل في زمنه التقدم الحضاري النموذجي المدهش المميز، ٣٨-(**وَآخَرِينَ**) وأعطاه السلطة القوية في عقاب المخالفين المتجاوزين الحدود، والمفسدين المتمردين على نظام الدولة، وآخرين من الشياطين وغيرهم (**مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ**)ومنهم عصاة عتاة بغاة متجاوزين مشاكسين مخالفين أوامر سليمان، ومعتدين على سلامة البلاد وأمن العباد، (والعصا لمن عصى) فيعاقبهم بالسجن التأديبي التربوي، وليس الانتقامي، فيخضعون للتربية المركّزة والتعليم المفيد داخل السجن! (**مُقَرَّنِينَ**) مقيّدين (**فِي الْأَصْفَادِ**)في الأغلال وربطهم بالسلاسل والقيود كقوله(**وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ**)سبأ/١٢والعقوبة على قدر الجناية، ليتّقي شرّهم ويأمل خيرهم، وذلك كناية عن

سيطرته عليهم وتربيته لهم كقوله (**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**)البقرة/١٧٩، **في غرر الحكم** (رُدَّ الحَجَر مِن حيثُ جاءك؛ فإنّه لا يُرَدّ الشرُّ إلاّ بالشَّرّ) **فائدة:** نحن لا نعلم كيفية عمل الشياطين والجن، وبأي أسلوب يتم عقابهم، ولكننا مع حركة السياق القرآني ونكون معه حيث ما كان، ولا ندخل في التفاصيل خوفاً من الزلل، أما نحن فعلاقة الإنسان مع الشيطان علاقة وسوسة لا غير، كقوله (**الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ**) محمّد/٢٥، وكن من وساوسه على حذر.

٣٩-٤٠-﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾

وقلنا له (**هَٰذَا عَطَاؤُنَا**)الواسع لك، وكرمنا الذي لا ينفد، كينبوع فوّار معطاء لا ينقصه الإنفاق، ولا يزيده الإمساك، وأعطاه الصلاحيّات الواسعة، ومن أيقن بالعوض جاد بالعطية، كقوله (**مَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**)سبأ/٣٩، **وفي نهج البلاغة حكم١٣٨** (مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلَفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ) (**فَامْنُنْ**) فأعط منه ومن غيره ووسّع على من شئت (**أَوْ أَمْسِكْ**)وامنع عمن شئت(**بِغَيْرِ حِسَابٍ**) فلن تحاسب عليه يوم القيامة، لعلم الله تعالى بأنه حكيم التصرف، يضع الأمور مواضعها، ولا يتجاوز على حق الله ولا على حق الناس، إذا تحمّل الإنسان بصفات التكامل الإنساني فيكون قدوة حسنة، وقيادة مؤثرة في حركة المسيرة البشرية،٤٠-(**وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ**) ثم زاد على هذا كله، إنّ له عند ربه(**لَزُلْفَى**)لقربى وكرامة ومكانة رفيعة في الدنيا (**وَحُسْنَ مَآبٍ**) وله عندنا حسن مرجع، وحسن زاد ودرجات في جنة النعيم المقيم في الآخرة. سُئل النبي محمّد(ص) عن عطاء الله الخارق لسليمان (مختصر) فقال (لم يزده ذلك إلاّ تخشّعاً لربه) الأمثل١٤/٤٦٧ . **فائدة: عن الإمام الصادق** (ع) (آخر نبي يدخل الجنة سليمان بن داوُد (ع) وذلك ما أعطي في الدنيا) البحار١٤ص٧٤، كما أن الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء!، ٢-تشير الآية إلى أن الإنسان إذا كمل في إنسانيته، وصفيت نفسه، وسَلِمَ قلبه، يصير مؤهّلاً للفيض الإلهي وإمداداته بلا واسطة!! **من دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة** (إلٰهِيَ: أُطْلُبْنِي بِرَحْمَتِكَ حَتّى أَصِلَ إِلَيْكَ، وَاجْذِبْنِي بِمَنِّكَ حَتَّى أُقْبِلَ عَلَيْكَ)

٤١-﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾

(لمحة عن قصة أيّوب الصّابر) العبد الصالح(ع) ليكشف الله لنبيه محمّد(ص) سيرة الرسل الكرام، ومعاناتهم على طول حركة التاريخ (**من الآيات المتشابهة**) نبي الله أيّوب في زمان يعقوب بن إسحاق، وتزوّج بنت يعقوب(ع) وأيوب عانى كثيراً من أمراض جلدية غير معدية، مما لا يتحمله الإنسان العادي، وعندما ضاقت به الأمور استغاث بربه مبتهلاً إليه، أن يفرّج عنه، فاستجاب له بسرعة! **المعنى:** (**وَاذْكُرْ**)وتذكّر يا محمّد (**عَبْدَنَا أَيُّوبَ**)بأحسن الذكر وأثني عليه بأحسن الثناء، فهو من عباد الله الصالحين، وأضافه سبحانه إلى نفسه تشريفاً له وتفخيماً، حين أصابه الضر فصبر، ولم يشتكِ لغير الله، ولا يلجأ إلاّ إليه عز وجل، قصة ابتلاء أيّوب

وصبره الجميل، نموذج بارز مميز حتى صار يضرب به المثل بـ(**صبر أيّوب**) (**إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ**) دعا الله تعالى وتضرّع بلسان الاضطرار والافتقار، بعد سنين من الصبر الجميل على المرض والفقر وفقد الأهل (**أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ**) ومس الشيطان بالوسوسة إليه في أثناء مرضه **فيقول له**: طال مرضك ولا يرحمك ربك! لو كان الله يحبّ أيّوب ما ابتلاه، وكان أهله والناس يحدثونه بهذا فيؤذيه في نفسه، أشدّ مما يؤذيه الضر والبلاء الجلدي، ليقنط من رحمة الله وليجزع، فالتجأ إلى الله تعالى، ووسوس الشيطان إلى زوجته وأولاده..ومثل هذا حصل لموسى(ع) حين قتل القبطي فقال (**هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**)القصص/١٥. ونحن لا نعلم بدقة نوع هذا الضرّ، والقرآن لم يصّرح بهذا، ولكنه (ع) لم يصب بأذى ينفّر الناس منه، ويمنعهم من لقائه والجلوس معه، لأن ذلك شرط من شروط النبوة هو تبليغ الرسالة، ونعلم داءه من وصف القرآن دواءه المشافي الذي أوحى الله به إليه.

(**بِنُصْبٍ**) بتعب (**وَعَذَابٍ**) نفسي ومشقّة وألم جلدي، (**أَنِّي مَسَّنِيَ**) لم ينسب المرض المادي والسقم إلى الشيطان، وإنما نسب للشيطان (**بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ**)ما كان يتضرر به من وسوسته الّلاذعة لخاصته، وإثارة الرأي العام ضده، وإسناد العذاب ظاهراً إلى الشيطان تأدّباً مع الله تعالى ويشتكي إليه، ولا قدرة للشيطان على إمراض الناس كقوله (**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**) النساء/٧٦ فالمرض أسبابه من الإنسان والشفاء من الله كقوله(**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**) الإسراء/٦٥، فيكون نسبة العذاب إلى الشيطان على سبيل الكناية والمجاز، ولم يشك معاناته وعذابه النفسي لأي أحد، وهو يعرف أن الله يبتليه ويمتحنه ليرفع منزلته، ويسمع دعاءه واستغاثته ليتقرب إلى الله تعالى كقوله (**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**)الفرقان/٧٧ **ما يعبؤا بكم**: ما يصنع بكم، ما يبالي بكم؟ لولا دعاؤكم، **عن النبي(ص)** (الدُّعَاءُ سِلاحُ الْمُؤْمِنِ، وَعَمُودُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) الكافي٢/٤٦٨ ولم يصرّح القرآن ماهو السبب في مرضه، إلاّ أن هناك سنة عامة في الابتلاء كقوله (**وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً**)الأنبياء/٣٥ فلما ثبّت ربه عليه صدقه وصبره، وعدم شكواه لأحد، ونفوره من وساوس الشيطان، أدركه الله برحمته وأنهى فترة بلائه وامتحانه.

٤٢ – ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾

فاستجاب الله سبحانه لنداء أيّوب ودعائه، وهداه إلى سبيل النجاة، ليعرف الناس(أن دوام الحال من المحال) كقوله (**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**)الانشراح/٥-٦، **المعنى**: (**أرْكُضْ بِرِجْلِكَ**) وأمره سبحانه أن يضرب برجله الأرض، وبمجرد أن ضرب بها، فنبعث له عين ماء صافية، وتفجّرت باردة شافية نقية(**هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ**)فيغتسل منها (**وَشَرَابٌ**) ويشرب من معينها، يذهب مرضك وتنتهي معاناتك! فاغتسل وشرب فبرئ بسرعة من مرضه

النفسي والجلدي، وتحسّنت أحواله كقوله(**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**)الزمر/١٠ **فائدة:** ١- (**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ**) ليلفت نظره أن علاجه كان تحت قدميه، فهو قريب منه وسهل تناوله وبلا مشقّة! وهذا لطف الله ورحمته على أيّوب وعلى الناس كقوله(**اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ**) الشورى/١٩، **وفي هذا دلالة:** إنّ كثيراً من حاجات الناس قد تكون قريبة منهم، ولكنهم لا يهتدون إليها سبيلاً إلاّ بإلهام الله وتسديده، كقوله(**وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**)البقرة/١٥١

٤٣ -﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

(**وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ**) فأعادهم الله إليه، وجمعهم له بعد تفرّقهم عنه! عندما رأوه صحيحاً فجأة بطريقة إعجازية خارقة (**وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ**) وكذلك رزقه بغيرهم من الذرية والأحفاد والأتباع وغيرهم (**رَحْمَةً مِّنَّا**)قد فعلنا به كل هذه الفيوضات والإمدادات رحمة منّا به، لصبره واخلاصه وضبط أعصابه، ورفقاً بعواطفه ونفسه الشفافة وكثرة معاناته كقوله(**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**)السجدة/٢٤، **في غرر الحكم** (بِالصَّبْرِ تُدْرَكُ مَعَالِي الْأُمُورِ) كقوله (**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**) الأنبياء/٨٣ (**وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**)وليكون (صبر أيّوب)ذكرى وتأمل وعبرة وموعظة عند تعرّض أصحاب العقول المرنة الواعية للمشاكل الصعبة، وأن يستعينوا بالصبر والصلاة وبالدعاء والتضرع لله تعالى، وأن لا ييأسوا من رحمة الله، (فمن صبر ظفر، ومن لجّ كفر) (**لِأُولِي الْأَلْبَابِ**) لأصحاب العقول الراجحة المفكرة المستنيرة، والقلوب المنفتحة السليمة، فيعتبرون بها فيصبرون كما صبر أيّوب(ع) **في غرر الحكم** (اَلصَّبْرُ عَلى مَضَضِ الغُصَصِ، يُوجِبُ الظَّفْرَ بِالفُرَصِ) **الذكرى:** الخاطر الذي يمرّ بك، أو المذكّر الذي يذكّرك ويؤثر عليك ويوجهك إلى مورد الذكرى المهم لك كقوله (**إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا**)المزمل/١٩ **فائدة:** المهم في معرض قصص الأنبياء(ع) لبيان سنّة الابتلاء العامة التي تكشف معادن الناس، وتظهر الفوارق والتطابق بين مدّعياتهم وحقيقتهم، ولبيان رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه، وترضى نفوسهم بقضائه، (**وعلى قدر الطباع يكون البلاء**) وعلى قدر البلاء تكون الرحمة، وعلى قدر العناء تكون العناية والرعاية.

٤٤ -﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾

ويبدوا أن أيوب(ع) حلف عند الغضب، وهو مريض لسبب أو لآخر، أن يضرب من يريد ضربه لسوء تصرفه معه وتجاوزه عليه كقوله (**وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**)النور/٦١، وبعد شفائه ندم واستغفر الله ورغب أن يعفو، والعفو تاج المكارم، وعزّ النفوس كقوله (**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**) الحجر/٨٥، فرخّص له ربه فقال(**وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ**) خذ بيدك (**ضِغْثًا**) حزمة صغيرة من الحشيش ونحوه الخفيف النظيف (**فَاضْرِب بِّهِ**) لم يحدد القرآن من يضرب به

ولم يحدد عدد الضربات، وأن يضرب بهذه الحزمة الخفيفة، ضربة واحدة لا غيرها، ضربة صورية لأداء الحلف! (**وَلَا تَحْنَثْ**)لا تُخلف يمينك، فجاءت الآية تبيّن كيفية التخلّص من هذا الحلف واليمين كقوله(**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**)البقرة/١٨٥(**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا**) على البلاء ناجحاً في الامتحان بدرجة امتياز كقوله (**وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**) آل عمران/١٨٦ (**نِّعْمَ الْعَبْدُ**) الذي صدق بعبوديته لله فلم يتعلّق بغير الله، **في نهج البلاغة خطبة١٩٣** (عَظُمَ اَلْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ)! وعلى قدر العبودية تكون الرحمة، ويكون رضا الله. **في غرر الحكم** (مَن قامَ بشَرائطِ العُبودِيَّةِ أُهِّلَ للعِتْقِ)ومن قصرّ عن أصول العبودية أعيد إلى الرّق! (**إِنَّهُ أَوَّابٌ**) إنه كثير الرجوع إلى الله، بكل مشاعره لتعلّق قلبه بالله، فهو كثير الصلة والارتباط بالله في كل الأحوال. **فائدة:**١-(**وَجَدْنَاهُ**)يعرف الله نتائج الأمور قبل حصولها كقوله(**وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ**)القمر/٥٢-٥٣، ولكن معنى(**وَجَدْنَاهُ**) ليعرف نفسه بنفسه في هذا الابتلاء، ٢-**قيل:** فِيْ الْمِحَنِ مِنَحٌ مِنَ اللهِ، وَفِيْ الْمَكَارِهِ مِكارِمٌ، وَفِيْ الْمَشَقَّاتِ خِبْرات، وَفِيْ الْمُعَانَاةِ هِبَاتٌ، وَالْبَلايا بِدَاْيَاْتٌ نِهَاْيَاْتُهُا الْكَرَاْمَاْتُ، **عن الإمام الحسن العسكري** (ع) (مَا مِنْ بَلِيةٍ إلاّ وَلله فِيهَا نَعْمَةٌ تُحِيطُ بِهَا) البحار٧٨ص٣٧٤، **عن الإمام الصادق** (ع) (أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ، ثم الذين يلونَهم، ثم الأمثلُ فالأمثلُ) سفينة البحار١/١٠٥.

٤٥ -﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾

(**وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ**)وكانوا قبل داود وسليمان، **المعنى:** وتذكّر يا محّمد (**عِبَادَنَا**) الصالحين الذين أخلصوا لنا الولاء والانتماء والاّتباع، فكانوا أوفياء، هؤلاء الأنبياء الأخيار، إجعلهم قدوة حسنة وقيادة نموذجية صالحة لك، الذين جمعوا بين (**أُولِي الْأَيْدِي**) الأقوياء في دين الله، وأصحاب القوة الجسدية (**وَالْأَبْصَارِ**) من البصيرة النافذة في الدين، أصحاب القوة الروحية والعبادية والأخلاقية، وعلمهم ومعارفهم في أمور الدين والدنيا، فالأبصار لا قيمة لها إذ لم تقوَ البصيرة وانتباه المبصر، **عن النبي (ص)** (إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عيني قلبه، فيشاهد بها ما كان غائباً عنه)! نور الثقلين٣/٥٠٨ وهو قوله (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)الحج/٤٦ فالحيوان يبصر ولا يعقل، والجاهل يبصر ولا يتفكّر، فهولاء الأفذاذ جمعوا بين النظرية والتطبيق، وجمعوا بين قولهم وعملهم، فلا يختلف قولهم عن عملهم، ويكون عملهم ترجماناً لقولهم، وأصحاب الحدس الدقيق للأحداث، والفراسة والنباهة والفطنة في تشخيص الأمور كقوله (**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**)الحجر/٧٥ **المتوسّمون:** المتفرّسون، **عن النبي(ص)** (إحذروا فَرَاسَةَ المؤمِنِ ، فإِنَّهُ ينظُرُ بنورِ اللهِ ، وينطِقُ بتوفيقِ اللهِ)كنز العمال خبر٣٠٧٣١، **فائدة:** (**الْأَيْدِي**) جمع يد، وتطلق على ما تأتي به من فعل، لأن أغلب الأفعال تزاول باليد، فنسب كل فعل معروف إلى يده، كلمة (**الْأَيْدِي**) من الكناية التشبيهية عن القوة والقدرة في انجاز العمل الصالح النافع للناس (**الْأَبْصَارِ**)من الكناية

التشبيهية والاستعارة البلاغية، عن وضوح الرؤية للأشياء، وسعة الأفق في العلوم والنظريات ونقاء الفكر، والنظر الصائب والفكر السديد والعمل الرشيد والوعي الجديد والمفيد، **وكأن الآية تقول:** من لا يعمل صالحاً لا يد له، ومن لا يتفكّر بدقة لا عقل له ولا نظر له، ويقوده الذين يفكرون. وهذا درس حركي فاعل للقيادة الإسلامية في الدعوة إلى الله أن يكونوا (**أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ**) (قيمة كل امرئ على قدر خبرته ومقدار تجربته) ونوع اختصاصه، **ومن الخيانة:** أن يستلم الإنسان موقعاً سيادياً وقيادياً، مهماً وهو غير مؤهّل لذلك.

٤٦ –﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾

إنما كانوا مقربين لنا لأنا (**إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ**) إنا أعطيناهم صفة تكريمية سامية، وخصصناهم وأهّلناهم فجعلناهم خالصين لنا في الطاعة، مخلصين في العمل الصالح النافع للناس، وصدقهم معنا، بسبب صفات صادقة خالصة نقية شفافة تقية عظيمة الشأن، لا شائبة فيها غير ملوثة بحبّ الدنيا والتعلّق بها، وغير مشوبة بالنقائص والعيوب والسيئات، وهذه الخالصة الصافية المميزة هي التي تشدّهم دائماً إلى دار الجزاء، وهي(**ذِكْرَى الدَّارِ**) وهي تذكّرهم الدائم وتعلّقهم المستمر (**للدار الآخرة**) وهي الدار الحقيقية الخالدة، وفيها العيش السعيد الدائم(ولا عيش إلاّ عيش الآخرة) مما ساعدهم الثبات على الاستقامة في منهج الله، لإيمانهم الكامل بالآخرة، وتذكّرهم المستمر واستعدادهم اللازم لها وتذكيرهم الناس بها، وعدم تعلّقهم في الدنيا وزهدهم فيها كقوله (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) القصص/٧٧.

وفي نهج البلاغة (ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه) خطبة/١٣٣ (**ذِكْرَى الدَّارِ**) المستغرقون في ذكراها المستعدّون لها، فهي معهم ومنهم وإليهم أينما كانوا، وهم معها بوضوح بدرجة اليقين الذي لا شك فيه، **واليقين أفضل عبادة، وأحسن قيادة، وأرقى عادة** (باليقين تدرك الغاية القصوى) نهج البلاغة خطبة/١٥٧، إنهم أخلصوا لله، فأخلصهم الله لنفسه واختصهم برسالته وجعلهم من خيرة خلقه كقوله (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) الممتحنة/٤ **فائدة: (ذِكْرَى الدَّارِ)** لقد ركّز القرآن على الآخرة، **لأن الحياة لغز مبهم لا يمكن حلّه لولا الإيمان بالآخرة**، فإنها تبيّن لك فلسفة الحياة، والإيمان بالآخرة يعلمنا قاعدة مهمة في الحياة تقول(الذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ) أي الذي يعرف الآخرة فإنه يعرف كيف يبدأ حياته بالدنيا ليفوز بالآخرة والدنيا. كقوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) النساء/١٣٤.

٤٧ –﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾

(وَإِنَّهُمْ عِندَنَا)وإنهم عند الله تعالى في ميزان الله وليس في ميزان الناس، إنهم لهذه الصفات التكاملية أهل للاصطفاء والقربى عندنا، لمعرفتنا بهم حق المعرفة **(لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ)** لمن صفوة الخلق، لمن المختارين الأبرار، المناسبين لدرجة النبوة وتحمّل أعباء الخلافة والرسالة، الفاعلين للأعمال الصالحة النافعة الكبيرة والكثيرة للجميع، لذلك هم المختارون على سائر الناس بسبب اختيارهم صفات التكامل الإنساني، لذلك فالاصطفاء للتكليف والتشريف معاً **(الْأَخْيَارِ)** المطبوعون على فعل الخير، والذي يزرع الخير يحصد الخير كقوله (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا) آل عمران/٣٠،فهم الأخيار على كل صعيد نظري وعملي، ظاهري وباطني، الذين حسن إيمانهم وظهر منافع عملهم الصالح للناس، وأخلصوا لله،وكثر نفعهم لأنفسهم ولأمتهم وللناس أجمعين، خيرهم مأمول وشرّهم مأمون،أصحاب الخلق الكريم والعلم الجليل، والعمل المستقيم مع كثرة معاناتهم، فكانوا محلاً للأصطفاء.

٤٨- ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾

(وَاذْكُرْ) وتذكّر يا مُحَّد هؤلاء الرسل الصالحين المكرمين بأحسن الذكر،واثن عليهم أحسن الثناء، وتأمل مسيرتهم الحياتية **(وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ)** الأبرار والقدوة الحسنة، وتحمّل الأذى في سبيل الله، الذين آمنوا بمنهج الله فكراً وسلوكاً وأخلاقاً، وحرّكوه دعوة صالحة منقذة من الضلالة ومن حيرة الجهالة، ومارسوه تطبيقاً مع الناس ليكون نموذجاً للاقتداء كقوله(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) الأنعام/٩٠، وكل الأنبياء والمبلغين لرسالات الله يعملون على **قاعدة: (تعدد أدوارهم، وأختلاف أساليبهم وظروفهم،** ولكن يجمعهم وحدة هدف سامية) وهي هداية الناس واستقامتهم على منهج الله كقوله (رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥

٤٩- ٥٠- ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ، جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ﴾

(هَٰذَا ذِكْرٌ) وذكرى وتذكير وتربية وتعليم لمن يتذكّر، وأراد أن يتعلّم ويتّقي الله **(هَٰذَا ذِكْرٌ)**فاعل مؤثر في الحاضر والمستقبل يذكرك بالله والالتزام بمنهجه **(هَٰذَا ذِكْرٌ)** مبارك جميل وشرف جزيل وعاقبة حسنة في حركة المسيرة الرسالية، ذكَرَهم القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون ويقتدي بهم المقتدون **(هَٰذَا ذِكْرٌ)** لك يا مُحَّد(ص) ليعلم الناس أنه ليس بدعاً من الرسل، وأن له الجزاء الأوفى على ما تحمّل من متاعب في سبيل الله، لم يكن الهدف عرض نماذج من قصص الأنبياء(ع) وإنما الهدف التذكّر والتدبّر وإيقاظ العقل،وأخذ العبرة ومعرفة السيرة،ورفع المستوى العلمي وزيادة المقاومة والصمود أمام الأحداث السياسية المتغيرة، والاطّلاع على حركة السنن التاريخية، **في نهج البلاغة** (اتّعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم)خطبة/٣٢ **(وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ)** المتورعين عن محارم الله من كل مؤمن ومؤمنة (من اتّقى

الله وقاه) لهم في الدنيا القلب المطمئن، والذكر الجميل، وفي الآخرة الجزاء الجليل(**لَحُسْنَ مَآبٍ**) لمآلاً حسناً ومرجعاً مستحسناً، والأمور بالخواتيم كقوله(**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**) القصص/٨٣، فيكون (**لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ**) مقابل (**لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ**) ص/٥٥، فليختار الإنسان مع أي اتجاه يكون؟ ويحاسبه الله على اختياره، ٥٠-(**جَنَّاتِ عَدْنٍ**) جنّات الخواص والنخبة، وجناح القدوة والقيادة الرشيدة، جنّات التكريم والتعظيم والإقامة والخلود، يدخلونها بسلام آمنين (**مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ**) مفتحة لأجلهم أبواب منازلهم ومساكنهم لا يحتاجون أن يفتحوها، وحين يردونها يجدون أبوابها مفتوحة انتظاراً لقدومهم، لأن الله قد أعدّها لهم منذ أن اختاروا الاستقامة على منهج الله! وتأتي ملائكة الجنة يحيّونهم ويسلّموا عليهم كقوله (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) الأحزاب/٤٤ وقوله (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)السجدة/١٧، **وعن النبي(ص)** (عدن دار الله التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة: النبيين والصدّيقين والشهداء) **فائدة:** (**اتقوا الله**) من مادة وقى ووقاية وحفظ الشيء مما يؤذيه، ووقاية النفوس من نار جهنم، وتهذيب النفوس من الخصال السيئة، واتّقاء معاصي الله بالتمسّك بطاعته،تارة تأتي (وقى) في القرآن بلفظ (**اتقوا الله**) أي صفة التقوى، وتارة تأتي بلفظ المتقين المتصفين بالتقوى للوقاية من المعاصي ومساوئ الأخلاق، وتارة تأتي(**اتقوا ربكم**) (واتقوا النار)(واتقوا فتنة) أي اتقوا وتجنبوا واحذروا المفاجآت والمخبّآت والمتحوّلات!

٥١-٥٢-﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ، وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾

(**مُتَّكِئِينَ فِيهَا**) مستندين في الجنة إلى مساند، على سرر جميلة ومجالس أنيقة، لرفاهية النفس ومتعة في الطعام وجمال الكلام، ولذة في الشراب واسترخاء في الفراش، للدلالة أن مجالس الجنة للأنس والراحة التي لا تمل، فلا يخالطهم همّ ولا يشغل بالهم حزن، ولا عليهم تكليف. (**يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ**)يطلبون من الفواكه الكثيرة، وألوان الشراب اللّذيذ، ومهما طلبوا وجدوا من غير حاجة إلى من يحمله ويناوله!(**والفاكهة**) تأتي أيضاً من التفكّه والفكاهة والأنس والأنشراح كقوله(فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)الطور/١٨ وإنما خص الفاكهة والشراب دون أنواع الطعام، لأن طعامهم وشرابهم وفاكهتهم للتفكّه والتلذذ من دون التغذّي، لأنه لا جوع في الجنة لعدم حاجة أجسامهم إلى الطعام الذي يهظم ويتحلل ويمتص كما في الدنيا، لأنها خلقت مكيفة للعيش الخالد الأبدي.

٥٢-(**وَعِندَهُمْ**) في الجنان زوجات من الحور العين كفؤ لهم وتسكن معهم، زوجات صالحات جميلات جذّابات واسعات العيون(**قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ**) غاضات البصر، عفيفات نظيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن،ينظرن باستحياء نظرات قصيرة تسرّ زوجها إذا نظر إليها، لأن بينهما وحدة النفس، فيعيشان بوحدة سكن مشترك،مع شفافية جمالهن الأخاذ كلهن، ومحبة كل زوج

منهما للآخر ولا يرغب بدلاً عنه،كقوله (**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ**) الزمر/٣٤ (**أَتْرَابٌ**) جمع ترب، والترب الشبيه والمثيل،أي زوجات متماثلات متساويات منسجمات كفوءات متألقات متآلفات،كلهن على ميزان واحد في الجاذبية والجمال، دون تفضيل واحدة على الأخرى، لأنهن قمة في الجمال والكمال والجلال، **وصفة أهل الجنة أنهم في عمر واحد رجالاً ونساءً**، لذلك لا عجوز فيهن ولا صبيّة ولا امرأة غير جميلة، ولا تباغض بينهن ولا كراهية، ولا غيرة عندهن، فكما أن شرابهم وطعامهم للتفكّه،كذلك زواجهم ليس للإنجاب والتناسل وإنما للسكن والمساكنة وحسن المعاشرة كقوله (فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا، عُرُبًا أَتْرَابًا) الواقعة/٣٦-٣٧ **عرباً أتراباً:عرباً:** العاشقة لزوجها، وكلهن أمثال أزواجهن في السن والجمال والمودّة والرحمة المتبادلة والمتعادلة بينهما، بمعنى أنها مناسبة له مع نفسه وطبعه وعمره ورغباته، وفيما يحبّ أن يراها عليه، وأيضاً هي تحبّ أن تراه عليه.**عن النبي(ص)** (إظفر بذات الدين تربت يداك) أي لا يفوتنك ذات الدين، فهي نعمة النعم وقيمة القيم ودرع من النار (**تربت يداك**) أي فزت وسعدت وغنمت بهذا الاقتران، وهي كناية بلاغية واستعارة تشبيهية عن نعمة السكن الزوجي والاستقرار النفسي المشترك كقوله (**لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا**)الروم/٢١، وحسن المعاشرة وجمال الملاطفة والسعادة المشتركة كقولة (فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ)النساء/٣٤

٥٣-٥٤-﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ، إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾

يدعونا الله تعالى ويرغّبنا للعمل والاستقامة على منهجه، ليكون خير الزاد ليوم المعاد، ولكن المتقين قدّموا له خير الزاد كقوله (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ)البقرة/١٩٧، **المعنى: (هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ)**يا متقيناً من نعم الجنة (**لِيَوْمِ الْحِسَابِ**) ليوم الجزاء كقوله (ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) النجم/٤١، ووعد الله حق فهو وعد صادق وحقيقة مقطوعة ومحسومة أكيدة غير كاذبة،ونعيمه متحقق ثابت لايزول، ولا تستطيع أية قوة معارضته،كقوله (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ)البقرة/٢٨١، ٥٤-(**إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ) يقول أصحاب الجنة:** هذه النعم الكريمة التي أنعم الله بها علينا برحمته هي رزقنا الذي لا يُحصى (**مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ**) ماله من انقطاع وزوال وانتهاء، فهو نعيم دائم مستقر في جميع الأوقات لأن خزائن الله لا تنفذ، لاينقص منها شيء أبداً على كثرة الواردين عليها كقوله (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ) النحل/٩٦ **فائدة:** قال (**هَٰذَا لَرِزْقُنَا**) ولم يقل (إن هذا لرزقكم) لأن المتّقين هم يقولونها باستبشار وافتخار.

٥٥-٥٦-﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾

(هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ)

يصور السياق القرآني البليغ مشهدين متقابلين من المشاهد المتنوعة المثيرة في يوم القيامة،مشهد فيه مقام التكريم والاحترام بقوله(**وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ**) ص/٤٩، يقابله مشهد الأشرار التعيس (**هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ**) جزاء (**الطاغين**) المتعالين المتجاوزين لحدودهم الإنسانية، والمتعدّين على منهج الله ورسله ورسالاته وعلى الناس كقوله(وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)الطلاق/١، **والطغيان**: تجاوز الحد في العصيان على البلاد، ونشر الفساد في العباد (**لَشَرَّ مَآبٍ**) فإن لهم لشرّ مآل، وسوء العاقبة في الآخرة، والإنسان مثلما يزرع يحصد ما زرع، فمن يزرع الطغيان يحصد الخسران والنيران،لأن الطاغين تستهويهم شهواتهم فتهبط عقولهم إلى مستوى شهواتهم كقوله(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)الفرقان/٤٤، **وفي نهج البلاغة (كم من عقل أسير تحت هوىً أمير)**حكم/٢١١، في غرر الحكم (إذا كَبُرَ العقل صَغُرت الشّهوة، وإذا كَبُرت الشّهوة صَغُرَ العقل) **فائدة**:كافح القرآن الطغاة، ووصفهم بأقبح الصفات، توعّدهم بأقصى العقوبات،وكل إنسان طاغية يقهر الناس بسلطانه، ويقهر من هو أضعف منه، فإن الله سبحانه يعامله يوم القيامة معاملة من كفر به وأشرك، وإنْ جرت عليه في الدنيا أحكام المسلم، بل هو عند الله أسوأ حالاً ممن جحد كقوله (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ)البقرة/٢٥٧، **عن الإمام الباقر**(ع) (إنّ أقرب ما يكون العبد إلى الكفر، أن يواخي الرجل على الدين، فيحصي عليه عثراته وزلاّته ليعنّفه بها يوماً ما) البحار٢١٥/٥٧، سئل الإمام الصادق(ع)عن أدنى ما يكون به الإنسان مشركاً فقال(من ابتدع رأياً فأحبّ عليه أو أبغض عليه) الكافي٣٩٧/٢، ٥٦-(**جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا**) يدخلونها ويحترقون بها وهم لها وقود(**فَبِئْسَ الْمِهَادُ**) **المهاد**: فراش الطفل المعدّ له من يتولى أمره،كذلك الكفّار يعدّ الله لهم المكان المناسب اللائق بهم الذي سيتعذبون فيه، فبئس النهاية من كان فراشه ومستقره عذاب جهنم!،والمهاد هنا على سبيل الكناية والتشبيه والاستهزاء بهم، إذ لا مهاد في جهنم ولا استراحة ! كقوله (مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)الروم/٤٤

٥٧-٥٨-﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ، وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾

(هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ)

هذا هو العذاب المهين الموعود لابد أن يذوقوه مكرهين، كما يستذوقون طعم الطعام والشراب،إنه تصوير قرآني بديع وكأنما يغوص في أعماق النفس فيهزّ مشاعرها،مع الفرق الكبير بين الحالتين!وقد سمّي العذاب بالتذوّق،لأن الذائق يتحسس ويدرك بكل مشاعره طعم الطعام جيداً،كذلك يتحسس الطغاة بكل مشاعرهم بألم العذاب وشدته وطول العناء ومدته تهكماً ولا مبالاة بهم(**حَمِيمٌ**)ماء محرق شديد الحرارة (**وَغَسَّاقٌ**)وهو أكره شراب يشربونه مكرهين، وهو صديد منتن كريه الطعم والرائحة،يسيل من جروح أهل النار وحروقهم! ٥٨-ثم زاد في التهديد

وشدّد في الوعيد فقال(**وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ**)ولهم مع ذلك العذاب،عذاب آخر من شكله ومن جنسه ومن طبعه (**أَزْوَاجٌ**) أنواع كثيرة وأشكال متنوعة وأصناف متعدّدة من العذاب للطغاة، كالزمهرير والسموم وشجرة الزقّوم،فالذي يتفنن بالمعاصي والطغيان فسوف يتفنن الله له بألوان العذاب، ويستذوق أشكال العناء!(**والعقوبة على قدر الجناية**) في غرر الحكم (**المرء حيث يضع نفسه**)كما يتفنن بعض المتّقين في طاعتهم الكثيرة والكبيرة لله،فيتفنن الله معهم بتكريمهم بأنواع المفاجآة والمكافآت والمخبّآت كقوله (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)السجدة/١٧

٥٩-٦٠-﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ، قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾

يعرض القرآن مشهد ثالث حي متحرك من مشاهد يوم القيامة،فيه حوار ساخن من أولئك الطاغين من أهل جهنم،كانوا في الدنيا متحابين واليوم متخاصمين **المعنى**: (**هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ**) تقول خزنة جهنم لرؤساء الكفر والفساد(**هَٰذَا فَوْجٌ**) **الفوج**: طائفة كبيرة وجمع كثير، وقطيع من الناس الطاغين المجرمين(**مُّقْتَحِمٌ**)يدخلون معكم في النار بذنوبهم، مكرهين وبشدة وعنف وفجأة وبلا رويّة ولا عناية، كقوله (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) الأنفال/٥٠، هؤلاء يقتحمون لهيب النار فوجاً بعد فوج، بمجموعات كبيرة وعلى شكل دفعات، وهم يتلاعنون، فلما رآهم أهل النار السابقون قالوا (**لَا مَرْحَبًا بِهِمْ**)لا أهلاً ولا ترحيباً بهم ولا خير في قدومهم،بل هو دعاء عليهم،ولا سعة عندنا ولا فرح هنا كقوله (كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا) الأعراف/٣٨، لأنهم(**صَالُوا النَّارِ**)إنهم في أتعس حال يستذوقون عذاب النار كما كانوا يستذوقون أعمالهم الفاسدة السيئة،٦٠-فردّ أتباعهم المستضعفون لقادتهم الطاغين الذي أضلّوهم (**قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ**)بل أنتم لا أهلاً ولا مرحباً بكم ولا كرامة لديكم لضلالكم لأنفسكم وإيّانا، وأخذتمونا إلى هذا المصير المأساوي الرهيب،وهذه تحية أهل النار باللعنات والعداوات والشتائم بدل التحيّات والسلام! (**أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا**) أنتم قدتم العذاب لنا بضلالكم إيّانا وحجبكم نور الإيمان عنا، فأنتم تتقدمون علينا بالعذاب كما تقدمتم علينا في الدنيا في الفساد كقوله تعالى عن فرعون (**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ**)هود/٩٨، تشير الآية إلى خطورة الاتّباع الأعمى،وتقليد الآخرين بلا علم، فإنه أوله ضلال وآخره ندامة، **في الحديث** (من سنَّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة)! مجمع البيان٣/٣٧٧ (**فَبِئْسَ الْقَرَارُ**) فبئس المصير، وأسوأ ختام الذي صرنا إليه جميعاً،وهكذا دائماً مصير أصدقاء السوء ينتهي بهم إلى سوء العاقبة، وبالعداوة والبغضاء بينهم وهم في العذاب مشتركون كقوله(وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) الأعراف/٢٠٢ وقوله

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) الزخرف/٦٧، **وفي غرر الحكم**(إيّاك ومصاحبة أهل الفسوق،فأن الراضي بفعل قوم كالداخل معهم)

٦١-٦٢-﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ، وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾

وظلّوا يتبادلون الاتهامات إلى أن (**قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا**)وهو قول المستضعفين:ربنا من أوصلنا إلى هذا المصير الأسود (**فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ**) فزده عذاباً مضاعفاً من النار لأنهم عناصر ضلال وفساد في هذا الوجود،٦٢-يصوّر القرآن مشهداً آخر حقيقياً من مشاهد يوم القيامة، مشهداً يحرّك الله به المشاعر ويحيي الضمائر(**وَقَالُوا**) أهل النار لبعضهم وهم في النار (**مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ**)كنا نعتبرهم في الدنيا من الأراذل وحثالة المجتمع ولا خير فيهم! يعنون بهم المؤمنين الفقراء من أصحاب مُحَمَّد(ص)الذين لا حق لهم في الحياة، وكنا نضطهدهم ونحتقرهم!ووصفوهم بالأشرار لمخالفتهم قناعات أسيادهم من الشرك والضلال، فإذا انحرف القادة الطغاة ينبغي أن تنحرف الناس معهم! فاتّخذوا أنفسهم آلهة من دون الله يُعبدون، والناس مطايا يساقون! وهذا المستوى من الناس همج رعاع، ينعقون مع كل ناعق كقوله (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ)المطففين/٢٩، إقرأ واعتبر كي لا ترى نفسك كبيراً أكبر من قدرك، فيصبح الناس صغاراً في عينيك، **في غرر الحكم** (رحم الله أمرءاً عرف قدره ولم يتعدَّ طوره).

٦٣-٦٤-﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ، إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾

(**أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا**)**سِخرياً**: بكسر السين تعني الاستهزاء، وبضم السين تعني الاستغلال والاستذلال كقوله(**لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا**)الزخرف/٣٢، **المعنى**: يقولون عندما لا يرونهم في النار معهم، يؤنبون أنفسهم قائلين: اتّخذنا هؤلاء المؤمنين الفقراء هزؤاً في الدنيا، وسخرنا منهم ومن أفكارهم ومواقفهم فأخطأنا،فأين هم الآن؟ في جنة النعيم أم معنا في مصير الجحيم في موقع آخر من النار؟(**أَمْ زَاغَتْ**)أم مالت وانحرفت (**عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ**)فلا نراهم وهم معنا يعذّبون في جهنم لسعة حجمها؟٦٤-(**إِنَّ ذَٰلِكَ**)الذي أخبرناك به (**لَحَقٌّ**)لا شك فيه أبداً، وحقيقة واقعة بكل تأكيد (**تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**)من جدال ونزاع وتلاعن أهل النار بعضهم مع بعض، وهي الضوضاء التي لا تنفعهم شيئاً فيندمون ويتلاومون كقوله (فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) الحجرات/٦ **في غرر الحكم** (عند معاينة أهوال القيامة، تكثر من المفرّطين النّدامة)

٦٥-٦٦-﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾

هذا بيان لمهمة رسول الله (ص)

المعنى: (**قُلْ**) للمشركين يا مُحَمَّد(**إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ**)أي مخوّف لكم من حقيقة القيامة والتي فيها الجزاء والحساب الحاسم! ومحذّر ومنذر وتدعو الناس إلى منهج الله كقوله (لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ)الغاشية/٢٢ لماذا الانذار دون التبشير؟ لأن الكلام موجه للعصاة المعاندين. (**وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ**) إنها حقيقة التوحيد الخالص، الذي ينفي كل إله ويثبّت إلوهية الله تعالى، وهذه قاعدة تربوية في التخلية أولاً من كل السلبيات،ثم التحلية من كل الإيجابيات، فلا ملجأ ولامنجى ولا مأوى ولا مفر من الله إلاّ إليه كقوله (**لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**) الأنعام/١٠٣، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠ وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤ **في غرر الحكم** (إذا خفت الخالق فررت إليه، إذا خفت المخلوق فررت منه)! إنه خوف هيبة ورغبة وليس خوف رهبة ورعبة، احتجب الله سبحانه بغير حجاب محجوب، ليعلم الإنسان أنك لا تحتجب عن خلقك، ولكن تحجبهم الأعمال السيئة دونك،**في دعاء الإمام الحسين بن علي**(ع) **في يوم عرفة** (إلهي كيف تخفى وأنت الظاهر،أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر)؟! أدعو إلى عبادة الله (**الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**) الذي يذل الجبابرة الطغاة، والقاهر لكل شيء،والغالب على خلقه كقوله (**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**)الأنعام/١٨، ٦٦-(**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**) خالق جميع ما في الكون من الخلائق والعجائب بقدرته ومدبّر أمرها بحكمته، وكل موجود محتاج إليه (بلسان الحال أم بلسان المقال) وهو الذي يميتها وينهي دورها بعزته، وليس من دونه ملجأ (**الْعَزِيزُ**)القوي القادر، الغالب على أمره ولا يغلبه شيء في تحقيق إرادته (**الْغَفَّارُ**)مبالغة المغفرة لمن يستحق من عباده الغفران، الذي يستر القبيح ولم يؤاخذ بالجريرة، ولم يهتك الستر والسريرة ويقبل التوبة. **فائدة:** لما ذكر (**الْقَهَّارُ**)صفة تشعر بالتخويف والترهيب ثم ذكر الترغيب بثلاث صفات دالة على الرحمة (الرب، العزيز، الغفار) لبيان أن رحمة الله تسبق غضبه كقوله (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) الأنعام/٥٤.

٦٧-٦٨-﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ، أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾

(**قُلْ**) لهم يا مُحَمَّد (**هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ**) إنّ القرآن الكريم الذي جئتكم به،دستور مهم وخبر عظيم الشأن، أكبر وأعظم مما تظنون، **النبأ**: الخبر المهم الذي وراءه حقائق نافعة لا يكذبها الواقع (**عَظِيمٌ**) عظيم بذاته،عظيم بمضمونه،عظيم بتأثيره،عظيم بعلمه،عظيم بأهدافه،جاء بالفكر الذي يصلح أن يقود الحياة كلها، على المنهج العقلي القائم على الدليل العلمي، وعلى التأمل الفطري الوجداني التجريبي، ويصل به إلى مواقع التقدّم والتطوّر الحضاري المادي والمعنوي والأخلاقي في مجالات متنوّعة في حركة الواقع، وسيترتب المصير النهائي للإنسان على ضوء النظم التي وضعها، **والقرآن الكريم هو الذي يرسم الغاية الحقيقية التي ليس لها شيء بعدها**، أما كل ما بعده شيء فليس بغاية بل هو مرحلة لما بعده، وهذه الغاية الكبرى الحقيقة

هي ما يجب أن يعمل لها الإنسان ويحرص عليها في دنياه، والدنيا مزرعة الآخرة، والذي لا يستعد للآخرة فسوف يتعلق بحب الدنيا، **عن النبي (ص)** (حبّ الدنيا رأس كل خطيئة) روح البيان٦/٤٣٧، ويخسر الدنيا والآخرة! كقوله (وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا) الأنعام/٧٠ **في غرر الحكم (إنّ الدنيا كالشبكة تلتف على من رغب إليها)** والقرآن الكريم أيضاً دستور حياتكم، وهو دواء دائكم وشفاء لصدوركم واطمئنان لقلوبكم ونور في طريقكم وقوة لبصيرتكم،وكل أمر تحتاجونه تجدون له أصل في كتاب الله ولكن حتى تبلغه عقول المتخصّصين كقوله (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ)النحل/٨٩، ولما كان القرآن **(تبياناً لكل شيء)**
صار حجة الله البالغة على العباد كلهم على الكرة الأرضية، ٦٨-**(أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ)** الخطاب هنا موجّه لمن يدين بالقرآن ولا يعمل به،والخطاب موجّه أيضاً لغير المسلم الذي أهمل البحث والتنقيب حول معرفة حقيقة القرآن وصدق رسالته، أنتم عنه غافلون، لا تتدبرون في معانيه، ولا تبالون به، ولا تلتفتون إليه،ولا تعلمون قدره،وكأنه ليس إمامكم وهو حجة الله عليكم، ولم يعدكم بيوم حساب وثواب وعقاب! لتماديكم في الجهل والغفلة واللامبالاة، **عن النبي (ص) (صديق كل امرئ عقله وعدوّه جهله)** البحار٧٧/١٧٤ كقوله (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) محمّد/٢٤ القلب المقفل هو القلب القاسي المحجوب عن نور الهداية، الذي عليه أقفال الذنوب وأثقال العيوب وكربات الهموم! المسلمون اليوم يهجرون القرآن، كما هجره العرب أول الأمر كقوله (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) الفرقان/٣٠ إنهم هجروه فصار بينهم وبينه حجاب، سواء أكان الهجر نفسياً أو تعليمياً أو هجراً جزئياً أو كلياً..فعندما هجروا مصدر عزتهم انهارت كرامتهم، وسقطت هيبتهم وأصبحوا مبتذلين لا قيمة لهم في المعادلة الدولية،وأصبحوا آخر القافلة!

فائدة: القرآن الكريم لأمر أعظم بكثير من ظاهره القريب، فظاهره أنيق دقيق جذّاب، وباطنه عميق رقيق منساب، إنه قدر مقدّر مدبّر من قدر الله الفاعل، قدر متوافق مع النظام العام لهذا الوجود كله،إنه **(نَبَأٌ عَظِيمٌ)** يتجاوز حدود العرب في الجزيرة،ويتجاوز حدود المكان في ذلك الزمان، **إنه منهج عالمي مؤثر** كقوله (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ)التكوير/٢٧، **إنه منهج حركي عالي المضامين**،منقذ من حيرة الضلالة ومن ظلمات الجهالة،منهج بليغ موجّه إلى كافة البشرية بجميع أجيالها في العالم كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)الأنبياء/١٠٧،والإنسان الذي يفهم مقاصد النبأ العظيم هو الذي يمتلك قوة العظمة في نفسه، حتى لو كان صغيراً في عمره قليلاً في فعله محدوداً في مسؤوليته، والذي يعرض عنه هو الذي لا يعرف قدر نفسه ولا

يعرف مصلحتها، فهو يريد أن ينفعها فيضرّها كقوله (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) ق/٣٧.

٦٩-٧٠-﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ، إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

أخبر الله سبحانه هنا عن اختلاف ونزاع بدرجة الخصومة بين أهل النار يوم القيامة، مما يدل على نبوة مُحَمَّد(ص)والدليل (**مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ**) أن مُحَمَّداً(ص)قال للجاحدين بنبوته،من أين يأتيني العلم (**بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ**) وهم مجتمع الملائكة، وقد كان إبليس يعيش قبل الطرد مع الملائكة، من أين أعلم باختلاف الملائكة وخصومتهم في شأن خلق آدم وخلافته، قبل نزول القرآن عليّ مع كوني أميّ لا أقرأ ولا أكتب، لولا أن علّمني ربي عن طريق الوحي من السماء، وهذا الارتباط بالوحي لهو دليل على نبوتي(**إِذْ يَخْتَصِمُونَ**) يتجادلون فيما بينهم، أما المخاصمة بينهم في حضرة الله فلا تجوز،لأنها إساءة أدب وتعدٍّ للحدود،وإنما جرى مناظرة ومحاجة واختلافات متنوعة وهي شبه مخاصمة في ما بينهم،ويجوز إطلاق اسم المشبّه به على المشبّه، لذلك جاز وصفهم.

(**إِذْ يَخْتَصِمُونَ**)في شأن آدم،٧٠-(**إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ**) بكل ما يوحى إليّ (**إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ**)إلاّ أنما أنا محذّر تحذيراً بليغاً واضحاً للعاصين من الناس ومخوفهم من عذاب الله يوم القيامة، **في غرر الحكم**(لا تخف إلاّ ذنبك ولا ترج إلاّ ربك)

٧١-٧٢-﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾

(**لمحة عن قصة أول خلق آدم**) خلق الله آدم من طين، فمن الطين كل عناصر الحياة، فيما عدا سر الحياة!وعدا تلك النفخة الروحية العلوية الإلهية الشفافة التي جعلت منه إنساناً مخلوقاً، في أحسن تقويم وفي أعقد تركيب وفي أتقن صنع، ومكّرم أفضل تكريم كقوله (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) الإسراء/٨٥، **المعنى**: (**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ**) إنّ الله أخبر الملائكة وأعلمهم (**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ**)قبل أن يخلقه تمهيداً للأمر بالسجود له، وهذا إخبار وليست استشارة، وقد فهم الملائكة أنها استشارة فقالوا ما قالوا (**مِّن طِينٍ**) وقد حللوا الطين وحلّلوا عناصر الإنسان فوجدوه يتكون من نفس عناصر الطين الستة عشر، والغاية من خلق جسم آدم من طين،ليعرف الإنسان قدر نفسه، وهو حالة الشعور بالتواضع(من تواضع لله رفعه،ومن تكبرّ عليه وضعه)ولو بعد حين، **في غرر الحكم**(رحم الله امرأ عرف قدره ولم يتعدَّ طوره،ومن عرف نفسه فقد عرف ربه)

٧٢-(**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ**) بالصورة الإنسانية الجميلة الكاملة فتتغلغل نفخ الروح فيه، فتدخل في كل كيانه، فتذوب الروح فيه بكل خلية فتعطيه الحياة والقيمة والرفعة والمؤهلات اللازمة على التكامل،فتذوب الروح بالجسد ذوبان الدهن بالسمسم،وماء الورد بالورد،وتعرف من النفخ

(وَنَفَخْتُ) أن الروح من الريح الشفافة التي هي سرّ الحياة وتبعث الحياة، وتعطيك أعلى قيمة في الوجود**(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي)** أضاف الروح إلى نفسه سبحانه تشريفاً لآدم وتكريمه وتعظيمه، وعندما كان جسماً ماديّاً عاديّاً من طين لا قيمة له، لم يأت الأمر بالسجود له، ولكن عندما تشرف الجسم المادي بهذه الروح المعنوية العليا، أصبح له قيمة عليا لذلك جاء الأمر بالسجود، فسجد له الملائكة كلهم أجمعون بأمر الله، فكان السجود لقيمة هذه الروح فيه، وقد تجاوزت روحه أن تدرك بالحواس ولا بالعقول، فكانت أكبر من أن تقاس، وأكبر من أن تدركها العقول والبحث العلمي والحواس! **(فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)** فاسجدوا له إكراماً وتعظيماً له، وتعظيماً لأمر الله بالسجود، كما نسجد لله أمام القبلة ولا نسجد للقبلة، ولكن الله أمرنا بالسجود له سبحانه، وهذا السجود تحية وتكريم وسلام واحترام، لا سجود عبادة وطاعة إليه.

فائدة: آدم، وعلاقة الجسد بالروح:

فيكون الإنسان بين جاذبيتين:١-جاذبية الأرض التي تجذب الجسد الترابي إليها، وهو جسم مادي ثقيل دنيوي سفلي ظلمائي له عمر محدود، ثم يموت ويرجع إلى أصله من التراب.٢- جاذبية قيم السماء لهذه الروح التي تريد أن تسحبها إليها، وهي روح معنوية خفيفة غيبية علوية شفافة نورانية ليس لها عمر محدد، هي لا تموت بموت الجسد، ولكن بعد موت الإنسان تتحرر الروح من قيود الجسد لأنها مخالفة للجسد، فيكون الجسد بمثابة سجن للروح، وترجع الروح إلى مكانها المتألق في العالم الآخر الغيبي، وطبيعة المؤمن يدعم جاذبية الروح فيغذّيها بالإيمان والعلم والعبادة لله، فيحلّق بإيمانه وعبادته مع رحاب الروح الواسعة، فيرى ما وراء المرئيات ويعرف فلسفة الحياة، وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود! فيؤمن بالغيب وبيوم القيامة ويستعد للحساب، وغير المؤمن تأخذه جاذبية الجسد المادي فتفصله عن جاذبية الروح، فيستغرق في حبّ الدنيا وخدمة الجسد وشهواته، فيخسر الدنيا والآخرة.**عن السيد المسيح**(ع) (ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله، وخسر نفسه)؟! كقوله (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)الأنعام/١٢، **عن النبي(ص)** (الخاسر من غفل عن إصلاح المعاد) تنبيه الخواطر ص٣٥٩. **في غرر الحكم (للمتّقي:** هدى في رشادٍ، وتحرّج عن فساد، وحرص في إصلاح المعادِ)

٧٣-٧٤-﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) فامتثل جميع الملائكة لأمر ربهم بالسجود خضوعاً لله وتعظيماً لأمره كما هي فطرتهم، ٧٤-**(إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)** إلاّ إبليس ترفّع وتعاظم واستعلى من طاعة الله، وأبى السجود لآدم استنكافاً واستكباراً عليه، ولم يفكر أنه تجرّأ على الله عز وجل وتعدّى حدوده وأدبه اتجاهه كقوله (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ

نَفْسَهُ) الطلاق/١، فكفر واتّبع هواه فهوى وسقط، وبذلك طرده الله من ساحة رحمته ومن الملأ الأعلى، فخسر كل شيء، ولم يربح، وبقي متطفلاً على الحياة! **فائدة:** سمّي **(إِبْلِيسَ)** لأنه يبلس أي يقنط من رحمة الله وييأس من النجاة، ولم يتب ولم يستغفر كقوله (وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ) الروم/٤٩ **مبلسين:** آيسين قانطين، لم يكن إبليس من الملائكة وإنما كان من الجن، ولو كان من الملائكة لما عصى الله، ولكنه كان في جو عبادي ودّي متألق مشترك مع الملائكة! كقوله (إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) الكهف/٥٠

٧٥-٧٦- ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾

تأمّل وتدبّر بهذا الحوار النموذجي المميز، بين إبليس المخلوق العاصي اللئيم، والله الخالق العزيز الرحيم، يصّور القرآن هذا الحوار بصورة مجسّمة حيّة مؤثرة، أنه مبني على التفاهم العلمي والنقاش الموضوعي الهادئ، من أجل ترشيد الحالة وحلّ أزمّتها وكأنها حالة شورى، فإذا كان حوار الله مع إبليس العاصي بهذه الحرية المنفتحة، فكيف تكون علاقة الله بالسائرين في طريقه؟ وكيف تكون علاقة المؤمنين بعضهم ببعض؟، **عن الإمام الصادق** (ع) **(الإيمان عمل كله والقول بعضه)** البحار٦٩ص٢٣، علينا أن نتّخذ منه الدروس والعبر، ودراسة فن الحوار وطريقة استيعاب الآخر والانفتاح عليه، من أجل توحيد كلمة الأمة، على أساس كلمة التوحيد كقوله(أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) الشورى/١٣، **عن النبي(ص)** (ما اختلفت أمة بعد نبيّها إلاّ ظهر أهل باطلها على أهل حقّها إلاّ ما شاء الله) أمالي الطوسي ص١٣٨، ٧٥-**المعنى**: فسأله الله سبحانه قائلاً **(قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)** الاستفهام للتوبيخ، وتعريف أنه لا عذر له في الامتناع عن أمر السجود، أي ما منعك أن تخضع وتسجد لمخلوق توليت خلقه وتكريمه بنفسي من غير واسطة أب وأم مع كامل الرعاية وتمام العناية؟ وأضاف خلقه إلى نفسه تكريماً لآدم الخليفة **(لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)** لما خلقت بقدرتي، هي كناية بلاغية تشبيهية على القدرة الإلهية القاهرة، التي تتمثّل في إرادته ومشيئته سبحانه كقوله (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) الفتح/١٠.

والتثنية **(بِيَدَيَّ)** لتأكيدها كقوله (ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ)الملك/٣، ونسبة خلقه إلى اليدين للعناية الفائقة بخلقه وإتقان صنعه وهذا لتشريف آدم، فإن الإنسان إنما يستعمل اليدين لزيادة العناية وإتقان الصنع بما يعمل كقوله(مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا)يس/٧١ **(أَسْتَكْبَرْتَ)** أفتعاظمت ذاتك على أمري، وهل أعطيت نفسك أكبر من قدرها؟! وهذا سؤال توبيخ **(أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ)**أم كنت من الطاغين المتكبرين الذين يتعالون على أوامر الله؟! لشعورك أنك أعظم من آدم، ٧٦-(**قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ)**قال إبليس الّلعين أنا أفضل وأشرف منه! لأنك **(خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ)** ومن قال أن الطين أقل قيمة من النار؟ أو أن النار أعلى قيمة من الطين؟ فكل شيء خلقه الله لمهمة خاصة في الحياة، وهم أمام الله الخالق سواء، فليس هناك جنس

أعلى من جنس، وإنما سُلّم التفاضل وارتفاع المنزلة حسب مقدار طاعة الله تعالى بصدق كقوله (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات/١٣، **تصوّر الآية الأضواء على رد إبليس،** أنه ردّ قبيح، يصدر عن طبيعة خبيثة تجرّدت من كل خير في هذا الموقف التاريخي المشهود، كان إبليس أول من قاس، وفضّل النار على الطين، إنه أول من حسد وحقد وعاش اللؤم، وصفة اللؤم جامعة لكل الرذائل!

فائدة: تشير الآية: أن سبب كل معصية اتّباع الهوى، وتأييد وساوس الشيطان، والخروج عن العبودية لله عز وجل، وعلى قدر العبودية يكون رضا الله وتكون المنزلة، **في غرر الحكم** (من قام بشرائط العبودية أهِّل للعتق) ومن قصّر عن أصول العبودية أعيد إلى الرق!**وتشير الآية أيضاً**:أن الإصرار على المعاصي الصغيرة تكون جرأة لارتكاب الكبائر، وقد يؤدي إلى الكفر في النهاية كقوله(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)الروم/١٠

٧٧-٧٨-﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾

(**قَالَ**)الله له(**فَاخْرُجْ مِنْهَا**) من مجتمع الملائكة في الملأ الأعلى ومحل التكريم في الجنة، لأن مقامها خاص بالمطيعين لله فلا تليق بالعصاة، لأن العاصي يهبط بمقدار ذنبه عن نسبة الكمال، فيستحق الإبعاد عن رحمة الله، والطرد عن نعيم الجنة، وإذا ابتعد عن الرحمة حلّت به النقمة واللّعن (**فَإِنَّكَ رَجِيمٌ**)فإنك ملعون مبعد ومطرود من رحمتي وحمايتي ومن كل خير وكرامة، جزاء جرأته وتمرّده على أمر الله، ولا أريد لعبادي أن يتّصفوا بهذا الكبرياء فيجعل اللّعنة لاصقة بكل الذين يمارسونه فكراً وسلوكاً، ٧٨-(**وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ**) **اللّعنة**:الطرد من رحمة الله، بحيث يلعنه الله ويلعنه اللاعنون، أي وإن عليك الخزي الدائم على سبيل السخط والابعاد عن رعايتي وهدايتي وحمايتي، خزي ممتد (**إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ**) إلى يوم الجزاء والحساب والعذاب الأليم الذي يخلد فيه.

٧٩-٨١-﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ، إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾

وهنا تحوّل الحسد والحقد واللؤم إلى ترجمة عملية، لشدة عداوته وكراهته لآدم وذريته! وهو مصمم ومعلن تصميمه بوضوح على الانتقام من آدم وذريته، لإغوائهم وانحرافهم عن منهج الله المستقيم، بلا ذنب ارتكبوه كقوله (وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) البقرة/٢٠٨، ٧٩-**المعنى**: (**قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي**) قال إبليس يارب فأمهلني وأخّرني ولا تمتني ولا تعاقبني على ما أفعل، (والله سبحانه لقد أمهل حتى كأنه أهمل، ولقد ستر حتى كأنه غفر، وأنه أنذر حتى كأنه أعذر!) (**إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**)إلى يوم تبعث فيه الخلائق من قبورهم للحساب يوم القيامة، أراد إبليس أن يجد مهلة لإغواء آدم وذريته ويأخذ منهم ثأره، وينجو من الموت، فلا موت بعد البعث والنشور، ٨٠-(**قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ**)قال الله له فإنك من الممهلين إلى

وقت النفخة الأولى حيث يموت الناس وتنتهي مهمتك، **اقتضت حكمة الله أن يجيبه على طلبه، وأن يمنحه الفرصة التي أراد**، ولكن جعل كيده ضعيفاً كقوله (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)النساء/٧٦ وإنما استُضعِف كيد الشيطان لأن سلاحه الوسوسة، وهو يقابل هداية الرحمن كقوله (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) الأعراف/٢٠١، وليكون الشيطان من المقادير المقدّرة الموزونة في النظام العام، كقوله (قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) الطلاق/٣، وقد أمهله الله لتحقيق سنّة الابتلاء والاختبار لعباده، ليكشف بالبلاء عن معادنهم الحقيقية كقوله (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الكهف/٧ **يقال:في المحن منح من الله، وفي المكاره مكارم**، وفي المشقّات راحات وخبرات، وفي المعاناة هباة، وفي البلايا بدايات نهاياتها الكرامات، **عن الإمام الحسن العسكري**(ع)(ما من بلية إلاّ ولله فيها نعمة تحيط بها)!البحار٧٨/٣٧٤، ولما في مخالفة وساوس الشيطان وهوى الإنسان، من الثواب الجزيل والمقام المحمود، لما يمتلك الإنسان من التقوى (ومن اتّقى الله وقاه) والإخلاص لله كقوله(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)الزمر/٣ **عن الإمام علي** (ع) (في الإخلاص يكون الخلاص)تنبيه الخواطر ص٣٩٠، ٨١-**(إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ)** فأعطاه يوم الوقت المعلوم الذي طلبه، ولم يعطه إلى يوم يبعثون، وهو اليوم المعلوم الذي يبعث فيه الخلائق للجزاء وهو يوم القيامة الكبرى.

٨٢-٨٣-﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ) قال إبليس وأقسم بسلطانك وقهرك وبعزتك واستغنائك عن خلقك وعدم حاجتك إلى طاعتهم أن يؤمنوا أو يكفروا **(لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)**لأضلنّهم وأزيّنن لهم الباطل والشقاق والنفاق والفساد وأدعوهم إليها وأغرينهم بها، عن طريق وساوسه الخادعة ليحرمهم من جنة الخلد كما حرمه الله منها بعصيانه. **في الآية إشارة:** إلى أن من أبعده جهله عن الحق، توجهت أحواله تدريجياً إلى السوء والباطل والعناء والشّقاء كقوله(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣، **عن الإمام علي**(ع) (إنّ من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى تضره الضلالة، ومن لا ينفعه اليقين يضره الشك)كنز العمال خبر٤٤٢٢٥.

وكلمة (**أَجْمَعِينَ) لها دلالات واسعة منها**، إنه لن ينجو منّي، ولا يستثنى إلاّ من ليس عليهم سلطان وإمكانية، فصمم أن يُحرّك كافة أساليبه الخبيثة، ووسائله المتعددة بوساوسه الفنية المدروسة المكثّفة الخادعة، التي ظاهرها يسرّ ويغرّ ويمرّ وباطنها يضرّ! التي تدخل فيها الشبهات، ويزيّن لهم أنواع الشهوات وتستهويهم المغريات وحبّ الدنيا، فينحجبوا عن آفاق عالم الغيب وحبّ الله وينسوا الآخرة، وهنا تأخذهم سُنّة التساقط، كما تتساقط أوراق الشجر، كذلك يتساقط الناس العاصين في شبك حبّ الدنيا وإنها رأس كل خطيئة، فلا يتساقط

المؤمن المخلص الأصيل، إنما يتساقط الجاهل والظالم الدخيل كقوله (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ) النحل٩٩-١٠٠، ٨٣-**(إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) المخلَصين:** الذين أخلَصَتهم العبادة الصادقة، فامتلكوا عناصر الثبات على منهج الصراط المستقيم كقوله (وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) آل عمران/١٠١ فصارت عندهم المناعة القوية، إنهم أخلصوا لله كل نفوسهم **عن الإمام علي** (ع) (في الإخلاص يكون الخلاص) تنبيه الخواطر ص٣٩٠، فأخلصهم الله لنفسه وقربهم إليه وهداهم طريقه، ورعاهم في حياتهم حتى ارتفعوا وتساموا روحياً وصاروا من أهل الجنة كقوله (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) القمر/٥٥، فصارت قلوبهم حرم الله فلم يجعلوا بحرم الله غير الله عزوجلّ **!في دعاء الإمام علي**(ع) (إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلّقة بعز قدسك) البحار٩٤/ص٩٨، فما ألقاه إليهم الشيطان من حبائله ومكائده وتزيينه فلم يقدر أن يضلهم ويغويهم ويخدعهم كقوله **(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ)** الأعراف/٢٠١ **عن الإمام الباقر**(ع)(المؤمن أصلب من الجبل، الجبل يستفلّ بالمعاول، والمؤمن لا يستفلّ من دينه شيء) الكافي٢/٢٤١، **وعن الإمام الصادق**(ع) (إنّ المؤمن أشدّ من زبر الحديد، إنّ زبر الحديد إذا دخل النار **تغيرّ**، وإنّ المؤمن لو قُتل ثم نُشر ثم قتل لم يتغيرّ قلبه)البحار٦٧/٣٠٤ **عن النبي (ص)** (إنّ من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرّواسي) مجمع البيان٣/١٤٤ هؤلاء هم النخبة الصالحة، والنموذج الأمثل في القدوة والقيادة الحسنة، الذين يمتلكون الإخلاص مع الله والصدق مع الناس، وهم القلائل في كل جيل وفي كل زمان ومكان.

فائدة: بهذا القسم المحسوم حدّد الشيطان منهجه المرسوم والخطير المخرّب، ووضّح طريقه المفسد**!**أنه يغوي ويضل جميع بني آدم **(إلاّ)** من يعصمه **(برهان ربه)** ويكون معه في حصنه أين ما يكون، فهذا مستثنى فلا سلطان ولا قدرة للشيطان عليه، فهو يحاول جاهداً أن يغويه بوسوسته، ولكن المخلص دائماً في عصمة ربه داخل في حصنه الحصين الأمين المنيع، وهو يقظ فلا يخدعه ولا يغريه، وبهذا ينكشف بوضوح عن العاصم الوحيد، وسبيل النجاة الأكيد الذي يمنع بين الناس والشيطان، إنها العلاقة الخالصة بالله والعبادة المخلَصة في كل حركاتها وسكناتها، هذا وحده طريق السعادة ومنهج الحياة الذي يجعله يفوز بخير الدنيا والآخرة. إنها معركة معنوية دائمة يخوضها الإنسان على علم وبلا غموض وهو حر مختار، وعليه تبعة ما يختار.

٨٤-٨٥-﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

(قَالَ فَالْحَقُّ) أقسم الله تعالى بالحق كقوله(ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)الحج/٦٢ **(وَالْحَقَّ أَقُولُ)**والحق ما أقول، وبالحق أقضي وبالعدل أحكم، والحق وصفي، والحق قولي وفعلي، ودائماً

أنا أقول الحق وأدعو إلى الحق وأثيب عليه، إنه الحق المتألّق الثابت بذاته والمثبّت لغيره، إنه الحق الذي تتعدد مواضعه وتطبيقاته وصوره، ولكنه الحق الثابت المؤثر الذي يعلو ولا يُعلى عليه، والله تعالى هو الحق ولا يصدر منه إلا الحق، وكان الحق منه ومعه وإليه، ومن الحق قصاص العصاة الطغاة المعاندين كقوله (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)البقرة/١٧٩
٨٥-(**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ**) **لأملأن**: للدلالة على الكثرة في العدد، والزيادة في النوعية كقوله(يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ)ق/٣٠، أي لأملأن من جنسك من شياطين الجن وذريتهم (**وَمِمَّن تَبِعَكَ**)من الناس من ذرية آدم(**أَجْمَعِينَ**) تأكيد للجنسين.

فائدة: ١-إنّ الله أعطى للإنسان حرية الاختيار كقوله (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) الشمس/٧-٨ وقوله (**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**)البلد/١٠، فهو سبحانه برحمته وهب للإنسان العقل والإرادة، وأعطاه القدرة على التمييز والاختيار، ووضّح له الخير وأمره به وأثابه عليه، وحذّره من الشر ونهاه عنه وعاقبه عليه، وجعله حراً مختاراً ومسؤولاً عن اختياره، ويحاسب عليه من الخير والشر كقوله(وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا) الإسراء/٧٢،
٢-**سؤال**: كيف يعاقب الله تعالى إبليس وهو مخلوق من النار، في جحيم النار؟ **الجواب**: إذا أراد الله شيئاً هيّأ أسبابه.

٨٦-٨٨-﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ، وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)

قل لهم يا مُحَمَّد ما سألتكم على تبليغ رسالة الإسلام أجراً دنيوياً، من مال وجاه حتى تتهموني بالسعي للسيادة والرئاسة، إنّ تبليغ رسالة الإسلام والقرآن فوق الأجر المادي، إنها قيمة القيم ونعمة النعم وقمة القمم، لا تثمّن بثمن دنيوي، والذي يعرف الثمن المناسب هو الله الذي أرسله كقوله(اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ)يس/٢١ تشير الآية إلى أن التجارة بالدنيا باسم الدين، والتعلّم للدين من أجل المال والجاه وحبّ الدنيا، من كبائر الذنوب، وأشد العيوب، وأكبر النقائص، وأوضح النقائض كقوله (**أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**) الحجرات/٢ **في غرر الحكم** (لا يترك الناس شيئاً من دينهم لإصلاح دنياهم إلاّ فتح الله عليهم ما هو أضرّ منه)! (**وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**) المدّعين معرفة ما ليس عندهم، وما أنا من المتصنّعين المدّعين للنبوة كذباً على الله ولا أتقوّل القرآن، وإنما أنا مأمور من الله تعالى، فوجب عليّ أن أنفّذ الأوامر! لأن تبليغ منهج الله لا يحتاج إلى تكلّف وتصنّع وجهد كثير في الإقناع، لأنه موافق مع حركة الفطرة السليمة الطبيعية كقوله (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)الروم/٣٠، ٨٧-(**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**) إنّ هذا القرآن (**إِلَّا ذِكْرٌ**) **ذِكر**: مذكّر بالله وباليوم الآخر، ومعلّم فلسفة الحياة وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود (**إِلَّا ذِكْرٌ**) إلاّ موعظة بالغة ومرشداً هادياً للتي هي أقوم لجميع العقلاء من الناس في العالم،

أصحاب العقول السليمة والطبائع المستقيمة، لمن أراد الهداية وبحث عن الحق وطلب الحقيقة في كل زمان ومكان كقوله (وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ) ق/٤٥، وأيضاً القرآن (**ذِكْرٌ**)يتذكرون به كل ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، فيكون دستوراً هادياً موجّهاً وشرفاً للعالمين، ولإقامة الحجة البالغة على الناس أجمعين وبالخصوص المعاندين كقوله (لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ) الأنفال/٤٢، بما أن النبي خاتم الأنبياء، والقرآن خاتم الكتب السماوية، فلا بد أن يكون القرآن دستوراً هادياً للناس أجمعين، وليس دستوراً خاصاً للمسلمين، **إذن**: القرآن الكريم هو الحق والحجة والحاجة للناس أجمعين كقوله (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ)يونس/٣٢، ٨٨-(**وَلَتَعْلَمُنَّ**) وستعرفون أيها الناس صدق ما أخبَر به القرآن من الوعد والوعيد، وغلبته على جميع الأديان السابقة والنظم الوضعية اللاحقة كقوله(**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**) المائدة/٤٨ (**نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**) ولتعلمنّ حقيقة القرآن وأخباره وصدقه بعد مرور زمان كقوله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) التوبة/٣٣، وكل مقدّر كائن، وكل كائن آت، وكل آتٍ قريب، وكل قريب كاد أن يكون كقوله(إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا)المعارج/٦-٧. **فائدة**: ١-وقد أنصف كثير من علماء الغرب النبي مُحَمَّد المصطفى (ص)والإسلام، لدلالة على بحثهم العلمي لمعرفة الحقيقة. **قال نابليون**: عجبت لهذا الأمّي كيف فتح نصف الدنيا في نصف قرن، ٢-(**وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ**) ينبغي للمؤمن أن يكون واصلاً إلى درجة اليقين، بحيث لو كشف له الغطاء ما ازداد يقيناً! **في نهج البلاغة (باليقين تدرك الغاية القصوى)**خطبة١٥٧.

روي: عبد الله بن مسعود أنه قال (يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم، الله أعلم، ثم قال (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ)ص/٨٦، مجمع البيان ١٣٤/٥، **عن النبي(ص) (للمتكلّف ثلاث علامات**: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم) الصافي٣١١/٤، **وعنه(ص)** (أجرؤكم على الفتوى أجرؤكم على النار) البحار١٢٣/٢.

عن سلمان (رضي) (نهانا رسول الله(ص) أن نتكلّف للضيف ما ليس عندنا، وأن نقدم ما حضر) الدرر المنثور٢٠٨/٧، **والكلفة من أسماء المشقّة، وهي نوعين: الكلفة المحمودة**: وهي ما يطلبها الإنسان عالي الهمة و(الهمة على قدر المهمة)ليتوصل بها لإنجاز أفضل الأعمال مع صبر ومشقّة، **والكلفة المذمومة**: وهي أن يقبل الإنسان ما لا يوفي بإنجازه، وإيّاه عنى في الآية، لذلك نهى الرسول(ص) عن التكلّف ما لا يطيق، وكل علاقة تبنى على التكلّف تنقطع ولا تدوم، ٣-وتختتم السورة بهذه الآية الكريمة، إنه الختام الذي يتناسق سياقه القرآني الهادف بين مطلع السورة وختامها، بين افتتاح السورة بالقسم (**وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ**) تعظيماً له، وبين

ختامها (**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ**)حيث التذكير بعالمية القرآن، وعالمية رسالة النبي(ص)مع وحدة موضوع السورة، ونقاوة أهدافها، وجمالية عرضها وأسلوبها.

وفي الختام نقول:

قوله تعالى(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا)الأنفال/٢٩ تم بعون الله تعالى (**وَعْيُ القُرآنِ الْمُيَسَّر**) لسورة ص، وكانت كتابتها بقدري لا بقدرها، بجهد متواصل فلله الحمد والمنّة، بالحمد تتم الصالحات، وتزداد البركات، وتدفع النقمات، بتاريخ ٢٠/١٠/٢٠١٩م، الموافق ٢٣/رمضان المبارك/١٤٤٠هـ في العراق، الكاظمية، داعين الله سبحانه أن يعيننا على تكملة بقية السّور القرآنية، إنه سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث:مكي قاسم البغدادي

ترتيبها ٣٩ — سُورَةُ الزُّمَرِ — آياتها ٧٥

من مقاصد السورة:

مكية، تحدثت عن التوحيد بتركيز، لأنه أصل الإيمان وأساس العقيدة السليمة، وأصل كل عمل صالح، ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن، وإخلاص الدين لله، وتنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، وذكرت خلق الإنسان في أطوار متعددة في ظلمات الأرحام الدالة على قدرة الله تعالى، وكشفت عن مشهد خسران الكفرة في يوم الجزاء، **وذكرت الفارق الكبير بين من يعبد إلهاً واحداً، ومن يعبد آلهةً متعددة**، وذكرت حالة المشركين النفسية عندما يسمعون توحيد الله تنقبض قلوبهم، وإذا سمعوا ذكر الطواغيت استبشروا، آيات تدعو العباد إلى الإنابة لربهم قبل الموت، وختمت السورة بذكر نفخة الصعق، ثم نفخة البعث والنشور وأهوال القيامة، حيث يساق المتقون إلى الجنة (**زمراً**) جماعات جماعات، ويساق المجرمون إلى جهنم (**زمراً**)جماعات جماعات، وشتّان بين هذه الجماعة وتلك، في مشهد حي هائل يصوّره القرآن وكأنه واقع يتحرك على الأرض فيؤثر في المشاعر ويُحيي الضمائر، مشهد مصيري يحضره الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون، والوجود كله يتّجه إلى ربه بالحمد والثناء في خشوع وخضوع. **التسمية**: سميت (**سورة الزُّمَر**) لأن الله تعالى ذكر فيها **زمرة السعداء** يتوجهون إلى الجنة جماعات جماعات متآلفة في تكريم وتعظيم، **وزمرة التعساء** يساقون إلى النار جماعات جماعات متكارهة في ذلة وهوان. **فضلها: عن النبي(ص)** (من قرأ سورة الزُّمر) لم يقطع الله رجاءه، وأعطاه ثواب الخائفين، الذين خافوا الله تعالى) كقوله (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) الرحمن/٤٦، **ملاحظة**: هذا الفضل بشرطه وشروطه، والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١-٢-﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾
يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن الكريم، وأنه منهج هداية ودستور حياة وذكر للعالمين وحجة عليهم أجمعين، فاستمعوا له وانصتوا وتدبّروا واعملوا به، **المعنى** :١-(**تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ**) تنزيل القرآن على نبينا مُحَمَّد(ص) من عند الله عز وجل من عليائه (**الْعَزِيزِ**) في سلطانه الذي لا يُغلب في إرادته (لا تنفعه طاعة عن أطاعه، ولا تضرّه معصية من عصاه)فوصف الله نفسه بالعزة تحذيراً من مخالفة كتابه، يأخذ المؤمن عزته من عزة الله تعالى كقوله(مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) فاطر/١٠ (**الْحَكِيمِ**) الذي لا يهمل أمر هداية عباده، والذي يفعل كل شيء بحكمة ومصلحة وتقدير وتدبير، والحكيم الذي يعلم فيم أنزل القرآن، ولماذا أنزله؟ وإعلاماً بأنه يحفظ كتابه العزيز من أي تغيير وتحريف وتبديل ولو بشيء يسير منه، ٢-(**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**) أكّد سبحانه إنزال القرآن على نبيّه الكريم(ص)أشرف الخلق للدلالة أن القرآن أشرف الكتب، وأنه أُنزل(**بِالْحَقِّ**) من عند الحق تعالى، وأريد به الحق الثابت الذي لا شك فيه والذي لا يتغيّر، وكل ما في القرآن لإخراج الناس من ظلمات الجهالة ومن حيرة الضلالة، إلى نور الهداية ونعمة الدراية والاستقامة في كل زمان ومكان، ضمن الحق الذي يعلوا ولا يعلى عليه، والقرآن هو الصدق الذي لا يشوبه باطل كقوله (لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) فصلت/٤٢.

ونزول القرآن من خزائن الله من مكانٍ عالٍ، لفخامته إلى مكان أدنى للمنزّل إليه وهو الإنسان، يريد الله أن يكرمه ويسدّده ويهديه للتي هي أقوم، نزولاً بالتدريج المقدّر مع كل موقف جديد، بحسب الحكمة والمصلحة ليكون منهجاً هادياً للناس أجمعين، **إذن: هناك نزولان للقرآن: أولاً** إنزل دفعة واحدة، ليعرف النبي(ص) المنهج كاملاً كقوله (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) القدر/١، وبعد ذلك أنزله الله مجزأً على دفعات بحسب حاجة الواقع كقوله (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ) الإسراء/١٠٥، **فيكون القرآن دستوراً واقعياً ومنهجاً حركياً تربوياً ليتدبروه،** لأنه نزل من خلال حركة الواقع، ليكون منهجاً واقعياً منقذاً يتناسب مع حركة الواقع كقوله (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً)الإسراء/١٠٦. (**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ**) فاعبد الله مخلصاً له العبادة بصدق الطاعة، وقيام الحياة على أساس التّوحيد الخالص، التّوحيد الخالي من الشرك والرياء والغلو والخرافات والانحرافات والشبهات، وأيضاً أخلص الدعوة الرسالية إلى الله بإتمامها إلى الناس، فلا دين بلا إخلاص، وأظهر العبودية لله في أفكارك وأقوالك بأتباع ما شرّعه الله لك، ولا تتبع ما دون ذلك.

٣-﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) (أَلَا)حرف استفتاح لتنبيه السامع على الأهمية البالغة لما يأتي بعده للاعتناء به **(لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) معنى الخالِصُ:** الدين الصافي النقي الصادق الخالص لله وحده، الخالي من كل ما لا يليق به من شوائب الهوى والأنا والرياء والشرك وحبّ الدنيا وحبّ السمعة والجاه..أما الدِّين المختلط بالأهواء والآراء والشرك والرياء، يكون سُلّماً للدنيا، فهو دين للشيطان ونتيجته الخسران والحرمان، **عن النبي(ص) (الخاسر من غفل عن إصلاح المعاد)** تنبيه الخواطر ص٣٥٩، **في غرر الحكم** (لا يترك الناس شيئاً من دينهم لإصلاح دنياهم إلاّ فتح الله عليهم ما هو أضرَّ منه)! **عن النبي (ص)** (ويلٌ لمن طلبَ الدنيا بالدِّين) كنز العمال خبر٢٩٠٩١ ويكون الدين خالصاً لمن يجعله في أصل حياته ومتنها وليس على سطحها، أي يجعل دين الله المثل الأعلى فكراً وسلوكاً، يُعلنها الله بوضوح تام عالية مدوّية، أن الله تعالى لا يقبل غير الدين الخالص، والتسليم الكامل المطلق له بدون قيد أو شرط، ودين الله الخالص ليس طيناً تلعب فيه ما تشاء، فتقبل منه ما تشاء وترفض منه ما تشاء كقوله (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ) البقرة/٨٥ **ودين الله الخالص** هو دين الإسلام كقوله **(إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)**آل عمران/١٩ **في نهج البلاغة حكم٣٧١** (لا شرف أعلى من الإسلام) قيل لرسول الله (ص) إنا نعطي أموالنا التماس الذكر(أي ذكر الله لنا وثناء الناس علينا) فهل لنا في ذلك أجر؟ فقال(ص) (إن الله لا يقبل إلاّ من أخلص له ثم تلا الآية) الدرر المنثور٧/٢١١، **(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)** أي أرباب مدبّرون للأمور، يقولون تبريراً لشركهم وعبادة أصنامهم **(مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ) زلفى:** قربى، الوثنيون وكل **(الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)** ينحرفون عن منطق العقل والفطرة في إخلاص الدين لله وعن توحيد الله، فيعبدون من دون الله**(أَوْلِيَاءَ)**كوسطاء إلى الله ليشفع لهم عند الله ويقربهم إليه **(زُلْفَى)**لقضاء حوائجهم، وهذا تفكير ساذج يبعدهم عن الله كقوله(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ) يونس/١٨، وأراد الله سبحانه بالدين الخالص أن نعبده وحده لا شريك له، وندعوه وحده بشكل مباشر دون واسطة.

إنهم كقوله **(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)**الأنعام/٩١.

إنهم قاسوا الخالق الذي (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١ بالملوك المخلوقين، كما أن الملوك لا يوصل إليهم إلاّ بوجهاء وشفعاء، كذلك الله تعالى، وهذا قياس فاسد! كقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)الكهف/١٠٣-١٠٤ **(إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ)** إنّ الله يقضي بين أهل الأديان وأنواع المعتقدات في يوم القيامة، فيعرض عليهم أعمالهم الفعلية الواقعية، على شكل شريط متحرّك

مجسّم ذي ثلاثة أبعاد، على كاميرة خفية، بالصورة والصوت والنية، أما في الدنيا فعليهم أن يتعايشوا سلمياً ويحترم أحدهم الآخر(**فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) فيثيب المحق ويعاقب المبطل على قدر استحقاقه(**إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي**) لا يوفّق للهداية ومعرفة الحق، من كان كاذباً على ربه وعلى نفسه وعلى الناس، فتكون الهداية على قدر الإنسان وقدرته كقوله (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ) الأعلى/٣، إنّ الله لا يلجأ إلى الهداية (**الاستقامة**) من يرفضها ويصّر على الكفر والكذب والنفاق، فلا هداية مع الجبر والإكراه (**مَنْ هُوَ كَاذِبٌ**) راسخ يتلوّنه متفنن في كذبه خبير في افترائه (**كَفَّارٌ**) مبالغاً في كفره، وكثير الستر للحق والتعامي عن الحقوق، وكثير الكفران والتغطية لنعم الله وللمنعم، وقرن الكذب بالكفر لأن الكذب أحد أبواب الكفر كقوله (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) النحل/١٠٥، **فائدة: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) وزيادة قبور الأولياء:**

يقول المشركون عن عبادة أصنامهم (**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ**) ويقول المؤمنون الزائرون لأضرحة أوليائهم (ما نزورهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى) تعامل المشركون مع أصنامهم بعبادتها مباشرة من دون الله، وكأنها كائنات حيّة قادرة بزعمهم أنها تقربهم إلى الله! وتعامل المؤمنون الزائرون مع أضرحة أنبيائهم وأوليائهم كقوله في أصحاب الكهف (**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**) الكهف/٢١ وبقولهم في الدعاء (يا وجيهاً عند الله أشفع لنا عند الله) وهم يؤمنون بالله ويدعوه ويعبدوه وحده، ويقيمون صلاة الزيارة قربة إلى الله وحده، ولا يقصدون إلوهية أوليائهم ولا عبادتهم. وهناك فرق كبير بين(**مَا نَعْبُدُهُمْ**) (**وما نزورهم**)وزيارتهم لا تعني عبادتهم، وإنما تعني تقدير منزلتهم السامية واحترام سيرتهم الفاضلة، فهم قدوة حسنة وقيادة صالحة مؤثرة في حياتهم وبعد مماتهم كقوله(لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)الأحزاب/٢١ وهؤلاء أيضاً وسائل شريفة إلى الله كما زار النبي (ص) حمزة سيد الشهداء، وزار شهداء بدر وأُحد، وزار الإمام علي(ع)شهداء صفّين..وهكذا، كقوله (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**) المائدة/٣٥، أطلبوا إلى الله تعالى حاجاتكم مباشرة أولاً، واطلبوا إلى الله (**الوسيلة**) الخالصة أيضاً، لا إلى غيره من الأولياء، فصارت (**الوسيلة**) سبباً وليست غاية، وصارت رخصة قرآنية شرعية مقيّدة بالقربى إلى الله (ويحبّ الله أن يؤخذ برخصه)

والوسيلة:

قربى إلى الله مثل شعائر الله كقوله (**وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**)الحج/٣٢ فتكون العلاقة مع مراقدهم وسيلة شريفة، ورخصة شرعية لزيارتهم والاقتداء بسيرتهم الصالحة أحياءً وأمواتاً، وطلب إلى الله تعالى وحده الحاجات، بوساطتهم وبجاههم عنده، لأنهم شهداء أولياء أحبّاء أحياء مكرمون، عند الله يرزقون كقوله (وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)

الحديد/١٩ كقوله (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً) الإسراء/٨٤ **شاكلته:** طريقته، نيّته **وعن النبي**(ص) **(نيّة المؤمن خير من عمله)**كنز العمال خبر٧٢٣٦، ولو كان طلب الحاجة منهم مباشرة **(من دون الله)** لكان شركاً يحبط الأعمال ويفسد التوحيد، كقوله (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ)يوسف/١٠٦، **في غرر الحكم** (من قام بشرائط العبودية أُهِّل للعتق) ومن قصَّر عن أصول العبودية أعيد إلى الرق!

٤ -﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

(لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا) هذا من باب فرض المحال (وفرض المحال ليس بمحال) وتكون استحالته أن اتّخاذ الولد يستدعي الافتقار إليه، والله الغني عن كل شيء، وهو فرض جدلي بنّاء لتصحيح التصوّر، **المعنى:** لو أراد الله أن يجعل لنفسه ولداً **(لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ)**لاختار من أشرف مخلوقاته **(مَا يَشَاءُ)** لا ما يشاء الناس ونسبوه إليه كقوله (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا، لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا)مريم/٨٨-٩٠ **(سُبْحَانَهُ)** نزّه الله نفسه عن اتخاذ الولد، وكيف يتخذ ولداً**(هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ)** الأحد في ذاته المتعالية، وواحد في صفاته الذاتية التي هي عين ذاته، كقوله (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) الإخلاص/٣-٤ ووصف نفسه سبحانه بـ**(الْوَاحِدُ)** لأن الوحدانية تنافي اتخاذ الولد، ووصف نفسه بـ**(الْقَهَّارُ)** ليدل على نفي الشركاء والأنداد عنه، لأن كل شيء خاضع له مقهور تحت إرادته كقوله(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)الأنعام/١٨، فكيف يكون شريكاً له؟! ووحدانية الله تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلاّ قهّاراً، والقهّار لا يكون إلاّ واحداً وذلك ينفي الشركة له.

٥-﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾

ثم ذكر الله تعالى دلائل قدرته ووحدانيته وعظمته فقال **(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)** خلقهما على أكمل الوجوه وأبدع الصفات، خلقها **(بِالْحَقِّ)** الواضح والبرهان الساطع وبنظام محكم مستقر، ولكل نظام منظّم قادر عليم ومدبّر حكيم كقوله (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)الأنبياء/١٦، خلقهما بالحق ولهدف عظيم الذي لا باطل فيه ولا عبث، **والحق:** هو الشيء الثابت النافع الأصيل المؤثر الذي لا يتغيّر مع مرور الأعوام والدهور **(يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) يكوّر:** معناه اللغوي أي يغشي ويحجب ويغطّي كلاً منهما للآخر تغطية كاملة، كأنه يلفّه عليه لفّ اللّباس على اللّابس، وبشكل متتابع ومتوالي ولا يسبق أحدهما الآخر كقوله(وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)يس/٤٠ **(يُكَوِّرُ)** استعارة بلاغية وكناية تقريبية وإشارة علمية دقيقة لعلاقة الليل بالنهار **(وبالعكس)**

ولفظ **(يكوّر)** يرسم في الذهن إشارة ودلالة علمية على حركة الأرض وكرويتها ودورانها، وأن جانبها الذي يواجه الشمس حين دوران الأرض يكون نهاراً، وغير المواجه للشمس يكون ليلاً، وهكذا في حركة دائبة منظّمة مستمرة.

بمعنى (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ) (وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) يدخل كل واحد منهما على صاحبه، فيغشّيه ويغطّيه بدورة تدريجية منظّمة، فما يزيد في أحدهما ينقص من الآخر، ولكنهما لا يجتمعان، ويأتي القرآن الكريم ويلفت النظر إلى أبعاد هذا النظام المتداخل الدقيق، فيتناول التعابير المتنوعة التي لها دلالات بعيدة كقوله (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) فاطر/١٣، وقوله (اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ)يس/٣٧، وقوله (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) الأعراف/٥٤، وقوله (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ)التكوير١٧-١٨، هذه السنة الكونية المستمرة لها علاقة موضوعية بالسنة الإنسانية، فكما يتداخل الليل والنهار بطريقة منظّمة وفي حركة دائبة مستمرة، كذلك يتداخل النور مع الظلمات، ويتداخل الروح مع الجسد، والدنيا مع الآخرة، والحياة مع الموت، والأمل مع العمل، والعزة مع الذلة، والقوة مع الضعف، والخير مع الشر، والرخاء مع الشدة كقوله (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) الانشراح/٥-٦، إنّ لهذا النظام الدقيق المتداخل المركّب، منظّم حكيم قدير يوحي بوحدة التدبير، ودقة التقدير **(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ)** ذللهما لمنفعة الخلق، فلكلٍ فَلَكَهُ الذي يجري فيه ولا يتعدّاه **(كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى)**كل منهما يجري إلى مدة معيّنة إلى يوم القيامة**(أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ)(أَلَا)** حرف لتنبيه السامع على أهمية الاعتناء بمضمون الجملة **(الْعَزِيزُ)**كامل القدرة، فهو الغالب على كل شيء ولا يغلبه شيء**(الْغَفَّارُ)** مبالغة المغفرة، فهو عظيم المغفرة والرحمة والإحسان، ولا يعاجل بعقوبة المذنبين كقوله**(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)** الرعد/٦، فمع قوة الله القاهرة، والقدرة الباهرة، والعزة الكاملة هو**(غَفَّارُ)**لمن يتوب إليه.

٦-﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾

(خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) الخطاب لعامة البشر، النفس أقرب شيء للإنسان وأعز شيء وأغلى شيء ولم يخلقها الإنسان، ولكنها(في نفس الوقت)أغرب شيء وأبعد شيء عنه، وأجهل شيء له، ولم يعرف عنها شيء، وهي تعمل فيه كل شيء وتهبه الحياة وهو لا يعلم عنها شيء إلّا ما يعلّمنا الله بقوله **(وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)** البقرة/١٥١، إنها نفس عزيزة واحدة موحّدة متّحدة، نفس ذات طبيعة واحدة وخصائص واحدة، فالنفس الإنسانية واحدة في جميع أهل الأرض، وفي جميع الأجيال وفي كل زمان ومكان على كثرتهم واختلاف صورهم وألوانهم وطبائعهم، هي نفس آدم أبو البشر، ينبغي أن يكون التعامل بينهم(إما أخ لك

في الدين أو نظير لك في الخلق)كقوله (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) الروم/٢١.

(خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ) إنها آية ظاهرها أنيق وباطنها عميق (مِّن) للتبعيض، أي من بعض أنفسكم خلق الله زوجكم **(ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا)**وجعلهما في جسمين ذكر وأنثى ولكن يجمعهما نفس واحدة موحدة متّحدة منذ الخلق والتكوين، وكأن أحد النفسين مأخوذة من الآخر! وهذا يثبت التساوي بينهما من أول انطلاقتهما في حياة مشتركة، ولا فضل للرجل على المرأة إلاّ بالتقوى كقوله (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)الحجرات/١٣ وقوله(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)النساء/١٩، فإذا حصلت وحدة النفس بين الزوجين، فيحصل السكن المشترك، والسكينة المتبادلة، والأُنس المتعادل، والتآلف والتكافؤ بينهما في حركة الحياة كقوله(لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)الروم/٢١ ليكون بينهما تعدد أدوار ووحدة هدف، **وتنفي الآية مقولة أن حوّاء خلقت من ضلع آدم**، وإنها من الموضوعات والإسرائيليات، للتفصيل راجع كتاب السكن الزوجي المتكافئ، في المنظور القرآني الفريد/**للمؤلف:مكي قاسم البغدادي**، ثم ثنّى بخلق الحيوان فقال**(وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ) الإنزال**:كناية تشبيهية عن نزول أمر الله وتقديره وتدبيره سبحانه، فخلق لكم ما ينفعكم بتقدير نازل منه، رحمة بكم، لإنزال المصالح لعباده كقوله (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ)الأعراف/٢٦، ولم ينزل اللباس مباشرة، وإنما أنزل الماء فنتج القطن والصوف، واللّباس مصنوع منهما، **وكذلك معنى إنزال الأنعام معنى غير مباشر**، تعيش الأنعام بالنبات **(وَأَنزَلَ لَكُم..)** أي خلق وسخر لكم، ويسمّي الله ظهور الأشياء في الكون بعد ما لم يكن **(إنزالاً)**من خزائنه، من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، فهذا التسخير المقدّر منزل من عليائه سبحانه إلى خدمة البشر كقوله (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ)الحجر/٢١/الميزان٢٣٩/١٧ **(وَأَنزَلَ لَكُم)**التعبير بالإنزال دون الخلق لإلفات النظر إلى قيمتها العليا في حياة الإنسان، إنها نعم منزلة من عند الله، أشبه بالغيث الذي ينزل من السماء **عن الإمام علي**(ع) في الآية (إنزاله ذلك خلقه إيّاه) الأمثل ١٥/ص٢٦.

(مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ) سُميّت أزواجاً لأن الذكر زوج الأنثى كقوله **(ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ...)**الأنعام/١٤٣-١٤٤، **الأنعام**: الإبل (البعران) والبقر والضأن (الغنم) والماعز فتمت ثمانية **(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ)**يخلقكم جميعاً أيها الناس وسائر الأنعام في بطون أمهاتكم أطواراً، وجاءت **(يَخْلُقُكُمْ)** بالمضارع، للدلالة على استمرار التحوّلات التي تطرأ على خلق الجنين وهو في بطن أمه، وفي كل طور يد الله المبدعة ترعاكم في ذلك المكان الضيّق المظلم، وهذه تدل على إعجاز القرآن وأنه كتاب الله الحكيم، لأن العلم الحديث اكتشف ذلك

مؤخراً، وكان نزول القرآن، في وقت كان الناس يعيشون ظلمات الجاهلية الجهلاء(**خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ**) من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام مكسوّة لحماً، ثم عروق ثم إنساناً سويّاً، ثم ينفخ فيه الروح، فيكرّم أحسن تكريم، ويصير خليفة الله على أرضه، وعين الله ترعاه وتودعه القدرة على التطوّر والارتقاء كقوله (**ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً** ...) المؤمنون/١٤ (**فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ**) عدم وجود النور في الكيس الذي يسبح فيه الجنين في رحم أمه وهو في داخل بطنها، وكلها ظلمات ثلاث لا وجود للنور فيها، لذلك لا تؤدي العين رؤيتها إلاّ بعد ثلاثة أيام من الولادة، وتبقى الأُذن تسمع والطفل في بطن أمه، لذلك يقدم القرآن ذكر السمع على البصر.

وذكر العلم الحديث(**فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ**) في أغشية ثلاثة في ذلك الكيس الذي يسبح فيه الجنين، جعلها الله وقاية للولد وحفظاً له من الكدمات وغيرها. قال الدكتور عبد العزيز باشا إسماعيل في كتابه (**الإسلام والطب الحديث**) يعلّمنا القرآن أن الجنين له ثلاثة أغشية في داخل رحم أمه تحيط بالطفل وتحميه، سّماها القرآن ظلمات (لأنها تعكس النور) هي غشاء المنباري، غشاء الخربون، وغشاء اللفائفي، وهي لا تظهر إلاّ بالتشريح الدقيق، وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة، فمن أوجد هذه الأغشية؟ فكيف يغفل الإنسان عن رؤية هذه الحقيقة؟ (**ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ**) ذلكم الله مربيكم ومدبر أمركم دون غيره؟ وهو المدبّر والمقدّر والمصوّر لكل هذه الأنظمة الدقيقة العجيبة، وهذا كله وغيره من شأنه أن يقود القلب إلى رؤية يد الخالق المبدع فتؤمن بقدرته وتخضع لطاعته (**لَهُ الْمُلْكُ**)هو المالك لكل الكائنات على الحقيقة، (**لَهُ الْمُلْكُ**) والتّصرف التام في إيجاد المخلوقات وفنائها كقوله(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ) يوسف/٢١، ولم يُسلّم ملكه إلى أحد غيره كقوله (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) الأخلاص/٤ وقوله (**وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا**)الكهف/٢٦ (**لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**)لا معبود بحق إلاّ الله، ولا ربّ لكم غيره، ولا شريك له في ملكه، إليه تتّجه كائنات الوجود كلها(**فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**) تنحرفون، وتضلون، أي فكيف يُصرف أي قلب، أي ينحرف فيغفل عن رؤية هذه الحقيقة المؤثرة المشهودة؟! وكيف يصرفكم الشيطان وهوى أنفسكم عن عبادته سبحانه إلى عبادة غيره؟ كقوله (فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) الأنعام/٩٥، وكيف ينحرفون عن توحيده إلى الشرك به؟ هل عطّلتم عقولكم وغلبت عليكم أهواؤكم؟ومن غلب عليه هواه أضله وأرداه!، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، كقوله (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)ص/٢٦

٧-﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

بعد أن ذكّرهم بآياته سبحانه ونعمه الظاهرة والباطنة، حذّرهم من الكفر والجحود لفضله ونعمه وإحسانه فقال **(إِن تَكْفُرُوا)** أيها الناس بالله فلا توحّدوه، وإن تجحدوا نعم الله عليكم فلا يضّره جحودكم **(فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ)** وعن إيمانكم وطاعتكم وشرككم، ولا يتضرر بكفركم ومعصيتكم، فإيمانكم لا يزيد من ملكه شيئاً، وكفركم لا ينقص منه شيئاً كقوله (إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) إبراهيم/٨، إنما هي رحمته الواسعة تغمر الجميع، **في الحديث القدسي:** (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا) الميزان١٢/٢٥١، عن صحيح مسلم، عن الإمام الباقر (ع) (إنّ أقرب ما يكون العبد إلى الكفر، أن يُؤاخي الرجل على الدّين، فيحصي عليه عثراته وزلّاته ليعنفه بها يوماً ما) البحار٧٥/٢١٥ **(وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)**

بالله تعالى ونكران الخالق، ولا يرضى كفران النعم وعدم شكرها، لأن الكفر فيه العناء والشقاء والضياع لكم، ويحرفكم عن خط التوازن الفكري والسلوكي والنفسي، ويبعدكم عن منهج الاستقامة في منهج الله، فالكفر مانع من ارتقاء النفوس البشرية فيجعلها متعلّقة بالمادّيات وحبّ الدنيا، وتكون خاضعة للأرباب المتعددة المخلوقة، **وأيضاً لا يرضى الكفر لأحد من البشر فهو لا يؤيده،** وإن كان واقعاً بمشيئته سبحانه وقضائه، قضى الله سبحانه أن تكون حرية الإنسان ضمن حدود مشيئة الله وإرادته، ومسؤوليته عن أفعاله في حدود قدرته حكمته عز وجل، كيف يرضى لعباده الكفر وقد نهاهم عنه وحذّرهم منه يعاقبهم عليه في الدنيا والآخرة، ولو بعد حين كقوله **(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)** الشعراء/٢١٣ وقوله **(وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا)** الجن/١٧ **عن الإمام علي(ع)** (إنه ليس لهالك هلك من يعذره في تعمد ضلاله حسبها هدى، ولا ترك حق حسبه ضلالة) البحار٥/٣٠٥ **سؤال:** كيف لا يرضى لعباده الكفر ثم يكفرون؟ **الجواب:** لأن الله وهبهم حرية الاختيار ويحاسبهم على اختيارهم كقوله (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) البلد/١٠ وقوله(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ) التغابن/٢ وقوله (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) البقرة/٢٥٦.

(وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) وإن تشكروا الله شكراً واقعيّاً علمياً وقولياً وعملياً على ما وهبكم من النعم المتنوعة الظاهرة والباطنة **(يَرْضَهُ لَكُمْ)** لأنه سبب لسعادتكم وزيادة نعمكم وثوابكم ودفع مضرتكم لا لانتفاعه بطاعتكم، والذي يشكر النعم يشكر المنعم، والذي يشكر الناس يشكر الله، والذي لا يشكر الناس على فضلهم عليك لا يشكر الله كقوله (وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا

يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) النمل/٤٠ **عن النبي (ص)** (لا يشكر الله من لا يشكر الناس)روح البيان٦/١٢٩ **(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ) الوزر**: الذنب، كل إنسان محاسب على عمله، ولا يؤاخذ بالذنب إلاّ من ارتكبه كقوله (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) المدثر/٣٨ وقوله (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ) البقرة/٤٨ **(ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ)** المرجع في النهاية إلى الله دون سواه، كما أن البداية منه كقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) الانشقاق/٦، وبهذه الآية الكريمة لخّصت للإنسان خارطة طريقه كاملة بوضوح، فالذي يعرف كيف ينتهي، يعرف كيف يبدأ! **(فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)**فيخبركم بجميع أعمالكم الظاهرية والباطنية ويحاسبكم عليها **(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)**إنه يعلم ما تكنّه السرائر وتخفيه الضمائر وما يدور في الصدور، ولا يخفى عليه سرّكم وعلانيتكم، وهو أقرب اليكم من حبل الوريد، وهو إخبار بالجزاء العادل يوم الحسم كقوله (لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ)إبراهيم/٥١

٨- ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ) وإذا أصاب الإنسان(الذي لم يعرف قيمة دين الله، ولم يستذوق حلاوة الإيمان، ولم يستقم بصدق على الاسلام) **(ضُرٌّ)** من بلاء وشدة أو مرض أو فقر أو أذى، عندئذ تنكشف فطرة الإنسان النقية وتظهر حقيقتها حين يمسّه الضرّ، وتزول عنها الحجب وتتعلّق بربها الذي لا يكشف الضّر عنها إلاّ هو**(دَعَا رَبَّهُ)** عند الضرر والضرورة، وتوجّه إلى ربه وتضّرع إليه مستغيثاً به ملحّاً عليه، في إزالة تلك الشدة والكربة، فهو يدعوه ويعترف به ويتذكّره عند الشدة والمحنة **(مُنِيبًا إِلَيْهِ)**راجعاً إلى ربه وحده، يستغيث به ومعرضاً عمن سواه، داعياً كشف الضّر عنه، فأما حين يذهب الضّر ويأتي الرخاء **(ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ)**ثم إذا منحه نعمة وأعطاه مطلوبه وفرّج عنه كربته**(نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ)**نسَي ذلك الضر الذي كان يستغيث بربه إلى كشفه عنه، ومرَّ كأنه ما أصابه ضرّ واستمر على ضلاله كقوله (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ)يونس/١٢ **(وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا)**وأتّخذ لله أمثالاً ونظائر وشركاء على زعمه في العبادة.

ومفهوم الأنداد واسع الدلالة، فسبيل الله واحد لا يتعدد، ولا يتحمل شركة في القلب ولا في المال ولا الولد ولا الوطن ولا الصديق ولا القريب..فأية شركة قامت في القلب من هذا وأمثاله فهي اتخاذ أندادٍ لله، والضلال عن سبيل الله كقوله (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) البقرة/١٦٥ **(لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ)** لتنتهي به هذه الأنداد إلى إضلال نفسه

وإضلال الناس عن منهج الله، فإذا هو يعبد شهواته وميوله ورغباته ودنياه وهواه كقوله (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) الجاثية/٢٣، فيشرك بالله الشرك الخفي المستور أو الشرك الجلي الواضح (**قُلْ**) لهذا العاتي المتمرد الذي بدّل نعمة الله كفراً (**تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا**)هذا أمر بمعنى الخبر، أي تمتّع كما تتمتّع الأنعام، (**تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا**) فإنك ضيّق الأفق، فتقلّب القناعات، متلبّس فيك النفاق وازدواج الشخصية، وكل متاع في هذه الأرض قليل مهما كثر وتعدّد وطال، فهو محدود، ولذّاته قصيرة وتبعاته طويلة، متاع ظاهره يغرّ ويسرّ ويمرّ باطنه يضرّ كقوله (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) الأعراف/١٨٢ **وفي نهج البلاغة** (ما خيرٌ بخير بعده نار، وما شرّ بشر بعده الجنة)حكم/ ٣٨٠ (**إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**) فإنك تمهّد لنفسك ليكون مصيرك من أهل نار جهنم، وفي ذلك دلالة على أن هناك علاقة مودة قوية، وإعداداً مسبقاً بين كفرهم والنار!، وكأنهم يمهدون لأنفسهم لهذا المصير! **فائدة:** تشير الآية إلى أن الإنسان يتبيّن معدنه عند الشدة، وتظهر حقيقته عند البلاء، فالمؤمن الصالح هو الذي تتوازن شخصيته، وتستقيم أقواله وأفعاله في كل مكان وزمان، وفي الشدة الرخاء، وفي الغنى والفقر، **عن النبي(ص)** (تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)روح البيان٨/٧٩.

٩ - ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

أهذا الكافر المضطرب الذي يؤمن عند الضرّاء، ويكفر عند الرخاء، وهو من أصحاب النار خير (**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا**) إنها صورة مشرقة مشوّقة تحرّك المشاعر والضمائر نحو طاعة الله سبحانه، تقابل تلك الصورة المأساوية المظلمة الصعبة التي تنفر منها المشاعر، صورة الكافر المتقلّب المتلوّن التي رسمتها الآية السابقة، وأن هذه الأمور تقرر بالعقول تفاوتها لشدة وضوحها كقوله (أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)الرعد/١٩، **المعنى:** (**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ**) دائم العبادة قائم بالطاعة بصدق (**قَانِتٌ**) خاضع منقطع لربه (بلسان الحال وبلسان المقال) وفي كل وقت، وفي جميع الأحوال والأشكال، ولاسيما في وقت إقامة صلاة الليل والناس نيام (**آنَاءَ اللَّيْلِ**) جزء منه في وقت صلاة الليل المزكّية للنفوس (**سَاجِدًا**)في صلاته، والسجود دليل الخضوع والانقطاع لله (**وَقَائِمًا**) فيها أخرى، وهذا يحصل بعيداً عن الرياء والسمعة، في وقفة صادقة مع الله سبحانه، فلا يشغلك شيء من متاع الدنيا، فيجعل راحتك في هذا القنوت الخالص بدلاً عن النوم، وفيه دلالة على أنه يعبد الله في جميع حالاته، يشكر عند الرخاء، وحكيم صبور عند الشدائد (**قَانِتٌ**)

القنوت: معنى عميق واسع الدلالة، وهو مظهر من المظاهر الجميلة بالارتباط بالله عز وجل، منه **قنوت تكويني عام** كقوله (كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ) البقرة/١١٦**وقنوت تشريعي خاص للدعاء**، والانقطاع الخالص الخاشع كقوله (وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) البقرة/٢٣٨، وتقديم السجود على القيام لكونه أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد (**يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ**) تبحث الآية عن الاعتدال بين الخوف والرجاء، أي يحذر عذاب الآخرة وأهوالها، ويجعلها نصب عينيه ويستعدّ لها في جميع أحواله، خوفاً من هيبة الله كقوله (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ) الرحمن/٤٦، فيترك الحرام، ويتورّع عن الحلال المشتبه بالحرام!كما ويحذر من مغريات الدنيا (**وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ**) ويطمع ويطمح برحمة ربه الذي كتب على نفسه الرحمة، بفعل المواظبة على الواجبات والقدر المناسب من المستحبّات، فهو يعيش متوازناً بين الخوف والرجاء، وبين الرغبة والرهبة، والقول والعمل، والإيمان والعلم، **عن النبي(ص) (لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا)** روح البيان٨/٨١، **وتشير الآية**: إلى أن العبادة وأصل الدين لا يقتصر على الصلاة والصيام فحسب، وإنما بحسن العبادات وحسن المعاملات والأخلاق بين الناس كقوله(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) النحل/١٢٨، **في نهج البلاغة حكم٨١** (قيمة كل امرئ ما يحسنه) قال (**يَحْذَرُ الْآخِرَةَ**) ولم يقل (يأمن الآخرة) لأنها ليست بيده، قال(**وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ**) ولم يقل(يرجو الجنة) لأنه لا ندخل الجنة بأعمالنا من دون رحمة الله، فالرحمة التي يرجوها هي الفيوضات الكريمة الخاصة التي يعطيها الله لمن يعيش في ظلّها ويستذوقها، **في غرر الحكم** (رحم الله امرءاً أخذ من حياة لموت، ومن فناء لبقاء، ومن ذاهب لدائم)قل يا مُحَمَّد (**هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**)؟

الاستفهام إنكاري، لأنه لا تخفى الإجابة على أصحاب العقول المفكّرة الواعية، كلا أنهم غير متساوين، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والعلم والجهل، **فائدة**: العلم الحق: هو إدراك الحق واتّباعه الذي يفتح بصيرة القلب ليرى الحقيقة الثابتة، التي هي سرّ الوجود والتي هي أكبر من ظاهرها المشهود، وليس من العلم المرغوب الذي لا يدلّك على الله الذي سوف تلاقيه، فمنه البداية وإليه تكون النهاية، **للعلم حقيقة وادّعاء: فلا يستوي من يتكامل بالعلم النافع والعمل الصالح والإيمان بالله ومن يدّعيها**، وهذا تحقير للعلماء غير العاملين، ولا خير في علم لا ينفع نفسك والناس ولا يرضي الله، والعلم المقصود هنا هو العلم الذي يدلّك على عبادة الرحمن ويكسبك الجنان، وهو العلم الحضاري المرتبط بعملية التطّور العلمي والأخلاقي في نهضة قيميّة شاملة متوازنة.

عن الإمام الصادق (ع) (**العقل**: ما عبد به الرحمن، واكتسب به الجنان) الكافي١ص١١ أما ما كان عليه معاوية، هي الشيطنة والدهاء، وهناك فرق بين الذكاء والدهاء، فالذكاء يكون في

الخير، والدهاء يكون في الشر. **والمراد بالعلماء الصالحون (خلفاء الرسل، وورثة الأنبياء)** الأُمناء على حفظ الدين، الذين يعملون الخير للإنسانية جمعاء، وتحرير المظلومين وخلاص الناس من معاناة البؤس والضلال والفقر والحرمان، أما العلماء أصحاب الجاه اللامبالون بالناس، ولا يفكرون إلا بمواقعهم الاجتماعية المميزة، هؤلاء يضلون الناس عن سبيل الله بعد أن أضلوا أنفسهم. **ومن مصاديق العلماء، عن الإمام الصادق**(ع) (نحن الذين يعلمون، وعدونا الذين لا يعلمون)مجمع البيان٨/٤٣٠ **(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ)** إنما يتدبّر ويتعظ **(أُولُو الْأَلْبَابِ)** أصحاب العقول المفكرة السّليمة، الخالصة من الشكوك والأوهام والعيوب (والذين لا يفكرون فيقودهم الذين يفكرون)وعلى قدر العقل تكون العبادة، **في نهج البلاغة حكم ٩٨** (اعقلوا الخبر إذا رأيتموه عقل رعاية، لا عقل رواية، فإن رواة العلم كثير ورعاته قليل) **عن النبي(ص)** (لا خير في العيش إلاّ لرجلين: عالم مطاع أو مستمع واع) **وعن ابن عباس** خُيِّرَ سليمان بن داوُد(ع) بين العلم والمال والملك، فاختار العلم، فأعطي المال والملك!

١٠ –﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

(قُلْ) يا مُحَّد **(يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا)**يناديهم بشفافية وتشريف ورقّة بإضافتهم إلى نفسه سبحانه **(يَا عِبَادِ)** لأن في النداء إعلاناً وتنبيهاً لشيء مهم بعده، الذين صدّقوا بمنهج الله ورسوله، وارتفعوا من منزلة الإيمان العام إلى درجة التقوى الخاص، لتكون **(التقوى)** مَلَكَة دائمة وحصانة قائمة في نفوسهم، وليست حالة طارئة مؤقتة، فإن التقوى حصن حصين وحرز منيع كقوله (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) الطلاق/٤، **التقوى:** من الفعل وقى ووقاية من المعاصي، والورع عن محارم الله والالتزام بطاعته. **في غرر الحكم (التقوى:** منتهى رضى الله من عباده وحاجته من خلقه) فقد كتبنا **(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا)** الاعتقاد الحسن، وفعلوا ما هو حسن لهم ولغيرهم **(فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) حسنة:** معنى عام يشمل كل ما يستحسنه الإنسان ذو العقل السليم، تشمل كل نعمة التي تعطي ثمار حسنة معجّلة، تسرّ الإنسان في نفسه وبدنه وأحواله، فهي حسنة في ذاتها وعطاءاتها وفي نتائجها.

كقوله **(وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)** العنكبوت/٦٩، والذي يعمل الحسنة النافعة هو **(المحسن)** هو العبد الصالح الذي يرق قلبه ويتعاطف مع الناس (كل إنسان من موقعه وبقدره وقدرته)، وينهض بالمجتمع ويعمل من أجله وخدمته، وصيانة حقوق الإنسان العادلة، ويسعى لحل مشكلة اجتماعية، ويعالج أخطاء شائعة، ويحقق غاية إنسانية مرغوبة **(وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ)** توجيه قرآني بالهجرة عن الأوطان في مقام الرخصة، في الحالات الضرورية الاستثنائية، والضرورات تقدّر بقدرها، فمن ضاق عليه بلده الذي تُهان به كرامة الإنسان، وعجز عن

القيام بواجبه الديني المطلوب، وممارسة عمله الدنيوي المرغوب، فإن الالتصاق في الوطن في تلك الحال ذلة لكرامة الإنسان، ويجب عليه أن يحفظ كرامته، فليهاجر إلى أرض الله الواسعة كقوله (**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**) العنكبوت/٥٦، إلى حيث البلد المناسب.

في نهج البلاغة حكم٤٤٢ (ليس بلد أحقَّ بك من بلد، خير البلاد ما حَملك) **وعن النبي (ص)** (لا خير في .. الوطن إلاّ مع الأمن والسّرور)البحار٧٧ص٥٨ وأخسر الناس من استعبدته الأوطان، فإنه مدخل من مداخل الشيطان ونتيجته الخسران، فهذا البقاء المذل هو لون من أتخاذ الأنداد لله في قلب الإنسان، فيعيش النفاق والتلوّن والتقلّب والتذبذب كقوله (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) النساء/١٤٥، أما المهاجرون الصّادقون فيصبرون على كل حال، الصبر الجميل والله المستعان كقوله(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)السجدة/٢٤، يصبرون على مشقّات الهجرة والجهاد في سبيل الله، ويرتفعون فوق الميول والاتجاهات المشبوهة، ولا يخضعون للأقوياء ولا يستسلمون أمام الطغاة، **عن السيد المسيح**(ع) (إنكم لا تدركون ما تحبّون إلاّ بصبركم على ما تكرهون)البحار١٣٧/٨٢، (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**) إنّ نتيجة الصبر الجميل الجزاء العظيم بلا حدود ولا قيود، فلا يحاسبون على أعمالهم، ولا يُنشر لهم ديوان على الملأ يوم المحشر، ولا يقدّر أجرهم بوزن عملهم، فثوابهم على ذلك من عند الله لا يمكن عدّه وإحصاؤه، **عن النبي(ص)** (إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين، لم ينصب لأهل البلاء ميزان، ولم ينشر لهم ديوان ثم تلا (**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ**..)مجمع البيان٤/٧٦٧

١١-١٢-﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾

(**قُلْ**)يا مُحَمّد لهؤلاء الكفّار(**إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ**)أني أعلنها صريحة واضحة بأني أُمرت من قبل الله أن أعبده وحده لا شريك له، عبادة خالصة مخلصة لا رياء فيها ولا هوى ولا شيطان، وأُسلم وجهي لله وأؤمن به وأدعو إليه، مخلصاً له العبادة الطاعة الخالية من النقائص والعيوب، ومن الشرك بأنواعه الجلي الواضح أو الخفي المستور كقوله (**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ**) النساء/١٢٥هذا هو الإسلام في حقيقته الناصعة، **في غرر الحكم** (من قام بشرائط العبودية أهِّل للعتق)ومن قصر عن أصول العبودية أعيد إلى الرّق!وعلى قدر العلم والعبودية تكون العبادة، وإنما خصَّ الله تعالى الرسول بهذا الأمر لينبّه على أن غيره بذلك أحق، فهو ترغيب على الإخلاص الذي فيه الخلاص، **ومعنى إخلاص الدين لله:** هو الدين الصافي النقي الذي أراده الله لا شوائب فيه، كقوله (**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**) الشورى/١٣، هذا الإعلان عن (**إخلاص الدين لله**) قيمة تربوية كبرى، لتحقيق

غاية الدين وحفظ عقيدة التوحيد صافية نقية، **في غرر الحكم** (التوحيد حياة النفس) فلا يختلط عند المخلص معنى الإلوهية والعبودية، وعلى قدر العبودية يكون إخلاص التوحيد.

في غرر الحكم (إخلاص العمل، من قوة اليقين وصلاح النية) **عن النبي(ص)** (ما أخلص عبد لله عز وجل أربعين صباحاً إلا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)الدر المنثور٢/٢٣٧.

١٢-(وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)

يعتمد القرآن الكريم على قاعدة(**أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ**) في تربيته النهضوية النموذجية المميزة للشخصية القرآنية، وإن نزلت الآية بخصوص السبب ولكن أُريد لها عموم المعنى وسعة المغزى، (**أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ**) أنه شعار قرآني فيه دلالة تقدّمية عامة، محفّزة للنفوس للتنافس الشريف بأنواع الخبرات والخيرات، والتسابق النظيف بأنواع المكرمات والاختصاصات، وأنها دعوة صالحة حضارية نهضوية متألّقة للفرد والمجتمع. إنها دعوة صادقة إلى البحوث العلمية المتنوعة، لخلق شعور مضاعف يحفّز النفوس ويقوّي الإرادات، بمضاعفة الجهود للتفكّر في أسرار الوجود، على أنه أكبر ظاهره المشهود، لخلق أيّة مبادرة حضارية شريفة سريعة التي تسبق عادات المجتمع البشري على ما تعاف وتآلف عليه، وبهذا فليتسابق المتسابقون كقوله (لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) الصافات/٦١ وقوله (**وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**) المطففين/٢٦، إنها عملية تقدم وإصلاح للفرد والمجتمع، وفيها مبادرة السبق في إعداد القدوة الحسنة والقيادة الصالحة المؤهلة لقيادة الجماهير العامة، نحو هدف سامٍ مشترك يخدم الناس في دنياهم وآخرتهم ويرضي الله تعالى كقوله **عن لسان موسى**(ع) (قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) الأعراف/١٤٣، أول المؤمنين والمسلمين في زمانه، **عن النبي(ص)** (من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن)كنز العمال خبر ٢٤٥٤، **معنى الآية (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ)** من التسليم، أي وأمرت لأن أكون أول المسلّمين لأمر الله، الملتزمين بمنهج الله، وأول المبادرين بالخيرات وتبادل الخبرات وإعداد أنواع الكفاءات والاختصاصات وحُسن استثمارها كقوله (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) الفرقان/٢، وأكون الشخص الأول بامتياز في إعلان إنتاج جديد وموهبة جديدة مفيدة مميزة، وإظهار اختصاص علمي نادر، واكتشاف واختراع شيء جديد ونافع للناس، سواء أكان في النفس أو في الآفاق.كقوله(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)فصلت/٥٣، لأكون أيضاً أول السبّاقين في إخلاص الدين لله، ويحمل قوة التطبيق بكفاءة ونزاهة وبهمة عالية (والهمة على قدر المهمة) في خدمة الناس، ولا يكتفي بالأقوال، بل الأعمال ترجمان الأقوال، ولا يقول ما لا يفعل، فمن أمتلك الهمة العالية في إرادة التطبيق لهذا المنهج الحضاري النهضوي بصدق، كان من الأوائل على أمّته بحجم

إرادته ونوع كفاءته ومقدار نزاهته وإخلاصه و(قيمة كل امرئ بمقدار خبرته وتجربته)كقوله (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ)الأنعام/١٤

١٣-١٤-﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي)

بترك منهج الله وعدم تبليغه للناس، ولم أخلص له الدين، مهما كانت منزلتي لن يشفع الله لي، إن حدثت أيّة معصية منّي، للدلالة على بشرية الرسول (ص) وهو مكلف بإخلاص العبادة، ويخاف من أيّة معصية! وحاشاه من أيّة معصية، وهو المعصوم(ص) بذاته والذي يدعمه الله ويسدده بالوحي، والذي يُعلّم العصمة لغيره، **في غرر الحكم** (بالتقوى قرنت العصمة) ولكن الآية من باب (إياك أعني واسمعي يا جارة) **عن الإمام الصادق** (ع) (إنّ الله بعث نبيّه بإيّاك أعني واسمعي ياجارة) البحار٩٢/٣٨١ **(عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)**أخشى أن يصيبني الفزع الأكبر، وترعبني أهوال يوم القيامة! والمقصود منها أتركوا أيها الناس المعاصي، فإنها أمراض لنفوسكم كقوله**(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** المطففين/١٤لأن النبي المصطفى(ص) إذا كان خائفاً مع كمال طهارته وجمال عصمته وجلال أخلاقه، فغيره أولى بالخوف كقوله (وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ)الأحقاف/٩، وقوله **(لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)** آل عمران/١٢٨، وذلك سنّة الأنبياء(ع) قدوة البشر وقادتهم، حيث يخبرون غيرهم عن طريق صفة مشتركة بينهم وبين الناس، لتثبيت بشريتهم ليقتدوا بهم، **عن النبي(ص)** (أُمرنا معاشر الأنبياء أن نكلّم الناس على قدر عقولهم)الكافي١ص٢٣، **يقول الإمام علي(ع) من دعاء كميل بن زياد** (اللهم اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم) فهذا ليس اعترافاً بالذنب بل هو تصوير حال الإنسان المذنب الخطّاء، وخير الخطّائين التوابون، أما الإمام(ع) فهو معصوم عن الخطأ. **١٤- (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ)** يؤكد النبي مُحَمَّد(ص) بأمر الله أنه عبد مأمور، أخضع لأوامر ربي ولا أعبد سواه، وأسعى لهداية الخلق إلى الله الحق، واحترم حقوق الناس، وتحريرهم من هيمنة العبودية الذليلة لغير الله، إلى العبودية العزيزة المخلصة لله في اتباع دينه الحق، وأن إخلاص العبودية لله حرية في الأرض وعزة للنفس كقوله(الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) النساء/١٣٩**(مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي)** ديني الذي أراده الله وليس الذي أراده الناس، ودين الله وحدة واحدة موحّدة متّحدة، غير قابلة للتجزئة والتفرّق كقوله **(أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)** الشورى/١٣وقوله (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)الأنعام/١٥٩ **(مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي)** عبادتي وطاعتي، أي طاعة صادقة خالية صافية نقيّة من كل شائبة، لا تليق بالدين الخالص القيّم، طاعة خالية من الشرك الجلي والخفي، طاعة قوية مباشرة بلا وساطة ولا وسائل مساعدة، لتقوية العلاقة مع الله مباشرة، لتصل إلى درجة حبّ

الله كقوله (**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله**) البقرة/١٦٥ **عن الإمام الصادق**(ع) (القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله) البحار٧٠ص٢٥، **عن الإمام علي**(ع) (طوبى لمن أخلص لله عمله وعلمه، وحبه وبغضه، وأخذه وتركه، وكلامه وصمته، وفعله وقوله)

فائدة:

وقد أكّدت السورة على آيات الإخلاص لإظهار قيمته الكبرى في تحقيق الخَلاص والنجاة للفرد والمجتمع، في الدنيا والآخرة **في غرر الحكم (عند تحقيق الإخلاص تستنير البصائر) والذي تذوّق لذة الإخلاص لله استهان بكل لذّات الدنيا ومغرياتها في نهج البلاغة خطبة١٩٣** (عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم) لأن إخلاص القلب والدين لله أعلى قيمة وأحلى لذّة، فهو يرفع الحُجب وتعرف الحقائق، ويكشف الأسرار وتنسّق مع الأقدار! **والإخلاص**: غاية الدّين، ولذّة المقربين، فهو قمة القمم وقيمة القيم ونعمة النعم، وقد سلّط القرآن الكريم على آيات الإخلاص، **وليس هذا بتكرار**: لأن الإخلاص (الأول) في الآية٢ إخبار بأنه(ص)مأمور بالعبادة الخالصة (والثاني) في الآية ٣ لبيان أن الله لا يقبل من الأعمال إلاّ ما كان خالصاً ومخلصاً لوجه الله (والثالث) في الآية ١١ تأكيد العبادة الخالصة لتأهيله للوصول للقمة ويكون (**أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ**) في الآية ١٢(والرابع) في الآية ١٤إخبار بامتثاله (ص) للأمر، أي إني أعبد الله بصدق، ولا أعبد أحداً سواه.

١٥ - ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

(**فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ**)فاعبدوا أنتم أيها المشركون ما أردتم من دونه، إنه صيغة أمر على هيئة تهديد لهم، والله لكم بالمرصاد كقوله (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) الغاشية/٢١-٢٢، لأنكم-على كل حال-سوف ترون عاقبة كفركم كقوله (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)فصلت/٤٠ (**قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) (**ستخسرون**) يوم القيامة يوم الندامة، أنفسكم الغالية بادخالها النار المؤبّدة، (**وستخسرون**) أهليكم وسندكم وأُنسكم وهي خسارة رأس المال **والأهل**: معنى عام، يشمل الزوجة والأسرة والأقرباء والأخّلاء، وهم أتباع الإنسان، والسائرون على نهجه كقوله عن نبي الله لوط(ع) (إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ) الصافات/١٣٤-١٣٥، (**وستخسرون**) أهليكم لعدم انتفاعكم بهم سواء أكانوا مؤمنين في الجنة فتنقطع كل الصلات بينكم، أو كانوا معكم كافرين في النار فالخسارة مشتركة، (**وستخسرون**) أهليكم من الحور العين والولدان المخلّدون الذين أعدّهم الله لكم في الجنة لو كنتم آمنتم، والربح والخسارة بعد العرض على الله(**أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**) أمر تهديد للمعاندين (**أَلَا**)فانتبهوا أيها القوم (**ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**)

الواضح والحرمان الأكيد، خسران محيط بهم من كل جانب، محيط بعملهم وبمالهم وبأهلهم ورأس مالهم، لقد ركّز القرآن في بيان الخسران بأداة التنبيه (**أَلَا**) وبالإشارة إليه (**ذَٰلِكَ**) وتأكيده بأداة الحصر (**هُوَ**) وتعريفه بأل، ووصفه بأنه (**الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**)الواضح لمن تأمله أدنى تأمل. وهكذا الذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ!

فائدة: (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ)

إنه تعبير بليغ ودقيق ونفّاذ لبيان حرية الاعتقاد للإنسان كقوله(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) البقرة/٢٥٦، العبادة في الإسلام مبنية على حرية الاختيار وليس الاجبار، والإنسان محاسب على اختياره كقوله (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ) التغابن/٢ **في نهج البلاغة حكم٧٨** (إنّ الله سبحانه أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يطع مكرهاً..)

١٦ –﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾

إنه مشهد من مشاهد أهوال يوم القيامة، وكأن التعبير القرآني الدقيق يغوص في أعماق وصف النار ليصوّر مشهد هذه الظُلل المرعبة، مشهد فيه الخسران والحرمان والندم الشديد، وهو مشهد رهيب مرعب حقاً يعرضه الله لعباده وهم ما زالوا في الدنيا، يملكون القدرة على الوقاية من هذه النار، ويخوّفهم من عواقب اللامبالاة لعلّهم يحذرون فيتّقون، ومن أنذر فقد أعذر، **المعنى: (لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ)** لهم من نار جهنم فوق رؤوسهم (**ظُلَلٌ**) طبقات من النار تظلهم بعذابها، **وظُلَلٌ**: جمع ظُلة، وهو ما يستظل به، فيقي من حرّ أو برد، وتسميتها ظللاً تهكم بهم (**وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ**)ومن تحتهم كذلك طبقات، أي أن النار محيطة بهم من كل جوانبهم كقوله (يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)العنكبوت/٥٥ (**ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ**)أنه تهديد الله الرحيم بعباده العصاة الطغاة بالعذاب، إنما هو لطف بهم ورحمة ليجتنبوا ما يسخط الله كقوله(وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ) طه/٨١ لينزجروا عن المحارم والمآثم التي تجرّهم إلى هذا العذاب الأليم، إنه تخويف لتستفيقوا من غفلتكم، وليس إرهاباً لكم، لينقلكم من حالة الترهيب إلى حالة الترغيب حيث رحمتي الواسعة، ولا يعدّ خائفاً من لم يكن للذنوب تاركاً(**يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ**) (**يَا عِبَادِ**)كل العباد، يناديهم برفق وشفقة، وهذه عظة من الله تعالى لعباده ونصيحة بالغة، ليحذروا من ترك التقوى (فمن اتّقى الله وقاه) لأن البديل عن التقوى هو الهوى، والهوى شريك العمى، وهو إله يتّبع من دون الله كقوله(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) ص/٢٦، **عن النبي(ص)** (ما عُبد إله أبغض على الله من الهوى)!روح البيان١٩٧/٢، **فائدة: (ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ)** ليس معناه أنه تخويف بلا حقيقة، وإنما معناه ليبتعدوا

عن الأسباب المؤدية إليه. كقوله (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فاطر/٢٨ **في غرر الحكم** (من كان بالله أعرف، كان من الله أخوف) إنه خوف هيبة ورغبة ومحبة، وليس خوف رهبة ورعبة.

١٧–١٨ – ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾

إنها صورة حركية واقعية مجسّمة، صورة تربوية نموذجية دقيقة، صورة نفّاذة أخّاذة عالية المضامين، تعبّر عن منهج حياة سامية ترتقي بالإنسان إلى قمة القمم، فيهديه الله للتي هي أقوم، ويستثمر عقله أحسن استثمار، فيعي الأمور حوله بدقة وتقوى فراسته، ولا تلتبس عليه اللّوابس، وخير القلوب أوعاها.

المعنى:١٧-(**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا**)والذين ابتعدوا عن عبادة وطاعة (**الطَّاغُوتَ**) وهو صيغة مبالغة من الطغيان، وتحذير خطير منه ومن تجاوز الحدود، **والطاغوت: مصطلح قرآني حركي عام يشمل كل شيء يُعبد من دون الله**، كالشيطان والحكّام المتجبرين ورؤوس الظَلال، **عن الإمام الصادق**(ع) (من أطاع جبّاراً فقد عبده) مجمع البيان٨/٤٩٣، وقد تكون النفس الأمّارة بالسوء هي الطاغوت! وقد يكون هواه هو الطاغوت! فليحذر من عبادتها وطاعتها (**وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ**) **وأنابوا:** ورجعوا ولم يقتصروا على مجرد الابتعاد عن الطاغوت أن يعبدوها ويطيعوها، بل ورجعوا إلى الله راغبين بالعبادة والطاعة والاستقامة على منهجه، **ومن الجدير ذكره**:قدّم اجتناب الطاغوت على الإنابة إلى الله كقوله (فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ) البقرة/٢٥٦، وكما قدّم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله، وبذلك تتحقق كلمة التوحيد خالصة (**لا إله إلاّ الله**) فإذا لم تنفِ من نفسك كل الآلهة الوضعية المصطنعة، وتتخلّص بالتدريج من السلبيات والعادات والتقاليد السيئة، ومن العيوب والنقائص، لا تستطيع أن تثبت على طاعة الله الواحد كقوله (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) الشمس/٩-١٠، وإذا لم تهذب نفسك من سلبياتها، لا تزداد عندك الإيجابيات، على قاعدة (**التخلية ثم التحلية**) لم تتمكن أن تصدق مع الله، أولئك (**لَهُمُ الْبُشْرَىٰ**) بشارة صادرة من الملأ الأعلى، وجاءت بشارة سارّة عامة وممدودة وغير محدودة، بشارة المفاجآت والمخبّآت والفضل من الله، والكرامة الكبرى بكافة النعم الظاهرة والباطنة، في الدنيا والآخرة، إنه منهج قرآني يبعث على الحياة، منهج فريد مميّز واسع الدلالة ظاهره أنيق دقيق جذّاب، وباطنه عميق رقيق منساب، **له بشارتان سارّتان:** البشارة الأولى السارّة تنقلك إلى البشارة السارة الثانية، (**فَبَشِّرْ عِبَادِ**) فبشّر يا محّمد عبادي هؤلاء، وقدّم البشارة على الفعل لإلفات النظر للقيمة العليا لهذا الفعل النموذجي، إنه العمل الصالح يرفعه في الدنيا قبل الآخرة، وأن بشارة الآخرة مترتبة على بشارة الدنيا.

١٨-(**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ**)

ومن صفات هؤلاء النخبة النموذجية الصالحة أنهم يستمعون أنواع الأقوال، فيقارنون بينها ولا ينصتون ولا يتفاعلون إلاّ مع أفضل الأقوال وأزكى الكلام وأحسن الأعمال وأقربها إلى الخير (**فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**) فتلتقط قلوبهم أحسنه وتطرد ما عداه، من أجل العمل على ضوئه.بخطوات مدروسة، والقول الأحسن هو الأرجح والأنفع في معناه ومبناه ودلالته، والأبعد عن الشبهة والريبة والشك، هذا هو (**الإيمان عمل كله والقول بعضه**) وهو حديث عن الإمام الصادق (ع) البحار٦٩ص٢٣، في الحديث (**الحكمة ضالة المؤمن(هدفه)أينما وجدها أخذها**)البحار٢/٩٩ ولا يجمدون على ما هم عليه، ولا يتعلّقون بما ورثوا من عادات وتقاليد خاطئة، والذي يتّبع الأحسن هو الأحسن، يعني يكون لهم القدرة الفائقة على التمييز بين الصحيح من الخطأ، والضلال من الهدى، وفرز الحقيقة عن الشبهات والضلالات، فيميزون بين أهون الخطرين، وأقل الضررين، والذي له القدرة على الفرز هو الأعلم والأفهم والأوعى والأفضل، والنفس الطيّبة تنفتح للقول الطيّب، فتتلقاه وتستجيب له.

كقوله (**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**) فاطر/١٠ **في غرر الحكم** (ذروة الغايات لا ينالها إلاّ ذوو التهذيب والمجاهدات)، بينما النفس الخبيثة لا تنفتح إلا للخبيث من القول، ولا تستجيب إلاّ له (وشبيه الشيء منجذب إليه، والطيور على أشكالها تقع) (**فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**) وهذا ثناء من الله سبحانه عليهم بنفوذ بصائرهم وصدق سرائرهم، وقوة فراستهم وزيادة وعيهم وكثرة نباهتهم، أما إذا سمعو الكلام الفارغ ولغو الحديث فلا يستمعونه وينفرون منه، كقوله (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)المؤمنون/٣ (**فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**) ليس المراد بالأحسن، الشكل دون المضمون، ليس المراد بالأحسن، أحسن الألفاظ وجمال التعبير وفصاحة الأسلوب دون التفكير في المعنى والمغزى، **إذن: (أحسنه) مفهوم نسبي واسع الدلالة**، والمراد من انتقاء الأحسن من كل شيء، الأحسن من الكلمات والجمل والأعمال والمشاريع والقوانين والقناعات والصناعات والأنظمة ..إلخ في كل موارد الحياة فيه الحكمة والموعظة الحسنة، التي تنفع في دنياه وآخرته. **مثل**: رد التحية كقوله (وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)النساء/٨٦، والقصاص بالمثل ممن اعتدى، ولكن العفو أحسن من القصاص كقوله (**وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**) البقرة/٢٣٧ **في نهج البلاغة** (أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر، وارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد، واقتدوا بهدي نبيّكم فإنه أفضل الهدى، واستنّوا بسنته فإنها أهدى السنن، وتعلّموا القرآن فإنه أحسن الحديث) (**فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**) إنهم يتّبعون أحسن ما قيل من أحسن قائل وهو الله الحق سبحانه، وأحسن القول هو (الإسلام) كقوله (ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) الروم/٣٠وقوله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ

وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)التوبة/٣٣ **(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ)** أولئك المتّصفون بتلك الصفات الجليلة، وقد علم الله الخير في نفوسهم بالتقاطهم الأحسن من كل شيء، فهداهم الله للتي هي أقوم في أمور دنياهم وآخرتهم، وإلى استماع الأحسن وتنفيذ العمل الأحسن نحو طموح أحسن كقوله: (أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) الأنفال/٤ **(وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ)** هم أصحاب العقول السليمة، والفطرة المستقيمة، والقلوب الصافية، الخالية من الشبهات وتشويش الرؤية، التي لا تطيع الهوى ولا الشيطان، **هذا هو الإسلام في مبادئه** وشريعته ومنهاجه التربوي المتألّق، فمن استقام على منهجه فقد اهتدى، ومن أعرض عنه فقد ضلّ وهوى، فلا يمين ولا يسار في الإسلام ولاشيطان ولا هوى ولا أنا ولا حبَّ الدنيا. **فائدة:** ١-قال **(فَبَشِّرْ عِبَادِ)** ولم يقل (فبشرهم) تشريفاً لهم وتكريماً بإضافتهم إلى نفسه سبحانه ٢-ذكر الزمخشري..

قوله **(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)** إنّ المؤمنين ينبغي أن يكونوا نُقَّاداً بنّائين موضوعيين في علوم الدين، ونقد التصرفات الخاطئة المتخلخلة في أعمال المؤمنين، وأن لا يدخل في الدّين ما ليس من الدّين، ويُحسب على الدّين، والحرص على وحدة الدين وعدم تجزئته وتعدده كقوله **(أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)**الشورى/١٣، فإن الله تعالى عنده دين واحد اسمه الإسلام كقوله (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) آل عمران/١٩ وليس عند الله أديان متعددة، وكل الأنبياء جاؤوا بالإسلام الحق، ولا يجوز الاختلاف والتنازع فيه، والتفرّق عنه كقوله **(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)** النساء/٥٩، وقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) آل عمران/١٠٥، فالعقل المفكّر والإيمان الواعي والقلب المخلص، هو الذي يقود صاحبه إلى الاستقامة في دين لله، ففي الاستقامة السّلامة والكرامة بلا أية ندامة ولا ملامة، والذي يغلبه هواه هو العقل المحروم من هذه النعمة الكبيرة، **في نهج البلاغة حكم٢١١** (كم من عقل أسير، تحت هوىً أمير)!، ٣-**أسباب النزول:** نزلت بحق سلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري وزيد بن عمرو، أنهم لم يستسلموا لتيارات الجاهلية، واستقاموا على التّوحيد. الأمثل١٥/ص٥٣، **في غرر الحكم** (التّوحيد حياة النفس)

١٩-﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ) أفمن **(حَقَّ)** وجبت عليه **(كَلِمَةُ الْعَذَابِ)**وعيد الله بالعقاب في جهنم بسبب سوء عمله، وهي كلمة العذاب الحاسمة القاصمة الدائمة لإبليس وأتباعه كقوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)ص/٨٥ **(أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)** أفأنت تخلّصه يا مُحَمَّد من مصيره المشؤوم، وهو من أهل الفساد والهلاك؟ وهل تقدر على

هدايته وهو لا تليق به الهداية؟ (والذي لا ينفعه الهدى تضرّه الضلالة)، وفي ذلك استبعاد لإنقاذه. الاستفهام إنكاري ويراد به النفي. **فائدة**:١-**سبب النزول** كان النبي(ص) يحرص على إيمان قومه المشركين المعاندين، وكان يُتعب نفسه لينقذهم من مصيرهم الأسود، وقد حقّت عليهم كلمة العذاب، فنزلت الآية كقوله (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) الشعراء/٣، ٢-يصوّر القرآن الكريم لتقريب المشهد إلى الأذهان، إنّ نماذج من البشر تتنافر قلوبهم القاسية مع نور الحق والهدى، وتنسجم وتتفاعل مع الباطل، وتعطي ولاءها للفساد والطغاة، وحجبوا عقولهم عن الهدى الذي من حولهم، هؤلاء لا تنفعهم شفاعة الشافعين! كقوله (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) الزمر/٤٥ وإذا كان النبي الكريم (ص)لا يملك الشفاعة لإنقاذهم من النار التي هم فيها، فمن يملكها إذن سواه جلّ في علاه؟! كقوله(لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)آل عمران/١٢٨

٢٠-﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾

يصوّر القرآن بأساليبه الفنية البلاغية الخاصة في التربية والتعليم، فيسلّط أضواءه على خاتمة المجرمين عذاب الجحيم، وخاتمة المتقين جنّات النعيم، في مشهد الغرف النموذجية المتألقة المبنية بطريقة خاصة، يتقابل مع مشهد ظل النار من فوقهم ومن تحتهم، هذا وعد الله، وذاك وعيد الله، هذه طريقة القرآن الكريم الفنية في الترغيب والترهيب، في عرض هذا التقابل، فأين هذا من ذاك، فيقرن البشارة بالإنذار كقوله (إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا) المزمّل/١٩، **المعنى**: **(لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)**لكن المؤمنون الأبرار المتّقون الأخيار المتمسّكون بطاعة الله، وعملوا بالواجبات وتجنبوا المحرمات والتزموا بالإسلام عن علم وإيمان وعمل صالح، فكانوا زيناً له لا شيناً عليه (ومن اتقى الله وقاه)كقوله (إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ) الأنفال/٣٤ **(لَهُمْ غُرَفٌ)** لهم في الآخرة **(غُرَفٌ)** أي منازل رفيعة عالية مدهشة، وقصور شاهقة خلّابة من عدّة طوابق جميلة **(مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ)** من فوقها منازل أرفع من الأولى **(مَّبْنِيَّةٌ)**أي ثابتة رصينة يطيب فيها العيش والاستقرار، مبنية بطريقة فنية عجيبة وغريبة، وبكيفية **(تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)** تجري من تحت هذه القصور الأنهار الجارية المتنوعة بأنواع الأشربة، والتي تجري من غير اخدود! **حقاً إنه إعجاز حقيقي خارق عجيب وغريب**، أن تجري من تحت الغرف الأنهار الجارية المتنوّعة الأشكال والألوان والطعوم، وكأنها مبنية على نهر، والأنهار تجري تحت الغرف التي تحت والتي فوق، وهي مباحة لهم، وهذا لا يتناسب مع هندسة البشر المتقدمة في عصرنا الحاضر، ولكن هندسة الخالق فيها الخوارق! **(وَعْدَ اللَّهِ)**وعدهم الله بذلك وعداً صادقاً مؤكداً **(لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ)** لا يمكن أن يتخلّف، لأنه وعد صادق من عزيز قادر، فهو حقيقة ثابتة، فلا شيء

يعز عليه وقدرته مطلقة بكل شي كقوله (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) النساء/٨٧، **فائدة: الوعد**: الإخبار بشيء سار مفرح قبل وجود زمنه، حتى يغريك بأن تعمل من أجله، وعكسه الوعيد.

٢١ - ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

هذا المشهد الكوني الضخم المشهود، يذكّر الإنسان باشتراك نظام السنن الإنسانية الدقيقة مع نظام السنن الكونية العميقة، في وحدة ترابطها لهذا الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، ومعنى هذه العلاقة المرتبطة، أنه لكل شيء بداية وعمر معيّن ونهاية حياته في الدنيا بالموت كقوله(وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ)فاطر/١١، **المعنى**: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**) الخطاب للنبي(ص) وأُريد به عموم البشر العاقل المفكّر، يعني أنكم ترون بلا شك، أي الم يعلم أنّ الله تعالى بقدرته هو الذي أنزل من السحاب ماءً عذباً كقوله (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) الأنبياء/٣٠ (**فَسَلَكَهُ**)فأدخله في جوف الأرض(**يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ**) فيحفظ على شكل بحيرات ماء واسعة، وهي كالعروق الدموية في الأبدان، جاء في الدعاء (سبحان من كبس الأرض على الماء) فلا تختلط الأرض بالمياه! ثم يخرج عيوناً نقية صغاراً وكباراً، وتكوّن أنهاراً جارية على سطح الأرض، أو أنهاراً جارية تحت طبقات الأرض، وقدرة الله تمسكه فلا يذهب في الأغوار البعيدة التي لا يظهر منها أبداً كقوله (أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا)الكهف/٤١ (**ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ**) ثم يخرج بالماء صنوف الزروع مختلفاً أشكاله وألوانه وطعمه وحجمه ومنافعه وخصائصه كقوله (يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)الرعد/٤ (**ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا) هيجان النباتات**: فورانه أشبه بفوران الشباب وهيجانه (**فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا**)فيذهب شبابه ونضارته ويحين أجله، والعطف بالفاء إشارة إلى قصر الزمن بين شباب الزرع وشيخوخته! (**ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا**)ثم يصبح يابساً وفتاتاً وهشيماً تذروه الرياح.

(**ثُمَّ**) للتراخي الزمني، أي بين أصفرار النباتات ويباسه هو زمن أطول من زمن هياجه وأصفراره (**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ**) لتذكير وعظة وعبرة في أحوال الزرع في ابتدائه وانتهائه لعلامات وسنن تنطبق على أحوال الإنسان أيضاً، أفلا يتّعظ بها أصحاب العقول السليمة؟! والإنسان أيضاً يمر بمراحل الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة والهرم والعجز ثم نهايته بالموت كقوله (وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ)يس/٨٦، كما قال الشاعر:

إذا تمَّ أمر بدا نقصه   توقع زوالاً إذا قيل تم

(لِأُولِي الْأَلْبَابِ) لأصحاب العقول المستنيرة المفكرة، التي تذكّرهم بقصر الحياة الدنيا وسرعة زوالها، وتذكّرهم بالبعث والجزاء. **فائدة:** إنّ هذه الصورة المتكررة أمامهم في مراحل المزروعات كيف تحيا وكيف تموت، تنبيهاً لهم على حقيقة واضحة مهمة، أن سنن الحياة الدنيا في سرعة أنقضاء أعمارنا فيها، هي نفسها التي تشاهدونه في سنة المزروعات، فمن عرف النعم عرف المنعم، ومن عرف المخلوق عرف الخالق، **في غرر الحكم** (من عرف نفسه فقد عرف ربه)مهما طال عمر الإنسان فهو قصير وقليل لأنه (إذا كان العمر في إدبار والموت في إقبال فسرعان الملتقى) كقوله **(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)**النساء/٧٧ وقوله (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)فاطر/٥، أما الجهلاء والمعاندون والمستكبرون فهم يعيشون شكل الحياة وهدرها بلا مضمونها، يعيشون سطح الحياة وضلالها بلا حقيقتها، لأنهم يجهلون فلسفة الحياة، كقوله (إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)هود/٤٦. **في غرر الحكم (الجاهل:** من خدعته المطالب)

٢٢ -﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

تصوّر الآية القلوب المرهفة الشفافة المنفتحة، تصويراً مشوّقاً، التي تستقبل نور الإسلام فتتأثر به وتتفاعل معه وتنشرح له، كما وتصوّر (عكسها) القلوب القاسية المقفلة الأخرى التي تُعرض عن نور الإسلام، فتغلق أجهزة الاستقبال عليه، فإذا هي قاسية عنيفة غليظة، كالصخرة القاسية لا حياة فيها، ولا تقبل النور ولا ترحّب بالهدى وتكره الاستقامة، وما قست القلوب إلاّ لكثرة الذنوب، والفرق بينهما كبير كقوله(فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) النحل/٣٦، **المعنى: (أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ)**

شرح الصدر: تأهيله وترويضه وتوسعته، فهو منحة إلهية خاصة، وفصاحة قرآنية نموذجية بمؤهلات مميزة، وهو كناية بلاغية واستعارة بديعية عالية المضامين على استعداد القلب وانفتاحه وتفاعله لتلقّي الحق في رسالة الإسلام كقوله (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) آل عمران/١٩، **في نهج البلاغة (لا شرف أعلى من الإسلام)**حكم٣٧١، وقبول الخير والتفاعل مع العلم والوعي والإيمان، فيكون قلبه مطمئناً بذكر الله، وهو يرفض الشر والفساد، ولا يشغل نفسه بالكلام الفارغ الذي يُضيّع وقته الثمين، وقبوله بصدق نور الهدى الإسلامي ويتفاعل معه ويتأثر به ويثبت عليه كقوله **(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)**محمد/١٧، **وشرح الصدر:** أن يجعله واسعاً مطّلعاً حتى يتّسع لوعي كل ما يدور حوله من مستجدّات، ويستعد للمتطلبات الّلازمة، ولا يكون من الغافلين، لأن الغفلة من فساد الحس وقلة النباهة.

(فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ) وهذا شرح الصدر للنور الإلهي ينير له الطريق، ويجعله مميزاً بين الحق والباطل، ويرفع عنه الشبهات والضلالات كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا) الأنفال/٢٩، ويجعله على بيّنة علمية من دينه وبصيرة واعية من إيمانه وحياته وتعاملاته مع

الناس (**فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ**) نور حسّي ومعنوي، يتغلغل في مشاعره ويستقر في قلبه، ويؤيده عقله فينشرح صدره، فهو على نور العلم والإيمان والقيم والمبادئ والأخلاق-وكل إنسان بقدره ومقداره-كما أن نور الحس المادي لا يترك جزءاً مظلماً إلاّ أضاءه، كذلك نور الله المعنوي النفّاذ لا يترك عيباً إلاّ أصلحه و نقصاً إلا أتمّه، ويكون على مستوى من الكفاءة والاختصاص بجانب معين من المعارف يتألّق به كقوله (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)المجادلة/١١ (**فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ**) فهو في رعاية ربه، رعاية خاصة مميّزة مع تسديده وتأييده له، فيرشده ويهديه للتي هي أقوم، ويهيئ له من أمره رشداً، فإذا هو يتوازن بين مطالب الإيمان والعلم، ومطالب الروح والجسد، والدنيا والآخرة، والحياة والموت، والأمل والعمل كقوله (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا)الأنعام/١٢٢، خبر الجملة محذوف دلَّ عليه سياق الكلام وتقديره: كمن هو قاسي القلب وطبع عليه، فلا يقبل نور الإسلام (**فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ**)

قسوة القلوب: غلظتها وشدّتها فلا ترق ولا تلين لقبول الحق وذكر الله، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب ونسيان الله، وكل من عاند وتمرّد على الحق الإلهي، فهو كالصخور القاسية، والأنعام السائبة، ومن أشدّ العقوبات الإلهية قسوة القلوب، وما غضب الله على قوم إلاّ نزع منهم الرحمة!! والقلب القاسي من الله بعيد ومن النار قريب. **في الحديث** (تورث القسوة في القلوب ثلاث خصال:حبّ الطعام، وحبّ النوم، وحبّ الراحة) روح البيان٨/٩٥، أي (**فَوَيْلٌ**) وهو تهديد للذين لا تلين قلوبهم ولا تتأثر قلوبهم عند(**ذِكْرِ اللَّهِ**) فهو منهج تذكرة للعباد كقوله (**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ**) ق/٣٧، هؤلاء سيطرة عليهم ظلمات الجهالة وحيرة الضلالة، بسبب قسوة قلوبهم وتلويث فطرتهم بسوء اختيارهم، فلا يؤثر فيهم نور الهداية ولا المواعظ ولا الحكم، فهم كالأرض الصبخة الوعرة لا تلين في الماء (**أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**) في انحراف واضح وبُعدٍ عن الحق وضياع، فلا يستطيع أن يهتدي لأي شيء ينفعه في آخرته، **عن الإمام الصادق**(ع) (لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله، فإن الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون) التفسير المختصر ص٥٣٨، د. مصطفى فرج **وذكر الله**: معنى واسع: فهو يمنع الغفلة ويرقّق القلب ويصفّي النفس ويهذّب الهوى ويدحر الشيطان كقوله (وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ) العنكبوت/٤٥، والذكر شرف للذاكرين، ولذّة للمطيعين، وفوز للشاكرين.

فائدة: ١-قال(**لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم**) ولم يقل(ضيّقوا الصدر) مقابل شرح الصدر، لأن من يكون صدره ضيّقاً قد ينفذ فيه الحق قليلاً، خلافاً لمن كان قلبه حجراً قاسياً فلا ينفذ فيه الحق.وأيضاً قال(**شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ**)بصيغة المفرد، وقال(**لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم**)بصيغة الجمع، لأن من شرح الله

صدره للإسلام فله وجه واحد يكفيه الوجوه كلها، ويحمل همّاً واحداً يكفيه الهموم كلها كقوله(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ)النساء/١٧٥، أما القاسية قلوبهم بصيغة الجمع لأنه تتعدد أمامهم وجوه القناعات، وتتنوّع أهدافهم وسبلهم فيتعذبون عذاباً نفسياً كقوله (**فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**)الشعراء/٢١٣، **عن النبي (ص) قال الله تعالى** (اطلبوا الحوائج من السمحاء، فإني جعلت فيهم رحمتي، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم سخطي)المراغي٢٣/١٦١، سُئل النبي(ص)عن شرح الصدر ما هو؟ فقال: نور يقذفه الله في قلب المؤمن، يشرح له صدره وينفسح) النور٨/١٣٢.

٢٣ -﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

تصوّر الآية هيّأة تلقّي المؤمنين لهذا القرآن الكريم، أنهم فتحوا قلوبهم وشرحوا صدورهم للإسلام، فهم على هداه، وعلى استعداد لاستقبال نوره وحمل رسالته واستنطاق كتابه وحفظه، هذا الكتاب العظيم الأحسن، الذي فيه أحسن الحديث، المتناسق المتألّق الذي لا اختلاف في طبيعته ولا في أهدافه ولا في نسيجه البلاغي والعلمي ولا في روحه وتأثيره، فهو(**أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**)

وهو(**كِتَابًا مُّتَشَابِهًا**) وهو (**مَّثَانِيَ**) **المعنى**: (**اللَّهُ نَزَّلَ**) ابتداء الآية باسم (**اللَّهُ**) هو الذي (**نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**) فيه تفخيم للمُنزل، ورفع من قدر القرآن المنزَل، الذي هو دستور حياة لكافة الناس يهدي للتي هي أقوم، والذي هو غذاء الروح ومنهج حياة ونجاة، ودستور سعادة، ومن صفاته أنه (**أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**)والقرآن أحسن الحديث على الإطلاق، فأحسن الحديث كلام الله، وكلام الله أحسن الحديث، وأحسن الكتب السماوية المنزلة، وأحسن الألفاظ والأخبار وأبلغ التعابير وأعمق المعاني وأوسع المداليل والأهداف، والقرآن الكريم لا نهاية لحسنه، ولا نهاية لجمال نظمه وبلاغة معانيه، وهو **أحسن الحديث** لفصاحته ومتانته ودقته وإعجازه، وسّمي حديثاً لأن النبي (ص)كان يحدّث به قومه، ويخبرهم بمعانيه وعلومه ويهديهم بهداه، وسميّ **أحسن الحديث** لأنه حديث الله وكلامه، وهو أصدق الكلام كقوله (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) النساء/٨٧، وهو فصل الخطاب كقوله (فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)الأعراف/١٨٥، **وهو الأحسن في كل شيء**: الأحسن في بلاغته وتربيته في الترغيب والترهيب، وفي هداه وعلومه ومواعظه وشريعته وحكمه ومبادئه وأخلاقه، لأنه كلام الله الكامل بذاته والمكمّل لغيره، وحفظه الله بحفظه كقوله (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)الحجر/٩.

(**كِتَابًا مُّتَشَابِهًا**) **لها أكثر من معنى**، وكل معنى بحسب موقعه في الآية (**كِتَابًا مُّتَشَابِهًا**)وهو وصف لأحسن الحديث وبيان له، فهو كتاب متشابه في جلالة قدره، وعلوّ منزلته وسموّ معانيه وسعة دلالته، فهو متشابه على درجة واحدة في جماله وكماله وجلاله كقوله (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ

غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)النساء/٨٢ وهو كتاب متشابه في منهجيته يشبه بعضه بعضاً، وتتشابه آياته في بلاغتها ودقّتها وفصاحتها ودلالاتها وإعجازها، ومتشابه في الحسن والتأثير والفاعلية والإحكام في قصصه وأخباره ومواضيعه، فيأتي بقصص كثيرة للأنبياء(ع) ولكل قصة في سورة لها لقطة ليست موجودة في السّور الأخرى، **مثال:** قال فرعون (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ) النازعات/٢٤ لم تذكر هذه اللقطة في غيرها من السّور..وهكذا ثم قال **(مَّثَانِيَ)** ومن صفات **(أَحْسَنَ الْحَدِيثِ)** أنه **(مَّثَانِيَ)**

وله أكثر من معنى، وكل معنى حسب موضعه في الآية، **المثاني:** جمع مثنى، أي تنعطف آياته بعضها على بعض من التثنية، وهو التكرير الهادف المقصود، فبعضها يفسّر بعضاً، من غير اختلاف ولا تناقض ولا تعارض في المعاني، وعندما تكرر **(مَّثَانِيَ)** في معاني متعددة، بالتفاتات جديدة ولقطات مفيدة مهمة لم تكن في غيرها، مع بقاء هذا التناسق الجميل في نسيجها القرآني البلاغي الفني المؤثر الدقيق كقوله (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ) الحجر/٨٧، فيكون معنى **(الْمَثَانِيَ)** في سورة الحمد التي هي سبع آيات، وتقرأ في الصلواة مرتين في ركعتين، وتكرر قراءتها في كل صلاة، وهي **(مَّثَانِيَ)** في صفاتها الحضارية لانسجامها مع كل زمان ومكان، مهما تطوّر الزمان وتحضّر الإنسان، وأيضاً هو **(مَّثَانِيَ)** ذات معاني ثنائية، فلا تتجمّد مفاهيمه بمعنى واحد، أي يراد بيان المعنى المطلوب بأساليب متعددة متكررة مؤثرة فنية لتحريك المشاعر!، وأيضاً **(مَّثَانِيَ)** تكرر فيه المواعظ والحِكم والقصص بأساليب مختلفة لإلقاء الحجة الكاملة على الناس، **فلسفة تكرير(مَّثَانِيَ):**كان في علم الله احتياج الخلق إلى تركيز معاني القرآن لتزكية نفوسهم، وجعل تلك المعاني القرآنية المنوِّرة للقلوب، بمنزلة ماء الحياة لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار بحاجة إلى تكرار السقي بين فترة وأخرى، كذلك القلب بحاجة إلى تكرار المعاني القرآنية لترسخ في النفوس، فإن التكرار يُعلّم الشطّار، ويزيل الغفلة ويزيد التأمل والنباهة ويفتح الذهن ويحقق الحفظ، لذلك صار أفضل فهم لإيحاءات القرآن وآفاقها عن طريق **(تفسير القرآن بالقرآن)**

ومن معاني مثنى، فيه بيان للمعاني المتضادة كالإيمان والكفر، والحق والباطل، والهدى والضلال، والهدى والهوى، والخير والشر، والحسنات والسيئات، والجنة والنار **ومن معاني (مَّثَانِيَ)** تثنّي في تلاوه القرآن، وتتكرر قراءته على مرور الأيام، فلا يمل لجمال تأثيره وانسجامه مع قواعد الفطرة السليمة، كما جاء في وصفه **(لا يخلق على كثرة الترداد)** أي لا يملّ ولا يزول تأثيره ورونقه ولذّة قراءته واستماعه من كثرة ترداده وتكراره، وكلّما تقرأه وتتأمل فيه بعمق تجد فيه أشياء جديدة لا تعرفها، وكانت خافية عليك!كما جاء في وصفه **عن النبي** (ص) (ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تنقضي عجائبه ولا تفنى غرائبه، ولا تنكشف الظلمات إلاّ به) البحار٩٢ص١٧، لذلك كان من وصفه كقوله **(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)**الواقعة/٧٧ **كريم** معطاء بذاته **وكريم** بسخاء بعلومه **وكريم** بتأثيره، وهناك علاقة فنية حيوية بين معاني المتشابه ومعاني **المثاني،**

فيكون القرآن (متشابه) في لفظه (**مَّثَانِيَ**) متكرر في معناه! **فائدة**:١- **سؤال**:قوله (**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ**) هود/١ هنا وصف القرآن كله محكم، وقوله (**كِتَابًا مُّتَشَابِهًا**) الزمر/٢٣ هنا وصف القرآن كله متشابه، وقوله (**مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**)آل عمران/٧، **سؤال**: وهنا وصف القرآن بعضه محكم، وبعضه متشابه، كيف نفهم ذلك؟

الجواب: قوله (**كتاب أحكمت آياته**) أي أتقنت آياته ونظّمت نظماً محكماً لا خلل فيها في اللفظ والمعنى، فجاءت قوية البناء دقيقة الدلالة واضحة البيان، فيكون كل القرآن محكم أي متقن من هذا الوجه، وقوله (**كِتَابًا مُّتَشَابِهًا**) أي يشبه بعضه بعضاً، وعلى نسق واحد في الأسلوب البليغ، وفي الحسن والصدق، وفي الأهداف والغايات، وليس فيه تعارض، فهو كله متشابه من هذا الوجه، كقوله (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا)الإسراء/٤١ **صرّفنا**:كررنا وبيّنا مطالب القرآن بوجوه كثيرة، وقوله (**مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**) آل عمران/٧.

ووصفه بعضه محكم وبعضه متشابه، لأن **المحكم**: ما لم تشتبه معانيه واضح الدلالة، **والمتشابه**: ما اشتبهت معانيه، غير واضحة الدلالة، يلتبس في معناها إلاّ بدليل من غيرها، **إذا نرد المتشابه إلى المحكم فيعود كله محكماً** واضحاً يُفسّر بعضه بعضاً، وهذا بحاجة إلى أهل الاختصاص والأمناء عليه، من الراسخين في العلم كقوله (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) الأنبياء/٧ **ومصداق أهل الذكر**: النبي مُحَمّد وآله الطاهرين، الأمناء على الرسالة بعد النبي(ص)، فيكون السياق القرآني كله بين المحكم والمتشابه والمثاني، نزل بطريقة إعجازية ميسَّرة عالية الإتقان كقوله (**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**)القمر/٣٢، وهذا التيسير لا هو بسيط فيكون خاصاً للبسطاء فيُحرم منه العلماء، ولا هو صعب فيكون خاصاً للعلماء فيُحرم من البسطاء، حينئذ لن يحقق القرآن أهدافه السامية كونه يهدي الناس للتي هي أقوم، ولكن الله تعالى (أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ)النساء/١٦٦ ليكون منهج حياة ودستور سعادة للناس أجمعين كقوله (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) التكوير/٢٧ (**تَقْشَعِرُّ مِنْهُ**) أصل الاقشعرار، حالة تأثر وتفاعل في حركة الروح والمشاعر والضمائر عند سماع القرآن، كالرعدة تحدث في جلد الإنسان عند الخوف أو عند العجائب، فهو تصوير لحالة هيبة القرآن وقوة تأثيره، وتفاعلهم النفسي الشديد معه، عند فهم المعنى القرآني الدقيق والعميق (**جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**) هيبة ورهبة أي فترى الذين يخشون ربهم ويهابون مقامه، يتعاملون مع القرآن ويتلقّونه في تأثر وتفاعل وحبّ شديد ينعكس على ظاهرهم، فتقشعر منه جلودهم (**ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**) ثم تسكن نفوسهم وتخشع قلوبهم وتطمئن إلى ذكر الله (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد/٢٨، فإذا هي تحركها رحمانية الرحمن، إنها صورة متحركة خاشعة مؤثرة حساسة تعبر عنها الكلمات، ولكنها تشخّص فيها روحية الحركات كقوله (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) الحشر/٢١، فإذا نزل هذا القرآن بتأثيره النفّاذ على القلوب المؤمنة

المتفتحة، اهتزّت لجلاله وتفاعلت لجماله وتأثرت لكماله، أما غير المؤمنين فلا تلمس قلوبهم أي تأثير وتأثر ولا تفاعل.

(ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) حيث تظللهم أجواء القرآن الخاشعة وإيحاءاتها الفعّالة، وإذا جلدوهم التي أخذتها القشعريرة نتيجة تفاعلها مع معاني النص، فإذا هي الآن قد لانت واسترخت مع أجواء الحياة الساكنة مع القرآن، وهذه حالة التوازن والاعتدال في تربية نفوسهم، فهم يعيشون بين الخوف والرجاء كقوله(يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ) الزمر/٩ وبين الترغيب والترهيب، وبين الرقّة والشدّة **(ولين الجلود)** استعارة بلاغية دقيقة، وكناية قرآنية رقيقة، وكأن عدسة التصوير والتعبير القرآني، تغوص في أعماق النفس، لتكشف عن أسرار حالتها الخفيّة الدقيقة، وتسكن قلوبهم إلى ذكر الله، **يصف الإمام علي**(ع) **المتقين** (فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذّبون)، وذكرت **(الجلود)** أولاً ثم قرنت بها **(القلوب)**ثانياً، لتقدم تأثّر خشية جلودهم على تأثر خشية قلوبهم، فتنكشف حالتهم الظاهرية قبل حالتهم الباطنية، **عن النبي**(ص) (إذا اقشعرَّ جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه (تساقطت) كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها)روح البيان٨/ ١٠٠ **(ذَٰلِكَ)** القرآن، وذلك الشعور المميز المؤثر عند سماعه **(هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ)** الله تعالى يعلم حقيقة تقلّب القلوب، فيجازي بالهداية من يريدها وبالضلال من يريده، ويدع الله سبحانه الإنسان وما يختار، حيث لا دين وإيمان مع الجبر والإكراه، فإن اختار لنفسه نور الهدى شمله بعنايته كقوله (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) المائدة/١٦ **(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)** ومن أراد لنفسه الضلال تخلّى عنه برحمته سبحانه، وأوكله إلى هوى نفسه ورغباتها، بعد إلقاء الحجة عليه والبيان كقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) الحشر/١٩ وقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)الصف/٥.

٢٤ –﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

يصوّر القرآن مشهد مثير من مشاهد يوم القيامة، يصوّر الإنسان الضال الظالم المعذّب بطريقة مجسّمة، محركة للمشاعر والضمائر، وعادة يقي الإنسان وجهه بيديه وجسمه، فأما هنا فلا يستطيع أن يدفع عن نفسه النار بيديه ولا برجليه فيدفعها بوجهه، أشرف جزء في جسمه وأنعمه وأرقه، وبه صورته وشكله، وأقل عذاب يؤثر فيه، فهو يتّقي به سوء العذاب، لأنه قد ربطت يداه ورجلاه مع عنقه، **المعنى**:(**أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)** الاستفهام للإنكار، **يتّقي**: من الوقاية والحذر والتجنّب، **المعنى**:إنّ الإنسان يتّقي الضرر بيده، ولكن الذي في النار يديه مربوطتان إلى عنقه، والوجه هو المحافظ عليه من كل الجوارح، لأنه الصورة المعبّرة عن الإنسان، وهو أشرف الأعضاء وأعزّها، فلا يدفع عن الإنسان سوء العذاب وشدّته إلاّ أن يتّقيه بوجهه! خبر الآية محذوف تقديره:لَيس كمن هو آمن من العذاب لا تمسّه

النار؟(**وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ**) وتقول خزنة جهنم للظالمين (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)البقرة/٢٥٤ (**ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ**) وفي زحمة هذا العذاب الشديد يتلقّى التأنيب اللاذع، ذوقوا وبال ما كنتم تعملون الكبائر، أي أن أعمالكم تتجسّد لكم على حقيقتها بأشكال فظيعة، ستبقى معكم تلازمكم لتؤذيكم، وكما تزرع تحصد، والعقوبة على قدر الجناية، والإنسان المناسب في المكان المناسب. **فائدة:**

١-(**ذُوقُوا**) **فلسفة التذوّق في القرآن:** الذوق حاسة من الحواس وبها قوام الحياة، كما يتذوّق الإنسان الأكل ويتلذذ به، لذلك الدواء المر يغلفونه في كبسولة حتى يستسيغه الذوق، والذوق خاص بكل إنسان فلا أحد يذوق لأحد، ولذلك اختار الله سبحانه(**ذُوقُوا**)هذه الحاسة يعبّر بها عن العذاب! فكأن كل واحد له مذاق يناسب عذابه، وإذاقة العذاب لم تقتصر على منطقة الذوق وحدها، ولكن تتعدّى إلى الجسم كله، والجلد محل الإحساس كقوله (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)النساء/٥٦، فكأن إذاقة العذاب أحاطت بكل الجسم كأنها ثوب يلبسه فيلامس جلده! ٢-(**تَكْسِبُونَ**)إنّ الإنسان يعمل المعاصي الكبيرة فيفتعل الشر حتى يصير عادة مألوفة عنده يعتاد عليها، وتصبح سهلة بدون افتعال!بل ويعتبرها كسباً وإنجازاً ويفرح بها كقوله (بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) البقرة/٨١، **في غرر الحكم:** (أعظم الذنوب عند الله ذنب صَغُرَ عند صاحبه)

٢٥-٢٦-﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

(**كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ**) ذلك العذاب في الآخرة، كما في الآية ٢٤ أما في الدنيا فتصفه هذه الآية، **المعنى:** عرض محمّد(ص) على قومه حال المكذبين الأوّلين للأنبياء قبل محمّد(ص) لعلّهم يتداركون أنفسهم(**فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ**)لا يتوقعون، من الجهة التي لم تخطر ببالهم! وأن حال المكذّبين في الدنيا خزي وعار وفي الآخرة عذاب ونار، وسنّة الله متحركة لا تتخلّف، ومصارع الأمم من قبلهم شاهدة، والفرصة أمامهم سانحة، ٢٦-(**فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ**) فافتضحوا أمام خلقه فأذاقهم الذل والهوان (**فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) لأن عذابهم كان مادياً ومعنوياً (**وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ**) وأعظم وأدوم من عذاب الدنيا لشدّته وتنوّعه ودوامه، وهنا صوّر النص القرآني الإذاقة الحسيّة بجانب الإذاقة المعنوية الّلاذعة، فالخزي أشدّ على الإنسان ذي النفس المحترمة الكريمة، وهو الخزي في الدنيا، ولكن الخزي في الآخرة أكبر وأشد (**لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**).

٢٧-٢٨-﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

(**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ**) (الأمثال تضرب للاعتبار) قد يكون المثل لعامة الناس أشدّ من تأثير البحث العلمي! أي ولقد بيّنا ووضّحنا للناس في هذا القرآن، بكل الأساليب المؤثّرة المتكررة لتفتح قلوبهم على التلقّي منه والتدبّر فيه (**مِن كُلِّ مَثَلٍ**)من كل الأمثال النافعة والحكم الساطعة والأخبار الواضحة، ما يحتاجون إليه من عبر وعظات وأحكام ونصائح، ما يكفل للناس حياة طيبة آمنة في الدنيا والآخرة (**لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)يرجعون إلى ما أودعه الله تعالى في أنفسهم من المعارف الفطرية، والعقائد الأولية التي بتذكّرها يهتدي الإنسان إلى معرفة كل حق وتميزه عن الباطل كقوله (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا) الإسراء/٤١، ويعتبروا ويتعّظوا فيعملوا بهذا المنهج القرآني القيّم.

٢٨-(**قُرْآنًا عَرَبِيًّا**) أنزلناه بلسان عربي في ألفاظه، فصيح وبليغ في معانيه، وإنساني في أهدافه، ومتقَن في علومه، مستقيم في لغته وأسلوبه، وفي تصوّراته ومنهجه، ليقرّب النفوس من الله، وليفهمه العرب أولاً حملة رسالته، ليسيروا تحت قيادة النبي العربي(ص) القدوة في سيرته، الذي هو رحمة للعالمين، ليكون القرآن منهجاً هادياً للعالمين، فلا يتجمّد في حدود مكانه وزمانه، فيكون القرآن قوميّاً والرسول قوميّاً، عندئذ تكون رسالة القرآن العالمية محددة ضيّقة، وهذا خلاف منهج القرآن العالمي كقوله (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) التكوير/٢٧، وقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ)سبأ/٢٨ (**غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**) لا تلتبس معانيه، ولا اختلال في عباراته، ولا اختلاف فيه ولا تعارض ولا تناقض كقوله (لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)فصلت/٤٢، ولا ينحرف عن الحق والعدل والخير في مبناه ومعناه ومغزاه ومحتواه، فلا يميل إلى أي اتّجاه وضعي، ولا يجامل أحداً حتى رسله الكرام كقوله (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)الحاقة/٤٤-٤٥، لأنه دستور حياة وسعادة لكافة الناس كقوله (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا،قَيِّمًا**) الكهف/١-٢، وعليه فلا يحق لأحد أن يقول: إن القرآن لقوم دون قوم، أو لعصر دون عصر، فلا يحدّه زمان ومكان ولا قومية ولا عنصرية، وهذا يستلزم كمال استقامته بكل ما فيه، وجلال اعتداله وجمال أهدافه كقوله (يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)الأحقاف/٣٠ (**لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**) لعلّهم يخافون الله فيتّقوا معاصيه (ومن اتقى الله وقاه) هذا هو الهدف من القرآن أن نعيش التقوى العلمية والعملية، والقولية والفعلية، والظاهرية والباطنية كقوله (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات/١٣، **فائدة:** ١-قال(**غَيْرَ ذِي عِوَجٍ**) ولم يقل(مستقيماً أو غير معوّج) **غير معوّج:** يعني لا يوجد في تركيبه أي عوج ولا اختلال ولا نقائص ولا عيوب، سواء أكان في مبانيه أم في معانيه أم في دلالاته.

٢-القرآن العربي، وترجمته إلى عدّة لغات:

من الضروري ترجمة القرآن بدقة إلى لغات العالم، ليفهمه الناس على أنه دستور حياتهم وسعادتهم، ولابد أن تكون الترجمة من أصحاب الكفاءة والنزاهة والاختصاص، **ترجمة حرفية للنص، وترجمة للمعنى**، فتكون نوع من التفسير الدقيق للنصوص، الذي يعتمد فهم المعاني القرآنية بدقة عالية، عندئذ تكون الترجمة تفسيراً مترجماً للنص القرآني، على ضوء فهم المترجم للنص ومقدار استيعابه له.

٢٩-﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا) الأمثال تضرب للاعتبار، لأن الأمثال تقرّب الواقع لعامة الناس أكثر من البحوث النظرية، ترسم الآية صورة تقريبية متحرّكة للحالة النفسية التي يعيشها المشرك، الذي له عدّة آلهة ينتمي إليها ويخضع إليها ويطيعها، والموحّد لله له إله واحد يطيعه وحده، ولا يشرك به أحداً، لا يستويان بكل شيء، كقوله (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ) يونس/٣٢ **(رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ)** هذا مثل تقريبي يعرض صورة معبرة لرجلين مملوكين، أحدهما المشرك يملكه شركاء عديدون **(مُتَشَاكِسُونَ)** متشاجرون في استخدامه، هذا يأمره بشيء وهذا ينهاه عنه وذلك يطلب منه عملاً آخر، لا يدري لمن يرضي؟ فيصبح ممزّقاً نفسياً كريشة في مهب الريح، وهكذا المشرك متحيّر في الآلهة المتعددة التي يطيعها **(وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ)** خالصاً له لا ينازعه أحد فيه، ويكون دائماً في طاعته ولا يلقي من سيده إلاّ إحساناً.وهكذا المؤمن الموحّد لله يطيعه وحده في ما يأمره وينهاه، وهو يعلم ما يكلّفه به، ويكون مستريحاً مستقراً على منهج قيّم واحد واضح كقوله (وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ)لقمان/٢٢ (فمن توجّه إلى وجه واحد يكفيه الوجوه كلها، ومن تحمّل همّاً واحداً يكفيه الهموم كلها)كقوله (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) الأنعام/١٥٣، جاء **(صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا)** بالمفرد، وجاءت **(السُّبُلَ)** بالجمع، بمعنى مجرد أن تترك صراط الله الواحد الموحّد المتّحد تقع في **(السُّبُلَ)** المتعددة المتناقضة الضالة لا حصر لها فتقلقه وتفسده وتضيّعه كقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣**(هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا)** الاستفهام للإنكار والنفي، لا يستوي المؤمن الذي يعبد الله وحده، ومن يعبد أرباباً متنوّعين، ومن له اتجاهات مختلفة، وسُبل متعددة كقوله (أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) يوسف/٣٩**(الْحَمْدُ لِلَّهِ)** على عبادة الله التي فيها الراحة والأمن والاستقرار والاطمئنان النفسي، كقوله (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) الرعد/٢٨ التي هي خير من عبودية من سواه وعبادة من دونه **(بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)** حقيقة الإسلام

الكبرى الذي هو دين السلام، دين البشرية في المستقبل كقوله (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) التوبة/٣٣

٣٠-٣١-﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾

(إِنَّكَ مَيِّتٌ) يا مُحَمَّد(ص) (**وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ)** والجميع يشملهم الموت الحق المؤمنون والمشركون، ثم إلى ربهم ينقلبون كقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) الانشقاق/٦ **في غرر الحكم** (رحم الله امرأ عرف قدره ولم يتعدَّ طوره) وصار الموت مقابل الحياة حتى لا تستقبل الحياة بغرور! **(الموت حق)**لأنه نهاية كل حي، ويخلّص الكائن الحي من كل شدة (كفى بالموت واعظاً) **(والموت حق)** لأنه ليس ضدّ الحياة، وإنما هو صديق الحياة ويتعاون معها، كالليل والنهار، فليس الليل ضدّ النهار وأنما صديق النهار ويتعاون معه، والذي يحبّ الحياة ويكره الموت فإنه يعيش أنصاف الحياة، لأنه يحب أحد الصديقين والمتعاونين ويكره الآخر! **(والموت حق)** لأنه نقله حضارية من حدود ضيق الجسد المادي الترابي المحدود الثقيل، إلى آفاق عالم الروح، عالم الشفاف الخفيف النظيف، العالم المتسامي المتعالي، عالم معنوي لا حدود له ولا قيود **(والموت حق)** لأنه ليس نهاية المطاف وإنما هو حلقة لها ما بعدها من حلقات **عن النبي (ص)** (الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا)!روح البيان١٣٢/٢ **(كفى بالموت واعظاً)** وما بعد الموت حياة خالدة مصيرية خلود فهو أشد مما قبل الموت، وهذا بيان بالحق، في وصية الإمام علي لابنه الحسن (ع) (إنك خلقت للآخرة لا للدنيا، وللبقاء لا للفناء، وللحياة لا للموت) شرح النهج٨٩/١٦، **في غرر الحكم** (رحم الله امرأ أخذ من حياة لموت، ومن فناء لبقاء، ومن ذاهب لدائم) **(والموت حق)** لأنه الجسر الذي يعبر عليه الأحياء إلى الدار الآخرة للجزاء..

(والموت حق) لأنه القانون الحتمي القاهر الثابت لكل من له عمر كقوله(وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ) فاطر/١١، ٣١-**(ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)** يجتمع جميع الخلق عند حضرة مقام ربهم في ساحة المحشر، في الدار الآخرة **(تَخْتَصِمُونَ)** تحتكمون للقضاء في ما تنازعتم فيه في كل شيء كقوله (أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) المجادلة/٦، ويفصل الله بينهم وحده كقوله(وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) الكهف/٢٦ **فائدة: سؤال:** قال هنا **(تَخْتَصِمُونَ)** وقال في سورة ق/٢٨ (لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ) وقال في سورة يس/٦٥ (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم) وينتهي دور اللسان بالكلام، ويبدأ فصل جديد وحاسم وغير معهود! في ساحة المحشر تتعدد المواقف مع تغيّر الأعمال، وتبدّل الأحوال ودقّة الحساب.

الجزء الرابع والعشرون من القرآن الكريم

٣٢-﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾

(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ)

الاستفهام إنكاري تقريري بمعنى النفي، وفيه تعجّب! يقول الله تعالى مخبراً ومحذّراً، فليس هناك من هو أظلم، أي لا أحد أظلم ممن كَذَبَ على الله بنسبة الشريك له؟فجعل له أنداداً أو صاحبة أو ولداً أو ابتدع أحكاماً ونسبها إلى دين الله تعالى، أو ادّعى النبوة أو يفسّر القرآن برأيه القاصر وهو كاذب، أو يفتي بلا عِلم أو يكون في موقع ديني بارز ومؤثر وهو غير مؤهّل له كقوله(وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) البقرة/١٦٩، وقوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) البقرة/٢٠٤ **(كَذَبَ عَلَى اللَّهِ)** فالكذب منكر على غير الله سبحانه، فكيف الكذب على الله أي على دين الله، والتجارة للدنيا باسم الدين، **عن النبي (ص)** (من طلب الدنيا بعمل الآخرة، فليس له في الآخرة من نصيب)كنز العمال خبر٢٩٠٦٧، **وعنه (ص)** (ويلٌ لمن طلب الدّنيا بالدّين) كنز العمال خبر٢٩٠٩١، **(كَذَبَ عَلَى اللَّهِ)** كإشاعة الغيبة والنميمة والغدر والخيانة بين الناس، ونشر أسوأ العادات وتشجيع السيئات، وإشاعة الفساد... إلخ والكذب مفتاح كل شر كقوله(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) النحل/١٠٥ فكيف إذا كان الكذب على الله الذي يعلم السرَّ وأخفى؟! فالكذب على الله خيبة أمل وأسوأ عمل، ويصدر من أخبث نفس، لذلك جاء بـ**(أَظْلَمُ)** إنه ظلم نفسه وظلم غيره، وأيضاً:

(وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ) زيادة على أظلم، بل وضاعف كذبه فأنكر الإسلام والقرآن، فلم يصدّق بكلمة التّوحيد ولا يحبّ توحيد الكلمة **(إِذْ جَاءَهُ)** لما جاءه من الله مدعوماً بالحجج والبيّنات، فأنكرها بسرعة من غير تدبر ولا تأمّل فكان ظلماً على ظلم، وكذباً على كذب، كقوله (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) يونس/٣٩، إنه الكفر الصريح وتغطية للحقيقة، وتبقى الحقيقة هي الحقيقة الناصعة العزيزة المؤثرة، وإن أنكرها المنكرون وتجاهلها الجاهلون كقوله (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ) الزمر/٦٠ **(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ) مثوى:** مكاناً مناسباً لإقامة دائمة لهؤلاء المعاندين في رحاب أجواء جهنم كقوله (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا، لِّلطَّاغِينَ مَآبًا) النبأ/٢١-٢٢، الاستفهام على سبيل التقرير والإثبات لزيادة التوكيد والإيضاح، نعم فهي منزلهم المعدّ لهم والمِقاس بمقاسهم، **عن الإمام علي**(ع) (إنّ من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى تضرّه الضلالة، ومن لا ينفعه اليقين يضره الشك) البحار٧٧/٢٩٣.

٣٣-٣٤-﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ، لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾

يصوّر القرآن الطرف الأخر من ساحة الخصام في يوم المحشر بقوله (**عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ**) الزمر/٣١ **المعنى:** (**وَالَّذِي جَاءَ**) محمّد(ص) الصادق الأمين (**بِالصِّدْقِ**) بالقرآن الكريم، أعظم كتاب سماوي يهدي للتي هي أقوم، وإن نزلت الآية بخصوص السبب ولكن أريد لها عموم المعنى وسعة المغزى، فدخل في ذلك الصدق العام الأنبياء(ع) والأوصياء والأولياء والعلماء ورثة الأنبياء وخلفاء الرسل، وكل حَمَلة الصدق في أقوالهم وأفعالهم (**وَصَدَّقَ بِهِ**) وهو النبي(ص) (كان خُلُقه القرآن) ومن اتّبعه من الصحابة الصالحين، وأيضاً من (**وَصَدَّقَ بِهِ**)بالقرآن بالأقوال والأفعال، وتفاعل معه فبلّغه للناس عن عقيدة صحيحة ووعي نافذ، وهذه صفة مشتركة لكل الرسل الكرام (ع)كما يشاركه فيها كل من دعا بعلم ووعي إلى هذا الصدق بذاته، والصادق مع غيره، وهو مؤمن مقتنع به بأنه الحق فيما يدعو إليه، ومصداق الآية وأول المصدّقين برسالة النبي (ص)الإمام علي(ع) وهو فتى (**أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**) **أولئك:** للتفخيم، وإشارة إلى علو منزلتهم، كقوله (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) الحجرات/١٣ **في غرر الحكم** (**التقوى:** منتهى رضا الله من عباده وحاجته من خلقه) (**هُمُ**) لاختصاصهم وحدهم بمؤهلاتهم الخاصة بهذا المقام الكريم اللائق بهم.

(**أُولَٰئِكَ**) الذين وفّقوا للجمع بين الأمرين(**هُمُ الْمُتَّقُونَ**) فإن التقوى تجمع الصدق والتصديق به، فهي قول وعمل وادّعاء وحقيقة، **في غرر الحكم** (**التقوى:** حصن حصين لمن لجأ إليه) ٣٤-(**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ**) في مقام القرب والحب واللّطف، هذه الآية الكريمة تركز الأضواء أكثر على تكريم الله لهم، وإذا ما أعدّه لهم من جزاء بلا حدود، فلا تحصيه الكلمات (**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ**) وهو تعبير متألّق جامع واسع المعنى، يشمل كل ما يخطر للنفس المؤمنة من رغائب وعجائب! ولهم فوق ما يشاؤون في مكافآت ومحبّات ومفاجآت، وهكذا يوحي تعبير (**عِندَ رَبِّهِمْ**) في حضرته وتحت رعايته كقوله (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) السجدة/١٧ (**ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ**)

المتّقون هم المحسنون الصالحون النافعون لمجتمعاتهم، الذين عنوانهم العام (**الإحسان**) ولا يكتفون بالقدر الواجب من الأعمال النافعة، فيعلمون المستحبّات على أحسن وجه، فهم منظومة أمل وبرنامج حياة، ومشروع خدمات ومساعدات، لتحقيق النهضة الحضارية الواسعة في البلاد والعباد. كقوله (آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ)الذاريات/١٦، وإذا كان الإنسان يحسن للناس، فمعنى ذلك أن إحسان الله إليه أكبر وأوفى كقوله (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ) البقرة/٢٦١، أنهم أعطوا لله كما يريد، وقدّموا أعزّ ما يملكون بحب وسخاء، فأعطاهم الله (**مَّا يَشَاءُونَ**) وأكرمهم بالمكافآت، وضمّهم إليه وجعلهم عنده (**عِندَ رَبِّهِمْ**) عز وجل وأدخلهم في حصنه الحصين كقوله (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) الفجر/٢٧-

٢٨، وقوله (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) القمر/٥٥، **فائدة:** قال (**هُمُ الْمُتَّقُونَ**) ولم يقل (هم المسلمون) للإشارة إلى أن مجرد التعاطف مع القرآن لا يجدي، بل لابد من تعليمه والعمل به والمصداق عليه.

٣٥-﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

ومن جزاء المحسنين (**لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ**) يمحوا الله عنهم ويغفر لهم ما صدر منهم من الذنوب فلا يعاقبهم عليها، لأنهم ندموا عليها واستغفروا الله منها وتراجعوا عنها وأصلحوا أنفسهم وأعمالهم وأنابوا إلى الله (**أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا**) ضمير(**عَنْهُمْ**) يرجع إلى المحسنين والمتقّين، فيكون معنى (**أَسْوَأَ**) الأعمال منهم هي الصغائر، لأن الكبائر لا يرتكبها هؤلاء الأبرار، ولو ارتكبوها عن عمد لما كانوا متقّين ولا محسنين، وإذا ارتكبوا الكبائر عند الغفلات وفي سن المراهقة فتابوا عنها، ومن تاب من الذنب بصدق كمن لا ذنب له، فإن معاصي الله كلها عندهم هي الأسوأ، كما تكون طاعاتهم لله كلها هي الأحسن، فهم لا ينظرون إلى صغر المعصية، ولكن ينظروا لمن عصوا؟! كقوله(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) النجم/٣٢ كأن الذي دخل في مقام الإحسان ونال درجة المحسنين السامية، يكون ضمن من يغفر الله له أسوأ أعماله، وكأن درجة المحسنين المميزة، تكفّر الذنوب وتصلح العيوب وتهذّب النفوس، وهي حصن حصين يدخله خاصة الناس كقوله (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) النمل/١٩، والله تعالى لا يغفر الذنوب لهؤلاء فحسب، ولكن يبّدل لهم السيئات حسنات كقوله (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ)الفرقان/٧٠، وليس هذا فقط (**وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**)(**بِأَحْسَنِ**) هو جزاء يضاعف فيه الإحسان إلى المحسن، وبهذا الإحسان المضاعف يمحو الله عنهم (**أَسْوَأَ**) ما في صحفهم من الأعمال، وهي الأخطاء والزلاّت والعثرات والهفوات والغفلات، والسيئات الصغيرة التي تقع منهم وهم على طريق الإحسان، حتى تصبح صحفهم كلها إحساناً، وجزاء مضاعفة الإحسان، وخالية من كل سوء كقوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ) الأحقاف/١٦ وبذلك تتألق حسناتهم وتعلو وترجح كفة الميزان، وهذا زيادة في التكريم والإحسان.

فائدة: وقدم (**لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا**) على(**وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم**) لأن دفع المضار والمكروهات عنهم أهم وأفضل من جلب السرور والمنافع إليهم على(قاعدة التخلية ثم التحلية).

٣٦-﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

الاستفهام تقريري للإثبات، وإن نزلت الآية بخصوص السبب، ولكن أريد لها عموم المعنى، وسعة المغزى أليس من كرم الله وجوده وعنايته بعبده كل عباده على الإطلاق، وكل إنسان

يكفيه بقدره ومقداره، وعنايته سبحانه بالخصوص من عباده المؤمنين كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) البقرة/٢٤٣ وقوله (وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) آل عمران/١٥٢ (ومن توكّل على الله كفاه، ومن اتقى الله وقاه، ومن جاهد في الله هداه، وشكر الله جزاه، ومن نسي الله نساه) من رحمته، والذي قام بحق العبودية لله، وجاهد في الله حق جهاده، واستقام على منهجه، وكان أسوة حسنة للناس، وهو محمّد المصطفى(ص) كقوله (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ الله) الشورى/٥٢-٥٣، فإن الله يكفيه أمر دينه ودنياه، ويدفع عنه من عاداه كقوله (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) الطور/٤٨ **المعنى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)؟** **الكافي:** الكافل والحافظ، من الكفاية وسد الحاجة وبلوغ المراد، والله تعالى وحده هو الذي يكفي ويدفع عن عباده الآفات، ويزيل عنهم الكربات والويلات، ويعطيهم جميع المشتهيات، ويكفيهم ما أهمهم، يا كافي من لا كافيَّ له (يا من يكفي من كل شيء، ولا يكفي منه شيء، اكفني ما أهمني من أمر دنياي وآخرتي يا أرحم الراحمين) (يامن يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة) كقوله (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)النمل/٦٢**(وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ) سبب نزول:** إنّ المشركين كانوا يخوّفون النبي(ص) من آلهتهم وأصنامهم، ويحذرونه من غضبها، لئن لم تنته يا محّمد عن سبّ آلهتنا لنسلطها عليك فتؤذيك.

فأنزل الله **(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)**؟ وهو سبحانه معه وناصره وكافٍ عبده، وإضافته إليه سبحانه تشريف وتعظيم لنبيه (من كان مع الله كان الله معه) وإن كان الله معه فمن عليه؟ وإن كان الله عليه فمن معه؟ **(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)** والله يعلم من يستحق الضلالة فيضله، ليثبت عليه الضلال الذي اختاره لنفسه كقوله (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ)التوبة/١١٥ ومن يستحق الهدى فيهديه، فيأخذ بأسباب الهداية كقوله(وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)التغابن/١١ ليثبتها عليه التي اختارها لنفسه كقوله(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)محّمد/١٧ **(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)** ومن يثبت الله عليه الضلالة بسبب سوء أعماله، فلا يقدر أحد أن يصلحه ويهديه ويدله إلى طريق الله المستقيم، ويخلّصه من ظلمات الجهالة ومن حيرة الضلالة. كقوله (لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ)الأنفال/٤٢، **في نهج البلاغة** (أمره قضاء وحكمه، ورضاه أمان ورحمة، يقضي بعلم ويعفو بحلم)خطبة/١٦٠

٣٧-﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾

(وَمَن يَهْدِ اللَّهُ) ومن يوفّقه الله ممن يستجيب للهداية ويلتزم بالمنهج المستقيم، وينشرح صدره للإسلام، بتزكية نفسه وتهذيب عيوبه وإصلاح طبائعه السيئة كقوله (قَدْ أَفْلَحَ مَن

زَكَّاهَا)الشمس/٩، **في غرر الحكم** (صلاح النفس مجاهدة الهوى)(**فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ**) فلا يستطيع أحد أن يصرفه عن إيمانه ويغيّر سلوكه المستقيم، لأنه يستذوق حلاوة الإيمان ويتمتّع ببرد اليقين وجمال الإخلاص كقوله (إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) الواقعة/٩٥ (**أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ**) الاستفهام للتقرير وتثبيت الحقيقة، وأنه لعزيز قوي غالب قاهر غير مغلوب، ليجزي كلاً بما يستحق، وأنه سبحانه عزيز يعزّ بعزته من يتوكل عليه ويلوذ به كقوله (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) المنافقون/٨ (**ذِي انتِقَامٍ**) وأنه سبحانه لينتقم ويعاقب ممن يستحق الانتقام، في وقته المناسب، في الكيفية المناسبة، بعد إمهال مناسب، وينتقم على ضوء فساده وعناده وشدة ضرره واعتدائه على غيره، فاحذروا موجبات انتقامه بالالتزام بطاعته.

٣٨ -﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾

(**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**) لو سألت يا مُحَمَّد هؤلاء الكافرين عن مبدع السماوات والأرض بعد أن كانت لا وجود لها(**لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**) بحسب الإيمان الفطري المرتكز في طبع الإنسان كقوله (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)الروم/٣٠، لأجابوا الله هو الخالق لهما، وخالق كل شيء كقوله (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ)السجدة/٧، **عن الإمام علي**(ع) (بصنع الله يستدل عليه، وبالعقول يعتقد معرفته، وبالفطرة تثبت حجته)التوحيد ص٣٥، فهم يعتقدون في أعماق نفوسهم بالله الخالق، مع كونهم يعبدون الأصنام، وهكذا الجاهل يؤمن بالتناقض العقلي! (**قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**)قل لهم يا مُحَمَّد توبيخاً: أخبروني عما تدعون من دون الله (**إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ**)كالمرض والخوف والفقر ونحوها (**هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ**) هل يستطعن أصنامكم كشف الضر والسوء عني من دون إرادة الله؟ (**أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ**) أو أراد الله إنزال نعمته عليّ من مال وجاه وقوة ونصره وعزة ونحوها، هل يستطعن إمساك نعمته ومنع عطائه عني؟ والجواب محذوف لدلالة الكلام عليه (**قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ**) أي (**يكفيني الله**) في جميع أموري، في منح الخير وكشف الشر، ولا داعي لأن ألجأ إلى غيره من المخلوقات، ومعنى (**يكفيني الله**) أي أثق به فأعتمد عليه مع بذل السعي اللازم كقوله (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ) النجم/٣٩ و(**قيمة كل امرئ على قدر تجربته ومقدار خبرته**) إنها الطمأنينة بعد هذه الثقة واليقين الذي لا يتزعزع، والمضي في طريق الله مستقيماً على نهجه الأمين إلى نهاية الطريق(**حَسْبِيَ اللَّهُ**) هذا القرآن يدعوني أن أقوّي علاقتي بالله مباشرة، دون الاعتماد على وسائط وشفعاء، ويدعوني أن أحبه مباشرة، وأن أعبده مباشرة، وأن أدعوه مباشرة كقوله (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)غافر/٦٠، وأن ارتبط به دائماً ومباشرة وفي كل الأحوال، (**عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**) عليه لا على غيره يعتمد

الصّالحون، وبه يثق الواثقون لعلمهم بأنه أرحم الراحمين كقوله(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) آل عمران/١٧٣ **عن الإمام الصادق**(ع) (إن الغنى والعزّ يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكّل أوطنا) الكافي٢/٦٥، **في غرر الحكم** (حسن توكل العبد على الله على قدر ثقته به) **فائدة**: الفرق بين التوكل المطلوب، والتواكل المرفوض، **التواكل**: تدعو الله إعمل لي وأنت قاعد، أو لا تبذل الجهد اللازم ولا العلم الداعم، وبدون اختصاص فني قائم، **والتوكّل**: أعضاء الإنسان كلها تعمل بعلم واختصاص، والقلوب تتوكّل، **فالتوكّل**: عمل قلبي وارتباط روحي بالله تعالى، فيشعر المتوكّل بعلاقة كيانه المعنوي الصغير المحدود، بخالق الكون القوي الكبير المتعال، فيقوى قلبه وتنشرح نفسه وتسعد أيامه كقوله (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)آل عمران/١٢٢، **في غرر الحكم** (أصل قوة القلب التوكّل على الله)

٣٩-٤٠-﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

هذه آخر جلسة الحوار القرآني العلمي الذي يقرع الحجة بالحجة، ويأتيهم من حيث يحبّون ثم يحاول النبي(ص) أن ينتهي إلى حيث يحبّ هو، ولكن النتيجة بلا فائدة، والنداء (**يَا قَوْمِ**) لا يزال فيه بصيص أمل ورقة ومرونة وحنين، **المعنى**:(**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ**) **على مكانتكم**: اعملوا على طريقتكم التي رضيتموها لأنفسكم، وعلى قدر طاقتكم وتمكنكم وجهدكم ضدّي، من المكر والغدر والكيد والخداع والصد عن سبيل الله ومقاومة رسالتي ودعوتي كقوله (وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ) ق/٤٥ (**إِنِّي عَامِلٌ**) على مكانتي وعلى طريقتي في الدعوة إلى الله، ونصرة دينه كما أمرني الله تعالى غير منصرف عنه، وأعمل بمقدار استطاعتي متوكلاً على الله، ولا أتلوّن ولا أتقلّب ولا أتذبذب و(لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، أو أهلك دونه)! كقوله (وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) القلم/٩ (**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**) عاقبة الأمور، من المغلوب، ومن الغالب في الدنيا والآخرة، **عن النبي(ص)** (الأمور بتمامها والأعمال بخواتمها) البحار٧٧/١٦٥، **فائدة**: قال(**فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**) ولم يقل(فسوف تنظرون) لأن الأحداث التي ستأتيني قد تكون بعيدة عنهم لا يرونها ولكن سيعلمون بها، لأن العلم أوسع من معطيات العقل والنظر، فالعقل يعطيك بحجم ما عندك، ولكن العلم يعطيك ما عند عقول الآخرين، ٤٠-(**مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ**) عذاب يذله ويهينه في الدنيا كما حدث لهم يوم بدر، (**وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**) وينزل عليه عذاب جهنم الخالد في الآخرة لا يفارقه، وكل آت قريب.

٤١-﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾

(**إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ**) القرآن العظيم، بصياغة إلهية كاملة، وتسباق بلاغي متألق، القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه، المؤثر في معناه، باعتباره آخر الكتب السماوية (**لِلنَّاسِ**)

لصالح كافة الناس وحجة عليهم كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا)سبأ/٢٨ ليكون دستوراً هادياً للبشرية أجمعين كقوله (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) التكوير/٢٧، وليكون رحمة واسعة تخلّصهم من حيرة الضلالة ومن ظلمات الجهالة، ليهتدوا به ويتعلّموا منه ولا يعلموه، ويعيشوا معه فيظمن لهم التوازن في قضاياهم الدنيوية، والسعادة في مصيرهم الأبدي كقوله (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) المائدة/١٦.

فهو نزَل(**بِالْحَقِّ**) **الحق**:هو وضع الشيء في موضعه، **الحق** الذي فيه الخير والهدى، فهو **حق** ثابت بذاته ومثبّت لغيره، **الحق** في منهجه وشريعته، الحق الذي تقوم عليه السموات والأرض، **الحق** الذي يلتقي عليه نظام البشرية العام، نزل القرآن (**بِالْحَقِّ**) من الله الحق، ومضمونه الحق، وهدفه الحق الواضح، ليس فيه شيء من الباطل كقوله (لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) فصلت/٤٢، فهو دستور حياة، ومنهج نجاة، وإن زحزح الحق عن مساره فهو أمر طارئ، ولابد أن يعود الحق إلى موضعه اللائق به بالحق، والابتلاءات تمحيص لجنود الحق كقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الكهف/٧، وقد يعلو الباطل حتى يؤلم الناس، ويذوقون مرارته، فيتطلّعون إلى الحق بتلهّف الذي يخلّصهم من ظلم الباطل كقوله (يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ)الشورى/٢٤، **والحق**: هو الغاية التي يريد القرآن تقريرها في منهجه، **والحق** أقوى ظهير وأفضل نصير، والحق لا يُجزّأ، فهو وحدة واحدة موحّدة متّحدة كقوله (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)يونس/٣٢ **عن الإمام الباقر**(ع) (إصبر نفسك على الحق، فإنه من منع شيئاً في الحق أعطى في الباطل مثليه) تحف العقول ص٢١٦، ووظيفة الرسول التبليغ الواضح، وهم بعد ذلك مخيّرون لهم ما يشاؤون من هدى أو ضلال، ثم يحاسبون على نوع اختيارهم (**فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ**) فمن اهتدى بالقرآن الكريم ووُفّق للعمل بمنهجه بعد أن أستوعب أهدافه السامية (**فَلِنَفْسِهِ**) يعود نفعه إليها، وكما يزرع يحصد كقوله (إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)الإسراء/٧، والله ورسوله في غنى عن هداه (**وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**)ومن أعرض وانحرف عن منهج القرآن، فإنما ضرر ضلاله عائد عليها (والذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ) (ومن ضاق عليه الحق فالضلال عليه أضيق)كقوله (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا)مريم/٧٥، **في غرر الحكم** (من سامح نفسه فيما يحب أتعبته فيما يكره) (**وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ**) **بوكيل**: برقيب في إيصال الحق إلى قلوبهم، فليست وظيفتك هذه كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/١٢٨، وقوله (قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ) يونس/٤٩، وما أنت بوكيلنا عليهم حتى تجبرهم على الإيمان ما لا يرغبون كقوله (قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ)الأنعام/١٠٤، فلا تتعب نفسك معهم كقوله (**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**)

النور/٥٤، إنما الوكيل عليهم هو الله، وهم في قبضته كقوله (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) الأنعام/١٠٢.وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠

٤٢ –﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) الله تعالى وحده يتوفى النفس، وهي في قبضته دائماً في كل حالاتها في نومها وصحوها، في ضعفها وقوتها، في حياتها وموتها فهي تحت رقابة الله **عن الإمام علي** (ع) (كفى بالأجل حارساً)البحار٥/١٤٢. الوفاة مقابل الحياة، وبالتقاء الروح مع الجسد تنشأ الحياة، بترك الروح الجسد يحصل الموت، **للوفاة نوعان:** ١–وفاة الأنفس كاملة، وفاة حقيقية بالموت الكلي الثقيل الذي يترك الجسم بلا روح، الروح التي بها تكون الحياة، فترجع الروح إلى بارئها، فتتعطّل الأعضاء عن عملها ويكون الإنسان جثة هامدة لا قيمة لها وهو **(الموت الأكبر)**٢–**وفاة النفس الجزئية المؤقتة الخفيفة المرحلية في النوم**، لأن النائم كالميّت، النوم الذي يسلب الادراك والإحساس، في كونه لا يبصر ولا يسمع كقوله (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ) الأنعام/٦٠، وتبقى النفس حيّة فاعلة عند النوم وبعد اليقظة تحافظ على حياة الجسد وعمل الأعضاء وهو**(الموت الأصغر)**وتبقى هكذا إلى حين أجلها المحتوم كقوله(وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) المنافقون/١١، وفيها دلالة على عظمة الله وقدرته ودقّة نظامه وانفراده بالألوهية، وأنه يحي ويميت ولا يقدر على ذلك سواه، **عن النبي**(ص) **(كما تنامون تموتون، وكما تستيقظون تبعثون)**تفسير القرطبي١٥/٢٦٠، **في الآية دلالة:** على أن الروح (النفس) من العالم العلوي السامي الشفّاف، وهو كيان معنوي غير معلوم، عالم قائم مستقل بذاته مخالف كحقيقة البدن المادي الترابي، ولما دخلت الروح في البدن لتعطيه قيمته وكرامته وحياته، فجمع الله بينهما بقدرته ليكون إنساناً مكرّماً محترماً، حتى إذا انتهى أجل الحياة المقدّرة بينهما افترقا، فلحق كل منهما بعالمه الخاص، النفس إلى عالمها العلوي، والجسد إلى عالمه الترابي كقوله(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً) الفجر/٢٧-٢٨

(الموت الحق):كلنا يعرف أن الموت حق، والنوم حق، وهما من الحاجات الضرورية القاهرة للإنسان، فهما راحة لكل حي، وريحانة ونعمة لكل مؤمن، ولكننا لا نزال نجهل فلسفتهما، وإنهما لحد الآن من الأسرار التي يتوصّل إلى حقيقتهما العلم الحديث المتطوّر، **في الحديث** (الناس نيام فإذا ماتو انتبهوا)!روح البيان٢/١٣٢، **(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا) التوفّي**: أخذ الشيء كاملاً وافياً، **يقال**: وفيت حقّي لفلان، أي استوفيته واعطيته حقّه كاملاً فلم يبق منه شيء، ويقال **(اللَّهُ يَتَوَفَّى)** أي أخذ العبد حقّه ورزقه كاملاً في حياته، فلم يبقَ منه شيء، فقد استوفى عمره، وانتهى نَفَسهَ، وخلصت حياته، وحان أجله فمات!

معنى الآية: الله يقبض الأنفس بالحق من الأبدان عند نهاية أجلها، وهي الوفاة الدائمة الكبرى **عن النبي(ص)** (يموت الرجل على ما عاش عليه، ويُحشر على ما مات عليه)تنبيه الخواطر ص٣٧١، (**وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا**) ويتوفّى الأنفس التي لم يُقدِّر لها الموت، يتوفّاها في منامها، وهي الوفاة المؤقتة الجزئية الصغرى، ويكون النوم سلطان يقهر إرادة الإنسان فلابد من الاستجابة إليه، (**فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ**) فأما النفس التي قضى على صاحبها الموت الدائم، فيمسكها عنده ولا يردّها لجسدها فقدّر موتها في نومها كقوله (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)الأنعام/ ٩٤(**وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى**) والتي لم يحن أجلها ووقت موتها بعد لتكمل دورها في حياتها، أي يرسل نفسه لتعود إلى جسدها فتصحو وتستيقظ لاستكمال رزقها وعمرها وأجلها، وتبقى حيّة (**إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى**) إلى أن يحلّ موعد أجل موتها المحتوم بالحق لا تتأخر عنه لحظة ولا تتقدم كقوله (وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) المنافقون/١١.

(**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) إنّ في هذا النظام العجيب الدقيق لآيات وعلامات ودلالات واضحة قاطعة على كمال قدرة الله وجلال حكمته (**لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**) فيعتبرون على أن البعث والنشور والحساب والجزاء أمرٌ هيّن على الله، وأنّهم في قبضة الله دائماً وهو مدبّر أمرهم، وأنهم إليه راجعون ليحاسبهم على ما عملوا، وأيضاً عندما تتفكرون فسوف تنفتح عليكم آفاق العلم وستعرفون فلسفة الحياة والموت (كفى بالموت واعظاً) وستعرفون قيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، **عن الإمام الحسن**(ع) (**التفكّر حياة قلب البصير**) البحار٧٨/١١٥.

فائدة: عن ابن عباس (أن في بني آدم نفساً وروحاً بينهما مثل شعاع الشمس، فالنفس التي بها العقل والتمييز، والروح التي بها النفس والتحريك، فإذا نام الإنسان قبض الله نفسه ولم يقبض روحه، وإذا مات قبض نفسه وروحه)مجمع البيان٨/٤٤٦، **عن الإمام علي**(ع) (الله يتوفّى الأنفس كلها، فما رأته عنده (سبحانه في ملكوت السموات في الملأ الأعلى) فهي (رؤية) صادقة (ولها تأويل)، وما تراه من أحلام بعد إرسالها (إلى أجسادها وهي بين السماء والأرض) فهي كاذبة (لا تأويل لها)، ٢-(**اللَّهُ يَتَوَفَّى**) إضافة فعل التوفّي إلى نفسه سبحانه، باعتباره الخالق المدبّر للأمور، مسبب الأسباب، فهو المتوفّي بالحقيقة، وهو الذي يحدد الأعمار والآجال، أما قوله (قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ) السجدة/١١ أي الله وكّلَ بالتوفّي ملك الموت ورسله وأعوانه، بأن جعل لكل أمر سبباً كقوله (وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا)الكهف/٨٤، **عن الإمام علي**(ع)(لا ينام المسلم وهو جنب، لا ينام إلاّ على طهور) الأمثل١٥/١٠١، **عن النبي(ص) دعاء**

قبل النوم (باسمك ربي وضعت جنبي وباسمك أرفعه، ربي احفظني في يقظتي ونومي، ربي إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصّالحين).

٤٣-٤٤ -﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ، قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ**) وهو سؤال استنكاري للتوبيخ والسخرية والنهي، **المعنى**: أم اتّخذ المشركون لهم (**مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ**) له دلالة عامة، أي وسطاء ووسائل يتوسلون إليهم ويشفعون لهم عند الله (بلا دليل وبرهان) لقضاء حوائجهم ونجاتهم من كل بلية كقوله (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ)الزمر/٣، فهم مخطؤون في فهم الشفاعة كقوله (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ)الأنبياء/٢٨، فلا تفهموا الحياة بشكل خاطئ، ومن فهم بشكل خاطئ سيعمل بشكل خاطئ، حتى يموت على ما عاش عليه، كقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف/١٠٣-١٠٤ (**قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا**) الاستفهام توبيخي للإنكار، أي قل ولو كانوا لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً(**وَلَا يَعْقِلُونَ**) شيئاً كالأصنام؟ وأي معبود(**مِن دُونِ اللَّهِ**) فهو لا يعقل مهما كانت قيمته الاجتماعية، لأنه لا يعرف كيف ينتهي، فلا يعرف كيف يبدأ.

٤٤-(قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)

إنها الحقيقة الناصعة القاطعة التي تُنهي كل خلاف حول الشفاعة والشفعاء، أي الشفاعة كلّها لله وحده، لا يملكها أحدٌ إلاّ الله تعالى، ولا يستطيع أحد أن يشفع إلاّ بإذنه، فهو الذي يأذن بها لمن يشاء، على يد من يشاء، متى يشاء، كيف يشاء، فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها، وتخلص له العبادة، لأن (**لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) هو سبحانه المتصرّف في الملك كله والملكوت، وأنتم جميعاً في قبضته، فلا استقلال لأحد عن الله بشيء، وليس هناك شيء خارج عن إرادته كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠، وقوله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) التكوير/٢٩ (**ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) ولا مفر ولا مهرب من الله إلاّ بالرجوع إليه وحده، في نهاية الرحلة، وانتهاء المهلة، فمنه البداية وإليه النهاية وعنده تحطّ الرحال، فيحكم بينكم الله سبحانه بعدله وإحسانه ويجازي كلاً بعمله كقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) الانشقاق/٦، **فائدة**:١-إنّ هؤلاء بجهلهم لا يضرون إلاّ أنفسهم، ولكن الويل من الذين حكموا البلاد وسرقوا العباد فخانوا الأمانة، وأقبح خُلق الخيانة (أشر الناس من عاشَ لذاته، ومن عاش لذاته عاش للذّاته، وأخسر الناس من عاش للذّاته)، ٢-يزور المسلمون روضات النبي (ص) والأئمة من أهل بيته (ع) لأنهم قدوة حسنة وقيادة صالحة مؤثرة في حياتهم وبعد استشهادهم كقوله

(لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) الأحزاب/٢١، فهم وجهاء ووسطاء ووسائل إلى الله، مقرّبون عند الله كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) المائدة/٣٥، فاطلبوا منهم أن يشفعوا لنا عند الله، وليسوا شفعاء من دون الله كقوله (مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) يونس/٣، **في غرر الحكم** (استجيبوا لأنبياء الله، وسلّموا لأمرهم واعملوا بطاعتهم تدخلوا في شفاعتهم) وأرادنا الله عز وجل أن ندعوه مباشرة، ونعبده مباشرة، ونرتبط معه مباشرة، لتقوية حبّنا له وإيماننا به، وتوكلنا عليه، دون وسائل وروابط، وهذا هو التّوحيد العلمي المطلوب، والتوحيد العملي المرغوب والمحبوب، **في غرر الحكم** (التّوحيد حياة النفس) .

٤٥ –﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾

العدسة القرآنية تصوّر بدقة الواقع الجاهلي على عهد النبي مُحَمَّد المنقذ من الجهالة (ص)، وكأنَ العدسة تغوص في أعماق نفوسهم فتصوّر سوء اعتقادهم وشدة عنادهم، وكيف ألفوا المنكر فصار معروفاً، وكيف كرهوا المعروف فصار منكراً؟!كيف انقلبت عندهم المقاييس والموازين والمعايير؟! كان المشركون يستأنسون إذا ذكرت أصنامهم بخير وعاداتهم الجاهلية وخرافاتهم بالمدح، ولكنهم ينقبضون إذا ذكرت عندهم كلمة التوحيد **(لا إله إلاّ الله)** وإخلاص الدين لله وحده! إنها حالة متخلّفة متكررة موجودة في كل زمان ومكان فيه حق وباطل، وهدى وضلال، وعلم وجهل..وهكذا من اتّبع الهوى فقد هوى وسقط ولو بعد حين كقوله(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)الحشر/١٩.

المعنى:

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ) اشمأزت: انقبضت صدورهم ونفرت نفوسهم من شدة الكراهية، لكثرة ذنوبهم وقسوة قلوبهم، لأنهم **(لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)** فيوحشهم الحق، لأنهم ليسوا من أهله، **عن الإمام علي** (ع) (من لا ينفعه الحق يضرّه الباطل)شرح النهج٢/٩١، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ) النمل/٤**(وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ)** من الشفعاء والأنداد والأصنام ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها **(إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)**إذا هم يفرحون وتمتلئ قلوبهم سروراً، وظهرت آثار الفرح والبشارة في قلوبهم والتبسّم في وجوههم لتعلقهم بها وحبهم لها، لكون الشرك والضلال والفساد موافقاً لأهوائهم، وذلك يدل على جهالتهم وحماقتهم، وأيضاً ينشرحوا وينشطوا عند سماع أخبار عن حقوق الإنسان أو عن السياسة المحلية أو الدّولية أو مشاهدة فلم أو سماع محاضرة علمية..أي يكون المخاطب غير الله تعالى كقوله (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا) الإسراء/٤٦، **فائدة:** ١–وهكذا يأخذ الباطل مأخذه فيعشعش في كل مجتمع يفتقد الوعي الرسالي ويسوده الجهل، ولا فرق بين هؤلاء وبين الذين يختارون في عصرنا الحاضر من

اللّصوص والقراصنة وأصحاب الجرائم، ملفّات الفساد المنظمة نواباً في البرلمان وحكّاماً ومسؤولين في البلاد، كقوله (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)الزخرف/٣٦، ٢-**تكذيب بيوم القيامة:** إنّ تكذيبهم بيوم القيامة ليس ينقصه الدليل العلمي والحجة القطعية، ولكن ينقصه الإنسان المتفهّم، والنفس المنفتحة والصدر الرحب والطبع المرح، والعقل الواعي المفكّر والقلب الذي يصغي وينتبه للقضايا المصيرية المهمة الكبرى (**حقاً**) إنه ينقصه الانتباه والإصغاء والانفتاح مع أهل العلم والإيمان والمعرفة كقوله (**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**) النحل/٤٣.

يوم القيامة: بحاجة إلى مشاورة وتبادل آراء، ونقاش علمي وجدال موضوعي ونقد بنّاء مع أهل الذكر والفكر والاختصاص (ومن شاور أصحاب العقول شاركهم عقولهم وتجاربهم) لأن النفس المنغلقة على حبّ الذّات لا ترى الحقيقة، بل ترى ذاتها وحبها لنفسها أو ترى الحقيقة من خلال ذاتها، فتكون الحقيقة الكبيرة في خدمة ذاتهم الصغيرة!فهم يجسّدون الذّات في الحياة ويعبدونها من دون الله، ويجعلون الحقيقة الكبرى في خدمة ذواتهم..بينما يريد الله تعالى تجسيد رسالة السماء في النفوس، من خلال تهذيب ذات الإنسان، كقوله (**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**) الشمس/٩، **في غرر الحكم** (ذروة الغايات لا ينالها إلاّ ذوو التهذيب والمجاهدات) فتكون الذات في خدمة الرسالة ونصرة المرسل والرسول(ص)وهناك فرق كبير بين تجسيد الذات وتعزيزها، وتهذيب الذات وتزكيتها!

٤٦ -﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

فإذا بلغ الأمر معهم هذا المبلغ من اشمئزاز القلوب من ذكر الله، فاتركهم واشكهم إلى ربك وادعه بهذا الدعاء و(**قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) ابتدعهما من العدم من غير مثال سابق (**عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**) عالم ما ظهر وما بطن من أمور العالم، ولا يخفى عليه خافية (**عَالِمَ الْغَيْبِ**) عالم بما غاب علمه ونظره عن الخلائق جميعاً(**وَالشَّهَادَةِ**) وعالم بما شهدوه وعلموه، فهو سبحانه عالم السّر والعلانية، ومطّلع على الغائب والحاضر، ومحيط بالظاهر والباطن (**أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ**) أنت وحدك تحكم وتفصل بين الخلائق جميعاً، بعدلك وقضائك ورحمتك، فافصل بيني وبين هؤلاء المعاندين كقوله (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)الرعد/٤١ وقوله (وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)الكهف/٢٦ (**فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) من أمور الدين والدنيا.

٤٧ -﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾

يصوّر القرآن حالة الظالمين لأنفسهم ولغيرهم المفزعة، والندامة الشديدة، وأشدّ الندامة في يوم القيامة، إنهم يتمنّون (والتمني رأس مال المفلسين)لو أنّهم يملكون (على الفرض والتقدير)

أضعاف ما في الأرض جميعاً من ذهبها وفضتها وجواهرها (**لَافْتَدَوْا بِهِ**) ليتخلّصوا من العذاب وينجوا منه، فلا تقبل منهم الفدية ولا تنفع الندامة، لأن الأوان قد فات، **المعنى**:(**وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ**) ولو ملك هؤلاء الذين ظلموا عن عتاة الشرك وطغاة الجريمة (**مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**) من أموال وكنوز وذخائر وجواهر(**وَمِثْلَهُ مَعَهُ**) وملكوا ضعفي ذلك معه (**لَافْتَدَوْا بِهِ**) لهان عليهم أن يبذلوه لفداء أنفسهم وخلاصها به (**مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) من شدة العذاب يوم الجزاء، فلا يفادى أسير جهنم إطلاقاً كقوله (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ)آل عمران/٩١ (**وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ**) وانكشف لهم يوم القيامة من الله (**مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**) ما لم يكونوا يتوقعون، وما لم يخطر على بالهم من ألوان العذاب، ونعوذ بالله من كل العقوبات المخبآت والمفاجآت كقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)الكهف/١٠٣-١٠٤، والعقوبة على قدر الجناية.

٤٨ –﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

(**وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا**) وفي يوم القيامة، ذلك اليوم المفزع(**وَبَدَا لَهُمْ**) ظهر لهم أيضاً سيئات أعمالهم التي اكتسبوها، فتنكشف لهم بصورة مجسّمة فظيعة بعدما كانت خفيّة عليهم كقوله(أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ)المجادلة/٦، ما كفاهم الجحود ونكران البعث حتى سخروا منه! فكان جزاؤهم من نوع جرمهم في عذاب جهنم (**وَحَاقَ بِهِم**) ونزل وأحاط بهم من كل جانب عذاب القيامة جزاء (**مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ**) جزاء استهزائهم بأهل الحق في الدنيا، فهم يتعاملون مع القضايا الكبرى باللامبالاة! حقاً إنها طبيعة الأطفال الذين يلعبون بالجوهرة الثمينة على أنها كرة للتسلية! **فائدة**: وعبرّ عن السيئات بالكسب، كما أعمل فأكتسب المال، لأن هذه السيئات المتنوعة أصبحت عادة وممارسة وتدرّب عليها فصارت كسباً لا اكتساباً، فكان العقاب المفاجئ الذي لم يكونوا يتوقعونه كقوله(وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ) البقرة/٧٩. **هناك فرق بين (كَسَبَتْ واكْتَسَبَتْ)**كقوله (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) البقرة/٢٨٦، **كسبت**: تستعمل في الخير، **واكتسبت**: في الشر، فهم كسبوا موارد الخير وحوّلوها إلى موارد الشر والفساد بسبب رغبات نفوسهم الشريرة! لأن نفوسهم تشتهي الفساد والشر، وتسعى وتجدّ في تحصيله بتكلّف، لأنه ينافي الفطرة الإنسانية كقوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)إبراهيم/٢٨

٤٩ –﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(**فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ**) يصوّر القرآن الكريم صورة حية تتكرر لحالة الإنسان بصورة عامة، الإنسان المهزوز في نفسه، المضطرب في دينه، المشوّش في معتقداته، الإنسان بكافة أحواله

ومستوياته الكافر، العاصي، الجاهل كقوله (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ)الحج/١١، **على حرف:** على طرف من الدين، يعبد الله على مصلحة، على شرط أن يعوّضه عن عبادته ويقبض ثمنها في الدنيا وإلاكفر بالله وبكتبه ورسله، **عن الإمام الحسين**(ع) (الناس عبيد الدنيا، والدّين لعق على ألسنتهم يحوطونه مادرّت معايشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الدّيانون)تحف العقول ص١٧٦، وهنا يتبين ضرورة الدين القيم في تربية الإنسان، الذي يعصمه من الزلل ويسدده في القول والعمل، **في غرر الحكم** (من أُلهِمَ العصمة أمن الزلل) فإذا أصاب هذا المستوى من الناس (**ضُرٌّ**) من مرض أو فقر أو شدة..إلخ ويكشف الضّر عن معدن الإنسان، ويبيّن حقيقته المستورة بالادّعاءات والمظاهر، وهنا تتبيّن فلسفة البلاء كقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الكهف/٧ وفي ذلك إشارة إلى أن الإنسان يتقلّب بين الشدة والرخاء(ودوام الحال من المحال)، (**دَعَانَا**) وتضرّع وأناب إلينا ملحّاً في الدعاء، واستغاث بنا وحدنا، وانقطع عن غيرنا لكشف ما أصابه.

(**ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا**) ثم إذا أعطيناه ومنحناه(**نِعْمَةً مِّنَّا**) تفضلاً منّا، لا على وجه الاستحقاق، سعة في المال أو موقعاً في السياسة، وجاهاً في الحكم..إلخ (**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**) استكبر ذلك الكافر الجاحد، ولم يعترف بأنها نعمة سخّرها الله إليه وقال: إنما حصلت على هذه النعم بكفاءتي واستحقاقي(**عَلَىٰ عِلْمٍ**) بعلمي وخبرتي وكفاءتي وتجربتي واختصاصي، للدلالة على أنه رجل ذكي نموذجي وأفضل من الآخرين، وهكذا يقولها كل مخدوع بنفسه وبمظاهر برّاقة خادعة مؤقتة، مخدوع بعلم ومغرور بصنعة وبشهادة واختصاص، ومعجب بماله وجاهه ومنصبه كقوله (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) آل عمران/١٨٥، وقوله (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ) لقمان/٣٣ وهذا الحال من ضلال العقل، وخداع النفس، وغرور الهوى وحبّ الأنا، فلو أن هذا المخدوع بنفسه كان يملك أن يجلب لنفسه نفعاً من دون الله، لكان يملك أن يدفع عن نفسه كل ضرّ ينزل به، فإذا احتبس البول عنده فإذا هو ذليل يصرخ ويئن يتألم! (**بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ**)

يقول الله رداً حاسماً عليه، ليس الأمر كما تزعم، بل هي ابتلاء وامتحان له، واختبار من الله ليرى أيشكر أم يكفر، سيصلح بها أم سيفسد كقوله (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) الأنبياء/٣٥، بل هي فتنة واستدراج من حيث لا يعلمون كقوله (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) آل عمران/١٧٨ (**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**) لا يعلمون أن النعمة امتحان للعباد كقوله (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) التكاثر/٨، لذلك يبطرون فلا يقدّرون النعم ولا يشكرون المنعم، **عن النبي** (ص) (**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**)روح البيان٦/١٢٩، وأن القرآن الكريم رحمة للعباد يكشف لهم عن هذا السّر،

وينبههم إلى هذا الخطر، ويحذّرهم من كل فتنة، فلا حجة لهم ولا عذر بعد هذا البيان القرآني الناصح الواضح كقوله(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) الحشر/١٩، **في غرر الحكم** (رحم الله امرأ عرف قدره ولم يتعدَّ طوره) **في نهج البلاغة** (أقلّ ما يلزمكم الله ألا تستعينوا بنعمه على معاصيه)حكم٣٣٠

٥٠-٥١-﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ، فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾

تلك المقالة الضالة والدعوى المغرورة قوله (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ)الزمر/٤٩، بأن نعمته من علمه ومن جهده وكفاءته، لا من فضل الله عليه وتسخير الأسباب إليه **المعنى**: **(قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)** قد قال نفس هذه الكلمة أمثال قارون الطاغية وغيره حيث قال (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي) القصص/٧٨، والله سبحانه لقد أمهل حتى كأنه أهمل، ولقد ستر حتى كأنه غفر، ولقد أنذر حتى كأنه أعذر!، حتى أخذه أخذ عزيز مقتدر، فكانت عاقبته كقوله(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ) القصص/٨١ **(فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم)** ولم يغن عنهم علمهم ولا منصبهم ولا جماهيرهم ولا مالهم ولا قوتهم من بطش الله الشديد، وهكذا سنة الله ثابتة لا تزول ولا تتغيّر ولا تتبدّل ولا تتحوّل **(مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** ماكانوا يجمعونه ويحرصون عليه من متاع الدنيا، بل صار وبالاً عليهم ومصدر هلاك لهم وعِبرة لغيرهم (وأخسر الناس من كان عِبرة للناس) ٥١-(**فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)** فأصابهم جزاء أعمالهم السيئة التي اكتسبوها وسعوا من أجلها، العقوبات السيئة التي تسوء الإنسان وتحزنه، وتنغّص عيشه! وكأن جميع أعمالهم من قبيل السيئات كقوله (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا) الشورى/٤٠ **(وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ)** من كفّار قومك وأشباههم بعنادهم وجحودهم **(سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)** سينالهم جزاء أعمالهم القبيحة، كما أصاب أولئك المعاندين، في وقتها المناسب، وفي الكيفية المناسبة كقوله(سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) الأحزاب/٦٢**(وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ)**وما هم بخارجين عن سيطرة الله، بل هم وكل الخلائق في قبضته وتحت إرادته سبحانه، لا يستطيعون أن يفلتوا، والله لا يعجزه شيء، فكيف يفلتوا؟ وإلى أين يهربوا؟ كقوله (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)التكوير/٢٦

٥٢-﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

هذا الاختلاف في حظوظ الناس في الرزق، هو الذي يضبط ميزان الناس في الحياة، ويجعل لحياتهم ألوان متنوّعة، فيبعث الناس إلى السعي الجاد لتحصيل الرزق، ولو كان الناس على درجة واحدة لما حصل تنوّع كفاءات، ولما بقيت نوازع التنافس بينهم، ولخمدت روح الطموح والابتكار والتجديد والابداع والاختراع، ولبقيت الحياة الإنسانية بدائية بلا تطلّع نحو الأحسن، كما بقيت حياة الحيوانات كما كانت عليه كقوله(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا

يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ، إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ) هود/١١٨-١١٩، **المعنى:(أَوَلَمْ يَعْلَمُوا)**أولم يعلم الناس**(أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ)** أن الله يوسّع الرزق**(لِمَن يَشَاءُ)** من عباده، سواء أكان صالحاً أم طالحاً **(وَيَقْدِرُ)** ويقتّره ويضيّقه على من يشاء، سواء أكان صالحاً أم طالحاً، وفقاً لمصلحة العباد، ومن المقادير المدبّرة والمقدّرة، ومن الحكمة المرجوّة في هذا التفاوت؟ وأنه سبحانه أعلم بحال عبيده. فقد يضيّق عليهم الرزق لطفاً بهم، لأنه لو بسطه لبغوا وطغوا في الأرض كقوله (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ) الشورى/٢٧، فيكون الله تعالى مراعياً في ذلك صلاح دينهم، الذي هو أصل سعادتهم وتزكية نفوسهم كقوله (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ، فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ)الذاريات/٢٢-٢٣ وهذا التفاوت في الرزق كالتفاوت في الجمال والجلال والكمال والأشكال وحسن الحال، والتفاوت في القدرات والكفاءات والخبرات والوجاهات، وليس ذلك لجهل في الكاسب أو علم خارق لديه، فربّما كان العالم الذكي ضيّق الرزق، والجاهل أو المريض ذا سعة في المال.

في غرر الحكم (لو جرت الأرزاق بالألباب (العقول) لم تعش البهائم والحمقى)! على الإنسان أن يعمل بالممكن المستطاع بلا قصور ولا تقصير (فأن الهمة على قدر المهمة) ويتطلّع إلى الطموح نحو حياة أفضل **(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)** لأن الإيمان هو الذي يفسّر كثيراً من حقائق الحياة تفسيراً معقولاً مقنعاً، وهو الذي يستلهم من الواقع ما يقوّي إيمانه، وخصَّ المؤمنون بالذكر، لأنهم الذين يتدبرون بآيات الله ويعرفون الواقع، ويعلمون أن سعة الرزق قد يكون استدراجاً! كقوله (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) آل عمران/١٧٨ فمن وسّع الله له من حلال بلا حرام مختلط به فليشكر الله، ومن قدر عليه رزقه فليصبر ويتعفف. **فائدة:** ظاهر الآية الكريمة أن الرزق بيد الله مباشرة، ولكن الله تعالى أمر بطلب الرزق والسعي الجاد له كقوله **(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ)** الملك/١٥، **والسعي:** إرادة وقصد وجهد وخبرة وتجربة، وعلى قدر السعي تكون النتيجة و(قيمة كل امرئ على قدر تجربته ومقدار خبرته)كقوله (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) النجم٣٩-٤١.

عن الإمام الحسن العسكري(ع) (لا يشغلك رزق مضمون عن عمل مفروض) البحار ٣٨٤/٧٨، فتكون علة بسط الرزق وقبضه حالة فلسفية ظاهرها أنيق وباطنها عميق، لا يعرف أبعادها إلاّ الله عز وجل، وقد يعرف الناس جزءاً منها ولكن لا يحيطون بها علماً، لذلك المؤمنون يسلّمون أمورهم إلى الله تعالى ويتوكّلون عليه، ويعملون بقدر جهدهم وخبرتهم

وتجربتهم، ويتطلّعون نحو الحياة الأفضل دائماً، ٢-**الرزق: مفهوم عام**، مادي ومعنوي، وهو كل شيء ينتفع به منه، **مثل**: الاختصاص العلمي، المهنة، الصناعة، الزراعة، الذكاء المواهب، الجاه، الصحة...إلخ، **عن النبي(ص) (خير الغنى غني النفس)** البحار٧٥/١٠٦، **والرزق**: ليست مسألة شطارة، وليست لها علاقة بالإيمان والكفر، وليست لها علاقة بالخير والشر، ولا بالعلم والذكاء، ولا بالتعب والإرهاق، ولكنها تحتاج إلى الأخذ بالأسباب اللازمة والمطلوبة، مع التوكل على الله، **عن النبي(ص)** (خير الرزق ما يكفي)البحار٧٧/١٦٨، **والرزق رزقان: رزق إيجابي، ورزق سلبي: الرزق الإيجابي**: أن تأخذ حقك من الحلال الخالص بلا شبهة من حرام (قليل يكفي خير من كثير يُلهي) **عن النبي(ص)** (ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى) البحار ٧٧/١١٥.

الرزق السلبي: أن تأخذ حقك من حق الناس بطرق الفساد الكثيرة المنظّمة، هذا الرزق وإن ازداد وكثر ولكنه من حرام! والحرام لذّاته قصيرة وتبعاته طويلة، والمال الحرام ظاهره يغرّ وبدايته تسرّ وتمرّ وعاقبته تضرّ، ومال الحرام ليس من الله وإنما من الشيطان! كقوله (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ) لقمان/٢٤ **في نهج البلاغة حكم٤٥٢** (الغنى والفقر بعد العرض على الله تعالى)**في غرر الحكم** (من جَعل ملكه خادماً دينه انقاد له كل سلطان، من جعل دينه خادماً لملكه طمع فيه كل إنسان)!

٥٣-﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

مقدمة: لما صوّر القرآن الحال المفزعة للظالمين في يوم القيامة بقوله (سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا) الزمر/٥١، صوّر بهذه الآية الرحيمة الكريمة كيف يفتح الله أبواب رحمته على سعتها كقوله (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)الأعراف/١٥٦، رحمته التي تسبق غضبه، رحمته التي تفسح له المجال لمحاسبة نفسه، وتصحيح مساره، ولا تدع له عذراً، رحمته في ترغيبه في التوبة الصادقة، والرجوع إلى الله عز وجل والثقة بعفوه ومغفرته، حتى يطمع في رحمته ومغفرته أهل المعاصي كقوله (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ)آل عمران/١٣٥، ومغفرته سبحانه لهم مهما يكونوا قد أسرفوا وتجاوزوا الحدود في ارتكاب المعاصي كقوله (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) الرعد/٦، وقوله (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الطلاق/١. إنها دعوة (بشارة) ربانية رقيقة لخلق الأمل، وانتهاز الفرصة الثمينة المتاحة الآن قبل فوات الأوان، فاغتنموا الفرصة قبل أن تكون غصّة، وهو النداء القرآني الرحيم الدقيق الفريد الشفاف الجذّاب، الذي يحّرك مشاعرهم ويحي ضمائرهم، وينفذ إلى أعماق نفوسهم ويهزّها هزّاً رحيماً لتعود إلى رشدها، وخلق الأمل الكبير فيها، لاستذواق طعم الهداية وجمال الدراية والاستقامة، وقوله (**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**) فلا مغفرة للذنوب جميعاً من دون توبة صادقة كقوله (ثُمَّ

تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)التوبة/١١٨، وكذلك آيات التخويف والتحذير فإنها تتضمن الدعوة المشجّعة إلى التوبة.

كقوله (**إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ**) يوسف/٨٧ وقوله (وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)الحجر/٥٦، والله وصف نفسه بالتّواب بقوله (إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) البقرة/٣٧ بمعنى يقبل التوبة ويهيىء أسبابها، وقوله (وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا)النساء/١١٠وهذا الإطلاق بقوله (**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**) بحاجة موضوعية قرآنية إلى تقييد، والقرآن يُفسّر بعضه بعضاً، وقد قيّد القرآن عدم غفران الشرك بقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) النساء/١١٦وقوله (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)التوبة/٨٠، **عن النبي(ص)** (يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا) فيكون معنى (**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**) لا تعني غفران جميع الذنوب لجميع الناس على الإطلاق، وإنما غفران جميع الذنوب مقيّدة بمشيئة الله كقوله (**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**) التكوير/٢٩، لأن معنى المطلق محمول على التقييد، والله لا يجري في ملكه إلاّ ما يشاء، فإن الله تعالى لا يغفر الشرك باعتباره (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) لقمان/١٣، لا يغفره إلاّ بالتوبة النصوح والرجوع عنه.

(**وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ**) وليس للجميع، وكذلك لا يوفّق قاتل المؤمن متعمّداً للتوبة بقوله (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا)النساء/٩٣، **عن الإمام الصادق(ع)** (لا يوفّق قاتل المؤمن متعمداً للتوبة)وسائل الشيعة١٩/ص٥، **عن النبي(ص)** (من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيسٌ من رحمة الله تعالى)كنز العمال خبر٣٩٨٩، أما الأحاديث الواردة **عن النبي(ص)** (شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي) كنز العمال خبر ٣٩٠٥٥، إن صحّت نقول: لا شفاعة من دون إذن الله كقوله (مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ)يونس/٣، ولا غفران للذنوب جميعاً إلاّ بتوبة صادقة، وإنابة سابقة واضحة، **المعنى**: (**قُلْ**) يا مُحَّد من قام مقامه وادّى دوره، من الدعاة لدين الله، الواعين في بلاغهم، يخبر الله تعالى عباده المسرفين (**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ**) **يا عبادي**: بكل رقة وشفافية واستعطاف، يا عبادي تعالوا إلى ضيافة الله الكريمة من رب رحيم، إنها بشرى للبشرية الشاردة عن الله، بشرى ناعمة جذّابة محرّكة لمشاعر الناس، ممن تسامحوا مع أنفسهم وأعرضوا عن ربهم، وصادقوا الشيطان واتّبعوا هوى أنفسهم، وخدعتهم الدنيا بغرورها وأنفسهم بخيانتها، إنها بشرى مشجّعة ورسالة مفتوحة لهم، إنه الله سبحانه أضاف العباد إلى نفسه تكريماً وترغيباً لهم، إضافة رحمة ورعاية وحماية لهم، ليركبوا سفينة

النجاة، ويتعلّقوا بها كقوله (**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**) البقرة/١٩٥، فمن ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق وهوى كقوله (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ) هود/١١٤والذي يستجيب لطلب العودة فهم عباده، والذي يرفض العودة إلى الله فهم عبيد الدنيا وأصدقاء الشيطان، والذي يشملهم قوله(يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ)يس/٣٠ (**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ**)

يا عبادي الذين غفلوا عن مصلحة أنفسهم، وتجاوزوا الحدّ في الاعتداء على إضلال أنفسهم والجناية عليها، بتجاوز حدود الله وارتكاب كبائر الذنوب، **والإسراف**: معنى سلبي واسع الدلالة، وهو خروج عن حدّ التوازن والاعتدال في كل ما يفعله المرء، وهو الإفراط في المعاصي، وتجاوز الحدّ، والحدّ إن كان بعد أمر فلا تتجاوزه، وإن كان بعد النهي فلا تقربه، قال (**أَسْرَفُوا**) ولم يقل (ظلموا أو أجرموا..)**أسرفوا**: عبارة عامة فيها لطف قال(**أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ**) ولم يقل (أسرفوا على الناس) أي ذنوبهم مقيّدة على أنفسهم، ويعود ضررها كلها عليهم وحدهم، ولم يعتدوا على الناس، كما يقول الأب الرحيم لتأديب ابنه: يا بُني لا تظلم نفسك أكثر من هذا (**لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ**) لا تيأسوا من مغفرته وعفوه ولطفه كقوله (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ) الشورى/١٩.

فالقنوط: هو اليأس من رحمة الله، وهو من أعظم المصائب على أهل الكبائر، وقد أمهل الله تعالى عباده–تفضلاً منه ورحمة–إلى وقت الغرغرة واحتضار الموت، فهيّا هيّا أقبلوا على رحمة الله الواسعة، واستظلّوا بظلها وادخلوا في حصنها الحصين (**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**) إنها شحنة من نور الأمل تضيء ظلام هذه النفوس القاسية، التي عاشت ظلمات المعاصي وابتهجت بالذنوب الكبيرة، والابتهاج والتفاخر بالذنوب أقبح من ركوبها، حتّى قست القلوب من كثرة الذنوب، فوقفت هذه النفوس أمام الباب المسدود، فهي في موقف حرج ونفس قلقة، فإن تدارك الذنوب بالتوبة النصوح أفضل بكثير من عذاب القنوط واليأس من رحمة الله، والبقاء في بوتقة معناة العصيان وخسران رحمة الرحمن كقوله (وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) الجن/١٧وقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣، **وفي نهج البلاغة خطبة١١٣**(ما بالكم تفرحون باليسير في الدنيا تدركونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه)! (**إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**) إخبار بأن الله هو(**الْغَفُورُ**)يغفر الذنوب جميعاً كبيرها وصغيرها، لمن تاب منها وندم عليها وأستغفر منها ورجع عنها مهما كثرت، وأن الله(**الرَّحِيمُ**) بعباده وهو يعلم ضعفهم وعجزهم وغفلتهم، ويعلم أن الشيطان زيّن لهم أعمالهم القبيحة فيرونها حسنة، فيمدّ لهم العون والمساعدة، والمغفرة والرحمة، وصفان رقيقان شفافان متلازمان ذاتيان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، **فالمغفرة تصب في الرحمة، والرحمة تصب في**

المغفرة، ورحمته سبقت غضبه، فإذا لم يأتِ المذنب بالتوبة النصوح، فقد أغلق على نفسه أبواب الرحمة الواسعة، والمغفرة الكاسحة الماحية للذنوب.

فائدة: ١-**الفرق بين العفو والمغفرة: العفو**: هو المحو وإزالة ذنبه كقوله (وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ)البقرة/٢٣٧، **وفي مقام المغفرة**: وهي التغطية والستر كقوله (وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) آل عمران/١٣٥، ٢-بعد أن وعد الله سبحانه **(إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) أمر بطلبين**:١-الإنابة إلى الله وأسلموا له كما في الآية٥٤، ٢-اتّباع الأحسن كما في الآية/٥٥، **إذن**: هذا العفو العام مشروط بشروط، ومقيّد بقيود، ٣-**سبب النزول**: نزلت الآية في قوم خافوا أنْ أسلموا أن لا يغفر الله لهم، لكثرة ذنوبهم، كالشرك بالله وقتل النفس والزنى ومعاداة النبي(ص) فأنزل الله هذه الآية، وفرح بها النبي(ص) ورآها الصحابة من أوسع الآيات في مغفرة الذنوب وستر العيوب، **عن الإمام علي**(ع) (ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية) الأمثل١٥/١١٢ **عن أبن عباس**: هذه من أرجى آيات القرآن الكريم، وقوله (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ)الرعد/٦، فالمغفرة علت على الذنب فسترته وغطّته، الذنب الذي كان يستحق عليه العقاب.

٥٤-﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

بعد أن دعا الله سبحانه (المسرفين بالذنوب) إلى رحابه الواسعة بطلب التوبة وعدم القنوط من رحمته، بل وأنيبوا أي ارجعوا إلى ربكم الرحيم، وعودوا إليه، **(وَأَسْلِمُوا لَهُ)** واخضعوا له بقدر ثقتكم به، واعملوا مصالحة معه مخلصين له الدين(وبالإخلاص يكون الخلاص)(**إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**)ولا تتم إلاّ بالتوبة النصوح، في الآية السابقة لمح إليها وهنا صرّح بها وأكّد عليها و(**ربّ تلميح أبلغ من تصريح**)، فإنها الدرع الواقية من غضب الله ومن كل سوء، وباب التوبة مفتوح دائماً ومباشرة، ليس عليه بوّاب يمنع، ولا يحتاج إلى إذن سابق، ولا مراسيم خاصة ولا شفعاء ووسائط! إنها الندم على الذنوب والاستغفار منها، وإصلاح العيوب والتوبة الصادقة وكفى، إنه حساب مباشر بين العبد وربه، فمن أراد الله فليدخل بابه، وهو مفتوح لاستقباله في كل وقت ومكان، ولا حاجب عليه! كقوله (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ)الشورى/٢٥، **المعنى: (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ)يا عبادي**: ارجعوا إلى ربكم الله بقلوبكم، واخضعوا له بجوارحكم ومشاعركم بالإيمان الصادق والعمل الصالح كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)البيّنة/٧، فهو سبحانه القيّوم على مصالحكم إن أردتم أن يغفر لكم جميع ذنوبكم **(وَأَسْلِمُوا لَهُ)** وأخلصوا العمل لوجه الله، وسلّموا واخضعوا وانقطعوا وانقادوا له في ما يريد منكم، أن توحّدوه وتعبدوه وتستقيموا على منهجه، وفيه دعوة إلى الإخلاص كقوله (وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) الأعراف/٢٩، والإخلاص أشرف غاية وأفضل

نهاية، **عن النبي**(ص) (أخلص قلبك يكفك القليل من العمل)البحار١٧٥/٧٣ **(مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ)** هيّا..هيّا الآن قبل فوات الأوان، وقد يأتيكم الموت المقسوم فجأة على غفلة، حينئذٍ لا ناصر لكم إلاّ الإيمان والعمل الصالح.(**ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)** ثم لا ينصركم أحد بشفاعة أو معونة، ولا يدافع أحد منكم عن الآخر كقوله(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ) الانفطار/١٩.

فائدة: ١-قال **(وَأَسْلِمُوا لَهُ)** ولم يقل(وآمنوا له) لأن الآية التي قبلها تكشف أنهم**(أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ)** في ارتكابهم الذنوب، فهم بحاجة إلى مصداق عملي واضح بالتوبة والإنابة، وهو التسليم الصادق لأمر الله عز وجل، ٢-**الفرق بين الإنابة والتوبة: فالمنيب:** يرجع إلى ربه حياءً منه وحباً له وخجلاً منه وشوقاً إليه، **والتائب:** يرجع إلى ربه خوفاً منه ورهبة من عقابه، فتكون الإنابة درجة أعلى وأسمى ومتقدمة على التوبة.

٥٥-﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

(وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم)

أي اتّبعوا القرآن الكريم، فهو أحسن كتاب أنزل إليكم من ربكم كقوله (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ)الزمر/٢٣، كتاب كريم فيه سعادتكم وفلاحكم في الدنيا والآخرة، وهو أحسن ما أُنزل إليكم من الأعمال المعنوية التي فيها غذاء الروح كمحبة الله، والاعتدال بين الخوف والرجاء، ومحبة الخير للناس والنصيحة لهم، ومن الأعمال المفروضة والمستحبة..وغيرها، فإن اتّباع هذه الأوامر يدخل الإنسان في اتّباع الأحسن، والذي يتّبع الأحسن هو الأحسن، عندئذ يدخل في ولاية الله وحصنه الحصين الأمين المنيع، وهي كرامة ومنزلة عالية سامية. وباتّباع الأحسن يعرف الإنسان قدر النعم ويشكر المنعم، ويعرف قدر الأشياء ومقاديرها كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا) الأنفال/٢٩، فيكون اتّباع الأحسن ميزان دقيق وفرقان عميق لكل شيء، وبغير هذا الميزان تتحوّل الحياة إلى معاناة نفسية وكآبة روحية وقلق وأرق كقوله (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ) طه/١٢٤ **ومن الجدير ذكره:** فلا شيء مما أنزل الله أحسن من شيء، بالنسبة إليه تعالى، ولا يوجد في كلام الله تعالى حسن وأحسن، وإنما هو الأحسن في كل الأحوال، فهو الأحسن بذاته والأحسن لغيره والأحسن بفاعليته، والأحسن الذي له القدرة على تمييز الأحسن، من بين الخليط المتنّوع غير المتجانس في الواقع، **وأيضاً مفهوم الأحسن له دلالة عامة في كل قول وفعل** كقوله (فَبَشِّرْ عِبَادِ ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) الزمر/١٧-١٨ وقوله (وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) الإسراء/٥٣، **في غرر الحكم** (الحكمة ضالة كل مؤمن فخذوها ولو من أفواه المنافقين) والحكمة هي الأحسن **ضالة المؤمن:** قصده، هدفه **(مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً)** من

قبل أن يجيئكم الموت الحق (**بَغْتَةً**) فجأة، فهو مفتاح العذاب الأخروي (**وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**) وأنتم غافلون، لا تدرون بمجيئه لتتداركوا وتتأهّبوا، وهذا حث وترغيب على المبادرة للتوبة وانتهاز الفرصة قبل أن تكون غصة. **فائدة**: العذاب (**بَغْتَةً**) لا يفاجئ إلاّ العاصي الغافل الّلاهي، الذي بحاجة إلى هزّة ومباغتة، فهو يعيش ناسياً لله كقوله (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) التوبة/٦٧، من رحمته، وليست في باله الآخرة والمعاد والجزاء.كقوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) العنكبوت/٥٢، **عن النبي(ص)** (الخاسر من غفل عن إصلاح المعاد) تنبيه الخواطر ص٣٥٩، **في غرر الحكم** (من أفنى عمره في غير ما ينجيه فقد أضاع مطلبه)

٥٦ -﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾

هذه الآية جاءت بعد أمرين من الله تعالى١ -قوله (وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)الزمر/٥٤ ، ٢- قوله(وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم)الزمر/٥٥، أي تفعلون ذلك حتى لا تتعرّضوا لمحذور وهو(أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا...)من أهمل الاستعداد للقاء الله فإنه يُسرف في العصيان والطغيان، يشعر غداً بالخسران، وتذهب نفسه حسرات على ما فات، **المعنى**: (**أَن تَقُولَ نَفْسٌ**) منكم يوم القيامة (**يَا حَسْرَتَا**)يا ندامتي في يوم الحسرة كقوله(وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ) مريم/٣٩، إنها حسرات خانقات متتاليات واحدة بعد الأخرى، فقد فاته الإيمان المنقذ ولا يمكن تعويضه فيتحسّر، وكلما رأى الكافر نفسه في عذاب تحسّر، وكلما تذكّر عناده بعدم قبول دين الله تحسّر، وكلما رأى نعيم المؤمنين في الجنة تحسّر..إلخ، **والحسرة**: الغمُ والهم على ما فاته، والندمُ الشديد عليه، والحسرة من أشدّ العذاب النفسي على الإنسان كقوله (لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ) آل عمران/١٥٦ **عن الإمام الباقر**(ع) (وأن أشدَّ الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره) الكافي٢/١٧٦.

(**عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ**)على ما ضيّعت من أمر الله، على ما قصّرت في حق الله وطاعته(**فِي جَنبِ اللَّهِ**)كناية عن طاعة الله، وهو تشبيه بلاغي جميل وجليل لقربك من الله، وهو استعارة بديعة جميلة وجليلة لقربك من مقام الله، فتترك معيّتك للرحمن الرحيم وتتقرب للشيطان اللئيم، فالله دائماً في جانبك وفي رعايتك وأقرب إليك من حبل الوريد، فإيّاك أن تنساه وتتخلّى عنه كقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ) الحشر/١٩، فالمطلوب أن تكون (**فِي جَنبِ اللَّهِ**) في حق الله، وفي قربه وحبّه وجذبه ومعيّته، لتربح عليه ولا اليربح عليك (**وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ**) لم يكتفِ تعدّيه لحدود الله، فتعدّى على حقوق الناس، وسخر من عباد الله الصالحين كقوله (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ) المطففين/٢٩، **عن النبي(ص)**(يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة، حتى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعدَّ الله لأهلها فيها، نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها)! التفسير المختصر ص٥٤١،

عن الإمام الباقر(ع) (وأنّ أشدَّ الناس حسرة يوم القيامة من وصف عدلاً ثم خالفه إلى غيره) الكافي٢/١٧٦.

٥٧- ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

(**أَوْ تَقُولَ**) وتتمنّى لو أن الله (**هَدَانِي**) أرشدني إلى دينه وأراني الطريق المستقيم لاهتديت إلى الحق واطعت الله تعالى! إنه جواب غير معقول فكان عذرهم أشدّ من ذنبهم! لأنهم حمّلوا الله اللائمة، إنهم أساؤوا الأدب مع الله، وهم في أضعف حال! إنهم كانت مصادر الهداية من حولهم وترغّبهم إلى الله، وكانوا يُعرضون عنها كقوله (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) فصلت/١٧، وقوله (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) الصف/٥، **زاغوا:** انحرفوا، والهداية اختيار من دون إجبار كقوله (فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ)يونس/ ١٠٨(والذي لا تنفعه الهداية تضرّه الضلالة) كقوله (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ)النمل/٤، **وفي الخبر:** (ما من أحد من أهل النار يدخل النار حتى يرى مقعده في الجنة، فيقول(**لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**) ثم يتحسّر. روح البيان٨/١٢٩ (**لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**) لكنت من عباد الله الصالحين المتورّعين عن الحرام، وهكذا منطق الجاهل الفاشل يوم القيامة، يبرر خسارته بإلقاء اللائمة على غيره، ويُلقي تبعة تخلّفه على الله أو على الحظ أو على الزمن أو على الناس، وهكذا يكذبون حتى في الآخرة، وهم يواجهون مصيرهم النهائي المأساوي كقوله (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ)الأنعام/١٤٨.

٥٨- ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(**أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ**) أو تقول تلك النفس الفاجرة، حين مشاهدتها أهوال العذاب يوم القيامة (**لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً**) ياليت لي رجعة إلى الدنيا (**فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**) فأكون من عباد الله الصالحين النافعين للناس المطيعين لله، وأحسن سيرتي وعملي، وهيهات أن يرجع ما قد فات كقوله(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا) المؤمنون/٩٩-١٠٠ إنه إسلوب المتقلّب المتلوّن الحائر الخاسر، الذي يبحث عن حيلة للخروج من محنته والتخلّص من عقابه، إنه التحذير الثالث، وإنها آمال كاذبة، وتمنيات جوفاء فلا تصدّقوهم كقوله (**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**)الأنعام/٢٨، وأيضاً إذا انتهت هذه الحياة فلا رجوع بعد الموت إليها كقوله(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ)الدخان/٥٦ (كفى بالموت واعظاً)

٥٩- ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

فيردّ الله عليهم قائلاً: ليس الأمر كما زعمت وادّعيت (**بَلَى**) تبطل ادّعاءاتهم السابقة (لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي) الزمر/٥٧، وتثبت نقيضها(**قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي**) قد جاءتك رسلي وآياتي، جمع آية

وهي العلامات العجيبة والدلالات الغريبة الملفتة للنظر، والمثيرة للانتباه والمحّركة للعقل والبصيرة لتتأثر بها النفس وتتفاعل معها المشاعر والضمائر **(فَكَذَّبْتَ بِهَا)** فأنفت وكذّبت وأعرضت عن الإيمان وقلت إنها ليست من الله **(وَاسْتَكْبَرْتَ)** وتعاليت عن قبول الحق، فترى نفسك أكبر من قدرك، لو عرفت قدرك لما تعدّيت طورك! **والاستكبار**: هو التكبر والإعجاب بالنفس ما ليس له، فيرى نفسه أكبر وأفضل من غيرها، وأعظم التكبر على الله بالامتناع عن قبول الحق، فهو غافل عن عظمة ربه وكبريائه كقوله (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الجاثية/٣٧، كقوله (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا) الأعراف/١٤٦ ، **عن الإمام علي** (ع) (إن من لا ينفعه الحقّ يضرّه الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى تضرّه الضّلالة، ومن لا ينفعه اليقين يضرّه الشّك)البحار٢٩٣/٧٧ **(وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)** وكنت من الجاحدين للقيم والمبادئ والأخلاق، وعليه فأنت المسيء إلى نفسك بنفسك.

فائدة: الكافر أولاً يتكبّر ويتبختر ثم يتحسّر، ثم يحتج بحجج واهية، ثم يتمنّى الرجوع إلى الدنيا، والتمنّي رأس مال المفلسين، وكل من يبتعد عن الله يقترب من الشيطان كقوله (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) الزخرف/٣٦، وفي الآية دلالة على أن العبد حرّ مختار في فعله. **في غرر الحكم**:

(من قام بشرائط الحرية أُهِّل للعتق، ومن قصّر عن أحكام الحرية أُعيد إلى الرق)!

٦٠ - ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

يصوّر السياق القرآني مشهد المكذبين على الله، الذين فاتتهم فرصة التوبة الثمينة، فلم يعودوا إلى الله، فبقوا مع إسرافهم على أنفسهم مغرورين يتبخترون، كقوله (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) فاطر/٨، فإذا هم في ساحة المحشر في ذلك الموقف الرهيب يتحسّرون، وإذا هم **(وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ)** لها دلالة واسعة، فتكون وجوههم بلون قلوبهم، فالقلوب قاسية كاذبة متقلبة متذبذبة مسودّة بسواد الكذب، فتلوّنت وجوههم بلون قلوبهم!، وأيضاً **(وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ)** من كثرة ذنوبهم، مسودّة باسوداد أعمالهم الفاسدة، وجفاف مشاعرهم وخباثة طبائعهم، فهم كذبوا على الناس كثيراً حتى أصبحوا فنّانين في طرح الكذب، فاختلط على الناس الكذب مع الصدق وهذا من أكبر الخيانة، حتى وصلوا إلى الكذب على الله، وهو أشدّ الكذب وأقبحه، كقوله (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)الرحمن/٤١ **المعنى**: **(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ) كذبوا على الله**: أشدّ الأمور على الله، أن يكون العبد ندّاً لله، فيكذّب ويتمرد ويتعالى عليه سبحانه، وهو كل من نسب إلى الله ما ليس له، وكل من صَغّر قدر الله، وعظّم قدر الناس وغالوا فيهم، **(وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ)** فالحق مضيء واضح، فكلما سوّدوا وجه الحق المضيء بالكذب والتكذيب والخداع، سوّد الله وجوههم،

فيكون جزاؤهم من جنس أعمالهم! **(وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ)** من الخزي والكرب العظيم والغم الشديد والخوف المديد والكآبة والذل والهوان، ثم إنه ليس ذمّاً في البشرة السوداء منذ التكوين، وإنما معنى **(وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ)**أي مظلمة، السواد معنوي أو سيماء السواد بما يطلق عليه اعتبارياً كقوله (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ، أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ)عبس/٤٠-٤٢، وقد يكون الوجه أسود الصورة ولكنه أبيض القلب، جميل الطبع، كبير العقل مضيء بعلمه قوي بإيمانه مستقيم في سلوكه **(أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)**استفهام تقريري للتوكيد، أليس في جهنم مقامٌ ومأوىً ومكانٌ مناسبٌ **(لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)**للمترفعين عن الإيمان، والمتعالين عن طاعة الله، والممتنعين عن قبول الموعظة والنصيحة، **والكِبر**: هو تسفيه دين الله ورسله ورسالاته، واحتقار المؤمنين.

عن النبي(ص) (يحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذر يغشاهم الذّل من كل مكان يساقون إلى سجن جهنم)الدر المنثور٧/٢٤٢، وهكذا الذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ! **في غرر الحكم** (المرء حيث يضع نفسه) **عن الإمام علي** (ع) (ألا وإنه من لم يكن له من نفسه واعظ لم يكن له من الله حافظ)البحار٤١/١٣٣، **فائدة: (كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ) لها دلالة عامة، منها:** كل من يتكلّم في دين الله عن جهل وهو يدّعي العلم، ومنه أنواع البدع في الدين، فهو يحلّل ويحرّم من غير علم، ويفتي بغير علم، ومن يتولّ منصباً قيادياً مهماً مؤثراً بلا مؤهّلات وكفاءات، أو يتولَّ التبليغ الإسلامي من غير أهليّة..وغيرها، فقد كذب على الله ورسوله مستغفلاً الأمة، عندئذٍ فلا تطهّره إلاّ جهنم فهي مقامه ومثواه ومأواه.

٦١- ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

هذه الصورة المشجّعة المشرقة المتفائلة المحفزة لمصير المتّقين الصادقين مع الله والنافعين للناس، الصورة المقابلة لهؤلاء الكاذبين وجوههم مسودّة، إنه فريق ناج فائز في حصن الله الحصين، الذين تزوّدوا بخير الزاد **(فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ)** البقرة/١٩٧، **(لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ)** ولا يخالطهم الحزن، وهو فريق المتّقين الذين عاشوا في حذر من الآخرة، والاستعداد لها وفي طمع من رحمة الله، وعبدوا الله بعلم وإيمان وعمل صالح لأنهم وجدوه أهلاً للعبادة، فهم اليوم يجدون النجاة والفوز والأمن والسلامة، **المعنى**: **(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا)**الذين تورّعوا وتساموا عن محارم الله في السر والعلانية، وعبدوا الله بإخلاص في الشدة والرخاء **(بِمَفَازَتِهِمْ)**تلك مفازتهم، فهم ركبوا سفينة النجاة، سفينة التقوى الأمنية الحصينة فكانت هي حصنهم الحصين المتين، الذي يحميهم من كل الطوارئ في كل الأحوال، وهي عدّتهم عند كل نعيم وشدة كقوله(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) الطلاق/٢-٣، **في غرر الحكم (أمنع حصون الدين التقوى) (لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ)** لا ينالهم أي سوء (ما يسوء حال الإنسان) ولا هلع ولا جزع،

فهم دخلوا في حصن عباد الله الصالحين كقوله (فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)القمر/٥٥ **(وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)** على ما فاتهم من مآرب الدنيا، إذ هم قد صاروا إلى ما هو خير منه، حيث تحرسهم عناية الله، وتحفَّ بهم ألطافه، فيكونوا في أمن وأمان واطمئنان في نفوسهم، في ذلك الموقف الرهيب المزلزل في يوم القيامة كقوله **(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ)** الأنبياء/١٠٣، **فائدة:** فلا يفوز الإنسان إلا بالتقوى (من اتّقى الله وقاه) والعمل الصالح كقوله (طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)الرعد/٢٩، وهما العنصر الحضاري النهضوي المتوازن في الأمة، وهما الدافع نحو كل تقدم وتطوّر وإصلاح، هذه هي مبادئ الإسلام، دعوة تقدمية لعمارة الأرض والإنسان، وإصلاح الدنيا والآخرة، والروح والجسد، والأمل والعمل على حدّ سواء.

٦٢-﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) الآية لها دلالة عامة، الله سبحانه خالق المخلوقات جميعاً بشكل مقدّر ومدبّر كقوله(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) الفرقان/٢، إنها الحقيقة التي تصدع بالحق لكل شيء، فكل مخلوق يبتدئ وجوده منه سبحانه، وينتهي إليه وجود الأشياء كلها، ولا يملك أحد أن يدّعي أنه خلق شيئاً ووهب له الحياة، والإنسان عاجز عن خلق خلية مجهرية حية واحدة، وكل ما في الكون من مخلوقات تنطق بالقدرة القادرة القاهرة المبدعة، ولا مكان للصدفة، فكل مخلوق يدلك على الخالق، وكل مصنوع يدلك على الصانع كقوله (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) النمل/٨٨، ومن عرف المخلوق عرف الخالق، **في غرر الحكم** (ومن عرف نفسه فقد عرف ربه) **المعنى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ)** خالق الأشياء جميعاً من خير وشر، وإيمان وكفر، **في الحديث** (خير الشر ما أصاب الأشرار، وشر الخير ما أصابه الأشرار)**!** كقوله (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) الأنفال/٥٥.

عن الإمام الصادق(ع) (إنّ الله احتجّ على الناس بما آتاهم وعرّفهم)الكافي١/١٦٣، وكأن الله سبحانه يقول لكل إنسان عاقل مدرك: منحتك العقل والقدرة والحرية والإرادة، وأوضحت لك طريق الخير والشر بأدلة العقل والوحي، ونهيتك عن السيئات وحذرتك منها، وأحاسبك عليها، وأمرتك بالاستقامة وأثيبك عليها كقوله(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) البلد/١٠فمن عمل بطاعته سبحانه فاز بفضله ومرضاته كقوله **(رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)**البيّنة/٨، ومن عمل بالهوى وحبّ الأنا والضلال واتّبع خطوات الشيطان، فقد ابتعد عن الهدى والاستقامة، ومن اتبع الهوى فقد عمى وهوى وسقط ولو بعد حين كقوله(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) ص/٢٦ **(وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) وكيل:** فيه دلالة على أنه القائم على كل أمر، ومحيط علمه بجميع الأشياء التي خلقها، وكمال قدرته على تدبيرها، وجمال حكمته في خلقها، فهو المهيمن وحده على تدبير الأمور والحافظ لها، فهي محتاجة إليه في

وجودها وبقائها، لا يملك أحد معه من الأمر شيئاً. والله تعالى المتكفّل بمصالح عباده، ومن عرف أن الله الوكيل اكتفى به في كل أمره فلم يعتمد إلاّ عليه، ولكن لا يشغلك كفيل ضامن عن عمل واجب وسعي مفروض، فالله مسبب الأسباب، وعلى الإنسان أن يسعى لتحصيل السبب اللازم والممكن، فإن ذكر(**الوكيل**) يفتح له آفاق الذكر لقضاء الحوائج، ودفع الهموم، ومن عرف أن الله هو الوكيل عليه، فعليه أن يتوكل عليه في كل الأحوال كقوله (**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**) الطلاق/٣، وأن التوكّل على الله لا يتعارض مع الاعتماد على النفس في أداء الأعمال، فإن الله سبحانه قضى أن تكون حرية الإنسان ضمن حدود مشيئته وإرادته سبحانه، ومسؤوليته عن أفعاله في حدود قدرته وحكمته عزوجل، وإنما تحصل إرادة الله من خلال الأسباب الطبيعية التي يسببها الإنسان بسعيه، فاعمل بالاستطاعة الكاملة والجهد المدروس والبقية على الله تعالى.

٦٣ -﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

في الآية السابقة قال (**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**) لأن (**لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) له مقاليد مفاتيح خزائن كل شيء مادي ومعنوي، في السماوات العلى وفي الأرضين السفلى، ولا يتمكن من التصرف فيها غيره كقوله (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) الحجر/٢١، فشبّه الخيرات والبركات كلها بخزائن، واستعار لها لفظ المقاليد بمعنى المفاتيح، للدلالة على طاعتها وتفويض أمرها إليه سبحانه(**مَقَالِيدُ**)كلمة فارسية لكنها دخلت اللغة العربية وتداولت قبل مجيء القرآن، فقد جاء القرآن وقد دخلت اللغة العربية وتداولت بعض الكلمات من لغات أخرى: رومية، فارسية، حبشية.. **عن النبي**(ص) (**مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) (**من مصاديقها**) لا إله إلاّ الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، واستغفر الله الذي لا إله إلاّ هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، يحي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير) تفسير القرطبي٨/٥٧١٩، فمن دعا بها نال خيرها (**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ**) والذين كذّبوا بدلائل قدرته في الآفاق وفي أنفسهم وفي القرآن واستعلوا على الإيمان والإسلام (**أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**) لأنهم آثروا الحياة الدنيا الفانية، وفضّلوا شهواتهم المحرّمة العاجلة المحدودة، على الآخرة الباقية، وحرموا أنفسهم من النعيم الخالد، إنهم خسروا كل شيء وأثمن شيء، خسروا ما به تصلح قلوبهم وأوضاعهم، خسروا في الدنيا نعمة الهدى جمال الإيمان ولذّة العبادة وحلاوة الاستقامة، وخسروا في الآخرة ما هو أهم كقوله (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)الزمر/١٥، **عن السيد المسيح**(ع) (ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه)؟

٦٤ -﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾

دعاهم النبي مُحَمَّد(ص) إلى الإيمان بالله وبرسله ورسالاته، بالحجة والبيان والدليل والبرهان، وهم دعوه إلى الكفر والإلحاد جهلاً وحماقة(**أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ**) مع أن مثل ذلك لا يصدر إلاّ عن جاهل بعواقب الأمور، والجاهل لا يفقه فلسفة الحياة والعقيدة والتوحيد، وجاء سياق الآية على شكل استفهام استنكاري توبيخي، الذي يصرخ به الحق في وجه هذا العرض السخيف، الذي ينبئ عن الجهل المطلق المطبق، أنهم عرضوا على الرسول(ص)أن يشاركهم عبادة أصنامهم، في مقابل أن يعبدوا معه إلهه الله تعالى، وكأن الأمر صفقة يساوم عليها في السوق؟! لذلك جاءت(**تَأْمُرُونِّي**) بنون الوقاية المشدّدة، وبياء المتكلّم الممدودة، أتأمرونني أن أعبد غير الله وهو الحق، كقوله (**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**)يونس/٣٢، **عن الإمام الصادق** (ع) (من دخل في هذا الدين بالرجال أخرجه منه الرجال كما أدخلوه فيه، ومن دخل فيه بالكتاب والسنة زلت الجبال قبل أن يزول) البحار٢/١٠٥.

فائدة:١-(**أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ**)ولم يقل (أيها الأميّون) الجاهل أشد وأعقد من الأمي، الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، ولكنه عندما يطرح عليه الحق بوضوح يقبله ويتعلّق به ويعمل على ضوئه، بينما(الجاهل)يقرأ ويكتب ويتعلّم ولكنه مزاجي الهوى لا يقبل الحق، ويصرّ على عناده وغبائه، وصفهم بالجهل، والجهل يزلُّ القدم ويفسد الأمل، ولا يتأثر بالجاهل إلاّ الجاهل مثله كقوله (إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)هود/٤٦، **في غرر الحكم (الجهل مميت الأحياء ومخلّد الشقاء)**، ٢-من تذوّق حلاوة حبّ الله كقوله(**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**) البقرة/١٦٥، لا يستبدلها بغيرها، وهم يطلبون منه استبدالها، وتذوّق علاقة غيره وحبّ ما دونه، فالالتجاء إلى الله بعبادته الخالصة يقود إلى التوازن والتكامل، والعبادة لا تصلح لشيء سواه، والالتجاء إلى غيره يقود إلى التسافل وهو طريق الجاهلين، وإن كان ظاهره يغرّ ويسرّ ولكن باطنه يضرّ، ولو بعد حين.

٦٥-﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

يصوّر القرآن قاعدة تربوية تحذيرية مذهلة عامة، ويكشف عنها جميع الرسل والرسالات السماوية، قاعدة (**حبط الأعمال**) وأنتم لا تشعرون، وفقدان قيمتها، ومخاطر فعلها وسوء نتائجها، بالحرمان منها والخسران كقوله (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا) الفرقان/٢٣، وأخطر موضوع لحبط الأعمال هو(**الشرك بالله**) الشرك الجلي والخفي كقوله (**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**) لقمان/١٣، فيكون الشرك هو العتبة التي تتكسّر عليها كل وسائل البناء والإصلاح، فالشرك يبطل ثوابه وتسقط قيمته حتى كأنه لم يكن، لذلك الإسلام يقدّم النية قبل العمل، والدوافع على المنافع، فيكون الشرك خسران من كل مكان، خسارة النفس، وخسارة الأعمال، وخسارة المستقبل السعيد، **لأن قاعدة التوحيد الأساسية لكل الرسالات** إذا

اهتزّت أو سقطت، فلن يبقى هناك شيء من الأعمال المرتكزة عليها، إذ لا قيمة لأي عمل صالح بلا إيمان بالله، ولا قيمة للإيمان بالله بدون عمل صالح، لأن أحدهما يكمل الآخر، وهذا معنى الإسلام عبادات ومعاملات، وقول وعمل، بل العمل أكثر من القول، فيكون القول من خلال العمل.

المعنى: (**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ**) أقسم الله وحذّر وأنذر عباده بلسان جميع رسله الكرام (**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**) لئن أشركتم ليبطلن ليفسدنّ ويضيعنّ عملكم النافع، هباءً منثوراً لا يكون له أثر وكأنه لم يكن!(**وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**) **الخسارة**: أن يضيّع رأس المال، وهو خسارة الإيمان في الدنيا والآخرة، **والخاسرين**: الذين لا يحصلون من جهدهم وأعمالهم وتضحياتهم على شيء، بعد فقدانهم لروحه ومعناه كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ) النساء/١١٦، **سُئل الإمام الصادق**(ع)**عن أدنى الشرك**؟فقال (من ابتدع رأياً فأحبّ عليه أو أبغض عليه)الكافي٢/٣٩٧.

فائدة:١-**سؤال**:كيف يكون خطاب الآية للنبي(ص) وإلى الأنبياء السابقين قبله (**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**) وهم جميعاً صفوة البشر وقادتهم وقدوتهم الحسنة كقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/١٢٤، وهم لا يطرق إلى قلوبهم طارق من الشرك الجلي والخفي أبداً، وقد عصمهم الله من الزّلل وسدّدهم بالقول والعمل، ومنه عصمهم من الشرك ومداهنة الكفار، وقد بعثهم الله لإقامة صرح الإيمان ونشر الإسلام وتقوية قواعد التوحيد؟

الجواب: لقد خاطب الله نبيه المصطفى(ص) بكل أوامر القرآن ونواهيه، ومن يستحق غيره أن يخاطب؟ ومن هو مؤهّل للخطاب غيره(ص)؟ الآية وإن نزلت بخصوص السبب، ولكن أريد لها عموم المعنى، وهو كلام وارد على سبيل فرض المحال ليس بمحال، على قاعدة (إيّاك أعني واسمعي يا جارة) وإلا فالرسل الكرام(ع) **قد عصمهم الله بعصمتين**:١-**عصمة ذاتية**، لسموّ معناهم من سموّ ذاتهم، ٢-**عصمة خارجية** عن طريق الإلهام والتسديد بواسطة الوحي، لذلك جيء (**لَئِنْ أَشْرَكْتَ**) بلفظ الماضي على سبيل الفرض والتقدير والتنبيه لغيرهم ليحذروا من مخاطره المريرة. **روي**: يؤتي برجل يوم القيامة فيقال له بم كان اشتغالك؟ فيقول: بقراءة القرآن، فيقال له:كنت تقرأ ليقال فلان قارئ، وقد قيل ذلك، فيؤمر به إلى النار) روح البيان٨/ ١٣٣، يقرأه للجاه والشهرة ولا يقرأه لله تعالى، كقوله (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) الأنعام/٨٨، وللتوسعة في هذا المجال راجع التوبة/٤٣، التوبة/١١٧، يونس/٩٤، المائدة/٤٨.

٦٦-﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾

هذا أمر في الظاهر، وإخبار في الواقع، عن أن الرسول (ص)لا يعبد إلا الله ولا يشكر أحداً سواه من دون الله، وإنما جاء بصيغة الأمر للتنبيه على أن العبادة والشكر يجب أن يكونا لله

الواحد الأحد المستحق لهما، فمن أراد أن يبطل عمله مهما عظم فليشرك بالله، ومن أراد أن يزكى عمله مهما صغر فليعبد الله ويشكره، ومن أراد أن يكون أقوى الناس فليتوكّل على الله، ومن أراد عزّاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان، فليخرج من ذلّ معصية الله إلى عزّ طاعته، ومن أراد الطريق إلى الله فهي مفتوحة ومُيسَّرة، وهي طرق كثيرة بعدد أنفاس البشر(من توجّه إلى وجه واحد يكفيه الوجوه كلها، ومن تحمّل همّاً واحداً يكفيه الهموم كلها)، ومن سعى إلى الله قرّبه إليه ودلّه عليه، ومن بحث عن الله تعالى وجده، **عن الإمام علي** (ع) (من صَبَرَ على الله وَصَلَ إليه)البحار٧١ص٩٥.

المعنى: (**بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ**) ردٌّ لما اقترحوه عليه(ص) من عبادة آلهتهم فقال سبحانه: بئس ما أمروك به، ولكن كن على طريقك الحق، وامض على ما أنت عليه يا مُحَمّد من إخلاص العبادة لله حده، وأن يرتقي الناس بعبادتهم لله وحده، ولا يعبدوا أحداً سواه، فيرون العجائب ويعرفون الحقائق، وتنكشف لهم الأسرار، وينسّقون مع الأقدار، **في غرر الحكم** (في الانفراد لعبادة الله كنوز الأرباح)(**وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ**)لأنعمه الكثيرة الظاهرة والباطنة، المادية والمعنوية، وشكر الله على توفيقه لك كقوله (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)النساء/١١٣، والشكر لله على كل نعمة، الشكر العملي والقولي كقوله (اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا)سبأ/١٣، فبالشكر تدوم النعم وأمان من النقم وعصمة من الفتن، الشكر يعطيك السلامة من آفة العجب والخيلاء، ويعرفك قدر نفسك، ويجعلك تقدّر النعم وتشكر المنعم، ويعينك على الاستقامة على نهجه سبحانه والدعوة إليه، والله يعصمك من الناس كقوله (وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ) النمل/٤٠، **عن الإمام الحسن العسكري**(ع)(لا يعرف النعمة إلاّ الشاكر، ولا يشكر النعمة إلاّ العارف) البحار٧٨/٣٧٨.

٦٧ -﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

الذي يعرف قيمة أي شيء فيعطيه قيمته وحقّه على قدر معرفته به، وكلما ازدادت المعرفة ازداد التقدير (**وبالعكس**) وهؤلاء المشركون لا يعرفون مقام وحدانية الله وهيبته، ولا يدركون عظمته وقدرته وقوته كقوله (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)الأنعام/١٨ **المعنى**:(**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**) تكشف الآية لهم جانب من عظمة الله تعالى وقوّته وقدرته، على طريقة التصوير القرآنية البديعة المحرّكة للمشاعر، التي تقرّب للبشر الحقائق الكلية الدقيقة في صورة جزئية تتناسب مع عقولهم، لكي يتصّورها إدراك البشر المحدود، وتقريب الحقائق إلى ذهنهم(**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**) وما أطاعوه حق طاعته، وما شكروه كما يستحق الشكر، وما نزّهوه عما لا يليق به، **عن الإمام علي**(ع) (كيف يصف الخالق من يعجز عن وصف المخلوق)؟ وهكذا (الذي لا

يعرف قدره يتعدّى طوره)(**وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) أخبر سبحانه عن كمال قدرته، فذكر أن الأرض كلها على سعتها ومن عليها في قبضته وتحت سيطرته الكاملة في كل وقت، ولكن ستظهر هذه السيطرة للجميع يوم القيامة ولا يتصرف فيها سواه، وهي على ضخامتها في قدرته سبحانه كالشيء الصغير الذي يقبض عليه القابض بكفّه! كناية تشبيهية جميلة عن سهولة التصرّف ودقة التدبير والتقدير في الكون والكائنات، ولن يفلت منه شيء، ولا يغيب عنه شيء، كقوله (يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) الفتح/١٠، والمسألة ليست بالضرورة وجود قبضة مادية، وإنما قبضة معنوية محكمة، لأنه سبحانه (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١، وهو سبحانه ليس بجسم مادي وليس له مثيل ولا شبيه كقوله (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)النور/٣٥، كقوله (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ) الرعد/٣٣، وقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤، وقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠.

عن النبي (ص) (أفضل الإيمان، أن تعلم أن الله معك حيث ما كنت) كنز العمال خبر٦٦ ولا مؤثّر في الوجود إلاّ الله تعالى خالق الوجود (**وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**) يطويها بقوّته وقدرته كقوله (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ)الأنبياء/١٠٤، ويسيطر عليها بهيبته، كما يطوي الواحد منّا الشيء المقدور له طيّه بيمينه، وتعبير الآية فيه دلالة عن المبالغة في الاقتدار، فشبّه القرآن عظمة الله وكمال قدرته، وحقارة الأجرام السماوية العظام، التي تتحيّر فيها الأوهام، بالنسبة لقدرة الله تعالى وعظمته، بمن قبض شيئاً عظيماً بكفه، فيكون كجناح بعوضة أو أقل منها!كقوله (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا)النساء/٤٧ وإلاّ فهو سبحانه أكبر من أن يقاس، وأعظم من أن تدركه العقول والحواس، فتعجز عن وصفه كلمات الواصفين، **عن النبي(ص)** (لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)(**سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ**) تنزّه الله وتعالى عن أي نقص أو عجز وعن مشابهة خلقه، (**عَمَّا يُشْرِكُونَ**) عما يصفونه مما لا يليق بقدرته العظيمة وبساحته المقدسة، فإن صفاته عز وجل فوق التصوّر والتخيّل والأوهام، وإنها لا تعرف إلاّ بالتفكّر بالآثار المخلوقة البارزة للعيان، وبالآثار المعنوية المخفية عن الحواس كقوله (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) فصلت/٥٣، **عن الإمام الصادق(ع)** (أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وقدرته) الكافي٢/٥٥.

٦٨ -﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾

إنه مشهد انتقالي مفصلي ضخم حاسم من مشاهد يوم القيامة، وإرهاصاتها الرهيبة ومخاضاتها العسيرة، يبيّن الله سبحانه ما يكون بعد قبض الأرض وطي السماء كما في الآية السابقة، إنه النفخ في الصور كناية تشبيهية عن الصيحة كقوله (يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ

ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ)ق/٤٢، وقيل: إنّ النفخ تشبيه بنفخ الريح الرهيب المزلزل للنفوس **يتكرر ثلاث مرات**:١-نفخة الفزع الأكبر كقوله (وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ)النمل/٨٧ ، ٢-النفخة الثانية نفخة الموت الأكبر، وإليها أشارت هذه الآية، ٣-النفخة الثالثة نفخة البعث والنشور بعد الموت وإن كانوا عظاماً ورفاتاً، للجزاء والحساب كقوله (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ) **المعنى**:(**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ**) النفخة لا تميت ولا تحي، ولكنها مقدمة لما بعدها، إيذان لمن بيده الأمر أن يبدأ عمله، والنفخة كناية عن الوسيلة الهائلة التي تطلق الصوت المذهل الذي يهزّ الواقع والنفوس هزاً عنيفاً بشكل مثير ومزلزل. **الصّور**: وسيلة تشبيه بالقرن أو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل(ع) أحد الملائكة المقرّبين الأمناء، وأحد حملة عرش الرحمن.

فصعق:فخرَّ ميّتاً كل ذي روح من في السماوات والأرض من شدة تلك الصيحة، **والصعق**: حالة مرعبة تأخذ بالألباب، وهزّة شديدة مزلزلة من الفزع تشل حركة الكائن الحي، فيغمى عليه ويفقد الوعي ويخرَّ ميّتاً (**إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ**)-من الآيات المتشابهة- إلاّ من استثناهم الله تعالى فلا تقع عليهم هذه الصعقة فلا يموتون، كقوله (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ)الأنبياء/١٠٣، والصعق أشدَّ من الفزع، ويشمل هذا الاستثناء حملة العرش وخزنة الجنة والنار، ومنهم النفس (**الروح**) الإنسانية، هي من الملأ الأعلى، وهي لا تموت إذا مات الجسد، بل تلحق بعالمها العلوي وتأخذ مكانها فيه، فتكون روح الإنسان لها صلة بالسماء، وجسده عند الموت يرجع إلى أصله من عالم التراب، فيشمل هذا الاستثناء المصطفين من عباد الله الصالحين، وهم أرواح الأنبياء والأوصياء والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله كقوله (أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) آل عمران/١٦٩، وهكذا تنتقل الحياة الدنيا نقلة نوعية سريعة مفاجئة كاملة نحو عالم آخر، مختلف عن عالمنا الدنيوي المادي المحدود كقوله (**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**) القصص/٨٨ **في نهج البلاغة** (وينفخ في الصّور فتزهق كل مهجة، وتبكم كل لهجة، ولا شفيع يشفع ولا حميم يدفع ولا معذرة تنفع) (**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى**) وهي نفخة الإحياء للبعث والنشور، وهي صرخة يوم القيامة تهزّ الأموات هزاً من قبورهم، فتبعث فيهم الحياة من جديد في عالم جديد، في نظام جديد ومديد (ولا عيش إلا عيش الآخرة)(**فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ**)فإذا هم فجأة قائمون من قبورهم، يقلّبون أبصارهم كالذي بهت، ينتظرون نصيبهم وماذا يفعل الله بهم، وينظرون من حولهم متحيّرين، وكأنهم يولدون جميعاً من جديد، بتركيب جديد غير قابل للموت، وهم على صورتهم وهيئتهم الكاملة في الدنيا، ولو رأيت من تعرفهم لقلت هذا فلان.فسبحان من ردّ الأرواح إلى أجسادها بنفخة واحدة، والذي لا يعرف لماذا يموت لا يعرف لماذا يحيى، والذي

يحب الحياة ويكره الموت فإنه يعيش أنصاف الحياة، والذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ!

٦٩ - ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

تصوّر الآية الكريمة من أحوال يوم القيامة أن تضاء أرض المحشر، عندما يجتمع بها الأوّلون والآخرون، تضاء بالحق والعدل والإحسان، فإذا هي طاهرة بيضاء مشرقة بحكم الله العادل، فشبّه الحق والعدل والإحسان بالنور المضيء المشرق، لإظهار الحقوق كاملة، المعروفة والخفيّة على الناس، **المعنى**:

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ) لها دلالة عامة: إشرقت إشراقاً معنوياً شاملاً مضيئاً، إشراقاً لأرض ساحة المحشر التي يتم فيها استعراض الناس وحشرهم وتهيئتهم للحساب، إشراقاً نموذجياً مميّزاً لا بواسطة الشمس التي كانت تشرق لتنوير الأرض بضيائها المشع في دنيا الأسباب كقوله (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) التكوير/١، وإنما هي دار وأرض أخرى امتنعت فيها الأسباب في عالم الدنيا، عالم آخر مميّز بذاته، له خصائصه الخاصة كقوله (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ) إبراهيم/٤٨، نلاحظ التعبير البلاغي للآية، فالأرض هي التي تشرق بذاتها، ويكون النور مضيئاً ذاتياً منها (**بِنُورِ رَبِّهَا**) الذي لا نور غيره في هذا الوجود الجديد، ودون أن نرى مصدر النور وكأن خالقها من ماس مضيء ذاتياً (**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**)أضاءت الأرض بعدل ربها، وضياء حقّه والمظهر لحقوق المظلومين في جمال حكمه وقضائه، وجلال رحمته الواسعة التي تزيّن المقام وتشرح النفوس بكماله الأخّاذ النفّاذ، كما يتجلى الله تعالى لفصل القضاء، لأن الله وحده يملك الأمر كله كقوله (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)الرعد/٤١ وقوله (وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا) الكهف/٢٦، ويشرق الله سبحانه بنوره على الجميع فإذا هم جميعاً بضياء نوره خاشعون خاضعون، كما أن بالنور تزيّن الأمكنة المهمة المظلمة، وبنور ربها انفتحت كل الآفاق أمام الناظرين، فلا حاجب يمنع الرؤية وانكشاف الغطاء الذي يحجب، وظهور الأشياء الواقعة كلها على حقيقتها، وبروز الأعمال كلها من حق أو باطل لكل الناظرين في ساحة المحشر كقوله (**لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**)ق/٢٢

(**وَوُضِعَ الْكِتَابُ**) احضرت كتّاب الأعمال لكل الخلائق للحساب والجزاء، توضع في أيادي أهلها ليروا حقيقة أعمالهم، محفوظة على شكل شريط مسجّل مجسّم، على كاميرة خفية، مصوّر بدقة، ذي ثلاثة أبعاد بالصورة والصوت والنية، بلا تمثيل ولا مبالغة، سواء أكان كتاب الفرد أم كتاب الأمة، ليكون هو الأساس في اتّخاذ النتائج كقوله (إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)الجاثية/٢٩ وقوله (مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)الكهف/٤٩ وقوله (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) الإسراء/١٤ (**وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ**) ليقولوا كلمة

الحق الفاصلة، ليسألوا عن تبليغ رسالتهم للأمة، وإلزام الحجة عليهم، وما هو موقف الأمة منهم؟ ليحضروا مجلس القضاء لمحاسبة قومهم ويكونوا شهداء أمناء على أممهم كقوله (يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)الإسراء/٧١، وبهذا الموقف الحاسم يُطوى كل خصام، وينتهي كل جدال، في هذا المشهد مع كل جلال وخشوع وخضوع الذي يسود الموقف.

(**وَالشُّهَدَاءِ**) هم الشهود والحضور في يوم القيامة متعدّدون: الأنبياء، الأئمة، الملائكة، أعضاء الجسم، الأرض والمكان والزمان..إلخ، إحضار الشهود لأجل إتمام إشراق العدل، في القضاء بالدلائل والبراهين الكلّية، وقد تكررت حقيقة الشهداء في القرآن لأهميتها الكبرى في فصل القضاء كقوله (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا) النساء/٤١ (**وَالشُّهَدَاءِ**) وجيء بشهداء الأعمال الأمناء العامّين، والحفظة الكرام الكاتبين من الملائكة كقوله (لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)التحريم/٦، الموكّلين بحفظ ما يكون من أعمالهم، ليشهد على صحة دعوى الأنبياء وتكذيب أممهم لهم أو(**وَالشُّهَدَاءِ**) الذين قتلوا في سبيل الله ونصرة الحق والحقوق، لمزيد شرفهم وعلو منزلتهم وتكريم الله لهم، فقدّموا حياتهم في سبيل الله، فأصبحوا أحياء كرماء عند ربهم يرزقون كقوله (وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ)الحديد/١٩.

و(**وَالشُّهَدَاءِ**) هم نوّاب الأنبياء(ع) في تبليغ البيان الرسالي، فيشهد النبي على نائبه أنه أخذ العلم منه ليعمل به ويبلّغه إلى الناس، ثم يشهد العلماء العاملون (خلفاء الرسل وورثة الأنبياء) بدورهم ومسؤليتهم أنهم علموا وعملوا وبلّغوا، ثم تشهد أعضاء الإنسان كقوله (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)النور/٢٤(**وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ**) يفصل بينهم بالعدل والأحسان، لا يحاسبون بأكثر مما عملوا، فلا زيادة ولا نقصان (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)الحج/١٠، فيكون الإنسان المناسب في المكان المناسب (**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**) بالقضاء بنقص من حسناتهم ولا بزيادة على سيئاتهم كقوله (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) الأنبياء/٤٧، **فائدة: (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا)** من مصداق الآية، أن تشرق الأرض كلّها بنور الإسلام، دين الله القيم كقوله (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)التوبة/٣٣ وذلك عند ظهور الإمام الحجة المنتظر(ع) كقوله (**أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**)الأنبياء/١٠٥، **عن الإمام الصادق**(ع)(إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربها)الأمثل١٥/١٤٧.

٧٠-﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

(**وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ**) واستوفت كل نفس حقّها، وأجزيت بما عملت من خير وشر، في السرّ والعلانية، صغير أعمالها وكبيرها، مع الرحمة والإحسان، واستيفاء الحقوق كاملة لكل

نفس بدقة متناهية لا يقدر عليه إلاّ الله كقوله (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ)الحج/٥٦ (**وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ**) والله سبحانه أعلم بما عمل كل إنسان، ولا حاجة به إلى كتاب ولا حافظ ولا شاهد، فلا يفوته شيء من أعمالهم، لأن الله يعلم بكل شيء، وحافظ لكل شيء كقوله (فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)طه/٧، ليرى الناس بأعينهم ما صدر منهم، ليحاكموا أنفسهم بأنفسهم، ليشهدوا عدل الله المطلق، وإنما يدعو الكتب والأنبياء والشهداء والأعضاء إلزاماً للحجة عليهم كقوله(وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)آل عمران/٢٥.

٧١-﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(**وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ**) **وسيق**: من السوق وهو الحث على السير، للذين كفروا بالله وبنعمه، واعتدوا على الناس، ونهبوا أقوات المستضعفين، وكذّبوا بالقيم والمبادئ والأخلاق.. هؤلاء يساقون ويسحبون بعنف وترهيب وإزعاج مع الإهانة والاحتقار، ودفعهم إلى مصيرهم المشؤوم بسرعة ليعجّلوا لهم العذاب، ويضربون بالسياط الموجعة من زبانية جهنم الغلاظ الشداد كقوله (فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ)محمد/٢٧، وقوله (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا) الطور/١٣، أي يدفعون إليها دفعاً، لامتناعهم من دخولها، كما يساق المجرمون إلى الحبس كقوله (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)النحل/٣٣ أما سوق المؤمنين الصالحين بلطف ورقّة وترغيب وتشويق، وتسرع بهم ملائكة الرحمة إلى مقامهم الجليل وموقعهم الجميل المتناسب معهم، مع التعظيم والتكريم (**زُمَرًا**) جمع زمرة، وهي الجماعة بعد الجماعة ويتقدمهم زعيمهم كقوله (ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا)مريم/٦٩، الجماعة المصنّفة والمبرمجة كل صنف مخالف لمنهج الله في شيء يتناسب مع صنفه وينجذب إليه ويكوّن جماعة (وشبيه الشيء منجذب إليه، والطيّور على أشكالها تقع) جماعة ترك الصلاة، وجماعة الزناة، وجماعة القتلة، وجماعة المعتدين على حقوق الناس، وجماعة المجرمين..إلخ، كقوله (ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا) العنكبوت/٢٥ (**حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا**) ووصلوا بالقرب منها، تُفتح أبواب جهنم السبعة كقوله (لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ)الحجر/٤٤، تفتح فجأة لأجلهم، لأنها تعرفهم بسيماهم حق المعرفة، وكأنها كائنة حية مميزة واعية تترصد أصحابها بدقة، كقوله (يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ)ق/٣٠، تفتح لأجلهم عند وصول هؤلاء الكفرة إليها ثم تغلق عليهم كقوله (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ، فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) الهمزة/٨-٩(**وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا**) وسألهم الموكّلون على جهنم، توبيخاً وتقريعاً لهم زيادة في إيلامهم النفسي: ماذا فعلتم بأنفسكم؟! كقوله(كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ)

الملك/٨ (**أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ**) رسلٌ هداه تقاة وهم بشر مثلكم تفهمون ما يقولون، وتعرفونهم حق المعرفة بالكفاءة والعلم والأمانة والاستقامة **في ذلك دلالة**: على أنه لا يجوز القصاص قبل الجناية كقوله (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) الإسراء/١٥.

(**يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ**) يتلون عليكم ما يريد الله منكم في كتبه السماوية المنزلة بواسطة رسله الأمينة (**وَيُنذِرُونَكُمْ**) ويحذرونكم ويخوّفونكم (**لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا**) من عذاب هذا اليوم العصيب الحاسم؟ (**قَالُوا بَلَىٰ**) نعم، قد جاؤونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين فهو اعتراف وإقرار، ولكننا كذبناهم وحاربناهم، يصوّر القرآن موقفهم هذا موقف إذعان وتسليم لا موقف مخاصمة ولا مجادلة، وهم في حالة خضوع للأمر الواقع، والوقوف أمام الباب المسدود! إنه إسلوب تربوي إيحائي مؤثّر في المشاعر ومحرّك للضمائر بقيام الحجة (**وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ**) ولكن وجب العقاب من الله على من جحدَ برسل الله ورسالاته، وندموا و(أشّد الندامة في يوم القيامة) ندموا حيث لا ينفع الندم. **وفيها إشارة**: أن العاقل الرشيد يحذر ولا يسلك أي طريق لا يعرف عاقبته، لا يسلك إلاّ على بيّنة وعلم ومعرفة، كقوله(وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا)الإسراء/٨٠.

٧٢- ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

(**قِيلَ**) إبهام القائل لتهويل ما يقول(**ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا**) ادخلوا مرصد جهنم، مرصد المستكبرين، ادخلوا من أي باب شئتم من أبوابها السبعة، ويساقون إليها زمراً أي جماعات جماعات مصنّفة، كل زمرة وجماعة تدخل من الباب المخصص لها والمتناسب مع عملها، عقاباً مؤبداً لكم بلا زوال ولا انتقال كقوله (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا)النبأ/٢١، **مرصاداً**: من الرصد، وهو مكان المراقبة الخفيّة لرصد الكافرين، إنّ جهنّم وَجِدّتْ لاستقبالهم، وكأنما كانوا في رحلة في الأرض فأفسدوا فيها، ثم رجعوا إلى مأواهم الأخير للإقامة الطويلة (**فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**)فبئس مأوى ومنزل المتكبرين على آيات الله، المترفعين عن الإيمان بالله، المتعالين على رسالاته، المتمردين على الحق والعدل والخير، فبئس الحال وبئس المآل، ما تكبّر إلاّ وضيع سافل لذلّة يجدها في نفسه، والكبرياء يليق بالله وحده كقوله (وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الجاثية/٣٧، **عن الإمام الباقر**(ع)(الكبر رداء الله، والمتكبر ينازع الله رداءه)البحار٢١٤/٧٣. **فائدة**: قال(**ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ**) ولم يقل(ادخلوا جهنم) إشارة إلى أن أبواب جهنم قطعة من جهنم، تستقبلهم جهنم من أول أبوابها فهم في جهنم فعلاً!

٧٣- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾

(وَسِيقَ) وذكر السوق إلى الجنة على وجه المقابلة، لبيان الفارق الكبير بين حال السوقين وبين المنزلتين، فإن سموّ السوق من سموّ معناه ومغزاه ودلالاته **(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)**حثّوهم على المسير بالترغيب إليه، سوق الكرام وباحترام وإكبار وإعزاز، وعلى مراكب خاصة سريعة، وعلى شكل وفود محترمون، وجماعات مميّزون مكرّمون، كما يفعل بمن يكرّم من الوافدين الدوبلوماسيين على بعض الملوك، **وشتّان ما بين السوقين،** من الذي يستحق هذا التكريم هم**(الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ)**(ومن اتّقى الله وقاه) وهم الذين توقّوا وامتنعوا من معاصي الله، والتزموا بمنهجه المستقيم في كل الأحوال في الشدة والرخاء **(إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا)** حثّوهم على المسير بالترحيب إلى مقرهم الأبدي الذي هيئه الله لهم ليعجّل لهم النعيم **(زُمَرًا)** جماعات مصنّفة، جماعة بعد جماعة، فرحين مستبشرين، متفاوتين بحسب تفاوت مراتبهم في الفضل والعطاء وعلو المنزلة، كل جماعة منهم مع من يماثلهم، ليكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب كقوله(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا) مريم/٨٥، فيكون الأنبياء مع الأنبياء، والأوصياء مع الأوصياء، والعلماء مع العلماء، والشهداء مع الشهداء..إلخ.

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا)حتى إذا وصلوا إليها **(وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا)** لهم قبل وصولهم إليها، فتح الكرام والاحترام استعداداً لاستقبالهم، كما تفتح الخدم باب القصر للضيف العزيز قبل قدومه، وتقف منتظرة حضوره كقوله(جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ)ص/٥٠، والحكمة في البلاغة القرآنية في زيادة الواو لأهل الجنة.

(وَفُتِحَتْ) دون التي قبلها من أهل جهنم، إنّ أبواب السجون تكون مغلقة إلى أن يجيئها أصحاب الجرائم، فتفتح أبوابها عند وصولهم إليها ثم تغلق عليهم، بخلاف أبواب الجنة ذات الأمل والسرور، فإنها تفتح قبل وصلهم إليها انتظاراً لمن يدخلها من الأكفّاء، والكفاءة تعرف من سيماء وجوههم ضاحكة مستبشرة، فناسب دخول الواو هنا دون قبلها **(وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا)** الموكّلين بهم من الملائكة الكرام مستقبلين لهم ومهنئين ومرحبين بهم**(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ)** سلام من الله عليكم، بشارة بالسلامة من جميع المكاره، وأمان من كل سوء، ومن كل آفة **(طِبْتُمْ)** وجاءت بعد السلام للترحيب بصفتهم المميّزة، واستقبالهم الطيب، والحفاوة البالغة والسناء المعطّر **(طِبْتُمْ)**وطاب لكم المقام والإقامة، وطابت قلوبكم بمحبة الله، وطابت ألسنتكم بذكره، وطابت مشاعركم بطاعته **(طِبْتُمْ)** وتطهّرت أنفسكم من العيوب، وتساميتم عن الذنوب، فكنتم طيّبين، وجئتم طيّبين، وعملتم الطيّب فجزاؤكم الطيب، فما يكون في هذا المقام إلاّ الطيّب، وما يدخلها إلاّ الطيّبون، قيل: (إنهم يردون على عين من الماء، فيغتسلون بها ويشربون منها، فيُطهّر الله أجوافهم فلا يكون بعد ذلك منهم حدث وأذى ولا تتغيّر ألوانهم) مجمع البيان٨/٤٦٤ كقوله (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ) الأعراف/٤٣ **(فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)**

مؤبّدين في نعيمها، للدلالة على أن لهم من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف والبيان كقوله (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا) مريم/٦٣، **عن النبي(ص)**(كلكم يدخل الجنة إلاّ من أبى، قالوا ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)!البخاري،٦٨٥١، **في غرر الحكم** (من باع نفسه بغير نعيم الجنة فقد ظلمها).

فائدة: جواب (إِذَا جَاءُوهَا) محذوف للدلالة على أن لهم من الكرامة والتعظيم ما لا يحيط به الوصف ولا تشرحه العبارات!

٧٤-﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾

لما رأى المتّقون نعيم الجنة عند أول دخولهم إليها، دهشوا وفرحوا وشكروا الله أنها مستقرّهم الدائم، وتذكّروا ما قرأوه وسمعوه في الدنيا في القرآن الكريم من آيات الجنة وقصورها وأنهارها وثمارها وحورها وأمنها وأمانها واطمئنانها، وهنا عاينوا أكثر مما سمعوا كقوله (**وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ**) الأعراف/٤٣ **في نهج البلاغة حكم١١٤** (كل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه، فليكفكم من العيان السماع ومن الغيب الخبر) والذي يحمد الله في الآخرة هو الذي كان يحمد الله في الدنيا، وكل من يدخل الجنة ينال درجة من الكمال، وهو الذي كان يطمح في الدنيا طالباً سلّم التكامل الإنساني النسبي، وهكذا تكون النتيجة على ضوء المقدمة كقوله (مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ)الروم/٤٤ (**وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ**) وملّكنا أرض الجنة (**نَتَبَوَّأُ**) نتصرّف فيها تصرّف الوارث في ما يرث، وتصرّف المالك في ملكه، وننزل ونسكن فيها حيث نشاء، مع كامل السعادة والأمان، هذه هي الأرض التي تستحق أن تورث، وينالون من نعيمها الذي يريدون (**نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ**) وكأن التبوّؤ كلمة بلاغية واسعة، الدلالة في امتداد معناها، وهي المكان الملائم الحسن الخلّاب القابل للاتّساع، دليل على أن الجنة واسعة وأماكنها متنوّعة، فيجلس حيث يشاء في جنته الخاصة به بامتياز كقوله (وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) يوسف/٥٦ (**حَيْثُ نَشَاءُ**) وهذا ما يؤكّد معنى التّبوؤ وسعة معناها، وهنا إشارة أخرى إلى كثرة نعيمهم وسعة أماكنهم وتعدد قصورهم ومنازلهم (**فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**)فنعم الجزاء على كرم الله لهؤلاء المتّقين، المحسنين العاملين لله والنافعين للناس.كقوله(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)البيّنة/٧، **في نهج البلاغة** (حفّت الملائكة بأهل الجنة، وتنزّلت عليهم السكينة، وأعدّت مقامات الكرامات في مقام اطّلع الله عليهم فيه، فرضيَ سعيهم وحمد مقامهم)

٧٥-﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ)ترى يا مُحَمَّد، ومن يشهد موقف القيامة **(الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ)** محدقين، محيطين يطوفون **(حَوْلِ الْعَرْشِ)** هو المقام المركزي المعنوي الفاعل الكريم الذي تصدر منه الأوامر الإلهية، التي يدبر بها العالم المخلوق كقوله (قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) آل عمران/١٥٤، **والعرش**: كناية تشبيهية، واستعارة بلاغية في بيان السيطرة التامة والشاملة على كل الكائنات، وتحيط بالعرش الملائكة، وهم في حمد الله وذكره وتنفيذ أوامره عزوجل **(يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ)** ليس لهم عمل إلاّ تسبيح الله وحمده وتمجيده وذكره تلذّذاً لا تعبّداً، إذ ليس في الآخرة تكليف! فهم يتنفّسون التسبيح والتحميد والثناء، ويتفاعلون مع طاعة الله تلقائياً وبرغبة من دون تكلّف، كما نتنفس الهواء تلقائياً من دون تكلّف، وكل هذه التسبيحات على سبيل التشريف والاستئناس والمحبة والرغبة، وليس على وجه العبادة الواجبة، **وهنا يشتركون بتسبيحهم الخاص مع تسبيح جميع الكائنات العامة الأخرى**، فيكونون جميعاً في وحدة واحدة موحّدة متّحدة، وفي هذه الأجواء المتألقة الخاشعة، يعطي المشهد العبادي المتحرّك العام روعةً وجمالاً وكمالاً وجلالاً كقوله (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) الإسراء/٤٤**(وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ)** وقضى الله بين الخلق **(بِالْحَقِّ)** والعدل والإحسان الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، فأدخل بعضهم النار وبعضهم الجنة كل باستحقاقه، فيكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب كقوله (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى)النجم/٣١**(وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** **(وَقِيلَ)** لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه، فدلّ على أن جميع المخلوقات شهدت لله بالحمد في حكمه وعدله وقضائه، حمد فضل وإحسان، وحمد ذي الجلال والإكرام، الحمد للذي لم يفعل ولا يفعل إلاّ الجميل، وعند انتهاء المحكمة الإلهية من مهمتها الكبرى في القضاء بين الناس بالحق**(وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** فإن الله عز وجل ابتدأ خلق كافة المخلوقات بالحمد، وختم حكمه بينهم بالحمد، ليتشبّه المؤمن بأخلاق الله، فيبتدئ كل أمر ومناسبة وكلمة وانتهائها بالحمد لله كقوله (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)يونس/١٠.

وفي الختام نقول:

قوله تعالى(إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا)الإنسان/٢٩

تم بعون الله تعالى**(وَعْيُ الْقُرآنِ الْمُيسَّر)**لسورة الزمر، وكانت كتابتها بقدري لا بقدرها، بجهد متواصل، فللّه الحمد والمنّة، وبالحمد تتم الصالحات، وتزداد البركات، وتدفع النقمات بتاريخ ٢٠١٩/١٢/٢٨م الموافق٢٥/ذي القعدة/١٤٤٠هـ، في العراق، الكاظمية، داعين الله سبحانه أن يعيننا على تكملة بقية السّور القرآنية، إنه سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث:مكي قاسم البغدادي

ترتيبها ٤٠ سُورَةُ غَافِرٍ آياتها ٨٥

من مقاصد السورة:

مكية، تُعنى بأمور العقيدة كسائر السّور المكية، وموضوعها البارز صراع الخير والشر، والمعركة بين الهدى والضلال، والحق والباطل، لهذا جاء جوّ السورة مشحوناً بطابع العنف والشدة، ثم تسفر عن مصارع الطغاة المأساوية، ابتدأت السورة بصفات الله الحسنى، ثم عرضت صورة مجادلة الكافرين والمعاندين، ومصارع المجرمين، وتحدّثت السورة عن بعض مشاهد الآخرة وأهوالها، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد تنخلع لشدة الهول في ذلك اليوم العصيب الرهيب، **ثم عرضت قصة موسى(ع)** مع فرعون الطاغية، **وظهور رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه، يصدع كلامه بالإيمان** والدفاع العلمي والمنطقي عن موسى في تلطّف وحذر، ثم في صراحة ووضوح، ثم تعرض السورة بعض المشاهد من عظمة الله، وتضرب مثلاً للمؤمن والكافر بالبصير والأعمى. وتختم السورة بالحديث عن مصارع المكذبين وهم في غفلتهم يعمهون، **سمّيت (سورة غافر (المؤمن))** لأن مطلعها(غافر الذنب)وغافر من أسماء الله الحسنى، وتسمى سورة المؤمن لذكر قصة مؤمن آل فرعون. **فضلها: عن النبي(ص) (الحواميم ديباج القرآن)** الدر المنثور٦٩/٧، أو **ريحان القرآن**، عن ابن عباس: (لكل شيء لُباب، ولُباب القرآن الحواميم) مجمع البيان٤٦٥/٨، قال النبي (ص) يوم أحد، ليكن شعاركم (حم لا ينصرون) أي بحماية الله للمؤمنين والعناية بهم ينصرون، فلا ينتصر أعداءهم. روح البيان١٤٩/٨، **ملاحظة:** هذا الفضل بشرطه وشروطه، والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١-﴿**حم**﴾

تقرأ حا، ميم من الأحرف المقطّعة (من الآيات المتشابهة) وتقدم في أول سورة البقرة عن الحروف المقطّعة، هذه بداية الحواميم من سبع سوّر قرآنية، متسلسلة في المصحف الشريف وهي: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف. **(حم)** إشارة إلى إعجاز القرآن، حيث إنه مؤلّف من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها الناس، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه في الفصاحة والبلاغة والعلوم المتنوعة والمقاصد المتألقة الفريدة.

٢-﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

إنّ هذا القرآن منهج حياة متكامل لسعادة البشرية جمعاء(**الْكِتَابِ**) الكامل بذاته والمكمّل لغيره (**الكِتَابِ**) منزل من الله الكامل المطلق، لذلك جاءت إيقاعات القرآن قوية التركيب، متينة البلاغة، دقيقة المباني، عميقة المعاني، واسعة الدلالات **المعنى: (تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ)**هذا القرآن الحقيقة الكبرى، والحجة العظمى البالغة، منزل من الله من عليائه لا من الناس،كقوله (أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) النساء/١٦٦، فهو مصدر رئيس لبناء العقيدة الصحيحة، وسبيل هداية ودراية إلى فوز الإنسان ونجاته (**تَنزِيلُ**) نزل تفيد العلو، أي نزل من عالٍ إلى أدنى، وهو نزول تدريجي بحسب المواقف والأحداث، فيكون القرآن دستور حركي، لأنه نزل من خلال حركة الواقع، فهو كتاب حركي ومنهج واقعي.

وفي قوله (**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**)التوبة/٣٣، ليس المعنى أن يكون كل الناس مسلمين، بل ليكون الإسلام مصدر هداية للناس لتقوية بصيرتهم وليحل مشاكلهم، رغم أنهم لا يؤمنون بالإسلام كقوله (وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)التوبة/٣٢، (**الْكِتَابِ**) مرة يسميه الكتاب عندما يُكتب، ويسمّيه (القرآن) عندما يُقرأ، فهو يُقرأ في الصدور، كقوله (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) العنكبوت/٤٩، ويقرأ من السطور(**الْعَزِيزِ**) الغالب القاهر في ملكه، له صفات الكمال (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**)الشورى/١١ (**الْعَلِيمِ**) كثير العلم بخلقه، ويعلم ما يقولون وما يفعلون، ولا يخفى عليه شيء، والذي يدبر الوجود عن علم وخبرة.

٣-﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

(**غَافِرِ الذَّنبِ**) إنها من أسماء الله الحسنى، وصف الله نفسه بستة صفات تدل على الإستمرار، وهي بمثابة الأساس لتربية النفوس على عبادة الله، التي قاعدتها (**كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة**)، وهذه الصفات مرتبطة بالأعمال التي يعملها الإنسان باختياره، فيكون الإنسان هو الذي يبني مستقبله الدنيوي والأخروي بنفسه، **في غرر الحكم** (المرء حيث يضع نفسه) (**غَافِرِ الذَّنبِ**) ساتر الذنب وماحي العيب، ولا يعاجل بالعقوبة، ويمهل ولا يهمل، الذي يدفع ذنبه بعمل الحسنات وصالح الأعمال، كقوله(**إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِين**) هود/١١٤، **عن النبي(ص)** (أتبع السّيئة الحسنة تمحُها)المراغي١٩ص٤٠، **في غرر الحكم** (فوالله لقد ستر، حتّى كأنه غفر)، وأمهل حتّى كأنه أهمل، وأنذر حتى كأنه أعذر! (**غَافِرِ الذَّنب**) لعباده الراغبين في العودة إلى ربهم عز وجل، وبما يستحقونه من الغفران كقوله (**إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِم**)الرعد/٦.

(قَابِلِ التَّوْبِ) لمن صدق التوبة واستقام وعمل الخير، واستغفر ربه وترك الذنب، وندم عليه، وعزم على عدم العودة إليه، فهؤلاء يتقبلهم ربهم ويجعلهم في حماه، ويفتح لهم باب رحمته بلا حجاب كقوله **(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ)**البقرة/٢٢٢ قدّم الذنب وأخر التوبة، لأن التوبة الصادقة تمحو الذنوب، وتستنزل الرحمة، وتطهّر القلوب، وتشرح الصدور كقوله **(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)** التوبة/١١٨، **عن النبي(ص)** (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)كنز العمال خبر ١٠١٧٤، **وعنه (ص)** (إنّ كل بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون)الدر المنثور١/٢٦١ **(شَدِيدِ الْعِقَابِ)** لمن طغى وبغى واعتدى وعاند وأصرّ على الفساد، ولم يتب ولم يستغفر، وعمل بما يهوى، وأعرض عن طاعة المولى، وحارب الرسل والرسالات ويكون ضرراً على حركة هذا الوجود بما فيه ومن فيه، كقوله **(وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)**آل عمران/٤، حتى لا يظن أن الله يغفر الذنوب ويقبل التوبة عن ضعف وغفلة ولا مبالاة بل **(شَدِيدِ الْعِقَابِ)** ولكنه يقدّم رحمته على غضبه وعذابه، ليعرف الإنسان حدّه فيقف عنده، **في غرر الحكم** (رحم الله امرأً عرف قدره ولم يتعدَّ طوره) وهكذا التربية القرآنية تدعو إلى التوازن بين الخوف والرجاء كقوله**(يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)**الزمر/٩.

(ذِي الطَّوْلِ) قدرته تعالى طائلة وغالبة على كل شيء، وتطول على قدرة القادرين، وإحسان الله شامل، وتفضله طائل لكل شيء، ويرزق بغير حساب كقوله **(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)**الزمر/٣٦ **(ذِي الطَّوْلِ)** يعمل ما يشاء ولا يعمل ما يشاء غيره (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن) فجمع بهذه الصفة صفات جلال الله وكماله وجماله **(ذِي الطَّوْلِ)** صاحب الفضل والإكرام والإنعام الذي تطول مدته على صاحبه، فهو ذو النعم التي لا يحصيها العادّون، ويعجز عن شكرها المجتهدون، ويجيب من دعاه ويعطي من سأله ومن لم يسأله تحنناً منه ورحمة، إنما ذكر **(ذِي الطَّوْلِ)** بعد قوله **(شَدِيدِ الْعِقَابِ)**ليعلم أن العاصي أتى في هلاك نفسه بنفسه، لا من قبل ربه **(لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ)** لا معبود بحق إلا الله، ولا ربّ في الوجود سواه، فهو عز وجل أوجد الخلق والقائم على تدبير أمورهم وتقديرها بحكمته، وكل ما عداه مخلوق له محتاج إليه.

(لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) إنه مقام التوحيد الخالص، ومقام خالص التوحيد، **في غرر الحكم** (التّوحيد حياة النفس) فلا تغالوا ولا تشركوا في عبادته أحداً، فله الألوهية وحده لا شريك له، ولا شبيه ولا نظير ولا مثيل له، ولا يستحق العبادة سواه كقوله **(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)** الحجر/٩٩ **(إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)** إليه وحده المرجع لكل الخلائق في الدنيا والآخرة، ولا مرجع لغيره، فيجازيهم بأعمالهم، فمنه البداية وإليه النهاية كقوله**(لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ)**

ابراهيم/٥١، فلا مهرب من حسابه، ولا مفرّ من لقائه، كقوله(**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ**) هود/١٢٣ وبإقرار حقيقة المعاد إلى يوم القيامة، (الحقيقة الكبرى) نعرف فلسفة الحياة، وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، **فائدة**:١- توضّح الآية صلة الله بعباده, وصلة عباده به، ويعرّفهم الله بصفاته ومشيئته وإرادته ومواطن رضاه وسخطه ٢-جاءت (**شَدِيدِ الْعِقَابِ**) بين(**غَافِرِ الذَّنب**) و (**ذِي الطَّوْلِ**) فكانت (**شَدِيدِ الْعِقَابِ**) واقعة بين رحمتين، للدلالة أن رحمته سبحانه سبقت غضبه. كقول (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)الانعام/٥٤.

٤-﴿**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ**﴾

القرآن الكريم نور هداية، ومصدر دراية ، وما من أحد يجادل ويشك (**فِي آيَاتِ اللَّهِ**) وينكرها (**إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا**) وحدهم هم الشذوذ الشارد عن نظام هذا الوجود الكبير، فهم غنيمة الشيطان وعاقبتهم الخسران، فهم لظلام بصائرهم ومرض قلوبهم قد استغلق عليهم هذا الكتاب الجليل، لأن قلوبهم قاسية مقفلة عنه، فلم يهتدوا إلى ما فيه من فنون العلوم، فجعلوا يلقونه بالجدال العقيم والمزاح السقيم، لا طلباً للتعلّم منه، والذي لا ينفعه العلم يضره الجهل (**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ**) **الجدال**: المفاوضات الفكرية، والمطارحات العلمية البنّاءة، على سبيل المنازعة والمغالبة، لحلّ اختلافات من أجل قرع الحجة بحجة أقوى منها، بلا عصبيّات ولا كراهيّات ولا إصرار على آراء، فالجدال أُريد له إنضاج حالة الحوار الفكري، والوصول إلى نتائج صحيحة مفيدة للجميع، تحلَّ بها الشبهات، وترفع الملابسات.

المعنى: (**مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ**) ما يخاصم ولا يعاكس الحق ويطعن في القرآن ويكذبه إلاّ الجحود العنود كقوله(**وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**)غافر/٥، الجدال العلمي البنّاء الموضوعي، هو **الجدال الممدوح** والمطلوب لإيضاح الحق الملتبس بالباطل، والرد على الشبهات والملابسات والإجابة على الغامض من الآيات المتشابهات كقوله(**وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**) النحل/١٢٥، **وهناك جدال مذموم** وهو الجدال بغير علم، وهو المقصود في الآية، كقوله(**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ**)الحج/٣، **عن النبي(ص)** (لا تماروا في القرآن، فإن المراء فيه كفر)المراغي٢٤ص٤٤، **المراء**: الجدال المذموم، **وعنه(ص)**(من أعان باطلاً ليدحض بباطله حقاً فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله)الدر المنثور٧/٢٧٣.

(**إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا**) إلاّ الذين رسخ الكفر في قلوبهم فلا يرجى علاجه، (**فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ**) فلا يهمك ولا يخدعك يا مُحَمَّد إمهالهم، واتركهم وما يختارون لأنفسهم من متاع الدنيا القليل، مهما كثر وتنوّع فهو قليل ولا قيمة له، لأنه مؤقّت ويحاسبون عليه!(**فَلَا يَغْرُرْكَ**) عندما يتصرّفون في البلاد بتجارات واستثمارات متنوعة، وبعقد مؤتمرات سياسية، واتّفاقات

دولية، وبمناورات عسكرية (أو) يطمحون لاغتنام المناصب الحكومية، واستلام السلطة، والسيطرة على موارد البلاد والعباد (**فَلَا يَغْرُرْكَ**) عندما ينتقلون من نعمة إلى أخرى سالمين غانمين أصحّاء أقوياء أغنياء منعّمين وهم على كفرهم وفسادهم، فإن إمهالي لهم ليس إهمالهم بل لزيادة عقوبتهم كقوله (**إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ**)آل عمران/١٧٨، إنها أيام معدودات تنقضي وهم يعيشون بين الشدة والرخاء، ثم تنتهي بزوالهم جميعاً كما تزول الفقاعات من على سطح الماء، فيكون ظاهرهم يغرّ ويسرّ ويمرّ وباطنهم يضرّ كقوله (**فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**) الشعراء/٢١٣

٥-﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾

التاريخ يعيد نفسه في صراع الحق مع الباطل، فهي ليست مسألة خاصة لمصلحة جماعة محقّة ضد جماعة باطلة، وفي زمان دون زمان، وإنما هي سنة الله المتحركة في الماضيين والباقين، ولكن بصور مختلفة، **المعنى**:(**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ**) **الأحزاب**: هنا، كل قوم ضالين مضلين تجمّعوا وتعاونوا على محاربة الحق وسلب الحقوق، واعتمدوا نصرة الباطل، على اختلاف أزمانهم وأوطانهم، لذلك فهم حزب الشيطان في مقابل حزب الله، (**وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ**) وعزمت وخططت كل أمة منهم أن تمسك بنبيّها (**لِيَأْخُذُوهُ**) ليأسروه ويحبسوه ويعذّبوه ويقتلوه للتخلّص منه، لقد ضغطوا على رسولهم بكل الوسائل وآذوه ليسقطوا موقفه، وليضعفوا موقعه، ويفرّقوا الناس عنه ثم يقتلوه! والذين يقتلون الأنبياء هم شرّ الناس وأقذرهم، وأولاد البغايا، **في غرر الحكم** (إذا حكم الأشرار ذلّت الأخيار) وفيه أيضاً (**إذا استولى اللّئام اضطُهِدَ الكرام**)

(**وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**) **ليدحضوا**: ليبطلوا ويزيلوا، أي يحاولون توهين الحق وأهله، بخلق العراقيل والشبهات الباطلة في طريقهم والادّعاءات الكاذبة في دعوتهم، ويقيموا لهذا الباطل حججاً من السفه والضلال، كقوله (وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) التوبة/٣٤، **والباطل لا أصل له ولا حقيقة له ولا ثبوت**، مهما يكن تقلبه في البلاد، ومهما يكن له من مظاهر الثروة والقوة والسيطرة! والباطل لا جذور ممتدة له في الحياة تثبته فيها، فهو خالٍ من عوامل التثبيت والبقاء، لأنه مُتطَفّل على الحياة، ومعارض للحق، ومنغّص للعيش، ومشوّش للرؤية! عن الإمام الصادق (ع) (أبى الله أن يعرف باطلاً حقاً، أبى الله أن يجعل الحق في قلب المؤمن باطلاً لا شك فيه، وأبى الله ان يجعل الباطل في قلب الكافر المخالف حقاً لا شك فيه، ولو لم يجعل هذا هكذا ما عرف حقٌ من باطل) البحار٥/٣٠٣ (**فَأَخَذْتُهُمْ**) وهنا تتدخل يد القدرة الباطشة فتأخذهم أخذ عزيز مقتدر في الوقت المناسب(**وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ**)آل عمران/٤

(**فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ**)؟استفهام تعجّب في تقرير عقوبتهم المهلكة، إنه عقاب شديد مدمّر، **فائدة:** إذا كان الاصرار على الباطل وحبّ الفساد في كل جيل، فتكون الأسباب واحدة، والنتائج واحدة. **في غرر الحكم** (من لم يتعظ بالناس وعظ الله الناس به).

٦-﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

(**وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ**) وجبت وثبتت ولزمت (**كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا**) **كَلِمَتُ رَبِّكَ:** حكمه الحاسم بالهلاك، إنهم اختاروا الكفر والفساد بكامل إرادتهم، فأدّت نتائجه إلى دخولهم النار، وهي كقوله تعالى لإبليس (**لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ**)ص/٨٥، **فائدة:** تشير الآية أن الإصرار على الصغائر تكون كبائر، والإصرار على الكبائر يكون صاحبها من أهل النار، ومن أصر على الكبائر وهو في رفاهية ونعم كثيرة، فليعلم أنه قد مُكِرَ به، وأنه في حالة استدراج إلى الهاوية، ولو بعد حين، كقوله(**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**)الأعراف/١٨٢

٧-﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾

(مقدمة) (**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ**) **العرش:** الملك المنظّم، الله تعالى منزّه عن المادة، وعن الصورة والجسم، وهو لا يُحمل جالساً على العرش، لأن الحامل أقوى من المحمول، وليس المراد من العرش السرير الكبير والكرسي الرفيع المادي (إذن) لابد من تأويل الظاهر بما يتفق مع قواعد القرآن الحكيم والسّنة المشرّفة وجلال الذات القدسية النورانية كقوله (**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**)النور/٣٥ **سؤال:** ما هو العرش؟ نحن لا نعرف ما هو العرش، ولا ندرك حقيقته، وكيف يحمله حملته، لم يفصّلها القرآن ولا السنة المتواترة، وعلينا التسليم بمعاني ظاهر النص القرآني الفني. **العرش:** ليس معناه إنه حالة مادية محدودة, وانما حالة معنوية، لا محدودة، لتقريبها للذهن البشري كقوله (**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**)التوبة/١٢٩، وقوله (**وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ**)الزمر/٧٥، **عن النبي(ص)** (إنّ قلب المؤمن عرش الرحمن)البحار٥٨ص٣٩، **في الحديث القدسي** (لم تسعني سمائي ولا أرضي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن) البحار ٥٨ ص٣٩.

ولكن المستفاد من معاني الآيات القرآنية، إن لهذا الوجود مركزاً أساسياً، أن الله تعالى محيط ومتحكّم به كقوله (**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**)الأعراف/٥٤، **عن الإمام الصادق**(ع)(إنّ للعرش صفات كثيرة..إلى أن قال (لأنهما بابان من أكبر أبواب الغيوب)البحار٥٥ص٣٠، **العرش:** استعارة بلاغية بديعية عن عظمة الله وجلاله وكماله، وكناية تشبيهية عن الملك العظيم والمقام

الكريم، ومركز القدرة الإلهية، ومحل التجلّي والتدبير والتقدير، والسلطة العليا كقوله (**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**) البقرة/٢٥٥، **كرسيه**: يشمل الوجود كله. **عن النبي(ص)**(لا تتفكّروا في عظمة ربكم، ولكن تفكّروا في خلقه)روح البيان٨/١٥٥. **أما الذين يحملون العرش**: هم المقربون لله في منزلتهم، المنفّذون لأوامره تعالى لتدبير شؤون الكون والكائنات، أما العدد الذي يحمل العرش كقوله(**وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**)الحاقة/١٧، والعدد في نار جهنم كقوله (**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**)المدثر/٣٠،إنه جعل هذا العدد فتنة واختباراً، الله جلّ جلاله نور، والنور لا يجلس على العرش كالسلاطين، فعليه يكون معنى العرش كناية بلاغية عن السيطرة على الملك (**وَمَنْ حَوْلَه**) وهم سادة الملائكة المقربين (**يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**) ينزّهون رهم عن كل صفة لا تليق بجلاله، وهم في عبادة مستمرة لله تعالى ومتفاعلون معها لشعورهم بعظمة مقام الله عز وجل، ويحمدونه على أفعاله، حمداً نابعاً من تكامل إيمانهم، **ومن تسبيحاتهم**: (**سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت، سبحان الملك الحي الذي لا يموت**)روح البيان٨/١٥٦.

(**وَيُؤْمِنُونَ بِهِ**) ويصدقون بألوهيته سبحانه بدرجة اليقين، وأنه لا إله لهم سواه، كيف يعبدونه وهم يؤمنون به؟ وفي هذا دلالة على أن العبادة على قدر العلم والإيمان (**وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا**) أمر الله سبحانه الملائكة أن يستغفروا ويدعوا للذين آمنوا وعملوا الصالحات، واستغفارهم يعني شفاعتهم والدعاء لهم وإلهامهم حبّ الإنابة والتوبة ما يوجب المغفرة ورفع الدرجة، لينعموا جميعاً بما ينعم به الملائكة، وليكونوا رفقاءهم الأودّاء في الملأ الأعلى، يأنسون بهم! وهذا من فضائل الإيمان، أن يحبّ لأخيه ما يحبه لنفسه، ويكره لأخيه ما يكرهه لنفسه (**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا**) ربنا قد أحاطت رحمتك وعلمك الواسعان بكل شيء، فلا رحمة من دون علم، فالرحمة تسبق العلم في مجال التكريم، والعلم يسبق الرحمة في مجال التشخيص والتحديد، فأحدهما يرتبط بالآخر، وفي وصف الله تعالى بالرحمة والعلم، وهو ثناء قبل الدعاء، وفي هذا تعليم العباد أداب الدعاء، إنما هي رحمته وعلمه منهما يستمدون وإليهما يلجؤون، وتقديم الرحمة على العلم: لتهذيبه، تدعيمه، وإن كان العلم أشمل وأقدم تعلقاً من الرحمة، ولكن الرحمة أوسع وأرجح من كل شيء، ولأنها المقصودة بالذات ههنا كقوله (**وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**)الزخرف/٣٢، ولأن كل كائن موجود له رحمة دنيوية خاصة به وعلى مقاسه! كقوله(**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**)الأنعام/٥٤، **وفي قرن الرحمة بالعلم**: إشارة إلى دقّة الرابطة المنظمة بينهما، فأين تقع رحمة الله حيث علم الله موقعها المناسب من عباده(**فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا**)ورجعوا إليك بالإيمان والعمل الصالح، واصفح عن المسيئين إذا تابوا وأقلعوا عن ذنوبهم واتقوا الله واستقاموا على منهجه، ففي الاستقامة السلامة والكرامة، بلا أيّة ندامة ولا

ملامة (**وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ**)بالتقوى (من اتقى الله وقاه) (**وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ**)وادفع عنهم عذاب النار المتأججة، أي وقهم وجنبهم أسباب العذاب.

٨-﴿**رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾

هؤلاء المؤمنون التائبون بصدق، من جملة ما دعوا ربهم، **قالوا**: ربنا اجمع غداً شمل الأسرة المؤمنة المحافظة كما كانوا في الدنيا، فإن الاجتماع مع الأهل والأحبة والمقربين فيه الابتهاج والسرور والأُنس كقوله(**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**)الطور/٢١، **المعنى**: (**رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ**)على ألسن أنبيائك، **وجنات عدن**: جنات استقرار وثبات وسعادة، وعدن مدينة خاصة في الجنة، **عن النبي(ص)** (عدن دار الله التي لم ترها عين، ولم تخطر على قلب بشر، لا يسكنها غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء) فإن لكل مقام عمل معيّن يختص به فإذا كان العمل أخص وأرفع وأنفع، كان المقام أرقى والمنزلة أعلى وأجل (**وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ**) وأدخل معهم من صلح لدخول الجنة، في خصوص حياتهم العائلية المترابطة، وعلاقات القربى والأحبّاء والأصدقاء في أجواء الإيمان، ممن صلحت نفوسهم وأقوالهم وأعمالهم وتعاملاتهم، فلا يحق بأهل الصلاح إلاّ الصالحون, ولا نسب بينهم أوثق من هذا النسب الجليل، الذي يجمع بينهم في جنات النعيم. كقوله (**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**)البيّنة/٧ **في غرر الحكم** (من باع نفسه بغير نعيم الجنة فقد ظلمها) (**إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) لأنك أنت (**الْعَزِيزُ**) القاهر لكل شيء، الذي لا يمتنع عليه شيء (**الْحَكِيمُ**) الذي يضع الأشياء مواضعها، والذي لا يأمر إلاّ بما فيه الحكمة والمصلحة.

٩-﴿**وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾

(**وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ**)من الوقاية بمعنى الحماية والصيانة، تقول: وقاك الله من كل سوء، أي حماك من كل مكروه، أي وقهم عقوبة السيئات واجعلهم في حصن حصين منها، وارزقهم الورع عن الذنوب الكبيرة والصغيرة، ولا تؤآخذهم من تبعات الذنوب وآثار المعاصي، وأيضاً أصلح طبائعهم السيئة، وعاداتهم وتقاليدهم الجاهلية المألوفة التي تسوء صاحبها **في غرر الحكم** (أعجز الناس من عجز عن إصلاح نفسه)(**وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ**)لأبد أولاً من تطهير النفس من السيئات، ومساوئ العادات، لأن درء السيئات مقدّم على عمل الحسنات كقوله (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) فصلت/٣٤ على قاعدة (التخلية من العيوب، ثم التحلية بصالح الأعمال) أي وقهم وجنبهم أسباب السيئات ونتائجها وعواقبها، فمجرد الوقاية من السيئات فهو فوز لأنه حصول ملكة الورع عن محارم الله، **في غرر الحكم** (**الورع**: من نَزِهت

نفسه وشرفت خلاله)**(وَمَنَ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ)** ومن تقه المعاصي في الدنيا، فقد رحمته في الآخرة، ونجيته من العقوبة، كقوله **(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ)**الأنبياء/١٠٣ ومن وقيته السيئات فقد وفّقته للحسنات، **عن النبي(ص)** (من سرته حسنته، وساءته سيئته فهو مؤمن) كنز العمال خبر ٧٠٠ **(وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)** فوز الدنيا مؤقّت، وفوز الآخرة دائم، فهو عظيم لا مثيل له، إنه فوز من أول انطلاقاته، لأنه في نعيم دائم وتكريم قائم، فوز لأنه وقى نفسه من الشر، وعمل أنواع الخير، فهي دعوة إلى الاستقامة في الحياة، الاستقامة قمة الخيارات، التي فيها السّلامة والكرامة بلا أيّة ندامة ولا ملامة.

١٠ -﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ)

تناديهم الملائكة لتوبيخهم، فيقال لهم **(لَمَقْتُ اللَّهِ)**نقسم لكره الله وبغضه الشديد لأعمالكم —أيها الكافرون- **(أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ)**أكبر من بغضكم الشديد لأنفسكم اليوم، كقوله عن نبي الله لوط مخاطباً قومه (قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ) الشعراء/١٦٨، **القالين:** الكارهين أشد الكره **المقت:** أشدّ البغض والكره والسخط، ومعنى السخط الإلهي الطرد من رحمة الله، وتركه مع خيار نفسه، والسقوط في نقمته سبحانه، اذكروا **(إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)**يوم كنتم تدعون في الدنيا إلى الإيمان، فتأبون قبوله استكباراً، وأنتم تطّلعون اليوم على ما قادتكم إليه أعمالكم الشريرة بكفرها وفجورها وإعراضها عن الإيمان، وما أوجع هذا التأنيب الشديد الرهيب في ذلك الموقف العصيب، **عن الإمام علي(ع)** (رحم الله امرأً عرف من أين، وفي أين، وإلى أين) كما يقول أحدنا إلى صاحبه: إذا كنت لا تبالي بنفسك، فمبالاتي بك أقل، **في غرر الحكم** (لا تعادوا ما تجهلون، فإن أكثر العلم فيما لا تعرفون)

فائدة: (الخلاصة) أيها الكافرون: أنتم الآن في جهنم**(يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ)** الآن تكرهون أنفسكم حيث أدّت بكم إلى هذا المصير المشؤوم، وكنتم تحبونها وأنتم في الدنيا، ولكن الله كان آنذاك يمقتكم لسوء أعمالكم أي يبغضكم أشدّ البغض، من مقتكم لأنفسكم اليوم، حيث يعرض عليكم الإيمان**(فَتَكْفُرُونَ)** وتعرضون وتنفرون، فسخط الله عليكم ومقتكم**(وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا)**النساء/٨٤، فذوقوا اليوم ما قدمتم لأنفسكم **(وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)**البقرة/٢٧٠، ومن أشد العقوبات آثار سخط الله وغضبه على عباده، كقوله **(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)**الزمر/٤٥.

١١ -﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾

(من الآيات المتشابهة)

تصوّر الآية الكريمة خارطة الطريق (المختصرة) التي يمرّ بها الإنسان، في بدايته حتى نهايته، في عبارات بلاغية في غاية الدقة، فهي أربع أدوار: فقد كان ميتاً قبل الخلق، ثم أحياه الله، ثم حلّ به الموت، ثم أحياه الله للبعث والنشور، وعرض هذه المراحل والأدوار للإيمان بالمعاد إلى يوم القيامة. **المعنى**: **(قَالُوا رَبَّنَا)** قال الكفّار لما رأوا الشدائد والأهوال **(رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ)** الإماتة بعد الحياة الدنيا، عند نهاية العمر، والإماتة بعد الحياة البرزخية في عالم القبر كقوله**(وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ)**المؤمنون/١٠٠، **عن النبي(ص)** (أول عدل الآخرة القبور، لا يعرف فيها غني من فقير) مستدرك الوسائل١/١٤٨ **(وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ)** الإحياء في الدنيا، حياة مادية جسمانية، وإحياء للحشر في عالم البرزخ إلى يوم القيامة للحساب، حياة روحية (معنوية) تسمى (المعاد الجسماني) **(فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا)** فتيقّنا من البعث والنشور، وزال شكّنا في يوم الحساب، وإنك لقادر على إخراجنا مما نحن فيه، وقد اعترفنا لك بذنوبنا، إننا عندما أنكرنا الحياة الأخرى، سقطنا في ارتكاب أبشع الذنوب وصار عندنا أقبح العيوب، **في غرر الحكم** (أعظم الذنوب عند الله ذنب صغُر عند صاحبه) ولم نفكّر بلقاء الله ولم نخشَ سوء العاقبة، فتمادينا في ضلالنا وغيّنا (والذي لا يعرف كيف ينتهي، لا يعرف كيف يبدأ)! **في غرر الحكم** (مكروه تُحمد عاقبته خير من محبوب تذمّ مغبّته (خاتمته)) والأمور بخواتيمها **(فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)**؟ فهل لنا من طريقة للخروج من النار لنعمل صالحاً في الدنيا غير الذي كنا نعمل؟ انهم اعترفوا بعد فوات الأوان، وقد حكم عليهم في النيران. فلا ينفعهم شيئاً، انهم طلبوا الخلاص بلفظ التنكير الموحي باللّهفة الخانقة، والمرارة المؤلمة، والحسرة الضاغطة، واليأس المرير كقوله **(وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ)** الأنعام/٢٨، وقوله **(كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)**البقرة/٢٨، **فائدة**: الآية تنفي قطعياً ما يسمى(تناسخ الأرواح) أي أن روح الإنسان بعد موته يمكن أن تتجسّد وتحلّ مرة أخرى في جسد حي جديد، وهذا يناقض القرآن. عن ابن عباس (ما خالف القرآن فهو من خطوات الشيطان)الدر المنثور١/١٦٧.

١٢-﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾

كلا، لا أمل لكم بالخروج من النار، واعلموا أن ذلك العذاب الذي تقاسونه لأنكم كنتم **(إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ)** ونفرتم وأنكرتم وطغيتم، أي إنكم إذا دعيتم إلى الإيمان وحياة الإسلام، وحسن التعامل مع الناس أعرضتم، وعندما نذكركم بالتوحيد، ونقول لكم(قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا) تشمئز قلوبكم وقلتم **(أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)**ص/٥، ندعوكم إلى التوحيد، لأن (التوحيد حياة النفس) كما في غرر الحكم، والآية كقوله**(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ**

وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)الزمر/٤٥ (**وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا**) وإذا دعيتم إلى أنواع الضلال والفساد والنفاق وما تهوى الأنفس، من أنواع الشرك الخفي، أو الشرك الجلي أجبتم ورحّبتم، وللآن تطلبون النجاة فلا تجابون (كما تدين تدان) كقوله (**وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا**)الأعراف/١٤٦ .

وهكذا يبني الإنسان مستقبله الدنيوي والأخروي بنفسه، **في غرر الحكم** (المرء حيث يضع نفسه)، (**فَالْحُكْمُ لِلَّهِ**) فالقضاء لله وحده الذي لا يحكم إلاّ بالحق، ولكنكم قطعتم علاقتكم بالله تماماً، وكفرتم بما يريده، واتبعتم كل ما يكرهه، وإن طباعكم لا تقبل الحق بل تنفيه، فالله أيضاً يقطع علاقته بكم، ويحكم فيكم بما تستحقونه من غير رعاية لحالكم (**الْعَلِيِّ**) في ذاته وأفعاله وحكمه، والعلي في مكانه وعلو شأنه، والقادر على كل شيء، وليس فوقه من يساويه، ولا يمكن لأحد أن يتمرد على قدره، وكلمة الفصل عند الله تعالى كقوله (**وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**)البقرة/٢١٠(**الْكَبِيرِ**) الذي له الكبرياء والعظمة في ملكه وفي ذاته وصفاته، المنزّه عن كل نقص وعيب، الذي يفعل ما يشاء، ولا يفعل ما يشاء غيره كقوله (**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**)البروج/١٦

١٣-﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾

(**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ**) آيات الله عزوجل وحججه الباهرة تراها منتشرة في كل شيء في هذا الوجود، وتراها في كل مخلوق صغير أو كبير، وفي كل زمان ومكان، لأنه تفرّد بالخلق، وترى شواهد قدرته على توحيده مبثوثة في الآفاق الكونية، والآيات القرآنية الغنية، ليهديكم إلى معرفته ٢-كقوله (**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**)الذاريات/٢١، وفي كل منها آية خارقة تحرّك المشاعر وتُحيي الضمائر، ولكنهم لا يتفكّرون، والذين لا يتفكرون في الهدى، فسوف يقوده الذين يتفكرون عن طريق الهوى! **عن الإمام علي**(ع) (من صَبَرَ على الله وَصَلَ إليه) البحار٧١ص٩٥، وآيات الله منتشرة مع الرسل والرسالات السماوية الصحيحة، الدالة على كمال خالقها وجلال مبدعها وجمال مصوّرها، ومن آياته (**وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا**) بنزول الماء من السماء، وهو أصل الحياة على هذه الأرض، وانتشار نور الشمس وحركة الهواء وخزن الماء. والله عز وجل محيي أبدانكم بما أنزل لكم من السماء من ماء، ومحيي دينكم بما أنزل من الآيات البيّنات، والله سبحانه يراعي الأمرين معاً، بل يراعي كل الأمور، لأنه يحيط علماً بكل شيء كقوله (**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**) الحجر/٢١، ويُبين الله بهذه الآيات البيّنات الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ولا يبقى عند المتأمل فيها أدنى شك في قدرة الله وتوحيده كقوله (**لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ**

عَن بَيِّنَةٍ) الأنفال/٤٢**(وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ)** وما يعتبر ويتّعظ بالآيات الباهرات إلاّ بالإقبال على الله بصدق، والخشية من مقامه وهيبته، والتضرّع إليه وطاعته، وأن يرجع إلى القرآن دستور الإنسان، ويترك الهوى والاتباع الأعمى، ويهذّب عاداته السيئة، ويعارض التقاليد والأعراف السائدة المنحرفة.

وفي غرر الحكم (ذروة الغايات، لا ينالها إلاّ ذوو التهذيب والمجاهدات) وأيضاً الذي ينيب هو من أولي الألباب كقوله**(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)**الرعد/١٩، **فائدة:** ولو تفكّر الإنسان وتأمّل في عجائب الحياة والأحياء، لرأى كل شيء له آية، تدل على أن لها خالقاً مدبراً واحداً قادراً قاهراً عظيماً حكيماً، **في غرر الحكم** (ومن عرف المخلوق عرف الخالق، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه) ومن بحث عن الله وجده، ومن سعى إلى الله قرّبه إليه، ومن تقرّب إلى الله كان **(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)**القمر/٥٥.

١٤-﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

وجّهوا طاقاتكم إلى أكبر هدف في هذا الوجود ألا وهو الله الخالق جلّ في علاه، وعيشوا معه صدق العبودية، وادعوه خاشعين تروا العجائب، وتنكشف لكم الأسرار، وتعرفوا الحقائق، وتنسّقوا مع الأقدار! وهل بعد الله من هدف؟ وهل بعد الله من غاية؟ وهو أكبر هدف وأكبر غاية، وإليه المنتهى وإليه الرجعى، في دعاء الإمام الحسين(ع) في يوم عرفة (ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك، لقد خاب من رضيّ دونك بدلاً ولقد خَسِرَ من بغى عنك متحوّلاً) **المعنى**:**(فَادْعُوا اللَّهَ)** فاعبدوا الله وادعوه وارتبطوا به صادقين في عبادتكم، لأن صدق العبادة فيها السعادة كقوله**(قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)**المائدة/١١٩ **(مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)** الالتزام الثابت بمنهج الله في جميع الأحوال، التزام عن إيمان صادق وعلم واعٍ **(مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)** كونوا من أهل الدين واقعاً لا شكلاً، وفعلاً لا قولاً، والفعل يدل على القول، والقول لا يتعارض مع الفعل كقوله **(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)**الزمر/٣، **عن النبي(ص)** (أخلصوا أعمالكم لله، فإن الله لا يقبل إلاّ ما خلَصَ له) كنز العمال خبر٥٢٥٧ **(مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)** بحسن العبادة، وحسن المعاملة مع النّاس، عن النبي (ص) (الإسلام حسن الخلق) كنز العمال خبر٥٢١٥، متجنبين كل أشكال الشرك الخفي والجلي، وأنوع الذنوب، ومساوئ الأخلاق، ويكون هذا الإخلاص هو بمثابة التّحدي العملي للكافرين **(وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)** عبادتكم، وأغاظهم إخلاصكم وقاتلوكم عليه، وأخلصوا لله دينكم حتى ولو تحملتم أنواع المعاناة من أعداء الله والإنسانية، فلا تأخذكم بالله رهبة قوم كقوله **(وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ)**المائدة/٥٤، **فائدة:** لن يرضى الكافرون عن المؤمنين أن يخلصوا دينهم لله، مهما أحسنوا التعامل معهم كقوله **(وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ)** البقرة/١٢٠، فليمض المؤمنون

في اتجاههم يدعون ربهم وحده، ولا يهمّك سخط الكافرين أو رضاهم كقوله (**قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ**) آل عمران/١١٩، توجّه إلى وجه واحد يكفك الوجوه كلها، وتحمّل همّاً واحداً يكفك الهموم كلها.

١٥-﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾

الآية دقيقة المباني، عميقة المعاني، واسعة الدلالات، (**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ**)كناية تشبيهية جميلة، واستعارة بلاغية جليلة، عالية المضامين، تبحث عن الرفعة المعنوية في المنزلة والمقام الرفيع في أمره وقدره وقدرته تعالى، فهو سبحانه عالي الصفات رفيع الذات، عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالي(**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ**) رفيع في ذاته ورافع لغيره، بحسب ما يستحقون كقوله (**وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**)الأنعام/١٦٥، ويرفع الله من خلقه من يشاء كيف يشاء، بما يشاء، متى يشاء كقوله(**وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ**)الصافات/١٦٤، وهو سبحانه مرتفع الوجود، ويحيط به ويدبر أمره على الدوام لأنه(**الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**)البقرة/٢٥٥، إنّ الله تعالى يرفع درجاتكم بمقدار إخلاصكم، وأنّ الله عز وجل لعلو مقامه وكمال مكانته، تفاوتت نسب معرفته عند خلقه، فيعرفه العلماء الربانيون، غير الذي يعرفه العلماء الباحثون، وتختلف عما يعرفه الأنبياء، **في غرر الحكم** (ينبغي لمن عرف الله أن يتوكل عليه) فهو سبحانه (**رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ**)(**ذُو الْعَرْشِ**) كناية بلاغية ذات هيبة، دالة على السلطة العليا المطلقة، السلطة المستقرة في كمال قدرته وتحت قبضته، وجمال إلوهيته وجلال ربوبيته، والله عزوجل خالق العرش العظيم ومالكه ومنظم الملك القدير ومدبّره، الدال على عظمة الله وكبريائه كقوله(**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**)الجاثية/٣٧.

والعرش: خلق مركزي فاعل ومؤثر في الكون والكائنات، محيط بالعالم كله، ينزل من قبله التدبير والتقدير الدقيقين في العالمين المادي والمعنوي، من لدن الخالق الحكيم، ولا منازع له في حكومته، وارتفاع عرش ملك الرحمن عن مستوى الخلق، وغيبته واحتجابه عنهم، بدرجات معنوية رفيعة، ومنازل بعيدة، ثم يوم القيامة يرفع الحجاب، وتظهر الاسرار ويكشف الغطاء عن بصائرهم كقوله (**لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**) ق/٢٢ (**يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**)يلقي أمره من علو، علو محيي للأرواح والقلوب على من يختار من خلقه المؤهّل لأمره، فيلقي (**الرُّوحَ**) الوحي والإلهام والعلم والتعليم، والذكاء والفهم والوعي، والإيمان والاطمئنان، والتسديد والتأييد، والهداية والدراية...إلخ على قلب من يشاء ويصطفي من عباده الصالحين، الذين يخصّهم بتبليغ الرسالة السماوية من الرسل والأنبياء والأوصياء والأولياء والعلماء... ويجدهم أهلاً لهذه المسؤولية كقوله (**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**)الأنعام/١٢٤.

يصوّر السياق القرآني البليغ(**الرُّوحَ**) تصويراً جميلاً محبباً مؤثراً له دلالات بلاغية عميقة، ومعاني دقيقة واسعة، فاستعير الروح للوحي، فكما أن الروح سبب لحياة الأجسام، كذلك الوحي سبب لحياة القلوب والبصائر والأرواح بالهداية والدراية حتى تنشرح الصدور، وسمّي جبرائيل روحاً لأنه كان يأتي الأنبياء بما فيه حياة القلوب (**يُلْقِي الرُّوحَ**)

روح الدراية للمؤمنين، وروح الولاية للعارفين، وروح الكشف للمخلصين، وروح النبوة للنبين، كقوله(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**)الأنفال/٢٤، (**يُلْقِي الرُّوحَ**) يلقي المواهب والملكات والقدرات والاختصاصات، كل إنسان بقدره، ويلقي العلوم والمعارف والبحوث والأرزاق وكل الكمالات. كقوله(**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) الفتح/٧،

للروح ثلاثة معاني في القرآن الكريم.

وكل معنى في مقام الروح للبدن: ١-القرآن كقوله (**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا**) الشورى/٥٢، ٢-جبريل(ع) كقوله (**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ**)الشعراء/١٩٣-١٩٤، ٣-الروح التي يحيا به بدن الإنسان كقوله (**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**)ص/٧٢ وإنما سمّي الوحي روحاً، لأنه يسري في القلوب ويؤثّر في المشاعر ويحيي الضمائر، ويسري كسريان الروح في الجسد، (**مِنْ أَمْرِهِ**) أن ملك الوحي المكلّف بإبلاغ الروح، إنما يتحدث بأمر الله لا من عند نفسه (**لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ**) اسم فني جميل بديع وبليغ، دقيق المبنى، عميق المعنى، واسع الدلالة(**لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ**) بكل معاني التلاق، يوم التلاقي لا ينشأ إلاّ عن ابتعاد أشياء كانت متباعدة فتتلاقى، حيث يلتقي (يوم القيامة) الأرواح بالأجساد، والخالق بالمخلوق، كقوله (**إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ**)هود/٢٩، ويلتقي الإنس بالجن، ويلتقي الأولون والآخرون، ويلتقي العاملون بكتاب أعمالهم، والعابدون والمعبودون، والتقاء المظلوم بظالمه، والتقاء الأقوام بأنبيائهم ورسلهم (ع).. إلخ.

(**لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ**) ليخوّف الرسول الموحى إليه بأهوال يوم القيامة، وهذه الحقيقة الكبرى، ليتم محاسبة الخلق على ضوء أعمالهم، **وكأن كاميرة تصوير خفية، كانت تصورهم في كل شيء تصويراً دقيقاً مفصلاً مجسّماً**، تصويراً ذو ثلاثة أبعاد، بالصورة والصوت والنية!(**يَوْمَ التَّلَاقِ**) يوم فيه المفاجآت والمخبّآت، يوم حاسم رهيب يرفع فيه الحجاب ما بين الله عز وجل وبين الناس، ويُكشف الغطاء والأسرار عن بصائرهم، فينكشف لهم أنه هو المالك لكل شيء، فيحكم بينهم، **عن الإمام الصادق(ع) يوم التلاق** (يوم يلتقي أهل السماء وأهل الأرض)نور الثقلين ٤/٥١٤، يوم يكون فيه الإنسان المناسب، في مكانه المناسب!

١٦-﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

إنه مشهد مثير من مشاهد يوم القيامة، **المعنى**: (**يَوْمَ هُم بَارِزُونَ**) **البروز**: بمعنى الظهور لخفاياهم، وينكشف كل مستور في هذا اليوم الرهيب، ويرفع كل حجاب كقوله (**يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ**) الطارق/٩ (**يَوْمَ هُم بَارِزُونَ**) يوم هم خارجون من قبورهم لا يسترهم شيء، ولا يظلهم شيء، كقوله (أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا) البقرة/١٤٨، تنكشف كافة أسرارهم، وخفاياهم، وتظهر كل حقائقهم للناس وتكون مثل ظاهرهم، وتلغى كل الفوارق بين الناس في هذا المقام، ويتساوون في إنسانيتهم، وقد اجتمعوا مصنّفين منظّمين في صعيد واحد في ساحة المحشر المستوية، استعداداً للحساب والجزاء كقوله (**لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ**)طه/١٥، **عن النبي(ص)** (يحشرون حفاة عراة عزّلاً) **عزّلاً**: غير مختونين، روح البيان٨/١٦٧ (**لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ**) انكشفت أحوالهم وأعمالهم وصفاتهم وأقوالهم وضمائرهم وسرائرهم وتعاملاتهم مع الناس، مع كثرتهم، لأن الله محيط بهم، وأقرب منهم من أنفسهم في كل حين كقوله(**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**)ق/١٦، في هذا اليوم الحاسم يقفون عارين من كل ساتر، حتى ستار الأوهام والأحلام، كقوله(**أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ**)المجادلة/٦، يومئذٍ يتضاءل المتكبرون وينزوي المتجبرون كقوله (**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ**)الحاقة/١٨، ويتفرد مالك الملك بالسلطان، وهو سبحانه متفرد به في كل آن، فأما في هذا اليوم فينكشف هذا للعيان، بعد انكشافه للجنان (للقلوب) وتخمد الأنفس وتسكن الحركات، ويأخذ الجميع أجواء الرهبة الممزوجة بالهيبة، وينطلق صوت الله الجليل المهيب يسأل ويجيب، فما في الوجود كله يومئذٍ من سائل غيره ولا مجيب (**لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ**)؟ (**لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**)(**الْوَاحِدِ**) المتفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله لا شريك له (**الْقَهَّارِ**)بالغلبة على كل ما سواه، يومئذٍ يظهر توحّد الله تعالى في ملكه بلا منازع كقوله (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/١٨، ويكون الجواب من بواطن الغيب، بلسان الحال أصدق من لسان المقال، **في نهج البلاغة** (وأنه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه، كما كان قبل ابتدائها، كذلك يكون بعد فنائها بلا وقت ولا زمان ولا حين ولا مكان، عدمت عند ذلك الآجال والأوقات)الميزان١٧/٣٢١

١٧ -﴿**الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾

هذه هي القاعدة العادلة في الآخرة، وهي قضية عقلية إنسانية رياضية، ومن المسلّمات ومن الأولويات، وليس للدين الإسلامي إلاّ اعتمادها والعمل بموجبها **المعنى**: (**الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**) اليوم يوم الحسم والإنصاف والجزاء بالحق، اليوم يوم العدل والفصل والقضاء بين الخلائق بلا إمهال ولا إبطاء، اليوم يغمر الموقف الحاسم رهبة وهيبة وخشوع وخضوع، وتطوى صحائف الأعمال كقوله(**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا**)طه/١١١ (**الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**) بما كسبت: بما عملت في الدنيا، إن خيراً

فخير، وإن شراً فشر. **الكسب**: دائماً لعمل الخير، والاكتساب للشر كقوله(**لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**) البقرة/٢٨٦.

(**لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ**) بنقص ثواب من حسناته كقوله(**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**) الكهف/٤٩، ولا زيادة عقاب على سيئاته، لأنك مع الله تعالى الحاكم العادل، هو الذي يحاسب الخلق، وهو غني عن ظلم أحد، لذلك الشرك ظلم عظيم كقوله(**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**)لقمان/١٣، لأن أفعال الألوهية من الله والمشرك يعطيها من دونه! فالشرك يُصغّر الله ويلغي دوره الفاعل، ويعظّم المخلوق ويعطيه دور الله، فيبخس حق الله جلّ في علاه، **سُئل الإمام الصادق**(ع) **عن أدنى الشرك فقال (من ابتدع رأياً فأحبّ عليه أو أبغض عليه)** الكافي٢/٣٩٧، **عن النبي**(ص) **في حديث قدسي (يا عبادي**: إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظلموا، يا عبادي: إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلاّ نفسه)المراغي٢٤ص٥٥، وعنه (ص)(الظلم الذي لا يترك، فظلم العباد فيما بينهم، يقص الله بعضهم من بعض)كنز العمال خبر١٠٣٢٦ (**إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**) إنّ الله سريع في المحاسبة، دقيق في الحكم، لا يشغله حساب نفس عن حساب نفس أخرى، ولا يشغله شأن عن شأن ولا تشتبه عليه الأصوات، ولا تختلط عنده الحاجات، فيحاسب الخلائق جميعاً على كثرتهم في وقت واحد!، وفي ساعة واحدة، وبدقة متناهية كقوله(**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**)الزلزلة/٧-٨ سُئل الإمام علي (ع) :كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم في وقت واحد؟ فقال: كما يرزقهم على كثرتهم في وقت واحد.البحار٧/٢٧١، لأن الله أحاط بعلمه كل شيء وهيمنت قدرته على كل شيء كقوله(**إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ**)الأسراء/٦٠، وقوله(**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**)الحديد/٤، **وعن الإمام علي**(ع) (فإذا حاسب واحداً فهو في تلك الحالة محاسب للكل، يُتمُّ حساب الكل بتمام حساب الواحد!! كقوله (**مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ**)لقمان/٢٨.

فائدة: هكذا في عصرنا الحاضر، عصر الألكترونيات وعمل الحاسبات الضخمة، وهي بمثابة بنك غني بالمعلومات الواسعة، وتعطيك نتائج مبرمجة وسريعة ودقيقة ومتنوعة.

١٨ -﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾

إنه مشهد تربوي مثير من مشاهد يوم القيامة الحاسم، السياق القرآني الفني الدقيق يصوّر (**يَوْمَ الْآزِفَةِ**) القريبة الدانية، وكأنه مقترب مرات وزاحف بهدوء مقدّر مدروس، والأنفاس مكروبة ضيّقة لاهثة، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر، وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم، والكظم يكربهم ويثقل على صدورهم، ولا يجدون حميماً ولا صديقاً يعطف عليهم، في هذا الموقف العصيب، ولا شفيعاً ذا كلمة تطاع.

المعنى: (**وَأَنذِرْهُمْ**) يا مُحَمّد بوضوح عن تبليغ رسالتك السماوية، فأنت مسؤول عن الوسائل وغير مسؤول عن النتائج، فعليه أن يتّبع أحسن الوسائل لتذكير الناس بالعواقب، والأمور بالخواتيم كقوله(**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**)الغاشية/٢١-٢٢ (**يَوْمَ الْآزِفَةِ**) من أسماء يوم القيامة، قريبة الوقوع وأن بعدت، فهي محققة الوقوع كقوله(**أَزِفَتِ الْآزِفَةُ**)النجم/٥٧، وقوله(**إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا،وَنَرَاهُ قَرِيبًا**)المعارج/٧، **عن النبي (ص)** (من مات فقد قامت قيامته)روح البيان٣/٢٢، **وعنه** (ص)(كل معدود منتقص، وكل متوقع آتٍ)نور الثقلين٣/٣٥٨ (**يَوْمَ الْآزِفَةِ**) كناية بديعية جميلة، واستعارة بلاغية عجيبة، عن معنى القرب والدنو ليوم القيامة، باعتبار القيامة دانية قادمة، وأن هذا اليوم كائن، وكل كائن آتٍ، وكل آتٍ دانٍ قريب لأنه قادم وإن استبعد الإنسان أمده، كقوله (**أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**)النحل/١ وعبّر عنها بلفظ الماضي تنبيهاً لقربها! **في نهج البلاغة حكم٢٩** (إذا كنت في إدبار، والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى) في الحديث(بعثت أنا والساعة كهاتين، إن كادت لتسبقني!)روح البيان٨/١٦٩، والإشارة بهاتين إلى السبابة والوسطى، يعني إن ما بيني وبين الساعة، مقدر قرب الوسطى إلى السبابة، لذ عبّر عن القيامة بالساعة لقربها، والقرآن دقيق في استخدام المصطلحات البلاغية في سياقه الانسيابي المؤثر الرقيق، ولو تأملنا قليلاً فسنجد أن عمر الإنسان لا يعادل سوى لحظات سريعة أمام يوم القيامة، كقوله(**وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ**)يونس/٤٥، حتى قيل (الدنيا ساعة، فاجعلها طاعة، والنفس طمّاعة، فعوّدها القناعة) لذا يجب الاستعداد دائماً لهذ اليوم القادم الأكيد.

كقوله(**وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**)آل عمران/١٠٢ (**إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ**) إنه تصوير قرآني مجازي بلاغي دقيق وعميق لحالتهم النفسية المضطربة، من شدة الرعب والفزع الأكبر، تكاد قلوبهم المهمومة ترتفع عن أماكنها في الصدور لتبلغ الحناجر، وهو مكان البلعوم، فتعيقهم عن النَفس! كقوله(**وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**) الأحزاب/١٠ (**كَاظِمِينَ**) مغمومين مكروبين ممتلئين حزناً وغماً شديداً، محبوساً في صدورهم، لا يستطيعون إظهاره حتى لا يتحول إلى انفعال غير متوازن (**كَاظِمِينَ**) من كظم الغيظ، أي ردّ غضبه وحبسه في نفسه بالصبر عليه، وعدم إظهار أثره كقوله (**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ**)آل عمران/١٣٤(**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ**)من صديق شفيق، وقريب محب ينفعهم ولا صاحب يعطف عليهم كقوله(**فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ**)المؤمنون/١٠١، وقوله(**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**)الزخرف/٦٧، (**وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ**) ولا وساطة تشفع وتنفع وتقبل شفاعتها في هذا الموقف العصيب الرهيب!

١٩ - ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

خلق الله كل شيء، وأحاط به علماً في المظهر والجوهر كقوله(**وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا**) الأنعام/٥٩، وكذلك يعلم السرَّ وأخفى، ويعلم حركة العيون السريعة وأهدافها الوضيعة، ويعلم عندما تتوجه نحو الاستقامة وعندما تنحرف عنها، ويعلم الله الدوافع من كل حركة من كل الحواس، وهذه الإحاطة الدقيقة الكاملة من مقتضيات قدرة الله الخارقة، **المعنى (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)** يصوّر القرآن النظرة الخائنة للأعين وأضرارها الكثيرة، كقوله (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)النور/٣٠، **في غرر الحكم** (العيون مصائد الشيطان)! وأسند الخيانة إلى النظرة لا إلى الناظر مجاز، لإلفات النظر إلى أن الخائن هو الناظر (والعين) باب من أبواب القلب، والقلب نافذة للعين، عن النبي (ص) **(غضوا أبصاركم (عن المحرّمات) تروا العجائب)** البحار١٠٤ص٤١، لذلك ترى العلاقة الرابطة بين خيانة الأعين وبما تخفي الصدور، في الحديث(يا ابن آدم: النظرة الأولى لك، والثانية عليك) وتكون النظرة الثانية من قبيل زنى النظر المحرّم، مجمع البيان٨/٤٧٧**(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ) العين الخائنة**: لها أشكال وألوان، فتارة باستراق النظر، وأخرى بالإشارات الخفيّة والخفيفة للعين، وأخرى بالتلصص والتجسس، والنظر المشبوه الخبيث المحرّم، الذي فيه المكر والخديعة والريبة، وتارة بالغمز المحذور والهمز المقذور كقوله(**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ**)الهمزة/١، **الهمز**: يكون بالعين والحلق واليد، **واللمز**: يكون باللسان، **عن الإمام الصادق** (ع) **في الآية** (ينظر إلى الشيء وكأنه لا ينظر إليه) فذلك مصداق للآية، النور٨/١٩٩.

العين الخائنة: تخون مشاعر العفاف والنبل والوفاء وتلوث الفطرة، وتقمع النفس اللوّامة، وتدعم النفس الأمّارة بالسوء، وجميع نظرات العيون الخائنة تجتهد في إخفاء خيانتها، ولكنها مكشوفة لدى اللبيب، ولا تخفى على الله، للدلالة على دقة علم الله **(وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)** السر المستور تخفيه الصدور، ولكنه مكشوف لعلم الله، الذي لا تخفى عليه خافية كقوله **(وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)**ق/١٦ **(وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)** ويعلم ما تضمره القلوب، وتستره النفوس، وتكتمه الضمائر من أسرار مستورة، وخفايا تخفيه الصدور كقوله(**فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى**)طه/٧، **فائدة**: قال قاضي لشهود الزور: لئن عميتم عن قضاء الأرض، فلن تعموا على قضاء السماء، فاعترفوا بالحقيقة.

٢٠ -﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ)

الله عز وجل هو الحق، ويحبّ الحق وأهل الحق، لأن قوله حق، وخلقه للكائنات بالحق، والله يحكم بالحق، والعدل والإحسان، ويقضي بالصدق والإنصاف، عن علم وخبرة وإحاطة، وعن سمع ورؤية، فلا يظلم أحداً، ولا ينسى شيئاً، ولا يحكم بالظلم، ولو عامل الله الناس بالحق

المطلق لأهلكهم، ولكنه يدعم حقّه بالرحمة والإحسان إليهم، فيضاعف لهم الحسنة بأحسن منها، ويجازي بالسيئة بمثلها، ويحاسب على مثقال الذرة ويجازي عليها، ولا يقاضي بالحق في الآخرة غيره، وحده لا شريك له كقوله **(وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)** الانفطار/١٩ **(وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ)** والذين يتعلّقون بهم المشركون (من دون الله) من أشكال المخلوقات **(لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)** لأنهم مملوكون، لا يملكون مع الله شيئاً حتى سمعهم وأبصارهم، وهذا يشمل كل ما عبد من دون الله، بشكل مباشر أو غير مباشر، هؤلاء لا حكم لهم أصلاً، فكيف يكونون شركاء لله؟ فاعبدوا الذي يقدر على كل شيء ولا يخفى عليه شيء، لأنه وحده **(السَّمِيعُ)** لجميع الأصوات، باختلاف الأجناس واللغات، ويسمع جميع الحاجات، بلسان الحال أو بلسان المقال، فيقضي الله لهم بالحق **(الْبَصِيرُ)** بأفعالهم بما كان وما يكون، وما يعلمه العباد وما لا يعلمون، فيجازيهم بما عملوا. **فائدة:** أما أصحاب الرياسة الباطلة، وأصحاب حبّ المال وحبّ الدنيا والمناصب والجاه...هؤلاء لا يقدرون أن يقضوا بالحق.

٢١- ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾

تدعو الآية لدراسة السنن التاريخية، والاستفادة منها في حياة الأمم الماضية، كيف عاشت، وكيف ماتت؟ فلا قيمة لحركة التاريخ دون الاستفادة منه في الحاضر والمستقبل كقوله **(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)** آل عمران/١٤٠، **في غرر الحكم**(السعيد من وعظ بغيره) **المعنى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا)** سافروا في بقاع الأرض المختلفة بقلوبكم وعقولكم وأبدانكم، وانظروا نظر تفكّر واعتبار، نظر سياحة واستثمار، والذي يسير للسياحة والسفر فعليه الاعتبار، وكل اعتبار تقوية للاستبصار، والذي يسير للسفر والاستثمار فعليه أن لا يمنع نفسه من الاعتبار أيضاً، والنظر في عاقبة الأمم الماضية، والذي لا يتعظ بالماضين كان عبرة للباقين، عن الإمام الباقر (ع) (من لم يجعل له من نفسه واعظاً، فإن مواعظ الناس لن تغني عنه شيئاً)البحار٧٨/١٧٣، **في غرر الحكم**(الاعتبار يفيد العصمة) **(كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ)**من الأمم والأجيال المكذّبة لرسلهم **(كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً)** في المال والعلم والسياسة والسلطة والحكم والقدرة العسكرية والجسدية، وكبر الأجسام (العماليق) وأكثر**(وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ)** وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها، حيث بنوا المدائن الحصينة الباهرة، والقلاع المنيعة الشاهقة، والقصور المشيدة العالية، وتقدمهم الزراعي، ولا يمكن مقايستهم بزعماء مكة، ومع كل ذلك**(فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ)** ولكنهم مع هذه القوة، كانوا ضعافاً أمام بأس الله كقوله **(وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)**آل عمران/٤ فكانت ذنوبهم وفسادهم وسوء أعمالهم وبالاً عليهم.

(وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ)من واقٍ: من مانع يمنع العذاب عنهم، ولا دافع يدفعه، ولا حافظ يحفظهم من عذابه، كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى)النازعات/٢٦، **في غرر الحكم** (كل نظر ليس فيه اعتبار فهو سهو) ولا واقي إلاّ الإيمان والعمل الصالح، وهما سبيل النجاة بعنوانهما الكبيرين.

٢٢-﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

رغم كونهم أشد منهم قوة وأكثر آثاراً في الأرض، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصنعوا وقاية لهذه الحضارة، بل صنعوا سبباً لانهيارها، لأنهم فقدوا مقومات الإيمان، وتمردوا على الرسالات السماوية، **في نهج البلاغة خطبة ١٥٤**(العامل بغير علم كالسائر على غير الطريق الصحيح، لا تزيده سرعة السير إلاّ بعداً عن الصواب) والذي لا يعرف كيف ينتهي، لا يعرف كيف يبدأ، والذي لا يعرف لماذا يموت، لا يعرف لماذا يعيش؟ ويجهل فلسفة الحياة؟ **عن النبي(ص)**(خير الأمور خيرها عاقبة)البحار ٣٦٣/٧١، **المعنى**: **(ذَٰلِكَ)** الهلاك الذي قضاه الله عليهم كان بسبب أنه (**كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ**)بالمعجزات الباهرات الخارقات الواضحات، وإلقاء الحجج الكافية عليهم (**فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ**)واستأصلهم من الوجود (**إِنَّهُ قَوِيٌّ**) قادر على كل شيء كقوله(**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**)البروج/١٦ (**شَدِيدُ الْعِقَابِ**) لمن يستحق العقاب. **فائدة**:١- (**تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم**) الأنبياء(ع) كانوا يسعون إلى لقاء الناس، وإلقاء الحجة عليهم، ولم ينتظروا أن يأتي الناس إليهم!، ٢- (**فَكَفَرُوا**) الكفر يدعو إلى الانفلات من القيود، والتحرر من الحدود كقوله (**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**)الطلاق/١ .

٢٣-٢٤-﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾

هذه لمحة جديدة ومفيدة عن قصة موسى في هذه السورة، وتختلف في بعض ملامحها عن العروض الأخرى في السّور القرآنية المختلفة، وكل سورة تعرض القصة بلمحات حركية نموذجية، ولقطات مميزة تختلف عن سابقتها، **فمثلاً**: تحدثت سورة النازعات عن غطرسة فرعون (**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ**)النازعات/٢٤، وفي سورة الشعراء/٦٣، ذكرت انفلاق البحر(**فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**) ولم تذكر في السور القرآنية الأخرى، وفي هذه السورة تناولت (مؤمن آل فرعون) ولم تذكر في السور الأخرى... وهكذا، وبمجموع هذه اللّمحات الحركية المهمة من جميع السّور القرآنية، تتكامل قصة موسى(ع) وأخذ العِبرة الوافية منها، وهذا من أسباب تكرارها، **عن النبي**(ص) **(لتركبن سنة من كان قبلكم حذوا النعل بالنعل**، والقذة بالقذة، ولا تخطؤن طريقهم شبر بشبر، وذراع بذراع، وباع بباع، حتى إن لو كان من قبلكم دخل حجر ضب(متاهات) لدخلتموه)مواهب الرحمن٢٣٠/٦.

المعنى: (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا**)بمعجزاتنا الواضحة التسع وهي: العصا واليد البيضاء، والجراد والقمّل، والضفادع والدم، والطوفان والقحط، ونقص الثمرات(**وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**) وعززناه بالحجة القاطعة والبرهان المقنع، وبالمنطق الرصين المؤثر، وبهيبة مستمدة، وبالتسديد والتأييد من الله، وبقدرة غيبة إلهية باهرة، ترغمك أن تتأثر بها مختاراً، وتدخل في مشاعرك وتحركها بلا استئذان، وكان هذا السلطان المبين سبباً منع فرعون من قتله!،٢٤-(**إِلَىٰ فِرْعَوْنَ**) الطاغية المتكبر المتجبّر وصاحب الجيوش العظيمة (**وَهَامَانَ**) المخطط الاستراتيجي للسياسة الفرعونية الشيطانية المجرمة وهو المقرّب لفرعون، (**وَقَارُونَ**) رمز الطغيان المالي، ورمز الخيانة والغرور والكبرياء، وكان يوالي فرعون ويحرّضه على بني إسرائيل، الذي هو منهم، وقد بعث الله موسى(ع) إلى هؤلاء الثلاثة بالذات، لكونهم أصولاً ينتهي إليهم كل فساد وظلم وفتنة، فهم وفرعون على نفس الشاكلة، في الغطرسة والكبر والعناد، لذلك جمعهم على السواء (**فَقَالُوا**) جميعاً هذا (**سَاحِرٌ كَذَّابٌ**)لتسقيط شخصية النبي، وبث الشائعات المغرضة ضده، وكان الناس تابعين لهم، منساقون إليهم كانسياق القطيع! **فائدة: قارون: كان من بني إسرائيل، ابن عم موسى،** وكان مؤمناً في الأوائل، وأعلم بني إسرائيل، وحافظاً للتوراة، ثم أغراه المال والجمال وحسن الحال، والجاه والمنصب وتغيّر حاله وكفر!، فألحقه الله بفرعون وهامان رموز الكفر والطغيان. كقوله (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ) الأعراف/١٧٥.

٢٥-﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

(**فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا**) فلما أتاهم بالدين الحق، والمعاجز الباهرات، وأمرهم بتوحيد الله، كبر عليهم أن يقبلوه، واستخدموا منطق الطغيان الغليظ، والقسوة المفرطة و(**قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ**) قالوا غيظاً وعجزاً عن معارضة موسى أي أعيدوا عليهم القتل لأبنائهم، وأن فرعون أمر بالقتل قبل ولادة موسى(ع) ففعله زماناً طويلاً، ثم كفّ عنه، فلما بعث موسى وجاءهم بالبيّنات القاهرات، أعاد القتل غيظاً وعجزاً، ولكن الله شغلهم عن ذلك، بما أنزل عليهم من أنواع العقوبات، إلى أن خرج بنو إسرائيل من مصر(**وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ**)واستبقوا نساءهم أحياء للخدمة والاستذلال والفساد، لئلا يؤمن به أحد، وبقوا في رق فرعون وسطوته(**وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ**) وتخطيطهم ومؤامراتهم للقضاء على الحق(**إِلَّا فِي ضَلَالٍ**)إلا في ضياع، ولم يؤثر على أرض الواقع، ولم يصلوا إلى أهدافهم كقوله (**إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، وَأَكِيدُ كَيْدًا، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا**) الطارق/١٥-١٧.

(يدبّر المدبّرون والقضاء يضحك)!

٢٦-﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ) لحكومته ومستشاريه الذين يشيرون عليه بإبقاء موسى وتحدّيه كقوله**(قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ)**الشعراء/٣٦ **(ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ)** **ذروني**: اتركوني **(أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ)** لينجيه من يدي، وليخلّصه من القتل إن قدر! وتشير كلمة**(ذَرُونِي)** إلى أن شيئاً يصدّ فرعون ويمسك به، وأنه يعاني من مشاعر نفسية خفيّة قلقة ومخيفة له، وتحذره من الانتقام من موسى هذا العدو المخيف!، وأن الخوف من قتل موسى كان يملأ كيان فرعون، أكثر مما يشير إلى الاستخفاف به، وعدم المبالاة منه كقوله (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ)آل عمران/١٥١ **كما يقول القائل**: ذروني أفعل كذا، وما كان فليكن! فلما عزم فرعون على قتل موسى، فهو يريد أن يتحمل هذه المخاطرة، ويكسر هذا التردد الحاصل، أيّاً كان الثمن ! سُئل الإمام الصادق(ع) في الآية، **ما كان يمنعه من قتل موسى؟** (قال: منعته رشدته، ولا يقتل الأنبياء ولا أولاد الأنبياء إلاّ أولاد الزنا)نور الثقلين٤/٥١٨، كان يعتقد فرعون بأن موسى على حق، وأنه مرتبط بقوة غيبية قاهرة، إنها قوة الله عز وجل، ولكن حبّ السلطان والجاه والتسلّط قد جعله يؤثر ما هو فيه من ضلال وخداع، على هذا الحق الرصين الذي يدعوه إليه موسى**(وَلْيَدْعُ رَبَّهُ)** سخرية بموسى وبدعوته، إنه في منتهى الكبرياء والإعجاب بالنفس والكفر بالله! وذكر السبب في قتله **(إِنِّي أَخَافُ)**إن لم أقتله **(أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ)** وعقيدتكم ألتي أنتم عليها الآن، بدين التوحيد السماوي **(أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ)** أو يفسد عليكم دينكم، ويتمرد هو وأنصاره بإثارة الفتن، ويحرّض الناس عليكم، ويمزّق وحدتكم ويقضي على دولتكم بزرع الخلافات بينكم، وتتعطّل موارد الدولة، وهذه كلمة كل طاغية جبار مفسد، عن كل داعية مصلح يقول الحق. كقوله (وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ)ص/٥٥ .

٢٧-﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

(وَقَالَ مُوسَىٰ) لقومه لما سمع بعزم فرعون على قتله، اعتصم بربه وتوجه إليه بانقطاع ودعاه بإخلاص، وتوكل عليه كقوله**(وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا)**النساء/٤٥، وقوله**(قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا)**الأعراف/١٢٨**(إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم)**إني لذت ولجأت واعتصمت بربي وربكم الذي هو أقوى منك ليحميني من بطشك وطغيانك، بشرط أن استعيذ به وألجأ إليه، وهذا الدعاء دليل على الوثوق العالي بنصرة رسالته، وأن الله معه يؤيده ولن يسلمه، فطمأن الله قلبه، وسلم أمره إلى المستعلي على كل متكبرّ**(مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)**أي اجتمعت فيه خصلتان: متكبر على الله متجبر على الناس، وظالم وقاسي القلب،

ولا يؤمن بيوم القيامة، ولا يذعن للحق، ولا يؤمن بقدرة الله القاهرة لكل القدرات، عن الإمام الباقر(ع) (الدعاء يردّ القضاء وقد أُبرم إبراماً)الكافي٢/.٤٦٩

٢٨ -﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾

الآية ظاهرها أنيق، وباطنها عميق، ولها دلالات حركية واسعة، يعرض القرآن الكريم نموذج في قوة الشخصية الإيمانية الواعية، التي تقف المواقف الواعية، ويحيا الإنسان بمواقفه المميزة أكثر مما يحيا بعمره المحدود، وساعة شجاعة تعادل العمر كله! تعرض الآية منطق (**مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ**) بجدارة، وفي حذر ومهارة، وفي أجواء قمعية خطرة، وهو في قوة الشخصية يسلكها بتوازن هذا الرجل المؤمن القدوة (**يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**) الذي هداه الله إلى الحق في ظروف الضلال الكبير، ومع تأثير الحق في قلبه، ولكنه كتم إيمانه في أجواء يحذر فيها إعلان الإيمان، وإخراج قلبه صافياً سليماً من بين قلوب الظالمين القساة من آل فرعون، وقد بدأت نصائحه المؤثرة في وقتها المناسب، في مكانها المناسب، بأسلوبها المناسب، بتأثيرها المناسب، بتفظيع ما هم مقدمون عليه من جريمة نكراء في قتل موسى! **المعنى**: (**وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ**) وآل الرجل خاصته، وهو ابن عمه ووزيره ومستشاره، ومن وجهاء القوم، وولي عهده، والذي نجا مع موسى بعد انفلاق البحر، وكان قبطياً، وهو الذي أنذر موسى بعزم فرعون على قتله، فنصحه أن يخرج من مصر.

(**يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**) **يكتم**: يخفي ويستر، لا خوفاً بل ليكون كلامه في محل التأثير، وعن تدبير محكم وتقدير، وسياسة حكيمة هادئة شفافة مدروسة (**يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**)معناها أن الإيمان يحاول أن يبرز في تصرفات الرجل، ولكنه حريص على إخفائه وعدم إظهاره للآخرين، للمحافظة على السرية المطلوبة، **عن النبي**(ص) (**استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان**) **عن الإمام علي**(ع)(سرِّكَ أسيرك، فإن تكلمت به صرت أسيره)! ليستطيع أن يقول كلمة الحق، ولو أعلن إيمانه لما استطاع أن يدافع عن موسى، وعرّض نفسه للخطر، بلا موقف جهادي مطلوب، وهذا يشبه موقف أحد الصحابة عندما قال له النبي(ص)في غزوة الأحزاب، أكتم إيمانك وخذّل عنا الأعداء، وكما منع الله الأعداء عن رسوله مُحَمَّداً(ص) بعمه أبي طالب، وكان أبو طالب يكتم إيمانه عن قريش، يشبه مؤمن آل فرعون، ولو أعلن إيمانه لما استطاع أن يدافع عن مُحَمَّد (ص) فكانت (**التقية**) **سلاح المؤمن**، وهي مبدأ قرآني تربوي نموذجي، في ظروف استثنائية خاصة، كما كان موقف عمار بن ياسر مع المشركين كقوله (**إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً**)آل عمران/٢٨، **عن الإمام الصادق**(ع) (**التقية: ديني ودين آبائي**، ولا دين لمن لا تقية له، والتقية ترس الله في الأرض، لأن مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل) الأمثل١٥ص٢٣٠، **عن الإمام الباقر**(ع)

(**التقية:** في كل شيء يضطر إليه ابن آدم فقد أحله الله له) الكافي٢/٢٢٠، وعند الضرورات تباح المحضورات كقوله (فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ)البقرة/١٧٣.

(**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ**)استفهام إنكاري للتقريع، (**يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ**) هل هذه جريمة لا تغتفر، يرد عليها بإزهاق روحه؟ إنها فعلة متجبرة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة! كقوله (**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**)البروج/٨، فلا يوجد سبب يوجب قتله، ومعه حجته المقنعة، وفي يده برهانه القاطع(**وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ**)وقد جاءكم بالمعجزات الباهرات من ربكم، فكلام موسى لا يحتاج إلى ردة فعل شديدة كهذه(**وَإِن يَكُ كَاذِبًا**)يقولها بتلطّف وشفافية، ولم يوح إليه شيء(**فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ**)كان ضرر كذبه على نفسه دونكم، وحبل الكذب قصير، والله سيعاقبه ويفضحه ويفشله ولا يضرنا منه شيء(**وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ**) كما يجب أن نحتمل صدقه، وهو يمتلك بعض الأدلة القوية الذي أصابكم بعض ما يعدكم من أنواع العذاب، فلا يجوز قتله في جميع الأحوال، وهو رأي بعيد عن الصواب والمنطق العقلي وحقوق الإنسان (**إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ**) والله لا يرشد إلى جنته وثوابه من هو متجاوز حدود المعاصي، كذّاب على موسى وربه وعلى الناس، بل يفضحه في الدنيا قبل الآخرة، بل هو يفضح نفسه بنفسه، لأنه يقف دائماً على شفير الهاوية.

معنى الإسراف: كل تجاوز للحدود مهما كان نوعها، مثل: إسراف في المأكل والمشرب والمسكن والإنفاق.. أو كان الإسراف في التعامل السيء مع الناس، وفي الأخلاق المذمومة.

فائدة: عن النبي(ص) (**الصدّيقون ثلاثة**: حبيب النجّار (مؤمن آل ياسين)، مؤمن آل فرعون(حزقيل) وعلي بن أبي طالب، وهو أفضلهم)الأمثل١٥/٢٣١، **عن النبي(ص)** (جاملوا الأشرار بأخلاقهم تسلموا من غوائلهم (مكرهم) وباينوهم (خالفوهم) بأعمالكم كيلا تكونوا منهم)البحار٧٤/١٩٩.

٢٩-﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾

جاءهم من حيث يحبون، حتى ينتهي معهم من حيث يحبّ هو، فأعطاكم الله متاع الحياة الدنيا ويختبركم فيها، فلا تأمنوا مكر الله(**فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**)الأعراف/٩٩، **عن النبي(ص)** (إنّ الله يعطي الدنيا لمن يحبّ ولمن لا يحبّ، و لا يعطي الدّين إلا لمن يحبّ) المراغي١٨ ص٣٢، **في غرر الحكم**(المؤمن من وقى دينه بدنياه، والفاجر من وقى دنياه بدينه)!

المعنى: (**يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ**) **ظاهرين**: غالبين وحاكمين في أرض مصر، ولكم القوة والمناعة، ولكم الحكم والطاعة، فأنتم أحق الناس أن تحذروا بأس الله وانتقامه

(ودوام الحال من المحال) فاحذروا من يوم نعرض فيه على الله، يوم حاسم لا طاقة لنا ببأسه ومواجهته، فلا تفسدوا عليكم أمركم، ولا تتعرّضوا لبأس الله بقتله **(فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا)** هل تأمنون على أنفسكم من غضب الله وضرباته؟ ومن تقلّب الدهر ونكباته؟ إنه يشعرهم أن أمرهم يهمّه وهو مشفق عليهم، وهو واحد منهم ينتظر مصيره معهم، ويظهر أن هذا الكلام أثّر إيجابياً في حاشية فرعون، فبادر فرعون بقطع كلامه **(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ)**ما أشير عليكم إلاّ بما أراه حقاً وخيراً وصلاحاً لي ولكم، ورأيي فوق الآراء، لقطع دابر الفتنة، وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس ويحذرهم عن اتباع موسى خير الخلق، وهذا من أساليب التمويه والتزوير وخداع الرأي العام كقوله**(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)**الزخرف/٥٤، وقوله**(وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ)**طه/٧٩ **(وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ)** لا أشير عليكم برأي رشيد فيه الصواب والسداد، سوى ما ذكرته من وجوب قتل موسى، وتكذيبه، واتخاذي إلهاً، كقوله (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي) القصص/٣٨، وبهذا الرأي نحسم الفتنة!

٣٠-٣١-﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ۝ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾

ويستمر (مؤمن آل فرعون) في دعوته الناصحة لقومه، وتحذيره، ولم تصده كلمة فرعون عن أن يكمل نصيحته وتحذيره من حركة سنن الله في الماضي والحاضر والمستقبل كقوله **(سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)**غافر/٨٥، **المعنى: (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ)** إن كذبتم موسى وتعرضتم له بسوء، أن يحل بكم مثل ما حلّ بالذين تحزّبوا وتجمعوا ضد أنبيائهم من الأمم الماضية الكافرة، ٣١-**(مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ) الدأب**: العادة والطريقة والحالة المألوفة عليها، وسنة الله لا تزال فعّالة، أي مثل ما أصاب الأمم الماضية المكذبة، التي تحزّبت واتّفقت بالأذى والتنكيل على أنبيائها الكرام**(وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ)**ما أهلك الله هذه الأمم ظلماً لهم بغير جرم ارتكبوه كقوله**(وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)**يونس/٤٤. **فائدة**: سمّي **(يَوْمِ الْأَحْزَابِ)**جمع الأحزاب ووحّد اليوم، فهو يوم واحد في مقام العقيدة، تعاون فيه جميع الظالمين على الإثم والعدوان، مع أنه جرى في عدة أيام، فكان لكل قوم يومهم المناسب لهلاكهم، وأن جريمة القوم واحدة، والحكم عليهم واحد، فكأنهم أدينوا في يوم واحد، لأن الحالة واحدة ومشتركة بينهم، وإن اختلف المكان والزمان بينهم، كقوله**(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا)** الكهف/٥٧ .

٣٢-٣٣-﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾

بعد أن خوّفهم العذاب الدنيوي، خوفهم أيضاً العذاب الأخروي، **المعنى:** (**وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ**) **يوم التناد:** من أسماء يوم القيامة، يوم النداءات المتفاعلة، يوم النداءات المتنوعة، يوم التنادي من هنا وهناك، يوم رهيب عجيب حاسم لكل ملهوف، يوم له صوّر شتى، يوم زحام وخصام، يوم ينادي الملائكة الناس في يوم المحشر، يوم ينادي الناس بعضهم بعضاً، يوم ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة (وبالعكس) يوم ينادى فيه الموتى من قبورهم، فإذا هم قيام ينظرون كقوله (**وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ**)ق/٤١، يوم ينادي الجميع بالويل والثبور، من شدة ما يرون من أهوال رهيبة من الفزع الأكبر كقوله (**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**)الإسراء/٧١،يوم (**وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ**) الأعراف/٤٨ (**يَوْمَ التَّنَادِ**)يوم الاستغاثات الملهوفة المتنوّعة، يوم مخيف حاسم مفزع رهيب، يوم المعونات وطلب المساعدات بعضكم من بعض،٣٣- (**يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ**)يوم تفرون مسرعين فارين من النار، من شدة عذابها لتتخلصوا منها فتردوا إليها كرهاً(**مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ**) من دافع ومانع يمنع عذابه عنكم، ولكن أين يهربون؟ وأين يذهبون؟ وإلى أين يتّجهون؟ فلا عاصم ومنقذ ينقذهم من الله(**وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**) **من هاد:** من منقذ ومخلّص يرده عن الضلالة إلى الهدى، لأن للهدى أسبابه التي خلقها الله، ويختارها الإنسان بإرادته، فإذا استكبر عليها سلبه الله رعايته، فلا يملك أحد أن يحقق له الهداية والحماية والدراية كقوله(**إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ**)البقرة/١٢٠، والله تعالى يعلم من يستحق الهدى فيهديه، ومن يستحق الضلال فيضله كقوله(**فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ**) النحل/٣٦.

٣٤-﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾

ويستمر (مؤمن آل فرعون)في نصيحته لقومه، ويذكّرهم برسالة يوسف الصّديق (ع) وكيف وقفوا موقف الشك من رسالته، وما جاءهم به من الآيات، فلا يكرروا الموقف من موسى، وهو يصدّق ما جاءهم به يوسف، كقوله (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ)الحج/٧٨، **عن النبي(ص)** (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)كنز العمال خبر٤٣٥٨٨، الجهاد بالحجة والبرهان هو أكبر من الجهاد بالسيف والسنان، **المعنى:** (**وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ**) بالمعجزات الباهرات الواضحات، التي لا تدع مجالاً للشك في رسالته من الله(**فَمَا**

زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ)أي في شك من نبوة يوسف الصديق ورسالته الحقة، فلم تؤمنوا به، وكذلك أنتم تشكّون في نبوة موسى التي تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له(**حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ**)إذا مات أقمتم على كفركم وظننتم و(**قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا**)فالتكذيب متوارث، والعناد قديم، والريب عادة آبائكم الطغاة الماضين، وقد نسب تكذيب الآباء إليهم ، لما تقدم من أن الأمم متكافلة فيما بينها، إذا اتّبعوا التقليد الأعمى، فينسب ما حدث من بعضها إلى جميعها لرضاهم عليه وسكوتهم عنه وتأييدهم له، كما عقر ناقة صالح شخص ساقط واحد، ولكن عبّر القرآن عنه بصفة الجمع فقال(**فَعَقَرُوهَا**)الشمس/١٤، لأنهم شركاء في الجريمة، كقوله (وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)الجاثية/١٩ **في الحديث** (الراضي بالظلم كفاعله) تفسير الكاشف٥/٣٢.

(**كَذَٰلِكَ**) مثل ذلك الضلال (**يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ**) متجاوز لحدوده الحمراء في الشك في رسالة الأنبياء، ومسرف في عصيانه مع كثرة الأدلة على ضلاله وفساده كقوله(**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**) الصف/٥ وقوله (**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**) المطففين/١٤ (**مُّرْتَابٌ**) شاك في دينه، لغلبة الجهل والعناد والفساد عليه. **فائدة: (كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ) معنى إضلال الله:** هو سلب التوفيق إلى سبيل الهداية والدراية، وتركهم وما يختارون لأنفسهم (وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)البقرة/١٥ بسبب إصرارهم على الكفر والإسراف في الذنوب، والاعتداء على الناس، كقوله (**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ**)فصلت/١٧.

٣٥-﴿**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾

(**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ**)الجدال بلا علم يضر ولا ينفع، الجدال الذي يفرّق ولا يوحّد، وهو الجدال السلبي، الجدال بالباطل، الجدال بلا حجة ولا برهان كقوله(**وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**)غافر/٥، **عن النبي(ص)** (ما ضلّ قوم إلاّ أوثقوا الجدل) البحار٢/١٣٨، بل مجرد جدال فارغ للطعن والعبث والعناد والتشويش وضياع الوقت، وزرع الكراهية في النفوس، يعرضه القرآن في أبشع صورة منكرة، إنّ المسرفين المرتابين، والكافرين المنكرين لآيات الله هم الذين يجادلون ويخاصمون بالباطل (**فِي آيَاتِ اللَّهِ**) في حجج الله، المنتشرة في الكون والكائنات، والرسل والرسالات، وفي العقيدة والمعتقدت، يخاصمون بعنف وتعنّت (**بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ**)بغير دليل علمي، ليدحضوها بالباطل من الحجج الجدلية التي لا مستساغ لها من عقل ولا نقل ولا علم، فيتمسّكون بتقليد الآباء والأجداد والأعراف السائدة، التي هي عادات جاهلية فاسدة، وهي غير مقبولة عند أهل الرأي والفضل والعلم كقوله(**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**) يونس/٣٩(**كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ**

الَّذِينَ آمَنُوا) المقت: أشد البغض، كبر تعجباً ونفوراً واستعظاماً لجدالهم المكروه المذموم، الجدال بلا علم، فهو من الذنوب الكبيرة، والتجاوزات الخطيرة، لضرره الكثير والخطير، فمقت الله إيّاهم يكون بما يستتبعه من سوء العذاب، ومقت المؤمنين تظهر آثاره في هجرهم إيّاهم، والحذر الكامل من التعامل معهم، وعدم الركون إليهم في الدين والدنيا والعمل السياسي.

كقوله (**وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**)هود/١١٣،ثم بين أن هذه سنة الله فيهم وفي أمثالهم (**كَذَٰلِكَ**)مثل ذلك الطبع والختم الذي فعله على قلوب تلك الجماعة المتكبرة الجبارة كعقوبة لهم على أنفتهم وغرورهم، فلا يفقهون حجة علمية، ولا يركنون إلى دليل قطعي وبرهان منطقي، والذي يعشق الكفر والفساد والعناد، فيختم الله على قلبه بها فيحجبه عن نور الإيمان.

(**يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**)مريض القلب، متكبر جبار في نفسه، ومتكبر جبار على الحق، ومتكبر جبار على الخلق باحتقارهم، متكبر جبار بجبروته وكثرة ظلمه وعداوته على البلاد والعباد، متكبر ويتعالى أن يوحّد الله ويستقيم في الحياة، فيختم الله على قلبه بالكفر الذي أراده، فيحجبه عن الإيمان، ويعشقه الشيطان عدو الإنسان، كقوله (**الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ**) محمّد/٢٥، كما فعل الخوارج الذين نطقوا بكلمة الحق للخروج عن طاعة الحق، إنها كلمة حق يراد بها باطل كقوله(**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ**)الإسراء/٨١، **فائدة: (قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ)** ونسب التكبر إلى القلب، لأنه سيد الأعضاء، ومركز المشاعر، ومنبع الأحاسيس، فإذا صلح القلب صلح الجسد، وإذا فسد القلب فسد الجسد، لأن القلب إمام الجسد، وأن القلب هو الذي يتكبر فيعمى، وسائر الأعضاء تبع له كقوله (**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**)الحج/٤٦، وقوله(**وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا**)الأسراء/٧٢، يعني أعمى عن الحقائق الموجودة، **عن النبي**(ص) (شر العمى عمى القلب) البحار١١٤/٧٧. **عن النبي** (ص) (إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)المراغي٧٠/٢٤، **عن الإمام الباقر**(ع) (العقل مسكنه القلب)البحار٩٨/١.

٣٦-٣٧-﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾

يبدو أن منطق (مؤمن آل فرعون)وحجته القوية المؤثرة، كانت من شدة وقعها على مشاعرهم، بحيث لم يستطع فرعون ومن معه تجاهلها، فاتخذ فرعون لنفسه مهرباً جديداً، وتقدم في القصص/٣٨، لقد تحيّر فرعون في معارضته لموسى(**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا**)برجاً عالياً مكشوفاً ظاهراً، ويصنع له في أعلاه رصداً يرصد فيه الأوضاع السماوية الدقيقة (**لَّعَلِّي**

أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ) لعلي أصل إلى الطرق التي توصلني إلى رب موسى!، ٣٧-(**أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ**) أي طرق الصعود إلى السماوات العلى ليكتشف وجود الله في مكان عالٍ، لو كان ساكناً في السماء!، فهو لا يريد أن يبحث عن الله، بل يريد أن يرى الله ببصره لا ببصيرته، ولو بحث عن الله وجده، ومن سعى إلى معرفة الله قربه الله إليه، **عن الإمام علي**(ع) (**من صبر على الله وصل إليه**) البحار٧١ ص٩٥ كقوله (**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**)النور/٣٥ عن النبي (أفضل الإيمان، أن تعلم أن الله معك حيث ما كنت) كنز العمال خبر٦٦ كقوله (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) الحديد/٤.

(**فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ**) وأجمع معلومات عنه، وأنظر إليه هناك، وإني أعتقد أنه لا إله في الأرض غيري! فهو يريد أن يرى الله جلّ في علاه، مجسّداً أمامه فيراه بحاسة بصره المادية المحدودة، ولا يراه بحقيقة بصيرته المعنوية الممدودة واللامحدودة!، وعينه عاجزة أن ترى نفسه العزيزة التي بين جنبيه، **في غرر الحكم**(من عرف نفسه فقد عرف ربه، وكان لغيره أعرف، ومن جهل نفسه، كان بغيره أجهل) (**وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا**)هكذا يموّه ويخادع فرعون نفسه وحكومته وشعبه، ويحاور ويشاطر ويداور كي لا يواجه الحق جهرة، ولا يعترف بالله الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد (**وَكَذَٰلِكَ**) أي مثل ما زيّن للكفار سوء أعمالهم فرأوها حسنة (**وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ**)وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، والشيطان وجلساؤه الشياطين من الإنس الذين حوله، جعلوا له الحسن قبيحاً، وأروه الحق باطلاً، والباطل حسناً، كقوله(**أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**)فاطر/٨، وقوله(**وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**)الأنفال/٤٨ (**وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ**)ومنعه عن سبيل الهداية والخير والصلاح (**وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ**)وما مكائد فرعون لإبطال دعوة موسى (**إِلَّا فِي تَبَابٍ**)هلاك، وما أساليب فرعون الجهنمية، وأضاليله الباطلة، إلاّ جولة فاشلة، وصفقة خاسرة تعود عليه بالهلاك في عاقبة أمره، ولو بعد حين لأن المقدمات السيئة تقوده إلى النتائج السيئة، وهكذا الذي لا يعرف كيف ينتهي، لا يعرف كيف يبدأ؟ **فائدة: هكذا كل طاغية يصغّر الحقيقة الكبيرة ويجعلها على مقاسه،** ويراها بحسب عقله ومستوى فكره، وليس هو الذي يرتفع إلى فهم الحقيقة، والتعلّم منها، والوصول إليها كقوله (**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**)الأنفال/٥٥، **في غرر الحكم**(شر الناس الطّويل الأمل، السّيء العمل).

٣٨-٣٩-﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾

ويعود (مؤمن آل فرعون) ليؤكد الحقيقة التي عرضها من قبل، فاستثمر الفرصة السانحة الحرجة ليقول كلمته المقاومة صريحة فصيحة بالحق الواضح، غير متخوّف من ردود الأفعال الخطيرة،

فيقررها الآن في مواجهة فرعون ورجالات حكومته الطغاة، ولكن فما الذي يجعل فرعون يسكت ويصبر عليه؟ ذلك أن للحق جولة وصولة، وهنا يلجم الحق الأفواه ويسكت الألسنة ويشل الأفكار، ويحول بين الجبارين وقلوبهم كقوله (**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**) الأنفال/٢٤ قال فرعون منذ لحظات(**وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**)٢٩، وقال هذا المؤمن الفدائي القدوة يتحدى بصراحة ادّعاءات فرعون، بكلمة الحق (**يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ**) ولا يخشى سلطاناً ولا تآمراً ولا طغياناً، إنها الكلمة التي قالها فرعون تمويهاً وضلالاً وخداعاً، يردّها المؤمن عليه حقاً وعدلاً. **عن النبي(ص)**(إنّ من أمّتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي)!مجمع البيان٣/١٤٤، **المعنى**: (**وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ**)اتبعون أدلكم طريق النجاة، فيسهل عليكم فرز الرشد من الغي، والهداية من الضلالة.

٣٩-(**يَا قَوْمِ**) إنّ سبيل الرشاد هو أن تعلموا(**إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ**)الدنيا كلها بكل شهواتها ليست إلاّ متاع، لا ثبات له ولا دوام، مهما كثر وتعدد وتنوّع فهو متاع قليل، تنتفع منه أياماً معدودات قصيرات ثم ينتهي بنهاية الأجل كقوله(**قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى**)النساء/٧٧، وهذا المتاع في حلاله حساب وفي حرامه عقاب، **متاع**: بمعنى المتعة والانتفاع منها، والمتعة بطبيعتها قليلة لذّاتها كثيرة تبعاتها، وإن كثرت خيراتها وتنوّعت نعمتها، ولكنها قصيرة مدّتها، وإن طالت في حساب الإنسان، فهي في حلالها مسؤولية، وفي حرامها مسؤولية، **متاع**: ولكنه لا قيمة له في عالم الخلود، والدنيا كلها بأسرارها تعادل ساعة، فاجعلها طاعة، والنفس طمّاعة، فعوّدها القناعة، فكيف بعمر الإنسان المحدود؟ فالدائم خير من الزائل، **قال بعض العارفين**: لو كانت الدنيا ذهباً فانياً، والآخرة خزفاً باقياً، لكانت الآخرة خيراً من الدنيا، فكيف والدنيا خزف فانٍ، والآخرة ذهب باقٍ)! روح البيان٨/١٨٥، والدنيا وسيلة لا غاية، وهي ممر لا مقر، وهي مزرعة الآخرة، وليس بعد الآخرة غاية ولا نهاية كقوله(**فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**)لقمان/٣٣(**إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**)هي الغاية وهي النهاية، وهي دار الخلود والاستقرار، وهي الهدف الحقيقي والنهائي لوجودنا، فاعملوا لها عملاً صالحاً نافعاً للناس، ويرضي الله تعالى يسعدكم فيها كقوله (**مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ**)الروم/٤٤، **من وصية الإمام علي(ع) لابنه الحسن(ع)** (إنك خلقت للآخرة لا للدنيا، و للبقاء لا للفناء، وللحياة لا للموت)شرح النهج١٦/٨٩، **البقاء الصحيح**: إنّ بقاءك إلى فناء، وفناءك إلى بقاء، فخذ من فنائك الذي لا يبقى، لبقائك الذي لا يفنى!

فائدة:١- (**إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ**)الإنسان كرّمه الله أحسن تكريم وجعله سيد الكون والكائنات، فلا بد أن تكون له حياة أطول من الكون كله، والحياة الخالدة طموح شخصي، وحاجة فطرية، ورغبة طبيعية لدى نفس الإنسان، فسيأتي يوم ينتهي كل ما في الكون كقوله (**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ**)إبراهيم/ ٤٨، حتى الموت ينتهي في الآخرة، فلا موت في عالم الآخرة، ويبقى الإنسان سيد الكائنات فلا بد أن يكون أطولها عمراً، وعليه أن يدرك دائماً أنه مخلوق من أجل الله جلّ في علاه، كما في الحديث القدسي(**يا ابن آدم**: خلقت الأشياء من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تنشغل بما هو لك، عمن أنت له)خواطر الشعراوي٢/١١٢٩، ٢-**العِبرة من القصة (مؤمن آل فرعون)**: هي حجة كافية على كل من يدّعي الإيمان بالله، ثم يسكت عن كلمة الحق، فقد جابه المؤمن الصالح الفدائي المقاوم الشجاع القدوة الحسنة، الكاتم لإيمانه، جابه الطاغية فرعون بكلمة الحق، غير مرتاع ولا هيّاب، وهو أعزل لا يملك إلاّ نفسه وعقيدته الحقة، والإنسان يحيا بموقفه البطولي أكثر مما يحيا بعمره المحدود!، وكل نبي من أنبياء الله جاهدوا وضحّوا وتفانوا في سبيل الله، وهم أفراد وحيدون كقوله تعالى لنبيه المصطفى (**فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ**)النساء/٨٤، **عن النبي (ص)** (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)كنز العمال خبر ٤٣٥٨٨.

٤٠ -﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

فقد اقتضت رحمة الله أن يضاعف الحسنات ، ولا يضاعف السيئات، رحمة منه تعالى بالعباد، وتقديراً لضعفهم، وتكريماً وإمهالاً لهم، **المعنى**: (**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً**) **السيئة**: الذنوب المحرّمة أو العادات المعيبة التي تسوء إلى نفس الإنسان في عاقبته لسوء جزائها(**فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا**) بلا زيادة في عقاب، ويضع العقوبة في حجم الجريمة، والقصاص على قدر الجناية، عدلاً وإنصافاً من الله سبحانه، لأن الله عادل، وقد يعفو لأنه رحيم كريم(**وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**) هذه دعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة في القيم الإنسانية، والعِبرة في قبول العمل الصالح عند الله هو أن ينطلق من (**الإيمان**)وليس من الذكورة والأنوثة كقوله (**وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**)المائدة/٥، والعمل الصالح هو النافع للناس، وكلما حَسُن العمل وازداد نفعه، وكان من الأعمال الضرورية وليس الكمالية، ازداد الطلب والحاجة إليه، وسمي الإنسان السعيد سعيداً، بمقدار ما ينفع ويعمل الصالحات، أي بمقدار ما يعطي ويقضي حوائج الناس، ويرفع من مستواهم المعيشي والحضاري العام، **في غرر الحكم**(خير الناس من ينفع الناس، وشر الناس من يضرّ بالناس) **علاقة الإيمان بالعمل الصالح علاقة عضوية متصلة غير منفصلة**، كعلاقة العبادات بالمعاملات، وعلاقة الأقوال بالأفعال، وعلاقة المدّعيات

بالحقائق والمصاديق، ومصداق العمل الصالح الإيمان، ومصداق الإيمان العمل الصالح(**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**)لأن الإيمان هو الروح التي تحيي العمل، وقاعدته الصافية السليمة الرصينة التي يستند عليها، وهذا الصفاء النفسي تؤهل المؤمن بالاتصال بالله عز وجل، بدلاً من أن يبقى جامداً في عمله المادي المحدود، الذي تأخذه جاذبية الأرض، ومتطلبات الجسد، ولا فرق في قيمة العمل الصالح بين إنسان وآخر، وبين الذكر والأنثى، وإنما الفرق بالتقوى.

كقوله (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**)الحجرات/١٣ (**فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ**) لأن عطاء الله للعاملين في سبيله لا حدود له ولا قيود، وليس له ميزان ولا معيار، بل عطاء أضعافاً مضاعفة، فضلاً من الله ورحمة، ولا يحصى لكثرته وتنوّعه كقوله(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**)البيّنة/٧ **عن النبي(ص)** (لا يقبل إيمان بلا عمل، ولا عمل بلا إيمان) كنز العمال خبر ٢٦٠.

فائدة: ١-(**يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ**) **الرزق**: عنوان عام لكل ما ينتفع به الإنسان، له معنى مادي ومعنوي، من مال وجمال وحسن حال، وعافية، وعلم، وذكاء، وصفاء، ووعي.. إلخ(**بِغَيْرِ حِسَابٍ**)إن الله يعطي أكثر من قدر الأعمال، وأكثر من قدر عاملها تكريما له، ويأتي إليك التكريم بسرعة دون انتظار، فهناك المكافآت والمفاجآت والمخبّآت، ٢-(**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**) يعمل الكافر عملاً صالحاً غاية النفع لوجه الخير، وحبّ التجارة، وفي ذهنه خدمة الإنسانية، ويكون له مجد التاريخ، وخلود الذكرى فقد عمل صالحاً ولم يكن الله في خاطره، فجزاؤه في الدنيا غنى المال والثروة والرفاهية والشهرة والاحترام والذكر الجميل.. إلخ، ولم ينل جزاؤه في جنة الآخرة كقوله(**وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ**) الليل/١٩-٢٠ ويأخذ هذا الإنسان أجره ممن عمل له، فالإنسانية تعطيه وتكرمه في الدنيا الشهرة وحسن الثناء عليه كقوله(**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**)الشورى/٢٠.

٤١-٤٢-﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ، تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾

لا يزال(**مؤمن آل فرعون**) يركّز توجيهاته، وقد تخلّى عن العمل بالتقية وكتمان الإيمان بشكل تدريجي مدروس، وكشف عن إيمانه المحضور ودعاهم إليه فنادى فيهم(**وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ**) الاستفهام للتعجب والتوبيخ، أي أنا اتعجّب من حالكم هذه، أنا أدعوكم إلى الخير والجنان وهو سبيل النجاة، إذا سرتم في سبيل الهداية والاستقامة، وأنتم (**وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ**) والشر والفساد، لأنكم تصرّون على الضلال والبقاء مع العائلة المالكة الحاكمة المؤدي إلى جهنم، وشتّان بين دعوته ودعوتهم، والإناء ينضح بما فيه، وكل ينفق مما

عنده (**تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ**) أي أشرك بالله في عبادته مالم يقم دليل على ألوهيته، فأفتري على الله بغير علم، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبح العيوب (**وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ**)وأنا أدعوكم إلى من استجمع صفات الالوهية، من كمال القدرة والغلبة والعلم (**الْعَزِيزِ**)الغالب على كل شيء، فتذل لعزته الجبابرة(**الْغَفَّارِ**)لمن تاب إليه من ذنوبه وآمن به. **فائدة**:١-تشعر الآية أن الألوهية لا بد لها من برهان علمي قاطع كقوله(**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**)البقرة/١١١ ٢-**سؤال**:كيف سكت فرعون على كلام هذا المؤمن الصالح؟ **الجواب**: أن الله تعالى أراد أن يدخل كلامه في قلب فرعون ليلقي الحجة عليه كقوله(**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**)الأنفال/٢٤.

٤٣-﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾

(**لَا جَرَمَ**) حقاً، حتماً، لا شك(**أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**)من عبادة فرعون الذي لا يملك لنفسه حسن العاقبة، فكيف يملكها لغيره، وكيف يكون إلهاً للناس وهو مخلوق لله تعالى له صورة خاصة وبصمة مميزة وهو تحت قدرة الله، عن الإمام علي (ع) (كل عزيز داخل تحت القدرة فذليل) البحار٧٨ص٥٤ (**لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا**) إذ لم يرسل نبياً من جهته إلى الناس ليدعوهم إلى عبادته، ليس له دعوة علمية راجحة فاضلة، وليس له أصول حقيقية نافعة ومؤثرة كقوله (**وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**)الأحقاف/٦(**وَلَا فِي الْآخِرَةِ**) وليس له دعوة في عالم الآخرة، إذ لا يرجع إليه أحد فيها(**وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ**)وأن مرجعنا إلى الله، ومصيرنا إليه بعد الموت، فمنه البداية وإليه وحده تكون النهاية، فيجازي كلاً بما يستحق، فيكون الإنسان المناسب في مكانه المناسب! فيجب التسليم له واتّباع سبيله، ولا شك في (**وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ**) المتجاوزين للحد من المعاصي والفساد والكفر، والتجرؤ على ربهم بارتكاب كبائر الذنوب وقبائح العادات (**هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**)ملازموها وخالدون فيها.

٤٤-٤٥-﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾

قالها كلمة حق، في حكومة الطغيان، وهو صوت العقل وحركة الضمير، وبقيت كلمته المؤثرة تتحرك في ضمير الزمان، بقيت قدوة حسنة يقتدى بها في ظروف موضوعية مناسبة، ونصح قومه وأراح ضميره وأدّى دوره وألقى حجته عليهم بوضوح، بأنهم سيذكرون كلمته الناصحة هذه في موقف حاسم، لا تنفع فيه الذكرى كقوله (**وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**)البقرة/٢١٠، هذا منطق المؤمن المقاوم الذي يعيش اليقين في قلبه، الذي لا تهزّه الشدائد ولا تغيره الهزاهز، والذي يثبت في الشدة كما يثبت في الرخاء، هذه الشخصية الحركية الحقة تنصر الحق في أصعب

الظروف، ثم تنتصر به بعد ذلك! وربّ موقف مبدئي بطولي واحد يعادل موقف أمة، كما كان إبراهيم (ع) أمة، وربّ ساعة شدة بعدها عمر في الرخاء، **عن النبي**(ص)(أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر)كنز العمال خبر٤٣٥٨٨.

والإنسان يحيا بمواقفه الفاضلة أكثر مما يحيا بعمره المحدود، فهو يحيا بالإحسان أكثر مما يحيا بالأيام، ويموت بالذنوب أكثر مما يموت بالآجال! وأنه عندما وقف هذا الموقف الشجاع فكان على استعداد تام لكل المحتملات، وردود الأفعال العكسية التي تدعو على قتله، فهو يحمل مشروع (إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)التوبة/٥٢، (إما النصر وإما الشهادة)وهو يحمل قوة الشهادة، وإرادة المقاومة ضد الباطل ويحمل شرف الشهداء، وعنده الحياة لا قيمة لها من دون عقيدة صادقة ومواقف شجاعة.

عن الإمام علي(ع)(**اطلبوا الموت توهب لكم الحياة**)موسوعة الشهادة١/٢٨٧، **عن الإمام الحسين** (ع) (موت في عز خيرٌ من حياة في ذل)البحار٤٤/١٩٢، **المعنى**: (**فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ**) حين ترون العذاب، وستعلمون عند ذلك أني كنت ناصحاً لكم، وكان بهذا الموقف البطولي خاتمة المطاف مع قومه، أضمر فرعون السوء لهذا المؤمن الناصح الأمين، وغضب عليه وأراد أن ينتقم منه، فكفّ الله بأسه عنه، ووقاه من مكرهم(**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ**) وأتوكل عليه، وألجأ إليه وأعتصم به وأسلّم نفسي إليه، ليعصمني من كل سوء، واعتمد على رحمته ولطفه، وهو الذي يتولى أمري وتدبيري في الدنيا والآخرة، فلا أتعلّق بجاه أو بمال أو بمنصب، بل اتعلّق بالله إليه مآبي. **وفي هذا إشارة**: إلى أنهم هددوه وأرادوا قتله! **عن الإمام الصادق**(ع)(أما لقد سطوا عليه وقتلوه، ولكن أتدرون ما وقاه؟ وقاه أن يفتنوه في دينه)!النور٨/٢٢٠ (**إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**)إن الله يعلم بحالي يكفيه عن سؤالي! فيمنعني من مكركم ويكفيني شرّكم، فلا تتصرفون إلاّ بإرادته كقوله(**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**) الحج/٤٠، ٤٥-(**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا**)الفاء للتعقيب، فحماه الله من خططهم السيئة التي وضعوها ضده! **وروي أيضاً**: أن الله صرف عنه سوء مكرهم، وحفظه من اعتداءاتهم، فلم يصبه مكروه، ونجا مع موسى حتى عبر البحر معه(**وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ**)ونزل بفرعون واتباعه الغرق في الدنيا والحرق في الآخرة، لأن كفره كان أغلظ الكفر، وقلبه أقسى القلوب كقوله(**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**)فاطر/٤٣، **فائدة**:١-يوحي النص القرآني أنه نجّاه الله من ارتكاب السيئات في المواقف الرهيبة، وحفظه من التساقط، وربط على قلبه ليكون مطمئناً بقضاء الله له، وهذا من توفيق الله تعالى كقوله(**وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ**) غافر/٩، ٢-وهكذا كل مؤمن استكمل شمائل الإيمان في سلوكه، وجاهد الطغيان بكلمة الحق، فإنه يرمي بيد الله عز وجل لا بيده كقوله(**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ**)الأنفال/١٧ **عن الإمام**

الصادق(ع)في هذه الآية، إذا تخاف قوماً يمكرون بك فقل (**وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ..**)٣-هناك ثلاثة مقامات لإخلاص العبودية: مقام التوكل، مقام التفويض، مقام التسليم وهو أفضلهم.

٤٦ -﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾

في الآية السابقة (**سُوءُ الْعَذَابِ**) وهنا (**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا**)في قبورهم قبل يوم القيامة الكبرى، وإنما يكون عرضهم على النار في القيامة الصغرى، القيامة الخاصة بعد الموت مباشرة عن النبي (ص) (من مات فقد قامت قيامته)روح البيان٢٢/٣،(**غُدُوًّا وَعَشِيًّا**)صباحاً ومساءً، إشارة إلى التوالي من غير انقطاع، وهو عذاب نفسي في البرزخ، وفي يوم القيامة الكبرى لا يكون غدوٌ وعشيّ، لتوقف الزمن، يظهر أن عرض نفوسهم على النار، وهو **عذاب القبر (عالم البرزخ)** أول عدل الآخرة، فهو عذاب للنفس أو نعيم لها حتى يحين وقت البعث والنشور، كما هو الحال في الحياة الدنيا، أن النفس هي التي تتعذّب أو تتنعّم، **في الآية دلالة** على بقاء النفس حية بعد موت الجسد، **عن الإمام الصادق**(ع) (**القبر**: إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار) البحار٦/ ٢٦٧، تبين الآية أن هناك عرضاً على النار في القبر في عالم البرزخ، ثم إدخالاً فيها يوم القيامة، والإدخال أشدّ من العرض(**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ**)يوم تعود الأرواح إلى الأبدان، **عن النبي(ص)** (من كفّ أذاه عن الناس، كان حقاً على الله أن يكفّ عنه أذى القبر)روح البيان١٩٠/٨، يقول الله يوم القيامة أيها الملائكة (**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ**)أدخلوا فرعون واتباعه ومؤيديه جهنم ليذوقوا (**أَشَدَّ الْعَذَابِ**) وعذاب جهنم للروح والجسد معاً، وهو أشد مما كان للروح فقط، **عن النبي(ص)**(إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن الجنة، أو كان من أهل النار فمن النار، يقال: هذا مقعدك حين يبعثك الله يوم القيامة، ثم قرأ الآية)مجمع البيان٤٨٩/٨.

٤٧ -﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾

من المشاهد المثيرة في يوم القيامة، واذكر من سوء عذابهم(**وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ**)إذ يتخاصمون وهم في النار الرؤساء والاتباع، يلقي كل منهم التبعة على الآخر(**فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ**) الذين غرر بهم الأقوياء(**لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا**)على الحق، وهم الوجهاء والرؤساء(**إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا**) لولا أنتم لكنا مؤمنين، كنا كالخدم ننقاد لأوامركم، لا نملك إرادتنا، ولم نخالفكم في شيء، وكان من الواجب أن تنصرونا في الشدائد، ولا شدة أشدّ مما نحن فيه(**فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا**) متحمّلون عنا أو دافعون عنا (**نَصِيبًا**) جزءاً قليلاً من العذاب الذي نحن فيه(**مِّنَ النَّارِ**)؟!

فائدة: ١-هناك صور ومواقف متعددة للمحاجة بين الضعفاء التابعين، والأقوياء المتبوعين على

حد سواء، ولم يشفع لهم أنهم كانوا ذيولاً وأتباعاً جهلاء، ولم يخفف عنهم أنهم كانوا غنماً في القطيع تُساق! لا رأي لهم ولا إرادة ولا اختيار، لقد منحهم الله كرامة الإنسانية والعقل والاختيار والحرية والتكريم، ولا تكن عبد غيرك وقد خلقك الله حراً، ولكنهم تنازلوا عنها جميعاً وقالوا (**إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا**)لقد صدر الحكم الإلهي النهائي إنهم من أصحاب النار، فما الفائدة من الخصام العقيم، والجدال السقيم كقوله(**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**)المدثر/٤٨، والقصد من هذا الخصام الفارغ للعذاب النفسي بالإضافة إلى عذابهم الجسدي! **في غرر الحكم** (من قام بشرائط الحرية أُهِّل للعتق، من قصّر عن أحكام الحرية أعيد إلى الرّق)

٤٨-٤٩ -﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾

(**قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا**) فيجيبونهم بكل ضيق، وفي إقرار وانكسار بعد استكبار(**إِنَّا كُلٌّ فِيهَا**) إنا كل ضعاف لا نجد ناصراً ولا معيناً، فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا كقوله(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ) الانفطار/١٩(**إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ**)ونفذ فينا حكمه، وانتهى الأمر، فلا محلّ للجدال، ولا مجال لمراجعة الحكم، ولا مجال لتغيير فيه أو تبديل، وهكذا تعلن العدالة الإلهية بلسان أعداء الله، الذين اتّخذوا آلهة من دونه، فلا بد من الحق أن ينجلي وينتصر يوماً ما، ولو بعد حين،٤٩-وحين أدرك هؤلاء وهؤلاء أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه(**وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ**)الأمناء عليها والمأمورين بها، في ذلة وخضوع وانكسار، ليكونوا وسطاء عند ربهم في تخفيف العذاب ولو كان يوماً واحداً، يستريحون فترة من العذاب الأليم المتواصل، وهكذا يتشبث المخذول بكل وسيلة لنجاته من ورطته(**ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ**)كي نستريح قليلاً، إنما سألوا خزنة جهنم الأمناء عليها، أن يدعوا لهم، ليأسهم من أن يستجيب الله لهم.

٥٠ -﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

أجابتهم خزنة جهنم على سبيل التوبيخ والتقريع، وهم لا يستطيعون الجواب على هذا الطلب الملهوف الميؤوس، إنهم يعرفون سنة الله بأن الفرصة قد فاتت، ولا ينفع شيء بعد فوات الأوان، **المعنى**: (**أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ**)بالأدلة والبراهين القطعية الواضحة، والمعجزات الخارقة التي تثبت رسالتهم أنها من الله؟ فكفرتم بها(**قَالُوا بَلَىٰ**)قال أهل النار نعم جاؤونا فلم نستجب لهم، قال الخزنة (**فَادْعُوا**)نحن لا نقدر أن ندعوا ربكم، ونشفع لكم عنده، بعد أن أتمّ عليكم الحجة، فادعوه أنتم، فهذا جواب استخفاف بهم، للدلالة على خيبتهم! (**وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ**)ضياع، لأنه لا ينتفع به ولا يستفيد منه، ولا يصل إلى جواب، إنما هو إهمالهم جميعاً للكبراء والضعفاء سواء، فكما أعرضوا عن الإيمان كذلك نُعرض عنهم الآن.

٥١- ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾

(مقدمة) سؤال: كيف نفهم النصر للذين آمنوا في الحياة الدنيا؟ الجواب: النصر الإلهي للمؤمنين في الحياة الدنيا له وجوه متعددة، فإن النصر يتعدد أسبابه، كما تتعد وسائله وأشكاله، فقد يكون بالغلبة العسكرية على الأعداء، وقد يكون بالغلبة الفكرية والحجة القولية والأدلة العلمية، كقوله (وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا)النساء/١٤١ وقد يكون بالغلبة المبدئية وانتشار العقيدة الإلهية، كما حصلت ليوسف الصدّيق وداود وسليمان ونبينا مُحَمَّد (ص)، وقد يكون النصر بحسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وقد يكون بإهلاك عدوّهم، وقد يكون بالألطاف الإلهية، والتأييد والتسديد والإمدادات الغيبية، وتقوية قلوب المؤمنين وتوهين قلوب الكافرين! كقوله(**إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ**)الأنفال/١٢، وقد يكون النصر بعلو الشأن وجميل الذكر، فتكون سيرة المؤمنين المقاومين قدوة حسنة للأحرار، وقبورهم قبلة ومدرسة تربوية للأبرار، وقد يكون النصر بـ (**إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ**) التوبة/٥٢ (**إما النصر وإما الشهادة**)فتكون المقاومة للباطل والمعارضة له، والضغط عليه بوسائل متعددة أحد الأسباب الممهدة للنصر، أو يكون النصر المعنوي عن طريق الشهادة والتضحية في سبيل الله، وفي سبيل نصرة القضية المحقة، فإذا لم تكن الحياة كما تريد، فليكن الموت كما تريد! وهكذا كان شهداء الفضيلة، أحياء عند ربهم يرزقون، وعند الناس معززون مكرّمون، تقتدي الناس بمقاومتهم الشجاعة كقوله(**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**)إبراهيم/٣٧ **في غرر الحكم** (الغالب بالشر مغلوب، المغلوب بالحق غالب)

عن الإمام علي(ع)(**ما ظفر من ظفر بالإثم**) البحار٧٥/٣٣٠، وقد يكون النصر عندما يتحوّل المؤمن المجاهد، من كونه فرداً محدوداً إلى كونه خطاً وتياراً جماهيرياً ممدوداً في الأمة!، فإن لم يستطع أن ينتصر بنفسه فسوف ينتصر بخطه الجماهيري المؤثر والممتد في الناس عبر الأجيال!، وانتصار خطه هو انتصار له، وقد يكون النصر مرحلياً باكتساب خبرة جديدة، والاستفادة من تجربة مفيدة، وقد يكون النصر، بالمكر الإلهي على الأعداء كقوله(**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**)فاطر/٤٣، وقد يكون النصر بالانتقام من أعداء الرسل والذين آمنوا، ولو بعد حين، ولو بعد موتهم، كما انتقم الله ليحيى بعد استشهاده، بتسليط بخت نصّر عليهم حتى قتل به سبعون ألفاً!، **وكم من شهيد مبدئي أثّر بعد استشهاده أكثر وأفضل من تأثيره في حياته!** فامتدت حياته بعد استشهاده بهذا التأثير، وهكذا يأتي النور من قلب الظلام، ويكون الأمل وسط البلاء، ويكون الرخاء مع الشدة، والعسر مع اليسر كقوله (**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**)الانشراح/٥-٦.

المعنى: (**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) أنه وعد صادق فعال من الله المتعال لرسوله المؤيد وللمؤمنين المسددين، بأن ينصرهم الله نصراً عزيزاً على أعدائهم في الحياة الدنيا، في ظروف موضوعية مناسبة كقوله(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)الروم/٦٠ وقوله(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)النور/٥٥.

على المؤمنين الأخذ بالأسباب المطلوبة التي توصل إلى النتائج المرغوبة، الأسباب اللازمة التي سنّها الله في حركة الكون والكائنات، ما كان الله ليرسل رسولاً ثم يسلّمه لأعدائه من دون أن يدافع عنه، وسبحانه يقول (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)الحج/٣٨ وقوله(**وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ، وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**)الصافات/١٧١-١٧٣ ولكن الحق سبحانه يترك أمر الدعوة السماوية في أولها تضطهد من الخصم المعاند الحاقد، حتى لا يثبت في الدعوة إلاّ قوي الإيمان، صادق البيان، لأنهم سيحملون مسؤولية كبيرة، ويكونون أداة قدرة الله في الأرض، وعنصر إرادته بين عباده، **عن النبي(ص)**(إنّ من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي)مجمع البيان٣/١٤٤ (**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) ينصرون بتهيئة لهم من وسائل النصر في حركة الواقع، بعد تهيئة وسائل النصر المعنوي في نفوسهم.

كقوله(**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**)العنكبوت/٦٩، **في غرر الحكم**(غاية المجاهد أن يجاهد المرء نفسه) شريطة أن يصبروا ويتقوا ويوحّدوا كلمتهم ويعدّوا ما استطاعوا من قوة كقوله(وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)الأنفال/٦٠، وننصرهم إذا نصروا الله، وجعلوا كلمته هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى كقوله(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)محمد/٧، يشجع الله المؤمنين على التجرد لله، والاتجاه إلى نصرة نهجه في الحياة، ويعدهم على هذا النصر والتثبيت في المعركة، والضلال والخذلان لأعدائهم، **ولكن كيف ينصر المؤمنون الله؟** حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت؟ إنه لا جهاد ولا نصرة إلاّ حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده، والنصرة له وحده، في ذات النفس وفي منهج الحياة. وأيضاً ننصرهم في الآخرة(**وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**) جمع شاهد أي حاضر، يوم يحضر الأشهاد الذين يشهدون على أعمال العباد في يوم القيامة كقوله(**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**)البقرة/١٤٣، في هذا اليوم الحاسم عليه شهود متعددون، يشهدون على أعمال العباد، وهم الملائكة والأنبياء والمؤمنون المخلصون، يشهدون للرسل بالتبليغ، وعلى الكفار بالتكذيب، وللمؤمنين بالتصديق والنصرة.

فائدة:١- **هناك نصر ظاهره وأوله هزيمة وباطنه ومداه فتح مبين:**

في معركة أحد كانت ظاهرها هزيمة، ولكن باطنها نصر مبين، إنهم عرفوا عندما خالفوا أمر القيادة العليا للرسول(ص) أدى بهم ذلك إلى الهزيمة، عرفوا السبب فبطل العجب! وتلافوا الخطأ!، فهذا بحد ذاته نصر. ٢-وقوله(**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا**) التوبة/٢٥، كانت هزيمة بسبب العجب والغرور، وقلتم: لن نغلب اليوم من قلة، فساء ذلك رسول الله(ص) فانقطعتم عن الاعتماد على الله والثقة بنصره، واستندتم إلى الكثرة في العدد والعدة، فلم تنفعكم الكثرة شيئاً، لأن قصة النصر والغلبة ليست قصة كثرة وقلة، وإنما هي قصة حق وحقوق وإيمان وإرادة وعقيدة وعزيمة صادقة وعدم التخاذل، ٣-**قصة شهادة الإمام الحسين بن علي(ع)**: إنه قاوم لوحده حكومة الجور والفساد وتحدّاها بمفرده وقال ليزيد(مثلي لا يبايع مثله) **وقال**(ع)(**موت في عز خير من حياة في ذل**) البحار٤٤/١٩٢، **وقال**(ع) (ربّ حياةٍ سببها طلب الموت، وموت سببه طلب الحياة) **وقال**(ع) (من لحق بي استشهد، ومن لم يلحق بي لم يبلغ الفتح)! فاعتبر الإمام الحسين (ع) الشهادة في سبيل الله فتحاً مبيناً، فالشهادة المبدئية في أولها وظاهرها هزيمة، ولكن في باطنها ونتائجها ومداها أنها نصر مبين، لقد خطبهم الحسين بخطبته البليغة العصماء المؤثرة، وكرر خطبه عليهم، فلم تؤثر فيهم قوة خطبه باللسان الفصيح، ولكن تحدّاهم بإرادته، وخطبهم باستشهاده وكلمهم بدمه الزكي، **فكانت خطبته الأخيرة بدم الشهادة المبدئي أبلغ بكثير من خطبه البليغة المتكررة باللسان**، وما كان يملك الحسين أن يودع القلوب من المعاني النموذجية المثيرة، ويحفّز الألوف إلى الأعمال الصالحة الكبيرة، بخطبة مثالية نموذجية مؤثرة مثل خطبته الخاتمة التي يكتبها بدم المقاومة والاستبسال، فيبقى موقفه البطولي الاستشهادي المبدئي النموذجي، المثل الأعلى حافزاً محركاً للضمائر والمشاعر في نفوس الأبناء والأحفاد، وعلى مدى حركة الأجيال!! وهذا نصر عزيز في مداه البعيد، وفي مرماه المديد: **عن الإمام علي**(ع)(**اطلبوا الموت، توهب لكم الحياة**)موسوعة الشهادة١/٢٨٧، **وفي نهج البلاغة خطبة٥١** (لما غلب أصحاب معاوية أصحاب علي على نهر الفرات بصفين ومنعوهم الماء، **قال** (ع)(رؤوا السيوف من الدماء ترؤوا من الماء، فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين)!

٥٢-﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

(**يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ**)يحاولون تبرير كفرهم وانحرافهم عن منهج الله، ولا يمكن أن تكون للظالم معذرة مقبولة، بعد أن تحقق أنه ظالم لنفسه، ومن ظلم نفسه فقد ظلم غيره، لأن الشيء لا يمكن أن يكون غير ذاته ونفسه، ولا حجة لهم فيعتذرون، ولو اعتذروا ففي الباطل يعتذرون، وفي الخزي يقعون، وربّ عذر أقبح من ذنب، وأقبح من الذنب فاعله، ورب عذر يورث ذلاً طويلاً، وعذاباً مهيناً، والسعيد من استغنى عن الاعتذار بصالح الأعمال

كقوله(**قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**)المؤمنون/١٠٨، فليتدارك العقل تقصيره في الدنيا، بالتقوى ليستريح في الآخرة. (**وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ**)ولهم البعد والطرد عن رحمة الرحمن، والحكم عليهم بقوله(**وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**)سوء العاقبة، ولهم أسوأ مكان ومصير في جهنم.

٥٣-٥٤-﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ، هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾

تكون رسالات السماء مصدر هداية وبركة لأصحاب العقول المتفكرة كقوله(وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ)الحج/١٦، لأن القلوب اللاهية بحبّ الدنيا، لا تتمكن من فهم الحقائق الإلهية الكبرى، لأن سبيل الهوى يعمي ويصم ويبكم عن سبيل الهدى، كقوله(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)ص/٢٦، **في غرر الحكم**(من اتبع هواه أعماه، وأصمّه وأذلّه وأضلّه) **المعنى**: وأقسم (**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ**)ما يهتدي به للتي هي أقوم، لأن التوراة هدى ونور ومصدر تشريع يقي من الضلالة وحصن من الجهالة، والهداية تقوّي البصيرة، **في غرر الحكم** (بالهدى يكثر الاستبصار) **والهدى**: الدلالة على الطريق المستقيم، والهداية سبيل النجاة، وهي الغاية الشريفة التي تركن لها النفوس، وتهفو لها القلوب السليمة، وكأن الهدى وسيلة إنقاذ أمينة جاءت لتركبوها لتوصلكم إلى سبل النجاة، كقوله(هُدًى لِّلنَّاسِ) البقرة/١٨٥ (**وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ**)وأورثنا من بعد موسى بني إسرائيل التوراة، الصحيفة السماوية الصادقة، التي فيها البيان الساطع، والحكم النافع ، والتشريع الآمن كقوله(**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ**) المائدة/٤٤، وجعلناها متوارثاً بينهم، خلفاً عن سلف، وأبقيناها كي يعملوا بها، وتكون حجة عليهم، ولكن حرّفوها تبعاً لأهوائهم، ٥٤-وهي (**هُدًى**) يهتدي بها عامتهم وخاصتهم، وهي دلالة يعرفون بها معالم دينهم والاستقامة في دنياهم (**وَذِكْرَىٰ**) من التذكرة والتذكير للخير والترغيب فيه، والتحذير من الشر والترهيب من الضلال والفساد كقوله(فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ)الأعلى/٩ (**لِأُولِي الْأَلْبَابِ**)لأصحاب العقول السليمة المفكرة المنفتحة، العقول الواعية التي بعدت عن اللغو والخرافات والانحرافات السائدة والتقليد الأعمى، لأن هؤلاء الذين ينتفعون بها لأعمال الخير.

فائدة: الفرق بين الهدى **والذكرى**: **الهدى**: من الهداية التي تكون من تسديد الله للإنسان في عمله، وتأييده في معتقداته السليمة، أما **التذكير**: تنبيه الإنسان بأمور سمعها مسبقاً وآمن بها ولكنه غفل عنها ونسيها، ويضم القرآن هذين القسمين، ففي بعض آياته دلائل هداية في نفسها، وبعضها تذكير إن نفعت الذكرى.

٥٥-﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾

تعرض الآية الكريمة المنهج الحركي التربوي الفاعل، الذي اختاره الله لتوفير عدة الطريق إلى النصر في الحياة الدنيا، وتهيئة الزاد المطلوب، وإعداد الأسباب اللازمة لنيل خير الدارين.

المعنى: (فَاصْبِرْ) يا مُحَمَّد، فإن الصبر عدة الطريق عند الشدائد والمعاناة**(فَاصْبِرْ)**على أذى قومك المشركين، ولا تضيق نفسك كقوله(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) الأحقاف/٣٥، وكان هذا الخطاب مدداً من السماء ليطمئن قلبك، وتبشير لك لما وعدك من النصر في الدنيا على أعدائك، كما نصر موسى(ع)ورفع منزلتك في الآخرة، **(إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)**بالنصر كقوله (كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا)المزمل/١٨.

وسيفي لك الله تعالى بما وعد في نصرة الإسلام، إنه وعد صادق مؤكد غير مكذوب، وعد ليس مشكوكاً فيه، لأنه به تتحقق فلسفة الحياة، وقيمة الدين، فيه، لابد أن يتحقق هذا الوعد الصادق، مهما طال الأمد أو تعقّدت الأمور، إنه وعد يحين في موعده، وعندما تنضج مؤهّلاته وتعدّ أسبابه، وقصة موسى دليل على ذلك كقوله(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)التوبة/٣٣ **تدل الآية الكريمة** أن النتائج بيد الله سبحانه، والأسباب بيد الإنسان، والمطلوب منه أن يأخذ بالأسباب اللازمة، لأن المؤمنين الصالحين عناصر إرادة الله في أرضه، وأدوات قدرته بين عباده**(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ)! الاستغفار:** أمر تعبدي، وطاعة تربوية لتهذيب النفس، **في غرر الحكم**(ذروة الغايات لا ينالها إلاّ ذوو التهذيب والمجاهدات) **والاستغفار:** عبادة مستحبة محببة، ووسيلة قربى مرغّبة، **والاستغفار:** من ذنب، ومن دون ذنب، هو ارتقاء روحي نحو الكمال الإنساني، ويكون الاستغفار لما صدر منك من تقصير وقصور وترك ما هو أولى وأفضل، وهذا ترغيب على سنة الاستغفار، فيكون الاستغفار من شكر النعمة وتقدير المنعم، ورفع المنزلة، وقوة انقطاع إلى الله سبحانه والتقرّب منه، وإظهار ذلة العبودية لربه الرحيم، ومسامحته عند الهفوات والغفلات والزلّات، ويكون المستغفر قدوة حسنة للمؤمنين، ولتشجيعهم على مداومة الاستغفار بكل الأحوال، فقد سأل النبي(ص) ربه أن يحكم بالحق، وهو لا يحكم إلاّ بالحق، لأنه هو الحق كقوله(قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ)الأنبياء/١١٢.

والاستغفار: خير زاد ليوم معاد، وهو سلاح المذنب وشفيعه عند الله، **عن النبي(ص)**(من كثرت همومه فعليه بالاستغفار)الكافي٩٣/٨، **وعنه(ص)** (من أُعطي فشكر، ومُنع فصبر، وظَلَمَ فاستغفر، وَظُلِمَ فغفر**(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)**الأنعام/٨٢، **والاستغفار:** طريق مهم في تربية النفس الأمارة بالسوء، وتزكية عاداتها وطبائعها ومجاهدة هواها، فإنها صورة تربوية مهمة من صور الجهاد الأكبر، وسبب من أسباب النصر المعنوي الأقدر، كقوله**(لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)** الفتح/٢ قيل للنبي(ص)أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فلماذا تستغفر ربك؟ قال**(أفلا أكون عبداً شكوراً)**؟ المراغي٢٦ص٨٣، فتكون المغفرة لإتمام النعمة، وشكر المنعم، وتهذيب العادة، والهداية إلى الصراط المستقيم، وتقريب النصر

العزيز. من دعاء النبي الكريم(ص)(اللهم إني استغفرك من كل عمل أردت به وجهك، فخالطني فيه ما ليس لك)!كذلك قوله(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ)الأحزاب/١، وهو سيد المتقين، ويعلّم الناس التقوى، ولكن على قاعدة إياك أعني واسمعي يا جارة. **عن الإمام الصادق**(ع)(إنّ الله بعث نبيّه بإيّاك أعني واسمعي يا جارة)البحار٩٢/٣٨١، هذا هو من الزاد الجليل في طريق الصبر الجميل والجهد الطويل. **من مناجاة الذاكرين في الصحيفة السجادية**: (**إلهي**: أنت الُمسَبّح في كل مكان، والمعبود في كل زمان، والموجود في كل أوان، والمدعو بكل لسان، والمعظم في كل جنان (قلب) واستغفرك من كل لذة بغير ذكرك، ومن كل راحة بغير أُنسك ومن كل سرور بغير قربك، ومن كل شغل بغير طاعتك).

(**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**)ونزّه ربك عن كل نقص، ونفي التشبيه عنه، وأظهر عظمته على كل صنع، واعبده مخلصاً له الدين، حامداً إياه على جميل أفعاله بالثناء الكريم عليه دائماً، والتسبيح بحمد ربك لا لغيره لرفع الدرجات، وتقوية العلاقات(**بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ**)أي داوم على الذكر صباحاً ومساءً، فيكون الله جل في علاه مُسَّبحاً دائماً، ويكون التسبيح موصولاً بالحمد والثناء، لشعوره الدائم بعظمة الله، وهو كناية بديعية عن المواظبة على ذكر الله والتعلّق به صباحاً ومساءً، وفي جميع الأوقات، عندما نأخذه بطرفيه، بناء على أن(**وَالْإِبْكَارِ**)من أول النهار إلى نصفه(**بِالْعَشِيِّ**)من نصف النهار إلى أول النهار من اليوم الثاني، فيدخل فيهما كل الأوقات، هذا هو المنهج التربوي الذي اختاره الله لتوفير عدة الطريق إلى النصر الموعود، وتهيئة الزاد المرغوب، ولابد لكل معركة من عدة وزاد، **فائدة**: فكما سارت حركة السنن التاريخية في الماضي مع موسى(ع)، فهي تجري كذلك في الحاضر، فإن نتائج الدعوات الإلهية بيد الله، والنصر وأسبابه، من عند الله، ولكن بحاجة أن يأخذ المؤمن دوره الطبيعي، ويوفر مؤهّلات النصر وأسبابه، وقوامها الصبر على تحمل المشاق الكثيرة، كقوله (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ)غافر/٨٥

٥٦-﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ۚ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

الحوار هو الجدال بين طرفين مختلفين، له أصول علمية وأسس تربوية، وقواعد أخلاقية، وله أهداف سامية، وغايات نبيلة، وله أساليب شريفة وقواعد نظيفة، **المعنى**: (**إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ**)إنّ الذين يكابرون في جدالهم في آيات الله، وفي دين الله جدال بالباطل ليدحضوا به الحق أو يصرفوه إلى ما لا تحتمله من المعاني بقصد الطعن فيها، إنهم يردّون البرهان العلمي القاطع بالكلام الفارغ، هو الكلام الخالي من العلم، وليس له دليل ولا أصول للإقناع (**بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ**)وليس لديهم بيّنة ولا حجة علمية قاهرة، ولا دليل ولا برهان

قاطع على ما يجادلون، إنهم لم يجلسوا لينتفعوا، واتفقوا على أن يختلفوا، وإنما جلسوا لإثارة الفتن والشحناء والبغضاء، إنهم لا يجادلون لشكهم في الآيات أو البيّنات، بل السبب الوحيد لجدالهم العقيم هذا.

(**إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ**)ما في قلوبهم إلاّ تكبر وتعاظم وتعالي عن اتباع الحق، واستعلاء وغرور وإعجاب بالنفس، واستصغار للآخرين، فلا يريدون معرفة الحق والحقيقة، وهذا نابع من حسد لك وحقد عليك، لرفعة مقامك وقوة شخصيتك، هذا الكبر المتضخّم يمنعهم من اتباعك والانقياد إليك، فتكون حبّ ذواتهم يتعالى على كل دليل، وهم ينكرون البديهيات العقلية، إذا تعارضت مع أمزجتهم، ومصالحهم الخاصة، (**والجدال في البديهيات من أشكل المشكلات**) عبّر بالصدر عن القلب لكونه موضع القلب، لبيان أن قلوبهم قد خلت عن كل شيء تتلقاه سوى الكبر، والحسد والحقد والبغي والعناد، أي ما في قلوبهم إلاّ التكبر عن الحق، وحبّ الرياسة والتقدم على النبي والمؤمنين، وهم أصغر وأضأل من هذا الكبر(**مَّا هُم بِبَالِغِيهِ**)ما هم بواصلين إلى مرادهم وهدفهم من الجدال العقيم، الذي يأتون به لإدحاض الحق والنيل منه لإطفاء نور الله، ولا يحققون مقصودهم بالعلو عليك، فإن الله قد أذلهم (**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**) فالتجئ بالله وتحصّن بقدرته من كل متكبر ومتعالٍ، واعتصم بالله من شرورهم ومكائدهم، فإن الله يدفع عنك شرّهم، **والاستعاذة بالله في مواجهة الكبر الذميم توحي ببشاعته وفظاعته!** (**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**)من الكبر وأهله الذي يوجب الاستعلاء على قبول الحق(**واستعذ بالله**) من شياطين الإنس والجن(**واستعذ بالله**)من جميع الشرور والأشرار، وعلى رأسه الكبر والمتكبرين! لأنه يخالف الفطرة الإنسانية السليمة. **عن الإمام علي**(ع)(استعيذوا بالله من لواقح الكبر، كما تستعيذون من طوارق الدهر)الكاشف٦/٤٦٣ (**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**)من كبرهم كما استعاذ موسى من كل متكبر كقوله(إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)غافر/٢٧ وكما استعاذ يوسف الصديق(ع)بالله من شهوة زليخا بقوله(**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ**) يوسف/٢٣ (**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**)لأقوالهم على اختلاف لغاتهم(**الْبَصِيرُ**)بحوائجهم، وأحوالهم، وهما صفتان من صفات الكمال.

فائدة: (**بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ**) تؤكد الآية الكريمة بأن التكلم في أمر دين الله، لابد من استناده إلى سلطان مبين قاهر وبيان علمي قاطع لا يخضع للجدال السقيم، لأن البرهان يقطع الجدال، وينهي الخصام، **في نهج البلاغة خطبة١٥٤**(العامل بغير علم، كالسائر على غير الطريق، فلا يزيد بُعْدُه عن الطريق الواضح إلاّ بُعداً من حاجته)

٥٧-﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

من أراد أن يعرف عظمة السماوات والأرض، فليبدأ من معرفة نفسه، فالإنسان أعجب الكائنات الأرضية والسماوية، وفضّله الله على المخلوقات كقوله (**وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**) الإسراء/٧٠ في الحديث القدسي(يا بن آدم: خلقتُ الأشياء من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تنشغل بما هو لك، عمّن أنت له)خواطر الشعراوي٢/١١٢٩وفي داخل الإنسان أيضاً كوناً عجيباً في خلقه ودقته وعقله وشعوره وطموحه وجميع طاقاته وغرائزه، حتى **قالوا إنّ الإنسان اترانسستر الكون! في غرر الحكم(من عرف نفسه فقد عرف ربه)** ووصل إلى غاية كل معرفة، ومن جهل نفسه كان بغيره أجهل، قال الشاعر: أتحسب أنك جرم صغير–وفيك أنطوى العالم الأكبر، **المعنى**: (**خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**) الكون أكبر وأعظم وأوسع من خلق الناس، خلق السماوات والأرض كان من غير أصل ولا مادة، وإعادة الإنسان تكون من أصل ومادة، فالذي يقدر على خلق شيء بلا مادة مع عظمتهما، هو على خلق ما فيه مادة أقدر وأجدر، فلماذا يقرون بأن الله خلق السماوات والأرض، وينكرون ما هو أهون وأصغر لإعادة خلقهم من جديد للبعث والنشور والجزاء، والإعادة أهون من الابتداء؟! كقوله (**أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا**)النازعات/٢٧ فمن قام بتدبير السماوات والأرض على عظمتهما، لا يعجزه قهر المستكبرين وخذلان المجرمين وإذلالهم والتنكيل بهم كقوله(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ)الأحقاف/٣٣(**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**)جاهلون، غافلون لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه على بالهم، لشدة غفلتهم ولكثرة تجاهلهم واتباعهم لهوى أنفسهم الأمارة بالسوء، فوقعوا في حيرة الجهالة، وعانوا من ظلمات الضلالة، في نهج البلاغة حكم ٣١(من تبيّنت له الحكمة عرف العِبرة، ومن عرف العِبرة فكأنما كان في الأولين) **فائدة: في غرر الحكم** (رحم الله امرأً عرف قدر نفسه، ومن عرف قدره لم يتعَّد طوره) ولو عرف الإنسان وزنه القيمي في الكون الكبير، وأنه كالذرة التائهة أو الهباءة الضائعة التي لا قيمة لها ولا وزن، ولو عرف ذلك لأطاع ربه وخاف من مقامه، ولخفف من كبريائه وتواضع وتضاءل حتى يكاد يذوب من الشعور بالضآلة!

٥٨-﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾

الآية تضرب مثل بالأعمى والبصير، ليتبين الفارق الكبير بينهما، فما الأمثال إلاّ وسائل للإيضاح، كقوله(وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)الحشر/٢١، **في غرر الحكم (الأمثال تضرب للاعتبار)** الآية لها بُعْدٌ آخر يشير إلى أن في الكون عالم ظاهر وعالم باطن، وغيب وشهادة، ومحسوس وغير محسوس.. أي لا يستوي من يؤمن بحقائق الكون جميعها من غيب وشهادة، وظاهر وباطن، فهو يرى ما وراء المرئيات كقوله(**فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**)ق/٢٢،

فتكون بصيرته أقوى من بصره، وهداه أقوى من هواه، وعلمه أقوى من جهله، هذا الوعي النافذ الصحيح، لا يستوي مع من يرى الأشياء بعين واحدة هي حاسة البصر، والبصر قاصر عن رؤية ما وراء المرئيات أو النظر في الظلام، **وإذا اختلفت أبعاد الرؤية اختلفت العقيدة المرتبطة بها والسلوك المترتب عليها**، لذلك اختلف الناس فمنهم المؤمن الصالح ومنهم الكافر الطالح، وكلما كان الفكر أعمق وأدق كلما كان العمل أحسن وأنضج وأشمل، لذلك اعتمد القرآن بناء الفكر وترشيده نحو الهداية والاستقامة، قبل اهتمامه بالتطورات العلمية والصناعية والتكنولوجية والألكترونية.. فإذا استقام الفكر استقام السلوك واستقام كل شيء، وهذه الحقيقة لا يدركها إلا المتذكرون.

المعنى: (**وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ**) وما يستوي المؤمن والكافر، والعالم والجاهل، والغافل والمستبصر، والمغلق والمنفتح.. كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي من آمن بالله وأصلح نفسه وعرف الحق واستقام وعمل صالحاً، لا يستوي مع من أهمل نفسه وضلّ عن سبيل الله وكان مستكبراً على الناس، ومعتدياً عليهم عاصياً لله، شبهت الآية الذي لا يتفكّر في الدلائل الكثيرة بالأعمى، والذي علم واستدل بها واستقام بالبصير، كقوله(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) الجاثية/٢١، **البصير**: يرى ببصره ويؤمن ببصيرته، ونفوذ البصيرة أقوى من نفوذ البصر، **في غرر الحكم** (بالهدى تكثر البصيرة)وفقد البصر أهون من فقد البصيرة. **والأعمى**: عمى قلبه عن رؤية الآيات البينات والاستدلال بها كقوله(وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا)الإسراء/٧٢ **والبصير**: من أبصرها، **والأعمى**: يرى ببصره كما يرى الحيوان، ولكن لا يرى ببصيرته، لذلك يجهل قدر نفسه، ويجهل ما يحيط به، ويتخبط هنا وهناك من سوء التقدير وجهل التدبير، ومن جهل نفسه فقد جهل ربه، وكان بغيره أجهل. **عن النبي(ص)**(شر العمى عمى القلب) البحار٧٧/١١٤ كقوله(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) الحج/٤٦.

كذلك لا يستوي(**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ**) ولو تذكرنا لعرفنا الحقيقة، فالأمر واضح لا يحتاج إلى أكثر من التذكر، لا يكون المؤمن المحسن العامل بالأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة، مساوياً للفاسد السافل المعتدي المسيء لنفسه وللناس، ثم كان مع(**الْبَصِيرُ**)الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأنهما من طبيعة واحدة، لأن البصيرة تدعو إلى الاستقامة، وهذ هو السر في التعبير القرآني البلاغي الدقيق بالبصير دون المبصر! ولهذا لم يقترن المسيء بالأعمى، **وإنما تكون الإساءة مع عمى البصيرة!** وقد يكون أعمى العين ولكنه صاحب بصيرة قوية! وقد يكون العكس، مفتوح العين ولكنه أعمى

البصيرة، كما الحيوانات مفتوحة العيون، ولكنها فاقدة للبصيرة، فلا تنفعها فتح العيون إلاّ قليلاً **(قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ)**ما تتعظون، وأكثر الناس غافلون، ولو تذكرتم واعتبرتم لعرفتم خطأ ما أنتم عليه مقيمون من إنكاركم قدرة الله على إحياء من فنى من خلقه، وإعادته للجزاء في حياة أخرى في عالم آخر أبدي غير هذه الحياة. (يوم القيامة ميزان: فمن وفّى، استوفى)

٥٩-﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

تدعو الآية الكريمة إلى الإيمان بالنهاية، فإن معرفة النهاية مقدمة ومفضلة على معرفة البداية، والذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ، والذي يستعد للنهاية يعرف خير الأعمال من البداية، والذي يدعو إلى الاستعداد للنهاية هو دين الله**(الإسلام)**كقوله**(إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)** آل عمران/١٩، إذن: دين الله**(الإسلام)** ضرورة حياتية، لأن الدين هو الحياة، والحياة هي الدين، والحياة بلا دين هدر للحياة، وتضخيم للتصورات، وضياع للعمر!، **عن الإمام علي**(ع) (لا حياة إلاّ بالدّين)الإرشاد للمفيد ص١٥٧، في غرر الحكم(المؤمن من وقى دينه بدنياه، والفاجر من وقى دنياه بدينه) **المعنى: (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا)** يوم القيامة آت لا شك فيه، وكل كائن آت، وكل آت قريب، فهو حق وحقيقة تفرض نفسها على العقل المفكر بقوة، والمرجع النهائي إلى الله عز وجل، فمنه البداية وإليه تعود النهاية كقوله(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) الانشقاق/٦، **فلا يستوي الظالم والمظلوم**، فلا بد من يوم حاسم تُعرض فيه الظلامات، ويحصل فيه القصاص، والذين لا يصدقون بالساعة لقصور نظرهم على ظاهر ما يحسّون به في عالم الماديات، وحصر قناعتهم في العادات والأعراف السائدة الجاهلية، من سنن الله سبحانه أن يميز الله بين الصالحين والمفسدين كقوله(لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ) الأنفال/٣٧ فإذا كان الله يميزهم في الدنيا، فكيف لا يميزهم في الآخرة أيضاً؟

كقوله**(وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)**الجاثية/٢٢، **في غرر الحكم(للمتقي**: هدىً في رشاد، وتحرُّج عن فساد، وحرص في اصلاح المعاد)وتبقى الحياة لغز مبهم لا يفسره إلاّ الإيمان بالعالم الآخر، لذلك لا ينكر الساعة إلاّ الجاهلون، وإن كانوا هم الأكثرية في المجتمع، كقوله (لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ)المائدة/١٠٠ **ويوم القيامة**: حلقة مهمة وأساسية ومتسلسلة ومحكمة ضمن حلقات التكوين المنظم الدقيق**(وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)** لانغماسهم في ملذات الحياة الدنيا المؤقتة دون خوف الرقيب القريب الحسيب، ويكون الإنسان ضحية جهله، والجاهل يعمل بنفسه كما يعمل العدو بعدوه! **فائدة**: ١-**يوم القيامة: حقيقة يقينية عند ذوي البصائر لا يعتريها الشك**، بينما عند ذوي الأبصار الذين يؤمنون بالماديات فقط بما تراه العيون هي كل شيء، يصف الإمام علي (ع) الدنيا (إنما الدنيا

منتهى بصر الأعمى، لا يبصر مما وراءها شيئاً، والبصير ينفذها بصره، ويعلم أن الدار وراءها، فالبصير منها شاخص، والأعمى إليها شاخص، والبصير منها متزوّد، والأعمى لها متزوّد)شرح النهج٨/٢٧٥، وقال (ع)**(من أبصر فيها بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته)** شرح النهج٦/٢٣٨، فهم ينكرون الحقائق الكبرى إذا لم تستوعبها عقولهم الصغرى، فهم لا يرتفعون إلى مستوى الحقيقة، بل يريدون أن تهبط الحقيقة إلى مستواهم!، فهم أصلحوا كل ما هو مادي، ولكنهم أخفقوا في إصلاح نفوسهم. في غرر الحكم (من لم يهذب نفسه لم ينتفع بالعقل) عن السيد المسيح (ع) (ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه)؟!

٦٠ -﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

للدعاء آداب وأخلاق.

والدعاء: علاقة روحية عبادية وارتباط بين العبد وربه، وكلما قويت العلاقة ازداد الترابط، ومن هنا عرف الدعاء بأنه مخ العبادة، وهو سلاح المؤمن، وهو ابتهال خاشع وولاء صادق، **والدعاء:** مستحب بذاته ولكنه ضرورة أساسية في حياة الإنسان المؤمن كقوله(مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)الفرقان/٧٧، **والدعاء:** سكينة واستقرار للنفس، وأمن واطمئنان للقلب، **عن النبي(ص)**(من سرّه أن يستجاب له عند الكرب والشدائد، فليكثر الدعاء عند الرخاء)الرازي١٧ ص٥٠، **وعنه (ص)** (الدعاء هو العبادة)مجمع البيان٨/٥٢٨، **والدعاء:** صلة العبد بربه، ووسيلة مباركة لقربه وجذبه وحبه، لم يجعل الله حجباً بيننا وبينه، كما في الدعاء **(وانك لا تحتجب عن خلقك، إلاّ أن تحجبهم الأعمال السيئة دونك)** بل فتح الله لنا أبواب السماء، ولم يجعل قيوداً ولا حدوداً على الدعاء، وإنما أمرنا أن نتوجه إليه منفتحين، وندعوه مخلصين له الدين(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)الزمر/٣، فإن الله كتب على نفسه الرحمة، وكتب الاستجابة لمن يدعوه مضطراً، ولمن يدعوه محتاجاً، ولمن يدعوه تضرعاً وخشية كقوله(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)البقرة/١٨٦.

فمن طرق باب الله سبحانه فتحه له، ولكن لا يقبل الله سبحانه دعاء قلب ساه ولاه وغافل، كقوله (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ)البقرة/٤٠، **عن الإمام الصادق**(ع)(من سرّه أن يستجاب دعاءه فليطيّب مكسبه)نور الثقلين٤/٥٣٠، **المعنى (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي) ادعوني مباشرة من دون وساطة من أحد،** أدعوني وتقربوا إليّ فإني أقرب إليكم من أنفسكم كقوله(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)الحديد/٤، ادعوا الله أن يسهّل لكم الأسباب المطلوبة التي تؤدي بكم إلى النجاح **(وَقَالَ رَبُّكُمُ)**من تولى تربيتكم **(ادْعُونِي)** في جميع مقاصدكم دعاءً خاشعاً منقطعاً، واسألوني وحدي ما تحتاجون إليه، عندما تتوقف سائر الأسباب **(أَسْتَجِبْ لَكُمْ)**وقد أطلق الدعاء والاستجابة إطلاقاً **(أَسْتَجِبْ لَكُمْ)** أجب طلبكم مباشرة، فضلاً منه وكرماً، من دون وساطة أيضاً، عاجلاً

أو آجلاً بما سألتم، أو بما هو خير لكم بحسب المصلحة المقتضية له كقوله(إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ) الأعراف/٥٦(**إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي**) إنه وعيد شديد(**سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**)صاغرين. إنّ الذين يتعالون عن عبادتي ودعائي سيدخلون جهنم أذلاء مهانين.

فائدة:١- إن الله خلق الجن والإنس ليعبدوه، فالعبادة هي الغاية التي خلق الله بها الإنسان، والعبادة لله حرية في الأرض، وطمأنينة في القلب، وانشراح للصدر، واستقامة في السلوك، وتقوية للإرادة، **في غرر الحكم(من قام بشرائط العبودية أُهِّلَ للعتق)** ومن قصّر عن أصول العبودية أعيد إلى الرّق! وعلى قدر العبودية تكون المنزلة ويكون رضا الله والقرب منه، **والدعاء** أحد أركان العبادة، وأفضل سبلها، فأطلق الدعاء على مفهوم العبادة لتحقيقه غايتها ومعناها، كإطلاق العام على الخاص مجازاً، في الصحيفة السجادية(فسميت دعاؤك عبادة، وتركه استكباراً، وتوعدت على تركه دخول جهنم)٢-قوله (**عَنْ عِبَادَتِي**)بدلاً من (**دعائي**)إشارة تلميحية إلى أن الدعاء هو عبادة، والصلاة هي دعاء، **عن الإمام الباقر**(ع)(ما من شيء أحبّ إلى الله من أن يُسأل ويطلب ما عنده، وما أحد أبغض إلى الله عز وجل ممن يستكبر عن عبادته، ولا يُسأل ما عنده)مجمع البيان٨/٤٩٥، **عن الإمام الصادق**(ع)(إنا ندعوا فلا يستجاب لنا؟ قال: لأنكم لا توفون لله بعهده كقوله(**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**)البقر/٤٠، **عن الإمام علي**(ع)(إنّ الله أخفى أربعة في أربعة: أخفى أجابته في دعوته، فلا تستصغرن شيئاً من دعائه، فربما وافق إجابته وأنت لا تعلم)نور الثقلين٤/٥٣٣،وعنه(ع)(ادفعوا أمواج البلاء بالدعاء) البحار٩٣/٣٠١ .

٦١-﴿**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ**﴾

تقلّب الليل والنهار بنظامهما الدقيقين المقَدرين والمدبَرين، إنهما آيتان باهرتان من آيات الله، وتنظيمهما دليل على وجود منظم حكيم لهما، ولحاجة الإنسان اليومية لهما، فتكون حركة الليل والنهار تشبه حركة الحياة والموت، وهنا تكمن فلسفة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، **في غرر الحكم (الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، ويأخذان منك فخذ منهما)** فبادر باستثمار شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وقوتك قبل ضعفك، وحياتك قبل موتك، وفي نهج البلاغة(من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن كان واقفاً، ويقطع المسافة وإن كان وادعاً)**المعنى:** (**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ**)وتستريحوا فيه من التعب الذي عرض لكم أثناء عمل النهار، والسعي في طلب الرزق (**وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا**)مضيئاً بنور الشمس، للعمل من أجل حياة

أفضل، لو كان أحدهما دائماً أبداً، أو كان أحدهما أطول من الآخر، مرات عديدة، لانعدمت الحياة! فلا عجب من بلاغة القرآن أن يقرن توالي الليل والنهار بذكر: فضل الله على الناس، وجاء الفضل نكرة للدلالة على كثرته وعظمته، فهو سبحانه متفضل بالإيجاد والإمداد كقوله(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)الزمر/٣٦، (**إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ**)لا يشكرون الله على احسانه ورزقه، ويجحدون فضله وإنعامه بسبب جهلهم بالمنعم، وإغفالهم قدر النعم ورفعتها، فإذا فقدوا شيئاً منها يعرفون قدرها(**وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**) سبأ/١٣

٦٢-٦٣-﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ، كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

سؤال: يحبّ الإنسان من أحسن إليه، ويبغض من أساء إليه، فلماذا يعرضون الناس عن الله وطاعته مع كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم؟! كقوله (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)إبراهيم/٣٤ **الجواب:** لا ينصرف الإنسان عن الله تعالى، وهو بكامل عقله ورشده، فإن العلم والعقل يقودان الى الله بلا إشكال، والذي يُصرف عن الله تعالى هو الإنسان الذي يتبع هواه، وينقاد إلى حبّ الدنيا وشهواتها ولذّاتها كقوله(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)الفرقان/٤٣، **عن النبي(ص)**(ما عُبدَ إله أبغض على الله من الهوى)روح البيان٢/١٩٧، **في نهج البلاغة حكم٢١١** (كم من عقلٍ أسير تحت هوىً أمير)! **المعنى:** (**ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ**)(**ذَٰلِكُمُ**)المتفرّد بالخلق والربوبية والإنعام هو (**اللَّهُ رَبُّكُمْ**)ومربيكم ورازقكم وهو رب كل شيء ومقدره ومدبره، هو الذي يستحق العبادة، لأنه(**خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**)والخلق مرتبط بالتقدير والتدبير، لا معبود بالحق غيره(**لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**)وحده لا شريك له، وهذا هو التوحيد الخالص، **في غرر الحكم(التوحيد:** حياة النفس) (**فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ**) تعرضون، تصرفون، الاستفهام إنكاري، كيف تعرضون عن الإيمان بالله وعن عبادته إلى عبادة غيره من المخلوقين، مع وضوح الدلالة على توحيده؟! **الإفك:** الانحراف عن الحق إلى الباطل، والكذب هو الإفك لأنه خلاف الحق، مثل(**الجحود**)إنكار باللسان وإقرار بالقلب كقوله (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)النمل/١٤،(**فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ**)مما يدعو إلى العجب، من الذي يرى هذا الخلق المقدّر الموزون، ويرى هذه القدرة العجيبة، ثم ينصرف ويُعرض عن الإيمان والالتزام بمنهج التوحيد!كقوله (ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ) التوبة/١٢٧ .

٦٣-(**كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**)مثل ما صرف هؤلاء، كذلك ينصرف ويؤفك ويبتعد عن الإيمان بالله، الذين يذهلون عن الدلائل العلمية الكثيرة على وجود الله وعظمته، ويجحدوا بآيات الله وينكروها، إلى عبادة من دونه، مكابرة وعناداً وبلا دليل ولا

برهان! كقوله (**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**)يونس/٣٩، والذي لا يحب العلاقة مع الرحمن، فسوف يتلقّفه الشيطان عدو الإنسان كقوله(وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)الأنعام/٤٣

٦٤-﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

(**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا**)مكاناً صالحاً تستقرون عليه للسكنى وطلب المعاش (**وَالسَّمَاءَ بِنَاءً**) ورفع السماء فوقكم بلا عمد ترونها، تمسكها قدرة الله، ومزّينة بالنجوم المعلّقة المضيئة، منظمة الحركات، مقدرة الدورات لصالح الإنسان، كقوله(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا) الأنبياء/٣٢، وجعل الغلاف الجوي أيضاً سقفاً وبناءً يحميكم من الأشعة الكونية الخطيرة، وبدقة نظام السماء تدوم الحياة على الأرض، وكل شيء في السماوات والأرض محسوب حسابه، ومقدر بقدر موزون في تنظيم هذا الوجود الكبير(**وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**) ويتسع معناها إلى أكبر من معنى الصورة والشكل الظاهري، إلى معنى يشمل الاستعدادات والملكات والمواهب(**فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ**)أحسن خلقكم، فلا يمكن أن يكون أحسن من ذلك، مهيّأ لاكتساب أنواع الكمالات، فلم يخلق الله تعالى مخلوقاً أحسن صورة من الإنسان كقوله (**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**)التين/٤، إذ جعل صورته الحسنة مرآة جماله، وأداة جلاله، وعنصر كماله.

عن النبي(ص)(كل جميل من جمال الله، وإنما جعلكم جميلاً ليحبكم، وإن الله جميل يحب الجمال) روح البيان٨/٢٠٥ ولم يخلق الله خلقاً قبيحاً، وإنما خلقه على قاعدة النسبة والتناسب التدريجي في الجمال، فجعل البعض عالي الجمال والبعض الآخر قليل الجمال، والقسم الآخر متوسط الجمال، ولا يوجد قبيح أو عديم الجمال، ولا يتمكن الإنسان أن يميز بين قليل الجمال إلاّ إذا رأى عالي الجمال! كقوله(**وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**)الذاريات/٢١،**في غرر الحكم**(من عرف نفسه فقد عرف ربه) وقد فضل الله الإنسان على كثير ممن خلق، وجعله سيد المخلوقات كقوله (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) الإسراء/٧٠، **في الحديث القدسي** (يا ابن آدم: خلقت الأشياء لأجلك، وخلقتك لأجلي، فلا تنشغل بما هو لك، عمن أنت له) خواطر الشعراوي٢/١١٢٩ **وأنما صوّركم جميلاً ليكرمكم ويقربكم منه ويرزقكم من فضله**، إنّ هيكل الإنسان القائم، وجمال منظره، ودقة تركيبه، وإتقان صنعه، وتناسب أعضائه، وجوهرة عقله، وتنوّع المهمات التي يؤديها، والطموح الكبير الذي عنده.. يؤهله لإنجاز ما لا يقوى عليه شيء من سائر الموجودات الحية، من أنواع الصناعات والزراعات، والتجارات(**وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ**)من أنواع الطيبات المادية والمعنوية، المختلفة اللذائذ والرغائب، التي تلائم طبيعة

الإنسان، من الحبوب والفواكه واللحوم.. وغيرها من المساكن والمراكب والزوجة الصالحة اللباس الجميل، والكلام البليغ.. وكل ما يسد حاجة الإنسان الضرورية والكمالية، فهو من الرزق الحلال الهنيء الطيب، فليس الطيّب كما تعارف عليه الناس فحسب وإنما الطيّب ما يؤيده منهج الله، وما يقره الحق والعلم والعدل والإنصاف، وإن الله طيّب لا يقبل من عباده إلاّ الطيّب من الأعمال والأقوال والنوايا (**ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ**)ذلكم الله المدبر لأمركم ويرحمكم وينعم عليكم بأنواع النعم(وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)البقرة/١٥١ (**فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**)فدامت خيرات الله وعظمت بركته وتضاعفت رحمته وكثرة خيره وإحسانه، وتقدست نفسه، وتعالى مجده، ولا تصلح الربوبية إلاّ له.

فائدة: ١-(**جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ**) جعل كل الأرض لكل عباده، فالحواجز بين البلدان هي سبب مشكلات البشر كقوله(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)العنكبوت/٥٦، **عن النبي(ص) (البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله، فحيثما أصبت خيراً فأقم)** المراغي٢١ ص١٤، ٢-ربط القرآن خلق السماء والأرض بتكوين صورة الإنسان وجماله الخاص وميّزها بدقة عن صورة غيره، بطريقة إعجازية باهرة خارقة كقوله(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ)الروم/٢٢، فهناك علاقة بين (**خلق السماوات والارض**) و(**اختلاف ألسنتكم وألوانكم**) فاختلاف الألوان واللغات والعادات، وكذلك اختلاف الأجواء والبيئات والتضاريس، ذلك الاختلاف الناشيء من طبيعة وضع الأرض لها علاقة أساسية باختلاف الألوان والأشكال والألسنة، مع اتحاد الأصل ووحدة النشأة في بني الإنسان، وهذا الاختلاف الدقيق لا يراه ولا يدركه إلاّ العالمون.

٦٥-﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(**هُوَ الْحَيُّ**)هو وحده الحي الحقيقي المطلق، الحي الذي لا يموت(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) الفرقان/٥٨، فهو سبحانه وتعالى حي بذاته ومحيي لغيره، ومنفرد بحياته، وتكون حياة غيره مكتسبة ومؤقتة ومحدودة وممتحنة ومعرضة للموت كقوله(**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**) القصص/٨٨ وهو المتفضّل على خلقه باسترداد الحياة منه (بالموت)فهو سبحانه كما يعطي الحياة، كذلك هو الذي يستردّها، فلا يترك الناس سدى من دون هدى، ولا يتركهم عبثاً، فهو مسؤول عنهم ومعهم ويفصل بينهم ويعلم عنهم كل شيء، وما عداه ناقص ومعرض للموت، وينفرد الله تعالى بحياته المثلى، حياته التي تهب منها الحياة وتتوقد منها الحياة، **فهو سبحانه واهب الحياة للكائنات، والحياة من اختصاصه،** ويعجز الإنسان عن خلق الحياة في خلية مجهرية حية واحدة! مع توفّر جميع متطلبات حياتها، كقوله(اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) البقرة/٢٥٥، فكما تفرّد سبحانه بالحياة الدائمة، فهو المتفرد كذلك بالألوهية القائمة، ولا أحد

يساويه في ذاته، ولا يقاربه في ألوهيته، ولا يضاهيه في ربوبيته كقوله(وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) التوحيد/٤، وما سواه فمنقطع الحياة، فحياته جزئية مكتسبة مؤقتة غير دائمة(فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) الأعراف/١٢٩، لذلك ينبغي للإنسان الفاني المحدود أن يرتبط بالحي الباقي المطلق(**هُوَ الْحَيُّ**) لم يسبقه عدم، حياته كاملة حقيقية تامة أزلية أبدية سرمدية، ومن هو حي بإحيائه من نور صفاته كقوله(**فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**) الأنعام/١٢٢(**هُوَ الْحَيُّ**) حياة ذاتية غير مخلوقة وغير مكسوبة، وغير مبتدئة ولا منتهية، وغير زائلة ولا متقلبة ولا متحولة ولا متغيرة، والله عز وجل المتفرد بالحياة النموذجية العلوية المثالية المميزة، والمتفرد بالألوهية والربوبية. وهو الباقي حي لا يموت (**لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**)وما من شيء له هذه الصفة المميزة الموحّدة، ولا معبود بحق إلاّ الله تعالى.

لذلك(**فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**)فادعوه في إخلاص وفي انقطاع، واحمدوه في دعائكم كقوله(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ)البينة/٥، فحين تدعوه لا يكن في بالك غيره، ليكون سبحانه معك ويستجيب لك وقريب منك، لأنه قيوم ويقضي حاجتك، ويعطيك قبل أن تسأل، بل حتى قبل أن تعرف كيف تسأل، وكل مطلوبه منك أن تستقيم على نهجه باختيارك، كقوله(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)الرعد/٢٩، فاحمدوا الله الذي تفضل عليكم بأنواع النعم (**فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**) مخلصين له الدعاء ومنقطعين له بالطاعة والعبادة ظاهراً وباطناً، وحسن المعاملة والأخلاق والالتزام بمنهج الله في جميع تصرفاتنا وفي أقوالنا وأفعالنا، والحذر من اللغو والمغالاة والنفاق، والوقاية من الشرك الجلي والخفي، قائلين (**الْحَمْدُ لِلَّهِ**)الحمد المطلق، والثناء الجميل لله وحده مالك الملك(**رَبِّ الْعَالَمِينَ**) كقوله(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)يونس/١٠

٦٦-﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

الإنسان الذي آمن بمنهج الله إيماناً حقيقياً صادقاً مدعوماً بالعلم والحجج والبراهين، تراه يختلف عن الإنسان الذي يدّعي الإيمان، أو الذي يؤمن عن جهل أو يؤمن من دافع الأجواء الدينية حوله، هذا الإنسان المخلص يتذوق حلاوة الإيمان، ويعيش لذة القربى مع الرحمن، هذا المستوى المتسامي مع الإيمان العميق، لا يمكن أن يستبدله صاحبه بأية قيمة دنيوية مهما غلت، لأن لذة القربى مع الله تعالى تفوق كل لذائذ الدنيا، ولأن من تقرّب إلى الله خطوة، قرّبه الله إليه خطوات وجعله في ظل رحمته في **نهج البلاغة خطبة ١٩٣(عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم) عن النبي(ص)**(إنّ من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي)مجمع البيان١٤٤/٣،أعلن لهؤلاء الذين ينصرفون عن آيات الله، ويجحدون نعمه (**قُلْ إِنِّي نُهِيتُ**)وانتهيت ونهاني ربي(**أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ**)ينهاني ربي وإياكم من عبادة

غير الله، من أصنام حجرية، أو أصنام بشرية أو أصنام فكرية متكلسة، أو أعراف اجتماعية فاسدة سائدة **(لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي)**لما أتتني الآيات البينات الواضحات من الله، وهي مستندة على أدلة العقل وقواعد النقل الصحيحين، على أن غير الله لا يستحق العبادة **(وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ)**وأمرت أن أذل وأخضع لله وحده، وأن أخلص له ديني وعبادتي ودعائي وانقطاعي، وأطهّر قلبي ولساني وجوارحي من قبائح الذنوب، ثم إصلاح العيوب وتهذيب النفوس كقوله(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)النساء/١٢٥، **في غرر الحكم** (ذروة الغايات لا ينالها إلاّ ذوو التهذيب والمجاهدات)**(وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)**وأمرنا الله أن نسلم قيادتنا لرب العالمين، الذي يملك تدبير الخلائق وكافة العوالم، إنه إسلام وتسليم العقل والقلب والروح والجسد له وحده سبحانه، لا أمر لي مع أمره، وأنا ماضٍ في حكمه، عدل في قضائه. بحيث يحصل التنسيق والتوافق بين أعمالي ومسؤولياتي اليومية، وبين منهج الله ربي، فإذا حصل تعارض أو شبهات بينهما، فتبقى الصدارة لمنهج الله، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، **عن النبي (ص) الأمور ثلاثة:** (أمر تبيّن لك رشده فاتبعه، وأمر تبيّن لك غيّه فاجتنبه، وأمر اختلف فيه فردّه إلى الله عزوجل) البحار٢/٢٥٨، **فائدة:**، **سؤال:** كيف ينهى الله النبي (ص) عن عبادة الأصنام، وهو لم يسجد لصنم قبل النبوة؟ **الجواب:** تشير الآية وقاية المؤمنين من خطورة تأثيرها عليهم، ويجب الحذر منها، بما تهديه إليه فطرته السليمة، ويدعوه إليه عقله السديد كقوله**(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)**الزمر/٦٥، **عن الإمام الصادق**(ع)(إنّ الله بعث نبيّه بإياك أعني واسمعي يا جارة)البحار٩٢/٣٨١ .

٦٧-﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

يستعرض القرآن من آيات الله في أنفسهم، بعد استعرض آياته في الآفاق، رحلة الجنين رحلة مدهشة بارعة ممتعة حقاً، وعرفنا عنها الكثير في العلم الحديث، ولكن القرآن يشير إليها بهذه الدقة العلمية منذ حوالي أكثر من ١٤٠٠ سنة، أمر يحرّك الفكر ويعمّق النظر ويقوّي البصيرة **في غرر الحكم**(بالهدى تكثر البصيرة)

المعنى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ) من حين خلق الله الإنسان من تراب الذي يختزن سرّ الحياة، حتى يعرّفه حدّه فيتوقف عنده، **في غرر الحكم**(رحم الله امرأً عرف قدره ولم يتعدّ طوره) والذي يخلق الله الإنسان على مراحل منظمة، دلالة أن هناك حكمة كبرى وراء ذلك، وليست المسألة هدر العمر في الدنيا والسعي نحو الثراء والغناء، وينتهي كل شيء ٢-كقوله(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)القيامة/٣٦، وإنما المسألة خاضعة لهدف أسمى، هو التوازن بين مطالب الدنيا والآخرة، فالدنيا مزرعة الآخرة، وهي ممر لمقر، والإنسان مسؤول بهذه الحياة عن كل

شيء يعمله ويحاسب عليه كقوله(أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) المجادلة/٦ وقوله **(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)** الصافات/٢٤، عن الإمام علي (ع) (إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) تنبيه الخواطر ص٤٦١ **(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ)**والتراب أصل الحياة كلها، ولا يعلم غير الله سرّ الحياة في هذا التراب، وكل غذاء الإنسان النباتي والحيواني أصله الأول من التراب، وقد تدرّج هذا الخلق المكرّم مراحل عدة كقوله(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)نوح/١٤، وقوله(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) القصص/٦٨ **(ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ)**من ماء الرجل وهو المني، وماء المرأة وهو ماء الشهوة، يختلطان في رحمها كقوله(إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ)الإنسان/٢، **أمشاج:** مياه مختلطة ممتزجة من ماء الرجل وماء المرأة، وقوله(فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)الطارق/٥-٧، **صلب الرجل:** عظام ظهره الفقارية، ومن **ترائب المرأة:** وهي عظام صدرها العلوية، ويلتقيان في قرار مكين لخلق الإنسان**(ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ)**ثم من قطعة جامدة من الدم، حتى يكتمل الجنين في بطن أمه.

(ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً)من بطون أمهاتكم بطريقة مدهشة**(ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ)**لتصلوا إلى كمالكم وجمالكم الإنساني من قوة البدن والعقل والنضوج والذكاء، وجميع قواه ومواهبه الظاهرة والباطنة، **ويقال:** هو سن الأربعين **(ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا)**في انحدار وانتكاس من القوة إلى الضعف كقوله(وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ)يس/٦٨ **(وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى)**قبل وصول الإنسان للمراتب الثلاث المذكورة أو بعضها أو قبل الشيخوخة أو قبل بلوغ الأشد، ويفعل الله ذلك،**(وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى)**مقدّراً معلوماً، محدوداً كقوله(لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ)سبأ/٣٠، وهو أقصى عمر الإنسان المقدّر، وهو المهلة المسموحة له في الحياة، ولا سبيل لتغييرها، **في غرر الحكم**(إنّ عمرك عدد أنفاسك، وعليها رقيب يحصيها) **(وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)**تدركون الحق باستخدام العقل، وتفهمون أن المطوّر لكم في هذه الأطوار، كامل الاقتدار، وهو الخالق المدبر الذي يستحق العبادة لوحده، وبالعقل تدرك أسرار الحياة، وهو رسول الحق، وصلاح الأمور، وتقدم في الحج/٥، إلزموا الأدب مع الله واهب كل ذلك ومالكهِ ومقدره كقوله (وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الطلاق/١.

٦٨ - ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

لقد أثبت العلم الحديث أنه لا يقدر على خلق الحياة في خلية صغيرة مجهرية واحدة، مع توفر جميع مستلزمات حياتها، وهذا دليل علمي على أن الحياة هبة خالقها، ثم أن من الحكمة أن تكون لكل بداية نهاية، ولكل حياة مماة، ولو كانت حياة بلا موت لضاقت الأرض بأهلها، **فهو سبحانه الذي خلق الحياة والموت في الأشياء ضمن معادلة متوازنة مقدرة**

كقوله (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)الفرقان/٢، ومن الحياة والموت إلى حقيقة الإنشاء ومراحل الإبداع، إنها الإرادة اللطيفة لله عز وجل الجميلة تتمثل في خلق كل شيء في كلمة (**كُن فَيَكُونُ**)كلمة حاسمة جازمة، فإذا الوجود كله يستجيب إلى الأمر بسرعة فائقة.

المعنى: (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)

هو سبحانه المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس ولا تحيا، بسبب أو بدون سبب إلا بإذنه كقوله(**وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ**)فاطر/١١، وكذلك هو ينفرد في البعث من القبور، وإليه النشور، وهو الذي أودع في الإنسان الحي سرّ الموت وإحساسه به في أعماق فطرته **في غرر الحكم** (ما أقرب الحيّ من الميت للحاقه به، وما أبعد الميت من الحي لانقطاعه عنه) (**فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا**)فإذا أراد تكوين أمر معيّن، يوجد فوراً دون تأخير، بلا تعب ولا عناء ولا بذل جهد(**فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ**)هذه كناية بديعية، واستعارة تشبيهية للسرعة الخارقة لتأثير قدرته جلّ جلاله الباهرة المطلقة التي لا تُغلب، على جميع الكائنات حين تتعلق إرادته بوجودها، فتكون إرادة الله في شيء هي نفس وجوده، بلا فاصلة زمنية ولا تدريج في التكوين! إنها تصوير بليغ دقيق خارق لقدرة الله، لإحياء المشاعر وتحريك الضمائر، **فائدة: (كُن فَيَكُونُ) ومعناه:** أنه يفعل ما يريد من غير أن يتعذر ويمتنع عليه أي شيء كقوله(**فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ**)البروج/١٦ (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن) إنه الخالق بلا مواد أولية ولا كلفة! وبلا جوارح وأعضاء ولا أدوات وآلات، ولا حركة أصوات وبلا احتياج إلى كلام ونطق، ولا أي شيء سوى مجرد الإرادة فيها وحدها يوجد المراد كقوله(إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)يس/٨٢، خلق الخلق بكلمة(**كُن**)وبها يعيده(**فَيَكُونُ**)والبداية والإعادة لديه تعالى بمنزلة سواء، فتكون إرادته بين (الكاف والنون)!

٦٩-٧٠-﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ، الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

من العجب أن يصدق الإنسان بالصناعة المصنوعة من البلد الفلاني، ولا يصدق بعجائب الآيات وإتقان صنع المخلوقات التي خلقها الله تعالى، كقوله (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) النمل/٨٨، مع كثرة الفوارق بين الصنعتين!، كيف يعرضون عن الله وكل شيء ينطق بوجوده، ولو كانوا يهدفون الوصول إلى المعرفة لهداهم الله إليها، ومن بحث عن الله وجده، ومن سعى إلى الله قربه إليه، **عن الإمام علي** (ع)(**من صَبر على الله وصلَ إليه**) البحار٧١ص٩٥ **المعنى: (أَلَمْ تَرَ)** الاستفهام للتعجب، يخاطب الله سبحانه نبيه الكريم مستنكراً جدل المشركين المعاندين، وتخبطهم العشواء! أرأيت وشاهدت المشركين، وتعجب في سوء حالهم، كيف يضلون عن الآيات الواضحات، وينصرفون عن الحق مع قيام الأدلة على صحته إلى الجدل في

الباطل، إنه الضلال البعيد وعمى البصيرة، عن الإمام علي(ع) **(إنما الأعمى عمى القلب(وهو شر العمى)** كقوله (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)الحج/٤٦، نور الثقلين ٣/٥٠٨ **(إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ)** الكثيرة الواضحة في الآفاق وفي الأنفس، ويخاصمون باستمرار ويعاندون ويشوشون، ويحاولون أن يبطلوا آيات الله، ويعترضون عليها، ويدّعون أن بعض الآيات القرآنية غير مناسبة للعصر، وليس عندهم حجة علمية فيما يدّعون، ولا برهان منطقي. **عن الإمام علي**(ع)(من كثر نزاعه بالجهل دام عماه عن الحق)الكاشف٦/٤٧٠ **(أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ)**كيف ينحرفون عن الحق إلى الباطل، وعن الهداية إلى الضلالة؟ ومن ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق، كيف تضل عقولهم مع كثرة الآيات وشدة وضوحها؟ فبئس ما اختاروا لأنفسهم بتكذيبهم للقرآن، كقوله**(فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ)**يونس/٣٢، وقوله(الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) محمد/٢٥، ٧٠-**(الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ)**بالقرآن الكريم وجحدوا القرآن الحامل للمنهج ودستور الحياة **(وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا)** وكذبوا بكل كتاب سماوي أنزل على أي رسول، وهم الأمناء على المنهج، والأسوة الحسنة في تطبيقه، والقدوة الصالحة بين الناس، فهم يعتمدون التكذيب ويرفضون بكل ما جاءت به الرسل من الرسالات، لأنهم يعتمدون العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة.

(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) ثم هددهم وأوعدهم بسوء عاقبتهم.**فائدة:**١-ذم القرآن المجادلة بالباطل وكررها في أربعة مواضع في هذه السورة، لزيادة التحذير منها، قوله(الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ)غافر/٥٦، **بمعنى**: الذين يجادلون في آيات الله بغير علم ولا هدى بسبب كبريائهم، وفي هذه الآية (٦٩) جدل تعجب من انحرافهم بسبب العناد والسخرية، فلا تكرار لكون كل آية جاءت في مورد معيّن، ٢-العجب من يجادل ويشك في الله وهو يرى عجائب خلق الله؟ ويرى هذا الكون في كائناته ونظامه وانسجامه واستمراره، كيف غفل وذهل عن كل ذلك؟ يجيب هؤلاء الإمام الحسين(ع) في دعائه يوم عرفة(**إلهي: عميت عين لا تراك عليها رقيباً وخسرت صفقة عبد لم تجعل له حبك نصيباً، إلهي**: ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحوّلاً)!،٣-كتاب الله القرآن الحكيم لا تتفهّمه العقول المستكبرة المادية، لأنهم هبطوا إلى مستوى فجورهم، وتعلّقوا بحبّ الدنيا التي هي رأس كل خطيئة، فأثقلتهم الذنوب الكبيرة، فعجزوا عن التطلّع إلى الآفاق السامية التي جاءت بها مناهج السماء، هؤلاء أخلدوا إلى جاذبية الأرض وحبّ الشهوات لعدم معرفتهم قدر أنفسهم، وجهلهم بفلسفة الحياة.

٧١-٧٣-﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ، فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ، ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾

(**إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ**) فهم مقودون إلى جهنم بسلاسل في أيديهم، وأغلال في أعناقهم، إنها الإهانة المذلة والتحقير المهين مع العذاب الأليم، لا مجرد العذاب، وسوف يسحبون كما تسحب الوحوش فريستها، مكبلين بالقيود! كقوله(يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ)الرحمن/٤١(**وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ**)تربط أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل، ويسحبون السحب العنيف المذل على وجوههم، وينتهي بهم المطاف إلى الحميم، ٧٢-(**فِي الْحَمِيمِ**)وهو الماء الحار يملأ مكانهم، وناراً موقدة إليها يسجرون(**ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ**)ثم يقذفون في النار ويحرقون ويوقدون رغماً عنهم، كما ترمى القمامة في سلة المهملات، لتشوى عليها أجسامهم، بعد أن غرقت في هذا الحميم، كقوله(**فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**)البقرة/٢٤، ٧٣-(**ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ**)يسأل خزنة جهنم أهل الشرك والنفاق والفساد توبيخاً لهم واستهزاءً بهم (**أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ، مِن دُونِ اللَّهِ**) سيجدونه قد سبقهم في النار، وإن كانوا أشركوا بحجارة لن يروها إلاّ وقوداً للنار. ويسألونهم هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون؟

٧٤-٧٦-﴿مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ، ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ، ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

(**أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ،مِن دُونِ اللَّهِ**)حتى ينجوكم من هذا العذاب أو يشفعوا لكم كما كنتم تزعمون؟ فيجيبون إجابة المخذول المخدوع الذي انكشفت له خدعته، وهو في أسوأ حال، وهو محروم يائس بائس(**قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا**) غابوا عن أعيننا، ولا نرى لهم أثراً (**بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا**) بل تبيّن لنا أننا لم نكن نعبد شيئاً يستحق العبادة، وكانت حياتنا كلها أوهاما وأضاليل، فهي كالسراب الخادع، كقولك: حسبته شيئاً فلن يكن، كقوله تعالى(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ)فاطر/١٤، كمثل هذا الضلال(**كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ**) الله تعالى لا يضل أحداً، ولكن من أحبّ الكفر والضلال، لا يهديه هداية دراية ومعونة، بل يتركه وما يختار، لأنه أنكر منهج الله، وأصرّ عليه، فمن العدل أن يحرمه الله هداية الدراية والمعونة كقوله(**وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**) الأنعام/١١٠، ومن دخل مداخل السوء فلا يلومن إلاّ نفسه، **في غرر الحكم** (المرء حيث يضع نفسه) كنتم مستغرقين في حبّ الدنيا، ونسيان الله، والغفلة عن الآخرة، والغفلة ضلالة ومن فساد الحس كقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ)الحشر/١٩، والاستغراق يضيع الاستحقاق. ٧٥-(**ذَٰلِكُم**)العذاب الذي أنتم

فيه بسبب (**بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ**) كانوا يفرحون بمعارضة الأنبياء وقتل المؤمنين، والتضييق على المحرومين، وسرقة البلاد واضطهاد العباد، وكانوا يشعرون بالعظمة عند ارتكاب الذنوب.

في غرر الحكم(لا وزر أعظم من التبجح بالفجور) واليوم يدفعون ضريبة ذلك الفرح المبني على الغرور، وتجاوز الحدود، من خلال عذاب جهنم ومقدماتها المهينة.

(**بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ**) وتبطرون وتسخرون وتتكبرون، فرحوا الفرح المذموم الخادع الذي لذّاته قصيرة وتبعاته كثيرة، فرحوا الفرح الرخيص الخسيس المؤقّت المهين الفارغ وتمسكوا به، ولم يلتفتوا أبداً إلى يوم الجزاء في يوم القيامة. (**تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**) وبسبب(**وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ**) تبالغون في خيلائكم وغروركم، في الفرح الماجن والطرب والتعلّق بالشهوات العاجلة المحرمة، وباللّذات الفاسدة الخسيسة، وتبذير الأموال في الباطل،٧٦-(**ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ**)المخصصة لكم وهي سبعة أبواب، ماكثين فيها أبداً كقوله(لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ)الحجر/٤٤(**خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**)فجهنم بئس المقر والمأوى والسكن الدائم للمتكبرين عن الحق، المعرضين عن دلائل الإيمان والتوحيد كقوله(وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا)النساء/١٤، **وهذا عنوان عام لكل العصاة والطغاة والبغاة فلهم نصيب من هذا الوعيد**، فعن الكفر نشأت هذه الإهانة، وجزاء على الكبر كان هذا التحقير والتصغير.

فائدة: ١- قيّد الفرح، وأطلق المرح، لأن(**الفرح**) قد يكون بحق فيحمد الله عليه، وقد يكون بالباطل فيذم عليه، أما(**المرح**) لا يكون إلاّ باطلاً، لأنه ناتج عن البطر والكبر. مجمع البيان ٥٠١/٨، ٢- قال(**مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**) ولم يقل(مدخل المتكبرين) لأن الدخول لا يعني الدوام، وإنما (**المثوى**) تعني الخلود(**فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ**)يقال هذا غداً للمتكبرين، ولكل من استغل الدين لمصالحه الشخصية، وتاجر بالوطنية والحزبية والديمقراطية وعبث بعقول البسطاء والأبرياء، **عن النبي**(ص)(**ويل لمن طلب الدنيا بالدين**)كنز العمال خبر٢٩٠٩١، **في غرر الحكم** (ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه)؟! هؤلاء المنافقون امتطوا الدين سلّماً إلى الدنيا، فحكمهم حكم الكفار. **في غرر الحكم**(**لا يترك الناس شيئاً من دينهم لإصلاح دنياهم إلاّ فتح الله عليهم ما هو أضرّ منه**)! وفيه أيضاً(من جعل ملكه خادماً دينه انقاد له كل سلطان، من جعل دينه خادماً لملكه طمع فيه كل إنسان)!،

٣-**الفرق بين الفرح والمرح: الفرح**: يكون محله في القلب، وهو السرور والارتياح الطبيعي لحركة النفس واسترخائها، والابتهاج بلذة عاجلة. **وهناك فرح مذموم وفرح ممدوح، الفرح المذموم**: السرور النابع من استرخاء عواطف خسيسة، على حساب ضرر الآخرين، واشباع شهوات محرّمة كقوله(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ)التوبة/٨١، **الفرح الممدوح:**

الذي يهز مشاعر الإنسان من حدث نافع مهم أو موقف شجاع أو نصر أو ظفر للحق وخذلان الباطل، ومن هذا الفرح الموضوعي تهذيب العادات وتزكية النفوس وتحقيق الصالحات والبشارات كقوله(**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ، بِنَصْرِ اللَّهِ**)الروم٤-٥، والفرح بالعلم النافع والعمل الصالح. **المرح**: شدة الفرح والتوسّع فيه، مع السرور والغرور والخيلاء، ويصاحبه التفاخر والاستعلاء كقوله في قصة قارون (إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) القصص/٧٦

٧٧-﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾

(**فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**)مع مشهد الذلة والمهانة والعذاب الرهيب، وحالة الكبر النافخ في الصدور لهؤلاء المجادلين المعاندين بالباطل، اتّجه الخطاب القرآني التربوي البليغ إلى رسول الله (ص) لتسليته وبعث الأمل فيه، يوصيه بالصبر على ما يجده من كبر وجدال وجهل (**فَاصْبِرْ**) أي إثبت على الحق، فسمّاه صبراً للمشقة التي تلحق به، كما تلحق بتجرع المر، كقوله(**وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ**) النحل/١٢٧، **في غرر الحكم (بالصبر تدرك الرغائب) الصبر**: مظهر قوة، وعنوان صمود، وصفة ثبات، إعمل ضمن واجبك وقف عنده، أما النتائج فلست مسؤولاً عنها كقوله(لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)آل عمران/١٢٨، وليس على الرسول مسؤولية رسالية إلاّ البلاغ المبين، ولكن الصبر يهذّب الطبائع، ويزكّي النفوس، ويعلم التوازن والتفكّر وعدم التهوّر، ولكنه الأدب الإلهي العالي لإعداد أصفيائه المختارين، للمرتقى العالي والدرجة السامية المتألقة ليكون قدوة حسنة للقلوب، ويكون الله تعالى المثل الأعلى كقوله(**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ**) النحل/٦٠.

عن الإمام الصادق (ع)(إن الله عز وجلّ أدبّ نبيه فأحسن تأديبه، فلما أكمل له الأدب قال (**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**) القلم/٤، ثم فوّض إليه أمر الناس والأمة ليسوس عباده) نور الثقلين٥/ ٣٨٩، وأن يثق بوعد الله(**إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ**) بالانتقام من أعدائك، والنصر لك في الدنيا، والمنزلة العالية في الآخرة، وهذا أمر ثابت وحقيقة واقعة، ولو بعد حين. كقوله(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ)الرعد/٣٨، وقوله(لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ)الأنعام/٦٧ (**فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ**)من العذاب المعجّل في الدنيا وأنت حي فتراه، لأنهم كذبوك وآذوك (**أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ**)أو نختارك إلينا قبل ذلك، ونحن نتولى الأمر عنك كقوله(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، وَأَكِيدُ كَيْدًا، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)الطارق/١٥-١٧، فهم على كل الأحوال (**فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**)يوم القيامة لا إلى غيرنا، فنجازيهم بما كانوا يعملون، والعقوبة على قدر الجناية، كقوله(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)إبراهيم/٤٢.

٧٨-﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾

نزلت الآية لتسلية النبي(ص) وتكشف له سنة الله في مسيرة الدعوات، **المعنى:** (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ**) وأقسم، أننا أرسلنا إلى أمم كثيرين رُسُلاً مبلّغين من قبلك، يدعوهم إلى الله، ويصبرون على أذاهم، سواء أكان الرسول مذكوراً أم غير مذكور(**مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ**)منهم من روينا لك أخباره، وهم خمسة وعشرون في القرآن، فأنت تعرفهم (**وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ**)ومنهم لم نسمهم لك ونخبرك بهم، لاستغنائك عن ذلك تخفيفاً لك عما لا يعنيك، وفي ذلك عناية لك، وهذه الآية تدل على كثرة الرسل كقوله(ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ) المؤمنون/٤٤، **تترا:** متتابعين متوالين، وقوله (**وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ**)فاطر/٢٤، وقوله(**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**)الرعد/٧، أما عدد الأنبياء(١٢٤٠٠٠) نبي، تحديد هذا الرقم غير دقيق وغير محقق. (**وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ**) بمعجزة خارقة تنصر الحق وتقضي بين الرسول وأمته (**إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**) بأمر الله لا من الرسول، وهو سبحانه الذي يتولاها حينما يرى المصلحة في ذلك كقوله (**إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ**)هود/١٢٣ (**فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ**)بالعذاب في الدنيا أو في الآخرة(**قُضِيَ بِالْحَقِّ**)حكم بالعدل بين الظالم والمظلوم، فظهر الحق وزهق الباطل(**وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ**) المعاندون المجادلون المتكبرون، هم وحدهم الخاسرون كقوله(**الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**)الأنعام/١٢، **عن النبي(ص)(الخاسر:** من غفل عن إصلاح المعاد)تنبيه الخواطر ص٣٥٩، **في نهج البلاغة كتاب ٣١**(من الفساد إضاعة الزاد، ومفسدة المعاد)، **فائدة: روي:** أن الله بعث نبياً أسود إلى السودان، فلا يخالف ما ورد في الرواية(إنّ الله تعالى ما بعث نبياً إلاّ حسن الاسم، حسن الصورة، حسن الصوت، وذلك لأن في كل جنس حسناً بالنسبة إلى جنسه)روح البيان ٨/٢١٤ .

٧٩-٨١-﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾

توجه الآية الكريمة القلوب السليمة إلى التفكّر والتدبّر بنعمة خلق الأنعام، وتذليلها وتسخيرها للإنسان، وإنما خصّها بالذكر لصلتها الوثيقة بحياة الإنسان كقوله(وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) إبراهيم/٣٤، نعمة الأنعام ينسون وجودها الفاعل بطول ألفتها وكثرة تربيتها واستعمالها، فهي آية من آيات الله دالة على خالقها ومدبّرها ومقدّرها الرحيم الكريم، **المعنى:** (**اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا**)الله الذي خلق لكم الأنعام من(الإبل والبقر والغنم والماعز) لمصلحتكم، وسخّرها لتركبوا بعضها كالإبل والخيل والبغال والحمير، فهي حاجات مهمة في

ذلك الزمان، ولا تزال الحاجة لها حتى اليوم والغد، وخاصة في الأرياف والمناطق الجبلية، ويسمى البعير سفينة الصحراء (**وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**)وتأكلوا بعضها كالإبل والبقر والغنم والماعز، ٨٠-(**وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ**) أخرى كانتفاعكم بألبانها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها وغير ذلك(**وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ**) لتحققوا من خلالها حاجة في نفوسكم، ليستفيد من الأنعام في حمل الأثقال والبضائع والسفر والتسابق والترفيه وغير ذلك(**وَعَلَيْهَا**)على الإبل في البر (**وَعَلَى الْفُلْكِ**)وعلى السفن في البحر(**تُحْمَلُونَ**)من أنواع الأحمال والأثقال كقوله (وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)الإسراء/٧٠، ٨١-(**وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ**)أي يعلمكم حججه، ويريكم آياته الكثيرة في الآفاق والأنفس، الآيات الباهرات الظاهرات يراها خلقه عياناً لا سبيل إلى جحدها، وفي كل شيء له آية_ تدل على أنه واحد، وكل آية تدل على كمال قدرته وتوحيده ووفور رحمته عياناً وبياناً كقوله(فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)الرحمن/١٣، قالوا: لا بشيء من نعمائك ربنا نكذب (**فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ**)وتوبيخ لهم على إنكارهم لتوحيده سبحانه، مع ظهور آياته الكثيرة والمثيرة مع وضوحها، فإنها لا تقبل الإنكار، بحيث لا ينكرها ذو فكر وإدراك إلاّ المكابرون المعاندون.

فائدة:١-تذكّر الآية الناس أن يشكروا أنعام الله ويذكروا فضله، ولا يلهينا عن الله الأموال والأولاد والأعمال والأشغال، ولا يلهينا عنه حبّ الدنيا التي هي رأس كل خطيئة، كقوله(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ)إبراهيم/٢٨، ٢-(**لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**) الأولى عللها بلام التعليل، والثانية تركها بدون تعليل، لأن الأكل من الضروريات في كل زمان ومكان، ولكن الركوب من المباحات، وله عدة خيارات ويخضع للتغيّرات والتطوّرات فعلله، لاحظ دقة التعبير القرآني البلاغي وجماله ولطافته!

٨٢-﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

السياحة الهادفة، والسفر القاصد النبيل في البلاد الواسعة، أمر مطلوب لذاته ومطلوب لغيره، أمر مرغوب فيه وممدوح كقوله(**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**) العنكبوت/٥٦، أطلقت الآية الأرض، وحدّدت الهدف المطلوب هو عبادة الله عزوجل وحده، **في غرر الحكم** (من قام بشرائط العبودية أهّلَ للعتق) ومن قصّر عن أصل العبودية أعيد إلى الرق!

المعنى: (**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**) الاستفهام إنكاري، أفلم يمروا في أقطارها بأبدانهم وقلوبهم (**فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**)**فينظروا**: نظر تفكرّ واستدلال، لا نظرة سطحية ناتجة عن جهل وغفلة وإهمال، فينظروا في حياة الأمم الماضية المتجبرة التي أهلكناها، ليعرفوا سوء عاقبة المتكبرين(**كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ**)توافرت لهم الكثرة في العدد والعدّة (**مِنْهُمْ**)أكثر من

أهل مكة (**وَأَشَدَّ قُوَّةً**)عسكرية واقتصادية وقوة في الأبدان والذوات والإرادات(**وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ**) وأبقى آثاراً في الأرض، وآثارهم لا تزال باقية بعدهم من القصور الفخمة، والحصون المنيعة، والقلاع المرتفعة كقوله(**وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ**)الحجر/٨٢ مثل الإهرامات الفرعونية، وآثار قصور الروم، فهم عمروا هذه الحضارات المادية الهندسية الفنية أكبر من عمرهم المحدود، فهم ماتوا وبقيت آثارهم عِبرة لغيرهم، **في نهج البلاغة خطبة٨٦**(السعيد من وعظ بغيره، والشقي من انخدع لهواه وغروره)(**فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**)لم تنفعهم كثرة ولم تعصمهم قوة، ولا آمنتهم قلاع ولا حصون ولا أموال ولا كنوز ولا أولاد.. مما كانوا يعتزون به ويغترون، بل كان هذا هو أصل شقائهم وسبب هلاكهم!

فائدة: ١-**قال العلم الحديث:** إنّ الحفريات والعلوم والآثار استطاعت تحقيق موقع انفلاق البحر لعبور موسى وبني إسرائيل، وذكروا آثار سفينة نوح، وآثار مدينة سبأ.. وهنا يكمن السرّ لتوكيد القرآن على النظر في حياة الأمم الماضية، وما تركته من آثار كقوله (الروم/٩) ٢-مصارع الهالكين موجودة في تاريخ البشرية، وكم من أمة بلغت الغاية من الترف والحضارة، لما طغت وبغت أخذها الله بظلمها أخذ عزيز مقتدر. **هذا هو الغرض من الآية أن تبيّن لهم أنّ الله آخذ الظالمين** بذنوبهم. والقرآن الكريم يوجه الأبصار والقلوب والبصائر إلى تلك الآثار الباقية لما فيها من دروس وعبر، ومنها موجودة قائمة على الأرض ، ومنها تحكى في القصص، ومنها حفظته الروايات وفي الكتب التاريخية، كقوله(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)آل عمران/١٤٠، **في نهج البلاغة خطبة٣٢** (اتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يَتّعظ بكم من بعدكم).

٨٣-٨٤-﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾

(**فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم**)الذين يدعون إلى توحيد الله(**بِالْبَيِّنَاتِ**)بالكتب السماوية الهادية، والمعجزات الربانية الخارقة، وأقاموا لهم الحجج الواضحة القاطعة على حقانية ما يدعونهم إليه (**فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ**) **فرحوا:** بمعنى اغتروا واستهزؤوا بمن يذكرهم بجهلهم ويرشدهم بعلوم كثيرة أهم من علومهم المحدودة كقوله(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) الروم/٧، غرّهم ما اكتسبوه من تجاربهم التجارية وخبراتهم الاقتصادية وعلومهم الزراعية والصناعية وفنونهم السياسية، واختصاصاتهم الفنية المتنوعة.. جعلهم يعيشون انتفاخاً وغروراً ذاتياً في داخلهم، فلم يكونوا موضوعيين ولا عقلانيين وكانوا فوقيين، ولم يقبلوا الحوار العلمي ولا تلاقح الأفكار كقوله(**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**) غافر/٢٩، فأعرضوا عن الحق وأخذوا يقيمون الشبهات والإشكالات على تعاليم الأنبياء والمرسلين، ويستهزئون بالرسل والرسالات وأدلّتهم، واستغنوا بما يملكون من العلم الدنيوي، ومن

أسباب العيش والرفاهية والتعلق بحبّ الحياة، وعلمهم المادي الخالي من نور الهداية وكنوز الدراية كقوله(**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**) المؤمنون/٥٣، **قال سقراط**:(نحن قوم مهذّبون، فلا حاجة بنا إلى رسول يهذّبنا) روح البيان٨/٢٢٠، كقوله(لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا) الأنعام/١٤٨، وفي عصرنا الراهن: حصل الغرور العلمي في المجتمعات المادية الأمريكية والأوربية، نراها عمدت إلى **(إلغاء دور الدين من حياة البشرية) واستغنت بالعلم الحديث عن قيم الدين القيّم**، وأعلنت الإلحاد وترك دين الله، والاعتماد على العمل والانتاج الصناعي المتطوّر والمتنوّع، وتشجيع البحوث العلمية المتعددة، والتفنن بعالم الألكترونيات الواسع، أما وظيفة الدين ضرورية في حياة الإنسان، فهو حياة وداعم للحياة، وبدونه أنصاف الحياة، واجترار الحياة، وضياع العمر في الضلال البعيد.

عن الإمام علي(ع)(لا حياة إلاّ بالدّين، ولا موت إلاّ بجحود اليقين) البحار٧٧/٤١٨، ويعلّمك الدين أن بدايتك من الله ونهايتك إليه كقوله(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) الانشقاق/٦، والذي لا يعرف كيف ينتهي، لا يعرف كيف يبدأ!، والذي لا يعرف لماذا يموت، لا يعرف لماذا يعيش، ويكون صديق الشيطان **(وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)** فنزل عليهم وأحاط بهم العذاب الانتقامي، وأخذهم الله بطغيانهم، وأصابهم وبال استهزائهم كقول قارون(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي)القصص/٧٨، ٨٤-(**فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا**)وشدة عذابنا وعاينوا أهواله (**قَالُوا**) مضطرين(**آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ**)كيف يجتمع الإيمان ويستقيم مع الضغط والقوة؟ **في نهج البلاغة خطبة ١٧٦(عن النبي(ص)**:لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه)حين كانوا في أمان كفروا بالله وأفسدوا في البلاد، وقهروا العباد، ولما رأوا العذاب وزلزاله آمنوا، ولكن بعد فوات الأوان، لأن الله يريد لهم أن يختاروا الإيمان عن قناعة علمية لا عن ضغط وإكراه كقوله(**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**)البقرة/٢٥٦.

فائدة: ١-العلم بلا إيمان فتنة كبيرة، فتنة كامنة تتفجّر منها الفتن! فتن تعمي وتطغي وتصم وتبكم وتقسّي القلوب، والعلم بلا إيمان يوحي بالغرور والكبرياء، إنه يملك مقدرات عظيمة في الكون والكائنات، فيتجاوز بنفسه قدرها ومكانها، وإنه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء كثيرة، كقوله (فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)لقمان/٣٣، كما هي حال الشركات الاحتكارية المستثمرة اليوم، التي دينها دنانيرها، والتي تكفر بالقيم والمبادئ والأخلاق وحقوق الإنسان، وتسخر من أماني الشعوب المستضعفة، في غرر الحكم(فو الله لقد ستر، حتى كأنه غفر) وأنه أمهل حتى كأنه أهمل، وأنه أنذر حتى كأنه أعذر!، ٢- للحياة علوم ظاهرة وباطنة، علوم خاضعة لعالم الغيب، وعلوم خاضعة لعالم الشهادة، فلما جاءتهم الرسل بعلوم الهداية

الخاضعة لعالم الغيب، وهم معجبون بعلومهم المادية الدنيوية الظاهرية، فاستهزؤوا بما أتتهم به رسل الله الذي يُعنى بالعالم الآخر الدائم، عالم الجزاء في يوم القيامة كقوله(**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**)يونس/٣٩، فهؤلاء كالأطفال الجهلاء الذين يلعبون بالدرة الثمينة وكأنها كرة قدم! **في غرر الحكم** (ما أخسر من ليس له في الآخرة نصيب)!

٨٥-﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾

(**فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا**)ولما رأوا عذابنا وشدته وأهواله نازلاً عليهم، لأن إيمانهم وهم في حالة الاضطرار ليس بشيء، ولا يقبل منهم لأنهم بذلك يريدون التخلّص من العذاب المحتوم، وهناك فارق كبير بين الإيمان الاختياري والإيمان الاضطراري، فهو إيمان عند الفزع، لا إيمان من اختيار وقناعة، هذا الإيمان الاضطراري لا ينفعهم، كما قال فرعون حين غرقه (آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) يونس/٩٠-٩١ (**سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ**)**سنة الله:** طريقته وقانونه وحكمته المستمرة في الحياة لا تتغيّر ولا تتبدل ولا تتحول، إنّ الإيمان أو التوبة لا تقبل عند ساعة الاحتضار أو ساعة نزول العذاب، وهذا لا صلة له بالإيمان من قريب ولا من بعيد، وقد فات الأوان على الكافرين، كقوله(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ)النساء/١٨، **سنة الله:** جارية فاعلة مؤثرة في كل زمان ومكان، سنة ثابتة لا تضطرب ولا تتخلّف عن دورها، ولا تحيد عن الحق والصراط المستقيم، فهي سنة قائمة فيهم وفي أمثالهم من المكذبين الذين يؤمنون عند رؤية العذاب(**وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**)هذه هي النهاية التي يستحقونها، والجزاء من جنس العمل، كقوله(**الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**) الأنعام/١٢، **عن النبي(ص)(الخاسر:** من غفل عن إصلاح المعاد) تنبيه الخواطر ص٣٥٩، **عن السيد المسيح**(ع) (ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله، وخسر نفسه)؟! احذروا سنة الله المطردة في المكذّبين السابقين.

وفي الختام، نقول: على هذا المشهد العنيف تختم السورة آياتها الساطعة، وتؤكد أن الإيمان لا يكون إلاّ بإرادة مختار للإيمان، والتي تركز على المعركة القائمة بين الحق والباطل، والحق مع الرحمن، والباطل مع الشيطان، وبذلك يتناسق هذا الختام الحذر، مع جوّها التربوي الهادئ، وظلها التوعوي الرحيم، في تزكية النفس وتهذيب عاداتها، فهو موضوعها الأصيل المنقذ الحكيم. (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠، تم بعون الله تعالى(**وَعْيُ الْقُرآنِ الْمُيسَّر**)لسورة غافر، بقدري لا بقدرها، بجهد متواصل، فللّه الحمد والمنّة، وبالحمد تتم الصالحات، وتزداد البركات، وتدفع النقمات بتاريخ ٢٠٢١/٤/١٥م الموافق١٥/ربيع

الأول/١٤٤٢هـ، مع تصحيحها عدة مرات وتدقيقها في بغداد- الكاظمية، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السّور القرآنية الكريمة، إن ربي سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث:مكي قاسم البغدادي

ترتيبها ٤١ | ## سُورَةُ فُصِّلَتْ / حم السجدة | آياتها ٥٤

من مقاصد السورة:

مكية، تتناول الأهداف الأساسية في العقيدة الإسلامية، التوحيد، والنبوة والرسالة، والمعاد والجزاء، **وهكذا السّور المكية التي تؤكد على أركان الإيمان وتأثيره في النفوس،** ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن المنزّل من الرحمن، والدال على صدق النبي(ص) فهو معجزته الخالدة، وتحدثت السورة عن الوحي، وأن الرسول (ص) بشر خصّه الله تعالى بالوحي، وأهّله لهذا اللقاء وأكرمه بالنبوة واختاره ليكون داعياً إلى الله، ومرشداً إلى منهجه المستقيم، ثم انتقلت السورة عن مشهد الخلق الأول، وخلق السماوات والأرض، فالكون كله ناطق بعظمة الله وتوحيده، وعرضت السورة التذكير بمصارع المكذّبين المعاندين، ثم عرضت الحديث عن منازل المؤمنين وتكريمهم الذين استقاموا على الإسلام، فأكرمهم الله دار الجنان، **وختمت السورة** بوعد الله للبشرية، بأن يطلعهم على بعض أسرار هذا الكون، مع تقدم العلم الحديث ليستدلوا على صدق ما أخبر عنه القرآن كقوله(**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ**)الآية/٥٣، **سّميت (سورة فصّلت)(حم السجدة)** لأن الله تعالى فصّل فيها الآيات، ووضّح فيها الدلائل على قدرته وتوحيده، وأقام البراهين على وجوده وعظمته.

(فضلها) عن النبي(ص): (من قرأ حم السجدة، أعطي بعدد كل حرف منها عشر حسنات) **عن الإمام الصادق**(ع) (من قرأ حم السجدة كانت له نوراً يوم القيامة مَدَّ بصره، وسروراً، وعاش في هذه الدنيا مغبوطاً محموداً)مجمع البيان٩ص٣.

عن النبي (ص) (الحواميم تاج القرآن)نور الثقلين٤/٥١٠ وعن الإمام الصادق (ع)(إنّ سوّر العزائم أربع، وعدّ منها هذه السّورة) التي يجب السجود عند تلاوة آياتها أو عند الاستماع إليها. وعنه(ع) (الحواميم رياحين القرآن)الصافي٤/٣٥١.

ملاحظة:هذا الفضل بشرطه وشروطه، والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ –﴿حمٓ﴾

تقرأ: حا، ميم (من الآيات المتشابهات)، وتقدم في أول سورة البقرة من الأحرف المقطّعة، سوّر الحواميم السبعة متسلسلة في القرآن، وهذه ثاني سورة وهي: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف. لأنها تبدأ بالحرفين (**حم**) إنها إشارة إلى إعجاز القرآن، حيث أنه مؤلف من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها البشر، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه في البلاغة والفصاحة والعلوم الدقيقة، ومن أهداف هذه الأحرف جلب انتباه المستمعين ودعوتهم إلى السكوت والإصغاء، **وهذه السورة من السور العزائم التي يجب فيها السجدة، عن الإمام الصادق**(ع) (إن العزائم أربع: سورة العلق/١٩، وسورة النجم/٦٢، وسورة السجدة/١٥، وسورة فصلت/٣٨) **فائدة**: الافتتاح بالحروف المقطعة من سور شتّى، وتكرار هذا الافتتاح يتمشى مع طريقة القرآن التربوية في تكرار الإشارة إلى الحقائق المهمة التي يلمس بها القلب البشري، وتثير انتباهه لها، وتحرّك مشاعره وذهنه، **لأن فطرة الإنسان تحتاج دائماً إلى تكرار التنبيه!** بطرق شتى وأساليب متعددة، لتثبيت الحقيقة القرآنية المهمة في نفسه، والتكرار يُعلّم الشطّار ويلفت الأنظار، كقوله(**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا**) الإسراء/٤١، **صرّفنا**: كررنا بوجوه كثيرة.

٢ –﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

افتتحت السورة المباركة بوصف القرآن الكريم أنه (**تَنزِيلٌ مِّنَ**) الله سبحانه، وذكر(**الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**) عند ذكر تنزيل الكتاب، من الرحمة العامة، والرحمة الخاصة، **عن الإمام الصادق**(ع) (**الرحمن: اسم خاص بصفة عامة، الرحيم: اسم عام بصفة خاصة**) أي أن الرحمن اسم عَلَم عن ذات الله وحده، ولا يطلق على غيره، ولذا تقدم على الرحيم، والرحمة هي الصفة البارزة للقرآن، وخص هذين الوصفين (**الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**)بالذكر لأن الخلق في الدنيا بحاجة إلى تسديد، كالمرضى المحتاجين إلى دواء، والقرآن مشتمل على ما يحتاجه المرضى من الأدوية الشافية، وعلى ما يحتاج إليه الأصحّاء من الأغذية الكافية، فالقرآن الكريم رحمة للعالمين، ونزل على نبي الرحمة (ص) كقوله (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**)الأنبياء/١٠٧، والذي أنزل القرآن الله تعالى فهو أساس الرحمة ومصدرها كقوله تعالى(**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**)الأنعام/٥٤، وعن النبي(ص) (ما خلق الله من شيء إلاّ وقد خلق له ما يغلبه، وخلق رحمته تغلب غضبه)كنز العمال خبر ١٠٣٩٠، تشير الآية إلى أن الصفة الغالبة في هذا التنزيل السماوي الثمين المبارك (**صفة الرحمة العامة**) كقوله(**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**)الأعراف/١٥٦، ومن أعظم رحمته وأجلّها أنزل هذا الكتاب المسدد، والنور الهادي المؤيد، والصراط المستقيم والحجة البالغة، والفرقان الصحيح الذي يميز الحق من الباطل في كل شيء، فهو تنزيل مبارك، دستور حياة فوق الثمن

المحدود، عالي المضامين، كنز السماء في هذه الأرض، كقوله(**الرَّحْمَٰنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ**)الرحمن/١-٢، وهنا جاء (**علّم القرآن**)جميعه على أساس (**الرَّحْمَٰنِ**) الرحمة العالمية للناس أجمعين، حتى أحكام القصاص فهي للردع والمنع والتهذيب وليس للانتقام والقمع! والنتيجة الحتمية لهذه الرحمات المنزلات الهاديات الشفافات، أن من تمسّك بالقرآن بصدق، وعمل بتعاليمه بعلم، انسجم نظامه الشخصي الخاص، بالتنسيق مع النظام العالمي الكوني العام، فاتّفقت السنن الإنسانية مع السنن الكونية العامة في وحدة واحدة موحّدة متّحدة ! لذلك يطمئن قلب المؤمن بذكر الله كقوله(**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**) الرعد/٢٨ ومن أعرض عن القرآن فقد ظلم نفسه، وتعدى حدوده وأهان كرامته التي كرّمه الله بها (**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**) الطلاق/١ (**تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ**)تنزيل القرآن بالتدريج الموضوعي بحسب الظروف والمواقف والأحداث، من أجل أن يرتفع الناس إلى أهدافه الأصيلة، فهو قرآن كريم حركي واقعي، لأنه نزل من خلال حركة الواقع، جاء لينهض بالواقع الجاهلي المتخلّف إلى نور الإسلام المتألق، وأنه منهج حقيقي لأنه ينسجم مع الفطرة الإنسانية، ويبيّن فلسفة الحياة وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، ويكشف حقيقة المعاد إلى يوم القيامة ويؤكد عليها، **والحياة: لغز مبهم لا يفسّرها إلاّ الإيمان باليوم الآخر**، ليتشبه الناس بأخلاق الله تعالى، فإنه يقودهم إلى سلّم التكامل وقواعد التكافل (**تَنزِيلٌ**) **النزول**: من مكانة عليا إلى مكانة ومنزلة أدنى كقوله (وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)الإسراء/١٠٥، هذا التنزيل المبارك المسدد يصلح للناس دنياهم كما يصلح لهم آخرتهم.

٣-﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

(**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**) **القرآن**: كتاب جامع لعلوم الهداية التي تقوّي البصيرة، وموضّح لفلسفة البداية والنهاية، فهو يبيّن للعلوم روحها، وللحياة معناها، وللمخلوقات مغزاها، فهو يوضّح علّة الوجود وغاية الموجودات، لذلك كان كل علم مفتقراً إلى علمه، حتى يكمل لهم الشوط، ويهذّب لهم طبائعهم ويقوّم عاداتهم وأفكارهم، ويهديهم للتي هي أقوم. (**كِتَابٌ فُصِلَتْ آيَاتُهُ**)كتاب ميّزت ووضحت آياته عن بعضها بفواصل ومقاطع، وبيّنت أحكامه ومعانيه ومراميه وعلومه،وتنوّعت نصائحه ومواعظه وقصصه وأمثاله، ولم تدع عذراً لمعتذر، وعلة لمتعلل (**فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**) التفصيل المحكم في موارد التفصيل، وفق الأغراض والأهداف المهمة في حياة الإنسان كقوله (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)هود/١، **والتفصيل يأتي على وجوه البيان**، وتكرير المقاصد المهمة بأساليب بلاغية متعددة، ورتبت آياته بشكل جيد بحيث لا تختلط آية بآية ولا مفهوم بمفهوم، وأفضل فهم للقرآن أنه يفسر بعضه بعضاً، فلا مجال فيه للالتباس كقوله (**لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ**)

فصلت/٤٢، إنه ليس في يد الخلق كتاب سماوي صحيح محفوظ ثمين اجتمع فيه من العلوم المختلفة المهمة مثل القرآن الكريم، وسمي كريماً لكثرة عطاءاته وإرشاداته **(قُرْآنًا عَرَبِيًّا)**نزول القرآن بلغة العرب لا يعني امتيازاً قومياً لهم، بل يعني قابليتهم لحمل الرسالة، ولأن نخبتهم تحمل من الخصائص والمؤهلات التي تؤهلهم لذلك، وأن تكون الرسالة عالمية للناس كافة فهي الرسالة الخاتمة كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ)سبأ/٢٨، **(قُرْآنًا عَرَبِيًّا)** باللغة الفصحى، أكمل اللغات وأجملها وأجلّها وأدقّها وأبلغها، فهي تعطيك أبلغ العبارات بأقل الكلمات، وإن الله لا يرسل رسولاً إلاّ بلغة قومه ليفهموا منه وينسجموا معه كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)إبراهيم/٤ **(قُرْآنًا عَرَبِيًّا)** واضحاً جلياً نزل بلسان العرب، ولأن الرسول عربي، **وأن أيّة لغة فهي وسيلة لتوصيل المعنى،** كان العرب يعلمون دقائق اللغة العربية وبلاغتها وينبغون فيها، ونزل القرآن المعجز بلسانهم، فجاء تحدي القرآن من جنس ما نبغ فيه القوم، وهو الفصاحة والبلاغة والشعر والبيان.

(لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) حصراً، لقوم يتفكرون ويتدبرون ويتفهمون تفاصيل آياته ودلائل إعجازه، وجمال سياقه البلاغي، ولا يتذوق أسرار علومه إلاّ من كان حريصاً في طلب العلم، وصادقاً أن يتعلّم للوصول إلى الحقيقة الكبرى!

(لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) لقوم يطمحون في تحصيل العلم، ويريدون معرفة فلسفة الحياة وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، ولديهم الاستعداد للبحث العلمي والتعليم العالي، والقدرة على التمييز بين الفكر الأصيل الهادي والفكر الدخيل المضل، أما الجاهلون والمستكبرون وأصحاب حبّ الدنيا، فلا يزيدهم إلاّ ضلالاً كقوله(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)فصلت/٤٤، إنه ترغيب لطلبة العلم أن يأخذوا ويتعلّموا منه ولا يعلموه، ولا يؤمنوا ببعضه ويكفروا ببعض كقوله (أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ) البقرة/٨٥.

فائدة: (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ..) هو القرآن الكريم كتاب الوجود كله، فهو كتاب جامع للخيرات في دنياك وآخرتك، إما تقرأه بلسانك أو تقرأه بعينيك، فهو كتاب يكتب في السطور، ويُقرأ من الصدور كقوله(بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) العنكبوت/٤٩، **عن النبي(ص)**(من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن)كنز العمال خبر٢٤٥٤ **(فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)**فصلت فيه كل آيات الكون وشؤون الكائنات إلى أن تقوم الساعة، فهو دستور حياة لاطمئنان القلوب ولسعادة الإنسان، ومنهج اتباع محفوظ لاستقامته كقوله**(تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ)**النحل/٨٩، وقوله(وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ) يوسف/١١١، وقوله(مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن

شَيْءٍ) الأنعام/٣٨ (**فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**)أي إن مجريات الأمور، وسنن الحياة في العاقل وغير العاقل موجودة في القرآن، بالتلميح أو بالتصريح أو بالإشارة أو بالدلالة كقوله(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) التوبة/٣٣، معناها أنه ستظهر مع تداول الأيام وتعدد الأجيال وتطوّر العلوم أمور مهمة لا يجد الناس حلّاً لها إلا أن يرجعوا إلى حكم القرآن، فالظهور من دلالاته ليس بأن يكونوا مسلمين، ولكن بظهور الحجة الإسلامية البالغة عليهم، حتى يشهد له من لم يؤمن به كقوله (لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ)الأنفال/٤٢، **عن الإمام الصادق**(ع)(**إنّ الله عزوجل احتجّ على الناس بما آتاهم وما عرّفهم**) الكافي١/١٦٣ (**قُرْآنًا عَرَبِيًّا**) لأن لسان العرب أبلغ الألسن منطقاً، وأدقّها بياناً، وأعمقها بناءً، وأفصحها معنىً، وأجملها لفظاً، وأكثرها إجلالاً وتأثيراً في النفوس، ليسهل عليهم فهمه والتفاعل معه، وليتحملوا مسؤولية بلاغه الواعي للناس كافة، وليكونوا قادة البشرية جمعاء، وينبغي أن تكون كل المذاهب والملل الأخرى تبعاً للمسلمين، وهذا فضل من الله على العرب، كقوله (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) آل عمران/١١٠، فإذا أعرضوا عن تحمل هذه المسؤولية الكبرى، وهجروا القرآن، فيكون العرب متبوعين وليسوا تابعين، ومقودين وليسوا قائدين، أذلاّء وليسوا كرماء كقوله(وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم)محمّد/٣٨.

٤ -﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

صفة بارزة لقرآننا (**بَشِيرًا وَنَذِيرًا**)**بشيراً**: لمن صدقه وعرف قدره وأدّى حقه وأصدق معه واهتدى بهديه وأقبل على الله، بالعاقبة الحسنة والثواب العاجل والآجل، **ونذيراً**: بالضعف والهوان والخزي والخذلان، والضلال للكافرين والفاسدين بالعاقبة الوخيمة، والعقاب العاجل والآجل بعذاب الجحيم، **ونذيراً**: لمن كذبه، ولم يعرف قدره، ولم يؤد حقّه، وأقبل على هوى نفسه كقوله (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)الفرقان/٤٣، **عن النبي**(ص)(ما عُبد إله أبغض على الله من الهوى)روح البيان٢/١٩٧، **الناس مختلفون في تلقّيهم للقرآن**: فمنهم من يسمع وينفعل ويتدبر ويبحث علمياً ويسجد لله، ومنهم من يجادل بغير علم، ومنهم من يستمع القرآن ويعرض عنه بدون تفكّر، ومنهم من يسمع ويستهزئ خوفاً على سيادته وزعامته (**فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ**) عن الاستجابة بألسنتهم، وهم يعتقدون بالقرآن بقلوبهم، وهذا هو الجحود اللئيم، **في غرر الحكم**(**اللئيم** إذا بلغ فوق مقداره تنكّرت أحواله) (**فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ**) فهم لا يستمعون إليه ولا يصغون ولا يتفكرون حينما يُقرأ القرآن عليهم، بل كانوا يعرضون عنه، وإذا سمعوه بغتة لا يتفكرون فيه، بل إنهم يقاومون أثر هذا القرآن في نفوسهم، فكأنهم صم لا يسمعون! لأن منافذ قلوبهم مغلقة، وأجهزة الاستقبال عندهم معطّلة، مع كونهم من أهل العلم!، كقوله(**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**) محمّد/٢٤ **عن الإمام علي**

(ع) (إنّ من لا ينفعه الحق يضرّه الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى تضرّه الضلالة، ومن لا ينفعه اليقين يضرّه الشّك)شرح البيان٢/٩١، أعرضوا عن القرآن الحق جهلاً وتعصباً لتقاليد الآباء، والعرف الاجتماعي العام، وطمعاً بنفع عاجل لأن عقولهم تحمّدت عند التقاليد الجاهلية الموروثة، وحياتهم تحجرت عند العادات الفاسدة والأعراف المألوفة، فلا يملكون سبيلاً لحركة الفكر الجديد، ولا يجدون طريقاً لتغيير القناعات الخاطئة، ولهذا كانوا يواجهون دعوات التغيير بأساليب المعارضة العنيفة والمهاجمة اللئيمة، كقوله **(إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا)** الفرقان/٤٢، لقد كانت عزة المسلمين بالإسلام، والقرآن دستور حياتهم، وذلتهم في تركه وهجره، فساءت أحوالهم، فعلينا العودة إلى القرآن لتعود عزّتنا إلينا. **فائدة:** في الآية إشارة إلى أن الأقل هم الذين يصغون، فأزال الله تعالى بلطفه عنهم ثقل الآذان، فانفتحت الأذهان بمعاني القرآن، فاستقام السلوك، واستقرت النفوس.

٥-﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾

كانوا أحياناً يسمعون القرآن فيتأثرون به، ولكنهم يظهرون أنهم لا يسمعون، لأنهم يسدّون الأبواب والنوافذ الهادية الموصلة إلى قلوبهم، إنهم يقاومون أثر هذا القرآن في تحريك نفوسهم، قالوا ذلك إمعاناً في العناد! **(وَقَالُوا)**تأييسا للرسول ليكف عن دعوتهم، وتكلموا بهذا الأسلوب المتحجّر الساخر المعاند ليدب الفشل في مهمته(ص)، ثم صرّحوا بنفرتهم منه وتباعدهم عنه بثلاثة أسباب احتقاراً لدعوته ١-(**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ**)٢-(**وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ**) ٣-(**بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**)ثم بارزوه بالخلافات الجدلية العقيمة، بما لم يبق بعده مجال للأمل ولا للوفاق فقالوا **(فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ)**

المعنى: **(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ)**جمع كنان: وهي الأغطية والموانع والحجب المتكاثفة التي تغلّف قلوبهم، فلا ينفذ إليها نور الهداية ونعمة الدراية، شبهوا حال أنفسهم مع رسول الله(ص)بحال شيئين بينهما عوازل سميكة، وحجب من الوحشة والنفرة والعناد والاتباع الأعمى، وأجهزة الاستقبال عندهم معطّلة**(مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ)**من الإسلام المعتمد على أساس التوحيد**(وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ)** ثقل وصمم، وآذاننا مسدودة عن سماع القرآن، ومعرضة عن دين الله فلا نسمع دعوتك الإسلامية، كقوله**(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)** المطففين/١٤، وهكذا تفعل الأهواء في النفوس، فإنها تميت القلوب، وتحجّم العقول عن التفكير، وتطلق العنان للجهل والعناد والضلال فيقودهم إلى سوء العاقبة، مثلهم كالمريض الوقح الذي يعترض على الطبيب الذي يعالجه، ويشكك فيه! ولم يذكر القرآن اللسان هنا، لأنهم لم يتكلموا في الدين، لأنهم لم يسمعوا حتى يتكلموا !(**بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**)وحاجز سميك عازل بيننا يمنعنا عن التواصل والتفاهم، بحيث لو كانت آذاننا سالمة فإنا لا نسمع كلامك! إنهم أظهروا الإعراض عنه من

كل جهة، ورضوا بما هم عليه من جاهلية كقوله(وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)الأنفال/٤٨، وقوله (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) المائدة/ ٥٠ وقوله(لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا)الأعراف/١٧٩ طبع الله عليها فلا تعقل **(وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا)**عليها غطاء وحجب فلا تبصر الهداية **(وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا)**جعل في آذانهم وقرّاً وصمماً، فلا يسمعون الهدى **(أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ)**وقالوا ذلك ليكون النبي(ص)في يأس من قبولهم دينه! **(بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ)** أبداً لا حجاب حقيقي كما يدّعوه إلاّ حجاب الكبرياء السميك والعناد البليد، وحبّ التقليد الأعمى، ولا حياة لقوم يقودهم مثل هؤلاء**(فَاعْمَلْ)**على دينك ورضاك عنه، وإبطال أمرنا وإزالة عقائدنا وتحقير آلهتنا **(إِنَّنَا عَامِلُونَ)**على ديننا، وإبطال دينك بكل ما نستطيع من حول وحيلة، وهذا من أعظم الخذلان حين يفضّلون الضلال على الهدى، ويستبدلون الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا كقوله(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ)يونس/٣٢، عن الإمام الصادق (ع)(لا يستيقن القلب أنّ الحق باطل أبداً، ولا يستيقن أنّ الباطل حق أبداً)البحار٧٠ ص٥٨.

فائدة: لقد ملؤوا قلوبهم بحبّ الدنيا، **عن النبي(ص)(حبّ الدنيا رأس كل خطيئة)** البحار٧٣ ص٧، فلا يوجد فيه مجال لقبول منهج السماء، وحصلت حواجز نفسية سميكة ترفض قبوله، لأن القلب محل البصيرة والتعقّل، وأجهزة الاستقبال المتصلة به من سمع وبصر قد تعطّل دورهما، فرفض القلب أن يستقبل كل فكر جديد، وهذا دليل أن القلب لا يقبل حبّين ولا يتقبل ولاءين في وقت واحد، فإما أن يتبع الهوى أم يتبع الهدى(ومن لا يستقيم به الهدى تضرّه الضلالة) كقوله (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ) الأحزاب/٤ وهكذا من يبتعد عن الفضيلة فتأخذه الرذيلة، ولا يتمكن أن يبقى الإنسان على الحياد، بلا ولاء ولا اتباع**(فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ)**.

٦-٧- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

يالعظمة النبي المصطفى(ص)حيث تجرّع الصبر الكثير، وتحمّل الأذى والبلاء الكبير في سبيل هداية قومه، فقال(ص)(ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت في الله)كنز العمال خبر٥٨١٨، يالروعة هذا الإيمان الثابت، ويالجمال هذا التسليم المنقطع لأمر الله كقوله(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)فصلت/٣٥، **في غرر الحكم**(بالصبر تدرك معالي الأمور)

المعنى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ)لست من جنس مغاير لكم حتى يكون بيني وبينكم حجاب، وأنا مأمور بما أمرتم به أن لا تعبدوا إلا الله، وإنما فتح باب العلم والإيمان والوعي على قلوب الأنبياء بالوحي، وعلى قلوب الأولياء بالشواهد والكشوف، وعلى قلوب

المؤمنين بالإلهام وشرح الصدور كقوله(أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ) الزمر/٢٢، وليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وكل ما أقوله لكم وأدعوكم إليه **(يُوحَىٰ إِلَيَّ)** إنّ موضوع هذا الوحي هو تقرير منهج الإسلام الأصيل، على أساس التوحيد الخالص من كل شرك، **في غرر الحكم**(التّوحيد: حياة النفس) كقوله(إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) آل عمران/١٩ **(أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ)**أنما إلهكم الذي يستحق العبادة **(إِلَٰهٌ وَاحِدٌ)**ليس معه شريك (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ)التوحيد/٤ كقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)الشورى/١١ **عن النبي(ص)** (أفضل الإيمان، أنّ تعلم أنّ الله معك حيث ما كنت)كنز العمال خبر٦٦ كقوله**(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)** الحديد/٤.

وعنه(ص)(دنياك وما يشغلك عن ربك)روح البيان٦/٤٩١، والله عز وجل واحد أحد فرد صمد، وليس متركباً من أشياء، وليس بجسم، وكلمة (أحد)تنفي التجزّؤ، وواحد تنفي التعدد، وهذا معنى الإيمان بتوحيد الله، وهو أول أصول الدين الإسلامي، والتوحيد أساس لكل دين سماوي، **في نهج البلاغة خطبة ١٨٦ (في التوحيد)** (لا تناله الأوهام فتقدّره، ولا تتوهّمه الفطن فتصوّره، ولا تدركه الحواس فتحسّه، ولا تلمسه الأيادي فتمسّه)**عن الإمام موسى الكاظم**(ع) **(في التوحيد)** ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه (إلاّ أن تحجبهم الأعمال السيئة دونك) احتجب بغير حجاب محجوب، واستتر بغير ستر مستور) الإرشاد للمفيد، وليس لله زمان ولا مكان، لا يتحد في شيء، ولا يتّحد فيه شيء، لا يتبدل ولا يتحوّل ولا يتطوّر ولا يتغيّر ولا يتجزّأ، فهو قمة القمم، ونعمة النعم، وهو الحق الكامل الثابت كقوله **(ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)** الحج/٦، فهو يملأ كل شيء، لأنه مع كل شيء كقوله(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) الرعد/١٦

(فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)وتوجهوا إليه بوجه واحد في أفعالكم وأقوالكم، وأخلصوا له العبادة، واسلكوا الطريق المستقيم، المعتدل بصدق الموصل إلى الله، والنافع إلى الناس، بلا تلوّن ولا تذبذب ولا تقلّب ولا نفاق، بل مطابقة الأفعال مع الأقوال، والظاهر مع الباطن، فإذا استقمت استقامت أحوالك، **فالاستقامة**: وسيلة نجاة وطريق صلاح وفلاح ونجاح، **والخط المستقيم**: أقصر الطرق وأسهلها وأضمنها إلى أية غاية، فمن بحث عن الله وجده، ومن سعى إلى الله قربه إليه، عن الإمام علي(ع) **(من صبر على الله وصل إليه)** البحار٧١ص٩٥ **(وَاسْتَغْفِرُوهُ)**اطلبوا منه المغفرة على ما اقترفتم من ذنوب، واستغفروا من دون ذنب عند الهفوات والزلاّت، وفي حالات الغفلة والسهو واللغو واللهو، فهو استغفار لرفع الدرجة ولتنقية النفوس، فيكون استغفار بمنزلة الشكر، والاستغفار يمحو الأوزار(ودرء المفسدة مقدم على جلب المنفعة) فاستغفروه حتى تنشئوا علاقة جديدة صادقة في خط الاستقامة إلى الله**(وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ)**هلاك المشركين الذين لا يصدّقون بالنبوة والرسالة السماوية.

٧-(الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ)

تخصيص الزكاة في هذا الموضع له دلالاته القرآنية، وقد وصف الله سبحانه الكفر بالنجاسة بقوله(إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)التوبة/٢٨، وذكر الزكاة بمعنى التطهير في قوله (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ) الأعلى/١٤، وذكرت الزكاة في هذا الموضع، لأن قريشاً كانت تطعم الحاج وتسقيهم، فحرّموا ذلك الإنفاق على من آمن بمحمد(ص)،الآية مكية، ولم تكن الزكاة مفروضة على المسلمين في مكة، وإنما فرضت الزكاة في المدينة! فيكون المراد بالزكاة بمعناها العام المادي والمعنوي، **في غرر الحكم (لكل شيء زكاة، زكاة النعم اصطناع المعروف)** فكل ما ينفق في سبيل الله هو زكاة، وهي كل ما يتطهّر به الإنسان عن عيوبه ويزكو، لكن امتناع المشركين عن النفقة، وعدم مشاركتهم معاناة المحرومين، وعدم مساعدتهم للملهوفين، لهي حالة دالة على الأنانية وحبّ الذات، والتعلّق بحبّ الدنيا، والاستحقار ذوات الآخرين، وهذه الصفات البخيلة لا تليق بالمسلمين الصالحين، **عن النبي(ص)** (من أصبح لا يهتمّ بشؤون المسلمين فليس منهم) الكافي٢ /١٦٣، كقوله **(وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ)**البقرة/٢٧٢، **في غرر الحكم**(ليس لأحد من دنياه إلاّ ما أنفقه على أخراه)سُئل النبي(ص)عن قوله(وويل للمشركين، الذين لا يؤتون الزكاة...) قال: لا يعاتب الله المشركين، أما سمعت قوله(فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ، الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)الماعون/٤-٧، ألا أن الماعون الزكاة(وكل ما فيه منفعة) ثم قال: والذي نفس مُحَمَّد بيده ما خان الله أحد شيئاً من زكاة ماله إلاّ مشرك بالله) البحار٩٦ ص٢٩، **عن الإمام الصادق**(ع)(من منع قيراطاً من الزكاة فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً) البحار٩٦ ص٢٠، **عن قتادة في الآية قال:** الزكاة قنطرة الإسلام، من قطعها برئ ونجا، ومن تخلّف عنها هلك)الدر المنثور٧/٣١٣، عن ابن عباس: **إنّ المراد بالزكاة في الآية بمعناها العام.**

بمطلق الإنفاق في سبيل الله في الأعمال الصالحة النافعة للناس، كقوله(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا)التوبة/١٠٣ عن الإمام علي(ع)(إنّ الله فرض عليكم زكاة جاهكم، كما فرض عليكم زكاة ما ملكت أيديكم)مجمع البيان٣/٢١٩، وانما خص منع الزكاة وقرنه بالكفر بالآخرة، لأن أحبّ شيء إلى الإنسان ماله، كقوله(**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**) الفجر/٢٠، فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على استقامته وصدق إنسانيته، كقوله(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)الشمس/٩-١٠ **في غرر الحكم (ذروة الغايات لا ينالها إلاّ ذوو التهذيب والمجاهدات)**عن النبي(ص)(بتزكية النفس يحصل الصفاء)تنبيه الخواطر ص٣٦٠، إن النسبة المعينة التي يعطيها الغني للفقير المحتاج، ليذهب منه الحسد والحقد واللؤم والأخلاق

الذميمة، وتطهير نفسه من الشرك، فيكون معنى الزكاة هنا يأتي بمعنى(**التوحيد**) لمجيء بعده قوله(**وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**)

فيكون التوحيد زكاة النفس وتطهيرها من عيوبها، والزكاة تطهير العلم بالتعليم ونشر العلم، وتطهير الجاه لإغاثة الملهوف، وتطهير المنصب بقضاء حاجة المحتاجين، وتطهير الجسد بالجهاد والصوم، وتطهير القدرة بالإنصاف، وتطهير الجمال بالعفاف، وتطهير النصر بالإحسان وبر الجيران وصلة الأرحام، عن الإمام الصادق(ع) (**على كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله عزوجل،** فزكاة العين النظر بالعِبرة والغض عن الشهوات (المحرّمة) وزكاة الأُذن استماع العلم والحكمة والقرآن...) البحار٩٦ ص٧، وقد أكد القرآن على الزكاة وجعلها مقترنة مع الصلاة كقوله (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ)البقرة/١١٠ (**وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ**) منكرون لعالم الغيب، ويكفرون باليوم الآخر، فيحجبون عن نفسهم نور الهداية ومنبع الدراية كقوله (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)الزمر/١٥ في **نهج البلاغة كتاب٣١**(من الفساد إضاعة الزاد، ومفسدة المعاد)وتكرار ضمير (هم) لتأكيد كفرهم بعالم الحساب والجزاء ووجوب عقابهم.

٨- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**)كما أراد الله ورسوله، بأية نسبة من النسب، فالإيمان يهتف بالعلم، والعلم مقرون بالعمل فإن أجابه وإلاّ ارتحل عنه، في غرر الحكم(العلم بغير العمل وبال، والعمل بغير علم ضلال) وفيه أيضاً(**من السعادة: التوفيق لصالح الأعمال**) فلا إيمان من دون عمل صالح، ولا عمل صالح من دون إيمان، عن الإمام الصادق(ع)(الإيمان عمل كله، والقول بعضه)البحار٦٩ ص٢٣، فإن الله يكرم هؤلاء، لأنهم أهل للتكريم والتعظيم، لأنهم سلكوا سبل النجاة، وحافظوا على سلامة فطرتهم، وقاوموا فساد واقعهم، وصبروا صبراً جميلاً، وفازوا في دنياهم وآخرتهم وذلك هو الفوز العظيم، لأنهم خير البرية كقوله(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)البينة/٧، وقوله(**لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ**) الصافات/٦١، وقوله (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)المطففين/٢٦، وما أحلى هذه النتيجة، وأسهل الوسائل وأقصر الطرق وأجمل الأهداف كقوله(**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**) الرعد/٢٩(**لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ**)تكريم دائم غير منقوص وغير مقطوع وليس فيه منٌّ ولا أذى كقوله(عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) هود/١٠٨، سيظل عملك الصالح رفيقاً لك، باقياً مصاحباً معك تستظل به وينفعك على المدى الطويل، ومشتملاً على جميع اللّذات والمشتهيات كقوله (وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)الكهف/٤٦ فالذي يؤمن بمنهج الله تعالى ويحوّله إلى واقع متحرك وممارسة عملية، فهو الذي يعطي لله كل ما

يملك، فيعطيه الله كل ما يريد وفوق ما يريد، لتكون الجنة غاية المؤمنين وعنوان الصالحين كقوله(لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)ق/٣٥.

٩ -﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

يمضي القرآن ليكشف للمشركين شناعة الجرم الذي يرتكبونه، يمضي بهم في المجال الكوني العلمي العريض الدقيق، الذي هم بالقياس إليه شيء هزيل ضئيل، ليخرجهم من الزاوية الضيّقة الصغيرة، حيث يرون أنفسهم كبيرة ويشغلهم النظر إليها، فلا ينظرون إلى الحقيقة الضخمة التي يدعوهم إليها الإسلام، الحقيقة المؤثرة التي تتصل بالنظام الكوني الدقيق العام، وبالحق الكبير الأصيل الذي يتجاوز زمانهم ومكانهم وذواتهم، وتتصل بالكون كلة في الصميم، الحقيقة القرآنية النافذة التي تبلغ أعماق القلوب وتحرّك المشاعر وتحيي الضمائر لتنهض وتستفيق من غفلتها، والغفلة ضلالة ومن فساد الحس، **المعنى**: (**من الآيات المتشابهات في الآفاق الواسعة**)

(**قُلْ**) أحقاً (**أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ**) بالله(**بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ**)الاستفهام إنكاري للتوبيخ والتعجّب، أي ما كان لكم أن تكفروا بالله الذي هذه قدرته، وتلك آثاره، مع أن فطرتهم ساعة تصفو وتشف يعترفون بالخالق في أعماقهم كقوله(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)الزخرف/٨٧، (**فِي يَوْمَيْنِ**)قدّر وجودها في مرحلتين أو طورين أو دفعتين، حيث لا أيام ولا زمان ولا مكان قبل خلق الأرض، ويخاطبنا الله بما نعرف عن اليوم، في الآية١٠(**فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ**)إنها أيام مميزة من أيام الله التي لا يعلم حقيقتها ومداها إلاّ الله الخالق لها، ولكنها ليست من أيام هذه الأرض، وهي دورتها حول نفسها أمام الشمس، **فللكواكب الأخرى أيام، وللنجوم أيام غير أيام الأرض**، والأيام التي خلق الله فيها الأرض هي أيام أخرى مقيسة بمقياس أخر لا نعلمه، وأقرب شيء للتصّور هي الأزمان التي مرت بها الأرض على مراحل، طوراً بعد طور، بالقدرة القاهرة، هذه مجرد تقديرات علمية قابلة للنقاش، مستندة إلى دراسة الصخور وتقدير عمر الأرض وطبقاتها.

وهذا يدل على أن استعمال القدرة يكون ضمن الحكمة والمصلحة، وأن المصلحة اقتضت في خلقها على مرحلتين، وأن الذي يقوم بهذا الخلق العظيم ويملك المخلوقات كلها ويدبر أمرها، هو الذي يستحق العبادة، وعلى قدر العلم تكون العبادة. **وفي هذا دلالة** على أنه سبحانه إنما يستدل على إثبات ذاته وصفاته بدقة أفعاله كقوله(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)النمل/٨٨، وقوله (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) لقمان/١١، وقوله (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) النحل/١٧، مع أن قدرة الله قادرة على خلق الجميع في لحظة واحدة، بكلمة واحدة(**كن فيكون**) فعامل الزمن عنده سبحانه صفراً، وإنما ذكر(**خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ**) ليستوعب العقل البشري أن دنياه هذه وما فيها من مخلوقات كثيرة، وما يريد الإنسان

تحقيقه من طموحات علمية متطورة، واكتشافات حديثة متنوعة لا يتم إلاّ بمدة زمنية معينة، مع الأخذ بالأسباب الطبيعية الممكنة كقوله(**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**)فصلت/٥٣.

فيكون هذا الزمن منظور فيه طبيعة المخلوق لا إلى قدرة الخالق، ويستوفي فيه تمام خلقه، كالجنين في رحم أمه يتم تكوينه في تسعة أشهر في عالم الإنسان، وفي(٢١) يوم لتفقيس بيض الدجاج... وهكذا الزمن جزء من وجود كل كائن، وفي تطوّره من حال إلى حال، سواء في هذا النظام المقدّر الحيوانات والنباتات والجمادات، فهو سبحانه مربي المخلوقات جميعها، فإن رباها في مرحلتين، فقد ربى غيرها في مراحل يعلم سبحانه عددها كقوله(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)النحل/٨، فكيف يكون شيء منها نداً له؟! (**وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا**) وتتخيلون له أشباهاً وشركاء ونظراء تعبدونهم(من دون الله)رغم وضوح آيات توحيد الله في خلق السماوات والأرض وتدبير أمرهما؟! حقاً إنه شيء لا يصدق! (**ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ**)(**ذَٰلِكَ**) إشارة بلفظ البعيد للتفخيم والتعظيم والتنزيه عن أمثال هذه الأوهام، ذلك الخالق الحكيم القدير مدبّر جميع الكائنات، فينبغي أن تعبدوه وحده، ومن ضاق عليه منهج الرحمن فيصادقه الشيطان عدو الإنسان فيضله عن سبيل الله. **فائدة: سؤال**: قوله (**خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ**) الآية/٩، وقوله (**وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ**)الآية/١٠، وقوله (**سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**) الآية/١٢، فهذه ثمانية أيام، وقوله(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)الأعراف/٥٤، في ستة أيام لا ثمانية أيام. **الجواب**: اليومان الأولان داخلان في حساب الأربعة أيام ومن جملتها، كما تقول خرجت من لبنان إلى فرنسا في عشرة أيام، وإلى اليونان في عشرين يوماً، لا ثلاثين يوماً.

١٠ –﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾

كثيراً ما يرد تسمية الجبال في القرآن بالرواسي الثوابت في أعماق الأرض، وخرجت رؤوسها من فوق الأرض كقوله(**أَن تَمِيدَ بِكُمْ**)النحل/١٥، أي أنها جبال فخمة راسية ترسي الأرض وتحفظها وتوازن حركتها ونظامها، فتستقر مع حجمها الكبير ولا تضطرب، فأرضنا كرة من نار، غطيت بطبقة صلبة صوّانية، فوقها طبقات متعددة ألطف منها، وصارت الجبال مخازن للمياه وحافظة لها وللهواء والسحاب، وهي مخازن لأنواع المعادن كالذهب والفضة والحديد والنحاس..، وهي دلالة على المكان، وهداية لمعرفة خارطة الطريق، لقد كان الناس يحسبون أن هذه أرضهم ثابتة راسخة.

وجاء العلم الحديث ليقول: إن أرضكم هذه ما هي إلاّ كرة صغيرة تتحرك بمقدار، سابحة في فضاء مطلق، لا تستند في حركتها إلى شيء! وليس لها محور منظور تدور عليه! كقوله(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا)فاطر/٤١ وقوله(**أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا**

فَفَتَقْنَاهُمَا) الأنبياء/٣٠، وقوله(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)هود/٧، وجاء القرآن الكريم بهذه الحقيقة من أكثر من أربعة عشر قرناً! **(وَبَارَكَ فِيهَا)**وجعلها مباركة أي فيها الخير الكثير الذي ينفع كل الكائنات كالمياه والزروع والضروع، لأن **البركة**: أن تعطي الشيء من الخير فوق مظنة حجمه**(وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا)** وقدّر فيها أرزاق أهلها ومعاشهم على حسب الحاجة والمصلحة، على قدر ما فيها من عدد الأحياء مهما كثروا كقوله(وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ)الحجر/١٩، وإذا وجد جائع فهو من ظلم القوي للضعيف، وقدّر الأرزاق في كل بلدة منها ما لم يجعله في بلدة أخرى، ليعيش بعض الناس على بعض بالتجارة من بلد إلى بلد، وفي هذا إعمار للأرض، وانتظام أمور العالم، عن النبي(ص)**(عليكم بالتجارة والمهارة والجسارة فإن فيها تسعة أعشار الرزق)** **(فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ)**في أربعة فصول(الصيف والخريف والشتاء والربيع) فاليومان الأولان في الآية ٩ داخلان في جملة الأيام الأربعة **(سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ)**إنّ هذه الأقوات المقدرة لجميع المحتاجين والطالبين من نبات وحيوان وإنسان، فإن الجميع يطلب القوت وديمومة الحياة كقوله(يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الرحمن/٢٩، يسألونه سؤالاً طبيعياً مغروساً في فطرتهم، ولاسيما عند الاضطرار، سؤالاً بلسان الحال أو بلسان المقال(وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ج)إبراهيم/٣٤

١١- ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾

(من الآيات المتشابهة) بعد أن تم خلق الأرض، وتهيأت لاستقبال الأحياء **المعنى**: **(ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ)** فوجهت إرادته سبحانه أن يخلق السماء واخترعها بإبداع مدهش لتدبير نظامها الكوني بدقة فائقة، ومن غير كلفة ولا مشقة، وتعبير**(ثُمَّ)**تدل على التراخي الزمني، يفيد أنه سبحانه خلق السماء بعد الأرض كقوله(وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا)النازعات/٣٠، أي فلما خلق الله السماء دحا بعد ذلك الأرض وبسطها ليمّهد الحياة العلمية والعملية للإنسان لعمارة الأرض قبل خلقه كقوله(هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)هود/٦١ **(ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ)**الاستواء إذا جاء بعدها (على)تفيد معنى الاستيلاء والسيطرة كقوله(الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ)طه/٥، وإذا جاء بعدها**(إِلَى)**تفيد معنى التوجه إليها وقصد خلقها.

(وَهِيَ دُخَانٌ)كأن السماء كانت في حالة ظلمائية على شكل سحب من الغازات والأبخرة الكثيفة والكثيرة المتصاعدة كالدخان مع الحرارة كقوله(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)هود/٧ وقوله (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) الذاريات/٤٧، وتدل الآية هود/٧، أن الماء كان موجوداً قبل خلق السماوات والأرض.

فيكون المراد **(بالدخان)**بخار الماء المتكاثف**(فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا)** واستجيبا لأمري وإرادتي على النظام الذي وضعته لكما، وخاطب الأرض مع السماء لإلفات النظر إلى العلاقة

المترابطة الدقيقة بين السنن الأرضية، مع السنن السماوية والكونية، مع انسجامها مع حركة السنن الإنسانية المؤمنة، **وجاءت الآية على شكل سؤال فطري بلسان الحال أو بلسان المقال**، وهما على استعداد سابق للاستجابة والطاعة، إنها دلالة عجيبة على انقياد هذا الكون بالكامل للنظام الإلهي العام، والتسليم لمشيئته سبحانه، وليس هناك إلاّ الإنسان المكرّم له حرية الاختيار أن يستجيب لمنهج الله أو يُعرض عنه، فإن استجاب فقد أكرم نفسه وعرف قدره ولم يتعدّ طوره فله الجزاء الأوفى، وإن أعرض وفسد فلم يعرف قدر نفسه وأهان خلافته على الأرض، ولم يكرم نفسه وتعدّى حدود الله كقوله (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ)الطلاق/١ وقوله(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣ (**طَوْعًا أَوْ كَرْهًا**)طائعتين أو مكرهتين.

(**قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**)مستسلمتين، من التسليم، وهو تعبير كنائي، واستعارة بلاغية عن قدرة الله القاهرة، في تدبير أمورهما، مما يوحي بأن الأمر كله تحت قبضته سبحانه، فليس لهما من الأمر شيء، وإن إرادة الله فوق كل إرادة(**أَتَيْنَا طَائِعِينَ**) طاعة تكوينية بانقياد، وامتثال ذاتي منظّم ومقّدر ومدبّر، وخاطبهما مخاطبة العقلاء، وجمعهما جمع من يعقل كقوله(**كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**)الأنبياء/٣٣، فتكون إرادتهما تبعاً للنظام الكوني العام الذي أراده الله جلّ في علاه، دون أن تخرج على هذا النظام الدقيق الذي أقمتنا عليه كقوله(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ)الأحزاب/٧٢، **معنى الأمانة هنا**: أن يوكل إليهن الاختيار والحرية في التصرف بكامل إرادتهن، فأبين ذلك، وأسلمن الأمر كله لله عز وجل، أما الإنسان وحده الذي حمل الأمانة (**إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**) بقدر الأمانة وعظمتها، وبما ينجم عن التهاون بها والخروج عليها!

فائدة: قال(**أَتَيْنَا طَائِعِينَ**) ولم يقل(**طائعتين**) على أساس أنهما مثنى، ولم يقل طائعات على أنهما مؤنث، **والسبب** لأنه لما خوطبن خطاب من يعقل، جمعهن جمع من يعقل، **والسبب أيضاً**: أن الشيء الكبير يكون مفرداً، ولكن تحته أشياء كثيرة، لذلك جاءت بالجمع كقوله (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا)الحجرات/٩، فإن راعيت اللفظ أفردت، وإن راعيت ما تضمه من أشياء جمعت. **في نهج البلاغة**: (فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطدات بلا عمد، قائمات بلا سند، دعاهن فأجبن طائعات مذعنات غير متلكئات ولا مبطيات، ولولا اقرارهن له بالربوبية، واذعانهن له بالطوعية، لما جعلهن موضعاً لعرشه)نور الثقلين٤/٥٤١.

١٢ - ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

(**فَقَضَاهُنَّ**)صنعهن وأحكمهن وأبدع خلقهن باتقان، مما يدهش العقول وتخشع له الأرواح، فالأرض دائرة حول نفسها ودائرة حول الشمس، وتدور الشمس حول نفسها وحول شموس

أخرى أكبر منها(**سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ**)ربما جاء العدد(سَبْعَ)هنا للكثرة، وقد يكون سبعة أكوان وليس سبع طبقات أو سبعة كواكب كبرى، فتم خلق السماوات والأرض في ستة أيام كقوله (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)هود/٧، ولو شاء لخلقهن بلمح البصر وبكلمة(**كن فيكون**)ولكن أراد الله أن يعلّم عباده الصبر والحلم في إنجاز الأعمال، والبحث العلمي حول أسباب نجاحها وتألّقها (**وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا**)لعلّ **التعبير بالوحي جاء على سبيل الكناية والتشبيه وتقريب المعنى** للانقياد الكامل لأمر الله تعالى، فيكون معنى هذا الوحي وحي تنظيم وتدبير وتقدير بما أراد، أي بيّن لكل سماء مهمتها، وما فيها من كواكب على أساس الحكمة، وما فيها من الأنبياء والملائكة الموكّلين بشؤون الكون، ومن الأنظمة المقدرة الخاصة التي لا يعلمها إلاّ الله كقوله(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا)الأنبياء/٣٠، وقوله(**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ**) الطلاق/١٢، وكذلك جعل في الأرض ملائكة حفظة موكلين بحفظ الإنسان ضمن القدر المرسوم كقوله(إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)ق/١٧، وقوله (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) الرعد/١١.

(وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ)

ليس للسماء الدنيا مدلول واحد محدد، أي وزيّنا السماء الأولى القريبة من أرضكم بالشمس والقمر والنجوم والكواكب المتلألئة المضيئة، وهي كالمصابيح المعلّقة، وإن تفاوتت ارتفاعاً وانخفاضاً، ولكن كلها مضيئة بدرجات متفاوتة لتكون السماء جميلة ظاهراً ليهتدي الناس بها، فهي ترسم خارطة الطريق كقوله(**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**)النحل/١٦ (**وَحِفْظًا**) يحفظ الله الكون من أي تخلخل بسنن محكمة وأنظمة ثابتة، ومن اصطدام بعضها ببعض، وحفظناها من الشياطين التي تسترق السمع من الملائكة في الملأ الأعلى لتذيعه في الأرض كقوله(وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ)الملك/٥ (**ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ**) (**ذَٰلِكَ**)المذكور في دقائق خلق السماوات والأرض وما فيهما من أنظمة وتدبير (**ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ**)في ملكه لا يمتنع عليه شيء، وهو القاهر لكل شيء(**الْعَلِيمِ**)بمصالح خلقه لا يخفى عليه منهم شيء، كقوله (فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) المرسلات/٢٣، سئل الإمام علي(ع)كم بين السماء والأرض؟ قال(مد البصر ودعوة المظلوم) الميزان١٧/٣٧٣.

١٣-١٤ - ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۞ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾

مقطع من الآيات يعرض جولة حاسمة في مصارع الغابرين المستكبرين، وهذا الإنذار المرهوب المخيف المتحرّك بسننه يناسب شناعة الجرم وفظاعة الذنب وكبرياء المشركين، **المعنى**: (**فَإِنْ**

أَعْرَضُوا) عن الإيمان بك بعد هذا البيان، وبعد إتمامنا الحجة عليهم كقوله(فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) الأنعام/١٤٩ **(فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً)**فقل إني أخوّفكم بعقوبة مؤلمة تستأصلكم وتهلككم، وهذا على الله يسير، كما فعلنا **(مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)**وعبّر بالماضي إشارةً إلى تحققه وحصوله، **في نهج البلاغة خطبة٣٢**(اتّعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم) ١٤-(**إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ)**كناية بلاغية عن مبالغة الرسل واجتهادهم وجهدهم الجهيد في التبليغ والتبشير والإنذار، حين جاءتهم الرسل برسالة السماء الهادية، وعرضوها بأزمنة مختلفة، ويحذرونهم من سوء العاقبة، وناصحين لهم ومرشدين ومعلمين ومبلغين، وكانت دعوة جميع الرسل واحدة، لها هدف واحد، وغاية سامية واحدة، مع تعدد أدوار واختلاف أساليب فنية وتنوّع ظروف وتغير حالات، لأن دين الله واحد ثابت **(مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ)**أي اجتهدوا في هدايتهم من كل جهة ممكنة، وعملوا فيهم الدراية وحبّ العلم والتعلم، بكل الوسائل الناجحة، بالإسرار والإعلان، فرادى ومجتمعين، بالترغيب والترهيب، وحاولوا طرق كل الأبواب والوسائل الممكنة حتى ينفذ نور الإيمان في قلوبهم القاسية وقالوا**(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)**يدعو جميع الرسل إلى توحيد الله سبحانه، وفي التوحيد استقامة السلوك وصدق الأعمال، وإخلاص الأقوال ومرونة التعامل وجمال الأخلاق مع الناس، والثبات على المبادئ والقيم والعبادات، لأن التوحيد يحجّم الهوى ويهذّب النفس الأمارة بالسوء، ويعظّم الله في النفوس، ويُثبت الإيمان في القلوب كقوله (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) الأنبياء/٢٢.

في نهج البلاغة خطبة ١٩٣(عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم)،وهذه هي مسؤولية جميع الرسل، ووحدة أهدافهم، وقام بنيان كل دين سماوي على أساس كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، لأن في التوحيد استقرار النفوس، واطمئنان القلوب، **في غرر الحكم(التوحيد:** حياة النفس)(**قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً)**إنها الشبهة المكررة القاصرة التي قوبل بها كل الرسل كقوله(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ)الفرقان/٧، وقوله(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا)الأنعام/٩، وما كان لرسول يخاطب البشر أن يكون إلاّ من البشر، يعرفهم ويعرفونه، ويألفهم ويألفونه، وخير الناس من يألف الناس ويألفونه، عن النبي(ص) **(المؤمن يألف ويُؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُؤلف)** كنز العمال خبر ٦٧٩، والملائكة ليسوا من جنس البشر، وفي عالمٍ غير عالمنا الأرضي، ولهم وظائف غير وظائفنا، وهم مأمورون غير مخيّرون، فإذا لم يرسل الملائكة **(فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ)**ونظنكم كاذبين في ادّعائكم، وكان جوابهم بأسلوب السخرية والاستهزاء! ولم يروا منهم إلاّ الكفر والإعراض والاستكبار كقوله(الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)الأنعام/١٢ وعن النبي(ص)**(الخاسر**: من غفل عن إصلاح المعاد)تنبيه الخواطر ص٣٥٩.

١٥ -﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

يسلط القرآن أضواء سننه التاريخية على الماضيين ليعتبروا الباقين، **في غرر الحكم**(من لم يتّعظ بالناس، وعظ الله الناس به) تركز هذه الآية على منطق المستكبرين المغرورين الذين لا يفهمون إلاّ منطق القوة والعنف، وكأن العنف عندهم هو عاملهم الحضاري ورقيّهم المدني، بينما العنف هو العامل الإرهابي الذي يعرقل تقدم الشعوب، فهو عملية متخلّفة مجرمة لا تجابه الحجة العقلية بحجة مثلها، وإنما تواجه المنطق العلمي الرشيد بأساليب البطش اللئيم الشديد، لو اطلعت على هؤلاء لرأيتهم من الجاحدين المنافقين المنكرين حق النعمة ويبخسون حق المنعم، وهم بهذه الصفات الخسيسة جمعوا مساوئ الأخلاق، التي هي أصل المفاسد الأخرى، فاستحقوا تسليط العذاب عليهم. عن الإمام علي(ع)(**كل عزيز غير الله ذليل**، وكل قوي غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك، وكل عالم غيره متعلّم، وكل قادر غيره يقدر ويعجز)المبين/ مغنية ص٦٣١ **المعنى:** (**فَأَمَّا عَادٌ**)قوم نبي الله هود، كانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية، في منطقة الأحقاف باليمن (**فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**)فطغوا وبغوا وتجبروا وعصوا وتكبروا واغتروا واعتدوا على الناس (**بِغَيْرِ الْحَقِّ**)ظلماً وجحوداً، لا يوجد استكبار بالحق، فكل استكبار في البلاد والعباد فهو(**بِغَيْرِ الْحَقِّ**)أي بغير استحقاق للتعظيم، ولا أهلية للاستعلاء، يعني تجاوزوا الحدود المعقولة، وتعدوا الأصول المقبولة.

وإنما ذكر ذلك ليقول: لابد لكل قوم من كبير وقائد عادل مطاع يردع كل مستكبر معتدٍ، ولابد أن يكون له قوة تحميه، والمجتمع يؤيده، كقوله (**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**) الإسراء/٧١ **قيل لفرعون ما فرعنك؟** قال: لم أجد رادع يردعني! عن النبي(ص)(إنّ المتكبرين أمثال الذر يوم القيامة، تطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم) المراغي١٤/٦٨، ولما هددهم هود بالعذاب(**وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً**)؟! كانت لهم قوة جسمانية فريدة، ولهم أجسام طوال وهم العمالقة، ولهم قوة اقتصادية مميزة وعمرانية غير اعتيادية، فقالوا نحن نقدر على دفع العذاب بقوتنا، فاغتروا بقوتهم وقدرتهم، فأخذتهم العزة بالإثم، والكبرياء في الفساد، واستبد بهم منطق الجاهل السفيه، **في غرر الحكم(مجاهرة الله سبحانه بالمعاصي تعجّل النقم)** هذا هو الشعور الكاذب، والقدرة الخادعة، والكبرياء المنتفخ، الذي يحسّه ويمارسه الطغاة، والشعور بأنه لم تعد هناك قوة تخيفهم، وتقف أمام طغيانهم قال تعالى(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)لقمان/٣٣ وقد ردّ الله عليهم موبخاً(**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ**)أولم يعلموا علماً جلياً شبيهاً بالمشاهدة والعيان، أن الله الذي أنشأهم هو الذي أعطاهم تلك القوة والقدرة(**هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً**)إنها بديهة أولية، إن الذي خلقهم، هو الذي مكّن لهم هذا القدر المحدود من

القوة، فخانتهم قواهم لما استمكن منهم بلواهم، ولكن الطغاة لا يذكرون، واعتقدوا مغترين متعالين أنهم قادرون على كل شيء، إنها جملة للتعجب من مقالتهم الشنيعة! إنهم غفلوا عن قدرة الله، ولا قياس بين قوة الخالق الذاتية المطلقة، وقوة المخلوق المكتسبة المحدودة، وأين التراب من رب الأرباب! كقوله(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) البروج/١٢، في غرر الحكم(من أعتزّ بغير الله أهلكه العزّ) **(وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) الجحود:** هو إنكار ما استيقنه القلب، وكانوا ينكرون معجزاتنا على الدوام، وهم في الحقيقة يؤمنون بها، ويعرفون أنها الحق كقوله(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)النمل/١٤، أنهم جمعوا بين الاستكبار في النفس وطلب العلو في الأرض ولو على حساب ضرر الآخرين، وهو فسق بالاعتداء على الخلق وسلب حقوقهم، وبين الجحود بأكبر المعجزات وهو كفر. **عن الإمام الباقر**(ع)(إنّ أقرب ما يكون العبد إلى الكفر، أن يؤاخي الرجل على الدين فيحصي عليه عثراته وزلاّته ليعنفّه بها يوماً ما) البحار٧٥ /٢١٥.

١٦-﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا)بينما هم في مشهد الغرور يعرضون فيه عضلاتهم، ويتباهون بقوتهم، فعاقبهم الله عقوبة المفاجآت والمخبّآت بلا إنذار ولا مقدمات، التي تناسب قوتهم التي اغتروا بها، وإذا بالعاصفة الانتقامية الباردة المرعبة، شديد البرد كالرعد القاصف المخيف، فكانت تقتلعهم من الأرض بقوة ثم ترطمهم بها، لتكون عقوبة لهم من جنس ما اغتروا به كقوله (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا)الحاقة/٧ **حسوماً**: متتابعة**(فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ)** في أيام مشؤومات تحمل الشر عليهم، أيام ذوات نحوس مصحوبة بالصعوبات، أيام مملوءة بالغبار والتراب لا يرى فيها بعضهم بعضاً، عقوبة تبيدهم عن آخرهم **(لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)**فقابل الله ذلك الاستكبار عن الإيمان، بإيصال العذاب والذل والهوان إليهم **(وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ)** أشّد إهانة وخزياً لاستمراره كقوله(وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) السجدة/٢١، وقوله(وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ)إبراهيم/٤٥ **(وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ)**ليس لهم ناصر ولا معين يدفع عنهم ذلك العذاب.

١٧-١٨-﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾

(قصة ثمود قوم نبي الله صالح) **المعنى: (وَأَمَّا ثَمُودُ)** كانوا يسكنون الحجر في وادي القرى بين الحجاز والشام كقوله(وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ)الحجر/٨٢ **(فَهَدَيْنَاهُمْ)**فدللناهم

على طريق الحق والإيمان، بإرسال الرسل وبيان الحجج، وبيّنا لهم الخير والهدى من الضلال والردى، ودعوناهم إلى الصراط المستقيم، **والهدى: الدلالة على الطريق المستقيم** كقوله (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)محمد/١٧، اهتدوا إلى سبيل النجاة، بطريق الدليل والبرهان، وأمرهم بسلوكه، وحذّرهم من المعصية وسوء عاقبتها(**زادهم هدى**)زادهم بالمعونة والتسديد والتأييد لعمل الخير، الله سبحانه يدل الناس على طريق الخير والصلاح، فالذي يؤمن به يأخذ الدليل، فيزيده الله هداية ورعاية ومعونة، بعد أن آمن بهداية الدلالة العلمية، وهنا ثمود دلهم الله تعالى على طريق الإيمان والنجاة، بعد معجزة الناقة(**فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ**) ففضّلوا الضلال والعمى على الخير والصلاح، وقدموا طاقتهم للفساد وحبّ الشهوات واتباع اللذّات المحّرمة كقوله(فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)النحل/٣٦، هذا دليل قرآني واضح على أن الإنسان مخيّر غير مسيّر كقوله(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ)البقرة/٢٥٦، وقوله(**وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ**)الرعد/٦، فكأن مغفرة الله علت على ظلم الناس، الذي كان يقتضي تعجيل العقوبة، **في نهج البلاغة خطبة ٢٨**(من لا يستقيم به الهدى يُجُرُّ به الضّلال إلى الردى)

عن النبي(ص)(**شر العمى عمى القلب**)البحار٧٧/١١٤ كقوله(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)الحج/٤٦، وما عمت القلوب إلاّ بكثرة الذنوب، والذي يختار الأسوأ هو الأسوأ (**فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ**)العذاب المصحوب بالإهانة، والخزي والذلة، جزاء وفاقاً، لا ظلماً وعدواناً، فليس العذاب والهلاك فحسب ولكنه العذاب المصحوب بالهوان والذلة والانكسار، جزاء على العمى بعد الإيمان–والجزاء من جنس العمل– كقوله (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ)يونس/٣٢، عن الإمام علي (ع) (والذي لا ينفعه الحق يضره الباطل)شرح النهج٢/٩١ (**بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**)بسبب إجرامهم وطغيانهم، وتكذيبهم نبيّهم صالحاً وعقرهم ناقة الله كقوله(وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)النحل/٣٣، ١٨– (**وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**) نجينا صالحاً والمصدقين به ممن آمنوا واستقاموا على النهج، من الصاعقة المهلكة كقوله(إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ)الأنفال/٣٤.

١٩–٢٠–﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

إنه مشهد مثير وغريب وعجيب من مشاهد يوم القيامة الحاسم، إنها المفاجأة الهائلة المذهلة، في الموقف الرهيب العصيب، وسلطان الله الحاكم العادل الذي تطيعه جوارحهم، وتلبّي بسرعة وتستجيب! **المعنى**: (**وَيَوْمَ يُحْشَرُ**)يجمع المختلفين من الناس، ومنهم التابعون والمتبوعون، وتحشر الوحوش أيضاً للحساب كقوله(وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)التكوير/٥ وقوله(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ

أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)الحجر/٩٢ (**أَعْدَاءُ اللَّهِ**)المجرمين من الجن والإنس، وهم كل من حارب منهج الله، واضطهد أولياء الله ورسله، **تشير الآية إلى أن من لم يمتثل أوامر الله، ولم يجتنب عن نواهيه، ولم يتابع سنة رسوله(ص) فهو ينتسب للدين بالهوية والمظاهر**، وليس له على أرض الواقع العملي ممارسة صادقة، فهو من(**أَعْدَاءُ اللَّهِ**)وإن كان مؤمناً بالله بلسانه، وإن (**ولي الله**)من كان يمتثل أوامر الله وسنة رسوله بصدق في السّر والعلانية. كل هؤلاء يكونون في أرض المحشر لسوقهم (**إِلَى النَّار**)لإدخالهم جهنم (**فَهُمْ يُوزَعُونَ**)يزجرون، **والوازع**: المانع، الزاجر، أي إن الملائكة تمنع أهل النار وتزجرهم من الفوضى في ساحة المحشر، فلا يشرد منهم شارد، ولا يعبث بهم عابث، ويحبس أولهم على آخرهم ليجتمعوا جميعاً ولا يتفرّقوا، كما يفعل بقطيع الغنم المتدافع! فيزدحمون أمام جهنم، ويمنعون من المضي، فتشتدّ أنفاسهم ويكثر عرقهم وتضيق صدورهم وأمورهم ويشتد ضجيجهم، وترتفع أصواتهم، ويدفعون إلى العذاب بعنف كقوله(الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ) الأنفال/٥٠، وهذا كناية بلاغية عن كثرة أهل النار، لذلك خاطب الله النار فقال(هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ)ق/٣٠.

٢٠- (حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ)

عندما وقفوا أمام رهبة جهنم، أنكروا ما عملوه من جرائم، وفجأة جاؤوا للشهادة، وإذا شهود عليهم من أنفسهم مباشرة، يلجئها إلى الاعتراف، ولم يحسبوا لهذا الموقف الغريب حساباً، ولم يخطر على بالهم! وهكذا العالم الآخر له خصائص أخرى مغايرة لعالمنا المادي الدنيوي، وسئلوا عن أعمالهم، فأول ما يشهد عليهم بإنطاق الله له هو السمع وبعده الأبصار وبعده الجلود، كقوله(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)الاسراء/٣٦، عن الإمام الصادق(ع) في الإية (يُسأل السمع عما سمع، والبصر عما نظر إليه، والفؤاد عما عقد عليه) الكافي٢/٣٧ (**شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) شهادة السمع والأبصار والجلود، شهادة ظاهرها أنيق وباطنها عميق، ولها دلالات واسعة، شهادة من الإنسان، وهي أقرب شيء إليه وتشهد عليه، فهي تشهد بنفسها على صاحبها بكامل الصدق، وتحكي الواقع الذي فعلته بالعدل كقوله (**وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ**) المعارج/٣٣ **في غرر الحكم** (القسط روح الشهادة) عرضت عليهم أعمالهم في كتاب يلقاه منشوراً كل واحد منهم كقوله(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)الإسراء/١٤، ثم قام من كيان كل منهم شهود من أنفسهم يشهدون عليه بما كان منه من منكر واعتداء وظلم، ليؤدوا شهادة الحق عليه **وتشير الآية**: إنّ الله لا يعاقب المجرم في ذاك اليوم الحاسم إلاّ بعد أن يقتنع هو بأنه مذنب يستحق العقاب!، وكل هذه الدقة في المحاكمة لإحقاق العدالة الإلهية كقوله(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)يس/٦٥، **وتشهد عليهم هذه**

الأعضاء من أنفسهم بطريقة اعجازية، لتستجيب لأمر ربها مستسلمة، تروي عن أعمالهم ما حسبوه سراً، تفضح نواياهم وأعمالهم وأسرارهم، كيف وهي معهم، بل هي أبعاضهم؟! وخصّ هذه الأعضاء الثلاثة الرئيسة، لأن أكثر الذنوب إنما تقع بسببها وبواسطتها، فإذا شهدت عليهم بطريقة خارقة عاتبوها! **عن الإمام الصادق** (ع)(فعند ذلك يختم الله عز وجل على ألسنتهم وينطق جوارحهم، فيشهد السمع بما سمع مما حرم الله عز وجل، ويشهد البصر بما نظر إلى ما حرم الله عز وجل، وتشهد اليدان بما أخذتا، وتشهد الرجلان بما سعتا فيما حرم الله عز وجل، ويشهد الفرج بما ارتكب مما حرم الله عز وجل، ثم أنطق الله عز وجل ألسنتهم، فيقولون هم لجلودهم(**لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا**)؟ نور الثقلين٤/٥٤٣، ثم يقول(ع)(وليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب). المصدر السابق، **تعرض أعمالهم عليهم بالتفصيل،** وكأنما هناك كاميرا خفية تصوّر بدقة كل أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم، وتحفظ على شكل فلم متحرك مجسّم ذي ثلاثة أبعاد، بالصورة والصوت والنية، كقوله(مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)الكهف/٤٩، **وفي ذلك دلالة على المعاد الجسماني.**

فائدة: سؤال١- لماذا أفرد السمع وجمع الأبصار والجلود؟ الجواب: إنما أفرد السمع لأنه مصدر، والمصادر لا تجمع في قواعد اللغة العربية. **سؤال٢**- كيف يعقل نطق هذه الجوارح وهي لا تعقل؟ **الجواب:** إننا نلاحظ الفلاشة الحافظة الصغيرة، بنك معلومات للمداليل جامعة للمفاهيم، هذا صنع المخلوق، فكيف بصنع الخالق؟ (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) يس/٨٢.

٢١ -﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

التحدث مع جلودهم مسألة أقرب إلى الخيال، ومشاهد القيامة كلها مفاجآت ومخبآت، ولكن الأمر هنا أكثر غرابة حيث تشهد الجلود على أصحابها، فيخاطبها أصحابها مخاطبة الأحياء الكرماء الفضلاء، الذين يعقلون الكلام ويستجيبون للطلب بسرعة وبلا تردد!! (**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ**)يقول الكفرة لجوارحهم وحواسهم وأعضائهم، على سبيل التوبيخ والتعجّب والمؤاخذة والعتاب من هذا الأمر الغريب العجيب، غير المألوف وغير المعروف! وتخصيص الجلود بالذكر تقريع وتفضيع لهم وزيادة تشنيع، وإعلان فضيحة وتشهير أمام الناس في ساحة المحشر المكشوفة، فإذا جلودهم تجيبهم بالحقيقة بوضوح التي خفيت عليهم، من غير مجاملة ولا مراوغة كقوله(فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ)المجادلة/٦ (**لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا**) الاستفهام للتعجب والمعارضة، بما فعلناه في الدنيا من القبيح؟(**قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**) بقدرة الله

بالحق، ليس الأمر بيدنا، وإنما أعطانا الله قوة النطق بقدرته على كل شيء، وعلمنا البيان وألهمنا الشهادة والاعتراف بما عملناه من قبائح الأعمال، وهو الذي ينطق الجماد والحيوان والإنسان، أليس هو الذي جعل الألسن هي الناطقة، وإنه لقادر وقاهر على أن ينطق كل شيء سواه بلسان الحال أو بلسان المقال، فليس في إمكاننا الامتناع عن الشهادة حين أنطقنا الذي لا يستعصي شيء عن مشيئته كقوله(**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**)الأنعام/١٨، فكل شيء له لغة يتخاطب بها مع بني جنسه، ولكن لا يعرف هذه اللغة الخاصة إلاّ من علّمها الله له، كقوله(**وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**)البقرة/١٥١، كقول النملة والهدهد، وتسبيح الجبال والطير كقوله(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)الإسراء/٤٤.

(وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

وهو سبحانه وتعالى أوجدكم من العدم، وهو الذي أعطاكم كل شيء، وهو الذي يحيكم بعد الموت والفناء بقدرته، فمن قدر على هذا الإبداع المنظّم المدهش أولاً، وعلى إعادتكم ورجعتكم إلى جزائه ثانياً، قادر على إنطاقنا بغير إرادتنا، والله على كل شيء قدير، فإليه المنشأ وإليه المصير وإليه الحساب ولا مفر من قبضته في الأول وفي الأخير كقوله(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ)الانفطار/١٩ (**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**)وإليه وحده تردون بالبعث بعد الموت، والنشور للحساب في عالم الآخرة كقوله(إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ) العلق/٨. عن النبي (ص) (**عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة**، يقول: أي ربي أليس وعدتني أن لا تظلمني قال بلى، فيقول: فإني لا أقبل عليّ شاهداً إلاّ من نفسي، فيقول الله تعالى: أوليس كفى بي شهيداً وبالملائكة الكرام الكاتبين، فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل! فيقول بعداً لكنّ وسحقاً، عنكن كنت أجادل)! ابن كثير٦/١٦٨.

في هذا الحوار دليل على أن الله يريد أن يُقنع المذنب أنه يستحق العذاب، فتتعدد الشهود عليه! **فمن الرشاد الاستعداد ليوم المعاد (يوم القيامة ميزان دقيق: فمن وفّى، استوفى)** كقوله (وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)الروم/٢٧، عن السيد المسيح(ع)(**ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله، وَخسَرَ نفسه)؟! فائدة:** فليحذر العبد عن شهادة أعضائه، وكذا فليحذر من شهادة الزمان والمكان، عن الإمام علي(ع)(ما من يوم يمر على ابن آدم إلاّ قال له ذلك اليوم: يا ابن آدم أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فقل فيّ خيراً واعمل فيّ خيراً، أشهد لك يوم القيامة) الأمثل١٥/٣٥٥.

٢٢-﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

(وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ)حين اقترفتم الجرائم والآثام والفواحش خُفية من وراء حجاب وستار، خوفاً من الإعلام المضاد لا خوفاً من الله،

وقد نسيتم الله(نسوا الله فنسيهم)من رحمته، التوبة/٦٧،وقوله(**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**)الحشر/١٩، وكنتم تستخفون من الشهود في الدنيا وعن الناس مخافة الفضيحة، ولم تفكروا ولا يخطر ببالكم، أن تستتروا أعمالكم عن هذه الأعضاء من أنفسكم التي كنتم بها تعملون فهان عليكم الأمر، فجعلها الله شاهدة عليكم يوم القيامة، وهو الذي أوقعكم في هلاك أنفسكم، وفيه تنبيه أن المؤمن ينبغي أن يستشعر بقرب الله منه، وهو في قبضته، وهو أقرب إليه من حبل الوريد كقوله(**إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ**) الإسراء/٦٠، وقوله(**وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا**) الأحزاب/٥٢، في الحديث (أعبد الله كأنك تراه، فإنه إن لم تكن تراه فإنه يراك، وإن قلت إنه لا يراني فقد كفرت، وإن قلت يراني وعملت المعاصي، فقد جعلته من أهون الناظرين إليك)! كقوله(لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ)الأنعام/١٠٣، وقوله(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)الرعد/٣٣ (**وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ**) عملتم عمل من ظنّ أن عمله يخفى على الله، لجهلكم بقدرة الله كقوله(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)يونس/٣٦، **في غرر الحكم**(إياك أن تغلبك نفسك على ما تظن، ولا تغلبها على ما تستيقن، فإن ذلك من أعظم الشر)وخدعكم هذا الظن الجاهل الأثيم، وقادكم إلى الجحيم وأصبحتم من الخاسرين كقوله(أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)الأعراف/٩٩.

ألم تعلموا أن لله تعالى كاميرا خفية تصوّركم في كل حياتكم صغيرها وكبيرها، صورة مجسّمة متحركة مفصلة واضحة، تُعرض على شكل فيلم واقعي له ثلاثة أبعاد، بالصورة والصوت والنية! وهذا ينطبق أيضاً على المسلمين نظرياً ويكفرون بالإسلام عملياً، فيستخفون من الناس، ولا يستخفون من الله، بل هم أسوأ حالاً ومآلاً من الكفار، لأنهم يعيشون النفاق الذي هو خطر على الإسلام، وهو أخو الكفر والشرك والفسق كقوله (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ) التوبة/٧٧، عن النبي(ص)(إن لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم)!المحجة البيضاء٧/ ٣٢٨، **فائدة: سبب النزول**: عن ابن مسعود: اجتمع عند البيت ثلاثة نفر، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ فقال أحدهم: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، فأنزل الله تعالى الآية. القرطبي٣٥١/١٥ باختصار، جاء في دعاء الافتتاح في شهر رمضان المبارك، وهو يصف الله(الذي بَعُدَ فلا يُرى، وَقَرُبَ فشهِدَ النجوى تبارك وتعالى).

٢٣ -﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾

(**وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ**)هذه الذنوب والجرائم التي ارتكبتموها، بسبب ظنكم الخاطئ أن الله لا يراكم، ولا يعلم ما تكتمون، فكان إيمانكم بالله فيه جهل وخلل وضعف،

الإيمان الذي يحدد قدرة الله المطلقة ويحجم علمه المطلق، فالمقدمات الفاسدة تؤدي إلى النتائج الفاسدة، والفكر الخاطئ يؤدي إلى السلوك الخاطئ وإلى سوء العاقبة، **عن الإمام الصادق(ع)في الآية (إنّ الله عند ظن عبده به، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر)** نور الثقلين٤/٥٤٥، وعنه(ع) (ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفاً كأنه يشرف على النار، ويرجوه رجاءً كأنه من أهل الجنة) ثم ذكر الآية، مجمع البيان٥/١٧(**أَرْدَاكُمْ**)أسقطكم في الهلاك، وقادكم إلى جهنم وبئس المصير، هذه اللامبالاة بربكم هوّنت عليكم تجاوز حدود الله(**وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**) الطلاق/١، فارتكبتم أنواع الجرائم، وأدى بكم إلى الكفر، فأوردكم النار، عن النبي(ص)(لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله، فإن قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله، وذكر الآية) الميزان١٧/٣٨٦ (**فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ**) فخسرتم أنفسكم وأهليكم، وفي ذلك الحرمان المبين، **وينطبق هذا على كل من يستتر في المعاصي خوفاً من الناس ولا يخشى الله، حتى ولو ادّعى الإيمان وصام وصلى**.. كقوله(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)الكهف/١٠٣-١٠٤ **في غرر الحكم**(ما أخسر من ليس له في الآخرة نصيب)!

فائدة:١- **الظن نوعان، مُنجٍ ومُردٍ،** فالمنجي كقوله(الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ)البقرة/٤٦، والظن المردي المهلك، في هذه الآية، ٢-**عن الحسن البصري**: إنّ قوماً خدعتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة، ويقول أحدهم: إني أحسن الظن بربي، وقد كذّب، ولو أحسن الظن لأحسن العمل، ثم تلا هذه الآية، كقوله(أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)الحجرات/٢.

٢٤-﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾

(**فَإِن يَصْبِرُوا**)أم لم يصبروا، فما ينفعهم الصبر، لأنه بعد فوات الأوان، فهو صبر مجبر عليه لا مفر منه (**فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ**)وياللسخرية! فالصبر الآن صبر على عذاب النار! إنه الصبر المهين المصحوب باليأس، وليس فيه فرج ولا يعقبه أمل وحسن جزاء، إنه الصبر الذليل الممزوج بالحسرة العظمى الذي جزاؤه النار قراراً أبدياً ولا محيص عنها، فلا ينفعهم الصبر(**وَإِن يَسْتَعْتِبُوا**) **يطلبوا العتبى أي إرضاء لربهم،** ويعتذروا منه ويطلبوا الصفح وإصلاح ما فسدوا، والرجعة للدنيا بعد الموت، لينجوا من العذاب، **والعتاب**: اللوم على أمر ما كان يصح أن يكون منه **والعتب**: الشدة والأمر الكريه والغلظة، التي يجدها الإنسان في نفسه على غيره. ولكن في الآخرة ليس هناك عتب، وخاصة مع الكفار والمشركين، لأن العتب لون من المحبة، أي استرضيته فأرضاني، فما عاد هناك عتاب ولا متاب، وقد جرت العادة أن الذي يطلب العتاب يطلب من ورائه الصفح والرضى، فاليوم يغلق الباب في وجه العتاب، لا الصفح

والرضى الذي يعقب العتاب! كقوله(أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) هود/٢١ وقوله(**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**)الأنعام/٢٨ (**فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ**) المرضيين والمجابين إلى ما يطلبون، ولو سألوا الله أن يرضى عنهم ويقبل عذرهم، فما هم ممن يرضى عنهم ويقبل عذرهم وانقطعت حجتهم، وذهبت الفرصة المناسبة، فصارت عليهم غصة! كقوله في الصبر الذليل: (اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ)الطور/١٦، وقوله(لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) التحريم/٧، وقوله(سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ)إبراهيم/٢١.

٢٥ -﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾

قيّضنا: بدّلنا وسلّطنا ويسّرنا وهيّأنا، **قرناء**: جمع قرين، وهو الصديق الذي يقترن معه ويصحبه برغبة وانسجام وبشكل دائم، **حق عليهم**: وجب. **(مقدمة)**: هيّأ الله وأحضر قرناء ورفقاء مثلهم من طبعهم وبحسب عاداتهم ورغباتهم، يوسوسون ويزيّنون لهم كل ما حولهم من السيئات والمنكرات وأنواع الفساد، عقوبة لهم، فهم يحسّنون أعمالهم القبيحة فلا يشعرون بما فيها من قبح كقوله(وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)الزخرف/٣٦-٣٧، وقوله(**وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ**) الأعراف/٢٠٢، إنه هو المنحدر الخطير المرير الذي وقعوا فيه، الذي جعلهم في مجموعة قطيع السوء، قطيع الخاسرين، وأشد ما يصيب الإنسان أن يفقد إحساسه بقبح فعله وفساده، وأن يرى كل شيء من شخصه حسناً، وذلك مجازاة لكفرهم وفسوقهم وإصرارهم على الشرك والفساد، **في غرر الحكم**(أعظم الذنوب عند الله، ذنب أصرّ عليه عامله) عن الإمام علي(ع) (أشد الذنوب ما استخفّ به صاحبه)البحار٧٣/٣٦٤.

المعنى: (**وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ**)أنهم سلكوا طريق الضلال باختيارهم، فاختلطوا بأصدقاء سوء من أمثالهم، وعاشروا قرناء إخوان الشياطين، بحسب ذوقهم وتعاونوا مع مجرمين بحسب مزاجهم ومن صنفهم، جاحدين للحق ومعادين لأهل الحق، فصار هؤلاء يسيطرون على عقولهم بشكل كامل ويقلبون عليهم الحقائق الصحيحة كقوله (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا)مريم/٨٣ **تؤزهم أزاً**: تهزّهم هزّاً أي تغريهم بالمنكرات، وترغّبهم بأنواع الفساد، فهم مسلّطون عليهم فيقلبون مفاهيمهم ويحرفون قناعاتهم، فالشياطين يخططون لهم بالوساوس، وهم أدوات التنفيذ بالاتّباع الأعمى، **ولا يتدخل الله تعالى لأنه ألقى الحجة التامة عليهم**، كقوله (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥، عن الإمام الصادق (ع) (إنّ الله احتج على الناس بما آتاهم وعرّفهم) الكافي١/١٦٣ وبيّن لهم طريق الخير من الشر،

ومنحهم القدرة التامة على الفعل والترك والتميز بينهما، ونهاهم عن المنكر وأمرهم بالمعروف، وترك لهم الخيار تكريماً لهم، وبعدها يكون الجزاء والحساب كقوله(فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) الكهف/٢٩، وقوله(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)فصلت/٤٠، وقوله(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) الشمس/٧-٨.

وقوله(**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**)البلد/١٠.

وبعد هذا الاختيار يتركهم الله وشأنهم وما يختارون لأنفسهم كقوله(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ)الشورى/٢٠، يريد الله من الإنسان أن يستقيم على منهجه، ويخلص في عبادته مع الله، ويصدق في تعامله مع الناس، فيختبره بعدة اختبارات، ويضع أمامه من يحاول عرقلة استقامته، فالشيطان جاء ليقف معرقلاً لعمل الناس في طريق الخير ليصدّهم عنه، لكن المؤمن قوي الإيمان يقاوم هذه العقبات والوساوس ويمضي في طريق الحق كقوله(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) ص/٨٢-٨٣ (**فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**)فزيّنوا ما قدموه من أعمالهم السيئة في الماضي والحاضر والذي يصاحبهم طول الأمل، فلا يشعرون بما فيها من قبح كقوله(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)الكهف/١٠٣-١٠٤.

في نهج البلاغة كتاب٣١(من الفساد إضاعة الزّاد، ومفسدة المعاد) (وَمَا خَلْفَهُمْ)فزينوا أعمالهم الفاسدة في المستقبل، تحت شعار الطموح نحو حياة أفضل، وتأمين المستقبل، فيقلبون عليهم المقاييس والمعايير الصحيحة الفطرية، وهكذا من يعرض عن الله سبحانه يرى الشر خيراً والقبيح حسناً، والحرام حلالاً، وكل ما يقول ويفعل حسناً، وكل ما عمله من سوء لغيره ممن يأتي بعده جميلاً! ما كان عليه آباؤهم من عادات ومنكرات وضلالات قد ورثوها عنهم، فكادت تكون طبيعة متأصلة فيهم، فالدنيا زخرفوها بأعينهم بكافة شهواتها ولذّاتها حتى افتتنوا بها، وانقادوا إلى الكفر والفسوق والعصيان والطغيان والنفاق والبدع والغلو، وحرّكوا عليهم الأهواء والشهوات فنظروا إلى أعمالهم الفاسدة بانبهار وإعجاب، فانقلبت عندهم الموازين الصحيحة، كقوله(أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)النمل/٥٦ وقوله(أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) فاطر/٨ وقوله(**إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**)الأنفال/٤٨ (**وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ**) ووجبت عليهم كلمة العذاب، وتحقق القضاء والقدر بعذابهم، مثلما حق على من سبقهم (**فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ**)ضمن أمم يجمعها الفكر الكافر وسلوكه الفاسد وتعاملاته الظالمة من الماضين والحاضرين ممن فعلوا فعلهم من الجن والإنس.

(**إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ**) بعصيانهم منهج الله ورسوله، فهم أخذوا بأسباب الخسارة في الدنيا والآخرة، وخسروا كل شيء، ومن خسر الدّين فقد خسر النعيم المقيم، عن الإمام علي(ع)(لا حياة إلاّ بالدّين)الإرشاد للمفيد ص١٥٧، فأي حرمان أكبر من ذلك؟! كقوله (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)العنكبوت/٥٢ عن الإمام علي(ع)(أنه ليس لهالك هلك من يعذره في تعمد ضلالة حسبها هدى، ولا ترك حق حسبه ضلالة)البحار٥/٣٠٥، عن الإمام الصادق (ع) (**لا يستيقن القلب أنّ الحق باطل أبداً، ولا يستيقن أن الباطل حق أبداً**) البحار ٧٠ص٥٨.

فائدة:١-**سؤال: كيف جاز أن يُقيّض لهم قرناء وأصدقاء سوء من شياطين الجن والإنس**، والله سبحانه ينهاهم عن اتباع خطوات الشيطان؟ **الجواب**: أنه خذلهم عندما تركهم وما يختارون، وسلب منهم التوفيق، ومنعهم ألطافه ورحمته وتسديده لإصرارهم على الكفر والفساد، فلم يبق لهم قرناء صالحين يقوّمون اعوجاجهم، لم يبق لهم سوى أصدقاء شياطين من أمثالهم، وشبيه الشيء منجذب إليه، والطيور على أشكالها تقع، كقوله(**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**) الصف/٥، ٢- الصديق أقرب إلى النفوس من الأقارب في النسب، واحذروا من تبغضه قلوبكم، وكل إنسان يميل إلى مثله، وينسجم مع شكله وطبعه، **في غرر الحكم (إياك ومصاحبة أهل الفسوق، فإن الراضي بفعل قوم كالداخل معهم)** (إذا أراد الله بعبدٍ خيراً، قيّض له قرناء خير يعينونه على طاعة الله، وإذا أراد الله بعبد سوءاً قيّض له قرناء سوء يحملونه على المعاصي كقوله (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)الزخرف/٦٧، في غرر الحكم(من كرمت عليه نفسه لم يهنها بالمعصية) ٣-(**مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ) تدل الآية على** أن الجن أمم وأجيال، وأن فيهم رسلاً وأنبياء من جنسهم، كقوله(وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ)الجن/١١.

٢٦ - ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

وكان من تزيين القرناء السيئين لهم، دفعهم إلى محاربة ومجابهة هذا القرآن، حين أحسّوا بما فيه من سلطان على العقول وتأثير على القلوب، وحين عجزوا عن مغالبة أثر القرآن في أنفسهم وأنفس الناس قالوا(**لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ**)لأنه يغلب العقول، ويغيّر القناعات، ويبدل العادات الجاهلية إلى أحكام الإسلام، وصفات الكمال، فكان القرآن هو الفرقان، الذي يفرق بين الحق والباطل، كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) الأنفال/٢٩ (**وَالْغَوْا فِيه**) **اللغو**: ما لا فائدة فيه، وهو الكلام الفارغ غير النافع، واتبعوا معه (ص) سياسة المهاترة والمجابهة، وكانوا يلغون —عند قراءته القرآن- بقصص خرافية، والصياح والهرج والصفير والتصفيق وإلقاء الشعر الترفي كقوله (**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**) الأنفال/٣٥ **مكاءً وتصدية**: صفيراً وتصفيقاً، ليصرفوا الناس عن تأثير القرآن، ولكن

(**وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**) الأنفال/٣٠، ولكن هذا كله ذهب أدراج الرياح مع مرور الزمان، وبزغ فجر القرآن، وغلب تأثيره وعلت حجته، لأنه دستور حياة الإنسان، ويرسم خارطة طريقه، ويوسع آفاقه، فهو رسالة الحق وحماية الحقوق، وأنه محفوظ بحفظ الله، لأنه الحق يحمل سرّ الغلب، والحق غالب مهما جهد المبطلون، عن الإمام الباقر(ع)(إصبر نفسك على الحق، فإنه من منع شيئاً في حقٍّ، أعطى في الباطل مثليه)! تحف العقول ص٢١٦.

المعنى:

(**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا**)قال رؤساء الضلالة لأتباعهم، وقال بعضهم لبعض (**لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ**)لا تصغوا لمحمد إذا قرأ القرآن، وعارضوه باللغو وباطل القول وشوشوا عليه وعارضوه بالخرافات والضوضاء والهذيان حتى لا يتأثر الناس بمعاني القرآن كقوله(إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا)الفرقان/٤٢، والذي لا ينفعه كتاب الرحمن يتلقفه الشيطان! (**لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**) وبذلك ننتصر على القرآن، ونحدد تأثيره في نفوس الناس، وينفسح المجال لنا في إفساد الناس بلا معارض، في غرر الحكم(**المغلوب بالحق غالب، والغالب بالشر مغلوب**) وقد ظنوا أنهم بهذا العمل الإجرامي المتهوّر يمنعون نور الهدى ليصل إلى القلوب المؤمنة كقوله (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، وَأَكِيدُ كَيْدًا، فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) الطارق/١٥-١٧، **فائدة:** (**وَالْغَوْا فِيهِ**)دهش الطغاة من تأثير القرآن على العقول وسلطانه على النفوس، فوقعوا في حيرة كيف يتعاملون معه؟ فاختار الحمقى أساليب المواجهة الرعناء في اللغو في الكلام، وله معنى واسع، **اللغو**: الكلام الذي لا قيمة له، وليس فيه فكر ولا نفع وإنما فيه ضياع الوقت، كقوله (**وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا**) الفرقان/٧٢، **في غرر الحكم** (من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه) **ومن اللغو**: كل شيء فيه الفساد بأنواعه، فأسسوا مراكز إعلامية متنوعة تعنى بالفساد، كالقنوات الفضائية المشبوهة، ونشر المطبوعات الفاسدة، وأخرجوا أنواع الأفلام الخلاعية المبتذلة، ونشروا دور النوادي الليلية والدعارة والخمور والمخدرات، وسنّوا قوانين للشذوذ الجنسي، والزواج المثلي، واعتمدوا السياسة الإرهابية المزدوجة، وتدعمها بالخفاء، وتدّعي معارضة الإرهاب بالعلانية!

٢٧ – ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(**فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا**)رد الله سبحانه على لغوهم الإجرامي، وأعمالهم الشيطانية ودعوتهم المنكرة لصدهم عن سبيل الله، والسعي لإطفاء نوره بين الناس، يأتي التهديد المناسب، والرد الحاسم على المستهزئين بالقرآن، هو العذاب الأليم الشديد في الدنيا والآخرة (**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ**)ولنجازيهم بشر أعمالهم وسيء أفعالهم أسوأ الجزاء وأشد العقاب كقوله(وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

السجدة/٢١، فإذا كانت أعمالهم أسوأ الأعمال، كان جزاؤها كذلك أسوأ الجزاء، والعقوبة من جنس العمل كقوله(**مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا**)غافر/٤٠، أما أعمالهم الحسنة كصلة الرحم وإكرام الضيف.. إلخ قد أحبطها الكفر كقوله(وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا)الفرقان/٢٣، ولم يبق لهم إلاّ قبيح الأعمال فيجازوا عليها!

٢٨ -﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾

(**ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ**)ذلك العذاب الشديد الذي هو أسوأ الجزاء، هو نار جهنم جزاء المجرمين، أعداء الله ورسوله، وسرعان ما نجدهم في النار هي بعينها مسكنهم ودار إقامتهم الدائمي! وأي عذاب أشد من عذاب أعداء الله؟ وكيف يكون مصير قوم يعلن الله أنهم أعداؤه، والساعين لإطفاء نوره، والجاحدون آياته، والمعتدون على أوليائه؟! نعم الخلود في النار وبئس المصير(**لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ**) لكل منهم فيها دار تخصه لإقامة دائمة، لا يخرجون منها أبداً! (**جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ**)جزاءً على كفرهم بالقرآن، فمن أعظم الظلم جحدهم بالقرآن والاستهانه به، وسمى لغوهم بالقرآن جحوداً، لأنهم لما علموا أن القرآن بلاغة إعجازية، خافوا إن يسمعه الناس فيؤمنوا به، إلاّ أنهم جحدوه حقداً وحسداً. الرازي٢٧/١٢٠، **الجحود:** إلغاء شيء ثابت في القلب، وهو إنكار الحقائق الواضحة مع العلم بها، وهو من أسوأ أنواع الكفر كقوله (**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**)النمل/١٤، عن الإمام الباقر(ع) (إنّ أقرب ما يكون إلى الكفر أن يؤاخي الرجل على الدين، فيحصي عليه عثراته وزلاّته ليعنفه بها يوماً ما) البحار٧٥/٢١٥.

٢٩ -﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾

إنه تصوير بلاغي دقيق، لمشهد مثير محفّز من مشاهد يوم القيامة، مشهد فيه الحسرة الخانقة والندامة الضاغطة، فتكون معركة جدالية انتقامية صِدامية مريرة وعنيفة، معركة تصفية ثارات وحسابات، والتحرّق على الانتقام، وتبقى المعركة الكلامية بين الضالين والمضلين جميعهم، من تابعين ومتبوعين، فيبحثون عنهم لينتقموا منهم، ويعذبوهم عذاب إهانة وهوان قبل عذاب النار، **المعنى:** (**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا**)وهم متقلبون في عذاب النار(**رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ**)ربنا أرنا شياطين الجن وشياطين الإنس، الذين عملوا على انحرافنا وإيهامنا، عندئذٍ يتبرأ المضل من الضال، ويتبرأ التابعين من المتبوعين عند الحساب والجزاء، الذين ابتدعوا الكفر والفساد كقوله(**وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ**)النساء/١٦، الذين عملوا على إضلالنا وخداعنا وزينوا لنا الكفر والمعاصي، والشياطين يوسوسون لهم ويرغّبونهم على الفساد كقوله(الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ)محمد/٢٥، ويكون حال الضال التشفّي من المضل بكل سبيل، ويتمنى أن يدوسه بالأقدام، ويقطّعه بالأسنان، وإنما جاء بلفظ الماضي لتحققه ومعناه المستقبل. (**نَجْعَلْهُمَا**

تَحْتَ أَقْدَامِنَا) كي ندوسهما انتقاماً منهما وتشفياً ومهانة لهما وإذلالاً وتحقيراً **(لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ)** الأذلين المهانين حالاً ومكاناً، فيكونا في الدرك الأسفل من النار، ويكون عذابهما أشدّ من عذابنا، لأنها درك المنافقين كقوله(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)النساء/١٤٥، وذلك بعد الموادة والتزيين، وإن كان ذلك لا يخفف عنهم من سوء العذاب شيئاً! كقوله (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) الزخرف/٦٧.

٣٠-﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

الآية منهج تربوي ظاهره أنيق رقيق جذاب، وباطنه دقيق عميق مناسب، بعد أن حذّر القرآن من وساوس الشيطان من الإنس والجن، تأتي نعمة الإيمان والالتزام والاستقامة، في تعبير جميل جليل مشوّق، فإن في الآية النصح والوفاء، **وهذه صفات نموذجية عن أولياء الله للاقتداء بهم** كقوله(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) يونس/٦٢-٦٣ عن الإمام الباقر(ع)(في قوله**(ألا أن أولياء الله..)**إذا أدّوا فرائض الله، وأخذوا سنن رسول الله، وتورّعوا عن محارم الله، وزهدوا في عاجل زهرة الدنيا)البحار٦٩/٢٧٧، هذا هو الإسلام في كلمة مختصرة، تحدد خارطة الطريق العامة للإنسان، وترسم خط السير، خط النجاة، خط الفائزين. **المعنى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ)**اعتقدوا بالله وحده لا شريك له، وصدقوا التوحيد الخالص، الذي تحيا به النفوس **(ثُمَّ اسْتَقَامُوا)**وثبتوا وصدقوا على اتّباع منهج الله وطلب رضوانه، شعوراً في الضمير وسلوكاً في الحياة وتعاملاً أخلاقياً أميناً مع الناس، من غير تقلّب ولا تذبذب ولا نفاق، وعاشوا في الطريق المستقيم في السر والعلانية، وحافظوا على القلب السليم، وصبروا على شدة معاناتهم في واقعهم المتخلّف الفاسد، فهم المؤمنون حقّاً، عن النبي(ص)(قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم، فمن قالها حتى يموت فهو ممن استقام عليها)نور الثقلين٤/٥٤٧.

(ثُمَّ اسْتَقَامُوا)ثم: للتراخي في الزمان أو التراخي في الرتبة كقوله(وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا)الجن/١٦، في نهج البلاغة في الآية (وقد قلتم ربنا الله فاستقيموا على كتابه وعلى منهاج أمره وعلى الطريقة الصالحة من عبادته، ثم لا تمرقوا منها (أي لا تخرجون منها)ولا تبتدعون فيها، ولا تخالفون عنها، فإن أهل المروق منقطع بهم يوم القيامة)نور الثقلين٤/٥٤٦، أولئك **(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ)**الكرام بالرحمة والبركة من الملأ الأعلى، ويلقونهم لأول مرة ومعهم البشرى السّارة الحارة الدائمة في الحياة الدنيا وفي الآخرة كقوله**(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)**الرعد/٢٩، ومن ثم يستحق عند الله هذا التكريم وهذا الإنعام الكبير، صحبة الملائكة الكرام ومودّتهم، فهو أفضل نعمة في ظروف العُسرة **(تَتَنَزَّلُ**

عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ) لتأييدهم وتثبيتهم على الحق وتطمين قلوبهم وهم في دار الدنيا، فيواجهوا الأحداث المنحرفة بقوة ووعي وثبات، فكانوا مؤمنين حّقاً، مسلمين صدقاً لأنهم فازوا بالاستقامة ونجحوا بالسّلامة ونالوا الكرامة، بلا أية ندامة ولا ملامة، والاستقامة على منهج الله الأصيل، والصبر على تكاليفها الصعبة.. أنه أمر ثقيل، ولا شك أنه كبير وعسير، لذا يستحق عند الله هذا الإنعام الكبير، مع التكريم والتقدير، **صحيح أنه أمر ثقيل، ولكنه لطيف على النفس، وخفيف على الطبع، فتستذوق الروح هذه المعاناة بشفافية وأريحية وقبول،** فتنال أجمل الإبداعات نتيجة تعب، وتكتشف أجمل العلوم من نصب، فتندمج الصعوبات مع اللذّات، وتختلط الأتعاب مع الراحات، فتنال منازل الفوز بدرجة امتياز، فِيْ الْمِحَنِ مِنَحٌ مِنَ اللهِ، وَفِيْ الْمَكَارْهِ مِكَارِمٌ، وَفِيْ الْمَشَقَّاْتِ رَاحَات وخِبْرات، وَفِيْ الْمُعَاْنَاْةِ هِبَاْةٌ، وَفِيْ الْبَلايا بِدَاْيَاْتٌ نِهَاْيَاْتُهَا الْكَرَاْمَاْتُ.

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ)بشكل دائم ومستمر، وخصوصاً لحظة الموت، والدفن والقبر وعالم البرزخ، وعند البعث والنشور كقوله (لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ)الأنبياء/١٠٣، ويقولون لهم**(أَلَّا تَخَافُوا)** من أي مكروه متوقّع ترونه أمامكم من العقبات والصعوبات**(وَلَا تَحْزَنُوا)**من أي مكروه مؤكّد الوقوع كالسيئات التي عملتموها، **والخوف:** يتناول المستقبل من أموركم، **والحزن:** يتناول الماضي والحاضر، فبشرتهم الملائكة بالنجاة من كل المكروهات، في كل الأوقات والأحوال.

(وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ)الجنة غاية الصالحين، وأية نهاية تكون أسعد من هذه النهاية؟! وأية وسيلة تكون أضمن من هذه الوسيلة؟! وهكذا، الذي يعرف كيف ينتهي، يعرف كيف يبدأ. كقوله(ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ،لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)ق/٣٤-٣٥، **في نهج البلاغة حكم ٤٥٦**(إنه ليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنة، فلا تبيعوها إلاّ بها) **في غرر الحكم(من باع نفسه بغير نعيم الجنة فقد ظلمها)** عن النبي(ص) (كلكم يدخل الجنة إلاّ من أبى، قالوا ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى) البخاري/٦٨٥١.

فائدة: الطريق المستقيم: أقصر الطرق وأظمنها وأسهلها وأنجحها للوصول إلى الغاية الكبرى في حسن العاقبة كقوله(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)القصص/٨٣، **الاستقامة:** الاعتدال والتوازن والانضباط في حركة الفكر والقول والعمل دون ميل وانحراف، وتقلّب وتذبذب وتغيرّ ونفاق وازدواج الشخصية كقوله**(فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ)**التوبة/٧ **أما الذين قالوا(رَبُّنَا اللَّهُ)**باللسان وعملوا عمل الكفّار، وقاسوا الحياة بالمنافع والمصالح الشخصية والأموال، فهم شر البرية في الدنيا والآخرة كقوله(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ)الأنفال/٢٢، عن النبي(ص)(إنّ لكل أمة عجل، وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم)!المحجة البيضاء٣٢٨/٧

٣١-٣٢-﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ، نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾

ما يزال الكلام لملائكة الرحمة، مع(**الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**)على طاعة الله، وتتمة لبشارتهم السّارة الكبرى، وهم يصوّرون لهم الجنة التي وعدهم الله فيها، تصويراً فيه الترغيب والتشويق، تصوير الصديق الوفي لصديقه الحميم ليطمئن قلبه لهذه البشارة، عن الإمام الباقر(ع) (نحن نحرسكم في الدنيا، وعند الموت في الآخرة)نور الثقلين٤/٥٤٨، إنها ولاية حماية ورعاية ونصرة خاصة من الله عزوجل لهؤلاء النخبة المصطفاة، كافأهم الله بهذه الرعاية الخاصة لأنهم (**صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**)الأحزاب/٢٣، في ظروف قاسية يصعب الاستقامة فيها والصدق معها، لذلك تكون المكافأة من جنس العمل، في الحديث(ما ترك أحدٌ شيئاً من أمور دنياه لاستصلاح دينه إلاّ عوّضه الله خيراً منه)**في غرر الحكم (أدين الناس من لم تفسد الشهوة دينه)** الآية الكريمة تشير إلى ولاية الرحمة للعوام، وولاية النصرة للخواص، وولاية المحبة والوفاء لأخص الخواص، **المعنى**: (**نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) نحن أعوانكم وأنصاركم ونؤيدكم في حياتكم الدنيا وفي الآخرة، ويقولون الملائكة لهم(سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) الرعد/٢٤، وهناك سلام لهم من الله تعالى أيضاً(سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ)يس/٥٨ (**نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**)نحن نحبكم ونهديكم ونسدد خطاكم، ونلهمكم الحق والصواب والخير، وننزل عليكم السكينة ونحفظكم ونحميكم من كل انحراف، ونحرسكم من كيد الشياطين، ونسددكم في حياتكم الدنيا قبل وفاتكم إلى ما فيه خيركم وصلاحكم كقوله(**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا**) البقرة/٢٥٧ ونحن أولياؤكم (**وَفِي الْآخِرَةِ**)نتولى أموركم من وحشة القبر وضغطته، ونحميكم من أهوال القيامة، ونشفع لكم ولا نفارقكم ونتلقاكم بالكرامة والسلامة حتى ندخلكم الجنة كقوله (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ)الرعد/٢٣، ويقولون لهم (**وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ**) من أنواع النعم وفنون اللذائذ، وألوان الطعام والشراب وأنواع العطور الفواحة، وما تشتهيه أسماعكم من أعذب الألحان وأجمل الأصوات(**وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ**)ما تريدون وتتمنون بلا حدود، وتطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم من أنواع اللّذات والمشتهيات مما لا عين رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

٣٢-(**نُزُلًا**)في ضيافة رب رحيم كريم، ورزقاً شهياً منه دون طلب، وأصل كرامتكم مما لا يخطر ببالكم كقوله(وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)الزخرف/٧١، فأي نعيم بعد هذا النعيم؟! (**مِّنْ غَفُورٍ**)واسع المغفرة، ومبدل السيئات بالحسنات (**رَّحِيمٍ**)عظيم الرحمة بعباده المؤمنين بزيادة الدرجات والقربات. **فائدة: (نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ)نزلاً**: النزل ما يقدم للضيف النازل من ضيافة كريمة إكراماً له. إكرام الضيف من البشر للبشر، فتحترمه أفضل

الاحترام، وتكرمه أحسن التكريم، وتقدم له ما يليق بمنزلته، فكيف بتكريم الله لأوليائه المؤمنين، وما وعده وأعدّه لهم في نعيم مقيم في جنات الخلد، لأن الذي أعدّ هذا النزل هو الله تعالى، وما أدراك ما كرم الله إلى الذي يريد الله أن يكرمه، فإنه تكريم بلا حدود، تكريم فيه المكافآت والمفاجآت والمخبآت!، واستعملت كلمة (**نُزُلًا**)أيضاً للكافرين على سبيل الاستهزاء بهم، وفارق كبير بين نزل هؤلاء وهؤلاء، كقوله(إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا)الكهف/١٠٢.

٣٣-﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

تضع الآية الكريمة منهج قرآني عام وواسع، للحياة الحركية الكفوءة والنزيهة، لكل من جمع فيها من الخصال الحميدة المفيدة، في النهوض بواجب الدعوة إلى الله عزوجل، على مستوى الفرد أو مستوى الأمة الداعية، إنه شأن عظيم وله مؤهلات خاصة مميزة مؤثرة(**مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ**) وحده، من دون دعوة إلى حزب أو جهة أو عشيرة، إنها دعوة تأسيس قواعد التوحيد الخالص للناس الذي يحي قلوبهم، **في غرر الحكم(التوحيد حياة النفس)** ودعا إلى الإسلام(**منهج الله**) الأصيل بصدق وعلم وعمل صالح كقوله(**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**)آل عمران/١٩، الدعوة الخالصة إلى الله، منهج حياة متكامل، حياة تستذوق منه طعم الحياة، حياة تتفجر منه الحياة، حياة بامتياز، حياة ليس بعده حياة، حياة تهبك خلود الحياة، والحياة بغير هذا المنهج سطح الحياة، واجترار الحياة، حياة استهلاكية حيوانية صغيرة محدودة تافهة، إنه منهج القرآن العظيم الذي يعلمنا طعم الحياة، والمحافظة على الحياة، وديمومة الحياة، حياة كريمة تتناسب مع تكريم الله للإنسان الخليفة(**مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ**)إن كلمة الدعوة إلى الله خالصة له، أحسن كلمة تقال من أهل الأرض، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب المصاحب للعمل الصالح كقوله(**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**) فاطر/١٠، يصعد الكلم الطيب إلى الله بشكل تلقائي، كما يصعد بخار الماء، ولكن(**العمل الصالح يرفعه**)برافعات، لأنه ثقيل الوزن، لا يصعد بشكل تلقائي لثقله، وإنما تأتي رافعات من الملائكة لترفعه، وتقّدر ثمنه وقيمته، وتمنحه التكريم كقوله (**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا**)آل عمران/٣٠ وقال(**وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**)من التسليم لأمر الله، المنقادين له، الذي تتوارى معه الذات وحبّ النفس والهوى، وهذه مرتبة الصالحين، فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية إلى الله فيها شأن لنفسه إلاّ التبليغ المؤثر، وإلقاء الحجة البالغة على الناس، وليس على الداعية أية مسؤولية إذا أعرض المبطلون أو قوبل بسوء أدب، وتجاوز حدود!

المعنى: (**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا**) جاءت الآية في صيغة سؤال استفهامي بمعنى الإنكار والنفي، أي ليس أحد أحسن منه قولاً وأسلوباً مؤثراً وطريقة ناجحة وأخلاقاً سامية(**دَعَا إِلَى اللَّهِ**)لبيان منهج الله الهادي (ودين الله الإسلام) وضرورته في حياة

الإنسان، بتعليم الجاهلين ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين بالحجج القوية والبراهين القطعية، والترغيب بعبادة الله، وتحبيب الله إلى عباده، وجمال العلاقة معه، وكمال التقرّب منه **(وَعَمِلَ صَالِحًا)** نافعاً للناس ليقتدى به، وكلما توسعت رقعة النفع كان أحسن، والذي يقوم بنهضة المجتمع حضارياً وأخلاقياً وعلمياً.. إلخ، كان أفضل كقوله(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)الكهف/٤٦، فيكون **(مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا)** تخضع للنسبة والتناسب، أي بأية نسبة دعا إلى الله، وبأية نسبة عمل صالحاً، وكل إنسان بقدره ومقداره، عن الإمام الصادق(ع)**(الإيمان عمل كله، والقول بعضه)** البحار٦٩ ص٢٣، عن النبي(ص) (نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها، وأدّاها إلى من لم يسمعها، فربّ مبلّغ أوعى من سامع) خواطر الشعراوي٤/ ١٨٠٥.

وفي ذلك دلالة: أن استلام مناصب الحكم والجاه والسلطة والدولة، لا يراد لذاته، وإنما يراد لغيره لمطلب أهم منه، وهو الدعوة إلى الإسلام والعمل الصالح النافع المتطوّر، الذي يكون بأقصى درجاته وأعلى إمكانياته، عن الإمام علي (ع) **(إنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيءٍ من فضول الحطام، ولكن لنردّ المعالم من دينك، ونظهر الإصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك)** شرح نهج البلاغة٨/٢٦١ الذي يعمل صالحاً نافعاً للناس عليه أن ينسب عمله الصالح إلى توفيق الله له، لا إلى مدح نفسه، ومن مدح نفسه ذمها، وأنه عمل صالحاً لأن دينه يأمره بذلك وبإبلاغ الناس وتعليمهم، وهو يتقرّب إلى الله بذلك، لأن من يعمل لذاته يعمل للذّاته، وأخسر الناس الأناني الذي يحبّ نفسه ويعمل لذاته وللذّاته، والمسلم أخو المسلم ومرآته كقوله(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ)النساء/١٢٥ وقوله(أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ)الزمر/٢٢، عن النبي(ص)(المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) كنز العمال١ /١٤٩، وعنه(ص)**(المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله)** كنز العمال خبر٧٤٧، وعنه(ص)(المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم)كنز العمال خبر٤٤٤ **(وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)** من التسليم، أي الخاضعين لحكمه، الراضين بقضائه وتدبيره، ثم يُضطهد من الإرهابيين ويساء إليه، فقد أخذ من ميراث النبوة، كالشجرة المثمرة الحلوة يشار لها بالعيون، وتضرب بالحجارة كقوله(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ)الأنعام/١١٢**(وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)** عن فخر واعتزاز، لذلك فهي كلمة بليغة واسعة الدلالة، تجمع بين القول والعمل، بين الادّعاء والحقيقة، بين العبادات والمعاملات.

٣٤-٣٥-﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

تصّور الآية المنهج الحركي التربوي الأخلاقي للإيمان والعمل الصالح، وهذه صورة عملية سامية للنفوس الفاضلة الكبيرة الصادقة، فهما طريقتان مختلفتان فلا تستويان بحكم العقل والبديهة، وبينهما فوارق كثيرة وكبيرة وواضحة، **فهما لا يستويان على إطلاق معناهما**، وفي كل ما يترتب عليهما، وإلاّ كان المحسن والمسيء، والتقي والشقي بمنزلة سواء، فهما لا يستويان من حيث القول والفعل، ومن حيث الأسباب والنتائج، والمنازل والجزاء.

المعنى: (**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ**)لا تتساوى الطريقة الحسنة ولا الطريقة السيئة، في الدعوة إلى الله وفي التعامل مع الناس، وهي متفاوتة في نفسها وفي آثارها، وفي أسبابها واستخداماتها وفي نتائجها، لا تستوي الأعمال الحسنة التي تحسن للإنسان، والأعمال السيئة التي تسوء الإنسان، لا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم كقوله(**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**) الرحمن/٦٠، ثم أمر الله سبحانه بإحسان خاص له أثر كبير في إصلاح الناس، وهو الإحسان إلى من أساء إليك فقال (**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**) أدفع من أساء إليك بالوسيلة التي هي أحسن، لدفع التصرفات السيئة التي تقابلها وتضادها، والذي يرد بالأسلوب الأحسن هو الشخص الأحسن، فادفع بالحق الذي عندك باطلهم، وبحلمك جهلهم، وبصبرك غضبهم، وبعفوك إساءتهم، وتسامى على الخطأ، ولا ترد الخطأ بالخطأ فتكون مثل الخاطئ كقوله (**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ**)المؤمنين/٩٦، فالعداوة من طرف واحد ادعى للصلح، والقول الليّن بأسلوب مرن، ترفق بأخيك وتحننه وتلطف معه، وبذلك تمنع عنه شراسة الجدال، ولا تهنه ولا تسبه كقوله(**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**)الحجر/٨٨، وقوله (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) الفتح/٢٩ عن النبي(ص)(إنّ الرفق لم يوضع على شيء إلاّ زانه، ولا نزع من شيء إلاّ شانه)البحار٧٥ ص٦٠، **في غرر الحكم**(إخلط الشدة برفق، وارفق ما كان الرفق أوفق) (**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**)فمن أساء إليك بقول أو فعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصله، وإن ظلمك فاعف عنه، كقوله(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)البقرة/٢١٩، **في غرر الحكم**(العفو تاج المكارم) وإن اغتابك فسامحه، وإن هجرك فلا تهجره، وطّيب له الكلام، وابذل له السلام كقوله(**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**)الحجر/٨٥ وقوله(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)آل عمران/١٣٤، عن النبي(ص)(إن الله عفوّ يحبّ العفو، تعافوا تسقط الضغائن بينكم)كنز العمال خبر٧٠٠٤، وعنه(ص) (ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؟ العفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك، وإعطاء من حرمك) وعنه(ص) (**العفو**: لا يزيد العبد إلاّ عزاً، فاعفوا يعزكم الله) كنز العمال خبر٧٠١٢، عن الإمام الصادق(ع):

(الصفح الجميل أن لا تعاقب على الذنب)البحار٢٥٣/٧٨، **وفي نهج البلاغة حكم٥٢ (أولى الناس بالعفو، أقدرهم على العقوبة)** لكن تلك السماحة والهدوء والامتصاص للغضب

والتوتر، تحتاج إلى قلب كبير كريم عطوف، وهو قادر على الإساءة والرد بالمثل، وهذه القدرة ضرورية لتؤتي السماحة أثرها، حتى لا يتصوّر الإحسان في نفس المسيء ضعفاً، ولئن أحسّ أنه ضعف لم يحترمه، ولم يكن للحسنة أثرها في النفوس، عن الإمام علي(ع)(**العفو: يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم**) البحار٧٧/٤١٩، من حق الإنسان إذا أُسيء إليه أن يردّ السيئة بالسيئة كقوله(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)الشورى/٤٠، فردّ السيئة بمثلها ليس حسناً ولا سيئاً، والعفو عن السيئة حسن، وأحسن من هذا الحسن أن تردّ السيئة بالحسنة، كموقف النبي(ص) من قومه بعد أذاهم له قال(اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون) وقال(ص) (في فتح مكة(**أذهبوا فأنتم الطلقاء**)

وقال المسلمون: اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة، واستبدل النبي هذا الشعار فقال(اليوم يوم المرحمة، اليوم تصان الحرمة)! (**فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ**)هذه النتائج الجميلة والعواقب الحسنة التي لا تحصل عليها، فإنك إن فعلت ذلك سيدهشك نجاحه، أن الذي بينك وبينه عداوة وكراهية صار (**كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**)كأنه صديق قريب محبّ شفيق، إنّ مقابلة الموقف السيء بالموقف الحسن، وامتصاص غضب المسيء، لتحويل الأعداء إلى أصدقاء، عندها سيحدث التغيير النفسي والأخلاقي في وجوده، ويؤثر في ضميره فيوقظه ويعود إلى رشده، وسيخجل من موقفه ويحسّ بالحقارة ويلوم نفسه وينظر باحترام وإكرام وإكبار إلى من أساء إليه، عندئذٍ ستزول الأحقاد والكراهية، وتتبدل بالحبّ والمودّة، **وهذا الأمر لا يمثل قانوناً عاماً دائماً على كل الناس في كل المواقف، وإنما القاعدة التي لها صفة غالبة، وهناك استثناء،** هناك أقليّة من الناس جهلاء لا يفقهون لغة الكلام، فترى الخُلق ضعف، وترى الرفق تخاذل، فهذه الأقلية تحتاج إلى موقف صارم كقوله(جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) التوبة/٧٣، عن الإمام علي(ع) (إذا كان الرفق خرقاً (للقاعدة) كان الخرق(الغلظة) رفقاً، ربما كان الدواء داءً، والداء دواءً)البحار٧٥ ص٥١.

٣٥-(**وَمَا يُلَقَّاهَا**) أي فضيلة دفع السيئة بالحسنة، ولا يوفّق إلى هذه الصفة الجميلة، والمنزلة الأخلاقية الحميدة(**إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا**)صبر الأقوياء المؤمنين الأحرار، ومن جاهد نفسه وكظم غيظه وتحمّل الأذى من الناس، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان إليه؟! وأن إحسانه لمن أساء إليه ليس يضع قدره ولا يقلل مكانته، بل من تواضع لله رفعه، وهوّن عليه الأمر(**وَمَا يُلَقَّاهَا**) ولا يوفّق إليها، إنها درجة عظيمة بحاجة إلى صبر جميل، وبحاجة إلى عقل جليل ونفس كبيرة، وحكمة واتّزان، في غرر الحكم(أصل السلامة من الزلل، الفكر قبل الفعل، والرّوية قبل الكلام)وفيه أيضاً (**قرنت الحكمة بالعصمة**)إن معالجة الأسلوب الخاطئ بأسلوب أخلاقي رفيع، يستوعب الخطأ والخاطئ معاً، ويعالج الموقف

المتوتر بأسلوب حكيم يقبله الطرفان، إنّ هذه رتبة عظيمة ومنزلة كريمة، وهي حظ كبير يتفضل به الله على خاصة عباده.

في غرر الحكم (ذروة الغايات لا ينالها إلاّ ذوو التهذيب والمجاهدات)وأكد على كلمة **(وَمَا يُلَقَّاهَا)** مرة ثانية، لأن في الأولى تلقن الصبر على الأذى، وتحمّل الغصص، والدفع بالتي هي أحسن، أما **(وَمَا يُلَقَّاهَا)**الثانية لرفع المنزلة، من جزاء الحظ العظيم والخُلق الرفيع الكريم. **(إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)** وما يصل إلى هذه المنزلة الرفيعة إلاّ ذو نصيب وافر من العقل والكمال والاتّزان وجمال الأخلاق والصبر الجميل وخصال الخير، عن الإمام علي(ع)**(ما عوقب الأحمق بمثل السكوت عليه)** البحار٧١/٤٢٤، إنها من خصال نخب الناس وخواص الخلق، وهي من مكارم الأخلاق، والتي ترفعهم ليكونوا قدوة حسنة بين الناس كقوله (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ)الأنعام/٩٠.

٣٦-﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

من التربية القرآنية المميزة، مقابلة الإساءة بالإحسان في الآية/٣٤، وهنا ذكر ما يدفع به دور الشيطان بالاستعاذة بالله منه، والاحتماء من شره، فتكون الاستعاذة منه وقاية وحماية تدفع محاولاته لاستغلال الغضب، لأن الغضب طريق الشيطان فيحذّر عباده المؤمنين منه كقوله **(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ)** الحج/٥٢ تشير الآية إلى أن النبي أو الولي ينزغ لهما الشيطان كقوله(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ،إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) ص/٨٢-٨٣ **المعنى: (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ) ينزغنك**: يغرينك بوسوسته إلى ما لا ينبغي فعله، **والنزغ**: يطلق على وساوس الشيطان وهمزاته للإنسان، بقصد إفساد أمره بطرق خبيثة خادعة، ظاهرها يغرّ ويسّر وباطنها يضرّ، وجاءت بالمضارع لاستمرار نزغه ودوام فنونها، أي وإما تصيبنك وسوسة من الشيطان، باعثة على فعل الشر أو بترك ما أمرت به من الدفع بالتي هي أحسن**(فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)**فاعتصم بالله والتجئ إليه ولا تطعه، فإن المؤمن قوي الإيمان حين يحس ببداية الوسوسة في صلاته، أوفي أثناء تلاوته للقرآن، أو في أعمال الخير، يقول هذا المؤمن للشيطان، إني أعوذ بالله منك ومن وساوسك، فيعرف الشيطان أنك كشفته، فيخنس ويخسأ ويتراجع، ولكن لا ييأس منك ويحاول في كل مرة ويعيد الكرة، بأساليب متنوعة، كقوله(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ) الأعراف/٢٠١ **(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ)**يسمع عباده، بلسان الحال أو بلسان المقال، لأنه أقرب إليهم من حبل الوريد، جاء في دعاء الافتتاح(الذي بَعُدَ فلا يُرى، وقرُبَ فشهد النجوى تبارك وتعالى) **(الْعَلِيمُ)**بجميع أحوال خلقه، ونياتهم وحاجاتهم.

٣٧-٣٨-﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ. فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾

(**أية السجدة الواجبة**) الخطاب عام إلى كل من يعبد (**من دون الله**)ولاسيما من يعبد الكواكب والشمس والقمر، فهم يبالغون في شعورهم بالشمس والقمر ويعبدونهما باسم التقرب إلى الله، فالقرآن يردّهم عن هذا الانحراف، ويزيل الغشاوة عن عقيدتهم، ويصحح لهم التفكير، ويقوّم إليهم المسار ويقول لهم: إن كنتم تعبدون الله حقاً، فلا تسجدوا للشمس ولا للقمر (**وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ**) فالخالق وحده هو الذي يتوجه إليه المخلوقون أجمعين، والشمس والقمر مطيعان إلى نظام خالقهما، فتوجهوا معهما إلى الخالق القادر الواحد لا شريك له، لأنه أهل للعبادة، **المعنى**: (**وَمِنْ آيَاتِهِ**)ومن علاماته سبحانه الدالة على قدرته وتوحيده وحسن تدبيره وتقديره وكمال ربوبيته، تعاقب(**اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**)في نظام دقيق محكم، فالليل المظلم للسكون والنوم والراحة، والنهار المضيء للكد والعمل، ومن آياته كذلك تذليل(**وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**)وما بينهما من نظام وانسجام وتكامل وتعاون، ومسخَرين لمصالح الناس، فالشمس للإضاءة، وإيتاء الأرض حاجتها من الحرارة (**وَالْقَمَرُ**)للإنارة الليلية، ونشوء المد والجزر، ولا تستقيم معايش العباد إلاّ بهما(**لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ**)فلا تعبدوهما واعبدوا خالقهما، لأنهما مخلوقان مأموران مسخران لله مثلكم(**وَاسْجُدُوا لِلَّهِ**)**السجود لله**: أقصى مراتب العبادة، فلا بد من تخصيصه بالله تعالى، عن الإمام الصادق(ع)(أقرب ما يكون العبد من الله عز وجل وهو ساجد كقوله (**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب**) البحار٨٥/١٦٣، **والسجود جسماني ونفساني**: فالجسماني سجود ظاهري، وهو وضع الجبهة على التراب، والسجود النفساني (الروحاني المعنوي): وهو الخضوع لله، والورع عن محارمه، وإفراغ القلب من الشهوات الفانية، والإقبال بهمة عالية على صالح الأعمال الباقية من دون كبرياء، والتحلي بمكارم الأخلاق، في نهج البلاغة خطبة ١٩٣ (**عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم**)!(**الَّذِي خَلَقَهُنَّ**) وأخرجهن من العدم إلى الوجود، وسخرهن لأجلكم، فهو سبحانه المستحق للعبادة وحده دون غيره(**إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**)إن كنتم تفردونه بالعبادة الخالصة، يحدث للشمس كسوف كلي أو جزئي أو حلقي بين حين وآخر، ويبين الله لنا أنها مخلوق يتغير، وكذلك يحدث خسوف للقمر، فما دامت الشمس والقمر يحدث لهما تغيير، علّمنا الله ألا نسجد لهما وإنما نسجد للذي خلقهما.

٣٨-(**فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا**) والمستكبرون هم الكافرون المعاندون، فإن استكبروا عن طاعة الله وسجدوا لغيره، فعبادته سبحانه لا تنتهي من الوجود، وإن الله مستغنٍ عنهم كقوله(وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)لقمان/١٢، لأن الكون والكائنات كلها تسبح الله تعالى(**فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ**)

من الملائكة المقربين وعباده الصالحين الذين لا يستكبرون كما يستكبر أولئك الضالون، يعبدون الله وحده ليقربهم عنده **(عِندَ رَبِّكَ)**عندية تكريم، وعندية مكانة، لا عندية إقامة في مكان معيّن كقوله عند الشهداء**(بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)**آل عمران/١٦٩، فهم في رحابه وجوار مقامه، عندية شرف ومنزلة وتفضيل كقوله(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)القمر/٥٥، فكل إنسان مؤمن مكرّم، له عند الله مكانة خاصة وتشريفاً مميزاً بقدره **(يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)** وينزهونه عما لا يليق به من صفات النقص، ويعبدونه ويعظمونه بما يليق بجلاله ليلاً ونهاراً، بامتثال أوامره دائماً وفي جميع الأوقات **(وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ)**وهم لا يملون ذلك مهما طال الأمد، ولا يفترون ولا يتعبون من عبادتهم وتسبيحهم، فإن التسبيح منهم كالتنفس من الناس، فهو بمثابة ديمومة لحياتهم وانشراح لصدورهم وتنشيط لإرادتهم، وعلى قدر المعرفة والشهود تكون الخشية والحب والكشوف، من هذا التسبيح (**سبحان الذي من عرفه لا يسأم من ذكره، سبحان الذي من أنس به استوحش من غيره**، سبحان الذي من أحبه أعرض بالكلية عما سواه)روح البيان٨/ ٢٦٦.

ماذا يساوي أن يتخلّف من أهل الأرض فيعرض عن عبادة الله تعالى، وهم كالذرة التائهة في هذا الكون الفسيح، ولكن قلب المؤمن يتعلّق بحبّ الله تعالى، ومن بحث عن الله وجده، ومن سعى إلى الله قربه إليه، عن الإمام علي(ع)**(من صبر على الله وصل إليه)**البحار٧١ ص٩٥. **في غرر الحكم**(إنّ الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، ويأخذان منك فخذ منهما) **فائدة:** هذه السورة من سور العزائم الأربعة في القرآن الكريم، التي يجب السجود عند تلاوة آياتها، أو الاستماع إليها، مع سورة السجدة/١٥، وسورة النجم/٦٢، وسورة العلق/١٩، **القول في سجدة العزائم: (لا إله إلاّ الله حقاً حقاً، لا إله إلاّ الله إيماناً وتصديقاً**، لا إله إلاّ الله عبودية ورقاً، سجدتُ لك يا رب لا مستنكفاً ولا مستكبراً، بل أنا عبد ضعيف ذليل، خائف مستجير) من لا يحضره الفقيه ١/٣٠٦.

٣٩ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

جعل الله سبحانه الدليل العيني الحسّي المرئي الواضح، وجعل قدرة التفكّر والانتباه، دليلاً للأمر الغيبي على وجود الحياة بعد الموت، فيكون البعث والنشور للجزاء والحساب، فما أكرمه من خالق حكيم، يرسم لنا خريطة الطريق كاملة، كقوله(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)الروم/٢٧، **المعنى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً)**يابسة، قاحلة جرداء ساكنة هامدة لا حياة فيها ولا نبات **(خَاشِعَةً)**مستعارة من الخشوع بمعنى التذلل، شبه القرآن يبس الأرض وخلوّها عن الخير والبركة بالخشوع والخضوع لربها لحاجتها إليه، ويكون الشخص

خاشعاً ذليلاً لله لحاجته إليه، حاجة ذلة العبودية لجمال الربوبية، فهي استعارة بلاغية تشبيهية فنية جميلة(**وَمِنْ آيَاتِهِ**)الدالة على كمال قدرته وتوحيده، بانفراده بالخلق والملك والتدبير والتقدير، ونلاحظ دقة التعبير القرآني البلاغي، فخشوع الأرض هنا هو سكونها قبل نزول الماء(**فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**)وكأن الأرض في حركة شكر وصلاة على أسباب الحياة فيها، في هذا المشهد تأخذ الأرض دور الكائن الحي، وكأنها تخاطب خطاب العقلاء، ولها إرادة وحاجة وشعور مناسب، وحركتها المناسبة بالحياة! فاهتزّت بالحياة لتشارك الأحياء العابدين الخاشعين في عبادتهم، **فيكون العقلاء وغير العقلاء، يشتركون في تسبيحة واحدة موحّدة متّحدة**، وتشترك السنن الكونية مع السنن الإنسانية في عبادة مشتركة، وهذا لون من العبادات من الدقة المتناهية في تناسق الحركة المتخيلة هذه التي تسمو على كل تقدير! كلمتان (**اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**) تصوران مشهد إعادة الحياة النامية في الأرض الميتة.

لأن كل ما في هذا المشهد نقلة فنية دقيقة، تتحرك حركة نامية للعبادة، فاهتزت الأرض بالحياة ونموّها، لتلتحق مع جميع الأحياء العابدين في مشهد حركتهم العبادية الخاشعة المتألقة المتصلة المتّسقة، في نغم المناجاة الشفافة النفاذة المشتركة في روح واحدة! لكي لا يبقى جزء من أجزاء المشهد العبادي المتألق الحي ساكناً! كقوله(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) الإسراء/٤٤، عن سليمان بن داود(ع)(**لتسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى، خير مما أوتي آل داوُد، فإنه يذهب والتسبيحة تبقى**)روح البيان٦/٤٩٣ (**إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا**)بالنبات بعد موتها (**لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ**) فكما لم تعجز قدرة الله على إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى للجزاء والحساب، فإن الحياة تبقى لغز مبهم لا يمكن حلّه لولا الإيمان باليوم الآخر، كقوله (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) الأنعام/٩٥، **تؤفكون**: تصرفون عن الحق. (**إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**)فتوحي بالقدرة الخارقة المنشئة للحياة العزيزة، حين تنبض وتتدفّق الحياة بهدوء موزون من بين حالة الموات، بطريقة اعجازية، كما يتدفّق النور بالتدريج من قلب الظلام، **وهذه إشارة قرآنية فنية دقيقة إلى إحياء النفوس وإحياء القلوب بنور الإيمان ونعمة الهداية**، وبالهداية تقوى البصيرة، وبقوة البصيرة تخترق حجب النور لتصل إلى معدن العظمة، في عالم الغيب العلوي الفسيح، عالم الأسرار والكشوف! (يوم القيامة ميزان دقيق: فمن وفّى، استوفى)

٤٠ –﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

الآية تحذر من الإلحاد ومخاطره وأنواعه وأسبابه ونتائجه، يبدأ التهديد في الآية خفيّاً ولكنه مخيف، ليكون الإنسان على حذر شديد من الالحاد، الذي هو أخو الظلم والكفر والشرك

والكبرياء والغرور..إلخ، **والملحد**: جاحد، وهو العنوان الجامع للمعايب والمساوئ الكثيرة، وهو الذي ينكر الآيات الظاهرة الباهرة بلسانه، فيغالط نفسه ويخدعها ويخدع غيره، والإلحاد يحبط الأعمال وأنتم لا تشعرون كقوله (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا)الفرقان/٢٣، عن الإمام الباقر(ع)(إنّ أقرب ما يكون العبد إلى الكفر، أن يؤاخي الرجل على الدّين، فيحصي عليه عثراته وزلاّته ليعنّفه بها يوماً ما)البحار٧٥/٢١٥.

المعنى: **(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا) الإلحاد**: في الأصل مطلق الميل والانحراف، ومنه الّلحد الذي يكون في جانب القبر، بعد الميل عن طريقه، ثم خُصَ في العرف بالانحراف عن الحق إلى الباطل، أي يميلون عن الاستقامة العقلية إلى الظلم والجحود والنفاق والخروج عن الصواب، حمل آيات القرآن على المحامل الباطلة، إما إنكارها وإما تحريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معانٍ غيرها كقوله**(وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)**الحج/٢٥، **وهنا قرن الإلحاد بالظلم، وقدمه عليه، مما يدل على أن الإلحاد يؤدي إلى الظلم**، وأن الظلم يؤدي إلى الإلحاد، لأن أحدهما يصب في معنى الآخر، والإلحاد هو الصورة العملية للكفر والظلم، كقوله **(وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)** البقرة/٢٥٤، وضرب الخادم من غير ذنب، وبخس الأجير أجره، والاعتداء على حقوق الناس، من ذلك الإلحاد! عن الإمام الصادق(ع)**(الكِبر أدنى الإلحاد)** البحار٧٣/١٩٠، وكل عدول وإعراض عن الاستقامة والعدالة فهو إلحاد! **(إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا)**إن الذين يميلون عن الحق والحقوق، ويطعنون في القرآن ويحرّفون الحقيقة عن مواضعها، عن عمد وإصرار دون حجة علمية ولا برهان قطعي، فيقولون ما يشتهون، **الملحد**: يخفي معاني حقيقية صحيحة، ويعلن عن معاني غامضة مشوشة للذهن، فيكون الإلحاد هو الجحود.

والجحود: إنكار ما استيقنه القلب كقوله**(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)** النمل/١٤ **(يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا)** ينكرون حججنا ودلائلنا والطعن فيها، سواء الآيات التكوينية(أو) الآيات التشريعية كالوحي والنبوة والرسالة، فيعدّون القرآن افتراءً على الله، وتقوّلاً من النبي مُحَمّد(ص)، ومن الالحاد أنهم يلهون ويلغون عند تلاوة القرآن لتختل تلاوته فلا يسمعه سامع، ومن الإلحاد أنهم يؤوّلون القرآن من تلقاء أنفسهم بما يوافق أهواءهم كقوله(فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)آل عمران/٧، وقوله**(وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)**الأعراف/١٨٠.

وهناك صنف من الناس يؤمنون بالله تعالى، ولكنهم يلحدون في أسمائه وصفاته، ويطعنون في حكمه وقضائه، فيثبتون لله سبحانه من صفات النقص ما هو منزّه عنها، كالاعتقاد بأن له جسماً ومكاناً، ونسبة الظلم في فعله والتقتير في رزقه لإبقاء الفقير فقيراً، والجهل في حكمه

وإدارته للخلق.. وغير ذلك، **فهذه جميعهاً من الإلحاد في أسمائه وفي صفاته وفي آياته،** بوضعها في غير موضعها.

ومن معاني الإلحاد: ما **قام به اليهود وغيرهم من تحريف معاني القرآن والإسلام**، وكتمان العلم والحقائق المهمة عن الناس، وإشاعة الفساد والشبهات والانحراف والغلو في الأشخاص، وتصغير قدرة الله الخالق وتعظيم قدرة المخلوق، أو إضافة أشياء من عندهم، ويقولون إنها من عند الله كقوله(فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ)البقرة/٧٩ **(لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)**فهم مكشوفون لعلم الله بكل أشخاصهم وأفعالهم وأقوالهم ونواياهم، وهم مأخوذون بما يلحدون سراً وعلانية، بلسان الحال أم بلسان المقال، بشكل مباشر أو غير مباشر، وهم تحت سيطرته وقبضته سبحانه، ولكن الله ليبين لهم علمه بهم وحجته عليهم قبل أن يؤاخذهم، ليجازيهم بما عملوا، حتى يكون للعقوبة موضع **(لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا)**لا يغيب أمرهم عنّا، ونحن لهم بالمرصاد بعد فترة الإمهال، إنه تهديد ووعيد على شكل تصوير فني بكل أحوالهم ومآلهم وبكل حركاتهم وسكناتهم، **وكأن كاميرة خفية عالية الدقة**، تصوّرهم بالتفصيل وتحفظه على شكل فلم مجسّم من ثلاثة أبعاد بالصورة والصوت والنية **(أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ)**إنّ الملحد الذي يرمى في النار بمنتهى القسوة والغلظة، تذوب أعضاؤه بحرّها ولا يموت فيها ولا يحيا **(خَيْرٌ)**أفضل**(أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**السؤال منه سبحانه لأنه يعلم أن الإجابة واضحة، أنهما لا يستويان وشتان بينهما، فتكون الإجابة إقراراً منهم ، وهكذا تنتهي الآية بالتهديد الهادئ المخيف والمحفز للمشاعر، **فمن يعمل مختاراً ويترك حراً، فيفضل الإلحاد الظالم فبئس الاختيار! عن النبي(ص)في حديث قدسي**: (وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، فإذا أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا آمنته يوم القيامة)

في نهج البلاغة**(إنما هي نفسي أروّضها بالتقوى، لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر)** نور الثقلين ٥٥٣/٤ ولكن المجرمين الملحدين ذهلوا عن هذه الحقيقة الكبرى البديهية، وإنهم في واقعهم قد آثروا الجحيم على النعيم**(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)**فإنكم مرصودون بدقة، فاعملوا ما بدا لكم، فستحاسبون وتجزون على كل صغيرة وكبيرة **(اعْمَلُوا)**ولكم حرية الاختيار، والحرية تكريم للإنسان، وفيه تهديد شديد لظهور أن ليس المقصود الأمر بكل عمل شاؤوا واختاروا، وإنما اختيارهم ضمن المهلة المقررة، وضمن المنهج الإلهي المرسوم(وإنما يعجل من يخاف الفوت، ويحتاج إلى الظلم الضعيف) وهذا أبلغ أسباب الوعيد، ويقرر القرآن منهج الاختيار كقوله(وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)الكهف/٢٩، وقوله(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ)التغابن/٢، وقوله(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا) يونس/٩٩، إنه إيمان على سبيل الجبر والإلجاء والاضطرار، ولو فعلت ذلك بهم لم يستحقّوا مني

الكرامة والقربى والخلود في الجنة(**إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**)إنه العليم البصير لا يخفى عليه شيء من أعمالكم السرية والعلنية ويجازيكم عليها.

٤١-٤٢-﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ**)كفروا بالقرآن وجحدوا (**بِالذِّكْرِ**)المذكّر للعباد بجميع مصالحهم الدنيوية والأخروية، وهو دستور حياتهم، وسبيل نجاتهم، وهو الذي يعلي منزلة من اتّبعه، وتارة (**الذكر**) يأتي باسم القرآن وتارة باسم الكتاب، كلها كلمات لها دلالة واحدة، **والكفر**: هو التغطية وستر الإيمان وحجبه، فكان الإيمان أمر فطري أصيل، والكفر طارئ ودخيل عليه. (**لَمَّا جَاءَهُمْ**) النص القرآني يتحدث عن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم، ولا يذكر ماذا هم، ولا ماذا سيقع لهم، فلا يذكر الخبر، وكأنما يقال: إن فعلتم هذا الكفر بالذكر، فلا يوجد وصف ينطبق على هذا الكفر ويكافئه، لتفظيع الفعلة وشدة بشاعتها، لذلك يترك النص القرآني خبر إن محذوفاً لا يأتي به، ويمضي في وصف الذكر المذكّر بالله واليوم الآخر، الذي كفروا به عن عَجَلٍ كقوله(**بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ**)يونس/٣٩ (**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ**) وصف الله سبحانه القرآن بأنه **عزيز**، لكونه نادراً وقاهراً، ليس له نظير ولا مثيل جامع لأوصاف الكمال والجمال والجلال، **عزيز**: يَغلِبُ ولا يُغلب، بقوة حججه وبلاغة منطقه ودقة استدلالاته، وعمق معناه وروعة إعجازه، وهو يدفع كل جاحد، ويقمع كل معاند، وهو كتاب ثمين وفوق كل ثمن، وهو كنز السماء عند أهل الأرض، وهو الجامع المانع والحاوي لجميع رسالات الأنبياء من أولي العزم، وهو كتاب منيع محفوظ محروس بحراسة الله، محروس من كل من إرادة بتحريف أو تزييف أو سوء على مر التاريخ مع كثرة أعدائه، دليل على كونه محفوظاً بحفظ الله، وهذه عزة للقرآن.

ومن معاني العزيز: لا يستطيع أحد أن يزيد فيه أو ينقص في نصه، ولا يتغلّب على مضمونه الفكري فكر آخر كقوله(مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)المائدة/٤٨، فهو كتاب الله لا يُغلب، بشرط أن تستقبله وليس في نفسك شيء ضده، كما استقبلت أم موسى أمر ربها بإلقائه في الماء فلم تعارض، **لأن وارد الرحمن لا يعارضه وارد الشيطان**، ورفع الإسلام السيف في جهاد أعدائه المعاندين، ليحمي حرية اختيارك للدين الذي ترضاه من دون إكراه، الإسلام لا يجبر أحداً على اعتناقه، بدليل معايشته لديانات مختلفة(**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ**)عزيز في ذاته ومعز غيره، ومعز من نزل عليه، ومعز من خوطب به، ومعز من يحمله ويتبناه ويحفظه ويَعلمه ويُعلّمه ويعمل به، وهم نخبة الخلق وصفوتهم.

٤٢-(**لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ**)

كناية بلاغية فنية بديعية، واستعارة تشبيهية جميلة وعميقة ودقيقة، أي شبّه القرآن العزيز في عدم تطرّق الباطل إليه بأي وجه من الوجوه، بمن هو محميّ من جميع الجهات، محاط به بحماية غالب قاهر فوق عباده، يمنع من أن يتعرض له العدو بزيادة أو نقص، ولا يأتيه التكذيب من الكتب التي قبله، ولا من أي كتاب علمي يأتي بعده، يبحث عن دلائل كونية أو نفسية يستطيع أن يبطله أو ينسخه أو يعارضه أو يقول فيه تناقض كقوله(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)النساء/٨٢، **لا يتطرق إليه الباطل بكافة معانيه،** ولا يجد إليه سبيلاً، **فالقرآن الكريم**: لا تناقض في ألفاظه، ولا تعارض في معانيه، ولا كذب في أخباره، ولا تعارضه كذلك الاكتشافات العلمية الحديثة في الآفاق والأنفس، ولا تغيير في نصوصه، ولا شيء يستطيع أن يصل إليه ويبطل حجته، وهو محفوظ بحفظ الله، وسيبقى حجة بالغة على المكلّفين الراشدين إلى يوم القيامة كقوله(**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**) الحجر/٩، عن الإمام الباقر(ع)في الآية(ليس في أخباره عما مضى باطل، ولا في أخباره عما يكون في المستقبل باطل)تفسير النور٨/ ٣٠٠ وعنه(ع)في الآية(**مِن بَيْنِ يَدَيْهِ**)لا من قبل التوراة، ولا من قبل الإنجيل والزبور(**وَلَا مِنْ خَلْفِهِ**)لا يأتيه من بعده كتاب يبطله، وكيف يدخل الباطل على هذا الكتاب، وهو صادر من الله الحق العظيم؟ وكيف يأتيه الباطل وهو عزيز محفوظ بعزة الله، الذي تكفّل الله بحفظه كقوله(**فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ**)الواقعة/٧٨.

مكنون: مصون، محفوظ بحفظ الله، والمتدبّر بهذا القرآن، يجد فيه ذلك الحق ويستذوق بلاغته، والذي نزله ليقره في الروح والعقل والفكر والسلوك، لأنه قرآن يخاطب الفطرة البشرية، ويربيّها ويؤثر فيها التأثير العجيب، فيحفظها سالمة نقية من أنواع التلوثات، ويعالج أنواع الشبهات، فيبقى القلب محفوظاً مطمئناً سليماً نقيّاً كقوله(يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ،إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)الشعراء/٨٨-٨٩، لذلك يسمى القرآن فرقاناً كقوله (**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ**) الفرقان/١ عن النبي(ص) (إذا جاءكم حديث عنّا فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالفه فاطرحوه) التهذيب٧/٢٧٥ فأصبح القرآن الثقل الأكبر، والمرجع الأصيل، والأمين العام على الإسلام.

(تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)تنزيل: منزل القرآن من العلو الأعلى، علو القدرة الخالقة، علو المقام الجليل لهداية العباد، وتحقيق التعليم والدراية كقوله(وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)البقرة/١٥١ **حكيم**: من الإحكام في مضمونه وفي كلماته وفي علومه وفي أسلوبه وفي بلاغته، وفي تأثيره، **وحكيم**: ذو الحكمة في تأليفه وتنزيله، كقوله (**أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ**) النساء/١٦٦، مانع عن تبديل معانيه، بقوة وإحكام مبانيه، والحكمة ظاهرة في بنائه، وفي توجيهه وفي تربيته، وعلاجه للقلب بأقصر الطرق، **وحكيم** في خلقه وآياته وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزله منازله **(حَمِيدٍ)**

مستحق الحمد بإنزال القرآن وإلهام معانيه وكثرة آفاقه وسعة إيحاءاته، **وحميد:** على ما له من صفات الكمال والجمال والجلال، فكان كتابه مشتملاً على هذه الصفات المميزة. ومن رحمة الله بخلقه أن علّمنا صيغة الحمد **(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** الحمد/٢، وهذه النعمة تستحق الحمد، ويبقى المؤمن حامداً لله وبذلك يكون الله حميداً، وهي صيغة مبالغة من محمود، **حميد:** يحمده كل المخلوقات في كل زمان ومكان، حمداً بلسان الحال والمقال، بما وصل إليهم من نعمه الظاهرة والباطنة.

٤٣ - ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾

السياق القرآني البليغ يجمع أسرة الأنبياء والرسل جميعهم في ندوة مشتركة واحدة موحّدة متّحدة، وإن اختلف زمانهم ومكانهم، تتلقّى من ربها حديثاً واحداً، من وحي واحد ورسالة واحدة وعقيدة واحدة، وهدف مشترك واحد، ومصالح الطغاة أيضاً واحدة، وكانت ردود الأفعال اتجاه رسالات السماء بالتكذيب لها واحدة أيضاً، **وهناك تجارب واحدة، وهناك غاية نبيلة واحدة، وهو إلقاء الحجة الإلهية على الناس،** ويمضي قائد الدعوة الإسلامية وهو يشعر أنه أحد أعضاء تلك العصبة المختارة المصطفاة المنتقاة، من بني البشر الكثيرين، إنها ميزة فخر واعتزاز مما تدعوه لمواصلة الطريق. ويحس المؤمن أنه فرع من هذه الشجرة الطيبة عميقة الجذور، وهو عضو فاعل من أعضاء هذه الأسرة المضيئة النموذجية، وله بصمة أمل حرة في حركة السنن التاريخية، **المعنى:** **(مَّا يُقَالُ لَكَ)**ما يقوله الكفار لك يا مُحَّد، واتهامك بالسحر والجنون وطلب الرئاسة **(إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ)**مثل ما قيل للرسل والأنبياء الذين تقدموك في تكذيب أقوالهم فصبروا، فلا يضيق صدرك مما يقولون كقوله**(قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ)** الأحقاف/٩، فلا تحزن، **فهذه سنة الله في أهل الدعوات،** وحملة الرسالات، لما تشابهت قلوبهم في الكفر، تشابهت أقوالهم في التكذيب، فاصبر كما صبروا على أذاهم، والعاقبة الحسنة لك كقوله (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) الطور/٤٨، **في غرر الحكم(بالصبر تدرك معالي الأمور)** **(إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ)**ورحمة والصفح عما مضى، ليفتح باب الأمل، ويعطي للكافر الفرصة أن يؤمن ويتوب ويرجع إلى ربه**(وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)**ويحذر المؤمن عقاب الله ويخشاه فلا يغفل عنه أبداً، لأن الإنسان **(الأحمق إذا أمن العقاب أساء الأدب)** حتى يعيش المؤمن الأدب مع الله، ويعيش التوازن والاعتدال بين الخوف والرجاء، **الخوف:** والحذر من عقاب الله، **والرجاء:** في الطمع برحمة الله ومغفرته كقوله(يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)الزمر/٩، في غرر الحكم**(خير الأعمال اعتدال الخوف والرجاء)**إنها الحقيقة المتألقة الضخمة ذات الطابع المتوازن، يزرعها القرآن في القلوب الأصيلة السليمة. **فائدة:** وقدم **(المَغْفِرَةٍ)**على **(العِقَابٍ)**دليل على تقدم رحمة الله على غضبه، وهكذا كثير من آيات القرآن يقترن الوعد بالوعيد، والترغيب بالترهيب،

والعذاب بالرحمة، كي يخشى العبد مقام ربه ولا يتجاوز حدوده(وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) الطلاق/١

٤٤ -﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾

(**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا**)ولو جعلنا القرآن بلغة أعجمية، غير عربية، **وأعجمية**: غير مبينة وغير واضحة لمقاصدها، وغير بليغة في نظمها، فهم لا يصغون إليه عربياً فصيحاً بليغاً، وهم يخافون منه لأنه عربي مبين، ويخاطب فطرة العرب وبلسانهم، ليبين لهم، وهذا مما يوجب التسليم له، وزيادة الاعتناء به والتعلّق فيه، وإيّاكم وهجره، فمن هجره فقد هجر عزه وعانى من المذلة **المعنى**: (**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا**)لاعترضوا عليه أيضاً، وقالوا: لولا جاء عربياً فصيحاً مفصلاً، ولو جعل بعضه أعجمياً وبعضه عربياً، لاعترضوا عليه كذلك(**لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**)هلاّ بينت آياته ووضحت بالعربية حتى نفهمها، لقالوا مستنكرين أقرآن أعجمي من رسول عربي؟! وقالوا(**أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ**)؟! استفهام إنكاري، فهم منكرون له، طاعنون فيه على كل حال كقوله(وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)إبراهيم/٤، وقوله(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ،فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)الشعراء/١٩٨-١٩٩، قل يا مُحَمَّد هو سواء أكان قرآناً عربياً أو أعجمياً، ولا هدف لهم إلاّ الهروب من الحق(ومن لا ينفعه القرآن يضره الشيطان) (**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى**)للذين آمنوا وطلبوا الحق لوجه الحق، فهو لهم هدى يهديهم للتي هي أقوم، وهو طريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فيتطلعون إلى آفاق عليا سامية، تعلّمهم فلسفة الحياة، وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، ويعلّمهم مكارم الأخلاق، وينهاهم عن الضلالة والمنكرات والجهل والشك.

اللغة لابد أن تحقق أهدافها لمعرفة المقصود بأية لغة كانت، لأن اللغة الوسيلة المهمة لتوصيل المعاني، وإن تعددت اللغات، ولكن يجمعها توصيل المفاهيم (**وَشِفَاءٌ**)يشفي ما في قلوبهم من أمراض الكفر والنفاق والشرك والجحود والشبهات والجهل وسوء الخُلق، وضيق الصدور ونزق النفوس الأمّارة بالسوء.. وغيرها كقوله(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) الإسراء/٨٢، **في نهج البلاغة خطبة ١٧٦**(إنّ فيه شفاء من أكبر الدّاء، وهو الكفر والنفاق، والغي والضلال)(**وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**)ولا يصدقون بالقرآن، ولا يفكرون إلاّ بمصالحهم الشخصية، وبمتعهم وجشعهم، أولئك (**فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ**)ثقل وصمم عن سماعه، لذلك تواصوا باللغو فيه والتعالي عليه، لما لم ينتفعوا به فكأنهم في آذانهم ثقل وصمم، وقلوبهم قاسية لا تقبل الهداية، لتوغلهم في اتباع الشهوات، وما قست القلوب إلاّ لكثرة الذنوب.

كقوله(**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**)المطففين/١٤ (**وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى**)عميت قلوبهم عنه فلا يبصرون الحق وسبيل الرشاد، لتعطيل أجهزة الاستقبال عن تلقيه، كقوله(فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)النحل/٣٦ (**أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**)كناية بلاغية فنية، واستعارة بديعية على سبيل التشبيه في عدم قبولهم للقرآن، لا يسمعون نداء الحق لإعراضهم وبعدهم عنه، ولتعاميهم ولا مبالاتهم بالقرآن، كمن ينادون من مكان بعيد، فلا يسمعون ولا يفهمون النداء، حتى كأن بينهم وبينه بعد المشرقين، وإن كان أقرب إليهم من حبل الوريد، مثلهم كالبهيمة تسمع ولا تفهم الكلام، لا تسمع إلاّ صوتاً ونداءً ولا تعرف معناه! إشارة إلى أنهم معاندون لا يفهمون ولا يسمعون كالذين(**يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**)لأنهم بعيدون عن أهدافه، ويبقى القرآن الكريم هو الحقيقة الكبرى الثابتة، ذات الحجة الدامغة، ولكن الذي يتغيّر هي القلوب القلقة المتقلبة المضطربة المتغيرة المعرضة!

٤٥ –﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾

(**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**)وأقسم، لقد أعطينا موسى التوراة التي فيها هدىً ونور، ورأوا المعاجز المتعددة(**فَاخْتُلِفَ فِيهِ**)فاختلف اليهود فيها بعد موسى(ع) وحرفّوا التوراة، وعبدوا العجل، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، كما اختلف قومك في القرآن، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، وكذلك اختلفوا في الإنجيل كقوله(**أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ**) البقرة/٨٥ (**وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ**)إن الله تعالى لولا حلمه وكلمته السابقة، ووعده بتأخير الحساب والعقاب والجزاء للخلائق إلى يوم القيامة لإتمام الحجة عليهم، لعذبهم في الدنيا كقوله (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) النحل/٦١ (**لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**)بتعجيل العقاب، وفصل بينهم بإهلاك المبطلين (**وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ**) وإنهم لفي شك من التوراة الحاضرة موجب للريبة والتهمة وسوء الظن فيها، لعلمهم بكثرة ما تعرضت للتلاعب والتحريف (**وأيضاً**)قومك لفي شك من القرآن موجب للتهمة وسوء الظن بنواياك الحقيقية منه كقوله(**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ**)النجم/٢٣ وقوله (إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)يونس/٣٦، **في غرر الحكم**(ظن الإنسان ميزان عقله، وفعله أصدق شاهد على أصله) وهم على غير بصيرة من أنفسهم، لقسوة قلوبهم وعمى بصائرهم، وهذا أوقعهم في أشد الريبة والاضطراب، وهم يعلمون أنهم يتخبطون خبط عشواء، ولكنهم يتظاهرون بالعلم والمعرفة، وما أكثر هذا النوع المغرور الضائع من الناس.

٤٦ –﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

تصوّر الآية الكريمة قانوناً عاماً مهماً، وترسم منهج حياة متطوّراً وشاملاً ومستمراً ومؤكّداً، لتربية الإنسان وتزكية نفسه، وتهذيب عاداته، منهجاً يرتبط بأعمال كل إنسان ونواياه، وهو المسؤول الأول عن نفسه في بناء مستقبله الدنيوي والأخروي، عن السيد المسيح(ع) (ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه)؟!

المعنى: (**مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**)ترك الله سبحانه الناس وشأنهم وما يختارون، والبشرية تضع على كاهلها عبء الاختيار وحريته، ولمن شاء أن يختار طريق الصلاح أو طريق الضلال، فالصلاح لنفسه وللناس، والضلال ضرر عليه وعلى الناس، والله سبحانه غداً يحكم بالعدل كلاً بحسب عمله على أساس تلك الحرية في الاختيار كقوله(**وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**) الكهف/٤٩، **في غرر الحكم**(من قام بشرائط الحرية أهِّلَ للعتق، ومن قصرّ عن أحكام الحرية أعيد إلى الرّق) وفيه أيضاً : (الحر حرٌّ ولو مسّه الضرّ، والعبد عبد وإن ساعده القدر) (**مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**)من عمل شيئاً من الصالحات النافعات للناس في هذه الدنيا، فإنما يعود نفع ذلك على نفسه لا إلى غيره، وأن أساء في الدنيا فإنما يرجع وبال ذلك وضرره عليه، فهو وحده الذي يتحمّل مسؤولية أعماله، فكما يزرع يحصد ما زرع **في غرر الحكم** (**المرء حيث يضع نفسه**) وأن الله لا تضره معصية من عصاه، بل تضر صاحبها، ولا تنفعه طاعة من أطاعه بل فائدتها تعود إليه، وإيمان الناس لن ينفعه، وكفرهم لن يضره كقوله (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) آل عمران/٩٧، والله سبحانه حين يحذرنا من المعصية ويعاقب عليها، يريد منا ألا نقع فيها، حتى يحمينا من العذاب لرحمته بنا كقوله(**إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا**)الإسراء/٧ عن الإمام الكاظم(ع)(من لم يجد للإساءة عنده مضضاً، لم يكن عنده للإحسان موقعاً) البحار٧٨/٣٣٣.

تشير الآية بأن الإنسان مخيّر غير مسيّر،ويؤكد القرآن هذا المنهج كقوله(فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)يونس/١٠٨ عن الإمام الصادق (ع) (لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين) التوحيد ص٣٦٣ (**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**)فلا يعاقب أحداً دونما سبب، ولا يحمّل أحداً فوق سيئاته، ولا ينقص من أجر المطيع، وهو الحاكم العادل المحسن المنصف الرحيم كقوله (**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ**)التين/٨.

أما مفهوم (**ظَلَّامٍ**)لا ينسب الظلم صغيره وكبيره إلى الله سبحانه، وهو ينهى عباده عنه، ويعاقب الظالمين كقوله(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)آل عمران/٥٧، والله لا يعذّب بغير ذنب، كقوله(إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) يونس/٤٤(**ظَلَّامٍ**) **ليست هنا صيغة مبالغة للظلم**، وإنما هي صيغة صفة سلبية ينفيها الله عن نفسه، مثل عطّار، نجّار، تمّار.

ولو كانت للمبالغة لأوهم أنه تعالى ليس كثير الظلم، ولكنه يظلم أحياناً، وهذا المعنى غير المقصود كقوله (**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**)النساء/٤٠، في الحديث القدسي (ياعبادي: إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظلموا) المراغي١٠ص ١٦ فكانت المبالغة بتعبير (**ظَلَّامٍ**)راجعة إلى النفي، أي أن صفة الظلم منفية عن الله نفياً قاطعاً مؤكداً كاملاً مضاعفاً، لا من قريب ولا من بعيد، ولا يلزم منه نفيه عن أصله، عن النبي(ص)(من مشى مع ظالم ليعينه، وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام)كنز العمال خبر٧٥٩٦، كقوله (**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**) المؤمنون/١٤. أحسن هنا ليست للتفضيل، وإنما هي للحسن المطلق في خلق الله، لأنه لا خالق غير الله، وكل ما يخلقه هو الأحسن.

الجزء الخامس والعشرون من القرآن الكريم

٤٧-٤٨- ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ، وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

الساعة حقيقة مؤكدة مهمة غيبية في ضمير المجهول، وتستقر في عالم لقاء الله المأمول، والثمرات المتنوعة في داخل أوعيتها سّر غير منظور، والحمل في الأرحام مخلوق بديع مستور، وكلها في علم الله وتحت تقديره وتدبيره(لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ)سبأ/٣، **المعنى**: إذا سأل سائل عن الساعة(**إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ**)إلى الله وحده يرد علم قيام الساعة، علم اختص الله به نفسه لا يعلمه غيره، ولم يطّلع عليه أحد من أنبيائه كقوله (لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً)الأعراف/١٨٧، وسميت القيامة ساعة، لسرعة الحساب فيها، ولوقوعها فجأة وبغتة أي بسرعة ملفتة كقوله(**وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ**)النحل/٧٧، سُئل رسول الله(ص)متى تقوم الساعة؟ قال(ص) وماذا أعددت لها! فإن علمها ثقيل ثقل الساعة نفسها، لثقل أهميتها وتأثيرها التربوي المصيري على النفوس والمجتمعات، عن النبي(ص)(يموت الإنسان على ما عاش عليه، ويُحشر على ما مات عليه)تنبيه الخواطر ص٣٧١. هناك قيامة خاصة فردية عاجلة لكل من يموت، تسمى(**القيامة الصغرى**)عن النبي(ص)(**من مات فقد قامت قيامته**)روح البيان٢٢/٣، وعنه(ص) (**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**)روح البيان١٣٢/٢ وهناك قيامة عامة آجلة لكل الخلائق، تقام بعد انتهاء نظام الكون جميعه، تسمى(**القيامة الكبرى**)الموعودة، وهذه هي المقصودة في الآية كقوله (مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) لقمان/٢٨ **المعنى**: (**إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ**)أبهم الله تعالى لحظة قيام الساعة، كما وأبهم مدة العمر ولحظة الموت، حتى تستعدَّ

له في كل لحظة كقوله(**وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**)آل عمران/١٠٢، فمن أراد أن ألا يموت إلاّ مسلماً، فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً، وفي كل حال مسلماً، **ومن رحمة الله على خلقه أن جعل للساعة علامات صغرى وعلامات كبرى**، لتدل الناس على اقتراب موعدها، حتى يخافوا ربهم ويرجعوا إليه، كقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) الانشقاق/٦، وعندما يرى الإنسان آية مهلكة، كالزلازل والأعاصير والبراكين والفيضانات.. وغيرها، فإنها ظواهر انذار خطيرة ومريرة، كقوله (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)السجدة/٢١، فهي تذكرك بالله لترجع إليه وحده بسرعة قبل فوات الأوان.

سؤال: لماذا أبهم الله أمر الساعة؟ الجواب: وذلك لأغراض تربوية لصالح الإنسان، كما يرد إليه سبحانه علم الآجال، ولا أحد يعرف كم يكون عمره، ومتى يحين أجله فيموت كقوله(وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ)لقمان/٣٤، هذه الحقائق المهمة المجهولة أمام الإنسان، حتى يكون في نباهة وعدم الغفلة عنها، لأن الغفلة ضلالة، ومن فساد الحس، ويكون على استعداد دائم للمحاسبة اليومية في أية ساعة كقوله(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)الحشر/١٨، وعن النبي(ص)(حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتجهّزوا للعرض الأكبر)البحار٧٠ ص٧٣ (**وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا**)وما تخرج أية ثمرة من قشرتها وغلافها ووعائها قبل أن تنشق من الثمرة، من أية شجرة من الأشجار البرية والحضرية على كثرتها وما يتعلق بها إلاّ وهو سبحانه يعلمها ويرعاها تفصيلياً(**وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ**)من أية أنثى من بني آدم وغيرهم من الحيوانات لا تحمل جنينها في بطنها، ولا تلده إلاّ بعلمه كقوله (عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)سبأ/٣، وذلك دليل على توحيد الله في تدبير الكون كله، **ولعلّ ذكر الجمل الثلاثة بعد ذكر الساعة**، كونها وسيلة استدلال على قدرة الله على البعث والنشور وإحياء الموتى بعد فنائهم، فكما يردّ إليه علم الساعة، كذلك يردّ علم جميع الحوادث من جميع الكائنات من ثمار النباتات، وكل حمل من أنثى وولادته من إنسان وحيوان، وكونه ذكراً أو أنثى.. وغيرها (**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ**)واذكر يا مُحَمَّد يوم ينادي الله المشركين توبيخاً وإظهاراً لكذبهم وضلالهم(**أَيْنَ شُرَكَائِي**)أين من كنتم تزعمون أنهم شركائي في الربوبية؟ فعبدتموهم من دون الله مع العناد والإصرار، وهذا تقريع لهم واستهزاء بهم، وفي هذا اليوم لا يجدي فيه جدال ولا تحريف للكلام، فماذا هم قائلون؟ (**قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ**)قالوا:

أعلمناك وأخبرناك يارب بالحقيقة وأنت تعلمها، وما منا اليوم من يشهد بأن لك شريكاً، وما منا من يشاهد ويرى أثراً للشركاء كقوله (**وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ**) الأنعام/٢٣، فالله سبحانه لم ينف هو الشركاء، بل سألهم عنهم لينفوهم هم، ولكن يقرون بذلك بعد فوات الأوان، ٤٨- (**وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ**)وغاب عنهم ما كانوا يعبدون (من دون الله) في الدنيا، وتاهوا عنهم ولا أثر لهم (**وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ**)من مهرب ومفر، أي وأيقنوا أنه ليس لهم من مهرب ولا خلاص من عذاب ربهم، عندما ينكشف الغطاء غداً للمجرمين كقوله(لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)ق/٢٢، وتلك المحنة الكبرى أن ينسى الإنسان ماضيه كله، فلا يذكر إلاّ ما هو فيه ومُعاني منه! كقوله (أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) المجادلة/٦.

٤٩ -﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾

الآية كناية بلاغية فنية مؤثرة عن الناس الماديين، فهم لا يملكون الروح العالية التي تؤهلهم إلى تجاوز حدود المادة إلى ما ورائها من عالم القيم المعنوية عالية المضامين، في عالم الغيب الفسيح، ولا يدخل نور الهداية إلى قلوبهم لأنهم يتجاهلون الإسلام، ولم يعقلوا الدين عن عقل ودراية ورعاية ووعاية، فأساؤوا الظن به، في غرر الحكم (**المصيبة بالدين أعظم المصائب**)، وهنا يتبين أن دين الله واحد، وهو ضرورة في حياة الإنسان، فلا حياة إلاّ بالدين الذي يريده الله، ولا هدر للعمر واستهلاك الحياة إلاّ في غيره، إنه رسم دقيق صادق عميق للنفس البشرية الشاردة عن الله، التي تستغرق في النعم وتنسى المنعم، **وكأن كاميرة التصوير والتشخيص القرآني تغوص في أعماق النفس البشرية وتكشف أسرارها**، ويتم تصوير النفس المضطربة التي لا تهتدي بهدى الله، ولا تستقيم على منهج الله، رسم دقيق يصوّر تقلبها وقلقها وضعفها وتذبذبها ونفاقها وضياعها، وجحودها للنعمة، واغترارها بالسرّاء، وجزعها عند الضرّاء.

المعنى: (**لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ**)الآية تركّز الأضواء على طبيعة هذا الإنسان الطموح في حب الدنيا، لا يمل من طلب الخير بأنواعه، فهو مولع في طلبه، والسعي وراء كل نعمة وتجارة وصناعة وزراعة.. إلخ ولا يمل في طلبها أبداً، وقلبه متعلق بالخير وزيادته لنفسه، ولا يمل الطلب وتكراره، عن النبي(ص)(**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى لهما ثالثاً**) المراغي٢٥ ص٧، هذا الإنسان الطمّاع لا يتعب ولا يشبع ولا يقنع مهما آتاه الله من نعم الدنيا الكثيرة، ويطمح نحو المزيد من أموال وثراء ومناصب وجاه وصحة وأولاد.. إلخ ويبالغ في الطلب بلا كلل ولا ملل وكأنما الدنيا دائمة له(**وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ**)مجرد مس، شيء من العسر والضيق كالفقر والمرض والشدة.. إلخ (**فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ**)فكثير اليأس من رحمة الله، سريع القنوط،

ويظن بالله ظن السوء، ويفقد صوابه وتنهار أعصابه، وفقد الأمل وأساء العمل، وظن أنه لا مخرج ولا فرج مما وقع فيه، وهو الذي سيقضي عليه بالهلاك، وتقطعت به أسباب النجاة، ذلك أن ثقته بربه قليلة، وروابط الاتصال به ضعيفة، أما الإسلام فعلّمنا القناعة أنها كنز لا يفنى، ولكن يحفّزنا السعي والطموح نحو حياة أفضل، كقوله(**إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً،إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً،وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً،إِلَّا الْمُصَلِّينَ**)المعارج/١٩-٢٢.

هنا يمتنع عن فعل الخير، ويمنع غيره أن يفعله، نتيجة حبه لذاته واحتقاره لذات الآخرين، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم إن أصابهم الخير شكروا الله، ويحذروا أن يكون هذا الخير وهذه النعم استدراجاً وإمهالاً، وإن أصابتهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا و(قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)البقرة/١٥٦، **روي**: أن الله لما خلق الدنيا قال لها(**يا دنيا: من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه**)روح البيان٣/٧٣، عن النبي (ص) (يا ابن آدم: إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك، فأيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت تريد ما لا يكفيك، فكل ما فيها لا يكفيك)! نور الثقلين٥/٦٦٠ **يقال: في المحن منح من الله**، وفي المكاره مكارم، وفي المشقّات خبرات وراحات، وفي المعانات هبات، وفي العقوبات يقضات الضمير، وفي البلايا بدايات نهاياتها الكرامات، عن الإمام الحسن العسكري(ع)(ما من بلية إلاّ ولله فيها نعمة تحيط بها)! البحار٧٨/٣٧٤.

فائدة: (فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ)الفرق بين اليأس والقنوط، اليأس: يبالغ في قطع الرجاء من فضل الله ورحمته، **والقنوط**: يأس مفرط يظهر أثره في تصرفات الشخص فيتضاءل وينكسر، فيكون القنوط يأس مضاعف ومتنامي، وهو أشدّ من اليأس كقوله(إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) يوسف/٨٧

٥٠ –﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

تصف الآية حالة أخرى للإنسان الكافر، فيها التعالي والغرور والكبرياء على الله وعلى الناس كقوله(سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا)الأعراف/١٤٦ **المعنى: (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا)**وأقسم لئن رزقناه خيراً وعافيةً وغنىً، رحمة قليلة منا لا يستحقّها، وسمّى النعمة رحمة، إذ هي من آثار رحمة الله، **(مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ)**بعد أن عانى من الشر الذي أصابه، بأن عافاه الله من مرضه، أو أغناه من فقره، استخفّته النعمة ونسي شكر المنعم، واستطاره الرخاء كقوله(**إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**)العاديات/٦ **لكنود**: كثير الكفر والجحود لنعم ربه، وينكر جزيل فضله ويغتر بنفسه (ولم يتعلم التربية الإيمانية) **(لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي)** فاللام للاستحقاق، **ويقول**: هذا حق لازم لي، ولا فضل لأحد عليّ، وأنا أهل له

ومستحقّه، أنا ملكته بعلمي وعملي وخبرتي وتجربتي، وسيدوم لي، لأني أملك كل المؤهلات والكفاءات لهذا الغنى والرفاه، والخير الكثير الذي أنا فيه، وليس لله فيه شيء، وليس لأحد أن يحاسبني على أن أنفق زكاة مالي للفقراء، **وقول قارون (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي)** القصص/٧٨، والذي يكون بهذا المستوى من الإعجاب بنفسه والغرور بها إلاّ من كان طاغية كافراً باليوم الآخر كقوله(قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا،وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا)الكهف/٣٥-٣٦، إنه اشتغل بالنعمة عن المنعم، وجهل أن الله تعالى أعطاه وكفاه ليبلوه أيشكر أم يكفر!

وفي ذلك إشارة إلى أن الثراء الزائد قد يؤدي بالمرء إلى إنكار البعث والنشور والجزاء **(وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي)**على فرض صحة ما يزعمه الأنبياء، أن هناك نشراً وحشراً، فمكانتي مضمونة عند ربي**(إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ)** وتكون حالتي أفضل مما كان عندي في الدنيا، لأن العظيم يكون عظيماً في كل أحواله، وأينما كان ويكون، وإذا لم يكن لهذا المغرور الكفور إلاّ هذه الغطرسة والقباحة، لكفى بها جرماً كي يطلق العنان لشهواته كقوله(بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ،يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) القيامة٥-٦، وهكذا ينتقل به الغرور من وهم إلى وهم، ومن خداع إلى خداع حتى يرد موارد الهلكة! كقوله:

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)الانفطار/٦ في غرر الحكم(فوالله لقد ستر حتى كأنه غفر)والله لقد أمهل حتى كأنه أهمل، والله لقد أنذر حتى كأنه أعذر! **(فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا)** فأقسم لنخبرن الذين كفروا بقبائح ما عملوا ومساوئ ما قالوا، وكل الشواهد والمقاصد محفوظة في علم الله، وعليها يكون الحساب والجزاء، كقوله (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) الأنعام/١٤٩، وجاء التهديد في موضعه لهذا المغرور المعجب بنفسه، هو العذاب الغليظ الشديد الذي لا رحمة فيه**(وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)**وأقسم لنسلط عليهم من عذاب شديد متنوّع في الكيفية والكمية، وكأن العذاب لغلظته وشدته يحيط بهم من جميع جهاتهم، هذا القصاص الشديد يتناسب مع هؤلاء الطغاة العتاة القساة، الذين اغتروا بأموالهم، فلم يرحموا أنفسهم ولم يرحموا الناس، فجاء العقاب من جنس العمل، الذي يكافئ أفعالهم الإجرامية مع الإهانة والإذلال.

٥١-﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾

إن الله تعالى خالق الإنسان، هو الذي يصفه بدقة، ويعرف دروب نفسه، وتقلّب أهوائه وتذبذب أحواله، إلاّ أن يهتدي إلى صراط الله المستقيم، عندئذٍ تستقيم نفسه، ويطمئن قلبه كقوله (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)الرعد/٢٨، تعرض الآية صورة واقعية من صور الإنسان الضال وحالاته المتغيّرة مع تغيّر أوضاعه وظروفه، هذا الإنسان الذي لا تأثير للدين عليه، وهو

بأمس الحاجة إليه **المعنى:** (**وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ**)بالنعم المتنوعة المادية والمعنوية، كالصحة والرزق والغنى والذكاء والمواهب والجاه والمنصب.. إلخ أبطرته النعمة، وأعرض عن الشكر، وشمخ بأنفه تكبراً وترفعاً(**أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ**)كناية بلاغية دقيقة عن تعاظمه وغروره كقوله (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ،أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ)العلق/٦-٧، فإنه وقع في فخ الاستدراج كقوله (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)الأعراف/١٨٢، **في نهج البلاغة حكم٢٥** (إذا رأيت ربك سبحانه يتابع عليك نعمه وأنت تعصيه فاحذره) والابتلاء بالنعمة أشد من الابتلاء بالفقر، هذا الإنسان إذا أنعم الله عليه، استعظم النعمة ونسي المنعم، وطغى وبغى واعتدى و(**أعرض ونأى بجانبه**) أي ترفّع واستكبر وتجاوز الحدود والآداب مع ربه ومع الناس(**وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرّ**) مجرد مس أي شيئاً قليلاً من الشدائد والفقر أو المرض أو العاهة أو الضعف.. إلخ فيتصاغر ويتخاذل ويتهاوى ويتضرّع وينقطع، (**فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ**)تحّول إلى إنسان كثير الدعاء ليكشف الله عنه ذلك البلاء، فهو يذكر ربه في البلاء وينساه في الرخاء! كقوله (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا) يونس/١٢.

في نهج البلاغة:

(إن أصابه بلاء دعا مضطراً، وإن ناله رخاء أعرض مغتراً.. إن استغنى بطر وفتن، وإن افتقر قنط ووهن) **إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات،** فهم خير البرية، الذين يثبتون على صراط الله المستقيم، ولا ينافقون، وهذا يبيّن ضرورة دين الله الأصيل في حياة الإنسان لتستقر نفسه ويطمئن قلبه كقوله(أَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ) الأنعام/١٥٣، عن الإمام علي(ع)(**لا حياة إلاّ في الدين**)البحار٤١٨/٧٧. **فائدة:** ١-قال(**دُعَاءٍ عَرِيضٍ**) ولم يقل (طويل) لأن العريض أبلغ وأدق، وأشمل، وليس المراد بالعرض ضد الطول، وإنما المراد به التشبث بسبل النجاة، والدعاء من أهم سبل النجاة، عن النبي (ص) (إدفعوا أبواب البلاء بالدعاء) البحار٢٨٨/٩٣، وصف الدعاء بالعرض لأنه استعارة بلاغية لسعة الدعاء وكثرته،كقوله (**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**) النمل/٦٢، وقوله (وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ) آل عمران/١٣٣، رب ارحم لمن لا يملك إلاّ الدعاء، ٢-قوله (**دعاء عريض**) وقوله (**عَذَابٍ غَلِيظٍ**)في الآية/٥٠ استعير العرض لكثرة الدعاء، كما استعير الغلظ لشدة العذاب. الرازي١٣٧/٢٧.

٥٢-﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾

الآية رد على تلك الأماني الباطلة التي يعيش فيها أهل الضلال والفساد، **المعنى:** (**قُلْ أَرَأَيْتُمْ**) أخبروني، لأن الرؤية سبب للإخبار، واحكموا بإنصاف أنتم أيها المشركون: (**إِن كَانَ**

مِنْ عِندِ اللَّهِ) يسألهم ماذا أنتم صانعون إن كان القرآن من عند الله حقاً وصدقاً ومن غير شك، كما أقول وأنتم تكذبون به(**ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ**)وجحدتموه تكبراً وعناداً، من غير تأمل ولا تفكّر، كيف يكون حالكم ومآلكم، والمصير الذي ينتظركم؟! وأنتم تنكرون الحقيقة الكبرى المهمة، التي بعدها الخسران، وتبقى الحقيقة هي الحقيقة تفرض نفسها، وإن أنكرها المنكرون! ألا ترحمون أنفسكم، وتحتاطون لهذا الأمر لتكسبوا النجاة وتتوقّوا من عذاب النار؟! فإن الاحتياط سبيل النجاة، لمن كان عنده عقل يفكر كقوله (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ) ق/٣٧، **في غرر الحكم (العقل رسول الحق) (مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ)** الاستفهام للتعجب، والإنكار بمعنى النفي، أي لا أحد أضلّ منكم وأنتم(**فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**)في خلاف شديد للحق الثابت الواضح، والخلاف في البديهيات من أشكل المشكلات، وفي حالة مكابرة وعناد كقوله(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)يونس/٣٩، فهل هناك ضلال أكثر من هذا؟! طبعاً لا أحد أضل ممن ترك القرآن وأقبل على الشيطان، وزرع الشقاق والنفاق والخلاف بين الناس، وشر الناس من آذى الناس كقوله(**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ**) يونس/٣٢.

عن الإمام علي(ع)(إنّ من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى تضره الضلالة)شرح النهج٢/٩١، **في نهج البلاغة خطبة ١٥٤** (العامل بغير علم كالسائر على غير الطريق الصحيح، لا تزيده سرعة السير إلاّ بُعداً عن الصواب)

٥٣-﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

مقدمة: يخبرنا القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة التي ظاهرها أنيق رقيق جذاب، وباطنها عميق دقيق منساب، إنه وعد الله الصادق(**كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً**)المزمل/١٨، وعده لعباده ممتد على مرور الزمان وتطوّر الإنسان والعلم الحديث، يخبرنا القرآن الكريم، كتاب التدوين الإعجازي المحفوظ، عن كتاب التكوين العظيم، فالوجود قرآن الله الكبير، كتاب في آفاقه الكونية المدهشة العليا(**وَفِي أَنفُسِهِمْ**)وفي عجائب خلقها، وغرائب حياة أرواحكم، وعظمة صناعة أجسامكم، وعدهم أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون الواسع، ومن خفايا أنفسهم كقوله(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)التين/٤، وفي أعقد تركيب، وفي أتقن صنع، وكرّمه أفضل تكريم، فعليه أن يكرم نفسه ويعرف قدرها.

في غرر الحكم(رحم الله امرأً عرف قدر نفسه)ومن لم يعرف قدره، لم يعرف قدر الناس، في غرر الحكم (رحم الله امرأً عرف قدره، ولم يتعدّ طوره) كقوله(هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ)لقمان/١١، **في غرر الحكم(من عرف نفسه فقد عرف ربه)** كيف يعرف ربه من يجهل نفسه؟! (**حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**)مع الله في هذا الدين القيّم، وفي هذا القرآن الكريم، وفي

هذا المنهج المستقيم، وفي هذه الحقيقة الكبرى في الكون والكائنات، نعم صدق الله وعده، فقد عرف الإنسان حتى الآن الشيء الكثير عن نفسه، ولكنه عرف قليل جداً بالنسبة إلى أسرار الكون والحياة، فقد عرف شيئاً وغابت عنه أشياء كثيرة، وكل الذي اكتشفه العلم الحديث كان مطابقاً للقرآن، لذلك **كتب مجموعة من العلماء كتبٌ كثيرة حول القرآن والعلم الحديث**، وقد أعلن عدد من العلماء الباحثين الأجانب اعتناقهم للإسلام، بعد أن اطّلعوا على بعض آيات القرآن العلمية. عن النبي(ص)(**القرآن مأدبة الله، فتعلّموا من مأدبته ما استطعتم**) البحار٩٢ ص١٩، فالذي يبدأ الخلق بهذا التنظيم الدقيق، لابد أن ينتهي به إلى تنظيم عميق آخر، فإن ابتداء الخلق مرتبط عضوياً بانتهائه، ومرتبط أساسياً ببقائه وخلوده،في حلقة متصلة متسلسلة بعضها ببعض كقوله(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ) الأنبياء/١٠٤، **وفي شرح نهج البلاغة ٨٩/١٦** (إنك خلقت للآخرة لا للدنيا، وللبقاء لا للفناء، وللحياة لا للموت)وفي ذلك دلالة قاطعة على وحدة الخالق، والإيمان بتوحيده، فهو المدبّر المهيمن على كل الكون والكائنات (**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**)الحشر/٢.

المعنى: (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ**)سنطلعهم على تلك الآيات الكثيرة، والحجج الكبيرة، والدلائل القاطعة على توحيد الله زماناً بزمان، وكشفاً بعد كشف، (**سَنُرِيهِمْ**) السين للمستقبل المستمر، والزمن المفتوح (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا**)مائدة علمية مفتوحة غنية وعامة، لكل من يتفكّر ويبحث البحوث العلمية في آفاق السماوات العلى وفي الأرضين السفلى (**وَفِي أَنفُسِهِمْ**)وما فيها من إتقان الصنعة، والحكمة في التدبير والتقدير كقوله(وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) الذاريات/٢١.

(**حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**)حتى يتبيّن لهم من تلك الآيات المتنوعة العلمية القطعية التي لا تقبل الشك، إن الله هو الحق المبين، وإن القرآن كتابه الحكيم، **والحق**: هو القيمة العليا الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحوّل ولا تزول، والحياة قامت على **الحق** الثابت في ذاته والمثبت لغيره، **والحق** أحق أن يتبع ، **والحق**: هو الغاية المثلى التي يريد القرآن تقريرها، **والحق** واضح والذي لا يلتبس به باطل، والحق أقوى نصير وأفضل ظهير، **والحق** لا يتجزّأ ولا يتعدد، فهو وحدة واحدة موحّدة متّحدة كقوله(ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ) الحج/٦٢، وحتى يحقق الله وعده **الحق** الذي سيكون في وقته المناسب كقوله(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)النور/٥٥، وقوله(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)التوبة/٣٣، وقوله(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ)الأنبياء/١٠٥ هو سبحانه الذي أعطى وعده المفعول، عن علم مطابق للواقع، وعن شهود تؤكد حقيقة هذا الواقع(**أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ**

شَهِيدٌ) الاستفهام تقريري، أي أن الكفّار وإن أنكروا نبوتك يا مُحَّد، لكنه سبحانه كافٍ لك في كونه شاهداً على صدقك، وعلى القرآن من عند الله سبحانه، ويشهد على كل شيء، **شهيد:** بمعنى الشاهد والحاضر والقاضي والحاكم والعالم والمنفّذ، وهو خير الشاهدين، ولا توجد شهادة أفضل منها، وشهادة الله لا تحتاج إلى شاهد من غيره يدل عليه، كما في دعاء الإمام الحسين(ع)في يوم عرفة (**إلهي: عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً)** مفاتيح الجنان ص٤٠٠ وقد أودع الله سبحانه في كل شيء له آية ظاهرة، تدل على أنه إله واحد، كقوله (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ)الأنعام/١٩.

٥٤ -﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾

(أَلَا)أداة تأكيد وتنبيه السامع إلى أهمية ما يقال، أي **(أَلَا)** فانتبهوا أيها القوم، وأصغوا إلى ما يُقال، ولا تغفلوا عن هذه الحقيقة، إن الله تعالى قد أحاط علمه بكم، وبكل الأشياء جملة وتفصيلاً **المعنى: (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ) مرية:** شك، إن القوم في شك من يوم القيامة، وهم الذين يشكّون في كل حق، وإن قام عليه كل دليل ودليل كقوله(إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ)النجم/٢٣ ولهذا لا يتفكرون ولا يؤمنون، من احتار شك، وأن الشك ثمرة الجهل، والشك يطفئ نور الإيمان في القلوب، ومن شك في المعاد إلى يوم القيامة، تلك الحقيقة الكبرى، فقد ضيّع أمره ونسى نفسه، وخسر عاقبته **في غرر الحكم (من كثر شكّه فسد دينه)** إنهم لم يعملوا شيئاً لهذا اللقاء، ولم يستعدّوا له فأنكروه، ومن أنكر الحقيقة وقع في الخيال والضلال والضياع والتيه، كقوله **(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ)**النور/٣٩، كقوله (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا) الإسراء/٢٢ والذي يشك في لقاء الله، فهو يشك في وجود الله، ويشك في عالم الغيب، ويشك في الحقائق الكبرى، ويشك في نفسه، ويشك في البديهيات، فيقع في أشكل المشكلات، عن الإمام علي(ع)(لا ترتابوا فتشكّوا، ولا تشكّوا فتكفروا، ولا ترخصوا لأنفسكم فتدهنوا)البحار٢ ص٥٤، فالحياة لغز مبهم لا يفسره إلاّ الإيمان باليوم الآخر كقوله(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)الزمر/١٥، عن النبي(ص)**(الخاسر: من غفل عن إصلاح المعاد)**تنبيه الخواطر ص٣٥٩، **في غرر الحكم**(من أفنى عمره في غير ما ينجيه فقد أضاع مطلبه) **المرية:** شك عميق، وشبهة شديدة، **والمراء: هو الجدال المذموم**، لأنه لا يهدف الوصول إلى معرفة الحقيقة،وإنما للجدال العقيم الفارغ، الذي يريد كل واحد أن ينتصر لنفسه كقوله**(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۙ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ)**غافر/٥٥، عن الإمام علي (ع) (من كثر نزاعه بالجهل، دام عماه عن الحق)الكاشف٦/٤٧٠، عن النبي(ص)(ما ضل قوم بعد أن هداهم الله إلاّ أوتوا الجدال)نهج الفصاحة الحديث ٢٦٤٨، وقد هددهم الله بقوله **(أَلَا**

إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ)الله تعالى محيط بكل شيء، إحاطة علم ورحمة وقدرة، ولا تخفى عليه خافية كقوله (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا)غافر/٧، ومستوعب كل شيء من جميع جوانبه، ولا يغيب عن علمه شيء، ولا مثقال ذرة لا في السماوات ولا في الأرض. **فائدة:** تشير الآية بأن من لا يؤمن بلقاء الله، فسوف يلاقيه شاء أم أبى كقوله(**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**) الانشقاق/٦، فعليك أن تعدّ لهذا اللقاء عدّته المناسبة، لكرامتك التي كرمك الله بها، وإلاّ فتأخذك الآلهة المتعددة كقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣

وآخر دعوانا (**أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) يونس/١٠ تم بعون الله تعالى (**وعي القرآن الميُسَّر**) **لسورة فصلت**، بقدري لا بقدرها، بجهد متواصل فللّه الحمد والمنة، وبالحمد تتم الصالحات، وتزداد البركات، وتدفع النقمات بتاريخ ٢٠٢١/٨/٧م الموافق ٢٧/ذي الحجة/١٤٤٢هـ مع تصحيحها عدة مرات وتدقيقها، في بغداد، الكاظمية، داعين الله عزوجل أن يعيننا على تكملة بقية السوّر القرآنية الكريمة، إنّ ربي سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث: مكي قاسم البغدادي

سُورَةُ الشُّورَى

ترتيبها ٤٢ — آياتها ٥٣

من مقاصد السورة:

مكية، موضوعها نفس موضوع السور المكية، التي تعالج أمور العقيدة، والتوحيد والرسالة والنبوة والبعث والجزاء. تبتدأ السورة بتقرير مصدر الوحي، وأن الله هو الذي أنزل الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي اصطفى لرسالته من شاء من عباده، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وتعرض السورة لحالة بعض المشركين، ونسبتهم لله الذرية والولد، حتى إن السماوات ليكدن يتفطرن من هول تلك المقالة الشنيعة، **وتقرر السورة أن دين الله واحد، لا يتجزأ ولا يتعدد، لجميع المرسلين**، وإن اختلفت بعض الشرائع، والأحكام إلاّ أن دينهم واحد، وهو (**الإسلام**) كقوله(**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا**) الآية/١٣، وتتحدث السورة عن المكذبين بالقرآن، والمنكرين للبعث وتنذرهم بالعذاب، وتتحدث السورة عن دلائل الإيمان في هذا العالم المنظور، وتدعو الناس للإيمان والتسليم لحكم الله قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العصيب(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ)الآية/٤٧، وتختتم السورة بالحديث عن الوحي وعن القرآن، كما بدأت به في مطلع السورة، **سميت(سورة الشورى)** لمكانة الشورى والتشاور في الإسلام، لما له من أثر عظيم في حياة الفرد والمجتمع(وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ

بَيْنَهُمْ)الآية/٣٨ (**فضلها**)عن النبي(ص)(من قرأ سورة حم عسق (الشورى)كان ممن يصلي عليه الملائكة، ويستغفرون له ويسترحمون)مجمع البيان٩/٣٥.

ملاحظة: هذا الفضل بشرطه وشروطه، والاستقامة على منهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١-٢-﴿حمٓ، عٓسٓقٓ﴾

(من الآيات المتشابهة) وتقدم في أول سورة البقرة وسورة غافر، من الأحرف المقطعة، تقرأ حا، ميم، عين، سين، قاف، هذه من سور الحواميم السبعة التي تبدأ بـ (**حم**) وهي سور متسلسلة في المصحف الشريف، وهي غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، إنها إشارة إلى إعجاز القرآن، حيث أنه مؤلف من جنس هذه الأحرف العربية، التي يستخدمها البشر، ومع ذلك هم عاجزون عن الاتيان بمثله أو بعضه في بلاغته وفصاحته وأحكامه ودقة علومه، **وقيل**: إن أحد الأهداف لهذه الحروف، جلب انتباه المستمعين ودعوتهم إلى السكوت والإصغاء، لأن وجود مطلع هذه الحروف في مطلع الكلام لم يسبق له مثيل في كلام العرب.

٣-﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

الله عز وجل بحكمته بعث الأنبياء بالحق إلى الخلق، وجعلهم حجة له على عباده، لئلا تجب حجة الناس على الله كقوله(رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)النساء/١٦٥، **المعنى**: (**كَذَٰلِكَ**)على هذا النسق، وبهذه الكيفية، (**يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ**) يوحي الله تعالى إليك، وإلى الأنبياء والرسل الذين من قبلك لهداية الناس، إلى سعادة الدنيا والآخرة، يوحي الله إليك منهجاً حضارياً ثابت الأصول مع تعدد الفروع، يوحي إليك على مدار الزمان، فيكون الوحي واحداً، والمرسل واحداً، والرسالة واحدة وهي (الإسلام) والأهداف واحدة هي (**التقوى**)، والغاية واحدة هي (**رضى الله**) إنها رسالة قيمة واحدة متّحدة موحّدة على اختلاف الرسل، واختلاف الزمان والمكان والظروف، **هي الحقيقة الكبرى حين تستقر في ضمائر المؤمنين، تشعرهم بأصالة ما هم عليه وثباته**، وقوة دلالاته ووحدة مصدره، وجمال طريقته، تشدّهم إلى التعلّق بهذا المنهج الحضاري التكاملي، كما تشعرهم بالقرابة بينهم وبين المؤمنين في كل زمان ومكان مع تعاقب الأجيال.

فهذه أسرتهم لها عمق في بطون التاريخ، وتتصل كلها بالله في النهاية، ويلتقون جميعاً في رحاب منهجه القيم الموحّد، فلا تنحرفوا عن هذا المنهج المنقذ الهادي الثابت، إلى السبل المتفرقة

والمضللة لا تستقيم على اتجاه قويم، وجاءت **(يُوحِي)** بالمضارع للدلالة على استمرار نزول الوحي، واستمرار إلقاء الحجة على الناس كقوله(إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ)الأعلى/١٨-١٩، **الوحي**: بمعنى إعلام المتكلم للسامع بطريقة فنيّة خفيّة عن طريق الإلهام، كما هو إعلام من الله للرسول الذي يرسله كقوله(وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) البقرة/١٥١، **أنواع الوحي في القرآن**: يوحي للملائكة (الأنفال/١٢) ويوحي إلى الرسل (النساء/١٦٣) ويوحي للحواريين (المائدة/١١١) ويوحي إلى أم موسى(القصص/٧) ويوحي إلى النحل (النحل/٦٨) ويوحي إلى الأرض (الزلزلة/٥) ويوحي إلى الشياطين كقوله(يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) الأنعام/١١٢، وقوله(إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) الأنعام/١٢١، راجع حديث عن الإمام علي(ع)أنواع الوحي في القرآن الآية٦٨/النحل **(الْعَزِيزُ)** الذي أوحى الله بهذا التكليف الذي هو لصالحنا، عزيز علينا، وعزيز عن خلقه، ولا يحتاج لنا، لأنه قوي قادر غالب غير مغلوب في ما يريد **(الْحَكِيمُ)** وتكليفه لنا بحكمة بالغة لصالحنا، يوحي لمن يشاء، وكيف يشاء وفق حكمة وتدبير وتقدير.

٤ -﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

كثيراً ما يُخدع البشر فيحسبون أنهم يملكون، وينتفعون بما يملكون، ويستخدمونها فيما يشاؤون، ولكن هذا ليس ملكاً حقيقياً دائماً، وإنما هو ملك اعتباري مؤقّت خاضع للامتحان الإلهي، إنما الملك الحقيقي الثابت لله تعالى الذي يحكم طبائع الأشياء كقوله(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)الزمر/٦٢، **المعنى**:(**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**)الله تعالى وحده خالقهما ومبدعهما الحقيقي، ومالكهما ومدبرهما والمتصرّف فيهما حيث يشاء **(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)** **العلي**: المتعال ومالك العلو والعظمة على وجه التفرّد كقوله(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)الأنعام/١٨ **(الْعَظِيمُ)** الشأن بقدرته وقيمومته، وله صفات الكمال والجمال والجلال. **ومتى استقرت هذه الحقيقة الكبرى في ضمير المؤمنين**، عندئذ ترتسم لهم خارطة الطريق، ويعرف الناس إلى أين يتجهون بصدق وأمان كقوله(وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)آل عمران/١٠١، عن الإمام علي(ع)(رحَم الله أمراً عرف من أين، وفي أين، وإلى أين)

٥ -﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ)تقترب السماوات على فخامتها وجلالها، وما فيها من الخلائق العلوية الضخمة **(يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ)** يتصدعن ويتشققن من أعلاهن من خشية الله وعظمته وعلو مقامه، ومن جماله وكماله وجلاله، وإشفاقاً من انحراف بعض أهل الأرض وضلالهم عن سبيل الله، وفسادهم في البلاد والعباد، ونسيانهم لهذه العظمة الضخمة التي يحسّها ضمير هذا الكون

الكبير، فيرتعش وينتفض، ويكاد ينشق من أعلى مكان فيه! كقوله(لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ) الحشر/٢١ (**يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ**)كناية تشبيهية بلاغية فنية عن عظمة الحدث، كما نقول: كأنما انطبقت السماء على الأرض غضباً، بسبب شرك المشركين وادّعائهم أن لله ولداً. كقوله(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا، لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا، وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا)مريم/٨٨-٩٢ (**وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**)والملائكة ينزهون الله تعالى عن الشرك والولد ونفي المماثلة والمشابهة لأي مخلوق، ومستمرون في تسبيحهم لا يفترون، ويثنون عليه بجميل فعله، لما يحسّون من علو مقامه وعظمة ذاته، ولما يخشون من التقصير في حمده وطاعته(**يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**) **التسبيح**: تنزيه الله عن كل نقص، **والتحميد**: تعظيم الله والثناء عليه بكل كمال، وقدّم التسبيح على التحميد لأن التخلية مقدمة على التحلية(**وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ**)الآية عامة ويراد بها الخصوص كقوله(وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا)غافر/٧، الملائكة لا يستغفرون لأنفسهم، لأنهم ليس لهم ذنوب، ولا يستغفرون للكافرين والمشركين، وإنما يستغفرون للغافلين والجاهلين والعصاة.. يدعون لهم بالهداية والدراية والرحمة، ويشفق الملائكة من أية معصية تقع في الأرض، فيستغفرون ربهم لمن في الأرض، من المؤمنين من أهل التوحيد والخير والصلاح، ويطلبون الهداية لمن جحد وأشرك وانحرف، وخوفاً لأية معصية تقع في ملكه، واستدراراً لمغفرته ورحمته(**أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**) ألا: أداة تنبيه لذنب وقع طالبين مسامحته (**الرَّحِيمُ**)بهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وعصيانهم لعلهم يتوبوا، وهنا إشارة لطيفة شفافة إلى استجابة دعاء الملائكة الذين(**وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ**)إنه تعالى يضيف الرحمة إلى صفة الغفور مما يدل على عظيم فضله سبحانه.

٦-﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾

ليس في الكون غير الله وليٌ وناصرٌ ومعينٌ أما(**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ**)أرباباً وقادة وزعماء هم بحكم الأنداد لله يتبعونهم في كل شيء ويدبرون أمورهم، فهم شركاء لله في الربوبية والعبادة والطاعة، ولجأوا إليهم في كل حاجاتهم حتى خيّل إليهم أنهم يملكون الولاية القاهرة القادرة بشكل مستقل عن الله، فاستعاضوا بهم عن الله (**والذين لا ينفعهم الرحمن يضرهم الشيطان**) الكون كله مؤمن بربه، وهم وحدهم المنحرفون عن خط الاستقامة، كالنغمة النشاز في اللحن المتناسق! (**اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِم**) الله هو الرقيب عليهم والمراقب لأعمالهم وأقوالهم ومحصي كل أحوالهم، فلا يفوته شيء منها وهو مجازيهم عليها، فهم في قبضته وتحت سيطرته ضعاف صغار، فليس للنبي(ص)شأن بهم أو وكالة عليهم، وكأن الحفيظ عليهم عنده جهاز تصوير (كاميرة) خفية تصوّرهم على فلم مجسّم من ثلاثة أبعاد بالصورة والصوت والنية! كقوله (إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) الإسراء/٦٠ وقوله(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)الحديد/٤ (**وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم**

بِوَكِيلٍ)وما أنت على هدايتهم يا مُحَّد بكفيل، ولست بمسؤول عن إدخال الإيمان في قلوبهم قهراً، بل أنت بشير ونذير كقوله(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ) الرعد/٤٠.

٧-﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾

(**وَكَذَٰلِكَ**)مثل ما أوحينا إلى من تقدمك من الأنبياء الكرام بالكتب التي أنزلناها عليهم بلغة قومهم (**أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**) بلغتك ولغة قومك ليفقهوا ما فيه، وتلقى الحجة عليهم، إنها سنة الله الثابتة في الدعوات كقوله(رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥، عن الإمام الصادق(ع)(إنّ الله عز وجل احتجّ على الناس بما آتاهم وما عرّفهم) الكافي١/١٦٣، **المعنى**: (**وَكَذَٰلِكَ**)وعلى هذا النحو من الإيحاء الإعجازي البديع (**أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**)معجزاً، بلغة عربية بلاغية فنيّة فصيحة واضحة المعاني كقوله(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ)القمر/١٧، بلغتهم العربية المتداولة، لا لبسَ فيها ولا غموض كقوله (لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)فصلت/٤٢، **سؤال: لماذا قرآناً عربياً؟ الجواب**: لأن اللغة العربية تتسع لمعاني القرآن البلاغية الدقيقة أكثر من غيرها، ولأنها لغة رقيقة دقيقة وعميقة ومرنة وسهلة، وتستوعب مقاصد القرآن ، ومن هنا نعرف أن ترجمة القرآن لغير اللغة العربية صعبة، لأن أية لغة تضيّق معاني القرآن، ولا تعطيه حقه بالمعنى كاملاً، إلاّ إذا صارت الترجمة محلّقة ومدعومة بالمعاني مع الألفاظ، ويتبنّاها أهل الاختصاص والكفاءة والنزاهة في الترجمة (**قُرْآنًا عَرَبِيًّا**) **قرآن**: أي مقروء، أي تقرأه باللسان، وكتاب تراه بالعين، **ففيه كتابة وفيه قراءة**، الاثنان معاً.

(**قُرْآنًا عَرَبِيًّا**)بلغة العرب حتى يفهموه، وهم أهل البلاغة واللغة، ليؤدي بهم الغاية السامية المرسومة، وبعد ذلك يطلب منهم أن ينشروا الدعوة إلى اللغات الأخرى من بقية أمم العالم، عن طريق الترجمة الدقيقة لأهل الاختصاص، وتوصيل الإسلام الهادي لهم(**لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا**)**لتنذر، الانذار**: هو التخويف من أمر المستقبل قبل أن يقع ليحذر من الوقوع فيه (**أُمَّ الْقُرَىٰ**)أهل القرى وهي مكة، وسميت بهذا الاسم إجلالاً لها، وفيها أول بيت وضع للناس ليعبدوا الله فيه، وفيها مقام إبراهيم الخليل(ع) إنّ الله يختار العاصمة الرئيسة للبلاد لتبليغ الرسالة، لأنها المركز الحيوي المؤثر لتجمع الناس، وأثبت العلم الحديث أن مكة مركز العالم، وهي أصلح مكان لنشأة الإسلام يومئذٍ (**وَمَنْ حَوْلَهَا**)من أطرافها من القرى، ثم ينطلق هذا الإنذار إلى سائر الخلق في أرجاء العالم كما حدث بالفعل، كأية دعوة عامة تبتدئ حيث تولد، ثم تنطلق إلى سائر الأقطار، فيكون معنى (**وَمَنْ حَوْلَهَا**)مستوعبة للعالم كله من جميع الجهات، والتي تتضح عالميتها منذ أيامها الأولى، وهذه الرسائل التبليغية لرؤساء العالم تؤكد ذلك.

كقوله(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ) سبأ/٢٨، ولا يصلح أمر هذه الأمة إلاّ بما صلح به أولها، وبدأت الدعوة العلنية بالعشيرة، ثم توسّعت كقوله(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)الشعراء/٢١٤، والأقربون أولى بالمعروف، وقوله(إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) التكوير/٢٧، وقوله(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)الأنبياء/١٠٧ **(وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ)** وتخويفهم عاقبة تغافلهم عن **(يَوْمَ الْجَمْعِ)**يوم القيامة، كان الإنذار بيوم الجمع يوم الحشر الرهيب، يوم الجزاء المهيب، يوم اجتماع كافة الخلائق من أول الخلق إلى آخره على صعيد واحد للحساب كقوله(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ)التغابن/٩ وكان **(يَوْمَ الْجَمْعِ)**أكثر تكراراً وتأكيداً عليه في القرآن، ليستعدّ المؤمنون إليه، ولا يغفلوا عنه كقوله(قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ) الأنعام/٣١، وعن النبي (ص) **(الخاسر: من غفل عن إصلاح المعاد)**تنبيه الخواطر ص٣٥٩ **(لَا رَيْبَ فِيهِ)** لا شك من وقوعه، ولا محالة من حدوثه لتظاهر الأدلة على تحقيقه عقلاً ونقلاً، فتكون القيامة حقيقة واقعة مؤكدة، وهي مقدرة بمقدار منظّم ضمن المقاييس العامة المقدّرة كقوله(قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا) الطلاق/٣ فالحكمة قاضية بجزاء المحسن على إحسانه ومعاقبة المسيء على إساءته، ولما فيه من نصوص قاطعة على وجوده لا تحتمل تاويلاً ولا تفسيراً، وتبقى الحياة الدنيا لغز مبهم، لولا أن تحله الإيمان بيوم الجمع.

يقول الراغب في مفردات القرآن (فلو لم يكن للإنسان غاية ينتهي إليها، غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصباً وهمّاً وحزناً، ولا يكون بعدها حال مغبوطة، وحياة أخرى للجزاء، لكان أخسَّ البهائم أحسن حالاً من الإنسان)التفسير القرآني للقرآن١١/٩٤٩، ثم تفترق الناس فريقين **(فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ)**بطاعتهم، والجنة غاية الصالحين **(وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)** بمعصيتهم، والنار غاية المفسدين، عن الإمام علي (ع)(لا خير في لذّة من بعدها النار)تفسير النور٧/٢٠٣ عن الإمام الحسين(ع)في قوله(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) الإسراء/٧١، قال(إمام دعا إلى هدى فأجابوه إليه، وإمام دعا إلى ضلالة فأجابوه إليه، هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار)نور الثقلين٤/٥٥٨ .

٨- ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

تفرض الآية فرضاً محالاً، وفرض المحال ليس بمحال، فلو شاء الله للبشر خلقة أخرى توحّد سلوكهم، فتوحّد مصيرهم، بأن يجعل الهداية جزءاً من التكوين الذاتي لشخصيتهم، فيبدعها فيهم كما أبدع أعضاؤهم كقوله(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)يونس/٩٩، وقوله (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا)السجدة/١٣، ولكن الله سبحانه خلق الإنسان للخلافة في الأرض، وجعله مختاراً حراً غير مجبر، ويريد منا أن نأتيه مؤمنين مطيعين عن علم وحبّ لا عن قهر كقوله(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) البقرة/٢٥٦، فالله سبحانه يريد منا قلوباً تخشع لا قوالب تخضع، والله أثبت حبه لنا عندما جعل الخلق مختارين من الإنس والجن، **المعنى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)** ولو شاء الله لجعل

هذه البشرية بالإجبار والقسر والقهر، أمة واحدة مؤمنة، دينها واحد هو (**الإسلام**)ولكنه لم يفعل، لأنه منافٍ للتكليف والجزاء والحساب، والتكليف والجزاء والحساب يثبت مع الاختيار، لو كان الناس مسيّرين لا مخيّرين، فيكونوا كالملائكة ولكن الله تعالى يريد أن يأتيه عباده محبّين طاعته مختارين له كقوله(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)فصلت/٤٠ وقوله(وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) البلد/١٠ (**وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ**)ولكنه تعالى حكيم لا يفعل إلاّ مافيه المصلحة، فشاء أن يجعلهم مختارين مكرّمين، ليدخل خواص خلقه المؤمنين الصالحين المطيعين لله في رحمته كقوله(وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ)التوبة/٧١ (**وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ**) أما الظالمون لأنفسهم وللناس، الذين لا تليق بهم رحمة الله، وهم أهل الكفر والضلال والفساد كقوله(**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) البقرة/٢٥٤، ويترك الظالمين من دون ولي وقريب ومعين يدفع عنهم العذاب كقوله(فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) النحل/٣٦ (**وَلَا نَصِيرٍ**) ولا ناصر يشفع لهم ويساعدهم في شيء.

فائدة: ١- **الفرق بين ولي ونصير: ولي:** يقوم بمساعدة الإنسان وحمايته دون طلبه، أما **النصير**: الذي يأمر بدفعه عنه بعد الطلب، والولي أخصّ من النصير، والنصير أشمل وأعم من الولي، ٢-قال(**يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ**) ولم يقل (يدخل الظالمين في نقمته) لأن الذي يدخل الجنة بفضل الله ورحمته، ولكن الذي يدخل النار بظلمه لنفسه وللناس (وشر الناس من ضرّ الناس)عن النبي (ص) (بعثت داعياً ومبلغاً وليس إليّ من الهدى شيء، وخُلق ابليس مزيّناً وليس إليه من الضلالة شيء) كنز العمال خبر٥٤٦ .

٩-﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ)

الاستفهام إنكاري للنفي، أم اتخذوا من دون الله أنصار يوالونهم ويستعينون بهم بقصد الانتفاع منهم؟ والذي لا ينفعه الرحمن يصادقه الشيطان، قد ضلوا ضلالاً بعيداً، وخسروا خسراناً مبيناً كقوله(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) الحج/٧٣ (**فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ**) فإن أرادوا أولياء وأنصار وأعوان بالحق فالله وحده هو الولي والناصر للمؤمنين والمعين لهم بالحق ومجيب دعواتهم، ويجلب لهم الخيرات والمدافع عنهم كقوله (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا) الحج/٣٨، والله وحده المستحق للولاية، لأنه مالك كل شيء، ومالك النفع والضر، واستخدم (**هُوَ**) لتنبيه المؤمن أن هذه الولاية العامة هي خاصة لله المستحق لها المؤكدة له، لا يقدر عليها إلا هو كقوله(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)الشعراء/٧٨، فالهداية أكدها بلفظ (**هُوَ**) وهكذا بقية الآيات (**وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ**) ويحشرهم للحساب يوم القيامة ليجازيهم بأعمالهم، وأيضاً (**وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ**)أي يحي النفوس الهامدة والقلوب الميتة، ويميت النفوس الحية والقلوب اليقضة كقوله (وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا)المنافقون/١١ (**وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير**)فقدرته قدرة ذاتية فوق كل قدرة (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ)يوسف/٢١.

١٠ - ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

(**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ**)الخطاب عام لكل المسلمين، إن كل شيء يختلف الناس فيه في أمور دينهم ودنياهم بمعناهما العام، (**فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**)فمرجعه إلى كتاب الله وسنة نبيّه(ص) الموافقة للقرآن، فما حكما به فهو الحق، وما خالفهما فهو الباطل كقوله(فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)النساء/٥٩، عن النبي(ص)(إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)صحيح الترمذي٢/٣٠٨، يعني بهما الهداية، وبغيرهما احتمال الضلالة، **فهذا هو صمّام الأمان الذي يملك الحكم الفاصل بين الناس، وهو القادر على حلّ جميع الخلافات ومتمكن عليها**، وهو الدستور الهادي والمرجع المنقذ من حيرة الضلالة، والمخلّص من ظلمات الجهالة، لتقوم الحياة على أساسه، وبذلك تتوحد مسيرة الأمة وتخمد خلافاتها وتنهض حضارياً كقوله (**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ**)إبراهيم/٣٤ واستقرار هذه الحقيقة المهمة في ضمير المؤمن يوحّد طريقه ويطمئن قلبه، وتتوجّه إرادته على كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة ينهى القرآن عن الاختلاف في آيات كثيرة منها قوله(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)الأنعام/١٥٩ وقوله (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)الأنفال/٤٦ وقوله(كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)الروم/٣٢.

(**ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي**)ومدبر أمري، والذي يحكم بين المختلفين(**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**) أي وكلت أموري وفوضت مهماتي من أعماق قلبي، في كل ما أعجز عنه من أسباب أكله إلى ربي وخالقي، فهو ثقتي ومعتمدي ورجائي وهو على كل شيء قدير كقوله (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/١٨، فحين تنتهي الأسباب اللازم توفّرها، يبقى التوكل على الله هو الأمل، كقول موسى (إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ) الشعراء/٦٢، فعلى الإنسان أن يعمل ما عليه مع كامل الخبرة والاختصاص والتجربة كقوله (وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ)النجم/٣٩، وقوله(**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**)آل عمران/١٢٢، **في غرر الحكم**(على قدر الإيمان يكون التوكّل، حسن توكّل العبد على الله على قدر ثقته به)**في نهج البلاغة حكم٨١** (قيمة كل امرئٍ ما يحسنه) (**وإِلَيْهِ أُنِيبُ**)وإلى الله وحده أرجع في كل أموري الدينية والدنيوية، وكل ما يعرض عليّ من مشكلات ومعضلات. **فائدة:** ١- (**عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**) فعل ماض (**إِلَيْهِ أُنِيبُ**)فعل مضارع، لأن التوكّل عقيدة راسخة من البداية، أما الإنابة فتأتي في وقت الحدث، فتنيب وترجع إلى الله باستمرار، هذه من بلاغة القرآن الدقيقة، وفصاحته الأنيقة، والدقة اللغوية العالية، لأن القرآن كتاب الله تعالى. وهذان الأمران كثير ما يذكرهما القرآن، لأن بمجموعهما كمال العبد وجماله وجلاله، ويفوت كماله وجماله بفوتهما أو فوت أحدهما كقوله (**فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ**)هود/١٢٣، فلا بد أن يتحاكم الناس إلى الله عند خلافاتهم كقوله(أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) التين/٨، ٢-قال(**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**)ولم يقل(وما اتفقنا عليه فحكمه إلى الله) للدلالة إن

إجماع الأمة يكون على الصحيح الموافق للثقلين الكتاب والعترة، ٣-**معنى الاختلاف**: عدم التقاء الآراء، إما إن يكون للوصول إلى الحقيقة، وتعديل فكر خاطئ، وإما لجاجة وجدالاً مذموماً بدون فائدة، فهو مراء وجدل عقيم فارغ من العلم.

١١-﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

الله تعالى منزل ذلك القرآن ليكون حكمه الفصل فيما يختلفون، هو نفسه(**فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**)فاطر: خالق ومبدع وموجود من العدم على غير مثال سابق للكون بأرضه وسمائه، ومن حكمته بقاء هذه الحياة واستمرارها في الوجود إلى حدود الأجل المرسوم(**جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا**) جعل لكم أشكالاً وأصنافاً(**أَزْوَاجًا**)من جنسكم ونوعكم، مع كل ذكر أنثى يسكن إليها، كي تتعاطفوا وتتحاببوا وتتبادلوا المودة والرحمة لتكمل منافعكم وتسد حاجاتكم الكثيرة، فنظّم الله حياتكم منذ نشأتكم على أساسها لتستقر نفوسكم، والله أعلم ما ينفعها كقوله(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً)الروم/٢١، فجعلت الآية السكن النفسي وحسن المساكنة والمعاشرة الحسنة، مركز ثقل الآية(**لتسكنوا إليها**)ولهذا جاء بلام التعليل وعنصر التفضيل، **ليكون الزواج(ميزان دقيق متوازن: فمن وفّى، استوفى)!**

وجعل الله في الغريزة الجنسية لذة ومتعة، ليستدرج الإنسان باختياره إلى سد حاجته بالزواج المتكافئ والتناسل ليمتد في المجتمع بأولاده، والحفاظ على بقاء النوع، فالإنسان أخذها للمتعة، والحيوان أخذها للتناسل! **مما تلفت النظر**: قال تعالى في الإنسان(**مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا**) وقال في الحيوان(**وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا**)ولم يذكر من أنفسكم، للدلالة العلمية أن زواج الإنسان السعيد يخضع لوحدة النفس المشتركة بين الزوجين المتكافئين، حتى يحصل على وحدة السكن المتبادل والمتعادل بين الزوجين(**لتسكنوا إليها**)بينما زواج الحيوان لا يخضع للتكافؤ، ولا يشمله نظام وحدة النفس المشتركة بين الزوجين، وإنما يخضع للتناسل والتكاثر بين الذكر والأنثى، راجع للتفصيل كتابي السكن الزوجي المتكافئ في المنظور القرآني الفريد. بقلم الباحث مكي قاسم البغدادي. **قانون الزوجية العام**: لقد تفرّد الله تعالى بالتوحيد دون كل خلقه، الذي يجمعهم قانون الزوجية العام، الذي يشمل الإنسان والحيوان والطيور والحشرات والنباتات..إلخ.

كقوله (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الذاريات/٤٩ الزوجية ظاهرة في الأحياء، ولكن كلمة (شيء) تشمل غير الأحياء أيضاً! والتعبير القرآني الفريد يقرر أن الأشياء كالأحياء مخلوقة على أساس الزوجية العامة، أي أن الشيء الواحد ليس في حقيقته شيئاً واحداً، وإنما هو شيئان اجتمع بعضهما إلى بعض بالتزاوج فكان منهما هذا الشيء الجديد، وهذا دليل على أن الله الخالق وحده هو الذي خلق قانون الزوجية العام، وهو وحده الواحد الأحد الفرد

المتفرد الذي لا شريك له(**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**) فليس هناك من شيء يماثله ولا يشابهه، ثم قال(**يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ**) يكثركم وينشركم، من الذرء وهو البث والنشر والنسل والتكاثر، وفي هذا التدبير الحكيم يحفظ الموجودات والكائنات كلها، ليكمل الانتفاع بها(**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**) ليس لله مثيل ولا شبيه ولا نظير لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) التوحيد/٣-٤، لأنه لا شبيه له في المخلوقين، لأن في المخلوقين الضعف والعجز والحاجة والجهل والتغيير والموت والفناء، وفي هذه الصفات إبطال الربوبية، سبحان من لا يحد ولا يوصف ولا يمس، ولا له جسم ولا صورة، ولا حدود ولا قيود، ولا يقاس ولا تدركه العقول والحواس (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**) الكاف هنا لتأكيد النفي.

ويكون معنى التوحيد: إثبات ذاته العليا المثلى غير مشبهة بأية ذات، فليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم (الله) كقوله(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)مريم/٦٥ (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**)لأنه فوق كل شيء، وخالق كل شيء، تنزيهاً لله تعالى عن التشبيه، حيث أن المثل أقل، فلا تقل أن الله له مثل، لأن مثله الذي هو أدنى منه ليس له مثل، كأن الأسلوب يأتي(ليس مثله شيء) ولكنه أراد أن يؤكدها بشدة فقال(**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**)فنفي المثلية عن المثل، لتنتفي من باب أولى عن الأصل (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**)كناية بلاغية عن الذات المثلى، أي ليس كذاته شيء، وأن ذاته سبحانه لا يماثلها ذات أحد في هذا الوجود من جميع الوجوه، لأن الله سبحانه متفرد في صفاته وفي ذاته القدسية، لا يشاركه أحد في أي شيء، لأنه المطلق في كل شيء، وغير محدود في وجوده، فتكون ولاية الله على كل شيء ولاسيما على القلوب والأفكار. فالله تعالى هو الواحد لانفراده بالكمال والجمال والجلال من كل الوجوه(**وَهُوَ السَّمِيعُ**)لأقوالهم لما يسأله خلقه من الحوائج بلسان الحال أم بلسان المقال، فيقضي لكل بما يستحقه من الحاجة(**الْبَصِيرُ**)بأفعالهم وأعمالهم فيجازيهم عليها، (**وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**)إنها صفة لله وصفة للإنسان، فعلينا أن نفهمها على أساس (**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**) أي هو يحكم حكم السميع البصير.

١٢ - ﴿**لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾

(**لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**)**المقاليد**: المفاتيح، وهي كناية عن الخزائن المتنوعة، ومفاتيح الأرزاق وأسبابها، والحاجات وتطوراتها، والملكات وأسرارها، وقدرته عليها وحفظه لها، في أمور الكون والكائنات كلها في قبضته وفي تدبيره وتقديره، يأخذ منها مايريد، ويعطي المفتاح لمن يشاء من عباده، ولا يملك أحد معه من الأمر شيئاً، **ونقول**: فلان تولى مقاليد الحكم أي أصبحت خزانة الدولة بيده، وهو الحاكم المطاع كقوله(وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) الحجر/٢١ **سأل موسى ربه: هل تنفد خزائنك؟ فقال: خزائني(كن فيكون)**، وهناك من المقاليد المعنوية ما أودع الله تعالى في صدور أوليائه، من عجائب يقظة القلوب أن يكون فيها من خزائن رحمته ولطفه، فكل قلب مخزن لنوع من ألطافه سبحانه كقوله

(مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ)فاطر/٢ (**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ**)

يوسّع الرزق لمن يشاء من عباده لحكمة معينة مع الأخذ بالأسباب اللازمة (**وَيَقْدِرُ**) ويقتر ويضيق على من يشاء، ويجعل عنده ضروريات معيشته، بحسب السنن والقوانين التي وضعها بين عباده، واتخاذ الأسباب المتاحة في هذه الحياة كقوله(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) فاطر/٣ عن الإمام الحسن العسكري(ع): (**لا يشغلك رزق مضمون، عن عمل مفروض**) البحار٧٨/٣٨٤، والله أعلم بما يصلح خلقه، فلا ينظر إلى من أعطاه الله أكثر منه كقوله (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ)النساء/٣٢، الرزق متعلّق بالأجل، فأجل الإنسان محدود، فلا بد أن يكون رزقه متوفراً مع مدة أجله كقوله(وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا)المنافقون/١١ (**إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**)يعلم أحوال عباده، فيعطي كلاً ما يليق بحكمته، وتقتضيه مشيئته. فيجب أن يكون التوجه إليه وحده لا شريك له، (لو اطّلعتم على الغيب، لرضيتم بالواقع).

١٣ -﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

(**مقدمة**) إنّ الذي جاء به النبي مُحَمَّد(ص)برسالة الإسلام، هو امتداد لما جاء به أنبياء أولوا العزم (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى) وإنما خصّ سبحانه هؤلاء بالذكر، لأن لكل واحد منهم شريعة تتفق مع شريعة الآخرين(**بالتوحيد والنبوة والمعاد**) وبمبادئها وأحكامها، كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات، وتدعيم الأخلاق، ومعارضة الفساد والجهل، وتفترق واحدة عن الأخرى في بعض الفروع الاجتماعية والاقتصادية، التي تصلح لزمان دون زمان، ليس لأحد من خلق الله أن يشرّع غير ما شرعه الله، فالله وحده هو الذي يشرّع لعباده، **شريعة يحكمها نظام عادل محكم مرتبط بعلاقة مشتركة بين السنن الإنسانية والسنن الكونية**، وكل ما عدا تشريع الله قاصر عن تلك الإحاطة والرابطة، لقد شرّع الله للبشرية ما يعلم سبحانه أنه يتناسق مع فطرتها وطبيعتها ونظام الكون العام، وبذلك يتوحّد مصدر التشريع، ويكون الحكم لله وحده وهو خير الحاكمين، وما عدا هذا المنهج فهو خروج على شريعة الله، وعلى ما وصّى به الأنبياء، ويكون في ضلال بعيد كقوله(وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)الأنعام/١٥٣، فهي وصية الله تعالى بالغة الأهمية لجميع العباد.

المعنى: (**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ**) سنّ الله لكم طريقة هادية مثلى، وبيّن وأوضح لكم (أيها المسلمون) (**مِّنَ الدِّينِ**) القيّم، بأصوله وفروعه وشريعته، وهو دينه الذي ارتضاه، والذي وصى به جميع أنبيائه **في نهج البلاغة خطبة١٩٨**(إنّ هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه، واصطنعه على عينه، واصفاه خيرة خلقه، وأقام دعائمه على محبته، أذلّ الأديان بعزته، ووضع

الملل برفعه، وهدم أركان الضلالة بركنه) **دين الله: منهج حياة متألق، أنه الشريعة السّهلة السّمحة، المتناسبة مع الفطرة البشرية**، والدين القيم الحنيف، فهو روح السعادة والجمال، وقطب الرحى للجلال والكمال كقوله(وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) النساء/١٢٥ (**مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا**)من أهم العقائد والأعمال، وقدّم نوحاً للدلالة على قدم شريعته وطول عهدها(**وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**)وتغيير التوصية إلى الإيحاء في جانب النبي(ص) وسّر تقديمه على من كان قبله، لبيان فضله وفخامته وارتفاع منزلته والاعتناء برسالته(**وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**)

من المعارف والعلوم المتنوعة والأحكام الشرعية والأخلاق(**وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ**)وخصّ هؤلاء بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء من أولي العزم، وأصحاب الشرائع العظيمة والاتباع الكثيرة، وأما من عداهم، فإنما كان يبعثهم الله بتبليغ شرع من قبله، ولم يزل الأمر بإرسال الرسل تترا، واحداً بعد واحد لإلقاء الحجة على الناس، حتى ختم الله الرسل بخير الملل وخير الأنبياء مُحَمَّد(ص) الذي جمع الشرائع المتقدمة في دين الله الواحد(**الإسلام**) الحق الثابت الكامل الذي لا يتجزّأ ولا يتعدد ولا يتغيّر ولا يتبدل ولا يتحول، بعض الشرائع الفرعية تتغيّر مع تغير الظروف، **ويبقى دين الله الحق الثابت لا يتغيرّ بأصوله الأساسية الثلاثة(التوحيد، والنبوة، والمعاد) وهذا الأصل المشترك بين جميع الرسالات**، فيشعر النبي(ص) أنه امتداد لهؤلاء النخبة الكرام، وأنه على سيرتهم الصالحة يسير، ومهما يصيبه من أذى، فيشترك معهم في هذا الموكب الكريم على الله (**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ**)أن أقيموا دين الله الكامل الواحد الموحّد المتّحد الحنيف (**الإسلام**) بشرطه وشروطه (**أَقِيمُوا الدِّينَ**)كإقامة الصلاة، أي بالتمسك به والالتزام بمنهجه والمحافظة عليه والدفاع عنه، والاستقامة مع الناس وحسن التعامل معهم، ولا تدخل الأهواء فيها (**لا اجتهاد مقابل النص**) ولا تتركوه وتعرضوا عنه، عن النبي(ص)في حديث قدسي(إنّ هذا الدين قد ارتضيته لنفسي، ولا يصلحه إلاّ السّخاء وحسنُ الخُلُق، فأكرموه بهما ما صحبتموه)! كنز العمال خبر٣/٥٢٣ (**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ**)واجعلوه قائماً فاعلاً بمنهجه، قوياًّ بتأثيره ودقة علومه وجمال هدايته وتثبيت حجته على الناس واستقامته بينهم، أي تمسّكوا به جميعاً وخذوا به ولا تختلفوا فيه (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)المائدة/٢، فلا يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض (فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ) البقرة/٨٥، سُئل الإمام الصادق(ع)عن أدنى ما يخرج به الرجل من الإسلام فقال(أن يرى الرأي بخلاف الحق فيقيم عليه)ثم تلا قوله(وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ)المائدة/٥، وسائل الشيعة٢٧ ص٦٠.

(**وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**)اجعلوا دين الله القيم قائماً مؤثراً محفوظاً مستمراً في عطائه، ومن غير خلاف فيه ولا اضطراب، لا تختلفوا فتختلف قلوبكم، لا تفرقوا دين الله الواحد إلى مذاهب وأحزاب وجماعات يكره بعضكم بعضاً، بإقامة بعضه وترك بعض، إن كنتم حقاً من أهل الإسلام

والقرآن، والذين لا يجمعهم الإيمان بالله وبمحمد(ص) محال أن يجمعهم شيء إلاّ المصالح المادية المؤقتة، كقوله (**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**)الأنعام/١٥٩، تثبت الآية وحدة أصول الرسالات السماوية الأساسية مع تعدد الأنبياء، مع تغيّر الظروف والزمان والمكان، أما الشرائع فهي التي تتغيّر في التطبيقات وتتوحّد في الأهداف، ولو اجتمع كل الأنبياء والمرسلين في مكان واحد لما اختلفوا فيما بينهم، لأن بينهم تعدد أدوار، واختلاف أساليب، ووحدة هدف وغاية مشتركة واحدة سامية كقوله(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ)آل عمران/١٠٥، وقوله(**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**) الأنفال/٤٦، عن الإمام علي(ع) (إيّاكم والتّلون في دين الله، فإن جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبّون من الباطل، وإن الله لم يعط أحداً بفرقة خيراً ممن مضى، ولا ممن بقي) شرح النهج١٠ ص٣٣ .

(**كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ**)صعب عليهم دين الحق والخير والاستقامة، دين القيم والمبادئ والأخلاق، صعب عليهم ذلك لأنهم ليسوا من أهله ولا من معدنه، لأنه سيخلعهم من السيادة والزعامة الجاهلية، فسيعادونك ولا يضرونك في شيء كقوله(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ)الزمر/٤٥، وقوله (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)ص/٥ (**اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ**)الله يصطفي ويختار لدينه من يشاء من عباده الصالحين الكفوئين النزيهين كقوله (يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)المائدة/١٦(**وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ**)يهدي بالتوفيق إلى دينه من يُقبل عليه ويرغب فيه ويرجع إليه بالطاعة الصادقة، ويتوب ويستقيم مع الله ومع الناس، وكأنه يعدّه إعداداً لهذه المهمة كقوله(وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)التغابن/١١، والمعاند حرم نفسه من نعمة الهداية والدراية. **فائدة:** ١-(**شَرَعَ لَكُم**)**الشريعة:** هي الطريق إلى الماء، فسمي منهج الله الذي يحيي القلوب بالقيم والمبادئ والأخلاق (شرع)من الشريعة، أي الطريق إلى ما يحييك، فكان الماء يحيي المبنى المادي، وكان الشرع يحيي المعنى المعنوي.

٢-(**إسلام الدين، وإسلام الشريعة**): يأتي القرآن الكريم بكلمة(**الدِّينِ**)بالمفرد بشكل دائم، ولم يأتِ به بالجمع أو التثنية أبداً، لأن الله ليس عنده أديان، وإنما عنده دين قيم واحد موحّد متحد لكل الأنبياء، وهو (**الإسلام**)**لأن دين الله حق، والحق ثابت لا يتغير ولا يتبدل ولا يتحول ولا يتعدد، لأنه القيمة العليا في الوجود**، فيكون دين الله الكامل (**الإسلام**)الواحد الثابت بأصوله المشتركة، وإن تعددت الأنبياء والمرسلين هي(التوحيد، والنبوة، والمعاد)وسائر ما يكون به المؤمن مؤمناً، أما فروع الدين متعددة، وتسمى(**شرائع الإسلام**)من العبادات والمعاملات والأخلاق، فهي شرائع قابلة بعضها للتغيير بحسب الظروف ومصلحة الأجيال كقوله (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)المائدة/٤٨.

وهذا الاختلاف الناشئ من اختلاف الأمم وتفاوت طبائعهم وتغير الزمان وتطّور فكر الإنسان، فصار عندنا مصطلح (**إسلام الدين**)الواحد الثابت لكل الرسالات وإن تعددت الأنبياء كقوله(إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ)آل عمران/١٩، هو إسلام الدين الواحد الثابت الدائم المشترك، الدين الحق الكامل الذي لا يتغيّر مع جميع رسالات الأنبياء، وإن تعددت بعض الشرائع والفرائض، واختلفت بعض الأحكام بحسب الظروف، وهذا يسمى(**إسلام الشريعة**) كقوله(وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)آل عمران/٨٥، **كل الأنبياء يدينون بالإسلام**: هذا إسلام إبراهيم الخليل(ع) كقوله(مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ)الحج/٧٨، وإسلام نوح (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)يونس/٧٢، وإسلام سليمان(أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ) النمل/٣١، وإسلام يوسف (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا) يوسف/١٠١، وإسلام موسى لقومه (إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ)يونس/٨٤، واسلام حواريوا عيسى (وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)المائدة/١١١، وإسلام عباد الله الصالحين(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) فصلت/٣٣

١٤ – ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾

قال تعالى (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)الآية/١٣، عندما نهاهم عن التفرق، أخبرهم عن مخاطره، وأضرار الاختلاف ومساوئه، فإن أهل الكتاب اليهود والنصارى لم يتفرقّوا في الدين، حتى أنزل الله عليهم الكتاب المبين الداعي للتوحّد، والموجب للاجتماع والتعايش المشترك، ففعلوا ضد ما يأمرهم به كتابهم (**بَغْيًا بَيْنَهُمْ**) وعدواناً منهم بدافع الحمية الجاهلية، فإنهم تحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة والبغضاء، فوقع الاختلاف والتفرقّ والتنازع، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم، **المعنى**: (**وَمَا تَفَرَّقُوا**)وما تفرّق الناس، الذين شرّع لهم الدين القيم الذي يوحّد ولا يفرّق، ويدعو إلى التعايش السلمي بين الطوائف(**إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**)تفرقوا اعتداءً بينهم وحسداً وظلماً للحق والحقيقة ولأنفسهم، سواء تفرّقوا تحت تأثير الأهواء الجائرة، والشهوات الباغية، **ولو توجّهوا لله ما تفرقوا، لم يتفرقوا عن جهل واشتباه من بعد أنبيائهم**، إلاّ بعدما جاءهم العلم بما هو حق في وحدة الكلمة، وكلمة التوحيد، وصدق ما جاء به الأنبياء، وتمت عليهم الحجة بكل وضوح.

(**بَغْيًا بَيْنَهُمْ**) **البغي**: الظلم والاعتداء وتجاوز الحدود من الحق إلى الباطل، والانحراف عن خط الاعتدال بالافراط والتفريط، وكانت التفرقة مبنية على الجور، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق، ومبنية على الظلم وحبّ الجاه والظهور والشهرة، وحبّ الدنيا، وطلباً للرئاسة والوجاهة، **إنهم اختلفوا في البديهيات فوقعوا في أشكل المشكلات**، إنهم اختلفوا في الحق الواضح وهم أعلم الناس به، وهم يعلمون مخاطر الاختلاف، فلا سبب موجب للخلافات إلاّ خبث السرائر

وسوء الضمائر، وطلب الحمية الجاهلية التي جعلت كل طائفة تذهب مذهباً وتدعو إليه، وتضلل ما سواه طلباً للسيطرة على جماهير الناس كقوله (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) المائدة/٥٠.

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى)

ولولا وعد مسبق ثابت من ربك بتأخير حسابهم وعذابهم ليوم القيامة، وإلاّ لأخذ به الطغاة في هذه الحياة الدنيا (**لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ**)لعجّل لهم العقوبة سريعاً باستئصال المبطلين، وسبق في علم الله أن تكون الدنيا عملاً بلا حساب، والآخرة حساباً بلا عمل كقوله (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) فاطر/٤٥، (**وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ**) وإن بقية أهل الكتاب، من أهل العلم، الذين عاصروا رسول الله (ص) ورثوا الكتاب من بعد أسلافهم السابقين(**لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ**) لفي شك من التوراة والإنجيل، وفي اشتباه كثير وفي حيرة وقلق وريبة، حيث اختلف سلفهم بغياً وعناداً، وهم اشتركوا في الاختلاف المذموم، وهم ليسوا على علم وإيمان من أمر دينهم وكتابهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل، ويتبعونهم اتّباعاً أعمى بلا حجة ولا برهان، لعدم وضوح الرؤية الفكرية، وانطلقوا على أساس النسب والحسب والجاه والثراء والعرف الاجتماعي والمواقع الدينية المتصدرة للمشهد.

(**لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ**)كناية بلاغية عن الذين نقضوا شرع الله، لفي شك من كتابهم القرآن ومن مُحَمَّد، فكانوا في حيرة وقلق بحيث لا يستطيعون إدراك الحق بشكل واضح، نتيجة التحريفات الشديدة التي أدخلها مؤسسو الفتن كقوله (فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ)المائدة/١٤، والذي لم ينسوه كتموه، والذي لم يكتموه حرّفوه، كقوله(وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)آل عمران/٧٨. **فائدة:** لقد جاءت الرسالة الإسلامية ليعرف أصحابها طريقهم المستقيم إلى الله، ويقودوا من ورائهم من البشر بغير ضعف ولا تردد ولا شك ولا ضلال ولا عصبية دينية، فإذا أصابهم الشك يكونون غير صالحين لقيادة أحد، والشك يحبط الإيمان ويفسد الدين ويطفئ نور القلوب، لقد خلا مركز القيادة البشرية الصالحة، والأمة بلا قيادة صالحة، تكون أمة ضائعة، وفريسة للمفترسين!

١٥ -﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

اشتملت الآية على عشر أوامر ونواه مهمة، كل منها مستقل بذاته، ولا نظير لهذه الآية سوى آية الكرسي، فهي عشرة فصول مهمة أيضاً، إنها القيادة الجديدة للبشرية جمعاء، القيادة الأسوة الحسنة الحازمة الحاسمة المستقيمة على نهج ثابت واضح، تدعو إلى الله على بصيرة، وتستقيم على أمر الله دون انحراف، ولا تلتفت إلى الأهواء المضطربة، **المعنى:** (**فَلِذَٰلِكَ**)إشارة إلى الإسلام دين الله الواحد الكامل القيم وإقامته في حياة الناس(**فَادْعُ**)يا مُحَمَّد إلى الإسلام

واعمل بموجبه على بصيرة أنا ومن اتبعني، أنه دين الهداية والدراية والصلاح، في الحديث(إنّ الله يعطي الدّنيا لمن يحبّ ولمن لا يحبّ، ولا يعطي الدين إلاّ لمن يحبّ)تفسير المراغي١٨/٣٢، **في غرر الحكم**(إذا استخلص الله عبداً ألهمه الدّيانة)

(وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) الاستقامة: الالتزام بالمنهج بصدق في جميع الأحوال والأشكال، وفي السر والعلانية بدون نفاق وتقلّب وتغيّر وتذبذب، أي واستقم بنفسك عليه كما أمرك الله، واثبت على دين الله الحنيف، وتحمّل شدة المعاناة والصعوبات، وأن يكون قولك موافقاً لفعلك على الدوام **(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ)**الخطاب للنبي(ص) وأُريد به أمته، على أساس إياك أعني واسمعي يا جارة، فالنبي (ص) لا يتبع أهواءهم ولا هوى غيرهم، وهو مهذّب هوى الناس**(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ)** ورغباتهم المضطربة والمتصارعة التي تؤدي إلى الضلال البعيد ، وإلى الفرقة والاختلاف كقوله(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)ص/٢٦، **في نهج البلاغة حكم٢١١** (كم من عقل أسير، تحت هوى أمير)! **في غرر الحكم**(من اتبع هواه أعماه، وأصمّه وأذلّه وأضلّه) في الحديث: (لكل شيء آفة، وآفة الدين الهوى)(**وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ)**من كتاب: جاء نكرة للدلالة على الشمول والإحاطة، أي أعلن إيمانك يا مُحَمّد بأذن الله وقل: آمنت بكل كتاب سماوي صحيح سابق أنزله الله على يد أنبيائه ورسله، وصدقها على أساس وحدة دين الله وهو **(الإسلام)** لكل رسالات الأنبياء، فإن القرآن منهج جامع لكل الكتب السماوية السابقة ومكمل ومتمم لها كقوله(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)المائدة/٣، وأن تقوم القيادة العليا، بإعلان وحدة الرسالة، ووحدة الكتاب ووحدة الإيمان، ووحدة الأهداف والغايات، بما أنزل الله من كتاب سماوي صحيح كقوله(وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)النساء/١٢٥ **تعالوا معاً لننطلق من هذا الإيمان المشترك، إلى إيجاد قاعدة للقاء على أساس الانفتاح على الآخر للوصول إلى الحقيقة المنشودة (وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ)** وأنصف وأسوي بينكم في الدعوة إلى كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، فلا أقدّم قوياً على ضعيف، ولا غنياً على فقير، ولا أفضل أبيض على أسود، ولا عربياً على عجمي، ولا تفضل أحداً في مجلسك عمن سواه، إنها العدالة المأمولة تطبيقها في قيادة مبسوطة ذات قوة وسلطان، تتمكن من إعلان العدل في الأرض بين الجميع على السواء في الحديث(ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات،،

فالمنجيات: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وخشية الله في السرّ والعلانية، **والمهلكات:** شح مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه)نور الثقلين٤/٥٦٨، **(اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ)** أن تعلن الربوبية الواحدة، ما دام**(اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ)** وعبادتنا له واحدة، فلابد أن تكون التربية على منهجه واحدة لنا جميعاً، والله مدبر أمرنا وأمركم، ومنعم علينا وعليكم**(لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ)** لنا جزاء أعمالنا، ولكم جزاء أعمالكم من خير وشر، ولا نستفيد من حسناتكم ولا نتضرر من سيئاتكم، لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، كقوله (وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل

لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ)يونس/٤١ وقوله(كلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) المدثر/٣٨ (**لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ**)ويعلن لا مجال للجدال ولا المناظرة والخصومة بيننا وبينكم في هذا الأمر، لعدم الفائدة من ذلك، لأننا لن نلتقي، ولا يوجد بيننا وبينكم أنصاف حلول، فكل منا له قناعته وله اختياره وله طريقه، لأن الحق واضح للجميع وأنتم تكابرون كقوله(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) يونس/٣٩ (**اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا**) يوم القيامة، الأمر كله إلى الله، وينال كل منا جزاءه، ويعطي ذي حق حقّه في يوم الفصل الأكبر كقوله(قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ) سبأ/٢٦، والغرض أن الحق قد ظهر، والحجج قد قامت، فلم يبق إلاّ العناد، وبعد العناد لا حجة ولا جدال، والله لا بد أن يفصل بين الخلائق يوم المعاد، ويجازي كلاً بعمله، كقوله (هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ) المرسلات/٣٨ عن النبي(ص)(**الخاسر**: من غفل عن إصلاح المعاد)تنبيه الخواطر ص٣٥٩ (**وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**)وعنده توضع الرحال، وعنده الأمر الأخير كقوله(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم)الغاشية/٢٥-٢٦.

فائدة: سؤال: قال تعالى: (**وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَهُمْ**) أي أهواء ورغبات المشركين، فكيف ينهى الله النبي(ص)عن المعصية مع وجود عصمته؟ **الجواب:** إنّ النبي(ص) لا يحكم إلا بالحق ولا يتسامح فيه، ومحال أن يتبع هوى مخلوق، وهو بعثه الله لهدايته، كيف وأقواله وأفعاله وتقريره سنة تتبع، وميزان يقاس به الحق والعدل، ولكن عندما قال الله لنبيه.

(**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ**)ليقول للناس: أنا بشر مثلكم، أحاسب كأي إنسان يشك أو يكذب بآيات الله، وهذا الأسلوب من أبلغ الأساليب وأنجحها في الدعوة إلى الله الحق، الذي تتساوى فيه جميع الناس، عن الإمام الصادق(ع) (إنّ الله بعث نبيه بإياك أعني واسمعي ياجارة) البحار٣٨١/٩٢، وغيرها من الآيات القرآنية تخاطب النبي(ص)(**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ**) غافر/٥٥ وقوله (فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) يونس/٩٤، وقوله(وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ)يونس/٩٥، وقوله (فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ)القصص/٨٦ وقوله(وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) القصص/٨٧، وقوله(وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) يوسف/٣، راجع دلالتها في كتاب (**وعي القرآن الميسّر**)

١٦ -﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

هذا تقرير قوله (**لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ**)الآية/١٥، فأخبر هنا(**وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ**)والذين يجادلون في دين الله، ويخاصمون بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة لصدّ الناس عن الإيمان(**مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ**)من بعد ما استجاب الناس بفطرتهم السليمة للإسلام استجابة صادقة، أخذوا يجادلوهم فيه بالباطل للتشويش عليه، وهذا لا ينفعهم بشيء فصار جدل المجادلين عقيم ومستنكر، لا يستحق الالتفات إليه كقوله(وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ)البقرة/١٠٩، (**حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ**) حجتهم باطلة لا قيمة لها، وهي حجة مغلوبة زائفة واهية لا ثبوت لها عند ربهم،

حجتهم مردودة، مثل قولهم: ديننا أقدم من دينكم، ونبيّنا قبل نبيكم، ونحن خير منكم، وقرآنكم يقرّ أن الله فضلنا على العالمين كقوله(اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)البقرة/٤٧، إنه تفضيل نعمة لا تفضيل قيمة، وإنه للاختبار لا للافتخار، كما قال تعالى للمسلمين(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) آل عمران/١١٠ (**وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ**) وهو أول مراحل العذاب لأجل إصرارهم على الكفر وإعراضهم عن حجج الله وبيّناته وتكذيبها (**وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**)ودائم، لأنهم استمروا في معارضتهم عن علم وعمد، أن الواحد منهم لا يكتفي بكفره وعدم إيمانه بربه، بل يريد أن يقنع غيره بالكفر أيضاً لذلك (**وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**)على كفرهم الشديد وضلالهم البعيد، فهذه عقوبة لكل مجادل للحق بالباطل، وهذا هو الجزاء المناسب على اللجاج والعناد بالباطل.

فائدة:١-**سبب النزول:** نزلت في طائفة من بني اسرائيل، همّت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم.الميزان١٨/٣٦، ٢-قال (**اسْتُجِيبَ لَهُ**) اسندت الاستجابة إلى غير فاعله، ولم يقل (من بعد ما استجابوا)هنا اسندت الاستجابة إلى الفاعل، إشارة إلى استجابتهم لم تكن استجابة خالصة، وإنما فيها من الشك والارتياب، ولهذا لم يسند فعل الاستجابة إليهم، وإنما أسند إلى غير فاعله،٣-قال(**دَاحِضَةٌ**) ولم يقل (مدحوضة) أي ضعيفة وزائلة وغير متماسكة.
الجواب: قال(**دَاحِضَةٌ**)ليكون أبلغ في ضعف سندها، هي مبطلة لنفسها من غير مبطل لها، بسبب الكذب فيها، وقيام شواهد على تهافتها.

١٧ -﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾

(**اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ**)الله الذي أنزل القرآن لهداية الناس للتي هي أقوم، وأنزل سائر الكتب السماوية الجليلة بالحق الساطع في أحكامها وأخبارها وعلومها، أنزل الكتاب بالحق من الله، ويدعو الناس إلى الحق، ويهدف إلى الحق، ليفوز الناس بالحق، **الحق:** كلمة جامعة في معناها ومبناها، ومطابقة للفطرة مع مصداقها الخارجي، **والحق:** هو الشيء الثابت المتألق الذي لا يتغيّر، وهو يعلو ولا يُعلى عليه، وإن علا عليه الباطل في ظروف، من أجل أن يعرف الناس قيمة الحق وضرورته في حياة الإنسان، وتعمل الناس للدفاع عنه وتحميه(**بِالْحَقِّ**)بالعدل والصدق والخير، لأن كل ما في القرآن حق وخير، وعلى ضوئه يفصل الله بين الناس بالعدل الذي لا يشوبه باطل، وجعل الحق حكماً في ما يختلف فيه أصحاب العقائد، وأقام شرائعه على العدل في الحكم، والإنصاف بين الناس، وأنزل الدين بأصوله وفروعه وهو(**وَالْمِيزَانَ**)كناية بلاغية فنية، واستعارة تشبيهية جميلة، عن منهج الشرع والدين العادل المنصف المنقذ المعتدل المستقيم المتوازن الدقيق(**وَالْمِيزَانَ**)يزن فيه مقادير الأشياء، وتوزن به القيم والأقوال والأعمال، أينما كان العدل كان(**وَالْمِيزَانَ**)وهو المقياس والمعيار الصحيح الذي تقاس به الأمور جميعها المادية والمعنوية، والدنيوية والأخروية، و(**وَالْمِيزَانَ**)هو الدين الموزون بالقرآن والعترة بأصوله وفروعه

كقوله (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) الحديد/٢٥ .

(وَالْمِيزَانَ)له معنى عام، معناه اللغوي وسيلة لقياس الوزن، ومعناه الاصطلاحي يطلق على أي معيار للقياس والتقييم العام، ميزان يوم القيامة نموذج له، النبي وآله نموذج، القرآن نموذج.. وهكذا **(وَالْمِيزَانَ)** يضبط المعايير بين الحق والباطل، ويضبط الحقوق لأصحابها، فيكون الميزان كالفرقان كقوله(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا)الأنفال/٢٩ فتكون كل الدلائل العقلية، والاكتشافات العلمية المتنوعة، والقواعد الشرعية، والمناسبات التوعوية، والشعائر التقوائية والعلل الشرعية والأحكام القضائية، **ويكون كل حجة وبرهان داخلة في هذا (الْمِيزَانَ)** العادل، وأهمها الثقلين **(كتاب الله وعترتي أهل بيتي)**تفسير الرازي٨/١٦٣، ليزنوا بهما الميزان العادل الصحيح، ومن لم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد منهما، فإنه ليس من أهل العلم والاختصاص، ولا من فرسان هذا الميزان، فعليه أن يعرف قدره ولا يتعدّ طوره. وسمي العدل ميزاناً، لأن الميزان يحصل به العدل والانصاف، فهو من تسمية الشيء باسم السبب كقوله (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)الرحمن/٧ **(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)**الاستفهام يراد به التقرير والإنذار بقرب الساعة**(وَمَا يُدْرِيكَ)** تأتي للمستقبل، أي ستعلم ذلك في المستقبل، ولن يخبرك به غيرنا.

(السَّاعَةَ قَرِيبٌ)لكونها قادمة، وكل قادم آت، وكل آت قريب، **في نهج البلاغة حكم٢٩** (إذا كنت في إدبار، والموت في إقبال فما أسرع الملتقى)**في غرر الحكم**(ما أقرب الحي من الميت للحاقه به، وما أبعد الميت من الحي لانقطاعه عنه) عن النبي(ص)(عجبت لغافل وليس بمغفول عنه)أمالي المفيد ص٤٥ وإنما أخفى الله الساعة، وجعلها من الغيب، وأخفى وقت مجيئها على العباد، ليكونوا على استعداد لها في كل وقت، فعليك أن تواظب التمسك بالإسلام، والمواظبة على العدل والإحسان بين الناس، والتعامل الأخلاقي معهم، عن النبي(ص) **(الإسلام حُسن الخُلق)**كنز العمال خبر٥٢١٥، قبل أن يفاجئك اليوم الحاسم الذي توزن فيه الأعمال، ويوفّى كل عامل جزاء عمله، كقوله**(وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)**آل عمران/١٠٢، ولا أحد يعرف وقت موته، فلابد أن يكون الإنسان في كل لحظة مسلماً حتى يموت على الإسلام، عن النبي (ص)(يموت الإنسان على ما عاش عليه،ويحشر على ما مات عليه) تنبيه الخواطر ص٣٧١، **سبب النزول**: سأل رجل النبي (ص)متى الساعة؟ فقال له أنها كائنة، فما أعددت لها؟ فقال:حبّ الله ورسوله، فقال (ص)(أنت مع من أحببت)المراغي٢٥ ص٣٢، **فائدة:أهمية القيامة:**

سؤال: لماذا تأكيد القرآن في أغلب السّور والآيات على يوم القيامة وأحداثها، وحقيقة الآخرة وأهميتها؟! **الجواب**: التأكيد المستمر على الشيء دليل بيان أهميته الكبرى في حياة الإنسان، وبالرغم من أهميته يغفل الإنسان عن هذه الحقيقة الأهم، ويعيش سلبيات الغفلة، في غرر

الحكم (الغفلة من فساد الحسّ)**حكمة يوم القيامة:** من حكمة الخلق وتنظيم الحياة، وما تنظيم المعاد إلاّ حلقة أساسية في سلسلة فلسفة خلق المخلوقات وتنظيمها، وبالمعاد تظهر للحياة قيمتها وللخلق قيمتهم، لذلك الحياة لغز مبهم لا يفسره إلاّ الإيمان باليوم الآخر، ولا يغفل عن ذلك النظام إلاّ الذين لا يتدبرون حكمة الله ونظامه، لانشغالهم في إشباع بطونهم وفروجهم! كقوله(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣

١٨ – ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾

الذين لا يؤمنون بالساعة، يجهلون فلسفتها، ولا تحس قلوبهم أحوالها وأهوالها، فلا يخافون ما يحصل فيها لأنهم لا يؤمنون بها، فلا عجب أن استعجلوها مستهترين بها، جهلاء لا يدركون حقيقتها، وتبقى الحقيقة ناصعة واضحة لامعة مؤثرة وإن جهلها الجاهلون، وكثير من الناس يستخفّون بأنفسهم، ويخوضون بها المهالك من حيث لا يشعرون كقوله(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف/١٠٣-١٠٤، عن السيد عيسى المسيح(ع) **(ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه)؟! المعنى:(يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا)**يقولون للنبي(ص)متى تقوم الساعة؟ استهزاءً وسخرية، لعدم تصديقهم بقيامتها **(وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا)**خائفون راجون وجلون منها لتيقنهم بها ومعرفتهم حقيقتها وفلسفتها، لعلمهم بأنه يوم الحسم والفصل النهائي والجزاء العادل كقوله(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) المؤمنون/٦٠، وقوله(أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)النحل/١.

(وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقّ)الثابت حصوله، الواجب وقوعه بلا شك يعتريه ولا مرية فيه، الساعة يقام بها الحق، وتعطى بها الحقوق، من يؤمن بالبعث والحساب، يشعر بأنه مسؤول عن عمله ومحاسب عليه، فهو يحاسب نفسه قبل أن يحاسبه ربه، فيقبل على الخير والعمل الصالح طمعاً في النجاة وحسن المآب، ويبتعد عن الشر خوفاً من سوء العاقبة، ومن يكفر بالبعث والحساب يرى الحياة الدنيا فرصته الوحيدة للسلب والنهب، وللاستمتاع بكل ما لذّ وطاب من حلال وحرام، ولا يصده خُلق أو ضمير أو قانون إذا ضمن السّلامة وأمن العقاب**(أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ) ألا:** أداة تنبيه للسامع، **المراء:** الجدال المذموم، **قيام الساعة:** حقيقة لابد منها بالعقل والمنطق، قبل أن تكون عقيدة وإيمان بها، فلا بد من الحساب كقوله(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)الحشر/١٨، عن النبي(ص)(حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتجهزوا للعرض الأكبر)البحار٧٠ ص٧٣، لأن كل شيء خلقه الله بتقدير مقدر وتنظيم مدبر، كقوله (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)القمر/٤٩، فبدأت الحياة بتنظيم مقدّر، وتستمر الحياة بتنظيم مقدّر، ولابد أن تنتهي بتنظيم مقدّر أيضاً، وأن الساعة هي التي ترسم هذا التنظيم المقدّر التي يتم فيها الجزاء كقوله(ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ

الْأَوْفَىٰ)النجم/٤١، لينال المظلوم حقه من الظالم، **في غرر الحكم** (من أفنى عمره في غير ما ينجيه فقد أضاع مطلبه)

قال الراغب في مفردات القرآن، المرية: التردد في الأمر، وهو أخص وأشد من الشك، أي أنهم أوغلوا في الضلال وغرقوا فيه، فمن العسير عليهم أن يعودوا إلى الإيمان، لأنهم (**لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ**)ألا أن الذين يصرّون على التكذيب والتشكيك، في حقيقتها، ويمارون ويجادلون في وجودها، لفي انحراف بعيد عن الصواب، وفي غاية البعد عن الحق، لتوغلهم في الجهل والغواية والجدال العقيم الفارغ الذي لا يوصل إلى الحقيقة كقوله(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)يونس/٣٢، فالذي يصدق في الدار الدنيا المؤقتة وهي أدنى دار عاشوها، وكذبوا بالدار الآخرة الخالدة التي هم ذاهبون إليها شاؤوا أم أبوا، استعدّوا لها أم لم يستعدوا، آمنوا بها أم لم يؤمنوا كقوله(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) الأنشقاق/٦، فعند اللقاء الحاسم يسألك عن كل شيء، فأعدّ لكل سؤال جواباً كقوله(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)الحجر/٩٢

١٩ -﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾

(**اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ**) اللطيف من أوصاف وأسماء الله سبحانه، بمعنى الله رفيق ودقيق ومحبّ ورحيم في التعامل مع عباده جميعاً، عطوف عليهم بطريقة خفيّة، كثير الإحسان بهم، يعطي من يسأله ومن لم يسأله ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة، ويفيض عليهم من الخيرات مع عصيانهم كقوله(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ)الرعد/٦، وإن الله يعامل خلقه بلطفه ولا يعاملهم بعدله، ولا يعجّل في عقاب الطغاة المغرورين، ولا يؤاخذ عباده على كل هفوة أو تجاوز أو معصية، ويعفوا عن السيئات، ويقبل التوبة، ويعطي على الحسنة عشر أمثالها، **الله لطيف**: أي يتغلغل في الأشياء مهما كانت دقتها، وهو معنا ويحيط بنا وأقرب إلينا من حبل الوريد كقوله(وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ) البقرة/٢٠٧، ليعرفوه ويحبّوه ويتقربوا إليه ويرغبوا في لطفه ورأفته(**اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ) اللطيف: مبالغة اللطف، ويعاملهم من فنون ألطافه**، وأيضاً تنكيره للدلالة على سعة اللطف، الذي يدرك الضمائر ويعرف المشاعر، ولا تخفى عليه السرائر، **واللطيف**: الذي يوصل عباده إلى ما فيه الخير لهم في دنياهم وآخرتهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون ، فمن لطفه بعباده المؤمنين أن يجعلهم في أعلى الدرجات، ليكونوا أدوات قدرته سبحانه، وعناصر إرادته بين عباده، **في غرر الحكم(ذروة الغايات لا ينالها إلاّ ذوو التهذيب والمجاهدات)** ومن لطفه سبحانه بعباده أن يرحمهم جميعاً على سبيل توزيع المقادير والموازين، في الاختصاصات والكفاءات والمواهب، بأن يخصّ أحد بنعمة وآخر بأخرى، فتتوّزع النعم بين الناس وبين الشعوب، ليرجع كل واحد منهم إلى الآخر لتبادل فوائد النعم، فينتظم بذلك أحوالهم، ويتم أسباب معاشهم وتنهض بذلك بلادهم كقوله(وَرَفَعْنَا

بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا)الزخرف/٣٢، **سخرياً**: من التخسير في الأعمال والمواهب، وكلهم مسخرون للخلافة في الأرض وعمارتها، بهذا التفاوت في الملكات والقدرات والأعمال والأرزاق، (**يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ**)ومن مظاهر لطفه بعباده هو الرزق، وهو مفهوم عام، الله يخلق الأرزاق كلها، المادية والمعنوية، الجسمانية والروحية بحسب حكمته ولطفه بعباده ويبّرهم جميعاً، وأفضل الرزق سلامة العقول وصدق العقيدة وصحة النفوس وقوة الأبدان، وأعظم الرزق الإيمان والهداية والدراية، وطهارة النفوس بالتقوى، واتصالها بالملأ الأعلى.

في دعاء الإمام الحسين (ع) يوم عرفة:

(**إلهي: اطلبني برحمتك حتى أصل اليك، واجذبني بمنك حتى أقبل عليك**) وسعة الرزق لا يدل على تكريم الغني، وتقدير الرزق لا يدل على تحقير الفقير، وإنما هما اختبار وامتحان، وفتنة الغنى أشّد من فتنة الفقر، فإن كان نصيبك الغنى فاشكر المنعم ولا تبطر، واذكر الفقير وأنفق عليه، وإن كان نصيبك الفقر فاصبر كقوله(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ، كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) الفجر/١٥-١٧، عن النبي(ص) في حديث قدسي(إن من عبادي من لا يصلحه إلاّ الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلحه إلاّ الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإني أدبر لعبادي بعلمي بقلوبهم) نور الثقلين٤/٥٧٩، والله سبحانه أخرج الرزق من دائرة الصلاح والطلاح، والإيمان والكفر، وعلقه بأسبابه الموصولة بأوضاع الحياة وتركيبتها العامة، وبحسب استعدادات الأفراد الخاصة، وتوفير الاختصاصات والكفاءات، ومقدار تجربتهم وخبرتهم كقوله(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ) الشورى/٢٧ وقوله(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ)الفرقان/٢٠، عن الإمام الحسن العسكري(ع) (**لا يشغلك رزق مضمون عن عمل مفروض**) البحار٧٨/٣٨٤ (**وَهُوَ الْقَوِيُّ**) غالب غير مغلوب، وقاهر لعباده وباهر بقدرته فهو القادر على كل شيء (**الْعَزِيزُ**)لا يمنعه عن تحقيق إرادته شيء.

٢٠ -﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾

الآية كناية بلاغية جميلة، واستعارة تشبيهية لطيفة، للنفع الدنيوي والأخروي وتشبيهه بالحرث، له دلالة فنية دقيقة، يحتاج الإنسان إلى الحرث الزراعي للنبات، وعلى قدر إتقان الحرث الزراعي تحصل على النبات والثمار، كما يحتاج الإنسان إلى الحرث المعنوي للعمل الصالح النافع للناس لزاد الآخرة، إذ تكون منازل الآخرة على قدر الإيمان والأعمال الصالحة في الدنيا. فجميع الناس مزارعون عاملون، هذه الدنيا مزرعة لنا، وهي مزرعة الآخرة، وأعمالنا هي

البذور، والإمكانات الإلهية هي ماء الحياة لهذه المزرعة، ولكن البذور تختلف في إنتاجها بحسب إرادة الإنسان، فبعضها إنتاج جميل جليل صالح كثير النفع للناس ويرضي الله، وبعضها ثمار سيئة وأعمال ضارة للناس، **في غرر الحكم**(المرء حيث يضع نفسه)(خير الناس من نفع الناس، وشر الناس من ضرّ الناس) **المعنى**:(**مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ)**

الحرث: الزرع لإخراج النبات والثمار، ثم استعمل في ثمرات الأعمال ونتائجها بطريق الاستعارة البلاغية الفنية، لتشبيه الأعمال جميعها بالبذور فتكون (**الدنيا مزرعة الآخرة**)وحرث الآخرة من الإيمان والعمل الصالح النافع للناس، هما الثمرة الحلوة المرجوة منها، وهو الثواب المقيم في جنات الخلد، وأهم الأعمال الباقيات الصالحات كقوله(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) الكهف/٤٦، فمن كان يريد الهدى والإيمان ويعمل للآخرة، ويغرس الخير في مزارع الاحسان للناس والنهضات الحضارية، فعليه أن يكافح ويجاهد في سبيل الله صامداً محتسباً لإقامة العدل والانصاف بين الناس، وإحقاق الحق وإعطاء الحقوق، وأن لا يساوم ولا ينافق(**نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ)**

امده الله بعونه وتوفيقه، ويزيد له الله سبحانه في غرسه، ويبارك عليه حرثه ويضاعفه أضعافاً مضاعفة، كقوله(وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ)البقرة/٢٦١ (**وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا**)ومن كان يريد متاع الدنيا وطيباتها، ويريد استغلال نعم الله للحصول على متع الحياة الدنيا العاجلة ولذّاتها المتنوعة، وعاش الأنانية وعمل لنفسه ولأهله وكفى، وقاس الحق والعظمة بسيارته المظللة وأمواله المكدّسة، وقاس العدل والخير كله براتبه وبدلاته الجديدة وقصوره المشيدة، فلا تصل أعماله بأية رابطة أخروية، ولا تتصل بالقيم الروحية، ولا ترتبط بالله، كقوله (**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**)الحشر/١٩.

(**نُؤْتِهِ مِنْهَا**)نعطه بعض ما يطلبه بلسان الحال أو بلسان المقال، ما دام عمل وأتقن فن الأسباب، **ويريد الله من المؤمن أن يأخذ بالأسباب التي توصله إلى النتائج المرجوّة**، حتى لا يتسلط عليه غير المؤمن كقوله(وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) النجم/٣٩، وقوله(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)الأحقاف/١٩، **في غرر الحكم**(رحم الله أمراً أخذ من موت لحياة، ومن فناء لبقاء، ومن ذاهب لدائم) من وصية الإمام علي(ع) لابنه الحسن (ع) (إنك خلقت للآخرة لا للدنيا، وللبقاء لا للفناء، وللحياة لا للموت)شرح النهج١٦/٨٩، **دلت الآية على أن طالب الدنيا تلهيه أنواع التكاثر حتى يزور المقابر**، ولا ينال كل طموحه الكبير في الدنيا كقوله(مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا)الإسراء/١٨-١٩، عن النبي(ص)(يا ابن آدم: إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك، فأيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت تريد ما لا يكفيك، فكل ما فيها لا يكفيك)نور الثقلين٥/٦٦٠، **في غرر الحكم** (لا يترك الناس شيئاً من دينهم لإصلاح دنياهم إلاّ فتح الله

عليهم ما هو أضرّ منه)وفيه أيضاً(من جعل ملكه خادماً دينه، انقاد له كل سلطان، ومن جعل دينه خادماً لملكه طمع فيه كل إنسان)وفيه أيضاً (**المؤمن: من وقى دينه بدنياه، والفاجر من وقى دنياه بدينه)** عن النبي(ص)(من طلب الدنيا بعمل الآخرة، فليس له في الآخرة من نصيب)كنز العمال خبر٢٩٠٦٧، وعنه(ص)(ويل لمن طلب الدنيا بالدين)كنز العمال خبر٢٩٠٩١ (**وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ**)قال الراغب: إن الإنسان في دنياه حارث زرع، وعمله حرثه، ودنياه محراثه، ووقت الموت وقت حصاده، والآخرة جزاؤه، ولا يحصد إلاّ ما زرعه، ولا يكيل إلاّ ما حصده. ومن هؤلاء الذين يتاجرون بالدّين، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة نفاقاً ورياءً كقوله (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ) المائدة/٥٠، عن النبي(ص)(بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض، ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب) المراغي٢٥ ص٣٥.

٢١ -﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

هم ما اتبعوا ما شرّع الله من الدين الهادي القويم، بل اتبعوا ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس فزينوا لهم الشرك والمعاصي وإنكار البعث وعملوا للدنيا، فلا بد للإنسان من معتقد يتبناه في حياته، ويلتجئ إليه، ومعبود يهواه ويحبه، وهو مخيّر ومحاسب على ما يختار، **المعنى:** (**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ**)الاستفهام إنكاري للتوبيخ والتقريع، لهؤلاء الكفار شركاء من الشياطين(**شَرَعُوا لَهُم**)سنّوا لهم القوانين والأنظمة الوضعية، ووضعوا لهم خارطة الطريق لحياتهم، وزيّنوا لهم أنواع الفساد والكفر والإلحاد، ونشروا بينهم البدع المضللة وتحريم ما أحلّ الله، وتحليل ما حرم الله، ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم، زاعمين أنهم تقدميّون يختارون الخير لشعوبهم، ويوائمون بين ظروفهم المعيشية والتشريع الذي ينشئونه من عند أنفسهم، وكأنما لهم شركاء من دون الله يشرعون لهم قوانين جائرة(**مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ**)كقوله(قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ)البقرة/١٤٠، وقوله (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ)الحجرات/١٦ (**مِّنَ الدِّينِ**)المختلف الفاسد، إنه تشريع مجازي سماه ديناً للتهكّم لأنه دين مبتدع، والله تعالى هو وحده مالك حق التشريع، كما هو خالقهم ومالكهم، أي ابتدعوا لهم طريقاً إلحادياً ضد دين الله(**وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ**)ولولا كلمة القضاء السابق القاطع بتأخير العذاب إلى يوم القيامة الحاسم(**لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ**)لحكم بتعجيل العقوبة للظالم في الدنيا، كما كان يحدث في الأمم السابقة، كقوله(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى) طه/١٢٩ (**وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) وإن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان لهم عذاب شديد موجع في الآخرة، ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم كقوله (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)البقرة/٢٢٩ ومن يظلم

نفسه يحرمها من نعمة الهداية، ويلقي بنفسه في العذاب بارتكاب الآثام، والشرك أعلى درجات الظلم كقوله(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)لقمان/١٣، لأن المشرك يبخس حق الله، فيعطي حقوق الله الخالق القادر، للمخلوق العاجز المحدود، **والظلم**: أن يعطي غير ذي حق شيئاً من صاحب الحق، أو يظلم غيره باقتطاع شيء من حقه (والظلم في الدنيا هو ظلمات في الآخرة) عن النبي(ص)(من مشى مع ظالم ليعينه، وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام)كنز العمال خبر ١٤٩٥٥.

٢٢ -﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾

بالأمس في الحياة الدنيا كانوا فرحين بما يعملون من الفساد، واليوم يُصوّر القرآن حال الظالمين التاركين لدين الله ما يصيبهم بذنوبهم يوم القيامة، **المعنى**:(**تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا**) والتعبير القرآني الدقيق يجعل إشفاقهم وخوفهم من عملهم ذاته(**مِمَّا كَسَبُوا**)من قبائح السيئات، فكأنما تتحول إلى غول مفزع وشبح مخيف لا مهرب منه!، وهو العمل كسبوه وعملوه بأيديهم وكانوا به فرحين، ولكنهم اليوم مشفقون منه ومفزعون(**وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ**)لا محالة، وكأنه هو بذاته انقلب عذاباً عليهم لا مخلص منه ولا فرار، لأن سيئاتهم ستتجسّم على أشكال فضيعة وفضيحة يتعذبون بها، وسواءً خافوا أم لم يخافوا فلن ينفعهم خوفهم من سوء أعمالهم في ردّها عليهم (**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ**)والتعبير كله فيه البشارة والخير، ويرسم الأمل والرخاء، وينعكس الحال في عالم الآخرة، فالآمنون في الدنيا يشفقون في الآخرة، والمشفقون (الخائفون)في الدنيا يأمنون في الآخرة.

(**وَالَّذِينَ آمَنُوا**)بقلوبهم بالله وكتبه ورسله ورسالاته (**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**)من أعمال القلوب والجوارح من الواجبات والمستحبات، ومن الأعمال الصالحات الباقيات النافعات للناس باستمرار جيلاً بعد جيل(وخير الناس من نفع الناس) فهؤلاء (**فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ**)الرياض الخضراء الجميلة المزهرة المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة المتنوعة، والمناظر الخلاّبة الحسنة، والأشجار المثمرة الفوّاحة العطرة، والطيور المغردة، والاجتماع بكل حبيب وقريب، رياض واسعة تشرح الصدور، ولا تزداد على طول المدى إلاّ حسناً، ولا يزداد أهلها إلاّ تعلقاً إلى جمالها ولذّاتها(**لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ**)بلا حدود ولا قيود، في مقام القرب والحب لا مقام المكان كقوله(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ)القمر/٥٥، لهم في الجنّات، وجاءت بصيغة الجمع، أنها ليست جنة واحدة وأنما هي جنات، لهم فيها ما يشتهونه من أنواع اللذائذ والنعيم المقيم، والثواب العظيم عند رب كريم رحيم، ولكن أين هذا من التكريم مع هذا من الحرمان والخسران؟ (**ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**)ذلك الثواب النموذجي المميز هو الفضل الكبير على عباده الصالحين، وهو إحسان جليل عظيم كريم لا يعادله إحسان غيره، ولا يوازيه شيء، لأن الله قال(**الْكَبِيرُ**) فمن ذا الذي يقدر هذا الفضل قدره، كقوله(فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن

قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)السجدة/١٧، **في نهج البلاغة حكم٤٥٦**(أنه ليس لأنفسكم ثمن إلاّ الجنة فلا تبيعوها إلاّ بها) **فائدة:(مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا)** إن الكسب للحسنات والاكتساب للسيئات كقوله(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)البقرة/٢٨٦، وأضيف الاكتساب إلى الشر، لبيان أن النفس تولد على الفطرة السليمة، فهي مجبولة على فعل الخير، وتفعل الشر بالجهل والغفلة والتأسّي بالجهلاء وبالاتباع الأعمى كقوله(وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) الشمس/١٠، فالميل إلى الخير مغروس في طبع الإنسان، كعبادة الله مغروسة في طبعه، وأما الشر فإنه يعرض للنفس لأسباب خارجية ليست من فطرتها، وتأتي إرادة الشر لتضغط على النفس اللوّامة لتنفذه.

٢٣ –﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

المعنى:(ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)(ذَٰلِكَ)إشارة إلى الفضل الكبير المعدّ لهم في عالم الآخرة، وبشّر المتقين، ليفرحوا ويعملوا لله وللناس جاهدين، ويزدادوا شوقاً إلى لقاء الله تعالى، وهذه من أكبر البشائر في الترغيب لأهل الإيمان الصادق والعمل الصالح النافع للناس، فهذه الغاية من أجلّ الغايات وأفضل البشارات، وتكون وسائلها أفضل الوسائل كقوله(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)البينة/٧، ومن أهم مصاديق الإيمان والعمل الصالح مودة ذوي القربى ومعرفة الولاية والإمامة، ودورها بعد النبي (ص) فيكون أجر الرسالة معرفة وتشخيص من هم أهل بيت النبي ومودّتهم، لتكون حسنة فعالة صالحة تهدي صاحبها للتي هي أقوم، لأن(**الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ**)ولاء ووفاء وانتماء واتباع وطاعة. **(قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ)**هذه توصية خاصة مهمة بـ **(الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ)**تكون لها فوائد كثيرة ومهمة يعود نفعها إليهم جيلاً بعد جيل، أي قل يا مُحَمّد: لا أسألكم على إبلاغكم رسالة الله القيّمة أجراً عوضاً من المال ولا أن أكون رئيساً عليكم، إلاّ أن الله أوجب عليكم أن تحفظوا حقي عندكم بـ **(مودة قرابتي أهل بيتي)** فإني أحتسب مودتكم وطاعتكم لقرابتي(والأقربون أولى بالمعروف، وهم الأرحام بمعنى الرحم)وأعدّها أجراً لرسالتي، أي اجعلوا مكاناً في قلوبكم في قربى النبي من أهل بيته الكرام، الأمناء على الرسالة والحافظين لها، ومن صفاتهم أنهم لا يأكلون الصدقة، ومميزون بالعلم الواسع الأصيل، والقيادة النموذجية، وبمكارم الأخلاق، كقوله(**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**)الأنعام/٩٠، وتكون هذه العلاقة معهم بدرجة المودة وليست بدرجة الحب، لأن المودة حبّ عملي عقائدي فعلي أصيل عميق الجذور في النفوس، يفوق الحب الظاهري العاطفي الرقيق، والعِبرة لتشخيص وتحديد من هم القربى الذين يعنيهم رسول الإنسانية (ص) التي تعادل مودتهم أجر الرسالة القيّمة كلها؟ لتكون هذه التوصية بالقربى المعينة المحددة الأكفّاء، الأمناء، يعدّهم النبي امتداد

للرسالة لتستمر من بعده، كما أعدّ موسى النقباء كقوله (وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا) المائدة/١٢، وكما أعدّ عيسى الحواريين كقوله(قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ)آل عمران/٥٢، وكما أعدّ النبي مُحَمَّد(ص) الإمامة من بعده في أهل بيته الكرام، عن النبي (ص)(إنّ عدّه الخلفاء بعدي عدّة نقباء موسى)كنز العمال خبر١٤٩٧١، قال تعالى(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ) الإسراء/٧١، عن النبي(ص)

(من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية)كنز العمال خبر٤٦٤، **وفي شرح نهج البلاغة٣٧٣/١٨** (عليكم بطاعة من لا تعذرون في جهالته)، وهكذا أكد القرآن على أهمية دور أهل البيت (ع)في عدة آيات كقوله(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) الأحزاب/٣٣، وقوله (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ) آل عمران/٦١، وقوله(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) المائدة/٥٥ وأكد النبي(ص)على مودة أهل بيته في أحاديث كثيرة متواترة فقال (ص) (أساس الإسلام حبي وحبّ أهل بيتي)كنز العمال خبر٣٧٦٣١، وعنه(مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق)كنز العمال خبر٣٤١٥١، وعنه(ص) **(ألا ومن مات على حبّ آل مُحَمَّد مات شهيداً، ألا ومن مات على حبّ آل مُحَمد مات مغفوراً له**.. ألا ومن مات على بغض آل مُحَمَّد جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله..)الفخر الرازي١٦٥/٢٧، وذكر الزمخشري، وروح البيان٣١٢/٤، وفي تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي قال لما نزلت هذه الآية: قيل يا رسول الله من هم قرابتك الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال(ص) **(عليّ وفاطمة والحسن والحسين)**وذكره تفسير البيضاوي٣٥٧/٢، وفي حديث الثقلين عن النبي(ص) (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي) وعنه (ص) (من أبغضنا أهل البيت فهو منافق)الدر المنثور٦ ص٦-٧ قال أبن عربي في الفتوحات المكية ج٤.

عنوان (**لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ**)سألنا رسول الله المودة في قرابته وأهل بيته، وهو واحد منهم، حبّ أهل البيت لا يتبعّض، فمن خان أهل البيت فقد خان رسول الله(ص)ومن خان رسول الله فقد خان الله، عن النبي(ص)(حرمت الجنة على من ظلم أهل بيتي وآذوني في عترتي) وقال تعالى(قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ)سبأ/٤٧، وقال(قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ) الأنعام/٩٠، اعتبر صاحب تفسير الميزان **(إلاّ المودة في القربى)** استثناء متصلاً باعتبار أن القربى لا تمثل شأناً شخصياً للنبي(ص)وإنما هي من خصوصيات حفظ الدعوة واستمرارها، لذلك جعل النبي للعترة الطاهرة الأمانة العامة لحفظ الرسالة، وجعل الله المودة عامة للمؤمنين، وركّز عليها في قرابته من أهل بيته كقوله(إِنَّ الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا)مريم/٩٦ وقوله (**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**) التوبة/٧١، ولكن القرآن والسنة قد ركزتا على دور أهل البيت(ع) حتى لا تتفرّق الأمة إلى مذاهب مختلفة، **في نهج البلاغة خطبة٩٧** (انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سَمْتَهم، واتّبعوا أثرهم، فلن يخرجوكم من هُدىً، ولن يعيدوكم في ردىً، فإن لبدوا فالبدوا، وإن نهضوا فانهضوا، ولا تسبقوهم فتضلّوا، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا)!، فتكون الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين ووحدة كلمتهم على أساس كلمة التوحيد، وفيها صلاح الدنيا وقوة الدين وعز المؤمنين.

(وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا)

ومن يقترف: يكتسب حسنة لها معنى واسع الدلالة، الاقتراف تستعمل في المعاني المتضادة في المدح والذم، واستعملت في الإساءة أكثر، كقوله(إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ) الأنعام/١٢٠، **وفي استعمال هذا الفعل في مقام الإحسان، فيه دلالة على أن الذي يعمل السوء، يستطيع هو نفسه أن يفعل الخير والإحسان،** وبما أن هذه الجملة وردت بعد(**الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ**)لتكون مصداقاً لأكتساب الحسنة، أي ومن يكتسب حسنة وهي مودة أهل البيت(ع) ومطلق طاعة الله، وإقامة فرائضه، وخدمة الناس، هي حسنة (**نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا**) بتضعيف خيرها وثوابها وزيادة فضلها، ورفع نقائصها، ويكون سبباً للتوفيق ورفع المنزلة عند الله وعند الناس. عن الإمام الحسن(ع)في هذه الآية(اقتراف الحسنة مودتنا أهل البيت) مستدرك الصحيحين١٧٢/٣ (**إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ**) لأن الله كثير الغفران ويمحو السيئات (**شَكُورٌ**) كثير الشكر والمبالغة في الرضا والإكرام والاحترام لهم، ولا يضيع عنده عمل العاملين عن النبي(ص) (من لم يشكر الناس لم يشكر الله)مجمع البيان٥٠٧/١٠. **فائدة: سبب النزول ٢٣-٢٥**، عن ابن عباس: إن رسول الله(ص) حين قدم المدينة واستحكم الإسلام فيها، قالت الأنصار فيما بينهم: نأتي رسول الله(ص)فنقول له: إن تصعب عليك أمور، فهذه أموالنا تحكّم فيها من غير حرج ولا محظور عليك، فأتوه في ذلك فنزلت الآية(**قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا..**) فقرأها عليهم وقال: تودون قرابتي من بعدي، فخرجوا من عنده مسلّمين لقوله، فقال المنافقون: إنّ هذا الشيء افتراه في مجلسه، أراد أن يذللنا لقرابته من بعده! فنزلت (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ) الآية ٢٤ فأرسل إليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتدّ عليهم، فأنزل الله(**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**) الشورى/٢٥، مجمع البيان٥١/٩.

٢٤-﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

(**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا**)الاستفهام للإنكار والتوبيخ، قال الكافرون: مُحَمَّد مفترٍ بادّعائه النبوة، وإنه لم يوح إليه، ولم يأت بالقرآن من الله، ولكن هذا قول مردود(**فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ**)لو حدّثت نفسك يا مُحَمَّد أن تفتري على الله الكذب لعلمه الله، وطبع على قلبك، ولسلب الله منك الوعي والفهم، ولأنساك القرآن فتنسى ما حفظت، ويمنع عنك الوحي، فلا تتلقّى شيئاً من التأييد والتسديد، **والختم على القلب**: من أشد العقوبات لأن الختم يحجب القلب عن تلقي نور الهداية والفيوضات الإلهية، **ولكنك لم تفتر على الله كذباً ولا حرفاً واحداً**، وإنك منزّه عن الكذب بتربيتك وبطبعك وبعصمتك، ولهذا أيدك وسددك كقوله(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ)الحاقة/٤٤-٤٦، وقوله(وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)الإسراء/٨٦ **وهذا على سبيل الافتراض والتشبيه**، وفرض المحال ليس بمحال (**وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ**)

ثم أكد استبعاد الافتراء منه(ص) وزاده إيضاحاً وكأنه يقول: كيف يكون منه الافتراء على الله وهو المشهور بالصادق الأمين، وقد جرت سنة الله تعالى أن يمحو الباطل ويمحقه ويزيله، وإن كان له صولة وجولة وإن طالت، ولكن للحق دولة ثابتة مستقلة موعودة، فيظهر من نوره وهداه ما به يضمحل الباطل ويتبين بطلانه للجميع، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد وينتشر بين الناس (**وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ**)ويثبت الحق بوحيه وقرآنه المجيد وما فيه من الحجج والبراهين، لذا جعل الله سبحانه كلمة الباطل هي السفلى، وكلمة مُحَمَّد(ص) هي العليا (**إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**)إنه عليم بما تضمره القلوب وخفايا الصدور والضمائر وأسرارها ونياتها المستورة. **فائدة: الفرق بين الافتراء والكذب، إن الافتراء**: افتعال الكذب من قول نفسه، والتفنن فيه، بحيث يوهم السامع بأنه صدق، **والكذب**: القول خلاف الصحيح بلا تثبت أو بتعمد كقوله(إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ)النحل/١٠٥، عن النبي(ص) (كبرت خيانة أن تحدّث أخاك حديثاً هو لك مصدّق وأنت به كاذب)الترغيب والترهيب٣/٥٩٦.

٢٥ -﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾

(**وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ**)قيل: إنها أرجى آية في القرآن الكريم، بسبب إطلاق قبول التوبة النصوح عن عصيان عباده، يعلم الله سبحانه هل صدق التائبون ما عاهدوا الله عليه من ترك المعاصي، أو أنقضوا العهد من بعد ميثاقه كقوله(إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) النساء/٣١، عن النبي (ص) (**إن كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون**) الدر المنثور١/٢٦١ عن الإمام الرضا (ع) (المستغفر من ذنب ويفعله، كالمستهزئ بربه) الكافي٢/٥٠٤، من لطف الله وسعة رحمته أنه يقبل التوبة الصادقة عن عباده، **والآية عامة الدلالة**، لأن التوبة رجوع المذنب عن خط الانحراف والندم عليه واستغفار الله منه، إلى خط الاستقامة بأمانة، والعزم على الثبات عليه، والتوبة تطهّر القلوب، وتغسل الذنوب، وتستنزل

الرحمة، وتمحوا الخطيئة، لو لم يشرع له الله التوبة سيظل يعمل السيئات كما يحلو له، فيضرّ نفسه والناس حوله، **في غرر الحكم**(التنّزه عن معاصي الله عبادة التوابين)عن الإمام الصادق (ع) (كل ذنب عمله العبد وإن كان عالماً فهو جاهل، حين خاطر بنفسه في معصية ربه)نور الثقلين١/٤٥٧، كقول يوسف لاخوته(قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ) يوسف/٨٩، فنسبهم إلى الجهل في تآمرهم على يوسف وإن كانوا متعمّدين على الجريمة، لأنهم لا يعرفون عواقبها.

يقبل الله التوبة إذا تحققت شروطها: الندم على المعصية، والإقلاع عنها، والعزم على عدم العودة إليها، وهذه شروط ثلاثة فيما بين العبد وربه، وإذا كملت الشروط واستمرت صحّت التوبة، وإن فقد واحد منها لم تكن توبة صحيحة، وإذا كانت توبة بدون مصداق واقعي تكون نفاقاً ورياءً، أما ما يتعلق بحقوق الناس فيزداد عليها، فيجب براءة الذمة معهم، **في غرر الحكم** (جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدّمة على حقوقه، فمن قام بحقوق عباد الله، كان ذلك مؤدّياً إلى القيام بحقوق الله)(**وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ**)صغيرها وكبيرها ما عدا حقوق الناس، ويعفو غير الشرك بالله الجلي أو الخفي كقوله(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)الزمر/٦٥، سئل الإمام الصادق(ع) عن أدنى الشرك فقال(من ابتدع رأياً فأحبّ عليه أو أبغض عليه) الكافي٢/٣٩٧ (**وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**)ويعلم جميع ما تصنعون من خير أو شر، في السّر والعلانية، فيجازيكم على ذلك. **فائدة:** قال:(**عَنْ عِبَادِهِ**)ولم يقل(من عباده) فالتوبة منهم، ولكن الله سبحانه تحمّلها عن عباده ليرحمهم.

٢٦-﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

(**وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**)فمعنى الاستجابة هنا القبول، أي المؤمنون الصالحون الطيبون يستجيبون لدعوة ربهم، ويقبلون على الله تائبين صادقين ويقبل الله توبتهم، وما عليهم إلاّ أن يلبّون دعوة الله الكريمة، وينقادون إلى منهجه كقوله(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ)النساء/١٧، هو سبحانه أيضاً يستجيب لهم دعاءهم ويهديهم ويؤيدهم ويسددهم ويقربهم إليه، والذي لا يستجيب للرحمن فيستجيب للشيطان (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا)الفرقان/٢٩ (**وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ**)من جوده وكرمه على ما سألوه ويرزقهم الشفاعة، وتدل على استجابة الله لهم وقبول طاعتهم، فيعطيهم فوق ما طلبوا لأنه أرحم الراحمين (**وَالْكَافِرُونَ**)المصرون على الكفر والمعاندون(**لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ**)ومديد، جزاء على نسيانهم ربهم، ولأنهم مطرودون من رحمة الله، **فائدة:**(**وَيَسْتَجِيبُ**)ولم يقل(يجيب) لأنها تدل على سرعة الاستجابة في التزامهم بمنهج ربهم بلا تردد ولا تباطؤا ولا تقلّب.

٢٧-﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾

الأصل أن الله كريم يبسط الرزق لعباده، لذا قدّم البسط على الفقر، ولا يضيّق الرزق إلاّ عندما يعلم الله أن البسطة في الرزق مفسدة، فيضيّق على عبده منافذ الرزق ليصلحه بالصبر والفقر والقناعة، ولكن مهما كثرت أرزاق الدنيا فهي ضئيلة ومؤقتة، بالنسبة إلى فيض الرزق في الآخرة، والله سبحانه يعلم أن عباده لا يطيقون الغنى إلاّ بقدر، وأنه لو بسط لهم الرزق من نوع ما يبسطه في الآخرة لبغوا وطغوا، إنهم صغار لا يملكون ملكة التوازن، ضعاف لا يحتملون إطلاق الرزق إلّا حداً وحدوداً، ليبتلي الغني بالفقير، والفقير بالغني، ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً كقوله(**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا**) الزخرف/٣٢ **سخرياً**: من التسخير في الأعمال والخدمات، لا من السخرية والاستهزاء والاستعلاء، أي أن كل البشر مسخّر بعضهم لبعض، حتى يشتغلوا بمطالب العيش. **قال الشاعر**: الناس للناس من بدوٍ ومن حضر- بعض لبعض وإن لم يشعروا خدمُ، وهناك عدة شواهد لمن بسط الله لهم الرزق فبغوا في الأرض، هؤلاء زعماء الرأسمالية في العالم وبغيهم وفسادهم في البلاد والعباد.

المعنى:(**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ**) ولو وسّع الله الرزق لعباده جميعاً، وأفاضه عليهم من مال وجمال وحسن حال وكثرة الرفاهية فوق حاجتهم(**لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ**) لبطروا معيشتهم ولطغوا واعتدوا وتغلّب بعضهم على بعض، وأفسدوا في البلاد والعباد، كقوله (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ)العلق/٦-٧، عن الإمام الباقر(ع)(إنّ الخير ثقل على أهل الدنيا على قدر ثقله في موازينهم يوم القيامة، وإنّ الشر خف على أهل الدنيا على قدر خفّته في موازينهم يوم القيامة)كنز الدقائق٣/٤٤٨، الثراء الكثير قد يطغي صاحبه، ويكون سبباً في هلاكه، مثل غرور قارون وطغيانه كقوله(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي)القصص/٧٨ عن الإمام الصادق (ع)(ما من قبض ولا بسط إلاّ ولله فيه مشيّة وقضاء وابتلاء)التوحيد ص٣٥٤، ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا، فنظام العالم لا يستقر إلا على هذا الوضع المقدّر الجامع بين الأمرين، فيكون الفقر والغنى معاً ابتلاء كقوله(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ، كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) الفجر/١٥-١٧، **في نهج البلاغة حكم٣٢٨** (إن الله سبحانه فرض في أموال الأغنياء أقوات الفقراء، فما جاع فقير إلاّ بما مُتّع به غنيّ، والله تعالى سائلهم عن ذلك) **ونشاهد ثراء بعض الأغنياء ونماء رزقهم بسرعة هائلة ومذهلة وبطرق ملتوية مختلفة، إنه الثراء بالحرام، وهو من رزق الشيطان لا من رزق الرحمن**، من الغش والاحتكار والرشوة والفساد، بالسلب والنهب والسرقات الفنية المدعومة، ولا يهنأ الإنسان إلاّ بالحلال، أما المال الحرام لا يهنأ به وقد يصرفه على الحرام والفساد وما لا ينتفع به، ويجمع لغيره وذنبه عليه. كقوله(لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)المائدة/٤٨.

عن النبي(ص) **(ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى)** ولكن سوف يصطدم، هذا الغني المغرور بسنة أخرى حاكمة على هذه السنة المنظمة المقدّرة، وهي سنة الابتلاء والامتحان بالغنى والرفاهية كقوله (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) آل عمران/١٧٨، وقوله (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ)لقمان/٢٤. وقوله (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً) الأنعام/٤٤ **(وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ)**ينزّل بتقدير موزون ما يصلحهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم. بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته، أي إنه يوسّع الرزق على من تكون مصلحته فيه، ويضيق على من تكون المصلحة فيه، كقوله(فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ)المرسلات/٢٣ **(والبلاء على قدر الطباع)** فيكون معنى**(بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ)**بقدر عمل الإنسان ومقدار خبرته وتجربته واختصاصه، ومقدار وضعه العام في المال والحال، لأن الله تعالى أبى أن يجري الأمور إلاّ على أسبابها كقوله (وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، فَأَتْبَعَ سَبَبًا)الكهف/٨٤-٨٥، عن النبي(ص) (لا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله، فإن الله تبارك وتعالى قسم الأأرزاق بين خلقه حلالاً، ولم يقسّمها حراماً، فمن اتقى الله عز وجل وصبر أتاه الله برزقه من حِلِهِ) وعنه(ص) **(لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم، ولو شاء لجعلكم فقراء لا غني فيكم**، ولكنه ابتلى بعضكم ببعض، لينظر كيف عطف الغني، وكيف صبر الفقير)روح البيان٧/٤٠٨ كقوله (لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) يونس/١٤، **(إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ)**يعلم ما يستحقه كل عبد وما يناسب حاله وما يصلحه من غنى أو فقر، فهو محيط بخفايا أمورهم وعلانيتها، حاضرها وآجلها، فيقدّر لكل واحد منهم ما يليق بشأنه، عن الإمام الصادق(ع)يقول الله سبحانه وتعالى**(ليحذر عبدي الذي يستبطئ رزقي أن أغضب، فافتح عليه باباً من الدنيا)** نور الثقلين٤/٥٧٩. **فائدة:** جعل الله سبحانه أرزاق الناس بالأعمال، لينصرف الناس كل صاحب اختصاص إلى اختصاصه، ولو أنه رزقهم من غير عمل لملّوا الحياة، واشتغل بعضهم ببعض، وتلهّوا بالفسق والفجور، **في غرر الحكم**(استعيذوا بالله من سكرة الغنى، فإن له سكرة بعيدة الإفاقة) وخير العيش ما يكفيك فلا يلهيك ولا يطغيك.

٢٨ –﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾

(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا)وهو الذي ينزّل المطر النافع ليغيث به البلاد والعباد وجميع الكائنات والحيوانات والزرع والضرع، والغيث يغيث من خوف القحط والجدب والمجاعة، لذلك يسمى ماء السماء غيثاً لأنه ماء الحياة، وينزله بمقدار معلوم وتنمو الحياة بجميع معانيها، **وتسمية الغيث له دلالاته البلاغية واسعة المعاني، الغيث: بمعنى المطر النافع، وكلمة المطر عامة،** تشمل ما كان مفيداً ومضراً معاً كقوله(أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ)الفرقان/٤٠ **(مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا)** من بعد يأسهم من نزوله، وقفوا عاجزين عن إمدادهم بماء الحياة **(وَيَنشُرُ**

رَحْمَتَهُ) إنه مشهد يريح النفس ويرخّي الأعصاب ويخلق الأمل، ويرهف الحس ويشرح الصدر ويرق القلب وتتحرك المشاعر وتحيا الضمائر، بانتشار رحمة الله ونعمته الواسعتين ومنافعهما الكثيرتين **(وَهُوَ الْوَلِيُّ)** الذي يتولى تأمين كل حاجات عباده، ويرعى مصالحهم في دنياهم وآخرتهم، والإحسان إليهم، وليس لهم ولي غيره **(الْحَمِيدُ)**المحمود المستحق للحمد بكل لسان وفي كل زمان ومكان، له الحمد على جميع أفعاله وأقواله.

٢٩ - ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾

(وَمِنْ آيَاتِهِ) ومن دلائل قدرته، وعجائب حكمته، وغرائب عظمته، الدالة على توحيده**(خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)**بهذا الشكل البديع الذي ظاهره أنيق وباطنه عميق ودلالاته واسعة**(وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ)**وما نشر فيهما من الكائنات الحية التي تدب وتتحرك، وهي متنوعة في الصّور والأجناس والأشكال والألوان والأحجام، وكلها تنطق بلسان حالها قبل لسان مقالها، بوجود خالقها ومصوّرها، المستحق للعبادة والطاعة دون غيره، كأنها تشهد بأن الذي أنشأها ودبرها وقدرها هو الله تعالى، فإن ضخامتها الهائلة، وتناسقها الدقيق ونظامها العميق المستمر، ووحدة مدبرها ومبدعها يدلك على الله تعالى. **(وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ)**وهو على جمعهم في يوم الجمع اللازم، يوم القيامة القائم، ويسهل عليه حشرهم ونشرهم بعد موتهم، وقادر متمكن في أي وقت يشاء وهو على كل شيء قدير، ويجمعهم في موقف واحد حاسم، لا يضل منهم أحد ولا يغيب! وبنو الإنسان يعجزهم أن يجمعوا سرباً من الطيور الأليف ينفلت من أقفاصهم، ولكن الله يجمع كل خلقه، من عاقل وغير عاقل، حين يشاء كقوله(أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا) البقرة/١٤٨، من الرشاد الاستعداد ليوم المعاد، **في غرر الحكم**(خيرُ العلم ما أصلحت به رشادك، وشرّه ما أفسدت به معادك).

فائدة: قال**(وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ)**والدابة تدب وتمشي لا تكون إلا على الأرض، فكيف قال **(وَمَا بَثَّ فِيهِمَا)**؟ **الجواب:** يخبرنا الله تعالى بإشارة تلميحية سريعة عن خلق لا ندركه يعيش في السماوات العليا غير عالم الأرض، كما نعيش نحن، في أحد الكواكب والعوالم العلوية المبثوثة في أعماق الفضاء، التي لا يعلم الإنسان عنها بوسائله المحدودة إلاّ القليل كقوله **(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)** النحل/٨، **مخلوقات حية على صور وأشكال لا يعلمها إلاّ الله، وهي تحت سلطان الله** سبحانه في محياها ومماتها، وليس ما على هذه الأرض من صور معينة من ألوان وأشكال كثيرة لا حصر لها، من صور الحياة المتنوعة في هذا الوجود الواسع الحي! وقد كشف علماء الفضاء حديثاً عن وجود إمكانية الحياة في المريخ، واستدلّوا بهذه الآية، أما الإنسان فلا يوجد إلاّ على هذه الأرض لقوله(قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) الأعراف/٢٥، وسيكشف العلم الحديث كثيراً مما خفي علينا كقوله(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)فصلت/٥٣.

٣٠-﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾

(**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ**)يخبر الله تعالى أنه ما أصاب من مصيبة أو مشكلة صعبة في أبدانكم أو أموالكم أو أولادكم.. إلخ (**فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**)بسبب ما قدمته أيديكم من الآثام والمعاصي، ومن الأخطاء الجسيمة بسوء تصرفكم، وبدافع جهلكم وعدم خبرتكم وتجربتكم، وعدم فهمكم الدقة في الأمور، وعدم الاستشارة من الناصحين، أو بسبب التساهل والتسّرع في الأمور قبل نضوجها، وبحسب الظروف السيئة والمعاناة المحيطة بهم والمؤثرة سلباً عليهم، فكلما يزرع الأخطاء يحصدها.

في غرر الحكم(المرء حيث يضع نفسه) كقوله(**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**) يونس/٤٤ وقوله(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)الروم/٤١، وقوله(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى)النحل/٦١، عن النبي(ص) (والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلاّ كفّر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها) وعنه (ص) (والذي نفسي بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلاّ بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر)المراغي٢٥ ص٤٨، **تدل هذه الآية بوضوح، وهي ذات دلالة عامة،** أن ما من تأخر وتدهور وتخلّف يصيب الفرد أو المجتمع بسوء تصرفكم (**فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**)أي أن الظلم والفقر والبؤس والحرمان والضعف والجهل والانحطاط من صنع الأنظمة الجائرة الحاكمة، والأوضاع الفاسدة، لا من صنع الله العادل، ولا من شريعته الحنيفية الحضارية السهلة السمحة التي لا حرج فيها ولا ضرر، كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) الرعد/١١.

المصائب نوعان: نوع للإنسان يد فيها كالتلميذ الكسول، فأصابته مصيبة الرسوب فهي بسببه، **ونوع ليس له فيها يد،** كالذي يمرض فجأة في وقت المذاكرة، ليس لها سبب عندنا وحكمتها عند مجريها، فيكون كل ما يصيب الإنسان في الدنيا إلاّ غفران ذنوب أو رفع درجة، **وعبّر بالأيدي**، لأن أكثر الأفعال تزاول بها، **فالله سبحانه جعل المصائب أسباباً لها نتائجها ومسبباتها، فهي بمثابة التحذير والتخويف ليراجع نفسه ويحاسبها مثل:** شارب الخمر يصاب بكثير من الأمراض النفسية والجسدية وهي أثر من آثار عصيانه لله، والتاجر الكذّاب تصاب تجارته بالكساد، ويشتهر بين الناس بالخيانة، فيفقدون الثقة به ويتركوه، والحكام المرتشون الظلمة الذين يثرون بالحرام، فيصابون ببلايا تجعلهم مثلاً سيئاً بين الناس ولو بعد حين، والأمم المتفككة الظالمة المتقاطعة التي يبتز بعض أفرادها أموال البعض الآخر، تصاب بالذلة بعد العزة، أنظر إلى حال الأمم الشرقية أصابها الضعف والذل بما اجترحت من ظلم

وإفساد في البلاد والعباد، وأكل بعضهم حقوق بعض وقد اقتصّ الله منهم، فأضاع ملكهم وذهبت عزّتهم وصاروا لقمة سائغة بيد المستكبرين.

(فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ) كقوله **(قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا)** مريم/٧٥، وقوله (مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ)النساء/٧٩، **وهناك أيضاً حالات كثيرة** فنرى حاكماً منافقاً دجالاً لا يصاب بشيء، ونرى تجار في الدين يتخّذون الدّين سلّماً للدنيا فلا يصابون بشيء، فيؤجل عقابهم ليوم القيامة عن النبي(ص)(من طلب الدنيا بعمل الآخرة فليس له في الآخرة من نصيب)كنز العمال خبر٢٩٠٦٧، وعنه(ص) **(ويل لمن طلب الدنيا بالدّين)** كنز العمال خبر٢٩٠٩١ **(فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ)**جاء بصيغة الجمع ليشمل الخطاب مسؤولية الفرد والأمة معاً، وقد تأتي المصائب ليس بمعاصي الفرد، بل نتيجة الأوضاع المعقدة التي يعاني منها الواقع الاجتماعي العام، حتى على الذين لا دخل لهم بتلك المصائب، ولكنهم يشكلون جزءاً من أجزاء الواقع فيتأثرون بها. ولكن بعض طاقات الإنسان تتفتق تحت ضغط المصائب**!** عن النبي(ص)(عجبت لغافل وليس بمغفول عنه)أمالي المفيد ص٤٥ **(وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ)** من تلك المعاصي التي تستوجب العقوبة، ولكنه لا يعاقب سبحانه عليها تفضلاً منه ورحمة، وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به، لعلّ هذا الإمهال يغيّر الواقع من حال إلى حال.

(وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ) بأدعية وانقطاع المؤمنين إلى الله كقوله(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ) الفرقان/٧٧، عن النبي (ص) (لا يرّد القضاء إلاّ الدعاء)البحار٢٩٦/٩٣، **فائدة: ١-سؤال:** تكون المصيبة جزاء، والجزاء في يوم القيامة، فلماذا يكون الجزاء في الدنيا؟ **الجواب:** ليس هذا جزاء، ولكنه ابتلاء ولفت نظر إلى أهمية العمل الصالح وتذكير بالله تعالى، وهذا الابتلاء عام يحدث للصالح والفاسق، وقد لا يحدث هذا الابتلاء بسبب سيئات ارتكبوها، ولكنها امتحان في التكليف، كقوله (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) الأنبياء/٣٥، فيكون الابتلاء إما محو سيئات أو رفع درجات، وأسوة للغير أن يصبر ويتحّمل، ومن أجل تصحيح سلوك الإنسان مع ربه ومع الناس، ٢-**سؤال:** إذا كانت المصائب بما كسبت أيدينا، فما هو سر المصائب للأولياء؟ **الجواب:** فهي لتهذيبهم وتكاملهم ورفع درجتهم، وليكونوا قدوة حسنة للآخرين، عن النبي (ص)(البلاء للظالم أدب، وللمؤمن ابتلاء، وللأولياء درجة)بحار الأنوار١٨٩/٨٠ عن الإمام الصادق(ع) (إنّ رسول الله(ص) كان يتوب إلى الله ويستغفر في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب، إنّ الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب)أصول الكافي٥٨١/٤، **قيل: في المحن منح من الله، وفي المكاره مكارم**، وفي المشقّات راحات وخبرات، وفي المعانات

هبات، وفي العقوبات يقظات الضمير، وفي البلايا بدايات نهاياتها الكرامات، عن الإمام الحسن العسكري(ع) (ما من بلية إلاّ ولله فيها نعمة تحيط بها)! البحار٧٨/٣٧٤

٣١-﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

بمعجزين: بجاعلين الله عاجزاً عنكم.

المعنى:(**وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ**)إنكم لا تعجزون الله حيثما كنتم(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) الحديد/٤، فلا تسبقونه بهربكم منه في بقاع الأرض الواسعة، حتى لا تنالكم المصائب، بل هي لاحقة بكم أينما تكونون لأنكم تحت قبضة الله وقدرته، وفي مواقع ملكه تعيشون، فإلى أين تهربون منه؟ كقوله(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)التكوير/٢٦ ولا ملجأ ولا منجى ولا مهرب من الله إلاّ بالعودة إليه كقوله(وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا) الجن/١٢(**وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ**)وما لكم من دونه سبحانه من ولي قريب منكم، يتولى أموركم، ويتعهد مصالحكم، فيقدم لكم المنافع ويدفع عنكم المصائب قبل أن تكبر(**وَلَا نَصِيرٍ**) ينصركم ويشفع لكم ويعينكم على دفع عذابه وانتقامه. **فائدة**:١- الآية داعية إلى المبادرة إلى محاسبة النفس، فإن فيها تزكيتها وتهذيبها كقوله (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) الشمس/٩-١٠ ٢- **الفرق بين الولي والنصير**: إنّ **الولي**: لمن يدافع بشكل مستقل ومن دون طلب منه، ويجلب منفعته، **والنصير**: لمن يقف إلى جانب الإنسان بطلب منه ويقوم بنصرته ودفع الضرر عنه.

٣٢-٣٤-﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ، إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ، أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾

إذا كانت السفينة من صنع الإنسان، فإن أخشابها وسائر أجزائها، والماء الذي تجري عليه، والهواء والوقود والمكائن التي تدفعها.. فهو من صنع الله، ومثلها الطائرات والسيارات والقطارات.. وغيرها فإنها من تعليم الله(وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)البقرة/١٥١، **المعنى**:(**وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ**) ومن علامات الدالة على قدرته الباهرة ورحمته بعباده وتوحيده، السفن العملاقة الجارية في البحر(**كَالْأَعْلَامِ**)تبدو للناظر من بعيد كالجبال في ضخامتها، **وتكون الآية في ذلك**: أن الماء السائل اللطيف الشفاف يحمل البواخر الضخمة المصنوعة من الحديد الثقيل، والتي تحمل البضائع الكثيرة بآلاف الأطنان! فجعل الله تعالى في الماء نظام الطفو يحملها ويمنعها من الغوص، من أودع هذه الخصائص المميزة في الماء السائل حتى يحمل السفن الضخام؟! وكذلك السيارة التي تحمل الأثقال محمولة على الهواء داخل العجلات، فإن هذه السفن الضخمة لم يعرفها العالم إلاّ أواخر القرن الثامن عشر.

٣٣-(**إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ**) يوقف الريح عن حركتها وهبوبها(**فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ**) فتصير السفن ثوابت متوقفة على سطح الماء، هذه الريح التي تدفع ذلك النوع من السفن

الشراعية التي كانت معلومة في وقتها للمخاطبين، وفي هذا الزمان من أنواع القوى والوقود والمحركات التي سخّرها الله للإنسان لتحريك السفن العملاقة، وكافة وسائل النقل الحديثة المتنوعة (**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ**)إن في ذلك لعلامات دالة (**لِّكُلِّ صَبَّارٍ**)لكل من علّم نفسه الصبر المناسب عن ملهيات الدنيا المحرّمة، ليستقيم ويتأمل في آيات الله المنتشرة في النفوس وفي الآفاق، الدالة بوضوح على أن وراء الكون مكوناً ومدبراً ومقتدراً، (**شَكُورٍ**)عوّدها الشكر لله مانح النعم، وهما صفتان أساسيتان في شخصية المؤمن. **صبّار**: صيغة مبالغة الصبر، كثير الصبر والتحمل على ما تكرهه نفسه، ويستمر في إتقان عمله، فهو يصبر الصبر الجميل في موضعه المناسب، ويتحمل المشاكل والصعوبات حتى يتجاوزها بسلام، **شكور**: مبالغة الشكر، كثير الشكر على نعم الله التي تجد فيها آثار رحمة الله، وما تفتحه من آفاق على الله، ليشكره الشكر العلمي مع الشكر اللفظي كقوله (**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**) سبأ/١٣، والصبر والشكر كثيراً ما يقترنان في القرآن الكريم، الصبر الجميل على الابتلاء، والشكر العملي بالمواقف على النعماء، وهما قوام النفس المؤمنة، ومواطن تربيتها على الاستقامة في السرّاء والضرّاء، عن الإمام الصادق(ع) (الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر)الكافي٢ ص٨٧، ٣٤-(**أَوْ يُوبِقْهُنَّ**) وإن يشأ يغرقهن بالرياح العواصف، ويهلكهن وأهلها وأحمالها مع أصحاب السفينة(**بِمَا كَسَبُوا**) بسبب تجاوزهم للحدود الحمراء، وارتكابهم أقبح الجرائم والآثام، وما السفينة العملاقة المشهورة الحديثة (**تيتانيك**) ببعيد وقد أطلقوا على اسمها القاهرة للبحار، ونسوا الله(الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) الأنعام/١٨، ولكنها في أول سفرة غرقت مع من فيها! (**وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ**) فلولا عفوه تعالى، لم يكن لينجوا أحد من عذابه سبحانه في الدنيا سوى عباده الصالحين، ولكن الله برحمته الواسعة يتجاوز عن كثير من الذنوب المهلكة، فينجيهم الله من الهلاك.

٣٥-﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

(**وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا**)وليعلم، أي كان عليهم أن يعلموا ويتّعظوا بسنن الحياة، وليعلم الذين يجادلون في دلائلنا وحججنا بالباطل، إذا خالفت هواهم، ويصرفوها إلى ما لا تحتمله من المعاني، بقصد الطعن فيها بغير حجة علمية لديهم، ويجادلون جدالاً عقيماً مبنياً على التكذيب والاصرار والجهد والعناد، ومبني على الغفلة عن معرفة الحقيقة التي لا يعذر من جهلها، ويخاصمون ويشككون في حججنا الواضحة ليبطلوها بباطلهم وبجهلهم(**مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ**) ما لهم من مهرب يهربون إليه، وما لهم من مفر يلجؤون إليه، من عذاب الله القادم وعقوبته المهينة، **بمعنى**: إذا أحدقت بهم المخاطر الشديدة، اعترفوا بالله ولجؤوا إليه تلقائياً وفطرياً كقوله(وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ)التوبة/١١٨، فلا استقرار

للقلوب إلاّ بالصلة الوثيقة مع الله، فلو شاء الله أن يوقفهم أمام غضبه ويهلك سفنهم، فلا يملكون (من محيص) أي من مهرب وملجأ يفرون إليه.

٣٦-﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

(فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ)وما أعطيتم من شيء على اطلاقه من نعيم الدنيا وزهرتها ولذّتها وشهوتها من أموال وأولاد وعافية وجاه ومنصب.. إلخ فما هو إلاّ متاع قليل مهما كثر، فهو مجرد متاع محدود الأجل، مؤقّت ممتحن فيه ضمن العمر المحدود كقوله(مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ)النحل/٩٦، لا يرفع ولا يخفض، ولا يعدّ بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانة، ولا يعتبر بذاته علامة رضى أو غضب من الله، إنما هو مجرد متاع قليل مهما تنوّع، لذّاته قصيرة وتبعاته طويلة ومسؤولياته كثيرة، كقوله **(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ)**النساء/٧٧، متاع الدنيا تتمتعون به هنيئاً مريئاً بشرط أن لا يؤدي إلى الحرام كقوله(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) الأعراف/٣٢ **(وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)**وما عند الله من جزاء الآخرة ونعيم الجنة فهو متاع دائم ونعيم خالد ليس له قياس بمتاع الدنيا، لأن**(وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ)** في ذاته لكونه خالصاً من الألم **(وَأَبْقَى)** في مدته لأنه لا ينقص ولا ينقطع، فلا تقدموا الفاني على الباقي كقوله(وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)العنكبوت/٦٤.

الحيوان: لشدة ما فيها من الحيوية والنعيم والامتلاء، لذا جاءت**(حيوان)**مبالغة حياة ومضاعفتها، فهي الحياة الحقيقية الحيوية الإيجابية الدائمية النافعة المرفّهة السعيدة، حياة بلا سلبيات ولا منغّصات ولا صعوبات.

عن الإمام علي (ع) **(إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)** تنبيه الخواطر ص٤٦١، من وصية لقمان الحكيم لابنه (إعمل للدنيا بقدر عمرك فيها، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها، واعبد الله بقدر حاجتك إليه، واعصى الله بقدر تحملك لعذابه)عن الإمام الكاظم (ع) (ليس منّا من ترك دنياه لدينه أو ترك دينه لدنياه)البحار٣٢١/٧٨ **(لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)** للذين صدقوا بالله ورسوله، وفوّضوا أمورهم إلى خالقهم وتوكلوا عليه، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام.

التوكل: سعي الإنسان المطلوب والاعتماد بالقلب على الله، فلا يشغلك سعي مطلوب عن توكل مفروض، **في غرر الحكم** (على قدر الإيمان يكون التوكل، حسن توكل العبد على الله على قدر ثقته به)، فيتعلّق الإيمان بالعقيدة، ويتعلّق التوكل في العمل بالأسباب، فالجوارح والأعضاء تعمل والقلوب تتوكل، **التوكل:** يوجّه فكر المؤمن إلى خط الاستقامة على منهج الله، الذي يبدأ من الله وينتهي إليه، بحيث لا يرى إلاّ الله في كل حياته كقوله**(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)**الحديد/٤، عن النبي(ص) (أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث ما كنت)كنز العمال خبر٦٦، عن الإمام علي(ع) (ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله وبعده ومعه وفيه)مواهب

الرحمن/٧ ٣٠٠ عن الإمام الصادق(ع) (من أراد أن يعرف كيف منزلته عند الله، ليعرف كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد مثل ما ينزل العبد الله من نفسه)البحار ١٥٦/٧١.

٣٧- ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾

ومن صفات (لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)الآية/٣٦، **المعنى**:(**وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ**)والذين يبتعدون عن الكبائر كلها، ويتورّعون عن الصغائر بقدر المستطاع، لأن الإصرار على الصغائر تكون كبائر، فهم لا ينظرون إلى صغر المعصية، ولكن ينظرون إلى من عصيت؟ كقوله(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ)الأنعام/١٢٠، عن الإمام علي (ع) في قوله (**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**) البلد/١٠، قال: (إن الله أمر بطاعته وأعان عليها ولم يجعل في تركها عذراً، ونهى عن المعصية، وأغنى عنها ولم يجعل في ركوبها عذراً)! **في غرر الحكم** (أدين الناس من لم تفسد الشهّوة دينه) أي، والذين يبتعدون عن ارتكاب المعاصي الكبيرة التي لها آثار سيئة وخطيرة على نفس الفرد والمجتمع، وفيها وعيد بالنار، وعليها حد القصاص، لأن الكبائر والفواحش تمثل تمرداً على الله، وتحدياً لمنهجه، وتؤدي إلى إفساد حياة الناس الروحية والعملية، وهي كالقتل والخمور والقمار وعقوق الوالدين والسرقات،(**وَالْفَوَاحِشَ**)تتعلق بالشهوات والانحرافات الجنسية، وهي المعاصي الشنيعة القبيحة وأبرزها الزنا واللواط والزواج المثلي!

الفرق بين الكبائر والفواحش: مع أن جميعها كبائر، **إن الفواحش**: الذنوب الكبائر التي لذّاتها في رغبات النفوس المنحرفة والمحرّمة والشاذة، **وكبائر الإثم**: التي يعملها ويمارسها في الواقع من خارج النفوس، كقوله(وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)الأنعام/١٥١، وقوله (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ)النجم/٣٢، هؤلاء الذين يحرصون على سلامة قلوبهم، ونظافة سلوكهم، وبلاغة كلامهم كقوله(إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) النساء/٣١، عن الإمام علي(ع)(إن الله أخفى سخطه في معصيته، فلا تستصغرن شيئاً من معصيته، فربما وافق سخطه وأنت لا تعلم)البحار٧٣/٣٤٩ (**وَإِذَا مَا غَضِبُوا**) والذين إذا تملكتهم القوة الغضبية لا يظلمون ولا يعتدون بل يصفحون ويحلمون ويحافظون على وقارهم واستقامتهم (**هُمْ يَغْفِرُونَ**) يتجاوزون عن المسيئين إليهم كقوله(**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**) الحجر/٨٥ عن الإمام الباقر (ع) (من ملك نفسه إذا رغب، وإذا رهب، وإذا غضب، حرّم الله جسده على النار)نور الثقلين٤/٥٨٣.

(**هُمْ يَغْفِرُونَ**)بشرط أن يكون الحلم غير مخلّ بكرامة الإنسان، فإذا انتهكت كرامة الإنسان وحرماته، فالواجب المحافظة عليها. كقوله (**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**) الشورى/٣٩، عن النبي(ص)(إنّ الرفق لم يوضع على شيء إلاّ زانه، ولا نزع من شيء إلاّ شانه) البحار٧٥ ص٦٠، **في غرر الحكم**(إخلط الشدة برفق، وارفق ما كان الرفق أوفق)عن الإمام علي (ع)(إذا كان الرفق خرقاً (للعادة)كان الخرق(الغلظة)رفقاً، ربما كان الدواء داءً، والداء دواءً) شرح النهج١٦ ص٩٧ كقوله(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) التوبة/٧٣، **قال**

الشاعر: حلم الفتى في غير موضعه جهل(**هُمْ يَغْفِرُونَ**)أي يردّون جهل الجاهل بتجاهله، والمغفرة هنا لمن يغضب لنفسه، أما الذي يغضب من أجل الله ونصرة القضية المحقة، ورد حقوق المظلومين، غضب مطلوب لذاته ولغيره، فلا يجوز العفو عنه إلاّ بالاستجابة لنصرة الحق وأخذ الحقوق لأهلها، والرجوع عن الغي والضلال.(**هُمْ يَغْفِرُونَ**)قد تخلّقوا بمكارم الأخلاق، فصار الحلم لهم طبيعة، وحسن الخلق سجيّة، حتى إذا أغضبهم أحد بمقالة أو فعلة، كظموا ذلك الغضب وسيطروا على أنفسهم، ولم يردّوا الخطأ بالخطأ، وقابلوا المسيء بالأسلوب الصحيح المؤثر كقوله(**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**) آل عمران/١٣٤، وقوله(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)البقرة/٢١٩، **والعفو**: تاج المكارم، ويسقط الضغائن بينكم، عن الإمام علي(ع)(**العفو**: يفسد من اللّئيم بقدر إصلاحه من الكريم) البحار٤١٩/٧٧، كقوله(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) فصلت/٣٤، عن النبي(ص)(ألا أخبركم بخير خلائق (طبيعة وسجية) الدنيا والآخرة: العفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك، وأعطاء من حرمك) نور الثقلين٥٨٣/٤، وعنه (ص) (من أحبّ السبيل إلى الله عز وجل جرعتان: جرعة غيظ تردّها بحلم، وجرعة مصيبة تردّها بصبر) نور الثقلين٥٨٤/٤، (**هُمْ يَغْفِرُونَ**)وفي اقتران المغفرة بالغضب، إشارة لطيفة إلى أن المغفرة في حالة الغضب والانفعال هي المحمودة والمطلوبة والمميزة، لأنها تكون من مجاهدة النفس، **في نهج البلاغة حكم ٣٥٩**(أيها الناس: تولوا من أنفسكم تأديبها، واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها) وجاءت(**هُمْ**)تأكيد أن الصفح والمغفرة لابد أن تكون نابعة منهم عن قناعة وطيب خاطر وبلا تكلّف، وليس مراعاة لوساطة فلان، ولو فعل ذلك لوساطة، أصبح الجميل للوسيط والأجر له عند الله سبحانه.

٣٨-﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

ومن صفات (لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)الآية/٣٦، **المعنى**:(**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ**) فيما دعاهم إليه من الأعمال الصالحة، وأجابوه إلى ما دعاهم إلى منهجه المستقيم، خاضعين له خضوع الإحساس بحضوره كأنهم يرونه، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه وحبه، **والذين يستجيبون لله** يزيلون العوائق والصفات السلبية والعادات السيئة من سلوكهم، ويتجملون بمكارم الأخلاق، عن النبي (ص) (**الإسلام: حُسن الخلُقُ**)كنز العمال خبر٥٢١٥، ومن الاستجابة لله.

(**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**) الصلاة في الإسلام لها مكانة عظمى، فهي عمود الدين، وعنوان المؤمنين، وعّبر عنها النبي(ص)(قرة عيني في الصلاة)كقوله(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ)البقرة/٢٣٨، عن الإمام علي(ع)(الصلاة ميزان: فمن وفّى، استوفى)البحار٢٦٤/٨٤، وإقامة الصلاة أداؤها بشرطها وشروطها، أداءً كاملاً تتحقق بها حكمتها وأثرها التربوي في تزكية النفوس وتهذيب عاداتها ومشاعرها وسلوكها كقوله(**إِنَّ الصَّلَاةَ**

تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ) العنكبوت/٤٥، وخصّ الصلاة من بين أركان الإسلام لما لها من تأثير كبير في صياغة النفوس صياغة تكاملية نموذجية، أما من يصلي ويتبع الهوى ومشتهيات نفسه، فهو ممن يصلي رياءً للناس وهو من حزب الشيطان، عن النبي(ص)(من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلاّ بُعداً)البحار١٩٨/٨٢.

(وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ)ومن أهم صفات هؤلاء المؤمنين الصالحين، أن يكونوا على كلمة سواء فيما بينهم من مصالح مشتركة، ليكونوا يداً واحدة على من سواهم، وبذلك يكونون أمة واحدة موحّدة متحّدة، وفي جعل الشورى بين فريضتين مهمتين هما الصلاة والزكاة، لإبراز منزلتها ودورها المؤثر في حياة الأمة، ودعم بنائها النفسي والأخلاقي والعقائدي، **والشورى** لا تكون في نص صريح من القرآن والسنة، لأنه **(لا اجتهاد مقابل النص)** وإنما الشورى في الأمور المهمة والمتشابهة، التي يحتمل فيها عدة وجوه، كما يحصل الآن الفتاوى الصحيحة في القضايا الجديدة المستحدثة التي لا يوجد فيها نص. التعبير القرآني يجعل أمرهم كله قائماً على الشورى، ليصبغ حياتهم كلها بصبغة الشورى كقوله**(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)**آل عمران/١٥٩، **في نهج البلاغة حكم١٦١**(من شاور الرجال شاركها عقولها، ومن استبد برأيه هلك)كما شاور النبي أصحابه الكرام، من أهل الرأي والخبرة والتجربة والذكاء والأمانة، ليستمع إلى آرائهم ويحاورهم، فلا دكتاتورية ولا فرض آراء، وإنما حوار ونقاش هادئ مبني على العلم، والانفتاح على تجارب الآخرين وتلاقح آرائهم، **الشورى:** أُلفة للجماعة، وكشف للكفاءات والنزاهات، وصقال للعقول والنفوس، وسبب للصواب وبروز الأفضل والأمثل، **وهناك شروط للشورى**، وأوصاف بارزة للذين تستشيرهم، ومسؤولية المستشار.

مشاورة النساء:

ورد نهي عن مشاورة النساء، **في نهج البلاغة كتاب٣١**(من وصايا الإمام علي لابنه الحسن(ع)(إياك ومشاورة النساء إلاّ جربت بكمال عقلهن، فإن رأيهن يجر إلى الأفن، وعزمهن إلى وهن)والنهي عن مشورة النساء لضعف رأيهن، لقلة تجربتهن وخبرتهن وخلاف وظيفتهن، وكذلك الرجال لا يستشارون ممن كان ضعيف الآراء (رأي المرء على قدر تجربته ومقدار خبرته)**وليس كل النساء ضعفاء العقول، ولا كل الرجال أقوياء العقول، وإن من كفاءة بعض النساء ما يعادل أمة من الرجال،** القرآن يذكر مواقف بلقيس ملكة سبأ، تعاملت مع سليمان بحكمة بالغة الدقة، فاق عقلها عقول رجالات حكومتها كقوله(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ، قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ)النمل/٣٢-٣٣، **وهذه بطلة كربلاء زينب الكبرى المجاهدة مع أخيها الإمام الحسين**(ع) وقامت بدورها التبليغي النموذجي المميز، حتى قال عنها الشعراء: لو كانت النساء كهذه-لفضلت النساء على الرجال! **وهذه مستشارة ألمانيا (ميركل)** أثبتت كفاءتها ونزاهتها ونهضتها لبلادها ومجتمعها بواقعية عالية، باعتراف الرجال والنساء معاً، خلال مدة

حكمها لبلادها مدة ١٨ سنة متتالية، سُئل الإمام علي(ع)النبي(ص)ترد علينا أمور لا نرى فيها حكماً لله ولا حكماً لرسوله فماذا نفعل؟ فقال(ص)(أجمعوا أمركم، وأجعلوها شورى، ولا تقضوه برأي الفرد، إنما برأي الجماعة) في الحديث(لا تجتمع أمتي على ضلالة)خواطر الشعراوي١٨٤٥/٤ **(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)**ومن صفات المؤمنين**(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ)**أنهم ينفقون مما رزقهم الله من رزق مادي أو معنوي، من مال وعلم ونصيحة وجاه ومنصب،(**يُنفِقُونَ**)في مكانه المناسب في الإحسان إلى الناس، وقضاء حوائجهم، ويبذلونه في طاعة الله وسبل الخير النافعة للناس(خير الناس من نفع الناس) وكل إنسان ينفق بقدره ومن موقعه، وكل ينفق مما عنده، وأبرز أنواع الإنفاق في سبيل الله **(الزكاة)** من أهم العبادات، فهي تطهر القلب من البخل، وتعمل نهضة للأفراد والمجتمعات، **والزكاة:** استعلاء على حبّ المال والثقة بأن الله سيخلفه كقوله(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا)المزمل/٢٠، **في غرر الحكم**(جودوا بما يفنى تعتاضوا عنه بما يبقى) عن النبي(ص) (من منع ماله من الأخيار اختياراً، صرف الله ماله إلى الأشرار اضطراراً) البحار٩٦/ ١٣١. **فائدة:** قال **(وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ)**ولم يقل(أمرهم تشاور) أي أن الشورى جزء من ثقافتهم وتجسّدت فيهم بالانفتاح على الآخر، كما تقول رجل عدل أي تجسّد العدل في قوله وفعله كقوله(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)الزمر/١٨ فلا يستبد أحد منهم برأيه في الأمور المشتركة بينهم، لقد اجتمعوا وتشاوروا وبحثوا، حتى إذا تبينت لهم المصلحة أخذوها عن النبي(ص) (المؤمنون كالنفس الواحدة)المراغي٥ ص١٧، وعنه (ص) (المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً) كنز العمال خبر ٦٧٤.

٣٩-﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾

الآية معطوفة على ما قبلها، **المعنى:**(**وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**)الآية وصف للمؤمنين الصالحين الذين استجابوا لربهم، ومن صفاتهم الشجاعة والقوة والقدرة بعد وصفهم بمكارم الأخلاق، ووصفهم بالعفو والسماحة والغفران، فإن كلاً في موضعه محمود، ولكل حدث حديث **المعنى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ) البغي:** الظلم والاعتداء. ومن طبيعة النخبة المؤمنة الصالحة وصفتهم البارزة، الذين إذا أصابهم الظلم والاعتداء عليهم(على الفرد أو على الجماعة) **(هُمْ يَنتَصِرُونَ)** يدافعون عن أنفسهم وينتصرون على الظالم المعتدي، ولا يستسلمون للظلم ولا يخضعون للاعتداء، وعليهم بضبط النفس، بشرط ألا تزيد على أخذ الحق، وإلاّ كان ظالماً أيضاً، وهم ليسوا اكلة لكل راغب، ولا مطية لكل راكب، ولم يكونوا ضعفاء أذلاّء عاجزين عن الانتصار على من اعتدى عليهم وظلمهم، بل يستميتون من أجل حريتهم وكرامتهم، وعزة بلادهم وأمتهم والدفاع عن وطنهم، وهذا بحاجة إلى امكانيات ومقدرة وقوة وحصانة تدعمه وتؤيده، وحين يشعر الظالم المعتدي بأن العفو جاء سماحة ولم يجئ

ضعفاً، يخجل ويتراجع ويستحي (**هُمْ يَنتَصِرُونَ**)جاءت بصيغة الجمع أي (**يتناصرون**)ينصر بعضهم بعضاً كقوله(وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ)الأنفال/٧٢، يتعاون المؤمنون فيما بينهم، ويكونون يداً واحدة على من سواهم، حتى يردّوا الظلم والعدوان عن إخوانهم ويأخذوا حقهم منهم، ليكونوا خير أمة أخرجت للناس، وأيضاً ينتصرون على البغي والعدوان بالأخلاق العالية، والصبر الجميل، وامتصاص غضب الخصم، وعدم رد الخطأ بالخطأ، وعدم الخضوع للظلم. **فائدة**: قال (**هُمْ يَنتَصِرُونَ**) ولم يقل(يردون أو يدفعون)تحريض لمن وقع عليه البغي أن يتحرك لرد هذا العدوان إلى درجة الانتصار عليه، فهو سيكون على موعد مع النصر ولو بعد حين كقوله(ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ) الحج/٦٠، والإتيان بضمير (**هُمْ**)إشارة إلى أن من وقع عليهم البغي يجب أن يكونوا هم أول المتصدين له، والإعلان العام لإنكاره، وإلاّ كان سكوته عليه هو رضاً به وتقبلاً له، وهذا لا يتناسب مع صفات المؤمنين. ٢-**سؤال**:قال (**إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ**) وقال(**وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ**) الآية/٣٧، متى يكون الانتصار؟ ومتى يكون العفو والغفران؟ **الجواب**: إنّ العفو عن السيئة يُحسن استعماله عندما يكون سبباً لإصلاح المسيء، أو تفادياً لوقوع شقاق وفتنة كبيرة، ولا يُحسن العفو عندما يكون سبباً لتمادي المسيء وفرعنة الطغاة والسفهاء كقوله(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) فصلت/٣٤، **في نهج البلاغة حكم ٢٥٩ (الوفاء لأهل الغدر غدر عند الله، والغدر بأهل الغدر وفاء عند الله) في غرر الحكم** (المغلوب بالحق غالب، والغالب بالشر مغلوب)عن الإمام زين العابدين(ع)(حقّ من ساءك أن تعفو عنه، وإن علمت أن العفو يضرّ، انتصرت) كقوله (وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ)الشورى/٤١، نور الثقلين٤/٥٨٥

٤٠ -﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

هذه الآية تبين واجب المنتصر عدم التجاوز في أخذ حقه، أي المعادلة بالمثل على أساس العدل، **المعنى**:(**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**)مقابلة السيئة بسيئة مثلها، هذا هو الأصل في الجزاء، كي لا يتبجح الشر ويطغى حين لا يجد رادعاً يكّفه عن ظلمه، وفي وصف البغي بالسيئة، إشارة إلى أنه من المنكر الضار الذي يسوء بصاحبه، والذي ينبغي على المؤمن محاربته، وفي وصف رد العدوان ودفع البغي بالسيئة، إشارة إلى أن من أساء واعتدى، لا ينبغي أن يتّحرج المؤمن من ردّ إساءته (فيكون الجزاء من جنس العمل، والقصاص على قدر الجناية) (**سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا**)وإنما سمى هذا الجزاء (**سَيِّئَةٌ**) لأنها تسوء من تنزل به، فيدفع السيئة بمثلها، وينتصر لنفسه غضباً لله من ظلم واعتداء وقع عليه، وليست سيئة الذنوب كقوله(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ) النحل/١٢٦، وقوله(فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ

عَلَيْكُمْ)البقرة/١٩٤، وقوله (وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ) البقرة/٢٣٧ **(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)** هو الأخذ بما هو أولى وأحسن من جزاء السيئة بسيئة مثلها، هو العفو عن المسيء بعد القدرة عليه، فإن العفو والصفح مع القدرة عليه يكون وقعها على نفسه أقسى وأمرّ من العقوبة نفسها، وبحسب الظروف والأحوال العامة المحيطة به، وانطلاقاً من روحية التسامح في شخصيته، وترفعاً عن رغبة الانتقام لنفسه **(فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)** وتقرباً إلى الله بذلك، وأن الله يثيبه على ذلك الأجر الجزيل والثناء الجميل.

العفو على قسمين: ١- أن يكون العفو إخماد للفتنة، ورجوع الجاني عن ظلمه، وإصلاح المسيء، فهذا عفو محمود ومطلوب، وآيات العفو في القرآن محمولة على هذا القسم، وهو من صفات خواص الناس ونخبهم، ٢-أن يكون العفو سبباً لجرأة الظالم المخاصم وتماديه في غيّه، وهذا عفو مذموم سلبي في غير موضعه، فلا بد أن يقاوموا وينتصروا، على ظالمهم، وهو من الصفات الحميدة، بشرط عدم التعدّي، وهذا وصف العوام، عن الإمام علي(ع)**(لا ظفر مع البغي)** روح البيان٨/٣٣٥، عن النبي (ص)(إذا كان يوم القيامة أمر الله منادياً ينادي: ألا ليقم من كان له على الله أجر، فلا يقوم إلاّ من عفا في الدنيا كقوله**(فَمَنْ عَفَا)**المراغي٢٥ ص٥٦، وعنه (ص)(عليكم بالعفو فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فتعافوا يعزكم الله)الكافي٢/١٠٨، **قال المتنبي**: إذا أنت أكرمت الكريم ملكته-وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا.

(إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)إن الله يبغض البادئين بالظلم، والمعتدين على الناس، والظلم في الدنيا ظلمات في الآخرة، وليس للظالمين الذين يزدادون جرأة واعتداءً بهذا العفو، والظلم أم القبائح ورأس الرذائل، وله تبعات موبقات، كقوله(وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)البقرة/٢٥٤، عن الإمام علي(ع) (بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد) **فائدة: (الخلاصة)**: ذكر الله في هذه الآية **مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب** (عدل، وفضل، وظلم)**مرتبة العدل**:(وجزاءُ سيئة سيئة مثلها) لا زيادة ولا نقص، **ومرتبة الفضل**: العفو والإصلاح عن المسيء، أن يعامل العبد الناس بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه فليعف عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله فليسامحهم **(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)**يجزيه أجراً عظيماً، **ومرتبة الظلم: (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)**المعتدين على غيرهم.

٤١-٤٢- ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

هذا توكيد تربوي قرآني آخر أكثر تفصيلاً من الآية السابقة، في حق الدفاع عن النفس، **(وَلَمَنِ انتَصَرَ)** لنفسه وانتصف ممن ظلمه في أخذ حقه، ويجزي السيئة بسيئة مثلها**(بَعْدَ ظُلْمِهِ)** بعدما ظُلم وتعدّي عليه **(فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ)من سبيل**: من عقاب ولا

عتاب، فأولئك المنتصرون لا سبيل إلى ذمهم ومعاتبتهم أو معاقبتهم لأن البادي هو الظالم، والانتقام من الظالم لغيره حق إنساني مشروع، وحق قانوني معروف، ٤٢-**(إِنَّمَا السَّبِيلُ)**إنما الإثم والمؤاخذة والعتاب أو العقاب **(عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ)**على الذين يبدؤون الناس بالظلم أو يزيدون في الانتقام أو يتكبرون في الأرض تجبراً وفساداً واعتداءً**(وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)**ويعتدون على البلاد والعباد **(بِغَيْرِ الْحَقِّ)** ولا أحد يظلم الناس ويعتدي على حقوقهم ويكون هناك حق، وإنما جاء **(بِغَيْرِ الْحَقِّ)**للتأكيد أنه لا أحد يظلم الناس، ويفسد في البلاد والعباد ويكون هناك حق، فإن الأرض لا تصلح وفيها ظالم لا يقف له الناس ليكفّوه ويمنعوه عن ظلمه، فكيف بالذين زلزلوا الأمن بأسلحتهم الجهنمية، وأرهبوا الدنيا بطغيانهم وجبروتهم، وأساؤوا إلى أمتهم وجيرانهم بدسائسهم اللئيمة ومطامعهم السقيمة؟!، **(أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)**أولئك الظالمون الباغون يتوعدهم الله بالعذاب الأليم الموجع، **وهذا درس بليغ للمؤمنين أن يقولوا كلمة الحق**، أمام كل جائر ومفسد، ولا يخافوا لومة لائم، عن الإمام الباقر (ع)(أصبر نفسك على الحق، فإنه من منع شيئاً في حقّ أعطى في الباطل مثليه)تحف العقول ص٢١٦، كقوله(وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)البقرة/٢٢٩، فيكون الظالم بحكم الكافر عند الله، وإن نطق بالشهادتين وصام وصلى كقوله(وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)البقرة/٢٥٤.

٤٣ -﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾

يعود سبحانه إلى ضرورة التوازن والاعتدال وضبط النفس، بالصبر الجميل والسماحة والصفح الجليل، في الحالات الفردية الخاصة، هنا لا يوجد ظالم ومعتدي، ولكن يوجد مرض أو خسارة أو ابتلاء خاص، ولكن في الآية ٤٠ كان هناك ظالم ومعتدي **(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ)**فهذا يحتاج إلى إرادة قوية في الصبر والتحّمل، لذلك أكدّها الله سبحانه هنا بلام القسم **(وَلَمَن)**للعناية بمضمونه، وأفضل أنواع **(الصبر)** تحمّل الأذى في سبيل إحقاق الحق ونصرة الحقوق وأعطائها لأهلها، وأفضل أنواع **(العفو)** ما كان سبباً للقضاء على الفتن والمحن والفساد، ولا يؤدي إلى الشر، عن الإمام علي(ع)(الجزع أتعب من الصبر)روح البيان٨/٣٣٦.

المعنى:(**وَلَمَن صَبَرَ**) ولمن صبر على الأذى، وتحمل المشاق من الناس(**وَغَفَرَ**) وصفح وسامح عما صدر منهم من إساءة، وهو من موقع القدرة والقوة، وهما من الصفات الحسنة ومن مكارم الأخلاق، حيث يحسن الصبر الجميل والمغفرة في محلهما المناسبين **(إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)** أحسنها، أي مما يحسن العزم والتصميم على فعله، فإن ذلك الصبر والغفران والتجاوز عن المسيء، لمن الأمور الحميدة التي أمر الله بها وأكّد عليها كقوله(وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) فصلت/٣٥ **ومن الأمور التي لا يوفّق لها إلاّ أولو العزائم والهمم العالية**، وذو الألباب والبصائر النافذة، فإن تهذيب النفس الأمارة بالسوء وتزكيتها من أهم

عوامل تكامل الإنسان، **في غرر الحكم**(ذروة الغايات لا ينالها إلاّ ذوو التهذيب والمجاهدات) **العزم**: التصميم الموجب لإنجاز عمل معيّن، ويطلق على الإرادة القوية، **والعزم**: من الأعمال المهمة النافعة المقتدرة التي يجب أن يتبناها الإنسان في حياته لإنجاز أعماله بإتقان كقوله(يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ) مريم/١٢ وقوله(وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) لقمان/١٧، في الحديث: (**إنّ الله يحبّ أن تؤتى رخصه، كما يحبّ أن تؤتى عزائمه**)التفسير القرآني للقرآن٢٥/٧٩، وهذا ما يريد القرآن أن يعّمقه في وعي المؤمنين، باعتبار الصبر الجميل قيمة أخلاقية شفافة منضبطة تتصل بالعزم والإرادة القوية التي تعطي للإنسان المؤمن هيبته في جميع الأصعدة، عن النبي(ص)(ما أعزّ الله بجهلٍ قط، ولا أذلّ بحلمٍ قط)البحار٦٨/٤٠٤.

٤٤ -﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾

(وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ)

الله سبحانه لا يضل، وإنما يحكم عليه بالضلال الذي اختاره لنفسه، فحقّت عليه كلمة الله أن يكون من أهل الضلال كقوله(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)الصف/٥، وقوله(فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)النحل/٣٦، وقوله(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) فصلت/١٧، **أي أن الله هدى الناس هداية الدلالة والدراية**، فالكافر أعرض واستكبر فخسر نعمة الهداية، فيزيده الله ضلالاً، لأنه كفر وفضّل الكفر والإلحاد على الإيمان والاستقامة، فختم الله على قلبه، والذي استجاب لله يهديه الله هداية المعونة، وهي أن يعينه على الطاعة ويحببه في فعل الخير كقوله(**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**) محمد/١٧، عن النبي(ص)(بعثت داعياً ومبلّغاً وليس إليّ من الهدى شيء، وخُلق ابليس مزيّناً وليس إليه من الضلالة شيء)كنز العمال خبر٥٤٦ كقوله(لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)آل عمران/١٢٨.

(**فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ**) يتولى أمره ويهديه ويخلّصه من ضلاله وضياعه ويدله إلى طريق الاستقامة والسلامة والكرامة بلا أية ندامة ولا ملامة كقوله(وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا) الكهف/١٧ (**وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ**)فرأوه فظيعاً شنيعاً شديداً صعباً، فيظهرون الحسرة والندامة، في غرر الحكم(عند معاينة أهوال القيامة تكثر من المفرطين الندامة) وأشد الندامة في يوم القيامة (**يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ**)يستفهمون استفهام العاجز البائس الذليل: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا لنعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، ولكن هيهات بعد فوات الأوان، وهل تعود عقارب الزمن إلى الوراء، وهل يعود ما فات من عمركم؟! نعم لا سبيل للرجعة، والظالمون كانوا طغاة بغاة قساة، فناسب أن يكون الذل هو مظهرهم البارز في يوم الجزاء، تتهاوى نفوسهم المستكبرة كقوله (**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**)الأنعام/٢٨ **فائدة**: الهداية والضلال هما باختيار الإنسان لنفسه، وليستا من الأمور

المفروضة على الإنسان، وهما نتيجتان مباشرتان لأعمال الإنسان كقوله(فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) الأنعام/١٢٥، وقوله(فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ)يونس/١٠٨

٤٥-٤٦ -﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾

خاشعين: خاضعين حقيرين، هذا الخشوع السلبي الذليل لا يتجاوزه الإنسان إلاّ بالخشوع الإيجابي الجليل الحقيقي النافع، جاء في الدعاء(اللهم ارزقني خشوع الإيمان قبل خشوع الذل في النار) **المعنى: (وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ)**وترى الظالمين يوم حشرهم يعرضون على النار قبل إدخالهم فيها، فالقلق والخوف والحسرة والندامة تسيطر على نفوسهم، والذلة والهوان والاستسلام يطغيان عليهم، متضائلين متصاغرين بما قدمت أيديهم، كان عندهم الجبروت والاستعلاء في الدنيا، أصبح في الآخرة خشوعاً وخضوعاً وذلة وإنكساراً وهواناً وحرماناً وخسراناً **(يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ)**يسترقون النظر إلى جهنم بأطراف عيونهم**(مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ)** لمعرفة ما سيواجههم، منكّسي الأبصار، لا يرفعون أعينهم عند عرضهم عليها من شدة الرعب والفزع في صورة ذليلة مهانة، وهم في حالة إنهيار، وفرائصهم ترتعد من شدة الخوف، فهم لا يستطيعون أن يغفلوا عنها ولا يجرؤون أن يملؤوا أعينهم منها! ومن قبل كانوا بها يستهزئون **(وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا)**

في هذا الوقت يظهر الذين آمنوا هم سادة الموقف وهم في نعيم الجنة، ولّما عاينوا ما حلّ بالكفار، فهم يقررون **(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)** أي خسروا كل شيء، وأهم شيء، خسروا أنفسهم بحرمانها من الجنة وخلودهم في النار، وخسروا أهليهم لا ضلالهم إياهم ومنعهم عن الإيمان، خسروا أولادهم وأزواجهم وأقاربهم وأحبابهم كقوله(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف/١٠٣-١٠٤، **في نهج البلاغة كتاب ٣١**(من الفساد إضاعة الزاد، ومفسدة المعاد) عن السيد المسيح(ع)(ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه)؟! عن النبي(ص) (الخاسر من غفل عن إصلاح المعاد) تنبيه الخواطر ص ٣٥٩ وهكذا الذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ، **(أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ)**الظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي والفساد، **في غرر الحكم**(من ظلم نفسه، كان لغيره أظلم)كقوله(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ)هود/١٠١، ٤٦ -**(وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاء)**وظهر لهم إذ ذاك أنه ما كان لهم من أنصار

(**يَنصُرُونَهُم**)ويدفعون عنهم العذاب(**مِّن دُونِ اللَّهِ**)لا في الدنيا ولا في الآخرة(**وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ**) من يتركه الله على ضلاله الذي اختاره لنفسه بكامل إرادته بسبب عناده وغروره وجحوده، فليس له طريق يدله إلى الهداية والرشاد، فينشغل بغير الله، فما من سبيل يصل به إلى الله عز وجل، عن النبي(ص) (دنياك وما يشغلك عن ربك)روح البيان٦/٤٩١، وعنه(ص)(**كّل ما يشغلك عن الله فهو صنمك**)! عن الإمام علي(ع)(إنه ليس لهالك هلك من يعذره في تعمد ضلالة حسبها هدى، ولا ترك حق حسبه ضلالة) البحار٥/٣٠٥، في غرر الحكم (كم من ضلالة زخرفت بآية من كتاب الله، كما يزخرف الدرهم النحاس بالفضة المموّهة)

٤٧ -﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾

(**اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم**)يأمر الله عباده جميعاً، بالامتثال إلى دينه القيّم، وأن يقبلوا على ما دعاهم إليه، وعدم التسويف به، وتزوّدوا من طاعة الله سبحانه، ولا ينفعكم الكبرياء والغرور كقوله(يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ)الأحقاف/٣١ وقوله(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)الأنفال/٢٤ (**مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ**)من قبل أن يأتي يوم مقضّي محتوم محسوم لا يرده الله أبداً، لأنه يوم حقيقي ليس كبقية الأيام، يوم مؤكد لا رجوع بعده إلى الدنيا، يوم حاسم ليس له دافع ولا مانع، بعدما حكم الله به فلا بد أن يكون(**مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ**)لا ملجأ يغيثكم من الله في هذا اليوم الرهيب، ولا ملاذ تلتجئون إليه وتلوذون به يقيكم من حكم الله، واستدراك ما فات(**وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ**)أي إنكار واعتراض، وليس لكم قدرة على تغير قرار العذاب، ولا تقدرون على إنكار لما ارتكبتموه من الذنوب، فهي حقيقة ثابتة في صحائف أعمالكم وتشهد عليها جوارحكم، وما من طريقة تنقذ من عذاب الله، وما من أحد يدافع عنهم كقوله(يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ، كَلَّا لَا وَزَرَ، إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ) القيامة/١٠-١٢، إنها دعوة إلهية رقيقة شفافة للرجوع إليه قبل فوات الأوان.

٤٨ -﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾

(**فَإِنْ أَعْرَضُوا**)ولم يستجيبوا لرسالة هذا النذير الصادق الأمين، ولم يقبلوا هداية الرحمن فيرحب بهم الشيطان (**فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا**)حافظاً لأعمالهم وحارساً عليهم من كفرهم وسيئات أعمالهم، وما أرسلناك مسؤولاً عن إيمانهم وطاعتهم، ولا مهيمناً عليهم تحفظ أعمالهم وتحاسبهم عليها،وما أنت مكلّف بهم ولا كفيل ولا وكيل عليهم كقوله(وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ)ق/٤٥ (**إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ**)ما عليك إلاّ التبليغ الواضح وإلقاء الحجة عليهم، كل إنسان يتولى حفظ نفسه، وإقامتها على الطريق الذي يختاره لها كقوله (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)المدثر/٣٨،

والآية تسلية للنبي(ص) وإزالة همه (**وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ**)وهنا يصف القرآن طبيعة الإنسان غير المؤمن(**مِنَّا رَحْمَةً**)نعمة وغنى وصحة ورخاء وأمن وعلم لنذكّره بها (**فَرِحَ بِهَا**)بطر وسرّ وكفر وتكّبر وانشغل بها عن ذكر ربه، هذا الإنسان إن أصابته نعمة أشر وبطر، وإن ابتلي بمحنة يئس وقنط ووهن (**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**)شدة ونقمة وقحط ومرض وصعوبات ومشاكل، وسميت سيئة لأنها تسوء للإنسان (**بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**) كل ما يصيب الإنسان من ضرّ هو من صنع يده كقوله(مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ)النساء/٧٩، وقوله (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)الأنفال/٥٣ (**فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ**)فهذا الإنسان مبالغ في الكفران والجحود، وينسى النعمة والمنعم ويذكر البلية، أي يكفر النعمة وتغطيها من أصلها، ويحبّ أن ينسبها لنفسه ويبخس حقّ ربه، فهو في غفلة دائمة، فلا النعمة ولا العقوبة ولا الموعظة توقظه من نومة الغفلة! وتقدم في هود/٩، **مثل قارون**:(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي)القصص/٧٨ **فائدة**: ١-قال(**إِذَا أَذَقْنَا**)وقال(**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ**) والحكمة في تقدير النعمة بـ(إذا) والبلاء بـ (إن) هو الإشارة إلى أن النعمة محققة الحصول، بخلاف البلاء فهو عارض مؤقت، ولأن رحمة الله تسبق غضبه، ٢-وسمى الرحمة (**ذوقًا**) لأن ملذّات الدنيا كلها على كثرتها وتنوّعها هي في حدود التذوّق لقلّته وسرعة زواله، والذي لذّاته قصيرة، وتبعاته طويلة ومسؤولياته كثيرة كقوله(فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)فاطر/٥، **في نهج البلاغة حكم٣٣٠** (أقل ما يلزمكم الله ألاّ تستعينوا بنعمه على معاصيه)

٤٩-٥٠-﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ، أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

الذرية مظهر من مظاهر نعم الله، وهو الذي يصوّرهم حيث يشاء على أكمل وجه، ما كان لهم الخيرة كقوله(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)القصص/٦٨، والذرية تؤثر في نفس الإنسان وقريبة من حبه، فهي امتداده في الحياة، وتحدّث القرآن عن بسط الرزق وقبضته في الآية/٢٧، وهذه تكملة في الرزق بالذرية، وهي رزق من عند الله كالمال والجمال وحسن الحال، والذي يلفت النظر قدَّمَ القرآن (**لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**)على قانون تحديد الذرية، ليبيّن لنا الذي يملك كل شيء هو(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ)الأنعام/١٠٢، **المعنى**:(**لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) والله عز وجل وحده خالقهما ومالكهما ومدبر أمرهما والمتصرف فيهما كيفما يشاء، والمقصود من الآية أن لا يغتر الإنسان بما يملكه من مال وجمال وحسن حال وجاه ومنصب.. وأن يعلم أن الكل ملك لله وحده، فهو يعطي ويمنع لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه كقوله (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) الأعراف/٥٤ (**يَخْلُقُ مَا**

يَشَاءُ)يخلق بقدرة مطلقة على ما تقتضيه حكمته(ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن)(**يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا**)يعطي من يشاء ذرية إناثاً فلا يولد لهم ذكر، وقدم الإناث في الهبة لإلفات النظر إلى قيمة المرأة وأهميتها، لأن الإناث مبغوضة عند العرب، فليبين لهم مدى ظلمهم بكراهيتهم للأنثى كقوله(وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لكم) البقرة/٢١٦، **والأنثى هي وعاؤهم الذي خرجوا منه**، فالذين يستقبلون الأنثى بالغضب ساخطون على قدر الله، منكرون لنعمته عليهم، كما أنهم بكراهيتهم لها يرغمونها على الاعوجاج، والذي يتقبلهن برضا وحنان ويكرمهن ويربيهن فهو كريم، فما أكرمهن إلاّ كريم وما أهانهن إلاّ لئيم، في الحديث(لا تكرهوا البنات، فإني أبو البنات)روح البيان٣٤٢/٨، وما يختار الله للإنسان من ذرية فهي خير له(**وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ**) ويعطي من يشاء ذكوراً فلا يولد له أنثى.

٥٠- (**أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا**) ليس المراد بتزويجهم الزواج المعروف، وإنما المراد يجمع لهم من النوعين ذكوراً وإناثاً، ضمن المقادير المقدّرة والتدابير المدبرة كقوله(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) الفرقان/٢ (**وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا**)من الرجال والنساء، بلا ذرية، والعقم يكرهه كل الناس، ولكنه مقدار من المقادير المقدرة لحكمة يعلمها الله، ولا يتدخل فيها أحد سواه، وهو يقدرها وفق علمه، والذي يؤمن بأن العقم قدر من مقادير الله، فعليه أن يحترم قدر الله في العقم، ويصبح كل الأولاد كأنهم أولاده ويتعاطف معهم، مع أن هناك أولاداً عاقين لآبائهم وأمهاتهم ويكونون مصدر قلق عليهم كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ) التغابن/١٤ (**إِنَّهُ عَلِيمٌ**) لأنه عليم بكل شيء يفعل عن علم وحكمة و(**عَلِيمٌ**)بما يستحق كل نوع من هذه الأنواع (**قَدِيرٌ**) قدرة مطلقة، يفعل ما يشاء، ولا يفعل ما يشاء غيره، فلا يعجزه شيء، ولا تقيده الأسباب، فهو (**قَدِيرٌ**) على ما يريد أن يخلق بحكمة وعلم مصلحة.

فائدة:١- تشير الآية إلى أن الملك كله لله وحده، وهو المدبر للأمور والمقدر من غير منازع ومشارك، يتصرف في ملكه كيف يشاء، على أكمل وجه وأفضل نظام (**ليس في الإمكان أبدع مما كان**) إن هذا التنوّع في اعطاء الذكور فقط أو اعطاء الإناث فقط أو اعطائهم الذكور والإناث معاً (**وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا**) لا يؤثر في منازل العباد عند الله، نجد أن الله تعالى أجرى هذه المقادير على الأنبياء(ع) فالإناث من ذرية لوط وشعيب(ع)والذكور من ذرية إبراهيم(ع)، وأعطى الذكور والإناث من ذرية النبي(ص) ٢- استعمل الطب الحديث في معالجة العقم المرضي الطارئ، فأطلق عليه مصطلح أطفال الأنابيب، إذا كان الزوج عقيماً بعارض مرضي، وذلك بتحريض حيامن الزوج وتنشيطها، ثم وضعها في أنبوب التلقيح، ويسمى (**التلقيح الاصطناعي**) أو هناك حالة أخرى تلقح الزوجة بنطفة رجل أجنبي غير عقيم من دون مقاربة، وهذا عمل محرم.

٥١-﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

ذكر سبحانه هنا ثلاثة طرق للوحي: ١-أن يحسّ بمعان تلقى في قلبه بالإلهام، أو يرى رؤيا في النوم كرؤيا إبراهيم في ذبح ولده إسماعيل، وهذا هو المراد بقوله (**إِلَّا وَحْيًا**)٢-أن يسمع كلاماً من وراء حجاب ولا يرى المتكلم، لأنه تعالى نور في ذاته غير مرئي، كما كلّم موسى (ع) سماعاً دون رؤية، وهذا بقوله (**مِن وَرَاءِ حِجَابٍ**)٣-أن يرسل إليه ملكاً رسولاً يبلغه رسالات ربه (جبرائيل) كما أوحى الله سبحانه إلى رسوله محمّد(ص) وهذا ما تعارف عليه الأنبياء، وهذا هو المراد بقوله(**أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ**)

المعنى: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا) ليس لأحدٍ من البشر أياً كان أن يكلّمه الله سبحانه بالمواجهة المباشرة المرئية لتبليغ الرسالة إلاّ بواسطة الوحي، **معنى الوحي**: الكلام الخفي المهم الذي يدرك بسرعة وهو الإلهام، كقول النبي(ص)(إنّ روح القدس نفث في روعي)وإنما سمي الوحي وحياً لسرعته، فإن الوحي عين الفهم، كما يتذوّقه أهل الإلهام أن يقذف في قلوبهم، وفي الحقيقة أن الوحي والإلهام واحد، وإنما قيل الوحي في الأنبياء والإلهام في الأولياء تأدباً، **في الحديث: (العلم: نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده)**

سبعة وجوه للوحي في كتاب الله: عن الإمام علي(ع)

١-وحي الرسالة والنبوة كقوله(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ) النساء/١٦٣، ٢-الوحي بمعنى الإلهام كقوله(وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)النحل/٦٨، ٣-الوحي بمعنى الإشارة كقوله (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)مريم/١١، ٤-الوحي بمعنى التقدير كقوله(وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا)فصلت/١٢، ٥-الوحي بمعنى الأمر كقوله(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي) المائدة/١١١، ٦-الوحي بمعنى الكذب كقوله(شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)الأنعام/١١٢، وقوله(وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ) الأنعام/١٢١، ٧-الوحي بمعنى الإخبار كقوله(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ) الأنبياء/٧٣، البحار١٨/٢٥٤، **(أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ)**أن يسمعه كلامه من غير أن يبصر السامع من يكلّمه، والله منزّه عن الاستتار بالحجاب، الذي هو من خواص الأجسام، فالحجاب يرجع إلى المستمع لا إلى الله تعالى المتكلم، في الدعاء (إنك لا تحتجب عن خلقك إلاّ أن تحجبهم الأعمال السيئة دونك)، كما كلّم الله موسى(ع) فسمي كليم الله كقوله (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا)النساء/١٦٤، وكما أوحى الله لإبراهيم في منامه (الرؤية الصادقة) كقوله(إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)الصافات/١٠٢ **(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ)**أو يرسل ملكاً من الملائكة المقربين كجبرائيل، وهذا خاص بالأنبياء والرسل (ع) **(إِنَّهُ عَلِيٌّ)**عن صفات المخلوقين، ولا تراه العيون (لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) الأنعام/١٠٣، ولا يكلّمهم كما يكلّم بعضهم بعضاً، لأنه أعلى من

البشر فلا يكلّمهم مباشرة، ولأنه(**حَكِيمٌ**) في أفعاله وقضائه وصنعه، يفعل ما يريد بأفضل الأساليب. **فائدة: سبب النزول**: جاء عدد من اليهود إلى النبي (ص) وقالوا له: لماذا لا تتكلم مع الخالق؟ ولماذا لا تنظر إليه؟ فلو كنت نبيّاً حقاً فافعل مثل موسى(ع) حيث نظر إلى الخالق وتحدّث معه، ونحن لا نؤمن بك أبداً حتى تفعل ما نطلبه منك، فأجابهم النبي(ص) إنّ موسى(ع) لم يرَ الخالق أبداً، وهنا نزلت الآية. التفسير القرطبي٨/٥٨٧٣.

راجع بحث: كيف نؤمن بالله ولم نره؟ كيف يخشون ربهم بالغيب ولم يشاهدوه؟ كقوله (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) الأنبياء/٤٩.

٥٢-٥٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾

(**وَكَذَٰلِكَ**) لم يكن أمرك غريباً، ولا بدعاً من الرسل(**أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا**) أوحينا إليك يا مُحَمَّد هذا القرآن، **وسمى القرآن روحاً**، لأنه حياة القلوب والعقول والأرواح، فالقرآن يحركها وينمّيها ويؤثر عليها ويظهر أثره في الواقع العملي المشهود، فإن القرآن ربيع القلوب كما أن الغيث ربيع الأرض وحياتها، **وسمي القرآن روحاً**، لأن الروح يحيا بها الجسد، والقرآن تحيا به مصالح الدنيا والدين والنفس لما فيه من الخير الكثير، والعلم الغزير، والهداية المثلى، فيحييها حياة طيبة مباركة، قال الراغب: **سمي القرآن روحاً** لكونه سبباً للحياة الأخروية كقوله(وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)العنكبوت/٦٤ وقوله(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) النحل/٩٧، عن النبي(ص)(**ليس القرآن بالتلاوة ولا العلم بالرواية، ولكن القرآن بالهداية والعلم بالدراية**)كنز العمال خبر٢٤٦٢، عن الإمام الحسن (ع)(وإن أحق الناس بالقرآن من عمل به وإن لم يحفظه، وأبعدهم منه من لم يعمل به وإن كان يقرؤه)إرشاد القلوب ص٧٩، **وسمي القرآن روحاً** لأنه بالروح يحيا الإنسان حياة الجسد، وبالروح تحيا الهداية والدراية، وتحيا القيم والمبادئ والأخلاق، لأنها تعطي حياة أبقى وأفضل كقوله (اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) الأنفال/٢٤، والروح هي سرّ الحياة وقيمتها وديمومتها، فكما أن الجسم يتعفن بدون روح، كذلك المجتمع يضل ضلالاً بعيداً من دون كتاب الله.

(**مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ**) ما كنت يا مُحَمَّد قبل الوحي (قبل البعثة) تعرف (**مَا الْكِتَابُ**)ما في القرآن من تفاصيل متنوعة، باعتباره تبياناً لكل شيء، وفيه تفصيل كل شيء، كقوله (بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) يوسف/٣ (**وَلَا الْإِيمَانُ**)ما كان يعرف فلسفة الإيمان ودرجاته وتفصيلاته التي لا تهتدي إليها العقول قبل النبوة، **وهذا ما يؤكد لنا**

المعرفة للنبي لم تكن مخلوقة معه في ذاته، وإنما يتلقاها من الله بالإلهام، وإن الله كان يعدّ رسوله بألطافه لتحمل هذه المسؤولية المهمة إعداداً مسبقاً، ففتح له آفاقاً واسعة متنوعة من العلوم لم يكن له عهد بها، كقوله(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) النساء/١١٣ وقوله(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)الطور/٤٨، لقد اختار الله نبيه أميّاً، حتى لا يأخذ شيئاً من علم البشر، ويصبح كل منهجه العلمي من الله، وكذلك الأمة التي بعث إليها أمة أمية جاهلية، حتى لا يقال إنه يلقنه أحد، ولا أنت تعلمت الكتابة حتى تقرأ من أحد **(وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا)**ولكن جعلنا هذا القرآن نوراً وضياءً ودستوراً للحياة تهتدي به القلوب السليمة، بما يُعلّمها من الحقيقة الكبرى، ولتعرف كيف ترسم لنفسها خارطة الطريق الصحيحة، وكيف تختمها بالسلامة والاستقامة كقوله(نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) النور/٣٥، الله له هداية ينزّلها في كتابه كقوله(يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ)يونس/٩، والرسول له هداية بالتفويض من الله كقوله**(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ، صِرَاطِ اللَّهِ)**

وجعلنا طبيعة هذا الروح وهذا الوحي وهذا الكتاب إنه نور، نور يخالط بشاشته القلوب، التي يشاء لها الله أن تهتدي به، وتعرف قيمته وتستذوق حلاوته، إنه نور الفكر الذي يعطي للمجتمع حياته وتوازنه ونظامه المرسوم**(نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا)**نهدي به من طلبوا الهداية بتجرد وإخلاص، بلسان الحال أو بلسان المقال، ومن أجل معرفة الحق للعمل به كقوله (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى) فصلت/٤٤، فيكون القرآن فرقاناً يفرق بين الحق والباطل، ويميز بين الخطأ والصحيح كقوله(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا)الأنفال/٢٩، ليكون لهم القرآن وسيلة نجاة من حيرة الضلالة، ويخلصهم من ظلمات الجهالة إلى سبل الخير والهداية والاستقامة**(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)**إن الرسول (ص) واسطة لتحقيق مشيئة الله، فهو لا ينشيء الهداية في القلوب، ولكن وظيفته يبلّغ الرسالة المؤثرة بوضوح فتقع مشيئة الله، عن النبي(ص)(بعثت داعياً ومبلغاً وليس إليّ من الهدى شيء، وخلق إبليس مزيناً وليس إليه من الضّلالة شيء)كنز العمال خبر٥٤٦ **(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)**إلى طريق عدل قويم لا أعوجاج فيه، وترشد إلى دين قيم مستقيم هو**(الإسلام)**وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وقد فسّر هذا الصراط المستقيم في الآية.

٥٣- **(صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)**إنه طريق الله المستقيم، الذي له كل ما في الوجود، يتصرف فيه بما تقتضيه حكمته العالية، إنه دين الله المستقيم، دين الحياة، دين النجاة، هو أفضل أطروحة لهداية الإنسان وسعادته كقوله(إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)آل عمران/١٩، وقوله**(وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ)**آل عمران/٨٥، وقوله(وَأَنَّ هَٰذَا

صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ)الأنعام/١٥٣، وقوله(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)التوبة/٣٣، **في نهج البلاغة خطبة١٩٨**(إنّ هذا الإسلام دين الله الذي اصطفاه لنفسه، واصطنعه على عينه، واصفاه خيرة خلقه، وأقام دعائمه على محبته، أذلّ الأديان بعزّته، ووضع الملل برفعه، وهدم أركان الضلالة بركنه)

(**أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ**) (**أَلَا**)أداة تنبيه لشيء مهم يأتي بعدها، فالله جلّ جلاله يعطينا أهم معلومة ويؤكدها ويكررها، إنّ هذه الرسالة الإسلامية الأصيلة كلها من الله سبحانه لتكون منهجاً للحياة، ومنك أيها الإنسان تطبيقاً للمنهج، وبعد ذلك ستعود إلى ربك حتماً مقضياً، ويسألك عن كل شيء، فأعدّ لكل سؤال جواباً، بيد الله تعالى البداية والنهاية، والإنسان لا يملك بدايته ولا نهايته، والسعيد من سلّم أمره إلى الله، لأن جميع الأمور ترجع إليه كقوله(**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ**) هود/١٢٣،فانظر إلى قولك وفعلك واجعلهما موافقة لمنهج ربك، ولا تُعلّمه وإنما تعلّم منه كقوله (**قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ**)البقرة/١٤٠، وقوله(**قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ**) الحجرات/١٦، فيجب ألا تغيب هذه الحقيقة أبداً أبداً عن عقولنا.

وفي الختام نقول: وهكذا تنتهي السورة بالوحي التي بدأت الحديث عنه في أولها، فكان الوحي محورها الرئيس، ومعرفة دين الله هدفها الكبير، ليقرر وحدة دين الله الهادي المنقذ، غير قابل للتجزّؤ والتعدّد.

سُورَةُ الزُّخرُف

ترتيبها ٤٣ — آياتها ٨٩

من مقاصد السورة:

مكية، تناولت أسس العقيدة الإسلامية (**التوحيد، النبوة، المعاد**)كسائر السّور المكية، أثبتت السورة صدق القرآن الذي أنزله الله من عليائه على النبي الأمي بأفصح لسان، وأنصع بيان، ليكون معجزة النبي مُحَمَّد(ص) الخالدة. ثم عرضت دلائل قدرة الله وتوحيده منبثة في هذا الكون الفسيح، **وتناولت السورة ما كان عليه المجتمع الجاهلي من الخرافات،** فقد كانوا يكرهون البنات، فجاءت الآيات لتصحيح تلك الانحرافات، وتحدثت السورة عن دعوة إبراهيم(ع) ثم انتقلت إلى رد شبهة المشركين: فقد اقترحوا أن تتنزّل الرسالة على رجل من أهل الجاه والثراء، لا على يتيم فقير كمحمد(ص)، **فجاءت الآيات لتقرير أن الجاه والثراء ليسا ميزاناً لكرامة الإنسان،** وأن الدنيا من الحقارة والمهانة بحيث لو شاء الله لأغدقها على الكافرين ومنعها عباده المؤمنين كقوله(لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ) الآية/٣٣، وذكرت قصة موسى وفرعون والعِبرة منهما، **وختمت السورة ببيان بعض أحوال الآخرة وأهوالها. التسمية**: بـ (**سورة الزخرف**) لما فيها من التمثيل الجميل لمتاع الدنيا الزائل،

وبريقها الخادع المؤقّت، بالزخرف اللامع الذي ينخدع به الكثيرون، مع أنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولهذا يعطيها للأبرار والفجّار، أما نعيم الآخرة فلا يمنحه الله إلاّ لعباده المتقين.

فضلها: عن النبي(ص) (من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة **(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ)** الآية/٦٨، ادخلوا الجنة بغير حساب، مجمع البيان٩/٦٩. سبع سور قرآنية الحواميم متتالية تبدأ بـ (حم)وهي: غافر (المؤمن)، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، وهي التي يُطلق عليها (أسرة سور حم) السبعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ -﴿حم﴾

(من الآيات المتشابهات) تقدم في أول سورة البقرة، وأول سورة غافر، تقرأ حا، ميم، هناك علاقة بين (حم) ونزول القرآن، وهي من الأحرف المقطعة، إنها إشارة إلى إعجاز القرآن، حيث إنه مؤلّف من جنس هذه الأحرف العربية التي يستخدمها البشر، ومع ذلك هم عاجزون عن الإتيان بمثله أو بعضه، في الفصاحة والبلاغة ودقة العبارة والعلوم التي فيه، **وقيل**: إن أحد الأهداف لهذه الأحرف هو جلب انتباه المستمعين ودعوتهم إلى السكوت والإصغاء، لأن وجود هذه الحروف في مطلع الكلام لم يألفه العرب في ثقافتهم.

٢ -﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾

أقسم الله سبحانه بالقرآن المبين، الواضحة حقائقه ووصاياه، والبليغة معانيه ومقاصده، والدقيقة مفاهيمه، والعميقة مداليله، والواسعة بيّناته، والمبينة طرق هدايته ورشاده لكل ما يحتاج إليه الأنام من منهج الإسلام وتوجيهاته السامية، ويخطط القرآن للحياة كلها، ويرسم خارطة الطريق المستقيم على أساس كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة. وإذا كان بعض آيات القرآن من المتشابه، ولكن غالب آياته محكمة واضحة، عن الإمام الرضا (ع) (من ردّ متشابه القرآن إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم)البحار٩٢/٣٧٧.

٣ -﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

أكرم الله هذه الأمة بالقرآن العربي، ببركة هذا النبي العربي صفوة الخلق، فجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجعل لغتها تحمل دين الله **(الإسلام)** لتكون أمة القرآن قدوة الأمم في العالم البشري الكبير! **المعنى**: **(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)** هذا هو المقسم عليه، تنبيهاً على أنه لا شيء أعلا منه فيقسم به **(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا)** القرآن أي المقروء، والكتاب أي المكتوب، حتى يكون مكتوباً في السطور، ومحفوظاً في الصدور **(عَرَبِيًّا)** اللغة العربية أفصح لغات العالم وأبلغها وأدقها وأعمقها وأجملها وأكملها، وأقربها إلى الأذهان، وهي لغة مرنة قادرة على بيان الحقائق ودقائق

المطالب، ببلاغة عالية وفصاحة سامية، كل رسول يأتي بلسان قومه كقوله (**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**) إبراهيم/٤، وبُعث النبي إلى كافة الناس كقوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) سبأ/٢٨، والناس لغاتهم متعددة، فجاء بلسان قومه ليدركوه ويقتنعون به ويأخذونه كمنهج حياة، ويحولونه إلى حركة وسلوك وممارسة، وينشرونه في العالم الإنساني الواسع كقوله (**إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**) التكوير/٢٧، فانتشر الإسلام في كثير من البلاد والعباد بالقدوة الحسنة وبمكارم الأخلاق والفكر العقائدي الأصيل كقوله (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**) الأنبياء/١٠٧، **ومن أجل توصيل القرآن للعالمين، علينا أن نُعنى بترجمة القرآن الدقيقة إلى أهم اللغات العالمية**، ترجمة معتمدة من رجال اختصاص وأمناء وأكفّاء، والأشراف عليها (**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**)

لعلّ: للتمني والترجي، أي غاية نزول القرآن لكي تفهموا معانيه، وتتدبّروا مبانيه ودلالاته ومقاصده الجميلة، وتعملوا بموجبها، وتبلغوها سائر الأمم الأخرى، ليطلعوا على ما فيها من وصايا ومواعظ مهمة، التي تخرج الناس من ظلمات الجهالة، وتخلّصهم من حيرة الضلالة، إلى نور الهداية وحقائق الدراية، وهذا هو الهدف النبيل المطلوب الوصول إليه، وكل من كان من أهل التعقّل والتفكّر ينتفع بالقرآن، وهذا يعني أن العقل المفكّر أفضل وسيلة لمعرفة القرآن، والذي يتعامل معه بالتلاوة بلا تدبر لا ينال من خيره، عن النبي (ص) (**إنّ المؤمن قيّده القرآن عن كثير من هوى نفسه**)، واختار الله العرب لحمل رسالة الإسلام لذا جعل القرآن عربياً كقوله (**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**) الأنعام/١٢٤، فتكون اللغة وسيلة لتوصيل المعنى، وليست هدفاً ولا غاية بحدّ ذاتها، كقوله (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) النساء/٨٢، **فائدة**: **سؤال**: كيف كان القرآن عربياً وفيه ١٠٥ كلمات غير عربية؟ **الجواب**: إن ورود قليل من الكلمات غير العربية المتداولة، لا يخرجه عن كونه عربياً.

٤ – ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

(**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ**) هو وصف جليل للقرآن الكريم ومنزلته عند الله، وأنه مودع في (**أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا**) محفوظ عند الله، وحسبه بهذه المنزلة علواً وشرفاً (**أُمِّ الْكِتَابِ**) أصل الكتاب وأساسه، المصون من كل تغيير وتبديل وتحريف، مثبت في اللوح المحفوظ، الذي فيه ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وهو علم الله الأزلي كقوله (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ، فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ) البروج/٢١-٢٢، **وسرّ الكتابة في اللوح المحفوظ**، والله سبحانه علاّم الغيوب (لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى) طه/٥٢، حتى يتطابق الواقع المشهود مع ما هو موجود في اللوح المحفوظ، ويكون شاهداً معتمداً في يوم الحساب، وسمي أم الكتاب، لأن سائر الكتب تعتمد عليه وتأخذ منه

(لَعَلِيٌّ) القرآن عند الله عالي القدر، رفيع المنزلة على سائر الكتب، فهو عالي بذاته ويعلي غيره ويرفع أصحابه، أي متمكن ومهيمن على جميع الكتب السماوية السابقة ويصححها ويصوّبها وينقّيها مما أصابها من تغييرات، ولأنه خاتم الكتب السماوية، ومعجزة النبي (ص) كقوله (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) المائدة/٤٨ **(حَكِيمٌ)** محكم في مبادئه وأحكامه، وذو حكمة بالغة ومكانة فائقة، ويضع كل شيء موضعه، وفي حصن حصين أمين منيع ولا يتطرق إليه نسخ بكتاب آخر، ويدعمه ولا يعارضه العلم الحديث، ومؤثر في النفوس المتلقية، ليعظّمه أهل الأرض ويهتدوا به، لأنه من يتصل به ويتلقى منه يستعلي بإنسانيته عن مستوى التيار الجماهيري العام، ويقودها للتي هي أقوم، وتنال سعادة الدارين.

وأنه **(حَكِيمٌ)** لأنه ساوى بين الناس، ودعا إلى التسامح والصفح الجميل، وشجع على الإيمان والعلم والتعلّم، والعمل الصالح، والتعاون على نهضة المجتمعات. **فائدة: (لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ)** وهما صفتان من صفات الله سبحانه، تضفيان عليه ظل الحياة العاقلة! التي فيها روح فاعلة تتفاعل مع الأرواح التي تلامسها، وينشئ في مداركها وفي مشاعرها منهج القرآن العظيم، الذي هو كنز السماء لأهل الأرض، **وهو خلاصة رسالات الأنبياء** (ع) وتقرير هذه الحقيقة كفيل بأن يشعر القوم الذين نزل القرآن عربياً بلسانهم بقيمة هذه الهبة الثمينة الضخمة التي وهبها الله إيّاهم، ويكشف لهم عن مدى الإسراف القبيح في اعراضهم عن القرآن والاستخفاف به. في الحديث **(إنّ الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين)**.

٥- ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾

(أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا) أَفَنَضْرِبُ: أفنصرف، **صَفْحًا**: إعراضاً، **مُسْرِفِينَ**: مستغرقين في كفركم، **المعنى**: الاستفهام إنكاري للإنذار والتنبيه، أي أفنهملكم ونترككم ونصرف عنكم نزول القرآن، ونعرض عن دعوتكم إلى الإسلام، لا لشيء إلاّ لأنكم جهلاء معاندون؟ **(أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ)** في التكذيب والعصيان، ومتجاوزين للحدود المعقولة والمقبولة في الجهل والضلال، فلن نترككم في ضلالكم، وسنوالي إنزال آيات القرآن عليكم لرحمتنا بكم، لعلكم تدركون يوماً معانيه فتؤمنوا به، وحتى يلقي الله الحجة عليكم، وتكونوا على بيّنة من أمركم كقوله (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) النساء/١٦٥، عن الإمام الصادق (ع) **(إنّ الله احتج على الناس بما آتاهم وعرّفهم)** الكافي١/١٦٣، عن الإمام علي (ع) (إنه ليس لهالك هلك، من يعذره في تعمد ضلالة حسبها هدى، ولا ترك حق حسبه ضلالة) البحار٥/٣٠٥ لو رفع الله القرآن حين كفروا به من هذه الأمة من أولها لهلكوا، ولكن الله خلقهم ليرحمهم **(وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)** هود/١١٩، فإن إعراضهم وعنادهم لا يمنع لطفه

ورحمته بهم، وقد جرت سنة الله بإرسال الرسل ليذكّروا الناس حتى المستهزئين، كقوله (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى) الأعلى/٩.

٦-٧- ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ، وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

الآية معطوفة على التي قبلها، **المعنى**: **(وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ)** كلا لا نهملكم ولا نصرف التبليغ عنكم، ولا تتغيّر سنة الله بإرسال الرسل في هداية الخلق، ولم يكن يأتيهم نبي إلّا كذبوه وسخروا منه، وهذا تسلية للنبي (ص) أي لا تحزن فإنه وقع للرسل قبلك ما وقع لك، والمشكلة إذا عمّت هانت، ليكون الأنبياء (ع) كالأطبّاء للناس، لعلاجهم من أمراض الضلال، يصف الإمام علي (ع) النبي (ص) **(طبيب دوّار بطبه، قد أحكم مراهمه**.. فتتبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة) نهج البلاغة خطبة١٠٨، **(كَمْ)** كناية عن الكثرة، فالله تعالى أرسل رسلاً كثيرين في الأزمنة الماضية، وكذبهم أقوامهم، ومع هذا لم ينهزم رسول أمام معانديه، وألقى الحجة عليهم **(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ)** يوسف/٢١، عن الإمام الصادق (ع) في قوله (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ) التوبة/١١٥، قال: (حتى يعرّفهم ما يرضيه وما يسخطه) التوحيد ص٤١١، ٧- **(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)** ويسخرون منه لشدة غرورهم وزيادة غباوتهم وتكبراً على الحق، والذي لا ينفعه الرحمن يضره الشيطان، ومع ذلك كررنا الحجج وأعدنا إرسال الرسل إليهم، لأن الله سبحانه ما خلق الناس عبثاً ولا يتركهم سدى بلا هدى ولا آمر وزاجر، وهكذا عندما يتغلغل الانحراف والضلال إلى أعماق النفوس، تظهر حالة الاستهزاء بالأنبياء قمة البشرية! (الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ) محمّد/٢٥.

٨-٩- ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ، وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾

(فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا) إننا أهلكنا من أولئك الأمم الماضية المعاندة، بأنواع العذاب من كان أشد قوة وأعظم تجبراً من قومك، فلا يغتر هؤلاء المشركون الساخرون **(وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ)** ومضت أخبارهم تضرب بهم الأمثال، وصاروا عبرة لمن يعتبر، وأخسر الناس من كان عبرة للناس كقوله (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) الفتح/٢٣ **في نهج البلاغة حكم٨٩** (من كان له في نفسه واعظ، كان عليه من الله حافظ) **في غرر الحكم** (السعيد من وعظ بغيره، والشقي من انخدع لهواه وغروره) ٩- **(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ)** الله وحده، اعترافاً بوحدة الصانع، إنه اعتراف نابع من فطرتهم التي فطرهم الله عليها، ولكنه إيمان لا يبنى على العلم، ولكنه يبنى على الهوى والجهل، لأنهم لا يتعاملون مع الخالق بما يليق به، بل بما يليق بهم، ويجعلون له انداداً **(الْعَزِيزُ)** القوي القادر في

ملكه، الذي لا يُغلب، متفرداً بالعزة فلا يدخل معه شريك، كقوله (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) فاطر/١٠ (**الْعَلِيمُ**) العارف بأحوال خلقه، والعالم بكل شيء.

١٠-١١-﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ، وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

(**الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا**) مهّد الأرض وذلّلها وبسطها لتستقروا وتعيشوا عليها، فهي كالمهد والفراش لكم، ليسهل على الإنسان استخدامها في كل شيء، فلا هي صلبة فيصعب زراعتها، ولا هي هشة يغوص فيها من عليها، وجعل لها خاصية الجاذبية، وكل مقوّمات الحياة، من وجود الغازات المتوازنة المقدّرة .. إلخ (**وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا**) طرقاً تسلكونها واضحة في البر والبحر والجبال والفضاء، من الذي يدبر الأمر لهذا الكون ويجعل له قوانين دقيقة؟ إن لهذا التنظيم منظماً، ولهذا الوجود موجداً (**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**) إلى مقاصدكم في سفركم، وإلى غاية خلقكم ومعرفة ربكم وتوحيده في العبادة (**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**) إلى منهج خالق هذا الكون الفسيح الدقيق، ١١- (**وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ**) نزول الماء من السماء وهو روح الحياة وسرّها كقوله (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) الأنبياء/٣٠ (**بِقَدَرٍ**) إشارة لطيفة إلى النظام المدبّر الذي يحكم نزول الماء من السماء، إنه بمقدار محدد كاف ينفع ولا يضر، بلا زيادة ولا نقصان، بمقدار معيّن موزون معلوم كقوله (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) الفرقان/٢، (**فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا**)

فأحيينا بهذا الماء الطاهر المبارك (**بَلْدَةً مَيْتًا**) خالية من النبات، وصف البلدة بأنها ميتة، إشارة إلى أن هذا الموت في الظاهر وفي الشكل الخارجي أنه موت، ولكنه يحوي في كيانه حياة سابتة هامدة، وستظل ميتة إلى أن يأذن الله لها بالحياة والنشور بإنزال الماء من السماء (**كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ**) الذي أخرج الأحياء أول مرة من النطفة التي أصلها الأول من الأرض الميتة، كذلك يخرج الأحياء للبعث والنشور يوم القيامة، فصل الربيع وتبرعم الأشجار وتقدح الأزهار بعد يبوس الأغصان في الظاهر، مثال حسّي للبعث والنشور بعد الموت كقوله (أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا) البقرة/١٤٨، **في غرر الحكم (من أفنى عمره من غير ما ينجيه فقد أضاع مطلبه). فائدة: سؤال:** قال هنا (**فَأَنْشَرْنَا**) وقال (لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا) الفرقان/٤٩، ما هو الفرق بين الإحياء والإنشاء؟ **الجواب:** فالإنشاء هو إحياء وانبعاث الحياة، ولكن الإنشاء أبلغ بالمعنى وأدق وأشمل.

١٢-﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾

قانون الزوجية في كل شيء، هي قاعدة الحياة الرئيسة التي يحكمها نظام الزوجية العام، فكل الأحياء أزواج من عاقل وغير عاقل، والأزواج أصناف كثيرة، وأشكال وأحجام وألوان وأطوال،

ولهم جمال وحسن حال ولهم عدة لغات وأنواع الأصوات كقوله (**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ**) الأنعام/٣٨، وهذه المخلوقات كلها متزاوجة وتتوالد وتتكاثر، كما يتوالد ويتكاثر الإنسان، وبهذا يعتدل ميزان الحياة، فتتكاثر النباتات والحيوانات وكل الكائنات في البر والبحر والجو مكافئاً لتوالد الإنسان وتناسله، وبهذا يجد الإنسان كفايته مما على الأرض، **المعنى**: (**وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا**) وخلق لكم أصناف المخلوقات كلها من نباتات وحيوانات وحشرات وطفيليات.. إلخ من ذكر وأنثى، وأبيض وأسود.. وغير ذلك كقوله (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ) يس/٣٦، **هذا دليل على أن هناك زوجية بمعنى التشابه بين صنفين**، وهناك قانون الزوجية العام من ذكر وأنثى من النباتات والحيوانات ومما لا نعلم، فكلها تدخل فيها زوجيات متقابلات الأصناف متنوّعات في الموجودات، من يمين وشمال، وقصير وطويل، وحر وبرد، وسالب وموجب، وليل ونهار، وحلو وحامض، وفوق وتحت، وأمام وخلف، وماضٍ ومستقبل، وأرض وسماء، وجنة ونار، وشمس وقمر.. وغير ذلك إلاّ ذات الله المقدسة النورانية الشفافة، فإنها أحدية، وكل ما سوى الله فهو زوج، وناشئ من زوج. يقول علماء القرآن عند الآية، إن الله تعالى يمتن بإظهار حكمته وقدرته بأنه:

(**خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا**) كقوله (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الذاريات/٤٩، ليثبت الله تعالى أنه فرد أحد صمد، لا زوج معه ولا مثيل له ولا شبيه كقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١ وقوله (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) النور/٣٥، فالزوجان كل منهما فيه من الصفات المشتركة، والصفات المختلفة وكلاهما يكمل حاجة الآخر، فهو ناقص بذاته يكمل بغيره لحاجته له، بسبب الاختلاف الواقع بينهما، والله جلّ جلاله كامل بذاته مكمل لغيره، ولا نقص فيه ولا عيب، فهو منزه عن الزوجة والولد لأنه ليس بجسم، وأنه أكبر من أن يوصف وأكبر من أن يُقاس، وأكبر من أن تدركه العقول والحواس، فهو فرد أحد كامل لا يحتاج إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء كقوله (فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) آل عمران/٩٧ (**وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ**) وسخّر لكم السفن في البحر والأنعام في البر وذللها ويسّرها لكم، لتأكلوا من لحوم أنواع الحيوانات المحللة وتركبوا ظهورها، وسخّر لكم أنواع وسائل النقل الحديثة البرية والبحرية والجوية، وسخّر لكم المركبات الفضائية لغزو الفضاء الخارجي الكبير كقوله (وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) البقرة/١٥١، **فائدة**: وخص (**الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ**) بالذكر عن باب المثال لتسخير النعم، لا من باب الحصر، لأن غيرهما من وسائل النقل الحديثة كالسيارات والقطارات والطائرات لم يكن معروفاً في ذلك الوقت.

١٣-١٤- ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾

(**لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ**) لتستقروا على ظهور هذه المركوبات في البر والبحر والجو، سفينة كانت أو جملاً أو أية واسطة نقل حديثة في راحة ويسر (**ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ**) تشكروا نعمة ربكم عليكم (**إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ**) إذا استقريتم على متنها، والذي يعرف قيمة النعمة يقدرها، ويشكر النعمة ومنعمها الشكر اللفظي والعملي بلسان الحال وبلسان المقال، وهذا من دواعي التقرب إلى الله ونيل رضاه، لتبقى القلوب متصلة بولي النعمة وواهبها (**وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا**) يعبر عن التسبيح بالإحساس بالعظمة الخالقة والنعمة السابغة، **ليعطي للحياة التوازن بين المعاني الروحية والمادية،** فتكون هذه الآية لتسهيل كل أمر صعب للإنسان، واكتشاف كل مجهول، واختراع كل جديد، وتحصيل كل مفيد من علم وعمل وإنجاز.. إنه بتسخير الله لنا (**وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ**) مستطيعين، أي: فما نحن بقادرين على مقابلة نعمة الله الغنية بنعمة مثلها، وما نملك إلاّ الشكر اللفظي والعملي نقابل به هذه الإنعام حتى نتعلم التوزان بين العمل المطلوب اللازم والتوكل على الله القائم كقوله (**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**) آل عمران/١٢٢، **في غرر الحكم** (على قدر الإيمان يكون التوكل، وحسن توكل العبد على الله على قدر ثقته به) **تقرأ هذه الآية عند السفر** (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا..) ويقرأ قوله (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) هود/٤١، **دعاء السفر**: (اللهم إنا نسالك في سفرنا هذا البر والتقوى والعمل بما ترضى، اللهم هوّن علينا سفرنا وأطوعنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر ومشقته، وكآبة المنقلب ومن سوء المنظر في المال والأهل) نور الثقلين٤/٥٩٢، عن الإمام الصادق (ع) ذكر النعمة أن تقول (الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وعلمنا القرآن ومنّ علينا بمحمد (ص) وتقول (**سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا..**) المصدر السابق.

١٤- (**وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ**) لراجعون عائدون إليه بعد الموت، بعد الخلافة في الأرض المحدودة، يعودون إلى ربهم ليجزيهم عما فعلوا في هذه المهلة من العمر كقوله (**لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**) يونس/١٤، وذكر الرجوع الحتمي إلى الله في هذا المقام، مشابه بالرحلة التي يقطعها الإنسان على ظهر السفينة أو الدابة، ثم يعود إلى مستقره الذي خرج منه، فكذلك الحياة الدنيا رحلة مؤقتة بدأها الإنسان من يوم ولادته، ولكن خرج من عالم آخر غيبي قائم بذاته وراء هذه الحياة الدنيا، ثم يعود إلى هذا العالم الآخر الغيبي الذي خرج منه كقوله (**إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى**) العلق/٨، فمن الله البداية، وإليه النهاية، وليس عندنا شيء إلاّ منه، ولا رجوع إلا إليه، ولا حياة إلاّ معه ومنه جلّ جلاله. **تذكروا الآية الاستعداد إلى لقاء الله في كل لحظة،**

لأن الذي يعرف كيف ينتهي يعرف كيف يبدأ، كقوله (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) آل عمران/١٠٢.

عن الإمام علي (ع) (إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) مستدرك الوسائل١/١٨، فذكّره الله بمصيره النهائي الحتمي بالرجوع إليه سبحانه، حتى لا يغتر الإنسان بالإمكانات التي أعطاها الله له كقوله (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) إبراهيم/٣٤، **في نهج البلاغة حكم٣٣٠** (أقلّ ما يلزمكم الله ألّا تستعينوا بنعمه على معاصيه) **فائدة**: وإيثار (**تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ**) على (تحمدوا) لأن الذكر بالقلوب، **في غرر الحكم** (**الذكر حياة القلوب**) كقوله (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) المؤمنون/٢٨، عن النبي (ص) (أن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم) روح البيان٨/٣٥٥، **روي**: (القلوب اللّاهية أعرضت عن حبّ الله فأذاقها الله حبّ غيره)!

١٥ - ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾

(**وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا**) وأثبتوا لله من عباده ولداً متجزئاً منه، لأن الولد بضعة من والده وقطعة منه، عن النبي (ص) (**فاطمة بضعة مني**) المراغي٢٥/٧٦، فإنهم قالوا الملائكة آلهة لأنهن بنات الله، أو قالوا عيسى ابن الله، فكيف يكون له ولد، والولادة من صفات الأجسام المحدودة، والله تعالى خالق الأجسام كلها وهو ليس بجسم، ولا يشبه المخلوقين (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) الشورى/١١ (**إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ**) بيان حال الإنسان غير المؤمن الذي يستغرق في كفره، ويبالغ في جحوده، فيظهر على قوله وفعله كقوله (**قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**)عبس/١٧، وهكذا الجاهل المعاند يعمل بنفسه، كما يعمل العدو بعدوّه.

١٦-١٧ - ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾

(**أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ**) استفهام إنكاري للتعجب، لا يجتمع الخلق والتبني؟ ولماذا يصطفي الله لنفسه ما تكرهون، ولأنفسهم ما يشتهون؟ ما لكم كيف تحكمون كقوله (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى) النجم/٢١-٢٢، فالمخلوق لا يكون جزأ من الخالق، كما لا يكون البيت جزءاً من بانيه، كيف نزلوا بقدر الله سبحانه عن أن يكون مساوياً لهم؟ كقوله (**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**) الأنعام/٩١، ١٧- (**وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا**) **ضَرَبَ**: جعل، **مثلاً**: شبهاً ومماثلاً، أي وإذا أخبر أحد المشركين بولادة ابنة أنثى له — التي جعلها شبهاً لما نسبوه للرحمن — (**ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا**) كناية بلاغية عن شدة الغم والهم، ويلاحقه الحزن والحياء من الناس من سوء ما بشّر به (**وَهُوَ كَظِيمٌ**) وهو مملوء كرباً وكآبة وغيظاً

يكتمه ولايعلنه، ويتوارى عن القوم خجلاً، لعدم رضاه بذلك وعدّه عاراً لهم، ولكنهم يرضونه لله سبحانه، تشير الآية إلى قلة عقولهم وسخافة تفكيرهم، فكيف لهذه العقول المتحجرة أن تدرك الأدلة العلمية على عظمة الله عزوجل، والالتزام بمنهجه القيم المستقيم؟! **روي**: أن أحد رجال العرب وضعت امرأته أنثى، فهجر البيت الذي ولدت فيه!! الرازي ٢٠١/٢٧ أما حال المؤمنون الاستبشار بما يرزق الله، ويعتقدون اختيار الله لهم هو المناسب كقوله (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) القصص/٦٨.

١٨ - ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾

(أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ) يُنشّئ: صيغة مبالغة إنشاء، وذات دلالة عميقة، هي المرأة الناعمة المدلّلة التي تنشأ من أول عمرها، وتتربى وتشب وتكبر وهي متعلقة بالزينة، ومولعة بالحلي ومستغرقة في تجميل نفسها. بأنواع الثياب الحديثة، وبمختلف مساحيق الجمال الكثيرة، الهمزة لإنكار الواقع الجاهلي، واستقباح عاداته، الاستفهام إنكاري للتعجب، **الآية لا تذم المرأة، ولا توجد آية واحدة يذم القرآن المرأة،** بل كل آياته يمدحها ويكرمها كقوله (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) التوبة/٧١، وهذه الآية تصف الحالة المذمومة السلبية التي من عملها واستغرق فيها من النساء يشمله الذم، لأن الاستغراق يضيّع الاستحقاق، **من غرر الحكم (من اشتغل بغير المهم ضيّع الأهم)** وليس كل النساء ينشأن في الحلية، وليس كلهن لديهن التعلّق الشديد بالزينة، أما التعلّق المتوازن المعتدل بالزينة والحلي ضمن حدود الحاجة، هو من الأمور المجبولة عليها أغلب النساء، **لأن المرأة تحب ان تكون جميلة، لأنها مخلوقة لجذب الرجال واستمالة زوجها لها دون غيرها،** فلابد أن تكون دائماً جميلة جذابة محترمة، فالشيء النفيس نداريه ونحافظ عليه، فهذه المرأة لا يكون عقلها في جمالها، وإنما جمالها في عقلها، وهذه نقطة قوة في شخصيتها، بل أكّد الإسلام أن تتزين الزوجة لزوجها، ولكن الآية تذم حالة الاستغراق والإفراط والتفريط في التعلّق بالحلي والزينة، وقد تتحلّى وتتجمل ولكنها لا يكون كل اهتمامها بجمالها، فقد تجد من النساء النموذجيات المميزات من عندها رأي قوي، وحجتها بليغة، وجدالها مقنع، مثل السيدة أم سلمة يوم صلح الحديبية، بلقيس ملكة سبأ التي فاق عقلها كل عقول رجالات حكومتها، آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون الطاغية، مريم بنت عمران، فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، زينب الكبرى بطلة كربلاء، وغيرهن، بل هناك من النساء ما تفوق آراؤها الصحيحة آلاف بل ملايين الرجال. **وكأن الآية تعني أنه بمقدار ما تتولّع المرأة بالحلية والزينة والجمال، تكون غير صالحة للخصام والجدال والحوار العنيف،** لذلك عبّر عنها **(يُنشّئ)** منذ طفولتها وتنمو على حب التحلّي، والتفنن بالتجمّل ولبس كل ما هو جميل، فتعنى بمظهرها أكثر من الاعتناء بجوهرها وعلومها، وكبر عقلها

وحرصها على دراستها وتحصيل شهادتها العليا، **أما الآية الكريمة فقد ذكرت حالة عامة عند النساء، ولكنها ليست قاعدة** تشمل جميع النساء، لأنه ليست كل النساء ينشأن في الحلية، ويكون كل اهتمامها بجمالها. **(وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)** وهو في الجدال والنزاع والنقاش الشديد غير فصيح وغير مبيّن لحجته، وعاجز عن إقامتها على الخصم؟!

فائدة: ١- هناك علاقة متصلة بين (مَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ) وبين من **(هُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ)** فيكون الذي يُنشّئ في الحلية، يكون كل اهتمامها بالأشكال وتعتني بالجمال وحسن الحال، يكون عقلها في جمالها، وحرصها في أناقتها، بينما ينبغي أن يكون حرصها أولاً بعقلها وعلومها وثقافتها وموقعها الاجتماعي المميز أكثر من حرصها على ظاهر جمالها. عن النبي (ص) **(آفة الجمال، الخيلاء)** البحار ٧٧ص٥٩، عن الإمام علي (ع) (عقول النساء في جمالهن، وجمال الرجال في عقولهم) البحار١٠٣/٢٢٤، حسن العقل جمال الباطن والظاهر، ولا جمال أحسن من العقل المفكّر. **معنى الآية العام:**

ما لكم أيها المشركون؟ أتنسبون إلى الله من يكون كل اهتمامه بجماله وتعلقه بالحلية والحلل والذهب، ويعجز عن البيان، ويضعف في الخصام الشديد، ٢- تشير الآية إلى تحليل الذهب والحرير والزينة للنساء، وذم تزيين الرجال بزينة النساء، **وأيضاً في الآية دلالة على ترك التنشّئ والاستغراق في الزينة**، وزيادة الاعتناء بالنعومة والدلال والحذر منه، لأنه تعالى جعله من المعايب والمذام، أما دعاة التحرر المعاصرين فقد قدّموا النساء على الرجال في إدارة شؤون موارد الحياة المختلفة، ليس حباً بالنساء، وإنما حباً في الإباحية والتجارة بجمالهن ونعومتهن، لتبقى المرأة هي الضحية للشعارات البراقة الخادعة ، التي ظاهرها يغر ويسر ويمر وباطنها يضر.

١٩-٢٠- ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ، وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا) هذه دعوة أخرى من افتراءاتهم على ربهم، بعد أن نسبوا إليه الأنثى التي يكرهونها، واستأثروا لأنفسهم بالبنين، وها هم هنا يفترون افتراء آخر، فيصفون **(الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ)** بالأنوثة، فزعموا أنهم بنات الله **(أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ)** استفهام إنكاري، هل كانوا حاضرين وشاهدوا خلقهم، والرؤية حجة ودليل، فعلموا أنهم إناث، هل تعرفون شيئاً عنهم، أنهم تركيب غير تركيبكم، وهم عالم غير عالمكم، فلا تتكلموا ما ليس لكم به علم **(سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ)** سندوّن افتراءاتهم في صحائف أعمالهم، فليتحملوا مسؤولية هذة الشهادة المفتراة الظالمة، وسيعاقبون كشهداء زور! **(وَيُسْأَلُونَ)** عنها يوم يقوم الأشهاد، وهو وعيد مع تهديد، وهذا كقول من تفلسف وتعسّف من أن أصل

الإنسان قرد! (**أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ**) من الذي شاهد هذه الولادة كقوله (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ) آل عمران/٦، وقوله (فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) الحجر/٩٢.

٢٠- (**وَقَالُوا**) وقال المشركون (**لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ**) إنها شبهة ينبغي الإجابة عنها، وهذا القول احتيال على الحقيقة، إنه سوء أدب مع الله، واعتداء على حق الله تعالى، إنهم اتّهموا الله بأنه هو ساقهم إلى ما هم عليه، بأن ينسبوا له ما ليس له، إنه احتيال بغباء، ونفاق بجهل وخيلاء، كل شيء يقع في هذا الوجود إنما يقع بمشيئة الله كقوله (**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**) التكوير/٢٩، ولكن من مشيئة الله أن يجعل للإنسان قدرة على الاختيار للهدى أو للضلال، والمشيئة غير الرضا، ولم يجبره على أحدهما، وأمره باختيار الهدى وأكرمه عليه ورضيه له وكافأه عليه، ونهاه عن اختيار الضلال والكفر والعصيان وحذّره منه وعاقبه عليه، والقرآن يؤكد هذه الحقيقة كقوله (**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**) البلد/١٠ وقوله (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) الشمس/٧-٨، وقوله (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) فصلت/٤٠.

وقوله (**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**) الإنسان/٣، قضى الله سبحانه أن تكون حرية الإنسان ضمن حدود مشيئة الله وإرادته سبحانه، ومسؤوليته عن أفعاله في حدود قدرته وحكمته عزوجل، كقوله (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) النحل/٣٥، وهذا مكر سيء منهم (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) فاطر/٤٣، كقوله (**أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ**) يس/٤٧، وقوله (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) الأعراف/٢٨، عن الإمام علي (ع) (الأعمال على ثلاثة أحوال: فرائض وفضائل ومعاصي، أما (**الفرائض**) فبأمر الله وبرضاء الله وبقضاء الله وتقديره ومشيته وعلمه عز وجل، وأما (**الفضائل**) فليس بأمر الله ولكن برضاء الله وبقضاء الله وبمشية الله وبعلم الله تعالى، وأما (**المعاصي**) فليست بأمر الله، لكن برضاء الله وبقدرالله وبمشيته وبعلمه، ثم يعاقب عليها) نور الثقلين ج ٤ص٣، **وفي نهج البلاغة حكم ٧٨** (إنّ الله سبحانه أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً ، ولم يكلّف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكرهاً، ولم يرسل الأنبياء لعباً، ولم ينزل الكتاب عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) عن الإمام الكاظم (ع) (**إنّ السيئآت لا تخلو من إحدى ثلاث:** إما أن تكون من الله (وليست منه) فلا ينبغي للرب أن يعذّب العبد على ما لا يرتكب، وأما أن تكون منه ومن العبد (وليست كذلك) فلا ينبغي للشريك القوي

أن يظلم الشريك الضعيف، وأما أن تكون من العبد (وهي منه) فإن عفا فبكرمه وجوده، وإن عاقب فبذنب العبد وجريرته) التوحيد ص ٩٦.

ونقول :لو أن أحداً اغتصب حقهم، فإنهم سيأخذون حقهم منه بالقوة ومعاقبته، ولا يقولون إنه كان مجبراً على اغتصابه! (**مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ**) إنهم يتخبطون خبطاً، وليس عندهم دليلٌ ولابرهان كقوله (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ) النجم/٢٣ (**إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**) يكذّبون، وعلى الله يفترون كلاماً بلا وعي فيضلون أنفسهم وغيرهم،كل فرد وكل مجتمع لا يمتلك علماً فيتشبث بالموهومات والحدسيات، وهذا هو الخرص، التخمين بلا علم.

٢١-٢٢- ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ، بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾

(**أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ**) ردّ آخر على هؤلاء المشركين، أي أم أنزلنا إليهم منهجاً قبل القرآن ينطق بصحة ما يدّعون (**فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ**) وعليه يعتمدون، الاستفهام بمعنى التقرير، كلا لا خبر جاء بذلك ولا وحي نزل، لا دليل لهم من عقل أو نقل إلاّ دليل التقليد البليد، والاتباع الأعمى للآباء والأجداد والأعراف السائدة، والتقاليد الجاهلية الفاسدة، التي تعمي وتصم وتذل الرقاب، وهكذا الذي لا يفكر يقوده الذين يفكرون، ويقودهم إلى ما هم عليه كقوله (قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) المائدة /١٠٤، ٢٢-(**بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ**) على طريقة مقصودة، وملة معينة مجتمع عليها (**وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ**) وإنا سالكون طريقتهم، ومتبعون آثارهم وعاداتهم ومهتدون بها، مقلدون التقليد الأعمى بلا تدبّر ولا تفكر، كان الجهل حاكماً على مجتمعاتهم، ومستحكم على عقولهم، **في غرر الحكم** (الجاهل من انخدع لهواه وغروره) هؤلاء ضحايا العرف الاجتماعي الجاهلي الفاسد العام، (**أُمَّةٍ**) الطريقة أو الملة أو الدين، سميت أمة لأنها تُؤم وتُقصد، إنها مقولة تدعو إلى السخرية، وهي صورة مخزية تشبه صورة القطيع، يمضي للرعي حيث هو منساق، ولا يسأل إلى أين يمضي؟ ولا يعرف معالم الطريق، وهكذا (الذي لايعرف كيف ينتهي، لا يعرف كيف يبدأ)!

٢٣- ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾

(**وَكَذَلِكَ**) فلا تغتم لضلال قومك يا محمّد، فقولهم هذا ليس جديداً (**مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ**) رسولاً في أمة من الأمم ينذرهم (**إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا**) إلا قال المتنعمون فيها، الذين أبطرتهم النعمة، وأطغتهم الأموال والترف والغنى، وأعمتهم الشهوات والملاهي والفساد عن تحمل البحث في طلب الحق، الذين آثروا الترف على طلب الحجة العلمية، **والمترفون:**

جبابرة القوم، يقال أغرقته النعمة أي أطغته وغرق في سكرتها **في غرر الحكم** (استعيذوا بالله من سكرة الغنى، فإن له سكرة بعيدة الإفاقة) **في نهج البلاغة حكم١٠٥ (إن استغنى بطر وفُتن، وإن افتقر قنط ووهن)** والمراد بهم الانتهازيون والنفعيون والوجهاء والرؤساء وأصحاب الجاه، الذين يملكون قرار الضغط على حريات الناس، ودينهم دنانيرهم، وهم أساس الفساد والتقليد الأعمى، الذين أصابهم الغرور والإعجاب بأنفسهم، واستغرقوا في الشهوات والملذّات، ونسوا الله واليوم الآخر، وصاروا طغاة وقساة وبغاة، **إن ما يهم المترفين هو الوصول إلى الأموال والاستثمار**، لا الوصول إلى معرفة الحق والهداية، فهم مغلقون على آرائهم ولا ينفتحون على الآراء الأخرى، **لقد ذم القرآن المترفين في العديد من آياته، منها هذه الآية**، لأنها طبيعة كبرياء وغطرسة، وهي طبيعة واحدة، وحجتهم مكررة في كل زمان ومكان، وتخصيص المترفين بالذكر، لأنهم الذين يقومون في محاربة كل دعوة إصلاح وتحسين الحال، وهذا يبين بأن الترف هو الذي أوجب البطر والكبر والغرور والعناد والفساد، وصرفهم عن التفكّر والتأمل، وقالوا **(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ)** على طريقة وعادة وعُرف اجتماعي معيّن **(وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)** وإنا على طريقتهم متّبعون وسائرون، ولن نتركها ولن نخالفهم! وهذا يدل أن التقليد البليد في ما بينهم ضلال متجذّر قديم، وكل جيل يرث أخطاء الأجيال الماضية، بلا تفكّر ولا تدبّر، والذي لايفكر يقوده الذين يفكرون، وهكذا الذي لايعرف كيف ينتهي لايعرف كيف يبدأ. **فائدة**: قال هنا **(مُقْتَدُونَ)** وقال في الآية ٢٢ **(مُهْتَدُونَ)** تعددت العبارات والمقصد واحد، إنه التحذير من الاتّباع الأعمى والتقليد البليد. إن آباءهم كانوا مهتدين على طريقتهم الفاسدة، وإنهم اتّبعوا عادات آباءهم، فناسبه **(مُهْتَدُونَ)** ادّعوا القوم الاقتداء بالآباء الضالين دون الاهتداء، فناسبه **(مُقْتَدُونَ)**

٢٤-٢٥- ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ، فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

(قَالَ) نبيّهم النذير المرسل: اتتبعون آباءكم بلا علم **(أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ)** إنه قول كل نبي مرسل أو داعية لقومه حين أنذرهم عذاب الله كقوله (يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ) غافر/٣٨ أتصرّون على ما أنتم عليه أم تتبعون الحق سبيل النجاة الذي جاء من قبل الله، والعناد يمنع من الوصول إلى ما هو أفضل وأهدى، والتحجّر والتعصب والفساد سبب لقسوة القلوب، وغلظة الطبائع، والغفلة عن الحقائق المهمة، ومن طبيعة الإنسان حبّ الطموح، والتطلع نحو حياة أفضل، والبحث نحو الأحسن، والذي يبحث عن الأحسن هو الأحسن، والسّيء الذي لا يميز الطريق الأحسن، فلما لم يجدوا حجة **(قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)** لانطّلع على رسالتكم ولا نهتم بها، وإن كانت أهدى وأفضل وحقاً

واضحاً كقوله (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) الأنعام/١١٠، **نقلب أفئدتهم وأبصارهم: كناية بلاغية فنية دقيقة، واستعارة تشبيهية عميقة**، عن علم الله تعالى بخفايا قلوبهم وأسرار شخصيتهم وبواطن حقيقتهم، عندما لاينفعهم الحق يضرهم الباطل، وان الله يقلّب قلوبهم عن الحق فلا يعقلونه، وأبصارهم عن مشاهدة الحقيقة فلا يبصرونها، عقاباً لهم على عنادهم على الضلال، وإصرارهم على الكفر كقوله (**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**) الصف/٥ وقوله (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) الزخرف/٣٦-٣٧، وقوله (وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ) الأعراف/٢٠٢، ٢٥- (**فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ**) باستئصالهم (**فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**) فانظر كيف صار حالهم ومآلهم، وهم بذلك مستحقون لسنة الاستئصال وتطهير الأرض من وجودهم، وهكذا تكون عاقبة المجرمين كقوله (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ) السجدة/٢٢.

فائدة: ١- **هذا الموقف يعلّمنا آداب المحاورة** وأصول النقاش مع المجادلين والمعاندين، إنه تعبير مؤدّب مرن شفاف يدخل في المشاعر ويحرّكها بلا استئذان، إنك تبدأ معه من حيث يحب حتى يتسنى لك طرح ما تحب، إنه لايقول لهم إنكم في انحراف وخرافة، ولكن قال لهم: عندكم طريقة، وعندنا طريقة هي أهدى وأفضل من طريقتكم، فتعالوا وانظروا صحة قولنا، ونحن لا نجبركم على طريقتنا، وإنما نطلب منكم الاطّلاع ومعرفة ماعندنا كقوله (**وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**) سبأ/٢٤ وقوله (تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) آل عمران/٦٤، ٢- تشير الآية إلى صحة تقليد العلماء المجتهدين العاملين الكفوئين، والرجوع إليهم في الفروع دون الأصول كرجوع الجاهل إلى العالم، ورجوع المريض إلى الطبيب.. إلخ.

٢٦-٢٧- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾

(**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ**) واذكر لهم يا مُحَمَّد حين قال إبراهيم وهو الجد الأكبر للعرب، وكان العرب يقولون نحن من ذرية إبراهيم الخليل، فلماذا لاتتبعوه في معارضته لعبادة الأصنام وكسرها، وأعلن كلمة التوحيد واضحة جلية وقوية في مجتمع وثني، **في غرر الحكم** (**التوحيد**: حياة النفس) ومن توجّه إلى وجه واحد يكفيه الوجوه كلها، ومن تحمّل همّاً واحداً يكفيه الهموم كلها! (**لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ**) حين رآهم يعبدون الأصنام والكواكب (**إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ**) إنني مستنكر ومبغض وبريء من كل ما تعبدون من دون الله، إذ كانوا يعبدونها تقليداً أعمى لآبائهم من غير حجة، وقام هو وحده (ع) معارضاً ومقاوماً للواقع الجاهلي الفاسد كله كقوله (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) النساء/١٢٥، ٢٧- (**إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي**) (**إِلَّا**) استثناء منقطع، لكني أعبد الله الواحد الأحد (**الَّذِي فَطَرَنِي**) أوجدني من العدم

على غير مثال سابق، فكما خلقني ودبر أمري بما يصلح ديني ودنياي (**فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ**) إلى الحق الذي أطلبه، ويدلني ويرشدني إلى طريق النجاة والاستقامة، إن هدايته (ع) متصلة، لأن السين تدل على الاستقبال، وكانت ثقته عالية بالله، ومن وثق بالله توكل عليه، **في غرر الحكم** (على قدر الإيمان يكون التوكّل، حسن توكل العبد على الله على قدر ثقته به) من سعى إلى الله قربه إليه، ومن بحث عن الله وجده، عن الإمام علي (ع) **(من صبر على الله وصل إليه)** البحار ٧١ص٩٥.

٢٨ - ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

(**وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**) وجعل الله كلمة التوحيد الخالصة (**لا إله إلا الله**، الملك الحق المبين، **لاإله إلّا الله** حقاً حقاً، **لا إله إلا الله** تعبداً ورقاً، **لا إله إلا الله** إيماناً وصدقاً، وأكد القرآن على عقيدة (**التوحيد**) لأنه أساس الدين، وحياة النفوس، واستقامة المجتمعات، وتوازن الطاقات، وانطلاق الكفاءات (**والتوحيد**) خير عبادة وأحسن عادة، وأفضل منهج، وأعظم حقيقة، لأنه يعطي للحياة فلسفتها، ويعطي للوجود قيمته على أنه أكبر من ظاهره المشهود، ويعطي للإنسان كرامته على أنه روح وجسد، **في نهج البلاغة خطبة٢ (أشهد أن لا إله إلّا الله**.. فإنها عزيمة الإيمان، وفاتحة الإحسان، ومرضاة الرحمان، ومدحرة الشيطان) كقوله (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) الأنبياء/٢٢، هذه الكلمة الخالدة التي تقوم بها الحياة، ويستقيم الوجود، وتجعل لها أثراً في كل نشاط للإنسان وكل تصوّره وأحواله، واليوم بعد عشرات القرون من اتباع الديانات السماوية الكبرى، يدينون بكلمة التوحيد لأبيهم إبراهيم (ع) **وكلمة التوحيد تحركت عليها كل أنظمة الكون والكائنات، وهي الشعار البارز، لجميع الأنبياء،** ليكون التوحيد القاعدة الرئيسة لتصورات الناس وانتماءاتهم وممارساتهم العملية، حتى تنتظم هذه التصورات التوحيدية الخالصة مع النظام الكوني الواسع، فتشترك السنن الكونية مع السنن الإنسانية في وحدة واحدة موحدة متّحدة، لوجود العلاقة والرابطة بينهما، عن الإمام الصادق (ع) في (**كَلِمَةً بَاقِيَةً**) في مصاديقها الإمامة إلى يوم الدين، مجمع البيان٩/٨١ لأن الإمامة أصل كل خير ووحدة المسلمين وعز المؤمنين وصلاح الدنيا، لم ينصر إبراهيم (ع) (**كَلِمَةً بَاقِيَةً**) هي كلمة التوحيد في زمانه فقط، وإنما امتدت كلمة التوحيد على أساس توحيد الكلمة، لتكون منهجاً صافياً حركياً من بعده، وتصل إلى أبعد مكان وأطول زمان في الأرض، فهي (**كَلِمَةً بَاقِيَةً**) خالدة ممتدة من بعده، كلمة لها صفة الثبات والتأثير، لأنها كلمة الحياة، حياة حضارية تتفجّر منها الحياة، فهي بذاتها حياة، وبمفعولها حياة، وبامتدادها حياة، وبدونها أصناف الحياة واجترار الحياة، وهدر الحياة وضياع لها كقوله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) فاطر/١٠ (**كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ**) كلمة خالدة مؤثرة في ذرية إبراهيم، وصّاهم

ليعملوا بها ليكون فيهم دائماً من يوحّد الله تعالى، ويدعو إلى التوحيد على منهجه كقوله (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ) البقرة/١٣٢، وقوله (**فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) آل عمران/٩٥، كانت لإبراهيم دعوتان مجابتان في الأعقاب أحدهما قوله (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) البقرة/١٢٤ وثانيتهما قوله (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) إبراهيم/٣٥ (**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) وإذا ضلّ أحد منهم أو أشرك أو سقط في الشرك الخفي أو الجلي، يتذكّر وصية أبيه الهادية الغالية ويرجع إلى رشده ويتوب ويندم.

٢٩ – ٣٠ – ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ، وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾

(**بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ**) لم تزل كلمة التوحيد موجودة وفاعلة في ذرية إبراهيم (ع) حتى دخلهم الترف والطغيان جيلاً بعد جيل، وأمهلتهم متنعمين وآباءهم بالمدّ في أرزاقهم وأعمارهم والإكثار من أولادهم ونعمهم، حتى أخذتهم الشهوات واستدرجتهم اللّذات فصارت هي غايتهم ورسخت في طبائعهم (**حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ**) وهو القرآن الذي لا شك فيه ولا اشتباه (**وَرَسُولٌ مُبِينٌ**) قامت الأدلة المتواترة بأن مُحمّداً الصادق الأمين، وأنه لعلى خلق عظيم، جاءهم يعرض عليهم هذا القرآن الكريم في وضوح لينبههم من غفلتهم، ويرشدهم إلى التوحيد، بعد أن أخذتهم المحرّمات، وأطاعوا الشيطان، ونسوا كلمة التوحيد، وكثرة النعم لا تدل على التكريم، وإنما هي ابتلاء واستدراج كقوله (فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) القلم/٤٤ وقوله (وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) الأعراف/١٨٣، ٣٠ – (**وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ**) لقد اغتروا الأجيال بطول الإمهال وهم مستغرقين في النعيم، فازدادوا عتوّاً وضلالاً، وقالوا عن القرآن (**هَذَا سِحْرٌ**) لأنه يؤثّر في العقول والنفوس والمشاعر بطريقة خارقة لا شعورية، فيخرجها من ظلمات الجهالة إلى نور الهداية والدراية، ولكن زعماء قريش أصحاب اللغة والفصاحة والبلاغة، فلا يغيب عنهم أن القرآن حق خارق، ولكنهم كقوله (**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا**) فاطر/٨ ولا يختلط القرآن بالسحر، ولكن يعلنوا كفرهم في التغرير وخداع الجماهير المنساقة، خيفة أن يفلتوا من نفوذهم، ويتأثروا بمنهج التوحيد الذي يسقط معه كل كبريائهم، ولا تعلوا كلمة إلّا كلمة (**الله أكبر**)، وفيه إشارة إلى أن أهل الأهواء والبدع والضلالة، ينظرون إلى الحق وأهله كمن ينظرون إلى السحر وساحره، ويعملون بكلمة الكفر بلسان الحال أصدق من لسان المقال!

والله سبحانه لقد أمهل حتى كأنه أهمل، ولقد ستر حتى كأنه غفر، ولقد أنذر حتى كأنه أعذر! وهكذا الذي لا يقبل القرآن فيقبله الشيطان كقوله (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ) يونس/٣٢.

٣١- ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

استبعدت زعماء قريش نزول القرآن على مُحَّد (ص) وهو فقير ويتيم، واقترحوا أن ينزل على أحد الرؤساء والعظماء، ظناً منهم أن العظيم بالمظاهر والأبّهة، وهو الذي يكون له مال وجاه، وهذا تركيز على الميزان الطبقي، وفاتهم أن العظيم هو الذي يكون عند الله تعالى عظيماً، ولكن هذا رأي الطغاة والجهلاء في كل زمان ومكان، أما مقياس العظمة عند الله تعالى وعند العقلاء، ليست بالمظاهر وإنما بالكفاءة المعنوية والمؤهلات العقلية والملكات الروحية، وبعظمة النفس وسمو الروح وجمال القول وكمال الفعل وجلال الخُلق، والكمالات العلمية كقوله (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) الحجرات/١٣، في نهج البلاغة حكم٨١ (**قيمة كل امرئٍ ما يحسنه**) لا بالزخارف الدنيوية، والذي يحتقر الفقير لفقره ولو كان عالماً فاضلاً، ويحترم الغني لغناه ولو كان فاجراً، فهذا في ضلال بعيد، ومن أعظم نفساً وأسمى روحاً من مُحَّد (ص)؟ ولكن عندما تنتشر القيم الخاطئة، وتنقلب المقاييس والموازين الصحيحة، فتكون هي العامل الأساس في انحراف الأفراد والمجتمعات، **المعنى**: (**وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**) **وقالوا**: لو كان هذا القرآن من عند الله، لكان من المفترض أن ينزل على رجل عظيم له مال وجاه عريض، ومشهور بالرياسة عند الناس في إحدى القريتين مكة أو الطائف؟ أما مُحَّد (ص) فهو وإن كان من أشرفهم نسباً، وكان مشهوراً بالصادق الأمين، وصاحب الخُلق العظيم، إلاّ أنه لم يكن زعيم قبيلة ولا رئيس عشيرة، ولا يملك مالاً ولا جاهاً عريضاً، وهم يعتقدون أن النبوة يجب أن تكون لعظماء المظاهر والألقاب، وهم لا يعلمون أنها من اختيار الله وإعداده للأنبياء، لقد اختار لرسالته من صاغه الله صياغة متكاملة تؤهله للقيام بهذه المسؤولية الثقيلة الكبيرة كقوله (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) الطور/٤٨ وقوله (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) الأنعام/١٢٤.

٣٢- ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

الاستفهام إنكاري للتعجب! فردّ الله عليهم مستنكراً هذا الاعتراض، وعلى خلطهم بين قيم السماء وقيم الأرض، **المعنى**: (**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ**) أهم يمنحون النبوة، ويخصّون بها من شاؤوا من العباد بحسب أهوائهم، هل أنتم تعرفون مكان الخير والفضل والعظمة؟ هل أنتم تفهمون معنى القيم التي ترفع الناس درجات؟ هل فوّض الله إليكم توزيع المناصب والمراتب، إن

الله هو الذي يقسم فضله بالعدل، ويعلم وزن العظمة، وأين هي، ومن يتحمل مسؤوليتها عن الإمام علي (ع) **(رحم الله امرأً عرف من أين، وفي أين، وإلى أين)** النبوة منصب إلهي، والنبي يبلّغ عن الله، سبحانه بأمانة واقتدار، فهل يريد المترفون أن يختاروا لله من يبلّغ عنه، ويتكلم باسمه من لا يأتمنه ولا يرتضيه، وهل يجيز المترفون لأحد أن ينوب عنهم دون أن يأذنوا له؟! فكيف أجازوا على الله ما لا يجيزونه على أنفسهم؟ **(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)** نحن نقسم الأرزاق في معيشتهم على هذه الأرض، لعلمنا بمصالح عبادنا، ووفق حكمتنا وتقديرنا لعمران الأرض ونمو هذه الحياة، وضمن قاعدة الأسباب والمسببات، وليس لأحد أن يتحكم في شيء من ذلك، عن الإمام الحسن العسكري (ع) **(لا يشغلك رزق مضمون عن عمل مفروض)** البحار٧٨/٣٨٤، نحن بحكمتنا جعلنا هذا غنياً وهذا فقيراً، وفاوتنا بينهم في الأموال والأرزاق، **وإذا كان أمر المعيشة لم نتركه لهم، وهو لا يقاس بالنبوة، وهو دونها بل تولينا قسمته بأنفسنا**، فكيف نترك أمر النبوة العظيم والدين القيم الكريم لأهوائهم ومشتهياتهم؟! كقوله (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ) المؤمنون/٧١.

فنحن كما قسمنا معايش الناس، كذلك قسمنا مواهبهم وملكاتهم وقدراتهم، وفاوتنا بقوتهم وبجمالهم وأشكالهم واختصاصاتهم **(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ)** متفاوته، أننا جعلنا منهم أغنياء وفقراء، مرضى وأصحّاء، وأقوياء وضعفاء، وعلماء وبسطاء.. إلخ، وجعلنا بينهم تفاوتاً في الذكاء والشجاعة والأخلاق، وأسباب هذا التفاوت يكون وفق عوامل متعددة، وتختلف من بيئة إلى بيئة، ومن مجتمع إلى مجتمع، ومن عصر إلى عصر، ومن فرد إلى فرد، وهذا التفاوت المسخّر والاختلاف الطبيعي ضروري لتنوّع الأدوار المطلوبة، وتعدد الأسباب والمسؤوليات المرغوبة للخلافة في الأرض، وعن هذا التفاوت في الأدوار والأسباب يتفاوت الرزق، كذلك نصطفي للرسالة والنبوة من نشاء كقوله **(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)** الأنعام/١٢٤ **(لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا) سخريا:** من التسخير في الخدمة وتنوّع الأعمال، فينتفع أحدهم بعمل الآخر، لا من السخرية والاستهزاء، الإنسان مدني بطبعه، والناس يتكاملون باجتماعهم وتعاونهم، وأن الله لا يفضل إنسان على إنسان، ولا يمكن أن تدار الحياة نحو التقدم الحضاري وعمران البلاد والعباد إلاّ عن طريق هذا التفاوت، فينفع بعضهم بعضاً في قضاء حوائجهم، **فيحصل التعاون وتبادل الخبرات واستثمار الكفاءات وتعدد الاختصاصات، وإذا تساوى الناس هلكوا**، إنّ الحاجة المسخرة المتبادلة بين الناس تكسر من كبرياء المغرورين، وتزيد من التآلف بينهم، وهذا التفاضل في المواهب أدى إلى بناء الحضارات، وبذلك تطورت الصناعات وتنوّعت الاختراعات، ودولاب الحياة المتحرك حين يدور يُسخّر

بعض الكفاءات لبعض، وليس التسخير هو الاستعلاء، استعلاء طبقة على طبقة، أو فرد على فرد، إن كل البشر مسخّر بعضهم لبعض في كل موضع، فسخّر الفقير للغني، ومسخر المريض للطبيب، ومسخر العامل لصاحب العمل، ومسخّر المهندس للعامل ولصاحب العمل، وصاحب العمل مسخّر للمهندس وللعامل على السواء.. إلخ وكل واحد مسخّر للآخر تلقائياً، وكلهم مسخّرون للخلافة في الأرض وفي ذلك دقة في التقدير، وجمال في التدبير، وحكمة في التوزيع، والفوارق تكون بالأداء الأحسن في كل شيء، كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا) الكهف/٣٠، **في غرر الحكم** (إنكم إلى إعراب الأعمال أحوج منكم إلى إعراب الأقوال) **قال الشاعر**: الناس للناس من بدو ومن حضر – بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم، وهكذا تقسيم الرتب والمنازل العلمية والروحانية على أساس طاعة الله وتقواه كقوله (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) الأنعام/١٣٢، وقوله (**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**) البقرة/١٩٧ (**وَرَحْمَةُ رَبِّكَ**) الواسعة يا محمّد، ورعايته لك وتسديده وتأييده لك بالنبوة والرسالة والعصمة والخُلق العظيم والعلم الواسع، وحملك للقرآن الكريم (**خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**) من الأموال والأشكال والجمال وحسن الحال، حيث أسند جمع المال إلى الناس لا إلى الله تعالى، ولكنه تعالى يصيب برحمته من يشاء، ولا يضيع أجر المحسنين (**وَرَحْمَةُ رَبِّكَ**) يختار لها الله من يشاء من عباده ممن يعلم أنهم لها أهل كقوله (**وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ**) البقرة/١٠٥، وكل الثروات والمغريات الدنيوية الكثيرة لا تعدل جناح بعوضة في مقابل إحاطة رحمة الله ورضاه والقرب منه سبحانه. من دعاء الإمام علي (ع) (اللهم لا تجعل بي حاجة إلى أحد من شرار خلقك، وما جعلته بي من حاجة فاجعلها إلى أحسنهم وجهاً، وأسخاهم بها نفساً، وأطلقهم بها لساناً، وأقلهم عليّ بها مَنّاً) البحار٧٨ص٥٦.

٣٣–٣٥– ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ، وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ، وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

الآية ردّ على من قال أن الفقر لا يصلح للنبوة، وأيضاً تكشف الآية عن الطبيعة البشرية التي تستهويها الشّهوات والملذّات وحبّ الأموال وحبّ الدنيا عن النبي (ص) (حبّ الدنيا رأس كل خطيئة) روح البيان٦/٤٣٧، لأن الإنسان يرتبط بالأمور الحسّية المادية أكثر مما يرتبط بالأمور الروحية المعنوية، عن الإمام الحسين (ع) (الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون) تحف العقول ص١٧٦ كقوله (**فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**) التوبة/٥٨، أي إنّ الحياة الدنيا زهيدة لا تساوي عند الله شيئاً بكل زينتها وأموالها وزخارفها ومتاعها وذهبها وفضتها، وأكبر

دليل على هوانها أنه سبحانه يجعلها لمن يكفر به، إنه متاع قليل مهما كثر وتنوّع، ومؤقّت وزائل ولا يتجاوز حدود فسحة العمر في هذه الدنيا، التي لذّاتها قصيرة، وهمومها كثيرة، وتبعاتها طويلة! لذلك سماها دنيا، من الدنو والتسافل، وسمى الآخرة الدار العليا، من العلو والتسامي لأنها دار الخلود والبقاء، وهي خير وأبقى للإنسان، ولكن الناس (غير مؤمنين) ويفضلون الدنيا على الآخرة، ولولا الخوف من افتتان الناس، ولولا رحمته سبحانه بعباده لوسّع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً كاملاً، وجعلهم يستغرقون في النعيم المتنوع، والكفار شر خلق الله كقوله (أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ) البينة/٦، فذكر شيئاً من هذا النعيم وليس حصراً، **المعنى**: **(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً)** لولا أن الناس يؤثرون نعيم الدنيا على نعيم الآخرة، ولولا خشية أن يفتن الناس بالكفر فيصيروا أمة واحدة كافرين بلا علم طلباً للامتيازات، وتوهم أن ذلك فضيلة في الكفّار، إذا رأوا سعة الخير والرزق عندهم دون غيرهم وتبذل رخيصة لهم، ولحزن المؤمنين وغمّهم ذلك **(لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ)** لأعطينا الكافرين من الثراء أكثر مما هم عليه **(لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ)** لجعلناهم أثرياء قادرين فيبنون قصورهم من عدة طوابق عالية، وأسقفها من فضة مزخرفة بأنواع الزينة والنقوش الجميلة والمتنوعة في الأناقة **(وَمَعَارِجَ)** ودرجات ومصاعد فضية كثيرة دليل على فخامة البناء **(عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ)** عليها يصعدون إلى الطوابق العليا المطلّة على مناظر جميلة خلاّبة.

٣٤- **(وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا)** كثيرة وعالية ومزخرفة بالنقوش الجميلة والمتنوعة في فنونها وأناقتها **(وَسُرُرًا)** فضية فخمة **(عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ)** ٣٥- **(وَزُخْرُفًا)** وجعلنا بيوتهم مزخرفة من ذهب وأعطاهم ما يشتهون كقوله (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ) لقمان/٢٤، وقوله (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) الأعراف/١٨٢، عن الإمام الصادق (ع) (لو فعل الله ذلك لما آمن أحد، ولكنه جعل في المؤمنين أغنياء وفي الكافرين فقراء، وجعل في الكافرين أغنياء وفي المؤمنين فقراء، ثم امتحنهم بالأمر والنهي والصبر والرضا) نور الثقلين٤/٥٩٩، ولكن الله تعالى منع هذا الفرض، مراعاة لمشاعر عباده المؤمنين أن تكون فتنة لهم تصدّهم على الثبات على الإيمان. **(وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)** وكل ذلك وسائل التمتع في الحياة الدنيا المؤقتة، التي في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، هذه النعم الكثيرة ليست هي المقياس لشخصية الإنسان وكرامته ومقامه، في نهج البلاغة حكم٨١ **(قيمة كل امرئٍ ما يحسنه)** وليس قيمة كل امرئٍ ما يملكه **(وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ)** عالم الآخرة عالم المكآفات والمفاجآت والمخبّآت، عالم الجنان الباقية للمتقين خاصة بهم، هؤلاء هم المكرمون عند الله بتقواهم، فهو يدّخر لهم ما هو أكرم وأبقى، ويؤثرهم بما هو أقوم وأغلى، وفي هذا دلالة على أننا لا نترك حقّنا في الدنيا كقوله (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ

وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) الأعراف/٣٢، **عن النبي (ص)** (ليس الزهد أن لا تملك شيئاً، ولكن الزهد أن لا يملكك شيء) إلّا الله مالك الملك /ميزان الحكمة ٩/٢٩٢، **في غرر الحكم** (من عمّر دنياه خرّب مآله، من عمّر آخرته بلغ آماله) كقوله (تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا) القصص/٨٣، **في نهج البلاغة حكم ٣٨٥** (من هوان الدنيا على الله أنه لا يُعصى إلاّ فيها، ولا ينال ما عنده إلاّ بتركها)! **عن النبي** (ص) **(من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته)** البحار ٧٣ ص٨١، **وعنه** (ص) **(يا ابن آدم:** إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك، فأيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت تريد ما لا يكفيك، فكل ما فيها لا يكفيك)! نور الثقلين٥/٦٦٠، **وعنه (ص)** (لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة من ماء) البحار ٧٧ص٧٩، **وعنه (ص)** (إن الله تعالى يحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه، كما تحمون مريضكم الطعام والشراب، تخافون عليه) كنز العمال خبر ٤ .٦١، **وعنه** (ص) **(إنّ الله يعطي الدنيا لمن يحبّ، ولمن لا يحبّ ولا يعطي الدين إلاّ لمن يحبّ)** المراغي ٣٢/١٨، عن أبي الحسن موسى (ع) (إن الله عزوجل يقول: إني لم أغن الغني لكرامة به عليّ، ولم أفقر الفقير لهوان به عليّ، وهو مما ابتليت به الأغنياء بالفقراء) نور الثقلين٤/٦٠٢.

فائدة: سؤال: لو وسّع الله الدنيا على كافة المسلمين، هل يكونون أمة واحدة يلتزمون بالإسلام؟ **الجواب:** التوسعة المفتوحة عليهم مفسدة لهم، عندئذٍ يطلبون الدنيا باسم الدين، **عن النبي** (ص) **(ويل لمن طلب الدنيا بالدين)** كنز العمال خبر ٢٩٠٩١ فيعيشون النفاق المحبط للأعمال، ولا يطلبون الإسلام لأنه خير الأديان، ويظلمون أنفسهم عن الرقي لفهم فلسفة الحياة، كقوله (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) الشورى/٢٧، **عن النبي (ص)** (من طلب الدنيا بعمل الآخرة، فليس له في الآخرة من نصيب) كنز العمال خبر ٢٩٠٦٧، **في غرر الحكم** (**المؤمن:** من وقى دينه بدنياه، **والفاجر:** من وقى دنياه بدينه) وفيه أيضاً **(لايترك الناس شيئاً من دينهم لإصلاح دنياهم إلاّ فتح الله عليهم ما هو أضرَّ منه)!** وفيه أيضاً (من جعل ملكه خادماً دينه، انقاد له كل سلطان، من جعل دينه خادماً لملكه، طمع فيه كل إنسان)!

٣٦-٣٧- ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾

على سبيل الكناية البلاغية عمن لا يملك وضوح الرؤية العقائدية العلمية الصحيحة، وعنده شكوك كثيرة على منهج الله، ويفتقد البصيرة النافذة في أعماله وأقواله وتعاملاته، سببها الغفلة عما يراد منه، وعما ينتهي إليه، والغفلة ضلالة ومن فساد الحسّ، كقوله **(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)** ق/٢٢، **في غرر الحكم** (ويل لمن غلبت

عليه الغفلة، فنسي الرّحلة ولم يستعد في المهلة) **المعنى: (وَمَنْ يَعْشُ) العشا**: سوء البصر وضعف النظر، وإذا تعدّى بـ(عَنْ) فالمراد بالعشي الإعراض والتعامِ والتغافل واللامبالاة، بيّن الله سبحانه مصير أولئك الذين أنعمنا عليهم (في الآية ٣٣) ذلك الزخرف والزينة والقصور والذهب والفضة، هم عمي عن ذكر الله، منصرفون عن طاعته التي تؤهلهم لرزق الآخرة ونعيمها الدائم، وقد اقتضت سنة الحياة أن الإنسان إذا أعرض قلبه عن ذكر الله، يصبح الشيطان قريناً له ويصاحبه، ويوسوس ويزين له سوء عمله فيراه حسناً **(عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ)** عن القرآن الكريم، وعبادة الرحمن، وأعرض عن الآيات والدلائل في الآفاق والأنفس، **(القران)** أعظم رحمة، فهو دستور الحياة وسبيل النجاة، فمن قبله فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب ونال الرغائب، ومن أعرض عنه، فقد أعرض عن سعادته وابتعد عن سبيل نجاته، عندئذٍ يتلقفه الشيطان ويصاحبه ويمنيه ويغريه بالمحرمات فلا يشعر بسوء العاقبة، وذكر صفة **(الرَّحْمَنِ)** لاستمالة قلب هذا الغافل الجاحد لربه، الذي يرحمه ويكرمه وهو يكفر به وينكر فضله، **(نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا)** يعاقبه الله وفق سننه في الحياة ، أن نهيئ ونيسّر له شيطاناً يغويه، ونسلطه عليه ونضمه إليه بدلاً عن ذكر الله، ومن ضاق عليه الرحمن، فالشيطان عليه أضيق، كلمة **(الشيطان) جاءت نكرة لتعطي صفة العموم لأنواع الشياطين**، وهو كل وسيلة تقود إلى الشر والفساد والمساوئ والمخاطر والتهلكة، سواء أكان الشيطان هوى أو غروراً أو إنساناً، أو علماء السوء ورؤساء الضلالة، يصدونهم عن سبيل الله ويدفعونهم إلى المحرمات فيتبعونهم، أي من يتعامى عن دعوة الحق والخير، وينطلق مع أهوائه وشهواته، فيتخلّى الله عنه ويتركه مع رغباته، ويكله إلى نفسه وشياطينه فيزيّنون له المحرمات وتأخذهم المظالم والمفاسد لاستعدادهم لها، ويحسبون أنهم في قمة التقدم.

كقوله (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) فصلت/٢٥، وقوله **(وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ)** الأعراف/٢٠٢، وظيفة الشيطان يوسوس لجميع الناس وفي كل الأحوال، ولكن **(التقوى)** هي الدرع الأمين وهي الحصن الحصين منه كقوله (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ) الأعراف/٢٠١ **(فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)** ملازم له، يصاحبه لا يفارقه، ليضله ويغويه، فيصير هو قرينه بدلاً عن ذكر الله، فيستغرق في الفساد، أي يترك الله هذا المتعامي وشأنه وما اختاره لنفسه، كما أن المؤمن يقرن الله به مَلكٌ صالح يرشده ويهديه إلى صراط مستقيم كقوله **(فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)** النحل/٦٣، وقوله (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) طه/١٢٤ وقوله (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣، وقوله (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا) الإسراء/٢٢، ٣٧- **(وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ)** وأن هؤلاء

الشياطين ليمنعون قرناءهم عن سبيل الله وطريق الحق والصراط المستقيم والدين القويم، ويكونون فريسة سهلة للشيطان، ثم تنقلب الموازين الصحيحة عندهم، فيتصورون عقائدهم الباطلة وفسادهم وظلمهم هو التقدم والتطوّر والقوة والاقتدار (**وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**) ويحسب الكفّار أنهم على خير ونور وبصيرة، وأنهم في أحسن الأحوال، ولا يفسح لهم الشيطان المجال أن يستفيقوا من غفوتهم، ويرجعوا عن فسادهم كقوله (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ، فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) مريم/٨٣-٨٤، وقوله (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) الكهف/١٠٣-١٠٤، **في غرر الحكم** (ما أخسر من ليس له في الآخرة نصيب)!

فائدة: ١- قال(**لَيَصُدُّونَهُمْ**) (**وَيَحْسَبُونَ**) التعبير بالفعل المضارع المستمر: للدلالة على أن العملية قائمة ومستمرة وواضحة، يراها المؤمنون فيتقون، ولا يراها الضالون المفسدون السائرون إلى جهنم وهم لا يشعرون، ٢- **سؤال:** كيف يقيّض الله الشيطان ويهيئه لعبده، وهو ينهاهم عن اتباع خطواته؟ **جواب:** أي منعهم الله رحمته وألطافه، وسلبهم التوفيق لتصميمهم على الكفر، فلم يبق لهم قرناء وأصحاب سوى الشياطين، كقوله (**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**) الصف/٥، وقوله (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) النحل/٣٦، **في نهج البلاغة كتاب٢٨** (من لا يستقيم به الهدى، يَجُرُّ به الضلال إلى الردى)

٣٨-٣٩- ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ، وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾

وهم باقون على حال العشي والإعراض عن ذكر الله، وإذا النص القرآني يطوي شريط الحياة بسرعة، ويواجهون الحقيقة بأعينهم كقوله (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ) الزمر/٥٦، **المعنى:** (**حَتَّى إِذَا جَاءَنَا**) أحدهم في عالم الآخرة الحتمي ومعه قرينه هواه وشيطانه، وانكشف له عن ضلاله وما يستتبعه من العذاب الأليم (**قَالَ**) على نحو التمني، مخاطباً لقرينه الشيطان الذي أغواه، ومخاطباً أصدقاءه الفاسدين الذين أضلوه، متأذياً من صحبتهم (**لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ**) بعد ما بين المشرق والمغرب، كناية بلاغية عن أطول مسافة يمكن تصوّرها، يا ليتني لم أرك ولم أعرفك، وكنت بعيداً عنك بعد المشرق من المغرب (**فَبِئْسَ الْقَرِينُ**) الصاحب، كنت لي رفيقاً سيئاً ضاراً بتزينك لي الباطل بصيغة الحق في الدنيا، حيث أضللتني الضلال البعيد، وأوردتني النار، فإنك مشدود معي في سلسلة واحدة زيادة في العذاب المهين كقوله (**وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا**) النساء/٣٨، ٣٩- (**وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ**) تمنيكم هذا بسبب ظلمكم (**إِذْ ظَلَمْتُمْ**) ما ظلمتم في الدنيا أنفسكم وظلمتم غيركم، بالكفر والفساد والاعتداء على حقوق الناس، فلن ينفعكم الاعتذار، وإلقاء

التبعة على الغير لأنكم (**فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**) فكل منهما ظالم ومقصّر، وكل واحد نصيبه من العذاب، وهو بعينه عذاب لكم كقوله (يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) الفرقان/٢٨-٢٩.

٤٠ - ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

استفهام إنكاري للتعجب والنفي، لمن تنادي، وتنير الطريق؟ ولا سميع ولابصير!؟ وهذا تشبيه فني للكفّار في عدم الانتفاع بما يسمعونه من الآيات البينات، وما يرونه من الحجج الساطعات، بالأطرش والأعمى، وهم ليسوا صماً ولا عمياً، ولكنهم كالصم والعمي في عدم الانتفاع بهذه الأجهزة، **فلا تستقبل الهدى لأنهم عطّلوا البصيرة**، وختمت الشهوات على أعينهم وآذانهم وقلوبهم، فلا يرون الحق ولا يسمعون كلمته، استحوذ عليهم الشيطان فزين لهم طريق الفساد كقوله (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) الأعراف/١٧٩، وقوله (وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ) النمل/٨١ **عن النبي(ص) (ليس الأعمى من يعمى بصره، إنما الأعمى من تعمى بصيرته)** كنز العمال خبر ١٢٢٠، وظيفة الرسول أن يُسمع من يريد السماع، ويهدي من يريد الهداية ويبصر طريقها، فإذا هم عطّلوا جوارحهم، وطمسوا منافذ قلوبهم، فما للرسول إلى هداهم من سبيل، ولا عليه من ضلالهم من شيء، فقد قام بواجبه كقوله (لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا) يس/٧٠ وقوله (**فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**) النحل/٣٥، عن الإمام الصادق (ع) (إن الله عزوجل احتج على الناس بما آتاهم وما عرّفهم) الكافي١/١٦٣.

المعنى: (**أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ**) أفأنت يا مُحَمَّد تقدر أن تسمع هؤلاء الكفار المعاندين الذين هم كالصم والعمي، الذين فقدوا سمع قلوبهم وإصغاء عقولهم، وفقدوا بصائر أفئدتهم، **وعمى بصائر القلوب أشد من عمى العيون والأسماع**، والآية تسلية للنبي (ص) فقد كان يجهد نفسه ليكونوا مؤمنين، وهم لا يزدادون إلا طغياناً وضلالاً.

(**أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ**) الذين لا يبصرون الهدى وطريق الرشاد والنجاة (**وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**) وقد عطف الضلال على العمى، أي ومن كان مغموساً في الضلال الواضح ومستغرقاً في الفساد؟ أي لا تتكلف في دعوتهم ولا تحزن على إعراضهم وضلالهم، ولايضيق صدرك إن كفروا وعاندوا وتاهو فكرياً وروحياً وعملياً. **عن النبي(ص)** (بعثت داعياً ومبلغاً وليس إليّ من الهدى شيء، وخلق إبليس مزيناً وليس إليه من الضلالة شيء) كنز العمال خبر٥٤٦.

٤١-٤٢ - ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ، أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾

المعنى: **(فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ)** الأمر لا يخرج عن هذين الحالين، فإذا ذهب الله بنبيه وتوفاه قبل الانتقام منهم **(فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ)** فيستولي الله سبحانه الانتقام منهم بعد وفاتك، **ومعنى الانتقام الإلهي**: هو العقاب العادل الذي يتناسب مع جرائمهم، لا الحقد والتشفّي كقوله (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ) السجدة/٢٢، ٤٢- **(أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ)** وإن بقيت حياً يا مُحَمَّد أظهرك الله عليهم ومكنك منهم مرغمين، وهذا ما حدث بالفعل حيث دخل الرسول مكة فاتحاً منتصراً، واستسلم له عتاتها، بعد أن أخرجوه منها خائفاً يترقب، **(فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ)** وهم في قبضتنا وتحت قدرتنا على كل حال، ومتمكنون منهم من إنزال العذاب بهم، وهم ليسوا له بمعجزين.

٤٣-٤٤- ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾

أما أنت يا مُحَمَّد فخذ هذا القرآن الكنز الثمين واعتصم به، فإنه حبل الله المتين، وهو خلاصة رسالات جميع الأنبياء، واثبت عليه، وتخلّق بخُلُقه، وتدور معه حيث يدور في أوامره ونواهيه ومواعظه، وأنت مطمئن القلب، ويؤكد القرآن هذه الحقيقة، وفيها تثبيت كذلك للدعاة إلى الله من بعد النبي(ص) مهما لاقوا من معاناة، **المعنى**: **(فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ)** فتمسك بالقرآن **(الاسلام)** الذي أوحيناه إليك، بأن تتلوه حق تلاوته، وتتبع منهجه كقوله (خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ) الأعراف/١٧١ **(إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** إنك على دين حق قيم موصل إلى الله وإلى دار كرامته، دين مبارك لا يضل سالكه وهو **(الاسلام)** لا عوج فيه مؤدٍ إلى النجاة، لا يلتوي بك ولا ينحرف ولا يحيد، فلا يحزنك جحودهم وإعراضهم عن دين الله، فإن الإناء ينضح بما فيه!، ٤٤- **(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ)** إنّ هذا القرآن يذكركم بالله واليوم الآخر،وإنه لشرف عظيم لك ولقومك من العرب، تذكرون به بين الأمم، رفع القرآن من شأنهم وذكرهم، ونشر سلطانهم ولغتهم في شرق الأرض وغربها، وإنها لتبعة ضخمة تُسال عنها الأمة التي اختارها الله لدينه **(وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ)** عن شكر هذه النعة الكبرى، وتسألون عن تعلم القرآن وتعليمه والعمل به، وقد خصكم الله به من دون العالمين، فإنه نعمة النعم، وقمة القمم، ومنّة المنن، فهو حجة الله عليكم، لذلك ستسألون عنها يوم القيامة كما ستسألون عن النعيم.

كقوله (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) التكاثر/٨ فلا عذر بعد التذكير.

٤٥- ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾

(من الآيات المتشابهة) **المعنى**: **(وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا)** وهذا على سبيل الفرض، وفرض المحال ليس بمحال، لأن النبي (ص) لا يمكنه سؤال من تقدمه من الرسل، وقد شملهم الله برضوانه، أي إسأل أيها النبي علماء الأديان السماوية السابقة، وأتباع الأنبياء من سبقك من الرسل كقوله **(فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ)** يونس/٩٤، وليس

الرسول (ص) بحاجة إلى سؤال عن أمر هو عالم به، ولكنه سؤال دعوة إلى هؤلاء المشركين أن يشاركوا في هذا السؤال، وأن يتلقوا الجواب عليه، فيصححوا معتقداتهم الفاسدة (**أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**) الاستفهام للإنكار والنفي، أي هل هناك أحد من الرسل دعا إلى عبادة غير الله؟! كلا، كل الرسل والرسالات السماوية، اتّفقت على دعوة الناس إلى توحيد الله (**لا إله إلاّ الله**) كقوله (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) النحل/٣٦، **في غرر الحكم** (**التوحيد**: حياة النفس) **التوحيد**: هو فلسفة الحياة وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، وهو أساس (الإسلام) دين الله الواحد الموحّد المتّحد، الدين الذي لا يتجزّأ ولا يتعدد ولا يتفرّق كقوله (**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**) آل عمران/١٩، وقوله (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) الشورى/١٣، وهذا **الدين الواحد** لكل الرسل والرسالات السماوية، وهو الحقيقة التي تبرز وتثبت وتؤثّر وتستمر، فعلام أيها المشركون المعاندون تعلنون الحرب على محمّد(ص) وعلى دعوته، ثم تدّعون أنكم على ملة إبراهيم (ع).

٤٦–٤٧ – ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾

تشابه اعتراضات فرعون وقيمه، مع اعتراضات مشركي العرب وقيمهم، وهذه طبيعة الجهّال المتعالين في كل زمان ومكان، **المعنى**: (**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا**) بمعجزاتنا الباهرات الدالة على صدقه في دعواه النبوة، وهي تسع معجزات: العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والقحط ونقص الثمرات (**إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ**) ووجهاء قومه (**فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) ومبعوث إليكم لأدعوكم إلى توحيد الله، ٤٧– (**فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ**) فلما أظهر لهم المعجزات الخارقات، إذا هم منها يسخرون استهزاءً واستخفافاً، وهذا يشير إلى استهتارهم وحماقتهم وسوء تربيتهم، ليوهموا أتباعهم أن تلك الآيات سحر، وأنهم قادرين عليها. **فائدة: تكررت قصة موسى، والسبب أن أكثر السور والآيات التي تحدثت عن موسى نزلت في مكة**، وكان المسلمون قلة مستضعفة يلاقون أشدّ الإيذاء من زعماء المشركين، وكان بنوا إسرائيل يلاقون أشدّ الإيذاء من فرعون، ثم دارت عليه الدوائر وغرق وقومه حتى صار عِبرة لمن يعتبر، وانتصر موسى، وأيضاً سينتصر المسلمون على المشركين إذا صبروا واتقوا، كما انتصر موسى وقومه كقوله (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) آل عمران/١٨٦ وقوله (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) محمّد/٧.

٤٨ – ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

وهكذا لم تفدهم المعجزات الباهرات التي ظهرت على يد موسى، وهي تأخذهم متتابعة، كل آية أكبر من أختها، مما يصدق عليهم قوله (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) الزخرف/٤٠، **وفي هذه الآيات دلالة أن المعجزات الخارقات المدهشات لا تهدي قلباً قاسياً لم يتأهل للهداية**، فإذا لم يكن من نفس الإنسان واعظ، لا تنفعه المواعظ، ولم يكن له من الله حافظ. **المعنى**: (**وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ**) من معجزة مدهشة (**إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا**) إلّا وهي بالغة في الإعجاز الخارق، وأكبر وأوضح وأبلغ وأشد عذاباً من التي قبلها، بحيث يظن الناظر إليها أنها أكبر من غيرها، لئلا يبقى لهم عذر وحجة كقوله (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ) الأعراف/١٣٣ (**وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ**) وعاقبناهم بأنواع العذاب الشديد المنذر كقوله (فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) الأنعام/٤٢ (**لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**) عن كفرهم وعنادهم إلى حكم العقل والهدى والاستقامة، ولكن ما أغنت الآيات والنذر عن قوم لا يبصرون إلاّ منافعهم ومصالحهم الخاصة. **فائدة: سؤال**: كيف نفهم هذا التفاضل بين الآيات الكبيرة، وأكبر من أختها؟! **الجواب**: الغرض من هذا الكلام أنهن موصوفات بالكبر والتأثير السلبي الضار، ولكن عندما يعانون من ضرر أحدها، وتؤذيهم وتنغّص عيشهم، وتكرههم حياتهم، ثم يأتي تأثير الضرر الآخر يكون أكثر شدة من التي سبقتها، لحصول الانزعاج المضاعف، والأذى المتزايد ونفوذ الصبر عليها. فيكون (البلاء على قدر الطباع)

٤٩ – ٥٠ – ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾

أخذهم الله سبحانه بأنواع العذاب التدريجي بذنوبهم، وخافوا على أنفسهم، نادوه، **المعنى**: (**وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ**) استغاثوا بموسى أن يكشف عنهم العذاب (**بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ**) بما أيدك وسددك وأعطاك المعجزات والكرامات (**إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ**) راجعون إلى دين الله الحق، لو كشف عنا العذاب، والعجب هنا بما يحكيه القرآن عن فرعون وقومه قولهم (**يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ**) فهم أمام البلاء الشديد، وهم يستغيثون بموسى لطلب النجدة ليرفع عنهم البلاء والعناء والشقاء، ومع ذلك يقولون له (**يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ**) يا أيها العالم الماهر، وكانوا يسمون العلماء النوابغ سحرة ويعظمونهم، ولم يكن السحر صفة ذم عندهم، إنهم أدركوا أن هناك قوة خفية غامضة تدعم وتؤيد هذا الرجل، فأطلقوا عليها أنها سحر (**ادْعُ لَنَا رَبَّكَ**) فهو رب موسى وليس ربهم، في الوقت الذي يقول لهم أنه (**رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) الآية/٤٦، رب الكائنات جميعاً لا ربه وحده، فلا الخوارق تنفعهم ولا كلام الرسول المؤثر دخل في قلوبهم، ولم يستذوقوا حلاوة الإيمان، إنها إشارة كاشفة عما في أعماق نفوسهم

الغليظة من إصرارهم على الكفر، ولا يرون في موسى إلاّ ساحراً محترفاً كبيراً! ٥٠- (**فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ**) فلما دعا موسى الله لهم، وكشف عنهم العذاب (**إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ**) ينقضون عهدهم الذي قطعوه على أنفسهم، ويصرون على الكفر والعصيان توهماً أن ما نزل بهم من الشدائد حصل طارئاً ولا يعود إليهم! وهكذا الجاهل الكافر يرى الأمور بجانبها المادي الضيّق، فيعمل بنفسه الضرر كما يعمل العدو بعدوه.

٥١- ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

بعد أن كشف العذاب عنهم بدعاء موسى، ولما رأى فرعون أمر موسى يزيد على الأيام ظهوراً وشهرة، خاف على مملكته لكثرة اتباع الناس لموسى، فأظهر التفاخر، وخطب الناس بعدما اجتمعوا قال (**قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ**) مفتخراً ومتباهياً أن يتصرّف في ملكه الواسع كما يشاء (**وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ**) المتفرعة من نهر النيل (**تَجْرِي مِنْ تَحْتِي**) من تحت قصوري وبساتيني بالطريقة التي أريد؟ (**أَفَلَا تُبْصِرُونَ**) عظمتي وسعة ملكي، وما أنا فيه من القوة والملك العظيم؟ وبالمقابل لاحظوا فقر موسى وضعفه، لكن فرعون افتخر بأمر سخّره الله إليه، وهو خارج عن ذاته ومؤهلاته كقوله (نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ) لقمان/٢٤، وقوله (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) الأنعام/٤٤، ولكنه لم يفخر بأوصافه وخصائصه وأقواله وأفعاله! ولكن الجماهير المستعبدة الخانعة المغفّلة الذليلة، يغريها المناظر الخدّاعة القريبة من عيونهم، ويبهرها الإشارة إليه، أما هذا الكون الواسع العجيب المنظم بسماواته وأرضيه لا تلتفت إليه ولا تهزّها عظمته!

٥٢-٥٣- ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ، فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾

(**أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ**) عرف فرعون كيف يلعب بأوتار هذه القلوب المغلوقة المستهان بها، وهو يدرك أن موسى ليس ملكاً ولا أميراً ولا صاحب قوة ولا مال، وأدرك فرعون المشاعر المؤيدة لموسى تتزايد في نفوس قومه، وكأنه يقول لهم: لا تظنوا خطأ، ولا تجعلوا موسى معي على كفة ميزان، إنه ليس مثلي ولا خيراً مني، بل أنا خير من هذا الذي هو مهين، لا ملك معه ولا سلطان له، ولا منطق سليم ومستقيم ولا لبق في لسانه، **وقد نفذ القرآن الكريم بهذه الكلمات البليغة القليلة، إلى وصف أغوار نفوسهم ورصد تحركاتها وسكناتها بدقة عالية** (**وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**) وفوق هذا هو لا يكاد يبين كلامه، ولا يكاد يفصح ولا يوضّح عما يريد قوله لثقل في لسانه، فكيف يصلح للرسالة؟ **وقيل**: بأن هذه العقدة في لسانه زالت بدعائه ربه، عندما أرسله إلى فرعون بقوله (**وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ، يَفْقَهُوا**

قَوْلِي) طه/٢٧-٢٨ وقوله **(قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى)** طه/٣٦ وحلّت عقدة لسانه فعلاً وعاد يفصح ويبين، ربّما عيّره فرعون بما كان عليه سابقاً قبل شفائه منها، لا بما هو كائن بالفعل، **ولكن الحقيقة تقول**: كان الأنبياء كلهم فصحاء بلغاء، وإن ما قاله افتراء على موسى، وتنقيصى له في أعين الناس، الأنبياء كلهم (ع) سالمون من العيوب والعاهات والنقائص المنفّرة، حتى يستطيعوا تبليغ رسالتهم باقتدار، وإلقاء الحجة على الناس،**٥٣- (فَلَوْلَا)** فهلّا، إن كان رسولاً حقاً وساد الناس بذلك **(أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ)** وأنا خير من هذا الذي لم يطوّق بطوق من ذهب، ولم يُسوّر بسوار من ذهب، ولم يتوّج بتاج الملوكية، وأبّهة الرئاسة وقلائد الزعامة، جرت عادة قوم فرعون إذا اختاروا رئيساً لهم في منصب، يسوّروه بسوار كبير من ذهب، كدرع تكريم ووسام تشريف، وعلامة تقدير لسيادته، وهم يريدون شيئاً مادياً ومظهراً خلاباً، وأبّهةً وعظمة، وهذا مقياس المجتمع المادي الكافر، هذه نفس الشبهات التي طرحها زعماء مكة، (مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) الآية/٣١ **(أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)** متتابعين مقرونين به ومصاحبين له ينصرونه ويعينونه في رياسته، ويشهدون له بصدقه، ولا يفارقونه كالرجل العظيم مع حاشيته، كما هو شأن الملوك والرؤساء، وشأن الرسول الموفد من جهة عليا.

٥٤-٥٦- ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ، فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ، فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾

الحكومات الطاغية تحرص على إبقاء الناس محصورين على مستوى متردٍ من الفكر والوعي، ويعيشون الغفلة من المعرفة للحقائق والوقائع، وتنصب لهم قيّماً وموازين كاذبة منحطّة، ويمارسون معهم عملية غسل دماغ متواصل لتبقى الأمة تعيش التخلّف وتحسب أنها تحسن صنعاً، لأن يقظتها تشكّل خطراً على حكومتها المستبدة، ويكون هذا الوعي بمثابة المحفّز والمارد الذي يزلزل أركان حكومتهم، **أما طواغيت اليوم يستخفّون عقول جميع الشعوب**، بواسطة وسائل التواصل الاجتماعي الواسع عبر (الانترنيت)، وبواسطة وسائل الإعلام المتنوعة كالصحف والمطبوعات، وعبر الأجهزة الصوتية والمرئية والمقروءة، وهناك برمجة مدروسة لتسطيح الفكر والاستخفاف بالعقول وتشويش الأفكار وانحرافها وفسادها بكثرة الشبهات، وعقد مؤتمرات عالمية لتبادل الحضارات وصراع الإرادات. **المعنى**: **(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ)** استخفاف الطغاة للجماهير مبدأ مألوف، واحتقارهم حالة معروفة وعادة جارية عند الطغاة والقساة في كل زمان، إنهم يحجبونهم عن الحقائق ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بها، ومن ثم يسهل قيادتهم والاستخفاف بهم والاحتقار لكرامتهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين، ليبقوا على الفساد والجهل والضلال الذي

هم عليه (**فَأَطَاعُوهُ**) ولم يعارضوه لقبولهم بواقعهم السيّء المهان، فاستحقوا بذلك غضب ربهم، والطاغية لا يستطيع أن يفعل هذا بالجماهير إلاّ وهم فاسقون، لا يستقيمون على طريق الهدى، ولا يمسكون بحبل الله، **أما أصحاب العقيدة الحقة**، والمؤمنون المتمسكون بحبل الله فيصعب بل يستحيل خداعهم والاستخفاف بهم، واللعب في كرامتهم والاستهانة بمصيرهم (**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ**) استفزهم بأساليب اختبارية متنوعة، فاستخف بعقول قومه، واستخف بكفاءاتهم وقدراتهم وعزائمهم، واستخف برجالاتهم ونسائهم، وبحياتهم وموتهم، فلم يكن لقومه عنده أي قدر، فاستحقرهم وعظموه، واستهان بكرامتهم ومجّدوه! عن الإمام علي الهادي (ع) (**من هانت عليه نفسه فلا تأمن من شرّه**) تحف العقول ص ٣٥٨، **في نهج البلاغة خطبة ٨٦** (لا ترخصوا لأنفسكم، فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة، ولا تداهنوا فيهجم بكم الإدهان على المعصية) والله تعالى كرّم الإنسان أحسن تكريم، فلا يجوز له أن يهين نفسه أو يعرضها للإهانة، فهو الخليفة على الأرض، وهو سيد المخلوقات كقوله (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) الإسراء/٧٠ (**فَأَطَاعُوهُ**) فانقادوا له وأطاعوه في كل ما طلب منهم من دون معارضته بشيء، رهبة منه وأمناً من سطوته وقسوته، **في غرر الحكم** (شر الناس من يتقيه الناس مخافة شرّه) **في نهج البلاغة خطبة ١٦٤ (إنّ شرّ الناس عند الله إمام جائر ضَلّ وضُلّ به)** وكان انقيادهم مكرهين منقادين لا راغبين ولا فرحين، لذلك استجابوا لموسى لإنقاذهم من ذلتهم، إنهم خافوا من الذل فوقعوا في الذل، وساعة ذل لا تفي بعز الدهر، أذل الناس من رضي بالذل وأهان كرامته، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً، **عن النبي (ص)** (من أقرّ بالذل طائعاً فليس منا أهل البيت) البحار١٦٢/٧٧ (**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**) إنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله تعالى، متمردين عليه، كانوا على ما كان عليه فرعون من الفسق والظلم والإجرام.

عن النبي (ص) (كما تكونوا يولى عليكم) كنز العمال خبر١٤٩٧٩ **في غرر الحكم** (المرء حيث يضع نفسه) فيستجيبون له ولا ينكرون عليه المنكر الذي يدعوهم إليه، إنهم ليسوا أصحاب فكر علمي رصين يضبط لهم عقولهم، ويحفظ كرامتهم وعزتهم ويحدد لهم مواقعهم، بل هم أصحاب أهواء ومطامع، ويحبون الحياة بأي ثمن ويكرهون الموت كقوله (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ) البقرة/٩٦، (**حَيَاةٍ) جاءت نكرة للدلالة على عمومها**، هم حريصون على مجرد حياة فقط، ولو كانت أرخص حياة وأتفه حياة..حياة وكفى!! فراجت عندهم هذه الطبيعة الفاسدة، حتى استغلظ الفساد في نفوسهم وعاشوا الضلال البعيد، كالبرك والمستنقعات التي تتكاثر عليها الحشرات، وتتوالد فيها المكروبات الكثيرة، ٥٥- (**فَلَمَّا آَسَفُونَا**) فلما أغضبونا أشد الغضب بقسوتهم، وعنادهم وذلتهم، والله حليم رحيم لا يغضب

إلاّ من تجاوز الحدود الحمراء الخطيرة، فقد أخذهم بحلمه، فلم يزدهم حلمه عليهم إلاّ سفهاً وجهلاً وتجاوزاً للحدود، وهذه إشارة إلى أن الله سبحانه قد أمهل الظالمين حتى كأنه أهملهم، ولقد ستر عليهم حتى كأنه غفر لهم، ولقد أنذرهم حتى كأنه أعذرهم كقوله (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) الأعراف/١٨٢ وغضب الله على العصاة إرادة عقوبتهم، ورضاه عن المطيعين، إرادة ثوابهم (**انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**) كقوله (إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) إبراهيم/٤٧، ٥٦-(**فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا**) متقدمين على الآخرين في دخول النار، وجعلناهم سلفاً يتبعه كل ظالم وفاجر على مرور الزمان والمكان، (**وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ**) وجعلناهم عِبرة وعظة لغيرهم، ولمن يأتون بعدهم ويعرفون قصتهم فيعتبرون كقوله (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) الحشر/٢، أخسر الناس من كان عِبرة للناس، **في غرر الحكم (من لم يتعظ بالناس وعظ الله الناس به) فائدة:** اغتر فرعون بالعظمة، والأنهار تجري من تحته، فأهلكه الله بجنس ما تكبر به هو وقومه، بالغرق بماء البحر، وفيه إشارة إلى أن من تعزز بشيء أهلكه الله به! **عن الإمام علي** (ع) (بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد)

٥٧-٥٨- ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ، وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

(من الآيات المتشابهة) نهى الله عن عبادة عيسى، وجعل عبادته بمنزلة عبادة الصنام والأنداد، **المعنى: (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا)** ولما ضرب أحد المشركين من قريش مثلاً بعيسى ابن مريم، وجادلك بعبادة النصارى إياه (**إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ**) إذا قومك من هذا المثل يصيحون ويضجوّن ويضحكون استهزاءً، ويلجّون في خصومتهم لك، ويصيحون ويزعمون أنهم قد غلبوا في حجتهم وانتصروا وأفلحوا، ٥٨- (**وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ**)؟ الاستفهام للإنكار، الضمير راجع إلى عيسى(ع) أي إنّ عيسى عندك خير من آلهتنا في عبادة الأصنام، وإذا كان هو حصب جهنم فأمر آلهتنا تكون معه! (**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا**) ما ضربوا هذا المثل لك بعيسى إلاّ طلباً للجدال المذموم الفارغ العقيم، لا بحثاً عن الحق، وإنما لخلط المسائل والتشويش على الموقف كقوله (**وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ**) غافر/٥، **عن النبي**(ص) (ما ضلّ قوم بعد أن هداهم الله إلاّ أوتوا الجدال) نهج الفصاحة الحديث ٢٦٤٨، **عن الإمام علي** (ع) (من كثر نزاعه بالجهل، دام عماه عن الحق)

(**بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**) شديدو الخصومة، ومبالغون في النزاع واللجاج بالباطل، فهم يدركون من أول الأمر ما أراد الله وما أراد نبيه. **فائدة:** ١- (**قصة الآية**) تشير الآية إلى حادثة خاصة بين النبي(ص) وكفار قريش (**خلاصتها**) إنه لما نزل قوله (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ) الأنبياء /٩٨، شق ذلك على قريش، فقال ابن الزبعرى للرسول،

أن النصارى يعبدون المسيح، كانوا في النار، فنحن نرضى أن نكون نحن وآلهتنا معهم، فسكت (ص) انتظاراً للوحي، فظنوا أنه أُلزم الحجة، فضحك المشركون وضجوا وارتفعت أصواتهم ليسكتوا الرسول عن الجواب، ويوهموا الناس أنهم أعجزوا الرسول وأفحموه، فأنزل الله (**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**) الأنبياء/١٠١، إن النصارى لا يعبدوا عيسى، وإنما يعبدون الله ويشركون بالله بجعلهم عيسى معه لكونه ابن الله، فيقولون: الله والابن وروح القدس، قال القرطبي في تفسيره: لو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها، لأنه تعالى قال (**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ**) (مَا) لغير العاقل ولم يقل (ومن تعبدون) وإنما أراد الأصنام التي يعبدونها علانية مما لا يعقل، ولم يكن المقصود المسيح. القرطبي ١٠٣/١٦، **٢- سبب النزول:** عن الإمام علي (ع) قال له رسول الله (ص) يا علي إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى بن مريم، أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا، وأبغضه قوم فأفرطوا في بغضه فهلكوا، واقتصد (اعتدل) فيه قوم فنجوا، فعظم ذلك عليهم فضحكوا، وقالوا: يشبّهه بالأنبياء والرسل، فنزلت الآية (**أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ**) مجمع البيان٩ ص٩٤ **في نهج البلاغة حكم ١١٧** (هلك فيّ رجلان: محّب غالٍ، ومبغض قال) أي مفرط في البغض.

٥٩-٦٠- ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾

(**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ**) وصف الله السيد المسيح، ليس إلهاً يُعبد، كما انحرف فريق من النصارى فعبدوه، إنما هو عبد من عباد الله، مقرّ طيلة حياته بالعبودية لله، وأول كلمة نطق بها في المهد (إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ) مريم/٣٠، العبودية لله حرية في الأرض، وتربية للنفس، وهي تفتح باب الفيوضات الإلهية على العبد، على قدر العبودية تكون المنزلة والرحمة، ويكون القرب من رضا الله **في غرر الحكم (من قام بشرائط العبودية أُهّلَ للعتق)** ومن قصّر عن أصول العبودية أعيد إلى الرق! (**أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ**) بالنبوة وشرفناه بالرسالة والحكمة والعلوم والأعمال الصالحة، وأيّدناه بروح القدس، وخلقته الاعجازية من غير أب، كما خلقنا آدم، ويقمع شهوته، وإجراء المعجزات الباهرات على يده، وليس هو إلهاً ولا ابن إله كما زعم النصارى.

(**وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ**) وجعلنا أمره عجيباً ليقتدوا به ويتعلموا منه ويتّبعوه، ليسير ذكره كالأمثال السائرة والعِبر المؤثرة، ويستدلون بذلك على قدرة الله تعالى وتوحيده، لكنهم نسوا المثل والقدوة وضلوا السبيل! لكونهم ماديين جداً، ولا يؤمنون بالغيب، وأخذوا يشككون في طهارة مريم العذراء، فبرّأها الله مما قالوا، ٦٠- (**وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ**) ولو شاء الله لجعل (**مِنْكُمْ**) للتبعيض، لجعل من البشر الصالحين من تكون فيه صفات الملائكة وطبائعهم (**يَخْلُفُونَ**) يخلف بعضهم بعضاً، ويعمّرون الأرض بدلاً منكم، ولن

يكون ذلك إلاّ بإهلاككم، فلا عسير على الله الذي له قدرة مطلقة، فمتى شاء فعل كقوله (فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) البروج/١٦ وقوله (وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) محمّد/٣٨، وقد يطهّر الإنسان نفسه ويزكّيها فيغلب عقله على شهوته، فيكون أفضل من الملائكة كقوله (**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**) الشمس/٩، يحصل بتزكية النفس وتهذيب طبائعها الصفاء والنقاء ومكارم الأخلاق، **في غرر الحكم (ذروة الغايات لا ينالها إلاّ ذوو التهذيب والمجاهدات) روي:** (ركّب الله في الملائكة عقل بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل مفكّر، وجمع في البشر كليهما للابتلاء، فإن غلبته الشهوة فهو أضّل سبيلاً من البهائم، وإن غلبه العقل فهو أفضل من الملائكة الكرام) روح البيان٦/٢١٩.

٦١-٦٢- ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ، وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

(**وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ**) ربما كان الضمير (**وَإِنَّهُ**) يرجع إلى عيسى(ع) باعتباره من علامات الساعة، وأنه مظهر القدرة الإلهية بولادته الإعجازية من غير أب، وبإحيائه الموتى، وبنزوله من السماء في آخر الزمان ويصلي خلف الإمام المهدي(ع) ويكسر الصليب ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، ويقاتل على الإسلام، في ظلال القرآن٧/٣٤٦، ويوحي ذلك بالقدرة على الحياة بعد الموت، وعلى قيام الساعة، وهو تعقيب على قوله تعالى في شأن عيسى (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا) الزخرف/٥٧، **عن النبي** (ص) (**كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم**) نور الثقلين٤/٦١١ (**وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ**) المراد بالعلم هنا الكشف والبيان ما يعلم به، يكرر القرآن الكريم حقيقة الساعة، ويؤكدها بالتصريح أو بالتلميح، لأنها من أهم أركان الإسلام، ويخبرهم عن حقيقتها الأكيدة الكبرى الثابتة الحاسمة في جميع الأديان السماوية، ويحذرهم من أهوالها وتعدد أحوالها (**لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ**) وتسميتها علماً للمبالغة مما يجب أن تعلم به علماً يقينياً لازماً لتكون من البديهيات العقلية المحسومة، لأنها مسؤولية كبيرة يترتب عليها المصير الأبدي للإنسان، **في نهج البلاغة حكم٢٧** (لا تجعلوا علمكم جهلاً ويقينكم شكاً، إذا علمتم فاعملوا، وإذا تيقنتم فاقدموا)

(**فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا**) فلا تشكوا فيها ولا ترتابوا في قيامتها أبداً، لأن الشك يشوش الرؤية ويقلق النفس، ويحبط الإيمان، ويزيد في الحيرة، ويفسد الدين، **عن الإمام علي** (ع) (لا ترتابوا فتشكّوا، ولا تشكّوا فتكفروا، ولا ترخصوا لأنفسكم فتدهنوا)البحار ج٢ص٥٤، وإن حقيقة القيامة هي ليست من الأمور القابلة للشك، فهي علم لازم بذاته وملزم لغيره، ويبين فلسفة الحياة، وتبقى الحياة لغزاً مبهماً لولا الإيمان بفلسفة المعاد، التي تؤكد أن هذا الوجود أكبر من ظاهره المشهود، فتكون القيامة عرس المتقين، ومحنة الجاحدين، فمن الرشاد الاستعداد ليوم المعاد كقوله (**أَيْنَ مَا**

تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا) البقرة/١٤٨، في غرر الحكم (خير العلم ما أصلحت به رشادك، وشرّه ما أفسدت به معادك) **(وَاتَّبِعُونِ)** اتبعوا دين الله القيم (الإسلام) **(هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)** فإن الإيمان بالساعة يفرض اتّباع النبي في رسالته، لأن الإنسان بحاجة إلى أسوة حسنة يقتدى بها، فهو طريق مستقيم موصول بالله تعالى، وهو سبيل النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة، وفي الاستقامة السلامة والكرامة، بلا أية ندامة ولا ملامة كقوله (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ) الشورى/٥٢-٥٣، ٦٢- **(وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ)** ولا يمنعكم الشيطان بوساوسه عن دين الله، وعن اتباع الحق فهو عدو لئيم معلن عداوته، ويبذل كل جهده لفسادكم، فهو سبب فسادكم وتأخركم فأحذروه دائماً كقوله (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) ص/٨٢-٨٣، **(إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)** ظاهر العداوة ومعلنها.

٦٣-٦٤- ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

(وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى) إلى بني إسرائيل **(بِالْبَيِّنَاتِ)** بالإنجيل والآيات الواضحات والمعجزات الباهرات الدالة على نبوّته، والوصايا والمواعظ والحكم التي علّمها لأتباعه **(قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ)** بالنبوة ودين الله وتوحيده وشريعته المثلى والأخلاق الفاضلة، حركة الأنبياء مبنية على قاعدة الحكمة العلمية والعملية والفكرية، وليست حركة انقلابية عسكرية، وهم ليسوا حكّاماً ولا سلاطين.

كقوله (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا) البقرة/٢٦٩، وقوله (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) الجمعة/٢ **(وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ)** **(بَعْضَ)** دون الكل، الذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه، وبيّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه من أمور الدين، أما الشؤون الدنيوية كالزراعة والصناعة والتجارة.. وغيرها وارجعوا فيها لأهل الخبرة والاختصاص، كرجوع الجاهل إلى العالم في أي اختصاص، فجاء عيسى (ع) مكملاً ومتمماً لشريعة موسى (ع) ولأحكام التوراة، وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له **(فَاتَّقُوا اللَّهَ)** بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فإن التقوى حصن أمين لمن لجأ إليه، **في غرر الحكم (التقوى:** منتهى رضا الله من عباده وحاجته من خلقه) **(وَأَطِيعُونِ)** وأطيعوا أمري، فإن في طاعة الله تكريم للنفس ومعرفة بقدرها، **في غرر الحكم (غيّروا العادات تسهل عليكم الطاعات)** ٦٤- **(إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ)** وحده، لا رب لكم سواه يستحق العبادة، ولا تشركوا به وأخلصوا له الطاعة والعبادة، إنه إقرار بتوحيد الله، وتوحيد ربوبيته، وتوحيد عبوديته، فإنه المربّي لجميع خلقه، ليس كما قال النصارى بعقيدة التثليث (الأب والابن وروح القدس) لذلك كانت أول عبادة الله معرفته وتوحيده، على قدر العلم تكون العبادة، وعلى قدر الإيمان تكون

الطاعة، **في غرر الحكم** (**التوحيد**: حياة النفس) (**هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**) إنّ تقوى الله وطاعته هو الدين القيم، وهو طريق النجاة وهو الصراط المستقيم الموصل إلى رضا الله ونعيم الجنة، فهو من الله ومع الله، وإلى الله، طريق لا التواء فيه ولا اعوجاج، ولا زلل فيه ولا ضلال، **في غرر الحكم** (أكرم نفسك ما أعانتك على طاعة الله)

٦٥-٦٦- ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ، هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

(**فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ**) اختلف اليهود والنصارى، والأحزاب المتشعبة من بين أمته في أمر عيسى (ع) وتحزّبوا فرقاً وأحزاباً مختلفة، بحسب أهوائهم وأمزجتهم وتنازعوا ظالمين لا حجة لهم، فبعضهم كفر به واتّهمه وأمّه الطاهرة العذراء بأشنع التهم، وبعضهم غالى فيه وأوصله إلى مقام الألوهية، والقليل منهم تمسّك بالحق واهتدى بهدى الله من المؤمنين الصالحين، الذين شهدوا له بالرسالة وقالوا: إنه عبد الله ورسوله كقوله (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الأعراف/١٨١ (**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا**) فهلاك للمتحزبين من المبغضين والمغالين، الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الناس، لأن للظلم تبعات مهلكات كقوله (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة/٢٥٤، **في غرر الحكم** (الظلم يزلّ القدم، ويسلب النعم، ويهلك الأمم) (**مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ**) هو عذاب موجع في يوم القيامة الحاسم، ٦٦- (**هَلْ يَنْظُرُونَ**) الاستفهام إنكاري، أي ما ينتظرون هؤلاء الكفّار بكفرهم، بعد إلقاء الحجة عليهم (**إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً**) يبدأ هذا المشهد بوقوع الساعة الحتمي المفصلي (**بَغْتَةً**) أن تأتيهم الساعة فجأة (**وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**) وهم غافلون عنها، لا يشعرون بمقدماتها،وغير مستعدين لها، لعدم إيمانهم بها، هذه المفاجأة الغريبة حاسمة وقاصمة، لأنه إذا لم يعرف الإنسان وقت مجيء الساعة، ففي أي وقت جاءت، أتت بغتة وفجأة، وهذا حث بالإيمان بها، والتعرف عليها، والاستعداد لها، وهذا تهديد ووعيد لمن جعل عيسى إلهاً كقوله (مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ) يس/٤٩، **عن النبي** (ص) (**الخاسر من غفل عن إصلاح المعاد**) تنبيه الخواطر ص٣٥٩. **فائدة: هناك قيامة كبرى**: وهي القيامة الموعودة الشاملة لحشر جميع المخلوقات أحياء بعد مماتهم وفنائهم، إلى ساحة المحشر للجزاء، **وقيامة صغرى** (قيامة خاصة) لكل ميت حين موته يتم حسابه وهو في القبر، **عن النبي** (ص) (من مات فقد قامت قيامته) روح البيان٣/٢٢، عن الإمام الصادق (ع) (القبر: إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار) البحار٦/٢٦٧ (كفى بالموت واعظاً) **عن النبي** (ص) (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)! روح البيان٢/١٣٢، **البقاء الصحيح**: إنّ بقاءك إلى فناء، وفناءك إلى بقاء، فخذ من فنائك الذي لا يبقى إلى بقائك الذي لا يفنى.

٦٧-٦٨- ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ، يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

إنه مشهد مثير مميّز من مشاهد يوم القيامة، **المعنى**: **(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ) الأخلاء**: واحدهم خليل، وهو الصديق المقرّب إلى نفسك، الذي تنسجم مع طبيعته، وتودّه كثيراً، وتتقرب إليه، ويدخل في مشاعرك ويحركها، ويتخلل في أحاسيس نفسك وجوارحك بلا استئذان، أي كل الصداقات والعلاقات العامة والمصالح الشخصية تذهب مع الريح **(يَوْمَئِذٍ)** يوم القيامة، **(بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ)** يصبحون أعداء الدّاء متباغضين، لأنه يظهر لهم أن ما كانوا يتصاحبون مع أجله هو سبب شقائهم وعنائهم في الآخرة، لأن علاقتهم مفتوحة على الكفر والضلال، لا يقيّدها حلال ولا حرام كقوله (كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) المائدة/٧٩ **(إِلَّا الْمُتَّقِينَ)** من اتقى الله وقاه، هؤلاء مودتهم باقية ومحبتهم ثابتة، الذين عاشوا الصدق مع أنفسهم ومع الناس ومع الله، وعاشوا الحياة على التعاون في البر والتقوى ولم يتعاونوا على الإثم والعدوان، فتكون صداقتهم متينة وسليمة فتمتد إلى عالم الآخرة، فيشفع بعضهم في بعض، لأن أساسها قوي لا ينقطع بانتهاء الدنيا، بل يتصل بعالمه الروحي بالآخرة السامية الخالدة، وهذا تشريف لهم ورفعة لدرجاتهم وتطيب لقلوبهم كقوله **(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ)** الحجر/٤٧ عن الإمام الصادق (ع) (ألا كل خلة (صداقة) كانت في الدنيا في غير الله عز وجل، فإنها تصير عداوة يوم القيامة) نور الثقلين٤/٦١٢، وعنه (ع) (أطلب مواخاة الأتقياء ولو في ظلمات الأرض، وإن أفنيت عمرك في طلبهم، فإن الله عزوجل لم يخلق أفضل منهم على وجه الأرض بعد النبيين (ع) وما أنعم الله تعالى على عبد بمثل ما أنعم به من التوفيق لصحبتهم، ثم ذكر قوله **(الْأَخِلَّاءُ)**) المصدر السابق

٦٨- **(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ)**

نداء رقيق جميل شفاف مشوّق، ينادي الله بهم مباشرة يوم القيامة **(يَا عِبَادِ)** بكل لطف ورحمة وأضافهم إلى نفسه سبحانه، بكل إكبار واحترام بما يسرّ قلوبهم، وتنشرح صدورهم، ويجعلهم آمنين في دار السلام والأمان والراحة، وآمنين في ظروف الخوف والرهبة كقوله **(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ)** الأنبياء/١٠٣، والأمان في ظروف الرهبة يزلزل الجميع ويرهبهم إلاّ هؤلاء، وهذه النعمة لها دلالتها المهمة **(وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ)** من شيء ينغّص عليكم حاضركم، ولا حزن على ما فات، ونحن مقبلون على ما هو خير وأبقى. **عن النبي (ص)** (المتحابون في الله في ظل الله، يوم لا ظل إلاّ ظله، على منابر من نور، يفزع الناس ولا يفزعون)

٦٩-٧٠- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾

(الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا) هذا بيان ووصف لعباده المتقين في الآية ٦٨، هؤلاء المتقون هم الذين صدّقوا بالقرآن وبكل آياتنا التكوينية والتشريعية، وفي الآفاق وفي الأنفس **(وَكَانُوا مُسْلِمِينَ)** من

التسليم والخضوع والانقياد لمنهجنا، وعملوا الصالحات بموجب إيمانهم وإسلامهم وفي جميع أحوالهم، فكانوا على درجة اليقين كقوله (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يُوقِنُونَ) السجدة/٢٤، **في غرر الحكم (على قدر الدين تكون قوّة اليقين)** لا يكفي الإيمان وحده، بل لابد من درجة أرقى وهي درجة التسليم والوفاء والانتماء والاتباع لمنهجنا بصدق وعلم، فتجسّد إسلامهم الحركي في جميع تحركاتهم وفي أقوالهم وأفعالهم، ٧٠- (**ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ**) نساؤكم المؤمنات الصالحات، إذا تشتهون ذلك، لأن الزوجة الصالحة مصدر سكينة وأنس وحسن معاشرة ومودة ورحمة، وتمنح جو الأسرة الفرح والسرور، لأن حور العين لسن خارج الجنة حتى يؤمرن، بالدخول إليها (**تُحْبَرُونَ**) كلمة دقيقة المبنى عميقة المعنى، فهي عنوان كبير لكل أثر مستحسن، أي تزيَّنون وتفرحون وتكرمون، ولهم هيئة حسنة مهيوبة لأنهم مدعوون لضيافة الله وكرمه، وتُسّرون سروراً كثيراً يظهر حباره أي أثره وبهاءه ونوره الذي يشع في وجوههم من شدة الفرح والسرور! كقوله (**تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ**) المطففين/٢٤، ويأتيهم من فضل ربهم المادي والمعنوي، مما يكون فوق الوصف، بل تعجز الكلمات والبلاغات عن وصفه كقوله (فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ) الروم/١٥، **في نهج البلاغة حكم١١٤** (كل شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكل شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه، فليكفكم من العيان السماع، ومن الغيب الخبر)

٧١-٧٣- ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

تدور عليهم خدامهم من الولدان المخلدون كقوله (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ) الطور/٢٤، بطعامهم الشهي بأحسن الأواني وأفخرها من صحاف الذهب، وأكواب الفضة الجميلة للشراب كقوله (وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآَنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ) الإنسان/١٥، **المعنى:** (**يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ**) الحور العين والغلمان المخلدون لايزالون يدورون على المتقين المتحابين في الله، وبأيديهم أواني الذهب وعليها الطعام الشهي، وأكواب جميلة مملوءة من ماء الكوثر (**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ**) آية بليغة وفصيحة وتبعث على الشوق والأمل والعمل، ولو اجتمع البلغاء كلهم على أن يصفوا نعيم الجنة بدقة بديعة، لم يزيدوا على هاتين الصفتين، إنه تعبير قرآني كريم ليس فوقه تعبير كقوله (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) السجدة/١٧، وقوله (وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ) فصلت/٣١.

وهذا جامع لكل نعيم وفرح وتكريم مادي ومعنوي، ظاهري وباطني، وفوق شهوة النفوس التذاذ العيون، كمالاً وجمالاً، ولهم فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب

بشر، لهم في الجنة أنواع التكريم والتعظيم، فينالون كل ما ترغب إليه نفوسهم من أنواع النعيم مما يؤكل ويُشرب ويلبس ويُشم من أنواع اللّذائذ والمشتهيات المادية والمعنوية، كسماع أعذب الألحان وأجملها (**وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ**) أضاف الالتذاذ إلى الأعين، بينما الذي ينال حقيقة الالتذاذ هي النفوس، والأعين وسيلة مشاهدة لتوصيل الالتذاذ إلى داخل النفوس ومشاعرها، كقوله (**لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**) الحاقة/١٢، وهنا أضاف الوعي إلى الأذن، والأذن لا تعي، والذي يعي هو (العقل) والعقل لا يعي إذا لم يصغ. **إذن**: هناك علاقة بين الأذن، والعقل، والوعي، والإصغاء (**وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ**) ما تلتذ بمنظره الأعين، بما يمثل النعيم المعنوي والسرور النفسي، من الجمال والزينة واللباس الفاخر، وفنون المناظر الجميلة، والمشاهد اللطيفة، وكل اللذائذ الروحية التي تراها عين القلوب، وتشعر بها البصائر (**وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) باقون دائماً إلى الأبد، فتتوقف عجلة الزمن في الآخرة، ولا يعد للموت وجود، وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة باستمراره وكماله، ٧٢- ويقال لهم (**وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا**) أخذتموها إرثاً من فضل الله عليكم، جعلها الله لكم نعم باقية كالميراث والملك الخاص، المصفّى من كل شائبة وهو نعيم خالد لهم نتيجة أعمالهم الصالحة النافعة للناس والتي ترضي الله، فأورثهم الله الجنة الغالية الثمينة كقوله (**أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ، الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) المؤمنون/١٠-١١، عن النبي (ص) (ما من أحد إلاّ وله منزل في الجنة ومنزل في النار، الكافر يرث المؤمن منزله في النار، والمؤمن يرث الكافر منزله في الجنة ثم ذكر الآية (وتلك الجنة..)) المراغي٢٥/١٠٩.

والإرث: مال المورث للوارث دون عقد ولا ثمن، فتكون الجنة ميراثاً للمؤمنين الصالحين، وهي فضل من الله عليهم، وإحسان من إحسانه إليهم (**بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**) احتفاء بأن الأعمال الصالحة تثمر ثمراً طيباً مباركاً، فتكون الجنة ليست هبة مجانية لهم، فهذه النتائج الكريمة نتيجة المقدمات السليمة المحفوفة برحمة الله الواسعة، ٧٣- (**لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ**)

كنموذج للنعم الحسّية، جمع لهم بين الطعام والشراب والفواكه، وأفرد الفواكه بالذكر، لأنها أشهى الأشياء لأهل الجنة وألذّها عندهم، والفاكهة هي ما يتفكّه به ويستأنس، وليست للتغذية، وليست من ضروريات حياتهم، وإذا كان ما لا يمثل ضرورة موجوداً بهذه الكثرة، فما بالك بالضروري؟ (**مِنْهَا تَأْكُلُونَ**) من بعضها تأكلون لأنها لا تنفذ، فهذه غاية الأماني، ويقطفونها من الأشجار مما تتخيّرون، وباقي الفاكهة تبقى معلّقة تتزيّن فيها الأشجار على الدوام، وكل ما يؤكل يخلف بدله، ولا ترى فيها شجرة خلت عن ثمرها لحظة! عن النبي (ص) (لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها، إلاّ نبت مثلاها مكانها) تفسير أبي السعود٥/٤٩، **فائدة**: (**مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ**) هل يعطيهم الله جميع ما تشتهيه أنفسهم، ولو كانت منافية للشريعة؟

الجواب: نعيم الجنة كله مما تشتهيه الأنفس من حلال، وليس هناك محرّمات، لأنه لا يوجد تكليف بل تشريف، ولا يوجد اختبار ولا افتخار، ولا توجد نفس أمارة بالسوء، ولا يوجد هوى الشيطان، وليس في الجنة زمن، ولا هرم، ولا نوم ولا موت ولا خوف ولا ليل ولا نهار، ولا ظلمة، ولا حر ولا برد ولا فقر ولا جوع ولا شبع ولا عطش، ولا مرض ولا بول ولا غائط ولا إنجاب، ولا حساب ولا عمل ولا لغو ولا كذب ولا كراهية، ولا ضعف ولا كسل ولا ملل ولا فشل ولا خيبة أمل، ولا خطأ ولا اشتباه ولا لؤم ولا غل ولا حقد ولا حسد ولا خبث ولا شر، **وبخلاصة**: في الجنة كل الإيجابيات الدائمة بعيداً عن كل السلبيات، لأن الجنة غاية الصالحين، والنار غاية المفرطين كقوله (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) الحجر/٤٧.

٧٤-٧٦- ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ، لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾

لما ذكر سبحانه صورة موجزة عن سعادة الصالحين، أشار بصورة مقابلة إلى تعاسة المجرمين، على طريقة القرآن الكريم في الترغيب والترهيب، في ذكر المتقابلات، ليتضح قيمة كل منهما، فبضدّها تتميز الأشياء **في غرر الحكم (إنما يعرف قدر النعم بمقاساة ضدّها) المعنى: (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ) أصل الجرم**: قطع الثمرة من الشجرة، وتوسّع معناه لكل اكتساب مكروه، ويقال اللحم المجروم أي المفصول عن العظم، كذلك المجرم فهو كافر شديد الكفر والظلم والاعتداء، منفصل عن الصفات البشرية المألوفة والأخلاق الإنسانية المعروفة، وقاطع الصلة مع ربه، فيكون أخبث المعتدين، ومن أصحاب الجنايات الكبرى، شكله إنسان ولكن طبيعته من الأشرار، لذلك لا تطهرّهم إلاّ جهنم خالدين فيها، كقوله **(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)** المائدة/٧٩، **في غرر الحكم** (شر الناس من يتقيه الناس مخافة شرّه) ٧٥- **(لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ)** لا يخفف عنهم العذاب ويستمر ولا ينقطع، لأنهم استمروا على الكفر وأصروا على الفساد حتى ماتوا **(وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)** من الإبلاس، وهو الهم والحزن مع اليأس، ولعلّ كلمة إبليس أطلقت على الشيطان بسبب يأسه من رحمة الله، فهم يائسون من رحمة الله، ومن الخروج من النار، ولا أمل لهم في النجاة، وهكذا جمع عليهم كل جوانب الألم والحسرة واليأس وقطع الرجاء، فاجتمعت عليهم الآلام الحسّية والنفسية، وهكذا الذي لا يعرف كيف ينتهي لا يعرف كيف يبدأ كقوله (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ، قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) المؤمنون١٠٧-١٠٨، ٧٦- **(وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ)** نالوا عقوبتهم في جهنم بما كسبت أيديهم بالحق والعدل، لأنهم ظلموا أنفسهم وعرّضوها للعذاب الخالد بإصرارهم على الكفر والمعاصي **في غرر الحكم** (المرء حيث يضع نفسه) وفيه أيضاً (ظلم نفسه من عصى الله وأطاع الشيطان)

٧٧-٧٨- ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ، لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾

يستغيثون ويبحثون عن سبيل للنجاة من الآلام التي لا تطاق، **المعنى**: **(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ)** ونادى الكفار **(يَا مَالِكُ)** وهو المَلَك الموكّل بجهنم، والأمين عليها والمراقب لها، قائلين **(يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ)** يا مالك أدع لنا ربك أن يمتنا لنرتاح من العذاب الأليم، وهم يطلبون الرحمة بالاعدام بدلاً من السجن المؤبد في قعر جهنم الرهيب، حتى يستريحوا من شدة عذابها. **سؤال**: لماذا لا يطلبون الموت من الله مباشرة، ويطلبونه من مالك؟ **الجواب**: في قوله تعالى (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) المطففين/١٢ وقال المجرمون **(يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ)** ولم يقولوا (ليقض علينا ربنا) مع شدة عذابهم لم يقدروا الله حق قدره **(قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)** مقيمون ولكن ماكثون أبلغ من مقيمون، أجابهم إنكم مقيمون في العذاب أبداً، ولا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره، كما كنتم مقيمين على الكفر ومصرين على الفساد، فزادهم غماً إلى غمهم، فيكون الجزاء من جنس العمل، **والعقوبة على قدر الجناية**، والنتائج على قدر المقدمات.

كقوله (هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) التوبة/٣٥، **في غرر الحكم** (أشدّ الموت، ما يتمنى الخلاص منه بالموت) ٧٨- **(لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ)** خطاب توبيخ وتقريع، فأرسلنا الرسل بالحق الواضح من عندنا، وأنزلنا عليكم القرآن الكريم، وجئناكم بالهدى ودين الحق (الإسلام) فكرهتموه، وعاديتم منهجه، وآذيتم أتباعه، وكذبتم من جاءكم به، فلا تلوموا إلاّ أنفسكم كقوله (فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) إبراهيم/٢٢ **(وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ)** مبغضون لدين الله ومنهجه المستقيم، معرضون عنه وينفرون منه لكونه مخالفاً لرغباتكم وأهوائكم وشهواتكم، ولكن الظالم والفاسد والباطل ينسجم مع طبائعكم فتميلون إليه وتعرضون عن الحق. **عن الإمام علي** (ع) (إنّ من لا ينفعه الحقّ يضرّه الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى تضرّه الضلالة، ومن لا ينفعه اليقين يضرّه الشك) البحار٧٧/٢٩٣.

٧٩-٨٠- ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ، أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا) الإبرام: إحكام الأمر، وأصله من إبرام الحبل لتقويته، أم أحكموا أمراً إجرامياً من المكر والكيد والحيلة بك يا مُحمّد، فقد حاك هؤلاء الأشرار الدسائس، ودبّروا المؤامرات لإطفاء نور الإسلام وقتل النبي (ص) كقوله (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) الأنفال/٣٠ **(فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)** فإنا محكمون الكيد بهم لمجازاتهم، ومحكمون أمرنا في نصرة نبيّنا وحمايته إحكاماً يعلو تدبيرهم وينقضه ويبطله، وهو ما يهيء الله من الأسباب والوسائل لأحقاق الحق وإبطال الباطل كقوله (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا

نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) التوبة/٣٢-٣٣، ٨٠- **(أَمْ يَحْسَبُونَ)** هل يظنون بجهلهم وظلمهم.

(أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ) ما يسرّون به أنفسهم أو غيرهم في خفية وسرية **(وَنَجْوَاهُمْ)** وما يتهامسون بالسر في آذان بعضهم كقوله (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ) التوبة/٧٨ **(بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)** وكذلك رسلنا الموكلون على حفظ أعمالهم وهم أمناء عليها **(يَكْتُبُونَ)** كل ما عملوه، ويسجلونها ويوثقونها عليهم بكل أقوالهم وأفعالهم كقوله **(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)** ق/١٨ وكأن هناك جهاز تصوير (كاميرة) خفية دقيقة، تصوّر أعمالهم جميعها بكافة تفاصيلها، وتسجّل على فيلم مجسّم من ثلاثة أبعاد بالصورة والصوت والنية! كقوله (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ) القمر/٥٢-٥٣، وقوله (مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) الكهف/٤٩. **فائدة: سبب نزول الآية ٧٩**: نزلت في تدبيرهم جميعاً المكر الغادر بقتل النبي (ص) وهو نائم ليلاً في فراشه، وتآمروا كلهم في دار الندوة. تفسير القرطبي١٦/١١٨، **في نهج البلاغة حكم٢٥٠ (عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم، وحلّ العقود، ونقض الهمم)** لما همت حال بيني وبين همّتي، وعزمت فخالف القضاء عزمي، فعلمت أن المدبر غيري. البحار٣/ص٤٣، فهاجر النبي (ص) إلى المدينة (وبات علي بن أبي طالب (ع) على فراش النبي، فأوحى الله إلى جبرائيل وميكائيل إني آخيت بينكما، وجعلت عمر الواحد منكما أطول من عمر الآخر، فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة فاختار كلاهما الحياة، فأوحى الله عزوجل إليهما أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب، آخيت بينه وبين مُحَمَّد فبات على فراشه يفديه بنفسه فيؤثره بالحياة؟! فأنزل الله تعالى قوله (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ) البقرة/٢٠٧، تنبيه الخواطر ص١٤٢، **في غرر الحكم** (المؤثرون من رجال الأعراف)

٨١-٨٣- ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ، سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ، فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾

(قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) قل لهؤلاء المشركين يا مُحَمَّد: لو فرضنا فرضاً، وفرض المحال ليس بمحال، أن لله ولداً، لكنت أول من يعبد ذلك الولد، ولكن الله نزّه نفسه عن الزوجة والولد كقوله (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) الأخلاص١-٤ كقوله (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) البقرة /١١١، وهذا كما تقول لمن تناظره وتلاطفه: إن ثبت ما قلت بالدليل، فأنا أول من يعتقده ويعتمده، ولكن لم يثبت يقيناً، وهذا مبالغة في الاستبعاد، وترقيق في الكلام، وإن نظام الكون يسير بدقة مقدرة بإتقان،

وهذا دليل على توحيد الله كقوله (**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**) الأنبياء/٢٢ (**أو**)لو كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لله، ومن صدق عبادتي لله، إثبات ما أثبته ونفي ما نفاه، وقد أثبت الله في كل رسالاته التوحيد، فهو واحد أحد لا تركيب له ولا أجزاء له ولا جسم له، **في غرر الحكم (التوحيد حياة النفس)** ونهى عن الشرك والولد والصاحبة، ونحن عبيدٌ لله نأتمر بأمره وننتهي بنهيه، وطاعة الله قرة العين، ومفتاح السداد وإصلاح العباد، وهذا أسلوب فني رقيق مرن في حوار الخصم، وهو من أبلغ أساليب الجدال المفضّلة في إفحامه وقطع حجته، بإقامة الدليل عليه (**فمن فمك أدينك**) فيبدأ معه من حيث يحب هو، وينتهي معه من حيث تحب أنت! وذلك بكسر الحواجز النفسية بينهما، ٨٢- (**سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**) تنزيهاً وتعظيماً وتقديساً لخالق السماوات والأرض ومالكهن، حين يتأمل الإنسان هذه السماوات والأرض ونظامهما، ومدى ما يكمن وراء هذا النظام من عظمة وهيمنة وسيطرة مقدرة ومدبرة، يشير إلى هذا كله قوله (**رَبِّ الْعَرْشِ**) رب عالم الوجود الضخم كله اللامتناهي، ومحيط بكل الكائنات كقوله (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) الزمر/٦٢ وفي **تكرير اسم الرب، تفخيم لشأن العرش** (**عَمَّا يَصِفُونَ**) لأنه من قدر على خلق كل ذلك، استغنى عن اتخاذ الولد، وهو سبحانه منزّه قبل أن يوجد من يسبّحه، وبعد أن وجد الذي يسبّحه، سبحت المخلوقات كلها لله، **فيا أيها الإنسان**: يا من خلق الله الأشياء من أجلك، فعليك أن تكون من أجل الله ومتبع منهجه.

٨٣- (**فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا**) فاتركهم منغمسين في جهلهم وأباطيلهم، ويلعبون متلهين في دنياهم، ويتمادون في ضلالهم، ويلهون بما يضرهم ولا ينفعهم، مما يجعلهم غافلين عن مسألة المصير النهائي المحتوم، وهذا استصغار لعقول هؤلاء الضالين المعاندين، وأنهم أشبه بالأطفال الذين يخوضون ويلعبون، وهو خوض في أوهام وسخافات ومتاهات فكرية عميقة لا تستحق الجدل والمناقشة! (**حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**) يومهم الرهيب المحسوم، المخصص لعقابهم، الذي وعدوا به، وهو يوم القيامة، فسوف يعلمون حينئذ كيف يكون حالهم ومآلهم ومصيرهم؟ **في نهج البلاغة حكم٢٩** (إذا كنت في إدبار، والموت في إقبال فما أسرع الملتقى)! **في غرر الحكم** (ما أخسر من ليس له في الآخرة نصيب) عن السيد المسيح (ع) (ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله، وخسر نفسه)؟! **فائدة**: اللعب مباح، لكن المكلف إذا خالف تكاليف ربه فيتبع هواه ومناه ويلعب في دنياه ويلهو ويلغو، فاللهو أن تشغل نفسك بعمل لا ينفعك، ويعطلك عن واجب مطلوب منك، كقوله (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) المؤمنون/٣، **في غرر الحكم** (من اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه) وفيه أيضاً (من اشتغل بغير المهم ضيّع الأهم)

٨٤-٨٥- ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ، وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

ثم يمضي السياق القرآني بعد الإعراض عنهم وإهمالهم، في تمجيد الخالق وتوحيده بما يليق بربوبيته بالسماوات وربوبيته في الأرض، إنه متفرّد في الخلق، لا يشاركه فيه مشارك، مع الحكمة فيما يفعل، والعلم المطلق بهذا الملك العظيم، **المعنى:** (**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ**) صفة الكمال لله ذاتيه فيه لا تفارقه، الله وحده إله الكون وخالقه بالحق، وهو المعبود بأرضه وسمائه، ومن كل الكائنات وفي كل زمان ومكان، المستحق للعبادة وحده لأهل السماء ولأهل الأرض، وكلهم خاضعون له طوعاً وكرهاً كقوله (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) آل عمران/٨٣ **نقلت الأخبار عن هتلر أنه قال (الله إله السماء، وأنا إله الأرض، فانتقم الله منه) وقال آخر:** فما لله فهو لله، وما لقيصر فهو لقيصر، وهذه الآية اتّخذها الجاحدون مادة للجدل العقيم (**وَهُوَ الْحَكِيمُ**) في صنعه وتدبير خلقه، ويضع كل شيء في موضعه بحكمة، وهذا التفرّد دليل على التوحيد الخالص (**الْعَلِيمُ**) بكل شيء، وبما يصلح خلقه، وبما يعينهم على معاشهم وعلى معادهم، ٨٥- (**وَتَبَارَكَ**) من البركة، إنه تمجيد لله وتعظيم، ودامت بركاته وكثر خيره واتّسعت صفاته وعظم ملكه، وتقدّس وتسامى وتعالى وتنزّه عن الولد، وهو نور السماوات والأرض (**الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا**) من الكائنات، يتصرّف في ملكه على مقتضى حكمته، كيف يشاء بلا ممانعة ولا مدافعة، وهذا هو الإيمان بالتوحيد الرشيد الذي هو حياة النفس واستقامة الوجود (**وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ**) وعنده وحده زمان قيام يوم القيامة الكبرى للكائنات جميعها، وعنده أيضاً قيام القيامة الصغرى (الخاصة) لكل متوفى، **عن النبي** (ص) (**إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته**) كنز العمال خبر٤٢٧٤٨ (**وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**) لا إلى غيره مرجع الخلائق للجزاء العادل، ليحاسبكم على كل أعمالكم الصغيرة والكبيرة، فمنه البداية وإليه النهاية وعنده كل أنواع الدراية، لأنه علاّم الغيوب كقوله (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) المؤمنون/٩٢، وقوله(ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) النجم/٤١، **في غرر الحكم (من أيقن بالمجازاة، لم يؤثر غير الحسنى)** إنها رسالة بلاغية موجزة عالية المضامين إلى الإنسان، أن تذكر نهايتك وآخرتك، وتذكّر الجزاء على أعمالك، فعليك الاستعداد إلى لقائه، فأهل السعادة يرجعون إليه بالاختيار والاستبشار، وأهل الخسارة يرجعون إليه بالاضطرار والحرمان، فلا تغرنك النعمة فإنك تبتلى بها وتُسأل عنها كقوله (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) التكاثر/٨.

فائدة: سؤال: لماذا تكررت لفظة (إِلَٰهٌ)؟ الجواب: لتتمكن معنى وحدة الإلوهية في النفس، سواء أكان أهل السماء أم أهل الأرض كلاهما يعبدون الله على أساس التوحيد، فيكون ربنا

إله واحد لكل الكائنات العاقلة وغير العاقلة كقوله (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) الأنعام/٣، وهو إله واحد قادر حكيم عليم في كل مكان وزمان، فهو في السماء إله، وفي الأرض إله، وفي البحار إله، وفي الجبال إله، وفي الصحارى إله.. إلخ لأنه أحاط بالأشياء رحمة وعلماً كقوله (**إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ**) الإسراء/٦٠، وقوله (**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**) الحديد/٤، عن النبي (ص) (أفضل الإيمان: أن تعلم أن الله معك حيث ماكنت) كنز العمال خبر٦٦، ٢- (**وَمَا بَيْنَهُمَا**) لها دلالة دقيقة، كأنما هناك عوالم ومخلوقات وكائنات وأنظمة وعجائب، لحد الآن لا يعلم العلم الحديث عن حقيقتها، وتشير كلمة (**وَمَا بَيْنَهُمَا**) إلى هذه الحقيقة.

٨٦-٨٧- ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ، وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾

(**وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ**) لا يملك أحد ممن يعبدونهم من دون الله، أن يشفع عند الله لأحد، لأنه لا شفاعة إلاّ بإذنه ورضاه سبحانه، ومن تمام ملكه أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً كقوله (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) آل عمران/١٢٨، ولكن يشفع عند الله من آمن بالتوحيد وعمل بموجب إيمانه كقوله (**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**) الزمر/٤٤، **عن النبي** (ص) (الشفاعة لا تكون لأهل الشك والشرك، ولا لأهل الكفر والجحود، وتكون للمؤمنين من أهل التوحيد) البحار٨ص٥٨، **في غرر الحكم** (شافع الخلق العمل بالحق، ولزوم الصدق) (**إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ**) (**إِلَّا**) استثناء، أي يحق له الشفاعة من يقر ويشهد بالحق ويعمل به، وهو العمل بدين الله الأصيل، وهي الشهادة الصادقة بتوحيد الله النظري والعملي والعلمي، والإيمان برسله ورسالته، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين. كقوله (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) الأنبياء/٢٨ (**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**) عن علم وبصيرة نافذة بحقيقة حال من يشفعوا له (**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**) أيضاً أن الشفاعة لا تكون إلاّ بأذن الله تعالى، ٨٧-(**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ**) يا محمّد هؤلاء المشركين.

(**مَنْ خَلَقَهُمْ**) ومن خالقهم وأوجدهم من العدم؟ (**لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**) لوضوحه، بحيث لا يقدرون على الإنكار كقوله (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) إبراهيم/١٠، ولكنه جواب عفوي فطري، لأنهم يؤمنون بالله لفظاً، ويعبدون غيره جهلاً، ما الفائدة من الإيمان بالله قولاً وأخالفه فعلاً وعملاً؟ فيكون العمل عمل الكافرين، والقول قول المؤمنين، بينما حقيقة الإيمان بالله، ما وقر في القلب وصدقته الأعمال الصالحة، (**فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ**) فكيف ينصرفون عن حقيقة الإيمان بالله، ويعرضون عن عبادته إلى عبادة غيره؟! بعد أن شهدوا وأقروا بها، فكيف يكفرون بالله الذي خلقهم ورزقهم، والذي تشهد به فطرتهم؟! وهو تعجب من جحودهم التوحيد، مع ارتكازه في فطرتهم! وهذا يدل على أن معرفة الله العلمية ضرورية، لأنها

تعطي للإنسان عزته وكرامته، وبدون هذه المعرفة حيرة وضلال وضياع كقوله (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) المائدة/١٥، **في غرر الحكم** (من عرف نفسه فقد عرف ربّه، ينبغي لمن عرف الله أن يتوكل عليه) **فائدة: في دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة (إلهي: كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟** أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل من حبك نصيباً، ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحوّلا، **إلهي: اطلبني برحمتك حتى أصل إليك، وأجذبني بمنك حتى أقبل عليك، إلهي**: كيف تخفى وأنت الظاهر؟ أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟

٨٨-٨٩- ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ، فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

يقدم النبي (ص) تقريره الجهادي وتبليغه الرسالي إلى الله عز وجل، بعد عناء طويل في سبيل إلقاء الحجة عليهم، واستذواقهم طعم الهداية إلى توحيد الله، ولكنه عانى ما عانى حتى قال (ص) **(ما أوذي أحد مثل ما أوذيت في الله)** كنز العمال خبر ٥٨١٨ **المعنى: (وَقِيلِهِ يَا رَبِّ)** إنه خطاب بليغ فيه تعجب شديد من شدة شركهم! **(وَقِيلِهِ)** مصدر، كالقول أي وقال الرسول في شكواه لربه، ومعاناته مع قومه، لما نفذ صبر النبي الكريم (ص) صاحب الخلق العظيم، وضجر من قومه الأجلاف، وعرف إصرارهم على الكفر، بعد أن قدّم كل ما ينبغي تقديمه، شكا إلى ربه معاناته وعرض نتيجته، وقال **(يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ) يارب**: إنّ القوم الذي بعثتني إليهم لم يستجيبوا لدعوتي، رغم كل ما بذلته معهم من جهود وأتعاب، وما قدمته لهم من الحجج العلمية والدلائل العقلية، وعدم تقصيري في دعوتي، وعدم تهاوني في تبليغي، ولكنهم قوم قساة غلاظ شداد، ومعاندون جبارون لا يصدقون برسالتي ولا بالقرآن، فصار النبي متحزّناً على قومه، متحسراً على عدم إيمانهم، ولكنه يمهلهم لعلهم يتوبون ويرجعون إلى حكم العقل، **كقول نوح** (ع) شاكياً قومه (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا) نوح ٥-٦، فأجابه الله تعالى لا تحفل ولا تبال باعراضهم، فقد أديت ما عليك، وبقي ما هو عليهم، كقوله **(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا)** الفرقان/٣٠.

٨٩- **(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ)** فأعرض عنهم يا مُحَمَّد وسامحهم ولا تهملهم وارفق بهم، وقابل جهلهم بالحلم، وسفاهتهم بالصفح، وإنهم كلما قالوا فحشاً وسوءاً قال لهم سلاماً سلاماً كقوله (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) الأعراف/١٩٩، وانفتح على الأفق الواسع، واخرج

عن حدود الجسد إلى آفاق الروح والأمل، فأنت أديت ما عليك، والنتائج ليست عليك، وتفاءل بالخير تجده، ولا تقابلهم بالجفاف والشدة بمثل ما يقابلونك بالعناد **(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ)** الصفح الجليل التربوي كقوله **(فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)** الحجر/٥٨، بلا حقد عليهم بسبب ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم وسامحهم وسلّم عليهم ولا تقاطعهم كقوله (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) الفرقان/٦٣، إن المؤمن القوي إذا سمع كلمة سوء تجاهلها، حتى كأنه لم يسمعها وكأنها لا تعنيه، وهو غير المقصود! وبذلك يرد الخطأ باسلوب صحيح، فيرتفع عن مستوى الجاهلين ويكون أعلى من الملائكة. لعلّ منهم من يؤمن وينتفع به الإسلام، عن الإمام الباقر(ع) (إنّ الله عزوجل رفيق يحبّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف) الكافي٢/١١٩، **الصفح الجميل درجة كريمة له ثلاث مراحل**: كظم الغيظ، عفو عن الذنب، وإحسان إلى من أساء إليك، وهذه منزلة سامية، **في غرر الحكم** (ذروة الغايات، لا ينالها إلاّ ذوو التهذيب والمجاهدات) **يروى**: أن الحسن البصري شتمه رجل في مجلس، فبعث إليه طبقاً من رطب هدية! لأنه أهدى إليه حسناته! **(وَقُلْ سَلَامٌ)** مداراة لهم، سلام اللامبالاة بهم، ممزوجة بالعلو والرفعة لك، والرحمة والرأفة بهم! الأصل سلام عليكم، لكن كلمة **(سَلَامٌ)** فقط لمن خاصمك وتجاوز عليك فتريد أن تتركه، كقول إبراهيم لعمه (قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي) مريم/٤٧، فهذا سلام موادعة وهجر وترك بسلامة وكرامة مع حفظ الآداب، وليس سلام تحية واحترام وتكريم كقوله **(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)** القصص/٥٥ **(وَقُلْ سَلَامٌ)** السلام في ثقافة العرب عند التلاقي وعند الوداع والخروج، نحن في كل صلاة نقول **(السلام عليكم)** هو سلام مودّع ومغادرة **(وَقُلْ سَلَامٌ)** الحياة بسلام ضرورية للتعايش السلمي الاجتماعي الآمن، مع جميع الملل والنحل المتعددة، فكما يرزق الله الجميع، فتعايش مع الجميع، وهذا يدل على أن قلب المؤمن يسع الجميع، لتكن كلمة **(السلام)** شعارك ورسالتك إلى الإسلام هي **(السلام)** من أجل أن يعرفوا أن السلام هو الحق وأنه اسم من أسماء الله، واسم من أسماء الجنة، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل **(فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)** يوم القيامة علم مشاهدة ما يحلّ بهم من العذاب بعنادهم، وفيه تهديد ووعيد للمشركين، **في غرر الحكم** (المرء حيث يضع نفسه).

وفي الختام نقول: اختتمت السورة المباركة بشكوى النبي (ص) لربه من عناد قومه وهو حزين عليهم، كما افتتحت السورة عن إسراف قومه في الآية (٥) في إعراضهم عن الرسول والرسالة والقرآن، وعالجت السورة الموقف، وأثبتت القاعدة أنه (من ضاق عليه القرآن فالشيطان عليه أضيق)، وبذلك التقى ختام السورة بافتتاحها مع سياق مضمونها العام، وآخر دعوانا **(أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)** يونس/١٠

ترتيبها ٤٤ — سُورَةُ الدُّخَانِ — آياتها ٥٩

من مقاصد السورة:

مكية، تتناول أهداف السّور المكية (**التوحيد، النبوة (الرسالة) المعاد**) لترسيخ العقيدة، وتثبيت دعائم الإيمان. ابتدأت السورة بالحديث عن القرآن العظيم المعجزة الخالدة، وقد أنزله الله تعالى في ليلة مباركة هي (**ليلة القدر**) وبيّنت شرف تلك الليلة العظيمة، التي اختارها الله لإنزال خاتمة الكتب السماوية وهو القرآن، على خاتم الأنبياء والمرسين مُحَمَّد(ص) الكريم. وتحدّثت عن موقف المشركين من هذا القرآن العظيم، وأنهم في شك من أمره مع وضوح آياته، وأنذرهم القرآن بالعذاب، وتحدثت عن قوم فرعون، وعن سوء عاقبتهم، **وتناولت السورة الكريمة مشركي قريش**، وإنكارهم للمعاد إلى يوم القيامة، لذلك كذبوا الرسول، وإن سنة الله فاعلة لا تتخلّف في إهلاك المجرمين، وختمت السورة ببيان مصير الأبرار ومصير الفجار بطريق تربوي يجمع بين الترغيب والترهيب، **التسمية**: سميت سورة الدخان، لأن الله تعالى جعل الدخان آية وعلامة لتخويف الكفار كما في الآية ١٠، حيث أصيبوا بالقحط والمجاعة، وبعث الله عليهم الدخان الكثيف حتى كادوا يهلكوا، ثم نجاهم الله بعد ذلك ببركة دعاء النبي المصطفى(ص).

فضلها: عن النبي(ص): (من قرأ سورة الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك) مجمع البيان٩/١٠٧، **ملاحظة**: هذا الفضل بشرطه وشروطه والالتزام بأوامر الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ – ٢ – ﴿حمٓ، وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

هذه السورة هي خامس سور الحواميم السبعة، وتقدّم مثلها في أول سورة الزخرف

٣ – ٤ – ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ، فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾

وإذا قرأنا هذه الآية معطوفة عليها آية(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)القدر/١، وقوله(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ)البقرة/١٨٥، تبيّن لنا أن هذه (**الليلة المباركة**) بنزول القرآن هي (**لَيْلَةِ الْقَدْرِ**) وإنها من إحدى الليالي الإفرادية من العشرة الأخيرة من شهر رمضان المبارك، **المعنى**: (**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ**)جواب للقسم، أي إنا أنزلنا القرآن الكريم في ليلة فاضلة كريمة مميزة كثيرة الخيرات والبركات والثواب وهي ليلة القدر خير من ألف شهر(**أَنزَلْنَاهُ**) المراد به جهة العلو والتسامي، وليس الجهة المكانية، إنه كان في اللوح المحفوظ كقوله (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي

كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) الواقعة/٧٧-٧٩، وقوله(**وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ**) الزخرف/٤، تشير الآية إلى أن الزمان مختلف بمنزلته بعضه أفضل من بعض، وكذلك المكان، أنزل القرآن كاملاً أول مرة، دفعة واحدة من اللوح المحفوظ(**بنك المعلومات الأساسي**) إلى قلب النبي(ص)في ليلة القدر، ليلة الاتصال المبارك، ليعرف النبي(ص) الصورة الاجمالية للقرآن ويستوعبها بخطوطها العامة، ثم يتبين له تفصيلاتها بالتدريج بحسب الوقائع الخاصة، ثم نزل به جبرائيل مجزّأً مرة أخرى، بشكل تدريجي شيئاً بعد شيء، على قلب النبي(ص)طيلة ثلاثة وعشرين عاماً بحسب المواقف والأحداث، وهذا يدل أن القرآن منهج حركي لأنه نزل من خلال حركة الواقع، **ومن خلال نزول القرآن التدريجي يبدأ استقرار هذا المنهج الإلهي الثمين في حياة البشر**، والتي يتصل فيها الناس مع الأنظمة الكونية الكبرى، مستقراً على قواعد الفطرة، حتى يعيش الإنسان على الأرض موصولاً بنظام السماء مباشرة في كل حين كقوله(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً)الإسراء/١٠٦.

(**لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ**) فأنزل الله القرآن هو أفضل الكلام، بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، بكلام عربي بليغ، لينذر قوماً عمّتهم الجهالة وقسّت قلوبهم ظلمات الضلالة(**لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ**) **والحكمة في نزوله ليلاً:** إنّ الليل زمان المناجاة ومحل الخلوات، وأصدق التضرّعات ومظهر التجليّات، وموارد الكرامات ومحل الإسراء بالتربية الروحية إلى حضرة مقام الكبرياء والعظمة في العلاقة مع الرب الكريم المحبوب، وهكذا هو مقام صلاة الليل كقوله(**وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ**)الطور/٤٩.

في غرر الحكم (قيام الليل مصحّة للبدن، وتمسك بأخلاق النبيين، ورضى رب العالمين) فيكون أطيب من النهار لتزكية النفس عند المقربين الأبرار (**لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ**) ووصف الليلة بالبركة، لما أن نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينية والدنيوية بأجمعها ولما فيها من تنزل الملائكة والرحمة وإجابة الدعوة، وإن شرف الأعمال بحسب شرف النيات والمقاصد (**إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**) مخوّفين ومحذرين بما أنزلناه، لأن من سنة الله إنذار الناس وتحذيرهم من سوء أعمالهم، ومن عاقبة غفلتهم، فلذلك أنزلناه ليذكّرهم ويعلّمهم وتقام الحجة عليهم، فإن الله يعلم غفلة الإنسان عن آخرته، ونسيانه حسابه وجزاءه، لذا حاجته إلى الإنذار والتنبيه، وإنما كانت ليلة مباركة لأن (**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**)وفيها ألطاف الله سبحانه وعنايته بعباده، أي في ليلة القدر المباركة (**يُفْرَقُ**) أي يفصّل ويبُيّن ويُميّز، وجاء (يفرق)بالفعل المضارع للدلالة على الاستمرار، لأنها ليلة مباركة أساسية ترسم خارطة الطريق السنوية لكل إنسان(**كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**) أي محكم لا يستطيع أن يطعن فيه بحال ويقضي كل أمر محكم لا تلحقه الزيادة والنقصان، ولا يتبدل ولا يتحوّل ولا يتغيّر كقوله(لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ)يونس/٦٤، والله خير الحاكمين، وقد فرّق وفُصّل فيها بهذا

القرآن في كل أمر، وفصّل فيها كل شأن من أرزاق العباد وآجالهم وسائر أحوالهم، وكانت فيصلاً وفارقاً بهذا التنزيل، ويكون في تلك السنة إلى مثلها في السنة القادمة، فما قدّر في تلك السنة وقضى فهو محتوم، ولله تعالى له المشيئة، لذلك سميت بليلة القدر.

فائدة: ١-الأمور بحسب القضاء الإلهي مرحلتان: مرحلة الإجمال اي الاختصار والإبهام، ومرحلة التفصيل، وليلة القدر ليلة مباركة تخرج فيها الأمور من مرحلة الإحكام، إلى مرحلة الفرق والتفصيل، وقد نزل فيها القرآن الحكيم، وهو أمر من الأمور المحكمة، وفُرق أي فصّل في ليلة القدر، فهي ليلة تتكرر بتكرر شهر رمضان المبارك، فلم يُعيّن النص القرآني أية ليلة، وأراد أن تعتني بكل الليالي، وأشارت الروايات إليها، ٢-**سؤال:** كيف خصّ وصف الأمر بالحكمة هنا، مع أن كل أمر يقضي به الله موصوف بالحكمة مسبقاً دون أن يذكرها؟ **الجواب:** إنّ وصف الأمر بالحكيم هنا لتسليط الضوء عليه له دلالة تربوية نفسية، لتثبيت الإحكام وتأكيده إضافة للوصف القائم العام، ٣- **(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)** فيقدر لكل إنسان ما يستحقه، فيساهم الإنسان في توفير مستلزمات التقدير الذي يتناسب معه، وهذا لا يتنافى مع حرية إرادة الإنسان واختياره، لأن التقدير الإلهي يشترك فيه الإنسان نفسه، بحسب لياقته وكفاءاته وموازين أحواله، فيوفر الإنسان أرضية التقدير الإلهي لنفسه، **قضى الله سبحانه أن تكون حرية الإنسان المكرم ضمن حدود مشيئة الله سبحانه وإرادته، ومسؤوليته** عن أفعاله في حدود قدرته وحكمته عز وجل، وخلق الله الأسباب والمسببات، وجعل علاقة الأسباب بيد الإنسان تكريماً له، وجعل المسبب هو الله، والإنسان المختار العالم الواعي هو الذي يعمل على ترابط السبب بالمسبب، لأن الله تعالى خلق العلاقة بين السبب والمسبب. عن الإمام الصادق (ع) (أبى الله أن يجري الأشياء إلاّ بأسباب، فجعل لكل شيء سبباً) الكافي١/١٨٣.

٥-٦-﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

(أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا)جميع ما نقدره في تلك الليلة المباركة، وما نوحي به إلى الملائكة من شؤون العباد، ونزول القرآن، كان أمراً صادراً**(مِّنْ عِندِنَا)** على مقتضى حكمتنا وإرادتنا، وبعلمنا وتدبيرنا، على ضوء قاعدة الأسباب والمسببات**(إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)**لأن سنتنا إرسال الرسل، وإنزال الكتب لهداية الناس وإرشادهم، وإلقاء الحجة عليهم كقوله(رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)النساء/١٦٥، لم يترك الله الناس سدى من دون هدى بدون منهج يعلمهم، لو استقام الإنسان على منهج الله تستقر نفسه وتستقيم أموره، وتستقيم حركة الحياة ونهضة المجتمعات، وتتخلّص من الشرور كقوله**(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا)**الإسراء/١٥، ٦- **(رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ)**جاء الخطاب للرسول(ص) وأريد به الجميع، عن الإمام الصادق(ع)(إنّ الله بعث نبيه بإياك أعني واسمعي يا جارة)البحار٩٢/٣٨١، وضع لنا المنهج

المستقيم القيم كقوله(ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ) الروم/٣٠، فوحّد اتجاهنا وغايتنا، حتى لا نتعب ولا نخسر آخرتنا، وحتى لا نضل في دنيانا ونحسب أننا نحسن صنعاً، ولا يتعالى بعضنا على بعض، كل ذلك (**رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**) لأقوال العباد، وسميع للدعاء وللسؤال، سواء أكان الطلب بلسان الحال أو بلسان المقال، لأنه (**الْعَلِيمُ**)بحوائج خلقه، وبأفعالهم وأحوالهم وما يدور في نفوسهم.

٧-٩-﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾

(**رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**)خالقهما ومصلحهما والمشرف عليهما ومن فيهما (**وَمَا بَيْنَهُمَا**) فما ينزل الله للناس يربيهم به، والله تعالى رب الكون كله ومربيه، والآية دعوة إلى طلب العلم والترغيب في البحوث والدراسات والتحقق والتفكّر، لأن بالعلم تتفتح لك الآفاق، وتتعلم خفايا الأمور ودقائق الأشياء، وبالعلم تحيا القلوب وتقوى البصيرة وتنير العقول، **في غرر الحكم** (اكتسبوا العلم، تكسبكم الحياة) فيوصلك العلم إلى اليقين الذي لا شك فيه كقوله(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)السجدة/٢٤، **في نهج البلاغة خطبة ١٥٧ (باليقين تدرك الغاية القصوى)** (**وَمَا بَيْنَهُمَا**)بين السماء والأرض خلق كثير وكون عجيب وأنظمة دقيقة، مما تشير الآية إليه أن هناك مخلوقات ما بين السماء والأرض في أحد الكواكب المعلّقة في السماء، لا نعلم عنهم شيئاً، إنها مظاهر الأسماء والصفات الإلهية، ففي كل ذرة من ذرات العالم حقيقة مشهودة، هي غذاء روح العارف الباحث، عن النبي(ص)(**من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن**)كنز العمال خبر٢٤٥٤ (**إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ**) **معنى اليقين**: حقيقة ثابتة قطعية بدون شك، **في غرر الحكم(لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً)**إن كنتم تطلبون اليقين عرفتم الله بأنه رب كل شيء، والتلويح لهم باليقين (**مُّوقِنِينَ**)إشارة إلى عقيدتهم المضطربة، وشكوكهم المتأصلة، مما يدل على غموض الإيمان بالله في نفوسهم، وبعدها عن العلم الثابت واليقين الجازم الحازم.

٨- (**لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ**) **لا خالق سواه، لا إله غيره يستحق العبادة**، ولا رب غيره ولا معبود سواه، لأنه المتّصف بصفات الجلال والجمال والكمال، وهذا تذكير بالتوحيد الذي هو حياة النفس، ومصداق التوحيد حركة الحياة والموت (**يُحْيِي وَيُمِيتُ**)يحيي الأموات، ويميت الأحياء، ذكر الحياة والموت لأنهم متعلقون بالحياة، وذكر الموت ليذكّرهم نهايتهم الحتمية، الموت يهدد حياتهم (**كفى بالموت واعظاً**) عن النبي(ص)(**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**)! روح البيان٢ /١٣٢، والله وحده يهب الحياة، والإنسان عاجز عن خلق خلية حية مجهرية واحدة كقوله(وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) المنافقون/١١، نحن جئنا إلى الحياة بغير إرادتنا، ونخرج من الحياة

بغير إرادتنا أيضاً، ونحن ما بين البداية والنهاية نحمل أنصاف إرادتنا، وإرادة الله فوق إرادتنا كقوله (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ) الإنسان/٣٠، **في غرر الحكم(رحم الله امرأً عرف قدره ولم يتعدَّ طوره)**ومن عرف قدره، عرف قدر كل شيء، ومن لم يعرف قدره، جهل قدر كل شيء! وحقيقة الموت كحقيقة الحياة، تحرّك القلب البشري وتؤثر فيه، وتهيئه للاستجابة والتفكّر، ومن ثم يكثر ذكره في القرآن لكي ننساه، وتوجيه المشاعر إليه ولمس القلوب به وتحريكها لتعي هذه الحقيقة ولا تغفل عنها، لأن الغفلة ضلالة ومن فساد الحس(**رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ**)رب الأولين والآخرين ومربيهم بأنواع النعم، الدافع عنهم أنواع النقم، فكيف تلجؤون إلى غيره؟ لكنهم ليسوا طلاب حقيقة ولا يبحثون عن يقين، ٩- (**بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ**) انتقل السياق من الخطاب إلى الغيبة تحقيراً لشأنهم، وإبعاداً لهم عن موقف الخطاب، يُصوّر القرآن الكريم حالهم المتزلزل، وضلالهم المتأصل ونفوسهم المضطربة بصورة هزيلة، لكثرة ما يعانون من الشك، والشك يقلق النفس، ولكنهم يغطّون على شكهم وقلقهم واضطرابهم باللعب واللامبالاة، والدنيا كلها لهو ولعب لانشغالهم بدنياهم، إن لم تؤدِّ إلى الفوز بالآخرة كقوله(**أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ**)الحديد/٢٠.

فهم يتعاملون مع القضايا الكبرى المهمة المصيرية الحاسمة الجديّة، باللعب والهزل والجهل، كالأطفال غير المسؤولين الذين يلعبون ويمرحون للتسلية المؤقتة، فهم يلعبون بالدرة الثمينة على أنها حصى لا قيمة لها! والذي لا تنفعه المواعظ لم يكن له في الله حافظ، فدعهم يصطدموا بيوم هائل عصيب! وكلمة (**يَلْعَبُونَ**) في مورد الجلد والحزم لها دلالة مهمة، إن من يدّعي الإيمان بالله، ويتكل على سواه وينساه، ويتبع هواه ومناه من دون هدى من الله، فهو غير واثق من خالقه، **في غرر الحكم (من وثق بالله توكل عليه)** ولكن مثلهم من يلهو بشيء وهو على علم بأنه لا ينفعه شيئاً، مجرد هدر للوقت، والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

١٠-١١-﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

(آية الدخان) (فَارْتَقِبْ) فانتظر يا مُحَمَّد عذابهم الأليم بأسلوب جديد(**يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ**)لقد أطلق معنى الدخان على شدة التعب وغلبة الجوع والقحط والضعف، على سبيل المجاز والكناية والتشبيه، فإن الجائع لشدة جوعه يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، وكان الرجل يتكلم ويسمع الآخر كلامه ولا يراه من كثافة الدخان!، فهو يأتي من السماء بشكل مخيف وكثيف وكأنه كابوس خانق ضاغط على نفوسهم، مرعب مزلزل محيط بهم جميعاً، ظاهر ومكشوف للناس كافة، ولا يتخلّص من معاناته أحد، **كالفيضان أو الضباب الذي يشمل الجميع، بالغت قريش في إيذاء النبي (ص) وأساءت الأدب معه**، واعتدت عليه، فدعا عليهم وقال(اللهم أشد وطأتك (عقابك) على مضر، واجعلها عليهم سنيناً شديدة

كسني يوسف، وهي السبع الشداد، فاستجاب الله دعاءه، وقطع عنهم الغيث، فأصابهم القحط والمجاعة والضعف والمرض، وكادوا أن يهلكوا، حتى أكلوا الجيف والعظام والنوى والميتة والجلود، وكان أحدهم لما به من شدة الضعف وقسوة الجوع، يرى بينه وبين السماء كالدخان الخانق الكثيف، فيملأ الدخان جوفه، ويضيّق عليهم التنفّس، ويحصر نفوسهم وكأنما تزهق أرواحهم، وإلى هذه الحقيقة تشير الآية، إلى أن ضجّوا وهرعوا قاصدين رسول الله(ص) ليدعو لهم الله ليكشف عنهم هذا العذاب الأليم، بحق صلة الرحم بيننا، وقومك كادوا أن يهلكوا، **وقيل**: أن هذا الدخان أيضاً علامة من علامات يوم القيامة ومقدمتها، ويمتد ذلك أربعين يوماً وليلة، **أما المؤمن فهو حفظ الله، وفي أمنه وأمانه** كقوله(**لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ**) الأنبياء/١٠٣، عن النبي(ص) **عشر قبل الساعة لا بد منها**: السفياني، والدجال، والدخان، والدابة، وخروج القائم(ع)وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى(ع) وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن)الأمثل١٦/١٢٧، وخروج يأجوج ومأجوج، حتى تُملأ الأرض ظلماً وجوراً وفساداً وشراً..، ووصف هذا الدخان بأنه عذاب أليم، وصوّر استغاثتهم (**إِنَّا مُؤْمِنُونَ**) ١١- (**يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**) يغطيهم ويعمهم كلهم من كل جانب، ويقولون حين يخنقهم الدخان(**هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**)شديد مديد مؤلم.

١٢-١٣-﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ، أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾

(**رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ**)تشفّع أبو سفيان ونفر معه برسول الله وناشدوه، مستغيثين بالله والرحم، أن يدعو الله أن يكشف العذاب عنهم، عندئذٍ يؤمنون بالقرآن ويصدقون بمحمد أنه رسول الله، فدعا الله وكشف عنهم العذاب الأليم وهم في الدنيا قبل يوم القيامة، ١٣-(**أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ**)المراد بالاستفهام الاستبعاد، أي كيف يتذكرون ويتعظون ويؤمنون عند كشف العذاب عنهم؟ أي **أنهم يكذّبون حتى في أشد الظروف وإعطاء العهود، ويدّعون أنهم مؤمنون** (**وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ**)رسول صادق أمين، واضح برسالته ومعجزاته وله نظام عالي المضامين يسعد الفرد والمجتمع، ولا شك فيه، وهو أعظم آية، وأكبر علامة من الدخان، ويبين لهم منهج الحق بكل وضوح، ورفع كل الشبهات، وعالج كل الشكوك، ولكنهم أصرّوا على الشرك، وتكذيب الرسول مكابرة وعناداً (من ضاق عليه الحق، فالباطل عليه أضيق).

١٤-١٥-﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ، إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾

(**ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ**)ومع ذلك أعرضوا عن الرسول(ص)ولم يقبلوا قوله، وهو الصادق الأمين، وصاحب الخلق العظيم، واتهموه (**وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ**)قد علّمه بشر، وادّعى أن ما تعلمه وحي إلهي، ويحفظ بعض الكلمات، وينطق بها من غير فهم ولا شعور! ١٥- (**إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا**) سنرفع عنهم العذاب من الدخان والقحط والمجاعة، مدة من الزمن لإمهالكم ولإتمام

الحجة عليكم (**إِنَّكُمْ عَائِدُونَ**) لكننا نعلم أنهم لم يوفّوا بعهدهم، وسيعودون إلى الكفر والتكذيب(من ضاق عليه الإيمان، فالكفر عليه أضيق) وهو دليل على خبث سريرتهم وسوء ضمائرهم كقوله(**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**)الأنعام/٢٨، ربما يحدث هذا خلخلة في صفوفهم، منهم من تستيقظ نفسه فيؤمن ويستقيم، ومنهم من يصرّ على الكفر!

١٦-١٧-﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾

(**يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ**)هذا تهديد بأن الله سبحانه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر، لأنهم نقضوا ما عاهدوا الله عليه، **البطشة**: الضربة الشديدة العنيفة الموجعة، التي تصل إلى جميع الجسم والمشاعر، وتزلزل الجوارح ولا تبالي على أي عضو وقعت! فننتقم منكم بعنف بما يكافئ ما صنعتموه برسولنا الأمين، وما عملتموه في دنياكم من الكفر والظلم والفساد، والعقوبة على قدر الجناية (**إِنَّا مُنتَقِمُونَ**)منكم بالعذاب الأليم بأية صورة من الصّور كقوله (**وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ**) آل عمران/٤، ١٧- (**وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ**)ولقد اختبرنا من قبل مشركي مكة قوم فرعون وهم أقباط مصر، وهذا الجمع بين مشركي قريش الطغاة، وبين فرعون وملئه البغاة، للتشابه في الطبائع وفي العناد والفساد والكبرياء! **الفتنة**: الاختبار، في الأصل الفتنة تنقية الذهب من الشوائب، وهذا لا يحصل إلا عندما يسلط على الذهب النار، وكذلك الإنسان المكرم الخليفة تنكشف حقيقته، وتظهر أسراره الخفية عند الامتحان(عند الامتحان يكرم المرء أو يهان) **وهي سنة مستمرة مؤثرة مع استمرار تدفق الحياة** (**وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ**)وصف موسى بالكريم، لأنه كان كريماً في نفسه، كريماً على الله وعلى المؤمنين، وكريم الصفات والأخلاق والأفعال والأقوال والمواقف، وكان يصفح الصفح الجميل، ويتجاوز عمن ظلمه، وتحمّل الكثير من المعاناة، ومدعوماً بأنواع المعجزات، وعاد على قومه بالخيرات. **فائدة:**

١-**تكررت قصة موسى(ع)ولكن في كل مرة تُعرض بصورة مضافة إليها بعض المواقف المهمة، التي لم تذكر في سور أخرى**، مثل ذكر موقف مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه (غافر/٢٨) لم تذكر في سورة أخرى، وكذلك قوله عن فرعون(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ)النازعات/٢٤، لم تذكر في سورة أخرى، وهكذا، وبمجموع هذه المواقف من مجموع السّور المذكورة، تتكامل الصورة، وتتم أهداف القصة، وتحصل منها العبر والمواعظ، والسنن التي مرت عليهم سابقاً، ستمر علينا لاحقاً بألوان جديدة وبأساليب حديثة وظروف أخرى كقوله(سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) الفتح/٢٣، ٢-**سؤال**: كيف يقع عذاب عليهم وقد وعد الله النبي(ص) ألا يعذّب قومه وهو فيهم كقوله(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ)الأنفال/٣٣، **الجواب**: إنّ هذا العذاب من قحط وجوع كان للتأديب، ليوقظ ضمائرهم، ويحذرهم وينذرهم لأنهم تجاوزوا الحدود الحمراء الخطيرة، ليعودوا إلى الله، فيكون هذا العذاب

معجزة للنبي (ص)أما العذاب للكفار فكان عذاباً شاملاً لاستئصال القوم، فيكون للترهيب بينما العذاب الأول للترغيب لأنه محتمل.

١٨-١٩-﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾

قال موسى لفرعون وقومه(**أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ**) استجيبوا لي ما آمركم به من الإيمان والطاعة يا(**عِبَادَ اللَّهِ**) وسلّموا إليّ بني اسرائيل ليخرجوا معي من مصر، فإنهم عشيرتي وقد سلبتم حقوقهم، الناس(**عِبَادَ اللَّهِ**)وقد جعلهم الله أحراراً، فكيف يستعبدهم فرعون وهم أمانة الله عنده؟ وهذا يعني أن الضعيف أمانة في يد القوي، عليه أن يحفظ الأمانة ويرعاها، عن الإمام علي(ع)(لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً)البحار٧٧/٢١٤، **وكان سبب اضطهاد فرعون لبني إسرائيل،** لأنهم ساعدوا ملوك الهكسوس في غزو مصر لإسقاط فرعون، فلما انتصر الفراعنة وطردوا الهكسوس، صار عندهم كراهية للإسرائيليين وحبّ الانتقام منهم (**إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ**)ومؤتمن على وحيه وكتابه ورسالته، الصادق في دعواه، المدعوم بالمعجزات والكرامات، وأنا لكم ناصح أمين، وصف موسى بـ (**الأَمِينٌ**) لأنه المؤهل لحفظ أمانة الله في عباده، ٩- (**وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ**)ولا تتكبروا على طاعة الله وكفران نعمه بتكذيب رسالتي والإعراض عما آمركم به، وما ينبغي للعباد أن يعلوا على الله خالقهم (**إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**)لأني أرسلت إليكم بحجة واضحة، ومعجزة ساطعة يعترف بها كل صاحب عقل، تثبت صحة نبوّتي حقاً وصدقاً، فلا تشكوا في القطعيّات، فتقعوا في أشكل المشكلات، لأن الحجة القطعيّة تذعن لها القلوب، وتقطع الجدال العقيم.

٢٠-٢٢-﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ، وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾

(**وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ**)فلما قال ذلك، توعدوه بالرجم، فاستجار واعتصم بالله تعالى أن يرجموه ويشتموه، ويعتدوا عليه ويقذفوه بالحجارة حتى الموت صبراً، وهو أشد أنواع القتل والتنكيل بالمقتول فهو كالإعدام!، فالرجم كان مشهوراً عند الأمم السابقة، التي تكذّب رسلها، ففي قصة نبي الله شعيب قوله(**وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ**)هود/٩١، وقال القوم لنوح كقوله(لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ)الشعراء/١١٦، عندما استعاذ موسى بربه وربهم، جعل الله (مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه)وهو وزيره ومستشاره، فيعلن ويصرّح بدفاعه عن موسى(ع)(غافر/٢٩) ٢١- (**وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ**)وإن لم تصدقوني مع قوة حجتي، ولم تؤمنوا بالله(**فَاعْتَزِلُونِ**)فكفوا عن أذاي وخلّو سبيلي، فليكن الأمر بيني وبينكم على السلم، فلكم دينكم ولي ديني، وبذلك التعايش السلمي، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولكن الطغاة لا يقبلون بأنصاف الحلول، لأنهم يخشون الحق أن يؤثّر في نفوس الجماهير العامة.

٢٢-**(فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ)** أحسّ موسى أن القوم بغاة وقساة، وما قست القلوب إلاّ لكثرة الذنوب، وإنّ القوم لن يؤمنوا، ولم يسالموه، ولن يعتزلوه، وظهر له إجرامهم عميقاً في نفوس الفراعنة، ولا أمل لإصلاحهم، عند ذلك لجأ إلى ربه وملاذه يشكوه إجرام قومه، ودعاه لإنقاذه والخلاص منهم، لأنهم لا يستحقون الإمهال، وأصبحت حياتهم ضرراً على الأحياء في هذا الوجود.

٢٣-٢٤-﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ، وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾

وتلقى موسى الإجابة من ربه، لأن المسألة تتأزّم فلا تتحمل التأجيل، وهكذا يقترن الدعاء بالسعي اللازم المطلوب والمدروس **(فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا)**أخرج يا موسى مع من آمن بك من بني إسرائيل، عن هذه البلدة الظالم أهلها، حتى لا يدركم فرعون إذا خرجتم نهاراً**(إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ)** واعلموا أنه سيتبعكم فرعون وجنوده ليلقي القبض عليكم **(فَأَسْرِ)**الإسراء لا يكون إلاّ في الليل، حتى يستتروا بظلام الليل ونوم الناس وهدوء الحركة، كقوله(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا) الإسراء/١، حتى إذا بلغتم النيل فاضربه بعصاك، لينفتح طريق لعبوركم، فاعبروه، ٢٤- **(وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا)**أي ساكناً على هيئته، منفلقاً كل فرق كالطود العظيم **(مختصر القصة)**لما تجاوز موسى البحر، أراد أن يضربه بعصاه فينطبق، كما ضربه فانفلق، حتى يحول بينه وبين فرعون، فأمره الله سبحانه بترك البحر رهواً ساكناً منفلقاً، ليغري فرعون بالسير فيه بجنوده، فيطبق الله البحر عليهم فيغرقون جميعاً **(إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ)**، وإنما أخبر الله تعالى نبيه موسى ليطمئن أنهم لن يدركوا بني إسرائيل، وأن النصر مع الصبر كقوله(وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)آل عمران/١٨٦، وهكذا ينفذ قدر الله من خلال الأسباب الظاهرة، والأسباب ذاتها طرف من هذا القدر المحتوم، وفي ذلك إشارة إلى أن الله يأتي إلى الطغاة من حيث يحذرون، ولا ينفع الحذر إذا جاء القدر!، **وعبّر القرآن عن نهر النيل العريض بالبحر،** لأن البحر في اللغة بمعنى الماء الكثير،

٢٥-٢٩-﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ، كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ، فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾

(كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) **(كَمْ)**للتكثير، يصوّر الله سبحانه رفاهية فرعون وقومه، ونعمهم وعزّهم وثراءهم، فقد استغرقوا بذلك النعيم، وكفروا بالمنعم ! **روي:** إنّ الله تعالى لما خلق الدنيا قال لها: يا دنيا: من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه)!روح البيان٣/٧٣، لقد تركوا كثيراً من البساتين والحدائق الغنّاء، والأنهار والعيون الجارية، ٢٦- **(وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)**ومزارع عديدة وجميلة فيها أنواع الأشجار والثمار، والقصور الشاهقة والمساكن الفخمة ومجالس حسنة، ٢٧- **(وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ)** **فاكهين:** ما يتفكه به أي يتنعّم ويهنأ ويتلذذ

بأكله، **وفاكهين:** من الفاكهة الشهية المتنوعة، أو من الفكاهة والفرح والمرح، أي يأكلون ويتفكهون بسلام آمنين، الدال على العيش الرغيد، **تدل الآية أن الثراء ليس سبباً للسعادة، أنما السعادة بمقدار ما تنفع وبمقدار ما تعطي**، ٢٨- (**كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ**)ثم ينزع ملكهم كله منهم فجأة، وأورثه الله بني إسرائيل المستضعفين المستعبدين كقوله(كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) الشعراء/٥٩، وإيراثها تمليكها وتمكينهم من التصرف فيها، تمكين الوارث فيما يرثه كقوله(وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا) الأحزاب/٢٧، ويبدو أن بني إسرائيل لم يرثوا ملك فرعون بالذات، ولكنهم ورثوا ملكاً في أرض أخرى، فالمقصود إذن: هو نوع الملك والنعمة الذي زال عن فرعون وملئه، وورثه بني إسرائيل كقوله(وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) الأعراف/١٣٧ ووراثة الحكم هي علاقة التناسب بين الحاكم والمحكوم كقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)الرعد/١١، عن النبي(ص) (**كما تكونوا يولى عليكم**) كنز العمال خبر١٤٩٧٩، وهكذا يهلك الله ملوكاً ويستخلف آخرين، ثم يختبرهم كيف يعملون؟.

٢٩- (**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ**)هذا كناية وتشبيه عن التأثر الكوني، واستعارة بلاغية بديعية على سبيل التمثيل والتخييل والمبالغة، لأن السماء والأرض لا تبكيان وإنما المراد أهلها كقوله (واسأل القرية) أي أهل القرية(**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ**...)، لأنهم لا يملكون عند الله أي موقع أو اعتبار، كان هؤلاء القوم يستعظمون أنفسهم أحياءً وأمواتاً، ويظنون أنهم لو ماتوا لقال الناس فيهم كل خير، ولبكت عليهم الكائنات كلها، ولكنهم لم يأسف عليهم أحد، ولم تبكهم عين، ولم يحزن من أجلهم قلب، لأنهم كائنات منبوذة ونفوس شريرة خبيثة مطرودة من هذا الوجود، وهي تعيش متطفّلة عليه، لا قيمة لهم عند الله وعند الناس، بل ذهبوا كما يذهب الوباء والكابوس الثقيل المر على الصدور، ويتنفّس بعده الناس أنفاس العافية والرجاء، بل استبشر الجميع بهلاكهم من أهل السماء والأرض، لأنهم غير منسجمين مع حركة السنن الإلهية، ونظام الكون الدقيق، بسبب خروجهم عن نظام التسبيح العام لكل الكائنات كقوله(**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**) الإسراء/٤٤، فصار عذابهم في الدنيا والآخرة، تشير الآية الكريمة إلى أن نوعاً من الإحساس والشعور والتأثر والتفاعل موجود في عالم الوجود، وكأنه كائن حي عاقل مدرك مميز، عبّر عنه القرآن بالبكاء! عن الإمام الصادق(ع)(إذا مات المؤمن بكت عليه بقاع الأرض التي كان يعبد الله عز وجل عليها) نور الثقلين٤/٦٢٩، في الحديث(**إنّ المؤمن يبكي عليه من الأرض مصلاه وموضع عبادته، ومن السماء مصعد عمله الصالح**) روي: **لما قتل الحسين بن علي(ع) أحمرّ له آفاق السماء أشهراً، واحمرارها بكاؤها**) وفي الحديث(ما مات مؤمن في غربة غابت عنه بواكيه إلاّ بكت

عليه السماء والأرض، ثم قرأ (**فما بكت عليه**..)روح البيان٨/٤١٣، عن الإمام الصادق (ع) في الآية(بكت السماء على يحيى بن زكريا، وعلى الحسين بن علي(ع) قلت وما بكاؤها؟ قال: كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء)مجمع البيان٩/١١٦ **روي**: (إذا مات الكافر استراح منه السماء والأرض، والبلاد والعباد، فلا تبكي عليه أرض ولا سماء)روح البيان٨/٤١٣ (**وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ**) ممهلين ولا مؤجلين قليلاً إلى وقت آخر كقوله(إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ)نوح/٤، لو أحسّ الجبّارون في الأرض ما في هذه الكلمات من إيحاءات لأدركوا هوانهم على الله، وعلى هذا الوجود كله، الذي يمقتهم لانفصالهم عنه، **لأن الوجود كله مؤمن بالله ومطيعه**، وهم وحدهم الفاسقون الخارجون عن طاعته، وهذه صورة حية متحركة لكل أمة ترفض الحق فيقودها الباطل، ومن ضاق عليهم الحق فالباطل عليهم أضيق!

٣٠-٣١- ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾

(**وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ**) **المهين**: العذاب الشديد الذي فيه إهانة نفسية وذلة وجرح كرامة، وكان يتمثل العذاب بالاستخفاف بهم، وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم، وإرهاقهم في الأعمال الشّاقة! عن الإمام علي الهادي(ع)(من هانت عليه نفسه فلا تأمن شرّه) تحف العقول ص٣٥٨، ٣١- (**مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ**)إنه كان متكبراً متجبراً طاغياً وادّعى الربوبية (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ)النازعات/٢٤، وادّعى الألوهية فقال(**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي**) القصص/٣٨ (**مِّنَ الْمُسْرِفِينَ**)من متجاوزي الحدود في الظلم والإجرام والطغيان، في مقابل الهوان الذي انتهى إليه المتجبرون. عن الإمام الباقر(ع)(**المسرفون**: هم الذي يستحلّون المحارم، ويسفكون الدماء)نور الثقلين١/٦٢١، **في غرر الحكم** (إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل، إذا استولى اللئام اضطهد الكرام، من أفحش الظلم، ظلم الكرام)

٣٢-٣٣- ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ﴾

(**وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**)هذه الآية يتشدّق بها اليهود، ويسمّون أنفسهم شعب الله المختار، والقرآن يجيبهم بقوله(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)الحجرات/١٣، ليس في خلق الله من تفاوت وتفاضل وتمايز كقوله(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ)المائدة/١٨، **المعنى**: (**وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**) اختيار الله لبني إسرائيل، كاختيار الله موسى كليمه ومجتباه(ع) واختياره نبياً وقائداً ومنقذاً ومسدَداً ومهيوباً ورشيداً ومطاعاً يقودهم نحو الأهداف الكبيرة، والذي صاغه الله صياغة خاصة مسبقة، برعاية خاصة وحماية مميزة منذ نشأته وولادته حتى تليق شخصية موسى(ع) لقيادة بني إسرائيل كقوله (وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي)طه/٣٩ وقوله(**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**) طه/٤١، فلم يتمكن هارون من قيادتهم وهو نبي معصوم، ولكن تمكّن موسى منهم، حتى تمرّدوا

عليه آخراً، فعاقبهم الله بالتيه في صحراء سيناء، ولقد اختارهم الله(**عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**) لحمل مسؤولية رسالة السماء، والعلم بالتوراة التي فيها هدى ونور، وقد اختارهم الله في ذلك الزمان(**عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**)من بين الأمم الأخرى ليكونوا أمام اختبار كبير كقوله(وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ)آل عمران/١٥٤، وقد اختارهم لأنهم كانوا مظلومين معذّبين مهانين من فرعون وملئه، وقد ظُلِموا ظلماً ليس كمثله ظلم، والله سبحانه نصير المظلومين كقوله(**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**) الشعراء/٢٢٧، **في نهج البلاغة كتاب٥٣**(فإن الله سميع دعوة المضطهدين وهو للظالمين بالمرصاد) وقد اختارهم الله(**عَلَىٰ عِلْمٍ**) لأنهم أفضل أهل زمانهم، لاستمالتهم لدعوة موسى الإنقاذية، واستذواقهم طعم الإيمان كقوله(وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) الأعراف/١٥٩، إنهم كانوا يمتلكون كفاءة ذاتية، وخصائص معينة تميزهم عن الناس في تلك المراحل التاريخية، وكما كانت تفرض ذلك الظروف الموضوعية، وقد اختارهم الله وفضلهم بكثرة النعم عليهم، بأنواع المعاجز الكبرى، وأنزل عليهم المن والسلوى.. وغيرها كقوله(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)البقرة/٤٧، وهذا التفضيل.

(تفضيل نعمة لا تفضيل قيمة) وهو تفضيل مؤقت ومحدد بزمان استخلافهم وامتحانهم، كما فضل الله المسلمين وكرّمهم ليكونوا خير أمم الأرض (**الأمة الوسطى**) بشرط حملهم للرسالة الخاتمة والدعوة إليها كقوله(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)آل عمران/١١٠ وقوله(**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**) الحج/٧٨، وهو الله سبحانه اختاركم من بين الأمم، وحمّلكم أمانة دينه القيّم وخصكم بأكرم رسول، وأفضل كتاب سماوي وهو القرآن، وأكمل دين وهو الإسلام، وليس المقصود تفضيل بني إسرائيل على الإطلاق بلا حدود، وإنما تفضيلهم عندما منحهم عوامل التفوّق، ليختبرهم بالإنعام عليهم لتظهر أفعالهم شكراً أم كفراً، وقد ظهرت كفراً وغدراً وبغياً وظلماً وفساداً، حتى لعنهم الله وغضب عليهم كقوله(**وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**) المائدة/٦٠، فيكون البلاء بالنعمة أشد من البلاء في الفقر كقوله(وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) الأنبياء/٣٥ وعندما فشلوا في الامتحان، فشتتهم الله في الأرض أمماً متناثرين كقوله(وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ)الأعراف/١٦٨، وصاروا جماعات شتى مختلفة المذاهب، ففي كل بلاد قسم منهم حتى لا تكون لهم قوة وقدرة، **وحاولت الصهيونية الملحدة أن تقيم دولة لهم على الباطل**، ولكن يكون قضاء الله فيهم على أيدي المسلمين كقوله(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)الإسراء/١٠٤، عن النبي(ص)(**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود**) ٣٣- (**وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ**)والمعجزات العجيبة عن طريق موسى(**مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ**)

وكان فيه امتحان واضح لهم لاختبارهم، هل هم بمستوى الإيمان بهذه المعاجز، وهل يقدرون النعم ويشكرون المنعم؟ وفشلوا في الامتحان، وكشف ابتلائهم عن نفوسهم الخبيثة، وطبائعهم الشرسة وقلوبهم القاسية، فكانوا عِبرة لمن يعتبر كقوله(فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً) المائدة/١٣**في نهج البلاغة خطبة ١٥١**(اتقوا سكرات النعمة، واحذروا بوائق النقمة)

٣٤-٣٥- ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ، إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾

(إِنَّ هَٰؤُلَاءِ) إن كفار قريش **(لَيَقُولُونَ)** مستبعدين الحياة بعد الموت، والبعث والنشور والجنة والنار، ٣٥- **(إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ)**ما تواجهنا إلاّ موتة واحدة نموتها ونغادر الحياة الدنيا كقوله (مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)الجاثية/٢٤، قدرة الله على إحياء الموتى بطريقة غيبية، كقدرته على النشأة الأولى بطريقة حسّية، والذي أوجد الإنسان من العدم، ولم يكن شيئاً مذكوراً، هو قادر على أن يحيي العظام وهي رميم**(وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ)** بمبعوثين، وبعد الميتة(*) الأولى ومغادرة الحياة الدنيا، فلا حياة بعد الموت والفناء، ولا بعث ولا نشور أبداً ولا جزاء! **فائدة**: كان عرب الجاهلية يؤمنون بالله وينكرون المعاد، لما وقع في تصوّرهم من استحالة الحياة بعد الموت، ويستدلون على أنه ليس هناك إلاّ ميتة في نهاية العمر ومغادرة الحياة الدنيا، وينتهي كل شيء، وتطوى الصفحة وتُنسى الأيام والأعوام وتمحى الأعمال، **ولكن هذا تفكير سطحي مادي ساذج، لأنهم يغفلون عن حقيقة المعاد، وحكمة البعث والنشور، في عالم الآخرة، عالم الغيب والخلود والجزاء، ولا يدركون أن المعاد حلقة منظّمة من حلقات النشأة الأولى الإعجازية**، فكانت النشأة الأولى في أحسن تقويم، فلا بد أن تكون النشأة الأخرى في أحسن تقويم أيضاً، ولا يُعقل أن نموت مبعثرين، فما الفائدة من الحياة في أحسن تقويم، والممات في أسفل السافلين؟! فلا بد أن نحيا كرماء أعزاء ونموت كرماء أعزّاء، ونحاسب على فترة العمر المحدودة في حياتنا الدنيا، وهنا يكمن السر في تكرار آيات البعث والنشور في القرآن، والتأكيد عليها بأساليب شتى كقوله(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) التين/٤-٦، والذي لا يعرف كيف ينتهي، لا يعرف كيف يبدأ!، والذي لا يعرف لماذا يعيش لا يعرف لماذا يموت؟ **تبقى الحياة لغز مبهم لولا أن تحلّها فلسفة المعاد إلى يوم القيامة**، عن الإمام علي(ع)(أفضل الناس عقلاً أحسنهم تقديراً لمعاشه، وأشدّهم اهتماماً باصلاح معاده) عيون الحكم والمواعظ ص١١٤، فيكون يوم القيامة ميزان دقيق: فمن وفّى، استوفى) عن النبي(ص) **(الخاسر**: من غفل عن إصلاح المعاد)تنبيه الخواطر ص٣٥٩.

(*) الموتة تعبير قرآني، أما المفردة الشائعة في العربية فهي (ميتة).

٣٦-٣٧-﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

(فَأْتُوا بِآبَائِنَا)هذا اقتراح المكذبين المعاندين الذين لا يقنعهم أي دليل، والرسول الصادق الأمين على رسالة الله، فلا يتوقف صدقه على الإتيان بآبائهم، وقد أحيا عيسى الأموات أمام أعينهم، فالكافر بقي كافراً على كفره، والمؤمن ازداد إيماناً، **فالمؤمن ديل واحد قطعي يكفيه، وغير المؤمن لو تأتيه بألف دليل ودليل لا يؤمن**، وهذا ما ظهر لإبراهيم الخليل(ع)جعل الله النار برداً وسلاماً عليه أمام أعينهم جميعاً فلم يؤمنوا!، وهذا موسى فلق الله لهم البحر فلم يؤمنوا..إلخ! **(إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)** إنّ الأموات سيحيون بعد فنائهم، وتكون حياتهم خالدة غير هذه الحياة، وإن الموت ليس انعداماً للحياة، وإنما الموت نقلة من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى، **في غرر الحكم(الموت أول عدل الآخرة)** من وصية الإمام علي(ع)لابنه الحسن (ع) (إنك خلقت للآخرة لا للدنيا، وللبقاء لا للفناء، للحياة لا للموت)شرح النهج١٦/٨٩.

٣٧- **(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ)** الاستفهام إنكاري للتهديد، **تُبع**: ملك من ملوك اليمن، وكان رجلاً صالحاً وقومه أهل سوء، **قوم تُبع**: كان لهم دولة وصولة في اليمن وغيرها، وكانوا أشدّ بأساً وأكثر مالاً من قريش، ولما بغوا وطغوا وخالفوا أمر الله وتجاوزوا الحدود الحمراء الخطيرة، أخذهم الله بالهلاك **(وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ)** الذين سبقوهم من الأمم العاتية أهلكناهم، مثل قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم من كل جبار عنيد، وأولي بأس شديد، فأولئك الطغاة كانوا أقوى من مشركي مكة، فإهلاك هؤلاء أولى كقوله (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا)الفتح/٢٣، **في نهج البلاغة خطبة٣٢ (اتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم)**، من كلمة**(أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)**تدل على أنهم بلغوا من الإثم أقصاه، يستحقّوا عليه أقصى العقوبة، والعقوبة على قدر الجناية، وقد اشتركتم معهم في الإجرام، فليتوقّعوا أن يشتركوا معهم في المصير المأساوي، بأي لون من ألوان الهلاك المذل، إنها إشارة سريعة ولكنها موقظة تحرّك قلوبهم وتحذّرهم من سوء العاقبة، والأمور بخواتيمها.

٣٨-٣٩-﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)عابثين ولا لاهين، إنّ الله سبحانه حكيم في صنعه، والحكيم منزّه عن الفراغ والملل واللّعب واللّهو والعبث وللاهدفية..، لأن اللّعب ينطلق من حالة فراغ وملل، وهذا بعيد عن الله سبحانه وتعالى لأنه الكمال المطلق الذي لا يحتاج إلى شيء، ولا يعرض عليه نقص وضعف ذاتي، فلا يخلق شيئاً إلاّ لمصلحة تعود على المخلوق، وبما أن الله كرّم الإنسان بالاختيار دون الإجبار كقوله**(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)** الإنسان/٣، فلا بد لهذا الاختيار من مسؤولية وحساب وجزاء كقوله(وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ

نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) الجاثية/٢٢، ومن دون الجزاء كان خلق الله للإنسان لعباً وعبثاً، والله بعيد عن العبث وتعالى عليه علواً كبيراً، كقوله(**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**)المؤمنون/١١٥ وإذا لم يوجد يوم الجزاء، لما امتاز المحسن عن المسيء، والمطيع عن العاص، ولا الظالم من المظلوم كقوله (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)الجاثية/٢١، وإنما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما من عجائب المخلوقات والأنظمة الدقيقة، ليستدل الإنسان على عظمة المخلوقات وإتقان الصنع على عظمة الخالق والصانع، في الحديث القدسي عن الله تعالى(يا أبن آدم: خلقتك لتربح عليّ لا لأربح عليك) وفيه أيضاً (كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أُعرف)وإن الله يرغّب عباده بالإيمان ويثيبهم عليه، ويحذّرهم من العصيان ويعاقبهم عليه، عن الإمام علي(ع)في قوله (**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**)البلد/١٠ قال (إنّ الله تعالى أمر بطاعته وأعان عليها ولم يجعل في تركها عذراً، ونهى عن المعصية وأغنى عنها ولم يجعل في ركوبها عذراً)

في غرر الحكم(غيّروا العادات تسهل عليكم الطاعات)وفيه أيضاً (**للمتقي**: هدىً في رشاد، وتحرج عن فساد، وحرص في إصلاح المعاد) ٣٩-(**مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ**)لهدف عظيم وحكمة بليغة ومصلحة عامة، لإحقاق الحق وإبطال الباطل بامتحان الناس وابتلائهم كقوله(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الكهف/٧ (**بِالْحَقِّ**) ومن أجل الحق، ومن الحق، وإلى الحق، ومع الحق وفي الحق وعلى منهج الحق، إن الله سبحانه أقام هذا الوجود على الحق، كما خلقه بالحق، ووضع أنظمته بالحق، ووضع غايته بالحق، فابتدأه بالحق، ويحكمه بالحق ويقضي بالحق، ويضع كل شيء في موضعه بالحق، ثم يُنهي هذا الوجود بالحق، ويتم الجزاء بالحق كقوله(**وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ**)الأنفال/٧ ، **الحق**: ثابت في ذاته، مثبت لغيره، لأنه الثابت المؤثر الذي لا يزول، ولا يتغيّر ولا يتبدل ولا يتحوّل، لأن الحق قمة القمم، ونعمة النعم، وقامت الحياة على الحق.

(والحق) هو الغاية الجليلة التي يريد القرآن تقريرها، والحق واضح في نفسه وموضّح لغيره، الحق الذي لا يلتبس به الباطل، فهو وحدة واحدة موحّدة متّحدة، حق لا يتجّزأ ولا يتعدد كقوله (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ)يونس/٣٢، **الحقّ**: أحقّ أن يتّبع، عن الإمام الباقر(ع)(أصبر نفسك على الحق، فإنه من منع شيئاً في حق، أعطى في الباطل مثليه)!تحف العقول ص٢١٦، **والحق**: ثابت لا يتغير ولا يتطوّر ولا ينطمس أبداً، وإن علا الباطل عليه حيناً، فيشعرو الناس بمرارة الباطل وشرّه، وإن طلي بشعارات برّاقة خدّاعة، فيجعلهم يرغبون بأهمية الحق وعظمته وفضله، فكأن الباطل نفسه جندي من جنود الحق ويتطفّل عليه، كما أن

الكفر جندي من جنود الإيمان (**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**)أهمية الحق، وفلسفة الوجود، لإعراضهم عن التفكّر في الخلق في الآفاق والأنفس، لانشغالهم بحبّ الدنيا التي تعمي وتصم وتذل الرقاب، فينكرون ما لا يعلمون كقوله(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ) يونس/٣٩، والذي لا ينفعه العلم يضره الجهل، والذي لا يستقيم به الهدى تضره الضلالة.

٤٠-٤٢-﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ، يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ، إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

(**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ**)هو يوم القيامة(يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)المطففين/٦، وهو تعبير جميل وبليغ وله دلالاته الواسعة، وسمي يوم الفصل لأنه يفصل الله فيه بين الخلائق، فيفصل بين المتقين والمجرمين، وبين المحق والمبطل، وبين المظلوم والظالم، من الأولين والآخرين، فهو يوم الجزاء كقوله(لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ)طه/١٥، **في غرر الحكم(من أيقن بالمجازاة، لم يؤثر غير الحسنى)** ويعودون إلى ربهم فرادى كما خلقهم أول مرة، فمنه سبحانه البداية، وإليه تعود النهاية لا إلى غيره كقوله (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ)الانشقاق/٦ (**مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**)لموعدهم أجمعين في وقت معين لحساب الخلائق كقوله(يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ)الممتحنة/٣، ويحضرهم مع كامل أعمالهم للجزاء، وكأنه هناك جهاز تصوير (كاميرة) خفيّة تصوّرهم بدقة متناهية، على فلم مجسّم من ثلاثة أبعاد، بالصورة والصوت والنية، لإتمام الحجة عليهم كقوله(**أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا**)البقرة/١٤٨ هو يوم تقتضيه عدالة الله ليحكم بالحق، فهو يوم حاسم يتقرر فيه مصير كل إنسان إلى الأبد، فكيف ينبغي أن نعدّ لهذا الأبد عدّته، عن الإمام الصادق(ع)(من آثر الدنيا على الآخرة، حشر يوم القيامة أعمى) البحار٢١٨/١٧، **الميقات**: إما مكاني أو زماني، مثل ميقات رمضان الصوم، واليوم التاسع من ذي الحجة ميقات الوقوف بعرفة، ومواقيت الصلوة كقوله(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا)النساء/١٠٣، ٤١- (**يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا**)

المولى: من ولي، وهو الصاحب الذي من شأنه أن يتولى معونة صاحبه، ومساعدته على تحسين أموره، فهو الناصر والمحب والحليف والكفيل والأصيل، أي يوم لا يدفع قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه كقوله(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ)الانفطار/١٩، لا ينفع في ذلك اليوم الحاسم إلاّ الإيمان والعمل الصالح كقوله(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)الرعد/٢٩ (**وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**)فكل واحد في هذا اليوم الحاسم المصيري مشغول بنفسه، لا يجدون ناصراً ولا معيناً ولا شفيعاً لهم كقوله(**لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ**) الممتحنة/٣، ٤٢- (**إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ**)استثناء متصل، إلاّ الذين رحمهم الله، من المؤمنين الذين تبدر منهم بعض الزلاّت، فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه، ولا إلى ناصر

ينصره **في غرر الحكم**(شافع الخلق العمل بالحق ولزوم الصدق) فإنه إما أن يسقط عقابهم ابتداءً، أو يأذن بالشفاعة فيهم بعضهم لبعض كقوله(**يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ**)الإنسان/٣١، فإنهم في غنى عن مولى يغني عنهم، وشافع يشفع لهم، يوحي التعبير القرآني بأن رحمته سبحانه، هي حصن حصين منيع أمين، لا يؤهّل له، ولا يدخله إلاّ من يشاء الله دخوله، ممن له مواصفات خاصة. (**إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ**)الذي لا يُغلب، والعزيز في انتقامه من أعدائه(**الرَّحِيمُ**)بأوليائه وعباده المؤمنين.

٤٣-٤٦-﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ، طَعَامُ الْأَثِيمِ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾

تصف هذه الآيات عذاب الجحيم وصفاً رهيباً مرعباً يهز الأعماق ويوقظ العقول، وهو مشهد عنيف ومخيف من مشاهد يوم القيامة المثير، **المعنى**: (**إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ**) اسم شجرة خبيثة، شر الأشجار وأفظعها، فهي شجرة خاصة تنبت من النار ومع النار وإلى أهل النار، شجرة لها أوراق صغيرة مثمرة مرة خشنة الملمس، منتنة الرائحة، قبيحة المنظر، تفرز سائلاً إذا أصاب البدن تورّم، فيضطر أهل النار على التناول منها كقوله (إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) الصافات/٦٤-٦٥، وبهذا الوصف الرهيب قبّحها الله سبحانه، قبحاً عاماً مقززاً يستوعب كل وسائل القبح عند مختلف الناس! كقوله(**وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**)الإسراء/٦٠، **شجرة الزقوم**: قد تكون كناية بلاغية عن أليم العذاب وشدته، وطول البلاء ومدته، للدلالة على العذاب الجسماني والنفسي، **الجسماني**: بالماء المغلي، **والنفسي**: بالإهانة لهم، والقصاص على قدر الجناية، نتيجة الاعتقادات الباطلة والأخلاق السيئة التي تؤدي إلى النار، **روي**:(إن البخل شجرة من أشجار النار، والسخاء شجرة من أشجار الجنة)الكاشف٧ ص١٥، ٤٤- (**طَعَامُ الْأَثِيمِ**) صفة مبالغة لكثرة الآثام، المجرم المرتكب للكبائر، المصر على المعاصي الكبيرة والكثيرة، وليس له طعام غيرها! عن النبي(ص)(لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم! فكيف من يكون طعامه ذلك؟!)روح البيان٨/٤٢٧، ٤٥- (**كَالْمُهْلِ**) كالمعدن المنصهر المذاب، والزيت الرديء المغلي(**يَغْلِي فِي الْبُطُونِ**)هي في شناعتها وفضاعتها إذا أكلها الإنسان المجرم، فيكون في بطنه كالنحاس المذاب المغلي الذي تناهى حرّه، ٤٦- (**كَغَلْيِ الْحَمِيمِ**) كغليان الماء شديد الحرارة، لماذا لا يذوب الجسم؟ لأنه مخلوق للبقاء والخلود كقوله(الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ، ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ)الأعلى/١٢-١٣ إنها صورة بلاغية محركة للمشاعر، صورة تعبر بفصاحة عن نفسها، وتتحدث بدقة عن واقعها، فتبقى العبارات عاجزة عما تتحدث عنه الصورة. **فائدة: سبب النزول**(٤٣-٥٠)**روي**: أن أبا جهل أتى بتمر وزبدة، فجمع بينهما وأكل وقال: هذا هو الزقوم الذي يخوفنا به مُحَمّد، نحن نتزقّمه، أي نملأ أفواهنا منه، فنزلت الآيات.

٤٧-٥٠-﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ، ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ، إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾

(**خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ**)يأمر الله سبحانه زبانية جهنم أن يأخذوا هذا الأثيم أخذاً (**فَاعْتِلُوهُ**)ويجرّوه جراً بعنف وغلظة وشدة وقسوة، جرّاً بلا كرامة ولا هوادة(**إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ**)إلى وسط الجحيم لتحيط به النار من كل جانب كقوله(نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ)التوبة/٦٧، نسيهم فلم تشملهم رحمة الله، ٤٨- (**ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ**)فيكون المهل يغلي في البطون، والحميم يصب فوق رؤوس الفجار، والنار المتأججة محيطة بهم من كل جانب! حقاً: لا خير في لذّة محرّمة بعدها النار، عن النبي (ص)(**أكثر ما يدخل الناس النار الأجوفان: البطن والفرج**)كنز العمال خبر/٤٤٠٧، ٤٩-تقول ملائكة العذاب للطاغية الأثيم لقد أنكرت يوم المعاد، وأفسدت في البلاد والعباد، وزعمت أنك عظيم وجليل ورفيع، تزهو بتلك العظمة المؤقّتة(**ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ**)فذق الآن جزاء تعاظمك، ذق هذا الذل والهوان اليوم، وهذا أسلوب استهزاء وسخرية واستخفاف به، فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم، وركبك الغرور، وتقهر بسلطانك، وكنت تظن أنك قوي لا تقهر وعزيز لا يُهان، وكريم يجب احترامك وتقديرك، يا صاحب الجلالة والسيادة والفخامة والمعالي بزعمك (**ذُقْ**)الإذاقة هنا لا تقتصر على تذوّق اللسان فقط، وإنما ستكون إذاقة معنوية شاملة يتحسس بها كل أعضاء الجسم! والآن قد تبين لك أنك أنت الذليل المهين، وهكذا يكون الجزاء من جنس العمل، عن الإمام علي(ع)(**كل عزيز داخل تحت القدرة فذليل**)تحف العقول ص١٥٣، **في غرر الحكم** (من تكبّر وضعه الله، فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير)كنز العمال خبر٥٧٣٧، ٥٠- (**إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ**)تشكّون، أي العذاب الذي كنتم تشكّون به، وكنتم لا تبالون وتسخرون ولا تدرون إلى أين ستنتهون، آمنين من كل حساب، أصبح اليوم حقيقة يقينية تعيشونها، ماثلة أمام أعينكم، بل تذوقون العذاب وآلامه وتتحسسون مرارته! هذا هو الذي كنت تشك فيه، وهذا الذي حذّركم منه رسل الله جميعاً كقوله(إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا، لِّلطَّاغِينَ مَآبًا) النبأ/٢١-٢٢.

٥١-٥٤-﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ، كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾

(**إِنَّ الْمُتَّقِينَ**)وهم المؤمنون الصالحون الذين يجتنبون المعاصي ويفعلون الطاعات في جميع الأحوال والأشكال، كقوله(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا)الأنفال/٢٩، وقوله(وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)الطلاق/٤، عن الإمام الصادق(ع)(إنّ الله قد ضمن لمن اتّقاه أن يحوّله عما يكره إلى ما يحب، ويرزقه من حيث لا يحتسب)البحار٧٠/٢٨٥ (**فِي مَقَامٍ أَمِينٍ**)في مسكن آمن، ومنزلة رفيعة تتعالى على كل مكروه يزعج النفس، فهم في مكان

محصّن يأمنون فيه من كل الآفات والمنغّصات والمكاره والشياطين، ولا سكن من دون أمان، **(ومن دخله كان آمناً)** والأمان من أفضل النعم الإلهية، لذا قدمه على سائر نعم الجنة، وهو نعمة النعم، وقمة القمم، نعمة دائمة وشاملة، وجاء المقام الأمين في أجواء الخوف والفزع الأكبر والاضطراب النفسي له أهميته الكبرى! كقوله (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) النمل/١٩.

٥٢- **(فِي جَنَّاتٍ)**في حدائق وبساتين ناضرة متنوعة، وجاءت **(جَنَّاتٍ)**بصيغة الجمع، للدلالة أن لهم جنات واسعة مفتوحة متصلة بعضها بالبعض الآخر، فهي تحت تصرفهم، ولكن هذه الجنات غير متساوية، فهي متنوعة المقامات، متفاوتة الدرجات بحسب درجات أصحابها، في مقامات القرب والحب والجذب والكشف **(وَعُيُونٍ)** جارية متنوعة مدهشة فيها ماء ولبن وخمر الجنة وعسل، يتنعّمون فيها كما يشاؤون، والتنكير فيهما للتعظيم، ٥٣- **(يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ)**من الأقمشة الحريرية الناعمة الرقيقة **(وَإِسْتَبْرَقٍ)** الأقمشة الحريرية السميكة، وهي صناعة سماوية لا أرضية، فيكون السندس ما يلبسونه، والاستبرق ما يفرشونه **(مُّتَقَابِلِينَ)** متواجهين في مجلسهم، يستمتع بعضهم بالنظر إلى بعض، ويتحادثون بأحلى الاحاديث، وهذا دليل على أجواء الأُنس والمودة والتآلف والانسجام والتآخي وتسامي النفوس، فهم متقابلون في قلوبهم بالمحبة، وأرواحهم بالمودّة، ووجوههم بالابتسامة، مع تمام المحبة وكمال الراحة وحسن العشرة، وجمال الآداب، كقوله**(قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ)**الأعراف/٢٦، هناك لباس يستر العورة، ولباس للترف والأزياء النموذجية يلبسه الناس في المناسبات المهمة، وهناك لباس عام يلبس في المنازل، ولكن**(لباس التقوى)** خير من ذلك كله، لأنه لباس سيعطي أبّهة وهيبة مرموقة ومميزة في الآخرة!.

٥٤- **(كَذَٰلِكَ)**أكرمناهم بأنواع الإكرام المادي والمعنوي، وأنواع النعيم التام والسرور الكامل **(وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ) الحور**: جمع حوراء، أي متعناهم بنساء بيض حسان، نقيات البياض شفافات مدهشات، جميلات جذّابات واسعات العيون، ولما كان جمال الإنسان في عينيه، فعيون الحور العين جميلة وكبيرة وساحرة وأخّاذة، ويحار اللّهب في حسنهن، وتنبهر النفس بجمالهن، وتتعلّق الروح والعاطفة بكمالهن، لقوة الجاذبية فيهن، ورغبة التكافؤ، لأن بها اكتمال سعادة الإنسان، كما هو مشهور: **ثلاثة تشرح الصدور، وتذهب الأحزان: الماء والخضراء والوجه الحسن**. وقد يكون **(وَزَوَّجْنَاهُم)**بمعنى اقرناهم وكافأناهم وآنسناهم، لأن الزواج هناك ليس للتناسل، بل للاستئناس والمساكنة وحسن العشرة**(لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)**الروم/٢١ويكون الزواج ليس للعملية الجنسية، لأنه ليس هناك ولادة ولا نفاس ولا أولاد، وهناك رقي في المعاشرة والمساكنة، لأننا سنتغيّر ونصبح خلقاً آخر أرقى من هذا الوجود الدنيوي، في عالم آخر

خالدين فيه. **فائدة:** كلمات السندس والاستبرق وقسطاس.. وغيرها، أصلها ليس عربياً، ولكن تداولتها الألسن قبل القرآن، وفهمها المخاطب السامع، فصارت عربية، نلاحظ ما كان محرّماً من الملابس على الرجال في الدنيا كالحرير، أصبحت حلالاً لهم في الآخرة.

٥٥-٥٧- ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ، لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ، فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ)يطلبون فيها بكل فاكهة شهية لذيذة، وأطعمة معروفة وغير معروفة كقوله (وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ)الواقعة/٢٠-٢١، وقدم الفاكهة على اللحوم، وقد تشترك مع ما هو موجود في الدنيا بالشكل والاسم وتختلف بالتركيب والمحتوى، لأنها ليست للتغذية وإنما للتسلية **(آمِنِينَ)**بالخلود في الجنات والسعادة والهناء، وبلا تعب ولا نصب ولا حزن **(آمِنِينَ)**من انقطاع ذلك، **(وآمنين)** من ضررها وسقمها وسوء هضمها، **(وآمنين)** من كل مكروه منها ومن غيرها، **(وآمنين)** من الخروج منها، **(وآمنين)** من الموت، ولهذا قال: ٥٦- **(لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ) إلاّ**: هنا بمعنى سوى، نعم ذاقوا الموت الأول بالحق، الذي هو نقلة من الحياة الدنيا المحدودة إلى الحياة الآخرة المطلقة الممدودة، وهناك لا يذوقون الموت أبداً، لأنهم في حياة خالدة، عن الإمام الباقر(ع)**(ألا أنهم شباب لا يهرمون، وأصحاء لا يسقمون، وأغنياء لا يفتقرون، وفرحون لا يحزنون، وأحياء لا يموتون، ثم تلا الآية)**نور الثقلين٤/٦٣٤، ليس في الجنة هرم ولا نوم ولا موت ولا حزن ولا خوف ولا ليل ولا ظلمة ولا حر ولا برد ولا مرض..، وفوق ذلك لا ثقل عادات ولا إزعاج طبائع ولا اتباع هوى ولا تزاحم مصالح**(لَا يَذُوقُونَ)**عبر عن الموت بالإذاقة، لأن الذوق هو الحاسة الشاملة التي تحرك المشاعر، وهناك ذوق مادي وذوق معنوي كقوله(فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ)النحل/١١٢، فلم يقتصر الذوق على منطقة الفم واللسان، وإنما أصبح كالثوب الذي يغطّي الجسم كله، وكأن كل عضو وحسّ في الجسم يتذوّق هذا الجوع والخوف!، ويذكر القرآن أن الإنسان يذوق الموت مرتين، ليكشف ارتباط الموت بالحياة منذ نشأة هذا الوجود، كقوله**(قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ)**غافر/١١ .

(أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ)مرة إماتة لمغادرة الحياة الدنيا، ومرة إماتة عن حياة البرزخ في عالم القبر، ويكون مذاق الموتة عند المؤمنين غير مذاقها عند الكافرين، لأن الموت نقلة إلى لقاء مقام الله عز وجل، نقلة بالحق إلى جزائه وقضائه **(وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)**وحماهم ربهم وخلّصهم من عذاب النار المتأججة المرعبة كقوله(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ)الأنبياء/١٠٣، ٥٧- **(فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ)**أعطاهم مقوّمات النجاح ثم جزاهم الحسنة بعشر أمثالها، فكان ذلك تفضلاً منه سبحانه، من غير استحقاق كقوله (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم

مُّحْسِنُونَ)النحل/١٢٨، عن النبي(ص)(لا ينجوء أحد منكم بعمله، ولا أنت يا رسول الله؟ ولا أنا إلاّ أن يتغمّدني الله برحمة منه وفضل)مجمع البيان٤ ص١٩ (**ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**)النفع الكثير مع الثواب الجزيل، مع المكافآت والمخبآت والمفاجآت، ففازوا بامتياز.

٥٨-٥٩-﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ، فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾

(**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ**)القرآن الكريم: ظاهره أنيق دقيق جذّاب، وباطنه عميق رقيق منساب، له جاذبية خاصة، وهو حجة الله على العالمين، ويُنبه الغافلين، ويذكّر من كان له قلب(**يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ**)أنزل الله سبحانه هذا القرآن العظيم عليك يا مُحَّد بلسان عربي مبين، وجعلناه ميسّراً سهلاً منساباً في الأحاسيس، يسرناه في لفظه ومبناه ومعناه وإيحاءاته ودلالاته كقوله(**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**)القمر/١٧، فهو كتاب هداية ومصدر دراية، فهو يحرّك المشاعر ويحيي الضمائر، ويشرح الصدور ويطمئن القلوب وتستقر النفوس بلا استئذان، (**يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ**)لأنه أفصح الألسنة وأجلّها، **ويسرناه** بشكل دقيق بلسانك كمبلّغ، **ويسرناه** بلسانهم كمتلقّين، **ويسرناه** بقلوبهم كمتعلّمين، **ويسرناه** بعقولهم كمفكّرين، **ويسرناه** كمتدبرين، **ويسرناه** كحافظين، لأنهم هم الذين سيقومون بمهمة البلاغ بعدك كقوله(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)الأحزاب/٣٩ (**يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ**)وهوّنا عليك قراءته وحفظه وحمله واستنطاقه كقوله(وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ)الأنعام/١٥٥، عن الإمام علي (ع)(**ذلك القرآن فاستنطقوه، فإنه حامل لمن حمله، وناطق لمن استنطقه**) أي الذي يحمله هو الذي يستنطقه، ولا يستطيع أن يستنطقه من دون أن يحمله، فهذا التيسير للقرآن جعل علاقة بين الحمل والاستنطاق، فبمقدار حمله تكون القدرة على استنطاقه، وكلما ازداد الحمل ازداد الاستنطاق، عن النبي(ص)(**حملة القرآن عرفاء أهل الجنة**)مستدرك الوسائل٣/٢٤٢.

(**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**)لعلهم يتّعظون بما فيه ويعملون بما أمر، ٥٩-ومع ذلك لم يتّعظوا (**فَارْتَقِبْ**) إنه تعبير محذور مخيف، أي فانتظر يا مُحَّد ما يحلّ بهم من وعيد الله، وقهرهم ونصرك عليهم (**إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ**) إنهم منتظرون ما يحل بك من دوائر السوء، ولكن عليهم دائرة السوء كقوله (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا)التوبة/٥٢، وأيضاً: انتظر يا مُحَّد، فسيعلم الذين اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً، ماذا سيحل بهم من خزي وهوان، عن النبي(ص) (**يأتي زمان لا يبقى من القرآن إلاّ رسمه، ولا من الإسلام إلاّ اسمه**)، يسمّون به وهم أبعد الناس منه، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى، فقهاء ذلك الزمان شر فقهاء تحت ضل السّماء، منهم خرجت الفتنة وإياهم تعود)فروع الكافي٨/٣٠٨

ونقول في الختام: في ظل هذا المشهد العنيف المخيف المؤثّر بجانبه، تختم السورة بالتذكير بنعمة الرسالة الهادية المنقذة، والتحذير الشديد من عاقبة التكذيب والفسوق والعصيان، وهو ختام محكم يلخّص جو السّورة وظلها، فقد بدأت السورة بذكر الكتاب وتنزيله في ليلة مباركة، للترغيب فيه والترهيب من هجره، **وجاء الختام يذكّرهم بنعمة الله في تيسير هذا القرآن في الأذهان**، وانسيابه في المشاعر، وتحريكه للضمائر ليفهموه، وتيسيره للنفوس ليتدبروه، ويدركوا معانيه، ويخوّفهم من الإعراض عنه الذي يؤدي إلى سوء العاقبة والمصير! وآخر دعوانا (**أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**) يونس/١٠

سُورَةُ الجَاثِيَةِ — ترتيبها ٤٥ — آياتها ٣٧

من مقاصد السورة:

مكية، نزلت بعد سورة الدخان، تناولت أسس العقيدة الإسلامية(**التوحيد، القرآن، النبوة، المعاد والجزاء**) تبتدئ السورة بالحديث عن القرآن ومصدره، فهو كتاب هداية ومصدر دراية للناس لينير لهم طريق الحياة إلى سعادتهم، وذكرت الآيات الكونية المنبثة في هذا العالم الفسيح، ففي السماوات آيات، وفي الأرض آيات، وفي خلق البشر وسائر المخلوقات آيات، وفي تعاقب الليل والنهار وتسخير الرياح ونزول الغيث من السماء آيات.. وكلها شواهد ناطقة بعظمة الله وجلاله وقدرته الدالة على توحيده، **ثم تحدثت عن المجرمين المكذبين بالقرآن**، الذين يسمعون آياته فلا يزدادون إلاّ استكباراً وطغياناً، وأنذرتهم بالعذاب الأليم في دركات الجحيم. وتحدثت السورة عن نعم الله على عباده ليشكروه، ويتفكّروا في نعمه التي أسبغها عليهم الظاهرة والباطنة، وأنه لا خالق ولا رازق إلا الله. **وتحدثت عن إكرام الله لبني إسرائيل، تكريم نعمة لا تكريم قيمة، للاختبار وليس للافتخار**، وذكرت موقف الطغاة المجرمين من دعوة الرسل الكرام، وأنه لا يتساوى في عدل الله المجرمون والمحسنون، وبيّنت سبب ضلال المشركين، وهو إجرامهم واتخاذهم الهوى إلهاً ومعبوداً من دون الله، **وختمت السورة**: بذكر الجزاء العادل يوم القيامة،

التسمية: سميت سورة الجاثية للأهوال التي يلقاها الناس يوم الحساب الأكبر، حيث تجثو الخلائق على الركب من الفزع في انتظار الحساب كقوله(**وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا**) الآية/٢٨، **فضلها**: عن النبي(ص)(من قرأ حم الجاثية، ستر الله عورته، وسكّن روعته عند الحساب) مجمع البيان٩/١٢٥، **ملاحظة**: هذا الفضل بشرطه وشروطه والالتزام بمنهج الله من شروطه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١-٢-﴿حمٓ، تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾

(**حم**): من الحروف المقطعة، ومن الآيات المتشابهة تقرأ حا، ميم، وهي السورة(**حم**) السادسة من أسرة سور الحواميم السبعة، المتسلسلة في المصحف الشريف،وتقدم الذكر عنها في السور المعنية، ٢- (**تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**)القرآن الكريم كتاب الله، المحفوظ بحفظ الله، وهو حجة الله على عباده، وهو كنز السماء لأهل الأرض، وهو يتحرّك في المشاعر، ويحيي الضمائر المنفتحة بلا استئذان، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فعليها كقوله(لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ)النساء/١٦٦ (**مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ**)الذي لا يُغلب في ملكه، ويقهر كل من يتحدّاه، والقادر الذي لا يعجزه شيء، وهذا يشعر بأن القرآن معجزة خارقة تقهر كل من يتحدّاها كقوله (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ) المائدة/٤٨ (**الْحَكِيمِ**) بكل أقواله وأفعاله، ويضع كل شيء في موضعه المناسب، ويمضي كل أمر بحكمة ومصلحة، وهذا يشعر بأن القرآن يشمل على حِكم بالغة الأهمية، وأنها سبيل نجاة، والسعيد من يصادق كتاب الله تعالى فإنه ذخر في دنياه وآخرته.

٣-٤-﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ، وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾

(**إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**)وروعتهما في النظام والإتقان، لدليل قاطع على وجود المنظّم والصانع لهما المتقن لصنعه، وإن أسرار باطنهما، أنفس وأعمق من ظاهرهما، ولا يدعون العادة تحجب عنهم بدائعهما، فإن العادة والأُلفة للأشياء، آفة المشاعر، وكثيراً ما تحرم الإنسان الشعور بما حوله من العجائب ودقائق الأمور، فيعيش في وسطها وهو جاهل بها غريب عنها! وكلما تفتحت العقول وبحثت ودرست، فتح الله لها من الأسرار ما ينفع الناس، وهذا عالم الاكتشافات والتطورات في كل العلوم كعالم الأقمار الاصطناعية، وعالم الاتصالات (والانترنيت).. وغيرها كقوله (**وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ، وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**) الذاريات/٢٠-٢١، في غرر الحكم (من عرف نفسه فقد عرف ربه)ولكن لمن تعلن هذه الآيات عن نفسها، من الذي يراها ويستشعر بها؟ أنها(**لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ**) فالإيمان هو حياة النفوس، الذي يحرك المشاعر ويحيي الضمائر، ويفتح القلوب ويتقبل العظة ويدرك الأدلة، ويرى ويكشف له أن هذا الوجود أكبر من ظاهره المشهود، وخصّ المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بتلك الآيات والدلالات، فإنهم يستدلون بالمخلوق على عظمة الخالق فيعبدونه وحده دون سواه، **في غرر الحكم** (أفضل المؤمنين إيماناً، من كان أخذه لله وعطاه وسخطه ورضاه (لله)) ٤- (**وَفِي خَلْقِكُمْ**) لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وكرّمه أحسن تكريم، وصنعه في أعقد تركيب

وأتقن صنع كقوله(**صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ**)النمل/٨٨ وإن تركيبه النفسي أشد تعقيداً من تركيبه الجسدي، ومع دقة تلاقح الروح بالجسد، والعقل بالعاطفة.

الإنسان كون مصغّر: **بمعنى**: الإنسان جرم صغير، وكل ما هو موجود في العالم الكبير، يوجد نموذج منه مصغّر في داخل جسم الإنسان وعجائب نفسه، قال الشاعر: **أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر**، ولو استطاع الإنسان أن يبني خلية حية واحدة مجهرية من خلاياه، ولن يستطيع فإنها تعادل بناء مدينة صناعية عظيمة مليئة بالأسرار! وفي هذا وفي غيرها من الخلائق آيات ناطقة، ودلالات على وجود الخالق(**وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ**) وفي ما ينشره الله من دابة تمشي على وجه الأرض التي لا يحصيها إلا الله، من إنسان وحيوان وحشرات.. وغيرها، وما فيها من منافع وخواص ولها حكمة في خلقها وبدائع في صنعها، وكل هذه الآيات ناطقة ولكن لمن؟ ومن الذي يراها ويتأثر بها؟ إنها (**آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**)إنها دلالات واضحات لقوم يطلبون اليقين، بالتفكّر والتدبّر والبحث في مخلوقات الله الكثيرة، **يؤمنون بالعقيدة التي تصل بهم إلى مرحلة اليقين**: وهي مرحلة عالية، ودراية سامية، مبنية على أساس العلم والإيمان والعمل الصالح، وهي منزلة خاصة لأهل الصفوة والنخبة، وهي مرحلة الكشف ومعرفة الأسرار والعجائب والتنسيق مع حركة الأقدار، **واليقين**: علم فوق المعرفة، وأعلى من الإيمان، ودرجة متألقة في الكمال الإنساني، فهي قمة القمم، ونعمة النعم، وليس فوقها منزلة، لذا قلة روادها وندرة أصحابها، فهي منزلة عباد الله الصالحين **في نهج البلاغة خطبة١٩٣ (عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم)**، وهي منزلة شفافة نفاذة كاشفة متألقة تستند على قوة العلم ووضوح الرؤية بلا تشويش، وصفاء الروح وسلامة القلب وعمق الإيمان بلا أدنى شك، والانفتاح على العلوم والبحوث والدراسات الجديدة، وكلما ازداد المرء علماً وحكمة وإيماناً أصبح موقناً، كقوله(**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**)الحجر/٩٩، أي واعبد ربك دائماً وأبداً، وتصاعد في عبادتك وحسن طاعتك مع الله تعالى، ومعاملتك مع الناس، حتى تصل إلى التألق والتسامي والتكامل البشري (**حق اليقين**) أي أعلى درجات اليقين، وبها تدرك الغاية القصوى، **في غرر الحكم**(لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً) **وهناك ثلاث مراحل لليقين**: علم اليقين، عين اليقين، وحق اليقين، **في غرر الحكم** (غاية الدين الإيمان، غاية الإيمان الإيقان، على قدر الدين تكون قوة اليقين)

٥-٦ - ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ، تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾

(**وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**)الليل والنهار ظاهرتان متعاقبتان، تنشآن عن دورة الأرض حول محورها أمام الشمس مرة في كل ٢٤ ساعة، ودورة هذه الأرض حول نفسها بهذه السرعة

المنظمة المستمرة، وهي عائمة في الهواء، سابحة في الفضاء، غير مستندة إلى شيء إلا إلى القدرة الخارقة التي تمسك بها وتديرها بهذا النظام الدقيق العجيب! كقوله (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا) فاطر/٤١ والليل والنهار يختلفان من ناحية الطول والقصر بين الصيف والشتاء، فيكون في كل لحظة من لحظات الكون هناك ليل يبدأ ونهار ينتهي، فكأن الله يُعبد في الوقت الواحد في الكون كله بكل الأوقات، وكأن ألفاظ الأذان للصلاة دائرة في سمع الدنيا كلها في جميع الأزمنة والأمكنة، وفي كل مشرق عند قوم هو مغرب عند قوم آخرين كقوله (**رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ**) الرحمن/١٧، فكما يتعاقب الليل والنهار كذلك تتعاقب القوة والضعف، والعزة والذلة، والصحة والمرض، والخير والشر، والعسر واليسر كقوله(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)الانشراح/٥-٦، ولا يمكن أن تبقى الأمور على أوضاعها، **ودوام الحال من المحال**، فهي في تغيّر مستمر، وإن الله عز وجل وحده الباقي الذي يخلف وينظّم ويدبّر، ولكن تكرار هذا النظام الضخم، وألفة هذه العجائب الدقيقة مما يجعل تأثيرها باهتاً ضعيفاً على النفوس، لشدة الغفلة عنها والغفلة ضلالة، والغفلة من فساد الحس، ودوام الغفلة تعمي البصيرة، ويحذرنا القرآن من مخاطر الغفلة(وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ)الأعراف/٢٠٥ .

(وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا) الرزق: له دلالة عامة، وهو كل شيء علوي له أثر في الحياة وتنمية الحياة، قد يكون هو الماء النازل من السماء، وأنواع الأشعة النازلة من السماء، وغيرها كثير مما لا يحصيه عد ولا يبلغه حساب. فأحيا بالماء الأرض اليابسة الهامدة، فأخرج منها أنواع الزروع والثمرات والنبات، وسمى الغيث رزقاً لأن به يحصل الرزق(**وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ**)

وهي من النعم المنسيّة، معناه تكثير الرياح وتقليلها، وتغييرها وتبديلها وتحويلها وانتقالها من مكان إلى آخر، وقد تكون الرياح عاصفة أو هادئة، حارة أو باردة، صافية أو رملية، نافعة أو ضارة، ورياح خاصة لدفع السحاب، وتلقيح النباتات، وتنقية الجو من الغازات السّامة، وفق نظام دقيق (**آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**)كل ذلك آيات واضحات لقوم يتدبرونها فيعلمون أن لها مدبراً حكيماً قادراً قريباً منّا يستحق العبادة، وخصّ العقلاء بالذكر، لأنه بالعقل يمكن الوقوف على الدلائل والشواهد، فينظرون بعيون عقولهم، ويعلمون ببصائر قلوبهم فيعتبرون ويستقيمون، عن النبي(ص) (يا علي إذا تقرّب الناس لخالقهم بالبر، فتقرب أنت إليه بالعقل تسبقهم)مشكاة الأنوار ص٢٥١ ، ٦- (**تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ**)وحججه وبراهينه الكونية والأنفسية والقرآنية، دلائل لمعرفة الله وتوحيده، وليست آيات محصورة بهذه، وإنما ذكر البعض لتعرف **أن لكل شيء له آية- تدل على أنه واحد (نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ)**نبيّنها عليك يا مُحَمَّد بطريقة ميسّرة واضحة أساسها الحق، لكي تتم الحجة عليهم كقوله(فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) الأنعام/١٤٩، وأسند التلاوة إلى الله، مع ان الذي يتلوها على النبي(ص) هو جبرائيل، وفي هذا تشريف للنبي وللقرآن، ولكن كلمات الله تأخذ طريقها لتؤثر مباشرة في القلوب المتلقية لها، المستعدّة لاستقبالها، فإذا لم

يؤمنوا بهذه الآيات(**فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ**)؟! استفهام إنكاري تقريعي للمشركين، ومن لم يؤمن بهذه الآيات الواضحات، وكل المعاجز العلمية والقرآنية، فلا جدوى بتذكيره ولا ينتفع بتحذيره، وهذا توبيخ لهم من الله سبحانه، ولا أمل في أن يؤمن بسواها، لمرض في نفسه، ومن لم توقظه هذه الدلالات، فلن توقظه المحاضرات والصرخات من غير هذا المنبع الصافي المؤثر، **وأي كلام يبلغ كلام الله في الثبات والوضوح واليقين**، وأي إبداع يبلغ إبداع الله في الكون والكائنات، والجاهل والمعاند وحده هو الذي لا يتأثر ولا يؤمن بالقرآن، **وفي الآية إشارة:**

إلا أن الإيمان المطلوب لا يمكن حصوله في القلب إلاّ بالله وآياته وكتبه ورسله! إنه سبحانه وتعالى يتودد إليكم وهو غني عنكم، فتكون العبودية لله حرية في الأرض، وعزة في النفس.

فائدة: ١- تأتي كلمة (**ريح**) في القرآن مجموعة إلى رياح فهي للخير، وحين تأتي مفردة فهي للهلاك كقوله (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)الحاقة/٦، ٢- **هناك ثلاث مراتب، في ثلاث آيات**، ختم الأولى (**للمؤمنين**) والثانية (**يوقنون**) والثالثة (**يعقلون**) ووجه التغاير بينهما في التعبير، أن الإنسان إذا تأمّل في السماوات والأرض، وأنه لابد لهما من صانع آمن، وإذا نظر في الآفاق وفي بدائع النفوس ازداد إيماناً فأيقن، وإذا نظر في سائر الحوادث كمل عقله، واستحكم علمه، وقويت فراسته كقوله (لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)الحجر/٧٥، **المتوسمون**: المتفرسون، عن النبي(ص)(احذروا فراسة المؤمن! فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله)كنز العمال خبر ٣٠٧٣١.

٧-٨- ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

(**وَيْلٌ**) وهنا لا يليق بمن لا يؤمن ويعاند ولا يستقيم إلاّ الويل والثبور، وهي كلمة تهديد ووعيد(**لِّكُلِّ أَفَّاكٍ**) صيغة مبالغة من الإفك، وهو كثير كذبه، وعظيم افتراؤه، الذي يعتمد الكذب ويتفنن فيه، ويكون خبيراً في قلب الحقائق وعرضها على أنها أصل الصدق، فيتوهّم المقابل أنها هي الصدق (**أَثِيمٍ**) صيغة مبالغة من الإثم، كثير الآثام يرتكب كبائر الذنوب في أقواله وأفعاله أي (المجرم)، ٨- (**يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا**)! وعلامة هذا الأفّاك الأثيم، أنه يصرّ على الباطل، ويستكبر على الحق، ويتعالى على الناس، ولا يقنع بآيات الله، ولا يخضع للحجج والبراهين، ولا يتأدّب بالآداب الّلازمة، بحيث يأنف من الإيمان وأهله ويعتبره لا يليق بمقامه كقوله(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)يونس/٣٩، فكيف يجد الحق له مكاناً في النفوس التي لا تستطيب إلاّ الإثم؟! **في غرر الحكم (أعظم الذنوب عند الله ذنب أصرّ عليه عامله)**وهذا الإصرار على الذنوب لقسوة القلوب، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب، وأبعد الناس من الله القلوب القاسية، وإنما عطفه بـ(**ثُمَّ يُصِرُّ**) لاستعظام الإصرار والعناد، واستغراب ذلك في العقل، وهذه الصورة المستكبرة عامة الدلالة، فهي تقع في كل زمان ومكان، حتى بين من يقال إنهم مسلمون

كقوله(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ) العلق/٦-٧، **في غرر الحكم(لا وزر أعظم من التبجّح بالفجور)** **(فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)** البشارة تستخدم في الخبر السار، وهنا استخدمت البشارة في العذاب، للسخرية والاستهزاء منه والإهانة له كقوله للكفار **(ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)** الدخان/٤٩، ومن كانت هذه صفته، لا فرق بين الكافر الساخر علناً من الحق وأهله، وبين من ادّعى الإسلام والإيمان، ولكن أعماله وتصرفاته تشترك مع الكافر كقوله (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)الأنفال/٢١، عن النبي(ص)(أدنى الكفر أن يسمع الرجل عن أخيه الكلمة فيحفظها عليه، يريد أن يفضحه بها أولئك لا خلاق لهم) البحار٧٨/٢٧٦،
لا خلاق لهم: لا نصيب لهم عند الله.

٩-١٠-﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ، مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا)وإذا فهم بعض العلوم من آيات القرآن**(اتَّخَذَهَا هُزُوًا)**سخرية يستهزئ بها وبكل القرآن لعدم صحّتها في نظره، وهكذا الحسود الحقود على كل فضيلة ومكرمة، ليوهم السذّج والبسطاء من الناس أنها باطل، وهذا أشدّ وأنكى، وهي صورة مكرورة في الجاهليات القديمة والحديثة **(أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ)**يكون لهم شدة في العذاب الجسمي، ومبالغة بالعذاب النفسي، المملوء بالإهانة والخزي والذلة التي تحطّم كبرياءهم، وتتناسب مع شدة سخريته بآيات الله، فيكون العقاب من جنس العمل.

١٠- **(مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ)**جهنم أمامهم، **ولكن يطلق الوراء على كل شيء تواريه وتستره، وراء: اسم يقع على الأمام والخلف،** فما توارى عنك فهو وراءك، خلفك كان أو أمامك، المراد بالوراء الصفة قبل المكان، وهو ما توارى وحجب عنك، لذلك عدّ من معاني الأضداد، لأن **(الوراء)** وما تواريه ومستور عنك وهو أمامك ولا تراه، ومحيط بك، ولا تتقيه لأنك في غفلة عنه، والغفلة ضلالة وهي من فساد الحس، وجهنم بانتظارك، وأنت متوجّه إليها وستقع فيها، لأن جهنم هي التي تحطّم كبرياء الطغاة، كقوله(وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) الكهف/٧٩، وقوله**(إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً)**الدهر/٢٧ **(وَرَاءِهِمْ)**يقال للإنسان إذا لم يهتم بأمر لإعراضه عنه، تركه وراء ظهره، وهو كذلك أقبل على الدنيا، وجعل الآخرة وراء ظهره، وكلمة **(وراء)** تقال لكل شيء خفي على الإنسان وحجب عنه، سواء أكان خلفه أم أمامه ولكنه لا يراه، إن جهنم أمامه تنتظره وهي تعرفه على موعد محدد معه، ولما كانوا مستغرقين في شهوات الدنيا، فكأنهم أهملوا جهنم وجعلوها وراءهم! **(وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا)**لا ينفعهم شيء مما ملكوه وكسبوه في الدنيا من الأموال والجمال وحسن الحال والجاه والأولاد والأنصار **(وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)** ولا ينفعهم ما عبدوا من

دون الله كقوله (وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا) الفرقان/٢٣ **(مَّا كَسَبُوا)**لقد تعوّد الكفّار على الشر حتى أصبح عادة، فصار كسباً بمهارة واقتدار، فكسبوا الشر كما يكسبون الرزق والمال، وليس اكتساباً التي فيها تكلّف وافتعال**(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)** دائم ومؤلم، لأن جرمهم جسيم يقتضي جسامة التعذيب وآلامه ودوامه.

١١-١٢- ﴿هَٰذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ، اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(هَٰذَا هُدًى) إشارة إلى هذا القرآن أنه في غاية الكمال والجمال والجلال، وهو سبيل نجاة، ودستور حياة، ومصدر هداية خالصة، ومنبع دراية صافية، إنه كتاب هداية للتي هي أقوم، ويذكّر بالله واليوم الآخر، وهو يهدي هداية عامة للعوام كقوله**(هُدًى لِّلنَّاسِ)**البقرة/١٨٥، وهداية خاصة للخواص والنخب**(هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)**البقرة/٢، والقرآن كتاب هداية يؤثر في القلوب المنفتحة عليه، وهو الفرقان الذي يفرق ويميز بين الحق والباطل كقوله(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا)الفرقان/١ هداية لا يشوبها ضلال، وحق خالص نقي ليس فيه باطل كقوله**(وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)**فصلت/٤١-٤٢ **والهداية:** الطريق الموصل إلى الغاية المقصودة في أمور الدين والدنيا، وهدى القرآن هو المنهج المستقيم الذي يحملهم إلى طريق الخير، وكأن الهداية واسطة ركوب يركبونها بأمان وسهولة، لتوصلهم إلى الغاية المطلوبة**(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ)**كفروا بالقرآن مع سطوعه، وكفروا بالأدلة الكونية والعلمية والعقلية على وجود الله، كفروا بالآيات أي ستروها، كأن الإيمان أصل في النفوس، وينمو مع الفطرة ثم يأتي الكفر ليستره! **(لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ)** لهم عذاب من أشد أنواع العذاب وأكثرها إيلاماً، **الرجز**: هو الرجس، وهو القذر المكروه من كل شيء، وهي صفة سلبية جامعة للمكاره، وهنا خصص الرجز لأشد العذاب، ١٢- **(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ)**

الإنسان الخليفة سيد المخلوقات، سخر له ما في الكون كله، وقال له سبحانه في حديث قدسي (خلقت الأشياء من أجلك، وخلقتك من أجلي، فلا تنشغل بما هو لك عمن أنت له) خواطر الشعراوي١١٢٩/٢، فذكر البحر المشهود أحد هذه الخلائق المدهشة، فسخّر له السفن العملاقة تطفو على أمواجه، ضمن قانون الطفو المحكم المدبّر والمقدّر، وهذه من النعم المنسيّة! **(وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ)**ولتطلبوا من رزقه وخيره بالتجارات والصناعات والزراعات وأنواع الاستثمارات **(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)** وتحمدون ربكم على تفضله بهذه النعم، فلولا تسخير الله لم يكن لنا طاقة للسيطرة على البحر والاستفادة منه، وبذلك يستحق الله الحمد والشكر. **فائدة:** يعتمد القرآن الكريم في منهجه التربوي على التكرار للمفاهيم المهمة، **لأن التكرار يلفت**

الأنظار، ويعلّم الشطّار كقوله(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا)الإسراء/٤١، **صرّفنا:** كررنا بعدة وجوه لنتفكّر ونتذكّر ونشكر، فإن التفكّر حياة قلب البصير، ويُنير العقول، ويشرح الصدور.

١٣-١٤-﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

سخر الله تعالى لهذا الإنسان المكرّم الخليفة، كل ما في الكون بسماواته وأرضه وخاطبه بقوله(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) الرحمن/٣٣، فعليه أن يكتشف أسرار هذا الكون وخفايا نفسه كقوله(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)فصلت/٥٣، **المعنى: (وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ)**الكون لا نهاية له كقوله(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) الذاريات/٤٧، وقد تعرفنا شيئاً عن السماوات والأرضين، ولكن يبقى ما هو مجهول عنا هو الأكثر، والعلم الحديث يكشف لنا أشياء جديدة بين حين وآخر كقوله(وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)يوسف/١٠٥ **(جَمِيعًا مِّنْهُ)**فإذا كانت جميع النعم من الله عز وجل وحده لا شريك له، وفي ذلك دليل على التوحيد، فلماذا يعرض الإنسان عن الله تعالى ويلجأ إلى غيره ويعتمد عليه؟! وذلك بسبب ضعف الإيمان، **وإذا ضعف الإيمان أعرض عن الرحمن، واقترب من الشيطان،** وتعلّق بالدنيا التي هي رأس كل خطيئة، أعرض عن مصيره في الآخرة! **(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** فإن التأمل والتفكّر هو الذي يقود إلى الإيمان بالله تعالى، وإن فيما ذكر لِعبراً وعظات لقوم يتأملون في بدائع صنع الله، فيستدلون على قدرته وإتقان صنعته، وأنه إله واحد ويؤمنون بتوحيده، وهو المستحق للعبادة وحده دون سواه، ويوفقون لشكرها، ١٤- **(قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ)**إنه توجيه قرآني كريم له دلالة تربوية دقيقة للذين آمنوا خصوصاً ليتسامحوا وليصفحوا الصفح الجميل، والتسامح الجليل والتجاوز عن أذاهم، ومغفرة الزلاّت، والدفع بالتي هي أحسن.

لعلّ هذا يرتدع إن كان أصيلاً كقوله **(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا)** الفرقان/٦٣، السلام طبيعة الإسلام وصفة المؤمنين كقوله (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) الزخرف/٨٩، عن النبي(ص)(إنّ الرفق لم يوضع على شيء إلاّ زانه، ولا نزع منه شيء إلاّ شانه)البحار٧٥ ص٦٠، والرفق لا يلائم اللئيم بمقدار ما يرفع من الكريم كقوله(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)التوبة/٧٣، **في غرر الحكم (اخلط الشدة برفق، وارفق ما كان الرفق أوفق)**عن الإمام علي (ع) (إذا كان الرفق خرقاً، كان الخرق (الغلظة)رفقاً، ربما كان الدواء

داءً، والداء دواءً!) **نزلت هذه الآية** في أول ظهور الإسلام في مكة، حيث لا قوة داعية للمسلمين، ولا وسيلة مانعة للمستضعفين، إلاّ وسيلة الصمود والثبات على العقيدة، والصبر على الأذى في سبيلها(**بالصبر تدرك الرغائب**) حتى يأتي نصر الله والفتح المبين، وقد علمتنا التجارب أن مقاومة الضعيف تأتي دائماً لمصلحة القوي، ولذا قيل(**من لم يصبر على كلمة سمع كلمات**)(**لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ**)وأضاف الأيام إلى الله، كبيت الله، كل الأيام أيام الله، أما تخصيص(**أَيَّامَ اللَّهِ**)للدلالة على أهميتها وعظمتها، كقوله(وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ)إبراهيم/٥، (**أَيَّامَ اللَّهِ**) أيام خاصة مميزة تسمى أيام الإسلام، وهي أيام فيصلية مؤثرة شهدت تحوّلات كبرى في المسيرة البشرية، وتطلق على أيام النعمة والرفعة، وعلى أيام النقمة والانكسار (**لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**)إنه تهديد ووعيد، أي ليجزي الكفرة المجرمين بما اقترفوه من الإثم والاجرام، وتنكير قوم للتحقير! **سبب نزول الآية ١٤**: كان المؤمنون إذا رأوا كفّار مكة، وهم يبالغون في إهانتهم للنبي الكريم(ص)واستهزائهم بآيات الله، لم يتمالكوا أنفسهم دون أن يدافعوا عن النبي(ص)وعن القرآن، ويواجهوا الكفّار رغم ضعفهم وقلتهم، **فنزلت الآية**، تأمرهم بالكف عن مواجهتهم، لأن قواهم الآن غير متكافئة. وهكذا يكون القائد المؤيد والرسول المسدد، أن يقف الموقف المناسب، ويتكلم الكلام المناسب، في الزمان المناسب، في المكان المناسب، ويخاطب الناس المناسبين.

١٥ –﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

يُصور القرآن صورة دقيقة واضحة لحال الإنسان، أنه مثلما تزرع تحصد، ومثلما تعمل تجازى، ولا شيء يذهب سدى، والإنسان هو المسؤول عن بناء مستقبله الدنيوي والأخروي، وهناك نظام دقيق يحدد فردية التبعات، وعدالة الجزاء كقوله(**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**)المدثر/٣٨، وقوله(وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ)الأنعام/١٦٤ في غرر الحكم(المرء حيث يضع نفسه) **المعنى**: (**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ**)لأن أعمال الإنسان مسجلة عليه لا تذهب سدى، بل تحفظ له أو عليه، من عمل صالحاً نافعاً من طاعة لخالقه وإحسان إلى الناس، فخيره وثوابه يرجع إلى نفسه كقوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)البينة/٧، (**وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا**) ومن أعرض عن منهج ربه وتجاوز حدوده، واعتدى على الناس، وقع ضرر إساءته على نفسه في الدنيا قبل الآخرة.

(**ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ**)ثم مرجعكم الأخير إلى يوم القيامة، والمصير النهائي إلى الله وحده، فمنه البداية وإليه النهاية، وما بين البداية والنهاية، فالله تعالى محصي كل شيء، ولا يخفى عليه شيء كقوله(لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) النجم/٣١، والعدل الإلهي دليل على المعاد كقوله(**وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ**)فاطر/١٨، أما ما الذي يجعلنا

نلتقي مع ربنا ليحكم بيننا، فهو الموت الذي يختم الدنيا ويفتح باب الآخرة، فهو أول عدل الآخرة، كقوله(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)الملك/٢.

١٦ -﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

(وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ)وأقسم لقد أعطينا بني إسرائيل التوراة والانجيل، وهما شريعة الله، فيهما هدىً ونور **(وَالْحُكْمَ)**والقضاء بين الناس، في أيام داود وسليمان لإقامة شريعة الله **(وَالْحُكْمَ)** من الحكمة والعلوم والمعرفة**(وَالنُّبُوَّةَ)**إذ كثر فيهم إرسال الأنبياء، كما كثر عند المسلمين العلماء، عن النبي (ص)(علماء أمّتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل) **(وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ)**وأنواع اللذائذ والنعم والمآكل والمشارب، وأنواع الرزق، ولما كانوا في التيه أرسل لهم المن والسلوى، فلم يقدّروا النعمة ولم يشكروا المنعم**(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)وفضلناهم على سائر الأمم في زمانهم**، لأن زمانهم كان كله وثنية وشرك، وهم آمنوا بالله وبرسوله موسى، فكانوا أفضل ممن عاصروهم، وفضلناهم ليكونوا أمام اختبار كبير كقوله (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ)آل عمران/١٥٤، بنو إسرائيل يفتخرون بأنهم أكثر الأمم أنبياء، وهذه شهادة ضدهم، لأنهم أكثر الأمم عناداً وفساداً، **هذه الآية يتشدق بها اليهود ويتكبرون، ويسمون أنفسهم شعب الله المختار**، ويجيبهم القرآن(فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ)المائدة/١٨، ليس في خلق الله من تفاوت وتفاضل وتمايز كقوله (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)الحجرات/١٣.

وهذا التفضيل (**تفضيل نعمة لا تفضيل قيمة)**هو تفضيل لاختبارهم وابتلائهم وإلقاء الحجة عليهم لا لافتخارهم، كقوله(فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ) الأعراف/ ١٢٩ وقوله(لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) النساء/١٢٣، وهذا الابتلاء كشف عن نفوسهم اللئيمة وقلوبهم القاسية وطبائعهم الشرسة، كما يكشف الغيث المنزل من السماء عن نوع الأرض التي يصيبها، فإذا هي مستنقع متعفن يؤذي الناس كقوله (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) الأنبياء/٣٥، عن الإمام الصادق(ع)**(ما من قبض ولا بسط إلاّ ولله فيه مشية وقضاء وابتلاء)**التوحيد ص٣٥٤ كما فضل الله المسلمين وأكرمهم واختارهم وابتلاهم بالنعمة ليكونوا خير الأمم، بشرط حملهم الإسلام كقوله(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) آل عمران/ ١١٠ وقوله(هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)الحج/٧٨، ليس المقصود تفضيل بني إسرائيل على الإطلاق بلا حدود ولا قيود، وإنما تفضيلهم عندما منحهم عوامل التفوّق، ليختبرهم بالإنعام ويلقي الحجة عليهم، لتظهر أفعالهم شكراً أو كفراً، وقد ظهرت كفراً وغدراً حتى لعنهم الله وغضب عليهم(وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ) المائدة/٦٠، وعندما خانوا الرسالة، وفشلوا في الامتحان شتتهم الله في الأرض أمماً متناثرين كقوله**(وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ**

دُونَ ذَٰلِكَ) الأعراف/١٦٨، وحاولت الصهيونية الملحدة أن تقيم لهم دولة وكياناً على باطل، ولكنه كيان خبيث مجرم ليس له مقوّمات البقاء ولابد أن يزول، لأنه كيان غريب كغدة سرطانية في وسط المجتمع الإسلامي، ولا يمكن التطبيع مع هذا الورم السرطاني الخبيث كقوله(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا)الإسراء/١٠٤، **عن النبي(ص)**(لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود)

١٧ - ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

(وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ)وأعطيناهم كل ما يحتاجون إليه من دلالات واضحات، وشريعة مباركة لا غموض فيها، ومعجزات قاهرة تزيل عن الحق كل شك وريب، وذكر النبي مُحَّد(ص) الموعود بصفاته في التوراة والأنجيل كقوله**(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ)**الصف/٦، وأقام عليهم الحجة القاطعة التي لا تدع وسيلة للاختلاف في هذه الشريعة الهادية، ومع ذلك اختلفوا **(فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ)**وعندهم العلم الموجب للاتّفاق وعدم الاختلاف، لكنهم لم يختلفوا في أمر الدين، وفي أمر النبي مُحَّد(ص) ولا اختلط بينهم الباطل بالحق بسبب غموض أو شبهة أو جهل، وإنما أوجد الاختلاف علماؤهم**(بَغْيًا بَيْنَهُمْ)**من عقدة سببها نوازع البغي والعداوة والكراهية والظلم والعناد والنزاع والهوى، وحبّ الدنيا والحسد والحقد، وطلب الرئاسة والزعامة والصدارة، وخافوا أن الرئاسة قد تؤخذ منهم، عندئذٍ يتحول العلم إلى حالة شيطانية باغية لئيمة تفرز العداوة والبغضاء، وتخدم المواقع الاجتماعية والوجاهات والزعامات، فصار عندهم الدين لطلب الدنيا، والدين لعقاً على ألسنتهم، وأعظم البلايا المصيبة بالدين، في غرر الحكم (لا يترك الناس شيئاً من دينهم لإصلاح دنياهم إلاّ فتح الله عليهم ما هو أضرّ منه)! كقوله**(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)**الأنعام/١٥٩، وقوله (فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) المؤمنون/٥٣ عن النبي(ص)(ما اختلفت أمة بعد نبيّها(أي عن علم)إلاّ ظهر أهل باطلها على أهل حقّها إلاّ ما شاء الله)أمالي المفيد ص١٣٨، فذهبت هيبتهم وضعفت قوتهم وزالت دولتهم، وانتهى تفضيلهم واختبارهم، وانتهت قيادتهم في الأرض، كقوله(وضربَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّه) آل عمران/١١٢، **والمقصود من الآية:** التعجّب من هذه الحالة الغريبة، والتحذير الشديد منها، **لأن العلم يوجب الوفاق، وههنا صار العلم سبباً للاختلاف، لأنه لم يكن قصدهم طلب العلم، وإنما هدفهم اتباع مصالحهم وأهوائهم، وطلب الشهرة والثراء باسم العلم والدين** كقوله(مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا)النساء/٤٦، عن النبي (ص)**(ويل لمن طلب**

الدنيا بالدين)كنز العمال خبر ٢٩٠٩١، في غرر الحكم(العلم بغير العمل وبال، والعمل بغير علم ضلال) **(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)**إنّ ربك يفصل في خلافاتهم ويحاسبهم عليها بما يستحقون يوم القيامة، الآية تحذّر المسلمين مما وقع فيه أهل الكتاب من الفرقة والتناحر، **في نهج البلاغة خطبة ٨٦**(السعيد من وعظ بغيره، والشقي (من الشقاء والعناء) من انخدع لهواه وغروره)

١٨ -﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

لقد منّ الله عليك بالقرآن الكريم، ومنّ بالقرآن على المؤمنين، وهو بمنهجه وشريعته وأحكامه كافٍ وافٍ، فتمسك بالقرآن أنت ومن اتّبعك، والقرآن والسنة الصحيحة هما الثقلان الأمينان المحفوظان، والحافظان من ظلمات الجهالة، والمنجيان من حيرة الضلالة، ودع من ضلّ وعاند بعد أن تقيم الحجة عليهم، عن النبي(ص)(إني تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، وأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)صحيح الترمذي٣٠٨/٢، وعنه (ص)(إنما مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق)كنز العمال خبر٣٤١٥١

المعنى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ)

ثم جعلناك يا مُحَمّد على طريقة مستقيمة سديدة خاصة واحدة وموحدة ومميزة، وعلى منهج قيم معتدل رشيد، يتناسب مع فطرة الإنسان، وهي الشريعة الإسلامية السهلة السمحة الكاملة الخاتمة التي تهدي للتي هي أقوم، في برنامج ينظم حياة الإنسان، ولا يحتاج الإنسان معه إلى نظريات وضعية، **فيوازن الإسلام له بين متطلبات الروح والجسد، والحياة والموت، والإيمان والعلم، والدنيا والآخرة، والأمل والعمل، وهذا التوازن تفتقده كل المبادئ الوضعية**، وهذا لا يستدعي إلى الانعزال عن ثقافة الآخرين وحضاراتهم وتطوراتهم، ولكن الإسلام يريد من المؤمن أن يقف على قاعدة صلبة من دينه، ثم يطّلع على كل جديد ومفيد من ثقافة الآخرين، ليبقى القرآن له دستور حياة وسبيل نجاة، وهو الفرقان الذي يفرق ويميز بين الحق والباطل كقوله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا)الأنفال/٢٩، في غرر الحكم(**للمتقي:** هدى في رشاد، وتحرّج عن فساد، وحرص في إصلاح المعاد) **الشريعة:** الطريق الموصل إلى الماء، والماء هو أصل الحياة، وتشبيه الشريعة الإسلامية بمورد الماء، لأنها يرد منها الناس إلى رحمة الله والقرب منه والتزود من منهجه، لحياة الأبدان ولاستقرار الأرواح كقوله(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)الأنفال/٢٤، روح الأديان السماوية واحدة، وإن كان برنامجها العبادي مختلفاً، وجاءت (**شَرِيعَةٍ**)نكرة، للدلالة على وجود طرقٍ متعددة للوصول إليها، ولكن وردت (**مِّنَ الْأَمْرِ**) معرفة، أي أن كافة الطرق للشريعة ترجع إلى أمر إلهي واحد! أي دين الله

واحد (**فَاتَّبِعْهَا**) إنا أفردناك بلطائف فاعرفها، وخصصناك بحقائق فأدركها، وسننا لك طرائق فاسلكها، وأثبتنا لك الشرائع فاتبعها، ولا تتجاوز عنها(**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**)ولا تحتج إلى متابعة مناهج البشر الجاهلين الذين يكون إلههم هواهم، لأن الهوى إله معبود من دون الله، والهوى شريك العمى كقوله(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا)الفرقان/٤٢، فهناك فوارق كثيرة وكبيرة بينكما، ومن هذه الفوارق إن اليهود غيّروا التوراة اتّباعاً لهواهم ولرغبات عوام الناس حباً للرئاسة، وإن كل حكم عملي لم يستند إلى القرآن والسنة الصحيحة، فهو هوى من أهواء الذين لا يعلمون، عن ابن عباس:

(**ما خالف القرآن فهو من خطوات الشيطان**)الدر المنثور١/١٦٧ فهم لا يغنون عنا من الله شيئاً. وهذا الخطاب للنبي(ص)والمطلوب أمته، عن الإمام الصادق(ع)(إنّ الله بعث نبيه بإيّاك أعني واسمعي يا جارة)البحار٩٢/٣٨١ كقوله(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ)الأحزاب/٢، وهذا درس مهم لنا لنتعلم منه قاعدة مهمة(**إذا لم نتبع فنبتدع**)! **عن النبي(ص)** (شر الأمور محدثاتها، ألا وكل بدعة (في الدين)ضلالة، وكل ضلالة ففي النار)أمالي المفيد ص١١١، ومن ضاق عليه الاتّباع فالابتداع عليه أضيق! ومن توجّه لوجه واحد يكفيه الوجوه كلها.

١٩ -﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾

(**إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا**)لا خير ترجوا من الملحدين المعاندين، ولا أمل في هدايتهم، لأن الذين لا يعلمون (كما في الآية ١٨)لن ينفعوك شيئاً بل يضروك ولن يدفعوا عنك من الله أي سوء في الدنيا ولا في الآخرة(**وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**)ينصر بعضهم بعضاً، ويتبعون مصالحهم الخاصة، وأهواءهم الشخصية من دون هدى من الله، ولا يتبعهم إلاّ من كان مثلهم، وشبيه الشيء منجذب إليه، لأنهم يشتركون بمنطق ظالم يجمعهم، ومصالح فاسدة تربطهم، ويتعاونون على الإثم والعدوان، وهم متّفقون على معاداتك، ومآلهم إلا الخسران والحرمان ولو بعد حين، كقوله(وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)البقرة/٢٥٤، وقوله(**وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**) الأنفال/٧٣، وقوله(الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ)التوبة/٦٧، وقوله(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)التوبة/٧١، وهم لا يملكون أن يضروك شيئاً حين يتولى بعضهم بعضاً(**وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ**) فلا تشغل قلبك بتناصرهم ضدّك وتعاونهم عليك، فإن الله معك وحافظك وينصرك عليهم في كل المواقع، لأنه ولي الصالحين ومعتمد المؤمنين، ولا تقاس ولاية الله ونصرته من ولاية الظالمين ونصرتهم، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن كان الله معه فمن عليه؟ ومن كان الله عليه فمن معه؟ كقوله(**إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا**)الحج/٣٨.

٢٠ -﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

(**هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ**) إنه تعبير قرآني جميل وجليل وشفاف يدخل إلى المشاعر، ويحرك الضمائر بلا استئذان، **البصائر**: جمع بصيرة، وهي النور الذي به تبصر النفوس المعقولات وعالم المعنويّات والكشوف لتصيب الواقع وتحسن التعامل معه، كما أن البصر نور به تبصر العين المحسوسات والماديّات، وصف الله سبحانه كتابه الحكيم، القرآن الكريم بأنه بصائر القلوب النافذة النافعة في جميع الأمور، بصائر هداية، ومنابع دراية ومعرفة وتحقق، تنير لنا الطريق المظلم، وتكشف لأصحابها الحقائق المهمة المؤثرة التي تخفى على غير المؤمنين، فتكون البصائر للقلوب بمنزلة الروح للجسد تبعث فيه الحياة! كقوله (**قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ**) الأنعام/١٠٤، **في نهج البلاغة خطبة١٧٦**(إنّ فيه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والغي والضلال) (**بَصَائِرُ لِلنَّاسِ**)تعبير بديع بليغ نفّاذ، يوحي بعظمة القرآن وقوة تأثيره في النفوس، بمجرد الانفتاح عليه والثقة به، فإن هذا القرآن منهج الحق(**والإسلام دين الله القيم**) فيه دلائل تبصّر الناس وتُضيء لهم سبيل الخير والصلاح، وتعلّم الصالحين طريق النجاح والفلاح، فهي تفتح عقولهم وقلوبهم نحو آفاق سامية، تعرّفهم فلسفة الحياة، وقيمة الوجود على أنه أكبر من ظاهره المشهود، وتدلّهم على الصراط المستقيم، عندما يتخذونه وسيلة معتمدة للإبصار.

والبصيرة: قوة معنوية تكشف العجائب، فترى الأسرار، وتعرف الحقائق، وتنسّق مع الأقدار، وهي من قوى الادراك المستنير المشرق، الذي يرى ما وراء المرئيات، وتغوص البصيرة في أعماق النفوس فتصل إلى مواقع التأثير، فترى الحقّ حقاً والباطل باطلاً بلا تشابه ولا التباس، وبمقدار قوة الإيمان تقوى البصائر(**وَهُدًى**)والقرآن كتاب هداية، وأهم مصدر للدراية، ويوصل إلى الحق وإلى صراط مستقيم بأسهل الطرق وأقصرها وأضمنها، (**وَرَحْمَةٌ**)التأييد والتسديد إلى كل خير وصلاح، عن النبي (ص) (تعرضوا لرحمة الله بما أمركم به من طاعته) تنبيه الخواطر ص٣٦٠ (**لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**)لقوم يبحثون عن الحقيقة بصدق، ويطلبون اليقين بعلم وإيمان، وعلى قدر الدين تكون قوة اليقين، كقوله(**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**)السجدة/٢٤، **في نهج البلاغة خطبة ١٥٧** (باليقين تدرك الغاية القصوى) **واليقين**: درجة عالية ومنزلة سامية، لا يقترب إليها الشك أو الاشتباه، فيكون اليقين أفضل عبادة وأجمل سعادة، في غرر الحكم(غاية الدين الإيمان، غاية الإيمان الإيقان) وأهل الإيقان هم المنتفعون بالقرآن، المصدّقون بوعد الله ووعيده، بدرجة عالية تعتمد العلم والبحث والدراية الواعية والهداية الرشيدة، نحصل من ذلك أن القرآن يستفيد منه كل بحسب إيمانه وعلمه ووعيه ومستواه.

٢١ - ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

الآية الكريمة في حديث تربوي عام، تبيّن قيم العباد في ميزان الله تعالى، وفي نظر العقل، أنهما ليسا سواء في كل شيء، في محياهم ومعاشهم ومعاملاتهم ومماتهم وما بعد مماتهم، يفرّق الله سبحانه بين من يعمل الحسنة، ومن يقترف السيئة، ويستنكر التساوي بينهما، لأن التساوي ظلم وليس عدلاً، والحق أصيل في تصميم هذا الوجود، وفي الحق وحده تتحقق التفرقة بين المصلحين والمسيئين، وبين المظلومين والظالمين.. في جميع الأحوال كقوله(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)القلم/٣٥-٣٦، وقوله(أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)ص/٢٨، **المعنى: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ)** الاستفهام إنكاري للتوبيخ، **اجترحوا:** اكتسبوا واقترفوا وطلبوا السيئات وقصدوا فعلها عن علم وتصميم، **الاجتراح:** أصله من الجراح المؤذية نتيجة اعتداء، التي يصل ضرر الجراح إلى البدن، الذي يوقع صاحبه تحت حكم القصاص منه كقوله(**وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ**) المائدة/٤٥، وكذلك السيئات والذنوب فإنها تجرح النفس وتخدش الأخلاق والفضائل والقيم والمبادئ، وبتكرارها تعمي البصيرة وتقسّي القلوب، **والاجتراح** منه الجوارح لأعضاء البدن الكاسبة للافعال، أي لا يستقيم في عدل الله تعالى أن يستوي مصير الطيب والخبيث، والمحسن والمسيء كقوله(قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ)المائدة/١٠٠ **(أَمْ حَسِبَ)**بل ظن الذين اكتسبوا المعاصي والآثام **(أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)**أن نجعل موتهم وحياتهم كحياة المؤمنين الصالحين وموتهم، ومنزلة هؤلاء كمنزلتهم.

في غرر الحكم(**الموت أول عدل الآخرة**)كقوله(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) الزمر/٩، نلاحظ يقضي الظالم حياته ويموت دون قصاص، ولا يمكن أن يتساوى الظالم والمظلوم، والجزاء يوم القيامة لاحقاق الحق واعطاء الحقوق لأهلها، وإلّا كان خلق الكون عبثاً وباطلاً كقوله(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)المؤمنون/١١٥، لا يمكن أن نساوي بين المؤمنين والكافرين لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا في معيشتهم ولا في قبورهم، وشتان بينهما، وما أبعد بينهما كبعد السماء عن الأرض، كقوله(**أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ**) السجدة/١٨، عن الإمام الصادق(ع) (يعيش الناس بإحسانهم أكثر مما يعيشون بأعمارهم، ويموتون بذنوبهم أكثر مما يموتون بآجالهم)البحار٥/١٤٥ **(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)** ما أسوأ حكمهم وأبعده عن الصواب، لأنه حكم جائر منافٍ للحق وللعدل، فكما لا يجتني من الشوك العنب، كذلك لا ينال الفجّار منازل الأبرار. **فائدة: سبب النزول:** إنّ عتبة وشيبة

والوليد بن عتبة، قالوا لعلي وحمزة وجمع من المؤمنين، والله ما أنتم على شيء، ولو كان ما تقولونه حقاً لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة، كما هو أفضل في الدنيا، فنزلت الآية، المراغي ٢٥/١٥٤.

٢٢ -﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)فيكون كل ما خلق الله في هذا العالم مبني على الحق والعدل والخير، فلا باطل فيه ولا عبث ولا لعب بل لحكمة ومصلحة عامة، وغاية سامية وهدف نبيل، وهي أن يتعرّف الإنسان على الله ويعبده وينال أجره وثوابه ويدخله الجنة، **فخلقنا لنربح عليه لا ليربح علينا، والحق**: الثابت في ذاته، والمثبت لغيره، لأنه الثابت الصالح الذي لا يتغيّر، فهو قمة القمم ونعمة النعم، **والحق**: هو الغاية التي يريد القرآن تقريرها في النفوس كما قررها في الكون، فإن كنتم تريدون أن تستقيم أمور حياتكم فخذوا الموازين التي أمر الله بها بالحق، فالأمر ما دام قائماً على الحق، فيكون المعاد حقاً، فلابد أن تتحقق العدالة في الجزاء، فكان الأمر كله بالحق، وإظهاره ومعرفة الناس به، والعمل على ضوئه، فهو بذاته حق، وبقضائه حق، وبأسبابه حق وبنتائجه حق وبأهدافه حق، ليدل من خلال مخلوقاته على قدرته سبحانه وتثبيت توحيده كقوله **(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ)**المؤمنون/٧١ وقوله(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)الأنبياء/٢٢، والخلق بالعدل يقتضي المعاد**(وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)** وما تستحقه بعملها إن كان خيراً فخيراً وثواباً، وإن كان شراً فشراً وعقاباً، لإحقاق الحق وإزهاق الباطل عن الناس أجمعين، في غرر الحكم(المرء حيث يضع نفسه)وليس ذلك في هذه الحياة الدنيا ولكنها في حياة أخرى خالدة، وتبقى الحياة لغزاً مبهماً لولا أن يحله الإيمان بالمعاد إلى يوم الآخر. وصار**(يوم القيامة ميزان دقيق، فمن وفّى، استوفى)(وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)**كقوله(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)الكهف/٤٩، **في غرر الحكم**(كل امرئ يلقى ما عمل، ويجزى بما صنع)

٢٣ -﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

(مدخل) التعبير القرآني البلاغي الفني المبدع المؤثر في الآية الكريمة، يرسم نموذجاً عجيباً للنفس البشرية المختارة، ويستغرب منها ويذمّها في استنكار شديد، وتقريع مديد وخطير، يذمّها حين تترك الحق الواحد الموحّد المتّحد، وهو الأصل الثابت الذي فيه السّلامة والكرامة، وتتبع الهوى المتغيّر المتقلّب الذي في عاقبة أمره الندامة والملامة، حين تجعل هواها (ميولها ورغباتها) هو مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها، **وتقيمه إلهاً مطاعاً قاهراً لها مستولياً عليها ويتحكم بها، وهي تخضع** له وتتلقّى أوامره المتقلبة ونظراته المتسرّعة الفاسدة، التي ظاهرها يسرّ

ويغرّ وباطنها يضرّ، تتلقى نفسه هواها بالطاعة والقبول والتسليم، وكأن هوى النفس صنم معنوي خطير يُعبد، وإله مرير يطاع من دون الله ويتم الانقياد له، وهو من أبغض الآلهة إلى الله عز وجل، لأنه يخدع الإنسان ويفتح الطريق أمام الشيطان، **فهو يدعم النفس الأمارة بالسوء، ويقمع النفس اللّوامة**، إنه موضع هابط وحالة مزرية، أن يتّخذ الإنسان هواه ورغباته وشهواته ولذّاته.. معبوداً له متعلقاً به من دون الله، فيتوجه بكل طاقته مع هواه وطبائعه وميوله، ولا يجعل لخالقه ورازقه نصيباً من حياته! **أرأيت جهلاً أقبح من هذا الجهل؟! وضلالاً أفظع من هذا الضلال؟!** كقوله(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)الصف/٥، **المعنى: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ)؟** إنه الدرس القرآني التربوي عالي المضامين، ليلفت النظر ويحرّك العِبر، ويثير الانتباه لمخاطر الهوى وحبّ الأنا وكيفية التخلّص من مرارتهما، وعادة الاستغراق في اتباع الهوى، ويُضيّع الاستحقاق في معرفة الهدى، **أفرأيت:** ألم تعلم، ينبغي أن يكون علمك قطعياً كأنك تراه بعينك، الاستفهام للتعجب والسخرية والاستهزاء من هذا الضال المضل الذي يعبد هواه، **أي ألم تعلم يا مُحَّد عن حال من ترك عبادة الله الواحد، وعبد هواه ومناه،** فهو يميل مع رغباته وشهواته وطبائعه وعاداته، ويتّبع ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء، فكأنه يطيع نفسه طاعة كما يطيع ويعبد الرجل إلهه المعنوي وصنمه المادي والشيطان الرجيم كقوله(الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ) مُحَّد/٢٥، وهذا حال من نسي الله فأنساه مصلحة نفسه كقوله(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ)الحشر/١٩، عن ابن عباس: ما ذكر الله **(هوى)** في القرآن إلاّ ذمه.

كقوله (وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا) الكهف/٢٨، عن النبي(ص)(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)المراغي١٥٦/٢٥، أي من الناس من لا يؤمن بشيء إلاّ بنفسه ومصلحته، وقد يصلي ويصوم ويحج.. ما دام ذلك لا يزاحم شيئاً مما يهواه، **فهواه مناه وهو المعبود الحق عنده، وما عداه عادة لا عبادة،** الإله: المعبود المطاع الذي تعيش حياتك لخدمة مراده، وقد يكون معبوداً بحق، ومعبوداً بباطل، وهي عبادة **(الهوى)** فيدخل الشيطان منه إلى النفس الأمارة بالسوء ويحرّضها على المنكر كقوله(وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)الأنعام/٤٣، ويغلق الطريق أمام وسائل الهداية، ويكون نداً لله تعالى **والهوى:** ما تهواه نفسه الأمارة بالسوء، وإنما سمي الهوى لأنه يهوي بصاحبه في النار كقوله(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ)ص/٢٦، عن النبي(ص)(ما عبد تحت السماء إله أبغض إلى الله من الهوى) !القرطبي٥٩٨٧/٩ عن الإمام الصادق(ع)(إحذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيئاً أعدى للرجال من اتّباع أهوائهم ومصائد ألسنتهم)الكافي ج٢، باب اتباع الهوى الحديث١، عن النبي (ص) **(أخوف ما أخاف على أمّتي اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتّباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول**

الأمل فينسي الآخرة)البحار ٧٠ ص٧٥(**وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ)** لأن هذا المغرور يعلم بأن له إلهاً يجب أن يعبده وهو الله الخالق سبحانه، ومع ذلك فهو يبدله بهواه!، فيجعله مكان الله ويعبده من دون الله، فيخضع له ويطيعه في كل ما يأمر، فلذلك (**وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ)**أي أهمله وخذله وتركه مع رغباته وشهواته، لعلمه سبحانه باستحقاقه لذلك لخبث سريرته وعلمه بالحقيقة، فهو يعرض عن الحق كبرياءً وعناداً.

كقوله(**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)**النمل/١٤، وقوله(فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) الجاثية/١٧، لأن الله يشرّع الأحكام، ويترك التنفيذ لإرادة الإنسان المختار المكرّم الخليفة، حرصاً على حريته، ثم يحاسبه على هذا الاختيار وهذه الحرية، عن الإمام علي(ع)في قوله (**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)**البلد/١٠ (إنّ الله أمر بطاعته وأعان عليها ولم يجعل في تركها عذراً، ونهى عن المعصية وأغنى عنها ولم يجعل في ركوبها عذراً)! في غرر الحكم (**غيّروا العادات تسهل عليكم الطّاعات) (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ)**وأسند الإضلال إلى الله سبحانه، والله لا يضل أحداً، كيف وقد نهى سبحانه عن الضلال، وتوعّد بالعقاب عليه، ولكن من سلك طريق الضلال مختاراً تلبية لهواه فلا يلومن إلاّ نفسه، ولكنه ألقى الله الحجة عليه وهو أصرَّ على الضلال وعاند على الفساد، فتحوّل علمه إلى جهل يعميه كقوله(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ) التوبة/١١٥، عن الإمام الصادق(ع)(**إن الله عز وجل احتج على الناس بما آتاهم وما عرّفهم)** الكافي١/ ١٦٣ .

(**وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ) الختم**: الإغلاق، وذلك بأن أغلق منافذ سمعه، وأغلق مداخل قلبه، وعطّل أجهزة الاستقبال عنده والتأثير عليه، بحيث لا يؤثر فيهما وعظ ولا نصح! ولا يتفكّر في آيات الله وحججه، فأحبّ العصيان وكره الإيمان، فتركه الله على ما يحب ويختار كقوله(وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)الأنعام/١١٠ (**وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً) الغشاوة**: ما يغطي العين عن الإبصار والإدراك، وتنكيرها لتعظيم الحالة ومخاطرها، وجعل على بصره غطاءً وحجاباً فلا يبصر الرشد، ولا يرى حجة يستضيء بها، فهذه الغشاوة تمنعه من الاستبصار والاعتبار، فيكون كأنه أعمى كقوله (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) الحج/٤٦، عن النبي(ص)(شرّ العمى عمى القلب) البحار١١٤/٧٧ وهكذا من ضاق عليه الحق فالباطل عليه أضيق (**فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ)** لا أحد يمكن أن يهديه من بعد الله كقوله(**قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ)**البقرة/١٢٠ بعد أن تركه وما يرغب لنفسه من الضلالة وحيرة الجهالة، ولم يجد له ولياً مرشداً، كقوله(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً) الفرقان/٤٣، **في نهج البلاغة خطبة ٣٢**(اتّعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتّعظ بكم من بعدكم)(**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)** في حاله فتتذكرون وتتفكرون وتتعظون بهذه المواعظ الجليلة؟ أفلا تعتبرون أن هؤلاء

لا سبيل لهم إلى الهدى مع اتباع الهوى فتتعظون؟ والاعتبار يقود إلى الرشاد كقوله(**فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ**) الحشر/٢ (**أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**)من تذكّر صحا وتنبه وتخلّص من حكم الهوى وحبّ الأنا، وعاد إلى الرشد والنهج المستقيم الصالح الواضح، لذلك صار التفكّر عبادة وأحسن عادة، فهو يُنمّي العقل، ويصفّي الفكر، ويشرح الصدر، في غرر الحكم(فكر المرء تريه حسن عمله من قبحه)ومن لم يتفكّر فيقوده الذين يفكرون.

فائدة:١-(**الخلاصة**)**وصف الله تعالى من يعبد هواه من دون الله بأربعة أوصاف متصلة، وكل وصف منها مقتضٍ للضلالة**، فلا يمكن إيصال الهدى إليهم بوجه من الوجوه، ١-عبادة الهوى والأنا، ٢- ضلالهم على علم وإصرارهم على الخطأ، ٣-الطبع على أسماعهم وقلوبهم، ٤-جعل الغشاوة على أبصارهم كقوله(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) الشعراء/٢١٣، ٢-ورد في القرآن صفة (**الختم**)في حق طائفتين: الكفار كقوله(خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)البقرة/٧، ومن عبد هواه في هذه الآية، في غرر الحكم (**الهوى أساس المحن**)، ٣-**سبب النزول:** عن ابن عباس: كان الرجل من العرب يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه أخذه وألقى الآخر، فأنزل الله الآية. الميزان١٨/١٨١، ٤-تحذّر الآية الكريمة من الاسترسال مع الذنوب، فإنها تأتي بالهموم.

٢٤-﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾

من صفات الذين يتخذون إلههم هواهم، أنهم يحبّون الحياة الدنيا ويتعلقون بها، عن النبي (ص) (**حبّ الدنيا رأس كل خطيئة**)روح البيان٦/٤٣٧، ويتعاونون على الإثم والعدوان، وينكرون المعاد ولا يؤمنون بلقاء الله يوم القيامة، ولكنهم يغفلون أنهم آمنوا بالحياة الدنيا المادية الحسيّة المحدودة، وهي دنيا الحياة، حياة مؤقتة مليئة بالأحزان ، وأنكروا الحياة الآخرة، وهي عليا الحياة وأسماها، حياة دائمية مليئة بالسعادة لمن آمن بها واستعدّ لها، والذي يتعلّق بأدنى الحياة هو أدنى إنسان، وأدنى تفكير، وأدنى نفسية، وأدنى عمل، وأدنى مصير، إنهم لم يعملوا عملاً يشرّفهم يوم القيامة، فأنكروا الحقيقة وعاشوا الخيال! وهكذا الذي لا يعرف كيف ينتهي، لا يعرف كيف يبدأ، **المعنى:** (**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا**) **وقالوا الماديّون والدهريون:** ما الحياة إلاّ حياتنا الدنيا التي نحن فيها، نموت نحن ويحيا آخرون، وهكذا يحيي جيل ويموت جيل، فلا بعث ولا حساب، وهذه النظرة السطحية للحياة، النظرة الساذجة المادية الحسية المحدودة، النظرة التي لا تتجاوز المظاهر، ولا تبحث عما وراءها من أسرار، ألم يعلموا أن للإنسان عمراً محدوداً وَنَفَساً معدوداً وحياة مؤقتة مقدرة لا تزيد ولا تنقص، **في غرر الحكم**(**رحم الله أمرأً أخذ من حياة لموت، ومن فناء لبقاء، ومن ذاهب لدائم**)، عليهم أن يفكروا من أين جاءت إليهم الحياة؟! والبشر عاجز عن خلق خلية مجهرية حية واحدة، وعليهم

أن يفكروا ما هي فلسفة الموت الذي يذهب بالحياة؟ والموت حق لأنه صديق الحياة وهو أول عدل الآخرة، وهو ليس فناءً وإنما الموت نقلة فلسفية عميقة الدلالة من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، وهم لا يعودون إذا ماتوا إلى الحياة الدنيا مرة ثانية، عن النبي(ص)(**الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا**)روح البيان٢ /١٣٢(**نَمُوتُ وَنَحْيَا**)وقدم الموت على الحياة، ليلفت نظر الإنسان إلى أهمية الموت مع الحياة والتناسق الفني بينهما، لأن الموت ليس ضداً للحياة، وإنما صديقاً للحياة، وأن للموت نظاماً خاصاً كما للحياة نظاماً خاصاً، وهما كالليل والنهار بينهما تعدد أدوار ووحدة هدف، والذي يتعلّق بالحياة ويكره الموت فإنه يعيش أنصاف الحياة، وسطح الحياة كقوله(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)الملك/٢.

(**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ**)وما يُنهي حياتنا إلاّ تعاقب الزمان ومرور الأيام واستهلاك العمر ونهاية الأجل، ولا وجود ما يسمى بالبعث والحياة الأخرى، إنما ينسبون ذلك إلى الدهر لجهلهم، ولو علموا أن الذي يميتهم هو الله، وأنه قادر على إعادتهم أحياء بعد الموت والفناء، لما نسبوا الفعل إلى الدهر، **ومن تشاغل بالدهر شغله، نسأل هؤلاء: إذا كان الدهر يميتهم فهل الدهر يحييهم؟** (**وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ**)لا عِلمَ لهم بمقالتهم، ولا دليل لهم ولا برهان كقوله(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)البقرة/١١١، فهم أنكروا وجود الله واليوم الآخر(الحقيقة الكبرى)من غير حجة ولا بيّنة، ولا دليل من عقل ولا من نقل، ورضوا أن يكونوا في معاناة الضياع والضلال البعيد، **في نهج البلاغة كتاب٣١** (أمسك عن طريق إذا خفت ضلالته، فإن الكفّ عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال)(**إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**)يظنون ظناً واهياً سطحياً، لا يقوم على علم وتدبّر، ولا يستند إلى بحث ودراسة، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، كقوله(**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ**) النجم/٢٣، **في غرر الحكم** (ظن الإنسان ميزان عقله، وفعله أصدق شاهد على أصله) **فائدة:** ١-تشير الآية أنه لا قبول لأية دعوى أو شكوى بغير بينة ولا حجة كقوله(لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ) الأنفال/٤٢، عن الإمام علي(ع)(إنه ليس لهالك هلك من يعذره في تعمد ضلالة حسبها هُدى، ولا ترك حق حسبه ضلالة)البحار٥/٣٠٥، ٢-إنّ الدهريين يسبّون الدهر عن المصيبة، عن النبي(ص)(**لا تسبّوا الدهر، فإن الله هو (خالق)الدهر**)مجمع البيان٩ص٧٨ عن الإمام علي (ع) (الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك، فإن كان لك فلا تبطر، وإن كان عليك فلا تحزن فبكليهما ستختبر)البحار٧٨ ص٤٤، ٣- **عقيدة الوثنيين هي التناسخ: بمعنى**: إن النفوس إذا فارقت الأبدان تعلقت ببدن جديد تتنعم فيه وتسعد، وإن كانت اكتسبت الشقاء في بدنها السابق جزاء عملها القبيح، تعلقت ببدن لاحق تشقى فيه وتعذّب جزاء لعملها السيء

وهكذا، وهذا يخالف حقيقة القرآن، عن ابن عباس(ما خالف القرآن فهو من خطوات الشيطان) الدر المنثور ١/١٦٧.

٢٥-٢٦-﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ**)وإذا تقرأ عليهم آياتنا ذات الدلائل الواضحة على إمكانية الحشر والمثبتة للمعاد إلى يوم القيامة (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)المطففين/٦، والمخالفة لمعتقداتهم (**مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ**) ما كان لهم دليل على نفي المعاد، سُمّي قولهم الباهت حجة على سبيل التهكم ، (**إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**)لماذا يأتي الله بآبائهم قبل الموعد الذي قدره سبحانه؟ يا عجباً، أليس الله تعالى وحده ينشئ الحياة أمام أعينهم في كل مخلوق وفق سنة إنشاء الحياة؟ وهو الذي يميت، وبيده البداية وإليه تعود النهاية(**ائْتُوا بِآبَائِنَا**)حتى لو أحياهم الله وأخرجهم من قبورهم أمامهم فلن يؤمنوا!! كما حصل لعيسى(ع)في إحيائه للموتى كقوله (**وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ**)آل عمران/٤٩، وكم من معجزة في إحياء الموتى جعلها الله لعيسى أمام الناس فلم يؤمنوا، والذي لا يؤمن لا ينفعه ألف دليل ودليل، والذي يؤمن فبدليل واحد قطعي يكفيه ويؤمن به، ويستغني عن غيره، وهكذا تجربة الأنبياء (ع)موسى فلق الله له البحر لبني إسرائيل، وخلّصهم من ظلم فرعون، ولكن عندما رأوا أناساً يعبدون الأصنام(**قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**) الأعراف/١٣٨، النظام الوضعي فيه القصاص والتكريم، والثواب والعقاب على أعمال الناس في الدنيا، وأن الله تعالى لا يترك الذين ظلموا واعتدوا على الناس، وهربوا بجرائمهم من عقاب كقوله (**أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا**)البقرة/١٤٨،

٢٦- (قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ)

من العدم الأول في دار الدنيا، ولا يقدر أحد على الإحياء غيره عز وجل، المعجزة التي يريدون أن يشهدوها في آبائهم تقع أمام أعينهم بعينها وذاتها! أي الله تعالى هو الذي يحيي، ومن قدر على البدء قدر على الإعادة للجزاء الأكيد. (**ثُمَّ يُمِيتُكُمْ**)بعد انقضاء آجالكم(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً)آل عمران/١٤٥ (**ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ**)ثم يرجعكم أحياء بعد موتكم وفنائكم للجزاء يوم القيامة، وهذا وعد صادق غير مكذوب، ولا شك فيه(كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا)المزمل/١٨، **إحياء العظام وهي رميم أهون وأيسر عقلاً من إيجادها من لا شيء**، فالخلق والحياة والموت والبعث والنشور كلها من آيات الله وقدرته، فلماذا تؤمنون ببعض وتكفرون ببعض؟! (**وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**)قدرة الله، فينكرون البعث بسبب جهلهم وقلة تفكيرهم وقصور نظرهم(**لَا يَعْلَمُونَ**)فلسفة الحياة، فهم لا يعلمون لماذا يعيشون؟ ولماذا يموتون؟ ولماذا يبعثون؟ والذي لا يعرف لماذا يموت، فهو لا يعرف لماذا يعيش؟

والذي يحبّ الحياة ويكره الموت، فإنه يعيش أنصاف الحياة، لأن الموت والحياة صديقان، فلا يمكن أن أحبّ أحدهما وأكره الآخر! لأن بينهما تعدد أدوار ووحدة هدف، وهكذا الذي لا يعرف كيف ينتهي، لا يعرف كيف يبدأ، **ومن الرشاد الاستعداد ليوم المعاد**، كقوله(**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**) الانشقاق/٦، في غرر الحكم(خيرُ العلم ما أصلحت به رشادك، وشرّه ما أفسدت به معادك) **فائدة**: ١-**المعاد إلى يوم القيامة**: أمر ممكن، أخبر به كل الأنبياء، والحكمة والمصلحة والعدالة تقتضي حصوله، والعقل يؤيده، فهو أصدق الحقائق، ومن أقوى البديهيات، ويثبته الدليل، وينطق به الواقع، ويصدقه العلم الحديث، وتؤيده النصوص الكثيرة في القرآن والسنة، ولا تنكره الحجج والبراهين كقوله (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا، وَنَرَاهُ قَرِيبًا)المعارج/٦-٧، في غرر الحكم(**للمتّقي**: هدىً في رشاد، وتحرّج عن فساد، وحرص في إصلاح المعاد)، ٢-(**قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا**) **يقولون**: إذا كانت حياة بعد الموت حقاً، فأحيوا آباءنا إن كنتم صادقين، **ونجيب هؤلاء**: إنكم تدركون أن هناك عالماً وراء الحس أكبر وأعظم وأبقى من عالم المادة، ويعمل ضمن نظام عالم الغيب، كعالم المغناطيس وعالم الجاذبية وعالم الكهرباء وعالم الأمواج الصوتية والمرئية، وعالم السلكي واللاسلكي، وعالم الروح والعالم المعنوي الكبير.. وهكذا، ولكن لا يدركون أن هناك عالماً آخراً غيبياً حقيقياً متكاملاً يسمى يوم القيامة، يوم الجزاء، يوم الحساب.. فيعيشون التناقض! **أقول**: **لو إني كذبت بالموت لا أموت**؟ أو كذبت بوجود المرض لا أمرض ولا أعافى منه؟ فيكون التكذيب بالحقيقة مفتاح كل شر، ويكون الجهل والغفلة والألفة للمنكر تحجبه عن الحقيقة، وهو لا يدرك أن كل شيء مسجّل عليه بالصورة والصوت والنية كقوله (**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا**) الإسراء/٣٦.

وعدم(**الوجدان**) في نظرك لا يدل على عدم (**الوجود**)في الحقيقة. وعدم الإحساس بالشيء لا يدل على نكرانه، ونكران الحقيقة لا يقلل من قيمتها، ولا يلغي وجودها، وحجب الغيوم الكثيفة لشعاع الشمس لا يلغي وجودها، ولا ينكر حقيقتها وفوائدها، وتبقى الحقيقة هي ذات الحقيقة، تفرض نفسها على العقول والنفوس الواعية، وعلى الواقع العلمي، وإن أنكرها المنكرون، ويبقى يوم القيامة صمّام أمان، ومصدر إحصاء وجزاء وخير لتربية ضمير الفرد، ومدرسة تربوية نموذجية مميزة للمجتمع، حقاً إني لأستحي من الله أن يراني معرضاً عنه بارتكاب المنكرات، وهو مقبل عليّ بتيسير الخيرات! **(التعامل العلمي مع المعاد)** الإنسان العاقل لا يجزم بما هو فوق تصوّره وإدراكه نفياً ولا إثباتاً، بل يضعه في عالم الإمكان حتى يصدّقه أو يكذّبه الدليل القاطع والبرهان الساطع، ولا شيء أكثر من الشواهد على هذه الحقيقة، ومن كان يتصوّر أن الإنسان يصعد إلى المرّيخ، وهو الآن من الأشياء المألوفة، أما في

الزمن الماضي فهو ممكن عقلاً(بالقوة)ولكن غير ممكن في الواقع (**بالفعل**) فهو ممكن بالقوة وغير ممكن بالفعل، **إذن:** فالكثير مما هو فوق تصوّر الفرد، ولكن يمكن تصوّره ووجوده وإدراكه على مرور الأيام، ومن تلاقح الأفكار، والانفتاح على أصحاب العقول لمشاورتهم ومحاورتهم ومشاركتهم عقولهم وعلومهم وتجاربهم، وسوف تنجلي جميع الشكوك والظنون عند درجة اليقين، وعلى قدر الدين تكون قوة اليقين كقوله(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)السجدة/٢٤، **في نهج البلاغة خطبة١٥٧**(باليقين تدرك الغاية القصوى)

٢٧-٢٨- ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ، وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(**وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**)ولله ملك العوالم العلوية والسفلية، يحكم فيهما وما بينهما بما يشاء، ويتصرف فيهما كيفما يريد، ثم إعادة جميع الخلائق إليه يوم القيامة للجزاء كقوله(ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) النجم/٤١ (**وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ**)تقوم: من قيام، كأن الساعة كانت نائمة ساكنة ثم قامت بالأمر ونهضت بالمسؤولية، وسميت ساعة لسرعة الحساب فيها (**إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**)آل عمران/١٩٩، يحاسب كل عمل بمجرد وقوعه بلا مهلة، **فيه دلالة إلى أن الجزاء واقع من غير فصل ولا مهل، إلاّ أن ظرف ظهوره هو ذلك اليوم الحاسم الذي يعادل ساعة!** عن الإمام علي(ع)(فإذا حاسب واحداً فهو في تلك الحالة محاسبٌ للكل، يُتمّ حساب الكل بتمام حساب الواحد كقوله(**مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ**)لقمان/٢٨ وحين أبهم زمن الساعة، بيّن أنها قد تأتي في أية لحظة، فعلى الإنسان أن يستعد لها في كل لحظة، كما أبهم الله أجل الإنسان ليستعد له في كل لحظة، كقوله(وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) آل عمران/١٠٢، ولكن من رحمة الله أن جعل للساعة قيامة صغرى لكل فرد لينتبه الغافل، عن النبي(ص)(**إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته**)كنز العمال خبر٤٢٧٤٨، وقيامة كبرى لجميع الخلائق لا ينفع معها الندم، وأشد الندامة في يوم القيامة (**يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ**) الذين أعرضوا عن الحق، وعملوا على إبطاله وحاربوا أهله، وهنا يعجّل لهم النتيجة الخاسرة ليحذروا أن يقعوا فيها، فلن يحصلوا من كفرهم وفسادهم إلاّ الخزي والفشل في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة، فتكون كل أعمالهم هباءً منثوراً كقوله(وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا)الفرقان/٢٣، **في نهج البلاغة كتاب٣١(من الفساد إضاعة الزاد ومفسدة المعاد)**، ٢٨- (**وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً**)خطاب الآية عام لكل من تصح منه الرؤية، يعرض القرآن مشهداً غريباً من مشاهد يوم القيامة العصيب، ليكون الناس على حذر منه، إنه مشهد رهيب بهيئته

وبأسبابه ونتائجه، المشهد الذي كانوا يشكّون فيه، وجاء بتعبير بليغ مؤثر يكشف عن حقيقة.

(وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) باركة على الركب، وأطراف الأصابع، لا تحملهم أرجلهم من شدة الفزع والترقّب والرهبة والحيرة والحسرة، والخوف المزلزل للبدن، كما يجثوء الخصوم بين يدي الحاكم، بهيئة الذليل المنكسر الخاضع المستسلم، فإن المؤمنين في هذا الجو في أمان الله وحفظه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون كقوله **(لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ)**الأنبياء/١٠٣، وكلهم بانتظار الحساب الحاسم الذي يقرر مصيرهم الأخير، وفي ذلك دلالة على المعاد الجسماني**(وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً)** وترى يا مُحَّد كل أمة من الأمم المتنوعة في معتقداتها وألوانها وأجناسها وأزمانها، تراها مجتمعة مع بعضها، كل أمة لها خصائصها لا تختلط بأمة أخرى، ومتميزة عنها، وهم في حالة قلق من الحساب والجزاء وكلمة الفصل الرهيبة المهيبة كقوله(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ)الإسراء/٧١، وقوله (وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ)الزمر/٦٩**(كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا)** تدعى إلى كتاب أعمالها الخاص بها لتحاسب عليه، ويكون حجة عليها فهو على ضوء شريعتها كقوله **(لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ)** الحج/٦٧، **الكتب ثلاثة:** ١-كتاب لكل البشر كقوله (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ)الكهف/٤٩، ٢-كتاب لكل أمة كما في هذه الآية، ٣-وكتاب خاص لكل إنسان كقوله(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)الإسراء/١٤ ثم يقال للجموع الجاثية المذهولة، ونفوسها القلقة المضطربة**(الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)**في هذا اليوم الرهيب المهيب تتجسد أعمالكم على صورتها الواقعية الحقيقية أمامكم لتبقى معكم بخيرها وشرها، ويكون حسابكم على ضوئها كقوله(وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) الجاثية/٢٢، عن النبي(ص)(إن عمل الإنسان يدفن معه في قبره، فإن كان العمل كريماً أكرم صاحبه، وإن كان لئيماً آلمه) روح البيان٧/٤٤٤.

٢٩-﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ)استعارة بلاغية فنية، وكناية تشبيهية بديعية لنطق كتاب الأعمال، يبيّنها النص بياناً كافياً شافياً حتى كأنه ينطق عليكم، النطق عمل اللسان، فإذا كان هناك شيء يؤدي معنى اللسان، فنطقه صفة حال لا صفة مقال **(لسان الحال أصدق من لسان المقال)**فنطق الكتاب نطق حال، فهو لتشخيصه لواقع النفس وصدقه معها، ولشدة إظهاره للحق، كأنه ينطق بالحق، ويشهد بالصدق على صاحبه، **المعنى: (هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ) (هَٰذَا كِتَابُنَا)**الذي هو صحيفة أعمالكم الواقعية، كتبته الحفظة بأمرنا **(يَنطِقُ عَلَيْكُم)** يشهد عليكم بالحق وبالصدق بما عملتم بلا زيادة ولا نقيصة، وكأن هناك جهاز

تصوير (كاميرة) خفية تصوّركم في جميع أحوالكم، ويحفظ على فلم مُجسّم عالي الدقة، من ثلاثة أبعاد بالصورة والصوت والنية! كأن كتاب كل أمة وكل إنسان، مكتوب بأمر الله، أضيف إلى نون العظمة (**كِتَابُنَا**)تفخيماً لشأنه وتهويلاً لأمره، عن النبي(ص)(مختصر)(إذا ذكر العبد ربه في قلبه، كتب الله له ذلك في صحيفته، فيقول الملائكة: ربنا عمل هذا العبد قد أحصيناه، أما هذا العمل فما نعرفه، فيقول الرب: إن عبدي قد ذكرني بقلبه فأثبته في صحيفته ثم ذكر الآية)

ونقرأ في دعاء كميل قوله(ع)(**والشاهد لما خفي عنهم**)تفسير النور٨/٤٦١(**إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُون**)إنا كنا نأمر الملائكة الحفظة بكتابة أعمالكم واستنساخها كلها، صغيرها وكبيرها من غير زيادة ولا نقصان، وإثباتها عليكم بدقة متناهية، مطابقة للواقع، ومطابقة في اللوح المحفوظ، مع الشهود والحجج عليها. **يقال استنسخ الشيء! أمر بكتابته وتدوينه من الأصل بصدق وأمانة**، واستنساخها طبق الأصل مباشرة من حركة الواقع، أي يكتب أعمال البشر كلهم بشكل فردي لكل شخص، وبشكل جماعي لكل أمة وتسجيلها بعدة أساليب، لإلقاء الحجة عليهم، فلا يضيع عمل، ولا تبخس حقوق كقوله(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ)يس/١٢، وقوله(مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) الكهف/٤٩ وقوله (**إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ**)الأنفطار/١٠-١١، وقوله (**مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**)ق/١٨، استعارة تصريحية ينطق كتابنا عليكم ويشهد على كل حال، والاستعارة بالكتاب هنا أبلغ من الحقيقة، لأن شهادة الكتاب وبيانه للواقع، والحافظ للأعمال أقوى من شهادة الإنسان بلسانه، لأن شهادة الكتاب بالحق يُعرض تارة على شكل كتابة، وتارة على شكل صورة وصوت ونية، وفي كل الأحوال والأشكال كقوله(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ)المجادلة/٦، عن الإمام الرضا(ع)(إن الله هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء) كقوله(**إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُون**) وقال لأهل النار(**وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ**) الأنعام/٢٨، وقال للملائكة(إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) البقرة/٣٠، فلم يزل علم الله سابقاً للأشياء قبل أن يخلقها)التوحيد ص١٣٦ **فائدة**: ١-**سؤال**: كيف أضاف الكتاب تارة إلى الأمة كقوله (كلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا)الآية/٢٨، وتارة أضاف الكتاب إلى الله تعالى(**هَٰذَا كِتَابُنَا**)؟ **الجواب**: أنه أضاف الكتاب إلى الأمة، لأن أعمالهم كلها مثبتة فيه على حقيقتها من أرض واقعها، ويحكي طبق الأصل عنها، وأما إضافة (**كِتَابُنَا**)إلى الله تعالى، لأن كل ما مكتوب في كل كتاب فهو بعلم الله، ومدوّن في حفظه ورعايته، وهو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه وكأنه كتابه.

٣٠-٣١-﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾

تنقسم الأمم المتنوعة المرهوبة المجتمعة الجاثية على الركب، إلى فريقين وحزبين حزب الله وحزب الشيطان كقوله(فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)الشورى/٧، **المعنى: (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ)**دائماً يقرن القرآن الإيمان بالعمل الصالح(النافع)باعتبار أحدهما ترجماناً للآخر، وباعتبار دين الله عبادات خالصة لله، وحسن معاملات وأخلاقاً مع الناس، عن النبي (ص)**(الإسلام حسن الخلق)**كنز العمال خبر٥٢١٥، فلا إيمان من دون عمل صالح، ولا عمل صالح من دون إيمان كقوله(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) البينة/٧، كما تقترن الرحمة الإلهية بالإيمان والعمل الصالح، عن الإمام الصادق(ع)(الإيمان عمل كله والقول بعض ذلك العمل، بفرض من الله بيّن في كتابه)البحار٦٩ ص٢٣ **(فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ)**أي يدخلهم الله في الجنة، وسميت الجنة رحمة مجازاً، لأن رحمة الله أوسع من الجنة (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)الأعراف/١٥٦، **وقدّم الرحمة على الجنة لأنهم في ظل رحمة الله**، في المكان اللائق بهم، المناسب معهم، في الظرف المناسب لإنزال رحمة الله عليهم، فكأن الله تعالى جعل رحمته حصناً حصيناً أميناً منيعاً، فأدخلهم فيه بلطفه بهم، فكانت رحمته تحيط بهم من كل جانب.

كقوله(**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**)الأنعام/٥٤، في غرر الحكم(بذكر الله تستنزل الرحمة)فهم عانوا في الدنيا من أنواع البلايا والمحن ولكنهم ثبتوا على الصدق، ولم ينحرفوا عن منهج الله المستقيم، لأن في الاستقامة السلامة والكرامة، بلا أية ندامة ولا ملامة، لذلك يُنهي النص القرآني أمرهم بسرعة وفي سهولة حساب، لينقلهم إلى عالم المكافآت والمفاجآت والمخبّآت! **(ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)** كقوله(مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) الأنعام/١٦، ٣١- **(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا)** فيكونوا أمام التأنيب الطويل والتشهير المخجل، ويقال لهم توبيخاً وتقريعاً**(أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ)**ألم تكن رسلي تتلوا عليكم وتبيّن لكم في الدنيا الحقيقة **(فَاسْتَكْبَرْتُمْ)**وتعاليتم عن الإيمان بها، وأعرضتم عن سماعها والتفكّر فيها مع علمكم بها **(وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)**مستغرقين في الإجرام والآثام، ومن كلمة الإجرام أنهم تجاوزوا الحدود والقيود، وخرجوا عن صفات الإنسانية السوّية، وارتكبوا أنواع الكبائر، وتجاوزوا جميع المحاذير لذلك قال تعالى (إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) السجدة/٢٢ وقوله(أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)البيّنة/٦، **في غرر الحكم**(المرء حيث يضع نفسه) فالبدايات الخاطئة تقودهم إلى النتائج الخاطئة.

٣٢-٣٣- ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ، وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

(وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)وإذا قيل إن البعث والنشور حق وصدق كقوله(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) النساء/٨٧ **(وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا)**والقيامة قادمة ومؤكدة**(قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ)**؟ قلتم متعالين عليها، مستنكرين لها، مستغربين منها: أي شيء هي؟ أحق أم باطل؟ حقيقة أم ادّعاء، أتتكلم بجد أم بهزل؟ وهذا ناتج عن الكبر والغرور والعناد والتعصّب مع السخرية والاستهزاء **(إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا)**كقوله(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) يونس/٣٦، في غرر الحكم(ظن الرجل على قدر عقله)**(وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)**ما لدينا عليها من علم يرفع عنا الشك، وهذا تأكيد منهم لإنكارهم القيامة، علامة الكافر التشكيك، وعلامة المؤمن السؤال والبحث عن العلم للوصول إلى درجة حق اليقين. ٣٣-**(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا)** وظهرت لهم في الآخرة أعمالهم السيئة، مجسّدة على صورتها الحقيقية المنكرة، فعرفوا قبحها، وعاينوا بأنفسهم شناعتها**(وَحَاقَ بِهِم)** هذا التعبير لا يستعمل إلاّ في المكروه، أي ونزل بهم العذاب وأحاط بهم من كل جانب، جزاء تكذيبهم وسخريتهم في الدنيا **(مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)**من العذاب، **فائدة: الناس مع يوم القيامة أجناس ومستويات ودرجات،** فمنهم من ينكر، ومنهم من يشك، ومنهم من يظن ظناً دون أن يؤمن أو يوقن، والظن أن ترجّح الإيمان على الكفر، فهناك نسب وتناسب، أقدار ومقادير، أي هناك علم، ويقين وإيمان، وجهل وشك، وظن ووهم.

٣٤-٣٥- ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ، ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

المعنى: (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ)ففي ضمير الخطاب**(نَنسَاكُمْ)**استعارة بلاغية فنية، وكناية تشبيهية بديعية عن الإعراض والإهمال لهم، وعدم المبالاة بهم، لأن أعمالهم الباطلة الفاسدة هي التي أبعدت عنهم رحمة الله، فقد هزأتم بآيات الله، واليوم يُهزأ بكم، والجزاء من جنس العمل**(وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ)** وقيل لهم تغليظاً في العقوبة النفسية والجسدية، وإمعاناً في التهكم والسخرية بهم، إنهم يهملون ويتركون في العذاب الأليم، وفي شدائد الفزع الأكبر كما يترك الشيء المنسي المهمول الذي لا قيمة له ولا اعتبار **(نَنسَاكُمْ)** نترككم مهملين لا قيمة لكم، ونعاملكم معاملة الناسي كما نسيتم المواعظ والحِكم، وتركتم الزاد ليوم المعاد، والله لا ينسى، ولا يعرض عليه النسيان كقوله(لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى)طه/٥٢، وقوله(وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا)مريم/٦٤، وقوله(نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ)التوبة/٦٧، **يقول العرب:** قد نسينا فلان فلا نذكره ولا يذكرنا، أي أنه كالشيء المنسي المهمول غير المبالى به، **(كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا)** كما تركتم عدّته المناسبة، ولم

تستعدّوا إلى لقاء الله في هذا اليوم الحاسم، فنجعلكم في العذاب مهملين محل المنسي، كما جعلتم هذا اليوم عندكم محل المنسي (**وَمَأْوَاكُمُ النَّار**)هي مستقركم ومصيركم (**وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ**)من شافعين يدفعون عنكم عذابها، ولا من معين يعينكم، ولا من سبيل للنجاة، عن السيد المسيح(ع)(ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه)؟! ٣٥- (**ذَٰلِكُم**) العذاب الذي يحلّ بكم بسبب(**بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا**)إنكم أنكرتم كلام الله، وتعاليتم عليه ما سمعتموه، واتخذتموه هزواً، بل سخرتم بكل منهج الله وكرهتم من آمن به! (**وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**)وبسبب أنكم خدعتكم الحياة الدنيا بزخارفها وشهواتها، وتعلقتم بها وعملتم لها، فظننتم أن لا حياة سواها، ولم تتفكروا في عاقبة أمركم ويوم آخرتكم، والخاسر من غفل عن مصيره الأبدي كقوله(لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)ق/٢٢، **في نهج البلاغة خطبة١١٣**(ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تدركونه، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه)؟!

(**فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا**)من عذاب النار (**وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ**)ولا يطلب منهم العتبى، ولا يقبل منهم استرضاء ربهم بالاعتذار إليه والطاعة والتوبة فلا تنفع حينئذٍ، لأن **العتاب علامة الرضا**، وهم فعلوا كل موجبات غضب الله سبحانه، فلا يعتنى بهم! ،لأن الآخرة للحساب والجزاء، لا للعمل والاسترضاء، وانتهى زمن التكليف والامتحان مع ذهاب الدنيا، وحان وقت الجزاء، **لأن العتاب نوع من التكريم**، وهم لا يستحقونه بسبب استهزائهم بالحق، من دعاء النبي(ص)(لك العتبى حتى ترضى) أي لك عندي ما أزيل عتابك عليّ.

٣٦-٣٧-﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

(**فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ**)ينطلق صوت التحميد والتمجيد والتهليل والتسبيح، وينطلق الشكر التام والمدح والثناء الذي يليق بجلال الله عز وجل، ويتناسب مع مقامه وجماله وكماله جلّ جلاله، **حمداً كاملاً فوق حمد الحامدين**، والحمد المطلق لله على جميع أقواله وأفعاله، مدبر السماوات والأرض، لا يستحق الحمد أحد سواه، فهو خالق الوجود والمسبغ للنعم والواهب للحياة، و(**الحمد لله**) خاصة على إيجادنا من العدم، وأعاننا بالرسل والرسالات، فحفظ لنا كرامتنا وعزتنا (**الحمد لله**) **الذي علمنا الحمد والشكر**، عن النبي(ص) (سبحانك لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)**عن الإمام علي**(ع) (الحمد لله أحق من خُشي وحُمّد، وأفضل من اتّقي وعُبد، وأولى من عُظّم ومجّد، نحمده لعظيم غنائه وجزيل عطائه وتظاهر نعمائه وحسن بلائه) البحار٣٥٣/٧٧ (**رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**)مدبر شؤون جميع العوالم، ذي الجلال والإكرام(**الحمد لله**) على ربوبيته لسائر المخلوقات، فهو الخالق والمربي والرازق والحافظ والمنعم على المخلوقات في السماوات ومن فيهن، وفي الأرض ومن عليهن، بالنعم الظاهرة والباطنة، والنعم المادية والمعنوية، وتكرير

(الرب)للتأكيد بأن ربوبية الله تعالى وحده لكل المخلوقات، في كل زمان ومكان، والتدبير لها والراحم بها، بطريق الأصالة والإبداع والشمول، ليبطل الاعتقاد بالآلهة المتعددة المصطنعة المشبوهة عند المشركين، بالشرك الخفي أو الشرك الجلي، وهذا دليل على التوحيد، الذي فيه حياة النفس، فاحمدوه لأنه، ٣٧- **(وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ)** وله العظمة والقدرة والكمال والجمال والجلال، وله السلطان والملك والجبروت في الملكوت الأعلى، والأرضين السفلى، التي ظهرت فيها آثار قدرته وعظمته، والبقاء له إلى أبد الآبدين**(وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ)**له وحده لا شريك له، لا يحق لأحد أن يضيفها إلى نفسه، والإنسان لا يتكبر إلاّ إذا حجب نفسه عن الله، فهو ينازع الله كبرياءه كقوله(قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا)الأعراف/١٣، **في غرر الحكم (إحذر الكبر، فإنه رأس الطغيان ومعصية الرحمان)**فاحمدوه سبحانه لأنه يستحق وحده الحمد، وكَبّروه لأن له الكبرياء، وأطيعوه لأنه غالب على كل شيء.

عن الإمام الهادي(ع)(من أطاع الخالق لم يبالِ بسخط المخلوق) البحار٧٨/٣٦٦، **في غرر الحكم (أكرم نفسك ما أعانتك على طاعة الله)(فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)**تتصاغر عظمة كل المخلوقات بجانب عظمته عز وجل وينحني كل جبار عنيد، ويستسلم كل متمرد، مع كبرياء الربوبية، وكبرياء المقام والعزة القادرة والحكمة المدبرة، **(وَهُوَ الْعَزِيزُ)**وهو الغالب غير المغلوب، فيما يريد من خلق وتدبير في الدنيا والآخرة، **(الْحَكِيمُ)**في صنعه وفعله وتدبيره وتقديره، وهو الباني خلقه وتدبيره على الحكمة والمصلحة والإتقان. **فائدة: وفي تقديم الحمد على الكبرياء،** إشارة قرآنية تربوية إلى أن الحامدين إذا حمدوه يجب أن يعرفوا أن الله تعالى أعلى وأكبر من أن يكون حمدهم له لائقاً بإنعامه ومقامه سبحانه، بل هو أكبر من حمد الحامدين، وأياديه المباركة أجلّ من شكر الشاكرين، **ومعنى: (الله أكبر) أي الله أكبر من أن يؤدّي حقّه بهذا القدر من الطاعة،** بل حقّه ومقامه أعلى وأكبر وأعظم من أن يقاس، وأكبر من أن تدركه العقول والحواس.

في الختام نقول: بدأت السورة المباركة بقوله **(مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)**الجاثية/٢، وختمت السورة بقوله **(وَهوُ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)** فيلتقي ختامها مع بدئها، وكل محتوى السورة شاهد على عزة الله سبحانه المترامية، وحكمته المتسامية، فلله الحمد والكبرياء والعزة والحكمة.. وآخر دعوانا **(أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)**يونس/١٠، تم بعون الله تعالى **(وَعيُ القُرآنِ الْمُيَسَّر)** لسورة الجاثية، بقدري لا بقدرها، بجهد متواصل، فلله الحمد والمنّة، وبالحمد تتم الصالحات، وتزداد البركات، وتدفع النقمات بتاريخ ٢٩/٨/ ٢٠٢١م الموافق ١/ محرم الحرام/ ١٤٤٣هـ، مع تصحيحها عدة مرات وتدقيقها في بغداد – الكاظمية، داعين الله تعالى أن يعيننا على تكملة بقية السّور القرآنية الكريمة، إن ربي سميع مجيب الدعاء.

بقلم الباحث: مكي قاسم البغدادي

الخاتمة

قال تعالى : ﴿**وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ**﴾ الأنعام/١١٥ .

تمّ المجلّد الرابع من (**وَعْيُ القُرآنِ الْمُيَسَّر**) بعونه تعالى وتوفيقه ويحتوي : من الجزء (٢١-٢٥) من القرآن الكريم، ويضم (١٤) سورة، من سورة السجدة (٣٢) إلى نهاية سورة الجاثية (٤٥) من القرآن الكريم، بعون الله وتوفيقه ، ونستعين بالله العمل على تكملة بقية أجزاء القرآن الكريم، فإني أكتبه بقدري لا بقدره ، وبمحتواي لا بمحتواه وبمنطلقات قوله تعالى ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾ التكوير/٢٧ ،وأنا أدعو الله أن يعصمني من الزلل، ويسددني في القول والعمل.

وتمّت كتابته بتاريخ ٢٠٢١/١٠/١م الموافق ١ ربيع الأول/ ١٤٤٣هـ،

في العراق / بغداد – مدينة الكاظمية

وآخر دعوانا ﴿**أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ يونس/١٠

بقلم الباحث مكي قاسم البغدادي

يُعنى بالدراسات القرآنية

مصادر البحث

١- القرآن الكريم.

٢- الشيخ مُحَمَّد عبده/ شرح نهج البلاغة للإمام علي (ع)/ دار التعارف بيروت وغيرها.

٣- ابن أبي الحديد المعتزلي/ شرح نهج البلاغة/ طباعة طهران، وطباعة بيروت.

٤- الإمام زين العابدين (ع)/ الصحيفة السجادية الكاملة (زبور آل مُحَمَّد) مؤسسة النعمان بيروت.

٥- الشيخ أبو علي الفضل الطبرسي/ مجمع البيان في تفسير القرآن/ دار مكتبة الحياة بيروت.

٦- السيد مُحَمَّد حسين الطباطبائي/ الميزان في تفسير القرآن/ مؤسسة الأعلمي بيروت ط٣ سنة ١٩٧٣م.

٧- الإمام الفخر الرازي/ التفسير الكبير/ دار إحياء التراث العربي بيروت ط٣.

٨- الشيخ ناصر مكارم الشيرازي/ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل/ مؤسسة البعثة بيروت ط١ سنة١٩٩٢م.

٩- مُحَمَّد جواد مغنية/ التفسير الكاشف/ دار العلم للملايين بيروت ط٣ سنة ١٩٨١م.

١٠- الشيخ محسن قراءتي/ تفسير النور/ دار المؤرخ العربي بيروت ط١ سنة ٢٠١٤م.

١١- السيد مُحَمَّد حسين فضل الله/ تفسير من وحي القرآن/ دار الملاك ط٢ سنة ١٩٩٨م بيروت.

١٢- السيد مُحَمَّد تقي المدرسي/ من هدى القرآن/ الناشر مكتب المدرسي ط١ سنة ١٤٠٧هـ

١٣- الأستاذ الشهيد سيد قطب/ في ظلال القرآن/ دار إحياء التراث العربي بيروت/ ٨مجلدات ط٧ سنة ١٩٧١.

١٤- الأستاذ أحمد مصطفى المراغي/ تفسير المراغي/ دار إحياء التراث العربي بيروت/ مكتبة مصطفى الحلبي بمصر، ط٣ سنة ١٩٦٢م.

١٥- الإمام إسماعيل حقي البروسوي/ تفسير روح البيان/ دار الفكر سورية، لبنان.

١٦- ابن كثير القرشي/ تفسير ابن كثير/ دار الأندلس بيروت ط١ سنة ١٩٦٦م.

١٧- مُحَمَّد بن جرير الطبري/ تفسير الطبري/ دار المعارف بمصر.

١٨- الآلوسي البغدادي/ روح المعاني في تفسير القرآن/ دار إحياء التراث العربي بيروت.

١٩- أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي/ تفسير الكشاف/ دار المعرفة بيروت.

٢٠- د. مصطفى فرج/ التفسير المختصر للقرآن الكريم/ دار الهادي بيروت ط٢ سنة ٢٠٠٧م.

٢١- مُحَمَّد السبزواري العزيزي النجفي/ إرشاد الأذهان إلى تفسير القرآن/ دار التعارف بيروت ط٣ سنة ٢٠١٤.

٢٢- مُحَمَّد جواد مغنية/ التفسير المبين/ دار الكتاب الإسلامي بيروت/ ط٢ سنة ١٩٨٣م.

٢٣- كمال مصطفى شاكر/ الميزان المختصر في التفسير/ ربط المعاني بروح العصر/ طباعة سورية.

٢٤- الشيخ أحمد مغنية/ خلاصة التفاسير في أوضح التعابير/ المكتبة الحديثة بيروت/ مقدمة الشهيد مُحَمَّد باقر الصدر.

٢٥- مُحَمَّد علي الصابوني/ صفوة التفاسير/ دار العلم العربي حلب/، دار النمير بدمشق ط١ ١٩٩٤م.

٢٦- أضواء على متشابهات القرآن/ الشيخ خليل ياسين/ بيروت سنة ١٩٦٩م

٢٧- مختصر خواطر مُحَمَّد متولي الشعراوي/ حول آيات القرآن الكريم/ دار المعارف بمصر ط٢، سنة ٢٠١٧ إعداد منى الهاشمي.

٢٨- عبد الكريم الخطيب/ التفسير القرآني للقرآن/ دار الفكر العربي بمصر سنة ١٩٧٠م.

٢٩- جمال الدين القمي الميرزا مُحَمَّد المشهدي/ تفسير كنز الدقائق/ تفسير روائي مؤسسة النشر الإسلامي إيران جماعة المدرسين بقم.

٣٠- العلامة جمعة العروسي الحويزي/ تفسير نور الثقلين/ مطبعة الحكمة – قم – إيران ط٢.

٣١- الفيض الكاشاني/ تفسير الصافي/ مؤسسة الأعلمي بيروت/ طباعة إيران.

٣٢- عبد الرحمان الدين السيوطي/ الدر المنثور في التفسير المأثور/ دار الفكر بيروت ط١ سنة ١٩٨٣م.

٣٣- مُحَمَّد باقر المجلسي/ بحار الأنوار الجامع لدرر الاخبار/ ط حديثة بيروت مؤسسة الوفاء.

٣٤- الراغب الاصفهاني/ معجم مفردات ألفاظ القرآن/ دار المعرفة بيروت/ تحقيق مُحَمَّد سيد كيلاني.

٣٥- علاء الدين علي الهندي/ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال/ مؤسسة الرسالة بيروت/ ومكتبة التراث الإسلامي في حلب.

٣٦- ميرزا حسين النوري الطبرسي/ مستدرك الوسائل/ طبعة إيران المكتبة الإسلامية/ والمكتبة العلمية النجف.

٣٧- أبو مُحَمَّد القوي المنذري/ الترغيب والترهيب/ دار إحياء التراث العربي بيروت.

٣٨- الحر العاملي/ تحقيق عبد الرحيم الشيرازي/ وسائل الشيعة/ دار إحياء التراث العربي بيروت.

٣٩- أبو جعفر الكليني الرازي/ الكافي/ صححه علي أكبر الغفاري/ دار التعارف بيروت ط٣.

٤٠- ابن عبد الواحد التميمي الآمدي/ غرر الحكم ودرر الكلم للإمام علي (ع)/ ط ايران/ دار الصفوة بيروت سنة ٢٠٠٩.

٤١- المحمدي الري شهري/ ميزان الحكمة/ جمع روائي/ مكتبة الاعلام الإسلامي حوزة قم إيران.

٤٢- مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي/ معجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ دار الأندلس بيروت.

٤٣- الحسن بن شعبة الحراني/ تحف العقول/ مؤسسة النشر الإسلامي إيران.

٤٤- الشيخ عباس القمي/ سفينة البحار/ ط إيران.

٤٥- الشيخ عباس القمي/ مفاتيح الجنان المعرّب/ دار إحياء التراث العربي بيروت.

٤٦- مُحَمَّد بن مرتضى الكاشاني/ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء/ مؤسسة الأعلمي بيروت ط٢ سنة ١٩٧٢م.

٤٧- الشيخ مُحَمَّد باقر المحمودي/ نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة، مطبعة النعمان النجف ط١ سنة ١٩٦٨.

٤٨- ابن عساكر/ تاريخ دمشق/ ترجمة ومكتبة الإمام الحسين (ع).

٤٩- السيد أبو القاسم الخوئي/ تفسير البيان/ مؤسسة الأعلمي بيروت ط٣/ سنة ١٩٧٤م.

٥٠- السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري (مواهب الرحمن في تفسير القرآن)/ منشورات دار التفسير/ إيران – قم ط٥ سنة ٢٠١٠م.

٥١- ما أملاه الإمام الصادق (ع) للمفضل/ توحيد المفضل/ دار إحياء التراث العربي بيروت.

٥٢- أبو علي الفضل الطبرسي/ الاحتجاج/ مطبعة النعمان النجف.

٥٣- عبد الله الأنصاري القرطبي/ الجامع لأحكام القرآن/ دار إحياء التراث العربي بيروت طبعة أوفسيت.

٥٤- أبو الفضل بن منظور الأفريقي المصري/ لسان العرب/ دار صادر بيروت.

٥٥- د. حيد علي نعمة و د. أحمد علي نعمة/ المعجم القرآني/ دراسة معجمية لأصول الفاظ القرآن الكريم (الجذر اللّغوي للمصطلح القرآني، ومعاني الكلمات) وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الجامعة العراقية سنة ٢٠١٣م، مطبعة السيماء، ط١ – بغداد – شارع المتنبي.

٥٦- الشيخ المفيد/ الأمالي/ جماعة المدرسين/ الحوزة العلمية بقم.

٥٧- صحيح مسلم/ شرح النووي/ إحياء التراث العربي بيروت ط٢.

٥٨- لبيب بيضون/ تصنيف نهج البلاغة/ دار أسامة كرم دمشق/ توزيع دار القلم بيروت.

٥٩- وغيرها من المصادر الأخرى التي لم أذكرها لقلة استعمالي لها.

وآخر دعوانا ﴿ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يونس/ ١٠

فهرس

محتويات

(وَعْيُ الْقُرْآنِ الْمُيَسَّر)

المجلّد الرابع

من سورة السجدة إلى نهاية سورة الجاثية

من جزء (٢١- ٢٥) من أجزاء القرآن الكريم

قال تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ إبراهيم/٢٧

الموضوع	الصفحة
السيرة الذاتية المختصرة للكتاب (هوية الكتاب)	٤

اسم السورة	اسمها الآخر	نزولها	رقمها وترتيبها	عدد آياتها	الجزء من القرآن وعدد الآيات	الصفحات من	الصفحات إلى
سورة السجدة	المنجية/ ألم التنزيل، المضاجع	مكية	٣٢	٣٠	الجزء ٢١	٧	٤٣
سورة الأحزاب		مدنية	٣٣	٧٣	الجزء ٢١	٤٤	١٣٩

اسم السورة	اسمها الآخر	نزولها	رقمها وترتيبها	عدد آياتها	الجزء من القرآن وعدد الآيات	الصفحات	
						من	إلى
سورة سبأ		مكية	٣٤	٥٤	الجزء ٢٢	١٣٩	٢٠٣
سورة فاطر	الملائكة	مكية	٣٥	٤٥	الجزء ٢٢	٢٠٣	٢٦٣
سورة يس	قلب القرآن، حبيب النجار، الرافعة، القاضية	مكية	٣٦	٨٣	الجزء ٢٢ – ٢٣	٢٦٤	٣٢٩
سورة الصافات	سورة الذبيح	مكية	٣٧	١٨٢	الجزء ٢٣	٣٣٠	٣٨١
سورة ص	سورة داوُد	مكية	٣٨	٨٨	الجزء ٢٣	٣٨١	٤٣٠
سورة الزمر	سورة الغُرَفْ	مكية	٣٩	٧٥	الجزء ٢٣– ٢٤	٤٣٠	٥٠١
سورة غافر	حم المؤمن، الطول	مكية	٤٠	٨٥	الجزء ٢٤	٥٠٢	٥٦٦
سورة فصلت	حم السجدة، سجدة المؤمن، المصابيح	مكية	٤١	٥٤	الجزء ٢٤– ٢٥	٥٦٦	٦٢٣
سورة الشورى	حم عسق	مكية	٤٢	٥٣	الجزء ٢٥	٦٢٣	٦٧٦
سورة الزخرف	حم الزخرف	مكية	٤٣	٨٩	الجزء ٢٥	٦٧٦	٧٢٢
سورة الدخان	حم الدخان	مكية	٤٤	٥٩	الجزء ٢٥	٧٢٣	٧٤٤
سورة الجاثية	حم الجاثية، الشريعة، الدهر	مكية	٤٥	٣٧	الجزء ٢٥	٧٤٤	٧٧٢

وآخر دعوانا ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يونس /١٠

فهرس

مباحث آيات

(وَعْيُ الْقُرْآنِ الْمُيَسَّر)

المجلّد الرابع

من سورة السجدة إلى نهاية سورة الجاثية

من جزء (٢١- ٢٥) من أجزاء القرآن الكريم

قال تعالى : ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران/١٣٨

	الموضــــــــوع		الصفحة
-	السيرة الذاتية المختصرة للكتاب (هوية الكتاب)		٤
	من مباحث آيات سورة السجدة/مكية/ترتيبها (٣٢) آياتها (٣٠) الجزء الحادي والعشرون من القرآن الكريم	**الآية**	**الصفحة**
-	قوله (أم يقولون افتراه...)كيف يفترى الكذب وهو الصادق الأمين	٣	٨
-	قوله (ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ) تحمل الآية معنى حركياً فخماً عميقاً	٥	١١-١٢
-	قوله (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) وكل شيء غارق بالجمال	٧	١٣
-	قوله (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ...) أكرم الله الإنسان	١٣	١٩-٢٠

	بالاختيار دون الاجبار		
-	قوله (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ...) نعمة قيام الليل	١٦	٢٣-٢٦
-	قوله (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا) من لا ينفعه الهدى تضره الضلالة	٢٢	٣٢-٣٤
-	قوله (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ...) بالصبر تدرك الرغائب	٢٤	٣٦-٣٨
	من مباحث آيات سورة الاحزاب/مدنية/ترتيبها (٣٣) آياتها (٧٣) الجزء الحادي والعشرون من القرآن الكريم	**الآية**	**الصفحة**
-	قوله (مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ...) ما خلق الله أحداً وفي جوفه اتجاهان متضادان	٤	٤٨-٥١
-	قوله (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ...) النبي (ص) له الولاية العامة على المؤمنين	٦	٥١-٥٤
-	قوله (هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ ...) اختبروا بالمكاره وبعدها بالمكارم	١١	٦٠-٦١
-	قوله (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ...) الأسوة: القدوة ضرورة حياتية	٢١	٦٨-٧١
-	قوله (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ...) هؤلاء لا تلهيهم الدنيا عن الله تعالى	٢٣	٧٣-٧٥
-	قوله (لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ...) إعداد أهل البيت (ع) لقيادة الأمة بعد الرسول (ص) ليكونوا أمناء على الرسالة.	٣٣	٨٥-٩٠
-	قوله (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ...)	٣٦	٩٤
-	قوله (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ...) صلاة مغفرة ورحمة	٤٣	١٠٣-١٠٤
-	قوله (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ...) معنى الصلاة على النبي(ص)	٥٦	١١٥-١١٩
-	قوله (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ...) آية وجوب الحجاب	٥٩	١٢٠-١٢٣
-	قوله (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ ...) معنى الأمانة	٧٢	١٣٢-١٣٧
	من مباحث آيات سورة سبأ/مكية/ترتيبها(٣٤) آياتها (٥٤) الجزء الثاني والعشرون	**الآية**	**الصفحة**
-	قوله (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ...) إذا	١٠	١٤٩-١٥٣

	أعطى أدهش		
-	قوله (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ ...) اعجاز خارق	١٢	١٥٣-١٥٥
-	قوله (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)أصول الحوار وقواعد النقاش	٢٤	١٦٩-١٧٢
-	قوله (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ...) رحمة للناس أجمعين	٢٨	١٧٣-١٧٦
	من مباحث آيات سورة فاطر/مكية/ترتيبها (٣٥) آياتها (٤٥) الجزء الثاني والعشرون	**الآية**	**الصفحة**
-	قوله (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ...) الذي يقدّر النعمة يشكر المنعم	٣	٢٠٦-٢٠٧
-	قوله (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ...) انقلاب المفاهيم	٨	٢١١-٢١٤
-	قوله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ...) الفارق بين القول والعمل	١٠	٢١٥-٢١٩
-	قوله (وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ...) كل الكائنات لها أعمار	١١	٢١٩-٢٢١
-	قوله (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ) سنة الاستبدال	١٦	٢٢٧-٢٢٨
-	قوله (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) الآية ظاهرها أنيق وباطنها عميق	١٩	٢٣٠-٢٣٣
-	قوله (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ...)العلماء ورثة الأنبياء	٢٨	٢٣٧-٢٤٠
-	قوله (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ...) اصطفاء العباد	٣٢	٢٤٥-٢٤٩
-	قوله (وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ...) يدبر المدبرون والقضاء يضحك	٤٣	٢٥٩-٢٦١
	من مباحث آيات سورة يس/مكية/ترتيبها (٣٦) آياتها (٨٣) الجزء الثاني والعشرون	**الآية**	**الصفحة**
-	قوله (عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) طريق حق وعدل وتقدّم	٤	٢٦٧-٢٦٨
-	قوله (وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ...) خشية الله في الخلوات	١١	٢٧١-٢٧٣
-	قوله (إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ...) تبحث الآية عن المنهج الحركي في القرآن	١٤	٢٧٥-٢٧٧
-	قوله (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ...) قصة حبيب النجار	٢٠	٢٨١-٢٨٢

-	قوله (سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ ...) (قانون الزوجية العام)	٣٦	٢٩٢-٢٩٣
-	قوله (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ...) يوم المفاجآة	٦٥	٣١٣-٣١٥
-	قوله (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ...) عمر القوة وعمر الضعف وأنها سنة الحياة	٦٨	٣١٦-٣١٨
-	قوله (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) في غرر الحكم (رحم الله امرأً عرف قدره، ولم يتعدّ طوره)	٧٧	٣٢٣-٣٢٤
-	قوله (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ارادته سبحانه بين الكاف والنون	٨٢	٣٢٨
	من مباحث آيات سورة الصافات/مكية/ترتيبها (٣٧) آياتها (١٨٢) الجزء الثالث والعشرون	**الآية**	**الصفحة**
-	قوله (وَرَبُّ الْمَشَارِقِ) مشارق كثيرة باختلاف الفصول والأوقات	٥	٣٣٢-٣٣٣
-	قوله (لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ) وصف جليل لخمر الجنة الجميل	٤٧	٣٤٣-٣٤٤
-	قوله (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)كقوله (وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) المطففين/٢٦	٦١	٣٤٦-٣٤٧
-	قوله (سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ) لا يوجد سلام عالمي إلاّ لنوح خاصة	٧٩	٣٥١-٣٥٢
-	قوله (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) القلب الخالي من حب الدنيا	٨٤	٣٥٣-٣٥٤
-	قوله (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) والله خلقكم والتي تعملون	٩٦	٣٥٦-٣٥٧
-	قوله (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ...) قصة اسماعيل الذبيح والحكمة منها	١٠٢	٣٥٨-٣٦٠
-	قوله (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ) مداخلات قصة يونس والحوت	١٣٩	٣٦٩-٣٧٠
-	قوله (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ...) حقيقة ثابتة، ووعد صادق	١٧١-١٧٣	٣٧٦-٣٧٨
	من مباحث آيات سورة ص/مكية/ترتيبها (٣٨) آياتها (٨٧)	**الآية**	**الصفحة**

	الجزء الثالث والعشرون		
-	قوله (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) من ضاق عليه التوحيد، فالشرك عليه أضيق.	٥	٣٨٥-٣٨٧
-	قوله (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ) تسبيح داوود (ع) وتسبيح الإمام زين العابدين (ع)	١٧	٣٩١-٣٩٣
-	قوله (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ...) التدبر: البحث في اعماق المعاني	٢٩	٤٠٢-٤٠٤
-	قوله (وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ...) انه يملك كل شيءولا يملكه شيء إلا الله مالك الملك	٣٥	٤٠٦-٤٠٧
-	قوله (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ ...) قصته ومعاناته ونجاته	٤١	٤٠٩-٤١٠
-	قوله (قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ، أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ) القرآن: دستور حياة، وسبيل نجاة	٦٧-٦٨	٤٢٠-٤٢١
	من مباحث آيات سورة الزمر/مكية/ترتيبها (٣٩) آياتها (٧٥) الجزء الثالث والعشرون	**الآية**	**الصفحة**
-	قوله (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ...) في الإخلاص يكون الخلاص	٣	٤٣١-٤٣٤
-	قوله (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...) وحدة النفس، مفهوم عالي المضامين في القرآن	٦	٤٣٥-٤٣٧
-	قوله (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) بالصبر الجميل تتهذب النفوس	١٠	٤٤٢-٤٤٣
-	قوله (وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ) تحث الآية على عنصر المبادرة	١٢	٤٤٣-٤٤٥
-	قوله (فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ...) انها بشارة القدرة على التمييز	١٧-١٨	٤٤٨-٤٥٠
-	قوله (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ...) انفتاح القلب لتلقي الحق	٢٢	٤٥٣-٤٥٥
-	قوله (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ...) مفهوم المتشابه والمثاني	٢٣	٤٥٥-٤٥٨
-	قوله (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ...) الأمثال تضرب للاعتبار	٢٧	٤٦٠-٤٦١

-	قوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ...) الكافل والحافظ	٣٦	٤٦٥-٤٦٦
-	قوله (فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا...) كما يزرع الإنسان يحصد ما زرع	٤١	٤٦٨-٤٧٠
-	قوله (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ...) رحمة الله تغلب غضبه	٥٣	٤٧٩-٤٨٢
-	قوله (أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ...) أشد الندامة في يوم القيامة	٥٦	٤٨٤-٤٨٥
	من مباحث آيات سورة غافر/مكية/ترتيبها (٤٠) آياتها (٨٥) الجزء الرابع والعشرون	**الآية**	**الصفحة**
-	قوله (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ...) إنها في أسماء الله الحسنى	٣	٥٠٣-٥٠٥
-	قوله (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا ...) ورحمة ربك خير مما يجمعون	٧	٥٠٧-٥٠٩
-	قوله (قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ...) إنها خارطة الطريق العامة للانسان	١١	٥١٠-٥١١
-	قوله (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ...) يلقي الإلهام والتسديد على قلب من يشاء من عباده	١٥	٥١٤-٥١٥
-	قوله (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ...) العين الخائنة: تخون مشاعر العفاف والوفاء	١٩	٥١٨-٥١٩
-	قوله (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ...) التقية: سلاح المؤمن	٢٨	٥٢٤-٥٢٥
-	قوله (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ) من كان مع الله، كان الله معه	٤٥	٥٣٤-٥٣٦
-	قوله (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) دراسة مهمة لمفهوم النصر	٥١	٥٣٨-٥٤٠
-	قوله (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ...) المكابرون في الجدال العقيم السقيم	٥٦	٥٤٣-٥٤٤

-	قوله (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ...) الدعاء: صلة العبد بربه، ووسيلة مباركة لقربه ورضاه	٦٠	٥٤٨-٥٤٩
-	قوله (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ...) عرفوا شيئاً وغابت عنهم أشياء كثيرة	٨٣	٥٦٣-٥٦٥
	من مباحث آيات سورة فصلت/مكية/ترتيبها (٤١) آياتها (٥٤) الجزء الرابع والعشرون	**الآية**	**الصفحة**
-	قوله (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ...) التفصيل: التركيز على المقاصد المهمة	٣	٥٦٨-٥٧٠
-	قوله (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى...) (الذي لا ينفعه الهدى تضره الضلالة)	١٧	٥٨٣-٥٨٤
-	قوله (حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ ...) إنها المفاجآة المذهلة	٢٠	٥٨٤-٥٨٦
-	قوله (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ...) مخاطر أصدقاء السوء	٢٥	٥٩٠-٥٩٢
-	قوله (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ...) الاستقامة فيها الكرامة والسّلامة بلا أية ندامة ولا ملامة	٣٠	٥٩٥-٥٩٦
-	قوله (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ) إنه المنهج التربوي في القرآن	٣٣	٥٩٨-٥٩٩
-	قوله (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ...) والذي يدفع بالأحسن هو الأحسن	٣٤	٥٩٩-٦٠٢
-	قوله (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ...) تُحذّر الآية من الالحاد وأنواعه ومخاطره	٤٠	٦٠٦-٦٠٨
-	قوله (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ...) إنه كتاب محفوظ	٤١-٤٢	٦٠٩-٦١٠
-	قوله (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ...) إنها مائدة علمية مفتوحة غنية وعامة	٥٣	٦٢٠-٦٢١
	من مباحث آيات سورة الشورى/مكية/ترتيبها (٤٢) آياتها (٥٣) الجزء الخامس والعشرون	**الآية**	**الصفحة**

-	قوله (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ...) إنه فرض مناف للتكليف والاختيار	٨	٦٢٨-٦٢٩
-	قوله (وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ...) منهج الله المرجع الكفوء الذي يحلّ كل خلاف	١٠	٦٣٠-٦٣١
-	قوله (جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ...) وحدة النفس بين الزوجين، لها دلالة فلسفية دقيقة	١١	٦٣١-٦٣٢
-	قوله (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ...) دين الله واحد موحّد متّحد	١٣	٦٣٣-٦٣٦
-	قوله (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ...) هو الدين الموزون بالقرآن والعترة	١٧	٦٤٠-٦٤٢
-	قوله (اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ...) اللطيف من أوصاف وأسماء الله الحسنى	١٩	٦٤٣-٦٤٤
-	قوله (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) ضرورة تحديد الإمامة والقيادة	٢٣	٦٤٨-٦٥٠
-	قوله (وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ...)الثراء والترف والغنى يعمي ويصم	٢٧	٦٥٢-٦٥٤
-	قوله (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ...) المرء حيث يضع نفسه	٣٠	٦٥٥-٦٥٨
-	قوله (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ...) لا اجتهاد مقابل النص، من شاور الرجال شاركها عقولها	٣٨	٦٦٢-٦٦٤
-	قوله (وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ) يدافعون عن أنفسهم، وينصر بعضهم بعضاً	٣٩	٦٦٤-٦٦٥
-	قوله (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا ...) كقوله (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) القصص/٦٨	٤٩-٥٠	٦٧١-٦٧٢
-	قوله (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ...) ثلاثة طرق للوحي	٥١	٦٧٣-٦٧٤
	من مباحث آيات سورة الزخرف/مكية/ترتيبها (٤٣) آياتها (٨٩) الجزء الخامس والعشرون	**الآية**	**الصفحة**
-	قوله (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) هدف اللغة وسيلة لتوصيل المعنى	٣	٦٧٧-٦٧٨

-	قوله (وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ) مطيقين، تقرأ في السفر	١٣	٦٨٣-٦٨٤
-	قوله (أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) بمقدار التولّع بالحلية تكون غير صالحة للخصام!	١٨	٦٨٥-٦٨٦
-	قوله (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ) كلمة التوحيد: أساس الدين، وحياة النفس	٢٨	٦٩١-٦٩٢
-	قوله (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (قيمة كل امرئ ما يحسنه) وليس ما يملكه	٣١	٦٩٣
-	قوله (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ...) يتفاوت الرزق كما يتفاوت الجمال	٣٢	٦٩٣-٦٩٥
-	قوله (لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ ...) يرتبط الإنسان بالأمور الحسّية أكثر مما يرتبط بالأمور المعنوية	٣٣	٦٩٥-٦٩٧
-	قوله (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) من لا ينفعه الرحمن يضره الشيطان	٣٦	٦٩٧-٦٩٩
-	قوله (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ) الأنبياء كلهم فصحاء	٥٢	٧٠٤-٧٠٥
-	قوله(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)لا يجوز للإنسان ان يذل نفسه	٥٤	٧٠٥-٧٠٧
	من مباحث آيات سورة الدخان/مكية/ترتيبها (٤٤) آياتها (٥٩) الجزء الخامس والعشرون	**الآية**	**الصفحة**
-	قوله (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ...) هي ليلة نزول القرآن في ليلة القدر	٣-٤	٧٢٣-٧٢٥
-	قوله (وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ) إنه تفضيل نعمة لا تفضيل قيمة	٣٢	٧٣٣-٧٣٥
-	قوله (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) يسّرناه: كلمة عميقة الدلالة	٥٨	٧٤٣
	من مباحث آيات سورة الجاثية/مكية/ترتيبها (٤٥) آياتها (٣٧) الجزء الخامس والعشرون	**الآية**	**الصفحة**
-	قوله (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ...)(من عرف نفسه فقد	٣-٤	٧٤٥-٧٤٦

	عرف ربه)		
-	قوله (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) كقوله (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ) المدثر/٣٨	١٥	٧٥٢-٧٥٣
-	قوله (وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) بسبب عقدة نفسية سببها نوازع البغي والعداوة والبغضاء	١٧	٧٥٤-٧٥٥
-	قوله (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ...) البصيرة: قوة معنوية تكشف العجائب	٢٠	٧٥٦-٧٥٧
-	قوله (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا ...) لا يستويان أبداً في أغلب الأشياء	٢١	٧٥٧-٧٥٨
-	قوله (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ...) الهوى: أبغض إله عند الله يعبده الناس	٢٣	٧٥٨-٧٦٢
-	قوله (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ...) باركة على الركب وأطراف الأصابع!	٢٨	٧٦٦-٧٦٧
-	قوله (هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) نطقه صفة حال لا صفة مقال (ولسان الحال أصدق من لسان المقال)	٢٩	٧٦٧-٧٦٨

وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠

السيرة الذاتية (المختصرة) للباحث مكي قاسم البغدادي

مواليد: ١٩٥٥ بغداد

الجنسية : عراقي

هاجر إلى خارج العراق في ظروف إرهابية سنة ١٩٨٠م

التحصيل العلمي: خريج معهد الإدارة / الرصافة/ قسم المحاسبة/ بغداد سنة ١٩٧٨

درس في جامعة الاوزاعي في بيروت/ الدراسات الإسلامية سنة ١٩٨٧.

الاختصاص: يُعنى بالدراسات القرآنية.

مؤلفاته

١- **موسوعة الثقافة الاستشهادية** (الشهادة تأصيل لاستئصال) دراسة موضوعية معاصرة للنظرية الاستشهادية في المنظور الإسلامي، تتألف من أربعة مجلّدات فنيّة مطبوعة، عدد صفحاتها (٢٢٠٠) صفحة، طبعت سنة ١٩٩٣م، الدار الإسلامية بيروت.

٢- **أهداف القرآن في أم الكتاب**/ دراسة سورة الحمد، تحتوي على جزأين في مجلد فني واحد، مطبوع في سنة ٢٠٠٨م، في سوريا، دمشق تضم ٨٥٠ صفحة، طروحات قرآنية تحليلية معاصرة، الدراسة الحيوية للقرآن، (سورة الحمد ميزان: فمن وَفّى، استوفى).

٣- **دراسة سورة العصر**، سبل النجاة من الخسران، طروحات قرآنية تحليلية معاصرة، تضم ٢٤٠ صفحة، طبعت سنة ٢٠٠٨م، دار ضحى للطباعة والنشر في سوريا، دمشق.

٤- **السكن الزوجي المتكافئ**، في المنظور القرآني الفريد، طروحات قرآنية تحليلية معاصرة، الدراسة الحيوية للقرآن، يبحث عن فلسفة السكن الزوجي، القاعدة الأساسية في الحياة الزوجية.

٥- **وَعْيُ القُرآنِ المُيَسَّر**، الفهم الحيوي للقرآن، وهو دراسة معاصرة واعية لفهم النص القرآني بصورة مُيَسَّرة ومؤثرة، محركة للمشاعر، على قاعدة خير الكلام ما قلَّ ودلَّ ولا يملّ، ولا يبتعد عن القصد، ويعتمد المنهج العالمي للقرآن (إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) ويعتمد الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، طبع في دار بساتين المعرفة في بغداد، شارع المتنبي، يضم أربعة مجلّدات فنية، سنة الطبع ٢٠١٩ ط الأولى.

٦- **منهج الوصية الشخصية الهادفة**، من نظام التكافل في الإسلام.

٧- **القِوَامَةُ جَدَليّة بين زوجين** لقوله تعالى (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) النساء/٣٤، دراسة قرآنية تحليلية معاصرة، مفهوم إدارة الأسرة بصورة عادلة وكفوءة ومتألّقة، على قاعدة (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) النساء/١٩.

٨- ساهمت في كتابة بحوث قرآنية ومقالات تربوية في عدة صحف ومجلات متنوعة.

٩- شاركت في عدة مؤتمرات عالمية ومحلّية، ومهرجانات وجمعيات ومنتديات ثقافية، وندوات إسلامية حوارية.

١٠- المنهج العالمي للقرآن، يتناسب معه الخطاب العالمي، ألقي البحث في مؤتمر جامعة الكوفة سنة ٢٠١٣، ونُشِرَ في كتاب المؤتمر (القرآن وقضايا العصر).

١١- الإمام الكاظم (ع) ونظام الأولويات، أُلقي البحث في مؤتمر الإمامين الكاظم والجواد (ع) السنوي الثاني سنة ٢٠١١، ونُشِرَ في كتاب المؤتمر.

١٢- حدود الرخصة الشرعية في تعاون المستضعفين مع الحكومة المستكبرة، بين قواعد الحكم القرآني والسيرة الحركية للإمام الكاظم (ع)، أُلقي البحث في المؤتمر الثالث الدولي، الإمام الكاظم (ع) مصدر عطاء خالد للإنسانية سنة ٢٠١٢، ونُشِرَ في كتاب المؤتمر.

١٣- إشكالية الهداية بين القول والعمل، أُلقي البحث في مؤتمر العودة إلى القرآن، في سوريا- دمشق سنة ٢٠١٤، ونُشِرَ في مجلة البصائر الثقافية.

١٤- إسلوب البحث يَتَقَدَّم على مادة البحث، أُلقي البحث في مؤتمر الوحدة الإسلامية في إيران، طهران سنة ١٩٩٣، نشر في مجلة الثقلين.

١٥- أعمل معدّ برامج في إذاعة الخالدون

- البرامج الثابتة ثلاثة:

١- برنامج في الشهادة حياة

٢- برنامج أنواع النفس في القرآن الكريم

٣- برنامج (لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)

- وبرامج مختارة غير ثابتة حسب المناسبات في الإذاعات والقنوات الفضائية...

وآخر دعوانا (أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) يونس/١٠

قال تعالى

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ
فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا
وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ يونس/١٠٨

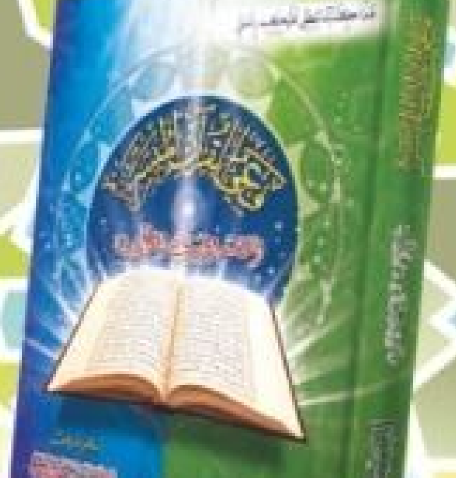

عن رسول الإنسانية محمد ﷺ

(إنَّ هذا القُرآنَ مأدُبةُ اللهِ، فتعلّموا مِنْ مأدُبتِهِ ما استطعتُم)

في هذا الكتاب

الحمد لله الذي أنزل القرآن بالحق

(وبِالحَقِّ أنزَلْنَاهُ وبِالحَقِّ نَزَلَ وما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً) [الإسراء ١٠٥]

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ) [النحل ٨٩] وجعله شفاءً لما في الصّدور

وهدىً ورحمةً للمؤمنين ، ومنهاجاً صالحاً نموذجيّاً للعالمين ودستوراً هادياً للبشريّة أجمعين

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ) [المائدة ١٦]

الهداية : أرقى درجات العلوم ، وأحسن نعمة لأستقرار النفوس ، وبها يحسن الاستبصار ، والقرآن كتاب هداية للنّاس أجمعين (هُدًى لِلنَّاسِ) [البقرة ١٨٥] ، وكتاب هداية خاصّة للنخبة (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) [البقرة ٢] (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) [التكوير ٢٧] فإذا كان ربّنا هو ربّ العالمين ، ونبيّنا رحمةً للعالمين ، وقرآننا منهجٌ للعالمين ، فصار المرسل والرّسول والرسالة كلّها عالميّة ، والقرآن قد اعتمد المنهج العالميّ ليصبح دستوراً للناس أجمعين ، فلماذا نعيش نحن المذهبية المحدودة ؟.

الفهم الحيوي للقرآن الكريم : هو أسلوب الحياة ويبعث على الحياة ، وبذلك يتحبب التفسير في النفوس . (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) [القمر ٢٢] الحاجة الحضاريّة لتفسير معاصر مُيسّر للقرآن الكريم . فإذا كان القرآن نصاً مُيسّراً لكل النّاس . فالمطلوب والمرغوب أن يكون تفسيره مُيسّراً أيضاً لكل الناس ، مُيسّراً في معناه عميقاً في مغزاه دقيقاً في دلالاته فهل من مُتذكر؟ هذا تفسيرٌ ذو موضوعية واعتدال مستوعب للمعنى القرآني المهم ، سهل الفهم ذو حيويّة فكريّة محرّكة للمشاعر بعيداً عن الغموض والتطرّف ، يعتمد الدلالة العقليّة الواعية والنقليّة الواقعيّة ، التي تتوافق مع منهج القرآن .

هذا التفسير يُبشّر ولا يُنفّر يُوحّد ولا يُفرق يُحبّب ولا يُكره فيحقق وحدة الدّين القيم ، وإخلاص القلوب إلى الله (أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) [الزمر ٣]

هذا هو المنهج القرآني الوسطي المعتدل الذي يتناغم مع الروح وينسجم مع العقل من حيث النهضة العلمية والحضارية والقرآنية (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) [البقرة ١٤٣]

يعتمد التفسير ذكر

الإشارات العلميّة والفوائد النافعة في محلّها المناسب.

أخوكم مكي قاسم البغدادي

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٣١٠٩ لسنة ٢٠١٨

9 78-9922 20-734-6